

إسحاق ماشباش

حجر الرحى

رواية تاريخية

ترجمة

وليد تحقاخه

مايكوب 2017

بلغ عدد مجلدات المؤلفات الكاملة المتضمنة أعمال الكاتب الأديغي الكبير إسحاق ماشباش، المكرّم في جمهوريات الأديغيه، والقبرتاي - بالقر، وشركيسيا، والأديغة في أنحاء العالم، والحائز على جوائزها، وجوائز الاتحاد السوفييتي (السابق) وروسيا، ستة عشر مجلداً، من أشعار وقصائد وروايات ومنشورات أخرى. وهذه الرواية هي العمل الحادي عشر بينها.

باسم من دفعوا حياتهم في حرب القفقاس، وإلى كل الضحايا الذين سقطوا
فيها بلا ذنب أكتب الرواية.

ستمضي الأعوام، وستتغير الأوضاع، وستهدأ بلاد الشركس شيئاً فشيئاً. وإن أردنا رواية ما حدث فما من مكان لم يمارسوا فيه رجولتهم ولم يسفكوا دمهم. ويوماً ما سيروي الكاتب الأحداث، وسيستمع إلى الحكايات، وسيروي تاريخ هذه الحرب كما جرت دون حاجة إلى تزيينات.

ك. ف. ستال

ضابط روسي ساهم في حرب القفقاس

العالم كبيرٌ حتى لَتَوَهُ فيه، وصغيرٌ حتى لَتَتَعَرَفُ نفسك فيه. أنهيت العمل في الرواية. ولا تزال بعض الأخطاء التي عليّ تصحيحها تضعني على طريق جديد. وربما لن أتجاوز تركيا المعاصرة، غير أن الخبر الذي اكتشفته فجأة في خلال عملي في مكتبة إستانبول قفز بعقلي إلى إنجلترا، إلى لندن البعيدة. وكما يقال من أن السائر في طريق لا بد أن يصل إلى مبتغاه فمبعوثا الأديغة اللذان سافرا إليها في القرن التاسع عشر، وتكلما على قضية بلادهما في برلمان بلادٍ لا يعرفانها ولا يعرفان لغتها ولا عاداتهما، قد اجتريا بطولة بالقياس إليّ في عصرنا هذا، فمن المعيب، لا أمام من يسمعك بل أمام كل من يصله الخبر، أن تتكاسل عن السفر بضع ساعات بالطائرة.

عبرت طائرة البوينغ سماء تركيا وتوجهت إلى لندن. وطاقم الطائرة لا يسمح لك بالملل أو الاكتئاب وإن لم يكن في الطائرة معارف لك: تسمع الأغاني من الأجهزة المتنوعة، وتعرض عليك أفلام ترفيهية، وتُخَيَّر بين المشروبات اللذيذة، وتُقدِّم إليك حلويات يدوية دقيقة، ويبشّون في وجهك بما يؤنسك.

يفعلون كل هذا من أجل تقصير طريقك، غير أن أفكاري لا تُماشى خدمات طاقم الطائرة. فحين تنتصب أمامك مجريات قرن الأديغة الماضي، القرن التاسع عشر، ولا يغيب قرئك الحالي بداهة، تجد كل ما يحضر أمامك مما يدعو إلى التأمل. يُثير السؤال سؤالاً: لماذا جرى للأديغة ما جرى من مأساة التهجير وما صاحبها من الشتات واغتصاب الأرض؟ ومن المسؤول؟ لماذا طُحن الأديغة بين حجرَي رحى القرن؟ ثم ليت الله لم يسمح لي أن أرى الفيلم المخصص للهنود الحمر! أشبه ما حدث لهم بما حدث للأديغة. ما آلم أن تكون شعباً صغيراً! ثم أن تكون أرضك جنةً هو الأشدُّ إيلاماً... فإن أضيف إلى هذا الاختلاف والفرقة بين أبناء الشعب الواحد فاعتبر نفسك خارج الحياة البشرية!.. بعدما طرنا قُرابة الساعة والنصف أخبرنا صوتٌ نسائي حبيبٌ خيراً غير حبيب: أعذرونا إذ وجب علينا الهبوط في باريس لأن الضباب الكثيف يغطي سماء إنجلترا...

أحزني كسائر رفاقي في الطائرة ما سمعتُ. وقلتُ لنفسي: كفى الأديغة الضباب الأزلي الذي يعيشون فيه! هل كان ينقصني أن يُضاف ضباب لندن إلى ما أنا فيه؟!¹

وجب علينا أن نقضي بضع ساعات في مطار أورلي. فرحت إذ أخبرونا أنهم سيُطلعوننا على بعض معالم باريس المهمة.

والحق أني لم أكن راغباً في زيارة المتحف الأنثروبولوجي¹ لباريس لأن الصعود إلى الحافلة والنزول منها كانا أرهقاني، وكان ترُقب مصير رحلتي أقلقني. ولكن القلق – الحزن الذي اشتعل في الذهن جعلني أتوثب. تذكّرت الجنرال البغيض زاس، وانتصبت أمام عيني أعمدة الترهيب التي كان يعلّق عليها رؤوس الأديغة. وتألّم القلب ثانية إذ فكّرتُ في أنه كان يرسل الرؤوس المقطوعة إلى متاحف العالم. على أن المتحف لم يحتوِ على ما كنت أتوجس منه. ولم يكن زاس من رأيته فيه. فحين أُلقيت نظرة على خريطة العالم المعلقة في القاعة الأولى لمحت البحر الأسود. وعلى الساحل الشرقي منه: شركيسيا. ثم قُسمت شركيسيا بين الشابسغ والأبزاخ والوبيخ والبجدوغ والمخوش والجمكوي والبسلني والقبرتاي. ولم ينفرد الأديغة بالخارطة فكان إلى جانبهم أعراق العالم بمن فيهم الهنود الحمر. وإذا قيس ما يشغله الأديغة في الخريطة المعاصرة فهم يحتلون مكاناً واسعاً جداً في خريطة القرن الماضي. قلتُ لنفسي في جميع الأحوال: حسناً أني لست من شعب صغير بين رفاق الركب. وابتسمت وأنا أستمد الثقة والحزن من الزمان الماضي.

المتحف فيه ما يشغل نهارك كله. وتجذ فيه نماذج من كل أعراق العالم، من ألمان وفرنسيين وزنوج وصينيين وروس، رجالاً ونساءً، مصنوعة من الشمع بالملابس التقليدية...

أين الأديغة إذن؟! هل سقط الأديغة التعساء من جديد من القائمة؟.. حين نظرت تعرّفت عليه من قامته الممشوقة وزرّته المميّز وسلاحه. الكساء الأسود

¹ علم الإناسة بالعربية، وهو ما يبحث في تاريخ نشأة الإنسان عموماً. وكل الحواشي للمترجم ما لم يُشر إلى غيره.

يتجاوز طرفاه فتحتي الجزمة. وإلى الزنار الفضّي عُلّق الخنجر¹ والمسدس. وعلى القميص الأبيض الظاهر من الصدر المفتوح للكساء جُعبُ الرصاص. وعلى الرأس القبعةُ المغطاة بالقماش الأخضر. وتنطق المرأة التي تشبه قامتها قامة النملة زناراً ذهبياً - فضياً مطرزاً على ثوبٍ أبيض من قماش الأطلس، وإحدى ضفيري الشعر الأسود تتدلى إلى الأمام والأخرى إلى الوراء. ويخفي كُما الرداء الطويلان الأصابع الرقيقة المرقّعة.

هذا هو الوجه الأدبّي، والزّي الأدبّي، والسُّحنة الأدبّيّة!.. وما يبقى هو أن تحييهما وتُحدِثهما فحسب! ويترجم لي التعليق المكتوب أسفل التمثالين بخصوص الأدبّيّة: ينتمي هذا الرجل وهذه المرأة إلى الأدبّيّة أحدِ أعراق العالم. وتعدادهم وصل إلى بضعة ملايين. يسكنون شمال القفقاس على الساحل الشرقي للبحر الأسود، وعلى الجانب الأيسر من ضفة نهر "بشزه"، وصولاً إلى موطن القبرتاي. ولا يزال بعضهم في تلك الأنحاء إلى الآن. وهم يسمون أنفسهم بالأدبّيّة، ويناديهم غيرهم "الشرحس". وهم من أقدم الأعراق البشريّة، ويعيشون في واحدة من أجمل أرجاء العالم وأغناها. يعيشون حياتهم من القدم دون دولة رغم جمال عاداتهم وتقاليدهم. يحترمون الكبار، ويثمنون الشباب. وثياهم المحبوبة المريحة اقتبسها منهم كل أعراق القفقاس من قوزاق الدون ونهر بشزه وتيريك، وغيرهم. ويتجلى شرفُ الرجال في احترام النساء. واستقبالُ الضيف مدعاةٌ للسرور والفخر. وهم أهلٌ للثقة والتصديق، سليمو الطوية لا يعرفون الخُبث، وتغلب عليهم الحميّة والكرم. ورجولتهم عنوان شعبهم. وظهر شرفهم ورجولتهم في الحرب القفقاسية - الروسية التي شهدها القرن التاسع عشر. وفي السنوات الخمس الأخيرة من تلك الحرب واجهوا القيصر الروسي وحيددين فلم يركعوا له. ولكن العادة الأزلية فيهم، والتي لا تتماشى مع رجولتهم وإنسانيّتهم أفنتهم: لم يسمح لهم اختلافهم على الزعامة أن يظهر منهم زعيم يوحدهم.

¹ ترجمت ما يعرفه الأدبّيّة باسم "قامة" بالخنجر، والحق أنه أشبه بالسيف القصير المستقيم.

اعتصرت قلبي الكلمات التي سمعتها من المترجم وملاّتي بالكآبة. نعم يا قومي
الخيّرين - الحزاني عرفتكم! والوحيد الذي أقدر عليه هو أن أشهد بهذه الرواية
على رجولتكم وفُرقتكم وتششُّتكم.

الكتاب الأول

I

خريف عام 1830.

يشعر زانه سفربي اليوم بشيء يتقل على قلبه دون أن يعرف ما جرى له.
أفكاره متناثرة كالجبال البعيدة المتراصة التي تبطنُ قبة السماء. ليس ما عاناه
قليلاً ولو أن الخمس والأربعين سنة ليست عمراً طويلاً. تغزو الذكريات أحياناً
ذهنه كأوراق الإجازة الصفراء التي يجلس تحتها فتعبر إلى عينيه: إرساله رهينة
من أسرته وهو صبي، من أسرة زانه المتنفذة إلى بوخولز قائد جيش القيصر
المتمركز في قلعة أنابه، وتربية زوجة القائد إيكاترينا ميخائيلوفنا له (كانت من
أسرة يدج الأبراخية المتنفذة)¹ ودراسته في مدرسة ريشيلكه في أوديسا،
وسيربيرياكوف الذي صار صديقه في تلك المدرسة (الآن هو قائد أسطول
البحر الأسود) وخدمته ضابطاً في الجيش الثاني والعشرين القوزاقي الذي يقوده
روزيفيتش، واختلافه مع قائد الجيش فترُّكه للخدمة، ثم تطوُّعه بعد وقت قصير
في الجيش التركي الذي احتل قلعة أنابه، وأسرّه من قبل الجيش الروسي الذي
استعاد القلعة. وتوجُّهه إلى تركيا وخدمته في جيشها. وأخيراً عودته قبل وقت
قصير إلى قريته "قُماتر"...

نظر سفربي مرة ثانية إلى جهة الساحل، وتنهد. باع والده محجري الحريص
دائماً على ازدهار تجارته قطعةً غير كبيرة من أرضه في أنابه، في أواخر القرن
الماضي، للسلطان التركي لينشئ عليها الأخير قلعة، فتسبَّب في ما يكفي من
الهموم للأديغة والأتراك والروس في السنوات الخمسين الأخيرة. ولم تزدِ هذه
الصفقة في أرباح آل زانه إن لم تؤدِّ إلى الخسارة. وقد تنازع ملكية القلعة الروس
والأتراك أكثر من مرة. وزاد الطينَ بلَّةً التجاذبات الأديغية - الأديغية...

¹ القوسان من المؤلف. وكل عبارة وُضعت بين قوسين في الكتاب هي للمؤلف.

قال سفري: لا فائدة من أن تفوّت رأس الحصان ثم تلحق بذنبه. ثم أمسك بأصابعه النحيلة السُّبْحَة شاعراً أن الذكريات تُبهّط كاهله الآن أكثر من أي وقتٍ مضى، وبدأ يُسرّع في تقليبيها. لم يُفدنا تصرف والدي إن لم يؤذنا. وفي اللحظة نفسها انقلب موقف الابن المعاتب أباه فشرع يقرّع نفسه. لا يمكنك أن تجلس على شاطئ البحر فتتجنب النظر إليه. يا حسرتي يا والدنا كان عليك ألا تبيع قطعة الأرض تلك إلى دولة غريبة! وقلّدنا في هذا آل شباكوه وآل حاغور فمضوا إلى أبعد منا. وفي هذا الشأن لا يمكنك إلا أن توافق طارق سوباش. وإلى الآن لا ينسى هؤلاء حرب "بزيقوه"¹، ولا تمضي سهرة في مضافة دون سرّ أخبارها. ونحن لا نقصنا حزن لا يُنسى. من الصعب علينا وعلى أسرتنا أن ننسى عبور الجنرال غودوفيتش أرض الشابسغ واحتلاله قلعة أنابه وتدميرها، ونهْبُه أُملاكنا. هل يجوز أن تفتح الباب للغرباء، سواء كانوا أتراكاً أم روساً، بحجة أنهم يترجّوننا؟! الأرض التي منحها الله للأديغة هي أرضهم، لا يجوز أن تسمح لمن ينوي سلبها منك بموطئ قدم له. لا ينوي لنا الأتراك الذين أتيت من عندهم، ولا الروس، الخير. وما يفت في عضدنا أكثر من غيره فُرقة الأديغة. كل مجموعة تسحب البساط إليها، ولا تتنازل عن شيء لفائدة الآخر. يعيش الأديغة في نزاع على زعامة البلاد. والحق أن الوحدة سبب القوة ولكنهم لا يفهمون هذا، والفُرقة سبب الاندثار. ومن يأتون علي ذكر فهمه للمسألة زمن حرب بزيقوه هو حاغور موسى. وبفضله انتصر العائمة² على الأمراء والنبلاء.

¹ عام 1790 ، بين أمراء البجدوغ وشعب الشابسغ نتيجة هروب عبيد البجدوغ إلى بلاد الشابسغ للكاتب مؤلّف بالعنوان نفسه. وسترد على لسان المؤلف معلومات عنها في سياق الرواية، في بدايات الكتاب التاسع.

² من الصعب ترجمة كلمة "فقولاً" الأديغة إذ تعني الفلاحين الأحرار المرتبطين رغم حرّيتهم بمالكٍ ما، كما يقول المؤلف في الفصل الرابع من الكتاب الأول، حين يصف الفلاح ترام بأنه أحد التابعين لآل زانه، وكما في الموسوعة الفرنسية، مادة tfkolt. وتجّد أيضاً معلومات على لسان النائب مُحمّد أمين في الفصل السابع من الكتاب السادس. وعلى لسان المؤلف في

- أراك يا والدنا تجلس في مهب الريح؟.. قطع الشاب العشريني الذي وقف في حضرة سفري أفكاره.
- أهذا أنت يا قَرْبَاتَر؟ - أنزلَ سفري من العمود قبة ولبسها معتبراً الجلوس حاسراً في حضور ولده أمراً معيباً. وزرَّ الكساء من جديد. ثم أجاب: - لا يؤذيني الجلوس في مهبِّ الريح يا ولدي. وأنت؟
- أنا لا أشعر بها يا والدنا!
- تعادَلْنَا إذن. - بشَّ سفري ثانية للولد الصبح. وتفحصه من الجزمة الرقيقة الكعب إلى كسائه المزيَّن بجُعبِ الرصاص. ولم تُفِتَّ العينين رؤيةَ الحزام المعلق به الخنجر، والذي يزيد الخصر الدقيق دقَّةً، ولا اللحية، والشاربان اللذان يرسمان آثارهما على الوجه. - أين كنت؟ ومن كان زميلك؟
- لم أكن في مكان بعيد. كنت أروِّض الحصان فحسبُ.
- ومن رأيت في طريقك؟
- أهل القرية يقطفون الذرة الصفراء واليقطين.
- هذه أعمال الفلاحين. ألم تبق في القرية أُسرَّ متنفذة؟
- وصادفت بضعة أشخاص من هذه الأُسَر.
- وماذا يتداولون من أخبار؟
- لا شيء مهم، ولا شيء يُقَلِّقُهم.
- عجيبٌ والله ما تقول... - انتقل سفري فجأةً بتفكيره إلى تركيا. وسار في شوارع مدينة أدرنه الصغيرة الواقعة شرقي "فاركه" غرب البلاد. ورجع بذاكرته عاماً واحداً ففكَّر في اتفاقية سلام أدرينابول التي عُقدت في أيلول عام 1829. فتألَّم قلبه لهذه المعاهدة التي منحت تركيا بموجبها الضفة اليسرى من

الفصل الثاني من الكتاب التاسع. ويبقى المصطلح سهلاً في حالة الجمع: العامة، أو عامة الفلاحين. وتبقى المشكلة في حالة الأفراد: الفلاح. وتقضي الضرورة بإثبات اللقب لإصرار الأمراء والزعماء على مناداة الفرد بـ "فقولاً" وهو ما يعكس الطبقيَّة المتأصلة. وفي جميع الأحوال يمثلون عامة الشعب، مقابل طبقة الأمراء، ويليهم النبلاء، وأخيراً العبيد لدى بعض القبائل.

نهر بشره ابتداءً من البحر الأسود وانتهاءً بأرض القبرتاي إلى روسيا. ولم يستطع أن يغفر لتركيا وروسيا تداؤلهما أرضاً ليست لهما دون استشارة أهلها، سواءً كان قريباً أم بعيداً بقلبه منهما. وأعجب ما في الأمر أن الخبر لم يصل إلى الأديغة ولم يتناقلوه في مضفاتهم. خرج سفري من أفكاره وقال لابنه: - إن كان الأمر هكذا فامض في سبيلك يا ولدي وتابع أعمالك! أنا أريد أن أخلد إلى شيء من الوحدة هنا إذ لا يجوز اعتراض طريق الأفكار كما كان يقول جدك زانه محمجري، ليفتح الله طريقه إلى الجنة وإن ورننا في مشكلة...

لم يكن قُرباثر يسمع هذا الكلام على جدّه للمرة الأولى. وقد صدرت هذه الفكرة أكثر من مرة من عامة الناس. ولماذا تعتب على هؤلاء إذ يتحدثون في ما تبليغه عقولهم وما لا تبليغه. أعجيب أن صادق جدّه الأتراك فباعهم قطعة من أرضه؟ من في هذا العالم الآن لا يبيع أرضاً ولا يشتري؟ ليست الأرض وحدها ما يُباع بل الإنسان أيضاً يُباع ويُستعبد. وهل والدنا في حال لا تسمح له أن يتفهّم هذا الموضوع؟ كان يؤدّ قُرباثر أن يسأل والده في هذا الشأن، غير أن الأخير لم يُجبهه فسأله:

- ما أشدّ ما انفعلت يا ولدي لما قلته بشأن جدك؟

- لا، يا والدنا، لا شيء من هذا، ما الأمر؟

- نعم، نعم، لم أقل شيئاً ذا بال. كان جدك رجلاً حكيماً. ولكن علينا يا ولدي أن نكون أنت وأنا أحكم منه. ولا يعني هذا أن ندين من أنجبنا. لا تلمني إن قلت شيئاً أحياناً في ساعة ضيق.

- لست وحدك يا والدنا، العامة أيضاً يرددون الكلام نفسه.

- هكذا إذن! تريد أن تقول إن الفلاحين يعتبرون على جدك!

- نعم، يعتبرون جدي فتح معبراً للأتراك إلى بلادنا.

- ومن كان يريد هؤلاء المهايل إذن؟ الروس؟

- يقولون إن الجار القريب أفضل من الجار البعيد...

لم يكن سفري يسمع هذا الرأي لأول مرة. ويتداول الموضوع نفسه في الشابسغ والأبزاخ والبجدوغ. وليس سراً في بلاد الويخ والجمكوي. وإن فكّرت من منظارٍ ما في شرعة الأديغة من عادات فكثير من جوانب حياتهم يتعلق بالجار؛

إذ قبل أن يختاروا أرض الدار يفكرون في من سيكون جاره، ويختبرون طبيعته وأخلاقه. وبعد أن يبنوا البيت يتعلمون كثيراً من أقوال الجار وسلوكه، ويحترسون من الكلام في غير ضرورة، ويتبادلون الرزق. وتبقى العلاقة المبنية بين الجيران لا سنة ولا سنتين، بل عبّر الأجيال من خلال الأسر التي تتوارث البيت. ويعيش الجاران متجنبين ما يثير العدا، متحفظين في التعامل. سيعترض طريق الحياة كثيراً مما لا يروق لك حين تعيش والأبواب متقابلة وأسوار الدور متلاصقة. وستسبب الطيور والمواشي في كثير من المشكلات، بل إن سفري نفسه يتذكر أن أحدهم قتل جاره بالرمح على خلاف حول قطعة أرض ضيقة وراء البيت...

خرج سفري من الأفكار المتلاحقة المتدافعة، وعبّر البحر ودخل مرة أخرى إلى تركيا. تذكر أنه حين لمح للسلطان محمود خان بالجزء المتعلق بالأديغة من الاتفاقية المعقودة بين تركيا وروسيا تجنب الأخير الجواب الصريح وقابله بنظرة مخادعة دون كلام. ولا ينسى أنه حين انتهى الوقت المخصص لمقابلة السلطان فنهض، قال له السلطان "لا داعي لأن يئأس الأديغة، لن تنساهم تركيا المسلمة، ولا يظنوا أن موضوعهم انتهى عند هذا الحد" ماذا يمكن أن تفهم من كلمات السلطان المبطنة؟ هل أعاد التفكير بعد أن فعل ما فعل؟ لا فائدة الآن في الكلام المهموس إذ حدث ما حدث وانتهى. وأشدُّ ما في الموضوع مدعاة للحرز أن الأديغة بقوا بين الدولتين الغريبتين كبرميل بارود دون أن يستشاروا. ومن تستشير؟ لا نستطيع أن نجمع الأديغة الممّزين إرباً إرباً تحت علم واحد. ويهيج آل شراًلقوه بالتحالف مع آل حاغور وآل طارق في بلاد الشابسغ. وآل حَجمَقوه يتنمرون في بلاد البجدوغ. وفي قرية لوستان حابله وراء نحر بشزه ظهر شخص يُدعى خانجري¹ يريد الزعامة فيدعي الحرص على الأديغة. وبرج يزعم نفسه في بلاد الوبيخ. وفي بلاد الجمكوي لا حديث إلا أخبار بولتَقوه. والأبناخ؟ لا حاجة للحديث عن الأبناخ إذ كل من فيها زعيم! من الصعب تطويعهم لأن هؤلاء الأجلاف بلا أمير. وليس الأبناخ أبناء قومنا الجيران أفضل

¹ للكاتب رواية طويلة باسمه، وترجمها مترجم هذه الرواية وصدرت بالعربية في مايكوب

منهم... لا تدعوننا نحن الأديغة يكسّر بعضنا أسنانه للآخر. كم قلت للأديغة: لماذا لا نكون دولة واحدة، ولماذا لا ننضوي تحت علم واحد فلم يسمعوني؟ سنتظر الآن ما سيجري فقد تحقّق صدق ما قلته في حضرتكم وصار الآن من الماضي. لو كانوا يعترفون بأنكم بشرٌ لأطلعوكم على ما فعلوه بكم. لن تكتشفوا فرقتكم إلا حين يزحف إليكم الجيش الروسي المحتشد على الضفة اليمنى لنهر بشزه. إذن هل يكون وراء نظرة سلطان الترك الخبيثة الصامتة سرٌّ ما؟ لماذا إذن لم يُطلعوا الأديغة على اتفاقية أدريانوبول؟ الترك والروس سيّان في رأيي؛ سأجد عند الضرورة وسيلة للتفاهم مع الطرفين إذ أحمل على كتفي رتبة هذه الدولة وتلك، ولكن الحق أن كلتا الربتين تُبهظهما. وفي النهاية أفضل الرتبة المفصلة من قلب الأديغة عليهما...

حين خرج سفري من أفكاره امتثلت لعينيه قامّة قرّباتر الممشوقة، وتابّعه دون أن يقول له شيئاً إلى مسطبة البيت. وما إن أتبعه بقوله: هذا من يستحق رتبة أديغة، حتى صاح أحد الفارسين القادمين من الشابسغ:

– انتظرناك طويلاً يا زانه قوه الذي نسمع سيرته ولا نراه، يسرنا أنك عُدت أخيراً. – ترجّل طارق¹ سوباش من الحصان متمهلاً، وتجاوز باب الدار على نحو تظنّ معه أنه يخفي بالقبة الجرح الذي يعلو حاجبه الأيسر. واستقبل قرّباتر الضيفين فقاد حصانيهما إلى الدار. – ما أطول غيابك يا مبارك النسل! لم أسمع بعودتك إلا أمس.

– ما ذنبي إن كنتم تُفريقون متأخرين أيها الشابسغ؟ – استقبل سفري مماًزحاً ابن خالته. – ما الأخبار في نواحيكم بإذن الله؟ هذا الشاب يا سوباش ليس من معاري؛ إلى أي أسرة تنتسب يا أخي الصغير؟

– هذا ابن موسى حاغور يا سفري، اسمه نور مُحمّد. قُتل والده في حرب بزيقوه وهو ما يزال في بطن أمه. إن كنت تعرف المرحوم موسى فهذا الشاب يُشبهه تماماً، نسخة عنه.

– سمعت باسمه، – مدّ سفري يده إليه دون مزيد من التعليق. – تفضل، أنت ضيف... ثم توجه ثانية إلى سوباش سائلاً: ما أخبار نواحيكم يا كبير؟

¹ ليس الاسم العربي طارق.

- ما أخبار تركيا التي كنتَ فيها؟ - أجاب سوباش. - وما أخبار شابسغ إسماعيل الذي كان لا يُفارقك ملقباً إياك بالكبير؟ - أظن المسكين كان يحاول أن يفعل شيئاً في تركيا دون أن يتحقق له شيء مهم... - أضاف سوباش خالطاً جدّه بهزله - لا أعرف ماذا قدّم لكم هؤلاء الأتراك. أظنهم سحروكم يا سفري، أهذا صحيح؟!

- لا أعرف يا سوباش علامٌ أُجيب. في تركيا يجري الكثير. هذا إلى جانب حصانه، والآخر راجلٌ. ولن تصدّقني إن قلت لك إن "خُرُورَ إسماعيل" الذي تسأل عنه يقدّم نفسه للأتراك بصفته سليل أسرة أمراء. وسأجيبك على ما قدمه الترك لنا من جهة أخرى إذ ليس سرّاً: أكان والدنا باعهم أرضه بثمن بخسٍ جداً بلا جدوى؟

- لن تنطق يا أخي الصغير بأصدق من هذا! - مازحه سوباش ثانية. إن كنت تقول إنه لا أخبار حيثُ كنتَ فأنا أحمل إليك خبراً عجبياً: يقال إن الروس والترك تصالحوا، وإن تركيا باعتنا لروسيا كالمواشي؛ هل هذا صحيح؟

- صحيح يا سوباش، - وقال في نفسه: يهمني أن الخبر وصلكم أخيراً. - حقاً هناك مثل هذه الاتفاقية. ولكن لا أعرف أين كنتم غائبين إلى الآن!

- لا نسمع هذا الخبر لأول مرة. - ساهم نور مُجد في حديث الكبيرين حذراً. ولكن لم نكن نصدّق لأن هذا من المستحيل.

- إذن يا سفري، - قال سوباش كأنه يحدث نفسه وقد امتنع لونه مما سمع، - أليس صحيحاً ما يُشاع من أن الجيش الروسي عبرَ نهر بشنه؟

- لا عِلْمَ لي بالموضوع، - حسم سفري النقاش كأنه يقول لهما: سَأرى ماذا ستقولان.

- قيل إن الروس يقيمون قلاعاً على نهرى أفيس وشَبَج. - لم يُطق حاغور صبراً. جاءنا موفدونا قبل أيام بهذه المعلومات.

- والله هذا أمرٌ عجيب!.. - نظر سفري نحو ابنه قَرَباتر الواقف إلى سور الحظيرة لا يقول شيئاً. - لا عِلْمَ لنا نحن بمثل هذه الأخبار... - قابلتُ الجنرال "غزار" قبل أيام ولم يُخبرني بشيء.

- ومن غزار؟ سأل سوباش.

- هل نسيْتَ غزار؟ هو سِيرِيرِيَاكوفُ الشابُّ الأرمني الأسمر.
- وكيف لا أعرف غزار الذي درس معك في أوديسَا؟ ليعُصَّ الكلب أبا من حاصرنا من البحر! ومن لا يعرفه؟ لا يمكن أن يقف أحدٌ في طريقه...
- أيْسِيءُ معاملتكم إلى هذا الحد؟ ليس غزار بالإنسان الذي يستحيل التفاهم معه يا سوباش.
- والله هذا صحيحٌ... ولكن لا أعرف كيف سنتصرف مع من يأتون إلينا مسؤولين. - قال سوباش كأنه يحدث نفسه، ثم أفاق من أفكاره. - هكذا إذن يا سفرِي؟ ما سمعته عجيب!.. حتى "خُرُوزر" على ضآلته يتوج جبينه بالإمارة! هذا بديهي إذ سترى عجائب كثيرة إن عشت طويلاً...
- لا عجيب في هذا يا سوباش! لا يعيش خروزر باشا الذي ربَّى إسماعيل في تركيا مغفلاً.
- والله هذا أيضاً صحيحٌ، لا تعليق لي عليه...

...

لم يساهم قَرَبَاتر في الحديث الذي دار بين الثلاثة الجالسين على مسطبة البيت مهما خاضوا. تصعد من قماثر أفكاره التي يحتفظ بها سرّاً في صدره، وتسافر نحو أنابه التي تحولت إلى قلعة روسية منذ العام الماضي. ليس له بعدٌ من يثق به، ولذا لا تزال أفكاره حبيسة صدره.

II

من الصعب التعرف على أرض الأدبغة هذا العام بالقياس إلى الأعوام القليلة الماضية. يثور في كل مكان، ومن كل جهة، القلق الذي لم يُعانِ منه الأدبغة في الماضي. وهذا القلق يتنقل من قرية إلى قرية، وبعضهم يُضيف إليه أو يُنقص كما يشاء. وليس سرّاً ما يجري في بلاد الأدبغة إذ لا تخلو من خير سارٍّ أو سيء أحياناً. ولم يبق فيها من لم يُحزنه ما جرى بين الترك والروس. والحق أنهم لم يخلدوا إلى الصمت مع الخبر، بل هاج كل الناس، كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً. لم يجدوا من اللائق تقييد معيشة الناس الذين عاشوا حياتهم أحراراً. هاجت القرى من مجرد سماع الخبر المهيّن وإن لم تتأكد بعدُ صحّة الخبر الذي بلغ أهاليها، ودفع الفرسان إلى النزول إلى الشوارع، وأخرج أرباب أغطية الرؤوس من

خلف جدران بيوتهن. وحمل العرائس الجديديات على التطلع من فوق أسوار الدور.

لم يبق مكان في أرض الشابسغ والأبزاخ والوييخ والجمكوي والبجدوغ خالياً من مثل هذه الظواهر. ولم يكفِ هذا فجاءت وفود من القبرتاي وشركيسيا. ولم يختلف ردُّ فعل قرى النغوي التي تعيش على أرض الأديغة فقد وصلهم أيضاً الخبر الفاجع. وعبرَ فرسان ومشاة من الأبجاز القرييين من حدودهم الجبال إليهم، وإن تأخروا قليلاً.

لا تتسع المضافات للخبر، وتضيق به القرى والشوارع فتصل في آن واحد إلى مؤتمرات الأديغة واجتماعاتهم. يؤاخذون من لا يتابع الموضوع من المعنيين به، ويستغربون تقاعسهم. ويتشاجر الناس الذين لا ذنب لهم من حميتهم الأديغية المألوفة. وحين لا يجدون الكلام كافياً يمتشقون سيوفهم فينشغل غيرهم بالفصل بينهم ومصالحتهم. وعلى نقيضهم تدفع المأساة بعض من كانوا متقاطعين لأسباب أخرى إلى التصالح. ولكنهم إلى الآن يتكلمون مُبدين حميتهم دون أن يظهر من بينهم مَنْ يعبرَ منطلقاً من تفكيرٍ واعٍ عما يجب أن يفعلوه أو يسلكوه.

كان سفري يفكر مصغياً إلى وقع حوافر خيل رفاقه الثلاثة المتنافرة، قائلاً في نفسه: هذه طبيعتنا نحن الأديغة. نحن طيور حرة حين نعتلي ذروة الشجرة، وغناؤنا متآلف وغير متآلف. وحين نجفل فنطير يتحصن كلُّ منا في عشه. ولولا تنافرنا بسبب اختلاف أعراقنا لكنا منذ زمن بعيد دولة مستقلة متماسكة. لسنا أقلّ عدداً من الكُرج الذين يقيمون وراء جبالنا. وفي عاصمتهم تفليس يُقيم زعيمهم باسكيفيتش إيريفانسكي مانحاً نفسه الهيبة والعزة. لو قابلته لعرفت كيف سيتصرف معي. وكنت أقرّته بالنيّة الحقيقية للجنرال بيسكروفن الذي أطلقه إلى بلادنا. ولكن أظن أنه كان من الأفضل قبل لقائه أن أقابل الجنرال إيمانويل المقيم في "جتهّ قاله". ولكن أليس الجنرال إيمانويل مسؤولاً عن أرض الأديغة حتى ساحل البحر حتى لو كان الجنرال باسكيفيتش إيريفانسك فوق الجميع سلطة؟ ليس بعيداً أن يُطلعي إن تحدثت إليه على أمور كثيرة لا أعرفها. لا يكفي أن يكون غزار، وهو الأرمني الأصل، صديقك

الوحيد لتفهم حقيقة ما في قلوب الروس. وليس الروس وحدهم بل الأتراك أيضاً. لا أشعر إلى الآن بثقل ربتهم التي ما زلت أحملها حتى أميزها من غيرها. ناحية أفس التي تكلمتم عليها عدتُ منها قبل زمن بعيد. أسسوا فيها قلعة وسَمَّوها غيورغ - أفس، وسيفرغون قريباً من بناء قلعة شَبَج.

أفكر في حالنا نحن الأديغة فأقول: مهما وصفنا غيرنا فطباعنا عجيبة. لا نعرف شكل البندقية التي أطلقت إلى أن تُردينا. أتظنون أنه اليوم فحسب يتصارع علينا الترك والروس؟ الآن اتضحت نوايا الدولتين نحونا. جرى لنا ما يقال فيه: الغائب يأكل الكلب حماره. - لم نجدنا أيُّ من الطرفين جديرين بالاستشارة. ولما لم يجر لنا ما لا نستحقه فهناك ما علينا أن نفكر فيه قبل أن نقبل بالاتفاق. وليست هذه مسؤولية الأديغة وحدهم بل الروس أيضاً. فإن تصرفنا حسب فهم هؤلاء وإنسانيتهم وجدنا مخرجاً من الأزمة التي وقعنا فيها. ويقال إن خانجري يعمل في بلاد الأديغة ممثلاً خاصاً للقيصر، معتداً برتبته الروسية. وقد قابلته قبل أيام في طريق عودتي من أرض البجدوغ، وحادثته، ولكنه لم يكشف عن شيء سوى أنه قادم إلى نواحيننا. وكيف تسأل عن نوايا من يقول لك إنه سيحلّ ضيفاً عليك؟ لم أجد هذا السؤال لائقاً. كان برفقته قرابة عشرة فرسان من الأديغة. يغرّ بنفسه مدّعياً أنه من خانات القرم. وأغرب ما في الأمر ما قاله لي أحد معارفي من رفاقه: يدخلون إلى القرى، وإلى الغابات، ويرتقون دُرا الجبال، ويقاربون معابر الأنهار. ويسجل هو كل ما يراه في دفتر سميكَ بحجة أنه يؤلف كتاباً عن الأديغة. ويدل على الطرق والدروب والمعايير ومراعي الغابات. ويرسم خرائط القرى المتجاورة وأماكن العمل في الأرض والمستنقعات، حتى أماكن الوحوش. فهمتُ مقصده الحقيقي وإن كان الشاب الذي أخبرني لا يشكّ في شيء عن الموضوع. لا يحتاج العسكري إلى من يُفهمه ما وراء هذه المعلومات: إنه يرسم خريطة بلاد الأديغة. ما يقوله المسنون صحيح: لن تصبح قائداً للأديغة إن لبست كساء الأديغة وقبعتهم وادّعت، مالم يكن في صدرك قلبٌ أديغي. ولكن ما العمل؟ هو يريد ذلك!

ربما ما كان سفري ليحسّ بالشمس المتوهجة التي أشرقت من خلف قمة الجبل حين خرج الفرسان من مضيق بُشّده وارتقوا مرتفعات الأبراخ لو لم يُناده سوباش.

- أظننا لم نسمح لك أن تنام جيداً هذه الليلة يا سفري.

- لا يا سوباش، لا أعرف سبباً لما تقول.

- لأنك لم تعلق على الشمس البيضاء التي تشرق. هل أنساك الأتراك ذوو السروايل الفضفاضة شمسنا البيضاء؟ حين ترجّل سوباش من الحصان قفز الآخرون من حصانيهما، وكما يفعل الكبير غطياً وجهيهما بالأكفّ.

- يا إلهي، يا شمسي المنيرة دعنا نرى وجهك بالخير. ومُدّ في عمر الحيّ منا وهو يجد ما يتمناه، وليجد الأموات طريقهم إلى الجنة. وأرشد من سندنه اليوم نيكراس ميشكا إلى باب جنتك. ولا تُهنّ بحجة أنه من أصلي كافر¹. فقد كان ذا رجولة وإنسانية. عاش حياته يُقاسم الأديغة أفراحهم وأحزانهم دون أن ينسى أصله. وربي أولاده، وزرع فيهم إنسانيته. آمين!

ردد الفرسان "آمين" معاً وتابعوا طريقهم.

لم تعد قرية دُخاباه التي سيدفنون فيها نيكراس ميشكا أحد أبطال حرب بزيقوه في أواخر القرن السابق بعيدة. كانت وراء الجبل الظاهر أمامهم على بعد غلوة حصان.

زانه سفري أحد من أُبلغ مبكراً بوفاة نيكراس ميشكا. وابن ميشكا الأكبر تيموفيه من أقرب الأصدقاء إلى سفري. وكُرمي لقيم - هكذا يناديه أهل القرية - صار سفري على علاقة بميشكا. والعجوز نفسه لم تكن تستطيع إلا أن تحبّه. ولو لم يكن عنده إلا لغته الروسية ولغته الأديغية لأجبرك على احترامه. وربما لم يكن في إقليم الأديغة كلها من لا يعرف أديغيته المميّزة. وكان يدخل في هذا الموضوع عاملٌ آخر: إلى جانب الصداقة بين الكبار نشأت صداقة بين الشباب؛ فقرباير ورُفعت بن تيم كأن أماً واحدة ولدتهما. وكان رُفعت إذا سُئل في طفولته عن أصله أجاب: أنا روسي من جهة النسب، وأديغي من جهة

¹ الدعاء من بقايا عبادة الأديغة للشمس، وميشكا روسي أسلم، ورد ذكره في رواية الغرباء للكاتب نفسه.

الأم. وكانت اللغتان حبيبتين إليه. وإن قيل له إن رُفعت ليس اسماً أديعياً ولا روسياً أجاب: أعجيبٌ إن أخطأ والدي؟ ابحثوا لي عن اسم أديعي. وأخْتُ رُفعت ماريّا التي سافرت هذا العام للدراسة في أُنابه من هذا القبيل أيضاً. ومن أفاد في تسهيل دراسة ماريّا هو سفريي. أسكنوها في بيت سيريرياكوف غُزار: تدرس وتساعد الأسرة.

- والله حسنٌ أنّا سافرنا أمس كأننا نعرف أن المرحوم ميشكا سيرحل عن الدنيا. - قال سوباش بعدما ساروا مسافة، - هذه فكرةٌ نور مُجّد: اقترح أن نقابل ميشكا صديق والده المرحوم وصديقي فطلب مني أن أصحبه... ولم نستطع إلا أن نعرّج عليك يا سفريي. ولو سافرنا مباشرة إلى قرية دخاباه لسجّيت المرحوم ميشكا. أمر مؤسف أنّا لم نلحق به.

- ماذا بيدك يا سوباش، كان الله قدّر هذا. - واساه سفريي.

- نعم، هذا صحيح... ما أصعب أن يفارقك أصدقائك وتبقى على سطح البسيطة وحيداً يا سفريي! ما فائدة أن تتساقط أجنتك وتبقى كشجرة بلا أغصان؟!

- أما زلنا نحن أحياء؟ لا تيأس يا سوباش! قال حاغور نور مُجّد وكلام صديق أبيه يؤلمه. ونظر إليه من طرف عينه نظرة ناعمة من قلب رقيق.

- حيّاك الله يا ولدي! ليأخذ الله أمانته وأنتم أحياء! لن أعيش أكثر مما يعيشه الإنسان عادة. من بقي على قيد الحياة ممن شاركوا في حرب بزيقوه قليلون. الزمن مال بهم. يسلبنا كل يوم واحداً منا. أظنني الوحيد الذي بقي حياً من الشبابغ والأبزاخ...

وفي هذه اللحظة ارتقى سفريي بجياله إلى قلعة إيكاترينودار على نهر لانا ونهر بشزه، وتناثرت أفكاره القلقة التي عاشها في العام الأخير في إقليم الأديغة. ومر أمام عينيه جيش القوزاق على ضفة نهر بشزه، والجيش الروسي على أبعد منه في إقليمي الشيشان والداغستان. ولمّا لم تكن حدوداً لأفكار الإنسان ولحياله فقد وصل إلى تركيا، ودخل إلى إستانبول، وطاف في أرجاء أدرنة المدينة الصغيرة المترّبة. ولم يكف هذا بل عبر البحر عائداً وألقى نظرة على أوديسا.

وطاف في أنحاء كيرش، ورسا في أنابه أرض والده. وطوال هذه الجولة لم يقابل بين أفكاره إلا الأحران.

- أتوقع يا سوباش أن تنشب حرب أعظم من حرب بزيقوه. - لم يهتم سفري ما يشغل باله، فإن نجا الأديغة منها عاشوا.

- ألا نستطيع وأد هذه الحرب؟ سأل حاغور.

- نستطيع إن تحلينا بالوحدة والانضباط.

- وكيف نستطيع أن نفعل يا زانه؟ سأل سوباش.

- نستطيع متى اكتسبنا الحكمة والروية...

- ما تتكلم عليه يعني حظاً سعيداً للأديغة، وهو بعيد عنهم! - صاح سوباش وقد تذكر شبابه متفهماً أساس كلمات سفري. وأضاف بسرعة دون انتظار

الجواب: - أظن يا زانه أن الدولتين الغربيتين لم تحطاً للأديغة طريق السعادة. فإن فكرت في المستقبل الذي انفتح للأديغة من هذا المنظور فأنت مخطئ.

أستغرب أن تستطيع التفكير بهذه الطريقة!.. ينوون تقييد الأديغي الحرّ؛ أليس كذلك؟ وأنت هل انسقت في هذا التيار؟!

- إن لم تنصرف هكذا يا سوباش ضعنا بين الدولتين الغربيتين.

- هذا إن لم نكن ضعنا على أيدي أمثالكم وانتهى الأمر!.. هل سألتهم الأديغة الذين تقلقون على مصيرهم؟ هل خالطتم الأبرار والبجدوغ والجمكوي

والقبرتاي والوييخ؟ ما يقوله هؤلاء - لا أعرف إن كنت تعرف - لا ما تقوله تركيا وروسيا!.. - حثّ سوباش بعقب قدمه الحصان على نحو ألم بطنه - هيا

أسرعاً، جثمان المرحوم نيكراس ميشكا ينتظرنى...

وصلت جماعة سوباش مبكرين إلى قرية دَحَابَاه. دارّ نيكراس ميشكا ملأى بالناس. والشارع شغله المعزّون أيضاً. ولا ترى إلا القبعات. وأقرباء ميشكا من

الرجال مصطفىون حسب أعمارهم تحت شجرة أمام الباب. وكل من يدخلون الدار يؤدون إلى هؤلاء المصطفين واجب العزاء. والنساء يتجاوزن هذا الصف

فيدخلن الدار يواسين ليزا عجوز ميشكا وبناته وأحفاده، يُثنين على الفقيد، ويشاركنهن الحزن فيختلط نواجهنّ على الباب.

استلّم زمام الحصان من سوباش قبل أن يترجل منه. وتقدّم الجمع حسب العادات، بصفته الأكبر بين الحضور، وهو يعرف هذا طبعاً. وما إن وصل إلى الباب حتى شرع ينتحب كما لو أن المتوفى ابن أمه.

- وا أسفي يا ميشكا المسكين، يا صديقي العزيز! كنت أقول لنفسي: نجونا من حرب بزيقوه ولذا سنعيش معاً بعض الوقت؛ فماذا فعلت بي الآن؟ تركتني وحيداً ورحلت. - ما إن دخل سوباش غرفة المتوفى حتى انكبّ على الجثمان المغطى بكساء أسود وعلى بطنه الخنجر، ونهض الجالسون احتراماً له. - كنت رجلاً وإنساناً يا صديقي الطيب. وصلني خبرك وأنا قادم إليك لتتذكر رفأنا الراحلين، الأكبر منا سنّاً والأصغر. ماذا بيدنا؟ ما من أحد صنعوا له مهداً إلا حفروا له قبراً، وأنا بالانتظار. سأدعو الله الأحد من أجلك يا ميشكا أن يفتح لك منذ اليوم باب جنته. لن يعترض الله طريقك إلى الجنة لأنك عشت حياتك لا تعرف تمييزاً بين الناس، وفعل الخير غالبٌ عليك. بل سيغمرك برحمته وتنال معروفة. - ولما كنتُ تأخرت عنك يا ميشك، - صحا سوباش ورفع وجهه عن الجثمان، - بلغّ سلامي إلى وايثق تامبر وحاغور موسى وشبكوه أحمد وجمكوي زيش ونارجي وبجقان، وإلى تحخوخوه نباف الذي فارقنا العام الماضي. ولا تكتّم عنهم أن حياة العائمة الذين حاربنا من أجلهم لم تتحسن إن لم تسؤ، وأنا ماضون في طريقنا.

وطوال هذه المناجاة لم يساهم في الحديث الأفندي يوسف، وهو الوحيد من بين الحضور الجالس بحكم منصبه، لا بحكم عُمره. وكنت ترى على الوجوه تصديقهم لما يقوله سوباش. ويشهد على تصديقهم هُزهم رؤوسهم.

صُحب سوباش إلى الطست وراء الباب، وصبّ أصغرهم الماء على راحتيه ليغسل عينيه. وترك الأصاغر الغرفة تاركين الأكابر مع الجثمان. وفي جانب آخر اجتمع حشد من الشباب جاهزين للتنحّي حالما تدعو الضرورة. وشهد هدوء النساء على أنهن يتابعن ما يفعل سوباش.

لا يصدر أي صوت من غرفة الجثمان إلا بعض السعال من وقت لآخر. وكلّ جالس غارقاً في أفكاره، كما هي العادة، وقد رقق الموت قلوبهم. ربما ليس في العالم موضوع أعرق في الحياة من ولادة الإنسان وموته. الفرح والحزن متلازمان.

ما قيمة حياة المرء لو خلت من أحدهما؟ حين تتفكر في ما قاله سوباش في حضرة الجثمان وجدت أن الفرح غائب عن حياة العامي، وليس فيها إلا الأحزان. ما الذي يحافظ على الإنسان حياً إذن؟ أهو الأمل في أن يكون الغد أفضل من اليوم؟ أم هو السعي من أجل أن يدّخر في دنياه لآخرته ما يُبلغه الجنة؟ يوهّم نفسه أن أموره تجري على هذا النحو وإن لم تكن هي الحقيقة. يعيش حياته متشوقاً إلى ما يجعل غده أفضل، وبهذه الحجة المميزة يغالب مشقات الحياة. ومع أنه يُقنع نفسه بالجنة فهو يتحمل الطريق المؤدّي إليها عبر سنين من الشقاء، عاملاً في الوقت نفسه على إطالة عمره. يخاطب نفسه، ويواسيها، ويدعو إلى الله من أجلها. يطير به الفرح، ويرقّ الموت من قسوته. فإن سقط أحدهما من الحياة كُفّت عن أن تكون حياةً.

- من أجل هذا يقولون إن حياة الإنسان كالندي، - تدخّل سوباش في الحديث دون انتظار فراغ كلٍّ منهم من أفكاره الخاصة. - تلمع وتبرق، وتحتفي. ما السنوات الثمانون؟ لا شيء! ها أنا أيضاً خطوات خطوة في الثمانين. أهو كثير أم قليل؟ لا هذا ولا ذاك. يقول العامة أحياناً: الأسر المتنفذة تسعد، ولا تحسد من يسعد دائماً، حتى الضحك الدائم يُرهق الإنسان.

- يتسبب في تجعيد ما يحيط بالعينين يا سوباش، - نظر يوسف أفندي حوله كمن ارتعب مما قاله. وسرّع من تقليب حبات السُّبحة. ونظر بطرف عينه نحو سفري.

- وهذا صحيح يا يوسف أفندي. - ابتسم سوباش - ولكن لم أر في ما عشتُ ريب أسرة قوية تجعد وجهه إلا بتأثير الزمن. ساجناً يا سفري، نسينا حضورك معنا...

- الأمراء ليسوا سعداء، أنت مخطئ يا سوباش، بل يُسعدون أنفسهم. - كتم سفري استياءه مما وُجّه لسلاطات الأمراء من إهانة.

- والله أصبت الحقيقة يا زانه، - أسرع سوباش بالردّ مُظهرًا رغبته في تحويل الجدل إلى هزل، - لو لم يكونوا يتعبون في حياتهم لما عملوا على إسعاد أنفسهم... - حسناً دعنا من حديث الأمراء. لسنأ أول مرة نغتاب فيها

الأمراء إذ من العادة أن يُغتَابوا في مجالس العامة. ما ترتيباتكم يا يوسف أفندي اليوم بشأن الجثمان؟ حسناً يا تيموفي، سأل سوباش ناطقاً اسم ابن المتوفى كاملاً، لا مرخماً: تيم، يريد أن يُبرز الأصل الروسي لوالده، غير ناسٍ أن الجثمان ليس في تابوت، وأنه مغطى على عادة الأديغة بالكساء الأسود، والخنجر على بطنه. — ماذا تنوون؟ هل استشرتم ليزا، عجوزَ ميشكا، والدتك في الموضوع؟

— تقول إن رأي أهل القرية رأيها. وكانت هذه وصية المتوفى. — ألحّ يوسف أفندي على كلماته الأخيرة دون حماسة.

— وما رأي أهل القرية إذن؟

— كل من يموت في قريتنا، أيّاً يكن، نعدّه واحداً من القرية، لا يريدون إلا أن يُكرّموا متوقّاهم. — قال أحد الحضور المسنين.

— إذن أريد أن أسأل أيضاً عن موضوع آخر، — توجه سوباش إلى العامة من أهل القرية الحاضرين في المجلس، — يا أهل القرية، لا تؤاخذوني، ألم تُتوفّ حماة ميشكا في قريتكُم دُخاباًه؟ دُفنت وقتها في طرف المقبرة، — تذكر سوباش أن وفاتها تسببت في كثير من الاستياء بين أولاد المرحومة، ولا سيما أنه لم يُسمح بدفنها إلا في طرف من المقبرة، وأن الصليب على قبرها كُسر عدة مرات حتى كبر أولادها. وحين لم يُجر الأفعدي والجالسون والواقفون جواباً أضاف غير مكترثٍ. — إذن ما العمل؟ جرى هذا في زمان آخر. ربما كان مثلُ هذا الحادث السبب في قولهم: الله يتقبّل العائد إلى وجه ربه...

ماتم الأديغة وأفراحهم، كسائر الأعراق، نبعٌ لكثير من الأخبار المتنوعة. كثير من هذه الأخبار لم يكن أحدٌ سمع بها. ويحدث أن يتحول الكذب إلى حقيقة، وأن تنبت للحقيقة أرجل من الكذب. وقاطنو الجبال الذين لا يجتمعون عادة طوال العام يلتقون في مثل هذه المناسبات، أفراحاً كانت أم أتراحاً.

بقي سوباش جالساً جهة رأس الجثمان بغضّ النظر عن الداخلين والخارجين. ويمدّ يده من وقت لآخر إلى أطراف الكساء الذي يغطي صديقه فيُصلح وضعها. ويمسح على رأسه، ويقلب الخنجر الذي لا يحتاج إلى قلب.

ويُشاكس أيّ ذبابة خريفية تدخل الغرفة، ولاسيما حين يتحدث أحد الحاضرين حديثاً لا يعجبه.

أوّل من لاحظ الأمر هو سفري. يحزّنه سلوك سوباش، انتظر سفري هذا الموقف منذ أن خالط العامّة صباح هذا اليوم. يقول سفري: وصل الحديث إلى العلاقات الروسية - التركية، فحوّل سوباش الانتباه إلى الذبابة الوحيدة التائهة، قاطعاً حوار الحضور. وفي طريقنا إلى المآتم لم يدعنا نتحدث في الموضوع، لا أعرف رأيه الحقيقي. والآن انظر كيف يتصرف! يُحَيِّل إلَيّ أن الأديفة لا يُدركون أننا نصبح شيئاً فشيئاً في قبضة الروس ولكن تبينّ النقيض. ألا ترى أنهم لا يريدون لا تركيا ولا روسيا. يعدّون ما فعلته الدولتان بهم إهانة. ماذا تريدون إذن؟ كان عليكم أن تتوحدوا في دولة واحدة إن كنتم تريدون تجنّب مثل هذه الإهانة!.. ولم يُفمّ الأوان إن أردتم الآن مثل هذه الدولة. قابِلوا روسيا بنواياكم قبل أن تغزو أرضكم!..

- والله لا أعرف حقيقة ما أخبرتمونا به الآن. - قال جمّه جبريل مُعرضاً برأسه وشفثيه على عادة والده حين يبدأ الحديث عن روسيا. - أيجوز أن تستضيف الكافر على مائدتك؟ ألن يدنّسك هؤلاء المَساخِر؟!

- اسكُتْ يا جبريل!.. - مطّ سوباش قامته دون وعيٍ مما سمع.
- ما الأمر يا كبير؛ ألا يجوز الكلام على الكفار؟.. - سأل جبريل بكلمات تتراجع وتألّي التراجع في آنٍ.

- طلبت منك السكوت!.. لن أسمع، ولو لم يبق غيري، أن تغتاب روسياً في حضرة جثمان نيكراس ميشكا!..

...

نور مُجّد حاغور وقَرّباتر واقفان بين الشباب المتجمعين في أرض الدار وغيرهم ممن يقفون لصقّ سور الحظيرة. وهم يتحدثون في السرّ الروسي - التركي الذي انكشف وإن لم يكونوا يسمعون حديث غرفة الجثمان. يعدّون تنازل الأتراك عما لا يملكون، وقبول الروس بما ليس لهم، مهزلةً تبعث على الضحك، وإهانة معاً.

وقع نظُّر نور مُجَّد وقَرَّبَاتر معاً دون اتفاق، وهما يتابعان حديث الجماعة، على المرأة المتشحة بالسواد كاملاً، المُقبله نحوها. ولم يستطع نور مُجَّد، رغم أنه ربُّ أسرة متألّفة، وليس في قلبه نحوها إلا الخير، إلا أن يسأل قَرَّبَاتر:

- من هذه الصبية؟

- هذه؟ - لاحظ نور مُجَّد توهُّج وجنتي قَرَّبَاتر، سأل الأخير لا يُطيق صبراً وقلبه يكاد يخرج من بين ضلوعه. - كنتُ أتيتُ لك على ذكرها في طريقنا إلى هنا... هذه ماريا التي تعيش في أُنابه...

III

وَقَعَ "أكجكوه داور" في مسألة استغرقت تفكيره طوال الليل. أغمض جفنيه مرة واحدة في ليل الخريف الطويل. وكانت هذه الإغماضة مع الفجر. لا يتذكر الآن أنام كثيراً أم قليلاً. وما إن أفاق مذعوراً حتى غسل وجهه وركب.

كان مطّلعاً على مصدر المهمة التي أناطوها به أمس في إيكاترينودار، ولكنه لو كان يعرف أنه سيكلّف بمثل هذه المهمة لما عبرَ نهر بشزّه جهراً أو سراً. قال داور في نفسه: صحيح ما يقال من أنك إن كنت كثير الفضول فلا تهدأ وجدت نفسك في مأزق. على المرء في زماننا هذا أن يلازم بيته متمنياً ألا يعرفه أحد، لا أن يزور معارفه من الروس. العالمُ يغلي وأنا أذهب طوعاً وأقتحم النار. ما شأني أنا بالروس وبالترك؟ لا سقف بيتي يدلف، ولا أسرتي جائعة، ولا مواشي محرومة من العلف. لمْ لمْ أبق في بيتي شاكرًا لله، مسروراً بما عندي؟! بأيّ كلام سأحدث مع الشابسغ والأبزخ الذين أزورهم؟ حقاً ما كنتُ محتاجاً إلى هذه الحفنة من النقود التي دسّوها في جيبِي... "إن لمْ تخدمننا في هذا فلا أحد غيرك يستطيع" أنسيتم يا آل حجمقوه أن كاترينا زوجة القيصر أرسلت لكم سيفاً فضياً؟ يعلقون لضيوفهم القادمين العابرين نهر بشزّه سجاجيدهم المطرزة. وينزعونها بقدم ضيوف من الشابسغ والأبزخ. والآن بغضّ النظر عن سيف زوجة القيصر لمْ يعد القيصر يعرف إن كان آل أكجكوه لا يزالون أحياء. ولسنا وحدنا، بل من الصعب معرفة نواياهم الحقيقية بحق الأدبغة. الوحيد الذي أعرفه هو أن الكتاب الذي ترسلونه معي إلى الشابسغ والناخواي والأبزخ لن يكون له أيّ أثر إيجابي. وليسوا وحدهم، بل أقول لكم إنكم مخطئون بشأن

البجدوغ جيرانكم الذين تتأملون مساعدتهم. ولن تجدوا جواباً إيجابياً من الوبيخ. وكذلك من الجمكوي. لا أدعي أنكم لن تجدوا بينهم أمثالنا ممن يُصغون إليكم، ولكن أمثال أكجكوه - حجمقوه نادرون. الأديغة، ابتداءً من نهر بشزه وانتهاءً بساحل البحر الأسود، طيور حرة. هذا ما سمعته قبل أيام من خانجري حارس القيصر. وعلى ما فهمت فهو الآخر يريد أن يكون زعيماً للأديغة. وعلى قول آل حجمقوه، لن أدعك تحقق هذا ولو لم يبق غيري. وهل ما ينقص الأديغة الآن سلطاناً من النغوي؟!

الكلمات الأخيرة أضحكت أخجكوه داور في سرّه حتى ظن أن صوته مسموع. ونصب الحصان أذنيه كأنه فهم ما يدور في خلد راكمه. بدت قلعة غيورغ - أفس مع نور الفجر الباهت. وبعدما مشى مسافة اعترضه أربعة قوزاق مدججون بالسلاح ظهرها من جانبي أجمة البرقوق. - قف؛ من أنت؟

كان داور يعرف أن الجنرال بيسكروفن بنى قلعة قوزاقية في هذا المكان. ولكنه لم يكن يعرف أنها محروسة على هذا النحو.

- أنا أتحجكوه داور، وأنتم من؟ ماذا تريدون في هذا الصباح الباكر؟ - قدّم إليهم نفسه بلغته الخليط من الروسية والأديغة، وسألهم. وتذكر الورقة التي في جيبه الأيسر، فعرضها، كما أمره من أعطاه إياها، عليهم. وبدا من تعابير وجهه عدم ارتياحه لمعاملتهم إياه بهذه الطريقة.

- يمكنك متابعة طريقك، - ضمّ قارئ الرسالة عقيبته، ورفع يده إلى قبعته تحية، ثم أوماً بها لإملاء احترام، دون أن يعرف داور أهو من يميّونه أم الورقة. وفتح رفاق الجندي طريقه.

ومهما أبدوا له من مظاهر الاحترام فقد سأل نفسه بعدما تجاوزهم:

- هل وصل الأمر بنا إلى أن نحتاج إلى تصريح مكتوب لنمشي في أرضنا، أرض الأديغة؟! - هذا غير معقول!

اعتبر داور ما حدث له إهانة، وهاج قلبه يريد أن يجد محادثاً له. ولكن لم يجد في طريق الصباح راكباً أو راجلاً. عبر نهر أفس، وقلعة غيورغ - أفس على يمينه، ودخل المضيق. ورأى على الجبل الآخر خمسة فرسان، فحثّ حصانه كي

يغيبوا عن مرآه وإن لم يكونوا متجهين نحوه. أجبرته أصوات طلقات البنادق على أن يرفع رأسه فجأة، ولما نظر رأى الفرسان القوزاق الخمسة يطاردون فارسين من الأديغة يركضان في الاتجاه المعاكس للمضيق. واستنفر إطلاق النار قوزاقاً آخرين إلى المرتفع. ولكنهم كانوا يراقبون الفارسيين ولا يلاحقونهما.

قال داور لنفسه: لم أكن أصدق ما أسمع حين يروي من كانوا قرييين من الحادث ما جرى ولكنهم لم يكونوا كاذبين. فعلى ما يبدو لم نعد أحراراً في التنقل في أرضنا. أي مصيبة وقعنا فيها؟! انظر ما فعل بنا الروس والترك وهم يتنازعون علينا! وما طبيعة المهمة التي أذهب من أجلها إلى الشابسغ والأبزاخ؟ أنا مُخَيَّرٌ عند الروس؟ هذا ذنب آل حجمقوه. أظنني اتخذت لسوء حظي قريباً من القوزاق. اتخذوني مراسلاً للجنرال بيسكروفن دون أن يسمحوا لي بمقابلته. صحيح ما كان يقوله المرحوم عمي أنزور: لا تجلسوا إلى موائد الأسر المنتفذة؛ سيحببون عنكم اللحم ويتركون لكم العظم تمصونه، ثم يربطونكم إليهم ويسخرونكم تقولون وتفعلون ما يريدون. لم يكن المرحوم - فتح الله له باب جنته - يتحدث إلا عن تجربته الشخصية. وقضى المرحوم "نَه طار" بسببهم. وأنا أغروني بخدمتهم دون أن أتعظ بهم. ما يكسبه كل إنسان عن طريق محاولته الظهور بمظهر الرجل أمام الناس لن يؤسس ملكاً. الروس ليسوا مثل الترك؛ أليسوا جيراننا مهما عينا عليهم طباعهم ودينهم؟ نراهم إن نظرنا عبر نهر بشزه. ونخالطهم أحياناً ويخالطوننا. نحصل منهم على بعض ما نريده، ويجدون هم أيضاً مثل هذا. والآخرين، صحيح أن صلاتهم صلاتنا، غير أن من الصعب أن نعرف من وراء البحر نمط معيشتهم. وهذا رأي نور مُجْد حاغور. لا أظن أن هناك أصدق من قولهم: الجار كالبنطال. ومع ذلك كان عليّ أن أطلب مرافقاً لي إلى حيث أذهب، لا أن أسافر وحيداً. يمكنني التفاهم مع الشابسغ والناختوي ولكن لا أعرف كيف سيقابلني الأبزاخ الملتحون. ماذا تفيدك صداقة نيكراس تيم وهو الذي يكاد يمدّ عرقاً في الأبزاخ؟ لن يسمحوا له بالكلام بحجة أن الروس يتابعون قضايا روسية. يمكن لحاغور نور مُجْد وترام الفلاح أن يفيداني؟.. ويوسف أفندي؟

تذكر أحتجكوه داور آل زانه حين عبر بنظره نحو الناختواي. وفي اللحظة نفسها صحا من أفكاره، وانتصبوا أمام عينيه وإن أدار الرأس. وقال لنفسه: لا حاجة أن تسأل أين يُدير آل زانه وجوهمهم. وماذا ينصحك سفرني إن استشرته؟ يقال إن سفرني يتجه نحو الروس متى أراد ونحو الترك، وليس كلاماً فقط بل عاش في تركيا، والآن يدور حديث مفادُه أنه وقد عاد منها يحرّض الأديغة...

كلما قطع داور مسافة من طريقه هاج قلبه. ومع أنه ندم أكثر من مرة على سفره منذ الصباح فلا يفكر في الرجوع. ألا يلبس قبعة وقد وثقوا منه؟! هل يجر العار على نفسه؟ ولكنه لا يفعل ما لم يفعله غيره. أليس من يزورهم أديغة؟ يُطلّعهم ويُفهمهم وضعه ومهمته. والنقود الفضية ليست على الطريق كل يوم فتركّلها. لا يجوز أن يعرف أحد بموضوع النقود، وتبّهت من منحوي إياها إلى الأمر. حتى المرأة التي في بيتي لم أكشف لها عنها. ليس حراماً ما تجنيه بكّد يمينك وعرقك. ولا حاجة أن تخبر كل الناس بأمرها. ليعتبر الأديغة أنني أعمل لوجه الله. هل أعرج إذن أول الأمر في الناختواي على طارق سوباش؟

رأى داور حين تجاوز مضيق أفسس وارتقى المرتفع بضعة فرسان لا يمكن أن تميزهم. ظنّهم في البداية قوزاقاً ثم تبينّ بعدما اقتربوا أنهم من الأديغة. وعرف الفارس الذي يتوسط الثلاثة: خانجري. يرتدي كعادته زياً أديغياً بكل تفصيلاته. وعلى الوجه المتطاوّل الحليق شاربان أشقران. ومن القبعة الأديغية غير العالية يظهر شعراً من لون الشاربين. وما إن تبادل التحية مع الثلاثة حتى لحق بهم الفارسان المتأخران عنهما.

- إلى أين بإذن الله يا أحتجكوه؟ - سأل خانجري بعد السلام.

قال لنفسه: ظهر على نحو نافر من طريقة سؤالك أيها المنحوس أنك لست أديغياً. ثم تابع: ليس هكذا يُسأل المسافر. لم يُبدِ داور على نفسه عدم ارتياحه لطريقة السؤال. ولم يجد من اللائق ألا يجيب.

- رافقتكم السلامة يا خانجري، وأنا كما ترى اتجاء رأس حصاني إلى أرض الناختواي. ما أحوالكم؟ - وغيّر بسرعة كلامه، وسأل الفارس على يسار خانجري. وأنت يا تيم كيف حالكم؟ لم أرك منذ أن حضرنا جنازة المرحوم ميشكا.

- زرت أرض الشابسغ فقرر نيكراس تيموفيه وزانه قَرَبَاتر أن يشيعاني فراقاني
- قال خانجري مُخْفِياً أنه كان العشية في مضافة زانه سفربي. - حياكم الله،
عودوا الآن. أُحْجِكوه داور واحد من رجال البجدوغ سيكون مرافقاً جيداً
لكم، وأنا ما إن أرتقي المرتفع حتى أجد نفسي في بلاد البجدوغ. - وكنتم
خانجري أنه سيعرّج على قلعة غيورغ - أفس، عند القوزاق.
قال داور بعدما ساروا مسافةً وتيم وقَرَبَاتر على يمينه ويساره:
- خانجري رجل حكيم متعلم، يصل تفكيره إلى موضوعات كثيرة.
- صحيح أنه حكيم يا كبير - قال تيم قبل أن يكمل داور كلامه - ولكن
عواطفه متجهة إلى روسيا. منذ العشية لا همّ له غير روسيا.
- من البديهي أن يتجه إليها، - لم يكثرث داور بما سمع، - مادام يخدم في
الجيش الروسي.
- يبدو لي أنه لم يعد يخدم في الجيش الروسي. - عبّر قَرَبَاتر مباشرة عما في
نفسه نحو خانجري - أظنه عاتباً على الروس حتى لو كان يخدم في جيشهم.
- هل قال لك شيئاً من هذا؟ - استعجل داور وكأن الرسالة الروسية التي
يحملها تثقل عليه.
- لم يقل لي، بل أخمن.
- وأنا والله بدا لي الأمر هكذا. - وافقه نيكراس.
- هذا عجيب... - كنتم داور مشاعره وإن لم يُعجبه ما يسمع. - وأنا لا أفهم
سبب عودته إلى قريته لوستان حابله منذ هذا الربيع وإقامته فيها. ما الذي
جرى له يا تُرى؟
- هل عجيبٌ إن كان قد حمل رتبة روسية؟ - لا يغير نيكراس تيم رأيه. وقال
مُشعراً إياك أنه ليس مطلعاً تماماً على الموضوع: - على كل حال لنفرض أنه لا
يزال يلبسها... لا يعني هذا أن تحمل أصلك وتجعل من نفسك ممسحة قدمٍ
لهؤلاء الكفار. لا أريد أن أفترى على خانجري، غير أن سلوكه قبل أعوام في
أرض الأبخاخ لم يعجبني. وكان صرّح لي ببعض الأمور واثقاً مني، ربما لأني من
أصل روسي... كان يسجل في دفتره طرقاتنا الجبلية، ومعارب أنهارنا، ومواضع
قرانا. وحين أخبرت المرحوم والدنا لم يتقبل هذا التصرف.

لم يُبد قَرَباتر ردَّ فعلٍ على الحديث الذي نجم فجأةً حول خانجري وإن لم يعجبه. يتظاهر بأنه يساهم أحياناً في الحديث ولكنه لا يوافقهم بقلبه. ولا يعرف هو نفسه تفسيراً لموقفه. ما يقوله هذان هو رأيي والدنا أيضاً. لا قيمة لهذا الموضوع حتى تهتم به كل هذا الاهتمام. أعجيب إن كان يخدم في الجيش الروسي؟ ووالدنا فعل هذا، وترك الخدمة حين لم تعدَّ تُعجبه فانضم إلى الجيش التركي. وها قد عاد الآن ولازم البيت. وربما حدث الأمر نفسه لخانجري. ليس هذا عجيباً، بل تيم، نيكراس تيموفي، هو أعجب العجائب. يتكلم ناسياً العرق الروسي الذي خرج منه. إن حملنا الأمر على التودد إلينا فليست معرفتنا به حديثة العهد. ما السبب يا تُرى؟ إن كان هذا رأيك فلماذا أُلقيت بماريا في بيت سيريرياكوف؟ أعجيب إن كان الجنرال سيريرياكوف يعرف الأديغة؟ لا تعني معرفتك بالأديغة التخلّي عن طباعك الروسية. تناديها ماريا مترنماً بالاسم معتداً به. لست أجهل سبب تسميتك ابنتك باسم جدتها. لولا أن قلبك روسي لما خطر لك هذا البتة...

ارتسمت ماريا في غمضة عين في زحمة أفكاره المتراطة وغير المتراطة. ابتسمت لقَرَباتر الفتاة الصبوح التي تحمل الدم الروسي والدم الأديغي. وشعر بها في قلبه حلوة حلوة. وأنسَّته ما كان اللحظة في نفسه نحو والدها. لا ضير أن ينسى أصله ويمتدح الأديغة. فهم من ربوه وأنشؤوه. والمرأة التي ولدت ماريا واحدة منهم.

- يقال إن خانجري يجمع ما قيل في شأن الأديغة. - لم يستطع قَرَباتر إلا أن يحامي عن خانجري. - أتكون هذه المعلومات هي ما رأيته يسجلها في كراسته يا تيم؟

- لا يا قَرَباتر، لا يا أخي الصغير، - جزم تيم رافضاً الفكرة، - أنا أعرف ما أقول.

- وأنا كنت سمعت بعض هذه الأشياء ولكن لم أهتم بها. - قال داور للفارسين اللذين رافقاه. ليس تحليل شخص خانجري مسؤوليتنا، بل مسؤولية من يخدم في جيشهم. خدمتكم الكفار وفقدانكم ماء وجهكم سيّان. أنا من جهتي لا يمكنني أن أفعل هذا. نحن الأديغة لا يمكننا أن نسلك هذا السلوك في

وضعنا الحالي. ألا تريان كيف أقام الروس قلعة غيورغ - أفس؟ وفي شَبَج فعلوا الأمر نفسه. ويُقال إنهم يعبرون نهر لاباتا. قام ضابط في أرض الأديغة اسمه باسكيفيتش - إيريفانسك يهددنا بإفنائنا.

بدأ داور يروي بطريقة غير مباشرة كلَّ ما يتعلق بالأديغة مما في الكتاب الذي يحمله إلى الشابسغ والأبزاخ والناخوي، وكل ما سمعه في إيكاترينودار دون أن يعبأ بمعرفة صحة ما يقوله وعدم صحته. كان يريد أن ينقّس عن ضيقه بالمهمة التي التزم بها، وهذا ما أطلق لسانه على معرفة منه أو عدم معرفة. ولم يكن عليه أن يفصح لهم عما في جيبه السري وإن كان مجرد الكلام يفرّج عن ضيقه. وفي وقت ما، عاجلاً أم آجلاً، سيكشف لمن أرسلوه إليهم عما في الرسالة. ألن يفهموني إن قلت لهم إن الروس ترجّوني؟ ألن يسامحوني على ما أفعل؟ الرسول لا يُهان.

- أليس من تسميه الجنرال باسكيفيتش إيريفانسك خارج إقليم الأديغة؟ -
سأل قَرْبَاتر مُشعراً بأن له معرفة بالموضوع، وأجاب بسرعة: - هو يعيش في جورجيا، وقيم في تفليس... ومعه الجنرال بيسكروفي المقيم في مدينة شَنْتَقاله.
- ماذا يريد هؤلاء؟ ماذا ينوي هؤلاء لنا نحن الأديغة؟ - استغرب تيم ما سمع.
- يقيمون قلعة على أرضنا دون أن يستشيرونا. ألا يعرف الجنرال الذي أتيت على ذِكْره والقيصر أننا لن نسمح لهم بهذا؟ والله عجبون هؤلاء الذين نعيش بينهم كما كان والدنا المرحوم يقول.

- ما كانت مشكلة لو كنا نسمع بهذه الأخبار فحسب ولكننا نرى بعيوننا. -
يتابع داور التفريغ عن ضيقه... - اليوم أوقفني القوزاق ثلاث أو أربع مرات. إلى أين تذهب، ومن أين تأتي؟ هذه هي حالنا يا مبارك النسل، لم نعد أحراراً في التنقل عبر أرضنا الأديغة. تزيد القبعات القوزاقية يوماً عن يوم...

...

لم يكن خبرُ استقالة سلطان خانجري من الجيش الروسي صحيحاً. يرويه اليوم في كثير من قرى الأديغة متنقلاً، مجيئاً موارد أياً شخص يسأله عن وضعه بأسباب شتى أهمُّها المرض والاستراحة، متجاوزاً السؤال إلى موضوع آخر. وما

إن يظنون أنه عاد إلى الجيش الروسي والتحق بالخدمة في بتريف¹ حتى يروه بالزي الأديغي الكامل في بلاد القبرتاي. وقبل أن يجدوا الفرصة لمقابلته في القبرتاي يكون انتقل إلى أرض البسلني. وما إن يروونه في أرض الجمكوي حتى يقبلوه في أرض الأبراخ، ثم يعود إلى بلاد الشابسغ، وقبل أن يتسنى لهم رواية خبره ينتقل إلى البجدوغ، ويروونه في المضافات وفي المآتم. وأينما اتجه حمل معه الكراسي السميكة التي يظل يسجل فيها دون أن يعترضه أحد. وحين يخالط الأديغة يفتح باباً للأديغة، وحين يعترضونه في القلاع القوزاقية يعرض عليهم هوية موقعة من كاتم أسرار القيصر، قائد الفرع الثالث من البوليس، بنكندورف فيومئ له أعلى الضباط الروس رتبة إمامة احترام، ويفتح له الطريق.

وخانجري شابٌ بالقياس إلى الاحترام الذي يحظى به في الجيش الروسي. لم يبلغ الثلاثين بعد. ومع ذلك فالأمير الأديغي ذو الرتبة العالية يخدم في حرس القيصر. ويحظى بثقة القيصر نيقولاي الأول والمقرين منه. ولخانجري منجزات في خدمة روسيا يستحق بها ثقة القيادة الروسية. وليس وحده من حظي بهذه الثقة بل والده أيضاً.

آل سلطان ينتمون إلى نغوي القرم. وقبل زمن بعيد انضموا إلى الأديغة يقاسموهم أفراحهم وأتراحهم. وهم يعتدّون بنسبهم الأميري. ويحملون من انتموا إليهم على هذا الاحترام. وهم مصرون جداً على خدمة الأديغة متخلقين بعبادات مُساكنيهم وطباعهم، عاملين على تطوير أفكارهم وحماية شرفهم. ومحمدٌ والدُ خانجري كان رجلاً وقوراً يحترم جداً الروح الأديغة. وعاش منحازاً إلى الروس حتى وافته المنية مبكراً. وفي الثامن عشر من الشهر الأخير من عام 1816 قُتل سلطان محمجري الذي منحه القيصر ألكسندر الأول رتبة عالية في الجيش على يد المنحازين إلى تركيا، ولاسيما رجال الدين الإسلامي. وبتوصية من والده نُسب خانجري إلى الجيش الروسي. وخدمه في هذا الانتساب يرمولوف قائد الجيش الروسي في القفقاس. ودّرّسه في المدرسة العسكرية في

¹ النطق الأديغي لاسم مدينة بطرسبورغ. وصار الاسم لاحقاً رمزاً لكل بعيد وكل مهلكة:

ليأخذك الله إلى بتريف!

تفليس، وحين اتخذ جسمه قالب الرجال كان قد أنهى دراسته في الكلية الحربية في سان بطرسبورغ.

وحيثما أُرسِل خانجري أبدى رجولة، ولاسيما في بولونيا. وأخلص للجيش الروسي الذي رباه حتى إنه كان مستعداً لأن يقتحم النار ويضحى بنفسه من أجل القيصر. وكان يعتدّ بضربة السيف التي تلقاها في بولونيا، وبجرخي الرصاص، ويستمد منهما الثقة بالنفس ولا يعبأ بالقسوة الدموية التي قُمعت بها ثورة البولونيين في سبيل حريتهم، ولا بالمصيبة التي حلت بالشعب البولوني.

لم يكن خانجري قادراً على ألا يُشفق على الناس الذين ينتمي إليهم مع أنه كان له الرأي نفسه في المسألة الأديعية. وقد تحول إلى هذا الموقف ليس في السنة الأولى التي اختلط فيها بالأديغة بناءً على تكليف من بنكندورف المقرب من القيصر¹، بل في السنة أو السنتين اللتين أدرك خلالهما أن الروس لا يريدون له أن يتزعم الأديغة.

وإن عدت سنة واحدة إلى الوراء يبدأ خانجري يفهم ما لم يكن يفهمه في ما يتعلق بقضية الأديغة. وما لم يلحظه خانجري في الحرب الروسية - الفارسية التي جرت بعيداً عن إقليم الأديغة، وحين كان في بولونيا، يراه الآن بعينيه، يسمعه بأذنيه، ويعايش القضية على نحو يستطيع تقييمها. وليس لهم ما يُخفونه في شأن الطرفين المتجانبين. والكلمات القليلة التي تتسرب منهم في المواقف التي لا يثقون به فيها لا يمكن إخفاؤها، فصارت مفهومة منه.

¹ حسب ما يكتب الصديق الحميم لخانجري وكان عاملاً عنده ف. ب. بورناشيف في كتابه "الكتابات المتعلقة بالشراكسة" كان أحد من قابلوا خانجري أخبره "ما ترويه يا جري يدل على حسن اطلاعك على تاريخ سكان الجبال القفقاسيين. القيصر حاكم البلاد ينوي زيارة القفقاس في الصيف القادم، وربما جرى اختيارك ضمن الوفد الكبير المرافق له، ولكن هذا ليس مؤكداً تماماً. على أن الأكيد هو ضرورة أن تكتب للقيصر معلومات تتعلق بساكني الجبال في القفقاس. وعندك بعض هذه الكتابات. وهذه الكتابات يجب أن تكون جاهزة ليس خلال شهرين، بل خلال أسبوعين" المؤلف.

قال خانجري: صحيح ما قاله لي العجوز الذي قابلته قبل أيام في عمق الغابة: "أنت ترى ما يفعل بنا القيصر مهما أحسنت إليه. لا تُضَيِّعُ معروف الأديغة! ليست روسيا ولا تركيا مهمومتين بنا؛ أترى ما تحتاجان إليه؟ هذه الأرض المباركة الملعونة..." صحيح أيها النجار العجوز، صحيح! وأنا أفكر على هذا النحو. وربما كان هذا هو السبب في أن القيصر تصام عن سماعي حين لمحت له أن ينصّبني زعيماً على إقليم الأديغة... مهما اعتقدنا أنهم يُعزّوننا فمن يحتاج إلى الأديغة السُدّج كبطن زائد عن الحاجة يحتاج إلى الطعام.

خرج خانجري من أفكاره ونصّ برأسه، ونظر بطرف عينه إلى رفيقيه الفارسين. وظهرت من بعيد قلعة غيورغ - أفسس. وفيما يُصغي إلى وقع حوافر الخيل المتعبة اجتذبت أفكاره الثقيلة ثانية. ماذا بيدي؟ ما حمّلي الله حملي. وأنا أقسمت قسم الضابط الروسي. وما كلفوني به سأصل فيه إلى نهايته، وأضع النتائج أمامهم. ولكنني أعرف أن الأديغة الذين يهلكون بين الدولتين لن يستقبلوا القيصر كما تملي تقاليدهم. الأديغة اعتادوا على حرية أزية. وإن رضيتهم بدولة أديغة لها حاكم محلي فقد يصلحون أو لا يصلحون. ولكن لا أظن أن للطرفين مخرجاً غير هذا. ليحم الله الأديغة، هم الآن في وضعٍ اندثار...

...

لم يكن داور ينوي أن يتخذ من زانه سفري مضيفاً ولكن الفارسين اللذين رافقاه أمس في الطريق لم يسمحا له بتجاوز قرية قماتر. ورغم كونه أكبر منهما سناً فقد أفهماه أن العادات الأديغية لا تسمح بالتجاوز.

من عادة أهل القرى أن يتجمعوا عند ضيف القرية. وعند سفري سهر إلى آخر الليل ليس الجيران فحسب بل القادمون من أماكن بعيدة. تطرقوا إلى موضوعات كثيرة، وتحدثوا فيها. عبروا نهر بشزه إلى روسيا. وعبروا البحر إلى تركيا. ووصلوا بتفكيرهم إلى القبرتاي والداغستان وأستراخان. وتزّهوا في جورجيا. وتمثلت لأعينهم أنجازيا. وأينما كانوا بالأخبار وبالأفكار كانت أرض الأديغة محطتهم الختامية. لم يكونوا يستطيعون تحليل ما جرى في الستين أو الثلاث الأخيرة، ولا سيما ما يحدث بتأثير الدولتين تركيا وروسيا. لم تكن هذه الأمور تبعاً للمنطق الأديغي مما يستحق كل هذا الاهتمام: أرض الأديغة

للأديغة! امتزجت بعرق جباههم، وعملوا فيها منذ الأزل وحموها. عيبٌ أن تقتحمها وتقيم فيها القلاع دون استئذان أهلها.

مهما قيل في المضافة أمس وافق عليه داور: اغتاب مع الحاضرين الروس والترك والكرج. (لم يكن يفهم علاقة الكرج بالأديغة) وأياً حادثه في المضافة لم يُفصح له عن مهمته. لم يسمع ما يشجع على الحديث بشأن الروس مع أنه كان قرر أن يفعل هذا. ومع أن أحداً لم يعترض على بعض كلمات سفري الودية في حق الروس فقد جلس الجميع صامتين مُشعّرين أنهم لا يوافقونه في قرارة أنفسهم. ولم يكن صعباً معرفة أن بينهم من كان سيعترض لولا احترامهم لزانه سفري. وقد رأى بعينه بعض من حاولوا الاعتراض على كلامه. وكان هذا ما يمنع داور من الإفصاح عن المهمة التي حملته على السفر. ومن لم يكن يتوقف عن الاحتجاج هو من ركب اليوم طريق الأبخاخ: نيكراس تيم. لم يوفّر انتقاداً بحق القوم الذين ينتمي إليهم.

ابتسم داور مصداً قولهم: "إن علّمت النغوي لغة الأديغة فلن يفسح لك المجال للكلام" وهذا عيب نيكراس تيم دون شك. ولكن من أي نوع هذا الذي أجلس في مضافته سفري؟ يُحرّج الأتراك علناً، ويمتدح الروس. أهو من النوع المخادع أم يقول ما في نفسه؟ يتكلم بحماسة من أعماق قلبه على ما أظن، وإلا فما الذي يجبره أن يتكلم بعكس تيار الجالسين؟ كنت أظنه عدوّ الروس وإذا بي أفاجأ بموقفه. لن أجد محادثاً ومشيراً أفضل منه. سأروي له مهمتي ونفكر في الأحسن. أم أذهب إلى باستوك حيث نور مُجد حاغور ونجم الضابطة¹ المخاتير الشابسغ، المساندين لطارق سوباش؟ ولا تخلو الشابسغ ممن يناصروني. يُخيّل لي أنه إن انضم زانه سفري إلى هؤلاء فستنجح مهمتي. إن وُفق هؤلاء في مسعاهم فلن تسوء مهمتي إن لم تتحسن. حتى الكويك الفضّي

¹ في الأصل المرتزقة بالعربية، وهو مستعار من تسمية بعض جيوش الأتراك. وهم مختار القرى المسؤولين عن تطبيق القوانين، كما سيرد في الفصل الثالث من الكتاب الثامن. وآثر استعمال الضابطة تحبباً للمعاني السلبية في ذهن القارئ العربي للكلمة. واضطُررت في أحيان قليلة، في حالة الأفراد، أن أستخدم كلمة الشرطي.

يا مبارك النسل له قيمة في حياتنا الشاقة. ويُقي من وراءك بخافونك، وهذا أسلوب حياة حثيث جمعقوه وسائر أسِر الأمراء. يجعلك المال أميراً ولو لم تكن سليل أمراء. انظر ما حدث لنا نحن آل أَّحجكوه وآل حاغور! اغتني آل أرسيه من حرب بزيقوه في حين انتكبنا نحن فيها. قضى فيها والدنا وعمنا والإخوة من آل حاغور. ضايقتني آل أرسيه البغيضون ومنعوني من الإقامة في باستوك حتى أجبروني على الرحيل إلى أرض البجدوغ. ونور مُجد مثلُ والده المرحوم حاغور موسى، لا أفهم كيف يستطيع مجابهة هؤلاء الجشعين. لو كنت أرى كل يوم هؤلاء لانفجرتُ!..

والآن، حسب ما أرى، سأكتسب وضعاً ما في أرض الشابسغ إن ساندني زانه سفري، غير أنني لا أعرف مصيري بين الأبراخ الملتحين... إن لم يطوَّعهم يوسف أفندي فلا أظن أحداً في الدنيا يستطيع قيادتهم. إن تقبلوا الموضوع في الشابسغ والناخوي فأين سيذهب الأبراخ، لابد أن يرضخوا. أما البجدوغ فهمُهم وقد تحولوا إلى روسٍ هو ما وراء نهر بشزه.

كان أَّحجكوه قرر أن يتخذ من سفري موضع ثقته ولكنه لم يبادره حين عاد إلى المضافة. وبعدما تحدثنا في بضع أخبار عن قرية قماثر، بدأ الحديث حذراً: - أخرجت يا سفري العشية نيكراس تيم جداً... لا أفهم والله كيف يحتقر الإنسان أبناء قومه إلى هذا الحد... إن كنت مستعداً أن تفهم ما في نفسي فسأقول لك أيها الأمير: جعلني أتوجس من شرِّ ما.

- وهل تعتبر نيكراس تيم روسياً؟!

- من يكون إذن يا أمير؟ لا يكفي أن تكون زوجتك من الأديغة لتصبح منهم.

- إياك أن يسمع منك تيم هذا!

- لا يا أمير، لا، أقول هذا بيني وبين نفسي فحسب، لا لغيري، لا سمح الله. - نظر داور جهة الباب، ولطَّف صوته. - لن أسيء إلى تيم أبداً سواءً جعل من نفسه تركياً أم من النغوي، لا بعث الله إليَّ همّاً أصعب من هذا. من يسئ إليه ومن يُسئ إلى المرحوم نيكراس سيَّان. لن أقبل ممن يفعل هذا.

- صحيح يا داور، صحيح. أوافقك على رأيك. وهذا هو السبب في أني لم أسئ إلى تيم ليلة البارحة. تيم متطرفٌ في شأن الروس. - جلس سفري بعض الوقت متظاهراً بالتفكير، وأضاف بعدما وافق ضيفه: - الروس يا داور، وإن كان لنا موقف منهم، عرقٌ كبير. لا يمكن مقارنتهم بالترك، وهم جيراننا، ولنا حدودٌ معهم.

- صحيح، صحيح يا سفري، يا أمير - فرح أحجكوه، وأسرع في الإجابة. - أنا لستُ جاهلاً بحال الروس والأترك. خدمت الطرفين وأخلصتُ لهما. وها أنا الآن عدتُ إلى قماطر، وأقيم فيها أملك الأراضى القديمة لأسرة زانه. لا شيء يا داور يعدل أرضك وبلادك. ولا أدعي أني عشتُ فيها خالياً من الحزن والإهانة ولو يوماً واحداً. والأيام التي قضيتها فيها سعيداً أكثر. غير أني حزين لتنازع الأديغة القيادة. وكل زعيم قرية يعدُّ نفسه قائداً لهم، متنازعين على قصب السبق إلى الشجاعة. ألسنا دولة كاملة إن اجتمع الشابسغ والأبزاخ والويخ والبجدوغ والجمكوي، وعلى مسافة أبعد القبرتاي والشرجس¹.

- نعم، ولكن ما الفائدة من كثرتنا... - يوافق داور مضيفه، وينظر في وجهه كمن يقول: صارحني بما تريد. - وكما تقول أنت: مشكلتُنا في تنازعنا... - نعم يا داور، وهذا رأي الترك والروس فينا. لو كان عندنا أميرٌ واحد لتغيرت نظرتهم إلينا.

- أصبح إذن يا سفري أن الترك باعوا الأديغة للروس؟ تظاهر أحجكوه أنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع.

- صحيح، - شهد سفري باختصار على ما لم يكن يصارح به أحداً، ثم سألته وكأنه يعرف شيئاً بخصوصه: - أليس في أرض البجدوغ التي تأتي منها مثل هذا الخبر؟

- وكيف تخلو البجدوغ يا سفري من هذا الخبر وقد اقتحموا أرضها ويسيرون فيها القلاع والمرصد، ألا علم لك بما؟!

¹ هو اسمٌ يُطلق على الأديغة من الأقوام الأخرى. يُقصد بهم هنا الأديغة الذين يعيشون الآن في جمهورية شركيسيا - القرشاي.

- أعرف. وسمعت أن الفرسان الشابسغ هاجموا القلاع الروسية. وقيل إنهم قتلوا بضعة رجال من الروس. أتعرف لماذا يحدث هذا يا داور؟ قيصر روسيا، دَعَكَ من السلطان التركي، لا يتصرف على نحوٍ صحيح مع الأديغة. لو كان يعدّنا بشراً لأعلمنا بنيتّه قبل أن يغزو أرضنا.

- ألا يمكن ألا يعرف القيصر بما يفعل الجيش الروسي في أرضنا يا سفربي؟
- لا يجري يا داور شيء في أرض الأديغة دون علم القيصر. لو استطعت أن أتحدث مرة إلى القيصر...

- ألا يمكن أن تقابل الجنرال بيسكروفن؟
- أوْدُ مقابلته ولكن...

- الجنرال بيسكروفن أيها الأمير، - استلم داور الحديث من سفربي - أوفدني إليك... أرسل معي رسالة إلى ضابطة الشابسغ والأبزاخ والناخواي... وطلب مني إطلاعك عليها وتسليمها لك.

- هاه! كيف لم تأت على ذكرها منذ البارحة؟

- لم أكن أريد أن أشرك في الأمر كثيراً من الناس قبل أن أعرف ما سيجري.
- وماذا يقول الجنرال بيسكروفن؟ - سُرّ سفربي بالخبر وهو لا يعرف أنهم يخدعونه - هات الرسالة، ماذا يكتب لنا؟

- طلب مني أن أطلعك على ما في الرسالة بشأن الضابطة، ثم أخبرك شفهيّاً بما يتأمله منك - حسناً إذن - مدّ يده وأخذ منه الورقة. - عجيب أن تذكرنا مرة. - مرّ سفربي بسرعة على ما في الورقة دون أن تعرف إن كانت تروقه أم لا. - والله لا أعرف ما سيقول الضابطة في هذا الشأن... نجتمعهم، ثم اعرض عليهم!

...

حين أُخبر الضابطة بمрад أَحْجَكُوهُ موفد الروس اجتمعوا في اليوم الثالث في مرعى بظاهر قرية قماتر. وحضر من الشابسغ والناخواي أكثر من ثمانين وإن لم يأت الكثير من الأبزاخ، فتجاوز المجموع المئة. ودُعي من كل قرية من الجوار ثلاثة من مُسنّيها.

الفرسان متجمعون في مجموعات ملتقّة بعضُها على بعض كأنهم يتجنبون برد اليوم الخريفي وريحه القارسة. ولا يبدو في المرعى مكان الاجتماع أيُّ راجل. وحراس الاجتماع يغطون جوانبه.

افتتح طارق سوباش اجتماع الضابطة لكونه الأكبر سنًا. تقدم سوباش بحصانه بهدوء إلى الساحة، وضَمَّ فردي البنطال اللتين تعبت بهما الريح في الحذاء العالي. ورفع يده دون أن يبدو عليه أي أثر للقلق:

- أيتها الجماعة، لا عِلْم لي ولا لكم بسبب اجتماعنا. تعال وأطلعنا يا أَخْجَكوه على مهمتك معنا. أَخْجَكوه داور قادمٌ من البجدوغ. وهو ينتمي إلى عامة الشعب الأخيار. والحق أنه من الشابسوغ في الأصل ممن هجروا باستوك ورحلوا إلى البجدوغ. أسمعنا يا أَخْجَكوه مهمتك هنا!

جفل أَخْجَكوه غير مرتاح للطريقة التي افْتُتِح بها اجتماع الضابطة. وأول ما لم يرتح له قلبه من النظرة الأولى هو طريقة وقوف الفرسان إذ يجتمعون حسب مناطقهم: الشابسغ والناخواي، والناخواي الأبخاخ، والأبخاخ.

- أيها الأمير زانه سفربي - بدأ أَخْجَكوه كلامه بتوجيه التحية والاحترام إلى سفربي بصفته الأمير الوحيد بين المجتمعين. - أيتها الجماعة، والله ليست لي مهمة مع اجتماع الضابطة الذين أُعْزُّهم. بل ترجّاني قائد الجيش الروسي المتوغل في أرض الأديغة أن أنقل هذه الورقة إلى ضابطة الشابسغ والناخواي والأبخاخ فحملت المهمة على محمل الجد...

- أيها الزعيم المبارك، - صاح أحد الفرسان الأبخاخ، وحين نظر إليه داور فوجئ بأنه نيكراس تيم - أود أن أسأل الموفد فاسمح لي. - قل يا تيم!

- هل أنت في خدمة الموجيك¹ الذين أرسلوك أم كرمي لهم؟
- لا شيء من هذا، - قال أَخْجَكوه وبودّه تعريف المجتمعين أن السائل من معارفه ناطقاً باسمه: - لا شيء من هذا البتة يا تيم!
- كيف حدث إذن أن أوفدوك؟ - سأل آخر من موفدي الناخواي.

¹ المقصود بهم هم الروس عموماً، وفي الأصل هم صغار الفلاحين الروس، وهو هنا استعمال تحقيري.

- كنت أودّ ألا تحدث مأساة بين الأديغة والروس الذين دخلوا أرضنا فجثّمتُ نفسي المشقة. - ونظر نحو سفري يقول له: لا تدعهم يهينوني في الساحة. بدأ المجتمعون يفهمون أن المهمة التي جاء بها أخصجكوه فيها جانب صادق وجانب كاذب. وسمعت ضحكات من أكثر من مكان تشهد على صحة هذا الاستنتاج. ورفع سوباش يده يطلب منهم الصمت.

- ليقرأ الضيف الورقة!.. - صاح من بين الفرسان أحدهم لا تعرف إن كان يسخر من الضيف. - ما أشدّ ما تماطلون!

- وهل يعرف لغة الروس ليقرأ؟! - صاح رجل آخر من وراء فرسان الشابسغ. - هذه مكتوبة بالتركية... - عرض أخصجكوه الورقة.

- لسنا أتراكاً حتى يرسلوا إلينا كتاباً بالتركية. - لا يزال نكراس تيم يشاكس.

- لا شأن لهم ببلادنا، ليخرجوا! - تجاوب عدة فرسان من أكثر من مكان.

كان سفري يعرف منذ أن بدأ رجال الضابطة يتجمعون أن اجتماعهم لن يأتي بنتيجة. يبدو يومياً في أكثر من طريقة أن الأديغة غير مرتاحين لغزو الروس أراضيهم. وتسمع هذا الموقف في المضافات، والشوارع، والأعراس، وحفلات الجابشة¹، والمآتم. ومتى تحدث شخصان لم يتكلما في غير هذا الموضوع.

بهذه الطريقة في عقد الاجتماع، قال سفري، لا يمكنك أن تساهم في هذا الموضوع. وليس الأمر كما يتخيل الأديغة. ولن تتحقق نيتي دون اللقاء برجال الروس. ولن تكون للنية فائدة ما لم يساندك هؤلاء ويدعموك. يا ربي ماذا جرى يا ترى في مشروع خانجري؟ هل رجع إلى قريته دون تحقيقه؟ إن حدث هذا فمرادي أيضاً بلا أساس. عليّ أن أجمع به يوماً ما. سأنتزع منه بعض ما يدلني على ما في قلبه ولو أخفاها الخبيث. وسأفعل هذا قبل لقائي برجال الروس.

خرج سفري من أفكاره بسرعة كما دخل، وعاد إلى الساحة لتهدئة الثائرين. انتظرهم حتى هدؤوا مُظهراً لرجال الضابطة بذلك أنه سليل أمراء. وناداهم بعد قليل:

¹ حفلة منوعات تقام للجرحي جراحاً بليغة ولمن عنده كسور خطيرة. وسيقدم الكاتب معلومات كثيرة عنها في الفصل السابع من الكتاب الرابع.

- أيتها الجماعة لم أركب إلى اجتماع الضابطة جاهلاً ما يُقلقكم. نحن الأديغة نعيش اليوم أوقاتاً صعبة. وليس الله جاهلاً بالحِمل الذي يُبْهَظ رقابنا. ولذلك لست أيتها الجماعة مطلعاً على الورقة التي أرسلوا بها أخرجكوه إلينا. ويشهد عليّ في هذا الله العليّ العظيم. - نظر نحو أخرجكوه يقول له إياك أن تدّعهم يشكّون فيّ - لماذا نعيد الرسالة ونحن لا نعرف ما فيها؟ هات الورقة يا أخرجكوه! ما يقوله نيكراس تيم صحيح فنحن لسنا تركاً، سأترجم لكم. قرأ سفري الورقة بسرعة وبصوت عالٍ وغير عالٍ، مُسمعاً القريين منه. ثم قال لهم والورقة بين إصبعيه: - هذه الورقة تتعلق باتفاقية أديرانونبول بين الحكومتين الروسية والتركية، وبموجبها أعطت تركيا لروسيا إقليم الأديغة اعتباراً من ساحل البحر الأسود إلى الضفة اليسرى لنهر بشزه، وصرنا هكذا من رعايا القيصر. وتقول أيضاً إن عليكم أن تصالحوه وتنضووا تحت علم القيصر الروسي، وتطيعوا أوامرنا، وتعملوا بعلمنا. (الكلمتان الأخيرتان أضافهما سفري من عنده) ومن لا يصالحنا ولا يعترف بقانون القيصر نتعامل معه بقانون الدولة، ونرفع في وجهه السلاح... هذا ما تقوله هذه الورقة يا جماعة الضابطة.

تصايح المجتمعون:

- هل يمكن أن يحدث مثل هذا؟

- أيّ حاكم عجيب! - اضربوا من حمل إلينا مثل هذا الخبر!

قابلَ الفرسانَ الهائجين الذين اقتحموا المرعى مكانَ الاجتماع فرسانَ آخرون يمنعونهم من العدوان. ومد طارق سوباش يده فأمسك بلجام حصان أخرجكوه. ورفع اليد الأخرى:

- ما تفعلونه عيبٌ. إن رفضتم الورقة التي حملها إليكم فأرسلوا معه رفضكم لها. أسمع يا أخرجكوه؟ إرو لمن أرسلوك ما ترى وما تسمع. انظر! - أشار سوباش بطرف السوط إلى طريق البجدوغ، وقال وهو ينظر باتجاه قلعة غبورغ - أفس: أرسلوا معه فارسين وشيّعوا أخرجكوه إلى الجهة التي جاء منها.

لم يرفع أحدٌ من الواقفين رأسه ليتابع أخرجكوه حين رافقه فارسان في الطريق. وكان الخبر المزعج الذي جاء به مصدرَ قلق الجميع. لم يكونوا يعرفون تفسيراً لسلوك الروس والتّرك معهم. وما اعتبره اجتماع الضابطة إهانة هو عدم تنازل

روسيا أن ترسل أحد رجال الدولة، وتكلف أحد الأديغة بإبلاغ الخبر. واستمر الضابطة متجمهرين يرددون هذه الأفكار إلى ما بعد الظهيرة. ثم بدؤوا يتفرقون غير راضين بما أُبلغوا.

- حسناً، ليست هذه مشكلة - قال أحد المنصرفين، - ليس الروس من يجب أن نعتب عليهم، بل الأتراك ذوو السراويل الفضفاضة الذين باعونا إليهم ولسنا مُلكهم.

- والروس لو كانوا صالحين لما أخذوا منهم ما ليس لهم. حسم نيكراس تيم النقاش. - من الصعب أن تزرع الإنسانية في من لا إنسانية لديه!

...

لم يفارق ما رآه أحجكوه مخيلته طوال ثلاثة أيام من مغادرته اجتماع الشابسغ. ولا غاب عن ذهنه سلوك الضابطة معه. وإذا كان أحجكوه شعر بالإهانة مما جرى له فبالمقابل كان يوافق على موقف الأديغة.

قال بينه وبين نفسه: أليسوا على حق؟! إن لم تتصرف هكذا فمن يحترمك؟ التصريح الذي أحمله هراه القوزاق على الطريق تفتيشاً. أهنت نفسي أمام اجتماع الأديغة. والآن بأي عين سأنظر في وجوه الضابطة؟ لم يرتق موقفي من الأديغة حتى إلى موقف نكراس ذي الأصل الروسي... اسمع ماذا كان يقول! يتودد إلى الأديغة ويدغدغ عواطفهم على ما اعتقد.

تبين أن الخبر الذي حمله أحجكوه إلى إيكاترينودار يعرفون صحته. شك في معرفتهم له وإن لم يصارحوه. من يا ترى جاءهم بالخبر؟ أهو روسي؟ روى لهم ما رأى وما سمع وهذا السؤال لا يفارق ذهنه.

- الأديغة لا يريدوننا إذن؟.. - ألقى الجنرال بيسكروفن السؤال إلى من وراءه وهو إلى جانب النافذة، ثم استدار وأضاف بسرعة: - ما العمل، سأمحني أيها الأمير أحجكوه، ونحن لسنا راغبين فيكم جداً... ولكننا بحاجة إلى ساحل البحر الأسود وشريط نهر بشزه. - كان يؤد أحجكوه أن يقول إنه ليس من الأمراء، غير أن الجنرال سألته دون أن يتيح له الفرصة للكلام: - صحيح أن في الأبخاخ أسرة روسية؟

- صحيح. أسرة نيكراس تقيم في قرية دخاباه. - وخطر له فجأة احتمال أن يكون تيموفيه هو من نقل الأخبار. - لا غبار عليه، رجل ممتاز.
- الأديفة لا يريدونها، صحيح هذا؟.. - كرر الجنرال ما قاله غير مُصغٍ إلى ما يقال له. - ولم يلبث أن أضاف بصوت لطيف كأنه يحدث نفسه: - إن كان هذا موقفهم فسنغزوهم بالجيش.

IV

اتخذ سفري من ابنه قزباتر، بما لا يتناسب مع عمرهما، محادثاً كي لا يفكر وحده تماماً. تجادلا ريثما عبرا مرتفع الناختوي، وتوافقا. ورأياهما ينطلقان من قاعدة واحدة وإن لم يتطابقا تماماً. يريدان كما الضابطة ألا يسمحا للجيش الروسي باقتحام أرض الأديفة ولكنهما لا يريدان اتخاذ الروس أعداء. كيف لا تعادي من يسلبك أرضك؟ وبأي أسلوب تتعامل معه؟ يثير السؤال سؤالاً. تمر أمام عينيه مرة قلاع القوزاق، وأخرى الضابطة. وينبع من الجواب سؤال آخر. ويتداخل مع هذه الأسئلة ما قاله له قبل أيام زعيم الوبيخ برزج جراندوقوه. ورغم أن سفري لم يكشف لجراندوقوه رأيه بوضوح فقد كان كلام الأخير واضحاً: "متى سمحت للروس أن يجلسوا على مائدتك احتلوا صدرها، بل طردوك منها".

متى قال برزج هذا فاعتبر الوبيخ كلهم يوافقونه. لماذا ناقم يا ترى على الروس إلى هذا الحد؟ وفي الوقت نفسه لا يحمل كثيراً من الود للترك. ولكن أغلب حقهده موجّه مع ذلك نحو الروس. كل هذه المصائب أتت من جماعة سيريرياكوف غزار. لم يكفه ساحل الشابسغ والناختوي فأحاط بساحل الوبيخ، ولا يسمح لأي سفينة بالعبور دون تفتيشها. ومتى رأى فيها باروداً أو رصاصاً أو سلاحاً تصرّف بموجب أوامر القيصر فصادر السفينة لصالح الدولة. والتزام غزار بأوامر القيصر يضرّ بالوبيخ. وليسوا وحدهم من يتضرر بل كل الأديفة القاطنين الساحل، ومن يعيشون في الجبال، ومن يعيشون في السهول، والبسلني، والقبرتاي.

قال سفري: من الصعب إقناع برزج في هذه المسألة، أعني الصلح. حين لميحت به إليه هاج كرأس خنجر. وليسوا وحدهم بل يستلّ الأبخاخ أيضاً سيوفهم. ليس

بينهم من تحدّثه وتفق به إلا تسي حاترباي. أما نيكراس تيم فلا يمكنك الاجتماع به، بل الاقتراب منه. مهما بالغ في أدبيته فهو في النهاية من أصل روسي لا تُصدّق طباعه وأقواله، تبتسم حين تسمعه. وإن توجهت إلى آل حجمقوه في البجدوغ فلن يُطلعوك على ما في قلوبهم وإن كشفت لهم عما في قلبك. يوعزون إليك بما يريدون عن طريق مسائرتك. ولكن هذا لا يعني أنهم لا يميلون بقلوبهم إلى الروس وإن لم يكاشفوك، يعبرون نهر بشزه، وكيف يمكن أن تكتم عن الأديغة سفر حجمقوه بانجري إلى قيصرة روسيا إيكاترينودار في بطرسبورغ؟ وآل بولتقوه من الجمكوي أسرة مخادعة. لم أخاطبهم كثيراً ولكن كلام الأبراخ لا يخلو من الصحة فقد عاينت خبثهم أكثر من مرة. ومع ذلك لا بدّ أن أجمع بهم. علينا أن نتناسى حُبنا ونتفق على التعايش وُفق مبدأ واحد وخطة عمل واحدة بدلاً من التنازع على القيادة. ولو عشنا بهذه الأفكار لكان ما يحدث لنا اليوم وراءنا. ولا بأس من استمزاغ آراء البسلمي والقبرتاي. كان حسناً أن نتحد خلف رجل واحد ونُخبر قيصر روسيا أننا سنتعامل معه على أساس دولة مقابل دولة. ولا فائدة من أن أفعل هذا وحدي إن لم تتفق آراء أعراق الأديغة كلها. وعلى ظني فإن خانجري توصّل إلى هذا الاستنتاج فتقاعد عن العمل.

- متى وصلنا إلى لوستان حابله رأينا كيف سيقابلنا خانجري وكيف سيسلك معنا، - نظر سفربي إلى قَرَباتر الواقف إلى يساره. - لا بيدّ عليك أيّ انفعالٍ يا ولدي إن التزم الصمت! سنقرأ ما تحكيه عيناه. لا أصدّق أنه ليس بين خانجري والقيصر سرٌّ لا نعرفه...

- هل تأمل يا والدنا أن يوافقك؟ - بدا على قَرَباتر رغبته في تحقّق مشروع والده.

- اسأل بصيغة أخرى يا ولدي: هل سيعجبه مسعاي؟ - بشّ سفربي في وجه ولده بنظرة دافئة - انس فكرة "يوافقك" لا أحد يفرح بأن يتحقق لغيره ما لم يتحقق له. من أي أصل تعتقد هذا الذي نزوره يا ولدي؟

- من البجدوغ المقيمين في لوستان حابله.

- غير صحيح يا قَرَباتر. هؤلاء ليسوا أمراء للبجدوغ، ولا للأديغة.

- من هم إذن؟ - يستغرب قُربَاتر ما يسمع، - من هؤلاء إذن؟
 - هؤلاء أمراء من النغوي. جاؤوا من القرم. تناسَ لغتهم الأديغية وأصلهم. ليس
 في صدرهم قلوب أديغية ولو لبسوا زياً أديغياً وامتلات مطابخهم بالطعام
 الأديغي. اندجوا في محيطهم تخفين حقيقة ما في نفوسهم.
 نظر قُربَاتر نحو والده حزناً لِمَا سمع. ألا يمكن أن ينطبق على نيكراس إذن ما
 يقال في خانجري؟ هؤلاء أيضاً ليسوا أديغة! ولا يزالون إلى الآن يحملون النسب
 الروسي. ويجوّرون الأسماء الروسية إلى ما يتوافق مع الأسماء الأديغية فيستَمون بها
 أولادهم. وإذا كان هذا رأي والدنا فماذا بشأن ماريا؟ وكيف يتخذ من نيكراس
 تيم صديقاً؟ كان قُربَاتر يودُّ أن يسأل والده في هذا الشأن ولكنه خاف أن
 يشك الأب في موقف الابن من ماريا، ولا يريد أن يتوجّس والده في هذا
 الوقت غير المناسب. ينصح نفسه متناسياً ما خطر له اللحظة بشأن آل
 نيكراس، قائلاً في نفسه: لو لم تكن حقيقة خانجري كما يرى والدي لما حكم
 عليه بهذه الأحكام. ثم ينظر في والده الراكب بقامة متينة يغلبه الاطمئنان،
 وبهذه النظرة الصامتة يُبادل الأب ابنه، وينسى ما يشغل البال على الطريق. لم
 يكن يزيح نظراته عن ولده ولكنه حثَّ حصانه كي لا يُخرج ابنه الذي يلبس
 قالب الرجال يوماً بعد يوم. ولم يمنعه هذا من أن يلتفت إليه مرة أخرى. ودعته
 جلسة الولد على الحصان وطريقة إمساكه لجامه إلى القول "سيصبح هذا
 رجلاً!". وفي اللحظة نفسها ارتسمت أمام عينيه صورة إسماعيل من الشابسغ
 بقامته المديدة وعنقه الطويل ووجهه الأشقر. ووراءه كان يقف "خروزر باشا"
 قائلاً له: "لا تنظر إلى ربيبي نظرة جافية!". ولم يكفِ هذا فنظرت زوجة العجوز
 الشابة "حورية خانم" من بين إسماعيل والعجوز. وجعله الخبر الذي يتوسط
 الثلاثة الذين ظهرت صورتهم يدير رأسه:
 - من نورهم يا ولدي - عاد سفري إلى ما كان سها عنه، - لاتهم بقلوبهم
 النغوي، ليس أمثال هؤلاء قلائل في المجتمع الأديغي. لا تستغرب إذ ستلاقي ما
 هو أغرب. أنا خِرتُ هذه الحالات. وما سَنخِره مستقبلاً ليس قليلاً.
 - أفهم يا والدنا. وما لا أفهمه أجد تفسيره عندك.

كان النهار وصل إلى منتصفه حين اجتاز الفارسان أرض الشابسغ ودخلا مرتفع البجدوغ غير العالي، وحين انحدرا من أعلى المرتفع ودخلا المضيق، ثم إلى المرتفع التالي بدا لهما نحر أفس الذي يجري إلى اليسار. وتبدو من الجانب الأيمن، من على مسافة غير بعيدة، قلعة غيورغ — أفس التي يتجنب سفري رؤيتها.

— تعال يا قَرَباتر نلتفّ إلى اليمين إلى لوستان حابله ولو أن الطريق إليها يصبح أبعد. لا أريد أن تقع عيني على هؤلاء القوزاق الذين يغطون أعالي قبعاتهم بالأحمر. لا يدعوننا نتجول في أرضنا بحرية كما يقول أخجكوه داور.

— وماذا سيكون ردّ فعلهم إن واجهناهم. ألسنا على أرضنا، وسماؤنا تُظَلُّنا؟ وفي هذه اللحظة خرج من عمق الغابة فارسان قوزاقيان واعترضاها:

— من أين تأتيان، ومن أنتما؟ سأل الفارس القوزاقي الأسّ.

— نأتي من الناختووي، ونتّجه إلى البجدوغ. — لم يكن سفري يريد إطالة الحديث مع من اعترضاها.

— ومن أي أصل أنتما؟

— أنا من أسرة الأمراء آل زانه إن كنتما تعرفانها. واسمي زانه سفري. ولم يُبدِ على حاله استيأؤه من طريقة استجواب الفارس القوزاقي.

— لا نعرف، ولا نريد أن نعرف!.. — مدّ القوزاقي يده وأمسك بلجام حصان سفري. هيا انزعا سلاحكما وامضيا معنا إلى القلعة.

— أفلتّ زمام حصاني! — كان سفري يعدّ سلوك القوزاقي معه في حضور ابنه إهانة. طلبت منك أن ترفع يدك عن الحصان!

صعد الدم الحار إلى جبين قَرَباتر مغتاظاً مما يلحق بوالده من إهانة. ورفع غضبه المكظوم من على سرج الحصان، وصفّ بلجامه المشدود إلى جانب القوزاقي:

— ألم تسمع ما قيل لك؟! أفلتّ الزمام! — ضرب قَرَباتر القوزاقي بجانب يده ورماه عن الحصان الذي جفل وهرب إلى البرية.

— يا قَرَباتر! — حين رأى سفري ابنه شهر الخنجر في وجه الفارسين صاح به:

— إجر أنت إلى عمق الغابة، وأنا كفيل بمهذين!

- هذا عيب يا والدنا!.. صرع قَرَباتر الفارس الثاني بصدر حصانه.
حين عبر سفربي وابنه عمق الغابة ووصلا إلى مخرجها انقطع وقع حوافر حصائِي
القوزاقِيَيْن. وبعدما جريا بالحصانين مسافة، وقَرَباتر يبحث عن مكان آمِن
يستريح فيه الحصانان، نظر إلى جهة والده فرأى آثار دمٍ على مرفقه الأيسر.
- هل أنت جريح يا والدنا؟

- كما ترى؟.. وخزني القوزاقي الذي رميته عن حصانه فيما أنت تتابعه
بيدك... لا تَهْتَم يا ولدي. لن يضرني.

- لا يا والدنا، دعنا نضمّد الجرح. ربط الجرح بالمنديل الناعم الذي أهّدته إليه
ماريا قبل أيام، وأسدل كمّ القميص بعناية فائقة. - والله لا أعرف يا والدنا
كيف سندخل بهذا الكمّ الممزّق قرية لوستان حابله؟ والجرح نفسه ألن يؤلّك؟
- ليس الجرح مشكلة، ولا الكمّ المثقوب يا قَرَباتر. يحدث كثيرٌ مثل هذا. ما
يشغل بالي شيء آخر.

- أخبرني به إن كان مسموحاً لي أن أطلع عليه يا والدنا! رفع قَرَباتر وجهه
القلق.

- لا سِرّ في هذا. لم أقبل في حينها من أخجكوه ولكن لا أعرف كيف
سنعيش على أرضنا في حرب دائمة. - أن يمنعك الغريب من أن تسير في
أرضك ليس كأن يمنعك ابن قومك. مأساةٌ يا ولدي أن يسألك الغريب في
أرضك: ماذا تفعل!

الزوار الذين قدموا إلى بيت خانجري حين عرفوا بالضيفين، والزوار الذين جاؤوا
لتزجية الوقت، كلهم في المضافة. وهم يعملون بما تقضي به شرعةُ الأدبغة:
مكان الأمراء، ومكان النبلاء، وحرس الأمراء، ومراعاة الأسرّ في كل مجموعة
من هؤلاء. ويعاملون كل متكلم بتهذيب وفق هذه الشرعة نفسها حتى إنك
لتظنهم يبالغون في مراعاة قواعد الاحترام حين يتحاورون وحين يتخاطبون.
وهذا دأبُ خدَم المائدة حين يؤتى بها، أو تُرفع، أو تُمدُّ المناديل لمن يغسلون
أيديهم. وإن هفا خانجري هفوة مفاجئة في مراعاة العادات رغم أنه أصغر
الحاضرين تجاهل الخدم مثل هذه الهفوات دون أن يلاحظ الحاضرون، متظاهرين
بأن شرعة الأدبغة لا تخلو منذ الأزل من مثل هذه التصرفات الطائشة. ويبشون

في وجهه وإن لم يقولوا له صراحة إن سلوكك صحيح، مُشعِرين إياه أن لا ضير في ما فعل، الأمير لا يُخطئ.

ليس سفري جاهلاً بمضافات البجدوغ والجمكوي. وما أكثر ما كرموه فيها وأحاطوه بمظاهر الاحترام. وطَرَقَ مضافات البسلني، وخالط أمراء القبرتاي. وحلَّ ضيفاً على مضافات أمراء النغوي. ولكن مضافات الشابسغ والأبزاخ تختلف كثيراً عن تلك التي لأمرء البجدوغ والجمكوي. وليست اختلافاتها في مفروشاتهما، ولا في أباريق الاعتسال والطشوت، ولا في الطعام المقدم فيها، بل في صاحبِ المضافة والناس الذين يسهرون فيها. ولا حاجة للعودة إلى الروح الأديعية وضرورة مراعاتها من الجميع، سواء كانوا أمراء أم نبلاء أم من صفوة العامة أم من جمهورها أم من الحرس والعبيد، كلٌّ في موقعه. ومن ينقضها يخرج عن مفهوم الأديعية. فما مصير الأديعية التي تُنسب إلى الأمراء إن سامحهم فيها؟ وأيُّ شرعة تُحيط بهم وبسلوكهم؟

ابتسم سفري بي في سره: قواعدُ التعامل المرائية مع الأمراء، المطبَّقة في مضافات البجدوغ والجمكوي ليست في مضافات الشابسغ والناخوي والأبزاخ. ولا يمكن بداهة أن تطبَّق تلك القواعد فيها لأنهم بلا أمراء. مضى زمن بعيد منذ تُسي في الناخوي والشابسغ والأبزاخ أنّ آل زانه أمراء. ليس مقياس الأديعية ما تلبس بل ما تتمتع به من إنسانية. ولكني أظن أن الأمراء والنبلاء ما يزالون يعتقدون بمقياس المظاهر. كيف؟ سأل سفري نفسه كأن أفكاره أفرعته. ولكنه دخل في فكرة أخرى مفاجئة. وانتصب أمامه سؤال آخر.

قال سفري: أليس عجيباً أن تطبَّق شرعة الأديعية في مضافة خانجري النغوي أكثر مما في مضافاتنا نحن الأديعية؟ أين رأيُّ المظهر نفسه؟ تذكرتُ، في أسرة نيكراس ميشكا. أما زوجة تيم فيستحيل أن تتهرب أمامها من هذه العادات.

نظر سفري في غمرة حديثه بطرف عينه بعض الوقت إلى خانجري. تنتهمه بأنه من النغوي ولكن الحقيقة أنه فقد كل أثر لأصله. لا، ها هو الأصل يظهر في عظام وجنتيه. وربما ما كنت لتلاحظ هذا الفارق لو لم تكن تعرف مسبقاً أنه من النغوي. على الوجه المستدير - المتطاول يظهر شاربان أشقران خفيفان. والشفتان المعتدلتا الغلظة منسجمتان مع الحاجبين اللذين تظهر تحتهما عينان

صافيتان حادثان. وتوحي لك قامته المشوقة أنه هو من اتخذ قديماً قالباً للزَّيِّ الأديغي. ومن الصدر البارز من خلال القميص المفتوح تظهر جُعبُ الرصاص المشربة بالذهب والفضة. وعلى الخصر يظهر الخنجر والمسدس المعلقان بالزئار الفضّي الأديغي الضيق. لا يجوز استغراب أن يستدرج القيصر مثل هذا الشاب المتناسق ويتخذ حارساً. ولكن لا أعرف حقيقة وضعه حالياً. لم يكشف لنا عن حقيقة موقفه من الروس رغم أننا نتحدث طوال النهار عنهم. ورغم أنني لميحت له من خلال جولته في إقليم الأديغة لم أستطع أن أحصل منه على شيء. تجاهل الموضوع كله كعادته منتقلاً إلى موضوع جمعه أخبار الأديغة وحكاياتهم.

لم يكن سفري يريد أن يكشف أمام الحاضرين نيته، بل أن يشكّوا فيها. ولم يكن يرى من المناسب أن يعرف خانجري هذا الموقف منه على حقيقته. كان ما يبحث عنه في هذا الموضوع هو الثغرة التي يستدرج منها المضيف. جرت أحداث كثيرة مناسبة للخوض في الموضوع متى خلا بعد السهرة إلى مضيفه، ولذا سيكملان حديثهما اعتماداً عليها.

- والله أيها الضيف - قال أحد الحاضرين، - ساجحنا، أرهقناك بالسهر، وأنت قادمٌ من سفرٍ، وصلاة العشاء حان موعدُها.

لم يتحقق ما يتأمله سفري بعد انصراف الحضور مع أنه لا يزال أمام النوم وقتٌ كافٍ. فرّقتهما صلاة العشاء بعدما بقيا وحدهما. وبعد الصلاة تمنى له خانجري ليلة سعيدة، ما يعني أنه لن يعود إليه، وانصرف.

بقي سفري في الفراش طويلاً لا يستطيع النوم رغم تعبهِ على الطريق وفي المضافة. وتمثّل له من جديد كل ما جرى له على طريق البجدوغ وما قيل في المضافة عبّرَ بنظراته نهر بشره التي تقوم قرية لوستان حابله على ضفته اليسرى، ونزّهاها في روسيا. وعبر إلى تركيا. ونظر نحو البسلني والقبرتاي. ودخل أرض الكرج. ودخل إلى تفليس. وفكّر في ما سيقول للجنرال باسكيفيتش إيريفانسك إن أُتيح له أن يقابله. وكان قلبه في إيكاترينودار وشتته قاله.

من دخل إلى غرفة سفري قبل المضيف هو قُرْبَاتَر. سأل عما كان يقلقه منذ البارحة:

- ما وُضِعَ جرحك يا والدنا؟
- لا أُحسّ به يا ولدي باستثناء محاولتي إخفاء الكساء الممزق عن حاضري السهرة.

صدر صوتٌ من جهة مسطبة المضافة، ودخل خانجري إلى الغرفة:

- صباحكم خيرٌ. كيف قضيت ليلتك أيها الضيف؟
- حياك الله يا خانجري. قضيت ليلةً مريحة. لا جعل الله في أسرتكم وفي إقليم الأديغة إلا الراحة والأمان! وليخفف الله عنا العقبات التي تنقض راحتنا وراحة الأديغة! - رمى سفرّي ابنه بنظرة صامتة مُشعراً إياه بأنه أمسك بطرف الحديث مع خانجري في الموضوع الذي أتى من أجله. عرقُ الأديغة، أنت لا تجهل هذا يا خانجري، يعيش في أزمة ثقيلة. امض يا قُرباتر إلى أقرانك. - قال لابنه أملاً في أن يثق به مضيفه أكثر إن تحدثا وحدهما. - نحن، خانجري وأنا، سنتباحث في ما يُقلقنا من موضوعات.

جلسا مدة بعد خروج قُرباتر لا يعرفان مَنْ منهما سيبدأ الحديث، ولا يستطيعان إكمال ما بدأ. كان خانجري يفكر على النحو التالي: لو لم تكن مهموماً بأمرٍ ما لما جئت إليّ ولذلك لا يُقلقني أن تفتح الموضوع. ويتصيّد سفرّي الفرصة، ولو أنه كان يفكر بالطريقة نفسها، ليكشف عن أساس حديثه بأسهل طريقة ممكنة وأسرعها.

كيف تجلس مع الضيف لا تتحدث إليه! سأل خانجري عما كان يشغل باله منذ ليلة البارحة - لا تؤاخذني يا سفرّي، يقلقني منذ العشية طريقة تحريك يدك والثقب في كُفٍّ كسائك ولكن منعني الحضور من السؤال. وحُيِّل إليّ أني رأيت دماً على الكساء.

- أهذا هو يا خانجري؟ - سأل وكأن ما سمعه يصلح أن يكون طرف خيط إلى الموضوع. - هذا لا يستحق الحديث فيه. في غابة أقبس ظهر لنا مهرج أصابني.

- من هو هذا المجرم اللعين أيها الضيف؟

- والله لا أظنه مجرماً أيها الأمير.

- من هو إذن؟

- أظنه من القوزاق الذين يبنون قلاعاً على أرض الأديغة... لحنا القماش الأحمر على قبعته، واختفى.

- والله ما تقوله عجيبٌ أيها الأمير، - زاد استغراب خانجري، - القوزاق لا يفعلون مثل هذا إلا أن يكون فازاً، ولا يتجولون وحيدين. نادى خانجري إلى من في الخارج فدخل الشابُّ البوّاب: خُذ كساء الضيف واطلب ممن في البيت أن يصلحوه. كاد يقتلك يا أمير!

- هذا هو الوضع يا أمير، لسنا أحراراً في التنُّقل في أرض الأديغة. لا بد أن نفعل شيئاً حيال هذا الموضوع، أعني توغُّل القوات الروسية في أرضنا. ما رأيك أنت أيها الأمير؟ - سأل سفربي مضيفه بحذر.

- كان لي رأيٌ في الموضوع يا أمير ولكنه لم يتحقق... - بعد أن انتظر خانجري بعض الوقت كأنه لم يسمع شيئاً أجاب جواباً قاطعاً، ناسباً كلَّ ما فعله للقيصر إلى شخصه، متناسياً كلَّ ما قاله له. - حين قلت للقيصر إن الأديغة كلهم سيقفون في صفِّك متى زعمت عليهم واحداً منهم لم يقبل. وبدأ يشكُّ في أيها الأمير. وبعدها لَمَحْتُ له في هذا الربيع فلم يُجِبني... توحه خانجري بعينيه نحو النافذة ناظراً إلى ما بعد أقواله، متأملاً فيها. وأضاف بكلمات مفاجئة لم يكن يتوقعها سفربي: - لن أكتملك نيتي لأني سمعت أن نيتك متطابقة معها. وسأخبرك بالواقع تماماً. وأظن أنك ركبت إليّ تريد معرفتها. القيصر الروسي ليس كما نتخيل نحن أيها الضيف. وحاشيته الضخمة تنظر إلى البعيد... وكنتُ توجَّست شراً من أن حروب الترك والروس ومصالحاتهم ستجر الويل على الأديغة. وها نحن الآن يشهد ما يحدث لنا جهراً على توقعاتي، إنهم يقتحمون أرضنا.

- ألم تفهم يا خانجري أن مصالحة الدولتين ليست في صالحنا؟ - أفلتت من سفربي حماسه على غير عادته.

- أفهم يا أمير، أفهم... ولكن أحداً لا يريد أن يفهم ما نفهمه نحن. - والله يا خانجري لا أعرف إن كان كلامك لم ينقُذ في القيصر الروسي... لا أعرف إذن... - داخلت قلب سفربي الوسواس خائفاً أن يكون خانجري

يخدعه. ثم سأله بشيء من الاستغراب يريد أن يعرف سبب عودته إلى قريته
لويستان حابله: - الحق ألم تكن حارساً للقيصر، كيف لا يسمع كلامك؟
منذ مساء البارحة انتظر خانجري هذا السؤال من الضيف وإن أخفى انفعاله
من طريقة السؤال المبطنة. ثم لم يكن خانجري يسمع هذا السؤال لأول مرة.
كانوا يسألون على نحو تفهم منه اهتمام الأمراء والنبلاء بوضعه. وأياً سأله لم
يخبره بحقيقة الحال. والحق يقال إنه هو نفسه لم يكن يعرف جواباً محدداً. وما
كان يعرفه تماماً هو أن ما عرضه على القيصر وهو موفد إلى الأديغة في شأن
اختياره هو نفسه زعيماً عليهم لن تكون له أي نتيجة.

قال خانجري في نفسه: ما شأنك أنت إن كنت أعمل مع القيصر أم لا... لم
أكتم عنك جواب السؤال الذي تبحث عنه. ألا يكفي اني أخبرتك بلا مواربة؟
لست جاهلاً بموقف مجموعات الأمراء - النبلاء الأديغة¹. أعرف بدهشة أي
حين أعلن أي لم أعد حارساً للقيصر ستفقدون كل احترام لي. وستنسبون أين
باب مضافتي، وتتجنبون لقاءتي. ومتى عرفتم أنني كففت عن عبور نهر بشره
والتعامل مع الروس فقدت هييتي وسندي. لا أعرف ما يجري في شأن مستقبلتي
في هذه اللحظة ولكن سينتهي على وضع ما. لم يحذفني أحد من سجلاته.
ويعطوني رواتبي، ويظلمني قانونهم. يحترمني العسكريون في إيكاترينودار. ولا
يدعونني أشعر بأني في وضع حرج. ما العمل بعد أن عبرت أرض الأديغة طوال
سنوات وقد اهترأ سرج حصاني مغطاً بالتراب بمهمة سرية من القيصر. نفذت
ما كلفوني به، لم أنقص منه إن لم أزد. ومهما خدمتهم ذهب مع الريح. لم يحققوا
لي رجائي الوحيد منهم. لا ألومهم إن لم يفهموا القضية الأديغة التي رفعتها
إليهم، فكلٌّ مهموم بمصلحته الخاصة. ثم إني لم أكن أسعى وراء منفعتي
الشخصية وحدها بل إلى تلطيف العلاقات الروسية - الأديغة. والآن حدث
لنا ما كنت أخوف منه تماماً. لا يتقبل ضابطة الشابسغ والناخوي والأبزاخ
اتفاق أدرنة بين روسيا وتركيا. ووافقهم الويخ. والعامة من البجدوغ يرون ما
يفعلونه بهم إهانة. ويتردد الرأي نفسه في نواحي البسلني والقبرتاي. والآن ليس

¹ كان أمراء من الأديغة البجدوغ طلبوا منه اقتراح نفسه على القيصر زعيماً على الأديغة. ثم
تنصلوا من الموضوع مما سبب إحراجاً كبيراً له.

الوقت متأخراً إذا أعاد القيصر النظر في القضية التي كنت رفعتها إليه... كنت أظن نفسي أنكلم وحدي فإذا بمنافسين يظهرون. ليس ضيفي وحده بل سيشرع غيره يسترقون النظر من خلفي...

- لم يصل موضوع خدمتي في حرس القيصر إلى هذا الحد يا سفري، - خرج خانجري من الأفكار التي لهُت بينها وأجاب على السؤال دون مصارحة مباشرة. - في هذه الأيام أنا في القرية ولا أزال مرتبطاً بإيكاترينودار بانتظار الكتاب الذي سيأتي من القيصر في بطرسبورغ.

- هل تظن أن الكتاب الذي سيأتي من بطرسبورغ سيلجم الزحف الروسي؟
- لا يا أمير، لا أريد أن أتسبب في حرب.

- كيف تقابل من يغزو أرضك ويحتلها؟ - بدا على سؤال سفري عدم رضاه عما يقال له، وفهم أن نواياه لا تتطابق مع نوايا خانجري. ولم يقبل أن تتزعّم الأديغة وأنت لست أديغياً. وأخفى نظراته العدائية نحو من هو جالس على مائدته.

- أليس الأفضل التفاهم يا أمير؟ - قال خانجري في نفسه: لا نتيجة لما تجهد لأجله. جئت من ناخواي عبثاً وعرضت نفسك للجرح. وابتسم في قلبه محاولاً إخفاء علاقته بالأمر.

- لا أظن هذا الموضوع كما نتصوره يا محترم... من لا يعدُّنا بشراً لا يريد لنا الخير. ولكن تصرف قيصر روسيا أفهمنا.

- وسلطان تركيا؟.. - لأول مرة منذ البارحة ظهرت على خانجري حميَّة. وابتسم للضيف يريد أن يطلب منه المسامحة.

- ليس أفضل من سابقه. نضيق بين الاثنين بتواطؤ بينهما.

- ولاشك في هذا يا أمير. ولكن ما العمل؟ حدث ما حدث وانتهى. لا فائدة من أن نجري وراء ذيل الحصان بعدما فوّتنا رأسه.

- لا يا أمير، من يرفع السلاح في وجهك فقابله بالسلاح.

- والله يا أمير لن أوافقك على هذا إن كانت هناك إمكانية أخرى.

- الحق معك يا خانجري ولكن أظن أن الأديغة فقدوا كل إمكانية لحل قضيتهم.

- إن كان هذا رأيك يا محترم فالليل يتلوه النهار.

- صحيح يا أمير، وبعد النهار يأتي الليل. مهما تفاءلنا بالخير فهذه هي حال الأديغة. الخنجر وإن قلبناه يبقى خنجراً حدّاه قاتلان. سنتصرف تبعاً لما كتبه الله على جباهنا. لا أعرف غيره، من يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل إلى أحدٍ غيره ملجأً للأديغة... ارحمنا يا الله، واحمنا. آمين.

- آمين، - رفع خانجري يديه، وجلس لأياً يقول لنفسه: اغفر لي، لا أوافق ضيفي الجالس مقابلي، رفق قلوب الروس والأديغة بعضهم على بعض دون أن تجعل الناس يصفونني بالغريب في عملي. والمهمة التي التزمت بها لا تعود فائدتها عليّ بل على الطرفين. ثم أنهى بصوت مسموع: - نعم يا سفري، نعم يا أمير، لا يمكننا تجاوز ما كتبه الله الأحد على جباهنا. نبقي تحت رحمته.

...

حين طلب سفري من موّديه أن يعودوا أدراجهم، وصار على طريق الشابسغ، جعله الهمّ الذي شغله منذ ليلة البارحة يرتفع عن حصانه:

- عُد بحصانك إلى الخلف يا قَرَباتر. لن نعود دون المرور على إيكاترينودار.

لم يسأل قَرَباتر والده عن سبب قراره وإن لم يجد تفسيراً له. كان يعرف أفكار والده منذ الصيف الماضي، فوجّه حصانه إلى إيكاترينودار. بل بشّ له في قرارة نفسه.

لم يكن قلب سفري متحمساً لعبور نهر بشنزه على عكس ولده. وكلما اقتربت ضفة النهر ازداد تعائُدُ فكريتين في ذهنه: إحداها تقول له: اذهب إلى إيكاترينودار، وخالط الروس، والأخرى تردّ عليها: إلى أين تذهب؟ وماذا ستفعل عند أعدائك؟

- والله يا ولدي لا أعرف ماذا سنجني من المكان الذي نرتاده. - قال سفري باحثاً عن فكرة ثالثة وإن كان يعرف رأي ابنه. وأضاف بسرعة: - بأي حجة سنحادثهم وماذا سنقول لهم؟

- تقول ما في قلبك يا والدنا.

- في قلبي الكثير يا قرباتر، غير أنني لا أعرف ما الذي بينها يرشدك إلى طريق أحسن... أتظن أن في ذهن مضيفنا خانجيري فكرة واحدة فحسب؟.. عنده أكثر من فكرة ولكن لم يُطلِعنا إلا على واحدة.

- ألم يُطلعك على رأيه يا والدنا ولو كان فكرةً واحدة؟

- هذا صحيح. غير أنني أظن أن خانجيري تجاوز الفكرة التي لا تقبل النقاش، لأنه صريح حتى إنه لا يسمح لك أن تتق به. تعال، لا فائدة في زيارتنا هذه. قسا سفري على الحصان في تغيير اتجاهه. - تعال يا قرباتر، تعال. لن أقابل أحداً من الروس قبل أن أفهم الجنرال غزار نيتي!

- كان من المقرر أن ترحل أسرة غزار من أنابه إلى كيرش... - قال قره باتر منشراحاً لما سمع، فرحاً بمجرد أنه سيرى ماريا إن سافروا إلى هناك، وقد نسي المهمة التي يتابعانها للحظة. وبرز نفسه لاطلاعه الزائد على أخبار أسرة سيريريياكوف: - هذا ما أخبرني به نور محمد... إن كان هذا رأيك يا والدنا فلنعد! دعنا نتصرف وفق خطة مرسومة.

- نعم يا قرباتر، وهذا ما أنويه... نعم... - كان سفري يريد أن يضيف شيئاً إلى أفكاره المُقلقة، ولكنه كظم نفسه.

V

الشهر الأوسط من الخريف صحواً خلافاً للعام الماضي. سمح للناس بجني محاصيلهم إلى بيوتهم. وسمح لهم بتجهيز بساتينهم الخاصة، وبحراثة الأرض وزراعتها.

يقلق الفلاح لأمر كثيرة وهو منهمك في إنجاز أعماله الخريفية. وإلى هذه الهموم أضيف السنة هم آخر، يحلّ على المضافات، ويسكن الريف، ويمشي في الشوارع. كل الأفكار والأنظار متجهة إلى نهر بشزه فحسب. ما كان يُقلق الناس أكثر من السفن الروسية التي ترسو على ساحل البحر الأسود هو الجيوش الروسية التي تتوغل في البلاد وتقيم القلاع. على مسافة غير بعيدة من ميّقواب أسسوا قلعة ديلنوليسك في مواجهة الأبراخ. وأعلى من جتونه بقليل بُنيت قلعة أخرى.

ما أشعرَ العامة من الناس بالإهانة أكثر من غيره هو عدم اهتمام أيٍّ من الأمراء والنبلاء المتنفيين بما يجري. يُقال إن الضابطة اجتمعوا مرة على عجل وهاجوا ثم افترقوا ولم يؤسسوا لأيّ خطة للمقاومة. الحق أنهم مهما قالوا، سواءً ما ينفع أو ما لا ينفع، لا ينسَوَنَ زانه سفري. ليس في إقليم الشابسغ أشجع ولا أوسع ثقافة منه، فلا يجدون قعوده لائقاً بالموقف. وفي حديثهم عن الشابسغ يستطردون إلى الأبراز والويخ والبجدوغ والجمكوي. يرددون أسماء من يُتأمل منهم أن يفعلوا شيئاً.

يتضح اهتمام الناس بعدم توثُّد الأديغة في المضافات، وعلى قارعة الطرقات، حيث يتجمع الرجال واقفين في ظل جدار إحدى الحظائر. بعضهم يرى أنه ليس من العجيب أن يستوطن الروس بينهم فالأرض واسعة، هل سيأكلوننا؟ وآخرون يرفضون الفكرة مطلقاً. ثم ما يوجِّد الطرفين أمرٌ واحد: يعتبرون من المهين عدم استشارتهم من قِبل أحدٍ. وهذه الفكرة تُصالح الطرفين أخيراً، فيتجمعون على معاداة كل من يقتحم أرضهم.

لم يكن الأمراء والنبلاء بعيدين عن الاهتمام بقضايا الأديغة كما يعتقد العامة من الشَّعْيلة. كان هؤلاء أيضاً قلقين. ولكن كلاً له رأيه الخاص في هذا الهمّ. لم يكونوا يقتنعون باتفاقية أدرنه، يوهمون أنفسهم أنها غيرُ موجهة إليهم وإن كان الكثيرون يفهمون أن لا سبيل إلى التراجع عنها، وأنها تعصر قلوبهم ألماً. وبين الناس من يسأل سراً عن كيفية التعايش مع الروس إن فُرض عليهم. وفي القرى الأديفية من كانوا يتعاونون سراً، وإن كانوا قلةً، مع الجيوش الروسية. وبينهم من لا يهتم البتة بأي دخيل على الأرض الأديفية إن كان تركياً أم روسياً.

يعيش سفري منذ العام الماضي وقليلون من يفضي إليهم بجمومه، وقلبه موزَّع على رأيين. لم يعد راغباً في شيء حين صار وطن الأديغة مسألة دولتين. ولم يبق له أملٌ في أيٍّ من الجهتين روسيا وتركيا. فهم بصراحة أنك متى وقعت بين دولتين قويتين فلن ترحمك أيٌّ منهما سواء كنت على حق أم على باطل. وحين يعيد التفكير في الواقع يرى قلبه أميلَ إلى الروس المقيمين على الضفة اليسرى لنهر بشزه أكثر مما يميل إلى الترك القابعين وراء البحر الأسود. كيف تعتب على الطرفين. نستحق ما فعل بنا الترك، وجدونا لا مالِكَ لنا فأعطونا للروس. لا

يُعقل ألا يكون لأزمتنا مخرج ولو أن من "استلمونا" محرومون من الشرف. لا يجوز أن نترك نغوي لوستان حابله يخدع الأديغة وإن تظاهر بالصراحة معي. تظن أيها النغوي أن القبعة الأديغية تليق بك، ولكنها لم تُفصّل على قياس رأسك...

عانق الصباح الصاحي النافذة مع صحوٍ سفري من تفكيره. قرر أن يستغل الجو الصاحي فخرج من البيت. سأعرج مرة أخرى على أنابه إذ يهدأ البحر في مثل هذه الأيام. وأقابل غزار الذي أرسلت له خبراً بنيتي في القدوم. تبيّنت صحته ما نقله قرباتر عن انتقال أسرة غزار. لم يكن حاغور نور مُحمّد من يعرف الخبر بل قرباتر نفسه. ومنذ شهر عادت إلى دخاباه ماريا الخائفة من اصطحابها إلى كيرش.

وفي خلال هذه الفترة لم يستطع أحدٌ رؤية غزار. وذهبوا إلى كيرش أيضاً ولم يجدوه فيها. كان يؤدّ سفريّ مقابلة الجنرال فيشيسلافتسييف القائم على قلعة أنابه غير أنه لم يجد من اللائق زيارته قبل مقابلة غزار. والوحيد الذي كان يمكن أن يُفضي إليه بقلقه هو غزار إذ لا يعدّ ما باح به لخانجري سراً. تصرف معه كما تصرف الآخر، ولم يُفَضِّ إليه بما في قلبه. سيعيش وهو يخاف مني ومن نفسه ولن ييوح بخبرنا إلى أحد. ليس امراً يسمح لك أن تتلّع على حقيقته. لم يعثر سفري على ابنه قرباتر مع أنه كان يؤدّ اصطحابه إلى أنابه. تبيّن أنه سافر إلى دخاباه. قال في نفسه: إذا كان فيها من تزورها لأجلها فلماذا لا؟! وابتسم. ومع الفرح داخله هاجس في اللحظة نفسها: والله لا أعرف يا ولد كيف ستمزج عرقنا بدم آخر. لا تظن أنني أتناسى الأصل الفلاحي لنيكراس إن كنت اتخذتُ أحد رجال أسرته صديقاً. لا تنغّر بأديغة تيم المناققة، ولا باحتقاره المصطنع للروس... أقول هذا ولكن... فكر مرتاحاً للفكرة المفاجئة التي خطرت له: ألا يمكن أن ينفعه الأصل الروسي لتيم في القضايا المتعلقة بالروس؟ هذا غيرٌ مستبعدٍ البتّة فالأفضل ألا تحمله. في ساعات الشدة ينفعونك، فالدم في عروقهم دم روسي.

أوقف سفري على منعطف الشارع حصانه بعدما ضغط مع الكلمات الأخيرة على بطن الحصان بقوة فرأى مجموعة من الرجال تقف إلى جانب سور إحدى

الخطائر. وحياتهم حسب ما تقتضي عادات الأديغة وإن لم يُظهروا هم احتراماً، بل إن أحدهم نظر إليه نظرة عدائية، وهذا ما ساءه.

- لا تؤاخذنا يا أمير - استقبل أحد الواقفين سفري. - ما رأيك في الموضوعات الروسية إذ نحن مهومون بها؟ نود أن نعرف رأيك.

ترجّل سفري من الحصان لأنه لم يجد من اللائق أن يحادثهم كالعلم من فوقه، وأجاب السائل بسؤال:

- وأنتم ما رأيكم؟

- في هذا الموضوع يا أمير، لا تؤاخذني، ولا تنظر إليّ كمشاكس لك، - خرج من الجمع أحد الواقفين من الأصغر سنّاً، واسمه ترام كان يتخذ من سفري قدوة له منذ زمن بعيد، من جهة قوامه البدني وطباعه الهادئة وطريقة حديثه، وقال بحذر شديد.. لا نظرتين لنا إلى الموضوع.

- كم رأياً لكم إذن يا أخي الصغير؟ - لم يُبدِ الحاضرون استغرابهم من مخاطبة الأمير لأحدهم "أخي الصغير". ثم سأل على نحوٍ أشدّ إبرازاً: ماذا إذن يا أخي الصغير؟

- رأي واحد يا أمير. المصيبة التي فاجأت الأديغة لا يجب أن يكون فيها تمييز بين "نحن" و"أنتم".

وافق المجتمعون كلهم ترام بصوت واحد متضافر.

بان على سفري ارتياحه لما سمع. وتفحص الفلاحين بعين الرضا معرباً عن تشوقه إلى مزيد من الاستئناس بهم، وكأنه الآن اجتمع بالناس الذي كان يبحث عنهم منذ ومن بعيد. هؤلاء من سيقون سنداً لك عند الضرورة... كم من أمثال هؤلاء منتشرون في إقليم الأديغة؟.. لا نعرف عدداً أو قرى... إنه إقليم لا يمكن للفارس الوصول إلى كل نواحيه في شهور. نعيش في أرض الأديغة معاً منذ آلاف السنين من البحر الأسود إلى سفوح جبل البروز دون وحدة تجمعنا.

- هذا رأيكم؛ الوحدة؟

- نعم هذا رأينا يا أمير. - أكّد ترام ثانية رأيه - الوحدة، ما يحتاجه الأديغة اليوم هو الوحدة.

- إن كان رأيك هو الوحدة فتعال معي أيها الفلاح ترام! - عاد سفربي إلى سرج حصانه.

حَثَّ سفربي حصانه نحو الجهة التي اختارها دون انتظار ترام كأنه يقول له: أتحدّاك أن تلحق بي. فتطير الشرر من حوافر الحصان، وتناثر التراب من حولها.

تابع الجمع الفارس بعيونهم. ونصبت الأحصنة المتجمعة آذانها.

- ليس من عادة الأمير اللعب بالحصان. - قال الفلاح حباط. - لا أعرف ماذا جرى له اليوم.

- خالطنا على غير عادته، وترجّل من الحصان... - أضاف غيره - وها هو عرض على ترام السفر معه. لا تتأخّر يا ترام، الحقّ به. دُعْ زانه يفعل ما يريد! لم يكن ترام بحاجة إلى هذا التشجيع. قفز إلى ظهر حصانه ولحق بسفربي. وأدركه بعد حينين أو ثلاثة. وعبرا قرية قماثر وهو على يساره ووراء قليلاً، وكلّ من رآه من أهل القرية يستغربون.

تجاوز الفارسان مرعى القرية، لم يتكلّم سفربي. وبدأا يبتعدان عن تحوم القرية ولم يلتفت سفربي إلى الخلف. يُغَدِّد الأمير سفربي السير ناسياً ترام المولى. وكلما ابتعد الفارسان عن القرية صامتين مع وقع حوافر متتاليّ تزايد شعور ترام بالإهانة من سلوك الأمير معه. ليس ترام صبيّاً، وإن لم يكن من عمر سفربي فما بينهما ليس أكثر من خمس سنوات أوسّيت. وإن كنت الأسنّ، ألم تبق عادات أديغة أو شيء من الإنسانية حتى لو كانت طباع الأسر المتنفذة غالبية عليك؟ أعجيب إن كنت فلاحاً؟ تقضي شرعة الأديغة أن يحترم أحد المسافرين الآخر محافظاً على موقعه حين يسافران معاً. وتبعاً لهذه الشرعة يتصرف الجميع كباراً وصغاراً، سواء كانوا أمراء أم فلاحين. يزيد الحصان من سرعته كأنه متأثر بالإهانة التي لحقت بترام، فيضبطه بالزمام يريد أن يعتذر إليه. إن كنت لا تُنسني أصلي الفلاحي فأنا لن أنسيك أصلك الأميري.

يرى ترام طريقة ركوب زانه سفربي: القامة نحيفة والرأس مرفوع. والحزام مزموّم على طرفي الكساء حتى لا تعبت بهما الريح. والأذنان غير الكيريتين ملمومتان تحت القبة الصهباء غير الكبيرة أيضاً، المتناسقة اللون مع الكساء. ولا ترى

على الفارس شيئاً زائداً لا يليق به، من جزمة أديعية ناعمة، وبنطال، وكساء، وقبعة، وخنجر... وانتهاه بالمسدس. وإن رأيت شيئاً نافراً عن جسمه يلوح في الهواء فهو حزام المسدس الجلدي.

نسي ترام أفكاره العدائية فيما هو يتفحص الفارس الأمير. وليس لأول مرة يرى ترام سفري إذ هما من قرية واحدة. وهو من الفلاحين التابعين لآل زانه. وأخبار زانه محمّجري، والدِ سفري، ليست في قمار وهدا، بل في كل الناحوي، تنتقل من قرية إلى أخرى، تزيد وتنقص. يمتدحونه أو يغتابونه حسب المضافة التي يجري فيها الكلام، دُعك من أخبار سفري التي لا تنتهي. وإذا كانت الأخبار توقفت قليلاً في أثناء غيابه في تركيا فهي الآن، بعدما عاد منها في الربيع، تملأ أرض الشابسغ والأبزخ، ويتابعونها في البجدوغ. وترام خير بشخصه لقاءات فلاحية كثيرة. ومتى عرفوا أنه من قمار، قرية سفري، انهل عليه سيل من الأسئلة. ماذا يقول الأديعية: من يَحْبِر الكثير يتعلم أكثر ممن يعيش طويلاً. وسفري عاين الكثير، وخبر الكثير. والله وحده يعلم ماذا ينتظره من مواقف اختبار له. وهذا الفارس الذي يحمل في جسده تماسك سفري على حصانه وطريقة امتطائه له، وجمع رقبته وكففيه من هو؟.. حقاً من سيشبه قرباتر متجاوزاً والده! ولا يتشابهان في القوام فحسب بل في الوجه أيضاً. والاختلاف الوحيد بينهما في اللون: قرباتر أشبه بالده: أسمر متميز.

وليس سفري بعيداً عن الاهتمام بالفارس الفلاح. ولم يغب عن ناظره المكان الذي ابتدأت مطاردته له، حتى العجائر اللواتي يتابعنهما من أفنية البيوت. ولكن ما في قلب زانه الآن غير ما في قلب ترام. ما كان يُنسيه الفلاحين والأمراء والنبلاء والأسر القوية هو الموضوع الذي يتابعه. وليس سفري ممن يُقال فيه إنه نسي أرض الأديعية. وطوال بقاءه أسيراً في روسيا، وطوال إقامته في تركيا لم تفارق قلبه. ولكن موضوع اليوم أهم من كل ما عداه. سيتوقف مصير الأديعية على الطريقة التي تنتهي بها القضية التي يتابعها اليوم. الأتراك لا يوثق بهم، ولو كانوا صادقين لما جرى لنا ما جرى. يسوسونا بألستهم دون أن يُطلعونا على حقيقة نواياهم. يخدعوننا بحجة أننا مسلمون ويدعوننا إلى الصلاة. وإذا كنا نعرف شيئاً عن الأتراك فمن لا نعرف عنهم شيئاً هم الروس

الذين يقال إننا صرنا مُلكاً لهم. هؤلاء ربّوني وأنشؤوني ولكنهم لم يزرعوا فيّ طباعهم وطرائق معيشتهم. كنت أودّ أن أتعلمها بل حاولت، ولكنها عبرت أمامي كسحابة تائهة. وأثّرت فيّ كقطرة ماء لم تكتمل. وهامهم الآن يقتحمون أرضنا مخيّبين أملنا فيهم. وإذا كان في قلوبنا شيء من الخير لهم فلاّن حدود بلادنا تلامس حدود بلادهم. أقول هذا ولكنهم لم يراعوا حرمة الجوار كما راعينا. وإن صدق خانجري الذي خدمهم سنين كثيرة فإنهم لم يلبّوا له ما طلب منهم. وإن لم يتحقق لخانجري مسعاه فسيُصمّون آذانهم عمّا أطلب.

ليقل الروس ما يريدون وليفعلوا! اسمع ما يقول العامة. لم يتيحوا لي الفرصة للكلام، ولم يكونوا راغبين في سماع رأي آخر غير رأيهم. وهذا الرأي لا يقتصر على الناحوي بل يسود كل إقليم الأديغة. وهذا الذي بجاني وليس بجاني، الفلاح ترام، يستثير الفلاحين تحت لواء وحدة الأديغة. طلبت منه أن يسافر معي قاصداً اختبار ردّ فعله فلم يدعني أكمل كلامي حتى تبعتني. هو فلاح يتحلى بالصدق والإنسانية لولا أنه يعيش دون أسرة. ولكن ماذا يمكن أن نساعدك في شأن عزوبيتك؟ لا شيء بيدنا. هذه هي الحال، كان الجميع مستعدين لأن يتبعوني. ورأي الفلاحين نفسه سمعته في البجدوغ والأبزاخ والويخ...

– ماذا يا ترام؟ تعتقد أن الأمير زانه سفري مجنون، أليس كذلك؟ سأل سفري من ورائه دون أن يخفف من سرعة الحصان.
– لا أدري لماذا تقول هذا يا أمير! – كشف صوت ترام عن عدم رضاه عمّا سمع.

– لا تعرف نيتي، ولا المكان الذي سأقودك إليه.
– أعرف مع من ركبت يا أمير. هدُفك هدفي، وسلاحك سلاحي!
– وإن لم تكن نيتي خيراً؟
– لا يمكن لمن يسافر مع شمس الصباح الحارة إلا أن تكون نيته خيراً يا سفري،
– نطق اسمه للمرة الأولى مُشعراً إياه بثقله فيه.
– إن كان هذا رأيك فلنسافر إلى أنابه. أريد مقابلة سيريرياكوف غزار، ألا تعرفه؟

- أسمعهم يتكلمون عليه.
- بالخير أم بالشر؟
- اغتصب ساحل البحر من الأديغة.
- لا أظن غزار وحده من فعل هذا.
- لم يفعلوا معنا أي خير ولو لم يكن وحده.
- دعنا إذن يا ترام نقرب من الساحل... سننظر إلى جهة تركيا، وأريك أين تقع من بلادنا.

- إن طلبت مني المتابعة يا أمير فلنمض! ولكن من لا أكنّ لهم أيّ ودّ هم الأتراك ذوو السراويل الفضفاضة. - نظر ترام جهة تركيا فاعتصر الألم قلبه...
أشفق سفري على ترام، ومرة أخرى ثارت في الرأس حكاية حب ترام، يزيد فيها وينقص. وقال بينه وبين نفسه: ماذا يضريك يا ترام البائس أن تتناسى آلام طفولتك؟ أفنيت نفسك في حبها مناقضاً رجولتك. تترك الباب مفتوحاً ليقولوا من ورائك كثيراً مما لا تستحقّ. غريب ألا تظهر في قماطر، بل في أرض الشابسغ والناخوي، حتى في إقليم الأديغة كله، امرأة تعجبك!.. لو لم يبق غيري لجلبت لك من تركيا الفتاة التي عشقتها. أسأله عن سبب إضرابه عن الزواج إلى الآن؟ لماذا أعرض نفسي لألسنة الفلاحين وأنا أرفع منهم فأسبب الحزن للفلاح؟ سيروي لي من نفسه الحكاية متى توطدت علاقتنا...
البحر هادئ اليوم ولو أن الخريف يهوي إلى نهايته. تراءى البحر أمامهما لا تحيط به العين، متناغماً مع السماء الزرقاء، مغموراً بزيد الأمواج الأبيض. وفي بعض الأماكن تتجمع سفن تمنعك من أن تسمع صوتك إن صرخت، وبعضها يبحر عباب البحر.

لا يرى ترام السفن لأول مرة. ما إن تعلم ركوب الخيل حتى شرع يرتاد البحر مع رفاقه من قُماطر، على مسافة غير بعيدة، بقصد الفضول والاستراحة. وفي تلك الأيام تعلّم كيف يميّز الأعلام الروسية والتركية والإنجليزية. وما كان يملّ من مراقبة السفن طوال النهار. لم يكن يعرف موقع تركيا فحسب بل بحر آزوف

المتفرع من البحر الأسود¹. وكان يعرف أن القرم يقع في الشرق من تلك الديار.

- إستانبول تقع في هذه الجهة، - أشار سفربي بطرف السوط إلى حيث يلتقي البحر والسماء.

- أليست الجهة التي تتجه إليها مقدمة السفينة؟ - أجاب ترام بسؤال، يريد ألا يشعر سفربي بالغضاضة.

- تماماً، في تلك الجهة، لم تخطئ. متى مشيت ملتزماً اليمين على ضفتنا وتجاوزت أنابه وجدت بحر آزوف عند توم - ترقان. صبر سفربي بعض الوقت متردداً في أن يقول ما خطر له. ثم أضاف: - من تلك الجهة تأتي سفن روسيا التي تريد نهبنا.

- على ما تقول يا أمير، - لم يدعه ترام ينتظر، - تأتي سفن غزار من مدخل بحر آزوف إلى ساحلنا...

- حقاً يا ترام، من أين تعرف إن كانت سفن روسيا تأتي من بحر آزوف - استغرب سفربي ما سمع مع شعور بالرضا.

- عيب يا أمير ألا تعرف هذا وأنت ابن الساحل!
- والله أفحمتني يا ترام. - وجه سفربي نظرة ارتياح إلى رفيقه. - تبين لي أنك غير ما توقعت. - ثم برأ نفسه قليلاً: - ما يجعلني أقول هذا هو أن ساحل البحر ليس مُقاماً للأديغة.

- وهذا جزء من الموضوع يا أمير. قال ترام دون مبالغة وإن بدا عليه أنه لا يتصاغر للأمير: - حين تُقيم ملتصقاً بالبحر يصعب عليك حماية قرينك أيها الأمير. ألا ترى ما يحدث لهم في ناحية أنابه؟ ساحل البحر نقطة ضعف للأديغة. لهذا كان والدك باع قطعة الأرض الصغيرة على الساحل.

قال سفربي: ليس هذا فلاحاً غيباً. لا يذكرك الناس إن لم يتأملوا شيئاً منك. والأديغة يقولون: من تتأمل منه شيئاً يصبح غريمك. ما كنت أصدّق ما أسمع من أن ترام يُذكر في المضافات. والآن عاينته بنفسه. في كل قرية أمثال هؤلاء.

¹ يستعمل المؤلف الاسم الأديغي لبحر آزوف، وهو آزوف نفسه بشيء من التحوير إلى الأديغية. ويعني بالأديغية الفم الضيق، نسبة إلى شكله.

ولا يتخلفون عن أي شخص يعقولهم وبإنسانيتهم وبطريقة حياتهم. نسميهم فلاحين جامعي روث الخيول، وسلائل الوسخ، ولكن بينهم كثيرين ممن يُفحِمون صنفاً من الأمراء الثرثارين. إن أفهمتهم حقيقة وضعنا حموا إقليم الأديغة. وفي حال الضرورة يمكن أن تجنّد هؤلاء لمهمات معيّنة. من يصعب التفاهم معهم والتزامهم بموقف ثابت هم جماعات الأمراء والنبلاء المسكين بدفة القيادة. كل أمير ونبيل يضم الفلاحين إلى جماعته. ووحدة هؤلاء هي التي ستجمع العامة. وقبل أن نفعل هذا يجب أن نبحث عن نقطة ضعف القضية التي نلاحقها الآن. وغزار الذي بيده الموضوع لا أعرف أين مكانه تماماً.

- لا أعرف إن كانت السفينة القادمة إلى الشاطئ هي التي تُقَلّ غزار. - حملت السفينة التي ارتسمت أمام سفربي على الوقوف على ظهر حصانه.

- هذه ليست سفينة روسية... بل تركية. السفينتان المرافقتان لها هما الروسيّتان... - قال ترام خجلاً من تصويب معلومات الأمير، وأكمل: - لا بد أنها اعتُقلت بناء على أوامر القيصر الروسي¹ ويجبرونها على الرسو... تعال يا أمير لنصرف من هنا.

¹ في بدايات عام 1830 أخبر قائدُ الجيش الففقاسي المستقل باسكيفيتش إيريفانسك رئيس الأركان تشيرنشيف ما يلي: "سُتُنزل السفن التركية على الساحل الأديجي للبحر الأسود بناء على أوامر حاكم طرابزون جيوشاً إلى القاطنين في الأبخاز، وسُعيد هذه الجيوش احتلال مدينة سوخوم وبوتي، وسيدرّس عدد من رجال الدين القرآن واللغة التركية، ويؤسسون الجوامع، ويفتتحون لهذا الغرض مدارس. وسيجري إنزال عشرين سفينة في ربيع هذا العام، تتلوها سبع عشرة أخرى. وستحمل هذه السفن ملابس متنوعة وأقمشة وملحاً وفولاداً وورصاً وباروداً.

وكتب القيصر نيقولاي الأول بعدما قرأ الرسالة: "1- يجب إبلاغ الأمير ليفين أن يأمر الأمير ريبوي بإخبار السلطات التركية أن القيادات التركية كانت تعهدت بمنع الأديجة المؤتمرين بأمر الأتراك من الاقتراب من الساحل. والآن تتصرف هذه السلطات على هواها خلافاً لأوامر السلطان، وأنا سنجابه هؤلاء المجرمين بالسلاح.

2 - يجب إبلاغ الكونت باسكيفيتش بضرورة التصرف مع كل السفن التركية القادمة إلى ساحلنا بين أنابه وريدوت قاله على النحو التالي:

- وهل ارتعت.
- لا أريد يا أمير أن أشهد على مثل هذا السلوك الأعوج. وإذا كانت العادة تقديم العون لمن هو في ضيق فنحن الاثنين، والله شاهدنا، ليس بيدنا شيء.
- غيرَ سفرني دون اعتراض اتجاه حصانه موافقاً في قرارة نفسه على كلام الفلاح، ومع أن ما رآه كان يمزق قلبه ألماً فإنه لم يلتفت إلى الورا.
- قال سفرني في بداية الطريق:
- هذه هي الحال يا ترام، روسيا حاصرتنا براً وبحراً كما ترى بعينيك. ونحن ما زلنا مششتين تحت أسماء البجدوغ والجمكوي والشابسغ... ماذا كان موقفك لو كنت مكاني يا ترام الفلاح؟ كيف كنت تتصرف؟
- من يُشهر السلاح يجابه بالسلاح يا أمير.
- مهلاً يا ترام، مهلاً. - استعجل سفرني كمن يريد أن يلجم اندفاعه وأوقف الحصان: لم نصل بعدُ إلى هذا الحل!.. كان بؤدّ سفرني أن يضيف شيئاً أيضاً ولكن الفارس القادم جرياً نحوهما أنساه: - ما الذي يجعل هذا الفارس يُسرّع إلينا يا تُرى؟ أهنأك مصيبة ما؟
- تسمر الفارس أمامهما:
- أيها الأمير جاء إليك ضيف أظن اسمه غزار برفقة ضباط كفار فأرسلوني وراءك.
- نعم، كيف حدث أن جاء المنحوس في غيابي؟! عاد سفرني إلى طريق قماطر ناسياً الفارسين. وبعد مسافة خفف من سرعة حصانه وسمح للفارسين أن يلحقا به.

...

-
- أ - اعتبار الأسلحة والذخائر التي يُعثر عليها غنائم حرب ومصادرتها. ب - كل سفينة تختبئ أو لا تقبل التفتيش تعامل كما في المادة أ. ج - إطلاق السفن التي لا أسلحة فيها لتمارس نشاطها التجاري دون عرقلة.
- 3 - عدم الاستجابة إلى أيّ شكوى يرفعها الأتراك العاملون بين الأدبغة، وتُفرض عليهم الإقامة في مكانهم، ولا يحق للسلطات التركية التدخل في شؤون هؤلاء. ويجب التصرف مع هؤلاء كمتمردين مع الأدبغة إن رفعوا السلاح أو حاولوا حماية أنفسهم" المؤلف.

ارتعب سفري من المسلحين الذين رأهم في حيّه. كلٌّ يحمل ما عنده من خنجر أو بندقية أو مسدس أو فأس أو شوكة بيد. كل من يلبس قبة في قماطر، بل في براوت المجاورة توجهوا إلى بيته. الشارع لم يعد يتسع لهم. ولم يكفهم فاحتلوا الشارع الآخر. ليس ما يراه سفري استقبال ضيف، بل أناسُ حربٍ. مجتمعون دون صوت مغمورين بسواد لحاهم وشواربهم. لا يصدر منهم إلا نخير أحصنتهم وصليل الحديد. ولما رأى المجتمعون سفري بدؤوا يتباعدون قليلاً. ليس على مرتبط الخيل إلا أحصنة الضيوف الخمسة. وليس على الباب من يلجم اندفاع الفلاحين. والعبيد والبوابون وسائر خدم الدار يراقبون الموقف من خلف الأهرء أو جدران الحظيرة دون أن تعرف أنهم مرتعون أم لا.

— ماذا تنوون أيها الفلاحون؟ سأل سفري الواقفين.

لم يُجر أحدٌ من المسؤولين جواباً.

— أما سألتكم أيها الفلاحون عن نواياكم؟ سأل مرة ثانية.

— خرج من بين الفرسان فلاح متقدم في العمر:

— لم نعرف في غيابك تفسيراً لقدوم الجنود الروس أيها الأمير... من يدري ما يمكن أن يفعل هؤلاء؛ حاصرونا من كل جهة. نحن في أوقات حرجة. ساجحنا يا أمير أن أخطأنا.

— حيّاكم الله أيها الفلاحون. — ترجّل سفري مرتاحاً من الحصان. — هؤلاء

الجالسون في بيتي ضيوفي من أيّ مكان جاؤوا. يمكنكم أن تتفروا.

دخل سفري إلى المضافة. استقبل غزار صديقه ما إن تجاوز قائمتي الباب. وقال

له بخليط من لغتي الأديغة والقوزاق وهو يعانقه:

— يا سفري أين أنت، لم نعد نراك. ألا تعرّج علينا! شوّقننا إليك.

— مررتُ عليكم أيضاً يا غزار، وكنت أزور أنا به كل يومين.

— أخبروني أنك جئت إلى كيرش. لم أجد الوقت لأقابلك هناك. تتعقد أعمالنا

يوماً إثر يوم. وكنا في نواحي الأبخاز والوييخ.

— من البديهي أن تتعقد أعمالكم، — لم يتمالك نيكراس تيم نفسه فتدخل في

الحديث بالروسية. — إذ احتلتم الساحل الأديغي كاملاً.

- نتصرف حسب ما ورد في اتفاقية أدريانوبول، - أجاب غزار بالروسية مُفهِماً أصحابه - لا نعترف بما اتَّفَق عليه في أدريانوبول! - بدا على تيم عدم تقبُّله لجواب الجنرال: القرم مليء بالحُرير ولكنه ليس لنا.

- مهلاً يا تيم، لا تستعجل الأمور. - أشار سفرني بيده يريد استلام دفعة الحديث. - لا تُفزع الضيوف قبل أن نلقي عليهم التحية. هذا نيكراس تيموفيه، نناديه تيم. وهو من الأُبَازخ، أتيت لك على ذكره مرة يا غَزار. والواقف إلى جانب قرباتر عند قائمة الباب هو رُفعت بنُ تيم. وهذا حاغور نور مُجَد من الشابسغ، ويعيش في باستوك. وهذان الواقفان هما ترام، وحباط من فلاحِي قماطر.

وقدَّم غزار رفاقه الأربعة للحضور. وكلما ذكر اسماً نُحَضُّ صاحبه وأشار إشارة احترام وجلس. وتعرَّف من لباس اثنين منهما ومن رتبتيهما أنهما يُخدَمان مع غزار، والآخَران من جيش مشاة أنابه. وأحد الأربعة الحامل رتبةً مُذهَّبة، وهو راكيتوف بافيل، حُيِّل لسفري أنه يعرفه، فابتسم له مشعراً إياه أنه مرتاح إليه لطبيعته الهادئة. ولا يخفى من وجوه الأربعة أنهم يُخالطون الأديغة لأول مرة إذ يتفحصون بحذر شديد كل ما يرونه، غير منكِّرين استغرابهم. وينصتون إلى أصوات الفلاحين المنصرفين من جهة الدار، وأحياناً ينظرون من النافذة في سرية أقرب للعلن، دَعَكُ مما في مضافة الأمير التي لم يتركوا فيها شيئاً لم يَمروا عليه بعيونهم. وما تعجبوا منه أكثر من البساط الجداري المزخرف، ومن الخنجر والسيف والمسدس وكشاشة الذباب، هو الإبريق والطشت النحاسيان المكونان وراء الباب؛ إذ يلمعان أمام العينين حتى لَترى صورتك فيهما.

لم يكن سفرني قلقاً بشأن الطعام الذي سيقدم للضيوف: ما إن وطئ الضيوف أرض الدار حتى شرع الخدم، كما تُملي عادات الأديغة، وبمعرفة ربة البيت، في إعداد لحم الخراف. وتصل رائحة شيء اللحم إلى الجالسين في المضافة بما يُشعرك بجهوز الطعام. ولما كانت العادة في كل مكان المحافظة على الأدب حيث يُتناقَل الطعام أدركت مراعاة أصحاب غزار هذه القواعد من جلستهم الوقورة، ومن وجوههم وحذرهم وتوجسهم.

- هل تعرف يا سفري ما قلت قبل عودتك لرفاقي الضيوف؟ - سأل غزار كي لا يبقى الجالسون صامتين، وكي يعرف طبيعة جلسة الفلاحين، وأجاب نفسه: - لا تقلقوا من الفلاحين المجتمعين، وشرحت لهم يا سفري قواعد استقبال الضيف عند الأديغة.

- صحيح ما قلته لهم يا غزار، - ألقى سفري نظرة جانبية سريعة نحو تيم. والتفت إلى نور مُجدّ كمن يقول له: هل توافقي؟ - لم تُخطئ في قواعد استقبال الأديغة للضيوف. ولكنك أخطأت يا أخي في شأن الفلاحين اليوم. وهم لا ينكرون، ارتكبوا الخطأ نفسه. - لن أكنم عنك الحقيقة ولو أنك ضيف، وأضاف قائلاً: وسيكون مدخلاً إلى طلبي منك: - وضع الأديغة الآن يا غزار صعب ومعقّد، لا مجال لأن تعتب عليهم. تجتمعوا وليس في قلوبهم الخير حين رأوا الضباط الروس، ليس من قماطر وحدها، بل من القرى المجاورة أيضاً. بل رأيت بينهم عدداً من الفلاحين الأبراخ.

لم يكن غزار بعيداً عن أن يحس أن قلوب الفلاحين لا تُضمّر خيراً. وكان يودّ رغم معرفته بحقيقة الجفاء بين الروس والأديغة أن يتجاهل الأمر فيجلس كأن شيئاً لم يحدث دون الخوض في ما أثارته صراحة نيكراس تيم، ولكن الأمور سارت خلافاً لما توقّع. وكان أشدّ ما يقلقه هو صراحة تيم الجارحة. قال سفري: لم أكن أودّ خوض مثل هذه الجلبة، بل أن أختلي بغزار فنتباحث في الوضع الحالي ونتشاور. ليس ما أتابعه الآن موضوع قرية. سأصارحه متى بقينا وحدنا.

خاف سفري أن يبالغ تيم في صراحته أمام الضيوف فاستعجل، وبدأ تقديم الطعام إلى المضافة:

- ليس الفلاحون مشكلة يا غزار. النهار طويل والليل يتلوّه. هيّا اغسلوا أيديكم واشرعوا في الطعام. ستتكلّم غداً في الموضوعات الأخرى بعد أن نستضيفكم اليوم.

لم يغب نوع من الطعام عن مائدة الأمير: الدجاج المقلّى، والديك الرومي المسلوق، ولحم الغنم. والباستا البيضاء، والخبز الطازج يتصاعد منهما بخار

خفيف. وإذا أضيفت الباخسمه إلى كل هذا، وكنت جائعاً على طريق السفر شعرت بالدوار.

- يا عجي يا أمير ما كلُّ هذا؟! - لم يملك غزار وهو يجلس إلى المائدة إلا أن يصيح.

- هل ترى المائدة الأديغية لأول مرة يا غزار؟

- أمن هذا اليوم فحسبُ أعرف الأديغة يا أمير! ما أريد أن أقوله: هل كان من أعدوا كل هذا ينتظروننا؟

- ما الذي يدفعهم إلى أن يقولوا إن مائدة الأمير جاهزة دائماً يا محترم؟ - تهمل وجه سفري مرتاحاً للإطراء على المائدة. والتفت إلى ترام الجالس على طرف المائدة دون أن يعرف السبب.

- ما تقوله صحيح يا سفري. - قال غزار بعد أن ذاق من الدجاج المقلّى. - أوافقك ولكن مائدة الأديغة لا تميز أميراً من فلاح... حقاً لا أعرف إن كنت أخطئ؟.. - ونظر غزار أيضاً إلى الركن الذي يجلس فيه الفلاحون.

- لا فرق يا محترم، - قال تيم حازماً كأنه كان ينتظر هذا السؤال.

- هذا يتعلق بمن يُعدّون الطعام ومبادئه الأولية. - وافقهم ترام: - كائناً من كان من يُعدّه فهو نتاج امرأة أديغية.

- أرفع هذه الكأس على شرف النساء الأديغيات، على شرف من أعددن هذه الوليمة، داعياً لهن أن يلازمهن الحظ السعيد، ويفيض الخير عنهن، وتمتليّ منازلهن بالأدب، وأهراؤهن بالخصب. - قال غزار لا يخفى انتشاؤه من مزيج الباخسمه وشراب العسل. - والله يا سفري يمكنك أن تجلس إلى هذه المائدة، ليس إلى الغد، بل ثلاثة أيام. نحن لا نستطيع هذا، علينا أن نعود مساءً إلى أتابه.

- على هذا لستم ضيوفاً يا غزار، بل عابرو سبيل... - استغرب سفري، وفي اللحظة نفسها فكر في الطريقة التي سيختلي بها بضيفه. - والله لا أعرف ماذا سأقول لك يا غزار... يمكن للضيف أن يأتي ولكن الانصراف ليس بيده. على كل حال الأمر بيدكم.

- ثم ألا يقول الأديغة يا سفربي: الضيف وحصانه وناره. لا أكتّم أن ذيول خيلنا اشتعلت فيها النار.

جلس الضيوف والمضيفون إلى ما بعد الظهر متناسين موضوع العلاقات الروسية - الأديغة، ومُبعدين من يتناولها عن الموضوع. وعند العصر ركب الضيوف طريقهم. وتبعهم عدد من المودعين.

حين صاروا خارج القرية تخلف سفربي وغزار عن الركب. ولما صارا بمأمن من آذان الناس سأل غزار:

- هل هناك ما يُقلِّقك يا سفربي. قل يا أخي، أسمعك.

- والله ليس هناك يا غزار ما يُقلِّقني غير ما يُقلق الأديغة... - بدأ سفربي يناور حول ما يريد قوله. - ولكن مع ذلك لا أعرف كيف أقول لك، ولا أعرف نتيجة كلامي. وابتدأ طرف ما يشغلني اليوم أكثر من مرة عندي في البيت. ولكن لم أكن أريد أن أكتشف عما في ذهني قبل أن نتحاور أنت وأنا، ونتشاور. والحق أني لست الوحيد المهوم بالموضوع، بل الأديغة كلهم. وها هم الفلاحون رأيتهم صباحاً بعينيك. وكم من الآلاف من أمثالهم في إقليم الأديغة؟! ستنشب حرب روسية - أديغية من وراء اتفاق سلام أدركه...

- ولماذا؟ هذا موضوع طوي يا سفربي.

- لم ينته يا غزار. اسمعني، كل إقليم الأديغة يرفضه.

- والقيصر يعرف هذا.

- أليس يحشد جيوشه عندنا لأنه مطَّلِع على الموضوع!

- وما المخرج في رأيك؟

- أن يندمج الأديغة في دولة واحدة بقائد واحد في روسيا؟

مشياً مسافة لا يصدر منهما إلا نخير الخيل ووقع حوافرها. كان سفربي صبوراً ولو أن سؤاله بقي بلا جواب. وصلا إلى المنعطف، وتجاوزاه. وتركاهما أجمة البرقوق.

- أراك لا تعلِّق بشيء يا محترم. لم يُطق سفربي صبراً.

- لا أحب أن أسيء إليك يا سفري. كان سلطان خانجري عرض الفكرة نفسها على القيصر، ولم يقبلها. وكلّمه أكثر من مرة في الموضوع. وهذا هو سبب تسريحه من الجيش القيصري... لا تجوز معاندة القيصر أيها الأمير...

غيّر سفري نظرتّه إلى خانجري بعدما سمع وإن كان بعيداً جداً عن أرض البجدوغ: لم يكذب عليه، كشف له الحقيقة. قال لنفسه: والله عجيب ما يجري في إقليم الأديجة. أياكون القيصر تصرف مع خانجري بهذه الطريقة بعد أن عرف أنه من النغوي؟ ليس بعيداً، فالقيصر ليس مجنوناً؟

- لم يتصرف القيصر على نحو صحيح مع خانجري ولو أنه ليس من أصل أديجي يا غزار!.. - احتدّ سفري على نحو ملحوظ كما لو أن الإهانة أُحِقت به. وأضاف وهو يهز رأسه ويتمتم ببعض الكلمات، مُشعراً أنه يتذكر بعض الأمور: - هذا هو السبب يا غزار في أن الأديجة يقولون: معروفي انقلب عليّ نحساً. بأيّ شيء قصّر الرجل في خدمة القيصر؟ ثم لم يلتفت إليه ولم يهتم به!.. لا تقل يا محترم، لا تقل! ليس سلوك القيصر صحيحاً.

- لا أقول إن القيصر تصرف على نحو صحيح يا سفري. ولكن كلام القيصر نافذ ومنته!

- ليس منتهياً بالنسبة إلينا يا غزار! ألا يفهم قيصركم أن الأديجة سيجابونه بالسلاح؟ يجهزون أنفسهم في كل مكان. وسيهاجمون القلاع التي أسسها في بلادنا بين عشية وضحاها. ما كلمتك فيه هو أيّ لن أذكر جهداً لتجنب الحرب في بلادنا. وأنا مسؤول عن كل أديجي. ستتذكر عاجلاً أم آجلاً أيّ قلت لك إن حرباً ستنتشب بين تركيا وروسيا. ولا أعرف ما يمكن أن يلطف الأجواء بينهما. هاتان الدولتان يا غزار تتجابهان دينياً. أيّمكن أن يركب الإسلام والمسيحية على حصان واحد؟ هذا مستحيل إلى الأبد. والله نفسه لا يقبل منك. المتخاصمون، لو تصالحوا اليوم، سيتعادون غداً. وبما أن قلبي يحدثني أن هذا سيحدث يوماً ما فسنخلص للقيصر الروسي إن صالحتنا. كنت أود أن أقول هذا للقيصر لو التقيت به قبل أن يُشعل الحرب. ما رأيك يا غزار؟.. ألا أستطيع مقابلته؟ أنا لستُ خانجري، أنا سليل أبوين أديجيين!..

- ولماذا؟ أكيد تستطيع مقابلة القيصر؟.. - وافق غزار صديقه، ثم أضاف بلطف، متجهاً إلى حقيقة الموقف: - طريق القيصر دائماً طويل يا سفري، ولذا أظن أن طريق المشكلة الأدبغية ستكون طويلة ريثما يُسَمَح لك بمقابلته.

- إذا كنتَ ترى هذا فَمَنْ برأيك أستطيع مقابله بدلاً من القيصر؟ - ضرب سفري بالسوط أعلى حذائه منقّساً عن هياجه. وجعل الحصان يقفز: - لا أريد مقابلة الجنرالين بيسكروفن وفيشيسلافتسييف. هذان صغيران على المسألة الأدبغية.

- إن كان لا بد أن تقابل أحداً يا سفري فهو الفيلد ماريشال باسكيفيتش إيريفانسك موفد القيصر في تفليس. سيسهّل هذا الأمرَ عليك. كلام الماريشال باسكيفيتش يصل مباشرة إلى القيصر دون أن يعترضه أحد.

- كنت أنوي أنا أيضاً مقابلة باسكيفيتش إن لم يتيسّر لي طريق القيصر. هل يمكن أن تخدمني في هذا.

- أستطيع يا سفري. ولكن الأمر يحتاج إلى قرابة شهر.

...

لم يكن مضى شهرٌ حين أتى من أنابه ثلاثة فرسان إلى قرية قماتر. سلّموا الورقة المختومة إلى سفري على الباب دون أن يترجلوا، وانصرفوا. عرف سفري من أول نظرة إلى الورقة مصدرها. مدّ الورقة المطوية على شكل مربع إلى قرباتر مخفياً انفعاله الذي سرى في كل أعضاء جسمه.

- فُضّ الورقة يا ولدي، - قال وهو يَمِطُ كلامه منتشياً _ أظنها آتية من عند الجنرال باسكيفيتش إيريفانسك. اقرأ ما فيها أياً كان، لا تُخفِ منها شيئاً إذ لا شيء أخفيه عنك. نحن الاثنين نفتح اليوم طريقاً كبيراً لا يراه أحد. نحن وأهلونا، والأدبغة كلهم، في حماية الله. أسمعك يا ولدي.

قرأ قرباتر: "إلى أمير الناختواي زانه سفري بن محمدي. نستطيع أن نجتمع يا سفري المحترم خلال شهر من وصول هذا الكتاب إليك لأجل الموضوع الذي تريد لقائي من أجله. التوقيع: حاكم القفقاس موفد القيصر الفيلد ماريشال ي. ف. باسكيفيتش إيريفانسك. تفليس 28 تشرين الأول عام 1830"

VI

لم يُطلع سفري من الأديغة على المهمات السرية التي يتابعها مع الروس غير ابنه قرباتر، ليس إخفاءً للمهمة الأديغية فهذه واضحة للجميع، ولا أحد يجهلها إذ يُخبر بها وإن ليس صراحةً. ومن يعرفها يطلب منه أن يرويها. أما هدفه السري الذي لم يحن موعده بعد فإنه يعمل مع الروس دون كلل على الوصول إليه.

كان أخبر غزار أنه لا يُعوّل على الجنرالين بيسكروفنه وفيشيسلافتسيف فلا يريد لقاءهما غير أنه اجتمع سرّاً بهما بعد ما وصله كتاب تفليس دون أن يأتي على ذكرهما لأحد. وقد قابلاه في تعاملهما معه بالسرية التامة نفسها. وإذا كان سفري توجّس من هذه المعاملة فقد سوّغ الأمر لنفسه بأن علاقات رجال الجيش، وقضايا الدولة يجب أن تكون سرية فلا تتعدى الشخصين.

كان أعجب ما يتعجب منه سفري في شأن ما يتابع من مهمته هو أنه لا ينتهي منها - زار أُنابه وكيرش وإيكاترينودار خلال نصف الشهر الماضي. وتعامل معه كلٌّ من قابلهم بمودة خلافاً لما توقع، واحترموه وثنّوا شخصه. ولكنه لم يحظ بالجواب الذي يبحث عنه. يوّدعونه قائلين: سنوصل مطالبك إلى من يجب، ونستشير من يجب، ونخبرك بما يجري. يعرف سفري أن من قابلهم من رجال الجيش ورجال الدولة ليس بينهم من يُعتمد عليه في إعطاء جواب لما يسعى إليه. يتصيّد أي معلومة يمكن أن تتسرب منهم فتكون فيه فائدة له. وأحياناً يستعرض الوجوه التي قابلها كلها فتختلط عليه الشخصيات، فيتساءل: ألكلّ هؤلاء الوجه نفسه، والكلام نفسه، والنظرة ذاتها، والابتسامة ذاتها؟ وحين يتناسى ما قالوا له يعيد التفكير في ما قالوه له واحداً واحداً، فيعود كلٌّ منهم ينتصب أمام عينيه واضحاً. ويرى فيهم جميعاً، سواء أراد هذا أم لم يُرد، ما رآه مرة من عناد روسيّ عامله به يوماً ما العقيد روزيفيتش الذي عاداه. وماذا بيد سفري غير أن يتناسى ما لا يعجبه مما كتبه الله عليه. والترك ذوو السراويل الفضفاضة لم يكونوا أفضل من الروس ولكنه تحمّلهم.

لا شيء ترفع عن فعله متى كنت في موقع توسّل. قال سفري: حين نغيب عن أنظارهم تنكبر كأن العالم مُلك يدينا. ومتى واجهناهم نتصاغر ونحن نهرّ رؤوسنا معهم موافقين على ما يقولون. وتتوسل إليهم كأن حياتنا بأيديهم... أليست

حياتنا بأيديهم حقاً؟ ولولا أننا كذلك لما حاصرونا قائلين إنكم مُلكنا! كَلَمُونِي حتى لو ابتسموا في وجهي - نهر سفري نفسه - كأنهم يجلسون على مقعد أعلى. ومن هو أدنى مني كان يقف على رؤوس أصابعه، ومن هو أعلى كان يترفع عليّ. حسناً: الجنرالات جنرالات، مهما قلت عنهم ترفعهم رُتبهم، ولكن ما شأن قادة قلاع أفبس وشَبَج؟ هؤلاء أدياء يقفزون في الفراغ، تقرأ على وجوههم: إن كنتم لا تعرفون حقاً من نحن القوزاق فسُنْريكم!

ما لم أفهمه هو ما ينويه بحقي فيشيسلافتسيف المقيم في أنابه. ألم ير الكتاب الذي أرسلوه إليّ من تفليس؟ ولنفرض أنه لا يعرف مضمونه ولكن لا أصدّق أنه لم يتباحث مع غزار في هذا الموضوع. لماذا طلب مني إذن السفر إلى ستافروبول؟ أيسعى لما فيه خيرٍ لقضيتنا أم يسعى للإيقاع بي أرضاً؟ كلُّ له نصيبه من الاعوجاج ويشارك في تناهب الثروة¹. لو كان في رحلة ستافروبول فائدة لما شكوت من صعوبتها. وخانجري يسعى ما بين ستافروبول وإيكاترينودار دون جدوى. أقام في بطرسبورغ، وجاء موفداً من القيصر إلى إقليم الأديغة... إلام أسعى أنا إذن؟ أأتصاغر وأنا الأميرُ أمام الروس الفلاحين بلا فائدة؟ أليس واضحاً حسب ما يجري أن ما سيقوله لي هذا الذي أذهب إليه هو ما قاله لي غيره؟ لا أظنهم سيصغون إلى كلامنا ما لم نرفع السلاح في وجوههم. يجب إحراق إحدى قلعتي أفبس وشَبَج قبل السفر إلى تفليس. وكان أفضل تصرّفٍ هو أن يهاجمهم الأبراخ في ناحية شَحْغُوشه. وإن تصرف الأديغة في نواحيها هكذا فلاشك أن البسلي ستثور. لن يظهر بين الفلاحين من لا يرفع السلاح، وسينضوون تحت علم الوحدة الأديغة ما إن تطلب منهم ذلك.

- سنسافر غداً يا ولدي. - قال سفري، - وقبل أن نسافر أريد أن أستشيرك. ألن يسمع كلامنا من نساfer للقائهم على نحو أفضل إن هاجمنا الروس قبل السفر في بضعة مواقع دون أن نظهر نحن في الصورة؟

- أليست هذه حرباً يا والدنا؟

- أليس الوضع الذي يعيشه الأديغة اليوم حرباً؟

- حرب، ولكنها حربٌ ترُقَّب دون إطلاق نار.

¹ في الأصل تقليد في الأعراس يتنازع فيه الشباب على جلد الخروف.

- إن كان هذا رأيك يا ولدي فسنسافر غداً كما قررنا. نذهب إلى تفليس وسوخوم ولا يجوز أن يعرف أحد بتحركاتنا. فإن أفلحنا في مسعانا عرف الجميع، وإن لم نُفلح لم نكتفِ السبب عن أي إنسان. إن شهدوا على ما قاله لي غزار عدنا ومعنا الكتاب الذي عبرنا به جيشهم، الجيش الروسي. وكما اتفقنا يا ولدي كن مستعداً للموضوع قلباً وروحاً!

- وإن رفعوا السلاح في وجهك وأنا أخدم في جيشهم؟

- هذا مستحيل يا قرباتر... قد يحدث أن نتجابه نحن الاثنين يا ولدي. لا تنسَ في أي موقف وقعنا فيه أن في صدرك قلباً أديغياً. وأنت حرٌّ في ما تفعل، ولن أعتب عليك مهما فعلت. ولكن أريد مع ذلك أن أقول لك شيئاً آخر: لا تنس حين تفكر في الزواج أن تنظر نحو فتاة أديغية...

أمتقع وجه قرباتر وقد شعر بأن كلام والده يحمل إيحاءً ما إليه. وفي اللحظة نفسها خطرت له ماريا. تماسك شاعراً بأن ما يحدث له في حضرة والده غير لائق به. ومع ذلك لا تفارق كلمات والده في شأن ماريا ذهنه مهما ملك نفسه. لم يكن يريد أن يبقى في حضرة والده ولا في منزله ولو أنه لا يعتب عليه. ولم يكن يفضل شيئاً على أن يفارق والده بأي ذريعة كانت.

- ما الأمر يا ولدي أأكون أزعجتك في شيء؟ - لاحظ سفرني حال ولده، وبدأ يسمع صوت حبات سُبحته.

- لا يا والدنا، لا. لم تقل لي ما أحزن لأجله... يُخجلني كما تقول أنت حديثنا في ما ليس في زمانه...

- أن نشعر بالحرَج بيننا وبين أنفسنا أليس أفضل من أن يُخرجنا غيرُنا يا ولدي؟ أقول لك ما قاله لي الكبار من آل زانه، ولا أخترع شيئاً من عندي. لمثل هذا قالوا: احترم كبيرك وأحبَّ صغيرك.

في الصباح ركب سفرني وابنه قرباتر طريق تفليس متظاهرين أنهما لن يبتعدا عن قماطر. وليس في العربة ذات الأحصنة الثلاثة إلا كيس فيه سلتان تحويان لباسهما والطعام الذي يوصلهما إلى أتابه. وقد انطلقت العربة باكراً في حين لحقهما الفارسان بعد ساعة تقريباً.

لا يرى سفري في وجه ابنه القلق الذي يصاحب السفر عادة، بل هو مرتاح كأن السفر مهنته الأزلية. وهو مصداق ما يقولون من أن الحصان يشهد على حال راكبه. قال سفري: شباب اليوم لا يشبهون آباءهم. يعرفون، ليس ما لا يعرفه أبائهم فحسب، بل ما لا يعرفه أجدادهم. طباعهم حلوة، ينفذون إلى القلوب. ومن يتعترون منهم وهم يظنون أنفسهم ينظرون إلى البعيد أكثر. وليسوا قليلين من يدمرون حياتهم وهم يظنون أنهم يجهزون أنفسهم للمستقبل. حسن أن الولد مرتاح. لن يُخطئ، ولن ييدر منه ما لا ضرورة له. وسينشر الهدوء في كلامي وفي تفكيري... لماذا شحب وجهه أمس مع حديث الزواج؟ أليكون قلقاً على أسرة نيكراس؟ يا حسرتي يا ولدي إن كان هذا السبب فلا مشكلة. لا يجوز أن تضعف أمام مثل هذه العواطف. لا تزال أمامك آلاف الخطوات في كثير من السنين. وفوق كل ما سبق يجب أن تكون معك شريكة حياة مخلصنة تسهل طريقك. ومن حسن حظي أن التقيت بامرأة من هذا النوع توافقت تفكيرها وتفكيري. آل نيكراس روس، لا أقول إنهم سيئون، بل إنني فكرت مرة أن أصحب تيم معي إلى تفليس، ولكن لا أعرف لماذا لا يقبل قلبي، ألائي لا أثق به؟ لا، يعتقد أنه يحمي الأديغة بأقوى مما أحمي. وزوجته أديغة، وهو وإخوته الصغار وأولاده أشد إخلاصاً منا لإله الأديغة... ولكن ابنته ماريا شوهدت وهي ترسم إشارة الصليب... الحق أني سألت غزار فأخبرني أنه لم يشك فيها. ولذلك لم يسمح بإدخال لحم خنزير إلى بيته ما دامت ماريا تقيم فيه... دعنا من هذا، لا أعرف طبيعة علاقاتهم... هذا يحمل اسماً روسياً، والآخر اسماً أديغياً، والثالث اسماً تركياً. ويقال إنهم سمّوا أحد أولادهم اسماً من النغوي.

تبين حين وصلا إلى أنابه أن السفينة التي ستُقلّهم إلى سوخوم تركية. لم يكن سفري راضياً بسير الأمور هكذا وكون السفينة غير روسية. وما الفرق؟ المهم أن يعبر البحر كائناً من كان البحار والسفينة. ولكن سفري احتاج لِمَا رآه وجعله يغمغم.

- هل قلت شيئاً يا والدنا؟ سأل قريتر والده غير مرتاح لطريقة والده في الكلام.

- لا شيء، قلت: أينما ذهبنا اصطدنا بالترك.
- وما رآه سفري في السفينة التي لم يكن يريدنا جعله يصيح:
- يا عجيبي؛ من أرى؟! أهو مُحَمَّدٌ؟.. يا مبارك النسل تعود وقد كنت في نواحيننا دون أن تعرّج علينا يا مُحَمَّدٌ؟! أتكون عاتباً على آل زانه؟
- أسألني يا سفري إن كنتُ حراً في قراراتي ولا تعتب عليّ! هل يسمح لنا الموجيك الذين يراقبوننا بما نريد؟ لم يسمحوا لنا أن نتأخر يوماً واحداً في الميناء. سمحوا لنا بالرسو وهم يفتشوننا، وغادرنا وهم يفتشوننا.
- ماذا بيدنا؟ جِئنا اليوم حملٌ ثقيل... - لم يملك سفري إلا أن يتمعن في صديقه بعين الرضا رغم أن قلبه لم يكن مسروراً بما يسمع، ورغم شكّه في أنه يقول الحقيقة. ومع ذلك لاهمه: - تقول الحق في سلوك الروس معنا، ولكن لا أصدق كلامك لأنك تتجاهل زيارتنا للمرة الثانية. أنا أفهمك إن كنت صادقاً أم كاذباً غير أن من في بيتنا لا أظنها تفهمك، ويصبح طعامها مُراً عليك. أخلفت بوعدك معها كثيراً من المرات. تنتظر كآملّة أن يزورها ابنُ خالها.
- ليس إلى هذه الدرجة يا سفري، ولا تُخرجني أمام قرباتر. أمسكت بي هذه المرة متلبساً. ألا تعرف طبيعة برزج جراندوقوه؟ حين أخبرته بأن عليّ زيارة سفري اختلق الأعذار ولم يسمح لي أن أخطو خطوة واحدة.
- وهل يخاف أن أسلبك منه؟ - ابتسم سفري وهو يفكر في جاره الوبيخ. - لا أعرف حقيقة نواياه غير أنه لا يريد أحداً في الساحة غيره من ناتخوي أو شابسغ.
- وهذا نفسه ما يفعله بالأبزاخ. - يوافق سَلْحُرُ مُحَمَّدٌ صديقه. - يدّعي أنه أدبجي وأبخازي مع أي لا أظن أنه يفهم شيئاً من الطرفين. ولكنك تعرف رجولته أنت أيضاً يا سفري. السماء لا تتسع لرجولته، لا يريد أن يسمح لأحد أن يطاء أرض الأدبجة. يفعل كل ما يقدر عليه إلا أن تفتري عليه. لا يسمح لأي سفينة روسية أن تقترب من ساحل الوبيخ. ولا أن تطأ أقدامهم أرضها.
- على ما تقول فقد أعلن صديقي القديم الحرب على القيصر. - غير سفري صوته وكلامه على برزج. ويمكن أن تلاحظ عليه أنه يلين. - ليس مرتاحاً إلى ما يحدث في إقليم الأدبجة.

- إلى الآن لم يُشهر جرانددوقوه سلاحه. ولكنه يحرس ساحله مدججاً به.

- وما ردُّ الروس عليه؟

- هؤلاء يا سفري يفتشون السفن إلى الآن، ينفذون أوامر القيصر. لا تعتب عليهم. والآن أود أن أسألك عن وجهة سفرك. أظننا نساfer إلى تركيا دون أن يعرف أحدنا نية الآخر.

وُلد سلخر مُحمَّد في الناختوای غیر أنه عاش نصف سنوات عمره الخمسين في تركيا. وقلبه وروحه يصبوان إلى أرض الأديغة حيث يعيش أهله. وليس من أصحاب الأملاك ولا من التجار ولا من الجيش. وليس له منصب كبير، وإن قلت إنه رسولٌ أو موفد فإنك لا تُخطئ، يخدم في سفارات تركيا في الخارج. ولكنه حين يزور الأديغة يعدونه واحداً من الشخصيات الكبيرة التي تعمل في تركيا. ومع أن سفري يعرف طبيعة عمل سلخر مُحمَّد فإنه يَحْتَلِّ إليه أحياناً أنه لا يكشف له عما في قلبه تماماً. وكيف تصارحه؟ مهما كان منصبه كبيراً أو صغيراً فهو قادماً من دولة أخرى. يُحَالِط الترك بصفته موفداً تركياً. ويفهم سفري أنه لا يجوز إهماله وتجنُّب التعامل معه. لا تعرف متى وكيف يمكن أن ينفعك كالسوط يُمسك شيئاً من الربح أحياناً.

- والله لا أعرف كيف أعبر لك يا مُحمَّد، - يُجيب سفري مناوراً حول السؤال.
- لم أعد إلى تركيا منذ الربيع الماضي. والأديغة الذين عُدت إليهم مهمومون بقضية كبيرة. آذتنا تركيا التي تعود إليها، باعثنا للروس بكلمة واحدة: خذوا! ولا أعرف النتيجة بالتحديد. ومن لا يعرف شيئاً هم العاقمة، والويخ الذين خالطتهم هذا ما يُقلقهم، ليس سراً وإن لم يكاشفوك. كان حسناً لو أفهمت من تعود إليهم ما رأيت وما سمعت. ولن يقبل الأديغة أن يباعوا إلى أيٍّ من الطرفين. ألقنا الدولتان وسط النار... هل تسأل عن وجهتنا؟ سأل سفري وهو يخرج من كلماته الواضحة التي تكشف أفكاره. - نحن لا نذهب بعيداً، أريد أن أقدم قرباتر إلى أصدقائي الأبخازي، أريد أن أؤسس علاقاته بهم. ها هو وأنت تراه أمامك تجاوز مرحلة الشباب والعبث. وفي طريق عودتنا من سوخوم أود أن أعرج على برزج جرانددوقوه. وأنت بلِّغ سلامنا إلى من يسأل عنا.
- وعليكم السلام يا سفري. سأبلِّغهم، هم يسألون عنك، لا ينسونك.

لم يكن ركاب السفينة كثيرين، ولا ما فيها من البضاعة ثقيلاً. بعض براميل العسل، وكومتان من جلود الخراف والبقر تفوح منهما رائحة اللحم والدم. وأكوام من أكياس الذرة الصفراء. وأجبان أديغية مجففة. وضافر من الفلفل، ومن البصل، وأقراص من الشمع الجامد، وحُزْم من صوف الغنم، والقش الذي تصنع منه المكانس، وألواح خشبية، وكشاشات ذباب، ومقابض معاول ومجارف، وحُصر، وأكسية قصيرة، وسروج - هذا ما رآه سفري في السفينة.

- أظن أن جماعتك حصلوا على كل هذا مقابل شيء من الرصاص والبارود يا مُحمَّد؟ - بدا على سفري عدم رضاه بما يأخذ الترك من بلاد الأديغة. ونظر نحو قرباتر بما يعني: هل ترى يا مُحمَّد ما يفعلون؟ - كم من أمثال هذه السفينة تُبحر من ساحل الأديغة؟.. هذه إلى تركيا، والأخرى إلى روسيا، وثالثة إلى القرم يا قرباتر... كلُّ يَنْهَب أرض الأديغة على قدر استطاعته يا ولدي. - لا تأتِ يا سفري على ذِكر ما سميتُه بالبارود والرصاص. هاتان مادتان يمنع الروس إدخالهما إلى أرض الأديغة. ربما يبادلون بضاعتهم بالقماش. ولا يزال الأديغة يثقون بالقرش التركي ولو خَفَّت الثقة عن الماضي. يدسونه في جيوبهم. ويسألون أيضاً عن العملة الروسية.

- حقاً؟.. - استغرب سفري ما سمع. ظنَّ أن أحداً غيره لا يملك عملة روسية ولكن تبَيَّن خطأ ظَنِّه. - وماذا يفعلون بها؟ ألم يتخذ مؤتمر الضابطة قراراً بعدم تداول العملة الروسية في الناختواي والشابسغ والأبزاخ؟ من الذي ينقض هذا القرار؟ وأنت أين رأيت هذا يا مُحمَّد؟ ربما في الوبيخ أو البجدوغ؟

- والله يا سفري لا يقتصر تداول العملة الروسية على ما ذكرت. رأيتُ في كل مكان. وأنا لا أوافق على هذا. إن كنت تركيا فعليك أن تكون تركيا، وإن كنت روسيا... يلتهمون العملة الروسية مدَّعين في الوقت نفسه أنهم لا يريدون روسيا.

تألم قلبُ سفري من الحديث الذي ثار فجأة قبل لحظات. كان الأفضل ألا يسمع هذا وهو في طريقه إلى روسيا. قال: أنا هنا أُمْنَع الفلاحين من أن يتصرفوا على نحو خاطئ، وهم يشتهون العملة الروسية سراً. يبدو أن عواطف الأديغة ماثلة نحو روسيا. ما المهمة التي نحاول نحن تحقيقها إذن؟ من جهتي لا

أخسر شيئاً في هذه العملية. يترجاني الروس أن أحالفهم قائلين: سيكون تحالفك معنا رادعاً أمام الناتخواي والشابسغ من الأديغة، ونعلي من قيمة إمرتك، ونزيد في أملاكك. وإن سألتهم كيف تُعلون من إمرتي لم يتجاوزوا إمرة القرية فأبقى بلا جواب. يقولون: سنحمي إمرتك وشرفك وتحفظ بعبيدك، وسنحمل الفلاحين على مساندتك. من هم هؤلاء؟ هم جماعة بيسكروفن وفيشيسلافتسيف. وغزار يعزف على الوتر نفسه خفيةً. أيقولون لغيري ما يقولون لي؟ لابد أنهم يجتمعون ببرج وحجمقوه وبولتقوه وتسي¹ وأظنهم يقولون الكلام نفسه لخانجري وإن لم يصرح تماماً.

لم يكن سفري يريد مزيداً من الحديث مع سلخر مُجد إذ لم يعد يتحمل. ولو وجد أيّ حجة لفارق ابن خال زوجته. وما نقره أكثر هو حديثه عن رائحة جلود البقر والغنم الطرية.

فرح سفري حين بدت من بعيد جبال الأبخاز وغاباتهما كأنه رجع إلى بيته دون أن يسافر في طريق بعيد. وفي الوقت نفسه سأل نفسه مع أفكاره المتضاربة: أيُكمل طريقه إلى حيث قرر أم يعود أدراجه؟ ونهر نفسه قائلاً: ما الذي يحملني إلى تفليس كسائر أمراء الأديغة؟ ولكنه نسي ما قاله حين راودته على نحوٍ لذيذ فكرةً كبير الأمرء، بل سيحكم البلاد بأكملها. لا أصدّق أن الأديغة سيسلمون أنفسهم للروس ولو أنهم يلهثون وراء الروبل الذهبي. أغريبٌ إن كانوا يعرفون قيمة العملة الروسية؟ أيّ عملة غريبة لم يجر تداولها في بلاد الأديغة إذ لا تملك عملتها الخاصة؟! كم من العملات: التركية والروسية واليونانية والإنجليزية والفرنسية والمصرية ظهرت في أرض الأديغة؟ ولكن أيّاً منها لم يجلب الحظ السعيد لها، وكلّ الناس يرون الخاتمة الروسية التركية لها.

ينظر سفري فيرى سفينة روسية سريعة تتجه نحوهم. ولم يطل الانتظار فقد وقفت هي وتلك التي يركبها. ودخل عدد من مفتشي السفن. وسألوا كل راكب عن وجهته. ولما وصلوا إلى سفري وشرعوا يدققون في كتاب سلخر مُجد تحجج سفري برائحة الجلد الطري وابتعد، وأبعد كتابه المطوي. ولما مدّ للمفتش كتاب الجنرال باسكيفيتش أعاده إليه مع إيماءة احترام بما يعني: طريقك مفتوح!

¹ زعماء الوبيخ والجدوغ والجمكوي والأبزاخ بالترتيب.

بدأت تفليس متناثرة في المضيق بين الجبال حين ارتقت العربة التبادلية التي يركب فيها سفري وابنه قرباتر ظهر المرتفع. ولما كان الوقت صباحاً باكراً كان الجميع يجلسون إلى مواقدهم فترتفع من كل بيت خيوط رفيعة متنوعة الأشكال من الدخان. وتبدو المدينة ببيوت متعددة الألوان من بين أوراق الخريف المتساقطة. وتسمع أصوات كلاب من هنا وهناك، وصياح ديك. وعلى الشوارع مشاة وخيالة وركاب عربات. ويسوق صبي قطعاً من الماعز من زقاق يؤدي إلى سفح الجبل. وعجوز يحمل حزمة لا تميّز أهي من الحطب أم من الشوك أم من العيدان.

- أهذه تفليس التي يتباهى بها الروس القاطنون في أنابه؟ - قال قرباتر خائب الأمل مما كان يتوقع أن يراه.

- أظن أن تفليس لا تعجبك يا قرباتر؟ - التفت سفري نحو ابنه، وبشّ له كعادته، ثم أضاف: - لا تستعجل يا ولدي في الحكم على مدينة لم تدخلها، ولم تتلق فيها التحية، ولم تذق فيها طعاماً، ولم تقض فيها ليلة.

- أقول هذا يا والدنا لأني لا أراها أكبر بكثير من قريتنا قماطر. - برأ قرباتر نفسه خجلاً.

- لا ضير في هذا يا ولدي. قست قماطر لأنك تحبها إلى تفليس. وأنا أشبه قريتي بكثير من الحواضر، ولا تفارق قلبي. كلّ يستمد قوته من جذوره. ما رأيك يا قرباتر أن نستأجر شقة حسنة إذ لا يزال بيننا وبين موعد الفيلد ماريشال باسكيفيتش بضعة أيام. ننفذ الغبار عنا ونتفقد هندامنا. أعرف أن من سنزورهم يحبون النظافة، سيتفحصوننا. وسنجمع أفكار الطريق المشتتة. وهذا يحتاج إلى أكثر من يوم وليلة. ليسهل الله يا ولدي المهمة التي جئنا من أجلها إلى تفليس!

قال سفري: لا يزال أمامنا يوم على الموعد ولكنه أمضى نصف النهار بصعوبة، وقضى ليلته مؤرقاً. مضى نحو باسكيفيتش وقد جهّز ما سيقول له، بل متى سيرفع صوته ومتى سيخفضه. وتبع قرباتر والده جاهزاً كذلك لكل ما يترتب عليه، بما فيه سلوك الأصغر مع الأكبر.

كان كساء الأب والابن من طراز واحد ولكن لونيهما مختلفان. كساء الأب أبيض ناصع كالثلج، ومن صدره يبدو قميص أسود رقيق. وعلى جانبي الصدر جُعبُ رصاصٍ مفصّصة. والحزام الرفيع من اللون نفسه، وإلى جانبه الخنجر والمسدس غيرُ الضخم. والقبعة الصهباء التي يغطيها قماشٌ من لون الكساء ينسجم مع لون الجزمة الرقيقة. ويمسك عصاً مطلية بالفضة، خفيفة، لا لشيء إلا للزينة. وكل ما يرتديه قرباتر أسود كالرصاص باستثناء القميص الأبيض، والحزام المفصّض، والخنجر الفضي، وجعب الرصاص.

توقف أكثر من شخص واحد ريثما ركب الأب وابنه العربية. وتابعهما المارة بنظراتهم. ومع أن سفري لم يكن حريصاً جداً على قوامه فقد ولج إلى العربية بقامة ممشوقة دون أن ينسى قرباتر جسامته الظاهرة في مشيته.

جرى لسفري ما كان يتوجس منه: قيل لهما: لم يجد الفيلد ماريشال فراغاً بين أشغاله لمقابلتكم فتأجل الموعد إلى ما بعد غد.

ضحك سفري مرة أخرى حين عادا إلى الشقة:

- هل تعرف يا قرباتر لماذا أضحك؟.. حين يعرف الروس والترك والإنجليز وأمرء الأديغة أنك تتوسل إليهم سيتصرفون معك على نحوٍ عجيب كأفهم تواطؤوا. ألا تسمعهم يسوّفون إلى الغد وما بعده! ما يشغل بالنا لا يشغل بالهم. يشربون الشاي، ويبصّرون بالمندل... أنا أعرف نواياهم: يريدون أن نترأخى في مطالبنا بين تأجيل وانتظار... - تغيّر لون سفري وارتفع صوته. - إن كانوا وصلوا إلى هذا فنحن أحرار، نستطيع أن نعود. ماذا يؤسّعهم أن يفعلوا بنا!

- بعدما قطعنا كل هذه المسافة؟.. - سأل قرباتر متعجباً من كلمات والده الأخيرة.

- وحدث يا ولدي أن عدنا بحُفّي حنين من مثل هذه المسافة البعيدة. زانه سفري بن محمّري ليس ساذجاً فيشرب الماء من أنفه. أنا أعرف كيف أردّ عليهم. سنجعلهم ينتظروننا بقدر ما انتظروناهم. فعلت هذا أيضاً بالسفير الإنجليزي في إستانبول.

- ولكن ألسنا من جاء إلى هنا متوسلاً يا والدنا؟

- نعم يا قرباتر، نعم. ولكن افهم: من لا يحتاجك لن يردّ عليك مهما توسّلت، سيُصم أذنيه. ومن له مصلحة معك أذناه حادثان. ليس أمام الروس مهمة مستعجلة كمسألة الأديغة. مهما تكبّروا علينا فهم محتاجون إلينا. من يؤدّ أن يثير مشكلة هو في غنى عنها؟! ومن بين نتائج هذا الخوف إقامتهم القلاع في أرض الأديغة. هل تتذكر أّحجكوه داور؟ سيرسلون إلينا الكثير من الموفدين من نوعه. لا يظنّ غزار أننا ردّدنا على زيارته بزيارة. ويشهد على هذا إجابتهم السريعة على طلبنا. هؤلاء يحتاجون إلى موفدين من الأديغة سواءً كنا نحن أم غيرنا، أكذب عليك إن قلتُ إنهم يحتاجون إلى كلّ من يطرق أبوابهم، ولكن يحتاجون إلى أيّ شخص يمكن أن يخدمهم بكلامه أو بفعله. ونحن طرّقنا بأهم كما يريدون تماماً. ولكنهم لما تحقّق لهم هدفهم طلبوا منا الانتظار. وتظاهروا بأنهم يعتذرون منا مبرّئين أنفسهم.

تبّين في اليوم التالي أن الموضوع غير ما توقّعه سفري وإن كان قرر أن يتخلف عن الموعد الذي اقترحوه، ويجعلهم يبحثون عنه. وحين أرسلوا إليه لم يذهب في الموعد المحدد بل بعد ساعة ونصف. ولم يهتم سفري بقلق من أرسلوه مهما كان كبيراً. ضيّع الوقت في مسح القبعة ونفض الكساء وارتداء الزنار والحذاء. وأكثر ما زاد في ضيق المرسال ربطُ حزام المسدس والعصا الفضية. ولما أراه الموفد وقد نفد صبره انقضّاء الموعد بالساعة وقف من جديد أمام المرأة الكبيرة على مخرج الشقة يمسّد شعر لحيته وشاربيه. وقال دون اكتراث إلى من وراه بروسية صافية:

- الفيلد ماريشال باسكيفيتش جعلنا ننتظره يوماً كاملاً، فلماذا لا ينتظرنا هو ساعة ونصفاً... - ثم استدار سفري مبتسماً دون قصد المماطلة إلى الواقف على قائمة الباب، وأضاف: - أقول هذا ولكن ما ذنبُ المرسال؟.. والآن كل ما قلّته لهذا يا قرباتر، - قال سفري لولده بالأديغية وهو يركب العربة: - سيبلّغه دون أن يُسقط كلمة واحدة إلى من أرسله.

- وهل في هذا فائدة يا والدنا؟

- سيفهم أننا لن نصبح ممسحة لرجليه.

لم تكن القاعة الفسيحة التي صُحِب إليها سفري وقربا تر تسع الكونت باسكيفيتش رغم أنه لم يكن فيها الكثير من البشر والأثاث. تصور سفري والفيلد ماريشال يستقبله أن رتبته والأوسمة التي لا يتسع لها صدره، بغض النظر عن جسامته، تجعل القاعة ضيقة. قال سفري وهو يتفحص مستقبله: هذا الذي أمامي يجعلك تنتظره ليس ساعة ونصفاً بل أكثر. يبدو أنه تؤثر لعدم استجابتي لموعده. وأفهمني أنه ليس سهل المنال.

— أهلاً بك، تفضّل يا سفري بن محمدي أمير الناخوي!.. — استقبله الكونت وما على لسانه غير ما في قلبه. — أنتما ضيفان، جئتما من شمال القفقاس البعيد. هل كانت الرحلة شاقة عليكم؟.. ألم تلاقيا عقبات على الطريق؟ اقتربا إليّ واجلسا مرتاحين.

— حياك الله أيها الكونت. لا تأبء بصعوبات الطريق متى كنت في مهمة ولا سيما مهمة تتعلق بالبلاد. وأجيب على سؤالك الآخر: لم يعترضنا أحدٌ طوال اجتيازنا حدود أرض الأديجة، وحدود بلادكم. والآن ما أريد أن أفتتح به كلامي أيها الماريشال الذي نخترمه...

— مهلاً يا أمير الناخوي، — أشار الكونت إلى سفري أن يقطع ما بدأ به. — اجلسا هنا، وعزّفي رفيقك الأمير. لا تستعجل على أمور البلاد، عندنا ما يكفي من الوقت من أجلها. أعرف أن أماننا، أنتم ونحن، كثيراً من الموضوعات لا بد من الحديث فيها. وأعرف أن أمورنا غير مستقرة في نواحيكم. — يقول الكونت لقربا تر الواقف وراء والده: لا تقف بل تعال إلى هنا واجلس! — أوّل ما أودّ إخباره بك — لم يقطع سفري الحديث الذي كان بدأه، — أنا لست أميراً على الناخوي فحسب بل أمير أديجي. لا أحد يجهل اسمي في إقليم الأديجة. والأمر الثاني أن هذا الأمير الشاب لا يجوز له أن يجلس حيث نجلس أنت وأنا الأسّان. بالإضافة إلى أن هذا الأمير الشاب هو ابني...

— هل هذا الأمير هو من ورد اسمه في الكتاب الذي جاءني من أتابه يريد أن يتطوع في جيشنا؟ ألقى الكونت نظرة حادة نحو قربا تر. وبش له غير مُخفٍ سروره بالخبر. — يليق بمثل هذا الأمير الشاب الانضمام إلى جيشنا يا أمير!

- شكراً أيها الكونت. - لمس سفري موضع قلبه بيده مُشهداً إياه على رضا عنه. وأوماً إيماءة خفيفة برأسه.

انحلّ أحد الموضوعين بسهولة خلافاً لما توقّعه سفري. وظهر من بداية الحديث أن الكونت مطلع على الموضوع. حدّث سفري نفسه: ليس هذا الجالس أمامي رجلاً سيئاً، وليس الرجل الذي لا تستطيع التفاهم معه. لا تجعلك طريقة استقباله لنا، ولا جلسته، ولا طريقة كلامه، ترتاب فيه. حلّ بكلمة واحدة الموضوع الذي استغرق سنة من الجنرال غزار. ما علاقته بنا حتى يراعينا؟ لا يستقبلون بالأحضان كلّ من يود الانضمام إلى جيشهم... أيكون حلّ المسألة الأخرى سهلاً كهذه يا تُرى؟..

روى سفري دون كلام زائد أو مبالغة حال الأديغة، وموقف الأمراء والنبلاء، وقبلهم موقف العامة من الناس، من الموضوع، ورأيه هو، والمخرج من الحالة. وطوال هذا الاستعراض جلس الفيلد ماريشال دون أن ينبس ببنت شفة حتى إنك لا تعرف إن كان موافقاً عليه أم غير موافق. بل إنه لم يتحرك. روى سفري كل ما أفلقه طوال عام كامل متسائلاً: أيتقبّل ما أقوله أم لا. واختتم بما يلي:

- كما رويث لك أيها الماريشال ليست القضية الأديغية فقط هي التي تُقلّني. والقضية الروسية ليست غريبة عني. متى صار للأديغة قائد واحد، ووقفوا إلى جانب روسيا دون حرب، بقيت حدودكم محمية ثابتة إلى الأبد. ويعاهدكم على هذا زانه سفري الأمير الأديغي. وسواءً نجح مسعاي أم لم ينجح فالشكر لكم أيها الكونت.

قال الكونت بعد أن جلس مدة صامتاً:

- لا نعتقد أيها الأمير أن قضية الأديغة ستسبب في حرب. واتفاقية أدرنة للسلام تشهد على هذا. - تناول باسكيفيتش الصندوق الفضي الصغير المحتوي على تبيغ ناعم، واشتمّ ما فيه على مهل. وأكمل كلامه حين أعاده إلى مكانه:

- نحن لا نسلب ما لا يُعطى لنا. ولا ندّعي امتلاك ما ليس لنا. وهذه سياسة قيصرنا الثابتة أيها الأمير. ونحن نتصرف تبعاً لأوامره. لا أظنك تتكلم على ما لا تعرف حين تقول إن الأديغة لا يقبلون اتفاقية أدرنة. وفي هذه الحالة لسنا وحدنا من لا يريد الحرب بل الأديغة أيضاً. فهمتُ أن قلقك ونيّتك

واستقامتك أيها الأمير ليست بلا أسباب. أعذك أن أبلغ القيصر كل ما قلته دون أن أسقط منه شيئاً. أما موضوع الأمير الشاب فاعتبره منتهياً لأن الأمر بيدي. وإن وثقت بي فلن أرسله بعيداً، أبقيه قريباً مني... بقي سفربي أسبوعاً آخر بعد الأيام الثلاثة المقررة سلفاً. ليس لأنه لا يجد عربة تُعيده بل لأنه كان مهموماً بأنه سيترك قرباتر في المدينة وحده، وفي الخدمة العسكرية. وتبين قرباتر عمّن لم يخمّنه والده: لم يكن في قلب قرباتر همٌّ إلا عاطفته المكتومة نحو نيكراس ماريا. حين شعر سفربي بارتياح ولده للخدمة قلباً وروحاً ركب طريقه إلى الأديغة وقبله يتلوى الماء.

VII

صحيح ما يُقال إن ما بين اثنين ليس سرّاً إلى الثالث. ربما لم يكن سفربي وقرباتر ركبا بعدُ السفينة المتجهة إلى سوخوم حين وصل الخبرُ إلى نيكراس تيم. لم يستغرب حين سمع أن قرباتر تطوع في الجيش الروسي، وبقي في تفليس: - وأنت يا ولدي ألم يُطْلِعْكَ قرباتر على الخبر؟ - لم يتسنّ لنا الحديث في أمور قرباتر. - كان أطلعك عليها لو كان يثق بك... - خلع تيم قبعته ومسح الجلد منها. ثم ارتداها. - والله لا أعرف لماذا يكتمون عنا... - ربما لم يقابل الماريشال يا والدنا... - لم يكن رفعت يريد أن يسيء الظن بصديقه، ولا أن يسيء إلى والده. لماذا نتحدث في الموضوع قبل التأكد من صحة الأخبار. أفكر في زيارة قماثر؟ - لن تذهب إلى أي مكان. - رفع تيم جفنيه الثقيلين ونظر إلى ابنه. ثم أضاف محاولاً التمويه على نظرتة العابسة: - كنا زرنأها لو أخبرانا بسبب سفرهما... - ظهر الأب والابن كما لم تتوقع منهما... هذه هي الحال، لا تعرف بمن تتق... - بدأ تيم يقلّب حبات الشبحة التي تريح القلب. وحين صحا قال لابنه رفعت دون أي استعجال: - تابع أعمالك يا ولدي، لا بد أن يكون للموضوع نهاية ما!

أعادت السبحة تيم إلى أفكاره حين دخل البيت. وصل إلى أفكار كثيرة انطلاقةً من الخبر الصباحي. ومرّ أمام عينيه الكثير. تذكر تيم والدّه ميشكا الذي يرتاح في مقبرة الأديغة، وجدّته التي لا تنام فيها، ووصية كلّ منهما. ورغم أن الأولاد تحولوا إلى مواليد في الأديغة وبينهم قليلاً ما يناديهم الناس إلى الآن باسم نيكراس، وكثيراً باسم الكافر. وطوال عمره ظل تيم بين والده وجدته: ظل والده طوال حياة والدته لا يسيء إليها، وأفكاره متجهة إلى جهة أفكار والده، متمسكاً بالأديغة. ولم يمنعه هذا أن يدفن والدته بناء على وصيتها على الطريقة الروسية، وفي مقبرة روسية. وبعد مدة دفن تيم والدته إلى جانب جدته دون ضجيج. ونصب على القبر شاهدةً.

قال تيم: ماذا بيدنا؟ نحن ولدنا في أرض الأديغة، وُئينا فيها. وسنموت فيها. وسيبقى هذا يا والدنا حبّ العمر لأنّها مهدنا وقبرنا وشرفنا ورحمتنا وفرحتنا، وسنحميها.

لم يستقرّ قلب تيم في البيت. توغل في جبال الأبراخ، واستعرض بخياله الغابات الملتفة على الجبال، والمضائق الرطبة، والقرى المتناثرة هنا وهناك، والقمم المغمورة بالثلج الأزلي، والشلالات، والمراعي الخضراء، وساحل الويخ - الشابغ على البحر الأسود، وريف البجدوغ الجبلي، وأرض الجمكوي المسطحة المبلّطة بمدافن الإنسان القديم، وقطعان مواشيها، ومحاصيلها المتجانسة. وشعر تيم بالدفع اللذيذ الذي سرى في الجسد. قال لنفسه ممّتعاً نفسه بنفسه: نحن في بلاد جميلة. وتذكّر وهو يجد في نفسه القوة التي يحميها بها زانه سفري الذي سها عنه لحظة.

لم يستطع تيم الجلوس. ذرع أرض الغرفة بضع مرات، وتوضاً ولو أن صلاة الفجر لم تحنّ بعد. ووقف في حضرة الله واقفاً على جلد الماعز الذي اتّخذه سجادة صلاة. كان دعاؤه الأول لأجل الراحلين من أهله لتكون آخرتهم خيراً. والثاني لأسرته، ولحاله وعيشته، وفي الركعة الثالثة دعا لإقليم الأديغة وسلامها وخيرها. ولم يقل في حضرة الله ما يسيء إلى سفري. ولكن لم يخطر له بخير كأصدقائه الآخرين.

تغلب مسألة قرباتر على أفكاره الأخرى وإن تظاهر بعدم الاهتمام. وتدخل ماريا في المسألة التي يريد إزاحتها إذ أنه موضوع لا يجدر بالوالد الأديعي التدخل فيه. وإن أزاحها خجلاً عاد إليه قلقه. ما سبب هذا السلوك من قرباتر؟ أهذا وقت مناسب لهذا الموضوع والأديغة في هذه الحال من التوتر؟! مهما ادّعى سفرني الأديعية لم يتصرف على نحو صحيح: أخذ الولد بيده ورماه بين الروس! لا يفعل زانه سفرني شيئاً اعتباراً. ماذا ينوي يا ترى؟ لا أوافقه مهما كانت نيته. ولو لم يبق أديعي واحد في إقليم الأديعية لقلت له! وحين قرر تيم الخروج من البيت إذ لا تسمح له أفكاره المتضاربة بالبقاء فيه دخلت "سماي" بوجهها الصبوح يبدو عليها سماعها أمراً مزعجاً. جلست على طرف الأريكة، وقالت لزوجها دون مقدمات، ودون إفصاح تام:

- هل صحيح يا تيم ما سمعته بشأن آل زانه؟
- صحيح ولكن لا أعرف حقيقة نواياهم... - قال تيم كأنه يحدث نفسه، وعاد إلى أفكاره، وجلس مدة واهماً ينظر إلى المرأة ولا ينظر.
- عجيب ما يفعل هؤلاء!.. - تذكر تيم أن المرأة جالسة حين تكلمت فحسب - ألم يكن من واجبهم أن يخبروك أنت أو يخبروا رفعت؟.. - حين يتكلمون يوهمونك أنهم أقرب الناس إليك، وأنهم لا يدرون كيف يُعزّونك... - أليسوا كذلك حقاً؟ - سأل تيم بعدما أمسك بطرف أساس الكلام، غير راضٍ عن تقييم ذوات غطاء الرأس لأصحاب القبعات.
- نعم طبعاً، ولكن مع ذلك... - تظاهرت سماي بالتراجع عن كلامها إذ أنها تعرف طباع زوجها، ولكنها أفهمته أنها لا تغَيّر رأيها.
- لو لم أكن مجنوناً لوجدت في كلام المرحوم والذي صحة - تنهد تيم عميقاً وهو يبرئ نفسه. أيمكن أن يتعامل الأمراء والنبلاء مع العاقبة من الناس بصدق؟ من أين يأتي ما ليس من صُلب الحياة؟ لم يتفاهم الأغنياء والفقراء يوماً لولا أننا ننوي الوحدة بين الأديعية للوقوف في وجه من يقتحم أرضنا دون رضانا.
- ثم إن آل زانه، على ما أتذكر يا تيم، لم يفارقوا مضافتكم. تدخلت سماي ثانية في تفكير الزوج. ونظرت إليه نظرة اعتذار لطيفة.

- هذا موضوع آخر... لم يفارقوا مضافتنا لأن آل نيكراس كانوا في ذلك الزمان أسرة روسية... ألا تعرفين معاملتنا، نحن الأديغة، للغرباء؟.. انتصبت طفولة تيم كلها وما مرّ به من أحداث أمام عينيّه. وتذكّر أصدقاء والده وائيقوه تامبر، وحاغور موسى، وتحخخوه نبأفاه. وبعد قليل أضاف إلى كلامه غير المكتمل:
- ولا تنس حرب بزيقوه، كلامي أنا على ما تلا الحرب. الفرق كبير بين علاقات الأمراء - النبلاء والعامة في ذلك الزمان وعلاقاتهم في زماننا هذا. ليس السبب في الدعوة إلى الوحدة هو ما يضر الطرفان من وديّ أحدهما نحو الآخر. المسألة لا تسمح بالفرقة وإلغاء طرفٍ لآخر بل تقرب بين الناس. رياح المسألة التي هبّت على الأديغة هي التي تدفع الأمراء - النبلاء والعامة إلى عقد مؤتمراتهم بين البحر الأسود وخر بشزه. والحق يقال إن من رأيهم من الأمراء النبلاء في الاجتماعات قليلون باستثناء آل زانه. وإن حضروا فهم يُصغون إلى الثناء عليهم منتحين جانباً ولا يُفصّحون عما في قلوبهم. وانظر الآن ماذا يحدث! ليس لأول مرة يُخالطنا سفري متمايلاً. ركب وسافر إلى تفليس وعاد. وضمّ ابنه إلى الجيش وتركه هناك.

- لا أعرف يا تيم، لا أعرف... - مطّت سماي كنتفيها وخالفت بين يديها. - أنت تعرف في الموضوع أكثر مما أعرف. ولكني لن أكتمك ما يحزّ في نفسي، أقول لك: لماذا يجب على آل زانه الانضمام إلى الجيش الروسي أكثر من آل نيكراس. ماذا كان يضيرهم لو اصطحبوا رفعت معهم. كانا خدما معاً وأنس أحدهما الآخر حقاً؟..

- ما أعجب ما أسمع!.. - توهج وجه تيم، وجحظت عيناه الزرقاوان. - ما هذا الذي تتكلمين فيه؟ أهذا ما وجدته لتحدثيني فيه؟! ما هذا الذي خطر لك؟ ما هذا الذي يدور في ذهنك؟!

- لا أعرف، إذن...

- إن كنتِ لا تعرفين فلازمي موقعك الأنثوي! - تقلصت عينا تيم الزرقاوان. ولمعتا من محجريهما: سُطّوع هذه المرأة رفعت في الجيش الروسي، وتركته بينهم ورائحة لحم الخنزير تفوح منه... هذا ما كان ينقص آل نيكراس! اسمعي ما عليك أن تفعله منذ اليوم: قولي لابنتك ألا تسمح لمن انضمّ إلى الجيش

الروسي أن يطاء بيتنا. نعم، نعم، لا تتظاهري بالجنون، قولي لها: هذا ما يطلبه والدك. وأي اسم هذا الذي تحمله البنت؟

- يا هذا، ما الذي تريده من اسمها؟! فزعت سماي ناسية ما قيل لها من كلام آخر. ألم تسميها الحماة كُرمى لجدتك.

- ما سمعته أمامي لا يتعلق بالقرية. - لا يتراجع تيم. - اذهبي ونفذي ما قلت لك بخصوص الصبية! لا تدعيها تجلب لي العار أمام الناس!

مضت عدة أيام وكأن الزوجين لم يتحدثا في شيء، وكل منها يؤدي واجبه في الأسرة. ولكنه لم يُعد الكلام في موقفه من آل زانه. ليس لأنه نظر إلى الموضوع من وجهة أخرى بل لأنه احتفظ بدور الرجل في الأسرة.

ولماذا يعود فيتكلم مع أسرته في الموضوع بعدما قال كل ما يريد أن يقول. ومن لن يجده هو سفربي الذي يود مقابله. ولو أصبر لوجد سفربي. ولكنه لن يذهب لهذا الغرض إلى قمارتر؛ يشعر بالإهانة إذ لم يثق صديقه به. وأعجب ما لاحظته هو أنه لم يأت أحد من أصدقائه في الشابسغ والويخ والبجدوغ إلى دخاباه يزوره. وسفربي ظل مقيماً في قريته لا يفارقها كأنه ينتظر أحداً. ليس هناك خبرٌ سيء. كانت تصله بعض الأخبار من جهة نهر بشزه ومن جهة الساحل دون أن يعرف مدى صحتها. وقد بلغه أن سفربي كان في الشهر الماضي في أنابه وأنه زار إيكاترينودار. وفي كل يوم تصله أخبار متناقضة كلٌ منها أعجب من الآخر.

- تعال يا ولدي نسافر إلى بلاد الويخ قبل أن يحبسنا الشتاء. - قال تيم في أحد الأيام لابنه. - نزور أقرباءنا، ونرى أختك الكبيرة التي لم نزرنا منذ مدة طويلة، ونحلّ ضيفين على برزج جراندوقوه. ونسمع آراء الناس في تلك الأنحاء، ونريح أعيننا. كان جدك المرحوم يصطحبني أحياناً في رحلاته بهذه الذرائع. كان عنده معارف كثيرون، ومحبوباً.

فرح رفعت فقد كان جاهزاً لتلبية مثل هذه الرغبات.

ظهر فارسان من بعد حدود الأبراخ يسيران على طريق حجري، الأب إلى اليمين والابن إلى اليسار كما تُملي العادات الأديغية.

- انظر من قابلنا!.. صحيح يا تيم ما يقال إن من تأتي على ذكره تجده على عتبة الباب. - ترجل سفري أولاً ولو أنه أمير. - إيه يا تيم، إلى أين بإذن الله؟ نحن آتون إليكم. لم أرك منذ أكثر من شهر...
- والله وأنا أيضاً أظنها أكثر من شهر. ردّ تيم التحية وما في قلبه غير ما على لسانه.

- وهل هذا جائز يا تيم ورفعت، - ما يقوله سفري هو المهم، لا يهم ما يقول الآخر. - جاءنا أهل البلد مهنتين... لا يجوز هذا يا رفعت تركت صديقك في تفليس!.. ألا تعرفان يا تيم ورفعت؟

- والله عندنا خبر يا سفري، - صحا تيم، لا يعرف تفسير فرح سفري - كنت متوعداً... وكنت أنوي أن أرسل الولد إلى نواحيكم ولكنه رفض أن يتركني وحدي فلم يفارقني...

- سمعت بقصة مرضك يا تيم، - سفري مستمر في إدعائه، - كنت أنوي أن أعودك في مرضك ولكن الضيوف الذين لا ينتهون لم يتركوا لي مجالاً، - التفت الأمير نحو ترام يريد أن يشهده... حسناً، ليست هذه مشكلة يا تيم. المهم أنك شفيت... محجراك غائران، ووجهك ممتنع. رافقتكما السلامة. إلى أين بإذن الله؟

- والله ونحن أيضاً كنا متوجهين إليكم. - لم يستطع تيم أن ينطق "لنهنتكم" فأجاب من يكذب بكذبة: - تعال تفضلاً، نجلس ونتحدث، ونتكلم في قضيتنا الأديغية. ومن في بيتي جاءت على ذكرك مرة تشكو من أنك لا تزورنا. - شكراً لسماي على أنها لا تنسانا. أعدّها كأختي. ولكن لن نكلفكم كل هذا. جئتما من مكان بعيد، في حين أن قماطر تبدو بإشارة يد.

- هذه ليست عادة أديغية يا سفري. لن نسمح لكم أن تفعلوا هذا ونحن في أرض الأبخاخ. ومن يسمع بالخبر يلماً!

- لن يلوكم أحد، أنا مسؤول تجاه أيّ منتقد! - تجاوز سفري النفاق وبدأ عليه أنه يتكلم الآن من أعماقه. ثم مزح وقد ازداد وعيّه: - ألسن يا تيم من تزورونه لتهنته؟

- أنت يا أمير، أنت!

- ماذا إذن يا تيم؟
- ولكن أين تذهب لعيادة مريض؟ - تحول النفاق الذي ثار بين الرجلين إلى مضحكة لتيم.
- المريض يكون في فراشه، لا على سرج حصانه يا تيم.
- هيا إذن يا أمير، لا فكاك لي، أفحمتني...

...

المرأة، حتى لو كان رجلها موئل أمانها، ترغب أحياناً أن تجتمع بقرينتها من النساء. أليل ما تتحدث فيه امرأتان حين تبقيان وحدهما ولو ساعة واحدة تحت سقف واحد ولا تتوقعان أن يطلبهما أحد؟ تجري أحداث كثيرة، خارج أعمال البيت، في الحي وفي القرية والقرى المجاورة، وفي البلاد كلها. ما إن يُنسى خبرٌ ما حتى ينتشر خبرٌ أشدُّ غرابة.

جرى هذا اليوم لسماي وماريا حين ركب تيم ورفعت الطريق. لا تبقى المرأة في أي ظرف عاطلة عن العمل. تجد ما تعمله وهي في مكانها ولو لم يبق في البساتين، ولا في الريف، أعمال خريفية لم تُنجز.

نادت سماي ابنتها بعدما رفعتا المائدة وغسلتا الأطباق:

- كفى يا صغيرتي، استريح. تجدين في البيت ما تفعلينه ولو بقيت فيه طوال النهار... - ابتسمت سماي لابنتها كما لو أنها لم ترها منذ زمن بعيد. وتفحصتها بعين أم حادة تريد أن تعرف إن طرأ عليها شيء جديد.

ليست نظرة سماي إلى ابنتها مما يدعو للعجب. لم يعد قلب الأم قادراً على الهدوء منذ أن شاع خبر زانه قرباتر في الأبراخ. وقد عاشتا إلى اليوم تنظر إحداهما في وجه الأخرى، وتنصح نفسها، دون أن تجرؤا على الحديث الصريح في الموضوع. كيف تقولين لابنتك ما يعني أن من يغازلُك هرب؟ ومع ذلك لا يمكنك أن تتجاهلي أحزان ابنتك ولا أن تواسيها. قالت سماي في نفسها: الرجال مهتمون بقضايا الرجال، والنساء بشؤون النساء، فالأفضل أن نعالج مشكلاتنا. أكانوا سُموني أمّا عبثاً لولا أن ما يشغل بال ابنتي يشغل بالي. ها هي البائسة نحفت جداً. ولسْتُ عمياء فلا أرى كل شيء ولو لم تصارحني. ثم إن موقف تيم هو عقدة العُقد. الأفضل أن يسمع مني، ألسْتُ من ولدتها، من

أن يسمع الخبر من هنا ومن هناك. يا لخلوتي الصغيرة البائسة! لو عرفنا أن الأمور ستتحو هذا المنحى لأبقيناك في بيت الجنرال غزار. وهل عجيب إن انتقل غزار من أنابه إلى كيرش؟ ها هي البنت الكبرى تزوجت من أسرة وبيخ هناك ولم يجر لها شيء! لا شيء يتورع تيم عن فعله متى خطر له. لم يقبل أن تبقى في بيت غزار بحجة أنها ستتحول إلى روسية، سيبتلعونها فيه. وها هو ابن زانه تطوع في الجيش الروسي، بل سلّمه والده لهم، ولم يُمسّ بسوء. وتيم يغضب مانعاً أن يطأ الشاب عتبة بيته. يا لمصيتي كيف أصارح الصبية بهذا التهديد؟! وكيف أذنبُ بحقها؟

كانت سماي تودّ أن تلاحظ على ابنتها شيئاً جديداً، ولكنها مهما تمنعت فيها لم تجد ما يُريها. ولم تكن ماري كما تتصورها والدتها. ها هي ممشوقة القوام، شاحبة الوجه، تنسج جراباً صوفياً بأصابع رقيقة.

- أيؤلمك شيء يا ابنتي؟.. - تبحث عن سماي عن مفتاح للحديث.

- لا يا ماما، لماذا تسألين؟

- خيّل إليّ أنك شاحبة. أخبريني إن كان هناك ما يؤلمك. لا تكتمي عني يا بنتي. لا تُحملي نفسك خجلاً.

- لا شيء يؤلمني يا ماما... - ابتسمت ماري وقد فهمت منذ البداية سبب إلحاح أمها. ثم صارحت أمها دون موارد بما يقلقها: - أياكون خبر قرباتر صديق رفعت ما يشغلك يا ماما؟ ضحكت ماري وقد توهج خداهما محرّجة نوعاً ما مما قالتها.

- نعم يا صغيرتي، نعم. لستُ وحدي المهمومة بل والدك أيضاً.

- أليس حسناً إن كان ابن آل زانه تطوع في الجيش؟ أيدعو هذا إلى التعجب والقلق؟ لو كان الأمر بيدي لنسبْتُ رفعت أيضاً إلى الجيش.

- يا لمصيتي؛ إياك أن يسمعك والدك!.. - ارتعبت سماي فصرخت. ثم عادت إلى وعيها وبشّت في وجه ابنتها: - ليس عجيباً أن توافقي على ما فعله آل زانه. إن كان هذا رأيك فأنا أيضاً أقول: ليس عجيباً أن تطوع في الجيش الروسي، فعل خيراً. الناس سيتقولون الكثير. وإن سمعت إلى كل ما يقولون لم يبق أمامك إلا أن تشمري عن ساقيك وتقعدي! ما أكثر ما قيل عني أنا حين

تزوجت والدك لأني انضمت إلى أسرة روسية. لم أهتم بكلام أيّ إنسان مهما قال. وها أنت ترين حياتنا، لم يجلب لي الحزن مرة واحدة. ولم يجعلني أندم على ما فعلت. ولكن لا أعرف بمّ أعلّق على ما قلت بشأن رفعت... ما أشدّ ما أتقزز! لا تُسمعي والدك. - هل حدث يا ابنتي - تُغيّر سماي الموضوع الذي ألحّت عليه، - أن أخبرك ابن زانه عن نيّته التطوع في الجيش الروسي؟
- كيف يُخبرني يا أمي إن لم يخبر رفعت؟!
- هذا أمرٌ... - فرعت سماي من تلقاء نفسها، - لا تُسمعي والدك يا صغيرتي ما قلت بشأن رفعت!

...

لم يستطع تيم ورفعت الوصول إلى أرض الوبيخ. خرج تيم وابنه بعد الظهر من قماطر. مشيا مدة ورفعت لا يعرف سبب تغيير والده وجهته إلى الأبراخ، ويحجل أن يسأله. وتركّا إلى يسارهما المرعى، وتبدو قمة "ببباو" من الجهة الأخرى. عرف رفعت من طريقة ركوب والده أن هناك ما لا يعجبه. كان مرحاً في مضافة سفري. وركب طريقه ممزحاً من ودّعه. ما الذي استاء منه والدنا يا تُرى؟

حين غاب الفارسان في منعطف الطريق سَمّر تيم حصانه في مكانه:
- أيّ حديثٍ أجريته مع سفري بشأن تطوعك في الجيش الروسي؟ ساط تيم ظهر ابنه.

- يا والدنا!.. - حاول رفعت أن يقول ما يبرئ نفسه به غير أن الأب لم يدعه يكمل.

- قلت لك أن تحرس يا سليل الكلبين!.. - مرة أخرى ساط تيم ابنه حتى إن الحصان قفز. - اسبقني وعدّ إلى البيت!..

سبق رفعت ابنه دون اعتراض، صاباً غضبه على حصانه.

VIII

لم يهدأ سفري بعد أن عاد من تفليس. ومن لم يقابلهم ولم يتصل بهم طوال سنة كاملة اتصل بهم خلال شهر واحد. وكان يشرح القضية لكل من يقابله بطريقة

تدعوك إلى التفكر وتثير في نفسك أفكاراً ولو لم يكن يكشف عما في نفسه تماماً.

والآن، لم يكن المهم عنده الأمراء والنبلاء بل الآلاف من عامة الناس الذين يملؤون أرض الأديجة. وكان يعرف أن اجتذاب هؤلاء وتوحيد فكرهم بفكره يتطلب أن تستميل الضابطة إلى صفك. ولهذا الغاية يخالط العامة. وبين هؤلاء من يتفهم موقفه ومن لا يتفهم. ولكنه لم يُخاصم أحداً بحجة أنه لا يوافقه. بل يتقرب أكثر إلى أمثال هؤلاء ولا يتكبر عليهم ولا يكتم عنهم. ويروي قصة انضمام قرباتر إلى الجيش الروسي لكلاً تبعاً لموقف من يستمع إليه. ويوافق من لا يقبلون ما فعل ابنه، ويشكر من يقبلون على تفهمهم. ومهما تحدث إلى العامة أو الأمراء النبلاء اختتم حديثه على النحو التالي: "ما العمل إذن؟ نحن آل زانه نحب الخدمة العسكرية ونحب الرتب. وها أنا كما ترون خدمت في الجيشين الروسي والتركي. والآن، ولو لم نشكل جيشاً أديجياً، لابد أن يكون لنا يوماً ما. ولا يغيب الموضوع عن بالي. وأين يذهب قرباتر مخالفاً آل زانه؟ انضم إلى الجيش الروسي! إن كنت موافقاً فقد فعل ما أريد، وإن لم أكن فرغم إرادتي. ألا تعرفون عقلية الأولاد؟ هؤلاء ينظرون إلى أبعد مما ننظر نحن. طلبت منه ألا يفعل، وكيف لا أطلب؟ ولكن نرى ما يحدث... أصّر الولد المنحوس على أن يتبع طريقي..."

كلما قابل سفري المزيد من العامة والضابطة رأى بعينيه قضيته التي يحملها تتوطد، ومعرفة الناس به تزداد. لا أحد يرغب في حربٍ تنهب أسرته وبيته وأرضه. بدأ العامة يفهمون أن الأفضل إنهاء الحرب الأديجية الروسية الدامية التي لم ينتظرها أحد البتة بالطرق السلمية، وأن هذا مسعى زانه سفري. يرون أن توحد الأديجة وراء زعيم يقودهم جميعاً خيراً من الأمراء الصغار. وتدور في المضافات الأديجية آراء تقول إن زانه سفري سليل أسرة أمراء، ويعرف الروسية والتركية والعربية، وخدم في الجيش الروسي، وانضم إلى الجيش نفسه ابنه، وأنه إن تزعم الأديجة فلن يجعلهم يضلون الطريق. وهذه الأخبار تصل إلى سفري، ولا تتجاوز الأمراء والنبلاء.

يفهم سفرني أن التفاهم مع الأمراء والنبلاء أصعب من التفاهم مع العامة. وفعلاً بدأ الطريق مع العامة، وزرع فيهم أفكاره، وجهّزهم لمشاريعه، بل يشعر بالارتياح لما فعل. قال سفرني: لا فائدة من إخفاء ما أتابعه. هذا المشروع لا يتحمل إهمالاً. تركنا أنفسنا ضحية لكل عابر سبيل مشغولين بالقليل والقال، تلجئنا مشاعرنا القومية. كنت أخاف أن تكون لما فعلناه أنا وقرباير نتائج سلبية ولكن لم يهتم الناس بالموضوع كثيراً. وأعجب شيء هو أن بعض العامة لم يصدّقوا الخبر. مهما قلنا عن العامة فهم ليسوا متعلمين ولا مثقفين، لم يغادروا حدود قراهم، ولكن ما بال الأمراء والنبلاء؟ من لم يستغربوا الخبر أكثر ممن استغربوه. ولم يعلق برزج جراندوقوه من الوبيخ بشيء. ومن الأبخاخ بلغني أن تسي وجهه احتجاجا بعض الاحتجاج. أما من أغلقوا أفواههم تماماً حتى ليخشون إن فتحوها أن ينسكب الماء منها فهم آل حجمقوه من البجدوغ. ولم يُشعري آل بولتقوه من الجمكوي بكثير من التوجس. وأبلغني خانجيري أكثر من مرة أنه راضٍ بما فعلنا. أما الشابسغ فلم يبق فيهم من لم يفرح، سواء كان من العامة أم من الأسر المتنفذة. من يرغب في الحرب، ومن يحب المأساة!

الناس يفهمون حقيقة الأزمة التي هم فيها.

لا يتذكر سفرني يوماً طوال الشهر الماضي هاجمته فيه أفكاره القلقة كيومه هذا. لا يرى من انشغال باله الصباح الهادئ، ولا الثلج الناعم، ولا الشمس اللطيفة التي تلتها. ينتفض رأسه، ويُنصت كلما سمع صوتاً من جهة المسطبة علامة على أنه ينتظر أحداً. وبالقياس إلى أمس وأول من أمس فالיום أشد قلقاً.

قال سفرني: ما أشدّ ما يماطلون في الجواب! ها هو قرباير رغم إقامته هناك زارنا ثلاث أو أربع مرات. وأمس جاءتنا رسالته. يظن أن جيشه الذي يخدم فيه سيُرسل إلى نواحينا. الحق أنهم إن كانوا سيأتون بالجيش من تغلبس فإن أموري ستتعثّر... وقبل أيام سمعت عند البجدوغ أن جيشاً روسياً سيأتي من جهة مدينة شنت. وليس الموضوع مجرد تكهنات فمصدره حجمقوه أسلانج وخانجيري. وهذان لا يتكلمان في ما لا يعرفان. والله ما يجري عجيب... وغزار كأنه اختفى عن ظهر الأرض. لم يظهر منذ زمن. إن كان يعتقد أنني سلّمْتُ قرباير نهائياً إلى الجيش الروسي فهو مخطئ. لا يتصوروا الأمر هكذا، ليس إلا

ردي على جوابهم. بل، بغضّ النظر عما سبق، لا يتصورُ قرباتر أنه صار روسياً بمجرد حملِه رتبةً روسية. وكما يقول تسي حاترباي: الخنزير لا يصبح فارساً ولو أسرجته سرجاً أديغياً...

الآن فقط شعر سفري بحاجة إلى قرباتر. بدأ سفري يشعر كما لو أن عضواً من جسمه سقط، ولو كان في مكانه ومدّ يده إليه لأمسك به. ولكنه يجد الأعداء لنفسه في ما فعله بابه. صار عندي موطئ قدم بين غزاة أرضنا حتى لو افترضت أنهم ابتلعونا دون أن يتحقق هدي، إذ سنجد حلاً ما بهذه الطريقة. سيتورط أكثر مني أمراء الأديغة من حجمقوه وبولتقوه وبرج وتسي وجّه وغيرهم. لن يكون ما يسيل من عرق جباههم قليلاً وهم لا يجدون طريقة للتصرف مع غزاتهم. آل حجمقوه سيجدون منفذاً ما، هؤلاء عاشوا حياتهم بوجوه روسية. والأمراء الآخرون لا أعرف، لا ثقة لي بهم... يعود سفري إلى وعيه بسرعة، ولماذا؟ أليس أسرّه أو حاكمه أميراً أيضاً؟ وإن حدث هذا فالأمراء من أي عرق كانوا يستطيعون التعامل في ما بينهم كأمراء. وإن أبعادهم بالقوة بعضهم عن بعض رجعوا بالقوة إلى ما كانوا عليه؛ صحيح ما يقال: إن الأمراء يعزفون على وتر واحد.

لم يستقرّ قلبُ سفري في البيت.

حين رقيّ الأمير المسطبة خرج من وراء الأهراء، ومن خلف جدران الحظائر وإسطبلات الخيل، بعض الفلاحين يحملون على أكتافهم المجارف والشوك، يريدون أن يُظهروا أنهم غير عاطلين عن العمل. يجرفون الثلج، ويُخرجون روث الخيل، ويتناقلون علف البهائم. ويقطّعون الحطب.

لم يملك سفري إلا أن يبتسم ولو أن ما رآه أسخطه. وبعد أن تفحص دار الإمارة على نحو عشوائي نادى دون أن تعرف لمن:

- هيا نادوا ترام حالاً!

لم يستطع سفري البقاء طويلاً في الفناء. ليس لشعوره بالبرد فكل من يسافر شتاء يلبس ما يجب لبسه، ويده سوط الخيل، وواضح أنه خرج من البيت ناوياً الركوب. ولكن بدلاً من أن يطلب إخراج الحصان المسرج من الحظيرة أرسل

وراء الفلاح ترام. ولم يعد يُريد من أرسل وراءه ولكنه تورّع عن هذا خائفاً أن يتساءل الحاضرون عما جرى للأمير.

تذكر سفري حين رجعت ودخل البيت فحسبُ أنه أرسل ترام إلى البجدوغ. ثم خرج من البيت كأنه ترك شيئاً على المسطبة. مدّ يده إلى الأسفل وتناول كومة ثلج، وقال للفلاح وهو يعصر الثلج في راحة كفه:

- أخرج حصاني!

وحين رافقه أحد الفلاحين نهره:

- لا حاجة!

لم يكن يعرف إلى أين ماضٍ مثله مثل الفلاحين في أرض الدار. وبدا من طريقة ركوبه ومن طريقة جري الحصان أنه ركب لمجرد التنفيس عن قلقه.

لم يُحسّ سفري بأنه خرج من القرية، ولا بأنه ابتعد عن المرعى وعن الجوار، ولا بأنه جرى مسافة غير قصيرة باتجاه البحر وأتابه. لا يسمع نخير حصانه ولا وقع حوافره كأنه ليس في الجوار غيرُه. وكل فكرة تحمل معها فكرة أخرى. والقلب يفكر متلهفاً إلى المجهول. وطريقه هو ما يختاره حصانه. وأينما اتجه بتفكيره توقّف عند أهدافه الأديغة. صحا سفري إلى نفسه: الرّجلان لا تلحقان طريق القلب كما يقال، فلماذا أكلّف نفسي ملاحقة قضايا الأديغة أكثر مما يفعل الأمراء الآخرون والأسر القوية الأخرى؟ وداهم هدير الموج إلى يساره وأنين الريح، وعاد إلى أمام عينيه النهار الذي كان يتجاوز فجّره. وتراءت لعينيه بيوت أتابه المتناثرة أمامه على السفوح البعيدة. وفي اللحظة نفسها لفت نظره وقّع حوافر خيل. وكما يحدث حين يقع في مواقف صعبة فكر في السلاح. وحين اطمأن إلى أن بضعة الفرسان الروس ليسوا خطراً عليه، وتعرّف على أوسطهم قائد قلعة أتابه فيشيسلافيتسيف، بحث عن تفسير لسفره. وخطر له أن يخبرهم إن سألوه أنه مسافر إلى قرية براوت حيث تقيم أخته. وهل عجيب أن يسافر الأمير وحده؟ الأمير سفري معروف عند الأديغة والروس أنه يتنقل دائماً وحيداً. وما خطر له ريثما لحق به الفرسان سؤالاً واحداً: ما أعجب ما فعلت إذ ابتعدت كل هذه المسافة؟!

تَبَعَ الفِكرَةَ الحَامِيَةَ فِكرَةً حَامِيَةً أُخْرَى: خَيْرٌ لِي أَنَا التَّقِينَا عَلَى الطَّرِيقِ
بِالمَصَادِفَةِ. مَا حَدَثَ أَحْسَنُ مِنْ أَنْ أَكْثَرَ التَّرَدُّدَ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ. أَظَنَنْي وَقَعْتَ
فِي مَوْقِفٍ يُمْكِنُنِي أَنْ أَعْرِفَ إِنْ كَانَ مَطْلَعًا عَلَى أَسْئَلَتِي أَمْ غَيْرَ مَطْلَعٍ. سَأَقْرَأُ مَا
فِي عَيْنِيهِ وَمَا فِي وَجْهِهِ وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَصَارِحَنِي. مَعْرِفَتِي بِكَ لَيْسَتْ وَلِيدَةً
الْيَوْمِ أَوْ الْبَارِحَةِ يَا صَدِيقِي. إِنْ اسْتَقْبَلَنِي بِأَشَأْ فَهَنَّاكَ خَبَرٌ سَعِيدٌ. وَإِنْ طَرَحَ
عَلَيَّ بَضْعَ أَسْئَلَةٍ مَرَاتِيَّةٍ وَودَعَنِي مُتَمَنِّيًا لِي السَّلَامَةَ فَلَا تَتَأَمَّلْ خَيْرًا.
أَوْقِفْ فِيشِيَسْلَافِتْسِيَفَ مَجْمُوعَةَ الْفَرَسَانِ:

- مِنْ الَّذِي أَرَاهُ؟.. زَانَهُ سَفَرِي؟.. - اعْتَرَضَ فِيشِيَسْلَافِتْسِيَفَ طَرِيقَ سَفَرِي
دُونَ أَنْ يَتَرَجَّلَ وَرَأْسَ حِصَانِهِ مُقَابِلَ رَأْسِ حِصَانِهِ. وَأَضَافَ إِلَى تَعَابِيرِ سُرُورِهِ
دُونَ اهْتِمَامٍ بِمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ مِنْ رِفَاقِهِ: - يَبْدُو أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَنَّنَا لَا نَجِدُ فِي إِقْلِيمِ
الْأَدِيغَةِ مَكَانًا نَلْتَقِي فِيهِ إِلَّا مِثْلَ هَذَا الْمَكَانِ. هَذَا غَيْرُ مَقْبُولٍ أَيُّهَا الْأَمِيرُ، غَيْرَ
مُمْكِنٍ!

- هَذَا مَا يَحْدُثُ وَلَوْ أَنَّهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ فَمَاذَا يَبْدُنَا أَيُّهَا الْجَنَرَالُ. - بَدَأَ عَلَى
سَفَرِي رِضَاهُ عَنْ بَشَاشَةِ فِيشِيَسْلَافِتْسِيَفٍ. قَالَ لِنَفْسِهِ: أَظُنُّهُ يَحْمِلُ خَبْرًا سَعِيدًا
لِي. ثُمَّ أَضَافَ: - أَنْتَ مِنْ نَسَبِنَا تَمَامًا، أَيُّكُونُ الْفَلَاحُونَ الْمُتَمَرِّدُونَ أَرَعْبُوكُمْ؟
- قَدْ لَا يَخْلُو الْأَمْرُ مِنْ مِثْلِ هَذَا يَا أَمِيرَ. لَا نَجْهَلُ أَنَّ الْأَدِيغَةَ لَا يَرْتَجِبُونَ بِنَا.
وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُخْفِيَ أَنَّهُمْ يَهَاجِمُونَنَا بِمَجْمُوعَاتٍ مِنَ الْفَرَسَانِ. وَأَفْضَلُ مَا نَفْعَلُ
هُوَ أَنْ يَتَّفَقَ الطَّرَفَانِ. - ثُمَّ غَيَّرَ الْجَنَرَالُ الْمَوْضُوعَ غَيْرَ رَاغِبٍ فِي تَنَاوُلِ مَوْضُوعِ
الْعِلَاقَاتِ الرُّوسِيَّةِ - الْأَدِيغِيَّةِ عَلَى الطَّرِيقِ فِي الْبَرِيَّةِ: - وَهَذَا لَا بَدَّ أَنْ يَجِدَ حَلًّا
يَا أَمِيرَ... - لَا يَتَعَلَّقُ الْأَمْرُ بِهَذَا... فِي أَيِّ مَوْضُوعٍ نَتَحَدَّثُ فِي طَرِيقٍ رِيفِيٍّ
وَكأنَّنَا لَا نَمْلِكُ بِيُوتَا؟! تَعَالِ يَا أَمِيرَ، تَفَضَّلْ!

- بَيْتُكَ عَامِرٌ أَيُّهَا الْجَنَرَالُ! أَنَا عَلَى سَفَرٍ، - فَرَحَ سَفَرِي لِتَحْقُوقِ أَحَدِ هَدَفِيهِ
الَّذِينَ كَانَا فِي ذَهْنِهِ.

- لَا يَجُوزُ مِثْلُ هَذَا وَقَدْ وَصَلَتْ إِلَيْنَا يَا أَمِيرَ! هَذَا لَيْسَ سَلُوكًا أَدِيغِيًّا وَلَا
رُوسِيًّا.

- أَفْهَمُ يَا مُحْتَرَمُ. وَلَكِنِّي أَزُورُ أُخْتِي الْمُتَوَعَّكَةَ. لَا تَوَاضَعِي... - وَدَّعَ سَفَرِي
الْفَرَسَانِ وَتَوَجَّهَ نَحْوَ قَرْيَةِ بَرَاوَتِ.

- ألا تُخبرنا أيها الأمير سفري أخبار ابنك!.. - صاح فيشيسلافيتسيف وراء الفارس. - ما أخبار قرباتر؟

- أستم من عليه معرفة أخبار قرباتر؟ - توقف سفري ورأس حصانه نصف متجه إلى الخلف، وارتياحه لسؤال الجنرال عن ابنه بادٍ عليه، وأجاب: - هو في جيشكم، يخدمكم... - ثم أضاف بنبرة أشد ابتهاجاً: - كتب إليّ أمس، يقول إنهم يجهزون أنفسهم للانتقال إلى نواحيننا.

جسدٌ سفري خفيف كأن أجنحة غيرٍ منتظرةً نبتت له. تطير أفكاره، فينظر إلى البعيد. يخطّ في تفليس التي توقّع منها خبراً سعيداً. وتصل نظراته الفرحة إلى بطرسبورغ التي لم تطأها قدماء البتة حيث القيصر الذي يعتقد أنه تفهمه. ويتفقد بقلبه إقليم الأديغة من ساحل البحر الأسود الذي يهدر إلى جانبه حتى أرض الجمكوي المستوية. ولا تغيب عن ناظره القبرتاي والشرجس. كيف عشنا إلى الآن دون أن نوجد كل هذه الأرض الأديغية تحت راية حاكم واحد؟! من الذي لم ينتبه إلى هذا ولم يصل عقله إليه؟ من كان السبب في هذا الضرر الذي لحق بنا؟ ينهض أمام سفري سؤال أمام سؤال.

قال سفري: أفهم من طريقة استقبال الجنرال لي أن جهدي لأجل الأديغة لم يضع عبثاً. لو لم يأت من بطرسبورغ جوابٌ في صالحني لما تخلّى عن جهامة وجهه. ألم تر كيف تعامل معي؟ كان كمن يريد أن يُسكنني في قلبه. هذا هو السبب في أنهم يقولون: كلُّ قميص يبلى، وكلُّ مصيبة تنتهي. لم أتكاسل في قضية الأديغة، تابعتها. لم أراجع مهما تعرضت للانتقادات. أنا لا أسلب شيئاً من أحد. أحمي أرض الأديغة وقضيتهم. يَمَ يمكن أن يساويني سلطان خانجري يا مبارك النسل؟ قيصر الروس ليس مجنوناً. أظنه استجاب لي لأني لستُ غريباً في حين لم يستجب له. نعم، لا شك في هذا. تعامل معي الجنرال فيشيسلافيتسيف ذو الحاجبين المتداخلين كما يتعامل مع سلطان. كان ينوي أن يرسل معي ثلاثة من فرسانه إذ لم يجد من اللائق أن أذهب وحيداً إلى قرية براوت. بدأ الحجر ينظر إليّ نظرة أخرى...

ما إن اختفت مجموعة الفرسان العائدة إلى أنابه خلف الجبل حتى غيّر سفري وجهة حصانه إلى قماطر. أسرع حصان الراكب المنتشي فرحاً، وقد ظن نفسه

صار سلطاناً على أرض الأدبغة، وأشاع السلام فيها. واليوم الشتائي المبكر ييش له بقدّم من الثلج. متى كان القلب مرتاحاً غدت الخطوات سريعة وتقاشرت النوايا، والعالم يستقبل بالفرح من هو في فرح.

جفل سفري من مجموعة من الفرسان الأدبغة ظهروا فجأة من وراء المرتفع. ولما تفحصهم رأى فيهم فلاحين من قماثر وبراون. وبدا الشخص مربوط إلى الحصان قوزاقياً حاسر الرأس، وغرته متساقطة، بملابسه الداخلية فحسب، دون بنطال أو قميص أو حذاء.

- من أين عائدون؟.. ومن هذا المقيّد إلى الحصان؟ - اعترض سفري الفرسان معتبراً ما يراه غير لائق.

- نعود من منعة الروس في شبح بعدما دمرناها أيها الأمير. خرج ترام من بين الفرسان. - ونحمل إليك هذا القوزاقي. افعل به ما تريد!

- أعودون من قلعة شبح أم من الشابسغ يا ترام؟ - لم يُطق سفري صبراً. وأحس الفلاحون أن عينيه تقدحان شراً. بل نصب غضبه آذان الأحصنة.

- مررت بالفلاحين فلم أستطع تجاوزهم يا أمير. - لم تتغير نبرة ترام، ويقف في حضرة الأمير ولا يزال في جوّ المعركة بين الأدبغة والقوزاق.

- وأنتم إن حملوكم هكذا على ظهر الخيل، - قال سفري مشيراً بطرف سوطه إلى القوزاقي لافتاً أنظار الفلاحين حيث يشير؟

- خيرٌ لنا يا أمير أن نموت بأسنة الخناجر من أن يحدث لنا هذا - قال المولى حباط من جهة أخرى.

- يبدو أنكم كنتم ستأتون بقرباتر المتطوع في الجيش الروسي بهذه الطريقة!

- كل من يعادي أرض الأدبغة، كائناً من كان، عدونا يا محترم. ما يزال ترام على موقفه. ولم تتحول عيناه عن وجه الأمير.

أخفى سفري ارتعابه مما رآه. وقال بصوت لطيف كأنه يخاطب نفسه، مدركاً أن لا نتيجة من مجابهة الفلاحين المتوهجة قلوبهم حمية:

- نحن من جهتنا نحاول التوفيق بين الروس والأدبغة، وهم يشنون الحرب على روسيا!

- هم من بادرونا بالحرب يا أمير. - اعترض فلاح آخر كلام الأمير.

- لا تظنني ساذجاً فأشرب الماء من أنفي أيها الفلاح براوت!.. - كظم
سفري غضبه مما لُمح به إليه. وأضاف ثانية بلهجة أنعم: - لستُ جاهلاً بمن
يغزو أرض الأديغة. - ثم سأل دون توجيه السؤال إلى شخص معيّن من
الواقفين: - أين ملابس هذا القوزاقي؟

بدأ الفلاحون يُخرجون ملابس القوزاقي مدركين أن سفري لا يوافق على ما
فعلوه، ليس خوفاً من الأمير بقدر ما هو خجلٌ أديغي. وأعجب ما رآه سفري
هو توازُع فرديّ حذاء الأسير بين فلاحين من قريتين مختلفتين، متسائلاً عن
فائدة الفردة الواحدة لكلٍ منهما.

- يا ترام المولى، - نادى سفري، - خوّلتني أن أفعل بالقوزاقي ما أشاء، ولذا
اطلبوا منه أن يرتدي ملابسه، وأن يعود إلى حيث أسرّموه.

ارتدى الشاب القوزاقي بسرعة ملابسه التي رمّوها إليه. وحين أركبوه الحصان،
ووضعوا في يده الزمام تأكلُ الفلاحين مرتعباً غير عارفٍ تفسيراً لما يحدث. ونظر
إلى الأمير الذي تسبب في إطلاقه بعين راضية.

- السلاح، السلاح! صاح أحد الفلاحين.

- لا تؤاخذنا يا أمير! - أظهر ترام السيف الذي سلبوه من الشاب القوزاقي.

- لا نستطيع أن نعيد السلاح إلى العدو!

قال سفري لا يريد مزيداً من الجدل مع الفلاحين، مدركاً الأهمية التي يُعبرونها
للسلاح:

- كما تشاؤون!

ما إن فارق سفري الجمع حتى انحال الفلاحون معاً بسياطهم على ظهر
القوزاقي وعلى ظهر حصانه، ممسكين بزمامه. وحثوه على أن يعدو بالحصان إلى
حيث أسروه منه.

عاد الفلاحون ثلاثَ ورُباعٍ إلى قراهم التي خرجوا منها. وتبع من هم من قما تر
سفري.

لم يكونوا قطعوا ثلاث غلوات حصان حين توقف سفري:

- يا ترام تعال إلى هنا، وأنت أيضاً يا حباط. - وقال لسائر الفلاحين المراقبين المشهد غير عارفين ما ينوي الأمير: - وأنتم عودوا إلى قماتر، ونحن علينا أن نזור إحدى القرى...

سار الثلاثة: حباط إلى اليمين وترام إلى اليسار حسب العادة مسافة دون أن يتكلم أحدهم. وارتقوا ظهر التبة ثم انحدروا. وخرجوا من الغابة التي في المضيق. وولجوا في غابة أصغر مساحةً في الوهدة. وإن لم يتكلم الأمير فماذا يقول الفلاحون! وبعد مسافة أحسنٍ سفري بنظرات حباط القلقة ولكنه لم يقل شيئاً. ولم يتحمل حباط صمت الغابة في بداية الشتاء فسأل يغلبه الحياء من القبعة التي يرتديها:

- لا تؤاخذني يا أمير، أود أن أعرف إلى أين ذاهبون.

- ليس في هذا سرّ يا حباط. إلى قلعة شَبَج التي جئتم منها بالشاب القوزاقي.

- نعم يا أمير؟ والله لن أذهب!

ولم يُظهر ترام انفعالاً كأنه لم يفهم ما سمع.

- وأنا يا حباط لا أذهب رغباً في رؤية المنعة. يدفعني إليها الفعل الشائن الذي فعلتموه... الأفضل ألا ندفع الجيش الروسي إلى هجوم استباقي.

- أليسوا من غزّوا أرض الأديغة؟.. - أسرع حباط بالإجابة كمن يبحث عن أي ذريعة لفعلته - منذ زمن بعيد أسمع هذه الحجة. - سرت على شفتي سفري ابتسامة خفيفة. - ولكن من تتعلق به المسألة الأديغية أولاً ليسوا الروس، بل الترك الذين باعونا لهم... يا ترام الفلاح، - سأل سفري من يقف إلى يساره رغباً في تجاوز الموضوع: - لمُ تعلق على المكان الذي نتجه إليه؟

- وماذا أقول يا أمير؟ طلبت مني مرافقتك فرافقتك. سلاحك سلاحنا، وشرفك شرفنا. لا تراجع يا أمير!

- ولكن ما نقصده يا ترام هو شَبَج...

- مهلاً يا حباط، كأن أحدهم يبكي. - أنصت ترام، ووصله صوت بكاء الرجل حقاً. وحين ابتعدوا إلى جانب الطريق وقف أمامهم بعينين دامعتين الشاب القوزاقي الذي كانوا أطلقوه.

- ماذا جرى لك حتى تبكي؟ - لاطف سفري الشاب القوزاقي.

- كيف أعود إلى القوزاق دون سلاح؟
- ما اسمك يا أخي الصغير؟ - سأله سفري.
- فاسيل بوتينك.
- الأجل هذا تبكي يا فاسيل؟.. - مدّ ترام إلى الشاب سيفه مستغرباً ما يرى:
- خذ وإياك أن تقع في أيدي الأديغة ثانية!
- حين ارتقى سفري وصاحبه ترام وحباط، ورابعهم الشاب القوزاقي جبل شَبَج راعهم ما رأوه: كانت مجموعة من الفرسان القوزاق يتراوح عددها بين الخمسين والمئة تتدافع واللون الأسود يغمرها.
- لجم سفري الحصان وأشار بيده يريد أن يُهدّئهم، وتوقف القوزاق عند منظر سفري وصحبهِ. عرف سفري أن من يتقدّمهم نقيبٌ في الجيش، فخرج من بين أصحابه وناداهم بالروسية:
- أنا سفري، أميرٌ أديغي. جئنا نعتذر عن هجمة فلاحينا. وجئناكم بأسيركم القوزاقي. ليكن بيننا السلام!
- ليكن بيننا سلام مريح. أجابه النقيب من الجانب الآخر. وتقابل الشخصان.
- حين اصطحبوا الضيوف الطارئین إلى منعة شَبَج عرضوا على سفري وصاحبيه ما ارتكبه الفلاحون: الحظيرة نصف المحترقة تداعت، ومن كومة الحشيش اليباس لا يزال ينبعث الدخان من هنا وهناك، والأحصنة الثلاثة والكلب مطروحة على الأرض حيث أصيبت. وتبانات المنعة نصف محترقة.
- لولا أننا ساعدنا جنود المنعة في الوقت المناسب لأحرقوها كلها. - يُري النقيب سفري مستكراً كل ما يرى. - وفي الغرفة الأخرى ثلاثة أحمال من الجرحى.
- لمس سفري جباه المرضى واحداً واحداً حين دخلوا الغرفة دون اهتمام بإدارة رؤوسهم عنه ونظرات الاحتقار إليه. ولما أزاح الجريح القوزاقي الأخير يد سفري ابتسم الأخير، ومازح الجريح:
- ما أقواك يا أخي، كدت تكسر ذراعي.

- وما الذي يجعلك أخي؟ - قال القوزاقي وهو ينظر إليه من تحت جبينه. أخوك هو الذئب الذي في الغابة.

- لا تقل هذا يا أخي. - كرر سفرني "أخي" للقوزاقي المجروحة كتفه. أنت تخطئ. الذئب في الغابة لا يميز أديغياً وروسياً، يفترس من يجد. ثم ما أريد أن تعرفه هو أن ابني قرباتر متطوع في الجيش الروسي. وليس متطوعاً فقط بل يحمل رتبة من قيصركم.

رفع جميع من لا يعرفون الخبر رؤوسهم إلا النقيب. وجعلهم ينظرون إليه الآن بوذ. وسفرني من جهته رأى في إذاعة الخبر متنقساً يمكّنه من أن يقول ويفعل ما يريد بمزيد من الحرية. وبعد الظهر خرج برفيقه من المنعة.

مضى الفرسان الثلاثة مسافة وأفكارهم متنافرة. وحالما تجاوزوا مرتفع شَبَج قال حباط:

- أود أن أسألك يا أمير إن كان مناسباً.

- نعم يا حباط، أتمنى أنك هدأت - قال سفرني مستغرباً.

- كيف لم تحترق يدك يا أمير وأنت تلمس جباه الكفار؟

ابتسم سفرني، وبعد مدة أجاب:

- الروس أناسٌ أيضاً مثلنا يا حباط. يتألمون ويُشفقون.

- يقول يوسف أفندي إن من يقتل كافراً يدخل الجنة - قال حباط بحذر شديد.

- سمعت الترك يرددون هذا الكلام إن كنت تصدّق. - التفت سفرني ثانية إلى ترام ولكن لم يعرف إن كان اقتنع بالكلام أم لا.

...

بعد مُضيّ وقتٍ غير قصير ساق حباط إلى السوق ثورين قوين سمينين يمكنهما أن يجرا عربة. لم تكن نفسه تسخو بالثورين، ولكن ماذا بيده في غياب النقود! غيرَ بعيد عن منعة شَبَج قرية روسية فيها سوق بلا دكاكين ولكن ترى فيها عربات، وخرافاً مكثّفة، وأكياساً من القمح، وعربات مسدودة الجوانب مملأى بعرائيس الذرة، والديك الرومي، وأقراص الجبن، والسمن الحيواني، والعسل، والشمع، وكل ما يحتاج إليه الناس.

ما إن وجد حباط مكاناً مناسباً للثورين حتى سمع شخصاً يناديه من خلفه:
- سلاماً يا صديقي!

التفت حباط فرأى أمامه إيفان والد فاسيل بوتينك.

- سلاماً! أجب حباط مع شيء من الحرج.

- هل هذان الثوران للبيع؟

- إذا كنت سقتهما إلى السوق فأنا أبيعهما، لا أشتريهما.

- وهذا صحيح. ما ثمن القرون الأربعة والخوافر الأربعة؟

- وماذا ستدفع؟

- عندي نقود روسية، وبارود، وملح.

- أليس عندك بندقية؟

- وعندي مثل هذه.

- ثم سنتقاتل أنت وأنا بها؟! - قال حباط متصنعاً شيئاً من الرياء.

بدا من ضحكة الرجلين، وإن لم يفعلوا إلا الضحك عدم الثقة بينهما.

قال حباط عاقداً جبينه:

- لا أريد بندقية، بل نقوداً. أحتاج إلى النقود لأسرتي.

تساوما بعض الوقت، وبعدما اتفقا اكتشاف القوزاقي أن نقوده غير كافية فقال
لحباط:

- سأضيف إلى النقود حذائي إن قبلت. حذاء جديد تماماً. ألبسه لأول مرة
اليوم.

- وأنت كيف ستعود دون حذاء؟

- لا مشكلة في هذا، أعود حافياً. في البيت زوج أقدم مما أبيعك.

- هذا غير ممكن! لا أحتاج إلى حذائك، ولا إلى بندقيتك. أعطيك الثورين

مقابل النقود التي معك. ماذا ستزرع؟

- قمح، وذرة صفراء.

- وأنا سأزرع ذرة وقمحاً. ليبارك الله في زرعك! - بش حباط للقوزاقي وقد
رق قلبه له.

- ما اسمك؟ سأل إيفان.

- اسمي حباط. ألا تتذكرني؟ ألسنا من أعاد إليك ولدك فاسيل؟!
- وكيف لا أتذكر؟! - صاح إيفان خجلاً من عدم تذكُّره، معتذراً بصوت عالٍ أسمع السوق كله: ألسنت من كان مع سفري؟ تذكَّرت. كنت رجوت حاغور أن يدعوكم إلينا. ألم يبلِّغكم؟
- نعم، نعم، أبلِّغنا حاغور. تذكر حباط أيضاً بسرعة. - سنزورك في بيتك.
- تعالوا إلى شَبَج في أي يوم تريدون. سنُسَرَّ جداً بقدمكم. مع السلامة يا حباط. رعاك الله بحمايته.

IX

إن كنت تعرف أن لا تنظارك حدوداً تحملت ليس شهراً بل سنة كاملة وأكثر. لو لم تندخل المشكلات التي أثارها الفلاحون لصبر لا شهراً بل سنة. يواسي نفسه قائلاً: ما مضى كثيره سيمضي قليله. لا يحوّل نظره ولا أفكاره عن طريق أنابه. وازداد توقُّع الخبر بعدما التقى بالجنرال فيشيسلافيتسييف في الطريق. و ليس قليلاً ما حدث في إقليم الأديغة في خلال هذه المدة ولو أن سفري لم يتقدم في العمر كثيراً. لم يبق في إقليم الأديغة من لم يصله خبر غارة الناختواي على منعة شَبَج. وهذا الخبر وحده كافٍ لإشغال الناس. وأعجب ما في الأمر أنهم يتناقلون أن سفري كان قائد الفلاحين في تلك الغارة. وقد وقع في مواقف حرجة كثيرة تبعاً للمكان الذي يُسأل فيه. وحدث أن قال في بعض الأماكن: ما سمعتموه صحيح، شهدنا مثل هذا اليوم. لا شيء تتردد في فعله حين يسلبونك أرضك. سيُلجئونك إلى حمل السلاح. ويدفعونك إلى القتال.

عرف سفري الناس الذين لم يكونوا يعرفونه بسبب الأخبار المتناقضة التي صدرت من الناختواي. ومن يعرفه نظر إليه نظرة أخرى، وكان هناك من لا يسوِّغون ما سمعوه. والمكان الذي تصدر عنه مثل هذه الآراء مضافات الأمراء والنبلاء غالباً. ولم يكن هؤلاء يعرفون أين يتجهون ولو أنهم صديق لهم قائلين: "ماذا ينوي سفري الثائر في الناختوي بحق الروس؟" ولكن مضافات إقليم الأديغة كانت صادقة مع زانه سفري. يتكلمون على رجولته وفطنته وإنسانيته. شيء واحد لم يكونوا يعرفون له تفسيراً: كيف تطوع ابنه قرباتر في الجيش الروسي؟

وإن كان في قلبك الخيرُ نحو شخص ما وجدت تسويغاً لكل شيء فيجيبون:
نحن نتكلم على ما يفعل الأب، لا الابن. يفسرون كما يريدون.

لم يصل سفري إلى أنابه التي لا تبعد كثيراً عن قماطر مع أنه طاف إقليم الأديغة في الشهر الماضي دون كلل أو ملل. لم يكن يتنازل أن يذهب إلى المدينة الروسية التي تقوم فيها قلعة فيسأل عن سير أموره رغم أن تلك المدينة لم تفارق قلبه يوماً واحداً. وكلما مضى يوم على الموضوع فقد أمله واقتنع أن لا جدوى من مساعيه. وتقوم الأحداث التي تشهد على انقطاع الأمل في مناطق متفرقة من إقليم الأديغة. ووصل إلى قماطر خبر المعركة بين الأديغة والروس في منعة ديئوليسك قريباً من ميقوب. وقد سقط كثير من القتلى والجرحى من الطرفين. وقبل أيام حدث الأمر نفسه بين الطرفين المتجابهين في منعة أفبس. وبذريعة هذه الأحداث يتقدم الجيش القيصري ويبنى منعة إثر منعة. أما في جهة الوبيخ ففلاحو برزج جراندوقوه يحتلون الساحل مجاهدين السفن الروسية. وهم مصممون على ألا يسمحوا للقدم روسي أن تطأ أرضهم.

قال سفري: ما أعجب عقليتنا نحن الأديغة؟ يقول كلٌّ منهم وحده: لن نسمح لهم باقتحام البجدوغ، باقتحام الشابسغ، باقتحام الأبراخ، ولا يأتون على ذكر إقليم الأديغة كاملاً. في هذا العصر لا يمكن أن تحمي نفسك دون تضامن. وفي حال الضرورة يتفهم الفلاحون هذا الأمر أكثر من الأمراء - النبلاء. وإن بقينا هكذا نُشهر خناجرنا أحداً على الآخر فسيمزقنا القادمون إرباً إرباً. وأظن، تبعاً لتوسع الجيش الروسي في إقليم الأديغة، أن الجنرال باسكيفيتش يخدعني مماطلاً بالوعد بين اليوم والغد. ألا ترى ما كتب قريباتر؟ حين سأل عن الوضع أجابه بأنه لا شيء مُلح، هذه مسألة بلاد! أليس لأنها مسألة بلاد نصدع رؤوسنا؟! وإلا فهل كنت أسافر كل تلك المسافة جاعلاً منها مهمة ملحة؟ أظن أنهم يفعلون بي ما فعلوه بخانجري. حين قابلته في الأحد الماضي في البجدوغ وُلححت له بالموضوع ابتسم في وجهي وتجاهل السؤال والموضوع. وأنا في الحقيقة لم أكن أنوي أن أخبره بوضعي على نحو دقيق... والله لا أعرف سبب عدم كتابة الولد. ليس من عادته أن يتأخر في الكتابة دون أن يُخبرني. مضى على آخر أخباره قرابة الشهر.

من لم يكن يفارق أفكار سفري المتناحرة هو فاسيل بوتينك الذي كان يبكي في الغابة من أجل سلاحه، وذاك الجريح القوزاقي الذي أبعد يده عن جبينه. قال سفري: لا ذنب لي في ما حدث للثنتين. وإن كان الأمر هكذا فالفلاحون ليسوا مذنبين، والله شهيد على براءتهم. لو لم يكونوا يبحثون عن المشكلات لما اقتحموا غير أرضهم. من يقبل أن تدنس أرضه دون اتفاق مسبق، حتى الكلب يعضك متى وطقت ذنبه. ليس ما فعله بكم الفلاحون ذا بال بالقياس إلى ما سنفعله بكم إن لم تتفقوا معنا. لم يكن سفري راغباً في أن تحبسه أفكاره في البيت كما في الماضي. خرج من البيت بثياب رثة كما يفعل حين يخالط الفلاحين: بالحزام المعلق على الصدر المخيط يدوياً علّقت فأس. والقبعة المتطاولة المصنوعة من جلد الخروف تصل إلى جفنيه. والقدمان في حذاء مصنوع من جلد البقر. والقفازان معلقان بالحزام الجلدي.

لم يعد الفلاحون والخدم والعبيد يستغربون هيئة سفري. - اعتاد الجميع على ملابس المزارعين التي يرتديها في الشهرين الأخيرين من الخريف. كان من النوع الذي يقولون فيه: أليس هذا واحداً منا، ألا يفهمنا؟ لا أحد يتذكر أن سفري منذ استلم الإمارة أهان أحداً أو أساء إليه، أو وجّه إليه كلاماً جارحاً. ونادراً جداً ما يُظهر كونه من سلالة أمراء. ويتعلق هذا بالموقف الذي يجد نفسه فيه، لا تباهاً بالإمارة وحباً في الظهور. وهذا أحد أسباب حبّ عاتمة الناتخواي وغيرهم له وجريان اسمه على ألسنتهم. ولا يغيب عن الأسباب خدمته في الجيشين الروسي والتركي. وفوق كل شيء أخيراً مساهمته في القضية الأدبغية.

- حسناً، - نادى سفري الفلاحين، - جهزوا العرب، سنذهب للاحتطاب. ساهم سفري في كافة مراحل تجهيز العرب مع الفلاحين: سحب العرب معهم من الحظيرة المغطاة، وملأ معهم التبن، وفتح معهم البوابة الكبيرة. ولما جاؤوه بالحصان من الإسطنبول قال لهم:

- شغلوا حصاني مع حصان آخر... واركبوا، وأنت أيضاً يا حباط اركب في ناحيتي، في مقدمة العرب. هل حملتم معكم شيئاً من الزاد؟
- لن نأتي بطعام من أجل بضع ساعات.

- لا تُخطئ يا حباط! - دفع سفري ظهر حباط، يعني: هاتوا من الطعام. التحطيب والبرد يُضعفان المرء.

قال سفري بعدما خرج الخطابون من قُماطر ووصلوا إلى المرعى:

- هيا بنا إلى تلك الغابة العائدة للأبزاخ. حطبتها جيد وإن كانت بعيدة قليلاً. أراك يا حباط لا تقول شيئاً!

- وماذا أقول يا أمير؟ أفكر في ما حدث لنا قبل أيام في شَبَج.

- آه يا حباط؛ إن كنت تعرف شيئاً تفكر فيه فأنت محظوظ... لو كان الفلاح ترام معنا لقال لك ما أقول.

- والله لا أعرف يا أمير... لستُ ممن يقال فيهم: رجل محظوظ.

- لا تقل هذا يا حباط! لماذا قالوا: التفكير يسوقك إلى الحكايات. لا تندم بهذه الحجة على أنك تفكر. نعم، ظهر لنا نحن الأديعة ما نفكر فيه. وبيننا كثيرون لا يفهمون هذا. ماذا نفعل؟ نحاول أن ندفع الوضع إلى الأفضل. ولكننا لا نفهم حالياً ماذا نريد... - تنهد سفري عفوياً. ازدحمت أمامه المهائم التي لاحقها في شهور الخريف الثلاثة. ومرت أمام مخيلته مضافة الأمراء النبلاء. ووجم من ذكرى اجتماعات الفلاحين الصاخبة. وانتصب أمامه قرباتر مرتدياً الزي العسكري الروسي الكامل والرتبة الروسية، ففرح لأن هذا الشاب الكامل القوام ابنه، ولكن رتبته الروسية جرحت قلبه. وهذا الألم الخفيف في قلبه هو ما أعاد سفري إلى واقعه. وقال لنفسه، لائماً نفسه على أنه لم يتكلم إلى الآن، وإن كان الكلام موجهاً لحباط: - حقاً أنت تفكر يا حباط على ما تقول. إن لم تحرص على نفسك أفقدك التفكير وعيك... فارسُ من هذا الذي يجري من جهة أنابه؟

- لا فارس يا أمير، - قال الفلاح الآخر.

- هكذا؟.. أسمعنا إذن يا حباط مريثة " ابن حاتك المحبوب ". لن نجلس نرتجف من البرد.

- الأمراء لا يحبون هذه المريثة يا أمير. لن أستطيع غناءها.

- وماذا يضير إن لم يكن الأمراء يحبونها؟ ونحن نقول أشياء كثيرة لا يحبها العامة. - بدأ سفري يغني المريثة دون أن يعبأ باعتراض حباط. وبعد قليل ردد

معه الفلاحان الآخران متناغمين معه. وغنى الثلاثة معاً حتى توهجت خدودهم بطولة ابن حاتك الفلاح وحكمته، وقتله الأمير دَيْبَش.

ولجوا الغابة المألئى بالخطب اليابس. وقال سفربي لحباط:

- كنت تريدنا ألا نغني الأغنية الرائعة... فدقأنا خدودنا ونقسننا عن ضيقنا. وليقل الأمراء والنبلاء الآن ما يشاؤون!.. مهلاً، أقول من هؤلاء الفرسان؟ لا أعرف إن كانوا قوزاقاً؟! - نظر سفربي نحو سفح الجبل حيث يقف الفرسان الثلاثة. وتعرّف من يلبس منهم زياً أديغياً. - أهو رفعت؟ نعم، هو نيكراس رفعت!

ولما رأى الفرسان القوزاق جماعة سفربي هربوا. وأسرع رفعت بالحصان فأدار وجهته، وهرب إلى عمق الغابة.

- أسرع يا حصان! - قفز سفربي إلى صهوة الحصان ولحق برفعت.

لم يلبث سفربي أن لحق بطريق رفعت. وقال: لا يمكنك أن تطمس آثار حوافر حصانك على الثلج أينما توجهت. ماذا تعرف أنت فتخبر به القوزاق؟ يبدو أن الغابة موضع أسراركم. حقاً؟ وفي غلوة الحصان الثانية رأى سفربي ظهر حصان رفعت، وصاح وراءه:

- يا رفعت، توقف لحظة! ألسنت من يُطلب منه التوقّف؟

- التفت رفعت، وتعرّف سفربي الذي يرتدي ملابس الفلاحين. وأوقف الحصان: - هذا أنا يا أمير؟.. لم أتعرفك...

- ماذا تفعل هنا يا رفعت؟

- كانت عندي مسألة.

- أي عمل لك مع القوزاق؟

- ليكن عندنا نحن أيضاً مهمة سرية يا كبير!

- أ تكون مهمة تجسس وتنصت في أرض الأديغة؟

صعد الدم إلى رأس رفعت بسبب السؤال غير المنتظر. وكظم غضبه بصعوبة، ثم أجاب:

- قسوت عليّ بكلامك يا أمير! لا تُهَيّ، آل نيكراس الأبخاخ لا يتحملون ما لا يستحقون.

- لماذا إذن أخفيت الفرسان القوزاق في الغابة؟
 - لماذا أنت مُصِرٌّ على إهانتي يا أمير؟.. - نظر رفعت إليه وعيناه الزرقاوان
 تقدحان شرراً. ثم أضاف بصوت ألطف: - لا يحق لوالد زانه قرباتر أن
 يستجوبني وابنه في الجيش الروسي... وما في قلبي قلته مرة، إن كنت تتذكر،
 في حضرة والدي...
 - كان الأفضل أن تدعو أصحاب القبعات الحمر إلى بيتكم من أن تخفيهم في
 الغابة، فهذا سلوك أديغي وإنساني معاً... هداً سفري لما سمع.
 - كأنك لا تعرف يا سفري ماذا سيقول والدنا وماذا سيفعل... - نطق رفعت
 اسم الأمير متوقعاً أن يكون فهمه. ورماه بنظرة دافئة.
 - إن كنت تودّ التطوع في الجيش الروسي يا رفعت فافعل فإعلتك دون أن
 تختبئ واترك الموضوع. ووالدك أنا كفيل به، ولو لم يبق غيري.
 - وهذه نيتي أنا أيضاً... ولكن أرجوك ألا تُخبر والدي بما رأيت مني. - ثم
 سأل بسرعة: - ما أخبار قرباتر؟
 - انقطعت رسائل قرباتر... مضى وقت طويل كفّ فيه المنحوس عن الكتابة.
 لم يأت سفري على ذكر رفعت حين رجع إلى الخطّابين الفلاحين اللذين معه.
 وغير الموضوع دون أن يظهر عليه:
 - ظننته نيكراس رفعت ولكني أخطأت... كائناً من كان ليأكل الكلب
 أباه. عاد إلى نواحي البجدوغ... يسمحون للموجيك أن يُكملوا احتلال أرض
 الأديغة.

...

نشأ رفعت منذ طفولته الولد المدلل لأسرة نيكراس. الولد فرحة وحظ سعيد
 للأسرة. كانت أول فرحة للأسرة صبيّة. وحالما أتت إلى الدنيا ودوى صوتها في
 البيت، وبشّروا بها نيكراس ميشكا سماها عُشْباقه. وعلى عادة الأديغة لم يُبدِ تيم
 وسماي امتعاضهما وإن لم يعجبهما الاسم لأن قرار الكبير لا يُنقض. والوحيدة
 التي تمرّدت على الاسم هي ليز جدّة عُشْباقه. وهذه لمحت يوماً دون تصريح
 لزوجها بحذر شديد:

- لو فكّرت باسم أجمل للصبيّة!

- عُشْبَاقه اسم جميل، اسم أدیغی حقیقی. وأنتِ ماذا كنتِ تريدين تسميتها؟
- لا أعرف، ربما: غالينا؟

- لا تتناسي الأديغة الذين نعيش بينهم والذين نأتمر بأمرهم. - عبّر ميشكا عن عدم ارتياحه لما سمع. - نحن صرنا جزءاً من الأديغة، لا مكان لنا خارج مجتمعهم. عندي أنا كثير من الأصدقاء والأقران في بلاد الأديغة. سنقتدي بهم، ومصيرنا مصيرهم. لن يلومنا أحد لو سَمَّينا الصبية غالينا، غير أنني لن أُميّز نفسي ممن صرنا جزءاً منهم فأثير الشك في نفوسهم.

وبعد هذا ببضع سنين رُزق نيكراس تيم بصبي. وكالعادة لم يستشر ميشكا أحداً في تسمية الصبي. فسمى الصبي الذي سيرتدي قبعة أديغية: رفعت. وهذه المرة لم تعبّر ليز عن امتعاضها من الاسم غير الروسي فسَمَّته: روم، مرخّم رومان. ولما رُزق بالصبية الثانية قال ميشكا، معتداً بأديغيته، مبتسماً:

- والله لا أعرف، كأن الله نحسنا فأنهال علينا بالبنات. هذه المرة سمَّيها أنت أي اسم تريدين، لا يهم إن كان أديغياً أم روسياً.
- ماريا! - كان الاسم على لسان ليز!

ومع أن ليز كانت تحب البنتين، ولا تعرف ماذا تقدم لهما، ولا أين تضعهما من قلبها، فإن أحبّ الأحفاد إليها كان رفعت. ومنذ أن بلغ الصبي الثالثة لم يعد اسم نانا ليز يفارق لسانه، وبدأ يمنع أخته الكبيرة أن تقترب من جدتهما، ويتبعها أينما ذهبت، وينام على صدرها ليلاً. ولما تقدم قليلاً في العمر أصّر على أن يجهزوا له أريكة في غرفة جدته. وظل ينام في غرفتها إلى أن نبت شعر لحيته وشاربيه.

ولم تكن تمضي ليلة لا تحدّثه فيها جدته بالروسية، تحكي له تاريخاً أو حكايات. وطوال نومه في حضن جدته كان يستغرب الصليب في عنقها دون أن يعرف إلّام يرمز. وكذلك صورة الإله التي تُخرجها أحياناً من الصندوق المعدني. وكان يتعجب حين تقف الجدة أمام الصورة فتتمتم بكلام غير مفهوم فيشعر الصبي أنّها تخفي سرّاً ما وإن لم يفهم، ثم بدأ يفهم أكثر من ذي قبل. وبدأ هو نفسه يرسم الصليب خفية في سن السادسة أو السابعة. وتعلمه جدته "يا أبانا الذي في السماء..." ملحّة عليه ألا يُطلع جده أو غيره على الأمر.

لم يمنع ما تُعلِّمه الجدة ليز لرفعت من التفكير الروسي، والنظرة إلى العالم، والموقف من المسيحية، حفيدها من أن يصبّ نفسه في القلب الأديغي، ويندمج في الأطفال الأديغة الذين يعيش معهم. كان الشارع والمضيق المائي وغابات الفواكه ملاعبه. والجامع وأماكن الابتهاال إلى الله، وساحات اجتماع أهل القرية، مرتاده. وقد نشأ رفعت كسائر صبيان الأديغة في أسرة يغلب عليها الطابع الأديغي. وترنّى في أماكن لقاءات الشوارع.

ولكن ما على اللسان غير ما في القلب. ويبدأ رفعت يغلبه ما غرسته فيه جدته أكثر مما ترى عيناه. وكلما نما تفكيره وفطنته امتلأ الرأس بالأفكار. والزمن الذي بدأت ملاحظته لهذه الظاهرة، واقتربه قلبياً من تربية جدته هو الزمن الذي بدأت فيه الصراعات الأديغة الروسية. كان إقليم الأديغة يغتني يوماً بعد يوم بما يدعو للتفكير. وبين البلدين اللذين تجابها تنبت أحداث كثيرة تثير الشكوك. وبدأ رفعت يفهم هذا الأمر حين زادت مخالطته للناس، وارتياده للمضافات. ثم تعمّقت روسية قلب رفعت حين تطوع قرباتر في الجيش الروسي، فبدأ يميل إلى الجانب الروسي، ويودّ أن يسمع أخبارهم الحسنة. وكلما ازاد عدااء والده للروس كان يقترب، وإن أخفى، بقلبه أكثر فأكثر إلى قومه الذين منهم جده ميشكا وجدته ليز. ويعرف من نفسه أن أحاديث غير والده من الأديغة بحق الروس تزيد من آلامه.

ظهر لرفعت في الربيع الماضي ما يميز الصراع الداخلي في نفسه بين جانبه الروسي وجانبه الأديغي. ومن كان السبب في هذا هو والده، وذلك في أول مرة اصطحبه فيها راكباً إلى أنابه. وعلى عتبة الجنرال سيريرياكوف غزار ثار في نفس الشاب الذي تغلبه حمية الشباب قلقه وأمانيه. وكانت بولينا التي تعيش في بيت الجنرال هي السبب. ما إن لمح رفعت الصبية اليتيمة حتى جرى لقلبه شيء لم يعهده في حياته. وليس السبب أنه أشفق على الصبية اليتيمة الخادمة. وجد نفسه بدون وعي يتقرب إليها ويحادثها بالروسية. ولكن رفعت الذي ثار في صدره ضيقٌ دافئ مفاجئ أبعد عنها سريعاً جداً قبل أن يلحق بأمنيته.

جرى هذا في العام الماضي. وفي هذا العام تعرف إليها في اللقاء الثالث. وباح رفعت لبولينا بما في قلبه نحوها من عاطفة دافئة. وعاش رفعت الذي لم يبق

محروماً من الاستجابة والأمل عاشقاً لا يرى أمامه غير الصبية، مصارحاً جدته التي على فراش الموت، مستأذناً إياها بما سيفعل.
وحين رأى الخطابون رفعت في الغابة كان عائداً من لقاء بولينا.

...

لا يأتي خبرٌ سعيد من ناحية نهر لوبا، ولا من الأبراخ، ولا من ميّقوب، ولا من البجدوغ، بل حتى من الشابسغ: ينزرع الجيش الروسي في أرض الأديغة بأنواع المنع. وبين الجانبين يسيل الدم وإن لم يتجاها رسمياً. وتكثر المناحات. ويغثلي الحقد المتبادل في القلوب. ومن الحمية ينشأ الاحتقار. ويعدُّ الأديغة عدم قدوم موفد من جانب الروس إهانة وحزناً. ويشعرون بأن غزو جيش الدولة المجاورة لهم دون استئذان استصغارٌ لشأنهم.

ويتّضح إخفاق مشروع سفري من استعدادات الجانب الروسي. ومع ذلك، ففي حين كان ينتظر الخبر الذي سيأتيه من تفليس قائلاً: من يدري ما غدُر التأخير، وضعت المأساة التي حدثت في الأحد الماضي حداً لآماله: طارق سوباش الذي كان يتجنب الاصطدام بالروس في أي مضافة تحدّث، كُرمى لميشكا نيكراس كما كان يقول، قتله القوزاق حين وصل إلى منعة أفيس وسيطاً. وجاؤوا به على حارك حصان. ولا يزال في مخيلة سفري إلى الآن أنه أقيم مؤتمرٌ في غمرة هرج ومرج بعدما دفنوا المرحوم سوباش، وخرج المشيِّعون من المقبرة.

في ذلك اليوم، كان العامة القادمون من أنحاء إقليم الأديغة القريبة والبعيدة، حتى من البسلني، ينوون الهجوم على منعة أفيس، وعلى أنابه، لولا تدخُّل سفري وحاغور نور مُجدّد. قال سفري: لو لم يقف إلى جانبنا بعض الضابطة من القرى المجاورة كنا أقمنا إلى جانب المأتم مأتماً، من أي طرف كان. اليوم يمكن أن نُغيّر عليهم، ولكن غداً؟ تصرُّفنا دون أن نفكر في ما سنفعل غداً لا يترك بيدنا شيئاً... ومن أوائل من أثار الفتنة في المأتم نيكراس تيم. كم قلت له: فكّر في ما تقول وما تفعل! ولم أستطع أن أحمله على طاعتي. وماذا كان بيدي أن أقول وأن أفعل: مهما قلت لهما فالحديث الذي لا يملّ منه الأب والابن هو قرباتر، يظلان يعيّراني بكونه في الجيش الروسي في الوقت الذي يتجا به فيه

الأديغة والروس. كيف سيتصرفون معي إن حدثت حرب بين الطرفين؟! والحق أني أستحق مهما تصرفوا معي. كان خانجري نصحني ولكن لم أصغ إليه. هذه هي النتيجة الطبيعية إن أقمت علاقات مع الموجيك!..
أصغى سفري إلى وقع الأقدام الآتي من ناحية المسطبة. كان من دخل من الباب هو ترام:

- جئتك يا أمير بخبر لم تنتظره.

- تفضّل!

- الروس أنزلوا جيشاً على مدخل أنابه.

- حقاً! - جفل سفري من الخبر المفاجئ. وبدأ يلبس: - هل قلت إنهم

جاؤوا بالجيش؟ من أي جهة جاؤوا به؟

- يقال: من جهة سوخوم.

- ومتى حدث هذا؟

- الآن يا أمير. جاؤوا على خمس سفن. غادرت المكان لحظة وصولهم.

- إذا كانوا قادمين من جهة سوخوم إذن... - لم يستطع البوح بالفكرة التي

داهمت رأسه في ما يخص قرباتر. - هيا جهزوا لي حالاً الحصان!

غادر سفري برفقة عدد من العامة قريته قُماتر. على الطريق عدد كبير من الفرسان كالسيل، وكذا في الريف، مدججون بالسلاح ووجوههم متحفزة كمن يذهبون إلى الحرب، مستعجلون كمن يُحرمون من شيء ما. يتدافعون بصدور خيلهم.

حين وصل ركبُ سفري إلى الميناء كان الجيش بدأ لتوه بالنزول من السفينة الأولى. وكان الجنود النازلون منها يرتدون ثياب الحرب، ومدججين بالسلاح كأنهم يتجهون إلى ساحة حرب. يمشون على أنغام الموسيقيين من عازفين وقارعي طبول على الساحل. وعلى جانب منهم جماعة الجنرال فيشيسلافيتسيف يرتدون التحية لهم. ونساءً مختبئات وراء الرجال كأنهن خائفات من فرسان الأديغة. والجيش الذي يترجل من السفن يدخل مباشرة إلى أنابه.

مع أن سفري تذكر حالما ألقى نظرة على الجنود وسمع الموسيقى خدمته العسكرية فإن ما كان يشغل باله في هذه اللحظة أمرٌ آخر. لم يكن يتحول

بنظره عن أي ضابط متوجساً أن يكون قرباتر بينهم. والأفكار المتضاربة التي ملأت رأسه في أشهر الصيف والخريف تمر أمام عينيه. ويدخل إلى هذا الحشد من الأفكار خانجري وحجمقوه وباسكيفيتش وفيشيسلافيتسيف، ويخيّل إليه أنهم يتسمون في وجهه. وأين الجنرال غزار يا ترى؟ هو السبب في كل ما جرى له... ربما كان أوقف كل هذا الحشد لو قابل القيصر. وما فائدة الجنرال باسكيفيتش؟ احتفظ بقرباتر في جيشه خيلاً. انظروا ما يفعلون: يُعلون صوت موسيقاهم قائلين: اسمعونا! سواء وافقنا العامة أم لم نوافق فولدنا زانه محمجري لم يفعل خيراً. انظر المشكلة التي جرّتها قطعة الأرض الصغيرة التي باعها لهم! والآن ليس الأدبغة أصدقاء للترك، ولا الروس! يدنسون أرض الأدبغة، وينظرون إلينا شُزراً!..

- انظر ماذا أرى!.. - صاح أحد عمّاة الأدبغة - ها هو زانه قرباتر! وانتفض سفري برأسه. نظر فرأى قرباتر يتقدم مجموعة من الجنود. قامته ممشوقة، وكتفاه قويتان وعاليتان. وربته تلمع تحت شمس الشتاء الخفيفة. ومع أنه ينقذ أوامر الجيش الذي ينتمي إليه فيقود الجنود من الشاطئ المنخفض فعيناه على الفرسان الأدبغة لا يملّ من متابعتهم.

- نعم، لم تُخطئ، هذا قرباتر ابن زانه سفري. - أجاب غيره.

- وهل هو ممن سيحاربوننا؟

انصرف سفري غير قادر على تحمّل ما يسمع...

وما إن عاد إلى البيت وترجل من الحصان حتى طرق باب الدار فارسان:

- نيكراس رفعت لم يعد إلى البيت منذ ثلاثة أيام. أرسلنا تيم سائلاً إن كنت رأيته يا أمير.

التفت سفري محمراً من الغضب. وبعدها وقف قليلاً قائلاً في نفسه: وهل زدتم

على ما يشغل بالي، استدار نصف دورة وهو منصرف، وقال لمن وراءه:

- وأين يذهب رفعت إن غادر إقليم الأدبغة؟.. إن كان نيكراس تيم يريد معرفة مكان ابنه فليذهب إلى القوزاق المعسكرين في منعة شَبَج!..

X

أصبح أهل البيت والفلاحون والخدم يتجنبون سفري حين اكتشفوا أنه يتصرف بعنف مع محادثيه. ولم يفهم سفري هذه الحالة إلا بعد بضعة أيام. لا أمل في أن يتخلص من لفظة قلبه ولو نصح نفسه أو لامها، بل لو نخرها.

ولا يلوم سفري أحداً في العالم إن لم يَلْمُ نفسه. ألأن باسكيفيتش خدعه؟ أم سلوك فيشيسلافيتسيف وسيريرياكوف معه؟ حقاً لا يمكن إلا أن تغضب منهم، لم يعاملوه بإنسانية. ولكن السبب الأول للعتب ليس هؤلاء بل أبعُد منهما. من الذي يربط رأس الكيس أخيراً؟ كيف يخالفون أوامر القيصر؟ إن لم تقابل المجنون ما دَخَّنت غليوناً فارغاً، كما يقال. سلَّمت قرباتر بيديّ إلى الجيش القيصري. والآن ها نحن نتأمل، ننتظر أن يسرّحوه أو يسمحوا له بزيارتنا. ولا نعرف خبره، والمرأة لا تعرف السكوت على غيابه!

دخلت "بابور" حذرةً جداً من زوجها.

— إن كان هناك ما يتعلق بقرباتر فأستحلفك بالله ألا تقولي لي شيئاً — صاح سفري المتورد من الشراب الذي لم يفارقه منذ الصباح.

— وهل يجوز أن تقول مثل هذا يا سفري؟.. — استغربت بابور ما سمعت. — هل سنقعد هكذا بلا حراك ونحن لا نعرف خبر الولد؟ — كتمت بابور انزعاجها من الشراب الذي أمام زوجها وإن كان أزعجها أكثر مما قال الزوج.

— ماذا تنوين لي أن أفعل يا ابنة آل طارق!

— نذهب ونعرف تفاصيل الخبر، ونعرف سبب عدم مجيئه...

— لو كان يود أن نراه؟.. — جرع سفري من مزيج الشراب والعسل. وتلَمَّظ بلسانه معلناً للمرأة أن المزيج يعجبه.

— لا يمكن لقرباتر أن يفعل مثل هذا... — احتدّت بابور من صوت تلذّذه بالشراب.

— ومن أين لك أن تعرفي أنت؟ — مرة أخرى أصدر سفري بلسانه الصوت المعبّر عن استمتاعه بالشرب. وامتدح المرأة بصوت معسول: — أنتِ ماهرة في إعداد الشراب يا ابنة آل طارق!..

- لا أريد هذه المهارة ولا الشراب!.. - ليت الله ما علّمني طريقة إعداده. مضت ثلاثة أيام لا نستطيع محادثتك من وراء الشراب، لا أعرف ما جرى لك. - ثم سألته بصوت لطيف: يا مصيبيتي؛ أأكون أحدًا مارس السحر عليك؟!

طوال سنوات كثيرة عاشتها بابلور مع سفرني لم تره في مثل هذه الحالة. لم ينظر إليها بعين ساخطة، دُعك من أن يوجّه إليها كلاماً قاسياً. وهل تجري الأمور في الدنيا كما تريد؟ لا يحدث أن يعود إلى البيت فلا يبتسم في وجهها ولا ينظر إليها بحنوّ ويمزحها مهما كان مزاجه سيئاً. وقد سهر في كثير من المضافات، وشارك في الكثير من الأعراس، وليس قليلاً ما يُتناقَل في البيت من العسل الجامد، ولكن بابلور لا يتذكر أن الشراب أطلق حرّيته كما اليوم. وقد ندمت على دخولها إلى مجلسه اليوم كما ندمت أمس. غلبتها وساوس كثيرة يمكنها أن تُرعب المرأة. وها هي ارتعبت ثانية متوجسة أن يكون حدث شيء لابنها. وأنساها ولذا السؤال الآخر: "أأكونون أهانوك؟!"

- بالله عليك أتخفي عني شيئاً بشأن قرباتر؟.. - قالت بابلور بلطف وحذر للرجل.

- ليت الجميع كانوا مثل قرباتر أيتها البائسة!.. أما قلت لك إنه في عز شبابه وصحته، ورتبته تلمع!.. - هل عرفت ما فعلت أنا يا ابنة آل طارق؟ - ماذا فعلت، يا للمصيبة؟!

- أترين هاتين؟ بيديّ هاتين أمسكت بالولد ورميت به في الجيش الروسي!..

- يا حسرتي، كنت رجوتك ألا تفعل ولكنك لم تسمعي...

- لم أطلعك لأنك ذات غطاء رأس!

وفي اللحظة نفسها تعاقب أمام عينيه زيارته إلى تفليس، ولقاؤه بباسكيفيتش، وتركه قرباتر فيها، واجتماعه بسَلَحُر مُجَدّ في السفينة، من دون أن يدري سبب هجوم المناظر عليه. وجرحته ثانيةً ملاطفته القوزاق الذين جرحوا أثناء إحراق الفلاحين منعة شَبَّح، وإبعاد أحدهم يده عن جبينه بخشونة، وحديث أحد الفلاحين حين عرف أن قرباتر يخدم في الجيش الروسي، فتنهّد عميقاً ومدّ يده إلى كأس الشراب.

استعجلت بآبور:

- إن كنت لم تسمع كلامي مرةً يا سفري فاسمعي اليوم، وكفاك ما شربت! عيبٌ عليك أن يراك أحدٌ في هذه الحالة. لن يحترمك العبيد والفلاحون والخدم...

- هذا رأيك؟.. - أعاد سفري القدح الذي رفعه إلى فمه. - سأطيعك في هذه فقط!

- أطعني ودعنا نساfer إلى قرباتر غدأ، سيتوقّع زيارتنا.

- وإلى أين نذهب؟.. إلى الروس؟ كفايني ما زرت هؤلاء!

- إلى عند ابنك!

- وهل بقي لي ابن؟!

- هل اختلّ عقلك يا رجل؟.. - أفلت من بآبور صوئها، وانفجرت باكية من رعبها وحزنها. - لا تُذنب بحقي، دعنا نذهب!

- كفى، كفى، تخوضين الحديث الذي لا يروق لي، حسناً سنذهب!.. لا تبكي، وشرابك استغنيث عنه. وإن طلبته منك ثانيةً فلا تعطيني منه! هل تظنين أن خدمك يعرفون سبب بكائك أمامي؟ لا تدعينا نجلب العيب لأنفسنا!

صحا سفري أكثر حين خرجت المرأة من الغرفة. أبعد بظاهر كفه القدح الفارغ من الشراب. وقرب المائدة على غير عادته إلى ما وراء الباب ليسهل حملها على الخدم. وبدأ يذرع أرض الغرفة الفارغة. ولكنه كفّ عن التجوال إذ شعر بارتخاء ساقيه، ربما بسبب الشراب. وكلما مضى الوقت سرت الحرارة في مفاصل جسده، وتوردت وجنتاه. يرغب في الانتشاء مع أحدهم فلا يستطيع الجلوس. يقترب من النافذة فلا يرى ما يُعجبه: الثلج يغمر كل الجهات، ومتى أشرقت الشمس عليه بمر العيون. خارت بقرة في طرف القرية حيث تجتمع مواشي الجيران، وجاوبتها بقراتٌ أخضر. وسُمع نباح بعض الكلاب. وأنّ حجرٌ رحى في طرف الحيّ ثقيلأ أصمّ.

قال سفري في نفسه: أظن أن المواشي بلا علف، وربما لم تُسقَ أيضاً. مواشينا نحن بخير. تذكر الفلاحين راضياً عنهم. يخدمون المواشي جيداً. الجو جميل،

أفكر في رياضة الحصان... كيف تخرج من البيت وقدماك لا تُطاوعانك؟! ما أعجب ما جرى لي! سمحت للشراب أن يوهن قواي بإرادتي. ندّعي الرجولة ولكن علينا أن نطيع النساء أحياناً. لم أوافق على رأيها ولكن الحق أنه لا يجوز مزج الباخسمة بالعسل. المزيج يؤثّر جداً على الرأس، ويخدر الرجلين. وصل صوت الرحي ثانية إلى سفري: أيُّ طحنٍ لا نهاية له! ماذا يطحنون يا ربي طوال هذا الوقت؟

غادر سفري النافذة. وشرب الثمالة التي كان تركها على المائدة، وتنهد بعمق وهو يمسح شفتيه. ثم خاطب نفسه: ما فعله بي هؤلاء لم يفعلوه بأحد على الأرجح... ولماذا لا يفعلون بغيره؟ كم من أمثالي وأمثال خانجري خدعوا؟.. أكيد لستُ المسؤول. ألا يجوز أن يراعوا حرمة الأديغة إن لم يراعوا خاطري؟ نحن عرق من البشر نعيش على الأرض وإن لم نُساوِ الموجيك عدداً. نحرث عليها، وننشئ أولادنا. لم نسقط من قمة شجرة دون جذور. تعرفنا دول العالم، وتحتربنا. يثمّننا الإنجليز والفرنسيون والألمان. ونحن معروفون في الجزيرة العربية واليونان والهند. وعلى أيِّ حال ألسنا نعيش بصفة البشر على الأرض ولو لم يعرفنا أحد؟ نسوا بسرعة أن إيفان، قيصر مَن يقتحمون أرضنا اليوم، كان صهرنا. يبدو أننا كنا نحمي عبثاً الحدود الجنوبية لروسيا من القرم أقرباء الترك. الآن يفعلون بنا ما يريدون. أحاول لجُم الفلاحين غير أن ما يقولونه وما يفعلونه صحيح... هل نصمُتُ ونسلم أنفسنا هؤلاء مغمضين العيون؟ ألا نكون إذن عشنا بلا جدوى إلى الآن.

- هيّا، - صرخ سفري من البيت، - استدعُوا لي حباط!..
دخل حباط البيت قبل أن يهدأ نداءً سفري كأنه كان بالانتظار.
- هل نهضت يا أمير؟
- نعم يا حباط، - تأمل سفري القادم بعينين محمرتين. - تفضل، اقترب مني، واجلس على السرير بجاني.
- ألا يكفي أن أقف أمامك يا أمير، - راح حباط عند عتبة الباب غير مانح نفسه الاحترام الذي لقيه من سفري، متسائلاً عما جرى للأمير.

- لا، اجلس بجاني. كفاكم مراعاة لقواعد الأمير والعامّة. لم يعد ممكناً في هذا الزمن الثقيل المحافظة عليها.

- وهل يجوز هذا يا أمير؟.. - استغرب حباط ما سمع، ولم يجد تفسيراً له. - ماذا سيحلّ بتقاليدنا إذن يا أمير؟

- لن يجري لها شيء، اجلس متى طلبت منك الجلوس. أنت مخطئ يا حباط إن ظننت أن الأمراء يراعون التقاليد، والعامّة لا يراعونها. الروح الأديغية تبدأ من مجموع الأديغة، لا من شخص أو من أسرة معيّنة. صحيح أنه يحدث أحياناً أن يحمي شخص واحد شرف أسرته أو يدبّسها، وكان عندنا أمثال هؤلاء، وسيكون عندنا مستقبلاً. هيا اجلس هنا! ماذا يقول الأديغة يا حباط: من يسمح لك بالجلوس لن يعود ويغتابك.

- والله لا أعرف يا أمير، - وقف حباط متردداً بعض الوقت في تقبّل الأمر، ثم فارق قائمة الباب. - لن أستطيع الجلوس على السرير، سأجلس هنا مقابلك... من يرنا إلى جانب الأمير يعبّ علينا... أسمعك يا أمير. - تأمل حباط سفري مرة أخرى. والتفت إلى مائدة الأمير. ولمح جرّة الباخسمه. وقال لنفسه: هذا الرجل هائج من مشكلة ما.

- يا حباط لنغنّ أغنية يستغربها من يسمعها!..

- والله لا أعرف يا أمير... - لم يعرف حباط تفسيراً لما سمع. - إن كنت تريد هذا فسنغني... ولكن الوقت لا صباح ولا مساء، فماذا نغني؟ ولم تنتهِ خدمة المواشي. لا أدري ما سيقول فلاحو الدار وغيرهم. ألا يحكمون علينا بالبطالة؟ بماطل حباط باحثاً عن ذريعة قاطعة.

- هذا رأيك؟! - نظر سفري راضياً إلى الفلاح. - في ما تقوله حكمة... لن يحكموا علينا بالبطالة المطلقة، ولكننا نستحقها لو قالوها. يكفي ألا نرسل صوتينا... كان يسرني أن نغني أغنية أديغية أصيلة تصل إلى أعماق القلب وتؤلمه وتنقّس عن ضيقه، ولكن ما تقوله صحيح... فإن كان هذا رأيك فلنلعب لعبة الألغاز، أو إن شئت تمارين تُطق¹. وهما سيّان عندي. كل ما

¹ لا فائدة من ترجمة هذه النصوص، وإن ترجمت بعضها، لاعتمادها على الجنس في اللغة الأصلية. ويستشهدون في العربية بمن يستطيع تكرار بيت الشعر التالي مرتين دون خطأ:

صدر عن الأديغة يَحْمَسني. ويزرع فيّ شيئاً ينقصني. بالله عليك يا حباط أن تسمع هذا التمرين: "هذا السيف الذي يشبه قرن الثور ذو الساعد الأسود الجميل هل تراه كما أراه سيفاً..." حاول أن تكرر نطقه يا حباط!

- إذن يا أمير، - تحمس حباط بعد ما قيل له، وتحرر لسانه إذ سمع ما يروقه، - وأنت حاول أن تكرر هذا: - "هذا الكبش الأسود ذو الصوف هل تراه كما أراه كبشاً أسود..."

- اسمع ماذا قال!... - التمتعت عينا سفري. - كنت أظن حباط مغنياً فإذا بي أسمع العجب... اسمع إذن: "حصاني الكستناوي..."

- ليس حصاناً كستناوياً لك وحدك - ابتسم حباط، وأضاف: إليةً بيضاء، تشرب من حفرة الماء..."

ما كان ينطقه حباط من التعابير الصعبة دون أن يُخطئ أو يتعثر في أي كلمة استقرّ سفري. ووقف على أرض الغرفة صائحاً:

- يا للعجب يا حباط، أيّ إنسان أنت! - مدّ سفري يده إلى القدرح عسى أن يكون بقي فيه من الشراب، وتفقدّ الجرة. - من علّمك كل هذا؟! - مرة أخرى فتش سفري الجرة متشوقاً إلى القليل. وصاح إلى خارج الغرفة: - هيه الحقونا بجرة من الباخسمه! عفارم يا حباط، أحسنت! غلبتني، ربحتْ خروفاً سميناً. حلال عليك. - رجع سفري فجلس على السرير. ووصلت جرة من الباخسمه إلى الغرفة. - املاً لكلٍ منا أنا وحباط قدحاً من الباخسمه. هل هي مخلوطة بماء العسل؟

- نعم يا أمير. تراجع البواب وخرج من الغرفة.
- ارفع الكأس يا أخي، نعم، يا أخي، - شدد سفري ثانية على كلمة "أخي"، - لا تتعجب، لم أخطئ. نحن كلانا حصلنا على هذه الكأس بتعينا، وأنت أجدر بها. من أجل أن تعيش أرض آباءنا إلى الأبد، ويسود فيها السلام لأجلنا ولأجل أخلافنا، ولا تغيب البطولة عن الساحة.

وقبرُ حربٍ بمكان قَفْرِ وليس قُرب قبرٍ حربٍ قَبْرِ. ويمكن لمن يشاء العودة إلى الصفحة 126 من النص الأصلي.

- آمين، يا أمير، - ارتجف صوتُ حباط. - الأيام التي نعيشها أيّامٌ تستحق مثل هذا الخطاب. نحن محاصرون من الجهات الأربع. - قال بحرص، ولكن لما غزا خليط الباخسمه والعسل الرأس تحرر لسان الفلاح. - الفلاحون يعتبرون عليكم بحجة أن الأمراء لا يفعلون شيئاً... يقولون إن لم يقودونا فسيظهر من صفوفنا من يقودنا. لا أعرف إن لم يكن صحيحاً ولكن هذه هي أقوالهم. غير أنني لا أستطيع إلا أن أنقل شكاوى الفلاحين. وعلى ما يُقال فليس فلاحو قُماطر وحدهم، بل كل إقليم الأديغة... اغفر لي يا أمير ثرثرتي...

شحب وجه سفرني مما سمع. وتفقد دون أن يخرج من الغرفة كل مواطن الفلاحين في بلاد الأديغة ودار بقلبه فيها. ثم خرج من أفكاره المتناقضة:

- لا يا حباط. لم تقل شيئاً في غير مكانه. اليوم كل الأديغة في موضع اختبار لرجولتهم.

- نعم يا أمير هذا ما يقوله ترام.

- ألا يقول ترام: لا تدعونا نمتشق السيف مرتين، ولا تدعونا نعيد الكلمة مرتين!

- نعم يا أمير يقول. وهذا كلام من يعتزون برجولتهم ويتحدّون. ثم إن نساءنا يقلن من ورائنا بعض الأقوال.

- أئيهنّا معشر الرجال لابسِي القبعات؟

- يبدو أنهن يقلن: ميلادكم في يوم ونهايتكم في يوم فيلّمحن لنا.

- نعم يا أمير، يقلن: إن كنتم رجالاً فتلمّسوا شواربكم!

- ألا تعرف ربات غطاء الرأس قولهم: لا تشهر سكينك قبل أوانها! سأل سفرني شاعراً بأن مباراة في المأثور الأديغي تنشب بين الرجلين. والصوت الصادر من الفناء أنساه ما كان يريد أن يقوله. - مهلاً، ماذا حدث في أرض الدار؟

فتح أحد الشباب العائمة الباب بعنف كما لو لم يكن بيت أميرٍ. ونفض حباط شاعراً بأن من غير اللائق أن يروه جالساً في حضرة الأمير.

- أبشرك يا أمير، جاء الأمير قرباتر!

- أين هو؟ - سأل سفري مستعجلاً على رؤية ابنه. ثم كظم نفسه خجلاً مما أنطقته به لهفته.

- عند والدته. دلف إلى السيدة الكبرى يا أمير.

- هكذا - نظر سفري إلى حباط ظاهراً عليه الانفعال وغير ظاهرٍ، - هذا ما جعلهم يقولون: الأبوة حلوة، والأمومة عسلٌ. ما مضى كثيره سيمضي قليله. وسيُطَلَّ علينا قرباتر. - ثم قال للخادمين: - أخرجوا المائدة والعسل من هنا. وافتحوا النافذة لتزول رائحة الباخسمة المخمّرة.

...

في صباح اليوم التالي، مع موعد تناول الشاي، اختلى الأب بابنه بعدما استقبلا المهنيين من الأهل والجيران والأصدقاء؛ ففي اليوم السابق لم يستطع سفري أن يلمح ابنه ليلاً أو نهاراً إذ تدفق المهنيون بعودة الابن الذي لم يره منذ شهور، فلم يبق في غرفته نصف ساعة. ومن أين كان للضيوف والمهنيين أن يعرفوا ما يغتلي في قلب سفري. أقاموا في البيت النهار كله والليل. تناولوا في أحاديثهم إقليم الأديغة وروسيا وتركيا والقرم، بل تجاوزوا كل هذا إلى الداغستان. ثم عرجوا على إنجلترا وفرنسا وألمانيا، بل إلى النمسا والمجر. ومهما كانت أسئلة المتنادمين في المضافة قريبة أم بعيدة فإن سؤالهم عن قضيتهم كان بلا جواب. ولا يجدون تفسيراً لتدفق الجيش القيصري في أنابه قبل أيام وإن حاولوا تفسير ما يحدث في العالم مما لا شأن لهم به. ولا يجدون من اللاتق أن يتحدثوا فيه صراحة بسوء بل أن يفكروا فيه وإن كانوا متوجّسين. كانوا يحاولون إبعاد ما يخشونه مع أنهم لا يتوقعون من الرمح المسنون خيراً إذ ليسوا معقّلين.

من جهة كان فريق يفكر بهذه الطريقة المخفية. والفريق الآخر كان يفكر بصراحة كذلك الرمح المسنون، ولم يكن عندهم كلام موارب. يقولون عن المطر الهاطل: المطر يهطل، وليس: الندى يبلّ الأرض. وكانوا يستغربون أن الأديغة الذين لم يعرفوا الخوف في حياتهم ينظرون الآن من ثقب أسوار دُورهم. كان سفري من الاتجاه الأول طوال حماسه لقضية الأديغة التي تتّناها. ومع أنه لم يُنحَ بسره إلى الكثيرين فقد انتظر مادام متأملاً الخير إلى أن أُحبط. وبدلاً من أن يحملوا له الخبر السارّ تدفق إلى أنابه الجيش الروسي الذي ينتمي إليه ابنه.

ولم يكفِ هذا بل نقل روادُ مضافته العشية أن الجيش الروسي لا يهدأ في نواحي شنته قاله وإيكاترينودار، وبروجنوكل وجتونه. وفي ساحل الوبيخ تتكاثر السفن الروسية. وقد عاش سفري إلى الآن مدرّكاً أن قضية الأديغة لا نتيجة لها، قائلاً في نفسه أحياناً: من يدري لعل وعسى، حذراً في التعامل مع الوضع، متوقعاً أن يلجأ الأديغة إلى السلاح يوماً ما، وإن لم يكن يساهم في أحداث الفريقين بصراحة.

- إن كنت ترى هذا يا قرباتر، - قال سفري بعد مدة. وتنهد عميقاً، - دفعْتُك إلى جيش الموجيك عبثاً. وألبستك ربتهم بلا فائدة... ماذا ستفعل إذن يا ولدي؟

- والله لا أعرف يا والدنا... - تأمل قرباتر بعينه السوداوين الحادتين وجه أبيه. ولمح إليه بحذر شديد: - مصيرنا مصير إقليم الأديغة. - ثم أضاف بصوت أهدأ وأوثق: - الجيش الروسي جاء إلى هنا من أجل تهدئة الأديغة، وإبقائهم في رهبة منه.

- لا أظنه قادراً على هذا، - لم يستعجل سفري في الإجابة، - الأديغة ليسوا شخصاً واحداً ولا عرقاً واحداً ولا قرية واحدة فترهّبهم. سيتبين لهم أن خصمهم غير ما توقعوه. وأشدّ ما أتعجب منه هو عدم إيفادهم أي رسول إلينا.

- الجيش لا يسلك هذا المسلك، ولن يكون له، هكذا قال الجنرال فيشيسلافتسيف الذي وُضِعنا تحت أمرته. وفي كل منعة روسية يوطدون هذا القرار. ومصدر هذا الخبر هو نيكراس رفعت.

- حسب ما تقول يا ولدي ستحتفظون بالأديغة السُدج الذين لا يعرفون غير ربحهم تحت تهديد السلاح، وثّرهبونهم.

- لستُ صاحب هذا القرار يا والدنا.

- أعرف، أعرف، - قطع سفري ما بدأه ابنه، - لست أنت بل قيصر الروس. لن نقبل الآن أي حكم يفرضونه علينا... لا أظن القيصر كان عاجزاً عن فهمي لو عرضوا رجائي عليه... - تتم سفري كمن يحدث نفسه. والتفت إلى ابنه كمن يسأله: ما رأيك أنت في ما أقول.

- عرضوه عليه يا والدنا. لا أصدّق أنهم لم يعرضوه عليه...

- وماذا إذن؟ - غضب سفري كأنه كان ينتظر هذه المعلومة. - أيعظن الروس أنهم إن غلبوا تركيا غلبونا نحن؟. أليست مأساة أن يسموك تركيا وأنت غير تركي؟ وجدوا ذريعة جيدة ليحتلوا أرضنا بعد ما حققوا النصر في حربهم. نحن أترك في رأيهم، ونبلس الطربوش، ونبلس سراويل قصيرة، وإن لم نحترمهم ولم نحَبِّهم، وبيننا وبينهم البحر الأسود، ولا علاقة بيننا وبينهم، ولا طريق يصلنا بهم، لأننا نصلي، ولا نأكل لحم الخنزير، ونقرأ القرآن. لا هدف لهم إلا امتلاك أرضنا، والامتداد إلى ساحل البحر الأسود، وإلا فما شأنهم بنا؟ - نظر سفري إلى رتبة من يجلس أمامه وكأنه صار واحداً من أعدائه. بل نظر بعين احتقار. وانتصب أمام عيني في الحال كل ما رأى فيهم من مثالب في العام الماضي. وأحس ثانية بنظرة القوزاقي المهيمنة في منعة شَبَج. ولا تفارق أذنه ضحكة بوتينكو فاسيل. ولم ينس أنهم جرحوا مرفقه في طريقه إلى البجدوغ. تألم قلبه لممارستهم الخديعة معه في شأن قضية الأديغة وما فعله بابنه إذ نسبته إلى الجيش القيصري. وجم من هذه الذكريات ومن أفكار أخرى، ثم صحا فجأة وسأل:

- ماذا سنفعل إذن بشأنك يا قرباتر؟

- كما تريد يا والدنا. - لم يدعه ينتظر، - وإن قلت الآن حالاً فلا مانع عندي.

- ألا تعجبك خدمتك؟

- لا، لا أستطيع أن أقول هذا.

- لماذا أنت مستعجل إذن هكذا؟

- إن حدثت حربٌ في أرض الأديغة يا والدنا؟

- أتتوقع مثل هذا؟

- لا شك لي في هذا تبعاً لما يجري في أرض الأديغة اليوم.

- الأديغة هم من يتعلق بهم نشوب الحرب وعدم نشوبها يا ولدي.

- أفهم يا والدنا.

- لا أعرف إنساناً يريد الحرب. ولكن الأديغة لن يتحملوا ما يقرّر بشأنهم. ولو لم أكن منهم لما تكلمت في الموضوع. ماذا بيدنا؟ ما كتبه الله علينا جملنا. ولكن لا يعني هذا يا قرباتر أن تفارق حالاً من انضممت إليهم... - أجبرت

الأصوات التي سُمعت من الفناء سفري على أن ينتفض برأسه، وحين وصل وُقِع الأقدام إلى المسطبة لم يُطق صبراً: - هكذا لن يدعنا سيل الضيوف نُكمل حديثنا!

دخل رجلان يحملان رُتباً روسية. ومن يتقدم زميله وقف باستعداد أمام قرباتر وقال له بالروسية:

- أيها الأمير العزيز، أوفدوني إليك لتعود حالاً إلى أُنابه.

...

مضت عدة أيام لا يَرُدُّ خبرٌ عن قرباتر الذي غادر قُماطر على عجل. وخلال هذه الفترة حدثت مآسي متماثلة في أماكن متفرقة من إقليم الأديغة. وكانت كلها تتعلق بالجمجمة الروسية - الأديغية. ولم يكن أحد يعرف مَنْ مِنَ الطرفين هو المتسبب. وصلت الأخبار إلى قُماطر من فم إلى فم، تزيد وتنقص، وتثبت لها أجنحة من القلق والحزن. وطار عند الظهيرة إلى قماطر خبرٌ مشؤوم قبل أن يلتهب، يُنسيك كل ما سبق، ويُجِئكَ إلى السلاح. ومن وجموا للخبر كانوا أكثر من غيرهم. ولم يكن الرجال الذين حملوا سلاحهم وركبوا خيلهم قليلين. كان من عادة الناس أن يُهرعوا إلى الأمير حالما يسمعون خبراً سيئاً فأُسرع عدد من الفرسان الفلاحين يتزعمهم ترام إلى باب سفري:

- النجدة يا أمير، القوزاق هاجموا قريتي براوت وجَلَج، يُحرقونها.

- يا للحسرة، توقعت هذا! هاتوا لي حصاني. هيا ليلحق بنا كلُّ من يستطيع الركوب!..

الكتاب الثاني

I

هذا يومٌ يقال فيه: لن تخرج من البيت إن لم يطردوك!
الريح تصفر وتحمل الثلج إلى كل مكان. وأسطح الحظائر تنقّ، وتتوجع. ومع جريها تقتحم الأشجار العارية، فترتجف وتسهل كحصان جافلٍ فقد قطيعه. وتُحرق ضاحكةً رؤوس الأعمدة.

الناس قلقون متألمين انفراج الحال. والفلاحون في خدمة المواشي التي حبسها في حظائرها برْد الشتاء الأزرق: يعملون في إسطبلات الخيل، وفي الأفنية، يحملون الحشيش اليابس، ويجرفون الثلج، ويقطّعون الحطب. والأمراء والنبلاء والمتنفذون الذين حبسهم البرد في البيوت لا يحتاجون إلى شيء. كلمتهم لا تصل إلى الأرض، فالخدم في انتظارها. يأتون بالموائد إليهم، ويشعلون لهم المواقد ليس بأي حطب كان، بل بحطب التنّوب الذي لا يصدر دخاناً. وإن أرادوا الاستراحة نَعِموا لهم الوسائد. كلٌّ وإمكانات عيشه، يتنفس الهواء المحيط به، يئنّ، ويلهث.

إقليم الأديفة، وإن كان أعراقاً متعددة، يعيش والفلاحون يغلبون عليه والأمراء قليلون. ولكن في كل قرية أمراء "سلاطين" محاطين بالنبلاء والحرس. وهم لا يعرفون معنى سلطنتهم، ولا يريدون أن يعرفوا ولو أجبرتهم. لا جيش لهم، ولا يصنعون سلاحاً، ولا يصكّون نقوداً، وماذا يفعلون بها؟! هم من سلالات الشمس والقمر. هم مرسلو الله. يعيشون حياتهم وقراهم أمام أنظارهم، يقاسمون الفلاحين نتائجهم ولا يقاسمهم أحد. هم أمة الله، يُشيعون في مَنْ حولهم رقة القلب والزهد برعاية الدين في حين يجردون كل ما يريدون.

هذا النمط من الحياة مرّق النسيج الاجتماعي للأديفة. ومنعهم من تأسيس دولة خاصة بهم. ولكن الأديفة نشؤوا وعاشوا آلاف السنين تحت قبة السماء يحبون قدوم ضيف إليهم، ويحزنون إن تجاوزهم إلى غيرهم، يعتدّون بالرجولة، ويدينون الجبان، يحترمون كبيرهم، ويربون الصغير ويثمنونه. يُعزّون النساء.

ومع أنهم عاشوا طوال عمرهم عرقاً واحداً في أعشاش متفرقة فإنهم لم يسمحوا لعدو أن يحتل أرضهم وينهبهم رغم كثرة الأعداء. ولم يركعوا لجيوش خان باقي،

ولا الجنكيز خان، ولا للإسكندر المقدوني. ولم يهرب الأديغة الذين يعيشون في بقعة جميلة من العالم على مفترق طرق الجيوش السبعة التي زحفت على أرضهم كالجراد. احترموا سلاحهم ورجولتهم وأنماط معيشتهم، وحقوق الخبز والملح. استقبلوا من تفهمهم بوجوه طليقة، وعبسوا في وجه من لا خير في نواياهم. حين تتوقف الريح وتهدأ الأحوال في إقليم الأديغة يعود الأديغي فيقف أمام أميره بإشارة منه، محتفظاً برجولته لنفسه، حانياً ظهره، متحماً ما يفعله وإن لم يكن يعجبه. ولكنه لا يقبل منك أي تعدي عليه ولو حشدت أمامه جيشاً. ولن يلقي السلاح من يده ولو ضحى بروحه. وإن طرقت بابه وطلبت النجدة منه لم يسألك من أنت. يخرج من أجلك ولو كان في ما يفعله وقفة أمام الموت. ومهما كنت عدوه دعاك إلى دخول بيته.

وفي الأديغي، إلى جانب الرجولة والاحترام وحسن الضيافة والرزانة والاعتداد بالذات، كثير من العيوب. تبدأ الغيرة مع التنافس بينهم. والحق يقال إن الغيرة واحدة من أسباب تطور الأحوال في الحياة. ولولاها لعاش الإنسان محتاجاً لا يكفيه ما عنده. ولكن أيّ غيرة هذه؟ الغيرة صنفان: الأول ينير الحياة؛ أليس محموداً أن تنافس الجار إن بنى بيتاً جيداً، ورى حصاناً ممتازاً، وفي فنائه كلبٌ نشيط، وعنده جيران كرماء مخلصون، فتعيش محاولاً أن تقلده إذ أنك عاملٌ مثله. الغيرة تحسن حالك وتمنحك ما ليس لغيرك، بل سيقلدك يوماً ما من كان قدوتك.

والصنف الثاني غيرةٌ ترهق الإنسان المستقيم، فلا تدع له مجالاً للراحة. تُعمي العين، وتلجم من يسير إلى النور. وإن أردت الاختصار فهو الحسد. وهذا ليس نتيجة الغيرة وحدها، بل نتيجة خفية للاشتهاء.

وبالإضافة إلى ذلك فاشتهاء أمور لا تقدر عليها يزداد رغباً عنك. وتعجز العين وقتها عن رؤية أيّ من الجانبين فتصفرّ حيناً وتسودّ حيناً. ويدوخ رأسه متى ذكر اسمك أمامه. ينظر واجماً، ويقتلك بنظراته. ويهمس في غيابك بنذالة. إن استطاع كسر عُنتك، ومشى فوق ظهرك غير عابئ بك. وإن اطمأن إلى أن أحداً لن يخبر هدم عمود بيتك وكسر حافر حصانك، وفَضَّ عنك أقرباءك

وأقرانك وأصدقاءك. وأن يتحقق لك ما لم يتحقق له هو الرُّدُّ على حسده. ولو تأكد أنه سيحصل على هذا لنَحَسَ الدنيا المنيرة حوله.

هذان الصنفان يتوازعان الأدبغة. وإن وضعتهما في الميزان لم يُفَقِ النوع الأول الثاني إلا قليلاً جداً. وهذا نصيبنا. ولكن، لو لم يكن القلب الأدبغي مخلصاً عادلاً، وكان عاجزاً عن تمييز الخير من الشر لما استطاع اجتياز آلاف السنين التي يُسَرُّ فيها الإنسان ويجزن. ارتقى جباله العالية وتجاوزها. وعبر كل غاباته الفسيحة، وحرث أرضه، وزرعها، وأنجب فيها الصالح والطالح من الأولاد. وبالأسماء الأدبغية التي وردت على لسانه سمى جباله وأنهاره وغاباته وسهوله ومراعيه ومستنقعاته ومضايقه ومرتفعاته وأماكن عيشه. وأعزها وغنى لها، وعاش فيها متداولاً حياته من قرن إلى قرن.

ولا يعني تفاوت اللهجات المحلية من شابسغ وناخوي وأبزاخ ووييخ وجمكوي ومجدوغ وقبرتاي وبسلني وغيرهم أنهم ليسوا عرقاً واحداً. أعراسهم ورقصاتهم ومأكولاتهم ولباسهم ودفئهم وموتاهم وحِدادهم بل طريقة ركوبهم للخيل وضحكهم وغضبهم واحدة. تعرفهم حتى من ظهورهم وإن لم يمثلوا أمامك، لا يلتبسون بغيرهم.

إذن، إن كان الأمر هكذا، فما الذي لا يربط هذا الشعب المؤلف من أعراق؟ لماذا يشدُّ كلُّ العربى إلى الاتجاه الذي يريد، ولا يتجهون بالعربى اتجاهاً واحداً؟ يُحَيَّلُ إلى كثيرين من العامة السُدُج أن خدمته للأمر، وورود اسمه على لسان الأخير مفخرة له، وخدمةً لقريته، ورفعٌ من شأنها. وربما كان هذا هو السبب في ظهور الألغاز¹، والأشعار التي تتنافس فيها القرى، وحكايات السخرية بين الأعراق، وأشكال الهزل والمزاح بينها. لا يجوز الافتراء على أحد لأنك قادر عليه. ليس الأمراء والنبلاء والعامة محرومين من الرجولة. وبينهم كثيرون من أصحاب العقول النيرة الذين ينظرون إلى البعيد. وظهر هؤلاء في القرون الماضية، في حرب بزيقوه. ولا يزالون في القرى وإن لم يُظهِروا أنفسهم، وينتمون إلى أعراق مختلفة. من يحتاج إليه هؤلاء هو شخص يقول لهم "يا أهل النخوة، تأملوا حالكم، وتفكروا في أمركم، ما يجري لنا عيب!" وحين يخوضون في رواية

¹ لاحظ أن أحد اسمي اللغز "فجه - فُجَشَك" يعني في لغة الأدبغة حرفياً تنازعا بين القرى.

الحكايات فموضوع حكاياتهم، ومن يعتبرونهم قدوة لهم، الناس الأقوياء الأذكىاء. أحياناً على "شباتنقوه، وأحياناً على سوسروقوه، وأحياناً أخرى نارچ¹. فيزرعون فيهم القوة والرجولة من خيالهم، ويتحكّمون فيهم كما يريدون: يخوضون بهم النار، ويرفعونهم إلى عنان السماء، وينزلون بهم إلى أعماق البحار. ويسلمونهم قيادة الجيوش.

حين رفع حجمقوه أسلانج رأسه وقعت عينه على السيف المعلق بالسجادة الجدارية فخيّل إليه أنه عائد من غزوة بعيدة، فخرج من أفكاره. وحضرت إلى الذهن الحكاية المتعلقة بالسيف. قال أسلانج: يا ربي، ما الموقف الذي كان سيتخذ والدنا من وضع الأديفة الآن لو كان حياً؟ لم يكن والده حجمقوه ألقس، كما يروي الناس وكما يتذكر هو، محروماً من الرجولة. عاش عمره ومن يحتاجه يجد عنده الحكمة. كثير من الناس دانوه من أجل حرب بزيقوه، ولكن لو نجح في لم شمل الأديفة لما جرى لنا ما يجري اليوم. لم يوافقوه متهمين إياه بأنه يريد أن يتزعّم الأمراء. وقضى عمّنا بات جري في الحرب بلا جدوى. مات والدنا نادماً على ما فعل، مُشيحاً برأسه كلما وقعت عينه على السيف الذي وهبته إياه القيصرة إيكاترين، ينزعه من السجادة متى غضب، ويعيده إليها متى ندم، محذراً من الثقة بالقوزاق المقيمين وراء نهر بشزه، داعياً في الوقت نفسه إلى تجنّب عدايتهم، متمنياً أن يشهد الأديفة أسسوا دولة. كان والدنا الذي أدعو له بثواب الآخرة رجلاً حكيماً. وما كان يتوجس منه حدث للأديغة. لم يكن مهماً أكان للشايسغ أسرة متنفذة أم لم يكن. استنفروا الأبراخ والجمكوي والبسلني بحجة أن البجدوغ يقتلونهم وينهبونهم... والآن لماذا تعيشون معزولين منزوين على هامش الحياة في الوقت الذي ظهرت فيه قضية الأديفة مصبوغة بالدم؟ لا تظنوا أنني موافق على توسّل والدي وعمي إلى القيصرة إيكاترين أن تساعدهم، وهذا السيف الفضّي جزء من تلك المرحلة. ما العمل إن فوتّ رأس الحصان ولحقت بذيله؟ هل يجوز أيها الأمراء والنبلاء والمتنفذون أن تجلسوا مكتوفي الأيدي، لا تُدّلون برأي كآن في أفواهكم ماء؟ لا أريد العودة إلى معارضتكم نوايا والدنا، فهو أمر قد مضى. ولكن ما رأيكم في نوايا سلطان

¹ شخصيات أسطورية معروفة من ملاحم النار.

خانجيري؟ أفهم سبب عدم موافقتكم إياه أيضاً. نسبي من ليس من قريتنا بالغريب. هذه طبيعة أديغية. لا تصبح أديغياً لأنك تلبس قبعة أديغية فحسب، إن لم يكن في صدرك قلب أديغي فلن تستطيع حماية الأديغة. وما رأيكم بزانه سفرني؟ أليس أديغياً؟ أليس في صدره قلب أديغي؟ يسافر حيناً إلى الأبراخ، ويتوسل إلى البجدوغ حيناً، ويخالط الجمكوي والبسلني، لا يهمل أحداً. يعدونه ثم يخذلونه. لا يقولون في غيابه ما قالوه في حضرته. لم يترك مكاناً مهماً لم يزره باستثناء بطرسبورغ، من أنابه إلى تفليس، إلى إيكاترينودار، إلى شنته قاله. وقد وقع في الخطأ الذي وقع فيه والدنا إذ استعمل أسلوب الرجاء: توسل إليهم، وبالغ في الاستعجال متأملاً أن يفهموا أنه يضمّر الخير لهم فستب ابنه إلى الجيش الروسي، وها هو الآن يحارب بالسلاح أبناء قومه!.. ماذا يمكن أن يحدث للإنسان مأساة آلم من هذه؟! أفهم أنه عند الضرورة، متى رضخ للحكم الروسي الذي يحملونه إلينا، سيصبح ابنه سنداً له، ولكن الدم الأديغي؟ أين تذهب بالدم الأديغي الذي سفكه؟..

حين تذكر أسلانج أن القوزاق المقيمين في منعة شَبَج أحرقوا عدداً من قرى الشابسغ، وأن كثيرين من الأديغة قضوا بين النار والرصاص عبث بنار الموقد الملتهبة والتي لا ذنب لها. واقترب من زجاج النافذة المتجمد. لم يستطع النظر من خلاله، دقاً بأنفاسه الزجاج فحفر حفرةً نظر من خلالها ريثما عاد الجليد. لم ير شيئاً إلا الثلج العاصف وأغصان الأشجار التي تعبت بها ريحٌ لثيمة. ابتعد عن النافذة إلى الرف الذي عليه المصاحف. تناول أحدها وتفحصه. صدر صوت أقدام بشرية من جهة الباب ففرح إذ سيستأنس بأحدهم، ثم عاد متمهلاً على عادة والده فجلس على كرسي الإمارة.

دخلت المرأة الغرفة.

- أراك يا أسلانج لم تمد يدك إلى الطعام؟ - نظرت "سارث" في وجه زوجها قلقة عليه، لا تعرف سبب إضرابه عن الطعام.

- هذه أنت يا سارث! ابتسم في وجهها.

- أكون تتألم من مكان ما من جسمك؟

- لا شيء من هذا بفضل الله.

- ألا يعجبك الطعام؟ - ستجبرني الخادمة يوماً ما على أن أؤبّخها. الله أعلم إن كانت ملأته بالفلفل؟ - ذاقَت سارت خجلة شاي القالمق¹.
- لا يا سارت، لا علاقة للفلفل بالأمر... هاجمتني الأفكار فعجزت عن تناول الطعام. ثم إن من الصعب أن تأكل وحيداً. ألا نأكل معاً يا سارت!
- عيبٌ إن رأنا أحد أجلس معك إلى المائدة. لا أستطيع أن أفعل هذا. والطعام برّد، وموعد الغداء اقترب. لا تنتظرُ أحدًا، البرد يكاد يخرب العالم. لن يأتيك أحدٌ تأكل معه. يطبخون لنا غداءً جيداً: الباستا والدجاج المقلّى مع الديك الرومي المسلوق، واللبن الخفيف الحموضة. سأرسل لك منه، وتغدى معاً!

- هذا أمرٌ آخرٌ يا سارت؛ طعام شهوي على ما تقول!
- أليست أعيش عبثاً إن لم أكن قادرة على هذا يا أسلانج؟!
- لو كنا نعيش من أجل الطعام وحده، - قال أسلانج لم يعجبه ما سمع ولكنه لا يريد إحراج المرأة، - كانت حياتنا عبثاً حقيقياً. أغفر لك كل ما تقولين لأن غايتك بريئة، تودين أن تُطعميني. ابعتي لي مائدة لا يمكن لمن يراها أن يقاومها.

- ساحني يا أسلانج؟ لم أقصد ما فهمت... - خجلت سارت.
- أفهم أن ليس في قلبك مثلُ هذا يا سارت، - ابتسم أسلانج لها ثانية بنظرة اللطف. ثم أضاف: - الأديغة كلُّنا وقَعْنَا في ضيق شديد لا يدع شيئاً إلا يشكّك فيه، أو يثير الوسواس في نفسك...

لم يستطع أسلانج حين بقي في الغرفة ينتظر الغداء أن يتجاوز بنظراته السيف الفضي المعلق بالجدار وإن لم يكن يودّه في أعماقه. أنهضته عزيمة مفاجئة ودفعته إلى البساط. ورغم احتجاب أشعة الشمس عن الغرفة الشتائية فالسيف المعلق يعكس اللهب الخفيف المنبعث من نار الموقد. ولا يضيع بحجمه وزينته بين الأسلحة الكثيرة المعلقة بالجدار. قرأ أسلانج ما كتبه كاترين لوالده ألقس

¹ شاي يُتخذ من نبات الحميض اليابس مع الحليب والفلفل الحار، يبعث النشاط والدفع في الجسم.

بأحرف روسية. ورفّ جفناه كأن الفضة تلمع أمام عينيه. وأبعد رأسه عنه كأنه يُجرّقه.

يتذكر أسلانبيج، كأنه جرى اليوم، أن القوزاقي غولوفات ذا الشاربين الضخمين أرسل إلى والده السيف الفضي من إيكاترينودار مع أحد الضباط. ورغم أنهم كانوا في جِداد على عمّه بات جري لم يجرموا الضيوف من الطعام. ولا يزال أمام عيني أسلانبيج أن القوزاقي مسح بيده الضخمة على رأسه بعدما سكر قليلاً من الخمر الممزوجة بماء العسل، والتي لم يذق منها والده ألقس. وما لا ينساه البتة هو أنهم لم يرفعوا السيف من مكانه طوال سنة الجِداد إلى الجدار. ثم تذكروا السيف حين بدأ القوزاق بعد قرابة سنتين يعبرون نهر بشزه ويحلّون ضيوفاً عليهم، فأخرجوه من تحت الصندوق وعلقوه. وما أكثر ما نزعوا السيف في السنوات التالية من الجدار، وما أكثر ما أعادوه إليه.

قال أسلانبيج: لماذا كان والدنا يجافي هذا السيف؟ يلمع في عيون كل من يرتاد المضافة، ويثير أسئلة وأفكاراً لا ضرورة لها، وكأن من منحونا إياه يحبونا نحن - آل حجمقوه - أكثر من غيرنا... مضت على علاقاتنا بضع سنين ولكن قلبي لا يودّهم. كانوا يروننا حين يقفون على ضفة نهر بشزه، وها هم الآن اقتحموا أرضنا. إن كان في إقليم الأديغة شخص واحد لا يريد هم فهو والدنا. حُيِّل لأسلانبيج أن أحداً يسلبه السيف فأسرع وانتزعه من الجدار، ووضعه أسفل البساط كما كان والده يفعل، ثم دفعه بطرف حذائه وأبعده.

ارتاحت مفاصل أسلانبيج كمن وضع حملاً عن ظهره. ونظر إلى موروثات آل حجمقوه من السلاح بمزيد من الرضا. وتظاهر بلمس الخناجر والمسدسات والأقواس، وأصلح أوضاع ما يراه منها مائلاً. والآن سيأكل إن أتوه بمائدة، ليس وحده فحسب بل بحضور مئة شخص. وما إن شكا من تأخر الغداء حتى حُيِّل إليه أنه يسمع حديث أشخاص ينفضون أحذيتهم من وراء الباب. دلف إلى الغرفة ثلاثة أشخاص تفوح منهم رائحة البرد، عرف اثنين منهم، ولم يعرف الثالث.

- يا عجبي، أنت سفري! شهدت على صحة قولهم: من تأت على ذكره تجده على الباب. - استقبل أسلانبيج الضيوف. - قبل لحظات خطرت لي فجأة.

تفضلوا، ادخلوا!.. - وحين وصل بالمصافحة إلى حاغور نور مُجَّد ناداه بنسبه لا باسمه: تفضل حاغور! - واستقبل الثالث بطلاقة وجه ظاهرة: - تفضل يا أخي الصغير، تفضل. لا أعرف اسم هذا الشاب يا سفري، من أي أسرة هو؟ - هذا يا أمير، - قال سفري مُبرِزاً للأمر احترامه الخاص للرجل - هذا فلاح من قُمار، ذكرته لك مرة، هو الفلاح ترام.

- هذا هو إذن الفلاح ترام!.. - تفحص أسلانج الفلاح وقال له: - سلام عليكم يا ترام الفلاح!

- وعليكم سلام يا أمير، - كان جواب ترام الفلاح مختصراً.
- والآخر يا أسلانج تعرفه ولو لم أذكر اسمه. واحد من عامة الشابسغ الشجعان الخيّرين.

- أعرفه... - ثم أضاف راغباً في التمويه على عدم ارتياحه لما سمع: - من هُنا لا يعرف آل حاغور؟.. - بدا على أسلانج انفعاله من أن حاغور موسى والد نور مُجَّد هو من قتل عمه بات جري، وإن لم يُعرب عن استيائه.

- ولكن يا أمير، - أسرع سفري بالقول، - ما أريد أن أعلق به على هذا الموضوع باختصار هو أننا لم نأت إلى هنا لمصالحتك بحاغور. لا مجال يا أسلانج وأنت يا حاغور أن نتحدث في مصالحه أُسرتين في هذا الوقت العصيب على الأديغة. انسيا، كلا الطرفين، الموضوع. إقليم الأديغة يحترق اليوم. دُعونا مرة، أمراء ونبلاء وفلاحين، نعيد التفكير في أمرنا. لنفكر بعقولنا قبل أن نرحل عن الدنيا.

في الأشهر القليلة الماضية يركب ترام والأمير معاً من أجل قضية الأديغة، ولم يسمعه يتكلم متألماً من أعماقه كما هذه المرة. كان يود أن ينصح الأمير بكلمة ولكنه لم ير من اللائق أن يفعل هذا، من موقعه كفلاح من العامة، أمام الأمير الذي يجلس في مضافته. ثم إن الأمير، لا يعرفه هذا اليوم فحسب، لم يعد في وضع يتقبل فيه أي نصيحة.

وكان في نفس حاغور نور مُجَّد الرأي نفسه تجاه سفري. ونبتت في رأسه فكرة أنه هاجم المضيف قبل أن يستقر في مجلسه. ومن جهته هو - لا يعير أهمية البتة إذ لم يأت إلى آل حجمعوه وهو لا يعرف الناس الذين سيتخطى عتبتهم.

زانه سفري، حيّاه الله، يضع قضية الأديغة فوق كل شيء. وما جعل والدنا يُشهر سيفه هو موضوع قومي لا شخصي. ولا أدين بات جري الذي سقط في مرعى نَجْدُ كآلاف الناس الذين سقطوا معه، كان كلُّ حراً برأيه وبروحه.

- الكلمات التي قتلها أيها الأمير سفري الذي أُكِّت له الاحترام والتقدير - استعجل أسلانبيج نادماً على ما قال بشأن الفلاح، - ليس بينها ما لا أوافقك عليها. ولم أتكلّم بهذه النية، ساجني. قضية الأديغة فوق الجميع، ولن نستطيع مساواتها بمسائلنا الشخصية. وأماننا وقتٌ هذا المساء نتكلّم خلاله على هذه المسألة. اقتربوا من نار الوجاق، وانسوا البرد الذي عبرتموه.

- حياك الله ورضي عنك يا أسلانبيج! - سرّ سفري بما سمع، - فهمتني. ولم أتوقع منك جواباً غيره. إن كنت تقول هذا فلسْتُ أنا من فهمته بل الأديغة الذين على مفرق الطرق السبعة. ولكن نريد أن نقول لك دون استرسال في الكلام إننا لم نأت للسهرة عندك.

- يا رجل هذا غير ممكن يا أمير. أتركبون ولما تجلسوا.

- نحن على طريق يا أسلانبيج، على طريق. - كرر سفري، - ساجننا على أننا أزعجناك إذ خضنا هذا البرد العنيف الذي يقال فيه إن من لم يُطرَد من البيت لا يخرج منه، وجئنا إليك.

- إن كان هذا رأيك يا سفري، - صفت عينا أسلانبيج الزرقاوان على نحو ملحوظ، وأشعنا بمزاح مُراءٍ، - لا ذنب لي، وسأُنقض عادة عدم سؤال المضيف ضيفه قبل ثلاثة أيام، وأسألك: هل أنتم مسافرون إلى مكان معين أم عائدون منه؟ ما الذي حدث معكم، وما الذي لم يحدث؟

- نحن راجعون، كنا في الأبراز العليا، نواحي ميّقواب. هذا المساء لا بد أن نعود إلى الشابسغ ولو تأخرنا قليلاً. ننتظر أن تستريح الأحصنة وتأكل قليلاً. وسنجيبك على سؤالك الآخر، لن نخفي عنك: لم يُجِبنّا الأبراز العليا بما لم نتوقع كالعادة. - بدأ إدخال الطعام إلى المضافة، فقطع سفري كلامه، وحشا الغليون تبغاً، وأشعل التبغ بجمرة. ثم أكمل: - لا أعرف كيف أقول يا أمير... لا يقبلون بلا شك غزو الروس لأرضنا. ولكنهم طلبوا منا ألا نسمح لهم باقتحام الأرض من جهتنا، وتعهّدوا بمثله من جهتهم. وحين نقول: لم نأت لهذا

الغرض بل لتتوحد كلنا في إقليم الأديغة ونجاههم، يصمّون آذانهم، ولا يغيّرون موقفهم؛ ألا تعرف كيف هم الأبراخ العنيدون؟! لم نستطع التفاهم معهم. ومن لم يتفهّمنا البتة هو تسي حاترباي أحد رجالنا. وحين تأكدوا أننا لن نتركهم خجلوا منا وبدؤوا يبحثون عن ذريعة فحملناهم على أن يجيبونا: لا نستطيع أن نقرر شيئاً دون استشارة الأبراخ الدنيا.

- ولكن مهما قالوا يا أمير، - قال حاغور بحرص شديد حين انقطع كلام سفري، - قبل موفدو الأبراخ العليا أن يساهموا في مؤتمرنا. - هكذا؟ - سأل المضيف حاغور بوجه طلق خلافاً لما استقبله به: - حسن أن تحلّى الأبراخ بشيء من الإنسانية من هذا القبيل.

- لماذا لا اتهمهم بما ليس ذنبهم؟ - ساهم في الحديث الفلاح ترام - وعدونا. - من أجل أن تُخبرك بهذا يا أسلانج، - لم يماطل سفري، - ومن أجل أن ندعوك إلى مؤتمر الشابسغ عرّجنا عليك. المؤتمر سيعقد في الخامس عشر من هذا الشهر في مضيق أدوغ. لا يزال أماننا أسبوع كامل. إن وافقت على المساهمة فيه فاصحب معك من تريد. تعرف موضوع المؤتمر: القضية الأديغية - الروسية. سنتباحث، وستتبادل الأفكار. وإلى وقتها ألن ينتهي هذا البرد؟ - قال سفري كمن يحدث نفسه، وأسمع الحاضرين. - ليس البرد أصعب من مأساة الأديغة. هذا سينتهي يوماً ولكن لا أعرف متى ستنتهي مسألة الأديغة. نعم يا أمير، ما رأيك أنت؟

- رأيك رأيي يا سفري. ما حمّلنا الله حملنا. سأصل في اليوم المحدد إلى مكان المؤتمر. وسأصطحب عدداً من الفرسان يمكن أن يساهموا بأفكارهم. حيّاكم الله على ثقّتك بي، وعدم تجاوزكم باب دارنا.

...

بدأ الأمراء والنبلاء والمتنفذون والعامّة يفدون إلى قُماتر مكان المؤتمر رغم أن يومين يفصلهم عن تاريخه. وكان المكلفون باستقبال الضيوف جاهزين، وكذلك أمكنة استقبالهم. ووُزّع الفرسان المسلحون المكلفون بحماية المؤتمر في اثناء انعقاده مقابل منعة شَبَج والتلال المحيطة بالمكان. وبالإضافة إلى هؤلاء

مجموعات من الفرسان المستطلعين، كل مجموعة من عشرة، على القرى الواقعة على التباب يتفقدون الجوار، وفي أجمات الغابات. وكلما وصلت مجموعة من الموفدين أعلموا سفري بعددهم والجهة التي أتوا منها. وتعرف من جلسة سفري اليوم أنه مرتاح رغم أنه كان قلقاً في اليومين المتبقين على المؤتمر لا يعرف ماذا يمكن أن يحدث. لم يكن مهموماً بشأن رجال ضابطة الشابسغ والناخواي؛ هؤلاء حاضرون، سيأتون. وهم الذين اقترحوا المؤتمر، واعتماد سفري بعد الله على عامة الفلاحين. وسيتصرف وفق تعليمات هؤلاء. ومهما أصدر المؤتمر من قرارات أعجبته أم لم تعجبه فلن يحيد عنها فتراً واحداً، سينفذها.

هذا ما أقسم عليه سفري حين وقف في حضرة الله وصلى الظهر. والآن ليس هو المسؤول عن الموضوع على ما يبدو. — بل شرف الأديعة، وطبيعة علاقتهما، وحالهما في العالم، وباختصار: بلاد الأديعة كلها.

جفل سفري من الكلمات الأخيرة. ونظر بطرف عينه إلى بضعة الرجال المجتمعين في المضافة متوهماً أنهم لاحظوه. وحشا الغليون تبغاً راغباً في كتم شعوره. حاول أن يقول شيئاً من أول ما يتبادر إلى ذهنه لإخفاء وجومه ولكن رجلاً مكتنزاً يجلس قرب الموقد قال:

— كفى يا ابن زانه! لا تهتم إلى هذا الحد. بفضل الله شتاؤكم القارس ينتهي. والضيوف يتوافدون. والفلاحون يرصدون من مرتفع شَبَج. سينجح مؤتمر الشابسغ بفضل الله، ما رأيك أنت يا أسلانج؟

— أقول: آمين! آمين يا جراندوقوه، — ردد الجالسون آمين في صوت غير متآلف. — وسأل أسلانج جراندوقوه تنمة لكلامه: — وأنتم يا برزج ما الأخبار في نواحيكم؟

— عندنا يا أسلانج صيف. الغبار يثور، والموجيك الذين لا نسمح لهم بالاقتراب من البحر يستحمون. وأنتم ماذا يحدث عندكم في أنحاء البجدوخ؟

— الشتاء عندنا بالقياس إلى الشابسغ عنيف جداً يا جراندوقوه. الجمكوي سكان السهول ليسوا كالأبزاخ سكان الجبال. أظنهم تضرروا كثيراً من العواصف الثلجية.

- يا ربي، وما أحوال البسلي والقبرتاي يا تُرى؟ - سأل جراندوقوه، ولمعت عيناه السوداوان كجمرتين في الظلام من خلال الرماد. وصرخ من أعماق قلبه: - ما شاء الله! ما أوسع أرض الأديغة! حين تنطق اسم حدود بلاد الأديغة يمتلئ الفم. ما أجمل هذه الأرض بين أراضى الله! تمتد من ساحل البحر الأسود، من بوابة الأبجاز، إلى بلاد القبرتاي في الجنوب الشرقي. ما شاء الله، ما شاء الله! - يهزّ برزج رأسه من جديد. وتلمع عيناه لا يتسع الفم للاسم، ولا تحيط العين بها يا إلهي!..

- مصيبةٌ يا جراندوقوه أن نكون أديغة من أعراق متعددة، - قال سفرى، وتنهّد علانيةً.

- نعم يا سفرى، ماذا تقول؟! - غضب برزج في البداية دون أن يفهم أصل الكلام، ثم صحا وعدّل موقفه: - والله كلامك صحيح يا سفرى... الطائر ذو الأجنحة الكثيرة يتعثّر بأجنحته فلا يستطيع الطيران.

- ومثل هذا الطائر، - ساهم أسلانج متفهماً حقيقة الموضوع، - لن يسمحوا له أن يبقى في عشه في مثل أرضنا الجميلة.

- لا تأس يا أسلانج، - لا يتراجع برزج إلى الآن، - لا يأس بإذن الله إن لم يفرقوا بيننا وبين الفلاحين فسنقف في وجه أيّ كان!.. لا تتراجع يا ابن زانه! سادعكم من يسارك وإن لم يبق غيري. ألا يمكنك حماية جانب البجدوغ؟ أليس الفلاحون الذين سيقودهم أسلانج رجالاً؟ نعم يا أسلانج، قلت لكم: اطمئنوا من جهة الويخ! لن نسمح لمن يعادينا أن يطأ الساحل من جانبنا. ولا تهتم بالأبزاخ يا أسلانج، أنا كفيل بمؤلاء الأجلاف!.. هل أنا صهرهم عبثاً فلا يسمعو كلامي؟! والله يا سفرى بابور ابنه آل طارق ماهرة في إعداد الشراب. صبّوا لي أيضاً! يُدير الرأس ويرقق القلب.

ابتسم سفرى. وقال في نفسه وإن لم يذق قطرة من الشراب: أليس حسناً أن يسمح لك بالاستمتاع بالسهرة في حالة من النشوة؟ ولكن إن فكرت في الأمر من زاوية الموضوع الذي اجتمعوا لأجله فربما لم يكن لائقاً. الشراب يسمح لك بفكّ عقدة اللسان والصراحة في الكلام، ولكن إن سمع الفلاحون فسيهينونا قائلين: شرب الأمراء حتى احمرت خدودهم غير عابئين بموضوع الاجتماع! ولن

يثقوا بما سنقول في المؤتمر. وتذكر أنه شرب مرة حتى لم تعد رجلاه تحملانه، ودخل في مباراة في النطق مع الفلاح حباط، وأن صحته تأثرت في اليوم التالي. ولام نفسه على أنه طلب تقديم الشراب على المائدة. أقول هذا ولكن من قرر ألا يشرب لن يشرب. ها هو حجمقه جالس في عز لياقته. أيمن أن يحدث لبرج ما حدث لي حين أفرطت في الشراب؟ لم أوافق ابنة آل طارق حينها ولكن لا شيء يردعك عن أن تقول وتفعل ما يخطر لك بعد الشراب. لا فائدة من أن تقول إن أسماء أعراق الأديغة تملأ الفم، وإن موقع بلادهم جميل. هذه كلمات جوفاء. ما نحتاج إليه اللحظة هو الوحدة، والتفاهم، وعلم واحد، وعقل واحد تجتمع عنده العقول الكثيرة. وليس اليوم الذي ستظهر فيه النتائج بعيداً. يا ربي اجعل هذا اليوم يوم سعدٍ عند الأديغة، واجعلهم يتقبلونه. أي قرارٍ سيُتخذ في المؤتمر يا ترى؟ إلى أي الجانبين سنتوجه؟ وهؤلاء؟.. هؤلاء أسود على المائدة ولكن أي اتجاه سيتبنون بعد غد؟ من من هؤلاء يستحق الثقة؟..

- يكفي يا جراندوقوه ما شربنا الليلة... - قال أسلانج حذراً لجراندوقوه الذي توسل الشراب، - أظنه سيتسبب لنا في مريحٍ وهرج زائدين.

- ماذا يا حجمقه؟ - لم يقبل برج، رماه بنظرة حارقة من عينين متوهجتين. - هل جئنا إلى مأتم فلا نمرح؟ حين أقول: صُبّوا فهذا يعني: صُبّوا!

- صُبّوا لجراندوقوه إن كان يحب الشراب، - قال سفري كأنه لم يساهم إلى الآن في الحديث. وأضاف بسرعة إذ يعرف نزع أمير الويخ: - لم يقصد الأمير أسلانج سوءاً بكلامه يا جراندوقوه. ربما كان يقصد اجتماعنا غداً بالضابطة المخصصين للمؤتمر... أليس حسناً أن تُضيف كأساً أخرى إن كان يواقي صحتك.

- هكذا؟.. - سأل جراندوقوه الذي غضب قبل لحظات بلطف وكأنه جراندوق¹ آخر، واختتم بكلام ألطف: - قولوا هكذا إذن! معك حق يا أسلانج، فكرت على نحو صحيح يا أمير، كل ما زاد عن الحد خطأ دائماً. - رجع جراندوقوه إلى وعيه كأنه لم يذق قطرة، وأفرغ الكأس كمن يقول للجالسين: انظروا ما أستطيع أن أفعل به! ووافق الجالسين على أي كلام قالوه

¹ التنوين للاسم الممنوع من الصرف على مبدأ: مررث بـسيوييه وسيوييه آخر في العربية.

في السهرة، والجالسون يُعزّونه في قلوبهم. لم يتأثر حين نهض بجرة الشراب التي تناولها وإن كانت أوهنت رجله.

كان سلوك جراندوقوه ووضعهُ اليوم مختلفين جداً عنهما البارحة. يرافق الأمراء دون أن يقول الكثير، بل كأنه لم يتفوه البارحة بكلمة، يغلبه التفكير، لا تملك إلا أن تتعجب من عبوسه. ولما لاحظ سفرني حاله بدأ يقلق لأجله، حريصاً عليه. ولم يرفع الرقابة عنه أينما توجهوا وخاطبوا بعض الناس بالإضافة إلى القليل من الضابطة. ولما بقيا وحدهما سأل سفرني الضيف حذراً:

- أنكون قد أسأنا إليك ليلة البارحة يا جراندوقوه؟

- لا يا سفرني، أبعد هذه الفكرة عن رأسك. البارحة اشتهيت الشراب إذ كنت في ضيق. لا أكتمك أن ما سيقره المؤتمر غداً يشغل بالي. لا يمكن لنتائج ما سيقرّ هنا إلا أن يتسرب إلى أماكن أخرى. ألا ترى موفدي الأبرار والجمكوي القادمين من بعيد لم يصلوا وقد قارب النهار على المضيّ فكيف بمندوبي القبرتاي والبسلني؟! ألا تعرف طبيعة الأديغي؛ لا يمكن أن تحرّكه إلا أن تحته شخصياً كمن يقول: لا تضرب رأسي إن كنت رجلاً. أفهم ما يعمل في قلبك يا سفرني. ليس ما تكفّلت به، زيادة عن الأمراء الآخرين، قليلاً. وفّقك الله! هذه ليست قضيتك وحدك بل قضيتنا جميعاً. ونحن سنساندك بقدر طاقتنا.

- حياك الله يا جراندوقوه، أملي فيك.

بدأ الجو يتعكر هذا الصباح كما لم يكن البارحة. توقفت الرياح ولكن الشمس تظهر بصعوبة من بين الغيوم. الجو ليس بارداً جداً غير أن الفرسان المتجمعين في مضيق أدوغمه يُحسّون به. واحتشد عدد كبير من الموفدين خلافاً لما توقع سفرني. ومن حضر دون دعوة أكثر من المدعويين، وضاق المكان بهم، فوقفوا على التباب، وعلى الضفة الأخرى للنهر. والطرق البادية للعين تأتي بفرسان ورجالة آخرين.

- جاء كثيرون إلى المؤتمر يا سفرني،- كان حجمقوه أسلانج مرتاحاً لما يرى، ثم اختتم بكلمات قلقة: - لا أعرف كيف ستقود كل هؤلاء!

- ستصرف معهم بطريقةٍ ما يا أسلانج، - نظر سفري نحو غابات الأبراخ الجبلية المتصلة. - لا أعرف تفسيراً لعدم قدوم أحدٍ من جيرانا.

- نيكراس تيم جاء من دخاباه يا أمير، - قال ترام الواقف وراء الأمير، ولكن كلمات ترام ضاعت في زحمة الناس ونخير الأحصنة.

- ستصعب قيادة كل هؤلاء يا سفري، ولذلك، - قال جراندوقوه كأن الحشد الذي يتشع بالسواد أفزعته، - افعل بهم التالي: ليبقَ الضيوف والضابطة وموفدو العامة البالغ عددهم جميعاً مئتين أو ثلاثاً في الساحة، وليقف الآخرون وراءهم. وليقف المنادون في نسق ليلبغوا الكلام إلى الحضور. كل إجراء يجب أن يتصف بالنظام.

فارق حاغور نور مُجد وترام الأمراء ونفذوا أمر سفري. وهذا كل من جاء إلى المكان، ولم يعد يُسمع إلا عطاس بعضهم ونخير الخيل.

- افتتح أيها الأمير! لينطق فمك بالخير دائماً يا سفري. - قال برزج، وقدّم صديقه بعين راضية بضع خطوات إلى الأمام.

- أيتها الجماعة، ضيوف المؤتمر المدعوين، وموفدي ضابطة الشابسغ، ومندوبي العامة من الفلاحين، - قال زانه سفري بصوت عالٍ واثق، - الله حامينا. أفتتح إذ سمحتم لي مؤتمر الشابسغ - الناتخواي والله في قلوبنا. ارفعوا العلم كي يراه الحاضرون. تقدّم فلاحان ونصبا علم الشابسغ أمام الأمير. ثم قفزا من ظهري الحصانين وأمسكا بعنانيهما. وبعدما انتهيا حيا سفري العلم بإيماءة، وأكمل خطابه: - لن أطيل الكلام على الخديعة التي مارستها روسيا وتركينا بحق الأديفة في العام الماضي، وأنتم تعرفونها. وروسيا تنشئ قلاعاً وتستوطن في إقليم الأديفة بحجة أن تركيا أعطتنا إياكم. وحين نقول لهم لسنا ممالك للأترك يعرضون علينا اتفاقية السلام المعقودة في المدينة التركية أدرنه. نقول لهم: نحن لسنا ملكاً لأحد، ولا نريد أن نكون. نحن بشرٌ مثلكم، سنكون جيراناً وأصدقاء فيصمتون آذانهم، ولا يردّون علينا، فتفعل روسيا ما تريد في أرض الأديفة على مبدأ: الأصم يقول ويفعل ما يريد. وحين قلنا لهم: ما تفعلونه غير صحيح أحرق القوزاق المقيمون في قلعة شَبَج ثلاث قرى من الشابسغ، فتوجّب علينا مقابلتهم بالسلاح. وليس الشابسغ وحدهم من تعرّض لمثل هذا الاعتداء

فقد أغاروا على الأبراخ نواحي ميقواب. وسُفُّنهم ترسو على ساحل الوبيخ وسواحلتنا نحن الناختوي والشابسغ. اجتمعنا هذا اليوم لنفكر في ما علينا أن نفعل. ولكن أضع أمامكم سؤالاً واحداً قبل أن نتشارك في الحديث، ولا يحتاج إلى جواب طويل: من نحن؟ أسألكم: هل نحن أتراك؟

- لا، لسنا أتراكاً. ضجَّ الوادي بأصوات الأديغة.

- إذن سأسألكم أيضاً: من نحن؟ ناخوي أم شابسغ أم أبراخ أم وبيخ أم مجدوغ أم جمكوي أم مخوش أم بسلي أم قبرتاي؟

- نحن أديغة! - مرة أخرى ارتفع الصوت الأديغي أعلى من سابقه. وردد الجبل والغابة والتلال الصدى.

- إن كان هذا رأيكم أيها المؤتمرون فلنفكر في ما علينا فعله. وأدلوأ بآرائكم! وما نتفق عليه سنتصرف بموجبه. وأعاهدكم باسمي كأمر ألا نخيد عنه شبراً واحداً.

لم يدع الحضور سفري ينتظرهم طويلاً. ولم يكن المتكلمون يُطيلون خطابهم، ربما بسبب البرد القارس أو ما في قلوبهم. وتبعاً للمتكلمين التسعة كان من الصعب تحديد ما سيُتجه إليه المؤتمر: خمسة تعهدوا بحماية أرض الأديغة، وواحد من الأربعة الآخرين طالب بالاتفاق مع روسيا، والثلاثة الباقون تكلموا على مأساة الأديغة ولم يقترحوا خطوات عملية لمجابهة الواقع، ولم يحددوا موقفاً. وصاح من بين الحشد من لا يتقبل الكلمات الأخيرة. ولكن سفري هدأهم بحجة أن كل إنسان يتصرف وفق رأيه وفهمه، ورجاهم أن يتحلَّوا بالصبر.

وكل من يتكلم يدعوك إلى التفكير في أمر ما، وإن لم يكن في حديثه ما يُفيد، ولا تُوافق عليه. وقد انتبه إلى هذا حجمقوه أسلانج وجراندوقوه برزج. وخلافاً للمتكلمين التسعة الأوائل فالسبعة التالون اتفقوا، وعبروا عن آراء الخمسة الأوائل. ولم يصدِّق أحد منهم طريقة "إعطاء" الترك. ولا رأوه لائقاً، بل يروونه مدعاة للضحك. ويقترحون إرسال موفد إلى إستانبول للتأكد من صحة الورقة التي يعرضها الروس. وأنهى حاغور مُجد كلامه كما يلي:

- ومن أعرف أنه جدير بهذه المهمة هو الأمير زانه سفري. فأقترح اسمه على المندوبين. ونوافق على الرفيقين اللذين يختارهما.

فهم سفري من اتفاق المؤتمر أنه لا فائدة من التعليق على كلمات المؤتمرين. نحن أصحاب المبادرة فما العمل، وما الذي نحن أحرار فيه؟ ما حملنا الله حملنا. والتفت إلى حجمقوه وإلى برزج، وقرأ في عينيهما الرأي نفسه.

- إن كان هذا رأيكم أيها المؤتمرين. - ما إن نطق سفري هذه الكلمات حتى صاح أحد الفلاحين الذين أبعدوا عن الساحة:

- أيها الأمير، - قال باتر الفلاح من قرية براوت - لا تؤاخذني، عندي لك سؤال. ولك أيضاً يا نيكراس تيم، أنت واحد ممن تكلموا بحمية في المؤتمر مساندين قضية الأديغة، - مُشعراً السامعين بهذا الموقف أنه من أصل روسي، - كلاكما ابنه في الجيش الروسي. فإن التقيتم في الجهاد فكيف سيشهر أحدكما سيفه على ابنه؟ - تراجع الفلاح بهدوء، وانضم إلى من خرج من بينهم.

هاج المؤتمرين. وبينهم من حزن للموقف، ومن فرح، ومن ابتسم، ومن صمت. قفز نيكراس تيم إلى سرج حصانه شاعراً بالإهانة مما وُجّه إليه، وخرج من بين صحبه:

- لماذا تُهينني يا باتر الفلاح؟! أتألم لأجل ابني أكثر مما أتألم؟ تعال إلى الساحة إن كنت رجلاً!

اكتفى يوسف أفندي بالابتسام، ولم يقلق للسؤال الموجه إلى نيكراس تيم وزانه سفري، أليس من قرية دخاباه التي جاء منها مع نيكراس تيم.

- يا تيم، لا تستعجل! - خرج سفري من بين صحبه رافعاً يده. - ما قيل لنا نستحقه، لا يمكن أن تعضّ مرفقك لأنك لن تصل إليه!.. أظن الفلاح باتر تعجّل أكثر مما ينبغي. ولكن هذا أمر آخر. ارفعوا أيديكم الآن إن كنتم موافقين على إرسال زانه سفري بن محمدي برفقة حاغور نور مُجّد وترام الفلاح إلى إستانبول للتحقق من صحة وثيقة معاهدة أدرنه.

رفع الجميع دون استثناء أيديهم بالموافقة.

وتبيّن أن الأمر ليس كما توقعه زانه سفري.

لو فكّر سفري طوال النهار في المهمة التي أوكلها إليه مؤتمر الشابسغ، وأضاف إليه الليل، لما وصل تفكيره إلى ما حدث. تجري أمور كثيرة في العالم لا يتوقعها المرء. ولكنه لم يتوقع أن تنقلب الأمور بهذه الحدة كما حدث فتصيبه.

قال سفرني يوم سفره: علاقات الأديغة مرغبة بطريقة عجيبة. ويحدث أحياناً أن تنقلب دون أن تعرف كيف. يتجابهون ويتعاركون حتى يصلوا إلى الحافة فيتوقفون. حين تتوافق الأكثرية لا يقبلون التراجع ولو كانوا سيغامرون بحياتهم. وحدث لنا الأمر نفسه في المؤتمر قبل أيام. إن كان هذا رأيكم فأنا أعاهدكم. سأسافر إلى تركيا وأتحقق من صحة الوثيقة، وأنسخ منها نسخة وآتيكم بها بيدي، ولكنها لن تفيدكم. ها هي الوثيقة نفسها بالروسية في بيتي. عرضتها على الأمراء والضابطة والفلاحين. وقلبوها بأيديهم. وقرأتها لهم في المؤتمر، ولم يُصدّقوا. ولكن ما العمل يجلب لنا جهلنا كثيراً من المتاعب. ليس في الأمر مشكلة لي. سأزور تركيا مرة أخرى بهذه الحجة. ولكن الوقت يفوتنا ونحن نتعلق بهذه الأمور الثانوية، ولن نلحق به.

تنهّد سفرني حين نظر إلى الصندوق الذي حضّرتَه منذ البارحة زوجته بابور. عصر الألم قلبه إذ يترك القضية في ذروة غليانها في أرضها ويسافر بلا فائدة إلى تركيا البعيدة الغريبة. وفيما يتساءل عن سبب إطلال المرأة عليه ويفتح ساعته الفضية دخلت بابور في كامل أناقتها:

- ما الأمر يا ابنة آل طارق؟ ما أشد أناقتك! - مزح سفرني مع المرأة متعجباً من هيئتها، وبشّ لها.

- يقولون إن الرجل المسافر يحتفظ بآخر صورة للمرأة. - ردّت عليه بمزحة، - ماذا! ألا يجوز أن أتألق؟

- ولماذا لا يجوز؟ أكيد ممكن، وأنت جميلة جداً. والثوب المطرز بخيوط الذهب والفضة يليق بك جداً. ولكني سأصارك بالأمر الوحيد الذي لا يعجبني.

- ماذا يا سفرني؟ - ارتبعت بابور، وتفحّصت قوامها، - سامحني إن رأيت فيّ ما لا يُعجبك - تُرفقيني بهذين الصندوقين الكبيرين كأني سأبقى في تركيا إلى الأبد... - نهض سفرني ليركب الطريق إلى تركيا وهو يمزح معها وينظر بعين الرضا.

II

ليس يوسف أفندي متقدماً في السن، ولا شاباً. قضى معظم سنواته الخمسين في الغربة. سافر من الأبراخ في سن الثانية عشرة فدرس في مدرسة القرم. وكان

بعدها في تركيا. وحين أنهى المرحلة العليا من دراسته في الأزهر بالقاهرة توجه إلى سورية، وعاش في دمشق بضع سنوات يقرأ القرآن في المآثم. ولم يتزوج، ولا كان له أصدقاء. قضى حياته في بلدان غريبة، يخشى أن يمد يده إلى جيبه، ويسخر ممن يفرض نفسه على مائدته. وهو متقن للتركية والعربية والروسية ولغة النغوي.

ولما بلغ الأربعين عاد إلى الأبراخ. وفي خلال غربته مات والده ووالدته وأخوه الأكبر في عام الجدري. ولم يكن معه حين عاد إلى قريته دُخاباًه إلا صندوق واحد. ولا أحد يعرف إلى الآن ماذا في الصندوق. بل إنه لم يسمح للفتاة العانس التي تزوجها من قرية مجاورة أن تقع عينها على ما فيه. والدعاء المتدلي من عنقه يحمله مع مفتاحه. وعوّد الزوجة ألا تجلس على الصندوق لأنه يحتوي على مصاحف وكتب دينية وأحاديث نبوية. ويوسف أفندي يغيب غالباً عن البيت إما في مأثم أو في عرس أو في عقد قران. يمتد نشاطه من الأبراخ إلى الشابسغ.

وليس يوسف أفندي وحده من لا يستقر في البيت بل زوجته حاجخان أيضاً. يتخاطفها من عندهم مَيّنة للغسيل بعدما علّمها زوجها شيئاً من الأدعية بلغة القرآن.

وليس في البيت ما يقلق عليه يوسف أفندي إلا الصندوق المغطى بصفيحة رقيقة من الحديد. ولا يعرف إن كان الله غضب عليه إذ لم يرزق هو وزوجته خلال تسع سنوات بولد يخلّد اسم أبيه. وإذا لم ينجب إلى الآن وقد تجاوز الخمسين فلا أمل ولا سيما أن حاجخان لا تتأخر عنه كثيراً في العمر.

اليوم يوسف أفندي وحيد. قال لنفسه: حسنٌ أن تبقى في البيت وحدك إن لم يكن هناك ما يقلقك. ونظر إلى الصندوق الجاثم عند طرف أريكته راضياً. الجوُّ اليوم هادئ بفضل الله. سأرتب ما في الصندوق، وأعرّضه للهواء. أصبْتُ إذ لم أوافق المرأة على تربية المواشي. وهل من السهل تربيتها؟ كنا سنقضي نهارنا كله في خدمتها. يكفيني ما أجد من صعوبة مع حصاني!

نفض يوسف أفندي عن المائدة ولا فرحة له أعظم من فتح الصندوق. غسل يديه بعناية. وأوصد باب الغرفة بالملزاج، وجثا بحرص شديد على ركبتيه أمام

الصندوق. ومَرَّ عليه براحتيه الناعمتين. والتفت مذعوراً وأصلح ستارة النافذة. ولم يرتح لهدوء الكلب المقيّد أسفل الجدار الخاجي، وأنصت، وانتظر:

- يا مشد، كأنك نعلان!

قفز الكلب وألقى نظرة إلى داخل الغرفة مُسنداً قائمته الضخمتين إلى الجدار، فاتحاً فمه إلى أفصاه، مكثراً عن أسنانه الصفراء. وهَزَّ هريره زجاج النافذة.

- إن كنت أنت فلا مشكلة، هذا أنا يا مشد. الآن سنختبر نشاطك. - فتح يوسف أفندي غطاء الصندوق. وجعل صريف الحديد الكلب ينتفض. فلاطف يوسف أفندي الكلب الذي هجم على باب الغرفة وهو يعض أسفل الجدار وينبح:

- شكراً يا مشد، هذا أنا!

فاحت من الصندوق رائحة عفونة أوراق وحديد وملابس. ولكن يوسف أفندي جلس مدة إلى جانب الصندوق مستمتعاً بالرائحة، مستقلاً إياها. ثم أزاح القرآن والكتاب، ومد يده إلى قعر الصندوق، فأفرحته قطع المعدن التي لمسها بيده:

- انظر إليها! - تفحص خليط النقود الذهبية - الفضية. وصدر من راحتيه صريف المعدن. - انظر إليها ما أشدّ لمعانها!.. ها هي صورتك تنعكس على كثير منها! هذا يا سفري ما يسمّى مُلكاً، وليس إمارتك التي لا معنى لها!.. تُفني نفسك باسم المؤتمر، وتهيج الفلاحين. ما منفعة هذه القضية التي تلاحقها؟ إن كان عندك من هذا ففي يدك الروس والترك والعرب، وأي قوم تريد!.. هذه عملة ذهبية عربية، والأخرى من الذهب التركي.. والثالثة؟ هذه عملة روسية فضية لا تفوح منها رائحة كفرٍ أو خنزير. - يعضها بقواطعه، وينتظر قليلاً كأنه يختبر حلاوتها. هذه من الفضة الخالصة. تنقصني قطعة ذهبية من عندهم... ما شكّلها يا تُرى؟ أهى أخفّ أم أثقل؟.. مهما كانت فلا تنظروا إليها كعربية، سترتاح بينكنّ.

وفي اللحظة نفسها احتاج الكلب. وهاجم النافذة ثانية ينبح ويقيم الدنيا. ثم ركض نحو باب الدار الصغير.

- مَنْ؟ - أسرع يوسف أفندي فغطى الصندوق. هل مات أحد؟ أهو غني أم فقير؟

ولما خرج من الغرفة وجد نيكراس تيم على الباب:

- أهذا تيم؟.. - اهلاً يا مشد، اهلاً. هل مات أحد يا تيم؟

- لا يا يوسف أفندي. أليس الفصل شتاء، مللْتُ من القعود في البيت، - كنتم تيم الخبر الذي مضت عليه عدة أيام وأجبره أن يخرج من البيت، - جمْتُ أراك فحسبُ.

- هكذا؟ لا بأس إذن. ظننت في القرية مصيبة ما. كفى يا مشد، هيا إلى مكانك!

- والله كلبك نشيط يا يوسف. لم أكن وصلتُ إلى طرف سوركم حين انتبه إليّ. ثم إن له مظهر الذئب. هذا كفيل بأن يمزقك. والله جعلني أندم على مجيئي إليكم، وعلى عدم امتطائي الحصان... ما هذا يا رجل!

- هذا يا تيم، ولو لم يكن في مثل هذا الزمان شيء جدير بالحراسة - ماذا عندنا نحن أنا والعجوز - ليس عندنا إلا شخصانا. وترى ما نخدم به الناس، وتعرف. نعيش حياتنا على الحظ. تطمئن متى اقتنيت كلباً في دارك. في العالم كثير من الأشرار نسيهم الله. ساجني، أبناء قومك مهتاجون تماماً. لم يعد يردعهم شيء. يسلبوننا.

- وهل وصل إلى هنا، إلى دَخَابَاهُ هؤلاء المهرجون؟

- لا، فقط للاحتياط منهم. ها هم نهبوا قريتي براوت وحبلج. ويقال إنهم سيصلون إلى قُماتر.

- لن يصلوا يا أفندي! بدا من لون تيم استياؤه مما يسمع. - ألم تسمع ما جرى في مؤتمر الشابسغ وقراراته؟

- وكيف لا أسمع، كنت هناك، وخالطتهم. وأنت يا تيم تكلمت فيه... - قال الأفندي وهو يود أن يبدأ الحديث بما سمع من أخبار ابن الفلاح الروسي، ولكن بعد أخبار المؤتمر:

- لماذا لم أرك إذن في المؤتمر؟

- أنتم يا تيم متى رأيتم الأمراء لم تروا غيرهم!

- ليس هذا صحيحاً يا يوسف أفندي. ليس إلى هذا الحد.

- تفضل إلى البيت، - أسرع الأفندي بعدما انتبه إلى مبالغته، - لماذا واقفان خارجاً في هذا الجو البارد يا تيم؟

دُعي تيم إلى الغرفة التي فيها الصندوق.

- والموضوع الذي قلتَ إنهم أهانوني فيه لا أوافقك فيه. - أضاف تيم إلى كلامه الذي قوطع: - ألم تسمع بم أجاب سفري؟ وعلى هذا يا أفندي لم يحدث لي ما لا أستحق.

- لم أسمع جواب سفري جيداً لأنني كنت أقف بعيداً. أرجوك أن تعيده عليّ.

- لا ألوم الفلاح باتر، نستحق كلامه! قتلنا كلينا بضربة واحدة. سألنا: إن التقيتم في ساحة الحرب هل ترفعون السلاح، أنتما وولداكما، كلٌّ على الآخر؟

- أستغفر الله؛ أهذه طريقة سؤال؟

- لا تستعجل، سنرفعه، أجابه زانه.

- أستغفر الله، أستغفر الله... أنا لم أسمع هذا. وكيف أسمع والفلاحون كانوا كخلية نحل هائج. ولم يساهم حجمقوه أسلانبج وبرنج في النقاش. لا أعرف لماذا قطعاً كل هذه المسافة وكأن في فمويهما ماء، لماذا لم يتكلما، أستغفر الله.

- لا تقل هذا يا أفندي! رجع كلاهما إلى دياره راضيين، يقبلان ما قبلنا. وأنا أعرف شخصياً، وجالستهما على المائدة، وسمعتُ كلامهما. وكنتُ بين الفلاحين الذين شيعوا جراندوقوه وبرنج.

يبدأ يوسف أفندي الحديث أكثر حرصاً على نيكراس تيم. يبحث عن الأخبار في أثناء مخالطته المآتم والأعراس وعقود القران، والحال أن في قريته من يعرف أخبار المؤتمر، بل ما قبل على مائدة الضيوف وفي أثناء تشييع الضيوف. كيف لم يخطر له هذا؟ يحترمون سليل الكفار ولا يحترمونا، ولكن ما العمل؟ هذه طبيعة الأديعة. يُكرمون شخصه ويثمنونه، ويعطونه قدراً لا يعطيه هو لنفسه. والله لن يحترمه أبناء قومه الحقيقيون كما نفعل نحن! وحين يعدونك أن يخدموك بشيء يفعلون وهم يعصرون أيديهم ويقبضونها... ألا ترى كيف يتصرف هذا وماذا يقول؟ يتصرف كأنه هو وحده صاحب أرض الأديعة كلها التي ورثها من والده. لا ينجل أن يقول أمامي إنه لن يسمح للروس أن يطؤوا أرضنا. والله لن

يرفع أحدكما، أنت وابنك، سيفاً على الآخر! تقول هذا لأن عليك أن تقول شيئاً ما وإلا فهل تقلع عينك؟! ليس ابني بل ابنك من عاد إلى أصله. والآخر ابن سفرني؟ هو من تريد أن تلصق به ابنتك تلك الفتاة اللعوب، قرباتر. ألم يكن حصانه مربوطاً أمام باب دارك إلى جانب حصانين آخرين قبل أيام؟ لا تظن أننا نجعل هذه الأمور. ثم ها أنت وزانه تتكلمان أمام المؤتمر. آه من هذا الجنس العديم الإيمان، هؤلاء!

- هل صحيح إذن يا تيم أنهم سيجاربون الروس؟
- لا نقاش في هذا يا أفندي.
- لا يستطيع الشابسغ والناخوي وحدهم أن يفعلوا شيئاً في هذه الحرب.
- ولماذا هؤلاء وحدهم؟ والوبيخ والبجدوغ؟
- وهل سيقف هؤلاء إلى جانب الشابسغ والناخوي؟
- لا شك في هذا يا أفندي، والجمكوي والبسلني أيضاً.
- والأبزاخ؟ لا تأتي على ذكر الأبزاخ؟!
- والأبزاخ سيساندونهم ولو لم يبق غيري. وأنت يا أفندي، أنت؟ هل ستقعد وهم يسلبونك أرضك وينهبون بيتك؟
- لن أستطيع أن أفعل هذا ولو فعله غيري. يا رب ارحمني! لماذا يا تيم تنظر إليّ هذه النظرة خلافاً لغيري؟ إن كان أحد يقبل أفلسنت مسلماً؟ كيف يقبل الله الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل إلى أحد مني هذا؟ دعنا من هذا الحديث، لا فائدة فيه. ياربي، أنا قلقٌ يا تيم على سفرني بشأن المهمة التي يوفده فيها الأديغة المساكين؛ أيمكن أن يأتي منها ولو بورقة واحدة؟ انتقل يوسف أفندي إلى أفكار وأئلة أخرى. وبعد قليل أضاف وهو يفر عميقاً: - أومن أجل ورقة واحدة تحوي القرار أرسلوه إلى تركيا البعيدة؟ أحسن صنعا! هذا الرجل يُفني نفسه من أجل أي قضية أديغة.
- ضحك نيكراس تيم.

- لماذا تضحك يا تيم؟ هل جرى على لساني ما لا يجوز؟
- لا يا أفندي، لا. أضحك من جهل الشابسغ. نحن الأبزاخ يسمينا الشابسغ بالأبزاخ طحالب الأشجار. وهم من يستحقون هذا اللقب حقيقة. الورقة التي

طلبها الشابغ الحُمر الصغار الأجسام في بيت سفري. وأنا رأيتها بنفسى،
وبعيتى.

- لماذا إذن دفع المنحوسون الرجل إلى تركيا؟

- ما عند سفري مكتوب بلغة الكفار. قالوا إنها من جهة واحدة، غير محايدة.
وما في تركيا من جهة أخرى فأضفها إلى ما عندك في البيت. وسفري ليس
مجنوناً كأبناء قومه الناختواي. سينقذ في تركيا مهام أخرى غير الحصول على
الورقة.

- وهذه المهام من أي نوع إن لم تكن سرّاً؟ - سأل يوسف أفندي بلا اهتمام
وإن كان فضولياً لمعرفة تلك المهام.

- لا أعرف حقيقتها تماماً. سمعتُ طرف الحديث، أرجوك ألا تأتي على ذكر
الموضوع. سمعت طرف حديث بين سفري وبرزج. - لان صوت نيكراس تيم.
- أعدك والله شاهدي، لن أتكلم فيه. ألسْتُ أديغياً ومسلماً فكيف أسىء إلى
القضية الأديغية؟ أفهم يا تيم، أفهم.

- نعم يا أفندي، نعم. - ظهرت مرة أخرى ثقة تيم في الأفندي. - الله واحد،
لا جعلنا الله وحيدين! لو وقف الإنجليز والفرنسيون إلى جانبنا لما كان هناك
خوفٌ علينا. والأتراك يقفون بعواطفهم معنا. تصوّر نفسك مكانهم: لن تودّ
من يصرعك.

- هذا صحيح يا تيم. لن يخرج من فمك أصدق من هذا... سيقابل
سفري، على ما يبدو يا تيم، سفري إنجلترا وفرنسا. ليت القضية الأديغية
سارت في هذا المسار! لم يكن زانه سفري ليُحسّن إلى الأديغة بأفضل من
هذا... حقاً والله يا تيم حزنّت لانتساب رفعت إلى الجيش الروسي وكأن ما
حدث حدث لي شخصياً. وليست هذه مشكلة يا رجل، كثير من الأديغة
خدموا في الجيش الروسي، وانسحبوا. ما أخطأ فيه هو زواجه من فتاة روسية.
والله يا تيم - أنت مخلص لله الأحد، وسيرحمك - حتى لو قطع ابنك رأسك!..
- لم يستطع يوسف أفندي إلا أن يبخز تيم ويخرج مشاعره. - تباً له، ليته لم
يفعل!

تنهد نيكراس تيم بعمق. وبعدما جلس قليلاً تنهد ثانية وقال:

- نعم، ما العمل يا أفندي، الله الأحد سيتفهمنا، يقولون: حتى راكبُ الجمل يعضه الكلب...

...

كلُّ ما قيل في بيت يوسف أفندي وصل مكتوباً باللغة العربية، دون أن تسقط منه كلمة واحدة، إلى إيكاترينودار بعد خمسة أيام. وفي خلال أسبوع وصل إلى الفيلد مارشال باسكيفيتش في تفليس. وبعدما وضع زانه سفري مع صحبه قدمه في تركيا بستة أيام أرسلت الورقة نفسها إلى بطرسبورغ، ووضعت أمام القيصر نيقولايف بابلوفيتش شخصياً.

وبعدها وصل إلى أوديسا الأمر الصادر من القيصر إلى تركيا بشأن زانه سفري. وعبروا بالأمر أول سفينة مغادرة، وأوصلوه إلى السفير الروسي في تركيا. وفي اليوم التالي أوصلوا حالاً الورقة التي تقيم موفد الأديغة إلى السلطان محمود.

وبعد يوم آخر وصلت ورقة من بطرسبورغ باسم القيصر إلى أنابه. وحين أدخلوها إلى الجنرال فيشيسلافتسيف عرف أن القرار الذي سيصدر له طابع مستعجل. ومثل هذه الأوراق طريقها المتسلسل هو: بطرسبورغ، تفليس، شنته قاله، إيكاترينودار، أنابه. فكيف جرى هذا؟ هل وصلته الورقة مباشرة، أم أن هناك خطأ ما؟

سها الجنرال عن مضمون الورقة: الأمور تجري كلها على نحو جيد. والجيش الذي سلّموه قيادته لا يفتقر إلى الطعام، ولا إلى الملابس الشتوية الدافئة. وعلف الخيل جُمع في هذا الخريف. أما الأديغة فبعدما اقتحمناهم فعرفناهم قدرهم أخذنا حركتهم باستثناء المؤتمر. وإن فكروا في عقد الاجتماعات وفي محاربتنا فسنستصدى لهم. الطريقة التي أعرّفها لتهديئة هؤلاء هو الرصاص وحده السيف. ألا ترى ما يفعل زانه؟ سيحاربنا رغم أن ابنه في جيشنا فيؤلف جيشاً من الفلاحين. ويسافر إلى تركيا أخذاً القضية على محمل الجد. تصرفت مع ابنه بما يستحق. ما إن يصل جواب الكتاب الذي أرسلته إلى الماريشال حتى أجّده من رتبته!.. والأديغي الروسي الآخر نيكراس أيضاً. لا يجوز الشك في أنهما دُفعا إلى جيشنا لالتقاط الأسرار العسكرية.

صحا الجنرال فيشيسلافسيف إلى نفسه ففض الورقة المطوية. وقرأ فيها الأمر التالي: "باسم قيصر روسيا نرّفع زانه قرباتر بن سفري إلى رتبة نقيب. وأشيّعوا السلام في إقليم الأديجة حتى نبلغكم!" أسرع فيشيسلافتسيف فطلب الضابط الم رابط على الباب:

- أطلقوا حالاً سراح الضباطين المسجونين زانه ونيكراس. - نعم، نعم. -
لستُ مخطئاً، وها هي الورقة الصادرة من القيصر. استدعوا زانه إليّ. وأرسلوا
نيكراس ليخدم في الجيش!

III

لم تكن السفينة رستْ بعدُ على الشاطئ حين استُقبل الوفد الأديجي بأصوات
مساوية مختلفة في إستانبول. لا يمكن أن تفهم الأصوات الصادرة من الشاطئ إذا
أنصتْ إليها. ضجيج الناس وصفارات السفن ونهيق الحمير تتناثر في الهواء. ثم
تنضم إليها أصوات المؤذنين.

لم تكن هذه أول زيارة لسفري إلى تركيا ولكن رفيقيه نور مُجد وترام، وجدا
نفسيهما، لا يدریان ما حدث لهما، متوجسين قليلاً، في هذا العالم الجديد.
ليس لأتخما يستغريان ما تقع عليه عيونهما، بل لأتخما لا يعرفان موقفهما مما
يريان. والآن سفري هو رَجُما ووالدهما وحاميتهما من الخوف. لا يسمحان بأي
وسيلة للأمر أن يسبقهما في الطريق. وإن ضاع منهما قفا رأسه وهما لا يعرفان
لغة القوم، ولا عاداتهم وأنظمتهم، بقيا بلا أمل البتة بينهما.

لا بأس بحال حاغور نور مُجد. يبدأ في استرجاع وعيه. يتطابق ما كانت ترويّه
والدته "أكوزه" وما يراه بعينه. وفي أسوأ الأحوال معه رجلان راشدان في حين
اختلطت والدته وهي صبية وحيدة. وكان والده موسى، الوحيد الذي لا يعرف
أين يذهب، أنقذها من هذا العالم الصاحب الذي وقع فيه...

وكان ترام يعيش حالة أملٍ قلقٍ دون أن يُطلع زميليه على حاله. لم تكن جارتهم
مريم التي جيء بها إلى تركيا وهي صبية صغيرة قبل ما يزيد على ثلاثين عاماً في
ذهنه حين ظهر الشاطئ التركي، ولا حين نزلوا من السفينة فحسب - بل منذ
سمع اسمه مرشحاً لمرافقة سفري. ولكن الحقيقة هي أنه لم تمرّ ساعة على ترام
غابت فيها مريم عن باله. كان ترام يريد أن يعطل ذهنه عن التفكير ولكن

الأخير لم يطعه. ذوّبت الذكرى الدافئة التي يحملها في قلبه طوال هذه السنين نفسها في أنحاء جسمه: أحسّ جسده الذكوري اليوم بجسد مريم الناعم، كما أمس وأول من أمس وقبلهما، التي عانقته وهي تحمل في صدرها الحب اللذيذ الذي لا خبرة لها به، فرّقته الذكرى ولا مست أعماقه. ولا ينسى ترام إلى الآن هففة مريم وبكاءها. وما لا يسمح له أن ينساها هو النظرات الآملة للفتاة. ولكن ماذا كان يمكن لها أن تتأمل من ترام ابن الرابعة عشرة؟! كانت تعيش في قُماطر يتيمة وفرحتُها لا تتجاوز أن يسمح أحدٌ على رأسها. ولا تملك إلا البيت المتواضع الذي ورثته من والدها.

كان ترام قد فرح في أحد الأماسي لأجل مريم لأن والدتها تزوجت ولكن الأمر انكشف عما لم يتأمله. لم تقبل مريم الأب البديل فهربت في اليوم الثالث. وجاء الأب البديل أكثر من مرة يلاطفها ويتوسل إليها ليُعدها ولكنها كانت تحرب ما إن تغيب عنها الرقابة. وفي كل مرة يرى ترام قبعة الفلاح الأب البديل أمام بيت مريم. وأحياناً يتابعها وقلبه يتألم وهي تُقاد إلى بيت والدها البديل. وكانت لحظة هروبها فرحه الوحيد. وليس قليلاً أن يقطع لها الحطب وينقله إلى البيت.

والآن بدأت الأم تعيد ابنتها بدلاً من زوجها كلما هربت، فيُسمع من بيتها صوت التوبيخ والبكاء أكثر من ذي قبل. وفي إحدى الأمسيات يسمع ترام من بيتها: "إن وصلتِ إلى هذا أيتها الكلبة فلن أجلب لي ولك العار من وراء جارك اليتيم ترام. سأبيعك إلى أول تركي يدخل القرية!.. وأنا أريد رجلاً يسندني! سأرتاح متى غبتِ عن عيني!.."

كانت مريم أول من خطر لترام حين سمع في أحد الأيام أن تجاراً أتراكاً جاؤوا إلى قُماطر. ركض ترام إلى الحيّ الجديد حيث يبيّتها البديل الطارئ، يبيّ زوجها أمها، تبين أن ما كان يخاف منه قد حدث. رأى مريم تُحمل على حارك الحصان من قُماطر. وحين لحق بالتجار نادته مريم "يا ترام أتوسل إليك، لا تدعهم يحملوني!.. "فهوى السوط على ظهر ترام، وصرعه صدر الحصان...

عاش ترام عدة أيام تحرقه الإهانة. وطوال هذه الأيام كانت السكينة المسنونة في جيبه، يرصد مريم لعلها تأتي إلى بيت والدتها. ومرتين أو ثلاثاً ذهب إليها

نفسها ولكنه لم يجد منفذاً إلى أمنيته حتى استسلم للواقع فعاش أيامه الثقيلة وحيداً.

ولم تمر امرأة في حياة ترام تُنسيه جارتة مريم. وأوصله إلى سن الكهولة حبه الوحيد، فعاش عيشة العازب، لا أحد يعرف ما في قلبه، ولا تفارق مريم أفكاره.

قال ترام: ألا تزال حية يا ثري؟ وأيَّ عيشة تعيش؟ الله وحده يعلم من تخدم واجمة ووجهها إلينا؟ لا يستطيع لابس قبة إلا أن يهتم بها ولو من أجل قوامها ووجهها... وها أنا أيضاً أعيش وحيداً خالي الوفاض... ألا أتعرفها إن رأيته ولو أنني لا أعرف كيف أميّزها بين أمواج البشر؟ وهي ألن تعرفني. والله أعرفها ولو كانت بين المئات من البشر، ولو من عينيها فقط أو من صوتها أو من ضحكاتها. ولكن أقليل! ما مضى على فراقها؟ مهما مضى عليها تبق مريم مريم القديمة!..

يبدو على ترام قلقه وإن حاول إخفاءه. وهذا الفلاح الذي عاش عمره مقيداً إلى عمله يرى كثيراً من الناس ولكن أئى له أن يعرف وراء ماذا يسعى كل هؤلاء. يراهم أنيقين، عاطلين عن العمل. يتساءل إلى أين يركضون. يا عجي ما أغرب عالم إستانبول!

- والله هذا غير ممكن، - يقول ترام.

- ما الذي لا يعجبك يا ترام الفلاح؟ - يضحك سفري.

- ما لا يعجبني يا أمير هو بطالة كل هؤلاء.

- ألم تر في حياتك عش نمل؟ هؤلاء يركضون وراء العمل والخبز.

- والله يا أمير، - يساهم حاغور في الحوار - كثيرون جداً من في هذه الأمواج.

- مشهد يدعو للأس، يصعب أن تحترقهم حتى على ظهر حصان. - لا يغير ترام موقفه، ويضيف بسرعة: - الناس يُمعنون النظر فينا نحن الثلاثة، لا أعرف ماذا وجدوا فينا.

- لا يشبعون من النظر إلى الزي الأديغي. - ابتسم سفري، - اشكر نساءنا اللواتي اخترن لنا هذا الزي.

توقف الموفدون الأديغة عند الفندق القريب من أكبر جوامع إستانبول. واستأجروا غرفتين إحداهما للأمير والأخرى للفلاحين. وبعدما تعشّوا قال سفرلي لرفيقه:

- الآن نتوضأ ونذهب إلى الجامع. وسنمثل أمام الله في صلاة العشاء آملين أن نوفّق في حل قضية الأديغة على خير.

لم تكن المدينة مظلمة مثل أزقة قرية قُماتر مع أن ظلام الليل كان يُخيم عليها. تنير الشموع الشوارع ولو لم تكن متقاربة جداً. ومن البيوت المصطفة على جانبي الشارع تنبعث أنوار. وإذا أضيفت إليها أضواء عربات الركاب فلن تضلّ طريقك، سترى ما أمامك.

- هذا الجامع الذي نذهب إليه يقصده كثيرٌ جداً من المصلين - قال سفرلي حين اقتربوا من الجامع، - ولذلك إن حدث وافترقنا فليس الفندق بعيداً، ها هنا يمكن أن تعودا إليه.

استردّ ترام رباطة جأشه حين توقفوا عند الفندق ولكنه حين دخل إلى الجامع الذي يتسع لآلاف المصلين، وألقى نظرة على الرجال المتشحين بالسواد تمكّن اليأس منه تماماً. قال: أستغفر الله، ما هذا؟ أيّ عالم جئنا إليه؟ قُماتر بالقياس إلى هذه المدينة، يا حسرتي يا قريتي الصغيرة، لا شيء. بل يمكن أن تقول إنها لا تعيش على البسيطة. يا ربي، هل بتربف الروس كبيرة أيضاً؟ نعيش، نحن الأديغة، بين هاتين الدولتين الكبيرتين إلى هذا الحد. لن يفسح لك هؤلاء الناس بطريقة ركضهم ونظراتهم مكاناً تعيش فيه. يسلبونك ما عندك وما ليس عندك. وإذا كان الروس غلبوا هؤلاء فما وزننا نحن أمامهم؟ وكنايس الروس كبيرة يا ترى مثل جوامع الترك!؟

تذكر ترام مرة أخرى مريم والمئات من قبعات الترك تثقب عينيه، وعصرت الذكرى قلبه: - ما أتعس حظك يا مريم! أيّ نحس جاء بك إلى هنا؟ مَنْ مِنْ هؤلاء أو مِنْ غيرهم كنتِ من نصيبه؟ أم تعيشين وحيدة يتيمة وعيناك إلى ديارنا؟

- ماذا جرى لك يا ترام؟ - طرق نور مُحمّد رفيقه بطرف مرفقه. - أسرّع، الصلاة ستبدأ! دعنا نقف على سجادة الصلاة قبل الازدحام. سترى هنا

الكثير. أظن نفسك في قُمار أم في باستوك؟ ألا تراهم اكتنزوا مبتلعين البلدان الصغيرة في طريقهم؟!

الذين كانوا يدعون إلى الله بالأديغة بين كل هؤلاء المصلين هم الموفدون الثلاثة الذين قذفت بهم مصيبة قومهم إلى هنا. أحدهم أمير، والثاني من رجال الضابطة من صفوة الفلاحين، والثالث فلاح من العامة. ولثلاثتهم النية نفسها والتفكير نفسه وإن اختلفت عقولهم وعيشتهم ورجولتهم.

رجع الثلاثة إلى الفندق بعد صلاة العشاء. ولم ينس أحدهم بنيت شفة في طريقهم القصير كأنهم ما يزالون واقفين أمام الله. ولحظة دخولهم إلى غرفهم قال سفري:

- تصبحون على خير أيها الأديغة! سنبدأ غداً إن شاء الله مهمتنا.

- وأنت أيضاً يا أمير، - رداً كلاهما على الأمير.

التفت سفري بعدما خاطباه "يا أمير":

- لننس اليوم يا أخويّ الصغيرين كلمة "أمير"!

تبادل نور مُجدٍ وترام النظرات. ولم يعرفا سبب ما سماعه.

- نعم، لننس، - كرر سفري مرة أخرى، وبنبرة أعمق: - نحن الثلاثة على طريق واحد. جمعنا قلق أديغي واحد وتفكير واحد. لولا احترامي لكما وتقدير مؤتمر الشابسغ لما سافرنا معاً. نحن أديغة، ولدتنا أم أديغة. لا ننس تقاليد الاحترام بين الكبير والصغير. لا تقنط يا أخويّ الصغيرين. لا يأس بفضل الله. ليلتكما سعيدة!

تقلّب سفري في الفراش طويلاً لا يستطيع النوم. لا تفارق رأسه الكلمات التي وجهها لرفيقه الفلاحين. قال لنفسه: إن لم تكن علاقائنا، نحن الأديغة، هكذا فلن ينجح مسعانا. لا تحتاج القرى الأديغة إلى أمراء، ولا إلى نبلاء، ولا إلى أسرٍ متنفذة، ولا إلى فلاحين من الصفوة، بل إلى شخص أو اثنين أو ثلاثة يزرعون فيهم الوحدة. يحتاجون إلى قائد، أو مجموعة متفاهمة من القادة. وهذه الوحدة تجدها بين العامة أكثر مما بين الأمراء. ألا يكفي ما عشنا إلى الآن قبائل متفرقة؟ إن لم نصبح دولة فلن تعترف بنا الدول الأخرى. وهذا هو مصدر الكارثة التي حلّت بنا اليوم. ما يقوله الفلاحون صحيح. لا يوافقني

قرباثر ولكن والدي المرحوم أخطأ في ما قدّم للترك. وسواء قصد بعمله أم لم يقصد فما فعله والدنا هو عُقدُهُ أحداث اليوم. والآن علينا نحن حلُّ هذه العقدة. كيف؟ لا يمكن حلُّ المسألة الأديغية بواسطة الشابسغ وحدهم. أيمن أن يفي برزج وحجمقوه بوعدهما يا ترى؟ والأبزاخ، والجمكوي، والبسلني؟ والقبرتاي يدعون الأديغية ولكني لا أثق بهم. توجهوا إلى ما وراء نهر بشزه فافترقنا. ورأيتهم أكثر ميلاً إلى قيصر الروس. ليتهم لم يحاربونا!

عاد سفري مرة أخرى إلى ترام ونور مُجَّد. هما رجلان أديغيان حقيقيان وإن كانت التجربة تنقصهما لولا أنهما لا يحملان لقب أمير أو نبيل. ولو أن لكل قبيلة منا أمثالهما لاستطعنا حماية أنفسنا وفرضنا احترامنا على غيرنا. حين نناضل من أجل قومنا فلاشك أنه سينهض من بيننا أمثال هؤلاء. كان والدنا المرحوم يقول إن الحياة لا تتوقف في مكان واحد. كل خطوة نخطوها تنتصب لنا فيها مشقة لم نكن نتوقعها. يا حسرتي أيها الشابسغ، لم تعترفوا بالورقة التي في بيتي بحجة أنها أتت من طرف واحد ولكن سأتيكم، ليس أبعد من الغد، بالورقة التركية. ولكن المسألة لا تتعلق بهذا، سألتقي بالسفيرين الإنجليزي والفرنسي هنا. وهناك غيرهم من يعرفني. لا بدّ أن أقابل السلطان محمود. وهذه أصعب مهمة. لا يمكن أن يكون في قلبك محبة لمن أركعك ولو نظرت إليه بمودة. إن استفدنا من هذا لقينا عنده بنادق ورصاصاً وباروداً ومدافع. والإنجليز والفرنسيون لن يعجبهم نخوض الروس وتوطيد نفوذهم في البلاد الواقعة في الجنوب والشرق. ولن يقبل الألمان والنمساويون، والبولونيون طبعاً. ولو استطعتُ إفهام السلطان هذا الأمر لأجزت نصف مهمتي. من في إستانبول يمكن أن يساعدني لمقابلة السلطان العثماني؟ لن ينجح الأمر إن لم يتدخل رجل ذو وزن. وإن لم يستطع خروزر باشا الذي ربي إسماعيل بيه فمن يستطيعون قلبون.

في آخر الليل، وقبل أن يستغرق في النوم، وبدلاً من أن يدعو إلى ربه مستغفراً قال سفري: ليغفر لي الروس، زرت الطرفين محاولاً حقن الدم، وأعلمتهم نيتي. وتوسلت إليهم، ولما كان ما أستطيعه هو ابني نسبته إلى جيشهم. وما لم أفعله

هو عدم توجهي إلى قيصرهم. وكنت أودّ ان أفعل هذا غير أنه لم يتحقق لي. ولم أكن راغباً في المجيء إلى هنا.

لم يستغرق العثور على ورقة السلام بين تركيا وروسيا وقتاً طويلاً من سفري. فقد جاءه سلخور مُخّجاً بها في اليوم التالي ممهورة بالخاتمين التركي والروسي.

- لن نعيد الكلام في موضوع الوثيقة يا مُخّج. - قال سفري، - اعتبر الموضوع منتهياً. إذا كان رفيقاي الفلاحان اقتنعا فكل الشابسغ سيفتتعون. وأصعب ما أمامي الآن هو مقابلة السلطان التركي.

- مهما كانت مهمتك مع السلطان ملحة فعليك الانتظار شهراً. - كان تعليق سلخور مُخّجاً على ما سمع مختصراً. ثم إن استقبال موظفيه لك يتعلق بنوع المهمة. - لن يسمحوا لك بمقابلته لموضوع شخصي.

- ليس لي مع السلطان موضوع شخصي، بل موضوع الأديغة! - احتدّ سفري على غير عادته. ثم خجل قليلاً لرّد فعله. - ساجني يا مُخّج، لم أقصد الإساءة إليك...

تذكر سفري لقاءه بسلخور مُخّجاً في تفليس حين توجه للقاء الماريشال باسكيفيتش فكنتم عنه مهمته الحقيقية. لم ينس سفري أن الأديغة لم يستقبلوا سلخور مُخّجاً حين أُوفد من وزارة الخارجية التركية في مهمة إلى بلادهم، فعرض عليهم الهجرة إلى تركيا التي فتح السلطان بابها الإسلامي أمامهم، وسمعوا أنه سيقابل القيصر لتنفيذ الخطوات العملية. لم يستقبلوه كما تتطلب واجبات الضيافة، بل حاولوا اغتياله. ولولا أنه من أصل أديغي لآذوه. قال سفري: من الصعب الحكم على إنسان دون الاحتكاك به، والسفر برفقته، وتجشّم الصعاب معه. وها هو مُخّج يخدمنا الآن بكل طاقته.

- أفهم يا سفري، - قال مُخّج وهو يتخلص من أفكاره السرية أيضاً، ما أتكلم عليه هو واقع الحال.

- هذا بديهي يا مُخّج. لم يبق لنا وقت كاف اليوم لملاحقة قضايا خائبة، علينا فقط السعي وراء القضايا المفيدة. أشكرك يا أخي على أنك لم تحمل على الأديغة. لا تلمّهم، استاء الأديغة من تصرّف الأتراك معهم على هذا النحو. رأوا أن البلدان التي لا شأن لنا بها أهانتنا.

أجاب مُجدُّ بعد قليل من الصمت:

- شكراً يا سفري على فهمك إياي الآن، وفهمك أن الأديغة في وضع يؤدي إلى الجفاء فيما بينهم. عليهم أن يتناسوا خلافاتهم ويتماسكوا بقوة. الموضوع الذي نلاحقه يا سفري لست واثقاً من نجاحه إن أردت الحق. روسيا دولة عظيمة، سكانها كثيرون، ومدججة بالسلاح.

- وجنودها ليسوا محرومين من الرجولة، يحرزون النصر أينما توجهوا. - وافق سفري مُجدُّاً دون مزاح.

- ليس بين كلماتك يا سفري كلمة في غير مكانها. وأنت تعرفهم أفضل مني. خالطتهم وخدمت معهم. ألن تفهمنا الدول الأخرى حين ترانا نحكي شرف الأديغة وأرضهم؟ ما العمل؟ حماية الحرية تتطلب الكثير من الدماء. كرر مُجدُّ بعض كلمات سفري. - وتتطلب وقتاً طويلاً. وإلا فلن تنفع الرحمة. وما سميتها بأنها مهمة غير شخصية أريد أن أعلق عليها بأنك إن لم تكن قادماً من دولة فلن يهتم بك رجالات الأتراك. ومن تجربتي معهم سنوات طويلة أعرف أن الترك لم يعتبروا الأديغة دولة ولو لم تكن لهم علاقة بهم. ولم يكونوا راغبين في ذلك. كانت معاملتهم لنا شيئاً من الكلام في شأننا، والتظاهر بتقديم النفع لنا من خلال الدين، وبعض العلاقات التجارية، وشيئاً من الرعاية والإشراف علينا فتحالفت الدولتان المتعاديتان طوال تاريخهما وبدأتا في ابتلاعنا.

لا تختلف أفكار مُجدُّ عن أفكار سفري. وهذا ما كان في قلبه ويكرره في مؤتمر الشابسغ، وحين دار الإقليم كله، وخالط الروس، وتكلم في اجتماع الفلاحين، وعلى طريق تركيا. ويعرف سفري إمكانات الأديغة وعدم قدرتهم على مجاهدة روسيا. ولكن لا يرى من اللائق أن نرمي السلاح ونخلق لهم شواربنا باعتبارهم أمة كبيرة. خير لك أن تتمتع بالرجولة أمام من غزا أرضك من أن تذلل له. وعدني تسي حاترباي المنتمي إلى أسرة متنفذة في الأبرار أن يأتي إلى مؤتمر الشابسغ وأخلف بوعده ولكني أئدته في هذا الموقف. لأجل هذا يقول كبارنا: إن كان المرء لا يموت مرتين فليمت موته الواحدة برجولة.

- والآن لأننا نحتاج إليهم - غمغم سفري كمن يحدث نفسه، - الأديغة ليسوا دولة، حين احتاجونا تصرفوا معنا بلطف زائد فاشتروا من زانه محمجري قطعة

أرض من ساحل أنابه كما من دولة إلى دولة. يا والدنا الذي أدعو له بالجنة، أيُّ نحسٍ جلبته للأديغة وأنت تظن نفسك تُحسن إليهم؟! - جلس مدة مفكراً، ثم أضاف بكلمات ألطف: - ما الفائدة من أن نُقلق والدنا في بيته في الجنة ؟ _ (كان يريد أن يقول: في قبره، غير أنه لم يستطع) خذ يا مُحمَّد، في هذه الورقة عبَّرتُ هذه الليلة عما تتسع له من كل ما يتعلق بالأديغة وآل زانه ومحمجري. أوصله بأي وسيلة إلى باب السلطان. ولا أظن آل زانه يعيشون دون أي فائدة لغيرهم، فإن فهمنا كان خيراً، وإن لم يفهمنا بحثنا عن مقارنة أخرى. ولكن مهلة الشهر لقضيتنا طويلة جداً. وريثما تتابع أنت هذه الورقة سأحاول مقابلة السفيرين الإنجليزي والفرنسي.

- اعتبر باب السفارة الإنجليزية مفتوحاً أمامك يا سفري. يعمل وُركفارت فيها بصفة سكرتير أول.

- داود بيه¹؟ والله ما تقوله عجيب.

في اليوم نفسه، أنجز مُحمَّد مهمته بعدما فارق سفري. كان السلطان محمود يطلب مقابلة سفري بن محمجري، بناء على الطلب المستعجل من قيصر روسيا، فأمر بإيصاله إليه فوراً.

...

- حالاً يا أخي، حالاً - فتح سفري باب غرفة رفيقيه، البسا أحسن ما لديكما، السلطان التركي ينتظرنا، حالاً، وعربته على الباب. الله تفهَّم حالنا، ورحمنا! والشكر لسلخور مُحمَّد أيضاً، يسِّر له أموره يا رب!!-الفرح يتناثر من فم سفري.

لم يكن مضى أكثر من نصف ساعة حين صار على باب السلطان محمود الموفدون الأديغة الثلاثة يركبون عربية يحرسها أربعة رجال.

حين دخل زانه سفري يتبع رسول السلطان إلى القاعة الفسيحة قابلهما رجل آخر مدجج بالسلاح. وسلَّمهما إلى الحارس في القاعة الأخرى. كانت القاعتان اللتان دخلاهما تدعوان إلى الانسراح. والسقف والجدران المزخرفة بالكتابات مُشرية بماء الذهب. والستائر على النوافذ بيضاء تكاد تصل إلى

¹ الاسم المستعار لوركفارت.

الأرض المبلّطة بقطع صغيرة من الخشب اللماع. وإلى جانب الباب يتعانق رحما الحارسين. وعلى مدخل الباب، قريباً من النافذة، يجلس رجل مسلّح آخر أيضاً. وإلى يساره بعيداً عنه قليلاً يجلس شابٌ مسلح كذلك. ومقابلهما يقف إلى جدار معزول عنهما مسلحان جهمان.

حين قال أحدهما شيئاً لسفري مشيراً إلى خنجره أجابه بالتركية أن الأديغة لا يضعون عنهم سلاحهم. ولم يقبل المسلح الثاني هذا الكلام فاعترض طريق سفري.

نفض الرجل الجالس مقابلهما والذي لم يساهم في الحديث إلى الآن. وطلب من الرجلين المسلّحين المتقابلين الهدوء ثم دخل إلى السلطان. ولم يتأخر، وطلب إليهما أن يسمحا له بالمرور وأن يرافقا. وأشار لسفري إلى مدخل الباب مع إيماءة احترام خفيفة.

القاعة التي دخلوها كبيرة حتى لتدعو إلى اليأس. وعلى الجدران كتابات مزخرفة. وأرض القاعة صفراء فاقعة لماعة. والرجل الأسمر ذو الوجه المستدير الممتلئ الذي يغلب عليه سواد شاربيه مع خفة في شعر الرأس جالس إلى الجدار الآخر. ورتبته الكيبرتات من الذهب الخالص. والصدر مملوء بأوسمة فضية وذهبية.

وقف سفري قبل أن يصل تماماً إلى مجلس السلطان، وحياء تحية خفيفة ويده اليمنى على صدره. فأشار السلطان إلى الضيف أن يجلس.

صحا سفري حين بقي الرجلان وحدهما في القاعة. وقال لنفسه: يبدو لي أن هذا الرجل مطّلع على قضية الأديغة الراهنة. ويريد أن يقول لي شيئاً. ومهما تصرف معي فسأبلغه أن ما فعلوه بالأديغة غير صحيح. جرى ما جرى، ولن يفعلوا بنا أكثر مما فعلوا. وسنرى ما يقول. ومهما رقص جازئته.

ابتسم سفري للسلطان مع أن قلبه كان يغلي غضباً عليه بسبب ما فعلوه بالأديغة. وارتاح في كرسيه متحلياً بالصبر.

قال السلطان:

- نسمعك أيها الضيف.

- أنا موفد الأديغة، ونسبي زانه محمّجري...

- معروف والدك يا زانه سفري، صدّقي، - لم يدعه السلطان يُكمل كلامه،
- لم تنسه تركيا، ولن تنساه. والآن أطلّعي على النوايا الحقيقية لمن أرسلوك إلى
تركيا. - مدّ السلطان إلى سفري كتاب قيصر روسيا. - هذه الورقة فيها ما
تنويه روسيا بحققكم، وبحققك شخصياً. هذه رسالة سرية أيها الضيف.

- لا أريد أن أطلع على أسرار أحد يا أبا الأتراك، السلطان العظيم.
- أليس الأفضل أن تعرفوا نوايا أعدائكم من ألا تعرفوها؟ - لم يتناول السلطان
الورقة التي أُعيدت إليه. - يسرّني أن تتخذ هذا الموقف من أسرار الدول. ومع
ذلك اقرّأها، أتوقع أن يبقى سرّنا بيننا.

مرّ سفري بسرعة على الرسالة التي لا تكمل صفحتين، وأعادها دون اكترات
كأنه لم يقرأ ما يتعلق به. ونظر كلّ منهما في الآخر ينتظر من سيستأنف
الحديث.

قال سفري: ما أسرع ما وصلت أخبارنا إلى بتريف! ألا ترى ما فيها؟! "أرسل
الشابسغ إليكم أمير الناختواي زانه سفري بن محمجري موفداً. وبما أنه خدم في
جيشكم فابحثوا عن ذريعة لتحتجزوه عندكم ريثما تنتهي أمورنا في بلاد الأديجة.
وإن طلبتم خدمة مقابل طلبنا هذا فسنجيبكم بما يتناسب مع مصالحنا..."
- لم تعلق بشيء على ما قرأت أيها الضيف؟ - تبين أن السلطان متلهف
أكثر من سفري.

- وماذا أقول؟ لن ينوي عدوك الخير لك.

- وهل الأديجة أعداء للروس؟

- نحن لم نُعادِ أحداً، ولم نغزُ أرض أحد. والآن تقابلت رماحنا فوجب علينا
القتال.

- لا أعرف إذن ما يجري... - فكر السلطان بضع دقائق ثم أكمل: - حين
كنا نحضّر لقرار اتفاقية أدرنه كان الأديجة إلى جانبنا منذ زمن بعيد، ولكنك
تعرف كيف تسير الأمور حين تُغلب في الحرب. - تظاهر السلطان بأنه يبرئ
نفسه، - ولم يقبلوا منا إلا أن نسجّل في الوثيقة...

- الأديجة عاتبون عليكم في ما فعلتم يا أبا الأتراك السلطان الكبير. - تكلم
سفري بصراحة.

- نعرف أن الأديغة عاتبون علينا. ولكن لسنا من غزا أرضهم بل الكفار. لن يسجل أحد من المؤرخين أن الأتراك سلبوا الأديغة أرضهم. سأكمل إذ بدأت: لم يعد لنا الحق في التدخل في شؤونكم بعدما أُجبرنا على عقد اتفاقية سلام مع روسيا. ولكن قلوبنا معكم. ولسنا وحدنا بل قد تكون دول أخرى تؤيدكم. لا تتراجعوا! سنساعدكم سرّاً بالسلاح والذخيرة والمدافع بقدر ما تُجاهون روسيا. وعلى من يجب أن يفعل ما قلّته عليه أن يفعله دون أن يكون لي علاقة به لا قولاً ولا فعلاً. الله معقد الأمل، لا تدعونا ننساه! وليس الأديغة وحدهم بل الشيشان والداغستان يتصدّون للكفار. والآن سأنفذ لقيصر روسيا ما طلبه بشأنك. زانه سفري بن محمّري خدم في الجيش التركي، وكان يحمل رتبة ضابط. وابتداء من الغد تعود إلى الجيش التركي. وستجاهل عملك في قضايا الأديغة. ولا تعتب علينا إن تصرّفنا بحقك نتيجة مطالبة من يلاحقونك. لم يتخيل سفري قطّ أن نشاطاته في القضية الأديغية ستنتهي هذه النهاية. وكان يكتفي بالابتسام مهما قال له الجالس مقابله، دون أن يثق به. وأشدّ ما ألمه هو إبلاغه باحتجازه في تركيا. وقال للسلطان دون أن يُيدي استيائه:

- يبدو أنني جئت فأوقعت نفسي بنفسي في الفخ الذي لم أنتظره.

...

سأل ترام زانه سفري:

- وأنت متى ستعود أيها الأمير؟

- مصري بيد الله يا ترام، - اختصر سفري الجواب متألماً من كُتْمه سبب بقاءه في بلاد الغربة عن رفيقيه اللذين قاسماه مشاقّ الطريق. - تصرّف كما اتفقنا. أوصلا الورقة إلى العامّة. لا أمل يُذكر من الطرفين أو الدولتين. وكما يقول الأديغة: إن كانت يدنا مُدهّنة مسحنا بها رأسنا؛ لا أحد سيفيدنا. وسأتابع أعمالاً أخرى. وبلغا الفلاحين ألا يصدّقوا مهما سمعوا الناس يقولون بشأنني، بشأن زانه سفري...

- وهل هذا ممكن؟ - صاح حاغور لا يعرف تفسيراً لما يسمع.

- من يعرف؟

لم يُعد ترام عابثاً بالحديث بين سفري وحاغور حين سُمع صفير السفينة المقلعة. صعد إلى السطح ثانية الحزنُ على مريم التي كنتم قصتها عن رفيقه في الأيام الماضية. أطلق العنان لنظرته الخفية التي كانت رجولته تلجمها. وجه نظره الحزينة ثانية إلى الزاوية التي تتجمع فيها النساء. لم يكن أي أمل إلا ما يوهن القلب ويسلبه إياه. صحا ترام خجلاً وانتصبت أمامه صورة الأمير مرة أخرى: سفري وحيداً على شاطئ الغربية. والسفينة التي يركبها ترام تغادر إلى بلاد الأديجة التي انعدم فيها كل أمان...

IV

كل يوم تتأجج حرب القفقاس، وتزداد الأعراق التي تشارك فيها. في الداغستان والشيشان لا تجري أمور القيصر كما يريد. تتوسع فيها الحرب الدينية. وأضيف إليهم الآن الأديجة ولذا تشتت الجيوش القيصرية على أكثر من اتجاه.

ولم تؤيد الدول الأخرى حربها خلافاً لما تأملت روسيا. والداخل الروسي غير مستقر. وإنجلترا وفرنسا والمجر وبولونيا وغيرها لم تؤيد حرب روسيا على شعوب صغيرة واحتلالها أراضيها. وليست أوروبا وحيدة في التخوف من تنامي القوة الروسية بل تشاركها بعض بلدان الجنوب. وتنشر الصحف، ويتكلم الناس في الموضوع. وبدأت الأوساط العاملة في الشؤون الخارجية في الدول الأخرى تتداول الموضوع أكثر فأكثر. ومن يترقبون ما سيحدث صامتين ليسوا قليلين. القيصر الروسي لا يعرف التراجع عن نواياه في إقليم الأديجة. تحقق له هدفه الذي انتظره طوال عمره: يوطد حدود بلاده الجنوبية. وسقط في يده الساحل الشرقي للبحر الأسود بلا ثمن فهو يؤسس فيه حكمه بالسلاح.

لا يهتم القيصر الروسي بالخبر الذي يُتناقل في العالم، ولماذا يتعلق بما يقول هذا أو ذاك؟ المهم عنده ألا يجابهه بالسلاح. وكلما أسرع في إخماد حركات المتمردين كان هذا في صالحه. وما العمل لتحقيق هذا الهدف؟ لا يفكر الحديد إلا الحديد! توقعنا أن يحذو الأديجة حذو الكرج والأرمن فيفعلوا مثل ما فعلوا ولكن، - قال القيصر نيقولايف بفلوفيتش الذي يذرع أرض القاعة بجذاء ناعم،

- لا تسير المسألة الأديعية في المسار الذي توقّعنا. لا يمر يوم دون أخبار متنوعة من إقليمهم. وهذه الأخبار مختلفة مما يُصعّب معرفة حقيقتها.

دنا القيصر من النافذة. الجوّ هادئ خلافاً لقلبه. الثلج اللطيف الذي سقط أمس نشر النعومة في كل مكان، ويستقر في كل مكان يستطيع الوصول إليه: على الأشجار، وسطوح البيوت، والأسلاك الشائكة، وأعمدة مصابيح الشموع، وبقايا زهور العام الماضي، وأعشاش العصافير... وحين تُلقي الشمس الحمراء الضخمة التي ترتفع إلى كبد السماء أشعتها تلون الدنيا بلون عجيب بين الأحمر والأبيض. وكلما تأملت في المنظر بعث في الذهن أفكاراً جديدة.

قال القيصر لنفسه: أنكون لا تنصرف على نحو صحيح مع الأديعية إذ لا نفهم مطالبهم؟ ماذا يريدون؟ وما الذي لا يُعجبهم؟ ترجّونا في ولاية القيصر إيفان باسيليفيتش الكبير طالبين الانضمام إلينا ومساندتهم، وزوجّوه من ابنتهم ماريا ابنة آل تيمرقوه. وكنا نخالطهم ويُخالطوننا. والآن لا أعرف ما الذي جرى لهم؟ لو لم نتوجه إلى الأديعية لكان الترك ضموهم إليهم إن عاجلاً أم آجلاً. فلماذا نسمح للأتراك أن يفعلوا هذا فيقيموا على عتبة بابنا؟ لن نجتاز البحر، ما إن نجتاز حدودنا الجنوبية بضع خطوات حتى نصل إليهم. ليس الوصول إليهم مشكلة بل المشكلة أنك لا تعرف إلى من تتحدث لأنهم من أعراق كثيرة. ماذا يسمى سلطان خانجري هؤلاء؟ كان يؤدّي القيصر أن يتذكر اسم أحد الأعراق، غير أنه لم يستطع. ثم برأ نفسه، وغضب على الأديعية قائلاً: من يستطيع أن يحفظ أسماء هؤلاء المتمردين؟ لسنا بحاجة إليهم بل إلى الأرض التي يشغلونها. ما نحتاج إليه هو ساحل البحر الأسود، والأرض الرائعة على الضفة اليسرى لنهر بشزه. إن أخضعنا الأديعية واحتلنا هذه الأرض أمّناً لروسيا حوباً رخيصة. ولكن لا يجوز أن نأطل في الأمر. يجب أن نوجّه كل قوتنا إليه. ولو وجدنا حلاً آخر مع الأديعية دون اللجوء إلى السلاح لكان أفضل.

تذكر القيصر مرة أخرى سلطان خانجري. وانتصب أمامه بقامة ممشوقة وزى أديعي تناسبه الرتبة الروسية على الكتفين. في حدود الخامسة والثلاثين من عمره، متعلم، ومثقف، وسليل أسرة أمراء. ونقذ المهمة التي أنطناها به وهي التعرف على إقليم الأديعية. ووضع أمامنا كتاباً كاملاً عن تصوراتنا. والسلبية

الوحيدة التي لاحظناها فيه هي أنه كان يريد تزعم الأديغة وهو الموفد القيصري إليهم! ولو سائرناه في مطلبه لما جرت أمورنا في جنوب روسيا كما نريد. اليوم يقولون شيئاً وغداً يتراجعون. وإن وجد الأديغة المشتتون قائداً حازماً اتحدوا وطالبوا بدولة مستقلة. الأفضل من هذا هو أن تُخضع هذه الأعراق المفتتة واحداً واحداً. وها هو زانه زعيمٌ على ساحل البحر الأسود يثير الناس، والعجيب أنه خدم في جيشنا!.. واليوم يخدم ابنه فيه. وما لم يتحقق لخانجوري في شأن الأديغة يحاوله زانه سفري. يبدو أنكم تريدون أن تُركبكم الحصان ثم ترفسون! وحين لم يتحقق لزانه مراده عندنا توجه إلى تركيا. وفي السنوات الأخيرة خدم في الجيش التركي. سلطان خانجوري بالقياس إليه مخلصٌ لنا، طلق الوجه نحونا، ولا يعبت برتبته. ولم يتصرف معنا مثل ما تصرف زانه حين لم نوافقه على مشروعه. يخدم بلاده صابراً رزيناً.

"أكون أسأنا معاملتهم؟" - لا يفارق هذا السؤال ذهن القيصر. وكلما انتقل إلى فكرة أخرى محاولاً إبعادها عنه عادت إليه. وكل مرة يبحث عن عذر لسلوكه مع الأديغة، ويجده. ومهما وجد لم يرتخ إليه. أياً كان عند الأديغة باستثناء هذين من يمكن التفاهم معه من جهة، ويطوق الأديغة من جهة أخرى؟ ولا يهم إن كان فلاحاً أم أميراً!

هجمت من بعيد جداً فكرة متفائلة على قلب القيصر. تذكر أنه سمع في أسرته خبراً مفاده أنه في أواخر القرن الماضي، وقبل أن يتسلم نيقولايف بافلوفيتش الحكم، بل لم يكن في حال تسمح له بالوصول إليه، كانت جدته إيكاترين الثانية أهدت سيفاً فضياً إلى أحد أمراء الأديغة. وعلى ما يُقال كان أميراً على الأديغة المقيمين مقابل قلعة إيكاترينودار؛ فإن كان أحد أفراد هذه الأسرة حياً فلن ينسى صنيع القيصرة. وإن جرى استغلال هذه المناسبة كان خيراً.

انفتح باب القاعة لحظة تذكر القيصر هذه الذكرى الحلوة، وقال الداخل:

- أيها المحترم الذي يُجلّونه، جاء جواب كتابك الذي تنتظره من تركيا.

- من الذي يكتب؟ - سأل القيصر الذي يصالب يديه خلف ظهره إلى مَنْ وراءه.

- السلطان التركي محمود الثاني.

- اقرأه!

- "إلى قيصر روسيا الذي نُكِّنَ له كل الاحترام والتقدير. نُعلمكم أننا نَقْدنا لكم طلبكم: احتجزنا الأمير وانه سافرني في تركيا. وأعدنا إليه رتبته التركية في الجيش الذي كان التزم بخدمته. ثقوا من أن زانه لم يعد قادراً على إثارة الأديغة ولا على إقلاقكم..."

- كفى، لا داعي للمزيد. أوقفه قبل أن ينطق اسم السلطان التركي. والتفت على مهله ورأسه الضخم يثقل عليه. وسأل وهو يعقد يديه على صدره: - والسلطان لا يطلب شيئاً؟
- لا يطلب شيئاً.

- عجيب أن من يهوى الطلبات نسي أن يتوسل شيئاً. - ابتسم القيصر، ثم سأل ثانية كما يفعل دون استعجال: - ما الموعد الذي حددتموه للعقيد سلطان خانجري، موفدنا إلى الأديغة؟
- الساعة الحادية عشرة أيها المحترم.

نظر القيصر إلى ساعة جيبه الذهبية حين فتحها، مع موسيقى عذبة - الساعة الآن العاشرة والنصف، وسأل:

- أين سلطان خانجري؟

- على باب غرفتك.

- دعه يدخل!

عاد القيصر إلى مجلسه، ومرّ بعينيه على الورقة ريثما دخل خانجري. وقال: نَقْدوا دون تأخير ما طُلب منهم بشأن زانه. هل يجوز أن تثق بالكتاب؟ وفكر، ولكنه لم يجد في الورقة ما يدعو للشك. ومرة أخرى مرّ سريعاً على الورقة. يسمون زانه بالأمرير الأديغي وليس بالأمرير الناخوي. أعن جهل أم عن قصد؟ كرر أكثر من مرة كلمة "أمرير أديغي"، ثم قاطعته تحية خانجري.

راجع خانجري طريقه منذ أن أبلغ بأن القيصر يريده، متسائلاً عما يريده منه. وراجع من جديد أفكاره بخصوص المسألة الأديغية التي يحملها إلى القيصر كما لم يفعل في سنواته الأخيرة. والآن، تبعاً لما يجري على ساحل البحر الأسود، وعلى ضفة نهر بشزه، لم يبق إلا اللجوء إلى السلاح. أريد أن يرسلني محارباً إلى

إقليم الأديغة؟ كانوا أرسلوني في مثل هذه المناسبة إلى بولونيا، ولم يكن الدم الذي سفكناه قليلاً... وجرحْتُ ثلاث مرات... تراخت أعضاء خانجري، وثقلتُ. لن أستطيع أن أفعل لهم ما فعلتُ في بولونيا مهما كانت النتائج... كان يعرف أن القيصر ليس من النوع الذي يقول الكثير، ولا يمكن الاقتراب من أفكاره السرية. ولذلك كان خانجري مستعداً للحديث القصير المتوقع؛ أكان موفداً منقذاً أوامر له عبثاً؟.. والشيء الوحيد الذي لا يعرفه هو سبب استدعائه، أما سائر المعلومات فيعرفها.

أخطأ خانجري في هذه المسألة. كان لسان القيصر متحرراً في الموقف الذي هو فيه الآن. ما الذي جرى له اليوم؟ لم يملك خانجري إلا أن يتعجب مما يشهده. سأل القيصر عن سير خدمته، وعن أسرته، وصولاً إلى أصدقائه. وبعد قليل من هذا الحديث، بدأ قضية الأديغة بخبر زانه سفري:

- هل زانه سفري من معارفك؟

- نعم أيها المحترم.

- من أي فرع من الأديغة هو؟

- من الناتخوي يا محترم، - ما الذي أوصلك إلى زانه الآن؟ ماذا ينوي بحقه يا تُرى؟ سرت إلى رأس خانجري أسئلة تتعلق بحياة سفري: أيعود جري له شيء؟ وغلبه شيء من الغيرة.

- الأديغة كم عرفاً لهم؟

- هم اثنا عشر فرعاً يا محترم. الشابسغ والأبزاخ والبجدوغ والبسلني والقبرتاي... - يسرد خانجري أسماء القبائل الأديغية محاولاً أن يثبتها في ذهن القيصر. - والويخ والجمكوي...

- والناختوي؟ ألم تقل لي إن زانه منهم؟

- نعم يا محترم. - ما يزال خانجري يتساءل عن سبب التركيز على زانه. - ولكن يمكن القول إن الناتخوي والشابسغ فرعٌ واحد. يسمون أنفسهم تبعاً لمكان سكنهم.

- من من هذه الفروع التي ذكرتها يمكن أن يؤذينا أكثر من غيره؟

- كلُّهم إن أردت الحقيقة يا محترم. - حُيِّل لخانجيري أنه انتقم من القيصر، وارتعب خوفاً من أن ينكشف.
- ربما في قولك: "كلُّهم" شيء من المبالغة. - ابتسم القيصر معتدلاً بقوة بلاده. - تنق بالقبرتاي.
- ساعِني يا محترم، إن كنت تعتقد هذا بشأن القبرتاي فقد يكون هذا صحيحاً... ولكن لا أكتمك لأنك سألت: لم أخاط أي فرع من الأديغة مسروراً باجتياح روسيا أرض الأديغة.
- وهل يتكلم الأديغة لغة واحدة؟
- كما كنت كتبت لك يا محترم. - أترأه لم يطلع على ما كتبتة والذي وضعوه أمامه؟ - يختلفون في بعض اللهجات المحلية قليلاً. يتكلمون لغة واحدة، ولهم عادات - شرعة واحدة. ودين واحد، وتفكيرهم واحد.
- وجهُ خانجيري نحو النافذة التي اقترب إليها القيصر. وعلى عادة جيشه يدها على خاصرته. وما يراه القيصر من الثلج هو ما كان يراه قبل هذا الوقت حين كان ينظر عبر النافذة. ولكن حُيِّل إليه أن العالم اكتسب مظهر حزن لم يفهمه قبل.
- قال: الحق أن العالم لا يكون سعيداً ما لم تسمع أخباراً سعيدة. ثم فهم متأخراً أن الشمس التي غابت وراء سور القصر هي السبب في المظهر الحزين للنديا.
- سؤال آخر أيضاً. - سأل القيصر من وراءه: - هل تعرف أحداً من الأديغة سواء كان أميراً أم فلاحاً يمكن أن تحادثه وأن تجد عنده رجولة والتزاماً؟
- أعرف يا محترم.
- ما أسماؤهم؟
- تسي حاترباي من الأبراخ، وزانه سفربي من الشاسبغ، ومن الوبيخ برزج جراندوقوه، ومن الجمكوي الأخوان بولتقوه، ومن البجدوغ حجمقوه أسلانج.
- من ذكرت من البجدوغ؟ - استدار القيصر بسرعة.
- حجمقوه أسلانج.
- أليس البجدوغ من يقيمون مقابل إيكاترينودار؟
- نعم يا محترم. - استغرب خانجيري سؤاله عن البجدوغ، ثم أضاف: - وأنا آتي من تلك المنطقة.

- أليس آل حجمقوه هم من أهدتهم قيصرة روسيا سيفاً فضياً؟
 - نعم يا محترم. ألقس والدُ أمير الأسرة اليوم هو من قدمت له إيكاترين الثانية سيفاً باسم قيصرة روسيا. - وأضاف من أجل ألا يسأله إن كان الأمير ما يزال حياً: - رحل عن الدنيا قبل بضع سنوات. أتذكّر حجمقوه ألقس، كان رجلاً حكيماً. - لم يستطع خانجري إلا أن يمتدح الأمير الكبير.
 - يقال إن الرجل الصالح لا يخلف رجلاً طالحاً. - ثم قال لخانجري بعدما تفحص وجهه: - أقول لك اليوم إننا راضون عما قمت به من مهام أيها المحترم، - لأول مرة منذ عرف القيصر يخاطبه بكلمة "محترم" - شهدت على صدق العهد الذي التزمت به في حضرتنا. وأكرر الشكر لك باسم قيصر روسيا. وقد أصدر القيصر أوامره بمكافأتك على خدماتك. والسبب في دعوتك أيها المحترم كما قبل أعوام عملٌ مماثل. نخوض اليوم حرباً لا ضرورة لها في إقليم الأديغة. وأنت تعرف شخصياً، وإن لم أذكرك، أن قيصر روسيا لا يريد إراقة الدم الأديغي. ولكن الفلاحين الذين يعاندوننا دون سبب، في الوقت الذي نرجوهم فيه ألا يفعلوا، يُجبروننا على اللجوء إلى السلاح. القيصر يتحلى بالصبر وبالرحمة، ولكن حين يدفعونه إلى اليأس يفقد صبره ورحمته. وحين يركب غير حصانه يقبل منه الله. أطلب منك أن تقابل باسم القيصر، لا أمراء الأديغة الذين عددت أسماءهم وحدهم، بل نخبة الفلاحين¹ الذين تثق بهم أيضاً. بوذي أن تكلمهم باسم قيصر روسيا، سراً أو علناً كما تريد، أنت أدرى بقومك، ويرى كلٌ منهم نفسه في موقعه الذي هو فيه، ويرتاحوا جميعهم تحت جناح القيصر. وأفهمهم أن القيصر لن يهملهم في ما يحتاجون من ملك وأرض ومال. وأنا واثقٌ منك في هذا. مرة أخرى نظر القيصر بعينين زرقاوين مطمئنتين وقلقتين معاً في عيني خانجري. ثم أضاف مبرئاً نفسه: - ساحني على عدم موافقتك على الكتاب الذي رفعته إليّ قبل أعوام بشأن الأديغة. لم يكن ما فيه موافقاً لأفكار القيصر في ذلك الوقت.

¹ سيرد شرح للتعبير ولغيره من طبقات الأديغة على لسان النائب مُجد أمين في الكتاب الخامس الفصل الخامس، الصفحة 475 من النص الأصلي.

- حياك الله يا محترم على ثقتك بي. - قال خانجري وتظاهر بأنه لم يسمع كلمات القيصر الأخيرة. - سألي طلبك، وسأقابل من ذكرت أسماءهم وغيرهم. وسأجعلهم يفهمونك بقدر الإمكان. من مصلحة الطرفين أن يتفقا ويتفاهما. لا يجب الله إراقة إنسان واحد فكيف بدم شعب كامل، وأنت تعرف هذا. ولكن أرجو أن تفهمني أنا أيضاً يا محترم. لا أظنهم يتقبلون كلامي ورتبة الجيش القيصري على كتفي. إن أرسلتموني زعيماً عليهم والله والقيصر وثقتهم معي فستعود فائدتي على روسيا العظمى. وسأجعل الأديغة يعايشونكم بإخلاص...

تراجع القيصر متمهلاً وبكل لطف من النافذة، وعاد إلى مجلسه. وبعدما لعب بأصابعه النحيلة البيضاء مدة على الطاولة نفض ثانيته. واقترب من خانجري قليلاً واختتم وهو يتأمل عينيه قائلاً في نفسه: هذا إن قبلوا بك. كنت أظن أنك نسيت، ولكن ما زال عندك نوايا عجيبة: - في ما قلته معنى مُهم، سنفكر فيه.

لم يكن في أفكار القيصر التي عرضها على خانجري أي شيء صحيح. ولم يكن خانجري قادراً على أن يفقد أماله بالقيصر مع أنه كان يفهم حقيقة معاني الكلمات المرئية. وكان يهز رأسه مع القيصر، ويوافقه على كلامه، طمعاً في إيصال آماله إليه. ولم يكن يفقد الأمل في أن يتزعم الأديغة مهما قيل له ومهما تصرفوا معه...

ولكن المناسبة التي فهم فيها خانجري كل ما سبق هي الرسالة التي بعث بها بنكندورف إلى وزير الدفاع الروسي تشيرنشيف¹ قبل أن يسرح من الجيش كلياً بمنحه استراحة صحية لمدة اثني عشر شهراً، وإرساله إلى قريته لوستان حابله.

¹ في 17 آذار عام 1840 يكتب بنكندورف إلى وزير الدفاع، قائد الجيش الروسي تشيرنشيف: "مرض جداً قائد القوات القفقاسية الجبلية خانجري. ورغم جهود الأطباء لم يستطيعوا معالجته... وشفأؤه في رأي الأطباء مرهون بإعادته إلى قريته لمدة محدودة"

ولما رجع خانجري وقد شُفي تماماً إلى بطرسبورغ سُرح في 1 حزيران عام 1841 من الجيش الروسي مع إمكان الاحتفاظ برتبته، عاد إلى قريته لوستان حابله القريبة من إيكاترينودار ليعيش فيها. المؤلف.

ولما انتهى من استراحته، وعاد إلى سان بطرسبورغ سُرحَ نهائياً من الجيش وصار حراً في ارتداء رتبته العسكرية...

V

زاد نيكراس رفعت من تعداد الجيش الروسي الذي يزيد يوماً عن يوم في أرض الأديغة.

كل شيء حسنٌ بالنسبة إلى رفعت، وزالت قرية دخاباه عن الوجود في نظره، ورحل عن الدنيا أبوه وأمه وأخته وأصدقائه. والوحيدة التي ما تزال حية في نفسه هي بولينا. والبقية، أيّاً كانوا أعداء باستثناء الروس.

حين دخل خانجري قبل أيام إلى منعة شَبَج في كامل أناقته الأديغية لفت بوتينك فاسيل نظر رفعت:

- انظر مَنْ أتى إلينا!

- وهل عجيب إن جاءنا خانجري؟

- كان هذا موفداً خاصاً للقيصر.

- وسُرحَ من الجيش الروسي!.. - نظر إليه رفعت بعين مُبَغِضَةٍ.

لم يتصرف رفعت مع قرباتر كما فعل قبل أيام مع خانجري. أول من خطر له حين سمع أنه جاء من أنابه هي بولينا. كان هبّ لاستقباله ولكنه توقف محدثاً نفسه: بأي حجة ألتقي به؟

كان قرباتر يعرف أن رفعت يقيم في منعة شَبَج، ولكنه لم يكن معنياً بالإسراع في لقائه. وكانت تغلبه فكرة: ماذا أفعل بمن هجر الأديغة وانضم إلى القوزاق؟ ولكنه سينفذ رجاء ماريّا أخت رفعت. ولو لم يعد خطيبته بولين لما قابل خطيبها بل ما سمح له أن يتخذ منه جليساً أو مزاراً؛ فقرباتر لا يتقبل أمثال هذه الطباع والتصرفات. ليست هذه طريقة في الانتساب إلى الجيش وأنت لا تطاردك تهمة فتهرب منها، ولا براءتك توقفك عن قرارك. ثم إن ما كان قرباتر لا يتقبله هو ما كان يصل إليه من أحاديث رفعت بخصوص الأديغة.

تأخر قرباتر عن لقاء رفعت منشغلاً بقضايا خدمته العسكرية. ومرّ مرتين أو ثلاثاً بجانب القوزاق الذين يقف معهم. وحيّاهم وحيّوه. ونظر بطرف عينه إلى رفعت الذي كان يتأمل منه أن يناديه من بينهم أو يقول له أي شيء.

حيّا رفعت قرباتر مشدود القامة، ملتصق القدمين، وراحة كفه إلى جانب جبينه:

- أتى إليك تيموفي بن نيكراسوف رومان المحارب في منعة شَبَج القوزاقية إذ طلبته أيها النقيب الركن.

- ماذا قلت؟ اجلس هنا! - ابتسم قرباتر.

- لا بأس، لا يجوز أن أجلس في حضرتك أيها النقيب الركن. - أبرز رفعت ثانية لغته الروسية.

- اجلس متى طُلب منك الجلوس!

- لا يجوز أيها النقيب الركن!

- هل جننت يا مبارك النسل، أنا أحدثك بالأديغية وأنت تحيب بالروسية!.. ألسنت من يُطلب منه الجلوس؟.. - احتدّ قرباتر، ثم هدّده: - إن لم تنقذ الأوامر سجنّتك.

- خيرٌ لي أن تسجنني أيها النقيب من أن تجبرني على الحديث بلغة أعدائنا!

- أغرب عن وجهي أيها المجنون! - هبّ قرباتر واقفاً.

- كما تريد أيها النقيب، - اختفى رفعت خارج الباب.

- ثرثار!.. - تبع قرباتر بالكلام من خرج من الغرفة.

لم يفارق رفعتُ ذهن قرباتر منذ خرج من منعة شَبَج حتى وصل إلى أنابه. ما كان ليصدّق سلوكه في الجيش الروسي لو لم يره بعينه، ولم يكلمه بنفسه. وقبل الآن كانت تصل إلى قرباتر أخبارٌ سلبية عن رفعت، ولكن لم يعرفه على حقيقته. يفكر فلا يجد سبباً لسلوك رفعت. لماذا تنكّر رفعت للأديغة إلى هذا الحد؟ ماذا فعلوا به؟ يَم أسأؤوا إليه؟ ما إن يسمع كلمة بالأديغية حتى يشحب لونه... قال قرباتر: هل يجوز أن يتصرف هكذا لأنه أحب فتاة روسية؟ يجب التحدث إليه وإعادةه إلى وعيه.

تذكر قرباتر، في غمرة خواطره بشأن رفعت، الرسالة التي بعثها إليه من تركيا والده. وانصرف بقلبه إلى قريته، ليس لأنهم يُعادونه في الجيش الروسي الذي يخدم فيه؛ فبعضُ النظر عن توقيفه على إثر مؤتمر الشابسغ، ما إن رُفِع فجأةً بأمر من القيصر حتى صار نسبُهُ واسمه مشهورين ليس في الوحدة المرابطة في

أنابه فحسب بل في إيكاترينودار، وشنته قاله وغيرهما من المواقع القوزاقية. يكتب له والده "... تثبت نفسك في الجيش الروسي الذي انضمت إليه، وتحلّ بالأخلاق الحميدة...!"

كان الجانب الروسي الذي فتح الرسالة وقرأ هذه الأسطر سعيداً بها ولكن لم يعرف السبب. ولم يكن قرباتر يسمع هذه التوجيهات لأول مرة ولكن الزمان الذي قال له فيه هذه الكلمات مختلف عن هذا الزمان. في الأشهر الماضية كان والده يتأمل أن يقابل القيصر نواياه بجواب إيجابي. والآن هو موجّه مؤتمر الشابسغ، ويتابع في تركيا قضايا الأديغة. ولا يكفي هذا بل يكتب إليّ طالباً مني ألا أنسى معروف الروس، وأن أستقرّ بينهم. فكيف تفهم هذا التناقض؟.. لو كان قرباتر يعرف تفسيراً لموقف والده لما فضّل عليه شيئاً آخر. يتألم قلبه حين يفكر في المهمة المنوطة بالجيش الذي يخدم فيه، فيرتمي بقلبه في قريته. لا تفارق ذهنه مرابع إقليم الأديغة حيث عاش، ومساءات قرى الأديغة، والفلاحون المتجمعون على أسوار الحظائر، وأغاني المضافات، انتهاءً بنباح الكلاب، وصياح الديكة. ويخيّل إلى قرباتر أنه إن نظر واقفاً على أحد طرفي إقليم الأديغة ورأى سماء الأديغة وفكرّ وقع في عالم آخر. يقول قرباتر لنفسه: كيف أستطيع أن أترك أبناء قومي وأعايش هؤلاء الذين جاؤوا يسلبوننا أفراحنا وأحزاننا وشرفنا الأديغي وأفكارنا؟ أظن بعض رفاقي الضباط، لا يوافقون القيصر في أفكاره وإن لم يعلنوا صراحة. وبعض الجنود يتناولون القيصر بالمزاح والسخرية حين يغيبون عن رقابتنا. وأظن راكيتوف كان من تنظيمات الديسمبريين¹. وحين تصدى للقيصر خفضوا رتبته إلى نقيب وأرسلوه إلى حرب القفقاس.

¹ هم مجموعة من النبلاء والضباط ذوي الميول الإصلاحية انتفضوا على القيصر نيقولاي الأول في 14 ديسمبر / كانون الأول عام 1825، ومن هنا لصق بهم اسم الديسمبريين، احتجاجاً على تولّي نيقولاي الأول العرش، وحركوا قرابة 3000 جندي إلى ساحة مجلس الشيوخ في العاصمة القيصريّة سان بطرسبورغ. ولكن الانتفاضة قُمت، وأعدم بعض

- تذكر قرباتر حديث النقيب راكيتوف قبل أيام:
- أهنيك يا محترم على أنهم أنعموا عليك سريعاً برتبة النقيب بعد اعتقالك. ولكن لا أعرف ماذا فعلت في السجن من بطولات. - بادره راكيتوف على نحو لا تعرف إن كان حقاً يهنته أم يهجو.
 - ربما لأنني قضيت وقتي في السجن أصغر للجرذان.
 - وإن تكلمت جدياً يا محترم؟
 - وأنا مهموم بهذا. أخبرني إن كنت تعرف.
 - أياكون السبب ترعّم والدك لمؤتمر الشابسغ؟
 - ووالد نيكراس رفعت ساهم في المؤتمر.
 - والده من العامة الفلاحين، ووالدك أمير.
 - كثير من الأمراء يعيشون في إقليم الأديغة!
 - لا أظن كل الأمراء قادرين على عقد مؤتمرات للعامة.
 - وما أهمية عقدك مؤتمراً للعامة؟
 - لا تقل هذا يا محترم... - كان النقيب بدأ حديثاً معه ولكنه قطعه سريعاً، ثم سأله: - هل تعرف جواب والدك في المؤتمر حين سُئل عنك؟
 - سأسمع منك أول مرة.
 - أجاهم أنه سيقابلك بالسيف إن التقيتما في معركة.
 - متى وصل الأمر إلى هذا الحد فلن يرتاح السيف إلى جانبنا.
 - أظن أن سيف والدك أيها النقيب الركن يتمتع بالعدالة أكثر من سيفك، فكري!
 - فكرت فيه قبل زمن بعيد أيها النقيب الركن.
 - فكر قرباتر كثيراً في الحديث المفاجئ الذي دار بين الاثنين عند الساقية. وكان يود مقابلة راكيتوف بعد ذلك النقاش ولكنهما لم يلتقيا.
 - وبعد هذا الحديث بشهرين أو ثلاثة جاء نيكراس رفعت مسرعاً إلى قرباتر.
 - ماذا جرى لك يا رفعت؟ هل هناك أخبار سيئة؟

رغمائها، ونفي غيرهم. على أنها أثّرت إيجابياً على الوضع في روسيا، كتحرير الأقنان عام 1861. وتكلم عليها الأدباء مثل تولستوي في روايته الشهيرة "الحرب والسلام".

- انتقمْتُ من راكيتوف.

- كيف؟

- أعفني من ذكر إزعاج هذا المجنون لي شاكياً إياي إلى بوتينك فاسيل، متحاملاً علي بحجة أن معاملتي للجنود سيئة! وأمس ضبطته يهمس للجنود بخصوص القيصر، فحدّث فيشيسلافتسيف بالأمر فاعتقله قبل الفجر. هل يجوز لك أن تقول لي أي شيء لأني أديغي يا سليل الكلاب؟

- وهل أنت مقتنع بصواب ما فعلت يا رفعت؟.. - سأل قرباتر من يقف أمامه والخبر ما يزال طازجاً، ولونه قد امتّقع.

- وهل يحتاج هذا إلى سؤال يا قرباتر؟.. صحيح! يجب أن تتكالب مع الكلب!

- اخرس يا رفعت!

- ماذا جرى لك يا قرباتر حتى تصرخ في وجهي؟ - الآن فحسبُ رأى رفعت قرباتر الواقف أمامه في غاية الشحوب. ولم يعرف تفسيراً لتصرفه مع الصديق هكذا.

- لم يجر لي شيء، - صحا قرباتر، - ما حدث لي هو أنت!.. - أضاف بصوت ناعم ولكن ما يقوله يمزّق أعماقه: - لا تجوز الوشاية بمن هو زميلك في السلاح ويمكن أن تخوض معه معركة يا رفعت!.. عليك أن تتجمل مما فعلت.

- وإن لم يش به أحدٌ... - تلعثم رفعت غير عارفٍ ما يقول. ثم أسرع بالقول: - لا تُشفق عليه يا قرباتر، لا تشفق، وهو أيضاً وشى بك.

- وكيف وشى بي؟

- قال إن القيصر رفع رتبة زانه بمهدف استمالة الأديغة... استدرجنا إلى أرضه فهو الآن يتوسل إلى زعمائهم. وقال لجنوده إن القيصر جاء بكم إلى الأديغة هُنا.

- وما الخطأ الذي رأيته في هذا الكلام؟

- تسألني ما الخطأ؟! - سأل رفعت ثانيةً. وبعدما عبّر عن كل ما في قلبه سأل بنبرة لطيفة، دون أن يدري ماذا يحدث له، شاعراً بالخجل مما قال: - الحق

يقال يا قرباتر أن راكيتوف لم يسي في كلامه إلى الأديغة... ولكن ألسنا أنت وأنا في الجيش الروسي؟ لم أستطع الصبر...
قُبيل الظهر اصطحب قرباتر رفعت ومضيا إلى الجنرال فيشيسلافتسيف ليترجاه بخصوص راكيتوف. جعل رفعت يعترف أنه افترى على راكيتوف نتيجة عدااء بينهما، فأطلق سراح راكيتوف بعد توبيخ شفهي للواشي.
لم يكن راكيتوف يعرف في اليوم التالي وما تلاه من سعى في إطلاق سراحه. ولم يدع قرباتر أحداً يسمعه في هذا الموضوع. أما رفعت فأقام في منعة شبج يرصد البجدوغ والشابسغ والأبزاخ، والأديغة عموماً، وكأن فمه مملوء ماءً فلا ينطق بحرف، متمنياً ألا يكشف أحد وشايته.

VI

تعرف من إقامة المواشي في مستراحاتها، ومن طريقة خوارها، أن الشتاء لم ينته تماماً ولكن الربيع على الأبواب. وحيث ذاب الثلج يبرز العشب الأخضر من بين الحشيش اليبس المتفرق. وترى الطيور أكثر ما تراها في مضاحي الشمس على جدران الحظائر، وعلى أعالي الأشجار. ويُسمع في القرية صوت الفلاحين يسنون محشاتهم بالمطارق الصغيرة استعداداً للربيع.
واليوم هو أول يوم من الربيع يقيم فيه خانجري في قريته.
لم يمض شهرٌ على قدومه من سان بطرسبورغ. وكان عنده ما يكفي من الوقت للتفكير والعربة ترحه في طريقه البعيد. عاد إلى لوستان حابله بعدما قضى نصف سنوات عمره الأربعين، إن لم يكن أكثر في الجيش الروسي، غير عارفٍ كم بقي له من العمر، مرتعباً نوع رعبٍ من الحرية الغالبة عليه، مبتسماً متى فكر في المهمة التي أناطها به القيصر.
كان عند خانجري الكثير مما يفكر فيه. ولم تكن الأيام التي لا يعرف ما ستحمل إليه أقل من الأفكار.

لا يمكن القول إن خانجري لم يُخلص للقيصر الروسي. كان مخلصاً له، صادقاً معه، صافي السرية. وعاش معه يستقل ما يخدمه به، ويفكر بالمزيد. ويتأمل أن يبرز في خدمته له. والقيصر لم ينس له هذا الإخلاص. منحه مبلغاً جيداً وسرّحه من الجيش، فعاد مكلفاً بمهمة واضحة مع الأديغة. وهو حرٌّ في رتبته

يمكنه أن يلبسها وأن ينزعها. وليس هذا سراً إذ أن معه ورقة تشهد له بهذه الحرية. أما السري فهو المهمة التي أوكّلها إليه. ولا يعرف بها إلا القليلون من حاشية القيصر. ومن يهتم بهذا الموضوع؟! لا أحد!

ولكن هل سلطان خانجري محتاج إلى هذه المهمة؟ قال خانجري: ألا يكفي ما نفذت أوامره قبل أن تخرج من فمه؟ طلبت منهم، بل رجوتهم ألا نفتحم أرض الأديغة بالقوة بل أن نتفاوض معهم ونتفق فندخلها عبر موفدي القيصر. وبذلتُ معهم جهدي فحُيِّل إليهم أني أسلبهم ما صار في أيديهم. لم يسمعوني بل اعتبروني مجنوناً يمكن خداعه. والآن بعدما خافوا ألا تنجح مهمتهم رجعوا إلي... ليس الأديغة كما تتصورونهم. صحيح أنه لا دولة عندهم ولكن يجمعهم رباطٌ خفي من شرفهم القومي، ومن شرعتهم، وغط حياتهم، وعلاقاتهم في ما بينهم. ورجولتهم. لا تغتروا باعتباركم لهم قبائل متعددة فإنهم يتكاتفون عند الضرورة، في الأوقات العصيبة. وكثيرون حاولوا احتلال أرضهم: خان القرم، وتركيا فعجزوا.

رجع خانجري مع موعد الفطور إلى لوستان حابله بعدما رَوّض حصانه. وإلى يساره شبه مرتفع سهلي. ووراءه حارسان من الفلاحين يتبعانه غير قريب وغير بعيد. وهما حاضران عند أي احتمال للخطر. والحصان الأشقر الذي يمتطيه الأمير يخطر في مشيته فرحاً برائحة الربيع القادم. وحين تنزلق قائمته أحياناً على كتلة تراب رطبة تتناثر أفكار خانجري. وحين يكون في الرأس كثير مما تفكر فيه يخطر على القلب الكثير أيضاً. ومهما تنوعت أفكار خانجري لم يملك إلا أن يعود إلى الفكرة نفسها. ليس لأنه لا يملك جواباً لها، فقد أنهاها قبل زمن بعيد، حتى قبل أن يفارق القيصر. ولكنه لم يستطع أن يتجاوز تماماً ما في القلب. كيف يمكن أن تقول للقيصر الذي حياتك في يده: لا أوافقك، ما تقوله غير صحيح؟.. هذه ليست شجاعة. ومن دون هذا فأنت قريب من القيصر، تنفذ معه كلامه، والأديغة يعتبرون عليّ متهمين إياي بأني واحدٌ ممن جاؤوا به إلى أرضنا. ولكن لا أعرف في شخصي ما يجوز أن يعتب عليّ الأديغة لأجله. كنت أحاول دغم قضيتهم، لا إضعافها. حين تخدم القيصر وليس لك حرية التصرف تُضطرُّ إلى أن تفعل وتقول ما لا يجوز دون أن يعني

هذا أني ارتكبت أخطاء في حق الأديغة - أعترف بالخطأ الوحيد الذي ارتكبته: كان عليّ ألا أدلّ القيصر على الأماكن الخفية في إقليم الأديغة. ولم يكن من الضروري التدقيق في التفاصيل إلى هذا الحد. ومهما فعلت كان عبثاً لي وللأديغة.

حتّ خانجري الحصان أملاً أن يتخلص من أفكاره. وحين انتفضت الدابة غير المستعدة للجري من الحثّ المفاجئ انزلقت قائمتها الخلفية اليمينية، فشّد خانجري اللجام، وأوقفه بساعدٍ قوي. استاء خانجري من سهو الحصان فشّد اللجام وساطه على قفاه فحمل الحصان على الارتقاء بقائمتيه الأماميتين، والانزياح جانباً. كان الحصان الغاضب يريد الجري غير أن الحكمة الحديدية في فمه منعه. وأسالت اللعاب من فمه، وجعلته يصهل. وغضب من كان على السرج لم يكن أقلّ من غضب الحصان:

- ماذا جرى لك يا ذا الرأس المنتصب حتى تنزلق يميناً ويساراً! - مرة أخرى شدّ خانجري الحكمة. - كدت تجلب لي العار أمام الفلاحين وأمام القرية كلها. إن كنت لا تشعر بي فأنت نائم أيها المهترج!..

برز من مخرج الغابة المنخفض ثلاثة فرسان، يتقدمهم حجمقوه أسلانج. وبعدما ألقى القادّم التحية قال دون انتظار الجواب:

- ماذا بينك وبين الحصان يا أمير؟

- والله لا أعرف يا أسلانج، - قال خانجري ممتعضاً من التقائه بهم في مثل هذا الموقف، متهمّاً الحصان، - لا أعرف ماذا جرى هذا الصباح لصاحب الرأس المنتصب هذا، ينزلق، ويقفز، ويرتجف... - وقال مُسمِعاً حجمقوه ومرافقيه ما يقوله لحارسه هو: - هيا اسبقاني، لا شيء أبغض إليّ من هذا الجفّال، أظني سأبدله...

- يا خانجري حصانك هذا من نوع أصيل. ليس من النوع الذي يخذلك. يقال إن الحصان يشعر بحال راكبه. أهنأك ما يشغل بالك يا أمير؟

- أليس علمنا كله مما يُقلق يا أمير!.. - لم يحاول إخفاء شيء مما يريد أن يقول، وأكمل: - ولكن خرجنا هذا الصباح نرتّض دون هموم. ليس هذا مشكلة يا أسلانج، أنتم ما أحوالكم؟ ما الأخبار في نواحيكم؟

- كما تعرف إن شاء الله. نرضى بالواقع إن لم يتدهور الوضع. ولكن الجميع يرون بأن أعينهم أننا ماضون إلى الأسوأ. هؤلاء - أشار حجمقوه إلى الضفة اليمنى لتهر بشزّه، - صحيح أنك خرجت من خدمتهم يا أمير؟ قيل إنك تخلّيت عن رتبته.

- صحيح يا أمير، صحيح، - بدا من خانجري ارتياحه للجواب. - ما سمعته صحيح. ماذا أفعل مع من يعادوننا؟ - كنتم طريقة خروجه من الخدمة. - ولكن حقيقة الرتبة التي تسأل عنها هي أنني حرٌّ في ارتدائها. ومسموحٌ لي أن أقيم في إيكاترينودار.

- هل سرحوك ثم استدعوك؟

- ليس تماماً. ولم يتركوني دون مال. - أتى على ذكر النقود بحرص شديد يجسُّ نبض محدّته. - من يعرف ما يمكن أن يحدث؟ أبرز أنه لم يتركهم نهائياً - لا عتب لي عليهم من هذه الناحية.

- اعترفوا بخدماتك على ما يبدو؟ سأل فوراً.

- ليس في هذا مشكلة، - صبر خانجري بصعوبة على التلميح. وأجاب دون مناكفة، - ما يفعلونه هو تعويض كلّ خدماته. هؤلاء أحسنوا إلى والدك حجمقوه ألقس بسيف فضي... - قال خانجري: من أين أتاني هذا الرجل مع شروق الشمس؟ وابتسم للأمير كمن يقول له: لا تؤاخذني، يمكن أن يحدث مثله هذا. فإن زاد في مناكفته توجب علينا أن نتجابه. ثم أكمل حديثه مُبعداً الموضوع السابق: - هذه ليست مهمة يا أمير. لا جاءنا الله بما هو أدعى للقلق يا أمير! هذه ستمر كسابقاتها. أهّم ما أمامنا اليوم هو مصير الأديفة. أنا مهموم به، وهذا إن أردت الحقيقة سبب خروجي من الخدمة في الجيش القيصري.

- ليس في إقليم الأديفة من ليس مهموماً بهذا. إن كان هذا ما يشغل بالك يا محترم فخيراً فعلت، وهذا ما يجب أن يفعله اليوم الأديفة الحقيقيون. رأي زانه سفري صحيح: لا يجوز اليوم ومستقبلاً أن يقول أحدنا: هذا لي، وهذا لك، وهذه قريتي، وتلك قريتك. سنفنى - نحن الأديفة - إن لم نتوحد. ومن أجل

هذا أعود اليوم من الأبراخ العليا. ومن أجل هذا حُجِر على سفري في تركيا
ومُنِع من العودة...

ارتعب خانجيري وهو يتفكر في أقوال حجمقوه أسلانج. يتعجب من أن
حجمقوه غير ما تَوَقَّعه. وقال: من حسن حظي أنني لم أكتشف له عما في قرارة
نفسه. كنت أنوي أن أخبره حين أزوره بما يتوقع القيصر منه. أخبروه في
إيكاترينودار يا ترى؟ كان الأفضل لو سارت الأمور هكذا. ما الفائدة من أن
أخبرك بأني أوافقك على القضية كما تقول أنت؟ لو وقفتم إلى جانبي في
المسألة التي حركتها قبل سنين إن كنت تتذكر لربما لم يحدث لنا ما حدث. لا
فائدة من أن تغطي جسمك بالكساء بعد أن يبللك المطر... ومع ذلك
سأصارع حجمقوه بما يتأمل منه القيصر. لماذا أكون وحيداً في تلك المهمة؟
ليعرف هو أيضاً أنني على علم بالموضوع.
سأل خانجيري حجمقوه:

- ولكن ألم يخبروك يا أمير أن القيصر يتأمل منك مساندته في هذه المسألة؟

- وماذا يتأمل مني؟

- يتأمل القيصر الروسي منك أن تنحاز إليه. - قال خانجيري وشعر بارتياح
كمن أوفى بنذره. وأضاف بنبرة ألطف: - ولست وحدك يا أسلانج، بل
يتأمل أيضاً من بقية الأمراء، والأسر القوية، وبعض الفلاحين. ولا أكتممكم أنه
ينوي محادثكم.

- لن تكون لمحدثته نتائج مفيدة يا أمير. لا يُجهد نفسه بلا فائدة. وإن كان
يطمع في مساندتي من أجل السيف الفضي فأنا أعيده إليه. لا أتحذك مراسلاً
يا خانجيري، ولكن إن قابلته بالمصادفة فأبلغه! نتمنى لك الخير إن انتهت تحيتك
الصباحية هنا، ونحن عائدون...

- هل يجوز ألا تعرج علينا وقد وصلت إلينا يا أسلانج؟! - استعجل
خانجيري، وسَمَر الحصان الذي كان ينوي تبديله.

- في وقت آخر يا أمير، لاحقاً!.. ها قد وصلنا إلى ديارنا. - التفت أسلانج
وقال لمن وراءه كأنه بلا أحقاد، - وكما يقول سفري: أنت وأنا لن نتفق اليوم
ولو أكلنا معاً باستا بالحليب!

تابع خائجري الفرسان الثلاثة المنصرفين على رسلهم. وكانوا يحملون معهم أفراحه الممزوجة بالأحزان، وأفكاره التي يهز لها رأسه.

...

نادى أحد القوزاق حاغورَ في سوق بُشده:

- أهذا أنت يا حاغور؟ منذ شهر أبحث عنك!

- هذا أنت يا إيفان؟

تقابل الفارسان مشتاقين يُبعدان من يعترض طريقهما بصدر الحصان.

- كنت أنوي أن أزورك غداً إن لم أقابلك اليوم يا صديق. - صافح بوتينك إيفان حاغورَ وعينه السوداءوان تلمعان من بين شاربیه الأسودين ولحيته. ونادى الفارس الواقف على مدخل السوق دون أن يُفْلِت يد حاغور: - يا فاسيل يا بُنيّ!

- يا مسلم، يا عدو المسيحية؟ خاطبه رجل على كتفيه رتبة قوزاقية مذهّبة، ومضى.

- أيها القوزاقي! - حثّ إيفان الحصان لملاحقة من وجّه الإهانة، ولكن حاغور أسرع فأمسك لجام حصانه:

- اتركه يا إيفان! هذا قلبه هائج ولذا يجد ما يقوله. - ويغير الموضوع بسرعة: - ما أحوالكم يا إيفان؟ وكيف تعيشون حياتكم؟ لم نلتق منذ زمن بعيد.

- يا عدو المسيحية. - هزّ بوتينك سوطه للقوزاقي الذي لم يلتفت. - هل أبقى أبحث عنك. ثم بشّ في وجه حاغور وهو يهدئ نفسه: - لا بأس بحياتنا، نعيش كما تعيشون أنتم وكما كلُّ الناس... وهل نحن أحرار في أنفسنا! الرحمة قليلة، والظلم كثير. أقول قياداتنا وقياداتكم مختلفة. وما نقوله نحن شيء آخر. ألم تسمع ما عرض به إلينا هذا الذي تجاوزنا؟

- لا يطبق رؤيتنا نتحدث. - وافق حاغور بوتينك الذي يكبره سناً. وأضاف: - ما العمل؟ نحن أيضاً عندنا أمثاله.

استمع بوتينك فاسيل إلى والده وإلى حاغور وقال لهما باسمًا:

- ليس هذا الذي تتحدثون عنه إنساناً. يضحي بالجنود حتى يلَمَّع رتبته، ويفني نفسه. وفي المعركة يخاف الرصاص الروسي أكثر مما يخاف رصاص الأديغة.

- وما الفائدة من حديثنا عنه؟! - قال حاغور، - الأفضل منه أن تتفضلوا إلى بيتي.

- لا يا حاغور. حسم بوتينك الأكبر. - لن نتفضل، عندي عتبٌ عليك!

- لماذا يا إيفان؟ أطلعني على ذنبي.

- سأقول لك يا صديق. ولهذا كنت أريد أن أزورك لألومك. أَلَسْتُ من وعدني أن يعرفني ترام وحباط؟ أَلَسْتُ من وعدني أن يصحب راكيتوف إلى بيتي حتى أكرم وفادتهم عندي؟

- نعم يا إيفان. وكذلك إيفان بافلوفيتش أيضاً.

- لماذا إذن هربت أنت وراكيتوف؟ أأنتم ممن يتنكرون لأقوالهم وأفعالهم؟

- ليس حاغور وراكيتوف من هذا النوع يا والدنا، - كان فاسيل يريد أن يخفف من لهجة والده الجارحة ولكنه لم يلحق:

- أنت ابق في مكانك!

- لم نحقق وعدنا يا إيفان، أمسكت بنا بالجرم... - ضحك حاغور. - ولكنني سأخبرك بما جعلنا نتردد: لم نجد من اللائق أن نجعلك تستضيف من أسروا فاسيل... ألم يُحرقوا منعة شَبَج؟ وقتلوا بضعة رجال قوزاق، وجرحوا؟

- صحيح ما تقول يا صديق. ولكن لي أنا أيضاً سؤالاً عندك. من كان أغار على قرى الأديغة قبل أن يهاجموا منعة شَبَج؟ أَلَسْتُ أنتم يا فاسيل؟

- نحن من أغار على قَلَج، وبرات، ومَبَس.

- ما ذنب جماعة ترام والأديغة إذن؟ لن تُفْلِح ما دام أمثال هذا يقودونك. أنت لست عادلاً يا حاغور، أنت مدين لي.

- أتعرف من كان يجب أن تدعو أولاً إن كان هذا رأيك؟ زانه سفري الذي توسَّط لإطلاق سراح فاسيل.

- وأنا كنت أنوي هذا غير أن زانه غائب عن البلاد. سمعت أنه في تركيا فوددتُ أن أفي بندري لأجل من أشفق على ولدي. كانت حياة ولدي في

أيديهم. وربما ما كانوا ليوصلوا موضوعه إلى الأمير. ثم لماذا تعتب على الفلاحين الذين لا ذنب لهم؟

- الحق معك يا إيفان. - ارتاح حاغور لِمَا سمع.

- حَقِّقوا لي رجائي إن لم أخطئ!

- لا أسهل من هذا عليّ إن وافق ترام وحباط يا إيفان. يرفع حاغور جسده

عن الحصان مُشْعِراً إياك أنه يبحث عن شيء ما.

- ألم يخبركم حباط أنني صرت مديناً له في السوق قبل أيام؟ كان أُمِّلني أن

تزورونا عندنا. من الذي تبحث عنه؟

- تعال، - حثّ حاغور الحصان. - سينتظرنني ترام وحباط في الجانب الآخر

من السوق.

كان ترام وحباط ينتظران حقاً حاغور في طرف السوق. وبعدما تصافحوا

وتكلموا على زيارات الضيافة واتفقوا، قال بوتينك إيفان لابنه:

- هيتا أسرع إلى شَبَج. وأخبر والدتك أن معي ضيوفاً أديغة. لا تُدخلوا إلى

البيت ما تفوح منه رائحة خنزير!

على مدخل منعة شَبَج لم يملك حباط إلا أن ييوح بما يُقلقه:

- أتساءل يا حاغور إن كان من يرافقنا يقودنا إلى القوزاق ليسلّمنا إليهم؟

- لا تُساوِرْك مثلُ هذه الوسواس يا حباط!

- هل هناك ما يُقلق حباط؟ - سأل بوتينك حاغور.

- لا داعي لأن يقلق من يُدعى إلى ضيافة يا إيفان. - غيّر حاغور الموضوع

سريعاً عن طريق المزاح، وأضاف: - يقول إن موقع شَبَج جميل.

- ليست شَبَج وحدها؛ انظروا إلى قمة المرتفع. - أشار بوتينك إيفان بطرف

السوط فجعل أصحابه ينقلون عيونهم. - بلاد الأديغة التي لا تحصرها العين

جميلة. سأصارعكم بما في قلبي: ما يحدث لنا - نحن الطرفين - في هذا الشأن

غيرُ جائز. وأدين جانبنا أكثر منكم. ولكن ما الذي نحن أحرار فيه؟ وما أُمِّلنا؟

- ليس هذا رجالاً مجنوناً، - ابتسم ترام لإيفان متقبلاً ما تُرجم له.

- ما الذي يهيجك إذن فلا يتوقف؟ غمغم حباط.

- ألا تفهم يا حباط، - ساهم حاغور في الحديث. - قال الرجل بصراحة مطلقة إنهم ليسوا أحراراً في ما يفعلون.

- يحاربونا في بلادنا وراء هذا الستار... - عرض حباط لرفاقه محدثاً نفسه.

- ومع ذلك يجمعوننا بحجة السوق. وتبادل الزيارات ضيوفاً. الحرب ترمي العداوة بيننا، وتُصلحنا. - يتابع ترام أفكاره القلقة.

- وهل ستسلم بلادنا إلى هؤلاء إذن؟ - يسأل حباط دون أن يرفع صوته.

- لن أسلم بلادني إلى أحد يا حباط. - لا يتراجع ترام. - أشهر سيفي على من يُشهر سيفه عليّ. ولكن لما كانت العادة مقابلة الإنسانية بالإنسانية كان السيف أقوى إذا قابلت بالخير من في قلبه الخير. انظر الآن ما حدث لنا: نهب الجيش القيصري قرى الناتخواي فدمّرنا نحن منعة شَبَج. وابنُ هذا الرجل الذي كنا جننا به أسيراً أعدناه إليه كُرمى لسفري. والآن يقول من استملأنه بطيبتنا: أنتم ضيوفي...

وصلوا إلى باب دار بوتينك حين انعطفوا في الشارع الثاني ومرصد المنعة على يمينهم. واستقبلهم فاسيل وأخته الصغرى وولّد يافع. وفي الفناء الآخر تقف عجوز آل بوتينك ممسكة بيد صبية صغيرة، تريد أن تستقبلهم ولا تريد.

- ماما، نادى إيفان أمه. - لماذا لا تستقبلين الضيوف؟ - هل أنت عدوة للشركس؟ تفضلوا يا ضيوفنا، تفضلوا!.. ماذا قلت لك يا ماما؟ حين رأى بوتينك الكبير عدة جراء من الخنازير في أرض الدار نهر ابنه: - هؤلاء من أنقذوا فاسيل.

VII

لم يمرّ يوم على زانه سفري دون أن يعيد التفكير في ما قاله له السلطان التركي. تحققت هواجس زانه سفري نتيجة سير أمور الأدبغة في تركيا. حين يلتقي بأفراد من حاشية السلطان يعرفهم يتجنبونه. ويبحثون عن أعذار ليسرعوا في الانصراف. اليوم والغد يستمر شهراً، والشهر يستمر نصف سنة.

كان بوّ سفري الاجتماع ثانية بالسلطان محمود الثاني ولكن لم يُسمح له مهما حاول. كان باب السلطان أصمّ أعمى.

قال سلخور مُجدّ في أحد الأيام لسفري:

- السلطان خدعنا.

- أظن شيئاً لا نتوقعه يجري في هذه القضية. - فُكرَ سفري بطريقة أخرى غير متقبَّلٍ ما سمع.

- ألا تصدِّق يا سفري؟

- ما حدث شاهدٌ لنا وإن لم أصدِّق. - تنهد سفري بطريقة تدعوك للإشفاق عليه. - لم أكن أريد أن تتطور مسألتنا على هذا النحو... والعامة الذين أرسلوني لن يفهموا ما جرى لي. من يحبني سيشفق عليّ ومن يكرهني سيسخر مني... - جلس بعض الوقت صامتاً، ثم أضاف: - ما يجعلني يا مُحمَّد أقول إن شيئاً لا نعرفه يجري في هذه المسألة هو أنه أطلعني على رسالة القيصر الروسي. لم أرجه، ولم آتِ على ذكره. كان السلطان التركي ينوي شيئاً ولكن لا أعرف بالتحديد.

- أنا أعرف... والأفضل يا سفري أن أقول: أشكّ، لا: أعرف. - أصلح سلخور مُحمَّد تعبيره. - لا شك أنهم هزموا السلطان التركي، وأجبروه على الاستسلام. ولكن عواطفه معنا، لا يكرهنا. غير أن القيصر في مواجهته. لا تلم السلطان التركي إذ لا خيار له. ترده كثير من رسائل القيصر، ولا ينفك موفدوه عن القدوم إليه. وافرخ إذ أعاد إليك ربتك.

- لا يتعهَّد إذن أن يفعل ما لا يستطيع، - احتدَّ سفري، - كنت جمعت حولي إلى الآن عاتمة الأديغة!.. نحن هنا على باب الأتراك كالمُتسولين ننتظر أيَّ شيء يرمونه لنا... لم يبق لنا من أمل إلا الإنجليز.

- ما رأي وُركفارت؟

- يقول اليوم وغداً، يماطل. ما يزال في لندن. سأنتظر ما سيأتي به من أخبار، وفي حال الضرورة سأعود إلى إقليم الأديغة. عيبٌ على من لا يتمتع إلا بهذا القدر من الرحولة أن يقول: أنا سلطان! سأضع رتبتي في صندوق وأعيده إليه، مع دعوة أن أتقيّاً عليه وقد أكلتُ تَوّاً من اليقطين!.. هؤلاء الذين تعمل معهم يا مُحمَّد سمحنا لهم أن يخدعونا تحت ستار الإسلام... - نفّس سفري عن كل ما في قلبه نحو تركيا بأن كشف عن كل ما يعرفه عنهم. ثم سأل كأنه تذكر أمراً كان نسيه: - وأنت يا مُحمَّد أظن الفرنسيين يتحكمون بك.

- هل تعرف ما سيجيب به هؤلاء يا سفري؟ - ضحك سلخور مُجَّد، ثم أكمل: - سيكون مطابقاً للجواب الذي سيأتي به وركفارت من إنجلترا. لم يبق الكثير، لِننتظر!

لم يتوقف سفري عن النشاط بانتظار وركفارت. لم يكن يُنسي السلطان أنه موفد الأديغة، وأنه يقيم في تركيا، ويخدم في جيشها، وأنه يتابع قضية الأديغة التي تشغل باله. ولم يقاطع أصدقاءه الذين كانوا يتهربون منه. ويلتقي ببضعة أشخاص من الأديغة - الأبخاز من المقيمين في المدينة، وإن لم يكن لهم نفوذ كبير، على سبيل الاحتياط؛ فمن يدري ما يفيدونه به لاحقاً. ومحلات التقائه بعامة الناس هي الأسواق والجوامع والمقاهي ومحلات التدخين. يروي لهم أخبار الأديغة، واقتحام جيوش الروس للمنطقة الآن، وإقامتهم القلاع في أماكن مختلفة فيها، وتوطين القوزاق بحماية هذه القلاع ليتخذوا من أرض الأديغة مكان عيش لهم. ويحتتم أحاديثه بنيتة الكفار القضاء على الدين الإسلامي. كان سفري أثار المصلين في جامع الحي الذي يسكن فيه حتى استطاع الأفندي بصعوبة أن يهدئ المصلين الذين انصرفوا من أمام وجه الله، وفارقوا سجادات الصلاة وبدؤوا يصرخون. وسفري نفسه ترجأهم طويلاً أن يخلدوا إلى الهدوء.

كانت طريقة خدمته العسكرية وطريقة كسبه المال جزءاً من خداع سفري في بلاد الغربية، سواء وافقنا سلخور أحمد أم لم نوافق. فإلى الآن لم يكن يعرف إلى أي جيش ينتمي. ويرسل إليه في يوم محدد من كل شهر "راتبه" من مقر قيادة الجيش. وكان سفري اعتاد على تأجيل مكان خدمته من يوم إلى آخر فكان يتسم قائلاً: لن تفكر تركيا إن أعالت شخصاً واحداً مثلي.

وكان واضحاً ما وراء كلام سفري. لم يكن صعباً عليه أن يفهم أن عودته إلى بلاده صعبة بعدما اعتبروه جزءاً من بلاد غريبة، واحتجزوه بحجة العمل. قال سفري: لم آتِ إلى هنا متوسلاً الالتحاق بالجيش التركي. خدمت عدة سنين في جيشهم، وحاربُ معهم، وحميتُ أنا به برفقتهم. وأسرتني الروس بسبيهم؛ فهل عجيب إن دفعوا لي بدل ما جشمتوني من مشاق؟ متى بدأت أموري تنجح، وللأسف تأخر وركفارت، فسألتحق بمن خرجت من بينهم. إن لم يقدم

الإنجليز بعض النفع لنا فلا يضروننا، والحق أنه لا يُنتظر منهم شيء كثير إذ أفرعهم الروس فانكبوا على معالفهم. حسناً ليقضوا حياتهم فيها ما داموا لا يضروننا. من يحتاج إلى هؤلاء!

انتقل سفري بأفكاره المضطربة إلى بلاد الأديغة. دخل إلى قُماتر، وتفقد دور الفلاحين واحدةً واحدةً. ودار في فناء بيته الأميري. واستقبله أهل البيت بلهفة. ووقفت بابور أمامه، مؤدّة الخدين، متظاهرة بالخجل. والخدم يذرعون أرض الغرف محتفلين بعودة الأمير. ويأتونه بالوجبات الأديغية... والوحيد الغائب هو قرباتر. — قال: يا ربي ما أخبار الولد المنحوس؟ هل يوصلون إليه ما كتب له يا ترى؟.. ما أبأس أن تجد نفسك خارج أبناء قومك! تنقل عليّ حياتي هنا وحيداً حراً أكثر مما ثقلت حين كنتُ أسيراً في أوديسا. لا خوف على أهل بيتي وخدمي، وكذلك أنا، سنعيش بطريقة أو أخرى. قرباتر هو الغائب عنا. الله وحده يعلم مدى الصعاب التي يحتملونه إياها في الجيش الروسي!.. يعتبرون والدك عدواً، ليس قليلاً ما سيرفعون بوجهه بحجة أنه سافر إلى بلاد غربية ليؤلّئها علينا. ولا يزال قرباتر شاباً، لا أظنه يتحمل...

يصحو سفري من أفكاره وقلبه يتمزق. وتبدأ ربوع إقليم الأديغة تمر أمام عينيه قبل أن يجد الفرصة لالتقاط أنفاسه. ويمثل أمامهما حجمقوه أسلانج وبرج جراندوقوه وتسي حاترباي. ويرى الفرسان القوزاق يسرحون في أرض الأديغة. ويسمع طلقات من هنا وهناك. ويخيل إليه أن بيوت الفلاحين تُحرق، وتسلب مواشيهم كما حدث في العام الماضي. وتطرق أذنيه صرخات الناس.

لا يستطيع سفري البقاء في البيت حبس أفكاره أكثر من هذا فيخرج. وفيما يفكر في أن يُخالط رواد السوق فيروح عن نفسه قلقه، يغيّر طريقه فجأةً، ويتجه إلى مقرّ السفير الإنجليزي.

سأل عن وُركفارت فأجيبَ بأنه عاد البارحة. ودون انتظار أُصطحب سفري إلى من انتظره شهراً كاملاً. وقبل أن يتجاوز الباب استقبله الرجل النحيف البشوش يثرثر بلغة تركية:

— هذا أنت يا سفري! كنت على بالي اللحظة... كيف حالك وما أخبارك؟

— لا بأس بحالنا وحياتنا يا داود بيه... ماذا من أخبار طيبة بإذن الله؟

- لا تستعجل يا سفري، لا تستعجل! - مدّ وركفارت يده وتناول زجاجة الشراب. - لا يبدأ الإنجليز برواية الأخبار إلا بعد رشفة من هذا. - ملاً قدحين لهما ساقان رفيعتان إلى منتصفهما، - أرفع على شرفك يا سفري، ومن أجل الأديغة هذه الكأس داعياً أن تتخلصوا من كل ما يسيء إليكم. سمعت أن الأديغة يقولون: ليرافق الأملُ الرجولة، فأرجو أن تترافق رجولتكم بأملككم دائماً، ويبقى سنداً دائماً لكم. لا يتراجع الأديغة إذ لم يترجعوا إلى الآن. والله يعينكم، وستجدون غيره أيضاً سنداً.

- آمين يا داود بيه، - قال سفري مخفياً الحماسة التي بثتها كلماته، كاتماً في داخله الفرح بجواب جليسه. - لينطق فمك دائماً بالخير! استعرت من الأديغة كلمات عادلة. ليتني سمعت هذه الكلمات أمام مجلس لفلاحينا وليس وحدي... لن ينساها الأديغة إلى الأبد.

- ربما، ولماذا لا؟ - ضحك وركفارت ضحكة تناسب وجهه البشوش. - لا يُستبعد أن نجد أنفسنا يوماً في مثل هذا الموقف.

- ومتى سيحدث هذا؟.. - كان سؤال سفري هذه المرة مختصراً وحازماً. - أما طلبت منك التريث يا سفري؟.. - ملاً وركفارت الكأسين ثانية، ولم يُنقص منهما إن لم يزد. - ألا يقول الأديغة: ما مضى كثيره يمضي قليله؟ - قال وركفارت بلغة أديغية متقنة، وبشّ في وجه سفري بمزيد من الجبور. ورغم مرور عدة سنوات على معرفة سفري بوركفارت فلأول مرة يسمعه يتكلم الأديغية. واهتزّ القدح في يده لا يعرف أيفرح أم يحزن، وارتشف ما فيه.

لم يتأثر سفري بما شرب، ونظر مرة أخرى في وجه محدّثه متسائلاً: ألن يقول شيئاً بالأديغية أيضاً؟ ويبدأ يتفحصه بعين أخرى، وقد اقترب منه أكثر بعواطفه، شاعراً أن مَنْ أمامه ليس إنجليزياً، بل أديغي أتى من البلاد التي يشتهي زيارتها منذ نصف سنة. ويتجمع في صدره وُدٌّ لا إراديّ نحوه حتى ليفكر أن ينهض فيعانقه.

قطع وركفارت نظرات سفري الحنونة:

- لا تستغرب يا أمير معرفتي باللغة الأديغية... أعرفها منذ صغري... حين وجدت نفسي في تركيا لم يُقَصَّر في تعليمي سلخور مُجَدَّ وَخُرُوزَر إسماعيل، وحرورية خانم، حيّاهم الله جميعهم... هذا ما أستطيع إخبارك به اليوم.

- نعم، نعم، - قال سفرني دون أن يعرف السبب، ثم عاد إلى صحوه وسأله قبل أن يُخَفِّ الود الذي نشأ في قلبه نحوه: - هل يمكنني يا داود بيه اعتبار ما قلت لي جواباً على أسئلتي الأديغية التي جئتُك بها؟

- نعم إن كنت قادراً على كتمانها.

- لا داعي للتأكيد على هذا! - نهض سفرني عن المائدة، وأوماً إيماءة خفيفة إلى وركفارت الذي وقف أيضاً. وأجاب الآخر بمثلها. وحين رجعا إلى المائدة أكمل وركفارت كلامه دون مداواة:

- نحن الإنجليز، ولا أستثني فرنسا، لسنا بعيدين عن الاهتمام بما يحدث اليوم في إقليم الأديغة. منذ زمن بعيد نتابع القضية الأديغية في الوقت الذي كانت روسيا وتركيا تخوضان حرباً بينهما وقبله. روسيا توسَّع حدود بلادها، استولت على ما وراء القفقاس. وهي الآن تحتلّ القفقاس الشمالي. وفي أوروبا أيضاً تحتل بيساريا¹ - رومانيا وبولونيا وصربيا وبلغاريا. وكذلك في جهة الشرق وجهة سيبيريا. تتجه إلى جهات العالم الأربع، وترفع سلاحها عليها. ولسنا بحاجة إلى بلاد الداغستان الجبلية الفقيرة، ولكننا نؤيد الجهاد الديني الذي شتّه الداغستان فيها. ونحن من جهتك قلقون لنتيجة حرب روسيا وتركيا، ولا نعتبرها عادلة لدولة عظمى. روسيا ليس هدفها الأديغة بل البحر الأسود. تريد أن تعبر البوسفور إلى مضيق جبل طارق. ولكن المسألة الروسية لا تتوقف على هذا وحده. فإن وصلوا إلى هذا فنحن الإنجليز ومعنا الفرنسيون والأتراك عندنا من القوة ما يكفي للوقوف في وجهها. وستجدون عوناً من عندنا لأن إنجلترا من عاداتها أن تساعد طلاب الحرية. سنمدّكم بما طلبتم من مدافع وبارود ورماس. ولكن قبل أن تحصلوا عليها يجب أن تقابلوها ببادرة حسن نية من قبلكم... هل تفهمني؟

¹ الاسم القديم لمولدوفا.

- أفهمك يا داود بيه. - وافقه سفري، ولكنه سرعان ما سأله: - من أي نوع هذه البادرة؟

- لا أعرف تحديداً الآن. - لا يُفصح وركفارت عما يريد، ولكنه بدأ يضيف بعد قليل شيئاً مما تذكره: - يمكن أن تكون قمحاً أو ذرة أو عسلاً أو شمعاً أو مواشي كبيرة أو وسائل معيشة أخرى. وهل قليل ما يمكن أن يأتي من إقليم الأديغة من حاجات الإنسان؟! لا أظن ما تُخفي الجبال من ذهب ورماس ونحاس قليلاً. وأنت تعرف أن لا أحد يعطي شيئاً بلا مقابل. ولكن هذا لا يعني أن نقتحم أرضكم كالروس ونحتلها...

- إن ساعدتونا بالسلاح يا داود بيه فلن ننسلكم. - قال سفري، وأضاف دون إطالة: - ولكن ما أقوله يا داود بيه أقوله باسم الشابسغ والناخواي وليس باسم إقليم الأديغة كله. نريد أن نتوحد فنقف في وجه روسيا؛ فإن تحقق هذا أعطيتك باسم الأديغة كلهم عهداً أكيداً. هذا ما أريد أن تبّله لمن أوفدوك. ولكن لا نتأمل منكم السلاح فحسب، بل أن تساندوا قضية الأديغة العادلة المتداولة في العالم، وأن تشرحوا في كل مكان سبب لجوئنا إلى السلاح، وتُفهموا العالم عدالة قضيتنا.

- الحق معك، أوافقك. ونحن نعمل على هذا البرنامج. ولكن مجرد تصديكم لروسيا ووقوفكم في وجهها دون أن تفعلوا شيئاً غير صحيح. يجب إشهار السلاح في كل مكان، ليس في الشابسغ والويخ فقط بل في الأبراخ والبجدوغ والجمكوي والبسلني أيضاً. ولا يقف القبرتاي مكتوفي الأيدي مراقبين فحسب. وبالإضافة إلى ما سبق يجب أن يكون عندكم أشخاص ينشرون في أنحاء العالم أخبار نضالكم. ويمكن أن نقدّم لكم اثنين يفيدانكم في هذه المسألة. وهما جاهزان من هذا اليوم. وإن لم يبتعدا ناديتهما الآن حالاً. خرج وركفارت من الغرفة وعاد سريعاً مع شخصين يتراوح عمر كل منهما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين. أحدهما طويل القامة ممشوق، أشقر الشعر، والآخر لا يتأخر عنه كثيراً في صفاته، متين البنية، وعينه الزرقان الحادتان تنظران بحريّة في كل اتجاه. توجه وركفارت إلى زميله وقال: - هذا هو الأمير الأديجي زانه سفري الذي حدّثكما عنه قبل أيام، زعيم المنتفضين ضد روسيا، ويحتاج إلى مساعدة منا.

والآخران تعرّف عليهما يا أمير. - هذا، - نظر وركفارت نحو الرجل الأطول قامته، والأحدث سنًا، الأشقر الشعر، هذا لونغفورت، يعمل في جريدة "مورنينغ كرونكل" التي تصدر في لندن. والآخر هو التاجر جيمس ستانيسلاف بيل. هذا اسمه الذي تنادونه به في كافة مناطق الأديغة. وبإمكانه أن يبقى معكم حتى تملّوا منه.

- لن نخل منه إن لم يملّ منا. - صافح سفري الرجل بقوة، وابتسم في وجهه، - ثم مزح شاملاً الاثنين، واختتم: - حرام أن تملّ من أمثال هؤلاء الشباب الممتازين. أليس كذلك يا داود بيه؟.. أنا واثق من رجولتهما. ولكنني قلق على فتياتنا... - ترجم يا داود بيه ما قلّ للشابين الممتازين!

- لا يمكن أن أضيف شيئاً يا أمير. يترجم جيمس لصديقه.

- هاه، لم يملك سفري إلا أن يتعجب مما سمعه. - أيعرف هذا الأديغة؟

- يعرف ليس أقلّ مني. يا أمير. - ضحك وركفارت وأسنانه البيضاء تلمع، ومدّ كاسين إلى الصديقين اللذين قدّهما إلى سفري قائلاً: - على أمل أن تتحقق أهدافنا. - وقال لهما حين انتهيا من الكأس: - أنتما الاثنين يمكنكما متابعة أعمالكما الآن. سيجدكم الأمير سفري متى احتاجكما. ونحن سنتكلم في بعض قضايا الأديغة.

سأل وركفارت حين بقي الاثنين وحدهما في الغرفة:

- ما رأيك فيهما يا أمير؟

- أظنهما شائين لا يُعلى عليهما. أعتقد أن بيل إنسان هادئ.

- لم تُخطئ يا أمير. لن تخطئوا إذا أخذتم بنصائحه. وهما جاهزان للسفر إن أعلمتهما بالمضيف الذي يجب أن يتوجها إليه.

- لن يبقيا في إقليم الأديغة دون مضيف. وإن كانت بقيت مضافة أديغة واحدة في العالم فلن يغلق بابّه. ولكنني كنت أريد تعميق معرفتي بهما قبل السفر.

- هذا بيدك، - وافقه وركفارت بسرعة. - من هذا اليوم، بل من هذه الساعة، هما تحت تصرّفك. والآن ما كنت أريد الحديث فيه هو التالي: لا تلوموا تركيا. إنها مقيدة باتفاق سلام أدّره. إنها تستحق المساعدة، ولم تعد

دولة يُتأمل منها شيء. ضرَّ السلطان التركي نفسه بحلِّه الجيش الإنكشاري. والجيش الذي كان ينوي تأليفه لم يستطع إنجازه كما يريد. وأساء التقدير من جهة المناطق الداخلية لتركيا، ومن جهة الدول الأجنبية. واستغلَّ الروس جيداً هذه الأخطاء. لا يجوز انتظار أن يتحرك السلطان محمود. يجب أن يعرف الناس في تركيا ممارسات روسيا في إقليم الأديغة وفي المناطق الإسلامية. إن حرَّضنا الناس على الثورة كان هذا في مصلحة البشرية في العالم. ما رأيك في أن نتحرك في هذا الاتجاه؟ لا بأس إن شجعنا المسلمين من أتراك وألبان وعرب وغيرهم على مهاجمة السفارة الروسية، وحملناهم على إدانة أعمال روسيا، وسيعرفكم كل العالم. وسندفع الصحافة إلى كتابة الكثير مما حدث في إقليمكم وما لم يحدث. أنا مسؤول عن هذا، وأنت مسؤول عن المصلين الذين هاجوا في ذلك اليوم.

- من أخبرك بهذا؟ - سأل سفري معتزاً بتحريضه رواد الجامع.
 - لا يجري شيء في العالم، لا في تركيا وحدها، لا نعرفه يا أمير. ابتسم وركفارت. وما ستدفعه من نقود للأفندي يسلمك إياها بيل في أي وقت تريد. ومتى هاج المصلون الغاضبون وجَّهناهم إلى السفارة الروسية، وأنت تظاهر بأنك تهدِّثهم، ثم فارِّقهم في الوقت المناسب.
 - بأيِّ عين تراني يا داود بيه؟! - احتدَّ سفري رغم رضاه بالاقترح. - ألسْتُ أديغياً؟ بَمَ سيحكم عليَّ من يسمع؟!
 - نعم، أنت أديغي، يا سفري، - ولكن لا يجوز أن يعرف أحدٌ بهذا، فإن حدث هذا أخفقت جهودنا. هل فهمت يا أمير؟!

VIII

تلهّف سفري على لقاء من يجب أن يلاقيهم من أجل قضية الأديغة. لم يكن يجد راحة بعد لقائه وركفارت إذ حُصر بين أفكاره المتضاربة. وأصدقائه الذين يمكن أن يكشف لهم مهمته السرية قليلون، اللهم إلا سلخور مُجَّد. وفي حال الضرورة لم تكن القضية تنتهي عند الأهل بالثقة فحسب. وكان أصعب ما عليه الاقتناع بصحة الطريق الذي اختاره. يثور بعد السؤال سؤال، وكلما ثار سؤال تناقض مع غيره. هل اختبر قرارات مؤتمر الشابسغ من جميع الجهات أم لم

يفعل؟ وهل الخطوة التي خطاها نحو تركيا، لا إلى داخل روسيا صحيحة؟ ولم يكفِ هذا إذ دخل في موضوع الأديغة الإنجليز والفرنسيون. وفي هذا الجانب كان هو الرائد. ماذا إن قاد الأديغة، الطلاب الأزيون للحرية، والذين يُسحقون بين الدولتين الغربيتين، إلى طريق خاطئ في غير محله؟ أي فهمك الجار الغريب البعيد إن شكوت له مشكلتك مع جازيك المتناحرين؟

والعجيب، قال سفري، اهتمام النمسا، والمجر وبولونيا بالمسألة الأديغة وتدخّلهم فيها. أيشفقون علينا أم لهم نوايا أخرى؟ تحركت الدول التي لم تكن تتدخل في شؤوننا قولاً أو فعلاً. كان سفري مرتاحاً لاهتمام الدول الأوربية بالمسألة ولكن لم يكن يعجبه تسليط العيون عليهم. وقعنا بين الدولتين المتعاديتين ونحن نعتبرهما جارتين وصديقتين. والدولتان تتداولاننا وإن لم نكن مُلكاً لأيٍّ منهما. تتخلصان من مشكلاتهما على حسابنا. ولكن لم نأل جهداً من ناحية القيصر، وأطلعناه على رغبتنا في إقامة سلام بيننا. وتكلمنا مع موفديه الجنرالات. علّلونا بالأمان والوعود بين اليوم والغد ريثما دخلوا بجيوشهم إلى أرضنا وأسسوا القلاع وخدعونا. ولم يفهموا مرادي من تطويع قرباتر في جيشهم فظفر إليّ الأديغة لهذا السبب بعين العتب دون فائدة. ومهما أطلعتهم على ما كان مرادي لم أستطع إقناعهم بحسن تصرّفي. والجيش الروسي القادم نحونا يزيد تعداده يوماً عن يوم. ورغم ذلك أظن أنه كان من الأفضل أن نتوجه إلى الروس لا أن نأتي إلى هنا... ألم تسمع ما قال وركفارت؟ "قبل أن تحصلوا على ما تحتاجون من أجل حماية حريتك الأزلية يجب أن تقابلوا مساعداتنا ببادرة حسن نية من قبلكم" يعرف كل ما تنتجه أرض الأديغة. ونحن محتاجون لما يطلبه منا... ما العمل؟ الغريق يتعلق بقشة. المحتاج يلجأ إلى أي شيء. خدعتنا روسيا وتركيا. وإن لم تمدّ يدك إلى من يمد يده لك غرقت في الماء.

يرغب سفري أن يتكلم في الموضوع الذي قابل من أجله وركفارت إلى شخص آخر غير سلخور مُحمّد على سبيل الاستثناس. وحين استعرض معارفه الأديغة في إستانبول اختار خروزر إسماعيل. ليس لأن ثقته فيه أقوى، بل لأنه سمع بأخبار الشاب ربيب الباشا أكثر من مرة في تركيا. وإن عدت بضع سنين إلى وراء فقد كان والده خروزر باشا عرّفه به في أحد الأعياد. وكانا تبادلا بضع كلمات

لا معنى لها ولا مناسبة. وقبل أيام شهد له سلخور مُجَّد بالنباهة والاهتمام بالمسألة الأديغية.

حين يأتي الناس على ذِكْر خروزر بيه فالموضوع الذي لا ينتهي هو توزيع إرث من سيفارق الحياة بين عشية وضحاها على ربيبه الشاب وأرملته حورية خانم. وكان خروزر باشا اشترى الولد كما اشترى حورية خانم وهي في الرابعة عشرة. وبعد مرور ست سنوات أو سبع اتخذ الولد ابناً، وأحلّ الأخرى محل الزوجة العاقر المتوفاة. ومع أنه كان بين الصبي والصبية الأديغيين فرق أربع سنوات في العمر فقد نشأ معاً في بلاط خروزر باشا. واتخذ في وقت واحد قلب المرأة وقلب الرجل. وقبل أن تضعف فحولة خروزر باشا بزم من غير قصير نشأ بين الشابين اللذين كانا يدعيان الأخوة حب مُراءٍ خفي لم يشعر به أحد حتى خروزر باشا نفسه، وأقرب الناس إليهما.

إن التقى بإسماعيل باشا فسيحاول معرفة ما يتحدث عنه الناس، ويُلصِح له، وإن لم يُكاشفه تماماً، إلى القضية الأديغية التي تُقلِّقه. فإن وافقه كان حسناً وإلا فلا عتب عليه إذ بعض من يدعون الرجولة أيضاً لا يوافقونه. هذا جانب، ومن الناحية الأخرى يقال إن خروزر باشا مريض جداً فلا بأس أن يعود، فمَنْذ أن عرفه لم يضره إن لم ينفعه.

ما إن ولج سفري باب خروزر باشا حتى كان إسماعيل من استقبله بنفسه. شابٌ أسمر في حدود الثلاثين طويل القامة، متأنق في لباسه الأديغي الكامل حتى لتظنّه عائداً من مكان ما، أو متجهاً إليه. وعلى جانب الكساء الملتفّ على خصر دقيقٍ خنجرٌ لا كبير ولا صغير، معلق بزناز فضي رفيع. ومن جانبه الأيمن يبدو طرف مسدس مزخرف بكتابات مخطوطة. ويبرز من الصدر جُعبُ الطلقات المشربة بماء الفضة. ولونُ الحذاء الخفيف من لون الكساء، وتستقرّ ثابتةً على رأسه قبعة أديغية. والشاربان الكثيفان لا يبدوان زائدين على تقاطيع وجهه. والأذان ملمومان بطرفي القبعة.

— تفضّل يا وجه أرض أجدادنا الخيرة ، يا سفري، تفضّل! استقبل إسماعيل بيه الضيف وأسنانه البيضاء المتراصة تحلّي وجهه الطلق. وفتح له الخادمان الواقفان وراء المضيف الطريق إشارةً إلى احترام الضيف. — فرحنت لسماع خير قدومك

إلى تركيا يا أمير. كنت أنوي أن أزورك فسبقتني. خيرَ مقدمٍ يا أمير، يا من جعل الله يومه مئة!

- حياك الله إسماعيل بيه. شكراً على أنك لا تنسانا. - قابل سفري بشاشة المضيف بمثلها. ثم سأله دون مقدمات: - كيف حال والدك خروزر باشا؟ سمعت أنه مريض فجئت أعوده. - لم يُفصح تماماً عن سبب قدومه. - والدنا المسكين غلبته الشيخوخة يا أمير. تثقل عليه آلام جروحه الكثيرة. ليست المعارك التي خاضها - وأنت تعرف - قليلة. كان في مواجهة الرصاص. لم يفكر قط في شخصه.

- وكيف لا أعرف شجاعة خروزر باشا وأنا من بين من شهروا سيوفهم تحت إمرته... ما الذي جعلهم يقولون: الشيخوخة ونار التبن سواء؟ ليكن في حماية الله، وليخفف عنه كبره!

- وهذا ما ندعو الله من أجله. - وافق إسماعيل بيه الضيف سريعاً. - وهل السبع والثمانون سنةً هيئة؟ فرح حين أخبرته بقدموك. وتذكرك يا أمير. لا أحد في غرفة القائد السابق للجيش إلا الخادم الواقف إلى جانب السرير. ودَّ خروزر باشا رفع يده النحيلة إيداناً بتعريفه على سفري، ولكنه لم يقدر. لا يمكن أن تخمّن أنه ذلك الرجل المتين البنية الذي عرفه سفري. أمام الضيف الرجل الذي ذاب بعدما حمل ساعده المتينان السيف طويلاً، ويتأمله ويبش له بوجه ميت كأنه قادم من عالم آخر. وتشعر بأن ناراً مائلة للصفرة ما تزال في عينيه الصفراوين رغم انهيار جسده.

- ما الأمر يا زانه، ألا تعرفني، هل فقدت الأمل في؟ - سأل خروزر بعدما مدَّ يده النحيلة وصافح الضيف. ثم قيّم نفسه بنفسه دون حاجة إلى سؤال وجواب: - ما العمل، هذه هي خلاصة الحياة.

- لست على هذه الحال بفضل الله يا أمير، لا داعي لليأس، - قال سفري ما يُقال عادة للمريض الملازم فراشه، وأضاف، - واي - واي يا خروزر باشا، تذكر أنهم كانوا يسمونك في ساحة المعركة بالقُدوة!

- كان مثل هذا الماضي في وقت ما. - صحا صوتُ خروزر باشا كأن ما قيل له أعاد إليه العزم. وأشعرَ الخادم إلى جانب السرير برغبته في الارتفاع قليلاً عن

الوسادة. واقترب منه إسماعيل بيه وساعده. وحين ارتاح المريض إلى ما قدموا له من خدمة أضاف إلى كلامه: - نعم، الحق أن فُسحة حياة الإنسان ليست ذات قيمة، لا تساوي أكثر من اشتعال طرف شعلة.

- ومع ذلك يا أمير فهناك من يقول: ليتني كنت سلطاناً ما بين رمي القبعة إلى الأعلى وسقوطها!.. - قال سفرني كأنه يقترب من الموضوع الذي يشغل باله. - سامحني يا أمير على مقاطعتك. - عاد سفرني إلى الحال سريعاً.

- تمام!.. - سمع خروزر باشا ما يتمناه فتوهجت عيناه الصفراوان ناراً. - ولكنه وقت قصير على السلطان الذي سمح لروسيا أن تهزمن من وراء تغييراته¹... ورماكم أنتم في فوزى لا مخرج منها!.. لا يعود من ركعه العدو يرى شيئاً أمامه!

- يا والدنا!.. - استعجل إسماعيل بيه قلقاً.

- لا أتكلم على ما ليس واقعاً يا ولدي. لا تخف، لم أختبئ وراء أحد إن لم أكن في طليعتهم. عندي فضل على تركيا أستطيع بسببه أن أقول ما أريد. لم يكن سلطاننا الأهوج القصير النظر أهلاً للثقة.

- يا والدنا!.. ظهر القلق أوضح على إسماعيل بيه.

- أثق بكما فأقول ما في قلبي. - لم يعبأ قائد الجيش بقلق ابنه. - وهذا الخادم الواقف أصمّ محتوم على أذنيه. ولم يبق له لسان يروي به سرّاً حتى لو سمع به. قطعوا لسانه حين أُسِر في الروملي. - هتّا انصرف!.. أشار إلى الخادم بالانصراف. سأناديك حين أحْتَاجك. - لا أقول لكما ما أقول عداءً لسلطاننا. عدائي له وتنكرّي لما خدمتُ به تركيا سيّان. أتألم لتفتّت تركيا في ولاية السلطان الجبان. ماذا يهمني أنا؟ أعرف ما ينتظرنني... أودّ أن أوسّع مدى رؤية إسماعيل بيه. وما أراه أعجب شيء هو أنه متى زمر القيصر في شبابه بدأ سلطاننا يرقص معه مهما كان اللحن.

والآن ظهرت من الباب امرأة رشيقة ترتدي ثوباً أخضر تناسب الجسد النحيل، ويدها تعجّان بالذهب والمجوهرات، وعنقها. عاد الرجال الثلاثة إلى وعيهم ما إن رأوا المرأة. وتنافرت قلوبهم كلّ في اتجاه.

¹ ربما يشير إلى حلّ السلطان للجيش الإنكشاري على سبيل إصلاح الأوضاع في البلاد.

- أهلاً بالضيف، - قالت حورية خانم بالأديغة، وعادت إلى اللغة التركية. -
ما أحوال الأديغة الذين فارقتهم؟ - وأجابت بنفسها على جوابها: - نعرف،
نعرف أن الأديغة في حالة يأس وقلق. وتركيا لا تُقَصِّر في شيء من هذه
الناحية. - ثم جلست مقابل الرجل، لا تستطيع الاهتمام بالآخرين وأمسكت
بيده. وسألته وهي تمسح على يده: - كيف حالك يا نوري، يا روجي الوحيد؟
قال سفري في نفسه: أين رأيت هذه المرأة؟ كأني أعرف وجهها قبل. وكلامها
تطغى عليه لهجة الشابسغ. ولا يخفى أنها منهم من خلال وجهها الرقيق
المتناول. من أي أسرة يا تُرى؟ وكيف وصلت إلى تركيا؟ وكيف صارت بهذا
الشباب زوجةً لخروزر؟

نظر سفري بطرف عينه نظرة خفية إلى المرأة الجالسة إلى جانبه. وأعاد النظر
إليها مشعراً أنه تذكر شيئاً فرفع رأسه فجأة. مهلاً، مهلاً: ما أشبه هذه المرأة
التي تزوجها الفلاح تَبَج، ثم باعت ابنتها التي لم تكن تسمع الكلمة إلى تاجر
تركي، ففقدت عقلها، فشنت نفسها! كانت تلك التعيسة من أجل من وُلِدن
في قُماتر من بنات... نعم كانت ابنة آل خُراش، وكان اسمُها أَيْنُور. لم يغفر لها
الله أنها أثرت نفسها على ابنتها. كثيراً ما هيجت المسكينة قلوبنا في أعراس
قُماتر. ماذا يستحق من دفعها إلى الخطأ حتى لا تستطيع بعد أن تكلم
رجلاً... لو لم تكن ابنة فلاح لربما صارت من نصيبي. أحمَن أن هذه المرأة ابنة
أَيْنُور... وإن لم تكن ابنتها فهي شبيهة بها... يا إلهي اغفر لي ما فعلتُ، كنتُ
شاباً قليل العقل! ما أسوأ ما حدث، ألم يرها ترام؟ الفلاح ترام من يمكن أن
يتعرفها. كان جارها ورويت عنهما أخبار سخيفة كثيرة... هل أسألهما من أي
أسرة أنت؟ هل أنت من قُماتر؟ هل أنت ابنة أَيْنُور؟ لن أستهجل. إن كانت
عواطفها نحونا فالسر الذي بيني وبين أمها، من يعرف، هي لم تطّلع عليه،
فليكن سِرِّي أنا أيضاً أصمّ كالحجر الملقى في الماء!..

نسي خروزر باشا بعدما نظرت المرأة الشابة في وجهه الرجلين اللذين حدّثتهما.
وبدأ يهمد في سكون ناعم. ونام المريض بعد دقائق كأن أصابع المرأة دواؤها.
فتحت المروحة الحربية، وحركتها لأجلها ولأجل زوجها. ثم قالت:

- ربما لم ينم المسكين طوال الليل، ارتاح ما إن رآني. تعال أيها الضيف إلى الغرفة الأخرى، ولندع المريض يرتاح. ولنتكلم لغتنا وعلى أمورنا بحرية...

...

شرع سفري ينفذ واحدة من المهمات التي يُريح بها وركفارت كما وعد. وفي المهمة الثانية لم يستطع أن يتجاوز أديغيته ورجولته.

في البداية لم تكن المهمة سهلة كما تَوَقَّع سفري نفسه وكما تخيلها وركفارت وصوّرها لسفري. لا يكفي أن المصلين هاجوا مرة ليهيجوا ثانية ما لم تتحدث إليهم، وتهمس في آذانهم، ولم يهتز أفنديهم رأسه معهم. وما كان مفيداً هو نقود سفري الممدودة. لا يجوز الافتراء على الأفندي فقد صدق وعده. وطوال شهر كامل لم يُفَوِّت صلاة دون الحديث عن الروس والأديغة. ولكن لم يحزّهم على التجمع والتوجه إلى السفارة الروسية داعياً إياهم إلى العنف.

في أحد الأيام، بعدما وقفوا أمام الله هاج المصلّون، وصار بعضهم يصرخون هنا وهناك داعين إلى التوجه إلى السفارة الروسية اكتفى الأفندي بهزّ شريط طربوشه المغربي الأحمر ولم يتمتعهم. وتظاهر بأنه يمشي معهم. وقبل أن يجد الوقت ليماشيهم على الطريق انسلّ من بينهم. ورغم أن وركفارت توسل إلى سفري ألا يصل معهم إلى مبنى السفارة فلم ينسلّ من بين المصلين، بل مشى أمامهم يهزّ عصاه الفضية.

حين نظر وركفارت نحو الشارع المؤدي إلى السفارة الروسية منتظراً حشد المصلين رأى الجمع الذي يقوده سفري. ثار وركفارت لمخالفة سفري تعليماته فأسرع بالاختفاء وراء منعطف الشارع الآخر. وبعد قليل ارتفع صياح الرجال وسمّع صوت تكسّر الزجاج. ومن بداية الشارع يسرع رجال الشرطة. ومن الحي القريب، ومن الأحياء الأبعد يخرج الناس راكضين. وحين ينصت وركفارت إلى الجمع الهائج يسمع الكلمات التالية:

- أيها الكفار لا تُدبّسوا أرضنا!..

- لا تنشروا دينكم بين الأديغة المسلمين!..

- الأديغة أحرار طوال عمرهم؛ أخرجوا من أرضهم!..

أهذا صوت سفري؟ نعم، هو. قال وركفارت، هو سفري!..

- لم يكن الأديفة مُلكاً لأحد حتى يهبوهم!.. لا شأن للترك وللروس بنا! الترك يبيعوننا، والروس يشتروننا مجاناً!..
ماذا يقول هذا الرجل؟.. توقف وركفارت. إن فهم الحشد حولك معنى كلامك مزقوك أيها البائس! من حظك أن المصلين الذين معك لا يعرفون الروسية...
ابتسم وركفارت حتى ضاعت ملامح الفزع من وجهه.
ولا تزال أصوات تكسير زجاج النوافذ تُسمع...

...

انتشر خبر الأحداث أمام مبنى السفارة الروسية، ليس في تركيا فحسب، بل لا تبالُغ إن قلت: في أرجاء العالم. وفرح من يريد أن يفرح، وبكى من يجب أن يبكي، ومن يستحق الغضب غضب.
وسفربي وحده من كل هؤلاء في المشفى وقد انكسرت ثلاث ضلوع من صدره.
وقال وركفارت حين وصله الخبر:
- كنت توقعتُ أن يحدث له هذا!..

IX

أمضى سفربي شهر الصيف الحار في المشفى.
وسفربي لا يندم على ما فعل وإن كان أصدقاؤه يلومونه. قال: وكان عليّ أن أتقدم المصلين. ولو لم أقدّم كانوا هاجوا ثم تفرقوا. كان على أحدهم أن يمارس مهمة القائد. وإن لم أفعل أنا فمن؟ حتى الحيوانات لها قيادة. وحين نتكلم نحن على موضوع القيادة يُشيع الأمراء الأديفة بوجوههم أو يخفضون رؤوسهم متوقعين أن تذكر أسمائهم أولاً. المأساة يا أيها الأديفة، أعرفكم، أعرف أن الجميع يريد الزعامة. لا تقبلُ على نفسك أن يكون أحدهم فوقك، أن تنظر من وراء أحدهم، أن تعيش حياتك لا تحل ولا تربط، تغلب عليك روح السخرية حتى لو كنت في جماعة، وتغلب عليك الغيرة. كيف نتجه إلى الوحدة وهذه طبيعتنا وعلاقاتنا، وكيف نحمي أنفسنا من هجمة الروس؟ وتحت جناح من نفق؟ إن لم يحم العلم الذي صمّمته وحدة الأديفة، ويحملهم على تقبُّل ما يحدث فمن يحميهم؟ ألن يفهموا إن أرسلت إليهم قائلاً: هذا علم وحدة الأديفة، ويوحدهم؟ أنا راضٍ عما جرى للروس: لم يوفروا زجاج نوافذ ولا جداراً

ولا باب دارٍ ولا باب غرفة. ليعرفوا الآن أن الأديغة لا يعيشون في العالم وحيدين! أننازل لهم عن بقية ضلوعي مقابل عبوس القيصر حين أوصولوا إليه الخبر!

جلس سفربي بعض الوقت لا يستطيع التنفس حين ضحك من أجل الفكرة التي خطرت له بشأن القيصر إذ انغزت في لحمه الأضلع المكسورة. ثم نهر نفسه قائلاً: ليعضَّ الكلب والدك؛ لماذا أوصلت الأمور إلى هذا الحد؟! لماذا يجب أن تتألم أضلاع صدري؟ لتألم أضلاع الحاكمين اللذين نضيع بينهما!.. لا تندم يا سفربي! ألسن رجلاً فتراجع عن كلامك؟ يواسي سفربي نفسه وإن لم يكن في سياق حديث معين. أين وركفارت وجيمس بيل ولونغفورت؟ يجب أن يكون جيمس شاباً ممتازاً قوي البنية كقالب مصبوب من الرصاص. لا ألومكم، أفهم سبب عدم مجيئكم. ها هو البوليس التركي زارني ثلاث مرات خلال شهر واحد. يسألون عن وضعي الصحي ويريدون معرفة المعتدين عليّ ولكني لا أعرف هؤلاء الشبان الجسام الذين ضربوني. لحقوا بي إلى طرف الشارع بعدما انتهت المظاهرة وتفرقنا، وصرعوني أرضاً، ورفسوني بأرجلهم مذكّرين إياي بما قلت بخصوص تركيا. الحق أني لا أتذكر إن قلتُ مثل هذا، متى هاج قلبك قلتُ الكثير! ومع ذلك ماذا قلتُ مما يجافي الحقيقة؟ أليست تركيا من أثارت موضوع الأديغة. لو خطر لخانجيري ما ذكرني به الإنجليز وفعله بحق الترك في بتريف لكان رجلاً ابن أمه، وأديغياً حقيقياً...

مرة أخرى تذكر سفربي الشاب الأشقر الذي جاءه أمس من البوليس. أنا من يلاحقونه أم من ضربوني؟ إن وصلتكم إلى هنا فلن تحصلوا مني على شيء. ولا ألوم الشباب الجسام الثلاثة. لو سمعتمهم يقولون بحق الأديغة مثل ما قلتُ بحق تركيا لفعلتُ الأمر ذاته... الآن أفهم لماذا يتجنبني أصدقائي الإنجليز. لا يودون أن يُظهروا أنهم معي. إن كانوا ينوون الخير للأديغة فلن يتوقف الأمر على ما سبق. وهل أبقى في المشفى دائماً؟! سيجدونني يوماً ما. لا يندم الشبان الإنجليزيون اللذان أخبراني بنبئتهما السفر إلى بلادنا!.. لا أتصور أنهما سيُحجمان عن تلك الزيارة. ولونغفورت ليس شخصاً سيئاً فلنر ما سيكتب بشأن هذه الأحداث، وسيظهر من خلال كتابته من أي نوع من البشر هو.

ولكن لا أعرف لماذا يُعجبني جيمس على نحو خاص. أظنه سليل أسرة غنية مثقفة. أياكون إعجابي به لأنه يذكرني ببنيته الجسدية بقرباثر؟ يا حسرتي يا ولدي، تركتك في الميدان وجئت إلى تركيا أناضل وأصارع فيها! أنا في أسوأ الأحوال أعرف مكاني. وأنت؟ أنت الآن في هذه اللحظة أين يتجه قلبك يا ولدي؟

لم يكن سفري منذ طفولته من الناس المزاجيين المتقلبين. كان مخلصاً لمبدئه حين كان يدرس في أوديسا، وحين خدم في الجيش الروسي، وحين أُسر، وحين سُرح منه، وحين خدم في الجيش التركي. لم يكن يريد أن تختلط أفكاره ونظرته إلى الحياة بأفكار أحد. وشهد على هذا ما فعله في البلاد الغريبة. وليس الأمر أن الشكوك لا تساوره، ولكن مهما تحبّط سفري في أفكار غير مؤكدة فإنه ينجو بسبب ثقته بنفسه، والحرية الأدعية التي فيه، والتي يشعر بها، والصدق الفطري من الله، والبراءة التي يغلب عليها الذكاء. يعرف واحداً من الثلاثة الذين اعتدوا عليه، يعيش في حيّه. والاثنان الآخران يراها كل مساء مع المصلين. لا يريد أن يأتي على ذكرهم، ليس خوفاً منهم، رأى كثيرين من هذا القبيل، وكثيراً من هذه الأحداث في حياته المتميزة أميراً. وقد قال قبل أيام على سبيل المزاح لمن يتابعون له موضوعه: حين تقع بين الناس الغاضبين، كائناً من كنت، فلن يكتفوا بتحطيم أنفك ووجهك بل يكسرون ضلوعك ويقتلعون عينيك، ولذا لا ألوم أحداً على ما جرى لي. وأنتم أيضاً لا تلوموهم. ليس تكسير ضلوعي مشكلة بل ما يحزنني أن الحادث صادف الصيف الحارّ.

لم يكن سفري يخلو من القلق من الوضع الذي وجد نفسه فيه مع أنه كان يريد أن يأخذ الحادث على محمل الهزل. والمشكلة الكبرى لديه كان لونغفورت وبيل، أما وركفارت فلا يعرف إن كان ما يزال حياً خلال الشهرين الماضيين. ومن حسن حظ سفري أن سلخور مُجّد وإسماعيل بيه يقيمان في إستانبول، ويوزرانه في الأسبوع مرة في المشفى، ولا يحتاج مع زياراتهم إلى من يروي له الأخبار. ولم يكونا يكتتمان عنه الأخبار السيئة، ويسره أن يحملوا إليه أي خبر يتعلق بالأديغة فالأفضل أن تصلك إن كانت حسنة أم سيئة. ويمكنك حسب زاوية نظرك أن تكتشف خطأ من الخير أو من الشر من خلالها.

- أي نوع من الأخبار جئتني به، بفضل الله، يا مُحمَّد اليوم؟ استقبل سفري صديقه، - قلْ مهما كان، أَرْضِ بالحسن وبالرديء منها.

- اليوم كل الأخبار حسنة يا أمير. لا خبر في أوربا إلا أخبار الأديغة. في كل يوم تنشر الصحف البريطانية والفرنسية والنمساوية، حتى الإيطالية، أخبار الأديغة. وفي مقر عملنا أيضاً لا خبر غيره. ينقذ وركفارت ما وعد به.

- شكراً له. ما أحوال داود بيه؟ ألا تقابله هذه الأيام؟

- ألم تنفق على ألا نتقابل؟

- ولونغفورت وجيمس؟

- هذان ينتظرانك. عاد لونغفورت ومكث في لندن شهراً. وهو الذي نشر خبر الأديغة في أوربا. هل كنتما تحادثتما؟ وأنت نشر لك كلاماً في بضع جرائد. لم يترك أحداً لم يصل إليه. وتكلم على بيع والدك محمجري قطعة أرض في أنابه لتركيا. ولم يكتف أن ابنك قرباتر يخدم في جيش أعدائك...

- يا مُحمَّد! - استلم سفري الحديث من صديقه. - كلُّ ما تقوله صحيح، وحسنٌ، غير أنك قلت أمراً غير مقبول لا أوافقك عليه: أنا لا أعادي الروس كشعب، لا ذنب لهؤلاء. الذنب ذنب الحكام الذين لا يضمنون لنا الخير. - التفت سلخور خائفاً أن يكون أحدهم ينصت إليهم. - لا تحف يا مُحمَّد، لا أحد غيرنا في باحة المشفى يتكلم الأديغة. هؤلاء الحكام هم من يورطون الناس من الطرفين في الحرب الدامية. مَنْ تعرف من الناس لا يودّ تربية أطفاله؟ أنا من لا يحب رؤية أفراس أولاده؟..

- صحيح يا سفري، صحيح. لمثل هذا قالوا: صراع الأمراء مأساة الناس. إن قلت "أمراء" فلا تظن نفسك المقصود أيها الأمير. - نظر سلخور في وجه سفري بوجه مزوح.

- ولماذا يا مُحمَّد؟ لم تُخطئ في كلامك. متى كنت أميراً؟ حين كان آباؤنا وأجدادنا يفرطون في أرض الأديغة. والآن أتخلى عن إمارتي لأي أحد. وأعرف كلاماً أسوأ بحق الأمراء؛ يقولون: الأمير والكلب سيّان. من قال هذا؟ العامة. ومن أين أتى المثل؟ من الظلم... اسمع، - غير سفري فجأة موضوع الحديث، - ليست هذه مشكلة، بلِّغ شكري للونغفورت. يبدو من كلامك أنه

نقذ التزامه كاملاً. مَنْ أحبُّهم هم الذين تتطابق أقوالهم وأفعالهم. الحقُّ يا مُحمَّد لماذا على لونغفورت وبيل انتظاري؟ سأكتب الآن إلى مَنْ سيتوجهان، وليسافرا إلى بلاد الأديغة!

- لا يا سفري، لا نفعلُ كلانا هذا! ولا يجوز أن ألتقي بهما كثيراً. وداود بيه لا يوافق على هذا مطلقاً. يودان مقابلتك دون ضجيج متى خرجت من المشفى.
- حسنٌ إن كان هذا رأيك. لم يبق الكثير، من المقرر أن أخرج بين عشية وضحاها. لا شيء أتردد في فعله من أجل قضية الأديغة.
- ما أريد أن أقوله لك يا سفري: الإنجليز لا يخطون خطوة ما لم تكن فيها فائدة لهم.

- أفهمني وركفارت هذه الفكرة. ماذا بيدنا؟ تلجأ إلى أي شيء عند الضرورة. ألن يفهم العامة ما أنجزنا متى بدأ الإنجليز يقدّمون لنا خدماتهم؟ - قال سفري كأنه تذكّر أمراً ونظر في وجه مُحمَّد بوجه نحيل. ثم أجاب بنفسه على السؤال الذي يتحرّج منه: - أقول هذا لأننا لم نستشر أحداً بشأن إقحام الإنجليز في قضية الأديغة...

- الاستشارة حسنةٌ يا أمير ولكن الأمور تسوء حين لا يكون عندك من تستشير. واليوم أنت في هذا الموقع الثاني. لا أرى في ما تفعل عيباً يا سفري.
- أنت على حقِّ يا مُحمَّد. ليست قضية الأديغة التي أعمل عليها موضوع شخص واحد. كان الأفضل أن يكون العامة والشابسغ على دراية... الله سيغمرنا بعطفه لأنه عون المضطرّ، وسيجئنا أنا والأديغة الخطأ في جهودنا. ثم إني حزينٌ لأنه لا أحد غيرنا نحن الاثنين في تركيا مهموم بالقضية.
- ولماذا نحن الاثنين يا أمير؟

- لا أدرج الإنجليز والفرنسيين والأتراك في هذه القضية. أتكلّم على الأديغة فحسب.

- وأنت مخطئ في شأن الأديغة أيضاً: إسماعيل بيه وحورية مهمومان جداً، وإلى جانبهما خروزر باشا حتى وهو في فراشه.

- أهم آل خروزر من تتحدث عنهم؟ - تذكّر أنه كان عندهم قبل أيام، وأنهم تكلموا في قضية الأديغة، وأنه تبين كونه والد حورية، وأنها جاءت سرّاً إليه

تعوده في المشفى، وأنهما تعاهدا على ألا يُطْلعا أحداً على سرِّهما. ولما روى لها قدوم ترام إلى تركيا، وعُزوفه عن الزواج توهجت وجنتا حورية وانفجرت باكية، وارتسمت أمام عينيها صورتها وقد ارتقت في حضن ترام. ثم عاد إلى حاله سريعاً وقال: - أنا راضٍ عن آل خروزر في شأن قضية الأديغة. وعدونا أن يساهموا معنا.

- والله وافقتَ مرادي يا أمير. وكانت حورية خانم سألت عن المشفى الذي تقيم فيه رغبة في زيارتك.

- ولماذا تأتي حورية إلى مشفى للرجال؟..- كتم سفري زيارتها له، - سأخرج خلال بضعة أيام. والله يا مُحمَّد أظن أني أعرف خروزر باشا ولكنه لا يزال قاسياً كما كان أيام زمان. - غيّر سفري الموضوع الذي تسبّب في جدال بين الرجلين، الأب والابن، والذي لا يعرف منه مُحمَّد شيئاً. - يكره السلطان التركي، ولا يوقّر شيئاً في ذمّه.

- والسلطان يعرف هذا يا أمير. - ابتسم مُحمَّد، - ولكنه يغفر له مقابل بطولاته. ويعوده في مرضه.

- لخروزر معروف على تركيا... - وجم سفري من كثرة أفكاره اللامتناهية في القضية، وحضرت إلى الذهن قضية وحدة الأديغة التي تشغله دائماً كما يحدث في هذه الحالة عادة. وانتصبت في عينيهِ صورة العلم الذي يُصممه. ولم يملك إلا أن يقول لمحمد دون أن يُبرِز إقحامه حورية في سرِّه الأثير: - كل ما نتحدث فيه حسنٌ يا مُحمَّد... ولكن سأكشف لك عن أحد مشاريعي. وبدلاً من المقدمات خذْ هذه - مد يده إلى جيب صدره، وأخرج ورقة مطوية، - انظر إلى هذه!

رأى مُحمَّد على الورقة مخطط علمٍ. وعدّ اثنتي عشرة نجمة متشابهة، تسعٌ منها في الأعلى، وثلاثٌ تحت. وأسفلَ النجوم ثلاثة سهام متقاطعة. ويدلُّك على اهتمام مصممه اتخاذُ النجوم والسهام موقعها في الوسط تماماً.

- ما هذا؟ - سأل مُحمَّد وقد أمسك طرف الموضوع الذي يحده ولكن مخفياً إحساسه.

- هذا علم! - يشرح له ونور الفرح يُشعُّ من عينيه: - علم وحدة الأديغة... هل ترى: رمزت إلى قبائل الأديغة الاثنتي عشرة باثنتي عشرة نجمة. ولم أميز بين قبيلة كبيرة وصغيرة في المواقع، كلها متساوية. وقد وجدت صعوبة في الوصول إلى السهام خلافاً للنجوم. خطرت لي أسلحة كثيرة من مسدس، إلى خنجر، إلى سيف، إلى بندقية... ولا أعرف لم فضّلت السهام. اليوم نتحارب ولكن هذه السهام أقرب إلى القلب، تذكرك بحياة السلم، بالأجداد. ما رأيك يا مُحمَّد؟

- فكّرت جيداً يا أمير! عبّرت عن حال الأديغة، ومزجته بفكر عميق.

- نعم، حين تكون في الفراش وأضلعك مكسورة يصل تفكيرك إلى موضوعات كثيرة... - ابتسم سفري: - ألا تسأل عن اللون المقترح للعلم يا مُحمَّد؟ - وأجاب بسرعة: - الأخضر! نحن مسلمون ولكن لن يظهر في العلم أي رمز إسلامي، حتى الهلال. وستطرّز النجوم الاثنتا عشرة والسهام الثلاثة بخيط من الذهب. وسيأتونني خلال أيام بالعلم منجزاً وسأوصله إلى جماعة ترام وجماعة حاغور، دون أيّ من الأمراء، ما رأيك يا مُحمَّد بالعلم؟

- فكّرت جيداً يا أمير، فكرت. - كرر سلخور رأيه، - ليتقبّل الأديغة أفكارك بالخير، وليكن أساساً صالحاً لوحدة الأديغة! ولكني سأسألك عن أمر واحد، ونظر إليه نظرة خبيثة، - أيّ نجمة من هذه النجوم تخصّ النأتخوأي، الشابسغ؟ - لا تبدأ يا سلخور، لا تبدأ يا مُحمَّد، - يضحك سفري، - لن أخبرك ولو كنت أعرف المكان. وإن طلبت مني تعداد أصحاب النجوم لما عدّدت كي لا تعرف من التعداد مكانها. لماذا نتحدث إذن عن المساواة؟ ثم إنك أديغي، وأنت تعرف، لا يعرف الأديغة تمييزاً بين الأول والثاني!.. يضحك سفري من أعماقه، وأسنانة البيض تلمع، ممسكاً بأضلعه المكسورة يمينه. - لا تؤاخذني يا مُحمَّد، أنت أديغي، إن كنا قلنا ما لا يقال، ما العمل، مهما أحبّ أحداً الآخر فهذه هي حالنا.

- صحيح يا أمير، صحيح... نحن الأديغة القلائل الذين نعيش في تركيا عندنا الشعور نفسه. لن تقول أصدق من هذا...

...

لم يستطع سفري إلا أن يقف على ميناء إستانبول مع أن بيل ولونغفورت طلبا منه عدم الاقتراب من البحر. ربما ما كان ليفعل هذا لو كانت السفينة "فيكسين" تنوي التوجه إلى إنجلترا. لم تدعه السفينة التي سترسو على شاطئ الأديجة يبقى في البيت. ولم يغمض جفنيه طوال الليل غارقاً في ذكرياته. اقترب سفري من الميناء قائلاً: ماذا يضربني وماذا أضربها إن وقفتُ جانباً وراقبت السفينة؟

كان الميناء في عزّ نشاطه رغم أن الوقت مبكّر، دَعَكَ من السوق الشبيهة بموج البحر إن حُضتْ فيه اختفيت. ولم يمض وقت طويل حتى ميّز سفري "فيكسين" من بين السفن الكثيرة التي في البحر. وبدأت تبعد متمهلة من الشاطئ التركي. انفعل سفري بلا شعور، وعصر الألم قلبه. والآن فحسب فهم أنه بقي وحيداً في بلاد الغربة. - السفينة التي تحمل أشواقه تبعد إلى شاطئ الأديجة...

...

حين عاد في ذلك اليوم من الميناء أُستدعي سفري إلى البوليس التركي. وقيل له دون مقدمات:

- عليك، بسبب أنك قدت حشداً غير مرغوب فيه من المصلين إلى السفارة الروسية، أن تدفع ألفين وخمسمئة قرش تعويضاً عن الخسائر التي ألحقتموها بمبنى السفارة، أو تُسجن ثلاثة أشهر.

سألهم سفري بعدما دفع الغرامة:

- وأضلاعي المكسورة؟

- سنغرم من كسروها إن أبلغتنا بأسمائهم.

جاؤوا أيضاً إلى سفري بعد الظهر بورقة فيها: "يُطلب إلى الضابط زانه سفري فور استلام هذه الورقة ودون أيّ تأخير الحضور إلى مقر قيادة الجيش التركي..."

الكتاب الثالث

I

لم يعد في إقليم الأديفة خبرٌ إلا إرسال مندوبي الشابسغ إلى تركيا. ولا يخلو رغم ذلك، ولا سيما في الجانب الأقرب إلى البحر من أرض الشابسغ، من أخبار تستحق السرد والاستغراب؛ ففي الأرض التي يحتلها الروس من الإقليم يمكن أن تقع أحداث كثيرة لم تخطر على البال. حدث أن تحاربت مجموعات من الفرسان من الطرفين، وأن نُقِلَت جُنُثُ الضحايا، وأقيمت أعراس في القرى، وجرّت أحداث مؤسفة في أطراف الإقليم الأربعة. ولكن سلام الوحدة القلق مستقر في كل مكان خلال هذه الأسابيع خلافاً لأشهر العام الماضي.

إقليم الأديفة ينتظر الخبر الذي سينتقل عبر البحر. الجيش الروسي ينفذ الأمر القيصري: "لا تشبكوا معهم بقدر الإمكان...". وفي الأحد الذي تفتتح فيه السوق يختلط الطرفان، ويتبادلان البيع والشراء. ويُقايز الأديفة الملح الذي افتقروا إليه طوال عمرهم بالعسل والشمع وجلود البقر والغنم. ويدفعون ضعفي السعر وثلاثة أضعافه كي لا يأخذوا منهم العملة الروسية. وقلوب الناس مطمئنة أكثر من ذي قبل رغم أن السوق التي خلت من المشاجرات صارت أكثر مدعاة للملل. والأديفة لا يقتربون من الجهات التي يحتشد فيها الجيش الروسي، ولكن الطرق المؤدية إلى القرى لا تدعو إلى القلق.

وفي الجانبين من لا تواتيه حالة السلم والاستقرار. والذي يقولون: "هؤلاء اعتادوا علينا، الكفار سيضموننا تحت جناحهم" يثيرون، لو استطاعوا، إقليم الأديفة بكامله، ويطردونهم من أرضهم. وإن أطلقت من يقولون بينهم وبين أنفسهم: "لماذا نتوسل إلى المسلمين، لماذا لا نرميهم في البحر" فهم حاضرون برماحهم المسنونة.

إقليم الأديفة محاصر من كل الجهات. والبحر الأسود محروس بالسفن. ولا تأتي سفنٌ من تركيا أو اليونان أو إيطاليا أو القرم أو من بلدان أخرى فترسو على شاطئ الأديفة. وعلى طول ضفة نهر بشره يعسكر الجيش القيصري. وكل يوم يزداد توغلهم في الإقليم. وليس في جهة الأنحاز طرق جبلية تؤدي إلى بلدان

أخرى. وطريق أستراخان القريب من البسلي والقبرتاي مقطوع. والجانب الجنوبي الروسي من بحر آزوف مغلق في وجه الأديغة. فكيف تستطيع أن تقاطع سوقهم؟ وكيف لا تأخذ منهم العملة الروسية؟ وكيف لا تحاربهم؟

القيصر الروسي يجابه الأديغة بجيش مدجج بالسلح، دون قلق، ودون استعجال، ودون غفلة، وعلى نحوٍ يُشعرك بأنه غير بعيد. لا يقول لهم: سأحاربكم، وسأحرقكم، وسأعمل على تغيير دينكم وقوانينكم. يقول لهم أمراً واحداً: يشهد لي اتفاق سلام أدرنه، وهو قراري.

الأديغي يشعر بالإهانة إن قلت له: أنت مُلكٌ لفلان، وقد مُنحتَ له. ويفضل الموت عليه. ورغم أن الدول العظمى تعرف حقيقة ما اقترفته بحق بلاد الأديغة الصغيرة فهذا هو السبب في إطلاق الموفدين عن حُبثٍ إلى الأديغة البعيدين لينقَسَ هؤلاء الشُدج عن ضيقهم، ولا تأمنَ للسبب نفسه لروسيا على حدودها القريبة منها.

كان حاغور نور مُحمَّد والفلاح ترام وضعاً أقدامهما للتو على شاطئ الأديغة حين ذاع في الإقليم كله خبر عودتهما. عرف الشابسغ كلهم خبر انعقاد مؤتمر يوم الجمعة في مضيق أدغ، منتقلاً من مضافة إلى أخرى، ومن جامع إلى جامع، وعبر المنادين. ووصل الخبر إلى الأبراخ والويخ والجدوغ. ولم يكن مؤتمر ضابطةً فحسب، بل كان لكل من يستطيعون ركوب الخيل، باستثناء النساء والأطفال طبعاً، الحق في المشاركة. والأفضل أن يكون مسلحاً فمن يدري؟!

لم يفهم الرُصَاد في القلعة الروسية بادئ الأمر الجلبة الهائلة الصادرة فجراً من الشابسغ. استنفر الجنود، ووزع السلاح عليهم. وأشعلت النيران تنبيهاً للمنع الروسية الأخرى. وأرسل الفرسان. وأوعز إلى قادة المواقع العسكرية في أنابه وإيكاترينودار. وصدرت أوامر مشددة ألا يُبادروا بإطلاق النار ولكن عليهم أن يردّوا بقوة إذا هوجموا.

تدافع الفرسان الشابسغ زرافات من خمسة فرسان إلى عشرة، وأحياناً إلى مئة وأكثر إلى مضيق أدغ. يخرجون من وراء زوايا المرتفعات، ومن مضائق سواقي الوديان، ومن مداخل الغابات ومحارجها. وظهرت من جهة الويخ مجموعة كبيرة من الفرسان تخالهم جيشاً كاملاً. وخرج من طرف الأبراخ عدد ليس أقل

من غيرهم. وعلى طريق البجدوغ يسير عدد من الفرسان وإن كانوا أقل من غيرهم. ومن القرى الأقرب يأتي رجال على الأقدام. ويخيل إليك إن نظرت أن إقليم الأديغة كله مستنقز أمامك فرساناً ومشاةً. والمجموعات الكبيرة تحمل علم الشابسغ. ومن لم يتسع لهم المضيق وقفوا على المرتفع. واختار كل مكاناً يسمح له أن يسمع ما يقال في المؤتمر. ووزع عدد من المبلّغين ذوي السمع المرهف على أطراف التجمعات البشرية. والفرسان المكلفون بحماية المؤتمر يرصدون على مرتفعات البجدوغ. وقُطع طريق أنابه بصقّين من الفرسان.

لم يحضر إلا أميران بالإضافة إلى عدد من زعماء الأسر القوية من الشابسغ. أحدهما حجمقوه أسلانج من البجدوغ، والثاني برزج جراندوقوه من الوبيخ. ولم يأت أي أمير من الجمكوي، ولا أي من أعضاء الأسر المتنفة من الأبخاخ. واعتصم بالصمت عدد من أمراء قرى البجدوغ. ومن لم يأت منها أي خبر ولو تأثها هم البسلني والقبرتاي. وفي أحيان نادرة جداً يأتي بعض الأبخاخ وينضمون إلى الوبيخ. وطريق الأبخاخ البحري ومخرج الوادي بيد الجيش الروسي.

افتتح حاغور نور مُجد الاجتماع باسم ضابطة الشابسغ:

- أيها المؤتمرين المجتمعون اليوم، - قال حاغور، وبدأ المبلّغون يكررون كلماته، - سنجيبكم على ما نقدنا مما كلّفنا به مؤتمر الشابسغ السابق. سيكون كلامي مختصراً. كنا في تركيا، وجئنا بنص اتفاقية أدزنه مكتوباً بالتركية والروسية. - ها هو: يُريهم الورقة. - كان زانه سفربي قرأ عليكم في المؤتمر السابق ما فيها باللغة الروسية. وهو نفسه ما في النص التركي. خذ يا يوسف أفندي وترجم لهم ما فيها إلى الأديغية! ثم تتكلم على ما فيها.

- عندي سؤال قبل أن يُترجم ما جئتم به إلى اللغة الأديغية، - صرخ أحد العامة الواقفين في الواجهة، - هل الورقة محتومة؟

- نعم، شهد ترام.

- نعم، عليها خاتم، وبصمات موفد سلطان الترك وموفد الروس تحتها. - أضاف يوسف أفندي، ثم مرّ بعينه سريعاً على عدة صفحات، ونادى المؤتمرين متمهلاً: - أيها المؤتمر الإسلامي العزيز الذي أُكِّن له الاحترام والتقدير، بسم الله الرحمن الرحيم، وشاهدي هو الله تعالى الذي يتوسل إليه الكثير ولا يتوسل

هو إلى أحد. هذه الورقة المكتوبة بالتركية لا تختلف في حرف واحد عما عرضه علينا زانه سفري. أشهد على هذا، والله شاهدي. ما في هذه الورقة صحيح وكامل.

ضج المؤتمر وهاج. وهبت فوقه نسمة صيفية حارقة. وأطلق بعضهم النار من المسدسات في الهواء. ومن انصرفوا راكبين، مستغربين ما سمعوا ليسوا قليلين. كل الناس، مهما تنوعت ردود أفعالهم شعروا بالإهانة مما ورد في الاتفاقية. تكلم عدد من المشاركين في المؤتمر دون تمييز بين رجال ضابطة وعامة وعبيد. وعبر كل المتكلمين عن الخطأ الذي وقعت فيه الدولتان، وعن انعدام الصدق، والانحراف وراء الأكاذيب، وعن عدم رضا الله عن هذه الأساليب. ومن كانوا ينقسون عن غضبهم فيصرخون عفواً، أو يطلقون النار من المسدسات أو يشتمون كانوا أكثر. وشهد حجمقوه أسلانج حين تكلم على صحة ما قاله العامة. وتكلم على الصدق والرجولة اللذين أبداهما موفدو مؤتمر الشابسغ إلى تركيا برئاسة زانه سفري. وأعقبه ثلاثة من الضابطة العوام. ولم يختلف ما قاله هؤلاء عن سابقهم. وحين بدأ المؤتمر يملّ من تكرار الأفكار، وينتظر أحداً يُنهيهِ، تقدّم برزج جراندوقوه بقدمين ثابتتين إلى الساحة:

- أيها المؤتمر الذي أُكِّنَ له كل تقدير، - بدأ جراندوقوه كلامه بثقة قوية واعتقاد راسخ، - اعتزوني في عداد من لا يعرفون اللغة التركية مع أي أعرف شيئاً منها. ما قاله لكم يوسف أفندي صحيح. وأنا يشهد لي الله فأشهد له. ولكن ما بيدك يا أفندي ليس إلا ورقة، ورقة كاذبة، ليس فيها أي شيء صحيح. هل ما أقوله صحيح أيها المؤتمر، أم غير صحيح؟

- صحيح! تصايح المجتمعون.

- حيّاكم الله، وأنا لا أراها إلا كما ترونها. - أضاف برزج إلى كلامه. - لم نكن مُلكاً لأحد، ولسنا الآن. عاش أجدادنا طوال عمرهم لأجل هذه القمم، لأجل الغابات الفسيحة، والبحر المتموج، والسهول الخصبة. ونحن، ومن سيخلفنا، سيعيشون من أجلها. سقوها بعرق جباههم، ونحن سنسقيها. حموها بدمائهم، ونحن سنحميها ولو روينها بدمائنا. الإقليم الأدبي كان منذ الأزل إقليماً أدبياً. والآن، وبعدنا سيقى كذلك! لا تراجع في شأن الأرض الأدبية، ولا

الرجولة والشرف الأديغيين! إما أن نكون رجالاً أو نموت. هذا ما كان يقوله أجدادنا الذين حمّوا أرضنا لنا. وهذا ما أقوله أيها المؤتمر إن وافقتموني!.. - نكون رجالاً أو نموت! - نطق الرجال الذين يزيدون على الألفين بصوت واحد، ومن أعماق قلوبهم. ولمعت خناجرهم المشهّرة تحت الشمس. وقفز الصدى وانتشر في الجبال وفي المرتفعات وفي أمواج البحر وفي الغابات مثيراً كل ما يصل إليه...

II

امتطى قرباتر الحصان حالماً وصله الخبر الذي أرسلته إليه ماريا. الإمكان الوحيد الذي بقي أمامه هو عدم جواز تأخير الموضوع. وإن لم يستطع قرباتر تحمّل المسؤولية فليس من يتحملها. كان الأفضل ألا تضاف هذه المشكلة إلى مشكلة الفتنة التي وقع فيها والده في تركيا، والتي يتناقل الضباط من حوله أخبارها. وفي كل الأحوال فالضباط باستثناء راكيتوف بافيل ينظرون إليه بجفاء. وبدأ الجنرال فيشيسلافتسيف ينظر إليه نظرة أخرى ناسياً مخافة القيصر. لا يبلغونه قيادة والده لجموع المصلين إلى مقر السفارة في تركيا لسبب واحد هو أن ولده في الجيش الروسي. ثم أُضيف إلى ما سبق خبرٌ مجيء الموفدين الإنجليز إلى إقليم الأديغة. وكل هذه الأحداث من تدبير زانه سفري. لا يحدث شيء في إقليم الأديغة لا علّم له به. يُشيعون عن والده كل ما يحدث ضد الروس.

قال قرباتر: الآن، في هذه اللحظة، يسكتون ولكنهم سيضربون يوماً ما، ينتظرون أن نعطيهم ذريعة ما. لن يجذوا أيّ ممسك عليّ إلا والدي. وهو الآخر يكتب إليّ بحرص شديد كأنه يعرف بالموضوع. ولا يكتب أي كلمة تستمسك حجة ضدي، بل يظل ينصحني بحسن التعامل معهم. وتُفيدني رعاية غزار الجنرال لي. وأحياناً يرسل إليّ تحياته مع فيشيسلافتسيف. ولا يحدث أن يأتي إلى أنابه دون أن يسأل عني ويُقابلي. وقد عرّج عليّ في حضرة جمع الضباط مع أنه يعرف الخبر الآتي من تركيا بخصوص والدي. وربما هو السبب في لجم مجموعة الضباط عن استعدادي.

لم يعد قرباتر يجد راحة بالٍ في الجيش. ولا يتعلق الأمر بوالده فحسب، فمنذ بدأت قضية الأديغة تطفو على السطح فقد ثقة الجنود الذين سيحملون السلاح والضباط وغيرهم. وحين يتوجه رفاهه إلى مجاهدة الأديغة لا يصحبونه بل يكلفونه بمهمة أخرى. وأضيف إلى كل هذا الآن موضوع ماريا. لو لم تقع الفتاة في ضائقة لما أوفدت إليه أخاها الأكبر. قال قرباتر: والد ماريا إنسان عجيب. يعاديني أيضاً في غمرة عداائه لأصل والده ووالدته وأهله وغيرهم من أبناء قومه. الحق أنني لا أستغرب موقفه مني بل معاداته لابنه رفعت. يلاحقه يريد أن يقتله في أي مكان يجده فيه. والآن يناكدني فيصرّ على تزويج ابنته من شابٍ من الأبراخ... ما العمل؟ من يستطيع أن ينصحي في هذا الشأن؟ أَلن يفهمني فيشيسلافتسيف إن أعلمته؟ أَلن يمنحني إجازة؟ الموضوع لا يحتاج إلا إلى بضعة أيام. متى أوصلتُ ماريا إلى بيتنا فليقل والدها ما يشاء، وليفعل! لن يسمح له فلاحونا بالاقتراب من بيتنا. ومهما أرسل من وفود، حتى لو كان هو بينهم، فلن تقبل ماريا العودة. ينصحي راكيتوف ألا أتهاون في موضوع ماريا.

لحظة خروج قرباتر من البيت ليعثر على فيشيسلافتسيف أينما كان رغم أن اليوم هو الأحد دخل إليه بافيل مستعجلاً:

- تعال يا قرباتر. أسرع! عند الدكانة اليونانية رجنتي امرأة أديغة أن أعثر لها على زانه قرباتر مهما كلف الأمر... أظنها ماريا... تتكلم الروسية أيضاً جيداً... هيا بسرعة!

- هذه ماريا... قلت لي عند الدكانة اليونانية؟

- نعم، وقالت: إن لم تجداني فيها ففي ورشة الخياطة.

- لنذهب يا بافيل، هيا. هذه ماريا. ومن معها؟

- توقعت أنا أيضاً أن تكون ماريا، وكان معها رجل عبوس وامرأة. أظنهما والدها ووالدتها. ومعهم صبي يافع. ثم هل تعرف ما قالت لي؟ إن لم تجدانا في محل الخياطة فسنعود إلى القرية قبل الظهر، وسمت لي اسم القرية، ونسيتُ.

لم يجد قرباتر وبافيل ماريا لا في الدكانة اليونانية، ولا في محل الخياطة، ولا في سوق القرية. وبحثا في أزقة الشارع الذي تقع عليه الدكانة. وأسرعوا إلى الميناء.

ظهرت بين أنابه وقُمتار عربية وراءها فارس. وحين اقتربت العربية مسافة صحيحة واحدة عرف قرباتر نيكراس تيم. وحين اقتربت العربية أكثر وجد في العربة ماريا وأمها سَمَاي. والصبيُّ ابنُ ابنتهما سائسُهما. ابتسم قرباتر.

- لماذا تضحك يا قرباتر؟ - لم يعرف بافيل تفسيراً لضحك صديقه. وتبادل الضابطان المرافقان لهما النظرات، والتفتا. - أليست هذه ماريا؟ - ماريا، ماريا يا بافيل!.. ما أضحكُ لأجله شيء آخر. هل ترى الفارس الذي يتبع العربية؟.. الأديغي يتميز أينما كان سواءً كان أميراً أم نبيلاً أم عامياً أم عبداً. لا يقبل أن يترك سرج حصانه ويركب عربة فيها امرأة. سيعتبر ركوبه عاراً إن رآه أحد، ولن يقبل على نفسه هذا العار. مَنْ سنخطف ابنته اليوم نيكراس تيم إن أردت اسمه بالروسية فهو: تيموفيه بن ميخائيل نيكراسوف، أين يبتعد عن الأديغة؟

حين رأى تيم الفارسين الروسيين أسرع فسبقهما. ارتجف جسده قلقاً على سَمَاي وحفيدها اليافع. ماريا وحدها هي الجاهزة لما سيحدث هذه اللحظة. تورّد خداه خجلاً مما سيحدث لها أمام والديها، وارتجفت. ستدفع نفسها إلى حارك حصان قرباتر ما إن يلمس يدها لأنه لا يخرج لها غيرُ هذه الطريقة. اختطف أحد الفرسان الأربعة الذين أغاروا عليهم ماريا. وسُمع صراخ سَمَاي، وبكى الصبي. وقال راكيتوف الذي خرج من بين الذين طاردهم تيم: - ابنتك ماريا نزلت ضيفة عند أناس طيبين، عند الأمير الشركسي زانه سفري، عروساً لابنه.

- ابتعد عن الطريق يا كافر! - سحب تيم خنجره، وأضاف بصوت أعنف: - لا أريد أن أسمع شيئاً عن الرجل الخائن لشعبه الشركسي، أخبروا رفعت ابني - حين نفّس تيم عن كربه أعاد الخنجر إلى مكانه. وقال لهم: - أخبروني أنتم الأربعة! - وقال لسَمَاي: - تعالاً أنتما، وأنا سأخبر الفلاحين!..

لم يكن مضى على اختطاف العروس أكثر من ساعتين حين وُضع جيش أنابه تحت السلاح وُشِّر على طرف المدينة. وهناك أكثر من مئتي فارس جاؤوا من قُمتار يقفون في مجموعات. ويتراكض من براوت وحابلج ورتابغ فرسان من

العامة. وكلما مضى الوقت ارتفعت جلبة فرسان العامة. ويشيرون بأطراف أسواطهم باتجاه المدينة. لو عرف الأديغة سبب جريهم، ليسوا جميعهم طبعاً، لما قام الروس بأي تصرف باستثناء فرسان العرس الأربعة.
همس بافيل لقرباثر:

- هل جاء كل هؤلاء من أجل ماريا؟
- نعم يا بافيل. - كان قرباثر يمزح ولكن في كلامه نصيباً من الصحة. - أظننا ضُعنا في المسألة... نحن الآن في قبضة ماريا، ونحن رهنٌ كلامها.
- وهل يمكن أن تندم ماريا على ما دفعننا إلى فعله؟
- لا يمكن التنبؤ بما يمكن أن تفعل... - في هذه اللحظة فحسبُ ارتعب قرباثر قليلاً، - هل يمكن لقلب الفتاة أن تجابه هؤلاء؟
- لا تأس يا قرباثر، - نصح بافيل صديقه، - ماذا يمكن أن يفعلوا بنا ولم نفعل غير اختطاف فتاة؟ لا تزال في بيتها كصورة الإله. لم نقل لها أو نفعل ما لا يجوز.

- أمزح يا بافيل. لن يتهمنا أنا وماريا أحد أننا فعلنا ما لم يفعله أحد.
وصل الجنرال فيشيسلافسييف مسرعاً وبرفقته ثلاثة فرسان، وسألهم:
- لماذا تجتمع كل هؤلاء؟ اسألوهم!
وأجاب العامة:

- ضباطك يا جنرال خطفوا ابنة نيكراس تيم.
- من من ضباطي فعل هذا؟ سأل فيشيسلافتسييف الضباط وخاطبهم بقسوة:
- ليخرج من فعل هذا، وليقف أمامي!
خرج قرباثر، وبعده راكيتوف وكارينيك وبوتينيك.
هاج الأديغة حين رأوا الضباط الأربعة واقفين أمام الجنرال. وحين تعرّفوا على قرباثر هدؤوا نوعاً ما.

- ما يقول هؤلاء، - أشار فيشيسلافتسييف بطرف السوط إلى العامة وقال:
هل صحيح يا أمير ما يقول هؤلاء؟
- نعم، صحيح. فعلنا ما فعلنا أنا وماريا باتفاق منا وحبّ. والله شاهدنا.
واسألوا الطرفين!

- عودوا أربعئكم إلى المدينة! ولا شأن لكم بما سنفعل أو لا نفعل.

بعدها عاد الضباط الأربعة إلى المدينة قرر الطرفان الروسي والأديغي دون جدال كثير انتخاب خمسة فرسان من كل طرف يتحدثون إلى ماريا. وعلى رأس الأديغة جانخوت خال ماريا، وعلى رأس الروس نصّب فيشيسلافتسيف نفسه رئيساً.

قال فيشيسلافتسيف لنفسه حالما صار فرسان العامة وراءه: هؤلاء متى عاملتهم بإنسانية قابلكم بمثلها. قبلوا بما قلت لهم لأن كلامي كان عادلاً، في حين نُصِرَ على أن يلبّوا لنا طلباتنا بالبندقية. وإن تبين أن ضباطي أخطؤوا فلن يردعني الله ولا القيصر عن معاقبتهم. سأنتزع بيدي رتبهم أمام العامة. الأشرار يقابلون بالشر، والأخيار بالخير.

والعامة، بمن فيهم نيكراس تيم، كانوا متجمعين، أغلبهم في هدوء، منهم من يدخن، ومن يُصلح حزام حصانه، ومن يمسك لجام حصانه بملء راحته، ومن جلس في الحشيش، ومن يسمح مسدسه، ومن يشتم الروس يُنصت إلى صوته. ولما رأوا الفرسان الموقدين قد رجعوا امتطى العامة أحصنتهم. وتحرك الجنود الخيالة الروس، ووقف المشاة في أماكنهم، خرج من بين الفرسان الأديغة جانخوت، وقال مُسمِعاً الجميع:

- حيّاكم الله أيها الفلاحون على قلقكم من أجلنا. ابنتنا تزوجت بإرادتها. نهنئك يا تيم، وندعو لك أن تشهد خيرهما!

بدأ العامة ينصرفون مرحين خلافاً للحمية التي جاؤوا بها. وحين قال الجنرال فيشيسلافتسيف شخصياً الكلام نفسه للجنود الروس تصايحوا فرحين بالعروس. ثم صاحوا في انسجام "أورا!" عدة مرات. والتفت العامة إلى أصوات الجنود الروس. وكان بينهم من تقبّل فرحهم ومن لم يتقبل. وبينهم من قال: "ما أشد فرحة هؤلاء الكفار بعروسهم نصف الروسية، نصف الأديغة! سننتزعها منكم!"

عاقب الجنرال فيشيسلافتسيف الضباط زانه وراكيتوف وكابرينك وبوتينك بالإقامة الجبرية في بيوتهم أربعة أيام لأنهم اختطفوا ماريا، رغم رضاها، من الطريق.

وكانت الدنيا لا تسع قرباتر من الفرح وإن أخفى عواطفه. وشارك الثلاثة الآخرون زميلهم فرحه، ولم يحزنوا لعقوبتهم.

...

- عندك كنة يا بابور، لتهنئي بها! - حين أخبر تراثم بابور نظرت واجمة إليه من المفاجأة بدلاً من أن تفرح، متسائلة عن مكان إيوائها، وعن سبب عدم القدوم بها إلى البيت. ثم عاد إليها وعيها وصاحت:

- يا مصيبيتي، كيف جرى هذا في غياب والدها! - وبعدما صمتت مدة سألت: - العروس ابنة من؟

- الابنة الصغرى لنيكراس تيم. أخفت بابور رضاها عن أصل العروس أو عدم رضاها. وسألت مرة ثانية بعد قليل:

- أين العروس؟ على من حلت ضيفة؟

- اصطحبوها إلى أنابه مباشرة.

- وهل يفعل أحد مثل هذا؟! - الآن فقط ظهر على بابور غضبها. - ألم يولد قرباتر في أسرة أديعية؟ أليس سليل نسب أديغي فيجعل القرية تسخر منا؟.. - ضغطت بابور على عواطفها وشرعت في ترتيبات العروس والعرس. - هل أخبرتم أهل العروس أن ابنتها عندنا؟

بدا على وجنتي بابور عدم رضاها عن أخبار العرس دون أن تقول كلمة في غير محلها، واختفى. وجعلها الضيق الحار الذي هاجمها تشعر بالحاجة إلى التنفس. قالت بابور: مأساة أن يتزوج الابن المدلل للأمير امرأة من العامة تفسد النسب. ماذا سيقول من يسمع الخبر من الأمراء والمتنفذين والنبلاء؟.. أصدقائنا سيحزنون، وأعدائنا سيشمتون. لو كان سفري هنا لما سمح للولد أن يفعل هذا... ولكن أليس سفري من كان على صداقة مع تيم؟ كم قلت له: لا تُعاشر هؤلاء العامة؟ ولا تستقبلهم في مضافتك، ولا تجلسهم على مائدتك! هذا الواقف أمامي الفلاح ترام، والآخر حاغور اصطحبهما إلى تركيا في مهمة تعود إلى المؤتمر، وهما عادا وبقي سفري خلافاً لغيره. والآن شغل نفسه بقضايا الأديغة. لماذا آل حجمقوه وآل تسي وآل برزج وآل بولتقوه لا يشغلون

أنفسهم يمثل هذه المهام فيسافروا إلى بلاد غريبة؟ الجمكوي، ومعهم البسلي لم يعودوا يهتمون بشيء، دَعَكَ من الأبراخ الذين أَتُونِي بعروس من عَامَتِهِمْ! هم الآن واجمون مكتوفو الأيدي ومكمومو الأفواه. ولم يرسلوا موفدهم إلى مؤتمر الشابسغ. أيُّ فلاحٍ مرافقُ أميرٍ لسفري ما كان ليسمح لقرباثر أن يفعل ما فعله. أليس هذا ما جعلهم يقولون: البيت الذي ليس فيه قطّ يلعب فيه الفأر. وحين فكرتَ في الزواج لم تكن معصوب العينين أيها الولد المنحوس. أما كان عليك أن تنظر إلى من تفكرَ فيها؟! صحيح أن نيكراس تيم انتقل إلى صف الأديغة ولكن ابنة تيم نصف أديغة. ألم تسأل عن اسمها، أليس ما سموها به هنا اسماً حقيقياً!.. ثم إن نيكراس تيموفيه يُهرع إلى أُنابه ويحشد حوله العامة بدلاً من أن يفرح. ويثير ضجة حوله. أكان يريد أن يجعل ابنته تقول إنهم خطفوها رغم إرادتها فيودع ابني السجن وفق القوانين الروسية؟ ليحبس ابنه رفعت الذي خرج عن طوعه!

أوقفت أصوات المهنيين القادمة من المسطبة أفكار بابور. ونهضت لاستقبالهم وشكرتهم. وبابور الآن غيرُ من كانت قبل لحظات توبّخ وتعنّف، وها هي تعطي تعليمات للخادم الواقف عندها:

- بلِّغ الخدم والفلاحين أن يجهزوا منذ هذه الليلة ما يكفي لعرس سبعة أيام من المواشي والخطب والماء والطعام والباخسمه. وليعلم أهل قُماثر وِبراوت وحَبْلَج ورتابغو أن عندنا فرحاً. ونَقْدُوا تعليمات عمّ قرباثر، لا تخالفوه. - وتتوجه بابور إلى سلفتها وتقول: - لا، على " زَيْكُوشاوه" عمّ قرباثر أن يرسل عدداً من الفرسان إلى قرينا نيكراس تيم في قرية دخاباه يخبرهم أن ابنتهم عندنا. ولْيُعِيدُوا كُنْتَنَا إلى بيتنا الليلة. ولْيَطْلُبِ الولد إطلاق سراحه، وأخبروه باسمي أن يحلّ ضيفاً على من يريد من أصدقائه كي لا ينقض عادات الأديغة. وإن لم يتحقق هذا الليلة فسنكتسي بالعار في كل الشابسغ في وقت يغيب فيه الرجل عن البيت.

- رَبُّ أسرة أقبائنا تيم، - يقول حاغور، - سمعنا أنه تصرف اليوم تصرفاً غريباً، هل هذا صحيح؟

- لا نستطيع أن نتعامل معه حسب تصرفاته. ليؤدّ آل زانه ما عليهم.-
حسنت بآبور الموضوع دون الدخول في التفاصيل.

كانت بعض النجوم ظهرت في السماء حين دخل ثلاثة فرسان مكلفون بإيصال الخبر قرية دخاباه. ربط آل نيكراس خيولهم، ودخل الرجال إلى المضافة، وما إن جلسوا حتى سُمع خليط من أصوات الرجال والنساء يصعب فهمه من الغرفة المجاورة. سكتوا، ثم استأنفوا...

- هؤلاء الذين نزورهم لا فرح لديهم.- كأن ابنتهم لم تتزوج.- قال هارون ابن أخت آل زانه بطريقة تُشعرك بأنه مستاء نوعاً ما من الاستقبال، - كأنهم لا يحترمونا!

- لا يمكن أن يصل نيكراس تيم إلى هذه الدرجة.- أجب ترام كمن يحاول حماية المضيف، - هو واحد من رجال دخاباه، ومن فلاحيه. من الصعب اقتلاع ابنتك منك يا هارون، ليس مدعاة للفرح.

- وهذا صحيح يا رجل، - لم ينطق هارون اسم ترام يريد أن يعيده إلى وعيه، - ولكن عليك أن تفكر في الأسرة التي انضمت إليها ابنتك!.. نحن، موفدي أسرة الأمير، نجلس متوسلين في مضافة أحد العامة، وليته كان عامياً كسائر العامة. وهما، الرجل والمرأة، في الغرفة الأخرى يتجادلان... والله هذا غيرُ جائز. - احمر وجه سليل الأسرة الأميرية، - كأنهم يهينونا!

دخل نيكراس تيم إلى المضافة. فنهض الموفدون الثلاثة له كما تملي عادات الأديغة. حياهم تيم بوجه طلق كأنه لم يحمل غضباً طوال يومه:

- أهلاً بكم أيها الضيوف. تفضلوا اجلسوا، تفضلوا!

نظر هارون نحو ترام كأنه يقول: الفلاح محدّث الفلاح! وأوماً إليه بعينه أن يُعلمه بسبب قدومه. بدأ ترام كلامه، الناس الذين هم سلائل الأمير وليسوا سلائله الذي تفرّعوا من الأمراء من أصول بعيدة، ويتأّمرون مع الأمراء، هم الذين يصدعون الرأس وينفخون البطن، ضحك ترام في قلبه وقال:

- ابنتكم يا تيم، أرسلونا لنخبركم أنها صارت من أسرة زانه الخيرة التي ندعو أن تكون إمرئها البيضاء بين السحب البيضاء، وتنمو في الأرض المعطاء، أسرة زانه

سفري الأمير الأديغي المتميز. ندعو أن تكون خطت خطوة مباركة إلى من
 انتمت إليهم، وتصبح عروس خير لهم، وتترك عقبَ خير لمن فارقتهم.
 - آمين! - حين نطق الموفد الثالث بالدعاء ردد معه الجميع بصوت واحد.
 - حياكم الله، ورضي عنكم، - أضاف تيم ناسياً كل ما قال اليوم وما فعل: -
 ربما كان الله الكبير الذي يضرع إليه الجميع ولا يضرع هو إلى أحد قدّر
 هذا. يحزّ في نفسي أن الحدث صادم غياب قربي سفري. لا أقصد أن آل زانه
 ليسوا أهلاً لتحمل إجراءات العرس بل أقصد أن الأمير سفري كان سيفرح لو
 كان حاضراً. - يا حسرتي يا أمير هل هناك ما هو أدعى إلى السعادة من
 حضور فرح ابنك؟! - أضاف تيم بنبرة ألطف كمن يخاف أن يقطعوا عليه
 كلامه: - ثم إني، لا تؤاخذوني، لا أحب أن يُقيموا عرساً روسياً في أنابه. -
 صاح تيم نحو الغرفة المجاورة كأنه يريد التمويه على ما قال: - هيه! ساحكم
 الله، ألم يبق في هذا البيت ما يؤكل؟!

...

ارتفع صوت العرس من جهة أنابه، وانتشر، وطار في سماء الصيف، وتلمع
 النجوم حين يصل إليها الصوت كأنه يشحنها بالنور. والقمر المنير الذي يشبه
 وجه ماريا يفرح من عليائه. والساقية الصغيرة تجاوب في مجراها أغنية الفرحة التي
 وُلدت في الليل الهادئ. و الفرحة الذي نجم فجأة في أرض الشابسغ - الأديغة
 ترصده الثلوج المتجمدة على القمم في ضوء القمر الفضي خوفاً عليه من العدو
 الذي لا يوثق به.

الهدوء يسود كل مكان كأن عالم الأديغة كله متيم بأغنية العرس.
 ترتفع أغنية العرس: "وه- ري - دا - ده - ري - وريدا، والعروس
 نزقها، وهي أشدّ نقاء من القمر الذي يتوسط السماء، وه- ري - دا - ده -
 ري - وريدا. مُحبّا الشمس التي تشرق علينا صباحاً عروشنا. وه- ري - دا -
 ده - ري - وريدا. مَن فمها الذهبُ وصوئها الفضة، ومَن حاجبها جناحا
 عصفور صغير، وه- ري - دا - ده - ري - وريدا. مَن فيها الجمالُ والنعموة
 وحسن المنطق عروسنا، وه- ري - دا - ده - ري - وريدا. نزع العروس كي

تكون سعداً للقرية، وفَرِحاً للحَيِّ، ونمَاءً للأسرة، وهـ - ري - دا - ده - ري -
وريدا!.."

- لتنضمِّي إلينا خيراً على القرية، وإخلاصاً للأسرة! - دعا ترام إلى الله، ووافقَه رفاقه. وقال مفتوناً بأغنية العرس التي تقترب: - تعال نستقبل الرِّقَّة!..
لم تعد دائر زانه تتسع للمحتفلين. والأضواء تتألأ. وتُرافِقُ نارُ الطباخين ضوء القمر. الرجال مجتمعون وحدهم، والنساء في مواجهتهنّ. ما إن ظهرت جماعة الرِّقَّة من منعطف الشارع حتى هُرع الصبيان لا يُطيقون صبراً. وكبار أسرة زانه مجتمعون في المضافة كأنهم غير مهتمين بما يحدث في الدار غير أن آذانهم مفتوحة نحوها. وفي الغرفة المنفصلة المواجهة تجلس النساء حول بَابور، يدعون إلى الله أن تكون العروس سعداً على آل زانه. ولا ينسين سفرِّي. حزينات لغيابه، ويواسين بَابور، ويمسحن على ظهرها.

توقفت عربة العروس عند الباب. وسرعان ما أوصلوها تمشي بين شاب وشابة إلى غرفتها قبل أن يجد المستقبلون الفرصة للنظر إليها. وحين انتهت الشابات ومن هن أكبر منهن ويتمتعن بالحوية من عناقات الترحيب أوقفوا ماري الملتحفة بالحرير الأبيض في الزاوية. وأوقفوا بجانبها على الطرفين فتاتين شابتين من آل زانه.

دخل اثنان ممن زفّوا العروس إلى كبار الرجال من آل زانه، وهنأهم بهذه المناسبة. ودعّوا إلى الله من أجل العروسين وأهلهما. وتوجها إلى غرفة النساء وخطبا لبَابور أيضاً.

وبعدما خطب عريف الحفلة من أجل العروسين، ومن أجل أسرتهما، ومن أجل القرية، علا صوت الأوكوردوين والدفوف الخشبية، ثم افتتح شاب وشابة من أصحاب العرس الحفلة فبدأت تحت ضوء القمر الأيام السبعة لعرس آل زانة.

ما حزنَتْ له بَابور بشأن ابنها العريس بعد ما سمعت خبر اختطافه للعروس، وإن أخفت حزنها، هو نزوله ضيفاً على الفلاح ترام. ولولا هذا التصرف لكانت بَابور راضية عن تصرفاته الأخرى. ولكن، قالت بَابور، من الأفضل في هذا الوضع الحرج الذي نعيشه ألا نتكلم عن عدم رضانا باتخاذ ترام الفلاح

إشبيناً، بل أن نجعل أي شخص يشكّ في رأينا. لا يجوز في هذا الزمان العصيب تجاهل الفلاحين. والحريص جداً على الموضوع هو سفري. كان اختار ترام ليرافقه إلى إستانبول بصفته رجلاً حكيماً. وهارون ابنُ ابنتنا ثرثار في هذا الشأن. نادت بابور من الغرفة واستدعت هارون:

- كيف تجري أمورنا يا هارون؟ ماذا يقول الفلاحون؟

- يتظاهرون بأنهم لا يدّخرون جهداً يا كَنَّة، - ابتسم هارون دون أن يستطيع إكمال ما يريد قوله. - لو كنا نعرف ما يُضمر هؤلاء في نفوسهم... أظنهم مسرورين لأن الأمير تزوج من سليلة فلاحين... لا أعرف يا كَنَّة، لا أعرف. ألم يكف هذا حتى لا يزيد قرباتر الطين بلة بنزوله ضعيفاً على الفلاح ترام؟!

- اسمع يا هارون ما استدعيتك من أجله، - قالت بابور بوجه شاحب وصوت بارد، - ابتداء من هذا اليوم لن نتكلم في ما جرى لنا. اعتبِرْ نيكراس تيم من أسر الأبراخ المتنفذة، والفلاح ترام أميراً من أمراء الناختواي!

- لولا ما سيقول الناس...

- لا تهتم بما يقول الناس، بل بما نقول نحن. - قاطعت بابور كلام هارون. - إن انتشر كلام مُرٌّ لا ضرورة له بين الفلاحين فلن نكون مسرورين أنا وسفري، دغك من قرباتر! - ثم اختتمت بصوت أنعم: - ماذا بيدنا، تحدث أمور كثيرة في العالم لا نرغب فيها... من توقّع أن يحدث هذا في غياب سفري؟!

- إن كان هذا رأيكم يا بابور، - ابتسم هارون مرة أخرى ابتسامة ذميمة، راجباً في أن يردّ على محدّثه بكلمة جارحة لولا أنّها زوجة أمير، - نحن لا رأي لنا، الرأي رأيكم... - ومع ذلك لم يملك إلا أن يقول: - هؤلاء سلالة القذارة، لا يجوز التقرب إليهم...

قالت بابور: ما أشدّ جنون هذا الرجل الجالس أمامي! يتكلم خارج حدوده. ما على لسانه هو ما في قلبه. أستطيع أن تقيد كل الناس لأنك قادرٌ على هذا؟! سواءً وافقنا سفري أم لم نوافق فكم من أمثال هذا القميء في إقليم الأدبغة! تظاهرت بابور بموافقة هارون حتى لا تغرق في الأفكار الثقيلة:

- نعم، نعم، ما العمل؟... هيا يا هارون عُدْ إلى مَنْ كنتَ معهم. اهتموا بالحفلة، لا توقروا جهداً. ابعثوا المرح في كل قادم إليكم!

- هل تعرفين يا بابور ما قال لنا قريتنا تيم؟ - لم يملك هارون وهو ينهض إلا أن يقول، بل يتردد فيه شيئاً، - يودّ ألا يساهم الروس في عرس ابنتهم. نعم، قال لنا بصراحة ودون مناسبة.

- نحن أصحاب الشأن، لا نيكراس تيم، يا هارون.

- نعم يا بابور، ما رأيك أن يشارك زملاء قرباتر من الضباط في العرس؟

- وأنت يا هارون ما رأيك؟

- والله لا أعرف، لن يقبل الفلاحون!

- وهل يقبل الفلاحون خدمة قرباتر في الجيش الروسي أم لا يقبلون؟

- والله لا أعرف. بينهم من يقبل، ومن لا يقبل، ومن لا يُدلي برأي.

- أكيد أننا لن نطرد الضباط زملاء قرباتر إن أتوا إلينا!.. وعلى هذا فسيظهر، ليس بين الفلاحين وحدهم، بل بين الأمراء والنبلاء والأسر المتنفة من يقبل ومن لا يقبل ومن لا يُدلي برأي؟ ماذا بيدنا يا هارون؟ سنتصرف بما يضطرننا إليه زماننا.

- والله لا أعرف يا بابور معنى كلامك. - قال هارون معتبراً المرأة غبية، مبتسماً الابتسامة الذميمة نفسها، ثم أنهى كلامه: - لو كان سفربي حاضراً لما قبل البتّة!

صدر صوت الأوكورد يون من جهة الدار، ورافقه الدف الخشي.

- هيا يا هارون، عُذ إلى حفلة الرقص، انشروا الفرح بين الناس، واجعلوهم يزدون الفرح فرحاً. كل ما تكلمنا فيه بيد الله، وسترى هذا.

في اليوم الثاني استؤنف الاحتفال في الدارة الكبيرة للأمير. وفي ساحة الرقص المستديرة عريفان للحفل. الشباب في جهة، والبنات في الجهة الأخرى على الزحافات الخشبية. العريف يذكر أسماء الشباب ممسكاً بعود رفيع، مركزاً على رجولاتهم وحسناتهم، ويدعوهم إلى الرقص في فرحة آل زانه. ويدعو مَن حان دورها في الرقص من البنات مع عبارات التودد إلى مراقصة الشاب. ويتلو أسماء من قدّموا هدايا، ويظهر مقدار المال المتبرّع به بين إصبعين مرفوعتين. وحين يبدو له أن حدة التصفيق انخفضت يستدير إلى جهة الرجال مقلداً الراقصين منادياً: "التصفيق، التصفيق، يا أهل المروءة، لا أسمع التصفيق!" ويتجاوز

البنات غامزاً إياهن. ويشش لعازف الأوكوردون، ويقوم بحركات تهريج في وجه الناقر على الدف الخشبي.

النساء مجتمعات على المسطبة يشاهدن الرقص والراقصين. والرجال الذين مال بهم الزمن يجلسون في المضافة منصتين متحسرين على أيام الشباب. الموائد تُحمل إليهم ملاءى، وتخرج فارغة. ويرفعون كؤوس الباخسمه باسم العروسين الشابين. ويلخصون في أنخابهم كل ما هو خيرٌ للعروسين. ويوقعون بأقدامهم تحت المائدة على نشوة الباخسمه الخفيفة.

العرس يتصاعد، والشمس تفرح.

يدخل العريف الساحة وطرفاً كسائه ملمومان بالزنار الفضي الرفيع. يدور في مكانه، ويقول للحاضرين:

- أيتها الفرحة، أيها الحفل، يقول المشاركون: ليدخل حاغور نور مُجَّد أحد الفلاحين المتنفذين ليس في الشابسغ وحدها بل بين الأديعة كلهم إلى الحلبة، وليرقص بكل حماسه حتى يُرينا كعب حذائه! حاغور مُجَّد واحدٌ ممن يبذلون جهداً مع الأمير الذي فاق سائر الأمراء سفربي الذي ندعو له أن يجعل الله يومه مثلاً. من في هذا الحفل لا يعرف رجولة حاغور نور مُجَّد، ومن لا يذكر والده المرحوم حاغور موسى بكل خير؟! هيا يا نور مُجَّد إلى الساحة، أرنا رقصك يا أخي!.. لا ييخل من يود أن يتبرع للصديق وللضيف! لا فرق عندي بين القرش التركي والعملة العربية والأخرى الروسية وعملة القرم... - يتأمل وجوه المتبرعين ويدعوهم إلى الإسراع. يستلم منهم العريف النقود وقد جهّز سلفاً ما سيقدم به المتبرعين من كلام، ويضع قطعة النقود بين إصبعيه، ويرفعها إلى الأعلى.

- أي عملة روسية يأخذها هذا العريف منهم!.. يقول هارون لمن حوله غير راضٍ عما يسمع. - ومن يعطيه من هذا النوع؟ ألم تتفق على عدم استعمال العملة الروسية في إقليم الأديغة؟

- ستعرف إن لم تستعمل متى ذهبت إلى سوق أنابه. - أجابه أحد الحاضرين.

- هل مُتتنا جوعاً حين لم نملك العملة الروسية؟ - لا يزال هارون معارضاً،
ويجيب سؤاله بنفسه: - لم نمت، عشنا حين لم يكن عندنا منها. حرثنا وبذرنا،
وجنينا الغلة، حسناً يا يوسف أفندي ما رأيك أنت؟

- هذا ما كنا نسعى إليه يا هارون منذ أن خلق الله الأديغي على الأرض
وأنطق لسانه بالأديغية، الحق معك، - يبدأ يوسف أفندي الحديث وكأن وجهه
المستدير مدهون بالزيت، مناوراً من بعيد، منصتاً إلى صوته، - الأديغي الصغير
عاش حياته يربي، ويعمل. وحى أرضه من كثيرين أتوه أعداء. لم يجد الوقت
لينتخب سلطاناً، أو يؤسس مدينة، أو يصكّ عملة. لا شيء أوسخ من النقود
على الأرض إن أردت الحقيقة باختصار فماذا تفعل بها؟ ومن يعرف هذا إن لم
تأت إليه وتخرج من يده؟ لا يتورع النقد عن أن يلامس أي يد، سواء كانت
فيها دقّة أم خراج أم طاعون أم آلام خلق أم إسهال، وماذا أيضاً، أم
حصبة... عليك أن تغسل يدك كلما أمسكت بها النقود. وهذا ما أفعله متى
لامستها... - أصلح يوسف أفندي خطابه كمن عضّ لسانه فعاد إلى وعيه:
- نحن طوال السنة نحصل بصعوبة على قطعة من فئة الخمسة والعشرين
كوبيكاً. وقبل أن نشبع من النظر إليها يسلبونها إياها في سوق بُشّده.
- وبالإضافة إلى ذلك يا أفندي - سأل فلاح آخر، - أليس التعامل بنقود
الكفار حراماً؟

- حرام، حرام، - رفع يوسف أفندي حاجبيه الأسودين. - هذا لا يحتاج إلى
سؤال. حرام أن ترتاد سوقهم التي تفوح منها رائحة لحم الخنزير. - ما من شيء
يتعلق بهم إلا وهو حرام. كله حرام! ولكن لماذا أفترى عليهم، لن يقبل الله الذي
يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل هو إلى أحد، قطعتهم الذهبية السميكّة ثقيلة،
وكذلك الفضية...

- وهل شاهدت قطعتهم الذهبية يا أفندي؟
- ماذا تقول؟.. - ارتعب يوسف أفندي وقد وضحت لهجة الأبراخ التي
يتكلم بها. - ما الذي يوصل ليرتهم الذهبية إلي؟! سمعتُ بها في البلاد العربية
فحسبُ.

- وهل يعرف الناس في البلاد العربية الروس؟ لا يتوقف هارون.

- وكيف لا يعرفون؟ وهل هناك بلادٌ لا يعرفونهم فيها؟!
لفت أنظارَ الواقفين الفارسُ الذي وصل مسرعاً إلى البوابة الكبيرة. وقال الصبي الممتطي صهوته مرتعباً:
- القوزاق قادمون!
- حمل الرجال سلاحهم، وبدؤوا يفكّون خيلهم من مرابطها. واستقبل ترام الصبي وسأله:
- كم عددهم؟
- خمسة فرسان يا ترام. يأتون من جهة أنابه.
- لا خطر إذن، - عاد ترام إلى الجمع الذين فارقهم. - أظن أن هؤلاء ضيوف، زملاء لقرباثر. أخير الكبير يا هارون، وأنا سأستقبلهم برفقة حاغور. وسأعرف حقيقة الموضوع.
- أليس الشخص الواحد قليلاً كرفيق؟... لم يقبل يوسف أفندي، - من الصعب التكهّن بما في قلب الكافر.
- لا حاجة لأكثر من هذا ونحن في قريتنا، عيب علينا. - امتطى ترام الحصان وتبعه حاغور.
- كنت أتوجس من أن يتخذونا مزاراً لهم... - غمغم هارون.
- حفلة العرس لا تهم بأيّ قادم سواء كان ضيفاً أم عدواً. العرس يغلي ويجاري الشمس ويوزع المعروف ومن عمل خيراً يعرف أن الخير بانتظاره، ومن لا خير في قلبه يعرف أن قدميه ستخذلانه. ليست الحرب قريبة من الأديغة بل لا حرب في الدنيا كلها. لم يطأ أحدٌ يضمّر الشر في قلبه أرض الأديغة، ولا تُشاد مواقع الجيش في طول البلاد وعرضها. ولا أحد يسلبهم أرضهم أو شرفهم أو حريتهم. العريف يتوسط الحلبة، يرتفع بالناس إلى الخير والإنسانية والرجولة والجمال، ويُبعد الحزن، ويأتي بالفرح إلى الساحة، ويسكب الأوكورديون والدف الخشي صوتيهما ماءً فضياً في أفواه الأحياء والأموات. ولم يبق تمييز بين الأمراء - النبلاء وبين الفلاحين في إقليم الأديغة كله. وانتهى عذاب العبيد وكذّحهم وفقرهم وقلقهم. يجب أن يكون الفرح ومتعة المشاركة في الفرح والالتقاء بالناس

فوق الجميع. يخاطب العريف المحتفلين: "التصفيق، التصفيق، رددوا الأغنية مع اللحن في قلوبكم، ولا تُريحوا أقدامكم!" ويرتفع الفرح.

يزيد المحتفلون من عزفهم ومن تصفيقهم ومن رقصهم كأنهم لا يهتمون لأمر الضباط الروس الذين دخلوا من بوابة دار الأمير، يقولون لهم: انظروا ما أشد فرحنا ومرحنا! وينادي العريف الضيوف من قلب الساحة مُبعداً الواقفين، فاتحاً لهم الطريق:

- هيا تفضلوا، نقول لكم أهلاً وسهلاً يا أصدقاء قرباتر الضباط. أحييكم داعياً لكم أن تعيشوا بقدر خطوات خيلكم على الطريق مئة ضعف. وأن تعيشوا حياتكم لا تجدون فيها مشقة غير تعب سفركم. هيا يا تزام افتتح الرقص باسم ضيوفنا. هيا أيها العازف وأيها الموقّع، والأكف للتصفيق. لا تخرجوني أيها الأصدقاء أمام الضيوف، مدّوا أيديكم إلى جيوبكم، ولا تُحرق النقود أصابعكم!..

تبين أن الضيوف الذين ظنّوهم خمسة هم ستة: راكيتوف، وكارينيك، وبوتينيك، وثلاثة آخرون. يتعجب الضيوف مما يرون. مضت على خدمتهم في الإقليم ثلاثة أعوام تقريباً ولم يصادفوا مثل هذا. رشيقون، أنيقون، يلبسون ملابس محببة إلى القلب. أكسية الرجال الرقيقة يغلب عليها الأسود والأبيض. طوال القامة ضامرون كأنهم من قياس موحد. الزنار الفضي الرفيع يضم الصدر، والجزمة الرقيقة محزومة أعلى الساق. وجُعب الرصاص تلمع على الصدور. وليس بين الرجال من لا يحمل إلى جانبه خنجرًا ومسدساً. ومن لا يحملون مسدساً يتدلى الخنجر الفضي على أجنابهم. وأعجب ما يلاحظه راكيتوف بافيل هو أنه لا يرى بين الشباب والبنات والفتيان من يحمل وزناً زائداً.

قال بافيل في نفسه: أول من صادقته بين الأديغة هو قرباتر. هؤلاء الذين أراهم عرق عجيب من البشر. لا يكذبون رجولتهم في ساحة المعركة. ولم ينكمش أحدٌ منهم بوجه مذعور تحت ضربة سيف. وأنا شهدتُ بعيني هذا الموقف أكثر من مرة. واختبرته بنفسه. انظر إلى جمع البنات هذا! ما أجمل كسوة أجسادهن المتناسقة، وما أقربها إلى القلب. وجوه صبوحة، شقراء. ليس بينهن من عيناها ضيقتان، أو أنفها أفطس، أو وجهها طافح. يغلب على وقفتهم وطريقة

تصفيقهن، ونظراتهن احترام الذات. أثوابهن الطويلة تكاد تصل إلى أعقابهن. والأكمام الضيقة تخفي الأذرع، وتتدلى منها أكمام أخرى عريضة مطرزة. الصدور مطرزة بخيطان الذهب بما يتناسب مع زخرفة الأكمام. والأحزمة العريضة تعصر أوساطهن. والقبعات المزينة بقطع ملونة من الأحجار الكريمة تغطي رؤوسهن غير عالية والصفائر الطويلة تنسدل إلى الأمام وإلى الخلف. أقول إن المشاركين في الحفلة أناس مختارون ولكن كل من تراههم العين متشابهون.

حين ينظر بافيل يرى بعض الحضور يعطون نقوداً إلى عريف الحفلة. فهم أن وراء الأمر شيئاً فأخرج ليرة وقدمها للعريف، وقلده زملاؤه. وبعدها ألقى العريف سلسلة كلمات تعبر عن إنسانية الضيوف وصادقتهم وكرمهم توجه إلى بافيل وخاطبه:

- هيا أيها الضيف، أرنا أنت أيضاً أسفل نعليك! ستقول يوماً: رقصت في عرس زانه قرباتر! هل قلت لي إنك لا تجيد الرقص الأديغي؟.. - أمسك العريف بساعد الضيف وبشّ له وصحبه إلى الحلبة. - ونحن لم نُخلّق نعرف الرقص. ألا تتعلمه إن كنت لا تعرفه؟! ما اسمك؟ قلت لي: بافيل؟ أنا اسمي ددام. لا تحجل، الرقص تعبير عن الفرح لا مكان للخجل فيه - يكلمه خالطاً كلامه ببعض الكلمات الروسية التي يعرفها، - إن أردت فارقص رقصة روسية. العازف لا يعرف لحن الرقص الروسي فارقص رقصة أديغية. ولكن لن يرحموك في مكان آخر! اليوم أنت ضيفنا. هيا أيتها الصبية الحلوة إلى الرقص، هيا يا تايصور راقصي الضيف!

حين رأى أحد الفلاحين الأديغة بافيل لا يجيد الرقص، بل لا تتوافق حركاته مع اللحن، ويحرك ذراعيه هكذا اعتباطاً، والتصفيق يتصاعد، والناس يتضحكون، غمغم وهو يدير ظهره:

- انظر ماذا يفعل هؤلاء! طلبوا من ابنتنا أن تراقصه.
- متى عبر الضيف عتبة بابك لم يبق مجال للتمييز بين مسلم وكافر. - ردّ فلاح آخر على من لم يقبل الرقص.
- يا سعيد هل تجاوز الروس عتبات بيوتنا إذا كانوا دخلوا أرضنا؟

- هذا الذي يرقص يا أحمُت من؟

- إلى الآن لا مشكلة. كان عليك أن تعرفه حين عبر المضيق وراء الجبل. ولم يكن ضرورياً أن يراقص امرأة منا... مجبرين إياها أن تشم رائحة لحم الخنزير!.. بعدما رقص بافيل صُحِب الضيوف إلى مجلس الكبار، وقدموهم إليهم. وحين طُلب من التوجه إلى غرفة الطعام تظاهر يوسف أفندي بالاستعجال:

- هيا، أسرعوا لي بإبريق الماء. يدي يسيل منها دهن الخنزير، عليّ أن أنظفها. الكلمات التي انزعت في الظَّهر لفتت رأس ترام.

نور مُجَّد وترام جالسان إلى جدار هُري خارج أرض الدار، وإيقاع الحفلة بدأ ينحدر. يدخانان دون حديث مهم بينهما. وليس السبب في ابتعادهما عن الجمهور أن صخب الحفلة أرهقهما. لم يدخرا جهداً لتقديم أي خدمة ممكنة لسفري الغائب، بل السبب هو نور مُجَّد. لا يعجبه اكتئاب ترام في الحفلة التي يبتهج فيها هذا الحشد من الناس، وليس يرى ترام في هذه الحالة اليوم فحسب. أنجز ترام متطلبات العرس بسرعة ولكن ليس على وجهه مسحة فرح كمن دفن ميتاً من أقاربه. ثم لا تطلب منه النظر إلى جهة وقوف البنات. يتداعى قلبه حينها. وتتهدل كتفاه رغماً عنه. كان يرى عليه تلك المظاهر نفسها بهذا الوضوح في طريقهما إلى تركيا، وإقامتهما في إستانبول، وتجوّلهما فيها. ولكن لم يكن يجد من اللائق أن يسأله عن السبب. وكان الأغلب أن ينسى الموضوع كله.

قال حاغور: كيف تسأل رجلاً يقضي عمره عازباً وحيداً؟ لا يجب أن تسأله في شأن المرأة. بل يخجل إليه أنهم يهينونه. وهذا ما لم أسال عنه خلال السنوات الكثيرة التي عرفته فيها. سمعتُ أخباراً كثيرة تتعلق بالموضوع، ولكن لا يجوز تصديق ما لم يصدر منه... وملاحظته في أحد شوارع إستانبول امرأة ناداها باسم مريم؟ وأنا مزحت معه قائلاً: أيُّ امرأة هذه التي أثارتك؟ ولكن لم أستطع أن أحمله على الإفصاح عما في نفسه، ثم غضب مني. ولكن لم أتركه إلا بعدما اعترف أنه شبَّهها بإحدى بنات قُما تر. من التي ذكر اسمها؟ أأكون في عرس الليلة؟

- والله يا ترام - أشعل السيجارة الثالثة، وقال وهو يناور من بعيد، - هذه ليست عيشة!

- هل الآن فحسبُ عرفت يا حاغور أنها ليست عيشة؟ - غرز ترام السيجارة التي تحرق إصبعه في الأرض فأطفأها. زادت الحربُ مأساتنا بلّة... يبيعنا من يريد ويشترينا...

- ليس هذا ما أقصده، هذا اعتدنا عليه... ما يقلقني هو عِشتك وحيداً. السنوات تمر، والشيب يغزو اللحية والشاربين، وأولاد أقرانك يغازلون البنات... - نور مُحمّد...

- لا تبدأ يا ترام! - قاطع حاغور كلام صديقه. - أريد أن أعرف نيتك الحقيقية. القرية كلها ومن يعرفك من الفلاحين لا يرون عزوبيتك لاثقة بك. ولا تدع الأرامل يسخرن منك.

- نور مُحمّد!.. - يرتفع صوت ترام مما يسمع. ثم مزح معه محاولاً التمويه على صراخه: - الأفضل من هذا يا نور مُحمّد أن تحرص على ابنة أسرتك التي جعلوها ترقص مع الضابط الروسي.

- ما الأمر؟! - ارتعب حاغور مما سمع. ثم نظر نحو تاييسور خجلاً. - ألم تر كيف تراقصا راضيين من القلب؟ ها هما الآن أيضاً لا يرفع أحدهما عينه عن الآخر.

- اسمع ما يقول!.. أكان الناس يميزون الرجل من المرأة إن لم يكن بينهما شيء من هذا أيها المنحوس! - ردّ حاغور على صديقه بالمزاح.

- احذر يا حاغور، احذر! قد يحدث بينهما ما لا تتوقعه.

- كفى يا ترام، - يحسم حاغور النقاش، - لا تدعنا نغيّر الكلام في شأنك بهذه الحجة. لن أتركك ما لم تُطلعني على نيتك. قل لي من هذه الـ "مريم" التي خرج اسمها من فمك؟ إن طلبتها في هذه اللحظة فنحن جاهزون سواء كانت تريدك أم لا تريدك. لا أتكلم باسمي وحدي بل باسم كل أصدقائك. من مريم هذه؟ قرّر الآن!

- كفى يا حاغور، ما أشد لجأجتك! - لان صوت ترام، - أتساءل ماذا جرى لك؟ وليتحلّ الأصدقاء بالصبر!

- لست يا ترام في موقف يسمح لك بالكلام على أصدقائك بخير أو بشر. خبرني عن مريم التي جرت على لسانك، سنجدها أينما كانت!
- لن تجدها!... - انكسر صوت ترام بما يوحي أنه رضخ للطلب.
- والله نجدها! قل لي ابنة من؟
- هل تتذكر أينور ابنة آل خُراش؟
- وكيف لا أتذكرها! أليست من شنقت نفسها حين تزوجت من " تَبَج "
- وباعت ابنتها للأتراك - نعم، ولكنك لم تقترب من حقيقة الأمر...
- تلك الصبية ألم تكن ابنة حرام؟
- نعم، وهذا مصدر بؤسها.
- كانوا جيرائك فمن كان والدها؟
- من يعرف؟.. ربما لا أحد غيرُ الله يعرف... - أخفى ترام عن صديقه أن زانه سفري أيام شبابه كان يخرج من عند أينور أحياناً بعد صلاة العشاء. ثم أضاف بعد قليل: - تلك الصبية التي باعوها للتركي كان اسمها مريم...
- ها!... - فحضر حاغور غير مدرك ما سيعلق به على ما سمع. وألقى اللقطة التي أشعلها للتو، ووطئها. ثم عاد ولفّ سيجارة أخرى على مهل. وأشعلها وملاً بالدخان صدره، ونفثه.
- أسألكم بالله يا نور مُجد أن تفهموني فلا تضغطوا عليّ بشأن امرأة أخرى!
- يا مبارك النسل لم تخبرنا ونحن في تركيا؟! أما كنا نرجئنا زانه سفري فبحشنا عنها! وأما المرحومة "أكوزه" كان والدنا عاد بها من تركيا... والله لم تتصرف أيّ تصرفٍ صحيح يا ترام. ونحن نجادلُك هنا ونضغط عليك...

III

تبدأ أحداث الحياة تُنسي الناس عرس قريبات. مهما نُحضت في وجه الناس قضايا كبيرة أو صغيرة بقيت قضية الزحف الروسي دون حلّ. زادت القلاع التي أسسها الجيش الروسي والأديغة يعقدون المؤتمرات ويتحدثون في المضافات. والأسر القوزاقية التي يوطّونها في قرى مستقلة تزيد. ولا يستطيع الأديغة الغارقون في الخلافات الداخلية إحصاء السكان الروس وراء القلاع الروسية. ما يُتَّفَق عليه في مؤتمر ينتقض في المؤتمر التالي. والقرار المتخذ من قِبَل اثنين يعرفه

ثالثٌ قبل أن يصدر عن الاثنين. وفي كل قرية عدد من عملاء الروس السريين. وهؤلاء ينتمون إلى الشابسغ والأبزاخ والناخواي، وضابطة الوبيخ. ما من شعب قد لا تظهر فيه بعض الحيوانات الفردية القليلة. والناس مختلفون بطبيعتهم، وبنمط معيشتهم وطريقة تفكيرهم. هذا يغيره المال، وذاك يشتهي ما لا يملك، وثالثٌ تقتله أفكاره المختلفة. ويحدث أن يتسبب العناد والعنف والغضب والجهل في الخيانة. ولكن العملة الروسية وأوامر القيصر بإنشاء الأسواق للبيع والشراء من أكثر ما يدمر الحياة الأديفية يوماً بعد يوم. في البداية لم يهتم الأديفة باستيلاء القيصر الروسي على مفاصل الحياة في الإقليم كله، وكانوا يتفاهمون في أسواقهم دون مشكلات ولكنهم يشعرون أن وضع الأسواق يلتف حول رقابهم فيخنقهم يوماً بعد يوم. وتعمق شعورهم بالكارثة حين أغلق الروس الطريق إلى منفذهم على البحر.

العملة الروسية التي احتقرها الأديفة طوال ثلاث أو أربع سنوات صارت الآن تساوي ثقلها ذهباً. إن ملكتها ملكت كل ما في السوق إلا لحم الخنزير، وتستطيع أن تشتري معه السوق الأديفية. وفقدت العملات الأخرى، من تركيا ومن القرم قيمتها. وحين يُخرج الشارون مثل هذه العملات يُشيع الباعة برؤوسهم.

ينفذ القيصر وعده بالتجارة السلمية. الأسواق والدكاكين حرة في أن تبيع كل شيء إلا البارود والرصاص والأسلحة. في كل شهر تعبر سفن روسية كثيرة من جهة قازيخ، وترسو في أنابه على شاطئ الأديفة. ويجري الأمر نفسه في نهر بشزه التي تسير فيها السفن. والجيش الروسي يضبط نفسه بقدر الإمكان بموازة التجارة. يحرس قلاعه والأراضي المجاورة لها، ويجرّثها، ويجني غلتها، ويحشّها، ويصنّع الخشب. ويتحاشون أن يتسببوا في أيّ خلاف مع الأديفة. وحين يشتبك فرسان الأديفة والقوزاق على طريق جبليٍّ ما يكظم الروس غضبهم إن لم يكن هناك قتلى، ويعتبرون الحادث عادياً حتى بوجود جرحى.

مهما هذأ الروس الأوضاع فالأديفة لا يتقبلون إلا التجارة وارتداد الأسواق. لا يسمحون لأنفسهم أن ينسوا يوماً واحداً أن الجيش الروسي على أرضهم مستعداً للتحرك في أي ساعة، وأنه مرابط على عتبات بيوتهم. وإن صدف

أحياناً أن يأتي الضباط الروس كما فعلوا في عرس قرباتر استقبلوهم كما تقضي شرعة الأديغة الأزلية لأنهم ضيوف، ومتى خرجوا من البيت ووصلوا إلى باب الدار عاد العداء كما كان.

لا يتصرف الأديغة على هذا النحو لأن الآخرين روس؛ هذا موقف الأديغة من الأزل تجاه أي دخيل على أرضهم ليس في قلبه الخير لهم.

عاش الأديغي آلاف السنين في أرضه الجنة طائراً حراً. وسلّبه تلك الأرض وسلّبه الحياة سيّان. الأديغي يستمد قوته وكرمه ورجولته وبراءته ورحمته من حريته. ويظهر هذا في لغته وحيّته ولطفه وغنائه وموسيقاه ورقصه وضحكه ومراثيه وأحزانه كأي إنسان له قلبٌ وروح. عند الأديغي كثيرٌ مما يتخذة قدوة ومثلاً أعلى له: قامته العالية مقتبسة من جباله الشاهقة، وصوت ضحكته من صوت أمواج أنهاره الفضية المتناثرة، وطريقة تفكيره من غاباته الواسعة، وحيّته من صدر البحر الهائج. وحزنه من السحب التي تغطي شمسهِ.

خرج قرباتر من أفكاره وتنهد بعمق. يشعر بقلبه وبروحه بكل ما يخطر له وبكل ما يمرّ أمام عينيه. وقع قرباتر في موقف يفهم فيه الاختبار القاسي الذي يتعرض له الأديغة. وهو يقف بين الطرفين المتجابهين وقلبه نحو قومه. إن فُرِض عليه أن يعترف بالحقيقة فالجيش الروسي لم يُعَرِّضه إلى أي موقف مهين له يمكن أن يتسبب في اتخاذ موقف منه. وسلوك الجنرال فيشيسلافتسيف غير المدروس معه بعد أول مؤتمر للشابسغ أصلحه القيصر، ورفعهُ إلى رتبة أعلى. ولم يسحبوا ثقتهم منه بحجة أنه أديغي. وحين تزوج أرسل الجنرال رفاق قرباتر إلى عرسه مهنيّين. وحين عاد إلى أُنابه بصحبة زوجته ماريا زاره الجنرال شخصياً وهنّاه. وليس الجنرال وحده بل هنّاه زملاؤه الضباط أيضاً. والجنود يُعزّونه ملقّبين إياه بالأُمير الأديغي. والمقربون إليه جداً يلمّحون له أحياناً وهم يعلمون أنه ضابط روسي قائلين: لماذا أتينا إلى هنا نسلب الأديغة أرضهم وموارد عيشهم ومصادر أعلافهم وحطبهم، ولماذا ندمر نمط معيشتهم؟

روسيا دولة عظمى، وشعب كبير. ولا يجهل قرباتر قوة هذه الدولة وإمكان تجنيدها لأعداد هائلة للحرب. ولا يقارنها بتركيا ولا بالدول الأخرى. قال قرباتر: ها هم الكُرج قد ساندوه، وقبلهم فعل الأرمن مثلهم. ونحن إن رجعنا

ثلاثمئة سنة وقفنا مع روسيا ولكننا لم نستطع، كلا الطرفين، تحقيق نص الاتفاق المكتوب. وحين توفي القيصر إيفان الذي زوجه امرأة أديغية ضاع معه ما كان مكتوباً على الورق. وروسيا تقول إن تركيا منحتكم لنا ولم تعد تأتي على اتفاقنا المكتوب. وعلى ما يبدو فلا مصلحة لها في العودة إلى تلك الاتفاقية. ما مصير الأديغة إن شهر الروس سلاحهم جدياً على الأديغة؟ كنت أخبرت والدنا أيضاً أن من الصعب مواجهتها بالشابسغ والناخووي وحدهم. لا فائدة من أن تشير وأنت في بيتك وعلى مسطبتك. ربما يسمع الروس إن تضامنت أعراق الأديغة كلها ونطقت بصوت واحد، وإلا مزقوهم عرقاً عرقاً كسيفان الذرة المنفردة. لن نستطيع الانتصار على الروس بالسلاح. وإن لم تفعل هذا فسيبيدونك من إقليم الأديغة بهبة ربح. فعل والدي خيراً إذ بقي في تركيا يُطلع العالم على عدالة قضيتنا. لو استطعت أن أتأكد من صدق المؤفدين الإنجليزين القادمين إلى اللويخ كان حسناً. قيل إن أحدهم صحفي والآخر تاجر. إن كتب الصحفي حقيقة أوضاع الأديغة فسيعرفنا العالم كله. إن ساندت الدول الأخرى صدق نوايانا فسيضطر القيصر إلى إعادة التفكير في موقفه. كان حسناً لو عادت روسيا إلى اتفاق الأديغة مع القيصر إيفان، كما يقول والدنا، وعقدوا معنا سلام دولة إلى دولة في الناحية الجنوبية من حدودها، فإن استحال هذا ضمّونا إليهم كإمارة مستقلة. وهذا رأي راكيتوف. وإن لم يتحقق هذا فلن تدعنا روسيا نحنًا بحياتنا. مهما توددت إليهم فلن تسمح لك روسيا بالاستمتاع بمثل هذه الأرض الخصبة. وإن تأكدت من أنك حالفتها حقاً فلن توكل إليك مهمة حماية حدودها بل ستأتي برجال منها.

عاد قرباتر إلى وعيه كأن الأفكار التي حملتها قطرات المطر الباردة مع الريح الخريفية إلى النافذة أفرغته. ولما رأى الرتبة الروسية على معطفه المعلق إلى الجدار خجل، لا عن رياء، بل تغلبه الإنسانية من آرائه البالغة الصراحة بشأن روسيا. لام قرباتر نفسه قائلاً: عليك أن تنحاز إلى جانب واحد متى كان في الرأس مثل هذه الأفكار، وإلا جُللك العار وأنت ترقص على لحي الطرفين. لم يجبرك أحدٌ أن تخدم في الجيش الروسي. ولا يليق بك أن تبصق في البئر التي تشرب منها. وأن تخلص لطرف واحد رجولة وإنسانية وإن كان صعباً عليك. وفي حال

الضرورة، وإن لم يتحقق هدفك، ولو فرضت أنه تحقق على حساب أحد، فلن نخجل أمام شرفك وأمام موتك.

- ما الأمر يا قرباتر بم تفكر منذ الصباح؟ - جاءت ماريا من وراء الزوج وتعلقت بعنقه. ولمست وجنتيه بشفتيها الدافقتين. وهمست في أذنه. - أنسيت أني ما زلت أحيًا؟

- هذا مستحيل يا ماريا! - مد قرباتر يده إلى الخلف وتمسك بعنق الزوجة. - صدّقيني أن لا أحد يدفعني إلى أن أفعل هذا. - همس لها، ثم سألها وقد لان أكثر من الحرارة التي نبتت في الصدر: - وأنت يا ماريا؟

- وأنا أيضاً يا قرباتر... - لم تدعه ماريا ينتظر لأنها كانت تنتظر هذا السؤال منذ زمن بعيد. وأضافت وما تزال شفتاها الدافقتان على أذني الزوج: - أنا خجلة من إرسالي بافيل وراءك...

- ألم نتفق يا ماريا على ألا نعود إلى الكلام في هذا الموضوع؟

- نعم ولكني أخجل مما فعلت، ألسن امرأة؟

- تستحقين الجنة يا ماريا لما فعلت من أجلي. - شدّ قرباتر المرأة الرشيقة من خلفه وأجلسها في حضنه. وتأمل عينيها.

- مهلاً يا قرباتر، - قالت وهي تفارق حضن الزوج: من هذا القادم؟

- هذا غزار! - أسرع قرباتر خارجاً من الغرفة ففارق النافذة بعدما لبس معطفه. ولحقت الزوجة بزوجها.

ضاحت الغرفة بالفرح حين صحب الزوجان غزار إليها. ولم تعد ماريا تستطيع الاستقرار على أرض الغرفة من فرحها الممزوج بحبائها. ثلامس هذا، وتنزع ذلك من مكانه، أليست عروساً جديدة؟! ثم إن غزار ووالد زوجها صديقان. كيف سمحت له أن يراها متخلفة عن الخجل والفرح لا يسعها؟ ماذا ستقول حماتها ووالدها إن سمعا بما فعلت إذ لا تتصرف العروس الجديدة وهي ما تزال في خدرها بهذه الطريقة! وهو عيب لمن يسمع بالخبر.

- كنت غائباً، - قال غزار، - لم يتسنّ لي أن أشارككم عرسكم وحفلاتكم. كان عليّ أن أكون مع الكبار في العرس كرمي لسفري أو للأسرة. كنت في أوديسا ومن هناك سافرت إلى بطرسبورغ. وعدت أول من أمس. والآن ترونني

عندكم. ولم آت إليكم فحسب للتهنئة بل ذاهباً أيضاً إلى بابور. وإن أردت الحقيقة كان عليّ أن أبدأ التهنئة بما غير أيني لم أستطع تجاوز الشباب. وهذه لك يا ماريا، - أشار غزار إلى صندوق كبير من الكرتون، ثم مد يده إلى جيبه وأخرج منها علبة دخان مربعة من الفضة. - هذه لك يا قرباتر وإن لم تكن مدخناً. الضباط يحبون اقتناء مثل هذه العلبة.

- هو يدخن يا غزار، يدخن، - قالت ماريا بطريقة لا تعرف معها إن كان تدخين زوجها يعجبه أم لا.

- هكذا؟ - استغرب غزار ما سمع. - إذن أصبت الهدف كما يقول الشابسغ. - تضاحك الثلاثة، وأكمل غزار كلامه: - هذه هي الدنيا، ما يجري عجيب، أنت في نظري ما تزال صبيّاً... - هنا لم يقل غزار الحقيقة؛ أغراه الرياء إذ كان يعرف منذ زمن بعيد أن قرباتر لم يعد طفلاً. كان غزار في كيرش ولكنه كان يتابع أخبار قرباتر في أنابه، ويعرف كل ما يقوله ويفعله. والمعلومة الوحيدة التي لم يكن يعرفها هي زواجه. ولولا أنه كان مسافراً لأخبروه منذ اليوم الأول. ولم تكن هذه المتابعة نتيجة عدم ثقة بقرباتر أو حرص عليه - ربما كانتا من الأسباب أيضاً - بل لأنه الوحيد المتبقي ممن يلجمون اندفاع سفرني الذي يثير الأديغة. وكان يريد أن يُشعره بهذا أنه قريب من أسرهم. - ليست هذه مشكلة فهل ستبقين صبيين لأنني أنا ووالدك نشيخ؟! - وما أنت الآن أسست أسرة، وارتقت ربتك. وأكّدوا على فيشيسلافتسيف أن يحرص عليك. - ابتسم غزار وسأل: - كيف يتعامل معك؟

- لماذا أفترى عليه، يعاملني على نحو جيد. ولست وحدي في هذا بل تغيرت نظرتي إلى الأديغة. يوصي رجاله أن يُحسنوا معاملة من يرتاد الأسواق منهم، وألا يُشعروهم باللجوء إلى السلاح. إذن تغيّر كلياً بالقياس إلى الربيع.

- ينفذ أوامر القيصر، - غيّر غزار الموضوع إلى ما يريد هو وإن لم يسأله عن سبب تغيّره. وحين سمع قرقرة صحون من ماريا في الغرفة الأخرى صاح إليها. - لا داعي للطعام يا ماريا. أنا على طريق سفر، عليّ أن أذهب إلى قُماتر. إذا هنأت بابور فكأنني هنأت سفرني وجالسته. - مرة أخرى أبرز على نحو غير مباشر اسم سفرني.

- ليس من شريعة الأديغة يا غزار أن تنصرف في زيارتك الأولى دون ضيافة ولو بكأس من الشاي. لن أدعك تخرج من بيتي هكذا. - وقفت ماري إلى جانب قائمة الباب، - ها هي حالاً، عندنا شاي القالمق الممتاز. - عادت المرأة تتابع أمور الضيافة.

- الحق أريد أن أسألك يا قرباتر، - سأل غزار، - لماذا أنتما هنا في يوم أحدٍ؟ لماذا لا تسافران إلى قُماتر؟

- ألا تعرف يا غزار إن كنا أحراراً في أنفسنا!
- أعرف، غير أن ما تفعله ليس صحيحاً. عليك أن تعرف من خلال اختلاطك بقومك يا قرباتر. خالطُ فلاحِي قُماتر وغيرهم، وكلّمهم. لم تكن تعرف أن سفري أمير، كان مستعداً أن يخوض الماء في الليل من أجل فلاح. وهذا هو سبب محبة الفلاحين له. لذلك لا تتجنب الفلاحين، واكسب محبتهم. واشرح لهم الموقف. أفهمهم أن القيصر لا يريد الحرب، ولا إراقة الدماء. وحسب ما رُوي لي من أن الفلاحين قاموا بأمور عرسك فهم ودودون نحوك أيضاً، يحبونك!

- ما فعلوه كُرمي لوالدنا، - ارتاح قرباتر لما سمع.
- بديهي أنه إكرام لوالدك. من في إقليم الأديغة لا يعرف إنسانية سفري ورجولته ومعروفه؟! وهذا ما يدفعني إلى أن أقول ما أقول بشأن الفلاحين. ما لم يستطع خانجري تحقيقه حقّقه والدك في وقت قصير. لولا أنني كنت مسافراً لطلبت منك أن تشارك في مؤتمر جماعة حاغور، وطلبت أن تتحدث فيه. ولم أكن لأرسلك وحدك بل رافقتك. بل كنت اصطحبتُ فيشيسلافتسيف.

- ولكن يا غزار لا يتطابق رأينا مع ما ظهر في المؤتمر من آراء.
- لا تتطابق لأنه ليس بعد سفري من يسمعون كلامه. لن يستطيع برزج جراندوقوه أن يجمع الأديغة وراءه. يدور في أرض الويخ بضيفين إنجليزين... نحتاج إلى شخص من نوعية والدك يحمله فهمه العميق إلى النظر إلى البعيد. وكلما كثر عدد هؤلاء سهلت مهمتنا. - تساءل غزار: ما الذي يعرفه يا ترى من أخبار والده؟ أخيره أم لا؟ أتيتُ له على ذكره بضع مرات، وأعطيته طرف ولم أستطع أن ألفت نظره. أظنه لا يعرف شيئاً. الأفضل أن أخبره

بشخصي، لا أن يخبره غري، من أجل أن يعرف أن معزة والده ليست كمعزة سائر الأديغة. لم يقل غزار شيئاً ريثما أحضرت ماريا شاي القالمق الساخن إلى الغرفة، ورتبت المائدة. ولما بقيا وحدهما أخبره بحذر شديد:

- ألا أخبر عن سفري؟ - ثم وهو يقترب أكثر مما يريد إخباره به، - ألا تعرف خبر والدك يا قرباتر؟

- لا نعرف أخباره منذ منتصف الصيف. - ثم سأل وقد داخل شيء من الرعب قلبه بشأن والده: - ما الأمر يا غزار؟ أتعرف وضعه؟

- لا تعرف خبر والدك على ما يبدو لي.

- هل هناك خبر سيء عن والدنا؟ - امتقع وجهه سفري.

- اطمئن يا قرباتر، سفري حيّ وسليم معافى. ومع ذلك عليّ إخبارك بأنه لا أخبار حسنة بخصوصه. - روى غزار لقرباتر كل ما جرى لسفري في تركيا دون أن يهمل أيّ تفصيل. واختتم بقوله: - أنا أعرف سفري أفضل منك يا قرباتر ولو أنه والدك. حين عجز السلطان العثماني عن كفيّ نشاط والدك أصدر أمراً بتسريحه من الجيش ومنعه من الإقامة في إستانبول، وفرض الإقامة الجبرية عليه في مدينة أدرنه الصغيرة.

نفض قرباتر عاجزاً عن الجلوس. وبدأ الدم يعود إلى الخدين الشاحبين. ثم عاد وجلس لا يرى من اللائق الوقوف وغزار جالسٌ. وبعد قليل قال كأنما لنفسه ولكن مُفهماً غزار:

- والدنا سُجن في تركيا على ما يبدو.

- ليس تماماً يا قرباتر. بل لا يجوز أن يترك المدينة.

- متى سيعود إذن إلى إقليم الأديغة؟

- هذا ما لا أعرفه. الوحيد الذي أعرفه أن من الصعب الهروب من تركيا وأنت من رعاياها.

- ليس والذي تركياً لجرد أنه خدم في الجيش التركي! - لم يملك قرباتر نفسه، - ساجني يا غزار... - جلسا مدة لا يتكلمان، ثم سأل قرباتر: - وهل أنا يا غزار من رعايا روسيا لأني أخدم في جيشها؟

- نعم من رعاياها يا قرباتر. ولست وحدك، أنا أيضاً. بل صار كل سكان إقليم الأديفة ملكاً لروسيا. ورد هذا في وثيقة اتفاقية أدرنه للسلام.

رفع قرباتر جفنيه الثقيلين ونظر إلى غزار دون أن يعلق بأي كلمة.

- لا تيأس يا قرباتر، - قال غزار بطريقة لا تفهم منها إن كان الكلام موجهاً لقرباتر أم لوالده سفري. هذا الجالس أمامي في ذهنه أفكار كثيرة خلافاً لما توقعت. قال غزار: لا أظنه الرجل الذي ينفذ لنا طلباتنا. رشف من الشاي البارد، ثم أضاف مكرراً كلاماً سابقاً ليختبر ردّ فعله: - أنا قلت لك يا قرباتر: لا تيأس...

- لا داعي لليأس يا غزار إن شاء الله. ثق بي... بشّ قرباتر في وجه ضيفه كمن لم يحدث له شيء.

IV

اليوم كلُّ من في بيت برزج جراندوقوه، وكل من في داره من الفلاحين على أقدامهم. يودّعون الضيفين الإنجليزين. وسيرافقهما جراندوقوه نفسه. وأمّر الفرسان العشرة المرافقين، خمسة من الأمام وخمسة من الخلف، بحماية الموكب في الطرقات الجبلية. أرسل الخمسة الأوائل منهم إلى مضيق "مفأوست" المحاذي للبحر. الشاطئ لم يعد يتسع للسفن الروسية؛ الأفضل استطلاع الطريق فمن يعرف ماذا ينتظر الضيفين في هذا الزمان القلق؟

وأطلق الجيش الروسي أخباراً مختلفة عن الضيفين الإنجليزين في الوبيخ والشابشغ والناخووي والأبزاخ. ولم تكن الأخبار قبلاً عن قال بل سمع الناس أخباراً أطلقها في قُماتر الجنرال غزار الممسك بالساحل كله: لم يأت الإنجليزيون بنيوان الخير لإقليم الأديفة. هذان يمارسان أعمال خيانة وتجسس. هما عدوان للروس والأديفة فلا تسمعوا ما يقولان، ولا تثقوا بهما. وقد حصّص مبلغ ثلاثة آلاف "سومة" لمن يوصلهما حينئذ أو يمتين إلى السلطات الروسية. وهذه الأخبار وغيرها يجري تناقلها بين المضافات.

لا ينبت خبرٌ في أي منطقة من إقليم الأديفة إلا ويبدأ بالإنجليزين وينتهي بزانه سفري. وغياب سفري في تركيا مصدر لأخبار متناقضة كثيرة، كلُّ يروي ما سمع، زائداً أو ناقصاً. ولكن مهما قالوا بشأن زانه ففي المحصلة تغلب إيجابياته

على سلبياته. وهذا الكلام عليه بدأ بعدما وضع بيل ولونغفورت أقدامهما في أرض الأديفة. ولم يشهد الإنجليزيان على صحة الأخبار الكاذبة التي نشرها أعداء سفرني، فقد رويًا حقيقة الموضوع.

لم يكتف لونغفورت بنشر مقال أو اثنين في جريدته بل خمسة عن حقيقة أوضاع الأديفة خلال نصف العام الماضي. وقد أعيد نشر هذه المقالات بلغات أخرى في دول أخرى.

لم يكن هناك سرٌّ في شأن القيصر الروسي. والزخم الذي منحه جيمس بيل ولونغفورت لقضية الأديفة هو ما يُقلق الجانب الروسي في هذا العام أكثر من الأعوام الماضية. ففي الوقت الذي كانت روسيا فيه فرحة بنتائج ازدهار أعمال التجارة السلمية والمبادلات في الأسواق بين الأديفة والروس والقوزاق بدأت الأمور تنحو منحى آخر تماماً في إقليم الأديفة بدايةً الربيع من العام الجديد. انخفضت المبادلات في الأسواق. والقلاغ الروسية، وإن لم يغيّرهما الأديفة بمعنى الكلمة، صار فرسانٌ بالمئات يقفون مقابلها ويقلقونها. وزاد حديث الأبراخ والويخ والناخوي والشابسغ عن عقد المؤتمرات. ولم يبق حديث في أي مكان إلا مساندة الإنجليز للأديفة.

دخل الفرسان الثلاثة، الإنجليزيان وجراندوقوه، محروسين بالفرسان العشرة مضيق مفأوست. ويدلك سماعهم تناثرٌ أمواجه على أن البحر قريب منهم، على يسارهم.

- البحر هائج، قال جيمس.

- نعم، وافقه لونغفورت. وأضاف وهو ينظر نحو مصدر الصوت: - يجب طرد السفن الروسية من الساحل.

- الأفضل من طردها أن يلفظها البحر كما يلفظ النافق من حيواناته - قال جراندوقوه ما يريده هو، - انظرا! يريد الروس، سكان السهوب، سلبنا مثل هذه الأرض الجميلة.

الشمس المتوهجة الضخمة تبرز من بين قمم الجبال. ورغم أن البلاد كانت تنتظر الشمس فهي صاحبة منذ زمن بعيد. والغابة الفسيحة التي تلتحم بالغابة تغلب عليها الخضرة. والأماكن الأقل ارتفاعاً تسودها الأشجار المثمرة المبرعمة

بالأحمر والأبيض. ومن بين هذه الغابات تنظر قرى صغيرة هنا هناك بعيون مسرورة. وقاتلي الجبال بقطعان البقر والغنم والماعز. وتبدو مقابلها المراعي. ويجري نهر "شُنج" الصغير نحو البحر، قافزاً، ناثراً مياهه الفضية. وأنهار أصغر منه تسقط مترنمة من الجدران الحجرية للجبال عن يمينك ويسارك ومن فوقك.

- مثل هذه البلاد يا جيمس، - قال جراندوقوه بعدما شبع الضيفان من المناظر، - من يعطيك إياها؟

- هذه ليست بلاداً فحسب يا جراندوقوه، - لم يستطع جيمس إلا أن يصرخ رغم أنه لا يرى مثل هذه المناظر للمرة الأولى إذ يعيش فيها منذ مدة، - بل هي جنة من جنات الأرض.

- الآن أفهم، - وافقهما لونغفورت أيضاً، - لماذا يعتدّ الأديغة بأنفسهم. أنا زرت كثيراً من بلدان العالم ولكني لم أر أرضاً مثل هذه ذات جمال طبيعي إلهي دون تدخل الإنسان.

- وماذا رأيتما أنتما؟ طرفاً من الشابسغ والويخ. الأبراخ التي نحن متجهون إليها؟ - لفت أنظارهما ماراً بطرف السوط على قمم الجبال. - تلك هي الجبال المتداخلة بالغابات حقيقة، والشلالات، والمراعي في الغابات، والأنهار الجامحة، والمضاحي الخصبة، والناس... ما إن ندخل أرض الأبراخ، وستريان بأعينكما، حتى ندخل عالماً آخر. ومثلها أرض الشابسغ والناخووي والبجدوغ. لم تدخلوا بعد أرض البجدوغ. وسنصل إليها إن شاء الله، أرض أديغة كسائر الأراضي. وحين تخرج من تحت الجبل إلى اليسار من الأبراخ فما تراه العين أعجوبة. ومسطح الجمكوي أيضاً، نادراً ما يطلب الإنسان فيه شيئاً لا تُنبته أرضه. ولا ينتهي إقليم الأديغة عند الجمكوي بل يلتف على نهر بشزه شاملاً البسلني حتى يعبرها ويدخل إلى أرض القبرتاي، وينتهي مشواره على قدم الجبل. لا تظننا أننا نعيش بين الجبال محتبئين دون أن يغزونا الأعداء. لم يستطع أحد أن ينتقص منا. حماها أجدادنا لنا. وعلينا نحن حمايتها. انظرا بحق الله إلى هذه القمم البيضاء ما أعلاها وما أشدّ انحدارها! وقلب الأديغي مثلها. كيف لا يكون قلبك كبيراً وأنت تنظر إلى هذه الجبال ثم إلى البحر؟ لم يكن برزج يستطيع التوقف عن وصف جمال أرض الأديغة. كلما تقدم الركب برزت في

عالم الأديغة جبال متنوعة الألوان لا تملك إلا أن توليها حقها من الثناء. يلجم جراندوقوه الحصان وقد تذكر شيئاً، ثم يصرخ: - أليست مأساة أن يمنحها من لا يملك مثل هذه الأرض لغيره؟ هل تعرفان من قال هذا؟ الأتراك ذوو السراويل القصيرة. أليس مضحكة؟ لا يتوقف الأمر عند الضحك! وروسيا التي أخذت ما ليس لها؟ تزحف إلى أرضنا قائلة دون خجل: منحونا إياكم! نحن نقول لهم: لا نريدكم، وهو يرد: أنا أريدكم، ويحفظ بعينه...

- العالم مليء بأشياء كثيرة أريدها. ولكن كيف تقول له: أنت مُلكي؟ - يكتب لونغفورت بعض أقوال جراندوقوه مؤيداً لكلامه.

- أليس هذا ما أقوله؟.. - صاح جراندوقوه الآن مرة أخرى. ثم سأل لونغفورت معترضاً حصانه كأنه يراه لأول مرة: - هل تكتب أقوالي؟ أكتب، اكتب! ليعرف الجميع!.. ولكن حين تأتي على ذكر الترك احذف وصفي لهم بأصحاب السراويل القصيرة... هؤلاء... هؤلاء يستحقون أيّ وصفٍ لهم. حسناً احذف السراويل القصيرة فقط، واترك البقية على حالها.

- كأنك تخاف منهم يا جراندوقوه؟ مازحه جيمس.

- لا خوف إن شاء الله، - تصلّب برزج مما سمع، ثم عاد إلى وعيه وأضاف: - لماذا بحق الله أخاف وأنا في أرضي من الأتراك قصيري السراويل؟ زانه سفري لم يخف منهم رغم أنه في بلادهم! لا أخاف منهم ولكن لا أريد أن أهينهم لأنهم لا يحبون هذا الوصف، ربما أفادونا مستقبلاً في موضوع السلاح والذخيرة. الأتراك أعرفهم لا تجوز الثقة بهم، لا رحمة عندهم. كنا نستقبل أفندياتهم حين يأتوننا في مساجدنا ومدارسنا بحجة أنهم مسلمون، ولم تكن لنا علاقات مهمة معهم. بذلوا جهوداً كثيرة من أجل التودد إلينا... وكان زانه محمّدي خدع نفسه ظناً منه بأنه يفعل خيراً لنفسه. وتبدّد المال القليل الذي قبضه ثمناً للأرض، وفي الوقت نفسه تدمرت حياة الأديغة. وورط سفري نفسه في مصيبة وهو يحاول إصلاح خطأ والده. وابنه قريتر وقع بين نارين لا يعرف أين يتوجه. لما رأوا مجموعة من الفرسان تنزل من الجبل قبل أن يصلوا تماماً إلى حيث يتركون يسارهم حدود الوبيخ - الشابسغ انضم الفرسان الخمسة الذين كانوا وراءهم إلى من هم أمامهم. ولم يمض كثير من الوقت حتى بان من طريقة امتطاء برزج

الذي لم يكن يتوقف عن الكلام الخوف وكأنه وقع في أخطر موقف. ثم ضحك:

- ليعضَّ الكلب والده! لا خطر! هؤلاء فرسان من الشابسغ. إن لم أخطئ فمن في الأمام هو حاغور نور مُجَّد، ومن على اليسار يجب أن يكون أصغرهم حسب شرعة الأديغة، من هو؟ أهو ترام الفلاح من لا أتعرفه؟ ما أكثرهم! إلى أين يذهب الآن الشابسوغ الصغار؟ - جمع جراندوقوه الفرسان حوله منبِّهاً عاقمة الشابسغ إلى أنه أمير، وغيرَ كاتم عن الضيفين.

- رافقتكم السلامة يا أمير! - حيا نور مُجَّد المسافرين على طريقة الأديغة، ووافقه رفاقه. أما الفلاحون الأحدث سنّاً فقد توقفوا لا يجدون من اللاتق الاقتراب من الأمير.

- حياكم الله يا حاغور. - ردّ جراندوقوه التحية شاملاً الجميع. وقال لهم دون دخول في السؤال والجواب: - هذان ضيفاي، جاءني من إنجلترا. يتعرفان على حياة الأديغة وأحوال معيشتهم، ويهتمان بأمورنا. هذا بيل، تاجر، والآخر لونغفورت صحفي. نريد أن نأتي إلى ناحيتكم، الشابسغ، ولكن الجيش الروسي حاصرهم تماماً فلا نستطيع الوصول إليكم. ورغم ذلك نود المرور ببعض قرى الشابسغ المحاذية لحدود الأبراخ. - هؤلاء، يقول للضيفين، - فلاحون من الشابسغ، هذا حاغور نور مُجَّد من ضابطة باستوك، والآخر ترام أحد فلاحي سفربي. وكلاهما كان في تركيا برفقة سفربي.

تعرف جيمس نور مُجَّد وترام دون حاجة إلى تذكير. أكثر من مرة سمع سفربي يأتي على دِكرهما. وكانا من أوائل من يجب مقابلتهم من الشابسغ. ولم يجد من المناسب أن يفاجئهما بأنه يعرفهما ويود مقابلتهما، فتعرف عليهما كأنه لا يعرف شيئاً عنهما، وتفحصهما بعين ملاحظة دقيقة. ومرّ رفاقهما الفلاحون أمام نظراته السريعة.

ولم يكن نور مُجَّد وصحبه بحاجة إلى تقديم الضيفين لهما. كانا يعرفان هيتيئهما، وملابسهما، وبنية جسديهما، وضحكتهما... انتهاء بأنواع الطعام التي يحبانها من أطعمة الأديغة. بل يعرفان مقدار الجائزة التي خصصها الروس مقابل القبض عليهما.

- والله يا أمير نحن أيضاً نأتي من أجل ضيوفك. - لم يتردد ترام في الإفصاح عن نيته. نريد أن نعرف، نحن الفلاحين، مدى صدق الإنجليز تجاه وضعنا الحالي. لا أعرف رأيك، ساجونا، أنتم على طريق...

- وهل عجيب إن كنا على طريق؟ - قال جراندوقوه راجباً في كسب قلوب الفلاحين دون رياء. - ثم إن هذين ليسا ضيفي أمير الوبيخ برزج جراندوقوه وحده، هما ضيفا إقليم الأديغة كاملاً. إن كان هذا رأيكم فلن نستطيع التوغل بعيداً في أرض الشابسغ، وأنتم، أظنكم تعرفون أن الروس يلاحقون ضيفينا. ما رأيكما أيها الضيفان.

- كما يأمر المضيف، - وافق جيمس.

- لست وحدي مضيفكم يا جيمس، أما قلت كل إقليم الأديغة مضيفكم! - صحح جراندوقوه كلام المضيف. - تعالوا نخاط أهالي القرى الثلاث وراء التل. هيّا أرسلوا بضعة فرسان ليجمعوا الفلاحين.

بدا من بعيد الفرسان الآتون إلى المؤتمر حين ارتقى الضيوف مرتفع الشابسغ. ومن طرق أخرى تنادى فرسان آخرون إلى حيث يُعقد المؤتمر على طرف إحدى القرى. ومن قرية قريبة يأتي عدد من الرجال على أقدامهم.

كان قد اجتمع قرابة ثلاثمئة من الفلاحين حين اصطُحب الضيوف إلى مكان المؤتمر. وترجل الثلاثمئة دون أمرٍ تحية له ثم ركبوا. وقابل جيمس تحية الفلاحين بإيماءة رأس كما يفعل الأديغة، وتفحصهم. هؤلاء أيضاً يلبسون الزي الأديغي. الخنجر مع الجميع وإن كانت المسدسات قليلة. وأكثرهم يحمل بندقية كمن يستعد للدخول في معركة، وكلهم ملتحون وبشوارب. وتعرف من قاماتهم الرشيقة أنهم يقضون أكثر أوقاتهم على ظهور الخيل. كلهم ممشوقو القوام مشدودن بالحزام الضيق. وظهر خيلهم وجلودها وصدورها وأعناقها تلمع دليلاً على عنايتهم بها. ونظرات الفرسان والخيل متشابهة.

- ها هما يا جماعة، - رفع حاغور يده وقال رافعاً يده، وبصوت يسمعه الجميع، - الضيفان اللذان كنتم تسألون عنهما، جاءكم بهما برزج جراندوقوه. لن أطيل الكلام، ما يشغل بالنا هو قضية الأديغة. ليقُل كلٌّ من عنده كلاماً ما يريد.

- اسمع يا حاغور، - خرج من الجمع فلاح مُسنٌّ شائب اللحية والشارين، -
اسمح لي ببضع كلمات: باسم فلاحي "شَكّه"، وباسم من لم يعد قادراً على
الركوب، والنساء غيرُ جاهلات بالأمر، نحبي الضيفين القادمين من إنجلترا،
البلاد الغريبة البعيدة، المهتمّين بقضية الأديغة. وأدعو لهما أن يمنحهما الله من
الحظ على قدر الخطوات التي قطعاهما، وأن يعيشا سنوات أكثر من خطوئتهما،
وأن لا تفتقر أسرتهما وأولادهما إلى الأدب والحياء. وأنت أيها الأمير برزج
ضيف أيضاً، رجلٌ مبارك، وزعيم مبارك، من رجال الويخ. ليلارك الله في
خطوتك إلينا. والآن ما أريد أن أقوله للضيفين الإنجليزين هو: ما قررناه بشأن
من اقتحم أرضنا قررناه وانتهى، لا تراجع! تكرم بنا من لا يملكنا فامتدت إلينا
يدٌ من لا صدق ولا حياء له. ما رأي إنجلترا في الموضوع؟ هل يمكنها أن
تُفيدنا؟ جاءنا جنرال من "بُخزِدغ" اسمه فليامين يهددنا بحرماننا من وسائل
العيش. ويرسل إلينا خطابات مكتوبة.

خرج جيمس من بين الجمع وأجاب باختصار:

- نعم يمكنها! - صمت قليلاً، ثم أضاف بنبرة أقوى: - إنجلترا أيها المؤتمر
يمكنها أن تفيدكم. ولا نكتكم أن هذا هو سبب قدومنا إلى إقليم الأديغة. لا
تعيّسوا أيها الأديغة! لا خوف عليكم بوجود إنجلترا وفرنسا وتركيا. وتتضامن
معكم مصر وغيرها من البلدان. إن لم تتوقف روسيا عن حربها ضدكم فإن أوروبا
بزعامة إنجلترا ستساعدكم بمئة سفينة. وسيعود زانه سفري سريعاً مزوّداً بمدافع
وطلقات وبارود. لا تتراجعوا أمام الروس مهما هددوكم. الله موجود، وبعده
نحن موجودون. لا تنخدعوا بالتجارة السلمية التي يقيمونها معكم. ينوون أن
يشترككم أنتم وأرضكم بعملتهم الورقية التي لا قيمة لها. وأقسم بالله شاهداً على
صحة ما أقول لكم، وأشهد السماء والشمس. وبشأن الجنرال فليامين يا كبير
فكما يقول الأديغة: الخائف يخبر عن نفسه. أنا أعرف كيفية إرساله الورقة.
وكذلك فيشيسلافتسييف. إن كان قصدُهم إرهابكم فقد أعددنا ورقة بالتركية
والروسية فتعرّفوا ما فيها، وليس فيها إلا ما يشغل بالكم، وأرسلوها إليه.
واعتبروا أنفسكم من صاغها ولسنا نحن. ولتكن هذه أول مساعدة لكم من
طرف إنجلترا. وأعطيتها إلى حاغور نور مُجد. وأما الدول الأخرى التي قلت إنها

ستساعدكم فلن تنتظروها طويلاً. وليعرف الجميع هذا ابتداء من اليوم من قرية إلى قرية. أيها الفلاحون أكرر ثانية: الله معكم، وبعده نحن!..

كان الضيوف يودون متابعة السفر إلى الأبراخ ولكن المضيفين اعترضوا: لا يجوز أن تنصرفوا دون أن تذوقوا من طعامنا، ومن يسمع يعتب علينا، وليس من عادات الأديغة، فقصوا معهم في قرية اسمها توبا، وقتاً ممتعاً إلى آخر الليل مع الأوكورديون والدف الخشبي. وأسمعو الضيوف كثيراً من حكايات الأديغة. ولم يعرف قلمً لونغفورت وقوفاً طوال الأمسية. وجيمس جالس إلى المائدة راضياً عما يرى ويسمع كما في مؤتمرات اللويخ التي ساهم فيها بكلامه، متورد الوجه من الباخسمه. وجرانندوقوه جالس في الصدارة مرحاً جداً، يشرب حساء الدجاج بدلاً من الباخسمه التي لم تُعجبه.

الصباح اليوم بالقياس إلى البارحة صباح لطيف. والجو جميل. والسماء الخالية من أي أثر للغيوم تُظِلُّ الجبل. العالم في هذه اللحظة تحت تصرف النسيم الرقيق وثرثرة الطيور اللامتناهية. فإن أُضيفَ إليهما ضجيج السواقي التي تتفرق مياهها ثم تتجمع تَمَيَّتْ أن تستمتع بالإنصات إليها وحدك دون أن ينقُض عليك أحدٌ متعتك.

مسقط رأس جيمس بيل واحد من أجمل أماكن بلاده. فيه الجبال والغابات والأنهار. والعشب الناعم الطويل ينبت في كل مكان. ولكن ما يراه الآن والبقعة التي نشأ فيها مختلفان في كثير من الأمور. المكان الذي ولد فيه وضع الإنسان كل جهده فيه حتى جمَّله بيده. عاجله وزرع فيه الأشجار وقلم رؤوسها بطريقة فنية، وحشّ الأعشاب على مستوى واحد. باختصار كل ما فيه مزيج بإرادة الإنسان. والبيوت فيه مبنية بما يتناسب مع المكان، مطلية على ذوق السكان بألوان متنوعة. أما الطبيعة التي حوله الآن فهي من خلق الله. وقلما تدخل فيه الإنسان: البيوت البيضاء المتجهة إلى الشمس، وأشجار الفواكه، والبساتين الصغيرة المسوّرة، والأراضي المحروثة في تحوم الغابات...

بعض رفاقه اتخذوا منه مضحكة حين وجد نفسه في "سكوتلاندر يارد"¹ وهو في الثامنة عشرة، واختار تعلُّم لغة الأديغة، ولكنه لم يندم على اختياره. ومن تعلموا

¹ مقر جهاز الشرطة البريطانية. تأسس عام 1829. ويُعد من أقوى أجهزة الشرطة في العالم.

الفرنسية أو الإسبانية أو الألمانية لن يفتحوا أعينهم على مثل هذا المنظر ولو عاشوا مئات السنين. وأين يجدون قوماً كالأديغة في نط معيشتهم، وفي عاداتهم ونظُمهم، وفي التعامل مع ضيوفهم، وفي احترام كبارهم وصغارهم ونسائهم، وفي آداب الصداقة، وفي شرف حريتهم، وفي كرمهم، وفي براءة سرائرهم؟ صحيح ما يُقال إن الأديغة يختلفون كثيراً عن المجموعات القفقاسية الأخرى الناطقة بلغة واحدة. ولن يختلط عليك زِيُّ رجالهم وزِيَّ نسائهم مع أزياء غيرهم. وانظر إلى الكساء الأديغي الذي ألبسه والقميص الذي تحته، والبنطال، والجزمة الناعمة، والقبعة المدورة غير العالية، كلُّها تناسب القامة. لا تثقل عليك سواءً أكنت على الحصان أم راجلاً أم جالساً على العادة، أم على المائدة، أم في العمل. ولا أظن ملابس النساء تختلف. رأيتهن يعملن ويطبخن ويرقصن فلم أشعر أنه يسبب لهن ضيقاً. ولا حاجة أن أتكلّم على طعامهم¹. سجّلت أكثر من مئة صنف من أنواعه على موائدهم. والبارحة دُقْتُ ثلاثة أصناف لم أذقها في الوبخ. ولم أجد من طعامهم ما لا يقبله الفم ولا يناسب البطن إلا الفلفل الحاد. عشتُ في أفريقيا وفي آسيا ولكن لم أجد قوماً يطبخون لحم البقر والغنم والماعز والدجاج والديك الرومي كالأديغة. وليس مستوى معيشتهم أدنى من مستوى لحومهم. ولو لم عندهم إلا البرك² بالسمن، وإلا اللبن المصنوع من حليب الجاموس والسمن!..

- لماذا يا جيمس لا تقولان شيئاً؟ - ناداهما جراندوقوه، - أظنهم أرهقوكما قليلاً في مضافة البارحة؟

لما نظر جيمس وهو ينصت إلى كلام جراندوقوه رأى من بعيد سحباً من الدخان تندفع من المضيق. وانتبه لونغفورت أيضاً فلجم حصانه:

- ما هذا الدخان؟

¹ أقام بيل في القفقاس ما بين عامي 1837 و1839. وكتب يوميات إقامته بتفصيل شديد، وصدرت بالفرنسية عام 1842 مع مقدمة للمترجم عرض فيها كل الرحلات الاستكشافية إلى القفقاس منذ أقدم العصور.

² تجاوزاً لعدم وجود مقابل بالعربية لما يسمى بالأديغة: خليف.

- كأن بيتاً في قرية قريبة يحترق؟ - استعجل جيمس بالجواب.
- أهذا هو؟ - سرت إلى شفتي جراندوقوه ابتسامة فرح: - نحن في حماية الله، لا خوف علينا. هذا ليس حريقاً، بل السحابة التي تاهت الليلة في الوادي ونامت فيه، أيقظتها الشمس فهي تهرب منه. وحين تصل إلى أطراف الجبال المسننة تمزقها وترسلها قطعاً إلى السماء التي تشعر بالملل.
تبين أن ما قاله جراندوقوه بشأن السحابة صحيح قبل أن يقطعوا من الطريق أكثر من نصف ساعة: توزعت السحب في السماء يلحق بعضها بعضاً، تتلامس ولا تتلامس.

- والآن أيها الضيفان، - قال جراندوقوه، - الآن سيهجم من منعطف هذا الجبل بردٌ يخسف بالأرجل فلا تفرغوا منه. سنجتازه بغلوة حصان واحدة. هذا المكان، منذ أن وعيت على الحياة، وقبلي أجدادنا، مهبطٌ للريح الباردة، لا فرق عندها بين صيف وشتاء، وليل ونهار. ولا ينقطع عويلها. تنزل من جليد الجبل وهي تصفر وتصدم الجبل الآخر إذ يضيق بها الوادي فتختبي وراء الصخور صارخة. وكنا في شبابتنا نأتي إلى هنا للإنصات إليها فحسب. اسمعوا الآن كيف تُعول! تتسلق قمة الجبل القريب ممزقةً الجبين وتفرح إذ تعثر على الجبل. وانظروا الآن، ها هي سليلة الكلبيين¹ تضحك فرحة لأنها وجدت أخيراً الطريق. هل تعرفان ما اسم هذا المكان إذ تعيش تسع قرى من الأبراخ وراء هذا الجبل؟ طريق الجرن. لا طريق بين الوبيخ والأبراخ أقصر من هذا. هؤلاء الأبراخ أصدقائي الذين سنزورهم يفضلون أن يسيروا نصف يوم زيادة على أن يعبروا الطريق المختصر فيصل هؤلاء الرجال الممتازون إلى الوبيخ. ومن كان هذا طريقهم من الأبراخ على ما يروون، وأنا أعني هذا الزمان: نارج، ووايقيق، وتامير، ونيكراس ميشك، وسليم. كانوا رجالاً صالحين، غفر الله لهم! والآن أنتم الفلاحين الخمسة - يقول جراندوقوه للفلاحين الذين كانوا في الخلف، - ستعودون. وسنستقبلكم هنا بعد أسبوع، وفي التوقيت نفسه.

اجتاز الفرسان الريح بصدرهم أحصنتهم كما أمر جراندوقوه. وتوقفوا ينفخون الهواء الدافئ على راحات أكفهم، ويحكّون أطراف آذانهم المتجمدة، ثم ألغوا

¹ عبارة شتيمة دارجة إلى الآن.

نظرة أخيرة على طريق الجنّ. وحين صعدوا إلى أعلى القمة ملتقيين حول الجبل رأوا قرى الأبراز التي تكلم عليها جراندوقوه متناثرة في الوادي الفسيح حول النهر كأنها في راحة اليد.

- حين تخرج من القرية الواقعة إلى اليسار وتعبّر الجسر الحجري - حتّ جراندوقوه الحصان وهو يتحدث، - ستدخل قرية جَعْف. وفيها سنتوقف اليوم. وحين تخرج منها وترتقي الجبل تظهر القرى الأبرازية الأخرى. وستتوقف فيها وفي غيرها. وسنطلب منهم عقد مؤتمرات.

اقترب الفرسان من بطن الجبل فوصلهم نواح نساء. وظهرت قبعات كثيرة في الدار الواسعة في طرف الشارع. ورجال آخرون يعبرون الشارع الأعلى. ومجموعة من النساء تعبر الشارع في رتل مفسحة الطريق للرجال لا تعبر من أمامهم.

- في القرية مَأم. - ترحل جراندوقوه من الحصان. - لن نتجاوزها، سنعزي أصحابها. غفر الله للمرحوم ذنوبه إن كانت له ذنوب. كيف مات يا تُرى؟ أمات بالرصاص الروسي أم وافاه أجله المحتوم؟ - سأل جراندوقوه الرجل الذي استلم منه زمام الحصان.

- عاش المرحوم مئة وعشر سنين أيها الأمير. - أجابه إجابة حاسمة دون احتفاء بأمير الويخ. - مات على صهوة حصانه أمس وهو يروّضه.

تعرف الرجال على برزج جراندوقوه، ونظروا نحوه ولم يستقبلوه. حياهم بإيماءة خفيفة ودخل الدار يتبعه رفاقه. واقترب معهم من مجموعة متقاربة الأعمار تعدّ حوالي عشرين من الواقفين. ثم عزاهم مصافحاً إياهم واحداً واحداً.

تحرك من في الدار، ودخل الواقفون في الشارع، ومن لم يجدوا مكاناً اقتربوا من جدار الحظيرة. وفي الجانب المقابل تجمّع النسوة. أُخرج الجثمان من الغرفة مغطى بالكساء الأسود. وانقطع البكاء النسائي تماماً في البيت. ولا أحد يتحرك في الفناء. وخرج من بين الرجال المسنين الأقرب إلى الجثمان رجل أسمّر أبيض اللحية، وقال:

- قايمت الذي ندفنه اليوم أحد رجال قريتنا. كان رجلاً صالحاً، يتحلى بالشجاعة والرحمة، عالي الشرف. وربما ليس في قرية وَسْتَاغِيه¹ من لم يذق من طعامه، ولا أحد يعرفه ويجهل كرمه وطيبته. ليغفر الله له ذنوبه إن أخطأ، وليحشره في عداد المسلمين الذين يفتح لهم باب جنته واسعاً! من يجب أن يتكلم؟!

أَبْن بعض الرجال المتوفى بكلمات موجزة. وحين أنهى آخر المؤبنين كلامه وتراجع، رفع الأفندي يديه على امتدادهما، فرفع الحاضرون، بمن فيهم النساء، باستثناء الضيفين، أيديهم ودعوا للمتوفى همساً. ولما أنهى الأفندي دعاءه مسحوا وجوههم براحت أكفهم. واختطف رجال وشباب أقوياء الجثمان نحو باب الدار. تبع الرجال الجثمان. وتصايح النسوة باكيات. ولما وصلن إلى البوابة رجعن وهن يبكيه.

V

دارت الورقة التي سيحملونها إلى الجنرال فيليامينوف شهراً كاملاً بين الشابسغ. تيسر الأمر في أرض الشابسغ العليا والدنيا. وفيما يفكرون في المرور بها على القرى اجتمع الفلاحون وحدهم في وادي آدغ. وتعرفوا على الورقة فيما يترجم يوسف أفندي النص التركي إلى الأديغة، واتفقوا على مضمونها. وحين استشاروهم أيّ الورقتين، الروسية أم التركية، يحملون إليه خرج الفلاح سعيد من بينهم:

- اسمح لي يا حاغور ببضع كلمات، كلُّ ما في الورقة صحيح، واتفق عليه المؤتمر. وبما أنكم سألتكم بأي لغة نرسل فسأدلي برأيي. كان الأفضل من كل ما عده لو كان ما في هذه الوثيقة مصوغاً بالأديغة. اللغة الأديغة نتكلم بها، ونعيش، ولكننا لا نستطيع أن نكتب ما يخرج من أفواهنا. يعلمون أطفالنا في المدرسة اللغة العربية. ويقرئونهم القرآن، ولكن لا يعلمونهم شيئاً من اللغة الأديغة المكتوبة. هل هذا جائز؟

- لا تُطَلِّ مقدمات ما تريد أن تقوله! - قال له يوسف أفندي مستاءً، - لا تعترض على اللغة العربية!

¹ يعني شجر التوب.

- لا اعتراض لنا على اللغة العربية يا أفندي، فلا توجّه إليّ كلاماً في غير محلّه.
ما نتكلم فيه هو لغتنا التي نتكلم بها.

- صحيح يا سعيد معك حق، تكلم! - وافقه الفلاحون.

- أليس من أجل هذا أقول: هل هذا جائز، - تابع سعيد كلمته التي قوطعت: - لا يجوز أيها المؤتمر! الورقة التي أطلعنا عليها مكتوبة بالتركية. نحن

لسنا أتراكاً أيها الأديغة المباركو النسل. لماذا نوهّم من لا يعرفنا أننا أترك؟!

- أليس لأجل هذا منحنا الأترك لروسيا؟! - تصايح الفلاحون ثانية من هنا وهناك.

- كي لا يتصور الروس أننا أترك، - تابع سعيد كلامه، - أنا أفضل الوثيقة المكتوبة بالروسية إن وافقتموني. - توقّف سعيد وهم يهمّ بالعودة إلى الفلاحين أصحابه، وسأل الأفندي: - أسألك يا يوسف أفندي، يا من جعل الله يومه مئةً، ألا تستطيع قراءة النص الروسي؟

- لم يلهمني الله لغة الكفار. وأدعو الله ألا يعلمني إياها. - كرر يوسف أفندي مرتين.

تكلم بعد سعيد بضعة أشخاص وافقه معظمهم. وأقلّهم عارضه. ولم يكن من أيدوا الصلح مع الروس قليلين. ولكن كلّ المتكلمين لم يغفلوا عن ضرورة حماية أرض الأديغة من الأعداء. والجميع اتفقوا على هذا الرأي بلا جدال.

قررت أغلبية الحاضرين بعد مناقشات ومجادلات إرسال النص الروسي إلى فيليامينوف. واختاروا الأربعة الذين سيحملونه غداً دون تأجيل. ولكنهم اصطدموا بمن سيقراً النص الروسي. واختلفوا من جديد. ولم يُقبل رأي من قال: ألا يكفي إعطاء الورقة إليهم دون حاجة إلى أن نقرأها. وتذكروا زانه سفري المحبوس في تركيا. وتألّوا لجهلهم الروسية. لا يتصوّروا أننا سقطنا من قمة شجرة ووقعنا على الأرض لا نعرف شيئاً! يجب الوقوف في مواجهتهم والتحدث إليهم بلغتهم نفسها. وكان الأفضل أن يرافق الوفد مترجم إلى الروسية جيد.

- ألا يعرف نيكراس تيم الروسية؟- سأل أحدهم.

- ولماذا لا يعرف؟ أليس أصله روسيا؟ - قال هارون.

- يا هارون إذا كان قصدك بهذا الكلام أن تهيني فأنت مخطئ!.. - خرج تيم من بين الفلاحين يكظم غضبه بصعوبة. صحيح أن أصلي روسي ولكنني أديعي! ماذا يمكن أن تفعل بي؟ وأعرف الأديعية بفضل الله. وأعرف الروسية، وأقرأها. اسمع يا حاغور، أعطني الورقة قليلاً!.. يقرأ تيم متمهلاً بضغ جمل، ثم يقول لهم: - وإن تمرنت فسأقرأ على نحو أفضل. أعرف يا هارون ما تستحق لولا أن شرفي الأديعي يلجمني!.. - قال نيكراس تيم لمن وراءه وعاد إلى جمع العامة. ثم التفت إليه ثانية لا يُطيق صبراً.

تصايح العامة:

- ضُمو تيم إلى الوفد!

أفاقوا في اليوم التالي مع الفجر. سافر ثلاثة من الضابطة واثنان من العامة يحرسهم عشرة فرسان. وكان الخمسة يلبسون زياً أديعياً كاملاً. وترام يحمل بالإضافة إلى خنجره الفضي مسدساً أميرياً مستعاراً. ويلبس قبعة مستعارة أيضاً. وأما نيكراس تيم المكلف بقراءة النص الروسي فيتردي لباساً لا يُعلى عليه أناقة، وسلاحاً كاملاً. ثم بحثوا له عن زنار ذهبي من أجل أن ينسجم مع الخنجر المطلي بماء الذهب. وجعلوه يبدل جعب الرصاص التي لا تنسجم مع الزنار الذهبي. ووجدوا له قبعة شقراء. وجماعة الضابطة بقيادة حاغور، أليسوا دائماً وجه القرية، يلبسون دائماً أجداً لباس. وأشد ما عندهم من أناقة هو السروج، فالحصان عند الأديعية لا فرق بين أمير ونبييل وفلاح في تجهيزه.

بدت بلدة غلنجنج¹ على الشاطئ في الصباح غير بعيدة ولا قريبة. وطوال الطريق لم يعتزهم أحد من الروس. وأكثر من كانوا يصادفون، دون أن تعرف إلى أين ومن أين هم، فرسان أديعية شباب. - ثلاث ورُباع... وعُشار. مدججون بالسلاح. يحيون الوفد تغلبهم روح الاحترام الأديعي، ويعرضون المساعدة، ويمرون. وتعرف عدم الاطمئنان السائد في إقليم الأديعية من هؤلاء الشباب ومن دوي الطلقات الصادر من الجبل. ولم تكن الأحصنة المحملة

¹ غلينجيك الآن.

يجرّحى الأديغة قليلين. وتشهد على هذه الحالة أصوات المناحات في القرى التي يتجاوزونها. والقبور الجديدة البارزة من المقابر تؤلم القلب. في منعطف الطريق التقوا بنحو خمسة عشر فارساً من عمر واحد تقريباً. ربما في الخامسة والأربعين.

- رافقتكم السلامة أيها الزعماء المباركون، - ألقى الكبير التحية.

- حياك الله يا أخي الصغير. - أجاب حاغور.

- إن كنتم تتوجهون إلى حيث تريقون دماء الكفار فسلّاحكم سلاحنا.

- ليس عندنا اليوم مثل هذه النية يا أخي الصغير. ألم تسمعوا بأخبار مؤتمر آدغ؟ - سألهم نور محمد. - إن كنتم سمعتم فالكبار الذين أمامكم هم الوفد المكلف بتنفيذ مقرراته. لا تُطلقوا على الروس أي طلقة قبل أن نعرف اليوم والأسبوع القادم نتيجة اتصالنا بالروس. تحلّوا بالأدب والصبر! وبلغوا هذا للكبار وللصغار.

- مع السلامة أيها الزعماء المباركون. سننتظر الأخبار.

حين تجاوزوا قمة المرتفع إلى القمة الأخرى بدت غلّنجق قريبة جداً. وقال حاغور لرفاقه:

- الآن، وقد وصلنا، انفضوا ملابسكم. وتحلّوا بالصبر مهما استفزوكم. وإن أطلعتم الروس أنكم حراس الوفد فسيتفهمون الموقف. إن كنتم جاهزين أيها الجمع فلنتوجه إلى الجنرال فيليامينوف.

تجاوزوا موقعين يحتلّهما الجيش الروسي، ولما وصلوا إلى الثالث أخبر تيم الضابط الذي استقبلهم أنهم وفد مؤتمر الشابسغ الآتي لمقابلة الجنرال فيليامينوف. ولما صاروا على عتبة باب الجنرال همس ترام في أذن تيم:

- أستحلفك بالله يا تيم ألا تستعجل في القراءة!

انتظر الوفد في الغرفة التي أدخلوا إليها قرابة الساعة. ثم صحبهم من هناك إلى باب غرفة الجنرال. وأينما ذهبوا لم يستقبلهم إلا ضابط. ولما رأى ترام الحارسين على الباب نظر إلى حاغور وابتنس إذ ذكره بحارسى باب السلطان التركي؛ أهو سلطان هذا الذي نوره؟ يحرسونه بأصرم من حراسة السلطان العثماني. ولما نظر إليه شزراً أحد الضباط الثلاثة الواقفين جانباً، قال في نفسه: كيفما

نظرت إليّ يا صغيري فأنا إنسانٌ مثلي مثلك. الآخران نظرتهما مقبولة هادئة. وفيها شيء من الدفء. ما ذنبكم وما ذنبنا؟ الذنب ذنبُ الحاكمين اللذين يسوقاننا. هما اتفقا وعاد كلٌّ إلى مجلسه، وأوقعونا في مهلكة. من يا تُرى يشبهُ هذا الجالس في تلك الغرفة، فيليامينوف؟ هؤلاء يثقون بنا؛ لا يطلبون أن ننزع سلاحنا.

حين دخل الموفدون إلى مكتب فيليامينوف نهض الرجل الأسمر الطويل واستقبلهم ببشاشة. وقال لهم دون أن يصافحهم وهو يُريهم مقاعدهم:

- تفضّلوا، - جلس فيليامينوف بسرعة. وحين رأى الآخرين واقفين عند الباب قال لهم ثانية دون أن يعرف السبب: اجلسوا!

- لم نأت لنجلس. - قال حاغور، - نحن في مهمة.

ترجم تيم الواقف إلى اليسار ما قاله حاغور.

- أسمعكم، - تغيّر لون فيليامينوف، وحين لم يسمع كلاماً من الواقفين أمامه كرر ثانية: - أسمعكم، أسمعكم!

- نحن موفدو مؤتمر الشابسغ. - أضاف حاغور إلى كلامه: لا نرى من اللائق بالجنرال وبالناس الذين أوفدونا أن نتكلم والجنرال الذي أراح مؤخرته على الكرسي جالس. ترجم له يا تيم!

نهض فيليامينوف وهو يضحك في سرّه مما سمع، ويشمّن الواقفين أمامه.

تناول نيكراس تيم بحذر شديد الورقة التي أقرّها المؤتمر، وبدأ يقرأ على مهله غير ناسٍ رجاءٍ ترام إليه بعدم الاستعجال:

- المحترم الجنرال فيليامينوف، - أضاف تيم العبارة من عنده، - "وصلنا الكتاب الذي أرسلته إلينا، واطّلغنا على مضمونه. ونحن نسبح بحمد الله الذي هو فوق الجميع. وما كتبه الله لنا نحن راضون عنه دائماً. عشنا نتأمل أن نعيش أحراراً لا نرضخ لأحد كما تقول الأخبار المتداولة بين الناس، وها قد مضى أكثر من عشر سنوات على حربٍ لا تنقطع، إذ أرسل إلينا ملك إنجلترا العزيز كتاباً يتعلق بكل الجلبين، وأنت تعلم ما في الكتاب. لم يقتحم الأديعة يوماً أراضي روسيا بهدف القتل والنهب. الوقت الذي سيسود السلام والتفاهم فيه بيننا هو عندما تنقلون جيوشكم وقلاعكم إلى ما وراء نهر بشنزه. كل الأقوام

يمكن أن تزدهر التجارة البرية والبحرية بينها كما كانت في الماضي. فإن وافقتم على اقتراحنا فأجيبونا. أظهرتم مدى قوتكم، لأن ما تملكونه من أرض يفوق ما عند سبع ممالك. ولكن الله لم يعطكم وحدكم كل الأرض. والله شاهدٌ على أننا لن نقبل أبداً بما أرسلت إلينا. ولا نتفاوض معكم لأننا خائفون منكم. ونُعلمكم بمساندة مملكة إنجلترا لنا. إذا كان مآل الأمر بيننا وبينكم هو أن تعتدوا بقوتكم ورجولتكم فتهددونا بأنكم يمكن أن تقتلونا بكلمة واحدة مستهينين بنا، فاعلموا أن من يملك مثل هذه القوة هو الله. وكما تعتدون بقوتكم الهائلة فنحن نتأمل في حماية الله. وإن وافقتم على حياتنا الحرة مقابل الدولة والنظام عند غيرنا فالأديغة يقبلون بحياة السلم مع الجيران. ووقع تحت هذه الورقة أفندية الأبراخ والتاخوي والشابسغ، ورجال الدين والمسنون المحترمون".¹

¹ وهذا نص رسالة الجيش الروسي إلى الأديغة: "إلى الجبليين القاطنين وراء نهر بشره: نتيجة الأقوال التي لا أساس لها والأخبار الكاذبة التي يشيعها من لا خير في قلبه فقد تأخر تنفيذ النية الخيرة للحكومة الروسية وقتاً طويلاً. ومحتوى المبادرة القيصرية أن يكون لكم أنتم أيضاً حاكم واحد كما عندنا. وتترتب علاقات سلام بيننا نتيجة هذه العملية، وتتوطد الثقة بيننا، ويجري تبادل المنافع بين الطرفين. وما يريد من لا خير في قلوبهم ولا أخلاق عندهم إقناعكم به هو إرسال الجيش التركي باعتباركم من رعايا السلطان التركي، والاعتماد على هذا نوع من الغباء. وتأكدوا من أن هذا مستحيل الآن ولاحقاً. والسبب هو أن الاتفاق الذي جرى بين الدولتين الروسية والتركية عقب حرب 1828 نصّ على أن كافة سكان القفقاس صاروا تابعين لروسيا. وقد أكد السلطان التركي قبل زمن غير بعيد التزامه بالاتفاق. وليكن أنتم أيضاً علم بهذا الخبر.

وبموازاة هذا، ففي الوقت الذي نبدي فيه رغبتنا من أعماق قلوبنا يا جيراننا في أن تبقوا جديرين بالثقة وأصدقاء تحبون حياة السلم، لا أن تكونوا أعداءنا، وهو ما يرغب فيه قيصرنا الغالي، نخبر زعماء الأعراق المكلفين بتحضير رعاياهم لإطاعة القيصر بالمزايا التي ستحصلون عليها إن أطعتم القيصر بإرادتكم: تعيشون بسلام في الأرض التي تمونها، وتحافظون على أديانكم، وعلى مساجدكم وعاداتكم وأعرافكم، وحياتكم الخاصة بكم. ويجب على كل فرد الإخلاص لروسيا دون اعتراض، والسبب هو أن قيصرنا الغالي سيحرص على حياة سعيدة لهم، كما يحرص الآباء الذين يحبون أولادهم.

ومدّ ما قرأه إلى فيليامينوف، ثم رجع ووقف مع رفاقه.

- أيها الجنرال فيليامينوف - قال حاغور، - ونبلّغكم أيضاً شفهيّاً أربع مسائل: الأولى: ليس لتركيا شأن بنا حتى تعطينا لروسيا. والثانية: كل من يلبسون قبعة ومن يغطّين رؤوسهن متفقون على محاربة الجيش الروسي الغازي. والثالثة: لا تنظروا إلينا على أننا شعب قليل العدد وإن لم تُسأروا روسيا، إذ نتحلّى بالرجولة والمهارة، ونحن خبراء بحرب الجبال. والرابعة، كما قلنا في ورقتنا إليكم، أن تعودوا بسلام إلى ما وراء نهر بشزه، وتعيشوا معنا حياة سلام.

- السادة الموفدون، - قال فيليامينوف متمهلاً بنبرة واضحة، - أنا ماضٍ بجيشي إليكم. إذا أراد الشراكسة المقاومة فعليهم أن يتحملوا النتائج. وإذا قُتل عشرة من جنودنا قتلنا مئة منكم.

أوما الموفدون إيماءة احترام خفيفة للجنرال وانصرفوا. ولما وصلوا إلى الباب قال نيكراس تيم للجنرال بالطريقة نفسها التي تصرف معه بها الأخير:

- لي الشرف أيها السيد الجنرال، إلى اللقاء في المعركة القادمة.

وفي غمرة ركوهم سأل تراؤ تيم:

- ماذا أضفت إلى كلامك حين توقفت وقبل أن تمد الورقة إلى فيليامينوف؟

- قلت له: إلى اللقاء في ساحة المعركة يا محترم.

- وتلك العبارة "جست، جست" التي كنت ترددها؟

تعرفون أن روسيا دولة قوية جداً. فإن أخلصوا للقيصر لم يخل عليكم بالمال. وأنتم تعرفون هذا بالقياس إلى أبناء دينكم. ففكّروا بأنفسكم. وكونوا لأعراقكم الزعماء الحكماء الذين قطعوا طريق حياة طويلة! وفكّروا وقارنوا بين حياتكم اليوم وبين قوة روسيا وأهدافها الكبيرة جداً إن أخلصتم لقيصرنا وأطعتموه في ما ستجنونه لأشخاصكم ولأعراقكم وقارنوا بين الحالتين.

لو كنتم معنا تحت ظل القيصر الواحد لكانت حمتكم قوته العظيمة، وفهمتهم فائدة أن تعيشوا حياة وفرة وأمان. ولو كان الأمر يتعلق بحياة الأسر والأفراد لتشاركنا في التجارة البينية، ولتجاوزتم كثيراً مما يجلب لكم صعوبات في حياتكم، ولحصلتم على كافة احتياجاتكم.

وإن حدث هذا فلننش حياة سلام واتفاق، مثمين كل يوم الثقة التي بيننا، وستحسن حياة كل من يعيش في ظل قيصرنا!" المؤلف.

- سأقول لك يا ترام معناها: هذه عبارة يحبها الضباط الروس جداً، تعني: عندي شرف. أفهمته أنّ عندنا أيضاً من الشرف ما لا يقلّ عما عندهم. وكما كان يقول المرحوم والدنا: سليل كلبين. ثم يحاول أن يقرأ علينا قصة تربوية. نعم يا نور مُجّد؟

لم يكن حاغور نور مُجّد يسمع شيئاً. كان عقله في مكان آخر.

...

لم يكن فيليامينوف يستطيع المزيد من انتظار أيام الربيع الصباحية. وجيشه جاهز بانتظار أوامره. في أواخر ربيع عام 1837 حُشدت الكتيبة العاشرة من جيش مشاة القبرتاي، وجيش تينغينسك، وجيش نافاغينسك، ووحدة من الجيش القوزاقي، والفوج الرابع مشاة و26 مدفعاً من نوع، و10 مدافع من نوع آخر و220 عربة مع أحصنتها. وكانت كلها مجهزة بالسلاح واللباس للحرب. ودُرِّبَت سنوات طويلة على القتال. وكان الضباط مزودين بخرائط تتضمن مواقع جبال الأديجة، والطرق، ومعابر الأنهار، والسواقي، والطرق الضيقة. والأمر الوحيد الذي لم يكن فيليامينوف يعرفه هو عدد الأديجة الذين سيتصدّون له. وليس الجنرال جاهلاً أن ليس للأديجة جيش جاهز. ولكنه يعرف أنهم في يوم واحد، وبصيحة استنفار واحدة "مارج"، يستطيعون تجهيز جيش كامل.

وبناء على تعليمات القيصر يجب على فيليامينوف، خلال أشهر الصيف الثلاثة، إقامة قلاع في أعالي أثمار بشده وفولان وجوبغوه. ولذا على الجنرال أن يحرك الجيش في يوم أو يومين، قبل أن يصحو الوفد الذي جاءه. والمفاجأة ترعب العدو دائماً، وتدير النصر إلى جهة المهاجم.

يتخذ جيش الجنرال الطريق فجر التاسع من أيار. ويتجه إلى الشرق فيقوده إلى قلعة ألكسيفيتش. وبعدما يقضي الليل فيها يتوجه بسرعة إلى جهة أثمار آنْتُخِر ويغنْدِر وآين.

لم يفهم الأديجة في البداية سبب تحرك الجنرال بالجيش. ولكنهم لم يسهوا عن جهة تحركه ولو ساعة واحدة. وأينما توجه جيش الجنرال رافقه على الجانبين والخلف فرسان أديجة سريعون. ولما كان المؤتمر قرر ألا يُطلقوا طلقة واحدة قبل وصول جواب ورقة المطالب التي رفعوها فهم ينقذون قرار المؤتمر. ثم إن الأديجة،

ببراءتهم وصدقهم، يُخَيَّل إليهم أن الجنرال، على أثر ورقة المطالب، سيسحب قواته إلى ما وراء نهر بشزه. وتبين خداعه لهم على نحو جليّ جداً حين دخل الجيش آبنه مساءً.

استغلّ فيليامينوف طريقة الأدیغة في تجميع الجيش نهراً وتفرّقه ليلاً. أراح الجنرال جيشه بضع ساعات، ثم عبر مضيق جبل ناقة. وغزا القرى الواقعة في المضيق ليلاً. حاول الرجال الذين ينامون والسلاح تحت رؤوسهم التصدي للجيش ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام المدافع. والوحيد الذي قدروا عليه هو أنهم أوقفوا الجيش الذي يهاجم القرى بضع ساعات ريثما تمكنوا من إبعاد الأطفال إلى غابة قُمباي.

في الصباح كانت القرى التي عبرها جيش الجنرال تحترق. وكانت رائحة الحريق واللحم والدخان لا تزال في مضيق الجبل.

...

وكما أنشئت القلاع الكثيرة في أرض الأدیغة، أنشئت أيضاً بالدماء الروسية — الأدیغة في ميخائيلوفسك وأولغينسك ونوفوترويسك ودوخ على ساحل البحر الأسود.

...

كان حشدُ فيليامينوف للجيش الروسي وإراقته الدم الأدیغي مخططاً من الجانب الروسي، وسراً على الذين نكبوهم نكبة عظيمة. لم يكن اقتحام الجيش الروسي لأرض الأدیغة سراً ولكن لم يكونوا يعرفون سبب توجه الحملة الدامية المفاجئة نحو الشابسغ والويخ. غير أن الجنرال الذي استدعى الأدیغة لم يكن مهموماً بالأمر مستمراً في خداعهم بورقة السلام التي أرسلها إليهم. كان مهتماً بتنفيذ الأمر المُلحّ الموجّه إليه من وزير الدفاع الروسي. والحق أن الجنرال لم يكن يعرف سرّ الأمر الأعلى، ومن كان يعرفه في روسيا بضعة أشخاص: القيصر نيقولاي الأول، ووزير الدفاع شيرنيشيف، وقائد الشرطة بينكيندورف، والمسؤول عن القفقاس باسكيفيتش — إيريفانسك.

يبدأ مشروع رحلة القيصر إلى القفقاس يظهر للعيان لأن ما يعرفه اثنان يعرفه ثالثٌ. وهذا هو السبب في مجزرة قُمباي الهادفة إلى الترويع. أظهروا للأديغة قوة القيصر الذي سيزورهم. وكانوا يريدون إركاعهم أمام من يمتلك مثل هذه القوة. وبعد مرور قرابة ثلاثة أشهر على الحادث، في الحادي والعشرين من أيلول عام 1837 وصل القيصر نيقولاي الأول يصحبه ابنه ألكسندر عن طريق البحر.

لم يتجمع الأديغة على الساحل ليستقبلوا القيصر على طريقتهم كما توقع القيصر. إن نظرت من السفينة إلى القرى الأديغية المتنفة حول الجبل مقابل الجيش الروسي فالحياة، وإن لم ينتصب المشهد في عينيك تماماً، تجري على نحو اعتيادي كما يعيش كل الناس. يجمعون محصول العام الظالم دون أن يتناسوا أن القلق الروسي في مواجهتهم: يذرون القمح المدروس، ويقطعون رؤوس الذرة من سوقها، ويقطفون اليقطين، ويقتلعون البصل، وضفائر الذرة والفلفل معلقة بجدران الأهراء وجدران المساطب. هذا عنده مآثم والآخر عنده عرس، والرجال الذين ينتظرهم الرصاص الروسي وينجون منه حاضرون متى سمعوا نداء الاستغاثة: "مارج!"

القيصر يتأمل في يوم خريفى لطيف غابات الجبال المتصاعدة، وينظر من فوق القرى الأديغية القريبة والبعيدة. والسحب البيضاء السريعة تحلل القمم التي تبدو من تحتها، وتمزقها الأطراف المسننة للجبال.

قال القيصر: وراء الغابات المتنوعة، تمتد الأرض السوداء الخصبة حتى نهر بشزه. وتعبره طولاً حتى تصل إلى القبرتاي. مثل هذا العالم الجميل يستحق ما يقال فيه من أغاني وما يكتب عنه. لن تصدّق حتى ترى بعينيك، إنها جنة الدنيا. لم يخطئ خانجري مثلنا الخاص حين كتب لنا وصفاً لهذه البلاد. لا يجوز ترك الأديغة المتمردين يحتفظون بهذه الأرض!.. أين هم هؤلاء يا ثرى؟ ليفرحوا بزيارتي لهم! لماذا لم يستقبلوني على امتداد ساحل البحر؟ يحتلون أجمل مكان على الطريق الواصل بين أوروبا وآسيا. ثم إن هذا الشعب الضئيل يرفع السلاح في وجهي محتجاً على دخولي إلى بلادهم!..

- أيها الممثل الخاص خانجري!- نادى القيصر إلى من وراءه دون أن يرفع عينيه عن الجبال المتنوعة الألوان، وسأل الرجل الأسمر النحيف الممشوق الذي تسمر أمامه: أهذا الساحل ساحلٌ أديغي؟

- نعم ساحل أديغي يا محترم!

- ألم يبق سكان في هذه القرى؟ - فارق القيصر كل من كان وراءه، واتجه إلى طرف السفينة. - لماذا لا يستقبلوننا؟

- لن أكتب حقيقة الوضع يا محترم!

- قل!

- كانوا أخبروني أنهم لا يحترمون قيصر الدولة المعادية.

- وهل القبرتاي غير الأديغة؟ - تذكر القيصر استقبال ممثلي القبرتاي له في فلاديفقاس¹. ثم أجاب نفسه مطمئناً إياها: - القبرتاي الأديغة يحترمون القيصر، ويقدرّونه...

- إذا كان الأديغة لا يعرفون نظام حياة الناس الذين صاروا من ريعتي فعند قيصر روسيا من مصادر القوة ما يكفي لتعليمهم. - عاد القيصر متمهلاً. وأضاف مسمعاً الكثير من الناس الذين ينتظرونه: - لم نأت إلى هنا لنعبر عن احترامنا لأعدائنا!.. هيا بنا نخي الجيش الروسي الذي سيتزايد إلى ما لا نهاية!..

لم يطأ القيصر أرض الأديغة إلا نصف يوم. أقام في غيلينجيك بضع ساعات محاطاً بعدة صفوف من الحراس. ولم يقابل في تلك الساعات أحداً، باستثناء

¹ "كان القيصر نيقولاي الأول قام بجولة في القفقاس عام 1836. ولم يزر القيصر القبرتاي.

بل استقبل ممثليهم في فلاديفقاس، وأهدوه حصاناً أصيلاً من جنس القبرتاي". ثم كان قد

أهدى في عام 1844، أي بعد ثماني سنوات، علماً تذكّاراً للقبرتاي: "نحن قيصر روسيا

كلها، نيقولاي الأول، وبفضل الله، فإن عرق القبرتاي المخلصين لنا بلا حدود، طامعين في

أن يرفعوا السلاح في وجه أعدائنا الجبلين يُلزِموننا أن نُحسِن إليهم. ونحن نقدم هذا العلم،

رمزَ الثناء، وهو تعبير عن رعاية القيصر لهم. ويكلفكم مهمة المحافظة عليه، وحمّله عند

محاربة من يقف في وجه القيصر. نيقولاي الذي يريد الخير للقبرتاي". المؤلف.

ضباطه الكبار، لا من الأديغة ولا من اليونانيين ولا من الروس. ولمس يحذر شديد أحد الجنود الحراس بعدما دار حول صقّهم متظاهراً باستعراضهم. وأما بقية وقته فأَمْضَاهَا في السفينة.

وبعدما غادر القيصر الساحل الأديغي وذهب إلى تفليس والطرفان المتجاuban يسفكان الدم ويغلب الدم الأديغي، بنوا غير بعيد عن نهر شَجْ منعة نافارينسك، وغير بعيد عن نهر طوابسه منعة فيليامينوفسك، ومنعة نوفوروسيسك القرية من بزاه مز، ومنعة غولوفينسك القرية من شاكه، ومنعة لازاريف عند بسوّزابه.

نبتت هذه القلاع الروسية على الساحل الأديغي ابتداء من أعالي أنابه وانتهاءً بأبخازيا. وسموها سلسلة قلاع البحر الأسود.

...

وبالطريقة نفسها تصرف الجيش القيصري في أرض الويخ فبنى سلسلة تغطي ضفتي نهر شَجْ، إلى أسفل قرية مفأست، حتى مكان التقاء حدود أرض الأديغة وأرض الأبخاز. وساهمت في المعارك سفن البحر الأسود بالإضافة إلى جيوش المشاة. ويُسفك الدم في كل مكان كما في فُمباي. وليست خسائر الجيش القيصري في الويخ قليلة وإن كانت أقل من خسائر الأديغة. ولم يبق للطرفين إلا تبادل جثث الضحايا بعدما أسدل الظالم الستار عليها.

واليوم لم تكن نار الحرب انطفأت حين وقف برزج مع مجموعة من الرجال الهائجين على الجثمان. حين تباعد الواقفون نظر جراندوقوه على نحوٍ أعمق في وجه الضحية المستلقي في الساحة، ووجهه إلى الأعلى: شعُرُ الصُدْغين الرقيق التحم بالliche على الذقن غير الكبير. والشاربان المتناسقان يغطيان الشفتين الرقيقتين. والجهة العريضة تنسجم مع الأنف المائل إلى الطول والوجه الرقيق الطويل. ورغم أن عمره يختفي في العينين المسجّاتين تستطيع تقديره بما يقارب الأربعين.

- من هذا؟ وماذا ستفعلون به؟ - سأل جراندوقوه دون أن يترجل من الحصان بيل وحاغور مُسمِعاً الواقفين.

- ومن سيكون يا أمير؟ - صرخ واحد من أحدث الواقفين عمراً، - واحد من المجرمين النهابين.

حين بدأت مجموعة الشباب تضطرب رفع برزج يده. وخرج من مجموعة المسنين عجوز من الشابسغ:

- هذا الكافر يا أمير ليس كمن يحمل رتباً ذهبية.

- أياً كان، - قاطع برزج كلام العجوز، - ألم تسمع ما قاله الشباب: كافر، نهاب، قاتل؟

- لا يا أمير! - رفع العجوز يده وصوته معاً، - لا نقل هذا. الراقد أمامنا، وإن كان كافراً، أظنه مثقفاً كبيراً... - انظروا إليه لحظة! - مد العجوز يده إلى الكيس الجلدي، - هذا ما كان يحمله - ومد إلى برزج المسدس المزين بكتابات، والخاتم الذهبي، والكتاب.

- المسدس والخاتم لك يا أمير نهديك إياهما، - صاح بعض الواقفين من هنا وهناك.

- لا تلمس الكتاب يا أمير، هذا غير محمود العواقب. - صاح غيره.

- وما هذا؟ - نظر برزج إلى الكتاب متهيئاً منه كأنه يحرق يده.

- أليس لأجل هذا أقول يا أمير؟ - لا يتراجع العجوز، - يبدأ الكتاب بصورة هذا القتل.

تذكر حاغور فجأة الكاتب الذي ذكره له راكيتوف بافيل وزانه قرباتر، فرفع رأسه.

- انظر إليه يا جيمس، - مد برزج الكتاب إلى جيمس، - ما هذا الكتاب؟

- ما إن رأى جيمس الكتاب حتى تحقق صدق توقع العجوز: على غلاف الكتاب صورة واسم الكاتب ألكسندر بيستوجيف مارلينسك. واحد من الديسمبريين الذين وقفوا في وجه القيصر. أرسل إلى هنا مرعماً لمحاربتكم.

- إذن هو على قولك عدو القيصر الروسي؟.. - سأل برزج مستغرباً ما سمع، ولكن غير مصدق تماماً. ونظر نحو حاغور، وإلى العجوز الذي كان يجادله.

- يمكنكم مبادلة جثمان هذا الكاتب بمال كثير. - قال دون توجيه الخطاب إلى شخص معين، ثم أضاف: - لا تخطئوا!

اضطرب الواقفون ثانية مما سمعوا. وسرى بينهم الخلاف، وابتعد بعضهم عن الساحة وقد لجمتهم الإنسانية والرهبة.

- عيبٌ أن تجني مالأً من جُثمانٍ أيّاً يكن صاحبه يا أمير. - أجاب حاغور على بيل فيما يخاطب هو برزج. ثم أضاف بلهجة أطف معلوماته. - الأفضل إيصال الجثمان إلى ذويه... دَعُونَا نتوقف مرة عن نزقنا الأديغي! - نهر نور مُجَّد متهيجاً الثائرين: - فكَرُوا في أن الحرب تتطلب إنسانية بالإضافة إلى الظلم. لسنا وحوشاً!..

- إن كان هذا رأيك يا حاغور، وكان بإمكانك فرض رأيك عليهم، فأنا لا أريد الاحتفاظ بجثة كافر كائناً من يكون. - شدّ برزج اللجام، وانصرف مع جيمس، وتبعه عدد من الشباب الموافقين له.

قرر الجمعُ دون خلافات كبيرة إعادة الجثمان إلى ذويه. وتوجهت العربة التي عليها الجثمان مغطى بالكساء الأسود، يرافقها ثلاثة فرسان على رأسهم حاغور إلى الطريق المقابل للجيش الروسي. ولم يمشوا أكثر من ساعة حين وقف حاغور أمام الجنود الروس الذين اعترضوا الموكب، ودعا رافعاً يديه، ثم خاطب الجنود:

- نحن آسفون لمقتل كاتبكم. ونخبركم أَلَمْنَا لمقتله، محملين أنفسنا وإياكم المسؤولية، ونعبر عن حزننا ونقدم تعازينا إليكم. وندعو أن يغفر الله له ذنوبه. ونعيد إليكم هذا المسدس والخاتم والكتاب وأشياء صغيرة أخرى...

VI

تعرف حاغور إلى الرجل الأشقر القوي البنية، والذي يغلب عليه خليط لهجة الأبراخ - الشابسغ، حين نظر إليه:

- لماذا نحن على الباب أيها الضيف؟ تعال ندخل البيت. وما إن دخلا الغرفة حتى قال الضيف:

- جئت إليك ممثلاً للأمير سفربي. هو سليم، وبخير. - يفتح صندوقه الصغير، ويخرج منه شيئاً، ويقول: - لم أجد من اللائق أن أسلمك حين اجتمعنا عند الوبيخ على مرأى من الجميع، وأبلغك سلامه.

- وعليكم السلام، - ردّ حاغور على السلام رافعاً جسمه عن المقعد قليلاً على عادة الأديغة. وحين يهْمُ بفتح الورقة التي تتضمن الأمانة يتدلى منه طرف حرير أخضر، و يصبح بين يديه العلم ذو النجوم الذهبية، والسهام المتصالبة، ويسأل مع أنه يَحْمَن ما يراه: - ما هذا؟

- علم أديغي يا نور مُجَّد!.. أرسله إليكم زانه سفري ليكون علماً لوحدة الأديغة. أوصاني أن أسلمه لحاغور نور مُجَّد أو ترام. ولم تقع عين إنسان في إقليم الأديغة إلى الآن عليه.

- حتى برزج لم يره؟

- لا، لم يره يا نور مُجَّد. ليكن خيراً عليكم وليتحقق هدف زانه سفري! يتأمل منكم سفري أن يكون علماً لوحدة الأديغة يا نور مُجَّد. والنجوم الاثنتا عشرة والسهام الثلاثة شاهدة على هذا. والباقي هو اطلاع الناس عليه. وسفري واثق منكم في هذا الشأن.

- أقسم باسم علم الوحدة هذا أيها الضيف ألا نخذل سفري في موضوع وحدة الأديغة. - نهض حاغور وأوماً إيماءة احترام للعلم الذي بين كَفْيِهِ. ثم سأل: - أودّ أن أعرف يا جيمس سبب عدم إطلاعك برزج على العلم الذي أرجو أن يكون خيراً على الأديغة.

- ليس في هذا سرّ. لم أُطْلِع برزج على العلم لأن سفري رجاكم أن تحملوا الأديغة على تقبُّل العلم في مؤتمر لعامة الفلاحين. ولي رجاء عندك يا حاغور بشأنه، وهو ألا تأتي لأحد على دِكْرِ طريقة وصول العلم إليك. أنا تاجرٌ من دولة أخرى، أوْئدكم من قلبي وروحي حقاً ولكن لا أريد أن يجري اسمي على ألسنة الناس في هذا الشأن. وحالما يتبَيّ مؤتمر فلاحى الأديغة العلمَ بالمقالات التي ستُنشر في إنجلترا وفرنسا وتركيا جاهزة. ورافقني صحفي إنجليزي لهذا الغرض اسمه لونغفورت. وكتب عن مجزرة قُمباي...

بعدما ودّع حاغور ضيفه إلى أرض الوبيخ توجه إلى ترام في قُماتر. واجتمع في المساء عدد من الفلاحين في مضافة ترام. ولما قَلَبُوا علم سفري وتفحصوا النجوم والسهام بعناية اتفقوا جميعهم على أنه لا يمكن مهما حاولت أن تجد أفضل منه.

- والله، ونحن نعرف هذا، - قال حباط، - أميرنا سفري رجل حكيم. -
أترون إلى أين يصل عقله رغم أنه محبوب في بلاد غريبة؟ لا ينسى العامة من
الفلاحين أينما كان، خصّهم ولم يذكر الأمراء.
- أنت على حق في هذا يا حباط، - وافقه ترام، - لا يهمل الفلاحين. عرفنا
فيه هذا حين رافقناه، حاغور وأنا، إلى تركيا. هل تتذكر يا نور مُجد ماذا قال لنا
حين رأنا نلحّ كثيراً على لقب الأمير؟ قال: نحن الثلاثة موفدو الأديغة، وثلاثتنا
من سلالة الأديغة، نحن متساوون. لم يخطُ خطوة في تركيا دون علمنا. وهذا
العلم أرسله للعامة من الفلاحين...
- كل هذا خيرٌ يا ترام. - يقول حباط ويلومه، - ولكنكما تركتما هذا الرجل
الممتاز في تركيا وعُدتما.
- ليس لنا يجب أن تقول هذا يا حباط، - يساهم حاغور في الحديث، - بل
إلى القيصر الروسي الذي نزل البر قبل أيام في غلينجيك.
- وما شأن هذا أيها المنحوس في قضية الأمير سفري؟
- لم يحتفظوا بأميرنا في تركيا دون علم القيصر. أعلمني بهذا أحدٌ من لهم علمٌ
بالموضوع.
- هكذا إذن!.. ألومكما عبثاً...
- دعونا من هذا الآن، لنفكر في المكان الذي سنعقد فيه مؤتمر الفلاحين!
- أنا أعرف أين نعقده، - قال حباط متمهلاً.
- أين؟
- سأقول لك يا ترام. في ملتقى لأراضي الشابسغ والأبزاخ والويخ والبجدوغ
والجمكوي، سيأتي كل الفلاحين ويجتمعون.
- في ما قلته يا حباط وجهة نظر. - وافقه حاغور أيضاً. ولكن كيف تمّد
أرض الويخ إلى المناطق التي ذكرتها؟
- إن كنت ترى أرض الويخ بعيدة إلى حد ما فسنستضيفهم. وليسوا وحدهم،
ألا ترى ما في العلم من نجوم؟ عليك أن تُشرك عاقّة المخوش والشرجس
والقيرتاي، وتُعلمهم بحقيقة ما في قلبك نحوهم. - إن كان هذا ما تقصد فهو
موضوع مختلف... - ابتسم حاغور في سرّه ولم يُظهر. ثم أضاف بثقة أكبر: -

في كلام حباط وجهة نظر صائبة، ولذا لن نجد منطقة التقاء بين أعراق الأديغة أفضل من مضيق نهر "بِسْفَابُشِه". دعونا نتفق على يوم الجمعة ونبلغ الفلاحين دون تهاون...

صادف الموعد المحدد يوماً خريفيًا لطيفاً. وبعد موعد تناول الشاي امتلأ وادي بَسْفابه بالفرسان الفلاحين. وعلى الطرقات القريبة والبعيدة فرسان ومشاة. والمضيق الموازي للغابة لا يتسع لضجيج الجمع.

حين حان الوقت وقف نور مُحمَّد وترام قائدا الفلاحين الفرسان الذين لا يتجاوز عددهم الستمئة على تَبَّة. ورفع حراس الطرق القريبة والبعيدة الأيدي إشعاراً بالأمان. وخرج حاغور من بين رفاقه وقال:

- يا مؤتمر الفلاحين الذين أدعو أن يجعل الله يومهم مئةً. ليرحمكم الله! أفتتح إن سمحتم لي مؤتمرنا باسم الأكابر سنًا. اليوم يوم جمعة مبارك أدعو أن تتحقق فيه كل آمالكم. لن نُطيل اجتماعنا في هذا الوقت العصيب الذي يمر به الأديغة. يحزُّ في نفوسنا ما جرى في قُمباي. دعونا نتوقف بضع دقائق حداداً على الضحايا الأبرياء الذين قضوا في قُمباي على يد الجيش القيصري... حيّاكم الله، ورضي عنكم! والآن نتكلم أيها الفلاحون على سبب عقد الاجتماع: لن نستطيع مقاومة الجيش القيصري دون وحدة الأديغة. سيظل الجيش الروسي ينفرد بنا كما فعلوا بنا في قُمباي. هلمّوا إلى وحدة الأديغة! منذ اليوم نودّع التناهر القبلي، ونودّع الروح الفردية: لا تقولوا: كلٌّ إلى بيته؛ بل ليكن بيتنا بيتاً واحداً، ووطننا وطناً واحداً. نتفق على أن تحمينا الوحدة. ولا يبحث كلٌّ منا عن حجة ينزوي بها عن الجماعة. ليس لكل عرق من الأديغة علم خاص به. نريد أن يكون لنا علم واحد يعبر عن وحدتنا!

- من أين نأتي بمثل هذا العلم الذي لم نملكه إلى الآن؟ - تصايح عدد من الفلاحين كانوا استعدّوا لهذا السؤال. - ولماذا ليس لنا، هناك علمٌ لوحدة الأديغة! - ارتفع صوت حاغور: - صمم لنا أمير الناختواي - الشابسغ علماً ترمز فيه أسرة النجوم الاثني عشرة إلى مكونات الأديغة الاثني عشر. هيا يا ترام إعرّض العلم على الفلاحين!

رفع ترام العلم المعلق في أعلى عصا فرفرف الحرير الخفيف على رأسه. التقت أنظار القرييين والبعيدين على العلم. ارتفع فوق المؤتمرين ضجيج فرحٍ يعبر عن إعجابهم به. وبدأ بعضهم يصيح طالباً إدخاله إلى الساحة إليهم ليروه من قريب. حثّ ترام الحصان نحو الساحة ولحقه حباط، ودار وراءه متأخراً عنه، رافعاً من شأن العلم.

تكلم عدد من الفلاحين بعدما رأوا العلم. وكان بينهم من الشابسغ والناخوي والأبزاخ والجمكوي والبجدوغ والشرجس والقبرتاي والوبيخ. ولما اتفقت آراء المتكلمين اختتم حاغور موضوع العلم بخاتمة قصيرة:

- ليرفع من يوافق على علم الوحدة الأديغية!

التمعت الخناجر المسلوطة فوق رؤوس المؤتمرين.

- هل هناك مترددون؟

لم يصدر أي صوت.

قرر المؤتمر اتخاذ العلم الذي يرمز بنجمه الاثنتي عشرة وسهامه المتعانقة الثلاثة إلى وحدة الأعراق الأديغية، وأن يحاربوا تحتها، وتفرق الفلاحون يغلبهم فرحهم الممزوج بحزهم.

...

زار نور مُجَّد بعد المؤتمر تايصور، كما اتفقوا قبل أيام. تفقد حاغور الدار التي بدت عليها فوضى شديدة إثر وفاة والدته تايصور. ولم يبق في الدار من مواشٍ ودجاج ما يُحسّر عليه إن أُهمل. وفرح نور مُجَّد من جديد لأنه أرسل إلى ترام مساء أمس ثلاثة خراف وعجلاً قتلت الذئب أمه. ما الفائدة، قال حاغور، من أن تسوقها إلى سوق باستوك؟ ستهترئ أظلافها على هذه المسافة البعيدة. لو كان المرحوم عمنا حياً لما حدث لك يا أختي الصغرى ما حدث. وخالك الوحيد الذي بقي في البجدوغ فارق الحياة... كان الأفضل من كل ما عداه أن تتزوجا أنت وترام ولكنكما تصران على أنكما أخ وأخته فلم تسمعا ما لمحت به إليكما... أيمن أن يكون كلام ترام بشأن راكيتوف ذي الرتبة الذهبية صحيحاً؟ مرة أخرى أشار ترام إلى هذا الموضوع أمس. دكرني إن كان صحيحاً

أنه، يعني راكيتوف، جاء بصحبة قرباتر إلى أهل الأخير فاستُدعيت تايصور.
وشهد حباط على صحة الخبر. هذا لا يجوز البتة، يجب أن أقابل قرباتر.
حين دخل نور مُجد البيت استقبلته تايصور تجهش بالبكاء، فسألها متظاهراً
باللامبالاة:

- أتبكين لأننا على وشك السفر؟

- لا يا كبير، لا. - هجمت تايصور على صرة ثيابها. - أنا جاهزة.

- لا بأس هكذا... ولكن لا يعجبني كونك تُجهشين بالبكاء... أياكون هناك
ما يشغل بالك؟!

- لا يا كبير، لا. أنا جاهزة. - كررت تايصور موقفها.

- ما العمل يا أختي؟ لا بدّ أن يقلقلك تغيير القرية وتغيير البيت. ولكني لن
أسمح لك أن تسافري من قُماتر وحدك. - خطر له فجأة أن يلّمح لها بما سمع
بشأن راكيتوف فلم يجد الوقت مناسباً. ولكنه قال لها بطريقة أخرى: - لن تخلو
باستوك من شخص نصيبك فيه...

- تباً، لا أريد أحداً! حسمت تايصور الأمر.

- ما الأمر؟ سألها حاغور وهو يتناول صرة ملابسها. ثم أجاب تايصور
مبتسماً: - لا أظن الشباب الأديغة أقبح من الضابط الذي يزور آل زانه...

ارتعبت تايصور من أن حبها الخفي ظهر للعلن. وتبعت ابن عمها وقد توهج
خداها من الضيق الذي تسبب فيه حيائها.

...

تبين أن تايصور التي ضمّتها أسرة حاغور إليها فتاة ليس حولها أيّ شبهات أو
أقوال. انسجمت معهم كأنها عايشتهم طوال عمرها. فرضت نفسها في نصف
العام الماضي على أهل باستوك قلباً وروحاً وهي تبشّ في وجه من تقابله ويشّ
لها. وأول من شعر بوجودها هم الشباب العازبون. ولكن مهما زارها الشباب
وغازلوها لم تعدّ أحداً منهم. كانت تستقبل الجميع بالترحيب نفسه، وتودّعهم
بالطريقة نفسها.

في أحد الأيام، قالت لها كتّتها جانتغ بعدما تبادلتا الثقة في شؤون الزواج:

- نحن لن نسمح لك يا تاييسور أن تفارقينا ما دام هناك إماكن لذلك. ولكن أخشى أنك تفوتين قطار الزواج.

- ولماذا، سيظهر من يُعجبني... - ضحكت تاييسور.

- لم يُقَصِّر شباب باستوك معك إلا أن تكوني قد تركت في قُماتر أحداً. وبين شباب باستوك من يُرضوننا كأصهار.

- لا أرغب في أحد من قُماتر ولا من باستوك. - حسمت تاييسور الموضوع أمام الكنة.

- وهل يقال مثلُ هذا؟ لا تدعي أحداً يسمعك! - لامت جانتغ ابنة حميها. وبعد هذا الحديث بنصف شهر جاء راكيثوف بافيل بصحبة فارسين روسيين إلى بيت حاغور لطلب العروس، وأوضح رغبته باختصار:

- أتأمل أن تفهمنا يا نور مُجد، أنا وتاييسور ولو أن طلبنا ثقيل عليك.

- ماذا بينك وبين تاييسور؟ - لم يفهم حاغور في البداية. ثم صاح وقد فهم الموضوع: - مستحيل أن يحدث هذا بين شخصين من عرقين مختلفين!

- أفهم يا نور مُجد، أفهم... - ولكن بيني وبين تاييسور التزاماً ووعداً. وها هي تذكاراتنا التي تبادلناها. - وضع راكيثوف على الطاولة خاتماً فضياً شاهداً على ما يقول: تبادل الحب، لا تضرنا، أرجوك.

- هذا مستحيل يا بافيل! - نهض حاغور فجأة لا يطيق الجلوس. وذرع أرض الغرفة بضع مرات، ثم جلس. ثم نهض ثانية - لم أصدّق ترام حين أخبرني بهذا الأمر، ولم يكف هذا حتى دخل زانه قرباتر فيه أيضاً... ظننته يمزح معي... وانظر الآن ما يحدث! - توقف عن ذُرع أرض الغرفة، وصاح إلى الغرفة الأخرى: - تعالي يا تاييسور...

دخلت تاييسور، ووقفت إلى قائمة الباب مطرقةً.

- هل أنت من أهدت هذا الخاتم؟ - سأل حاغور دون أن ينظر إلى من دخلت.

- نعم.

- عودي إلى غرفتك!.. - ما إن غابت الفتاة وراء الباب حتى تنهد حاغور عميقاً، وغمغم: - هل كان عليكم أن تورطوني في هذه المسألة! لا يا بافيل، لا

تؤاخذي، لا جواب فورياً لهذا الطلب الآن... صعبٌ أن أقدم بنفسِي فتاة إلى أحد أبناء قومي فكيف إلى غريب؟! لا تؤاخذوني ومن يسمعي سيعيب عليّ. ولن يقبلوا مني، سينكّدون عليّ عيشتي بحجة أنه قدّم أخته إلى كافر. الحق أن هناك طريقة ما عند البنات دون أن تكون لي علاقة بالأمر... تايصور ستصيح قائلة: يخطفوني، يخطفوني!... ومَن في بيتي ستصرخ وراءها أيضاً. وأنا سأتظاهر ببضع طلقات بأني ألحقكما... وصدّقني يا بافيل ما كنت أستطيع أن أقدم هذه النصيحة لغيرك...

لم يمض وقت طويل حين صدرت صرخات نسائية مرّت جو القرية مع حلول الظلام. وسمعت أصوات إطلاق نار ووقع حوافر خيل. ولكن الخاطفين اختفوا في عمق الغابة.

VII

حلّ عام 1840 بالخير على الأديغة، وبالشّر على الروس. يُحسّ الأديغة يومياً بأضرار إغلاق ساحل البحر الأسود بكامل طوله. وإذا كانت سفينة تجارية ترسو على الشاطئ سراً أو علناً في الماضي فقد انغلق هذا الباب الآن. كل المراسي الآن بيد الجيش القيصري. لم يعد الأديغة يجدون كما في الأعوام السابقة ما يطلبون من الأقمشة والملح والجلود الرقيقة التي تصنع منها الأحذية، ومستحضرات تجميل النساء المتنوعة، وأغطية الرأس الرقيقة، والمسامير، انتهاءً بالإبر، فارتفعت أسعار هذه المواد أضعافاً مضاعفة. وقلّ عندهم البارود والرصاص، وانقطع عن البلاد الفولاذ الذي تُصنع منه الخناجر والسيوف، وأشرطة الحديد الرقيقة التي يُصنع منها الزرد، وما تصنع منه أسلحة أخرى. ولا يكفي ما يصنعونه بأيديهم. تحضير البارود يحتاج إلى نار فحم قوية. واللحم متوفر ولكن الأديغي يرفض أن يذوقه دون الملح والثوم. وزادت سنتان من الجذب الطين بلة مع انعدام التجارة. لم يحمل شتاء هذا العام وريعه وصيفه وخريفه إلى الأديغة إلا القلق. ولم تعد أيدي الرجال تصل كما يجب إلى أماكن الحراثة. والناس الذين أُحرقت قراهم فبقوا بلا بيوت تبرع غيرهم لهم بما يملكون حتى بمؤونة العام القادم. ونتاج الفواكه كان ضعيفاً هذا العام. يمضي الخريف، ويأتي الشتاء، ويبدأ العلف بالنفاد.

جرى الحديث في المؤتمرات أكثر من مرة على المحل الذي أصاب الأديغة. وفيهم الجميع أنهم إن لم يهدموا المَنع الساحلية فسيقضي الجوع على حياتهم. وقرر الرجال أن الموت برصاص العدو خيرٌ من أن يموت أطفالهم أمامهم. ووافقتهم النساء قائلات: ما يحدث لكم يحدث لنا. كل الناس ترتسم أمام أعينهم صورُ الأهل الذين قضوا، والقرى التي أحرقَتْ، وفي أذاخهم عويلُ النساء والأطفال، وأغاني القوزاق وصفيهم. وكلُّ يحتفظ في نفسه بثأره.

واستنجد الشابسغ والويخ الناختواي الساحليون: "مارج!"
وتحاوبت مع النداء بلاد الأبخاز الجبلية.

وفي بلاد الويخ لا يعرف جراندوقوه برفقة ضيفيه الإنجليزين راحةً. توقف جراندوقوه مع ضيفه لونغفورت عند القلعة التي أُسست في نافاغينسك غير بعيد عن شج. وتوجه حاغور وجيمس نحو قلعة لازاريف، وقلعة فيليامينوف. وهجم ترام ونيكراس تيم على قلعتي ميخائيلوفسك ونيكولايفسك. لم يأت العام الجديد بشتاء بارد إلى الشابسغ. ومضى رأس السنة دون ثلج. ودخل كانون الثاني مشرقاً معتدلاً.

وزار ترام وتيم عدة قرى من الشابسغ بدلاً من عقد المؤتمرات. وقابلا الفلاحين. وأطلعوا من لا يعرف الوضع عليه، ورويا المخرج الوحيد لهم. والفلاحون ليسوا بحاجة إلى الكثير من التحريض أو الرجاء. كلُّ يركب حصان المأساة والقلق. كان العامان الأخيران أو الثلاثة أشقَّ بكثير على الأديغة من الأعوام السبعة أو الثمانية التي سبقتها. وإذا كان يسقط في الاشتباكات قبل زيارة القيصر واحد أو اثنان من كل طرف فالآن يسقط المئات في موقعة واحدة أحياناً. وتحترق قرى بكاملها. والمجزرة التي ارتكبها الجنرال فيليامينوف في قُماي وقت إنشاء قلعتي ميخائيلوفسك ونيكولايفسك تحولت إلى مراث.

كان النهار اقترَب من المساء وقت عودة ترام وتيم من قرية بُراوت. لا بردٌ يُزعج إن كنت راكباً أو على قدميك إلا بعض الريح الباردة التي تحب من مضيق الجبل، ولولا التنهدات الصادرة عن الأمواج القلقة للبحر غيرَ بعيد على يمين الفارسين لكان كل مكان هادئاً. والطبيعة القرية تشهد على أن الشتاء القصير يقترب من نهايته. ومن بعيد أضيء مصباح في أحد بيوت قُماتر. وبعد قليل

أُضيء مصباح ثانٍ فثالثٌ. وتلاحظ على نحوٍ أوضح أن الظلمة تلاحق عقب الشمس. والنسيم الخفيف يلسع أكثر من ذي قبل. وقرقة الحوافر على الطريق تتعالى.

حين خرج درب الحصان من المضيق وارتقى الجبل وصلهما تنهد البحر.

- البحر في ضيق، - قال ترام.

- نعم، ويتنهد، - وافقه تيم.

- يا ربّ كيف سيكون غدنا؟

- الله سيكون في عوننا.

- قل آمين يا تيم!

- آمين!

خيمت الشمس الجسيمة الحمراء فوق البحر. ووصلت إلى حافته. حين نظر ترام إلى الشمس التي يُطفئها ماء البحر تغيّرت حاله فجأة، وعصر الألم قلبه. هذه هي الحال، ها قد نقص نهار ثقيل من جملنا. وستعقب النهارٌ وسادة الليل الذي تغلي فيه أفكارنا ثم تهدأ. أيّ حزن أو فرح سيحمل إلينا؟

بدأت المصاييح الخافتة تتوالى وكلٌّ قلقٌ على الآخر في نواحي قلعة ميخائيلوفسك التي سيغيّر عليها الأديعة غداً. والنجوم الباردة - الدافئة تغزو السماء. وهوت إحدى النجوم وهي تكاد تلمع. ولم يمض وقت طويل حتى لحقت أخرى بها راسمة في السماء درباً نارياً.

- الموجيك يضيئون شموعهم، - قال تيم.

- ربما يذعرهم الظلام. - أدلى ترام برأيه بعد مسافة.

- موعد رُسمهم الصليب، وموعد صلاتنا يقتربان.

- ليدعوا إلى ربهم الروسي أن يرسل إليهم رحمة غداً!

تذكر نيكراس تيم كيف كانت جدته تجعله، وهو في حدود السابعة من العمر، يرسم الصليب مخفية عن صهرها نيكراس ميشكا، وكيف كانت تلقنه الصلاة "يا أبانا..." - تنهد. وتذكر كيف كانت الجدة تخاف على صورة الإله أن يدنسها صهرها "المعادي للمسيحية" فلا تضعها وراء الستارة بل تحتفظ بها في صندوق مغلق معها مفتاحه، تخرجها وقت الدعاء إلى الله وتنصبها أمامها.

وابتسم حين تذكر أنه لما كبر قليلاً فناهز العاشرة من عمره رفض مهما توسلت إليه ومهما أغرته بالكلام المعسول وبالخلوى أن يرسم الصليب وأن يصلي "يا أبانا..."، وتنهّد من جديد.

قال لنفسه: هذه مرحلة اجتزناها. وبالقياس إلى دنيانا المضطربة حيث لا نعرف ماذا سيحل بنا غداً كنا نرى أيام طفولتنا دافئة ولطيفة. اغفري لي يا جدتي، وأنت فارقتنا مخلصةً لما أخلصت له طوال عمرك. والأديغة الذين أكلت من طعامهم، وأشرق عليك شمسهم، ولم تكوني تُطيقين أذانهم، لا أتذكر أنهم أحزنوك يوماً وإن لم تكوني تساوين إلههم بإهلك. صرّحت أنك لا تريدن قبراً إسلامياً ودفنتك حسب وصيتك فلم يتأثروا بموقفك ونفذوا كل ما طلبت. وقد يكون في قرية دخابه من لم تعجبه شاهدة قبرك المسيحية ولكنهم تفهمونا أنت وأنا.

- يا تيم، أريد أن أسألك في أمر: - قال ترام حذراً، - لا أعرف ما سيكون رأيك، ولا تظني أتلق أخبارك، أود معرفة أخبار رفعت.

- لو كنت أعرف أخبار رفعت لأخبرتكم يا ترام، - قال تيم بعد أن زفر عميقاً. وبعدها قطعاً مسافة أضاف كأنه تفكّر في الأمر: - ليس بالضرورة أن يكون سؤالك عن رفعت تجسساً عليّ يا ترام. إن لم تسأل أنت عما يحزنني فمن سيسأل؟ وهو واحد من أسباب شيخوختي. لا يطيعني، لا يسمع كلامي. قيل لي إنه جاء للتوديع قبل التوجه إلى داغستان وأنا غائب عن القرية، لا نعرف خبره الآن. أشفق على أمّه سماي، فارق الدم وجهها ففقدت لونها. وبقيت جلدًا على عظم. ربما لأجل هذا قيل: من ولدته سيأكلك. غضبت على رفعت ولكن أين أذهب به، هو من دمي ولحمي. أعيش إلى اليوم آملاً أن يعود إلينا. الله أعلم إن كانت رصاصة من الشيشان... - حثّ تيم الحصان بعقب حذائه فوثب الحصان. ولم يتأخر عنه حصان ترام. وبعدها سارا صامتتين مسافة عاداً إلى مشيتهما المعتادة. أضاف تيم إلى كلامه وترام نادى على سؤال صديقه عن ابنه: - لم يكن رفعت شاباً سيئاً. ولم يكن ممن لا يسمعون الكلمة، ولكنه حين رأى قرباتر تطوع في الجيش الروسي لم يقبل إلا أن يفعل مثله.

- ما العمل يا تيم إذن؟ - قال ترام محاولاً التخفيف عن صديقه، - ربما لم يستطع رفعت إلا أن يسير في طريق صديقه.

- لا أظن الوضع هكذا تماماً، - أمسك تيم طرف الحبل، ولم يوافق صديقه. - أظننت أن رفعت كان سيقبّل قرباتر لو اختار طريقاً آخر؟ لا، لا أرى الموضوع هكذا. هل تصدّق أن رفعت كان الوحيد من آل نيكراس المهتم بذكر الموجيك الذين خرج منهم وبأصل آل نيكراس؟ لماذا أخفي عليك؟ كنت من ناحية راضياً بنشأة رفعت على هذا النحو، ومن ناحية أخرى لم أكن أراه على حق. وأنا أعرف السبب... استطاعت جدته أن تُلزمه بما لم تستطع حملي أنا على اعتناقه. حضنته في صدرها طوال طفولته، حين كبر قليلاً نيمته عند رجليها. والآن يقال إنه يرسم الصليب ويدعو إلى إله الروس... والله أعلم بما كانت جدته تلقنه حين يأويان إلى الفراش...

- والدتك المرحومة ليزا، ليغفر الله لها، كانت تتصرف بأديعية ممتازة. ولم أرها ترسم الصليب مرة. ولكنها دُفنت كما أوصت على الطريقة الروسية وسُط استغراب الناس.

- أظن الإلهين كانا في قلب والدتنا.

- لم ترتكب والدتك خطأ ولو أنها احتفظت بالإلهين في قلبها.

- هذا مستحيل يا ترام! - لجم تيم حصانه مما سمع. - الإنسان له شرف واحد ووجه واحد. على كلامك يجب أن أخوض المعركة غداً وفي قلبي إلهان، حقاً؟ سيكون في قلبي نية واحدة غداً وهي أن يلعب سيفي فوق رؤوس الأعداء! والله الذي سينصرنا هو من سيكون في قلبي. - مرة أخرى همز تيم حصانه فأغذ السير...

حضر معركة اليوم من جانب الأديغة بضعة آلاف يحملون علم الوحدة. وكلهم جاهزون حالماً يؤمرون بمهاجمة قلعة ميخائيلوفيسك. لم يبق للمقاتلين اعتباراً لألم أو لموت، أو تراجع. ولا يعرفون إن كان في العالم لطفٌ أو شفقة أو قلق. تتلاقى عيونهم وعيون خيلهم عارفة بما ينتظرها من الدم. لا يعرفون استقراراً في مكان. القلعة المواجهة للجيش الروسي ميخائيلوفيسك تتحرك وقت شرب الشاي. ويخيل إليك أن البخار المتصاعد منها يغطي العالم بالسحاب.

- لا حاجة إلى أن يهاجم عدد كبير من الأشخاص القلعة. - قال ترام، - في البداية يحتاج الهجوم إلى حوالي ثلاثمئة فارس.

- الله واحد، اتبعوني جميعكم!- انتشر لمعان السيف الذي استلّه تيم فوق الخيل. وتناثرت أصوات البشر وأصوات وقع حوافر الخيل في المضيق. وارتفعت إلى ما فوق المرتفع.

سُمع من الجانب الروسي إطلاق نار. وشرعت طلقات المدافع تنفجر هنا وهناك. الخيول تتساقط والرجال وراءها تتعثر. وترتفع رائحة البارود في الفضاء. والخيول الجريحة تتمرد وتسهل. والناس الذين أصاب بالرصاص بطونهم يتأوّهون ويدعون إلى الله. ومن يحتاج إلى مساعدة يبحث حوله، ومن على رجله يعدو باتجاه القلعة.

لم ينجح الهجوم الأول على القلعة. تراجعوا كيفيًّا أمام طلقات المدافع. ولكن لم يلبث جيش المشاة أن استعاد شجاعته مع هجوم جيش آخر من الفرسان. كان الناس والخيول تتساقط أمام نيكراس تيم وعلى يمينه ويساره، ولكنه يتقدمهم دون أن يُصاب بأي طلقة. ولا يكاد صياحه يتجاوزه:

- أين الجنرال فيليامينوف يا سادة!.. - يركض نيكراس تيم وهو يلوح بالسيف. وحين يرى الجيش الروسي يتراجع يرتفع صياحه: - أين الجنرال فيليامينوف؟ أين جنرالكم؟ هاتوه إلى هنا!

حين يصل الفرسان إلى القلعة المبنية يقفز تيم من الحصان وينضم إلى المشاة. ويلتحم الأديغة والروس. الناس فقدوا وعيهم، الدم يغطي عيونهم. والحقْد يسود بين الطرفين. كلٌّ ونصيبه من القوة والحيلة. هذا يموت على سنان رمح، والآخر يقطع السيف رأسه، والثالث يُخنق على الجدار.

يمسك تيم باليمينى السيف وباليسرى الخنجر. ويسيل الدم من مقدمة كسائه. وهو حاسر الرأس. يستعمل اليدين بالمهارة نفسها. وكلما ضرب بالسيف أو بالخنجر ضربة كرر الكلمات نفسها التي كان يرددّها على ظهر الحصان:

- أين أنت يا جنرال فيليامينوف!.. أخرج من مخبئك إن كنت رجلاً! أقول لك، أنا نيكراس تيم بن ميخائيل: هذه أرض شركسية، اجتروها فلن تستطيعوا أكلها.

تجاوزت الموجة الثالثة من المهاجمين المشاة جماعة تيم التي تضعضعت قواها. واقتحمت المنعة والمهاجمون يهدّون بصدورهم الحائط. يقتلون من يجدونه، ولا يميزون بين من يرفع يده مستسلماً ومن لا يرفع.

يركض جندي روسي نحو مستودع للبارود. ويصيح وراءه صديقه الجاثي على ركبتيه ممسكاً بأمعائه:

- إلى أين يا أرخبيل؟

يُهرع أرخبيل إلى غرفة تحت الأرض. ويُرتج الباب ويختبئ وراء برميل للبارود. ويلف سيجارة بأصابعه المرتجفة المصفرة من التبغ. يتحطم الباب... يسحب دخان السيجارة مرة ثم مرة. ويرسم الصليب ثلاث مرات متتابة. والآن يمحس السيجارة بقوة أكبر في المرة الثالثة. ويرميها في برميل البارود المفتوح.

انتشرت النار في مستودع البارود تحت الأرض. وتناثر كل الواقفين من روس وأديغة في الهواء. وسرى صدى الانفجار فوق سطح البحر، وامتدّ إلى الجبل...

...

قبل اليوم الذي استولى فيه الأديغة على قلعة ميخائيلوفيسك في الثاني والعشرين من أول شهور الربيع عام 1840، وبعده دمر الأديغة منعة لازاريف في 7 كانون الثاني، وفيليامينوف في التاسع والعشرين من الشهر نفسه، ونيكولايف في الثلاثين من آذار، وغيرها. وحرروا الجزء الأكبر من شرق البحر الأسود.

VIII

مع أن الشابسغ كانوا دمروا سلسلة القلاع الروسية على ساحل البحر الأسود فإن أوضاع الأبراخ كانت صعبة مع قلعة القفقاس البارزة إلى الداخل بقيادة الجنرال زاس. كانت الأرض الواقعة بين نخري بشزه ولابا تخرج شيئاً فشيئاً من سيطرة الأديغة. ظلوا يتراجعون خلال نصف السنة من الربيع والصيف حتى وجب عليهم التخلي عن الأرض ابتداء من أعالي بروجنوكول، بما فيها السهل الواقع على يمين وُراب. ولم يكن هذا يعني أن كل تلك الأرض وقعت بيد الجيش القيصري، حين لا يكون الروس بنوا فيها قلعة فالطرفان المتجاهاً يستفيدان منها ساحة مواجهة. ومثل هذه الأرض كانت أسهل احتلالاً من الجيش القيصري: حين يعبر الناس لابا لاجئين إلى الجبال يحرق الجيش الروسي

قراهم حتى يقطع عليهم طريق العودة إليها. ثم يقيم التحصينات العسكرية تبعاً للموقف الجديد.

هناك فرق كبير بين طريقة قتال الجيش الروسي المجهّز وطريقة الأديغة المفتقرين إلى مثل هذا الجيش. كان ينذر أن يجتمع مئة مقاتل في معركة واحدة عند الأديغة. يقسمون أنفسهم إلى مجموعات، كلٌّ منها من حوالي خمسين مقاتلاً. ويهاجمون في وقت واحد أماكن مختلفة. ويقطعون جيش العدو إلى مجموعات كي لا تستطيع تبادل النصر. ولكن زعماء الأبراخ يدركون أن مثل هذا الأسلوب لن يحمي أرض الأديغة. والأمر كله يؤول إلى فقدان الوحدة الأديغية.

لم يدّخر تسي حاترباي وبولتقوه شقلاً جهداً في هذا الشأن. دارا على جيرانهم المخوش وباغ والجمكوي الذين لم يقعوا بعد تحت الاحتلال، ووصولاً إلى الأباطة. ووصلوا إلى جيرانهم في الجنوب الشابسغ والناخوي. وأخبرا الجيران المحيطين بهم من جهة بُششَه أن مؤتمراً سينعقد للقسم على مجاهدة العدو. ولم يبق إلا انعقاده بعد غد في الحادي والعشرين من أيار عام 1841 في مضيق بُششَكه.

- بعد غد أيها الأمير، - قال حاترباي للواقف على يمينه، - إن أفلحنا في مؤتمر القسم فسنثأر لأخيكم جامبولات من الجنرال زاس الأحمر القبيح. فقدنا الرجل الممتاز في شرح شبابه.

- يا حسرتي. يا حاتر! - تنهّد بولتقوه، - ماذا بيدنا أن نغيّر في الأمر الآن بعدما جرى... لم أنس جامبولات ساعة واحدة منذ أكثر من سنة.

- لا أظن أن رجلاً مثله تغلب عليه الشجاعة والحكمة سيظهر بيننا قريباً!... لم يسلك معنا زاس الأحمر أي سلوك عادل. والله ليست هذه شجاعة من زاس. هل من البطولة أن تكمن لفارس وحيد فتقتله وتكلف الحصان بنقله؟ أمّا ما فعله جانبولات مع ابنة زاس فرجولة.

- لو كان بيدي لما سمحت لجامبولات أن يخطف ابنة زاس... ولكن ما العمل؟ الأكبر دائماً أكبر!

- لم يرتكب جامبولات خطأ يا أمير. - بدا من صوت تسي عدم رضا عما يسمع. - صحيح أنه اختطفها ولكنه قال: ليس الأديغة متمردين كما يخيّل إليك، فاحتفظ بها لم تحطّ ذبابةً عليها، ثم أعادها إليه.

- وما ردّ به زاس؟

- هذا شرفٌ زاس!.. ليس هذا إنساناً!.. أعلّق رؤوس الأديغة على أعمدة بستانه لو كان إنساناً؟! وليس هذا وحده بل يقال إنه يحتفظ برؤوس بعض الأديغة في الخمر ليرسلها إلى النمسا ويعرضها هناك¹. ليتّه وقع بأيدينا هذا العديم الإيمان!

صاح أحد الفلاحين الذين يتبعون الأمير حين سمع خبر رؤوس الأديغة:

- انظر ماذا يفعل زاس النمساوي البغيض!.. ثم نضع أملنا في مساعدة الإنجليز والفرنسيين والنمساويين في حين يتهاذون رؤوس الأديغة!

- وكيف تصل إلى من يعيش بحراسة جيش كامل؟! - قال بولتقوه كأنه لم يسمع كلمات الفلاح المعبرة عن حزنه. ورأى على طريق يرمّل حابله عدداً من الفرسان. - ما هذا الجمع من الفرسان؟ توقّف تسي وبولتقوه ومن معهما من الفرسان. وكما يفعلون في مثل هذه المواقف المفاجئة امتشقوا السلاح، ووقف قرابة عشرين فارساً أمام الكبار للتصدي للقادمين.

¹ يكتب ن. ي. لورير الذي شارك في حرب القفقاس... "حين عبّرت وأنا أكلم زاس عن عدم رضاي عن طريقته في الحرب أجابني: "هدف روسيا من الحرب هو احتلال القفقاس بأي وسيلة. كيف تنتصر على أعدائك إن لم تُرهبهم؟.. لا يجوز التحلي بأي شفقة أو رحمة في هذه المسألة. استطاع الجنرال يرمولوف عن طريق إحراق القرى، وإعدامهم دون رحمة، إنجاز انتصارات أكثر منّا" وانطلاقاً من فكرة الإرهاب هذه كنت ترى دائماً في بُروجنه أوكوب، حيث يقاتل الجنرال، رؤوس الشراكسة معلقة بالأعمدة، والهواء يعبث بلحاهم... وحدث مرة وأنا داخلٌ إلى مكتب الجنرال أن شممت رائحة لحم كريمة فضحك زاس، وأخرج من تحت السرير صندوقاً فيه كثير من الرؤوس البشرية. وكانت الرؤوس تنظر إليّ نظرات مرعبة". سألته: "ما حاجتك إليها؟" فأجابني: "أسلقها وأزيل اللحم عنها وأرسلها إلى أكثر من مخبر للتشريح، إلى أصدقائي الأساتذة في برلين". المؤلف.

قال تسي حين اقترب الفرسان النازلون من التبة:

- اطمئنوا، فرسان أديغة!

القادمون كانوا قرابة الخمسين فارساً. وبعضهم يحمل على حارك حصانه أسرى مقيدين. وبين الفرسان أنفسهم عدد من الجرحى. وعلى أحد الأحصنة عدل. رمى الفرسان دون أن يترجلوا أربعة من الأسرى أمام تسي وبولتقوه.

وطوال هذه المدة لم يتكلم أحد من طرف تسي وبولتقوه. وقال بغس المجروحة يده اليسرى بعدما خرج من الجمع:

- رافقتكم السلامة يا زعماءنا. اختارا بين الأسرى، كان من نصيبكم أن صادفتماهم!

- من أي جهة تعودون؟ - انتظر تسي الأمير، ولما لم يقل شيئاً سأل.

- كنّا في بروجنوكوكا.

- إذن كنتم عند زاس.

- هؤلاء جنود عند زاس... - توقف بغس قليلاً ثم توجه إلى بولتقوه: - إن كنت تريد الثأر للمرحوم جانبولات أيها الأمير فما هم الأسرى أمامك! بأيدينا أو بيديك كما تريد.

- ليفتح الله باب الخير للأمير جانبولات حيث رحل! ربما كان الله قدّر أن يقف أمام الله بهذه الطريقة... لا أستطيع أن أضيف إلى الذنب ذنباً خارج ساحة المعركة.

- كيف أسرتم هؤلاء يا بغس؟ - سأل حاتراي يريد حرف الحديث إلى موضوع آخر إشفافاً على الأمير.

- هؤلاء - مشيراً إليهم برأس السوط، - قاومونا بقوة، لم يدّخروا جهداً.

- وماذا استطاعوا أن يفعلوا؟

- كانوا عشرة فلما حاصرناهم قتلوا خيولهم وحاربونا بالبنادق من وراء جثث الخيل، فلما نفدت ذخيرتهم حاربونا بالسيوف حتى جرّدناهم منها.

- من بين هؤلاء ابتكر فكرة قتل الخيل والتمترس وراءها؟

- الضابط قائدهم.

- ليخرج الضابط من بين الأسرى!

- هذا قطعوه بالسيوف.
- هذا الضابط، كائناً من كان، تصرف بذكاء ورجولة. ورفاقه لم يعدموا الرجولة، ما رأيك يا أمير؟
- تمام، - وافقه بولتقوه، - التضحية بالحياة وأنت حيٌّ واع رجولة.
- فُكِّوا أيدي الأسرى. - أمر تسي، - إن وافقتني يا أمير، وأنتم أيها الفلاحون، سأطلق سراح أربعتهم جزاء شجاعتهم.
- الرجولة جزاؤها الرجولة، وفيها ثواب يا حاترباي، - وافق بولتقوه والفلاحون.
- اختفى الأسرى المطلق سراحهم لا يصدِّقون ما حدث، يلتفتون ويُسرِّعون. جعلت الرائحة الثقيلة بولتقوه يسرح بالنظر، وما في العدل جعله يتساءل:
- ماذا في الكيس؟
- نظر الواقفون جميعاً نحو مصدر الرائحة القوية.
- نأتي برؤوس الأديغة في هذا الكيس يا أمير... - قال بُعْس بطريقة تعبّر عن ألمه، ثم أدار رأسه.
- من أين؟
- انتزعناها من أعمدة زاس. - أجاب فلاح آخر بدلاً من بُعْس.
- هل تعرفون أصحابها؟ - سأل حاترباي.
- أحد الرؤوس الستة صاحبه من قريتنا دَخَابَاهُ. - أجاب بُعْس.
- إن كنتم لا تعرفون أصحاب الرؤوس الأخرى فتخلَّصوا منها. ادفنوها!
- ترجَّل بولتقوه وحاترباي من حصانيهما ففعل الآخرون مثلهما.
- في أرض جافة غير بعيدة عن الطريق حفروا خمسة قبور، فوقف حاترباي أمامها وقال:
- لم يستطع زاس إهانة هذه الرؤوس وإن عبث بها. دفعوا أرواحهم من أجل أرضهم. ليجدوا الخير حيث رحلوا. لن ينساكم الأديغة الذين ظلوا أمام جيش القيصر ما داموا أحياء.
- كان رئيس مؤتمر القَسَم في مضيق بُشْكَه هو بولتقوه شُئِلَتْ. ورغم قلة الحاضرين فقد جاء ممثلون من كل أعراق الأديغة باستثناء القبرتاي. وكل من

أراد الكلام تكلم في الساحة واستمع إليه الحضور. ولم يُطل أيُّ من المتكلمين حديثه. وكان همُّ الجميع كيفية حماية أرض الأديغة من العدو. وشاهدًا على بَرِّه بقسمه. ويمسّ كل متكلم الخنجر بفمه وينصرف.

وحين وصل الاجتماع إلى نهايته خرج تسي حاترباي من بين كبار المجتمعين، ودخل الساحة متمهلاً. وأمسك بعض الوقت بالخنجر مرفوعاً. ثم مسّ الخنجر الرقيق اللماع بشفتيه، وأغمده. ونظر نحو مبعوث شامل النائب مُحمَّد أمين، وقال بصوت حادّ:

- أيها الأديغة، دعونا نُسمِعكم بعض كلمات نصِّ القسم وأنتم تعرفون أنه الوقت المناسب له: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ! أقسم بالله، وأعلنه في حضرته، أن أحمي بلاد الأديغة من كل عدو.. وليجد كلُّ من ينقضه جزاءه في الدنيا والآخرة. البلاد التي أعطيتني إياها في الدنيا يا إلهي ستكون شرفي. يا إلهي امُدّني بالقوة من أجل بلادي. وأقبل قسمي. وكل الأديغة أصحاب هذا القسم لأن المندوبين نذروا أنفسهم له. آمين!"

انتظر تسي حتى تبددت أصوات المُقسِّمين في الوادي. ثم قال رافعاً بكل يدٍ ورقةً يعرضها على الناس الذين فرّجوا عن ضيقهم بالقسم:

- الآن أُطِيعكم على ما في هاتين الورقتين اللتين إحداها بالعربية والأخرى بالروسية: هاتان تشهدان على القسم الذي أقسمناه معاً. وما بلغة القرآن تمثّل أمام الله، ونرسل إلى الروس بلغتهم ما يشهد على أنه ليس في الورقة سر. وهذا ما في الورقتين بالأديغة: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الحمد لله الذي خلقنا وقبّم إنسانيتنا عالياً، وفضلنا على سائر مخلوقاته. الحمد لله الذي أعطانا كل آمالنا، ومنحنا الحياة في هذه الدنيا، وسيمنحنا جنته في الدار الآخرة. الحمد لله الذي أرسل إلينا النبي مُحمَّدًا رسولاً، واختار لنا السراط الصحيح لنحمي ديننا وأنفسنا. نريد أن نوحّد بلادنا، ولا نعتدي على أحد. وأول واجباتنا تطبيق تعاليم الشريعة دون انحراف. وعلينا إبعاد كل عِلِمٍ آخر. وندين كل شرٍّ حسب ما تقول الشريعة. ولا يجوز أن ينحاز أحد منا إلى الكفار: لا يجوز لأحد منا أن تكون له صداقات مع الكفار. ولذلك علينا استبعاد كل ما يصدر من جهتهم من دعوة إلى السلام أو غيرها. ولا يجوز شراء أي شيء من القلاع التي

أسسوها في بلادنا. وكل من يخالف يدفع ثلاثين قطعة نقدية تعزيراً¹. ولا يجوز لأحد إبلاغ الروس بأي مقررات لمؤتمراتنا. وعلى من يشي بأخبارنا عقوبة الموت. ولن نرحم من ينحاز إلى الروس ويعادي قومه، لا هو ولا أهله. وإذا عاد إلينا محارب فرد² ممن يحاربون الجيش القيصري استقبلناه بالترحيب وحميناه. وإن سلبوا أحداً شيئاً بالقوة أو بالخدعة غرّمنا الفاعل بما يغرم به السارق. ونعاهد كل مسلم من غير قومنا يأتينا لنصرتنا أن نستقبله بكل سرور. وعلى كل منا أن يحمل السلاح ويواجه العدو حين يهاجمنا. إما أن نكون رجالاً وإما أن نموت. آمين!"

- آمين! - كرر المجتمعون الكلمة الأخيرة لتسي بصوت رنان...

IX

أول من فهم أن نهاية الوضع بين الأديجة والروس وخيمة هو خانجري. ليس بعدما تحدّث إلى القيصر بل قبله. حين كان ينفذ مهمة القيصر في أرض الأديجة، وحين كان يعمل في الورقة التي سيضعها أمامه. والسنوات التالية قضاهها قلقاً على مصير أبناء قومه. وقضى أياماً عصيبة نادماً شاعراً بأنه يتحمل جزءاً من مسؤولية المأساة. وإلى الآن، وإن لم يُنح لأحدٍ بما في ذهنه، لا تجد الطمأنينة طريفاً إلى قلبه. حين تكلم إلى القيصر ولم يلبّ له رجاء عاد إلى مسقط رأسه لوستان حابله وأقام فيها يلوم نفسه ويواسيها. يذهب إلى إيكاترينودار حين يملّ من مضافات الأديجة. ويخالط معارفه من الضباط. ويستمتع إلى أخبار روسيا وإن لم يتدخل فيها. يجد طرقاً كثيرة لقتل الملل. حين يذهب إلى إيكاترينودار يلبس بزة الضابط، وهذا من أحد أفراده، فيعرف في نفسه أنه لم يسقط إلى الأبد من قائمة الضباط الذين خدم معهم سنين طويلة.

¹ كلمة التعزير بالعربية في الأصل، وهو عقوبة أخفّ من الحدود الشرعية المنصوص عليها كعقوبة رمي المحصنات الواردة في القرآن، والتي تبلغ ثمانين جلدة.

² هو من يسمّى في الأديجة: "حجّرت". وستردّ أخبار اثنين منهما، جباغ وتومن، في الرواية، ويبدو أن هؤلاء كانوا أيضاً قُطّاع طرق بالإضافة إلى قتالهم ضد المحتلّين.

وليس في هذا الموقف فحسب بل يمنحه هذا الزي قيمة إضافية في قريته، وفي من يخالطهم، وفي البجدوغ كلها.

من الصعب أن تعيش بقلبين وأنت لا تملك إلا واحداً. وليس هذا مثل زي الضابط أو زي الأديغة تلبسه وتخلعه متى شئت. ولكن ما العمل، فكما يقال "البيلسان يُزهر، وكلُّ يعود إلى أصله" يدخل في الموضوع تفكيره النغوي البعيد. ومع أنه لم يعد يجد من اللائق أن يلبس زي القرم الذي لبسه يوماً فإنَّ حملَه إياه في أعماق قلبه يثقل عليه. ويردد أحياناً في وحدته ألحان قومه الأصليين.

ومع ذلك، فكما يقال: ليس المهم من وَلَدك بل من ربّاك، فإن حياة الأديغة التي نشأ فيها فوق الجميع إلى قلبه. ولا يقبل أمام شرفه أن يقيس الأديغة بمن نسي لغتهم، وأن يقارن بينهما، بل أن يفكر بهذه الطريقة.

ورغم تعامل خانجري مع الأديغة بهذا الأسلوب ففي البجدوغ، بل في كل بلاد الأديغة من لا يثقون به. وأكثر هؤلاء أمراء ونبلاء. وانضم إلى هؤلاء الفلاحون في ذروة الحرب الروسية - الأديغة.

وليس خانجري جاهلاً سبب عدم ثقة الأديغة به وإن لم يصارحوه. ولم يكن هو يخفي هذا عن أحد. ولم يكن ممن يختفي خلف ظهور الناس ميرتاً نفسه. ومع أن القيصر الروسي كان أكّد عليه أن ينسى موضوع وحدة الأديغة فإنه لم يتناسها فحسب بل يتكلم بها صراحة في المضافات. وحين يسافر إلى إيكاترينودار لا يخفيها عن الناس المقربين منه. وأمس أوصل أكثر من شخص إلى بطرسبورغ ما يقوله في حق من كان ضابطاً في جيشه.

في أحد الأيام التقى خانجري والجنرال غزار في إيكاترينودار فجأة:

- يا عجيبي يا خانجري، "عاش من شافك!" - استقبل غزار خانجري بالعناق. - كيف حالك، لم نلتق منذ زمن بعيد.

- شكراً يا غزار على أنك تعرّفتني. - استقبل خانجري الجنرال ببرود مكظوم.

- والله يا خانجري أنت تهينني.

- لا أعرف... لأن في المدينة كثيراً ممن يُنكرونني.

- لا تعدّني بين هؤلاء يا خانجري، أنا لا أقيم في إيكاترينودار. أعيش في كيرش... لماذا نحن على الشارع، تعال، هذا هو الفندق الذي أقيم فيه. تفضّل! نجلس ونتكلم. والحق أني كنت أنوي زيارتك في بيتك.
- حسنٌ أنكم تذكّرتوني أخيراً.
- يا رجل، لا تقل مثل هذا يا خانجري! لم أنسك أنت، ولا الأمير سفري، ولا الأمير حجمقوه أسلان. كنت أمّي النفس بقدمي إلى لويستان حابله، إليكم؛ في حين تقول لي "حسنٌ أنكم تذكّرتوني"! هذا لا يجوز يا خانجري، لا يجوز!
- ماذا نفعل في الفندق إذن؟ تعال إلى البيت يا غزار. - أنست الكلمات الحلوة خانجري ضيق صدره. - سيفرح بك من في البيت ومن في القرية. النبلاء يأتون على سيرتك بالخير.
- والعامّة الفلاحون؟
- هؤلاء حالهم مختلفة. أنت وأنا محسوبان على الروس.
- والله لا عتب لي على الفلاحين يا خانجري... يغتابونا حين يرون رُتبنا الروسية دون أن يعرفوا ما في قلوبنا.
- أما أنا فمُنذ أكثر من ثلاث سنوات لم ألبس رتبة روسية.
- ما يرونه مرة يبق أمام عيونهم. لا تلم الفلاحين... لا أنت ولا أنا نسيء إليهم بإرادتنا. على ما تقول ليسوا راضين عنا... والله أنا بنفسني لاحظت هذا في عامّة الشابسغ أيضاً. ماذا بيدنا نحن، لسنا أكثر من منقّدي أوامر. وأنت لم توفّر جهداً ولكنك لم تستطع. نعم، أكيد يدينونا... تعال يا خانجري إلى الفندق. سأزورك، إن عشنا، في لويستان حابله زيارة صديق لصديق. ونقابل الفلاحين المستائين منا. ونُخبرهم بحقيقة مشاعرنا نحوهم.
- حين دخلا إلى الفندق لم يذهبا إلى المطعم، بل طلب غزار الطعام إلى غرفته:
- ما رأيك في أن نرفع كأساً من الخمر؟
- ألن يؤاخذنا الله إن فعلنا هذا يا غزار؟
- إلهي المسيحي يقبل بهذا.
- والله لا أعرف... - تأمّل الجوار، وأضاف بسرعة: - وسيكون هذا من جملة ما سيغفره الله لنا. هاتِ إن كان عندك!

- نعم يا خانجري!

- إذا كنا التقينا وليس هناك من يرانا فكيف لا نرفع كأساً... ويحدث إذا التقينا أنا والأمير أسلانج أن نتسلى بكأس صغيرة. حقاً ليس ما نشربه أقوى من الباخسمه. ارفع يا غزار، أنت الأكبر!

كان غزار مرتاحاً لموافقة خانجري على الشرب، وتشريفه بالنخب الأول، ومستغرباً الطريقة التي يعترف بها بما يقال في المدينة بخصوص زعامة البجدوغ. قال غزار في نفسه: يبدو أن ما يقال في هذين، حجمقوه وخانجري، صحيح. يلهوان أحياناً بالكأس. هذا كما يقول الأمير حجمقوه أسلانج ما يحرق لسان خانجري. أنظر إلى خانجري فأراه في شرح الشباب؛ ونحن فيم قصرنا في هذا العمر! البحر لم يُغرقنا، ورؤوس الرماح لم تقتلنا. ورصاص البنادق لم يعرف طريقه إلينا. أي مصيبة نجونا منها ثم وقعنا فيها ثانية؟.. وطريق جهنم نفسه ساره الأمير زانه سفري. وبالقياس إلى خانجري الجالس أمامي فقد تاه بين مفارق كثيرة. وها هو الآن محبوس في تركيا. ولا أقول إن طريق خانجري كان سهلاً. هل كانت المشاق التي عبرها سهلة؟! ولو لم يكن إلا قتاله ضد الثائرين في بولونيا! كان من حرس القيصر الروسي ولكنهم أزاحوه بسبب أهدافه القومية، متناسين كل ما قدّمه من خدمات. سرّحوه من الجيش وهم يلاطفونه ويربتون على كتفه وأعادوه إلى مسقط رأسه...

- ماذا أقول في شأن هذه الكأس يا خانجري؟ - قال غزار، - لئنعم الله علينا بالحياة وأحزاننا أقل وأفراحنا تزيد باستمرار، وليتحقق لنا كل ما نريد، ولنلتق كثيراً كلقاء اليوم، وليفرح أحدنا بالآخر!

- آمين يا ربي! - شرب خانجري قليلاً وأعاد القدح.

استغرب غزار ما يرى:

- ألم تُعجبك خطبتي يا خانجري فلم تُكمل الكأس!

- بلى، كلامك في النخب جميل يا غزار، ولكنك لم تعبر عما في قلبي.

- وهل هذه آخر كأس نرفعها؟ سنصل إلى ما في قلبك أيضاً.

- إذن سأستنفد هذه الكأس يا غزار، وأقول لك ما في قلبي. - أكمل الكأس،

وأبعدها من أمامه، وأضاف: - ليس ما في قلبي يا غزار هو وحدة الأديغة

فحسب، بل وحدة تقف في وجه القيصر الروسي. - ثم سأله خافضاً صوته، ولكن بنبرة أشد حزماً: - هل تفهم يا غزار؟ وحدة تواجه القيصر الروسي!

- لا تصرخ يا خانجري، سيسمعوننا.

- لا تخف يا غزار لا أحد غيرنا هنا يفهم لغة الأديغة. لا أكنتم يا غزار أي نادم على مساهمتي في مأساة الأديغة في بدايتها، بداية الكارثة الأديغية. أتيت بالقيصر الروسي إلى بلادي حيث رُبيْتُ، إلى إقليم الأديغة، خادماً إياه، معتقداً أنه سيفهمني بدلاً من أن أجمع الأديغة حولي وأتقدمهم. لا تصدّق يا غزار أن تركيا باعت الأديغة إلى الروس لأنهم أعداؤها.

- منذ زمن بعيد لا أصدّق هذه الحجة.

- ماذا إذن يا غزار؟

- ماذا يقول الأديغة: إن كنت قليل العدد فأنت ضعيف.

- هل تسوّغ قلّتنا أن تفعل بنا الدولتان المتعاديتان ما تريدان؟! يبدو أننا في عالم يتطلع فيه الكثير القليل.

- أنت في هذا قريب من الحقيقة يا خانجري.

- الأديغة استعرضوا أمام القيصر على ساحل البحر الأسود قوتهم رغم قلتهم. أنت تعرف دون حاجة إلى أن أقول لك إن الأديغة لا يسمحون لك أن تمسّ كرامتهم.

- أعرف يا خانجري.

- إن كنت تعرف فما نوايا القيصر؟

- هذا طموحه كبير. ماذا كان الأمير سفربي قال؟ روسيا الكبيرة تمدّ رجليها فتتعرّج بأرومات الأديغة... هيا يا خانجري ارفع الكأس وقل شيئاً يُفرحنا!

- لن نسمح يا غزار للخمر أن تغيّر ما في قلوبنا. - أراح خانجري الكأس من أمامه، - نتكاشف بما في قلوبنا وعقلنا صاح. معرفتنا ببعضنا ليست اليوم ولا البارحة.

- شكراً يا خانجري على ثقّتك بي، - أبعث غزار الكأس أيضاً، - قلت ما في قلوبنا، ولذا لن أخفي عنك. أنا واثق أن حديثنا يبقى بيننا.

- ثِقْ بي!

- أفهم هذا يا خانجري. - أردف غزار، - أفهم أن أموراً كثيرة كانت في ذهنك لم تتحقق. إن أردت الصراحة أنا أيضاً لم أتوقع ما حدث. كنا نظن حين أرسلك القيصر إلى إقليم الأديغة أنه سيدعك تكمل المهمة التي كلفك بها ثم يُنصّبك أميراً عليه. ولكننا أخطأنا أنت ونحن. كانت نظرة القيصر أبعد من نظرنا. ولكن تبينتم أنتم الأديغة عما لم يتوقعه.

- يمكن أن تصف الأديغة الذين لا دولة ولا وحدة عندهم بما تريد؛ أليس كذلك؟ - سأل خانجري مدركاً أصل الحديث.

- نعم يا خانجري. وجد القيصر هذين العيين نقطة ضعف فيكم. وغير نيته نحوك بسرعة.

- لهذا السبب أقول إني تسببت في ابتداء مأساة الأديغة. وهم يفهمون هذا فلا يسامحوني وإن لم يصارحوني في وجهي... - مدّ خانجري يده إلى الكأس: بالله عليك أن تتخلص من هاتين الكأسين!

- كفى يا خانجري. ألم نتفق على الحديث دون أن نفقد عقلينا؟ وعلى قول الشابسغ: لا تستعجل! لا تظنّ أنك وحدك المهتم بقضية الأديغة. كان في هذه المنطقة عدد من الضباط الروس يتحقّقون في زي المثقفين يدعون أنهم يتعلمون اللغة الأديغية، ويكتبون عن نمط الحياة عند الأديغة. ولا فائدة الآن من الحديث في هذا الموضوع. وبعدك حاول الأمير زانه سفري معالجة الوحدة الأديغية، وحاول تأسيس دولة واحدة. وانظر ما جرى له!..

- لا يزال سفري رغم حبسه في تركيا يتابع قضية الأديغة. ولا يشعر بالحرج من كون ابنه قرباتر في الجيش الروسي... أنا راضٍ عن سفري من هذه الناحية. يتمتع بالرجولة، بل ما قيمتي أنا بالقياس إليه؟!

- أوافقك على أن سفري رجل شجاع. ولكنك أنت أيضاً لست محروماً من الشجاعة يا خانجري. تذكّر الحرب التي حُضتها في بولونيا!

- حدث هذا في زمان ما... - زفر خانجري، - ثم إنك لن تستطيع مقارعة رجولة سفري وروحه الأديغية.

- أنت تعرف زانه سفري، هو صديق قريب جداً لي. ولكني أخاف أن يضع بين روسيا وتركيا... ليس هذا ما كنتُ أريد أن أقوله لك يا خانجري. ولهذا

كنتُ أنوي أن أعرج عليك. أخاف من كلامك البالغ الصراحة في حق القيصر.

- ألم تنفق على ألا يخرج هذا الكلام إلى غيرنا؟
- لا أقول هذا في شأن حديثنا اليوم فحسب. لن يقبل القيصر إذا سمع. يتكلمون بشأنك. إن أردت نصيحتي فالجُم لسانك واصبر! أنا ربّاني الأديعة وأنشؤوني فإن لم أتألم لأجلهم فمن يتألم؟! ومع ذلك أقول لك يا خانجري إن قضية الأديعة ميؤوس منها. تقرّر القضية بين دولتين. لا يقفوا عبثاً في وجه الروس!.. هذا ما يجب أن تتابعه. مقارعة القيصر وركل الجبل بقدمك سيّان. لا تسمح لنفسك بالخطأ. لا تأت على دِكر من كنت تحمل ربتهم، دعك من القيصر، بسوء. ستجلب المصيبة على نفسك.

- والله يا غزار لو استطعت، - نخض خانجري عن المائدة، - ما كنتُ سمحت لك أن تقول اليوم ما قلته. أين أترك الأديعة وأذهب بشخصي؟.. لا تؤاخذني، أنا على طريق. عليّ أن أعود إلى القرية...

- أسأتُ إليك يا خانجري؟ ما أشدّ استعجالك! لم يفهم غزار سبب انصراف خانجري المفاجئ. ولكنه رغم ذلك لم يحاول تأخيرهِ.
- لا يا غزار، لا. حياك الله، لم تقل لي ما يزعجني. سأفكر.

X

مع أن خانجري لم يعجبه ما قال له غزار فقد بدأ هو نفسه يَحْمَن هذه الأمور ويصطدم بها بشخصه. يبدأ أصدقاؤه من الضباط المقيمين في إيكاترينودار يتجنبونه خلافاً لموقفهم منه في السنوات الماضية. يبدو له من ناحية أنه يفهم، ومن الناحية الأخرى أنه لا يفهم. السبب في ما يحدث لخانجري هو كلماته اللامسؤولة ولكن ما العيب في ما يقول أمير البجدوغ؟ أعجيبُ إن دعا إلى وحدة الأديعة ودولة لهم وزعيم واحد؟ كل إقليم الأديعة يتحدثون في هذا الموضوع، ويسفكون لأجله الدم. ولا يكتمون الأمر عن أحد. وربما ليس للمرة الأولى يسمع القيصر به.

قال خانجري يوماً في طريق عودته من إيكاترينودار: إن وصلتم إلى هنا فمن يهتم بكم. كان في الأرض آل سلطان قبل أن تكونوا، وكان على الأرض

الأديغة الذين صاروا وإياهم من عرق واحد، وأنجبوا وربّوا وأنشؤوا، وعاشوا محترمين شرفهم، حامين جدّهم وهزّهم. لسنا من هاجمكم بل أنتم. لا يكفيكم الشرق والغرب والشمال والجنوب. تَفْنَى الأَقْوامُ الكبيرة والصغيرة تحت سيف قيصركم. لا أتكلّم على ما لم أَره بعيني ولا أفهمه. صرْتُ غريباً عنكم لأنّي لا أوافق على رأيكم فتجنّبوني. لا أكتم أن القيصر دفعني إلى ما فعلتُ في موضوع الأديغة. واليوم بإذن الله أنا في موقف أبيض فيه وجهي أمامهم. وسأرفع هذه القضايا في وجه القيصر إن عشتُ متمتعاً بعقلي. ولن أدعه يطوّعهم كما طوّعني!.. سأدفع الأديغة إلى عدائه إلى آخر رجل منهم!..

لم تكن هذه الكلمات مجرد آراء خفية في صدر خانجري. بل ألقاها على مجموعة الضباط الروس دون أن يُسقط منها كلمة بل على نحو أشدّ صراحة، وها هو الآن يخرج من إيكاترينودار عائداً إلى لوستان حابله.

كان ظهر الخريف لطيفاً ولكن الأفكار تتصارع في صدر خانجري. لا يندم على ما قال للضباط الروسي الذي سخر من الأديغة. ما قاله لهم قليل، بل كان يجب أن يُفرغ مسدسه في رؤوسهم! وإن تجاوزوا هذا الحد فما يزال هذا السلاح ينتظرهم. ماذا يمكن أن تفهموا أنتم من حياة الأديغة؟ لم تخالطوهم، ولم تعيشوا معهم. لا تعرفون طريقة ضحكهم ولا غنائهم ولا أعراسهم ولا مآتمهم ولا إنسانيتهم. حين قال لكم قيصركم: كلُّ من ليس من دينكم مسلمون فاضربوهم واغتصبوا منهم أرضهم غشّى الدم أعينكم. لم أر على الأرض من هم أشدّ براءة ولا كرمًا ممن تسموهم الأديغة المتمردين، ولكنكم لا تعرفون. صحيح أنهم لا يؤلفون دولة مستقلة ولكنهم لا يتنازلون عن إنسانيتهم. يعيشون على شرعتهم التي جمّعوها طوال آلاف السنين، وكل من يراهم يتعجب منهم. ومع أنه لا كتابة محددة لهم فهم يربّون أولادهم على علاقات اجتماعية مختارة هي أساس حياتهم. يحترمون نساءهم، ويُعزّون مسنينهم، ويشتمون شبابهم. انضم إليهم كثيرون بما يتناسب مع أرضهم الخيرة وخرج كثيرون. لم يطمعوا في أرض غيرهم ولكنهم شهروا سلاحهم في وجه من شهر عليهم. حكاياتهم ومراثيهم وتاريخهم وأغانيتهم الكثيرة شاهدة لهم. ولما كنت أجمع كل هذا فحين أطبع بالروسية كتاباً وتطلّعون عليه ستجدون أنفسكم في موقف تندمون فيه

على أوصافكم لهم إن كان بقي فيكم شيء من الإنسانية. من أين أتى هذا الزي الذي اتخذهُ القوزاق الذين كَسُوا قبعاتهم بقماش أحمر، بل كل من سكن القفقاس؟ كلها سليله الزي الأديغي! والسيف؟ والسرچ؟ خرجا من أيدي الأديغة. ثم يتخذون منا مادة للسخرية كأنه لا يكفي أنهم غزوا أرضنا. وهؤلاء الأديغة يعتبرون عليّ بسببكم أنتم فحسب.

يقول خانجري إن الأديغة يعتبرون عليه ولكن أحداً لم يلتق به فيصارحه بسبب عتبته عليه. خانجري الذي حبس نفسه في قريته ليس كالأمراء. يجب أن يختلط بالناس في ذروة لقاءاتهم، ويستمتع إليهم أكثر مما يتحدثهم دون اعتبار لكونه أميراً، ودون أن يتحفظ في سلوكه وكلامه. ليس في البجدوغ قرية منسية لم يدخلها خانجري في فرح أو حزن. متى أرسلوا إليه قاتلين "عندنا مناسبة فرح، ونود أن تشاركنا كان خانجري من أوائل الأمراء الذين يسرعون إلى المناسبة. ويسمع خانجري في المضافات في مثل هذه المناسبات وفي مناسبات الحزن أيضاً الحكايات المتناقلة شفهيّاً والتواريخ والأقوال المأثورة والقصص والمراثي. ولا يكتفي بحفظها عن ظهر قلب بل يسجّلها، وسط استغراب الناس، بالأبجديتين العربية والروسية. وبالإضافة إلى ما سبق يزور المسنين ذوي التجارب والمخزونات الكثيرة. يلتقط أي قول حكيم يسمعه ليستفيد منه في الكتاب.

نعم، نعم، يقول خانجري: أنا لا أثق بنفسي فمن أين يعرف الأديغة المهمة التي كلفني القيصر بها؟ لم أصارح أي إنسان بما فعلت. ولم يكشف أحد في روسيا طبيعة المهمة لا شفاهاً ولا كتابة. من يعرف بأمرها اثنان أو ثلاثة. ومن عملوا معي في إقليم الأديغة لم يعرفوها. أعتب على الأديغة عبثاً وأنا أعرف ذنبي. الحق لا أرى فيهم أي شيء يعيبهم. وجوههم طليقة في وجهي، وأبواب بيوتهم مفتوحة لي؛ فماذا يقدمون لي أكثر من هذا؟ وأنا مقصّر بحقهم فما كنت أستطيع أن أخدمهم به أكثر مما يمكنهم أن يخدموني. كان عليّ أن أجمع أكثر مما جمعتُ من الحكايات القديمة والأقوال المأثورة والتواريخ حين كنت أدور في أرض الأديغة حاملاً سرّ القيصر. ليس بالسيف المُشهر وحده تعيش الأقوام. بل بطريقة تفكيرهم، وشرفهم، وأولادهم، وعلاقاتهم في ما بينهم، وحكاياتهم، وتاريخهم، وشرعتهم...

ينهر خانجري نفسه بنفسه. ولا يُطيقها. وحين تنتصب أمامه صور ضباط إيكاترينودار الذين لم يجد عندهم من العقل ما يمكن التفاهم به معهم تصيبه الحمى.

أعجب ما لاقيت، يتذكر خانجري ما كان نسيه، هو نيكراس رفعت الذي كان ينظر من خلف ظهور الضباط ويهز رأسه موافقاً إياهم. كيف حدث أن انضم هذا إلى الجيش القيصري؟ ليس أميراً ولا نبياً ولا روسياً كما يقال!.. حقاً، ساعده نسبُه الروسي. أبوه نيكراس تيم جعل من نفسه أديغياً فلا يسمح لأحد بالكلام في محافل الأديغة فكيف سمح لابنه أن يفعل هذا؟! ثم ثقْ بهؤلاء! ألبسهم قُبعتك وزيتك، واسمح لهم أن يقيموا في قريتك وفي بلادك. ثم يأتون ويركبون رأسك!..

كل ما قاله خانجري بشأن آل نيكراس عاد فاتهم به نفسه. أوقف الحصان ووجه. ثم نظر إلى ما وراء ضفة نهر بشره محاولاً أن ينسى ما خطر على ذهنه.

إن نظرت من الضفة العالية التي أقيمت عليها مدينة إيكاترينودار رأيت إقليم البجدوغ كأنه بين راحتيك. وتبدو جبال الأبراخ من بعيد. وإن نظرت إلى مرعى "نجد" الذي جرت فيه حرب بزيقوه رأيت أرض الشابسغ والناخووي على هيئة جبال وغابات تبتعد نحو البحر. والوبيخ على شاطئ الأبخاز غير المرئي. وعلى يمين البحر الأسود القرم، وعلى اليسار تمتد تركيا. إقليم الأديغة بين العدوين الأذليين روسيا وتركيا...

عصر الألم قلب خانجري: كيف إذن يسمحون لك، وأنت بلا دولة، بالاحتفاظ بمثل هذه الأرض؟! كان عليهم أن يبحثوا عن الوحدة من زمن بعيد، وليس الآن!..

وجّه خانجري حصانه إلى قرية "سَلْتَك" حيث يقيم حجمقوه أسلانبيج بدلاً من العودة إلى قريته لوستان حابله.

رفع أسلانبيج رأسه حالماً سمع وقع حوافر الحصان. وتعرّف على خانجري، واستقبله بالترحيب:

- يا عجي يا خانجري! تفضّل. صحيح ما يُقال إن من تأتي على ذكره تجده على الباب. كنت على بالي قبل لحظات. - حاول الضيف أن يقول شيئاً ولكن المضيف لم يدعه كأنه عرف نيته، - لا تقل يا خانجري، لا تقل! كنت أفكر فيك بالخير، لا بالشر.

- حياك الله يا أسلانج، حياك الله يا أمير. لم يبق في أرض البجدوغ من يُضمّر لي الخير غيرك... لا أظن أنه بقي قوزاق في البلدة الصغيرة الواقعة على التبة فيوجهوا إليهم كرههم!.

- بحقك لا تقل هذا يا خانجري!.. - لم يقبل أسلانج المتهلل الوجه كلام الضيف، - لا نسمع إلا سيرتك في البجدوغ وفي غيرها. يردد الأمراء والنبلاء والفلاحون، ومتنفذوهم أن خانجري زارهم. لا أعرف ماذا فعلت بهم حتى سحرتهم، كلهم راضون عنك. لا أعرف إن كنت وحدك يا أمير. أين رفاقك الحراس؟

- وماذا أفعل بالحراس؟

- وكيف تسلك طريقاً دون رفاق في هذا العالم المضطرب يا أمير؟
- أنا عائد من البلدة الصغيرة المتربة التي تحمل اسم القيصرة. - بدا على خانجري احتقاره، ليس في كلماته فحسب بل في لونه أيضاً.
- كفك يا خانجري؛ اترك سيرة البلدة القائمة على التل، ولا تدخلها كثيراً، ولا تتخذ من سكانها محادثين، ولا تسمح لهم أن يحدثوك.
- ما أسرع ما أوصلوا إليك ما قلت اليوم قبل أن أتخطى نهر بشزه يا أسلانج!
- لا أعرف ماذا قلت اليوم في إيكاترينودار يا خانجري. على أنه وصلني ما قلت فيها قبل. والحق أنهم لا يذكرونك بالخير هناك.

- ما أشد ما أهتم بهم!

- لا تقل هذا، وغزار إن كنت تتذكر قال لك الكلام نفسه في العام الماضي. وأنا أقول لك. لا تأت كثيراً على ذكر القيصر الروسي. القيصر شيرير، يمكن أن يؤذيك!

- لن أقول لهم في ما تبقى من عمري مثل ما قلت اليوم... أطلق علينا، نحن الأديغة، مجموعة من القوزاق الثرائين يقولون عنا ما يأتي على ألسنتهم!.. كفى

ما وقفْتُ أمامه في استعداد. لم نعد أحراراً في أن نتكلم حيث وُلدنا ونشأنا...
دعنا من هذا يا أسلانج، ليس القيصر مشكلة. كيف حالكم؟ أستم في
صحة جيدة؟ لا يُقلقني القيصر، ولا أهتم للقوزاق أصحاب القبعات الحمراء،
ليس في الدنيا ما يشغلني إلا مصيبة الأديغة. عرّجتُ إليك لأراك ونتحدث.
- حياك الله يا خانجري. سررتني كثيراً إذ خطرنا لك. كل من تسأل عنهم بخير.
لتعش حياتك كلها لا يصيبك إلا الخير! تعال اجلس هنا في الظلّ، واسترخ!
هل تسمعون، - نادى أسلانج إلى البيت، - هاتوا الغداء إلى ظل الشجرة.
الجو اليوم لطيف. والطبيعة جميلة. لتتناسّ الظلم ولنفتح قلوبنا للخير! ستروي
لنا شيئاً من التاريخ الذي ألفته، ونحن نُسمِعك أغنية جديدة... لستُ المقصود
بالأغنية يا خانجري، بل إلى أمير آخر...

...

فيما قرباتر عائد من إيكاترينودار في يوم متأخر من الخريف، على مفرق
الناخوي - الشابسغ، صادفه خمسة من الفرسان الفلاحين. حياً كبيرهم
الأمير:

- رافقتك السلامة يا أمير!
- شكراً، وأنتم على طريق الخير إن شاء الله. - ردّ قرباتر تحيتهم. وسأل عن
المكان الذي يقدمون منه وإليه.
- نأتي من البجدوغ يا أمير. ونريد أن ندخل في عمق غابة الناخوي.
- ما الأخبار في البجدوغ إن شاء الله؟
- البجدوغ في سلام يا أمير. لولا بعض الحزن.
- وماذا جرى فيها؟
- توفي خانجري يا أمير.
- أما رأيثُ الأمير خانجري قبل وقت ليس بعيد؟! - ما سمعه قرباتر جعله
ينتفض برأسه. وعصرَ الخبزُ الحزين المفاجئ قلبه: - وماذا كان السبب في
وفاته؟
- لم يعرفوا مرضه يا أمير.

- وهل هذا ممكن؟ كان خانجري في شرح الشباب... لم يتجاوز الأربعين إلا قبل قليل.
- نعم يا أمير، لم يعيش طويلاً... مات خانجري في البلدة الروسية التي على التبة.
- هل مات في المشفى الروسي؟
- لا يا أمير.
- أين إذن؟
- تعددت الروايات في مِيتة خانجري. بعضهم يقول من جلطة، وبعضهم مات مسموماً...

...

توجه قرباتر إلى لوستان حابله للتعزية دون أن يعود إلى البيت. عزى قرباتر أسرة خانجري، ثم دخل إلى مقبرة الأسرة وراء البيت. واقترب من الشاهدة الحجرية على التراب المكوّم، وقرأ الكتابة المحفورة بالعربية على الحجر: سلطان خانجري. توفي عام 1842.

الكتاب الرابع

I

ارتحل سفري بقلبه إلى إقليم الأديغة رغم تأخّر وصول خبر الانتصار الذي أحرزه الأديغة على الساحل، مقررّاً وضع حدٍّ لإقامته في تركيا. وساهم في القرار تواتر مقابلاته مع القنصل الروسي في إستانبول، وتلميح الأخير عرضاً في سياق الكلام إلى موضوع عودته. وزاد سيبيرياكوف غزار رسائله إليه مؤدياً واجب الصديق.

تردّ إلى الذهن خواطر كثيرة. وما يمر أمام العينين كثيرٌ أيضاً. السنوات تمرّ وهو بعيد عن الوطن. وأسرته مشتتة. قال في نفسه: أبقى إلى الأبد أسيراً في تركيا لأنني أخدم الأديغة بقدر طاقتي؟! الأديغة يسفحون دمهم هناك في ساحة المعركة. وأنا هنا في تركيا أشرب الشاي... يلمّح لي موفدو القيصر الروسي إلى إمكان إعادتي إن توسلت إليه لأقيم في بلدة مثل كيرش أو بزاه مز. يا لفرحكم! ترموني في كيرش، البلدة القذرة التي نسيها الله، أسمع إن أنصتُ طلقات المدافع التي تقتلون بها الأديغة، وإن نظرتُ لا أعرف ماذا يحدث في إقليمهم؟! يجب أن أفعل شيئاً أكسبُ به ثقة الروس، ويفهم من خلاله الأديغة سلوكي كي لا أقعد هكذا مكتوف اليدين. وبهذا لا أدعهم يهملون قرباتر الذي يخدم في جيشهم. وما هذا الذي يجب أن أفعله؟ إن كتبت إلى الأديغة فماذا ستفيد كتابتي؟ إن بدؤوا يقرؤون على الأديغة كتاباتي في الاجتماعات فسيصل الكلام إلى الروس طبعاً، ولذا سأكتب بضع كلمات موجهة إليهم أيضاً لا تجرح الأديغة، وفي الوقت نفسه تضبط سلوك الروس. وسأفهم من يوصل الرسالة ثقّي به حتى يلمّح لمن أرسلها إليهم سبب هذا التصرف مني. وأعرف رجلاً ممتازاً جديراً بالثقة: حُستانقوه حُجج الذي سيعود قريباً إلى الوطن.

انتهى سفري بعد الظهر من الكتابة.

وأوصل حُستانقوه حُجج في خريف عام 1844 ما كتبه زانه سفري إلى الشابسغ. ويشرع منظّمو المؤتمرات في قراءة رسالته. وهذا مضمون الرسالة: "أيها الأمراء والنبلاء ورجال الدين وكل أبناء الشابسغ الأحرار. أتوجه إليكم

بناءً على الإذن العالي الذي منحني إياه الله سبحانه وتعالى الذي خلقي وأنشأني بعدما توسلت إليه من أعماق قلبي، أوجه إليكم كلامي بعد أدعية كثيرة إلى الله معبراً لكم عن رغبتني في أن ينظر الله إليكم بعين العطف وتحققوا منجزات كثيرة.

كما تعرفون فقد هجرت مسقط رأسي وجئت إلى تركيا من أجل أن أنفذ المهمة التي أوكلها إليّ المؤتمر.

استقبلني السلطان المرحوم محمود خان، فتح الله له باب الجنة، بوجه طلق جداً وبترحيب زائد. وقد رويت له شكوانا من حكومة روسيا، واحتلالها أرضنا رغماً عنا، وهدفها في استعبادنا وتلطيط شرفنا. وأفهمته ترحيبنا بتقديم مساعدة لنا إذ نحن من دين واحد، ويحبون لنا الخير. وهذا ما أجابني به على رجائي: "ليس بيدي أن أقدم لكم أي مساعدة بسبب التزامنا بتنفيذ اتفاق السلام مع روسيا، والسبب هو أن كامل الأرض التي تعيشون عليها من قلعة أنابه إلى أرباشاي صارت ملكاً لدولة روسيا حسب نصّ الاتفاقية. وبغضّ النظر عن هذا فإن ترجائي قيصر روسيا مساعدته للوقوف في وجهكم فسيكون لزاماً عليّ أن أرسل الجيوش لمساعدته نظراً إلى التحالف القائم بين الدولتين. وما أستطيع أن أقوله لك شخصياً هو عدم إمكان مساعدتك موقعاً للضرر بروسيا، وعدم امتلاكي حرية التصرف في هذا الموضوع"

وكنْتُ كلمت المسؤولين الحكوميين الأتراك من أجل أن أعرف إمكان تقديم الحكومة التركية المساعدة لنا دون أن تكون للسلطان علاقة، ولكنهم لم يكونوا يريدون الاستماع إليّ، وكلهم يرددون الجواب نفسه: على تركيا التقيد حرفياً بتنفيذ ما ورد في اتفاقية السلام مع روسيا.

تمضي السنوات وأنا بعيد عن وطني العالي وأسرتي الحبيبة، أعيش وحيداً: كنت قادراً على تلبية مطالب حياتنا كلها. وصدّقوني أيّ كل يوم، وكل ساعة أنتظر تحولاً في العلاقة بين السلطانين، ومن الواضح أن علاقاتنا كانت ستغير وقتها. أتوسل إليكم ألا تسمحوا للروس أن يخدعوكم. وبالمقابل لا تسمحوا لأي تصرفات من جانبكم تهيّجهم علينا، وأن تعيشوا معهم بسلام. واهتموا بتجميع كل طاقاتكم وآمالكم، وتفاءلوا بتغير الأوضاع، وانتظروا ما سأرسل إليكم

أيضاً. وما أتمناه منكم هو أن تُطلِعوا الجميع من أمراء وعامة، ومن كبار وشباب، على ما أقول لكم. ولْيَفْكَروا جميعُهم في هذه الموضوعات. رجاء آخرُ إليكم: لا تهيجوا الروس. ولا تستفزّوهم، وهم لن يبادروا إلى التحرش بكم. وحينها ستوقفون سيل الدماء بينكم. قبل وقت قريب ذهب موفدو تركيا إلى القيصر. ولم يُعْذِ هؤلاء بعدُ. وأنا في انتظارهم إذ ربما يعودون بخبر مهم لنا. فإن تيسّرت الأمور هكذا كتبتُ لكم دون تأخير.

أظن أنكم فهمتم كل ما كتبت لكم، ولذا تفهّموا أنتم استحالة عودتي الآن، فبالإضافة إلى سفن الحراسة الروسية التي يمكن أن تعترض طريقي، أسست نقاط حراسة في إقليم الأديجة، كما تحرس الساحل بعناية. ويستحيل على أي شخص الوصول إليكم دون إذن منها. التوقيع: سفري أحد أبناء أمة الله"

تناقل الناس في الشابسغ رسالة سفري عن طريق الضابطة التي أذاعتها في المؤتمرات والاجتماعات. ووصلت نُسخُ منها إلى الناتخوي والأبزاخ والبجدوغ والجمكوي والوييخ. وكان مؤيدو سفري كثيرين، ومعارضوه ليسوا قليلين. وكلُّ يتفكر في الرسالة من وجهة نظره. وقيّمها حسب فهمه لها. رجال الدين ليسوا راضين عنها. وعامة الفلاحين ليسوا في عجلة من أمرهم على الجواب المختصر للرسالة. يتجادلون في المضافات، ويتناحرون في أماكن وقوفهم لصق أسوار الحظائر. ويتبادل الأمراء والنبلاء والمتنفذون النظرات على أمل أن يُدلي غيره برأيه أولاً. ويتبادلون أيضاً أحاديث مرائية منمّقة. يشفقون ظاهراً على سفري، وينقمون عليه في سرائرهم.

وليست العلاقة بين سفري وسيبيرياكوف غزار صريحة رغم تبادل الرسائل بينهما إذ أن كلاهما مهموم بما يحقق مصلحته. ولا يغفل القيصر الروسي ساعة عن أقوال غزار وأفعاله. وكانت رقابة القيصر هذه تمنعه من تلبية أي طلب لسفري، ولا سيما اختيار مكان إقامته. وكما يقول سفري فمهما أخفوا ارتياحهم في مندوب الأديجة ظهر هذا الشك في كتاباتهم. ولم تكن كتابات

سفرني تخلو من آرائه الخاصة السرية ولو بدأها بتعبيرات صريحة. وكان مصدرها مواقف تركيا وإنجلترا وفرنسا من روسيا في السنوات القليلة الأخيرة. وخشية ما كان سيستخلصه الروس من رسائل سفرني لو وقعت بأيديهم فقد كان يرسلها شفهيًا إلى قرباتر عبر أشخاص موثوق بهم. وكانت أخبار قرباتر الحربية منتشرة شفهيًا بين الأديغة وأصحابه الروس بروايات مختلفة. كان أمام قرباتر كثيرٌ مما يستدعي التفكير.

لم يكن يتحمل أحاديث الضباط الروس الذين كانوا يفتخرون بإحراق فيليامينوف قرى الأديغة في مضيق قُمباي بناء على تعليمات القيصر الذي زار ساحل البحر قبل سنوات، وبانتصارات حربية أخرى. وتبدأ أسئلة من قبيل: كيف تعيش بين أناس يعدّون المأساة مدعاة للضحك، وأسئلة أخرى، تتزايد في ذهنه.

عاش قرباتر بين النارين رغم صعوبة الموقف. ورغم أنه كان يستطيع أن ينقلب من الجانب الأشد إحراقاً إلى الجانب الآخر فقد كان قلبه مائلاً إلى مأساة الأديغة الذين ينتمي إليهم. ولم يكن قرباتر وحده في هذا الموقف بل زوجته أيضاً.

في أحد الأيام بعدما حلّ غزار ضيفاً عليهما، سألت زوجها:

- العالم يحترق، ونحن نعيش بين الموجيك مكتوفي الأيدي...

- ما الذي يدفعك إلى هذا الكلام يا ماريا؟ - سأل قرباتر زوجته مستغرباً

سؤالها المفاجئ، وأجابها: - أعيش على أرضي وتحت سمائي...

- أتقصد أننا نواجه غزار بوجه طلق، وندير ظهورنا للجبال؟ - لم تدع ماريا زوجها يُكمل كلامه. ورمته بنظرة باردة على غير عادتھا.

- أتكونين تعبتين على غزار؟

- نعم يا قرباتر لأن سلوكه لا يعجبني!.. كان الأفضل أن يقلق لمصير الأديغة

كلهم من أن يقلق لمصير أسرنا!..

- ألسنا متفقين كلانا إذن؟

- نعم لأننا مهمومان بالموضوع ذاته... - نظرت ماريا الآن إلى الزوج نظرة أكثر دفئاً. وأضافت: - والدك مأسور هناك في تركيا، ونحن هنا يحرسنا الموحيك كوزلوف الذي يتنصت علينا!..

لا تُفارق آراء ماريا في قضية الأديجة ذهن قرباتر رغم مُضي نصف سنة على هذا الحوار بينهما. وكلما تمّ تقريباً هي نفسها التي أرسلها إليه والده من تركيا قبل وقت قصير. وأكثر ما أسعد قرباتر، وإن كان سراً، هو نية والده العودة إلى الوطن؛ مَنْ غيري سيكون الساعد الأمين لوالدنا متى عاد؟!

فهم قرباتر اليوم أنه لا يجوز له الانتظار أكثر مما فعل. سيعود إلى أبناء قومه ويدير شؤونهم قبل أن يعود والده.

يستطيع قرباتر من هذه اللحظة أن يقرر وينطلق إلى الجبل، ولكن ماذا سيكون مصير أملاك الأسرة؟ والمواشي في دارة الأمير؟ هذه إن سقتها على طريق، مهما كانت نواياك خيراً، فالجيش القيصري المحاصر للإقليم سيشكّ في أمره. خطر له أن يستأذن رئيسه الجنرال ديبو مسؤول قلعة ساحل البحر الأسود في أن يرسل زوجته إلى أهلها في قرية دخاباه مع قطع من الماشية على عادة الأديجة.

بعدما حمل قرباتر طلبه الذي كتبه بنفسه إلى الجنرال ظل مشغولاً طوال عشرة أيام بعودته سراً إلى قومه الأديجة. وجهاز هو وماريا كل ما يحتاجان إليه. وفكرا في طريقة للتخلص من الجندي الذي كان شبه خادم وحارس معاً: سيسجنان مساءً قبل حلول الليل الجندي كوزلوف مكمووم الفم، مقيداً، وسيخذلان طريقهما إلى الجبل حيث الأديجة أهلها...

II

لم يكن شيء يجمع الداغستان وإقليم الأديجة إلا الحرب الدائرة في القفقاس. ولا يعني هذا أن بعض الناس من الطرفين لا يعرف بعضهم الآخر، ولا يتبادلون الزيارات، ولكن لم يكن بين الطرفين علاقات بلاد ببلاد. كان كل من الطرفين يحارب على جبهته الروسية بقدر ما يستطيع. ولم تكن المسافة البعيدة بين البحر الأسود وبحر قزوين ما يفرقهما بل كان يُضاف إليها جهل كل طرف

بلغة الآخر. وإن كان لابد أن تكون بينهما علاقة فالدين الإسلامي هو من كان سينشئها.

لا يفعل الدين الإسلامي الذي لم يوطّد قدميه تماماً في بلاد الأديغة أكثر من أن يؤدي الطرفان، ويمكن أن يضاف إليهما الترك والشيشان، الصلاة والابتهاال إلى الله. وخلافاً للقرن السابق فالدين الإسلامي يقوى عاماً بعد عام في بلاد الأديغة في هذا القرن الذي قامت فيه الحرب الروسية القفقاسية. وفي هذا المجال لا تألو تركيا والداغستان والشيشان جهداً. ولا يتعد خان القرم عن هذه المساعي وكلّ مقصده إقليم الأديغة سراً أو علناً تحت ستار الإسلام.

في هذا الوقت ليس أسهل من تطويع الأديغة الذين يعيشون هذه الضائقة. يكفي أن تجابه إله الروس الذين يحاربونهم بإله المسلمين. فإن تصرفت مع الأديغة هكذا صاروا كالعجينة بين يديك تشكّلها كما تشاء. وإذا أمّلتهم بالجنة شريطة أن يسفكوا دم الكفار اندفعوا إلى الحرب لا يلوون على شيء. في أحد بيوت قرية "غونيب" من الداغستان البعيدة إلى الشرق من الأديغة يتحدث شخصان وحدهما. أحدهما شامل والثاني مُحمّد أمين.

- السبب في استدعائي لك أيها النائب، - أمضى شامل وقتاً غير قليل يدعو إلى القلق منذ أن قطع حديث حرب الداغستان الذي لا نهاية له، وأمضى كذلك وقتاً آخر طويلاً على الجملة الأولى، وأضاف على مهله: - علينا أن نخالط الأديغة مرة أخرى. أقول لك: لا تأت لي على دِكر سليمان أفندي، لا أريد أن أسمع سيرته. حالف الروس وكفر. والأديغة الذين أرسلناه إليهم اعترضوا على خيانتهم. وليس وحده من أعتب عليه، بل من أرسلناه قبله وخاننا، الحاج مُحمّد. لن نتكلم على الميت، يسّر الله له طريقه. استهلك وقته بتلاوة القرآن للأبزاخ، ولم يجمع الأديغة ويؤلبهم على الكفار. لم ينقذ أيّ منهما ما كنت آمله. أما أنت يا نائب فأنا واثق منك، عشت مع الأديغة، وتعرف لغتهم، وعاداتهم. عشت معهم بقدر ما يسمح لك عقلك ونواياك. واستقرّ بينهم، واندمج فيهم. هؤلاء قوم يتحلّون بالرجولة أيها النائب، استغلّ من ستخالطهم ضد الروس.

- أنا حاضر من هذه اللحظة يا إمام. - نهض النائب الأسمر المشوق القوام، القوي البنية، ذو الخمسة والثلاثين عاماً أمام الإمام.

- رافقتك السلامة إن كنت جاهزاً أيها النائب. - كلامٌ شاملٌ مختصرٌ، ولكنه نادى من وصل إلى الباب، ثم نهض بكل ثبات حتى كأن أرض الغرفة تنخسف تحته، واقترب منه، ونطق اسمه للمرة الأولى: - لا تتصور يا مُحمَّد أمين أي لا أحتاجك هنا في الداغستان، عانقه، - أرسلك منتزِعاً قطعة من لحمي. والمكان الذي أرسلك إليه هو الأهم إلينا. ولي طلب آخر أيضاً: لن تكون بيننا مراسلات خطية، وإن احتجنا استعملنا مراسلاً. لا تنس يا مُحمَّد أمين أي سادعو الله من أجلك أينما كنت. طريقك بعيد وخطير. الله حريص على عباده فاحرص على نفسك!

لم يتأخر مُحمَّد أمين أسالييف في السفر كما طلب الإمام شامل. وإن أردت الحقيقة فلم يكن في بلاد الداغستان ما يؤخره إلا المهمة المكلفُ بها. وشاهدًا على أن العازب ليس أمامه ما يتأخر لأجله سافر مُحمَّد أمين في اليوم نفسه برفقة فارسين.

وصل النائب إلى الشيشان ورفيقاه لا يعرفان أين سيتوجه. وضع الكيس الذي ليس فيه إلا شيء من زاد الطريق والمصحف، وأعطى حصانه إلى رفيقيه يعيدانه إلى الداغستان. تابع مُحمَّد أمين الفارسين اللذين يقودان حصانه حتى وصلا إلى المنعطف. وألقى نظرة أخيرة على جبال الداغستان الجرداء، ثم لجم عواففه واتخذ طريق القبرتاي الذي لا يعرف ما ينتظره فيه تاركًا الشيشان على اليسار.

تَهَرَّأت ملابس مُحمَّد أمين ريشما عبر بلاد الشيشان. وقضى أيامه ولياليه على الطريق إلى أن وصل إلى القبرتاي لا تعرف إن كان متسولاً أم متشرداً، يدعو إلى الله من أجل مَنْ يفتح له باب بيته، ويعتب على من يغلقه في وجهه. وأيًا قابل على الطريق، أو دخل مضافته أو حادثه لم يكشف له عن الجهة التي انطلق منها، وعن الجهة التي يقصدها، وعن نيته. ومُرتاده في كل قرية إسلامية دخلها هو الجامع. ومع أنه لم يكن يعرف لغة الأنغوش والأوسيت والشيشان فقد كان مفتاحه إلى قلوبهم لغة القرآن. ولم يكن بين مرتادي الجوامع من لا

يُعجَب بقراءته للقرآن وبطريقة دعائه إلى الله. وحين كَلَّمَ النائب القبرتاي بالأديغية فتح الجميع أبواب بيوتهم له.

لم يكن أسالييف مُحمَّد أمين تجاوز الثالثة من العمر حين وجد نفسه بين الأديغة. تعلم الولد الأديغية بالإضافة إلى لغة أبيه وأمه، لغة "اللاك"، واحتفظ بها في قلبه. أتقن مُحمَّد أمين الأديغية خلال الثلاث عشرة سنة التي عاشتها أسرة اللاك بينهم. واحتفظ باللغة التي تعلمها، لم ينسها حين عاد إلى الداغستان، ولا حين حج، ولا حين عاد وكان يصدف كثيراً أن يحدث والده في خلال حياته بتلك اللغة. ولم تنس والدته التي رحلت عن الدنيا قبل عامين تلك اللغة.

وكيفما استقبل القبرتاي مُحمَّد أمين وعاملوه لم يكشف لأحد عن نيته. لم تكن قضية الأديغة ساخنة كما على ساحل البحر. يعيشون هنا حياة أمان في العصر الذي يغلب عليه القلق. ولا يعني هذا أن كون الأديغة إلى الغرب لا يشغلهم فقد كانت أخبار المأساة في كل مكان. ولكن رأيهم فيه مختلف كما يختلف من يده في النار عمَّن يراقب من بعيد. لم يكن أمام القبرتاي ما يُقلِّقهم في الوقت الحاضر. لم يعد خان القرم يشكل تهديداً لهم كما في القرون السابقة، فالقيصر حريص عليهم إذ كانوا ترجّوه وزوجوه ابنته. ويحميهم القيصر أيضاً من نغوي أستراخان إلى الشرق. ولكن همَّ الأديغة لا يفارقهم مهما كانوا سعداء.

فهم مُحمَّد أمين الكثير خلال تجواله شهراً كاملاً في القبرتاي. فمع أن الأديغة الذين اختلط بهم يختلفون عن الداغستان في لغتهم وأغانيهم ورقصاتهم ولباسهم فهم يتفوقون معهم في ممارستهم دينهم الإسلامي وفي نمط معيشتهم وفي انتخاب ضابطتهم. بل إن حميتهم تذكرك بأناس الداغستان.

قال مُحمَّد أمين: وهؤلاء الأبراخ الذين أسافر إليهم كيف يمكنهم أن يخالفوا سائر الأديغة؟ قيل إن الأبراخ مخلصون للدين أكثر من البجدوغ والويخ والشابسغ والناخوي ولذا سيتقبلون كل ما تحبهم به باسم الله. وإذا ركزنا جهودنا على الأبراخ وحملناهم على تقبُّلنا هان الأمر علينا مع سائر الأديغة. ضيَّع سليمان أفندي كل ما أنجزه حاج مُحمَّد في الأبراخ سواء وافقنا الإمام شامل أم لم نوافق. اتجه نحو الروس ناسياً الله فاستعدى الله نفسه الذي يتوسل إليه الناس ولا يتوسل إلى أحد، واستعدانا. يكتب إلينا ناطقاً باسم الكفار مدّعياً الإسلام،

غير واع ما يقول ولا خُراً في نفسه. ويقاسم الناس غير العارفين ما يجري في الأديغة توجُّساً لهم. ويجب التفكير في طريقة تجنُّب هذه المسألة. ورغم أن تحالفه مع الروس وحده كشف عن دينه فلا بد من وضع نهاية له.

ليس من السهل اجتياز إقليم الأديغة راكباً من القبرتاي شرقاً إلى البحر الأسود غرباً، فكيف على رجلِك؟ بل إنه طريق متعب حتى بالعربات التبادلية. وربما ما كان الطريق صعباً إلى هذه الدرجة على مُحمَّد أمين لولا انتشار الجيش الروسي في الإقليم. وما صُعُب على النائب في أشهر الصيف القليلة هو الطريق بين القبرتاي والبسلني. ولم يعترضه ما يقلقه طوال الأيام والليالي التي عبر خلالها قرى الأديغة المنتشرة في باخسان.

كان مُحمَّد أمين يكتسي الزي الأديغي الكامل بالإضافة إلى الحصان المسرح على نحو لا تصدِّق أنه مَن كان "جامع الصدقات"، المتسول الداغستاني. ولولا العمامة البيضاء على الرأس ما ميَّزته من الفارسين اللذين يصحبانه إلى البسلني. حالما تجاوز الفرسان المستنقع جنوب القبرتاي بدأ الروس بالظهور أمامهم. وكلما تقدَّموا باتجاه بيتاغورسك المتناثرة على جبل مَشَقَّوه كثر عدد الفرسان الروس والمشاة المسلحين. وترى أحياناً المدافع تجرها الخيل أو الثيران. ولا تسمع في هذه الناحية أي إطلاق نار فلا تعرف إن كانوا يتحاربون فيها أم يسود السلام. وتُسمع أصوات الروس والأديغة والبالقر والقرشاي والأبخاز والنجوي. ومنذ هذا الصباح التقى بفرسان كثيرين متنوعين. ويدلُّك تحية صاحبيه وردُّهم عليها على أنهم غيرُ مستعجلين، ولا يندر أن يتوقفوا ويتبادلوا بعض الحديث مع أولئك العابرين.

والآن ها هما ضابطان روسيان فارسان يقابلاهم. ويتبادل الطرفان بضع كلمات في غمرة الفرح:

- كيف صحتك أيها الصديق إبراهيم؟ _ سأل الضابط الأسن.

ما إن رأى مُحمَّد أمين الضابطين حتى تساءل عن المكان الذي رأهما فيه. ومرة أخرى تفحص بعين ثاقبة الرجلين سراً وتذكّر أين رأهما: كان صادف فجأة الضابط الثاني الأسير يسلمونه للروس في الخريف الماضي قرب دربند. والضابط

الذي سأل إبراهيم عن صحته كان رئيس موفدي الروس. والضابط المأسور أفتدي بمبلغ كبير دليلاً على أنه من أسرة مرموقة.

- صحتي سيئة - ضحك النبيل إبراهيم من تحت شاربيه. - لماذا أنت يا رفعت واقف؛ أنسيت الأديغية؟ هل فمك مملوء بالماء؟ بلِّغ بافيل راكيتوف الأكبر منك ما أريد.

حين افترق الفرسان لم يملك مُجد أمين إلا أن يلتفت كأهم ينادونه. وفي هذه اللحظة التقت نظراته الحارة بنظرات رفعت الحارة أيضاً. وبعدها مشوا مسافة سأل مُجد أمين رفاقه:

- من يا إبراهيم هذا الذي سألته إن كان نسي لغة الأديغة¹؟

- هذا شابٌ أديغي باع لغته وأديغته!.. - ومع أنه بدا على إبراهيم عدم رغبته في الإجابة على السؤال فقد أضاف بعد قليل: - شابٌ رُبي في الأبراخ في صدره قلب روسي... ماذا يقول؟ - سأل رفيقه الفارس وأجاب هو: والده روسي ووالدته أديغية. يخدم في الجيش الروسي مسمى نفسه نيكراسوف رومان... وراكيتوف بافيل، أيها الضيف، بالقياس إليه، وبالروس الثرثارين، إنسان نقيّ جداً، إنسان مميّز. يحترم الأديغة والبالقر والشيشان والقرشاي والأباطة والنغوي، ويفيدهم.

- والد نيكراس رفعت أيها الكبير، - تدخل الفارس الآخر، - يقال إنه بغضّ النظر عن أصله يعيش وهو يمارس الشرف والعادات الأديغية باحترام شديد... - بالله لا تكمل يا أخي الصغير، - لم يقبل إبراهيم ما سمع، ماذا قلت لي اسم والد من تذكره تيموفيه، لم يستطع غرس أديغيته في ولده. كيف يكون لك قلب أديغي ولست أديغياً؟ والحق أن راكيتوف بافيل هو من يعاملنا بالعادات الأديغية. هل سمعتم ما قاله لي؟ يا إبراهيم يا صديقي، تعالوا تفضلوا.

استطاع مُجد أمين، مهما علّق رفاقه على الضابطين الروسيين، أن يكتّم أين رأهما من أجل الحرص على سرّيّة توجّهه. وما لم يفارق خياله هو نظرة نيكراس رفعت.

بعدها أسرع الفرسان الثلاثة بعض الوقت قال الأصغر الذي يحتل اليسار:

¹ الحوار التالي بلهجة القبرتاي.

- يا إبراهيم، أيها الكبير، لنذهب إلى الجنوب، لا تدعونا ندخل القرية الروسية. هنا كثير من الكفار الأشقياء...

- والله هذا ما كنت أفكر فيه الآن يا عزيزي، - أجاب إبراهيم بسرعة، - الروس الذين في نواحينا ليسوا سيئين، ولكن الأفضل تجنّبهم. ثم قال لمحمد أمين بعدما مشوا مسافة غير قصيرة: - يا ضيفنا نستطيع التعايش مع الروس الذين هنا. أما الأبراخ والشابسغ والويخ، وكلهم على شاطئ البحر الأسود الذي جئنا من جهته فهم الذين لا يجد الروس منهم من يردّ عليهم بكلمة صائبة. يتجاهون بسيف مشهورة. والله يا ضيفنا، - أكّد إبراهيم ثانية ما قاله سابقاً، - هؤلاء الروس الذين نسميهم كفاراً ليسوا أناساً سيئين...

تظاهر مُجد أمين بمسيرة النبيل الذي حلّ ضيفاً عليه ولو أن الكلمات التي سمعها منه هاجته. قال مُجد أمين لنفسه: ليس مُضيفي وحده من لاحظت عليه في القبرتاي هذا الموقف نحو الروس. أمراؤهم ونبلاؤهم وعامتهم لهم هذا الموقف وإن لم يصرّحوا به تماماً. لم يسمع في أي مضافة سهر فيها اغتيالاً للروس. وبالمقابل لم يسمع امتداداً لهم. أقول ربما من الخوف أو الإرهاب، ولكن لم أر بين القبرتاي الذين خالطتهم مثل هذه الحالة. يعيشون معترزين بأنفسهم، يجتمعون ويفترقون بوجوه مفتحة طليقة. ولا أستطيع أن أحكم بأن بين الطرفين صداقة قوية.

كلما توغل الفرسان في أرض البسلني أحسّ مُجد أمين بمأساة الأديفة من خلال الجيش الروسي المنتشر. وليس الأمر ازدياد القبعات القوزاقية الحمرة، ولا الأصوات الروسية، بل يشعر في قلبه بأن خوفاً ثقيلاً يدور في الهواء، وتحت السماء. ومع أنه يحس وراء كل انعطافة في طرف غابة، ومخاضة ماء، ووراء كل انحدارة وارتقاء، بخاطر داهم، لم يعترضهم أحد منذ البارحة في أرض الشرجس¹. والأسرة التي حلوا عليها عشية البارحة ضيوفاً لم يمسك فيها مُجد أمين، مهما حاول، طرف خيط ليتكلم في موضوع الأديفة. كانت نهاية الكلام تتبدد كما ابتدأت. ويستغرب مُجد أمين قولهم في البسلني كما في القبرتاي: "هؤلاء الروس الدخلاء علينا يمكن التعايش معهم"، ويُشيع في ذهنه دون أن

¹ هم الأديفة الذين يعيشون الآن في جمهورية شركيسيا.

يعرف السبب الشكّ في المشروع الذي يسافر لأجله دون أن يعني هذا أن ينسى، ولو ساعة واحدة، المهمة التي أناطها به إمام الداغستان شامل. ومع ذلك، لا يمكن للإنسان مهما بلغت قوته وصلابته، أن يقف في وجه الأفكار التي تغزو الرأس متضاربةً. وأنسب وقت لهجمة هذه الأفكار حين تكون على طريق لا تعرف ما ينتظر في. وتبدأ فكرة تضعُع النائب سليمان أفندي أمام ما يرى من العلاقات الأديغية الروسية تجد نوعاً من التسويغ في رأس مُحمَّد أمين وهو في أرض البسلي. قال في نفسه: كيف تنفذ مهمتك مع الأديغة الذين علاقاتهم بالروس حسنة هكذا، وكيف يَئذِر العداء للروس في قلوبهم، ويحملهم على رفع السلاح في وجوههم؟ يبدو لي أن هذا ما حدث لسليمان أفندي النائب مهما كان عتابنا عليه شديداً، وهذا ما دفعه إلى التحالف مع الروس. بَمَ يجب علينا أن نفكر من أجل إقناع الأديغة بالمشروع الذي آتَى من أجله؟ أهو الدين والسلاح؟ أم ستكون علاقات الأديغة فيما بينهم نقطة استنادنا؟..

...

لم يكن مُحمَّد أمين ينوي أن يقيم في البسلي أكثر من أسبوع، غير أن نيته لم تتحقق. استقبله البسلي بأفضل من القبرتاي. وداروا به شهراً كاملاً. ولم يتركوا قرية لم يصحبوه إليها، ولا غرساً ولا مأتماً. وكلّفوه بعقود القرآن أحياناً، وتلاوة القرآن أحياناً أخرى، وصلّى بهم، ودعا لهم في حابّري، وفي خُمري، وقشلقواج. وخالط النائب الأباظة والنغوي لائماً نفسه على أنه لم يفعل هذا مع البالقري في القبرتاي. فطلب أن يُقلّوه إلى منطقة القرشاي، وأقام فيها أسبوعاً يتعرف عليهم.

وأينما حلَّ مُحمَّد أمين كان موضوع العلاقات مع الروس أول حديثه تحت ستار الدين. ولم يخل حديثه في أي مكان من الجهاد. وكان يأتي على أخبار الحرب على ساحل البحر الأسود أكثر من أخبار الحرب في الداغستان. ويلمّح أحياناً إلى الترك والإنجليز والفرنسيين الذين سيساعدون الأديغة في جهادهم. وحين يُخَيَّل إليه أن محادثيه الأديغة لا يُكثّن الود للأتراك ينهال على الترك تقريباً للتمويه على موقفه، ولكن مهما قال لهم أعادهم إلى موضوع الأديغة. وإن لم

يوافقوه اعتبر أن لا وجود للترك البتة. ثم إن الهدف الأول لمحمد أمين لم يكن القبرتي ولا البسلني، فهؤلاء وإن لم يكونوا انبتوا نهائياً عن القضية الأديعية، فالساحة الحقيقية للعلاقات الأديعية - الروسية هي ساحل البحر الأسود. وبالقياس إلى القبرتي والبسلني فساحة مجاهدة النار الروسية هي الشابسغ والأبزاخ والوبيخ. وحين دخل قرية حَسْتَقَوِيَه غرب البسلني فهم مُجَّد أمين هذه المسألة أعمق فهم. إن عبرت بنظرك نهر يَنْجِجْ إلى المرتفع المقابل رأيت جيشاً روسياً. ومتى تركت هؤلاء إلى يسارك ومشيت ثلاثة أيام دخلت بين المخوش، ثم تدخل بعد أسبوع مضيق مامرَّقوه، وترى أول قرية من الأبزاخ على ضفة النهر العليا. وإن دخلت بين الجبال ووقفت على أعلى قمة رأيت على يمينك الشابسغ والناخوي، وعلى يسارك الوبيخ، وأعلى منهم بقليل الأبجاز، يحتلون كامل ساحل البحر الأسود.

كان مُجَّد أمين يحتفظ بكل هذه المعلومات في قلبه دون خارطة يستعين بها. وطوال الطريق بين القبرتي إلى البسلني أوقفهم القوزاق مرة واحدة للتأكد من هوياتهم دون أن يعيروا الموضوع أهمية كبيرة. واستأنفوا الرحلة بعدما تبادلوا بعض المزاح.

لو تيسر الطريق اليوم لمحمد أمين كسابقه لكان حسناً، ولدخل بين الأبزاخ دون ضجيج ودون مشكلات. ومتى وجد أول مضيف بقيت الترتيبات الأخرى من اختصاصه. ومسير نصف النهار المتبقي أمامه أثقل عليه من كل ما قطعه من الداغستان إلى هنا. ولكنه واثق من مرافقيه المجاهدين¹ اللذين صارا رفيقي درب له. هذان حالاً مشكلات أعقد من هذه بكثير. وهنا سيكونان في عونته.

وقلب مُجَّد أمين مرتاح مع أن ليل الخريف يطر مطراً بارداً. وهو مسرور بالمهمة التي أمامه رغم جهله بما ينتظره في الطريق السري. كيف ستكون هذه المهمة؟ وماذا ستكون نتيجتها؟ ما في الرأس من مثل هذه الأسئلة ليس قليلاً. ولن يكفي لها جوابان أو ثلاثة. ومن الصعب معرفة الجواب المناسب بينها. وإن لم يتقبل الأبزاخ كلامه؟.. في هذه اللحظة تذكر مُجَّد أمين جواباً على تساؤله

¹ في الأصل "حجرت" وتعني، كما في حاشية سابقة مجاهدين فرديين ضد الروس، وأحياناً قطاع طرق.

النائبين السابقين له بين الأبراخ. كان على علاقة بهما رغم أنهما يكبران كثيرًا في العمر. ولن يكرر الطريق، بل الطريقين اللذين سلكاهما بين الأبراخ. سيتبع الطريق الذي سيوصله، بعون الله المخلص له، ودون تجاوز تعليماته، إلى لم الأبراخ ثم سائر الأديغة حوله. وسيفكر في تأسيس نظام دولة لم يعرفه الأديغة. ماذا سيكون هذا النظام؟ يجب أن يكون مناسباً لعالم الأديغة اليوم. وإن لم يناسبه فلن يتقبله أي فرد من الأديغة ولا أي أسرة. ليس المقصود ما بذله سابقاي من جهد لحمل الأديغة على تعلم الدين الإسلامي. وقد ساهم النائب الحاج مُجد في تكوين أمثال هذين المجاهدين اللذين أرفقوني بهما، والذين يهاجمون أماكن سكن الروس. ورغم أن سليمان أفندي خاننا فقد أفاد في تغلغل القرآن إلى بيئة الأديغة. وإن فكرت تبعاً لنمط معيشة القبرتاي والبسلني فالأفضل اجتذابهم إلى نظام الدولة الذي لم يعرفوه، وهم يرون شيئاً مفيداً فيه. ويقال إن زانه سفرني يبذل جهداً في هذا الاتجاه. ويقال إن البجدوغ والجمكوي صالحوا الروس. ما عليّ إلا الانتظار قليلاً ريثما يتقبلني الأبراخ حتى أريهم كيف يتحصنون في عشٍ منفرد!..

- أراك لا تقول شيئاً أيها الضيف؟ - سأل المجاهد الذي على اليسار.
- وماذا أقول؟ - لم يعرف مُجد أمين سبب السؤال المفاجئ، ثم صحا كعادته في كل مرة، وردّ على السؤال بسؤال: - ألسنت من قال: لا يُذاع سرٌّ في الظلام؟

- لا يعني هذا أيها الضيف ألا نتكلم... ما رأيك يا جباغ؟ - تظاهر بأنه يسأل من على الجانب الأيمن. ولما لم يجب سألته: - وأنت يا جباغ لماذا لا تقول شيئاً؟..

- أنظرُ أمامك!

- ها هو، لن تستطيع انتزاع كلمة منه حتى نهاجم الموجيك. ومتى عدنا، سواء نجحنا في مهمتنا أم لم ننجح، ظل طوال الطريق يُشيد بالحاج مُجد... - قال جباغ بسرعة، ثم أصلح كلامه: - أنظر من خلال الظلام يا تومن فلا أرى ما يُقلق، إطمئن!

- لا بأس هكذا، - غمغم تومن. - هذا وضعٌ آخرُ.

حين سمع مُجَّد أمين اسم الحاج مُجَّد انتفض برأسه، وسأل:

- من هو الحاج مُجَّد؟

- كان عند الأبخاز نائب اسمه الحاج مُجَّد...

- لم يكن المرحوم يفتقر إلى الرجولة... ليسهّل الله طريقه إلى الجنة! - دعا تومن باختصار.

- ما رأيك إذن يا تومن بسليمان أفندي؟ - سأل مُجَّد أمين هكذا دون اهتمام ظاهر.

- لا أريد الكلام على الخائن سليمان أفندي أيها الضيف. - جزم تومن - لا تؤاخذني!

- ولكن يا تومن!.. - لم يدع المجاهد الآخر يكمل كلامه.

- ماذا قلنا يا جباغ؟

- قلنا إننا لن نتكلم على الخائن.

لم يكن مُجَّد أمين يسمع هذا الكلام في بسلي للمرة الأولى. لم يتقبل رِوَاذ أي مضافة أدغية ما فعله سليمان أفندي في العام قبل الماضي. وكلما ذكروا النائب سليمان بسوء تكلموا على النائب الحاج مُجَّد بالخير. وكان مُجَّد أمين يعرف أن النائبين لم يفتقروا إلى الرجولة مع أنهما كانا مختلفين في إنسانيتهما وفي طباعهما. وحين يبدأ مُجَّد أمين بالمقارنة بينهما يبدو له سليمان أفندي أصلب عوداً. قال مُجَّد أمين: هذه هي المسألة، ليس صعباً ما ترفع به شأن الإنسان وما تخفضه به. خيرٌ لك أن تُنهي حياتك على رأس رمح من أن توصف بالخائن!..

- اهدأ! - أوقف تومن الحصان.

الطبيعة الموحلة هادئة. ولا صوت في الجوار إلا الخريف الأصم للنهر القريب.

- طلبت منكما الصمت!.. - رفع تومن جسده عن الحصان وأنصت. ثم قال لنفسه: - ليس هناك ما يُقلق.

خرجوا من عمق الغابة وارتقوا المرتفع غير العالي، ثم عادوا بسرعة ودخلوا الوادي. وطوال هذه المدة كانوا يسرعون من خيب الأحصنة. وشمع نباح بعض الكلاب على مسافة لا قريبة ولا بعيدة. وشمعت أصوات أخرى من وراء المرتفع

الأمين. وبعث صياح الديكة الصباحي الحياة في العالم. وتوقف المطر، وشعروا
بقدوم الفجر.

أوقف تومن حصانه في الوقت الذي صار بإمكانك أن ترى وجه الآخر فتعرفه.
ولفّ سيجارته دليلاً على انقطاع الخطر. ومد دون استعجال كيس التبغ إلى
مُحمَّد أمين.

- دخن أيها الضيف!

- والله أمسكتني يا تومن بما لا أجيده. - ابتسم مُحمَّد أمين، - لم أدخن بعدما
اقتلع والدي أذني. ومع هذا لا بأس، هاته!

- هكذا إذن! - ابتسم تومن، ثم أضاف: - أود أن أسألك أيها الضيف إن لم
يكن عندك مانع: - أخبرنا مضيئُك أنك أفندي ولكن لا يبدو عليك مثل
هذه الهيئة. ما رأيك أنت يا جباغ؟

- والله هذا رأيي أنا أيضاً يا تومن. لا يتأخر ضيفنا، من طريقة امتطائه
للحصان، عن مجاهدي الأبراخ.

- إن شاء الله أنا من أمته. وأنا أفندي يا تومن، واحد من المسلمين المؤمنين
بالله، وأنتم احفظوه في قلوبكم، وأوصوا الآخرين ألا ينسوه.

- لا نسافر إلا والله معنا أيها الضيف. - كان تومن يريد اختتام الحديث،
ولكن لم يستطع إلا أن يضيف: - أوصلناك إلى أرض الأبراخ لأن الله معنا
وأنت أفندي وإلا فنحن لا نرافق أحداً. نحن وفينا بوعدنا. مضيق مامرقوه وراء
تلك التبة. ونحن لنا مهمات مع الموجيك. وفي لحظة افتراقنا نود معرفة اسمك إن
كان مناسباً.

- حياكما الله. وسأقول لكما اسمي: مُحمَّد أمين أسلايه.

- هذا اسم ممتاز، ما رأيك أنت يا جباغ؟

- اسم يملأ الفم!

- والله حقك علينا يا مُحمَّد أمين أن نوصلك إلى إحدى قرى مضيق مامرقوه،
ولكن لا يجوز أن يرانا أحد في تلك الأنحاء. لا تؤاخذني يا أفندي. متى
تجاوزت أول قرية واقتربت من القرية الثانية، ففي الثالثة الأمير بولتقوه. إن
اتخذته مضيفاً فاعتبر أبواب كل الجمكوي انفتحت لك.

- وأضف إليها أبواب الأبراخ. يا تومن، - ساهم جباغ أيضاً في الحديث.
 - والله يا جباغ أعدت التفكير، - رمى تومن السيجارة، - لا ننفع كلانا
 لشيء، وفقدنا روحنا الأدبغية. ماذا كان يضربنا لو رافقنا محمد أمين إلى مُستراح
 الذئاب ولو لم نوصله إلى مضيق مامرقوه، كلها بضع غلوات للحصان. ما رأيك
 يا جباغ؟
 - ما كان ليضربنا شيء يا تومن. ولكن لن نتجاوز هذا المكان.

III

إن عدت عشر سنوات إلى الوراء، حين كانت روسيا تبني التحصينات على
 ساحل البحر الأسود، فالقليل من الوحدة التي كانت بين الأدبغة فقدوه في كل
 مكان. وفي هذه الناحية كان البجدوغ والجمكوي صالحوا الروس منذ بدء
 الاجتياح الروسي لأرض الأدبغة، ولو على نحو غير صريح. ولم يكونوا يعنون
 بهذا أن على الأعراق الأخرى أن تحذو حذوهم فقد فعلوا ما فعلوه مجبرين.
 وبسبب المكان الذي يقطنونه والزمان كانوا يعيشون محتفظين بما زرعتهم فيهم
 عشرات القرون من العادات، متطلعين إلى الجديد، ومثمنين القديم، لا يجدون
 من اللائق أن يصبحوا رعايا لروسيا ويتقبلوا نظام دولتها.

ليست قليلة المواقف التي تجبرك فيها ظروف المعيشة النابعة من الظرف الزماني
 على الرضوخ مهما رفضت تقبل عادات الدخيل ونظام حياته خيراً أم شراً أم
 رياء. وكانت التجارة من بين ما جلبته الحرب للأدبغة. من الصعب أن تعيش
 محاصراً من كل الجهات، معزولاً عن الناس كلهم. وقد أحسن الأدبغة في
 السنوات القليلة الماضية بهذه العزلة أكثر من سنوات الحرب الماضية، وتحقق
 للجانب الروسي ما أراد. وليست النتيجة مجرد بيع وشراء، فالتجارة تجبرك على
 الاختلاط والتواصل ولو لم تكن تتقبل الطرف الآخر، وتشر بينك وبين الطرف
 الآخر شيئاً لم يكن قبلاً البتة. ومثل هذه التجارة تفرق الأدبغة ولا تجمعهم.

وعاماً بعد عام يصبح من الصعب تطبيق قرارات المؤتمرات. وما يصعب تنفيذ
 قرارات المؤتمر في القرى، باستثناء قرارات حماية الذات، هو افتقار الناس
 لمستلزمات حياتهم. إن كنت تعيش في القرية لم تجد، في حين أن السوق مليء
 بهذه الحاجات. عليك أن تنشر في كل مكان نظام دولة غير نظام التعامل بين

الأديغة القائم على الحياء والتحرُّج. لن تستطيع أن تجبر القرية على أن تعيش كما تعيش كل أسرة وحدها. صعبٌ أن تدير كل القرى على نظام قرية واحدة. المأساة تتبع من التنافر بين الأديغة. وقد كشفت سنوات الحرب أن هذا أمرٌ بديهي لا يحتاج إلى نقاش. فما العمل إذن؟

هذا السؤال الذي لا ينتهي هو ما لا يفارق ذهن قرباتر. وليس الصوتُ الخفي للسؤال منذ هذه الأيام فحسب. هذا الصوت هو صوت والده سفرلي، وكلما سمعه الابن عصر الألم قلبه. وينهض أمام عينيه واحداً واحداً زعماء أعراق الأديغة الذين يشد كلٌّ منهم العربة إلى جهته: برزج، وحجمقوه، وتسي، وبولت... ويمر أمام ناظره الراحلون من أمثال خانجري. الأديغة أناس عجبون. في المؤتمرات ليس على ألسنتهم إلا وحدة الصراع، يسحبون مسدساتهم، ويلوِّحون بسيفوفهم في الهواء. وحين ينفردون ينسون ما قالوا، ويعيشون حياة بلا قيود أو نظام. لم يكن والذي يقبل من خانجري هذه الأحكام ولكننا نصطدم كل يوم بأقواله. وهذا لا يجوز أن نتخذة قدوة لمجرد أنه مات. أضرّ بالأديغة ما يكفي، وأظن أن هذا كان سبب موته. ومع ذلك ليفتح الله له باب الجنة. وليس الدعاء له وحده بل لكل من قضوا في حروب الأديغة.

اليوم يحتاج قرباتر إلى والده أكثر مما احتاجه في السنوات الماضية. ما في القلب كثير، وما يعتمل في الصدر ليس قليلاً. وليس له من يجلس إليه فيبوح له بما يثقل عليه، ويفهمه. ومنذ العام الماضي انقطعت مراسلاتهما السرية. وطوال هذه المدة لم يسمع أخبار أبيه إلا مرة شفاهاً. والأخبار المتنوعة الواردة من تركيا تملأ أرض الأديغة. وكلُّ يعود إليه الخبر الذي زاد فيه وغير كما صدر عنه دون أن ينقص كلمة واحدة. ولكن كل الأخبار والأحزان ودواعي القلق لها أساس واحد: الخلاف الأديغي - الروسي. كان الطرفان يتجاذبان بالتحصينات والمراصد ولو لم يخوضا حرباً مستمرة ولا تسامح بين الطرفين إلا يوم السوق. وحالما يبدأ الجيش الروسي يتحرك في المنع التي أنشأها يترك الأديغة أي عمل من أيديهم إن كان داخل الأسرة أم في للقرية، ويركبون للحرب. ومتى بدأ الروس يفتحون معابر في الغابات، ويمدون الجسور على الأنهار عارضهم

الأديغة، فتنشب بين الطرفين حربٌ دامية، ويسقط الكثير من الضحايا. ويتبدد الصلح الواهن الذي بدأ ينشأ بين الطرفين في الأسواق التي لا أساس متيناً لها. وإلى أن يحل سلامٌ عابرٌ يتقابلون في مضائق الجبال ومجاري الأنهار، وينتصر الطرف الأكثر عدداً. وفي كل مرة تقوم المناحات في الجانبين، ويحتدّ بينهما الاحتقار الممزوج بالحمية.

ابتسم قرباتر من قلبه حين تذكّر ما قاله له الشابسغ قبل أيام. قال قرباتر معيداً التفكير في إجابته: كيف تريدون مني أيها البؤساء أن أولف لكم جيشاً وقد عجزتم عن تحمّل أميركم الوحيد زانه؟ أنا من لا يريد هذا الجيش؟ لسنا في وضع يسمح لنا أن نؤلف جيشاً يحتاج إلى طعام ولباس وسلاح. من أجل هذا الهدف يجب أن تؤسس دولة مستقلة واحدة يسودها النظام والطاعة. كم سنة قضى والدنا يحاول أن يحمل الأديغة على طاعة صوت واحد في دولة مستقلة؟ لم يترك أحداً في إقليم الأديغة شمالاً وجنوباً لم يتحدث إليه. كانوا يوافقونه في حضوره فإذا أدار ظهره رجع كلٌّ إلى إمرته المستقلة حتى تسببوا في تمزيق البلاد. خسّرنا الجمكوي سكان الشرق في سنوات الحرب الأولى، أما البجدوغ على ضفة نهر بشزه فتصاقوا. والبقية من شابسغ ناتخوي وأبزاخ وويخ يريدون إبعاد القيصر عن أرضهم فحسب، ولا يطلبون أن نكون قبضة واحدة ودولة مستقلة. حين يرتادون أسواق الروس، ويدبّرون أمورهم فيها يمتدحون الروس من جهة إنسانيّتهم والتعامل التجاري معهم وصبرهم. وإن لم يُفْلِحوا فالروس كفار ولصوص وأشرار وأصحاب السنة بذيقة، لا يتركون مثلبة لا يُلصقونها بهم.

صحا قرباتر من أفكاره ونظر عبر النافذة. الخريف على طريقه، والنسيم الرقيق ينثر أوراق الأشجار الصفراء. والأعشاب النامية على زوايا أسوار الحظائر والتي فقدت لوئها تنام على الأرض. وإن نظرت إلى البستان ثم إلى السماء لاحظت أن العام ينزاح عن العالم. والحياة تمضي، وعمر الإنسان يتناقص.

مرة أخرى ارتسم أمام عيني قرباتر وهو ينظر عبر الخريف الأصفر فلاحو الشابسغ. ومع أن أغلب الفرسان الذين التقى بهم في المضيق الجبلي من قريته فقد كان بينهم من لا يعرفه. ولفت نظره بعض الشباب منهم متعجباً. هؤلاء هم الذين بدؤوا مشروع تأليف جيش أديغي، وكانوا مهمومين به.

لا مشكلة لدي في تأليف جيش، قال قرباتر، إن كنتم ستوافقوني. ولكن نحتاج جميعنا إلى الوحدة قبل هذا بوقت غير قصير. ودون هذه الوحدة لن نستطيع حماية ما تبقى من إقليم الأديغة. عيبٌ علينا أن نقعد مكتوفي الأيدي، نلفّ رجلاً على رجل. سنخاط الناس ونُطْلِعهم على مرادنا. وإذا كانت صحيحة الاستنفار "مارج" مفيدة في الماضي ففائدتها الآن في ظل المأساة الأديغية الشاملة انحسرت. لا يمكن لاجتماع الفرسان صباحاً وافتراقهم مساءً أن يحمي الأرض. وإذا كان من تلجمهم الرجولة غير قليلين فالذين يحتمون وراء أسوار بيوتهم بانتظار ما سيحدث ليسوا قليلين أيضاً. من أحصى هؤلاء؟ ومن أخرجهم؟ كم من الفلاحين في القرى لا يملكون حصاناً ولا سلاحاً؟ صعبٌ مجابهة جيش مدجج بالسلاح وأنت لا تحمل إلا المجرفة على كتفك والفأس بيدك. ليس من الرجولة تحدي الرصاص. المهمة الأولى للمقاتل هي حماية شخصه منه. وعلينا التفكير في إعالة الجنود الذين سيخرجون من كل قرية بالطعام واللباس والسلاح. وإن أعطينا كل مسؤول قرية رجلاً من الضابطة من أجل توطيد النظام في القرى نشر الأخلاق فيها، وألزم بها الناس، وأرهب من يحتاج إلى الرهبة. هذه أفكار لم يستطع والدنا تحقيقها. وسنعيد التفكير فيها إذ نحتاج إليها في ظروفنا الحالية أكثر مما احتجنا في السنوات الماضية وليس أن نتفق في الاجتماع بالكلام فحسب ثم نفترق. ويبقى أكثرنا لا يجد من ينفذ القرار الذي أُتخذ في ساحة الاجتماع. والآن سأسافر إلى الأبراخ والويخ والشابسغ قبل أن نقعد اجتماعاً. إن استمعنا إلى الأحاديث المتداولة في شأن الجيش المزمع تأليفه استفدنا منها في تحديد جدول أعمال الاجتماع. وحاغور نور مُجَّد انقطعت أخباره منذ وقت طويل، لا أعرف إن كان يعتبر علينا أظنه يميل نحو الروس أكثر، وإن لم يستطع البوح، منذ أن زوّجوا ابنتهم لراكيتوف. أخرج صوت الباب قرباتر من أفكاره، رأى والدته بين قائمتي الباب، فنهض مسرعاً واستقبلها:

- تفضلي يا والدتنا، تفضلي. ألم تكوني مرتاحة الليلة؟ كيف حالك؟ وصلت متأخراً فلم أشأ إقلاقك. - أجلسها وهو يسندها من كتفها على السرير،

وجلس إلى جانبها. ومد يده فأخرج الكرسي الوطيء الذي يحتفظ به لأجل والدته فوضعه تحت رجلها. ووضع وراء ظهرها وسادة رقيقة.

- انتظرتك يا ولدي أمس وأول من أمس وطوال اليوم. - لم تنظر بآبور إلى ابنتها ولكن ظهر من صوتها حنانها على ولدتها. - والليلة انتظرتك إلى ما بعد منتصف الليل. وأعرف متى عدت، وأنهم فتحوا لك الباب، وترجّلت من الحصان. متى عدت من سفرة طويلة فلا يمنعك ظلام غرفتي من أن تتفقدني. راحة الأم في عودة غائبها إلى البيت. ما الأخبار في البجدوغ؟ من قابلت ومن رأيت؟

- قابلت كثيرين يا أمنا.

- ماذا يقول البجدوغ؟

- يقولون الكثير، ولكن لا يناسبنا أيّ شيء مما يقولون. هم بعدما استسلموا للقيصر يطلبون منا ألا نسمح للجيش القيصري ألا يقتحم أرض الشابسغ، وأن نتحلّى بالرجولة أمامه.

- وكيف تتحلّون بالرجولة؟ - ألقّت بآبور نظرة ثقيلة مما سمعت.

- والله لا أعرف يا أمنا بِمَ أجيبك على هذا السؤال... ربما يقصدون مبدأ: إما أن تكون رجلاً أو تموت!

- ليس الموت وحده رجولة يا ولدي. كثيرون ماتوا من وراء الرجولة. ولكن من كسبوا منها من معارفي قليلون. - جزمت بآبور ولم تستطع انتظار ما سيجيب به ابنها، ونظرت نحو النافذة قلقة.

بآبور عجوز صلبة أنيقة دائماً دليل عنايتها بنفسها رغم تقدمها نسبياً في السن. والغطاء الملون الجميل يغطي ظهرها. ويبدو من تحت الغطاء الوجه الصبوح الذي ليس فيه إلى الآن أي تجعيدة. والقامة التي اعتادت أن تحافظ على استقامتها ممشوقة. ويبدو من عينيها قلق وحزن ونظرات تتم عن غياب أحد أعزائها.

مرة أخرى نظر قرباتر في وجه أمه. وابتسم لها. وارتاح قلبه وقد لاحظ في وجهها نظرة اشتياق إلى والده. وسرت قوة إلى مفاصل جسمه كأنه وجد في نفسه صلابة إضافية. اجتاز بقلبه إقليم الأديغة ونظر عبر البحر. ودخل إلى

تركيا. وكما يجلس في حضرة والدته ارتسمت صورة والده أمامه. وقال لنفسه ما أشبه سُحنة والدي بسحنة والدي! أياكون السبب أنهما عاشا معاً سنين طويلة؟ ومرة أخرى تأمل أمه بشوق أشد. لاحظ الشعرات البيض الساقطة من تحت غطاء الرأس. بالقياس إلى هذا الربيع، لا إلى سنة خلت، ترى في أطراف عينيها بداية الهرم. لم تُسعد والدتها رغم أنها تعيش في دار إمارة مريحة. أرهقناها أنا ووالدي. إن كانت استمتعت في شبابها قبل أن تتزوج، أو في عرسها فقد تضافرنا أنا ووالدي فأنسيناها ما سعدت. والآن ليست في موضعٍ خطرٍ أو جوعٍ إذ عندنا ما ليس عند الفلاحين البؤساء... أقول هذا ولكن هل نحن المسؤولان عما حدث لأسرتنا ولوطننا، ولكل الأديغة أم الزمان الذي كان حطناً أن نعيشه؟ ليست أسرتنا وحدها من يطحنها هذا الزمان، لا يُقي على أديغي أو روسي أو شيشاني أو داغستاني أو أبخازي أو تركي أو إنجليزي. هذا يتلهف والآخر يصرخ. ويجمع الفرح ومن يطلب النجدة، ويفرقهما.

- إن لم تملك العقل مع الرجولة فليس تلقى الرمح بصدرك بطولة يا أمنا. -
نظر قرباتر بحذر شديد نحو أمه.

- لمن هذا القول يا ولدي؟ - سألت بابور بتصميم دون أن تحوّل نظرها عن النافذة. - لك أم لغيرك؟

- لا يا أمي، لغيري، هذا الكلام لوالدنا.

- أسألك لأني أظنه له. - نظرت بابور إلى ابنها دون أن تحتلج عضلة من وجهها. ولانت له عيناها الباردتان.

- وأين أذهب إن لم أكرر كلام والدنا يا أمي؟

- يسرني أنك لا تنسى والدك، ولكن لا تنس أن عليك تجاوز أفكار والدك.

- نظرت بابور بدفء إلى ولدها ولكنها أضافت بصوت بارد وباختصار: -
ولكن هذا لا يعني أن تنازع والدك قيادة العربة.

- هل تشكّ فيّ يا أمي؟

- أود أن تنظر إلى أبعد منه، - جمّدت بابور نظرها الباردة من جديد على النافذة.

تريد والدتنا أن تقول لي شيئاً ولكنها لا تستطيع. قال قرباتر، وعادت الأفكار القلقة غير المنتظرة تعبت به. لا يتذكر أن والدته كلمته في السنوات القليلة السابقة بمثل هذا الكلام الموارب. كانت تعرف كل خطوة أخطوها، ووافقتني. وإن أخطأت لم تكن تدينني بل تنصحي.

– يا أمانا، هناك ما يُقلقك ولا تُفصحين عنه.

– ما يُقلقني يا ولدي لا يفترق شيئاً عما يُقلقك، – لا تزال نظرة بابور الباردة على النافذة. – ولدي، بفضل الله، لا يُحجيني إلى شيء. أجد ما أكل وما ألبس. وأما كُنَّتي فبِكُلِّ الكنات. وأما الخدم وعمال الدار فلم يفقدوا احترامهم لآل زانه.

– ماذا إذن يا والدتنا؟ أياكون لك عتبٌ على والدنا؟

– أتتذكر ماذا قلت لك مرة يا ولدي. – لم أعتب على والدك طوال عمري. ولم يتصرف بما يستحق العتب. يصعب علينا غيابه عنا، ليس عليّ وحدي بل على كل الأديغة. من يجهد من أجل قضية الأديغة سيغفر الله له وإن لم أغفر. – استدارت بابور بوجهها وقد عاد إليها وغيها، ونظرت إليه بؤد – ليس هذا الموضوع. ولا أتوقف عند إقليم الأديغة. القرية ليست شخصاً واحداً، من الصعب إرضاؤها. ما يشغل بالي اليوم شيء آخر. وأعرف أن القضية الأديغة ليست سهلة، وكل ما تجهدان من أجله أنت ووالدك أشارككما فيه. وأحياناً أودّ لو أمنعكما مما تفعلمان، ويحدثني قلبي أن أقف في وجهكما. وما يلجمني في مثل هذا اليوم أمراً واحداً – حياة الأديغة المنتكسة، واحترام الضحايا. ليس الجانب الأديغي فحسب بل الجانب الروسي، فهؤلاء البؤساء أيضاً ضحايا ظلم الحياة. من الصعب مغفرة خطايانا نحوهم.

– يا والدتنا!

– مهلاً يا ولدي، لا تقاطعني. سأصارحك اليوم أيضاً بأشياء لن تعجبك فاصبر. من الصعب إنجاز المهمة التي حملها والدك بالمؤتمرات فحسب، ولا أتدخل في الموضوع. استطاع والدك عن طريق المؤتمرات إبراز قضية الأرض للأديغة. وأبدى رجولتهم للأعداء الذين هجموا عليهم. ولولا أن والدك غاب

عن الأديغة كل هذه السنين لكان غير نظرة الأديغة إلى المؤتمرات. وأنتم أتعجب لماذا لا تفكرون في زعماء الأبراخ والوييخ.

- فكرنا في هذا...

- قلت لك مهلاً يا ولدي!.. ما لم تستطيعوا إنجازه طوال سنوات استطاع النائب الداغستاني إنجازه خلال شهر في الأبراخ. تفاهم مع الكبير والصغير وفرض عليهم تقبله. ولو كان هناك نواب آخرون لجعل الأبراخ ينسوهم. وهذا الرجل لن يتوقف عند الأبراخ بل سيصل إلينا نحن والوييخ. وسأذكر إن لم يتغلغل في الجمكوي والبجدوغ والشرجس. النائب القوموق يرتب أمور الأديغة ويطوعمهم وأنتم مشغولون بمحاربة الروس. ألم تسمع يا ولدي أخبار النائب محمد أمين الذي تزعم الأبراخ؟

- سمعنا يا والدتنا.

- لماذا لا تفعلون شيئاً حيال الموضوع إذن؟ هل تتقبل أرض الأديغة الغريب أكثر مما تتقبلكم؟..

IV

لم يستقبل الأبراخ محمد أمين بالأحضان تماماً كما يشاع...

لا يختلف الأبراخ عن سائر الأديغة إلا في الموطن الذي اختاروه بين الجبال. وبتعبير آخر: يعيشون منذ آلاف السنين الحياة التي اختاروها على جانب طريق الحرير الذي لا يعرفون به بين أوروبا وآسيا. وليس صحيحاً أنهم معزولون تماماً عن العالم. ولم يكونوا يجهلون أنهم إن اجتازوا قمة الجبل فالكرج جيرانهم، وإن نظروا عبر نهر بشزه فالروس والقبرتاي، وعبر القبرتاي الأوسيئ والشيشان والداغستان. وكانوا يعرفون أنهم إن اجتازوا البحر الأسود فالترك من جانب، ونغوي القرم من جانب آخر. ويؤشدون في مراثيهم مأساة هجمات النغوي - المنغول على جبالهم. ويتغنون في قصائدهم ببطولات العرق كله.

وبعد زوبعة النغوي - المنغول هذه فحسب اختار الأبراخ العزلة. الإنسان يعيش من أجل أسرته، وأرضه وشمسه وسمائه. ظل الأبراخ يعيشون نمط الحياة الذي ارتضوه حتى وصلهم الخبر المأساة غير المنتظر: على حدود بلادهم يحتشد الجيش القيصري. ويُنشئ تحصينات على ضفاف وشكّه وقُجْبَس.

صادف وصولُ مُجَّد أمين المآسي الثقيلة التي تمزق أرض الأبراخ. وكان النائب يريد أن يستفيد من هذا الوضع القلق لتنفيذ خطته. سيسمعون كلامه، وسيرون ما يفعله. من السهل تطويع الإنسان الواقع في أزمة. وسيزداد سروره بما تقدمه إليه، ولو كان شيئاً تافهاً، كلما تورط في المأساة.

دارت الأخبار في مضافة بولتقوه ثلاثة أيام بلياليها. وكل من جاء إلى المضافة لتحية الضيف حمل إليه خبراً ما، وخرج منه بخبر.

وتبعاً للعادات الأديغية لم يسأل أحدُ النائب عن مهمته. كان وجود ضيف عند بولتقوه مفخرة وإن لم يعرفوا هُويته، وكان فخراً للقرية أيضاً. وأعظم ما يعتر به المضيفون هو أن يأتي ضيف من داغستان البعيدة قطعاً كل هذه المسافة، ويرى سكان القرى المجاورة، بل الأبراخ كلهم الضيفَ عندك.

منذ اليوم الأول أحب فلاحو منطقة طُوكج مُجَّد أمين. وما دفعهم إلى هذا ثلاث صفات رأوها فيه: حديث السن، لغته الأديغية طليقة، وتلاوته المميّزة للقرآن. ولم يكن الفلاحون والأسر المنتفذة وبولتقوه المضيفُ وحدهم في هذا الإعجاب فحين يتجه مُجَّد أمين ذو القامة المديدة إلى الصلاة تراقبه الفتيات، من بنات المضيف المدللات، إلى بنات طُوكج، من وراء ستائر النوافذ.

في أحد الأماسي، وقد انصرف الضيوف، قال بولتقوه شقّلت للضيف:

- أظن يا مُجَّد أمين أننا سنبنا لك الملل في البيت لأن الأديغة يقولون إن الضيف بعد ثلاثة أيام يصبح جزءاً من أسرة المضيف. سنخالط قرى الأبراخ غداً. تتعرف عليهم ويتعرفون عليك؛ ما رأيك؟

- كلامك كلامي يا أمير. - لم يدعه الضيف ينتظر.

- ها أنت سمعت، الأديغة كلهم في ضيق. جاءتنا مصيبة غيرُ منتظرة من بين روسيا وتركيا. ظننا أنهم سينسوننا ويتجنبوننا ولكنهم احتشدوا على بابنا. وسليمان أفندي ظل يرفع يده بالدعاء ويخفضها، ولم يخدم الأديغة بأي خير.

- لا أريد أن أسمع اسم سليمان أفندي الخائن يا بولتقوه، - حسم مُجَّد أمين الموضوع مرتاحاً إلى أنه وضع المضيف على الطريق الذي يريده. - هذا إنسان تحلى عنه الله الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل هو إلى أحد!.. - انتظر قليلاً ريثما يتقبل المضيف كلامه، وأضاف: - ثم إنس ذلك الذي وصفته بإنزال اليد

ورفعها. الله يسمع كل شيء ويرى. الله أكبر، قل: آمين يا بولتقوه. - رفع
النائب راحتيه وبدأ الدعاء. وكما فعل الضيف فعل المضيف.

حين انتهى الرجلان من الدعاء، برأ شقلت نفسه:

- والله لم أقصد شيئاً بكلامي أيها الضيف. لست ممن يتكلمون على الله، وأنا
من بنى جامع طوكج. أهان سلوك سليمان أفندي الأديغة فأجبرني على أن
أقول ما قلت. ليغفر الله لي!

- الله واسع الرحمة.

- نساء البيت لهن رجاء عندك أيها الضيف، - قال المضيف فجأة، -
يسألك أن تسمعهن سورة من قرآنك بصوت عالٍ كما تفعل في الجامع إكراماً
لهن إن لم يكن الوقت متأخراً.

- إحسان الله كبير يا شقلت، وإحساني لا يُقاس بأفضاله. - فتح مُحمد أمين
ساعة الجيب الفضية ونظر إليها مرتاحاً لطلب النساء وإن لم يُظهر فرحه. - لا
يتعلق فعل الخير من أجل الله بوقت متقدم أو متأخر. ولكن أود أن أُعلّق على
كلامك "قرآنك" بأنه ليس قرآني بل قرآن الله. هذا ما أريد أن أعلمه لك
ولكل من يعلّقون أملهم بالله. ستكون الآخرة التي سنرحل إليها موافقة لما فعلنا
في دنيانا. كل ما في دنيانا بشمسها، وسمائها، وأرضها، وغاباتها، ومائها، حتى
شعاع القمر المتسرب من النافذة وحلاوة ما نسميه الحياة ومرارتها، كلها دنيا
عارية لنا فانية. أين قلت لي يا شقلت من سينصِتُن إلينا؟

- هن في الغرفة المجاورة. هيا يا نساء اصمتن!

- لتتوضاً حتى نمثل أمام الله طاهري القلوب والأجساد!

سُمت أصوات إبريق الماء والطشت. وتوضاً مُحمد أمين متمهلاً، مبالغاً في
التمهل. وجلس إلى المصحف الذي على المائدة. واختار السورة التي تحمل اسم
النساء. وبعد قليل قرأ بصوت حاد رجراج:

- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ!

انطلقت تلاوة مُحمد أمين المدوية من مضافة بولتقوه. وقفزت إلى باب غرفة
النساء، وارتقت على جبال الأبخاخ. والتلاوة بلغة لا تفهم معناها تمرق القلب

حيناً وتؤلمه حيناً. ورهبة ليل الخريف التي تخيم على أرض الأبراخ تنتشر في سماء قرية طوكج.

انفعل شقلت على نحو لم يفهمه هو نفسه مع أنه لا يسمع لغة القرآن للمرة الأولى. يشرّد عن نفسه مغلوباً بالفرح الناعم كأنّ لم يبق في العالم غيره. ويُحَيَّل إليه أنه واقف في حضرة الله العليّ الذي يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل هو إلى أحد. ولم يعد يعرف الدنيا التي فيها الخير والشر.

وفي الغرفة الأخرى لان قلب الأم والابنتين اللواتي يسمعن لغة القرآن لأول مرة. واتسمت وجوههن بالانعتاق والاستلاب وانقطاع الأمل. والخوف الذي يتسلل من القلب يعمّد الفتاة "نوريس" وتقترّب من أختها الكبرى دادين التي تنهمر دموعها وتضمها إليها، فتصحو الأم حين تعان حال ابنتيهما وتقول لهما:

- لا خوف متى وقفتما يا ابنتيّ في حضرة الله.

لم ير شقلت من اللائق أن يجلس مرتاحاً على مسند السرير المغطى بغطاء مطرز فرفع يده ناصباً ظهره يستمع إلى التلاوة. وليس في ذهنه إلا صوت النائب الذي لم يبق في العالم صوتٌ غيره. ونسي النسوة اللواتي توسّل إلى النائب من أجلهن.

والنائب، بالإضافة إلى السورة التي يقرؤها، ليس قليلاً ما في ذهنه مما يقلق. ولكنه يضع كل وساوسه جانباً ويهرّ جسده بما يتناسب مع اللحن. وشقلت يستحلي صوت الضيف وحركات جسده ورأسه. الله يرعاه، ولما كان راضياً عني أرسل إليّ هذا الرجل موفداً منه. ربما أمثال هؤلاء من يسمّون بالأنبياء!.. شاب جميل الجسد، حكيم! وأما صوته فليس كأصوات سائر الناس. إنه يلتحم بالقلب ويرقّقه. يُحيي في الرأس أفكاراً غير دنيوية ولو أنها مخيفة قليلاً. ضيفنا إنسان غير اعتيادي، ليس كسائر الذين يطرقون بابنا. وطريقة كلامه وضحكته وحركات يديه، وجلسته مختلفة عن غيره. يقول إنه آتٍ من نواحي الداغستان والشيشان ولكنه لا يشبه سليمان أفندي البتّة. لم يكن الأخير جاهلاً بالقرآن، ولم تفارق مفرداته الإسلامية لسانه ما دام بيننا. وهو من أوصاني ببناء جامع طوكج. كان الجامع يجعل الفلاحين مطيعين للأمر. حبّينا بالدين طالباً منا ألا

نتهاون، ورأينا صدقه عياناً. هَذَا الدينُ الفلاحين خلافاً لِمَا كانوا عليه قبله. ولم يقتصر الأمر على قرية طوكج بل نشر الصبر والحلم بين الأبراخ. لا أعرف تفسيراً لتحول قلب من أنجز كل هذا إلى الكفر.

سهر المضيف والمضيف بعد التلاوة إلى آخر الليل لم يتركا موضوعاً إلا طرّاه. المضيف عنده ما يقوله والمضيف يتعجب مما يسمع. وأيُّ خبر جاء على لسان أحدهما آل إلى الأديغة - الروس - الترك. ومع أن مُحمَّد أمين أعلن أنه لا يريد أن يسمع سيرة سليمان أفندي فلم يستطيعا تجاؤرها. وفي ظل حديثهما عن النائب تطرقا إلى الشابسغ والناخووي والبجدوغ والوييخ. وأتيا على ذكر زانه سفربي وبرزج جراندوقوه وتسي حاترباي وحجمقوه أسلانج وحاغور نور مُحمَّد وجهه جبريل، حتى نيكراس تيم. ودخلا إلى أرض البسلني والقبرتاي والشيشان والداغستان. وربّما ما لهما علاقة به وما ليس لهما علاقة به لأن الإنسان لا يمكنه إلا أن يهتم بهموم زمانه. ومهما انتصب أمامهما من خبر لم يكن شقلت يستطيع إلا أن يسأل السؤال الذي يشغل باله:

- لا تؤاخذني يا ضيف، أظنك رسولاً من الله من خلال مراقبتي لك في الأيام القليلة الماضية.

- نعم أيها الأمير؟! - تظاهر مُحمَّد أمين بالرهبة من السؤال رغم فرجه به.
- نعم، نعم أيها الضيف ليس هذا رأيي وحدي. ثق بي وأخبرني مدى صحة استنتاجي ولن أخبر أحداً. لا أظن في الجمكوي والأبراخ من لا يثق بي.
- أيها الأمير، يا من جعل الله يومه مئة، لا تدفعني إلى الخطأ. ليس عندي القدرة على حمل مهمات الرسول، أرضيه وسمائه الثقيلتين. ولكن بما أنك سميتني موفد الله الكبير الذي يُتوسَّل إليه ولا يتوسل إلى أحد فلا اعتراض لديّ. وأنا أعيش وما يقبله أقبله، وكلامه كلامي، وفعله فعلي. وإن أنت سلكت هذا السلوك رحمك وكنت في عداد من سيفتح لهم باب جنته الأخروية. الله أكبر!..
- لم يتأخر المضيف عن ضيفه حين رفع الأخير يديه إلى السماء.

تنفس النائب الصُّعداء حين أراح جسده الذي كان حريصاً طوال النهار على انتصابه أمام الناس. وهو الآن يتفكر كعادته في ما فعله هذا اليوم. يستعرض الناس الذين تحدث إليهم وتحدثوا إليه واحداً واحداً. ويفكر في ما قال لهم وقالوا

له. ويكرر الكلمات التي يمكن أن يحتاجها مستقبلاً. يتناسى ما يعتقد أنه غير ضروري. ولا يمثل أمام عينيه الفلاحون المصلّون متجاوزاً من يزوره في المضافة من المقرين من المضيف ورؤساء الأسر الأقوياء. والعجيب أن فلاحي قرية طوكج والفلاحين الذين اجتمع بهم أمس لا يختلف بعضهم عن بعض كثيراً. ولا يرى فلاحي القريتين ينظرون بود إلى المتنفذين.

انحالت الأفكار التي لا نهاية لها على مُجد أمين بدلاً من أن يستريح منها. تقلّب يميناً ويساراً. ووجد الوسادة قاسية فعالجها أكثر من مرة. ونهر نفسه متسائلاً عما حدث له. يستعيد أفكاره رغباً في تجميعها بدلاً من تشتتها في الخطوة الأولى من المهمة التي أرسل من أجلها إلى الأبراخ. يقارن بين ما رآه في الأبراخ وما سيراه، وبين المهمة التي أوكلها إليه الشيخ شامل، وقيسهما أحدهما إلى الآخر، ثم يبعدها عن بعضها. يفكر: أليس القبرتاي والبسلني أديغة؟ ألا يمكن اتخاذ ما رآه فيهما، وما لفت نظره، مقياساً في الأبراخ، فينتصب أمام سؤاله سؤال آخر. ويبحث مدرّكاً أن الوقت ما يزال مبكراً على الجواب في طريقة لتقريب أفكاره من حياة الأديغة وطبيعة العلاقات بين الناس.

وأكثر موضوع يحتاج إلى أجوبة كثيرة هو طريقة تقربه من الأديغة سكان الجبال، واكتساب ثقتهم، وامتناعهم لكلامه آخر الأمر. ولا يتوقف هنا بل سيجعل من نفسه إن استطاع زعيماً لهم، وهو ما لم يستطعه النائبان اللذان سبقاه.

الإنسان الواقع في قلق ومصيبة، قال النائب، مثل العود الطري. حين تجد له مخرجاً وتسحبه من الدار تستطيع أن تطوّعه متى حنّيته. اليوم ثارت أسئلة كثيرة تتعلق بحياة الأديغة. ما الذي سيكون أحسن جواب لها؟ أسئلة المتنفذين وجهاهير الفلاحين بلا إجابات. العادة حين تقع البلاد في ضائقة أن يتناسى كل إنسان حزنه الشخصي، وتصبح البلاد عوداً— وتداً واحداً— ولكن هذا الاتجاه لا يُلاحظ في إقليم الأديغة كله. يبدو الأديغة يحبون وهم يمتلكون سماء واحدة وشمساً واحدة وأرضاً واحدة ولكن البلاد مشتتة بين أبراخ وشابسغ وناقواي ووييخ وبجدوغ وجمكوي. ومن بين هؤلاء يعزل البسلني والقبرتاي أنفسهم قريتين منهم وبعيدين. الروس أغاروا على الأديغة بالطريقة نفسها التي يهاجم بها

الصقر الفراخ المشتتة التي غابت عنها أمها لأنها أسهل عليه. والأديغة يصرخون من الأعشاش التي يعيشون فيها منفردين ولا يجابهون العدو بوحدة وتضامن. وبالقياس إلى عرق الأديغة الذين جئت إليهم فالأبزاخ كلمتهم واحدة. متعاونون، متضامنون، ولهم هوى في الإسلام أكثر من غيرهم. وتبعاً لمعلومات مُضيفي فالجوامع التي بنيت فيها ليست قليلة. نحن نعتب على الخائن سليمان أفندي ولكن ما أنجزه لدى الأبزاخ ليس قليلاً دون أن يعني هذا مساعدته على ما فعل بنا، وذكّره بالخير.

قطع نباخ كلب قريب وتجاوب الكلاب في الأحياء القريبة تفكير مُجد أمين، وأنصت. وكما يقال: ما من أديغي لا يسرق، ولا من بعوضة لا تلدغ، فالله أعلم ماذا يدور حول حظائر المضيف... وفي اللحظة نفسها ارتسم أمام عيني النائب جباغ وتومن اللذان رافقاه إلى الأبزاخ، فابتسم ولم يتذكرهما بالسوء. وما إن اختفيا من أمامه حتى حُبل إليه أن "ديدان" الابنة الكبرى للمضيف تنظر من ورائهما بوجه شاحب. ثم سقطت من أفكاره دون أن يعرف هو أيضاً السبب نظراً الفتاة التي لا سؤال ولا جواب لها. كان يود أن يستعيد نظرة الفتاة الحلوة مغمض العينين، ولكن الأفكار القومية الأخرى أبعدها. ورغم أن تذكر الفتاة المضيفة جرى بهذا الشكل فقد تساءل النائب عن سبب امتثالها في خياله.

تغلب على مُجد أمين ظلمة ليل الخريف ومسألة الأبزاخ المتسارعة، ينهض غير قادر على النوم ويبقى إلى جانب النافذة إلى أن أحست رجلاه ببرودة أرض الغرفة الطينية. ولم تكن تفارق عينيه حين كان إلى النافذة، وحين نام، العلاقات بين متنفذي الأبزاخ والفلاحين، والتناحر الخفي بينهم. وإذا كان هذا التناحر في كل الأبزاخ كما في قرية طوكج فما الطريقة التي سنقترب بها من نقطة الضعف؟ الآن، بعدما أرهقت الأفكار الكثيرة النائب، غرق في النوم.

V

اقترب الفرسان الذين غادروا قرية طوكج بعد صلاة الفجر، وحتى تجاوزوا مضيق مامقوه، وحتى صارت ضفة نهر شخغواشه وراءهم، من عدة قرى أبزاخية.

زاد عدد الفرسان الخمسة الذين يقودهم الأمير بولتقوه إلى خمسة عشر تكريماً للضيف الذي يودعونه وقت شرب الشاي. ثم زادوا ضعفين وقت ظهور الجوارح في السماء.

وبالإضافة إلى الفرسان يخرج الناس في القرى إلى الشوارع. والذين لا يعرفون الفارس المحتفى بهم أكثر ممن يعرفون. ومن يعرفون يعدّون النظّر في وجهه، وإلقاء التحية عليه، ومصافحته، وتبادل بعض الكلمات معه، مفخرة. وكان في المضافات، وعلى الشوارع من يسأل: "من هذه العمامة البيضاء التي يصحبها بولتقوه؟" ويتذكرون النائب سليمان أفندي.

يرفع الاحترام غير المتوقع مُجد أمين عن السرج قليلاً غير عارِفٍ ما يقال من وراء ظهره، متعجباً مما يراه أمامه، معتبراً إياه مفخرةً مستحقة. يبشّ في وجوه الأبرّاح كأنه يعرفهم طوال عمره، ويلمس صدره وهو يومئ إليهم إيماء احترام خفيفة. ويخطر له كثيراً أن يكلمهم، ولكن لم يجد من المناسب أن يبادر هو بشخصه حين لم يلمس من الأمير المضيف شيئاً من هذه الرغبة.

تبدأ الأفكار التي راودت النائب طوال الليل تعود إلى ذهنه من جديد. الآن يرى بعينه العلاقة بين المتنفذين من الأديغة وعامة الفلاحين. مخافة الأمير تُظللّ الفلاحين، وتلجمهم، بل تعصرهم. وبين الطرفين يقف النبلاء وزعماء الفلاحين. ويمكن أن تتجاهل وضع العبيد. يستغرب الضيف أن الناس الذين استقبلوه في أي مكان يتمتعون بالأدب والأخلاق المناسبة مع مواقعهم الاجتماعية. وليس الأبرّاح وحدهم في هذا بل لاحظ الأمر نفسه في القبرتاي والبسلني. قال النائب: تحتل فكرة الأكبر والأصغر مساحة كبيرة في حياة الأديغة. والمرأة محترمة مقدّرة لديهم.

حين تجاوز الفرسان الذين يلتفون حول الجبل المنعطف انتصبت أمام عيونهم إحدى القرى. وبعد قليل ظهر مستقبلو الضيف.

- أود أن أسألك أيها الأمير شقلت إن لم يكن هناك مانع، - قال مُجد أمين. - أرى كل قرية تستقبلنا فهل أخبرتها سلفاً؟

- لا يا ضيف. ولكن أقول لك، - ظهر من صوت الأمير رضاه بما سمع، - الأديغة يتعلقون جداً بالضيف. يعرفون من أتى إلينا منهم ومن غادرنا. لا يعد

الأديغة الأسرة التي لا يحل أحدٌ عليها ضيفاً ، والأسرة التي لا تُقدّم فيها مائدة للضيوف، أسرة. ويستوي عند الأديغي أن يجترح بطولة وأن يتناقل الناس خبر مجيء ضيف إليه. وليس هذا مدعاة للفخر ولا رياء بل هو إنسانية. أليس هذا ما لم يقبله الأديغة من قيصر روسيا؟ حشد جيشه حولنا بحجة أن تركيا منحتكم إيانا، ولم يُخبرنا فنستقبله استقبال الضيوف. ماذا ينقصنا، ألسنا أولاد أب وأم كغيرنا؟ وعندنا عادات وتقاليد! وهذه الشمس التي تراها والسماء تُظللان أرضنا. لا أريد أن آتي على ذكر تركيا التي تصرفت معنا بلؤم لا مثيل له. هل يُعقل أن أقول: هذه القرية لي فتصبح لي؟! بل ألي الحق في أن أدعي ملكيتها؟ وفي شأن استقبال الضيوف في القرى أضيف إلى كلامي: حين نفقد روحنا القومية، ونفقد عادات التواصل الاجتماعي بيننا، ننهي ساعتها روحنا القومية وإنسانيتنا. الإنسان لا يعيش من أجل الطعام فحسبُ أيها النائب!..

— لأول مرة نادى الأميرُ مُحمَّد أمين بالنائب مُسمِعاً رفاقه.

— الله واحد يا أمير. وليس في دينانا الثقيلة من في قلبه رحمة إلا الله. — أسمع مُحمَّد أمين الأمير الذي لم يأت على ذكر الله مرة واحدة، وفي الوقت نفسه متجهاً إلى رفاق الأمير. لا تسمحوا لأنفسكم أن تنسوا الله الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل هو إلى أحد. وكونوا على ثقة من أن من في قلبه الله ستتحقق له أمنياته الدنيوية. وحين تعودون إلى لقائه في الآخرة سيضاف هذا إلى حسناتكم. الله غفور، لا يترك أحداً لا يشملُه برعايته. — أنهى مُحمَّد أمين حديثه الذي بدأه حازماً. ثم أضاف بعد وقفة: — ولكنني سأعلّق برأيي على أقوالك أيها الأمير. من الصعب على أي قوم أن يمارسوا إنسانيتهم في هذا العالم الثقيل دون وحدة، ودون رعاية من الله. لستم وحدكم المهمومين بالقضية الأديغية التي نجمت بين روسيا وتركيا فالعالم كله مهموم بها. وبين المهمومين الداغستان والشيشان. لا تيأسوا، سننتصر على أيّ عدو بعون الله. ولا تدعوا مجالاً للشك يتسرب إلى قلوبكم في الانتصار على من يتعدى من الكفار على عالمنا الإسلامي. إن يئسنا فالحصان الذي نركبه سيصيبه اليأس أيضاً!.. وأكرر تعليقاً على ما عرضته من أفكار: لستم وحدكم في الحرب إذ أن الله لن يخذلكم في المعركة. وأسمع هذا الكلام يُقال في البسلني والقبرتاي.

- ويقال هذا في الجمكوي أيضاً، - أضاف أحد النبلاء جزعاً من سقوط اسم الجمكوي من قائمة أعراق الأديغة.

- من البديهي أن يقال!.. - وافقه مُرضياً إياه. - يقال هذا في كل إقليم الأديغة لأن عدالة الله الذي يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل إلى أحد تُظْلُكم. ما رأيكم أنتم يا عامّة الفلاحين؟ - استدار مُجد أمين بسرعة وسأل الفرسان الفلاحين.

- كلام إقليم الأديغة كلامنا يا أمير. - أجاب أكبر الفلاحين عمراً، شاملاً بجوابه الأمير والنائب.

وصل الفرسان المستقبلون للضيف. خرج من بين الثلاثة المتقدمين أوسطهم الرجلُ الكهل الأبيض اللحية، وقال لهم:

- أهلاً بالضيوف! - أضاف بسرعة إلى تحية استقبال الضيف عند الأديغة: - باسم قرية جَعَرِ الفلاحية نرحب بالنائب مُجد أمين الذي نسمع باسمه ولم نره، ضيفاً علينا. وأنت أيها الأمير شقلت، يا من جعل الله يومك مئة، أن يكون ضيفك ضيف خير. هذه قرية فلاحين كبيرة، لا تتجاوزوها، تفضلوا! والذين سيصلون صلاة الجمعة اجتمعوا في الجامع.

- رجعنا إلى قرية جَعَرِ الفلاحية كُرمي لتسي حاترباي وليس كرمي لكلامك السخيف المرائي! - توهج وجه الأمير من إبراز اسم القرية الفلاحية التي لا زعماء فيها. ولم يستطع أن يكظم نفسه أمام الضيف. ولم يكفِ هذا بل سأل المتكلم باسم الفلاحين: - ألم تعودوا تحت رعاية الزعيم تسي حاترباي؟

- تحت أمرك يا أمير، - أجاب الفلاح مستهزئاً، ولم يتراجع إصبعاً أمامه. - تسي إبراهيم أحد رجالات الأبراخ كلها وليس مضيق فُجيس. وإن كانت هيئته ومعروفه لا تعمراننا فمن تغمر في رأيك يا أمير؟ لسنا الآن في موقف تُقِيم فيه العلاقات بين الفلاحين والزعامات. تعال أيها الضيف، تفضل! وصلو الجمعة في جعر يحبون اللقاء بك، وينتظرونك. - قال الفلاح ما يريد، وأوعز لرفاقه الفرسان أن يتنحّوا بما يعني فتُح الطريق لهم.

التهب جسد شقلت من ركابه إلى شعر رأسه مما سمع. واحمرت عيناه، وتصبر متظاهراً بالالتفات إلى الضيف.

سُرَّ مُحَمَّدٌ أمين بالشجار الذي نشب فجأة بين الأمير والفلاح إذ أنه يفهم فائدة مثل هذه المشاحنة بينهما له: ستتشر أفكاره في كل اتجاه كجذور شجرة فتيّة. ولكنه لا يحيد عن الفكرة التي خطرت له قبل أيام: سيقف في المنتصف بين الطرفين المتناحرين. ثم يعمل على تقديم نفسه للفلاحين بمعونة الأسر المتنفذة. ودون هذه السياسة لا أظن من الممكن التفاهم مع الأبراخ الذين أراهم.

- إن كان هذا رأيك أيها الفلاح فأرسل وراء الزعيم تسي حاترباي. - قال شُقلت، - نصلي الجمعة معاً.

- لا حاجة لانتظار تسي حاترباي الذي جعل الله يومه مئة! -

- ألا تقول هذا إذن يا مبارك النسل! - صرخ بولتقوه. - لماذا نحن واقفان هنا نتجادل!.. - لماذا جئتُ بضيّفي إلى قرية الفلاحين المغمورة هذه، أستحق ما جرى لي. لا يجوز النزول في قرية ليس فيها تسي. - نهر شقلت نفسه.

الساحة التي يقوم فيها الجامع لم تعد تتسع للقبعات. وقدم فرساناً من قرى أبراخية مجاورة وقيدوا خيلهم إلى مرابط بيوت القرية. ولم يقتصر الحضور على الرجال فالنساء المتقدمات يشغلن طرفاً من الساحة، والأولاد على الأشجار كالغربان. وبعض الفرسان المتأخرين يراقبون من وراء المشاة. وأنظار الفلاحين متجهة إلى الرجل الأسمر الجسيم الواقف على المئذنة. يرددون معه وهم يهزّون برؤوسهم. ومتى اتفقوا على فكرة ما وأشهرها خناجرهم لمعت وهم يهزونها فوق رؤوسهم تحت الشمس كرؤوس الرماح. وحين يُعيد مَنْ على المئذنة خنجره إلى غمده يرتفع صريف الفولاذ من أغماد الفلاحين وهم يغمدونها. ويدخل في هذا سهيل الخيل لحظة قراع الأسلحة على ظهورها، فيدخل الخوف المصبوغ برائحة الدم في قلوب النساء. وتتنفض قلوب الفتيان الذين لما يتخذوا قالب الرجال.

- نحن الأبراخ، لم نؤيد الشابسغ والناخواي حتى وصلت نار الحرب التي شنها القيصر علينا إلى سطوح بيوتنا، وأحرق لجانا وشواربنا. لم نُصغ إلى أي من نصائح زانه سفري ولم نلب له رجاءه مقتنعين أن الحرب بعيدة عنا. - يقول تسي من على المئذنة ويطيّر صوته، - أليست أرضنا هذه التي تُظللها هذه الشمس وهذه السماء؟ ألسنا أديغة، ألسنا نعيش في بلاد أديغة واحدة؟ أليس ما عندنا وجهٌ واحد وشرف واحد؟ لماذا نقف مكتوفي الأيدي حيال المؤامرة

التي تحيكها الدولتان المجاورتان تركيا وروسيا ضد شعب بريء، ونسكتُ كأن أفواهنا مملوءة ماء، فنسمح لروسيا أن تنهب بيوتنا؟ لماذا نسمح لهم أن يحولوا أرضنا التي لا أجمل منها في العالم إلى ذكرى فحسب. هل فقد رجال الأديغة رجولتهم؟ أم اختبئوا تحت أثواب من ولدنهم؟ إن ركعنا أمام العدو الذي يهاجمنا فبأي عين سننظر في عيون أمهاتنا؟ وكيف سنعود ونعيش مع أولادنا أيها الفلاحون؟! نحن في ظروفنا المأساوية العصبية نقف أمام قول مأثور واحد: إما أن نكون رجالاً وإما أن نموت! لا مخرج لنا غيره!.. حسم حاترباي كلامه كأنه ضربة سيف وعيناه نحو الضيف.

صرخ أحد الفلاحين من الطرف المقابل:

- ما من مشكلة إلا لها حلٌّ يا تسي!.. إن صالحنا الروس حافظنا على وجودنا.

أرتج على كثيرين وهم يشعرون بالخطر الذي يحمله الجواب غيرُ المتوقَّع، منتظرين ما سيحدث.

- مَنْ بيننا تحولت قلوبهم إلى قلوب كفار؟! - صرخ تسي حاترباي من المذنة وصوته يحمل غضبه غير المكظوم.

- أنا، مراد، - ابتعد قليلاً عن جيرانه، - الابن الأصغر للفلاح أُخْمِت. أن نرجم الجبل بالبيض وأن نقف في وجه الروس سيّان أيها المحترم، ولا يعني هذا أن القلب كافر.

- أيُّ ثرثار ظهر بيننا الآن!.. - خطا حاترباي خطوة وكأنه سيقفز من على المذنة. ثم أمسك بالحاجز الخشبي: - ماذا تنتظرون أيها الفلاحون!..

- مهلاً، مهلاً أيتها الجماعة - قفز مُجَّد أمين من الحصان.

صدر من بين ضجيج الفلاحين صوت مسدس، وهوى الشاب الذي لم تنبت لحيته وشارباه بعد دون روح. وأسرع إلى الجثة عدد من الفلاحين.

نادى تسي الضيف غير عابئ بالعثمان الذي نُقل على حارك الحصان، وكأن شيئاً لم يحدث في ساحة اجتماع الفلاحين: - أهلاً بالضيف. اصعد إلى هنا وأسمع الأبراخ ما تريد أن تقول... لا تؤاخذنا على علاقاتنا نحن الفلاحين والزعماء. أنت أتيت من بلاد، ونحن من بلاد أخرى. - وحين صافح الضيف

قال للأمير شقلت وعدم رغبته فيه واضحة من صوته: - وأنت أيضاً يا أمير ترجّل واصعد إلى حيث نقف. ستتسع لنا المئذنة على ضيقها.

صعد بولتقوه إلى المئذنة، وتفحص الفلاحين الذين يغلب عليهم لون لحامهم وشواربهم الأسود. وارتسمت أمام عينيه قرية جعر التي لوّها الخريف بألوان متنوعة، وجوار القرية والجبال القريبة - البعيدة التي تبدو قممها. ووصله نواح النساء في البيت الذي نُقل إليه الجثمان. وشعر بالاستياء من ملامسة مرفق تسي الذي لا يكن له الود.

وقع مُجد أمين في مواقف صعبة كثيرة وإن لم تكن سنوات عمره طويلة. ولكنه لا يتذكر موقفاً محرّجاً كموقف اليوم. يوم الأبراخ الخريفي يراه النائب جميلاً لطيفاً. انتظر ألا يحمل إليه إلا الخير ولم يتوقع الشرّ قبيل الظهر. لم يكن ليفضّل شيئاً على ألا يُقتل أمامه أحدٌ في أول دخوله أرض الأبراخ، وفي صحن الجامع، وعلى مرأى منه، مع أن الزمان القلق يحمل معه أموراً غير مفاجئة كثيرة. ولكنه، كما يفعل في الأوقات العصيبة، تماسك بكل أعضاء جسمه، واعتبر ما حدث قضاء من الله، وتفقد الفلاحين بعين حادة، واحتفظ في عينيه بصور المئات ممن أمامه، ورفع يده على نحو لا تتجاوز عِمامته البيضاء، ونادى الحضور:

- أوجه كلامي إلى عباد الله الذين ارتضوا الإسلام ديناً، باسم الله الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل هو إلى أحد. الله أكبر، الله كبير، الله القيوم على الدنيا الفانية وعلى الآخرة الباقية، يسمع كل شيء ويرى. ما سأعرضه اليوم أيها الأبراخ هو ما قاله الله على نحو أوضح من الشمس العظيمة التي فوقنا، ثم رواه نبيه. الله يعلم قلقكم في الدنيا الذي جاءكم به الكفار. ويرعاكم دائماً بعنايته. وأسلم عليكم باسم أنبيائه. الله أكبر، ليتابغي في دعائي المتوضئون منكم. ولبتوضاً من يريد أن يقف أمام الله طاهراً جسداً وقلباً، ثم ليقف معنا! - الفلاحون الذين بلا وضوء وقعوا في هرج ومرج، وهجموا على البئرين على باب الجامع. يشمرون عن أذرعهم وسوقهم. يصبون الماء على وجوههم. ومن لا يجد مكاناً على البئر يلجأ إلى الجيران. ويُنادى على من لا يجد ماء: - تعالوا وتيمموا من كومة الرمل هذه. الرمل إن عزّ الماء يحل محله. - وحين خفّت حركة الفلاحين رفع مُجد أمين يديه إلى وجهه وقال: - الله أكبر!...

رفع الجميع دون استثناء أيديهم. تسلل فوق رؤوسهم صوتُ دعائهم المتَّسقِ وغيرُ المتسق الذي لا يفهمون منه شيئاً. ثم خطف النسيم الخفيف الدعاء إلى قمم الأبراخ.

الفلاحون الذين يحفظون كثيراً من الأدعية، والذين يحفظون القليل، يتبادلون النظرات بأطراف العيون. الذين لا يحفظون الكثير يعيدون الدعاء نفسه دون ملل وإن لم يفهموا منه شيئاً. ومن لا يعرفون العربية تنطلق ألسنتهم بلغتهم فيدعون إلى الله أن يفهمهم، ويغمرهم برحمته، ويُعطي رصاص الروس ويُصمِّه ويتجنب أسرته، ويحمي أرض الأديغة من الحرب الدامية. يُشعر النائب الجمهور بقرب انتهاء دعائه:

- الفاتحة!.. - يمسح بيديه على لحيته وشاربيه الأسودين، ويضيف مُسمِعاً الجميع: - الله أكبر، ما من مسلم لا تصله رحمة الله. ليرحمكم الله الكبير الذي كنتم في حضرته. ولتُنذروا أوامره بالخير! والآن أيتها الجماعة المسلمة، ما أريد أن أقوله والله معي، وما يرضى به أرضي، هو مقتل إنسانٍ أماننا، لم أكن أود أن أقابلكم مع الآلام الجسدية والروحية. وما حدث سيحزن له الأنبياء الذين أوفدوني إليكم كما حزنت أنا... - توقف النائب مدرِكاً أن الأفضل عدم التعمق في الموضوع. نظر بطرف عينه إلى حاتراي، والتفت إلى شقلت. - ولكن ما العمل؟ هذا قضاء الله. والفلاح الذي قضى لا أظن أن قلبه كان هائجاً دون علم الله؛ أليس شاباً بعد، ربما لا يدرك حجم المأساة التي نحن فيها... قلب الروسي وقلب الكافر كالجني إن لم يكن إيمانك قوياً هجم عليك ودمرك. وما يوقعك فيه من غفلة أكثر. لا تدعونا نعتبر ما حدث أماننا اليوم نتيجة للظلم الإنساني بل جزءاً مما جلبته لنا المأساة. من تخطر له الخيانة يكرهه الله أيتها الجماعة، فليحم كل نفسه منها، ولنتواصل ألا يدخل في قلوبنا ما داخل قلب من سلم الروح الآن. ومن كان السبب في مقتله، - رمى تسي بنظرة جانبية خفية، - لا تدعونا نصفه بعدم الشفقة. تصرف بأمر الله، والآخر الذي أطلق النار ما كان ليستطيع أن يضغط على الزناد دون معرفة الله. أرجوكم في هذا الوقت العصيب الذي يمر به الأديغة أن تُبعدوا الخيانة والشر من قلوبكم. قوُّوا قلوبكم، ولا تأخذكم رافة بالكفار! لن نخطئ لأن الأنبياء

يخاطبونني بعلم الله. ولا يجعلنا الله في عداد من يخطئون. ولنقف مرة أخرى باسم الخطأ الذي داخل قلب الشاب التعيس الذي قضى في الاجتماع، باسم الشر الذي اقترفه. ولندعُ له أن يغفر الله له ذنوبه. ليُنوا قلوبكم لأني أسمع الأنبياء يدعون إلى الله أن يفهمنا. ولنتوجّه جميعاً إلى بيت المتوفى بعد أن نصلي الظهر، ولنُعزّهم، ولنُشاركهم مصيبتهم. ولكن أيتها الجماعة لي رجاء أخير عندكم اليوم: لا تقفوا بسلاحكم أمام الله! الله أكبر! - رفع المئات من الفلاحين أيديهم وارتفع دعاؤهم المهموس ثانية تحت سماء الأبراخ. ومن جهة الحي الواقع على ضفة النهر ارتفع عويل النساء...

كان تسي والفلاح الذي ضغط على الزناد بين الرجال الذين دلفوا إلى دار الفلاح أُمّت بعد الصلاة.

وحين انتهت مراسم الدعاء ومصافحات التعزية جلس مُحمّد أمين أسفل السور، وأخرج من جيبه المصحف الذي لا يتجاوز حجمه راحة اليد. قلب بضع صفحات وشرع يقرأ على روح المرحوم بصوت يرقق القلوب. واندفعت النسوة يلمن ما تناثر من شعرهن من تحت الغطاء، متظاهرات بالحياء من الرجال، ووقفن إلى جانب الجدار الآخر وراء قبعات الرجال.

قال مُحمّد أمين وقد رفع رأسه عما يقرأ حين ارتفع صوت بكاء النسوة اللواتي سمعن لحن لغة القرآن:

- أستمحلفكم بالله أن تهدّؤوا هؤلاء النسوة لأنه لا يجوز البكاء أثناء سماع القرآن...

VI

كانت العادة أن يتحرك الجيش الروسي حين يعرّي الخريف غابات الجبال فزار زانه قرباتر كثيراً من الأماكن قبل أن تتعرى الأشجار تماماً. وقابل الفلاحين والزعامات والأمرء. حدّثهم برأيه في الأحداث المعاصرة، واستمع إلى أجوبتهم. العجيب أنهم مهما تكلموا في قضايا الأديغة ثبتت صحة ما قالته له الأم. كانت خاتمة الأحاديث خبرَ شخص واحد: جولة النائب مُحمّد أمين في بلاد الأبراخ. ومهما تناقضت أخباره سقط منها ما ليس مهماً وبقيت رجولته وإنسانيته وثقافته وحكمته. سَمع هذا الرأي في البجدوغ أيضاً. أما الجمكوي

فلم يكن عندهم حدٌ لتقديره فيقرنونه بالله. ولم يبق حديثٌ في جوامعهم، وفي مضافاتهم إلا طريقة تلاوة النائب للقرآن وطريقة صلاته. ويُحِيل إليهم أن الله أنطقه بالأديغة دون أن يتكلفوا عناء السؤال عن المكان الذي تعلمها فيه. وطريقة قراءته للقرآن، وطريقة دعائه، وكلامه في الاجتماعات ترقق القلوب التي أثارها الزمان التعيس، وتستدرّ الدموع.

حين يتداخل الخريف الناعم مع طريق الجمكوي الآمن تهجم عليك أفكار كثيرة تتماشى مع وقع حوافر الحصان.

من يُثْقِل أفكارَ قرباتر غير الخفيفة هو شخصٌ مُخَد أمين. كيف استطاع النائب الثالث القادم من الداغستان تطويع الأبراز العنيدين؟ ونحن رغم أننا أديغة نتعامل معهم بصعوبة. وما إن ندير ظهرنا حتى يتقوّلوا علينا الكثير. القادم من بلاد غربية يمطرونه بالمديح في حضوره وفي غيابه. هل يتقبّل الأديغة الموفد الغريب أكثر منا كما تقول والدتنا؟ أم أن ترحيب الأبراز بالنائب الجديد سيكون قصيراً كالنائبين السابقين؟ أم يمكن أن يكون خبر تزويجه من ابنة بولتقوه صحيحاً؟ إذن يشهد هذا الزواج على أن الجمكوي والأبراز معجبون بالنائب. وهل يتزوج النائب المرأة الأديغة عن رضا؟ أم عن نفاق؟ أيكون يخفي خبثه عن خالطهم؟ لاشك في أن زيارته ستكون قصيرة حقاً. إن كان بولتقوه يتقبل النائب صهراً فلن نعيد الكلام في الموضوع. وما رأي تسي حاترباي في الموضوع يا تُرى؟

عبر قرباتر ورفاقه نهر شُخغواشه وحدود الأبراز على يسارهم والجدوغ على يمينهم، ودخلوا أرض الشابسغ عبر طريق خفي في الغابة.

قال قرباتر للفلاح الواقف إلى يمينه وهو مرتاح لدخوله أرض الشابسغ:

- دخلنا أرض الشابسغ يا ترام؛ ألقِ عليها التحية!

- وعليكم السلام، - ارتفع ترام بقدمه في الركاب تعبيراً عن الحب الدافئ في قلبه للأرض، وحيثاً شاعراً بالحياء في حضرة الأمير من استبعاد التحية التي جلبها الإسلام لهم بتحية الشابسغ الأزلية: نهارك سعيد! فدوّت التحية في الوادي. يا أرض الشابسغ يا نوري، لتعيشي يومك ألفاً!..

- آه يا ترام لا تصرخ كثيراً!.. - ارتعب حباط، - سيسمعنا القوزاق أصحاب القبعات الحمراء.

- هل تخاف من القوزاق يا حباط؟! - ابتسم قرباتر.

- لا يا أمير. ولكن مع ذلك ألا تعرف...

- سمعت والدنا كثيراً يقول إنك شجاع على القوزاق، وأنا شهدت على هذا كثيراً.

- الوقت الذي تظهر فيه شجاعة حباط هو حين يقع في موقف خطير. - شهد ترام على شجاعة حباط بين المرح والجد. ونظر نحو صديقه بما يعني الاعتذار.

- إن كان هذا ما تريدون، - ارتفع حباط على الركاب، وصرخ بأعلى صوته مقلداً ذكر الدب: - هيه يا أرضنا الخيرة التي تركها لي الأجداد، فرحك فرحي، وحزنك حزني!.. إن كان على القوزاق الكريهين فلا أعدّهم أفضل من البعوض!.. حافر حصاني على أرضي، وشمسي العظيمة فوق رأسي، وسماي ورائي، ارحمني يا ربي الكبير المجوسي الشابسغ! ألا يكفي يا أمير!

- يكفي، يكفي يا حباط. ليرضَ عنك ربك المجوسي الكبير! الله واحد، وباسمه أقول إنك أرعبت الجيش الروسي الذي يحاصرنا. - هذا رأيك يا أمير؟! - سأل حباط مسروراً لا تعرف إن كان يمزح.

- نعم يا حباط، هذا رأيي، - شهد قرباتر مرة أخرى.

- وأنت يا أمير؟ - أطلق حبُّ الأرض الذي تجتمع في صدر حباط لسانه، - ألن تسمع أرض الشابسغ صوت الأمير؟

- أنا منذ عهد بعيد سلّمت على أرضي.

- لم نسمع يا أمير! - لا يتوقف حباط عن المطالبة.

- حب الأرض يا حباط، كنت أود ألا أعلنه بصوت عال، فألقيت تحيتي على عشبها وأتجارها وغاباتها وجبالها وصقورها التي تدوم فوق رؤوسنا.

- إذن يا أمير، - قال ترام، - ألم نبالغ نحن في التعبير عن فرحنا؟

- ليس كل إنسان يا ترام، - شعر قرباتر بأنه أهان الفلاحين دون أن يحتمل كلامه الكثير من المعنى، - ييوح بما في قلبه. فإن كان هذا رأيك فأنا أقول

أيضاً: أسلم على الشابسغ والبجدوغ والأبزاخ والقبرتاي والويخ والجمكوي والبسلني، وكل أرض الأديغة التي أدعو أن يجعل الله يومها ألفاً، - يتوجه قرباتر إلى الجهة التي يعيش فيها كل عرق من الأديغة يأتي على ذكره، ويتردد صدى صوته في الوادي الجبلي، فتتقاطع الأصداء وتعب الفضاء.

- هكذا ممتاز يا أمير! - بشّ حباط في وجه الأمير.

- أما كان حسناً لو تحقق ما سمعنا من دعوة إلى وحدة الأديغة يا أمير! - أسرع ترام بالقول وقد لحقت أفكاره بأفكار الأمير.

- ولكن، هل تسمعان؟ - أسمع رفيقيه صدى النداء الذي يتكسر بين الجبال. - من الصعب حُكم بلاد الأديغة التي يتألم قلبها من تعدد الأصداء فيها. كلُّ هُمّه كيف يُعلي صوته الخاص. هل قليل ما سمعنا من مثل هذه الأصوات في مضافات الجمكوي التي نعود منها؟!

مشى الثلاثة مسافة يفكرون في الموضوع الذي طرح نفسه بينهم. عبروا الغابة، وانحدروا من ظهر الجبل. ومن بعيد ظهرت قمة جبل بيباو البيضاء.

مهما اختلفت آراء الثلاثة رجعت إلى موضوع وحدة الأديغة. لن يستطيعوا الوقوف في وجه العدو الذي ظهر لهم دون أن تكون بينهم الوحدة وتلتهب بها قلوبهم. ومن هذه الناحية توصل عقل قرباتر إلى أقصى مداه. يظن أنه يبالغ فيتجاوز درب سفري، ثم يعود دون أن يدري إلى الطريق التقليدي نفسه دون أن يجد باب أمل في طريق الوحدة المخرج. لا يمكنك حماية شرف الأديغة بحماية أرض الشابسغ - الناختواي فحسب. جرى للأبزاخ ما يستحقون، قال قرباتر، لجمهم النائب الذي اقتحم حياتهم ونحن نظن أنهم سيسارعون إلينا. ظن أن الجيش الروسي سيتجه إلينا فإذا به يهاجم الأبزاخ عابراً شتونه إلى ميقواب. أيكونون ارتعبوا فالتجؤوا إلى النائب؟ ماذا بيده يقدمه للأبزاخ؟ هو دون سلاح ودون فلاحين ودون مال. ألم يبق في الأبزاخ رجل يستطيع استنهاض الهمم بنداء "مارج!"؟ هناك أمور لا نعرفها تجري في خلال هذه الأحداث. علينا أن نعرف الأساس الحقيقي لها.

سأل قرباتر رفيقيه:

- ما رأيكما أن نعرّج على حاغور؟

دخل الفرسان الثلاثة باستوك بعد الظهر. وحين صاروا على طريق حيّ حاغور بدت ثلاثة خيول على مربط خيل نور مُجَّد. شدَّ قرباتر للوهلة الأولى لجام حصانه لا يريد الدخول:

- من يا ترى ضيوف صديقكم؟

- أظنها خيولاً من الأبراخ، - قال حباط.

- أعرف صاحب هذا الحصان المنتصب الرأس على الطرف، - ساهم ترام في الحديث.

- من؟ - سأل قرباتر الفلاح حباط الذي شهد على تخمينه، وأخفى بسرعة، - أكون نيكراس صاحبه؟ لا أستطيع دخول المضافة التي فيها والد زوجتي.

- سيعتب علينا حاغور إن وصلنا إلى باب بيته ولم ندخل. - إن سلّمنا عليه وتابعنا طريقنا كان سلوكاً أديغياً وإنسانياً معاً...

استقبل واحد ممّن في أرض الدار الضيوف. ووصل صوت المتحدثين إلى نور مُجَّد فخرج ورخّب بهم:

- يا للعجب! - تفضلوا يا من نذكركم دائماً الأمير قرباتر وترام وحباط..! لماذا على صهوات خيلكم، ترجّلوا!

- حمي، أليس حمي ضيفك يا نور مُجَّد؟ كيف أتفضل وهو في الغرفة؟.. - قال قرباتر لمن يستلم منه زمام الحصان.

- أنت تهينني يا أمير!.. بيت حاغور يتسع لضيافتك وضيافة حميك. ترجّل ولا تدعني أعتب عليك.

يسمع نيكراس تيم ما يقال على المسطبة. وينظر عبر النافذة عاجزاً عن الجلوس. يسره ما يقول الصهر في موضوع العلاقة بين الحم والصهر. يثمن جداً أن صهره محافظ على تقاليد الأديغة فلا يتوافق بحجة أنه أمير فيقتحم مجلسه. أين يذهب صهري هاجراً الأديغة ولو كان ضابطاً روسياً؟

- لا يجوز أن ألعب مع الصهر لعبة الطميّة في هذا الزمان العصيب!.. - خرج تيم من الغرفة مناقضاً ما قاله قبل قليل في موضوع الحم والصهر. وصاح من على المسطبة: - قرباتر سأتحمل أنا مسؤولية تطبيع العلاقة بيني وبينك. التقينا في درب جبلي لا محيد عنه، ولن نلعب الآن لعبة الغميضة. ولي معك

حديث. كنتُ دخلت إلى قرية قُماطر، ولما قيل لي إنك عند الجمكوي عرّجت إلى حاغور، - حين رأى قرباتر الحم اختبأ وراء الحصان كي لا يظهر أمامه ولكن فات الأوان. يقول تيم ما يريد ولا يعرف ماذا يوّد الصهر. - نحن في المضافة عدة رجال فادخل إلينا...

أكثرُ ما دعا قرباتر إلى نقض تقاليد الأديغة هو قول الحم "لي حديث معك" لم يهنأ قرباتر بجلسته حين انهمروا عليه بأخبار مُحمّد أمين النائب. سأل تيم قرباتر بعدما لاحظ أن ما يرويهِ معتبراً إياه عجيباً ليس كذلك في رأي قرباتر:

- أظنك خبيراً بأخبار الأبخاخ؟

- والله ليس إلى هذه الدرجة... ولكني أعرف أكثرها.

- هل تعرف أن بولتقوهِ يستضيف النائب؟

- نعم أعرف.

- والمؤتمر الذي عقدوه في قرية جِغر بمضيق مامرقوهِ؟

- سمعت خبره أيضاً.

- ومقتل شخص في المؤتمر؟ - قال أحد رفاق تيم.

- أليس هو مراد الابن الأصغر لأخمت؟ - سألهم.

- نعم، أجباب تيم، - نعم، ليغفر الله لي إن افتريت عليه، هو ذلك الثرثار. هو

من قال: نصالح الروس ونسمح لهم أن ينهبونا. لا أدين تسي ولا النائب بما حدث له.

- ما المشكلة إن اقترح الشاب مصالحة الروس؟ - أثار حاغور مرة أخرى

السؤال الذي ماري فيه الضيوف.

- اسكتْ، اسكتْ يا حاغور! - مرة أخرى رفض تيم، - مع من تتصالح؟

أمع من جاء يدمر حياتنا؟

- وما العمل إذن يا تيم؟

- هل ارتعبت يا حاغور؟

- لا، ولكن أقول الحقيقة.

رفع ترام رأسه فجأة مما سمعه، وتأمل نور مُجدّ دون أن يعرف السبب. ثم أسبل جفنيه. ثم أعاد النظر نحو حاغور لا يستطيع صبراً. كان حباط يريد المساهمة في الحوار ولكن ما قاله قرباتر لجمه:

- الحق أنّ من تأتون على دُكرهم ليس بينهم من ينوي مصالحتنا... - استغرب قرباتر رأي نور مُجدّ وإن كنتم استغرابه. وداخله شكٌ فيه خلافاً لما كان عليه الحال في العام الماضي. وأنهى كلامه. - الأفضل ألا نعيد الكلام على ما جرى في المؤتمر. جرى ما جرى وانتهى. مثل هذه الحوادث، - خصّ مرة أخرى، - نعم الأفضل ألا تدخل في أفكارنا وآرائنا. الأديغة قليلون، وكلما سقط واحد منا خسرنا إصبعاً من أرضنا. وعلى رأي والدنا لا تدعونا نتجاذب قيادة العربة!..

أؤيدك أيها الصهر. لو كان بيننا الأمير سفرلي الذي تسبّبنا في أسره في تركيا لما تفرّقنا بهذا الشكل. انظروا ما يجري لنا الآن! البجدوغ صالحوا الكفار، والجمكوي لا يُطْلَعُونَا على ما في قلوبهم. والأبزاخ كأنه لم يبق فيهم رجل حكيم فجاءوا بنائب كأّن لم يخدعهم النائبان السابقان، يعاملون مُجدّ أمين مسيّمين إياه بموّد الله. يصارحونه بسرّهم وعلمهم. يا عجي!.. وهل تعرف يا قرباتر أن آل بولتقوه ينوون تزويجه من إحدى بنات الأسرة؟

- نعم أعرف.

- وهل ترى هذا صحيحاً إذن؟

- والله لا أعرف كيف أعبر لك عن رأيي. - لم يتجاوز قرباتر السؤال وإن كان في الحوار الدائر بين الصهر والحلم موضوع حبّ. لا أعرف كيف تقدّم ابنتك إلى من لا تعرفه. ليست هذه من عادات الأبزاخ الذين يحترمون أنفسهم... ربما أعجبهم جداً؟!

- وهل توقف الأمر عند الإعجاب! المتنفذون عشقوه والفلاحون جُتّوا به.

- على ما تقول يا تيم، - شارك حباط، - هو عازب.

- أكان يبحث عن زوجة لو كانت عنده؟ - شارك ترام أيضاً.

- هم الذين يعرضون عليه، لا هو، يا ترام. إذن يا قرباتر هل تعرف أن النائب قابل الإنجليزي بيل؟

- لأول مرة أسمع، - أجاب قرباتر كأنه غير عابئ بالخبر الذي أفرعه.
- أخبرك إن لم تسمع. اجتماعاً يوماً وليلة.
- وفي أي موضوع تحدثا؟
- لا أحد غير تسي وبرزج يعرف.
- والأمير بولتقوه؟
- لم يكن معهما. - ضحك تيم، - قال إنه ينجل من سيصبح صهره، وليس مثلي! بولتقوه لم يعد مضيف النائب.
- ومن مضيف النائب الآن؟
- سيكون تسي حاترباي مضيفه ريثما يني بيتاً في قرية جغر. سنرى ما يحدث هناك.
- لا أعرف النية الحقيقية لمحمد أمين، - يخاطب قرباتر نفسه على مسمع من الحاضرين. يثبت نفسه بقوة بين الأبراخ، ولا يدع ويبخاً أو إنجليزياً... - هؤلاء يحكيون مؤامرة ما. - قال في نفسه، - ليس تسي على وفاق معي ولكن لماذا لم يُخبرني برزج شيئاً؟ يحدث شيء عجيب، ولكن لا أعرف ما هو بالضبط.
- سنرى يوماً الترك والفرنسيين والنمساويين وصلتهم أخبار النائب تبعاً لاستعداداته. - لم يدعهم تيم ينتظرونه، وأضاف مسرعاً وهو يهيم بالانصراف: - والله يا نور مُجد جلسنا بما فيه الكفاية واستمتعتنا. دغ ضيوفك يستريحون. ونحن سنتخذ طريقنا.
- خرج الضيوف ومودعهم من الغرفة. ولحظة هم بالركوب نادى لقرباتر: - أيها الصهر، تعال لحظة، - أبعدَه عن الآخرين وهمس في أذنه، - تسي حاترباي يريد مقابلتك.
- متى؟
- متى أردت.
- في الجمعة القادمة.
- لحق قرباتر بالفرسان الذين ساروا في طريقهم متسائلاً عما يريد تسي منه. وأضيف إلى همومه التي لا تفارق ذهنه اجتماع مُجد أمين بالإنجليزي. وفكر: ما الحديث الذي يستمر بينهما يوماً وليلة؟

أعجبَ جيمس بيل بالنائب منذ أن تعارفا. هناك أناس كثيرون يصعب على قلبك أن يحيل إليهم مهما جالستهم ومهما حادثتهم وفتحت لهم قلبك. وهؤلاء لا يشبهون مُجد أمين في طبائعهم، ولا في نخط معيشتهم، ولا في طريقة ضحكهم، ولا في طريقة كلامهم. وقد ربط الرجلين الدفء الإنساني الذي نشأ بينهما. حتى لو لم يصل كلاهما إلى مرحلة الثقة التامة بالآخر لما استطعت الشك من خلال نظراتهما المتبادلة وطريقة تفكيرهما في أنهما على طريق اكتمال هذه الثقة. وكان يحدث كثيراً وهما يتكلمان في قضايا الأديغة والروس والترك أن ينسيا أن ثالثهما برزج جراندوقوه جالسٌ معهما وأنهما يقيمان في بيته.

في البداية لم يكن جراندوقوه يبدي شعوره بهذا التجاؤل. كان ينكب على الباخسمه دون أن يعير أهمية لحديثهما وطريقة تعاملهما. وحين يُحِيل إليه أنه يغيب كلياً عن الجلسة يساهم في الحديث ليلفت انتباههما إليه. ولم يكن موضوع حديثه مأساة الأديغة بل ما على المائدة من طعام.

- والله لا أعرف، لا يعجبني إعراضكما عن الطعام. - يملأ جراندوقوه الباخسمه لنفسه. - والنساء اللواتي أعددن الطعام لن يسرهنّ ما تفعلان. هيا نرفع كأساً أخرى أيضاً. اخطب على شرف الكأس يا جيمس. هذا الشراب يا نائب ليس فيه ما يُريب في ديننا، مستخلص من الذرة الأديغية. يُريك الدنيا بعينٍ أخرى، عينٍ مرحة. ليس فيه ما يغضب الله عليك. نعم يا جيمس نسيثك، - يضحك جراندوقوه من أعماق قلبه، في قلبك أنت إله آخر... نحن إلهنا الكبير مثل هذه الشمس، أليس كلامي صحيحاً يا أفندي؟

- الله أكبر! الله يشمل برؤيته كل شيء، - لم يدعهم مُجد أمين ينتظرونه، التفت إلى الإنجليزي الذي أعجبه، وأجاب مبتسماً له: - نعم يا جراندوقوه، ما الذي يجمع ديننا إلى دينهم؟ لا نساوي إلهنا العلي بشيء. لا يؤاخذنا جيمس في هذا إذ لا أقول إلا الحقيقة.

- نعم يا جيمس؟ - لا يتوقف برزج، ويسأل.
- النائب لا يقول شيئاً غير صحيح يا جراندوقوه، - ابتسم جيمس الذي بدأت الباخسمه تفعل فعلها في رأسه، وألقى نظرة دافئة على الاثنين، - لا عيب في أن يبقى إلهك في قلبك، وتؤمن به.

- نعم، نعم، لاحظ النائب أساس الجهة التي اتخذها كلام جيمس فوافقه، -
كل الناس إلههم واحد وإن اختلفت أديانهم. - أليس صحيحاً يا جيمس؟
- الله واحد، - اختصر جيمس كلامه دون الانتقاص من بشاشته، - عنايته
على الجميع.

- وعلى الكفار الذين هجموا علينا؟
- نعم يا جراندوقوه، - لا يتركه مُجد أمين دون جواب. لا يجري شيء في العالم
دون علمه يا أمير. أما موضوع الشراب الذي ذكرته فصحيح أنه مصنوع من
رزق الله، ولكن الأفضل عدم الانجراف وراء الباخسمه. لم يكن أحدٌ منها
منفعة.

- والله هذا صحيح، سكب جراندوقوه الكأس التي أمامه، - وقد سمعت
الأمير سفري صديقي القديم يقول هذا كثيراً. الشراب نبتة خبيثة، إن لم تنتبه
إليها أفقدت عقلك. هيا لا يأخذكما الحديث، ذوقا من الطعام!
تسمية سفري بـ "الصديق القديم" لا يسمعها مُجد أمين اليوم مرة أو مرتين.
ليس في هذا المكان فحسب، بل ليس في الأبراخ، أينما توجه، حديثٌ إلا
زانه الأب وزانه الابن. "لم نُطع زانه سفري" "وصلنا إلى ما حذرنا منه" "أهنا
الرجل الشابسغ الحكيم" "لم يكن مهتماً بشخصه بل كانت لهفته على الأديغة
كلهم". ومن لا يوافقون زانه على أفكاره في الأبراخ ليسوا قليلين. وبعض من
أمثال هؤلاء المعارضين لسفري أجروا أحاديث مع مُجد أمين. تذكر مُجد أمين مرة
أخرى، كما في الأيام الماضية، أن الإمام شامل ألح عليه قبل أن يرسله إلى هنا
أن يتعرف على سفري، ويتخذ صديقاً مهما كانت طباعه، ويحتذبه إلى صفه.
والآراء المتضاربة التي يسمعها بحق الأمير سفري متألّفة ومتناقضة معاً. قال مُجد
أمين: من البديهي ألا ينسى الأديغة طوال هذه السنين شخص الأمير وأفكاره
لهذه الأسباب. وهذا ما أسمع في البسلني والويخ، دُعك من أبناء عرقه
الشابسغ والناتخوي. والبجدوغ والجمكوي؟..

- والله يا جراندوقوه طالت إقامة صديقك سفري في تركيا، - قال النائب
يبحث عن كلام مناسب على زانه، وأضاف كأنه لا يعرف عنه شيئاً: -
الأديغة محتاجون إلى سفري أكثر من حاجة تركيا إليه.

- يا للعجب، هل هذا كلام؟! - التمتعت عينا جراندوقه السوداوان الصافيتان، - أظنّ أن سفرني مقيم في تركيا بإرادته؟ الأتراك حبسوا الرجل الممتاز!
- ليست تركيا وحدها... - لم يفوّت بيل الفرصة المناسبة لتدخّله في الحوار، وقال بعد وقفة قصيرة ضامناً لنفسه الإجابة على السؤال.
- من مع تركيا إذن؟ - رفع جراندوقه الرأس.
- معها روسيا.
- كيف يتحالف العدوّان؟
- يبقى بين المتجابهين يا جراندوقه نفاق ورياء.
- اسمع ماذا يقول هذا أيها النائب!
- كلام جيمس أيها الأمير يعتمد على أساس صحيح.
- لا شيء تحجبه روسيا عن تركيا من أجل أن تحتل أرض الأديغة والقفقاس كلها. ألا ترون كيف تجهد روسيا من أجل الأراضي التي ليست لها؟ تصارع روسيا الكافرة على كل الجهات: الشرق والغرب والشمال والجنوب. وها أنتم سترون أن فرنسا والنمسا والمجر، ومن أيضاً، الصين وإيران، لن توافق روسيا على أطماعها.
- وإنجلترا؟
- وإنجلترا أيضاً يا نائب.
- سبحان الله¹! رفع جراندوقه حاجبيه الغزيرين، - ما أشدّ شراة هذا القيصر الروسي نحو أراضيه غيره!.. - ثم سأل بعد قليل: - على ما تقول يا جيمس يحبون الانقضاض على المائدة الجاهزة.
- تماماً! وافقهما مُحمّد أمين.
- هذه هي الحال، لم نكن نقبل حين كان الأتراك يقولون: كافر الروس يبقى كافراً... بالله عليكم أن تأكلوا! أين هو تسي؟ والله هذا الـ "حاتر باي" إنسان عجيب. تركّنا على المائدة واختفى. أظنه دخل إلى مجلس النساء ليمدح نفسه لهنّ.

¹ بالعربية دائماً، هي وعبرة: الله أكبر، وأستغفر الله.

- لا يا أمير، - قال الفلاح خادئ المائدة، - حاترباي مع الفلاحين في الفناء.
- وماذا يفعل بينهم؟
- يستمع إلى الآراء في قضية الأديغة - الروس.
- وهل يعرف الفلاحون أكثر منا في موضوع الأديغة - الكفار؟ هيا قلْ له أن يستمع إلى حديثنا نحن... حاترباي متى رأى فلاحاً لا يهمه إن حرّمته من الطعام...

VII

خالط قرباتر بعض أهالي قرى الناختواي ريثما حان موعد يوم الجمعة مع تسي حاترباي. والتقى ببعض أصحاب السطوة من الشابسغ وبيعض رجال الضابطة.

كلما تعرّت أشجار الغابات عن أوراقها ثارت قضية الحرب الأديغية - الروسية في كل مكان. ونهضت مهام كثيرة ليكونوا جاهزين لها. وهذه يصعب على فرد واحد حلّها. حتى جُمع مؤتمر الشابسغ يكاد يقوم بالأمر. وفي هذا المؤتمر لا يُنَبِّث موضوع الوحدة والتعاون أقدامه. ولكلّ من الحاضرين رأيه الذي يريد فرضه سواء وافق موضوع الحديث أم لم يوافق. والحمية الأديغية الهائجة تحمله على إشهار الخنجر، وعلى رفع جسده على الرّكابين فوق سرج الحصان.

تنشأ في القرى أقوال وإشاعات لا ضرورة لها مع أن مهام المؤتمر التي تعهّد بها لم تعد سرّاً على أحد. وتدفع هذه الأقاويل الفلاحين إلى النزاعات. وقد أفهم قرباتر كلّ من قابلهم تقصير الضابطة في هذا الموضوع. قال قرباتر: القرار الذي اتخذناه في شأن الحرب لا يجوز أن نعيد الحديث فيه يوماً زائداً. ومهما كتمنا الأمر فالجيش القيصري يقتحمنا قبل أن نجد الوقت لتجهيز جيشنا. نقول إن المؤتمر مؤتمر علني يمكن أن تنتقل أخباره إلى العدو، ولكن من ينقل ما يدور في المضافات إلى العدو؟ صحيح ما يقال: من يستطيع إخفاء ما في البستان وما في البطن؟! ولكن كيف يصل السر الذي بين اثنين إلى ثالث؟ لا يحب والدنا الكذب والوشاية، وأنا من جهتي لا أرى أبشع منهما في العالم. فإن لم نتم بهذا الموضوع في المؤتمر بقيت أسرارنا مكشوفة للعدو. لماذا ليست أسرار الجيش الروسي مكشوفة لنا إذن؟ وأفواه من نأسرهم مغلقة. وإن أردت الحقيقة فإن ما

يعرفه الأسرى قليل. واللاجئون إلينا منهم مرغمين من هذا القبيل أيضاً. والغريب أن أكثر هؤلاء بولونيون. لم أكن أصدق أحياناً ما يقوله راكيتوف بافيل من أن لا خير في الإمبراطورية القيصرية ولكني أصطدم برأيه كثيراً. ثم لماذا يرفع العامة الروس الفقراء رماحهم في وجه المأساة الأدينية؟ أعجيب إن تكلمنا لغتين مختلفتين، وإن لم تتطابق ديانتنا؟ مهما عشنا مفتقرين فنحن نريد أن نحيا بإنسانيتنا وأفكارنا القومية. لم نهجم على أحد، ولم نحارب، بل لم نُنْ أحدًا... - يا ربي، ما الذي يشغل بال تسي حاترباي؟ - سأل قرباتر نور مُجَّد على يمينه، واختلس نظرة صامتة إلى ترام على يساره.

مشى الثلاثة مسافة لا يصدر منهم إلا وقع حوافر خيلهم.

- أراك لا تقول شيئاً يا نور مُجَّد؟

- أتظن أن تسي فليقْ لمسألة معينة؟ - قال نور مُجَّد كأن الجواب سهلٌ عليه.

- أكان طلب لقائي لو لم يكن قلقاً؟

- القلق يحمل قلقه إلى غيره يا أمير ولا يطلب لقاءً، - لم يغير حاغور موقفه.

- في كلامك نصيب من الصحة يا رجل الضابطة. - وافق ترام حاغور.

مرة أخرى سار الفرسان الثلاثة صامتين مدة.

- هذا رأيكما إذن؟

لم يجد قرباتر جواباً من أيٍّ من رفيقيه.

- هل نعود إن كان هذا رأيكما؟

- لا يا أمير، - الآن جواب حاغور مختصر، - لا يجوز أن نتراجع وقد قرنا

السفر وصرنا على الطريق. دخلنا أرض الأبراخ، سنخالط الأبراخ، ونطلع على أحوالهم، ونتعرف على ما يُكنون للنائب حقيقةً.

- إن كان هذا رأيكما، - قرباتر راضٍ عن موقفهما، - سأطيعكما. وأما

موضوع النائب فلا تُشككوا فيه، جرى ما جرى وانتهى. الأبراخ تقبلوا النائب.

أتظنون الأبراخ مثلنا نحن الشابسغ؟ لا يسمحون لكلمة من فم النائب أن تصل

إلى الأرض.

- لا أظن أيها الأمير أن أمور النائب في الأبراخ تحري بهذه السلاسة... -

نظر ترام نحو نور مُجَّد يتساءل: ألم أُكثِر من التدخّل في شؤون الأمير.

- وأنا أرى هذا، - وافق قرباتر ما قاله له الفلاح دون أن يقطع أفكاره، ولم يكتم انزعاجه. - ولكن لم تعد أقوال الأبراخ وأفعالهم تتوافق... بنوا له بيتاً، وزوجوه، وغمروه بالمواشي والأموال.

- كلما قال: الله أكبر، - غمغم حاغور، - أتوا إلى داره برأس ماشية أو حمل عربية من الذرة الصفراء. - ثم بدا من صوته عدم ارتياحه لِمَا يسمع: - الحق، ماذا يهمني أنا؟ الأبراخ أحرار في أن يعطوه القليل الذي عندهم! هذا موقف الأديغة دائماً من الأغراب عابري السبيل!.. ما لا أقبله أنا شيء آخر: ما لم يقبلوه من سفرني قبلوه من شخص أتى من مكان ما! يتأملون منه أن يحمي الأديغة! أفكر يا أمير فأرى الأديغة عجيبين والله!.. لا نرى ما هو أمامنا وملئنا، ونشتهي ما ليس عندنا. ونموت حباً به حين نراه...

تجاوز الفرسان "شكجأي" متفقين وغير متفقين في آرائهم، وتوجهوا إلى أعالي نهر شحغواشه. برد الصباح الخريفي يصدر من مجرى النهر الذي على يسارهم. ويحث البرد الخيل على الإسراع. ويحمد وجنات راكبيها شاعرين به وغير شاعرين. والأضواء القليلة المنبعثة من بيوت القرى التي تبدو على يمينهم وعلى يسارهم، على منحدر السفح، تبدو من خلال السحب التي لا تنوء بحملها. ويصدر من القرى أيضاً نباح كلاب وصياح ديك. وتنطلق فجأة طلقتا بارودتين متقابلتين من مضيق قُجيس، ثم تتبددان قبل أن تجد الوقت لتدير رأسك نحوهما.

كلما ابتعد الفجر عن ضفة النهر بدت بيوت قروية متناثرة هنا وهناك. وبدت أيضاً غابات جبلية بألوان متعددة يعريها الخريف. تفحص قرباتر الجوار بعينين حادتين: لطافة الجمال الطبيعي الذي ينتصب أمام العينين تُلهيك عن نفسك. وتنسى إن كان في الدنيا حرب طاحنة تسلب الإنسان حياته. وتصدر من القرية القريبة على يمين الفرسان أصوات حياة الأديغة التي تستقبل النهار الجديد المتعددة التي لا تفهمها إن كنت جديداً عليها. سُمع فجأة من طرف القرية صوت أوكورد يون يرافقه نقرٌ على الخشب، وارتفع صوت عريف الحفلة.

- ما هذا الذي أسمع مع الفجر؟! - استغرب ترام ما سمع.

- في القرية حفلة عرس، - أكّد حاغور كأنه يعرف.

-لا بد أنه هذا، - أنصت قرباتر، وتلوى قلبه ألماً دون أن يعرف كيف يحدث. ثم أنهى بعد قليل ما فكر فيه: - من أجل هذا يقولون: أحدهم عنده عرس وغيره عنده مأتم... - وأضاف بعدما ساروا مسافة حتى ضعف صوت الأوكورديون، - لن نستطيع دخول القرية وإن كانت العادة أن يدخلوا القرية التي فيها عرسٌ أو مأتم.

اختلطت بأفكار قرباتر حفلة العرس، والقرى العديدة المتقابلة، ومنظر أحد جانبي أرض الأبراخ، والخبر السري الذي دفعهم إلى السفر. قال قرباتر: ليس ما يمكن أن تفكر فيه قليلاً. لا أقول إن الأديغة لم يتعرضوا لمصائب لأنهم عاشوا في هذه الأرض منذ الأزل. الموت يقترن بالحياة. هذا يقدم إلى العالم والآخر يرحل عنه. وكلُّ يشهد ما كُتب عليه. إقليم الأديغة شهد الكوليرا والحصبة، وصدف أن اقتحمها أعداء غيرُ منتظرين. تعاقب عليها الريح والصحو والمطر، ومرت سنوات لم تنبت فيها الحبوب ولم تجد المواشي ما ترعى، ولكن لأول مرة يأتيهم البلدُ جازهم محارباً. الروس أضعاف الأديغة عدداً. وجهاز دولتهم المنظم يدور ليس من قرن أو اثنين بل من قرون. وحيوشها التي تعدّ مئات الآلاف تدربوا في حروب لا تحصى. تستخرج الرصاص من الأرض، وتصنع السلاح والبارود. ولا تكفيها الأرض فتحارب في البحر أيضاً. من نحن الأديغة بالقياس إلى الروس؟ أرضنا التي نحميها ليست أوسع من قبعة أحدهم. ما أملنا يا إلهي أمامهم؟ أمِدُّنا بالقوة، ولا تحرِّمنا من الرجولة. لا أشك في أن الأديغي تبقى له رجولته أخيراً. إن أزاح العقل والتجأ إلى الرجولة فحسبُ فمن يحمي هذا العرق من البشر؟ يا إلهي أهذه نهاية الأديغة أم بداية بقائهم؟

- يا إلهنا الكبير، يا شمس الشابسغ!.. - صرخ حاغور مع بزوغ الشمس من وراء الجبل، وارتمى من على الحصان. - دام نورك ودفعُك ورحمتك إلى الأبد!.. - لم يتخلف الفارسان الآخرون عن حاغور ففعلاً مثله. وبدأ يكرران ما يقول رفيقهما. - أمطرُ علينا يا إلهنا الكبير، وأخصب زرعنا، وميِّعنا بأولادنا، وأسعد كبارنا بشيوخوتهم، وأنعم على رجالنا بالرجولة، وعلى نساتنا بالمنطق الحلو واللطافة، ولينّ قلوب أعدائنا الغزاة!..

- قل يا حاغور: أنصرنا عليهم!.. - صرخ ترام الرافع يديه إلى الشمس، وعبر عما يريد. - يا إلهنا الكبير انصرنا على من يغزوننا! شرف الأديغة...
لم يسمح صوت الصفير الصادر من الجهة اليمنى للنهر لترام أن يكمل كلامه. وكما اعتادوا في مواقع الخطر ارتقى الثلاثة من على ظهور خيلهم.
ينظر ستة أو سبعة فرسان من القوزاق إليهم والنهر بين المجموعتين، - يتضاحكون ويصفرون. وأحدهم يلوح لهم بسيفه. والضابط يناديهم بالأديغة:
- أيها الشابسغ هل تبتهلون إلى إلهكم؟!
- من أين تعرف إن كنا من الشابسغ يا سليل الكلبيين؟! - أرسل ترام كلامه إلى ما وراء النهر - عرفتكم من طريقة ركوبكم الخيل، - سخر منهم بلهجتهم الشابسغ¹.
- مهلاً، من هذا الذي يتكلم؟!.. - عرف قرباتر ما جرى: - نيكراس رفعت!.. - حث الحصان واقترب من الضفة: - "عاش من شافك" يا رفعت، تصقّر لنا كمن نسي اسم كلبه!
حُيِّل لرفعت أن الكلام الذي لم ينتظره يرميه من على صهوة الحصان. ولكنه عاد سريعاً إلى وعيه وأجاب بالروسية مُسمِعاً رفاقه:
- أنا لا أتكلم مع خونة الجيش الروسي.
- هل مثلك يا عديم الإيمان من يتكلم علي؟! - لم يتخلّ قرباتر عن لغته الأديغة. - أنت من باع قلبك الأديغي إلى الكفار! - ثم أضاف بالروسية:
- أنت أيها الكافر، تذكر ذلك، صليل سيوف الشراكسة على جمجمة إيفان، وأنا سأذكرك، - غيّر قرباتر اتجاه الحصان بسرعة، ومع الغضب استدار وأكمل كلامه لرفعت. - كان الأفضل أيها الثرثار أن تسأل عن أمك وأختك، تجلسان في البيت تبكيان.
انصرف رفعت مع القوزاق كأنه لم يسمع الجملة الأخيرة.
- ليتني، - دمدم ترام - أقابل رفعت بصدر حصاني هذه اللحظة!

¹ يعلق الضابط هنا على ما يعبر به الشابسغ عن ركوب الخيل فيقولون حرفياً: يجلس إلى جانب الحصان، لا على الحصان.

أخفى حاغور ما في قلبه نحو رفعت. وبعدما مشوا مسافة قال دون أن تعرف ما وراء كلامه:

- والله لا أعرف ما جرى لنا!

- هل تظن أننا تُهنا في الطريق؟ سأل ترام.

- لا يا ترام.

- ماذا إذن يا نور مُجَّد؟

- لا أعرف كيف أُعبر... ما هذه العلاقة بين الأهل والأقارب؟.. يشهر أحدهم السلاح على الآخر...

- إن كنت تقصد رفعت يا نور مُجَّد، - فهم قربا تر مُرَاد حاغور ونظر في وجهه، - لا تهتم. اعتبره واحداً من الذين لا يبصرون طريقهم في هذا العالم. ما أهمية رتبته وهو يغني أغنية من يركب عربتهم!

- هل هذا رأيك يا أمير؟

- نعم يا نور مُجَّد، وأنت؟

- والله لا أعرف...

- بالله عليك يا حاغور قل ما في نفسك مهما كان، - لم يتحمل ترام ملاحظة صديقه في التعبير، - يُقلِّقك شيء ما أنت!

- وهل ما يمكن أن يُقلِّقك قليل في هذا العالم المضطرب؟ ومع ذلك سأقول لكم ما يشغلني، وإن لم يُعجبكم فسأحوي!

- ألسنا نعيش في عالم ليس فيه ما يُعجبنا يا نور مُجَّد؟ - تظاهر قربا تر بعدم الاهتمام بما سيسمع، - لن نستغرب إن أضفت إليه شيئاً.

- يحزّ في نفسي يا أمير أننا لا نجد لغة تفاهم مع الروس...

- وهذا آلم والدي أيضاً. ومات خانجري وهو يتألم منه. وأنا أيضاً... وأنت يا ترام الفلاح؟..

- والله صحيح يا أمير، - وافقه ترام، - الأمير سفربي لم يدّخر جهداً. وكان خانجري يود أن يصبح زعيماً كبيراً للأديغة... الروس لا يهتمون بنا، لا يحتاجون إلى الأديغة.

- ماذا يريدون إذن يا ترام؟ - لم يستطع حاغور إلا أن يسأل.

- عيونهم على إقليم الأديفة، على الأرض! هل فهمت؟
- اسمع ماذا يقول... - ابتسم حاغور. - هذا بديهي، هذا واضح وضوح قَسَمِنَا!
- نعم، واضح. يقول ترام ما يريد هو. - نحمل مصيبتنا معنا فحسب ولا نؤذي القيصر بشيء.
- وماذا تفعل بسرب من الجراد؟ حاصرونا من الجهات الأربع.
- يعِدنا الترك والإنجليز بالمساعدة.
- لا تسمع كلامهم بل انظر ما يفعلون!
- هذا صحيح، ولكن ألا ترى موفدي الإنجليز بيننا!
- إن كنت تقصد جيمس فهو يتكلم... ويغازل أرامل الأديفة جيداً.
- وما الخطأ إذن؟
- والله أنت عجيب يا نور مُجَّد. أليس العالم كله جملة من الأخطاء؟!
- ليس إلى هذا الحد يا ترام، - تدخل قرباتر الذي سكت إلى الآن، - تأمل إقليم الأديفة الجميل، وشمسه اللطيفة، وسماءه الزرقاء، خير أنهاره يتناثر، وأما ترابه فكالزبدة!
- نعم يا أمير، - يؤيد ترام رأي الأمير، - ومراعيها لا تُحيط بها العين، لأن الشعور بالعار عمَّنَا نحن الأديفة أيها الأمير، - لم يستطع ترام أن يتراجع أمام الأمير، - آن لنا أن نتجاوز الشعور بالإهانة. ما اللغة التي يمكن أن نتواصل بها مع من هجموا علينا؟ إن أصغينا إلى رأي حاغور اتهمونا بالذعر!..
- ويحدث أن يصيبك الذعر يا ترام، - لان صوت قرباتر، - لا عيب في هذا. أتتذكر كيف طردنا الروس في ربيع هذا العام من ضفة نهر أبنه؟ وكيف كادت الحصاة التي طارت من تحت حافر حصان حباط تقتلع عينك؟
- نعم يا أمير حدث معنا مثل هذا!
- لا تجادل حاغور إذن، ما قاله له أساس في الواقع.
- هل تقصد أن نجد وسيلة تفاهم مع القيصر الروسي الذي هاجمنا فُصالحه؟
- ومثل هذه الفكرة لا يجوز أن تغيب عن بالك يا ترام.
- وهل ننسى دماء آلاف العامة منا الذين قضوا في الحرب؟

- لا تنسَ يا ترام أن حياة إنسان يمكن أن تحمي حياة غيره من الآلاف. - قال حاغور بمزيد من الوعي، وأضاف دون تأخر: - لا تجري الأمور في الحياة دائماً كما تشتهي.

- والله ما تقولانه عجيب... - انكسر صوت ترام على نحو ملحوظ. - لن يقبل الفلاحون هذا الرأي.

- نُصالح القيصر متى تراجع جيشه إلى يمين نهر بشزه. وبعدها ساروا مسافة وكلُّ محتفظ برأيه قال قرباتر كأنه يحدث نفسه.

- روسيا يا أمير، - احتدَّ نور مُجدَّ على غير عادته، وأسرع بالردِّ، - تعرف قُبعتي المهترئة أنما لن تفعل هذا!

قال قرباتر بعدما مشوا مدة وهو يُخفي امتعاضه من "قبة حاغور المهترئة":

- لا أعرف يا نور مُجدَّ قيمة قبعتك المهترئة ولكنَّ هذا مرادي نحو روسيا. وأما موافقتهم وعدم موافقتهم فهذا يعود إليهم.

- هذا كلام معقول، - عاد شيء من الحيوية إلى ترام، - هذا موضوع آخر يا أمير.

كان حاغور يود الرد على الأمير ولكنه فضّل عدم التوغل في الموضوع وعدم تذكيره بأقربائه الروس، فكبح عواطفه متذكراً أنه هو أيضاً قدّم قبل مدة تايصور أخت زوجته خفيةً إلى راكيتوف بافيل، وما أثارت الحادثة من احتجاجات، وما يتكلم الناس فيه إلى الآن. وهذه الفكرة الحزينة نفسها هي التي منعتَه من أن يسأل نيكراس رفعت الذي سخر من فرسان الشابسغ عن أحوال ابنة آل حاغور وصهرهم ومكان عيشهما...

لم يتبادل الثلاثة أي كلام مستفزّ. كلُّ إنسان يفكر في موضوع الأدبغة بطريقته، وله رأيه الخاص. ومهما أجبرته لا يمكنك أن تحرفه عن موقفه. لم يكن حاغور يخفي على نفسه التبدّل الذي طرأ على أفكاره في السنوات القليلة الماضية وإن لم يُنحَ بها. بل إنه عبّر في بعض المضافات عنها. ولأول مرة يلمّح أمام قرباتر بها وإن لم يكشفها تماماً.

فكرة التصالح مع الروس راودت حاغور أول مرة بعدما عاد هو وترام من تركيا. ووجد وقتاً كافياً للمقارنة بين ما رأى في البلاد الغربية وما يجري في إقليم

الأديغة. ويُحزنه من يقضون قبل أوانهم في الحرب التي شنتها عليهم الجارة العظمى من ضحايا بريئة من النساء والأطفال، ومن المسنين، أكثر ما يحزنه الرجال الذين يسقطون في ساحة المعركة. والحرب التي لا نهاية لها تحوّل أرض الأديغة يوماً بعد يوم إلى ذكرى. وما يبقى ظلّ الضيق مخيماً عليه أكثر من غيره هو نفاق تركيا وإنجلترا، بالإضافة إلى فرنسا وإمبراطورية المجر. ولو لم ير بعينيه، بل رواه أحدهم له، لما صدّق ما تمارسه تركيا من استغلال للقضية من أجل فائدتها، وما سمع من كلام في الموضوع. ولم يكن يعتب كثيراً على توجّه بعض زعماء الأديغة ومنهم سفري إلى تركيا. ولم يكن يعيب على الملهوف أن يمد يده إلى أيّ شخص يتأمل منه العون.

ومع ذلك، قال حاغور، ما فائدة تركيا البعيدة عنا كل هذه المسافة؟ ماذا يقول الناس؟ الجار جار، وجارؤه جار. وقد أصاب من قال: جار طيب خيرٌ من قريب بعيد. وما الذي يجمع الأديغة إلى الترك؟ وهل يكفي أن يكون ديننا واحداً؟ ورصاص المسيحيين يقتلنا وفي أعناقنا تيممة من القرآن تمنع عنا رصاص العدو، وبضربة سيف يفصل العدو رؤوسنا عن أجسادنا. وأين رحمة الله الذي أوفد إلينا النائب؟ عشنا مرتاحين إلى الآن والشمس المنيرة إلها الكبير، وحين توجهنا إلى الإسلام لعنتنا الشمس الإلهة، وغضبت علينا. ما الذي أجبرنا نحن الأديغة كلنا أن نغيّر ديننا لولا البطر؟ وحجمقوه أسلانج لا يقبل هذا. وقابلت في الأبراخ والجمكوي والوبيخ من لا يقبل هذا. ما العمل هل تكفّم أفواههم؟.. والفلاح ترام ترهقه أفكاره المتصارعة كصديقه. ولا يلوم حاغور إن خطرت له أفكاره أحياناً. رأسان خيرٌ من رأس واحد، كلام صحيح. الطريق يفتح لك أبواباً من الأحاديث. وتسمع أحياناً ما لا يعجبك. وها هو الأمير لم يعلّق على أقوال حاغور. يجلس على السرج مغالياً النعاس.

ما لا يفارق ذهن قرباتر، ولو أنه مغمض العينين، هو كلام حاغور ورفعت. دقّق في كلام كلّ منهما كما يُغربل القمح، وقارن نتائجها الإيجابية والسلبية. واحتفظ في قلبه بكل ما استخلصه من الطرفين. لم يكن يسمع كلام حاغور للمرة الأولى وإن كان يسمع تلميح نيكراس رفعت للمرة الأولى. قال قرباتر متألم

القلب: أأنا من لا يريد السلام؟ يقول القيصر صالحوني وكونوا من رعاياي ولا يرى سلوكه خاطئاً. ولا يريد أن يسمع سيرة الزعماء الأديغة.

- ما هذا يا إلهي؟! - تعجب حاغور من الجمع الكبير الذي ظهر حين ارتقوا ظهر التل.

- كأنا وصلنا في موعد مؤتمر الأبراخ! - حثّ قرباتر الحصان وانحدر مسرعاً إلى مكان اجتماع الناس.

لم يكن الاجتماع في مضيق مامرقوه على نهر شغواشه، غير بعيد عن قرية جِغر، مؤتمراً للأبراخ بل محكمة. الجلسة تمضي إلى نهايتها، وانقضى على حديثهم عن يوسف أفندي ساعات. وانتهى خمسة أشخاص من كلماتهم. والفلاح السادس يكاد يُنهي كلمته. وبعده ينتظر المجتمعون حكم النائب مُجد أمين.

لم يقترب الفرسان الثلاثة من حلقة المجتمعين كثيراً واكتفوا بمكان يسمعون فيه أقوال المتكلمين. على الضفة الضيقة حيث يعربد نهر فُجبس السريع أناس كثيرون. وفي الساحة المرتفعة يجلس يوسف أفندي مقيد اليدين والرجلين. ويحيط به أناس يغلب عليهم الاحتقار الممزوج بالحمية. ولا يُسمع في الجوار إلا صوت المتكلم وصخب الماء. وكلام الفلاح الملتحى العبوس الذي يشير إلى يوسف أفندي مختصر:

- أؤيد حكم المحكمة بالخيانة على يوسف أفندي في الوقت الذي نعيش فيه، نحن الأديغة، في زمان عصيب. وأوافق على ما قاله المتكلمون قبلي. لا أشفق أيتها الجماعة على من لا يتألم لأجلنا. - واختتم الفلاح وهو يسرّ أصبعه للسماء التي ليس فيها إلا الشمس: - كلام مُجد أمين موفد الله الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل إلى أحد كلامي. فلاحو الأبراخ كلامهم كلامك وسلاحهم سلاحك يا موفد الله!

يرى قرباتر مُجد أمين للمرة الأولى. تعرفه من بين الواقفين بعمامته البيضاء وإن لم تر وجهه. قامته مشدودة كأنها القالب الذي فُصِّل الزي الأديغي على قياسه. يتفحص الواقفين بعين حادة حامية. ولا يشفق هو أيضاً على نفسه. وإذا كان الشائع أن رجال الدين لا يحملون سلاحاً فإنك لا ترى على النائب غيره.

الخنجر الفضي يتدلى من الحزام الفضي الرفيع، ومن الجانب الآخر المسدس. والسوط القصير المنتهي بكرة رصاصية معلق بالرسغ جاهزاً في أي لحظة. بحث قرباتر عن تسي حاترباي ريشما تعرّف على شكل النائب. لم يره بين الواقفين في أعلى الحلقة ولا أسفلها. ولم يعرف تفسيراً لغيابه.

قال قرباتر: ما أعجب هؤلاء الأبراخ! نحن من عرق واحد، دمنّا واحد، ولغتنا واحدة وضحكنا وحميتنا. ولا نختلف في طعامنا ولكن فيهم شيئاً لا أعرف تسميته تماماً ليس فينا. أهو مظهرهم الخارجي؟ هذا شيء، وكلهم ذوو وجوه طافحة كبيرة بلحي وشوارب عظيمة سوداء. ينظرون إليك نظرات مرعبة، ولكن حين يتسمون لك عن أسنانهم البيضاء يُسنونك الانطباع السابق. أكون لباسهم؟ لا يلبسون غير ما يلبسه الأديغة الآخرون. المتنفدون يتميزون بأنافة أكسيتهم وجزماتهم، وقبعاتهم المصنوعة من جلد الخروف المدبوغ، وأسلحتهم. وإذا كان هؤلاء الكبار تختلف ألبستهم فالفلاحون يلبسون زياً موحداً كأنه من قالب واحد: سراويل ذات سروج عالية تُجمع أطرافها في جوارب صوفية بيضاء أو سوداء، وفراء من صوف خشن أسود أو أحمر داكن لا يصل إلى المرفقين، والقميص الظاهر منه ذو الكتفين المزريين على المعصمين، وقبعة مائلة إلى الطول من صوف الخروف الطويل، وحذاء مطاطي، وحزام رفيع علّق به خنجر رخيص أو سكين من صنع اليد. يمّ يتميز هؤلاء منّا إذن؟ والله لا أعرف. لا يلبسون غير ما نلبس، ولا يأكلون غير ما نأكل، ولا يقولون غير ما نقول. ومع ذلك كان والدنا يكرر أن فيهم شيئاً ليس فينا.

حين دخل النائب بيضع خطأ ثابتة إلى الساحة تناثرت أفكار قرباتر. وقال لرفيقه دون أن يعرف السبب:

- هذا هو النائب!

- إنه متناقض القوام! - قيّمه حاغور باختصار.

- معتدّ بنفسه، - أضاف ترام.

- لا يُقال مثل هذا في الضيف موفد الله، - قال فلاح زريّ الثياب إلى ترام، ورماه بنظرة حانقة.

- والله يا أخي الصغير لم يخطر لي سوء نحو النائب... - برأ ترام نفسه فلم يضع نفسه في تناحر مع جاره.

- لا بأس إذن، سامحني يا كبير!

- اسكتنا لحظةً!.. - قال قرباتر وهو يسمع كلام الفلاحين ولا يفهم ما يقولانه، - دعونا نسمع النائب!

- الله أكبر! - وقف النائب وظهره إلى يوسف أفندي، ورفع ذراعيه إلى السماء، وغمغم دون أن يسمعه القرييون والبعيدون. وأحياناً يصرخ: الفاتحة! ما يحدث وراء النائب عجيب: يحاول يوسف أفندي الوقوف ليدعو إلى الله ولكنه لا يقوى على النهوض. يتلوى ويترجى:

- أأستم مسلمين؟ أطلقوا يدي ودعوني أبتهل إلى الله. أرجوكم لا تدعوني أخطئ في حضرة الله!

يتوقف محمد أمين عن الدعاء غير عابئ بما يجري من وراء ظهره، ويقول دون أن يسبل يديه: - سُدُّوا فم الخائن!

يركض رجلان إلى الأفندي المقيد، (عرفهما قرباتر ورفيقاه، وهما جباغ وتومن) ويدسان خرقة في فمه.

- الله أكبر! - يستأنف النائب دعاءه، وتدوم فوق الجمع همهمتهم. وبعد قليل يُنهي بصوت حادٍ وقد خَمِنَ أن الرهبة تسللت إلى النفوس: - الفاتحة، آمين! - أيتها الجماعة: الأمراء عبَّروا عما في نفوسهم، لا رحمة بالخائن! لا شفقة لنا على الخائن الذي يبيع الأديغة كلهم بروبل نحاسي. كائناً من كان، سواء كان فلاحاً أم نبياً أم أفندياً أم أميراً. ولن تكون لنا رحمة به مستقبلاً. زماننا هو زمان الأديغة، زماناً يتوجب علينا فيه أن ننتزع روح من يمد يده إلى عيوننا. اليوم بتت المحكمة في قضية الخائن الذي تحالف مع أعدائنا، مع من يُبكون أطفالنا، ويُروعون نساءنا، ويعلقون رؤوس رجالنا على أعمدة الكفار، ويطفئون مواقد بيوتنا، وينهبون إقليم الأديغة. - وكلما مضى قليل من الوقت ارتفع الصوت، وتمدد، وارتحف. ولا تراجع عن هذا الحكم. وكل خائن ستكون هذه نهايته أيتها الجماعة. أنتم تعرفون من هذا الخائن. حالف أعداءنا وهو يدعوكم

إلى تقبُّل دين الإسلام الذي هداكم إليه الله، فأهاننا ودَسَّنا. لا تعدُّوا الخائن كائناً من كان، حتى لو كنت أنا، إنساناً. إرمه من الضفة يا تومن!

اختطف جباغ وتومن الخائن وأوقفاه على الضفة وعلى عنقه قطعة حجر عريضة. وقُبيل دفعِهما الأفندي المقيد الذي يتشبث بالأرض قال تومن لرفيقه:

- انزع الخرقه من فمه، ولُثِّقْه من الضفة وصوته يَرِّج الدنيا ويُسَمِّع الكفار!

طار صراخ يوسف أفندي من الضفة، وارتطم بالجرى الضيق للنهر، ثم عاد فصعد، وتردد صدهاء بعض الوقت بين الجبال.

تسارع الناس إلى الضفة.

ولم يتزحزح مُحمَّد أمين من الموقع الذي يتكلم منه. ويتحدث مع بعض المسنَّين الذين اقتربوا منه. وكأنه لم يتسبب في أي مأساة، ولا ساهم فيها. ويشير إلى الناس الذين يقف أمامهم والسوط الفضى القصير يتدلى من رسغه إلى جهة الجبال شاملاً بالإشارة أرض الشابسغ:

وتصل ضحكاتهم إلى قرباتر وجماعته.

- تعالا، - يقول قرباتر مدركاً أن الثلاثة بقوا وحدهم، - دعونا نتابع طريقنا قبل أن تعود موجة الأبراخ من جانب الضفة. سينتشي الأبراخ الذين شربوا دم إنسان متى عادوا إلى وعيهم بعدما نفَّسوا عن ضيقهم.

- ألا يعتب النائب علينا يا أمير إن أخبروه أنهم رأونا ولم نسلِّم عليه؟ قال حاغور متردداً، وتبع الأمير دون انتظار الجواب.

- ومن هو النائب حتى نلقي عليه التحية؟ - أجاب ترام بدلاً من الأمير.

لاحظ قرباتر وصاحباه وقد خرجوا من سرير النهر وارتقوا المرتفع مجموعة الفرسان المتدافعة. ولم يتوقف الثلاثة حتى لا يُقال إن الشابسغ ارتعبوا، ولم يلتفتوا إليهم فيثيروا شكَّهم.

- ماذا ينوي هؤلاء الذين يكسرون حوافر خيلهم وراءنا؟ - غمغم حاغور.

اكتفى قرباتر بالابتسام.

وبعد قليل حين اقترب تداعُّ الخيل بدا على صوت ترام شيء من القلق دون أن يتناسى رجولته:

- هل في قلوب هؤلاء المساخِرِ خير أم شر؟

- الأبراخ يركبون خيولاً ممتازة. ابتسم قرباتر مرة أخرى، ولم يقلق لقول ترام.
- توقف الأبراخ معتبرين سبق فرسان الشابسغ غير لائق.
- أدار ترام وحاغور رأسي حصانيهما بسرعة كما فعل الأمير. واستعدا لامتناع السلاح والأمير بينهما مع أن من لحقوا بهم لم يمدوا أيديهم إلى السلاح.
- خرج أكبر الفرسان سناً مقدار طول حصان علامة احترام، ثم قال لهم:
- أرسلنا محمد أمين أيها الأمير. النائب عاتب عليك يا قرباتر!
- ولماذا أيها الفلاحون؟
- يقول لك النائب: لماذا تجاوزنا الأمير الذي نسمع باسمه ولا نعرفه، فلم يدخل إلى قريتنا ويسلم علينا؟
- بلّغوا النائب عني: نحن على طريق، لم نكن ننوي دخول أي قرية، ولكن لم نستطع تجاوز محكمة الأبراخ. واستمعنا إلى خاتمتها. هذا أمر، والثاني: النائب الآتي من الداغستان لم يدخل اليوم إلى إقليم الأديغة والأبراخ. والنائب يعرف أن قرباتر بن سفري زانه الأمير الكبير يقيم في نواحي الشابسغ والناخوي.
- فبلّغوه أن الوقت تأخر على السلام. مع السلامة أيها الأبراخ!
- وعليكم السلام. سنوصل كلامك إلى النائب دون أن تسقط منه كلمة. -
- عاد فرسان الأبراخ.

...

كانت الشمس تنوي الثواء وراء قمم الجبال البيضاء حين اقترب الفرسان الشابسغ من حدود قرية جغر.

التقوا بالكثيرين خلال مسيرتهم طوال نهار كامل. وانتصبت أمامهم مهام غير متوقعة، وكان بينها ما تدخلوا فيه، وما لم يتدخلوا. ومهما قابلوا من مهام انحازوا إلى جهة واحدة من الحياة وناقشوها ببضع كلمات وردودها، وتناسى كل منهم عدم رضاه الباطني بالموضوع.

إذا كان نور محمد وقرباتر يتصوران الوضع هكذا بالنسبة إلى قرباتر فهما مخطئان. لا يفارق ذهنه نيكراس رفعت ويوسف أفندي ومحمد أمين. والأمور التي يود نسيانها قبل أن يجد الفرصة لتجاوزها بفكره تعود إلى مخيلته. وإن حاول قرباتر إزاحة أحد الثلاثة من أمام مخيلته وجددهم مرتبطين بالمسألة نفسها. يقول

قرباثر: ومع ذلك أجد تسويغاً ما لسلوك نيكراس رفعت، ولميئة يوسف أفندي، وللحاق فرسان الأبراخ بنا، ولكن ما لا أفهمه هو الطريقة التي استطاع مُجد أمين بما أن يحمل الفلاحين خلال هذا العام على تقبُّله. أُعجبوا بالنائب منذ يومه الأول بينهم. ولم يحددوا عن أوامره فترةً واحداً. لم أكن أصدق من يقول إنه يُرسي في الأبراخ نظاماً لم يكن يوماً فيها، ولكني شهدتُ بعيني اليوم. وإذا استطاع أن يلقي في الماء الأفندي الذي كان مكرماً في الأبراخ والناخوي والشابسغ فسيمد سلطته إلى الأبعد. ربما كان الأفندي مذنباً ولكن عليك أن تتمتع برجولة فائقة قبل أن تمدّ يدك عليه وتُثنع المسلمين بذنبه. لا أكنم أنه يحزّ في نفسه أن الثقة التي لم يُؤلّها لنا الفلاحون أولّوها بالغريب الآتي من أحد أطراف الأرض. لا نخشى عند الفلاحين بمثل هذا الاحترام، لا أنا، ولا برزج، ولا حجمقه، ولا تسي. ما الذي طوّع هؤلاء الفلاحين العنيدون بسهولة للنائب؟ أهو الدين الإسلامي أم عمامته؟ إن كان الدين فحقن غمارسه بإخلاص مع الفلاحين ولو أننا لا نلبس العمامة، ونبني لهم الجوامع، ونكسوها بالأثاث... لا أعرف إذن ماذا يحدث لنا نحن الأديعة.

شرعت إحدى الأفكار المقلقة الباعثة على الضيق تهرب من صدر قرباثر. ضغط على قلبه متسائلاً عن ماهيتها. وسأل رفيقيه مغلباً المزاح المرائي:

- أراكما أيها الشابسغ لا تقولان شيئاً!

- وماذا نقول يا أمير؟ - قال حاغور بما يعني ارتياحه لخروج الأمير عن الصمت، - دخلنا حدود قرية جغر. ما إن نرتقي الذروة حتى يبدو لنا بيت حاترباي تحت الجبل.

- يا ربي، أليكون حاترباي الزعيم الذي نذهب إليه في البيت؟ - سرت إلى قرباثر فكرة هي وليدة الأفكار المزعجة الأخرى.

- وأين يذهب من ينتظرنا يا أمير؟ - كان سؤال ترام المعاكس حاضراً، - لم أره بين حضور المحكمة.

- ليس حاترباي ممن لا يُخبرونهم بما يجري في الأبراخ. - يُطلق قرباثر الحرية لتفكيره، - كان كلُّ من يعتدّ برجولته في المحكمة. غير أنني لم ألمح حاترباي

بينهم.

- وأنا لم أر أحد رجالات الأبراخ بين الحضور يا أمير... - حرص ترام على كلام الأمير.

- ومن أمثال هؤلاء في الأبراخ؟

- نيكراس تيم يا أمير.

- وأنا بحثت عنه أيضاً... ألم تريا إذن الضيف القادم من بلاد أخرى؟

- كان جيمس واقفاً إلى يسار النائب. - شهد حاغور.

- هل تصدّقان أنه لم يرنا؟

- هذا مستحيل، - حاغور مقتنع بما يقول. - أكانوا يرسلون وراءنا الفرسان

لو لم يرونا؟!

ابتسم قرباتر:

- لا أظن أحداً بين حضور المحكمة غاب عن نظرات جيمس.

حين ارتقى الفرسان ظهر المرتفع أنهى قرباتر الحديث عن قرية جغر التي يتحدثون عنها، وعن بيت الزعيم الذي وصفه ترام في أسفل الجبل.

قرية جغر مستندة إلى الجبل، دون أن تتوسع كثيراً كأنها تبخل بالأرض المعدة للزراعة في المضيق على أرض صاعدة نازلة. وفي القرية التي تقطنها قرابة ثلاثمئة أسرة عدة شوارع. وباستثناء البيت العالي لتسي المتنّفذ وداره الفسيحة فاليوت الأخرى المسقوفة بالقصب ملتصقة بالأرض معصورة محشورة. ويشهد على أن عندهم كثيراً من المواشي رغم فقرهم كثرة مستراحاتها المبنية من الأخشاب المتصالبة التي تراها في كل مكان. ويؤكد هذا قطعان البقر والغنم والخيول التي تعود مساء إلى القرية. ويرتفع فجأة من مكان إلى آخر في القرية نباح كلاب. ويدخل في هذا الزحام أصوات لعب الأطفال. ولا يُنسي صوت المؤذن الحاد المؤمنين صلاة المغرب.

خرج فارسان من القرية.

- كأنهما في استقبالنا يا أمير... - قال ترام يريد استرضاء قلب الأمير ولكنه ندم.

- ليس عند الأبراخ عادة استقبال الضيف، - أصلح حاغور معلومات صديقه، - ما تقوله عادة عند البجدوغ.

- البجدوغ لا يستحقون العتب على هذه العادة. - ساهم قرباتر في حديث رفيقيه، - وهذه من العادات التي زرعها فيهم القوزاق الذين تصالحوا معهم. الأديغة بيوت مضافاتهم مفتوحة بعلمهم.

- الضيف الذي يدخل القرية يتوجه إلى من يقصده. - أصلح ترام موقفه، - وإلا فلا يجوز أن تستقبل الضيف وتسلبه من مضيفه.

- نعم هذا هو الصحيح، وافق حاغور صديقه، - ويعمّق فكرة الأديغة عن الضيف. - أما أن يدعوك إلى الدخول وأنت تمر بباب داره وأن تلتفت إليه تعبيراً عن احترامك له فهذا شأن آخر. وإن وصلت إلى باب المضيف ولم يستقبلك فعليك بالعودة.

- لن يفعل بنا حاترباي الزعيم مثل هذا... - ابتسم قرباتر لرفيقيه واثقاً من كلامه.

سلم عليهم، كما توقع حاغور، عدد من الأشخاص خلال عبورهم الرقاق الطويل أمام بيت تسي، وعبر المسنون الذين اتخذوا من جذوع الأشجار مجالس لهم عن احترامهم بأن رفعوا أجسادهم قليلاً عن مقاعدهم. ودعّوهم إلى بيوتهم دون رياء، والنساء القليلات اللواتي صادفوهن في الطريق لم يقطعن، كما تملي العادات، طريق من يلبس قبة، بل إن بعض الفتيات غير البالغات بعدُ تصرّفن كالراشدات. وصدف أن نهر البعضُ كلاهم لأن من ينبعُ كلبه على الضيوف مذموّم.

استقبل حاترباي الضيوف على الباب:

- تفضّلوا، تفضّلوا، ياضيوف الخير، يا من جعل الله يومهم مئة! والله يا أمير، والله يا قرباتر مضى زمن طويل على لقائي بك. ربما سنة، وهل السنة قليلة؟ حتى نكاد ننسى سُحتك!.. ما أخبرك يا قرباتر بإذن الله؟ أما زالت الوالدة على قيد الحياة. أليست بصحة جيدة؟ ومن فارقتموهم أليسوا في سلام؟

- حياك الله يا حاترباي، والدتنا بصحة جيدة - وأتى على سيرة والده الذي لم يسأل عنه حاترباي، - ووالدنا يكتب إليّ، ويخبرني عن قراره بالعودة. وأيُّ سلام في المنطقة التي جئنا منها! الجيش القيصري في مواجهتنا، ولا ينتظرنا كل يوم إلا مأساة ما.

- وناحيتنا، الأبراخ، كذلك يا أمير. - ينكسر صوت تسي شيئاً فشيئاً. - ومن أين تعود طمأنينة الماضي... بلاد الأديفة على حافة السقوط. هاجمها القاصي والداني. انضم الإنجليز والداغستان إلى روسيا وتركيا، ومصرّون على أن يتزعموا الأديفة... وتكفي إقامة والدك الأمير سفربي في تركيا. ليكن رجلاً، لينقض ما حوله وليعدّ إلى أرض الأجداد!

- الأمير سفربي سيتحلى بالرجولة، ولن يحتاج إلى من يدعمه، - أشعر حاغور المضيف أن الأمير ليس وحده.

- أنا آسف يا حاغور، يا رجل الضابطة، سهوت عنك في غمرة الحديث! أهلاً بك يا نور مُجد، وأنت أيها الفلاح ترام... تعالوا، تفضّلوا إلى المضافة. والله سررتني يا قرباتر بزيارتك. نيكراس تيم يلتزم بكلمته. أقصد حماك يا أمير. أتكلم على حميك. حموك تيم في المضافة يا قرباتر. حين أخبروا بقدومك لم أستطع حمّله على تحريك مؤخرته، أصرّ على البقاء لا يرى في اجتماعه بصهره مشكلة. أظنكم رفعتما الكلفة بينكما؟ - يسأل تسي قرباتر كأنه لا يعرف.

- نعم يا تسي اجتمعنا، رفعنا الكلفة.

- حسناً فعلتُما. لا تندما على ما تفعلا في هذه الأيام. ماذا يقول إلهنا الكبير؟ المضطر يستطيع الإفطار في رمضان. نحن لسنا مضطرين فحسب بل في مهلكة. - مرة أخرى يكرر تسي ما يقلقه، - هجم علينا الداغستان وغيرهم كما تهاجم الغربان لحم الخيل...

ريثما غسل الضيوف أيديهم استخلص قرباتر من كلام تسي كثيراً مما يستوجب التفكير.

قال قرباتر في سرّه: غاب تسي عن محكمة الأبراخ اليوم، وكذلك حمي. يبدو أن مشكلة حدثت بين تسي والنائب، وإلا ما أتى في كلامه على سيرة النائب بضع مرات فكيف بالأتراك الذين ينفر منهم تسي. والقيصر الروسي، ليس زعيم الأبراخ فحسب يعاديه، بل كل سكان إقليم الأديفة. ويودّ أن يعود والدي أيضاً فما الذي جرى لهؤلاء؟ حين لم يستشر والدنا تسي في نواياه انضم الأخير إلى حشمقه، وانضم إليهما الزعماء، فلم يوافقوه مستغلين موقف نخبة الفلاحين في موضوع وحدة الأديفة. برزج وحده من تحلى بالرجولة. قال لهم:

أضمت إليكم الوبيخ وعلى رأسهم شخصي. والآن إذ بيني الروس تحصيناتهم على حدود الأبراخ داخله الرعب.

حين تورّدت وجنتا حاترباي قليلاً من الباخسمة تذكر ما كان يود أن يقوله لقرباير قبل الجلوس إلى المائدة والذي لم يجده ملائماً وقتها. فقال راغباً في كسبٍ ودٍّ بعض الفلاحين الجالسين إلى مائدته:

- لا تؤاخذني يا أمير، ربما تعتب عليّ لأني دعوتُ بعض الفلاحين إلى مائدتك. ما رأيك يا تيم، نحن في بلاد فلاحين!.. ضحك حاترباي من أعماق قلبه وقد احمر وجهه.

استاء حاغور وترام جداً مما سمعا ولكنهما كظما انفعالهما. وتظاهرا، وكلّ منهما ممسك بقطعة من لحم الديك الرومي، بمسيرة المضيف في ضحكته. ونظرا خفية إلى بعض فلاحي القرية الجالسين إلى الطعام، فتحدثوا بنظرات سريعة معتبرين تسي قال ما قاله بنتيّة سليمة، لا يقصد شراً.

- والله يا حاترباي، - لم يُبدِ قرباير انزعاجه، - وبلاد الشابسغ ليست بلاد أمراء - بل أسرة فلاحين. أليس حسناً أن يجلس الجميع متفقين على مائدة واحدة. الفلاحون هم من يدعموننا اليوم. وهم من يحمون البلاد. ماذا كانت فائدتنا وحدنا لو لم يقف هؤلاء كأعواد مضفورة تسندنا نحن الأعمدة؟! أقول هذا ولكن، لا تؤاخذوني يا رفاقي الطيبين، عاجزون عن حماية آل زانه الأمراء. هذا منفي إلى تركيا، والآخر جالس أمامكم يدور أرض الأديغة محاولاً توحيدهم. - قال الكلمات الأخيرة خالطاً جدّه بهزله، وتظاهر بالضحك، ثم سأل أحد رفيقيه: - أليس كلامي صحيحاً يا نور مُجدّ؟

- لا أظن الأمر وصل إلى هذا الحدّ يا محترم، - جواب حاغور حاضر. - هذا ما سيقوله لك هؤلاء الفلاحون يا حاترباي، مهما كرمتهم... - مازح قرباير رجل الضابطة الشابسغ. ثم أبرز نفسه من خلال امتداح فلاحيه: - لولا أنكم تساندوني مشجعين إياي لما تأملت الحياة.

- والله يا أمير، - جزع حاترباي لما سمع، - والله لا أقصد الفلاحين الذين على المائدة، هؤلاء ثقّتي فيهم، غير أن هذا لا ينطبق على فلاحي الأبراخ. هؤلاء لم يظهروا طوال هذا العام. وها هو تيم والجالسون هنا منهم شهودي.

- لم يتوقف الأمر على عدم ظهورهم، بل بدّلوا جلودهم، وافق تيم المضيف.
- لاحظنا هذا في محكمة اليوم.

- ألم تروا بأعينكم يا أمير؟ هذه حالنا نحن. النائب يهيج الفلاحين ضدنا...
- شرع تسي يروي ما تجتمع في صدره من غضب خلال الأشهر القليلة الماضية، ثم تراجع مع عودة وعيه السريعة: - كفى حديثاً عن الرجل الغريب، نعلق عليه الكثير... ما الأخبار في ناحيتكم يا أمير؟ وبرزج جراندوقوه نسينا تماماً...

وهل الأخبار في إقليم الأديغة قليلة؟ كل يوم جديد يأتيه بأخبار كثيرة. والأحزان أكثر من الأفراح. والمآتم تغطي على الأعراس. ولن تجد قرية ليس فيها بضع مآتم لضحايا الحرب. وملابس الحداد تغلب على النساء. والضحك قليل في كل مكان. وحين يصبح الحزن غالباً على الناس ينكسر جناح أي نوع من الأفراح. يبدأ كثير من الناس يفهمون أن مأساة الأديغة لا مخرج منها ولكن أخباراً سارة خفية تأتي من تركيا ومن إنجلترا ومن الداغستان تريح هذا المصير المأساوي البعيد. الذين يساعدون الأديغة بالأخبار والوعود كثيرون، وفوائدهم قليلة. وعلى مبدأ: إن كانت يدك مُدھنة فامسح بها رأسك، يحمون بلادهم ببطونهم المعصوبة. ويسقط في كل خطوة يخطونها إلى الأمام وإلى الوراء شهيد. وتُحرّق قراهم، ويسلبونهم أراضي الزراعة وسهول الحشيش. الذين من خلفهم يشيرون بأيديهم والذين أمامهم يُقتلون. وكل من يتحدث عن وحدة الأديغة يجر زمام العربة إلى جهته. وإن لم يستطع الإمساك به وضع العصا في الدولا ب. وإن رأى فائدة ترك الخيانة وتحالف سراً مع الأعداء.

لم يترك المجتمعون في المضافة حديثاً لم يتطرقوا إليه حتى العشاء إلا السبب الذي استدعى تسي قرباتر من أجله. وإذا كان قرباتر غير مستعجل على ما سيقول المضيف إذ أمسك بطرف خيط استدعائه فإن ما يشغله موضوع آخر لا يعرف كيف يطرحه وهو خبر رفعت الذي رُوي بأشكال كثيرة. سهر قرباتر ليلته لا يعرف كيف يُخبر حماه بطريقة لقائه بابنه.

الخبر السار روايته سهلة، ولكن قرباتر يفهم أنه غير سارٍ لحميه. أليس رفعت من لحمه ودمه وإن مارس الخيانة، أليس ابنه؟ أين يذهب به متترعاً إياه من جسده؟ ألم يربّه ويُنشئه؟

- ساحخي يا تيم على نُطق اسمك، - استغل قرباتر فرصة انقطاع في الحديث، وقال، - أودّ أن أنقل إليك خبراً ساراً.

- ليُنطق الله فمك بالخير دائماً!

- التقينا اليوم برفعت.

- ومن أين ظهر هذا الثرثار؟.. - هيّج الخبر تيم ولكنه كتم انفعاله، وأضاف مُحرّجاً من وجهه الشاحب فحسب، متظاهراً بعدم الاهتمام: - ألم تبكِ والدته منذ زمن بعيد إذ نُقل إليها أنه قُتل في الداغستان؟.. لم تتحرك عضلة في الوجه الذي جرح قبل أعوام في منطقة جِنْغه.

- لا أخبار من هذا النوع، - ساهم حاغور شاهداً، - حيّ وفي صحة جيدة.

- هل رجع إلى البيت؟ - تبدأ شفقة تيم على ولده تتحرر.

- لا، لو حدث هذا لكان يقال: العائد يحبه الله؛ هل كنا صبرنا إلى الآن لا نخبرك؟ قابل قرباتر السؤال بسؤال. وبدا من الكلمات الأخيرة حُزنه لحال رفعت. - لا يزال يحمل الرتبة الروسية.

- هكذا إذن... - سقط تيم من بين أفكاره الثقيلة.

هيمن على الغرفة صمت ثقيل مفاجئ. وفيما الجالسون صامتون عن أي حديث لا يعرفون ما يفعلون، عاد قرباتر فأشفق على حميه، وغطّى الحقيقة بالكذب:

- سأل عن الأسرة جميعها يا تيم.

- إن سأل عنا فلماذا لا يعود؟! - وبعد قليل غضب تيم من جديد. - وهل هو متأكد من أنني سأفتح له بيتي إن رجع سليل الكلبين هذا؟.. جلب لي العار في إقليم الأديغة كله!.. ولماذا يسأل عني بعد هذا دون خجل؟.. يا عرقاً عديم الإيمان! ليتته مثل أمامي هذا المهذار! لم يتنهد نيكراس تيم بل غمغم.

صحيح ما يقال من أن الفرح والحزن متجاوران. ظن قرباتر أنه يفعل خيراً فإذا به ينشر الوجوم في المضافة. لماذا أتى على ذِكْرِ رفعت وكأنه لا يعرف حمية تيم الخليطة من الأدينية والروسية؟ من أجبرني فأهَيِّج العجوز؟! بدأ المضيف خيراً آخر يريد إلهاءهم عن خبر رفعت ولكنه لم يستطع روايته كما يريد. وسيطرت الفكرة المعمة نفسها على سائر الجالسين. وغاب كل أثر للفرح عن وجوههم.

- في جفر حفلة جابشة¹ - قال أحد الفلاحين من القرية.

ظهر من نظرات حاغور وترام رغبتهما في الذهاب إلى الجابشة.
سأل تيم:

- وماذا حدث لمن يُحتفل به؟

- وماذا يمكن أن يحدث له؟ جرحه القوزاق القاطنون على الضفة الأخرى لنهر لا با.

- لنذهب! - قال فلاح آخر.

- اذهبوا! - تسي مرتاحاً لما سمع. - سنتأخر أنا والأمير قرباتر والفلاح نيكراس عنكم قرابة الساعة. لا تُخبروهم بمجيئنا. ستمتلئ الغرفة حتى ليضيق نفسك فيها...

...

ربما ليس في العالم من عنده تقليد الجابشة إلا الأدينة والأبخاز. ولا يتذكرون أنهم عرفوا الجابشة في سنة كذا أو القرن كذا. وما أهمية أن يعرفوا التاريخ؟ المهم أن يبقى في حياتهم مفيداً محبباً منقساً عن همومهم. من الصعب أن تحمل الناس على تقبُّل كل ما يضر ولا يفيد مهما امتدحته.

الأدينة في كل زمان، كما يتذكرون منذ وعوا على الحياة، ماهرون في شفاء كسور العظام، ومعالجة جروح الرصاص والسيوف والخناجر. ولا يقتصر الأمر على هذا، فهم من أوائل الأقوام التي وجدت علاجاً للجذري.

الجابشة تخفف عن المريض ذي الوجع الشديد. تُبتكر في الجابشة طرق كثيرة من ألعاب ومزاح ودواعٍ للضحك تخفف ألم المريض ولو ساعة، وتحمله على

¹ ستأتي على لسان الكاتب معلومات كثيرة عنها لاحقاً بما يُغني عن التعريف.

الضحك، وتنسيه ألمه. وتُعنى فيها أغانٍ مريحة، وتؤدي ألعاب متنوعة. كل من عنده شفقة، ومن يحب المزاح، ومن الضحكة جاهزة على فمه، يذهب إلى هذه الحفلات. ويساهم فيها على قدر ذكائه.

لا تمييز في الجابشة بين أمير ونبييل وفلاح ومتنفذ. كلٌّ يذهب إن وجد وقتاً. ومن لم يجد وجب عليه زيارة المريض ولو مرة. ولكن لا إلزام في الأمر. كلٌّ وإحساسه بالوجع، وإنسانيته، وحيأؤه. متى دخل الإلزام ما تفعل انعدم الصدق فيه. وفي هذه الحال تكفُّ الجابشة المشحونة دائماً بالصدق عن أن تكون جابشةً.

- يقال إن والدك حاغور موسى كان ماهراً في أعمال الطَّرَق الإيقاعي، فاطرق يا نور مُحمد - قال ترام وقد اقتربوا من السندان الذي على الباب. وفتح بعض فلاحى القرية الطريق أمام الضيوف تعبيراً عن الاحترام.

أمسك حاغور بالمطرقة الصغيرة التي على السندان، ونظر إلى رفاقه وإلى الآخرين الواقفين نظرة ودِّ كأنه يقول: أنا ماهرٌ حقاً فاسمعوا عزني. ولعب بالمطرقة فوق السندان قليلاً دون أن تلامسه، يريد أن يشوّقهم إلى طرّقه. ثم عزف لحن أغنية قديمة من خلال صريف الحديد على الحديد، فرفع جميع من في الغرفة ومن في الدار رؤوسهم إليه.

- يبدو من طرّك يا نور مُحمد أننا سندخل الغرفة وقد قام المريض من فراشه، - مزح ترام مع صديقه ولما يتبدد الصوت الجميل بين قطعتي الحديد.

- بإذن الله، بإذن إلهنا الكبير، سيُشفى المريض. - قال حاغور مقتنعاً بفائدة العمل الذي كان مخلصاً له، وأضاف، - لتبقى قلوبكم مشحونة بالخير! من في قلبه الخير يتحقق له الخير. ومريضنا الذي يرباه إلهنا الكبير سيزول مرضه كما تبدّد صوت الحديد. - الكلام موجّه إلى كل المستمعين، لا إلى رفاقه فحسب. - لينطق فمك بالخير دائماً أيها الضيف! - قال أحد الفلاحين.

ما إن ظهر الضيوف على الباب حتى نهض كلٌّ من في الغرفة كباراً وصغاراً. وجلس المريض خجلاً من أن يروه نائماً في الفراش.

- ليلتكم خيرٌ أيها الأبخاخ! - سلّم حاغور على طريقة الشابسغ تماماً.

- لِيُحِبَّكَ اللهُ¹، وَلِيُغْمِرَكَ بِرَعَايَتِهِ! - أَجَابَ كَبِيرُهُمْ، - تَفَضَّلُوا!
- اقترب حاغور من المريض، وقال له وكأنه يعرفه طوال عمره:
- كأنك يا أخي الصغير سمحت للمرض أن يغلبك؟ أَلَسْتُ رجلاً فستسلم للمرض؟! - لمس جبينه، ومسح على كتفه، - هذا لا يجوز، فُثم وقف بين أصدقائك.
- وأنا هذا رأيي ولكن رجلي لا تطيعني يا كبير! - لمعت عينا المريض الذي اكتسب للتو قوام الرجال من بين شاربيه ولحيته السوداء. وظهرت أسنانه المائلة للصفرة.
- وماذا تقول رجلك؟
- تلومني قائلة إنك سمحت لرصاصة الكافر أن تصيبني.
- هل لحقت بك رصاصة الكافر أم اعترضتها؟
- لم يفهم المريض في البداية معنى كلام الضيف، ثم عاد بسرعة إلى وعيه:
- غضبت مني رصاصة الكافر لأني لم أسمح لها أن ترى عَقْبِي.
- لا بأس هكذا... - ابتسم حاغور. - ما اسمك يا أخي الصغير؟
- قَنَمَت.
- وأنا اسمي نور مُجَّد. وينادونني: حاغور. والآخر الواقف إلى جوارك اسمه ترام.
- تفضلوا أيها الضيوف. - أوما إليهم قَنَمَت بإشارة خفيفة واضعاً يده اليمنى على صدره.
- قال نور مُجَّد للواقفين:
- أين "الأبوة"² إذن؟ أليس عند الأبخاخ أبوة؟
- لا تُهَنَّا أيها الضيف. أبوة الأبخاخ كالحجر الصلد. سنختبر صلابة أسنانك.
- قال أكبرهم، - هيا يا ولد، هاتوا أصلب قطعة بينها للضيف!

¹ الترجمة الحرفية للتحية وجوابها.

² نوع خاص من المعجنات بهذه الحفلات. والمعنى الحرفي ضرب الفم. قطعة مستديرة من العجين القاسي ليصعُب على المتنافسين اقتطاع جزء منها، وتتنافس الفتيات على تزيين سطحها بابتكاراتهن الخاصة.

- إلى هنا وصلتم أيها الأبراخ؟ - بدأ حاغور يشمر عن ذراعيه كُمتي الكساء،
- هيا اربطوا القطعة!

جلبوا الأبوة الصلبة، وربطوها بالسقف، ودلّوها على نحوٍ يستطيع الجاثي على
ركبتيه أن يصيبها بأسنانه.

جثا حاغور على ركبتيه لتلقّي الأبوة المترجّحة، ونادى الحضور:

- أتحدّى صاحب أمتن أسنان بين الأبراخ أن يباريني. - ويسأل الكهل
العبوس المتحدي ذا مظهر الدب الذي جثا مقابله: - أنت يا أخي من يظن
أسنانه متينة؟

- لا تخدّلني أسناني أيها الضيف حين تجد اللحم.

- الأبوة ليست لحم غزال، ستندم.

- اعتدنا إذا وجدنا لحمًا ألا نجد خبزاً فلا تخفّ على أسناني، إقذِفها!

- هل تسمع ماذا يقول هذا الرجل؟ - ينظر حاغور حوله جاحظاً بعينه، مائلاً
بهما. يغمز مجموعة البنات المتجمعات، فيضحكن. - لستُ المذنب إن
كسرتُ أسنانه!..

- لا تشمّر عن ساقيك أيها الضيف قبل الوصول إلى المحاضرة. متى قلتُ:
إقذِفْ فاقذف!

- خذ إذن!.. - يحل نور مُجد الأبوة ويُطْلِقُها. ثم يمدّ يده إليها بسرعة
ويُمْسِكُها. - مهلاً، مهلاً، دعني أتأكد من سلامة أسنانك كي لا تتهمني فيما
بعد. وها هي أسناني لا عيب فيها، - يُبديها لغريمه.

- وها هي أسناني، - يكشف عنها أيضاً. قلت لك إن عيبها هو أنها لا تجد
خبزاً.

- ما شاء الله!.. - يصرخ حاغور حين يرى الأسنان الضخمة السمكية التي
تشبه بذور القرع. - ما هذه يا رجل!.. هذه يمكن أن تبتلع الأبوة كلها!..
والله أسناني أيضاً ليست صغيرة. جوعونا الليلة في مضافة تسي حاترباي
ولذلك لن تترقّع عن الخبز... هيا أُمْسِكُها!.. مهلاً، مهلاً كيف أنزل معك إلى
ساحة مباراة وأنا لا أعرف اسمك؟ أنا اسمي نور مُجد، والشابسغ ينادونني: ابن
حاغور.

- وأنا سأقول لك اسمي: الأبراخ ينادونني "مَشَج"¹ - تظاهر مشج بأنه يتأمل جسده، متفاخراً بجماله، ومطّ جسده، ولمس وجهه. وأضاف بشيء من الرياء: - عندك اسم ونسبٌ جميلان.

- كلُّ يسمّونه اسماً يتناسب مع مظهره.

- هذا صحيح يا ضيف! غير أنك تُطيل جلوسي على ركبتي فتجري بنطالي الوحيد.

- الغالب يشترّون له بنطلاً. أقول لك يا مشج: إن كنت رجلاً فحافظ على أسنانك!

يترامى الرجلان الأبوة. ولا يستطيع من يلاحقها الإمساك بها، وإن مدّ يده اعترض الواقفون والجالسون. يتصايحون ويتضاحكون. ويشفقون على من تُصاب شفتاه. الضجيج الضاحك يملأ الغرفة. والمريض ينسى نفسه فيجلس في فراشه. ويردد ما يقال في الغرفة. ويقلد ما يفعلون. والجمهور انقسم قسمين. أحدهما يشجع الضيف والآخر ابن قريتهم. وينحاز قنمت مع الضيف الذي حادثه قبل قليل.

لا فرق كبيراً بين نور مُجّد ومشج. كلاهما يلاحق الأبوة حاني الظهر ويداه إلى جانبيه. ومن يستطيع انتزاع قطعة من الأبوة سعيدٌ. ويُبدية للجمهور معتداً بنفسه.

- مهلاً يا حاغور. - يُخرج من بين قواطعه القطعة التي اقتلعها من الأبوة، ويناديه، - إن أردت أن تسدي إليّ معروفاً فاسمح لي أن آكل هذه القطعة حلالاً. وبما أنك خرجت من مضافة تسي حاترباي جائعاً يمكنك أن أقاسمك إياها.

- الأصدقاء اعتادوا أن يتقاسموا اللقمة ولذا يسرني أن أشاركك فيها.

- رنّ صوت الطرق على السندان من جهة الباب في إيقاع جميل يُذكرك بإيقاع حاغور. رفع المشاركون في الحفلة رؤوسهم، وأنصتوا، وفرحوا.

هذه طريقة تسي حاترباي، - قال كبيرهم...

...

¹ الدب الضخم.

لم يكن حاترباي يود أن يوقظ الضيوف الذين سهرُوا إلى آخر الليل في الحفلة، ولكن قرباتر صاح في الفراش بعدما غفا غفوة قصيرة. لا يفارق رأسه ما سمعه في الليلة الماضية بعدما تسارَّ الثلاثة. ولم تفارقه الفكرة هذه في حفلة الجابشة التي كانت ملامى بالفرح والمزاح. ويبعد التفكير دون انقطاع ولا يجد أساسه.

ضحك قرباتر بنفسه من أفكاره الواضحة. قال: ليس في هذا ما هو عجيب. جعل النائب زعماء الأبراخ، بمن فيهم حاترباي، يكرمونه، وضمَّ إليه وجهاء الفلاحين فكسب ودَّ بقية الفلاحين. لا فائدة يا حاترباي من أن تشعر بالغضاضة. كنت أنت بعد بولتقوه سنده. جمعت متطوعين للعمل لأجله، وبنيت له بيتاً. والآن هل يلتفت إليك بولتقوه الذي صاهره النائب إذا عبَّرت عن سُخطك؟ ألا ترى ما فعل؟ لم يقبل أن يقيم في قرية جفر. أقام في "جَعْف" البلدة التي هي بوابة الأبراخ. وابتعد عن زعماء الجمكوي. وتحالف مع الفلاحين الجبلين الأبراخ. أَيْكون يتجنب جيش القيصر؟ ما يُدريك ما في قلب هذا المخادع؟ صادق كلٌّ من يعتدُّ برجولته في الجمكوي والويخ والأبراخ والبسلي. ولم يترك زاوية مهمة لم يصل إليها. ونحن لا يُطْلِعنا على نواياه. يقاطِئنا نحن الشابِغ والبجدوغ. يفرض رأيه على الفلاحين المليئة صدورهم بالمأساة مقارناً بين القرآن والكفار. وعينه على زعامة الأبراخ بعد أن يزيح زعماءهم.

لم تسمح هذه الأفكار لقرباتر بالبقاء في الفراش. نهض بسرعة كأن المسافرين تخلَّوا عنه وغسل وجهه. ورغم أن صلاة الصبح فاتته فقد توجَّه وصلى إذ يرى أن الوقوف في حضرة الله لا يتعلق بزمان محدد.

يدعو قرباتر إلى الله، ويحْثو على ركبته ويسجد ويقوم. ويتهلل إلى الله الذي يتهلل إليه الجميع ولا يحتاج هو إلى أحد أن يغمر الأديغة برعايته وينصرهم على الكفار، ويشيع السلام في البلاد.

قبل أن يجد قرباتر الفرصة لتعليق سجادة الصلاة بالجدار دخل حاترباي بجسده الضخم وقامته المديدة حتى إن الباب لا يتسع له.

- صباحك سعيد يا قرباتر! كيف قضيت ليلتك، أما كنت مرتاحاً؟

- نعم كنت في خير، وانصرفت توجَّه من أمام الله.

- ماذا قال الله لك إذن يا أمير؟
- نعم؟ - لم يفهم الضيف سؤال المضيف.
- ماذا قال لك الله حين وقفت في حضرته؟ - مرة أخرى كرر تسي سؤاله.
- والله لا أعرف كيف أعبر لك، - تلثم قرباتر لا يعرف كيف يجيب. -
- نقول الكثير حين نقف في حضرة الله العلي الذي يبتهل إليه الكثيرون، ولا يحتاج هو إلى أحد، ونطلب منه الكثير... لا أعرف ماذا تقصد منها.
- أسأل لأني لا أصدق أن النائب موفد الله، - لم يكتف حاترباي ما في نفسه،
- سلب الأبراز عقولهم وهو يرفع يديه قائلاً: الله أكبر، أنا موفد الله.
- والله لا أعرف، والله لا أعرف!.. - جزع قرباتر وقد هيمن عليه الخوف من
- الله الذي يأتيان على ذكره. ثم موّه كلامه وقد استرجع شيئاً من شجاعته. -
- أنتم أدرى بالنائب إن كان موفد الله، أنتم أول من قابله، وأنتم من استقدمه إلى
- الأبراز، وأنتم من قدمه إلى عامة الفلاحين...
- أقول لك إذن يا أمير، وقلْتُ لك العشية، وأكرر الآن، - حين نهض تسي
- حاترباي وقد احمرّت عيناه من الغضب ملأت ضخامته الغرفة، - لا علاقة لله
- بأمر النائب. يخذعنا... لسْتُ كافراً، أو من بكلام الله وفعله، وأمنتُ به بروحي
- وقلي، وأعبدته، ولكني أقسم في حضرته أنه لم يرسله إلينا. وإن فرضتُ يا رب
- أنك أرسلته إلينا فأنا أعرف أنه لا يُضمّر لنا خيراً. يا رب تفرّغ لنا مرة واطلّع
- على قضايا الأديغة!.. - يقلد قرباتر حاترباي حين يرفع يديه الضخمتين. وفي
- البداية يتمم دون أن يفهم ما يقول الزعيم. ثم يطلق الصوت. - ارحم الأديغة
- المأزومين، لا أمل لهم غيرك يا ربي! لا أكتمك: النائب الذي أرسلته إلينا لا
- يصلح لهذه المهمة. أفهم أن ابنة آل بولتقوه لم تصبح زوجة له دون علمك. من
- يزعم أنك أوفدته لا اعتبار له لأمرء الأديغة عبادك. وزعمائهم مكروهون إليه.
- يصرّ على أن نتقبله أميراً وقائداً. - أنهى تسي دعاءه وقال لقرباتر: - هذه
- حالتنا اليوم يا أمير. ما حدث لنا مع النائب هو ما يقال فيه: دخل كلبٌ
- غريب فطرد كلب البيت! لنعمل على إخراج الأمير سفري من تركيا! لا يجوز
- احتجاز هذا الرجل الممتاز في تركيا!..

تنهد قرباتر قائلاً في نفسه وقد غلبه الحزن: حسنٌ أنكم تذكرتم أخيراً والدنا، ونظر إلى تسي راضياً...

VIII

يقيم زانه سفري قائداً للجيش غير المكتمل الذي نسيه الله في البلدة المترية أدرنه. أوكل شؤون الجيش واحتياجاته إلى ضباطه وتفرغ هو للأخبار المقلقة التي تأتيه من إقليم الأديغة، يشاركونهم طعامهم وشراهم وحين ينتشي قليلاً يقرر أن يمضي معهم ويكي. وحين يصحو ينسى. لا يجوز أن تعتب على سفري.

حين تخيب آمال الإنسان في حياته يغلب عليه تبكيت النفس وعدم الثقة بها. مع أن سفري لاحت له فرصٌ كثيرة تليقُ قلبه في حياته، فمن جهة لا يستحق هذا الوصف بالرفقة، ومن جهة أخرى تغريك به تصرفاته وطباعه. ليس ما يعتمل في قلب سفري نحو بلاده طوال هذه السنين قليلاً. تصرفت معه روسيا سراً وعلناً بالكذب وبالرياء من أجل ألا يعود إلى أبناء قومه فيتزعّمهم. صحيح أنها لم تقتله ولكنها استطاعت أن تلجمه بين أبناء غير قومه، في تركيا المهزومة، باللوم وبالتقريع، وبرشوتها حيناً، وبترفيعه عسكرياً. وإذا كانت روسيا قطعت آماله غير المنظورة التي تربطه بإقليم الأديغة فإنها لم تغفل يوماً عن مراقبته. يُخبرون قيصر روسيا بكل ما يفعل، حتى بما يقول ويتصرف في بلاد الغربية. وكلما تعثّر مشروع روسيا في إقليم الأديغة تذكروا سفري.

وسفري من جهته لا يدخر جهداً في سبيل قضية الأديغة. فعل كل ما يجب فعله في تركيا كي لا يقف يوماً أمام شرفه مذنباً معتذراً خجلاً من تقصيره. وقد أرقه عمره الذي يغلبه. وأخبار الأديغة التي تأتيه، ورسائل ابنه قرباتر السرية هي فرحته — حزنه.

لا أسرة لسفري في تركيا تخفف عنه مأساته. ولم يسمح لذات غطاء أن تشغله عن أسرته. أما الباخسمه التي أدمن عليها فقد كان صلباً من هذه الناحية أمام الله. ومهما تملكه اليأس لم ينس إيمانه بعدالة قضية الأديغة.

الرسالة التي تلقاها من قرباتر قبل شهرين تقريباً نفحت في سفري قوة جديدة. لم يكن فيها خبر سارّ عن الأديغة بل وجد فيها خبراً يهيج القلب ويغضب

ويعمنحه قوة جديدة. أعاد قراءة الرسالة كما فعل أمس وأول من أمس "... تمكّن مُحمَّد أمين النائب من إنجاز أمور كثيرة في الأبراخ خلال السنة التي قضّاها بينهم. تفاهم في البداية مع الزعماء المتنّفذين، وأقنعهم بأنّه موفد الله. ثمّ ملك قلوب الفلاحين بمساندة الأولين وتوكيلهم له. والآن فُرق بين الزعماء، ويؤسّس حكماً في الأبراخ عن طريق عامّة الفلاحين. والفلاحون يمنعون الآن الزعماء من الكلام في الجوامع التي أسسوها بأموالهم. وهو يختار رجال الضابطة والقضاة من بين الفلاحين. ويؤسّس جيشاً. ويسلّمهم قيادة الحكم في الأبراخ. والفلاحون الذين قدّم لهم النائب هذه الإمكانيات يعدونه الآن بمثابة الإله. ويعلن الأبراخ أنّهم لن يكتفوا بتسليمه قيادة الأبراخ بل سيسلمونه قيادة الأديغة كلهم. وجيش الفلاحين الذي يقوده النائب يجهز نفسه لاقتحام الشابسغ والجدوغ كي يضمّوها إلى حكمه. ويقابل النائب الروس بحكم الشريعة عن طريق الأديغة. ولا يقبل زعماء الأبراخ ولا أمراء الجدوغ وأمرأؤنا هذا الاتجاه. ويضعون أمّهم فيك، ويطلبون منك العودة، سنستقبلك متى قررت حتى لو أغلقت روسيا طريق البحر الأسود أمام الأديغة. إما عن طريق البحر أو عن طريق أرمينيا، ويمكن عن طريق جورجيا. لا توهّم نفسك يا والدنا! تركيا لن تقدّم لنا شيئاً. عُدّ!.."

تألم قلب سفري أكثر من مرة خلال قراءته الرسالة، ولما وضعها من يده، ولما نهض. خلع الصدار إذ أحس أن الرتبة التركية ثقيلة عليه. نظر نحو الرفّ الذي عليه الشراب، ودنا منه، مدّ يده إليه ف شعر بأنّه يحرقه على غير العادة، فأبعد يده عنه.

- انظر إلى أهداف النائب!.. - كرر سفري ثانية بصوت عالٍ. - النائب الغريب ينوي الاستيلاء على قيادة الأديغة في الوقت الذي ننشغل فيه بمحاربة الدولتين الغريبتين. أمّا عشنا خانجري وأنا بلا فائدة إذن؟! ونحن كنا نريد هذه الزعامة، ولكن الأبراخ العبيدين أفسلوا خطتنا. هل قصّرت معهم في شيء؟ ترجيئهم، ونصحتهم، بل تجاوزت اللوم، ولم أستطع تخويفهم من الكارثة القادمة. كيف إذن أسلموا قيادهم للغريب الذي لا يعرفون أصله؟ كيف استطاع إخضاعهم؟ أيكفي أن يدعي أنه موفد الله لأنّه يعرف لغة القرآن؟

المهمة الملحة اليوم أكثر من تعلم القرآن - اغفر لي يا إلهي - هي أن نحمي أنفسنا من العدو الغازي لإقليم الأديغة كله. يا حسرتي أيها الأديغي الصغير! بأي أفكار وبأي رجولة تحيا على الأرض؟!

يذرع سفري أرض الغرفة. ينظر عبر النافذة: عالم الترك انتهى في نفسه، ويرى أرض الأديغة. متى رأى جبالها وغاباتها ومزارعها ومراعيها وأمواج بحرها وأنهارها السريعة تألم قلبه من حبها الذي لا حد له. وحين تعود إلى مخيلته الحروب الدامية التي حموها بها لا يستطيع البقاء إلى جانب النافذة. يقترب من زجاجات المشروب ويتناول أقربها ويشرب مستمطراً اللعنة على من ابتكرها، وحين ينتشي الرأس ترتخي مفاصله المتعبة، ولكنه لا يعود بهذه الحجة إلى الشراب. يطلب من القلب الأديغي الذي ألقى به في أرض الأديغة المخارج لائماً نفسه وناصحاً إياها. ينظر نحو جورجيا وأرمينيا والبحر التي عددها قرباتر. ويفكر في الطريق المختصر بينها.

- ما أصعب بُعدي عن أرضي! - مرة أخرى يخرج من أفكاره الثقيلة بصوت عال يدوي في الغرفة. يتناول صداره التركي دون الشراب، ينظر إليه دون أن يرتديه، وينهره: - وأنت واحد من أسباب نكبتني!..

لم يغمض جفنٌ لسفري في ليل الشتاء الطويل. وفي غفوته الوحيدة رأى نفسه بين محمد أمين الذي لم يره قطً وبين قرباتر. لا يتذكر ما رأى حتى يستطيع تحديده، ولكن لمعان الخنجرين المتقابلين لا يزال أمام ناظره.

أيامٌ سفري جوفاء والحلم لا يفارق رأسه، ولا يخرج قرباتر من أفكاره. ويشعر بثقل جسمه عليه. يتكاسل، ليس عن الذهاب إلى مكان ما، أو متابعة أعماله، بل عن القيام من الجلوس. ومع تكاسل سفري يفكر في الطريق المختصر للعودة إلى إقليم الأديغة. يقول لنفسه: كان أفضل حلٍّ هو الاستقالة من الجيش التركي والتقاعد. بل لا أعرف حاجتهم إليّ. لم يسمحوا لي قبل سنوات أن أفتح معهم الموضوع. وهذا العام أيضاً لم يقبلوا كأن لم يبق عندهم بكباشي غيري. متى تركت الجيش أصبحت حراً في نفسي وسلوكي. واليوم إن ركبت طريقي إلى الأديغة وأمسكوا بي فسيدينوني بحجة أنني تسببت في اختيار الجيش، وسيسجنوني. مللنا من انتظار تغير العلاقات الروسية - التركية.

والحق، تبعاً للجرائد، أمور روسيا في أوروبا ليست بخير. كثيرون انتقدوا المعاملة الدموية لثورة هنغاريا تحت ظل أسرة الهابسبورغ¹، ولم يبق شاعلاً غيره في إنجلترا وفرنسا وبولونيا وتركيا والأخبار في النمسا الأقرب إلى روسيا، وفي ألمانيا متضاربة، وما يتعلق به منا مقسومة قسمين. حقاً نحن نقاتل روسيا مرغمين، ولكن هل من الممكن الانتصار على هذه الدولة التي ترتب أمور العالم؟ الحق معنا نحن، رجوناها ألا تقتحم بلادنا فلم تفهمنا. نفى منذ سنين طويلة تحت سيفها. والحرب ليست سهلة عليها، كنا صالحناها لو قبلت باستقلالنا الذاتي... وإن لم نفعل هذا فسيطحن الأديغة بين حجري الرحي التركي والروسي. ولن تفيدنا إنجلترا ولا الداغستان ولا الأتراك الذين أعيش بينهم. وكذلك لا يجوز للنائب تحريض الفلاحين الأديغة بذريعة الحرب المقدسة...

تذكر سفري الضجة التي أثارها الورقة التي أرسلها من تركيا لثُقرأ على الفلاحين في أواخر عام 1844. وإلى الآن يستغل الطرفان الروسي والأديغي الورقة تلك، من رؤيتين مختلفتين، ويتكلمان بمحتواها في المناسبات وتبعاً للموقف. وبفضل تلك الورقة، وبحجج مختلفة قابل سفري بضع مرات الموفد الروسي في أدرنة فاشينك. ولكن، على عادة الموفدين، لم يكشف له عن نواياه. وسفري نفسه لم يُعر اللقاءات أهمية كبيرة. واجتمعا بعد تلك اللقاءات أكثر من مرة على موائد الطعام والشراب. وكانا يفترقان بعد تبادل بضع كلمات. كان سفري يعرف أن فاشينك يتابعه جيداً، فغالباً ما كان يتجنبه دون إطالة الحديث معه. واليوم لو التقى به لأطلععه، ولو على نحو غير صريح تماماً، على بعض ما يشغل باله. وفي هذه اللحظة خطر له أن يجتمع بفاشينك حتى دون انتظار ساعة. ورشما نهض إلى النافذة تراجع عن عزمه. لماذا كل هذه اللهفة على لقاءه؟ لا بد أن ألتقي به في مكان ما. ليس الروس أول من يجب أن أنقل إليهم أفكار، ولا الترك، بل أبناء قومي المقيمون هنا.

خطر له على نحو مُلحّ اللقاء بسلخور مُحمّد وخرورز إسماعيل باشا. سيسافر إلى إستانبول، ويجتمع بأقرب شخصين إلى قضاياه من أبناء قومه. سيسمع منهما

¹ أسرة من أصول ألمانية اكتسبت اسمها من قصر في سويسرا. حكمت هنغاريا وبوهيميا بصفة ملوك حتى عام 1804، ثم أباطرة حتى 1918.

أموراً لا يعرفها على مبدأ: عقلان خيرٌ من عقل واحد. ألا يكفي ما أقام في بلاد غريبة معصوب العينين كأنه يعرف كل شيء؟

وجد في مركز خدمته الحجة التي سيسافر بها إلى إستانبول فتوجه إليها. وما إن خطا أول خطوة خارج البيت إلى العربة حتى ناداه أحدهم:

- مع السلامة يا سفري! - ولما رفع رأسه رأى فاشينكا الذي يعبث بعصاه الفضية. ودون أن ينتظر الجواب أضاف بسرعة: - لي رجاء صغير عندك، لا تؤاخذني إذ سمعتُ أنك مسافر إلى إستانبول إن لم تصعب عليك. أوصل هذه الرسالة إلى خروزر إسماعيل باشا، ألن تقابله؟ وإن لم تقابله، فليس في الرسالة سرٌّ، ضعها في أول صندوق بريد. ستصله بأسرع من طريق أدرنه - إستانبول. - لا أعرف إن كنت سأقابل خروزر إسماعيل بيه أم لا، - كتم سفري نيتته، - ولكن لا مشكلة، سألي رجاءك. ما الخبر إن شاء الله؟ - ألا يجب أن تقول له شيئاً؟ أفلت منه ما يقلقه.

- وأي خبرٍ سيكون يا أمير؟ - قال فاشينك، ليس من عادة هذا الرجل أن يطرح مثل هذا السؤال فما الذي يشغل باله، - كل أخبار العالم تظهر في الصحف.

- ليس في الصحف أخبار حسنة من ناحيتكم.

- الحقيقة عندك يا أمير.

- والله يحزني أن دولة عظمى مثل روسيا تتخبط هنا وهناك.

- هل تقصد موضوع الأديغة؟

- لا، ليس هذا ما أقصده. - استلم سفري الكلام من فاشينك، - أقصد حربها الدموية في هنغاريا وكأن بلاد الأديغة لا تكفيها... مع السلامة، أراك بخير، سنتكلم بتفصيل على قضايا الأديغة متى عدت. ولكن لا أكنتم أن سلوك روسيا التي نحن وإياها جاران، وحدودنا متلاصقة، يحزّ في نفسي. وأندم على أنني لم أقابل قيصر روسيا حين كنت أعيش في بلادي.

أقام سفري خمسة أيام في إستانبول.

كان يذهب صباحاً إلى مقر القيادة، فيُريهم أنه يقوم ببعض المهام فيه إلى الظهر، ويتابع في ما تبقى من الوقت، بما فيه الليل، قضايا القومية.

التقى في اليومين الماضيين بسلخور مُجَدَّ وخرورز إسماعيل بيه. وفي اليوم الأول سلّم رسالة فاشينك إلى خرورز إسماعيل بيه. كان أخبره أن لا سِرَّ فيها ولكن من استلمها رفع حاجبيه دهشة:

- هل تعرف ما فيها يا سفربي؟ القيصر الروسي قَلِقٌ من أجلك.

- لأي سبب؟

- يقول: ليرجع إلى بلاده إن كان قادراً على مصالحة الأديغة بنا.

- وإن لم أستطع؟

- لا أظنه بحاجة إليك.

ضحك سفربي حتى اختلجت وجنتاه الناعمتان. وقال معتدّاً بنفسه، مسروراً بما يقول عن شخصه:

- هل كان يطلب حبسي هنا لو لم يكن محتاجاً إليّ؟ ولكن ما لا أفهمه يا إسماعيل بيه هو لماذا أرسل فاشينك إلى هنا ولم يقل لي مباشرة؟ والله طبيعة هؤلاء الروس عجبية حتى إنهم لا يختلفون عن الأديغة كثيراً. ألم يكن الأفضل أن يسألني مباشرة من أن يكلفك؟ لماذا يوسّطك أنت في الموضوع يا إسماعيل بيه؟

- ربما لا يثق بك.

- لا تفهمون حُبث موفدي الدول الأجنبية، - شارك سلخور مُجَدَّ في الحديث، وابتسم مُشعراً إياها بأن له معرفة بالموضوع.

- أنت أدري لأنك في خدمتهم. - لمح إسماعيل بيه.

- يروّضون عقولكم على أفكارهم. سيُسألك فاشينك عاجلاً أو آجلاً السؤال نفسه الذي في الورقة. هو يحضّر نفسه، ويمهد عقلك أنت للسؤال.

- سأقول لكما إذن نيتي الحقيقية في الموضوع: لن أستطيع الإقامة أكثر من هذا في الغربة سواء رجاني القيصر الروسي أم لم يرجئني لأعود. سأعود إلى إقليم الأديغة في أقرب فرصة: اليوم، غداً!.. لا أكتمكما لأنكما موضع ثقة.

لاحظ سفربي أن حزناً خفياً ملاً الغرفة، فسألها غير قادر على التحمل:

- لماذا واجمان؟

- لا تستعجل يا أمير، لا تستعجل!.. - قال إسماعيل بيه.

- لست مستعجلاً. ولكني لن أستطيع البقاء أكثر مقيّد الرجلين. ألم تسمعا ما يجري في الأبراخ؟

- نعم، - قال سلخور.

- لماذا يُسمح إذن للنائب الداغستاني أن يفعل ما يريد في بلاد الأديغة؟

- لا تؤاخذني يا سفري على مساهمتي بأفكار زوجتي. - خرجت حورية خانم من الغرفة المجاورة، - مسألة الأديغة مُلكٌ مشترك لأصحاب القبعات وذوات الأغطية. - جلست المرأة على طرف كرسي عند الباب بعدما أبعدت طرف ثوبها المثقل بالذهب. - ومرة أخرى ابتسمت لسفري، - أوافق هذين الرجلين مُحمّد وإسماعيل بيه. أمور الأديغة اليوم مختلفة جداً عن الأمس. والشاهد ما جرى في هنغاريا وبولونيا وإنجلترا وفرنسا تساندان تركيا. ستفقد اتفاقية أدرنة للسلام قيمتها في المستقبل. وهذه معلومة يجب أن تعرفها من أحوال الجيش الذي تخدم فيه ولو لم أقلها لك.

- والله كلامك يا حورية صحيح. - قال سفري دون أن يُظهر امتعاضه من تدخل المرأة لتعليمه، - وأنا أشك في هذا. ولكننا - نحن العسكريين - نحارب ولا نرتب أمور العالم. أقول: ألا يكفي ما مرّقوا أرض الأديغة!.. لير إذن ما يحدث... ربما تكون الشيخوخة تطغى عليّ فتعيدني إلى ديارى؟

- خروزر باشا الذي رحل عن العالم يا سفري، - ابتسمت حورية لزوجها إسماعيل بيه، - لم يسمح لأفكار الشيخوخة أن تغزوه رغم قضائه عدة سنين في الفراش. وأنت، أنظر إليك فأراك بفضل الله ما تزال بعيداً عنها.

- نعم، نعم، - وافق إسماعيل بيه زوجته، - لا يجوز التفكير في شيخوختك وأنت في عَرّ الرجولة. نحن، الأتراك، الدنيا بالنسبة إلينا نهاية حرب، سحابة روسيا تسودّ، دخلت إلى هنا مجموعة رجال يتصدّون لروسيا، يأتون من الجمر وبولونيا. اعتنقوا الدين الإسلامي. وخالطوا الأتراك. إن كنت أنت لا تعرفهم يا أمير فمن يعرفهم؟

- ومن سيأتي إلى جهة أدرنة؟ لم يصلوا إلى الآن، غير أن لي علماً.

- سأعرّفك على واحد منهم، وها قد حان موعد وصوله. وهو مهتم جداً بقضية الأديغة. وإن ذكرت اسم روسيا ارتقى على رماحهم، وضحى بحياته.

صدر صوت بعيد لانفتاح باب، وأدخل شاب تجاوز الخامسة والثلاثين، متين البنية إلى الغرفة. وقال للحضور دون أن يدخل الساحة تماماً، ضامماً قدميه، مومناً بإماعة احترام:

- لا بينسك تيوفيل، أنا من بولونيا. وينادوني في تركيا باسم توفيق بيه!..

...

- لا تتراجع، لا تترك الأمير سفري، - قالت حورية بعدما أويا إلى الفراش وقد جافاها النوم، لا أحد في إقليم الأديغة أهل للثقة غير زانه سفري.

- ومُجد أمين زعيم الأبراخ؟

- هذا إنسان غريب سواء وافقنا زانه أم لم نوافقه. مهما أحسنت إليه فسيلفظه يوماً ما من ليس منهم. ولا أقصد بهذا أن نتجاهله. سننفذ أهدافنا في إقليم الأديغة عبر آل زانه دون أن ننساه، ودون أن ننسى برزج وتسي وحجمقوه وبولتقوه.

- ولكن الأديغة يا نور عيني ممزقون عرقاً عرقاً؛ ألن يصعب على آل زانه تجميعهم؟

- أنا من غضب الله عليها يا حبيبي، ولكن ما أقصر نظرك وأقل انتباهك! ألم نتكلم قبل أيام في الموضوع نفسه؟..- جلست حورية في الفراش، ومدت أصابعها التي تذيب القلوب إلى شعر زوجها. لم يكن عندنا هم غيره الليلة. لا أقول اليوم وغداً، إن لم يكن الأمر قد قُضي. والعسكريون يتنبؤون بحرب قريبة. ماذا كان أخبرنا وركفارت بهذا الشأن؟ إن وقف الإنجليز والفرنسيون إلى جانب تركيا فلن تُحسد روسيا على موقفها. من من جماعتنا ضباط الجيش الأديغة سيوجهونه إلى هناك متى بدأت الحرب؟

- ربما هو الضابط الذي يعرف جيداً إقليم الأديغة.

- الآن أصاب حدسك. هو المقدم زانه سفري. من في رأيك يمكن أن يرشّحوا لزعامة الإقليم إن انتصرنا على روسيا واستعدّناه؟

- زانه سفري.

- لا!- بدا من صوت حورية الثاقب احتدادها ولو أن لونها لم يظهر في الغرفة المظلمة.

- من إذن؟ أليس زانه سفري أميراً أديغياً؟
- صحيح، أمير أديغي، ولكن الشيخوخة لن تمهله إلى حينها. قرباتر ما يزال حَدَثًا، ولا يقل شهرة في بلاده عن والده.
- من لا مال له لا اعتبار له في كل زمان.
- ألم يسلموك بريد تركيا؟
- نعم.
- وماذا إذن؟

...

عاد سفري إلى طريق أدرنه وقد اكتسب مما سمعه عند آل خروزر قوة جديدة. ولم يعد العسكريون الذين عاد إليهم يكتمون اقتراب حرب جديدة. ويبدو في الواقع يومياً تعاوض العلاقات الروسية التركية. ولم يبق في بضع الجرائد التي صاحبها في الطريق إلا هذا الخبر. ولم يُعد سراً ما يقوله سفراء روسيا في أنجلترا وفرنسا وألمانيا وهنغاريا وبولونيا وإيطاليا. ويجري الكلام صراحة في مجلسي السويد وهولندا. والذين لا يسكنون البتة هم المطرودون من الإمبراطورية النمساوية وبولونيا، اللاجئون إلى أوربا.

صرخ سفري في قلبه: لحظة، انتبه، اسمع ما في الجريدة: "كان على تركيا ألا تمنح إقليم الأديغة الذي ليس لها، ولا كان يحق لروسيا أن تأخذ ما ليس لها". من الذي قال هذا؟ ما الاسم تحت المقالة؟ هو كارل ماركس! وهو ألماني. وكائناً من كان القائل فلن يقول أحد أصدق من كلامه. حياه الله! ظننْتُ أن الأديغة يعيشون على الأرض معزولين ولكنهم ليسوا كذلك بفضل الله. وها هم المطرودون من الإمبراطورية النمساوية المجرية ومن بولونيا يقفون إلى جانبنا. يقولون إنهم سيأتون ويحاربون إلى جانبنا بجيشهم. إن كنتم تقولون هذا فالشكر لكم ونحن بحاجة إلى أمثال هؤلاء الناس. امثل أمام عيني سفري الأصدقاء الذين التقى بهم في الأيام القليلة الماضية، والذين تعرّف عليهم. ومن وراء هؤلاء ينظر لاينسك تبوفيل البولوني، ويانوش بانديا المجري. وتنتظر إليه بأمل خفيّ حورية خانم.

ما جرى لي بشأن الطفلة، حورية خانم، أعني مريم، عجيب. مثلُ هذا ما يقال فيه: من أين أتيت يا مصيبة؟! لم أكن لأحلم بها، دحك من أن أفكر فيها. الخطيئة الوحيدة التي اقترفتها في حياتي دُرْتُ، ودرْتُ، ثم عدْتُ واصطدمت بها! ولا أعرف ماذا ينتظرنا غير أن العجيب تعثُرِي بها... ثم إن العجيب أيضاً أنها، بغضِّ النظر عن جمالها، لم تضيّع أصلها من حيث تفكيرها العميق. يا إلهي ما أصلب الروح التي منحَها للإنسان الضئيل لتختبره في حياته الفانية! أنقذت مريم من العار، ومن النار، ومن المخل، ومن الماء. لم يجر لها ما لا علّم لك به. اغفر لي يا إلهي ولو كان لك علّم به. لا أجد من اللاتق ما فعله شخصان من أسرتي بالرجل الممتاز خروزر باشا. لعبا به، واقترا الخطأ معه. ومع ذلك حين أقول لها إن المسكين ترام كان هنا، وسأل عنك فهي تذرف الدموع رغم أن لها زوجاً يملأ العين... هذا ما يفعله بك جنس النساء!.. من تكون هذه ولو أن فيها قطرة من دمي؟ سقطت من تحت تنورة غريبة، وبيعت...

"ماذا تقول يا سفري، يا أمير؟!" أعاده إلى وعيه الصوت الآخر الذي صدر عنه. قال سفري: أستحق ما يجري لي. أيُّ كلام سخيف يتجمع في الرأس؟! الله لن يقبل مني، سيكرهني. مهما كانت خاطئة، وسيئة السمعة، ولو أنني لم أرتجها، وكتمت الأمر عن كل الناس، فكيف أقابل شرفي، أليست قطرة من دمي؟! ليست مجنونة فتخشى عليها، عقلها راجح، وأفكارها صائبة. ولم تنس القوم الذين تنتمي إليهم. ولن تبخل بمثلُكها وقوتها، تعدنا أن تساعدنا. حياها الله على هذا... كنت سيء الحظ أيها المنحوس ترام... حتى لو صارت مريم من نصيبك دون أن يحدث لها ما حدث فماذا كان بإمكانك أن تقدّم لها؟! كانت ستقيم في كوخك خادمة تناكفها وتناكفك... سامحني يا ترام لسْتُ عاتباً عليك ولكن أقول لك الحقيقة.

IX

لم يكن العام الجديد 1853 عام سلام على الأدبغة وعلى الروس. كانت دول كثيرة في العالم، ولاسيما في أوربا تعارض تصرفات روسيا. وتركيا التي أجبرتها، كُرمى لإنجلترا وفرنسا، على الركوع وعلى التوقيع على معاهدة أديانوبول تعود إلى وعيها. وتبحث كل يوم عن ذريعة للاصطدام بروسيا. والأدبغة لا ينوون

مصالحتها. وأمورها في الشيشان والداغستان تراوح في مكانها. ولا تمنحها بولونيا وهنغاريا والإمبرطورية النمساوية التي سُحقت ثورتها الفرصة لتلتقط أنفاسها. وموضوع تحرير العبيد يخلق لها مشكلات داخلية، والفلاحون الذين أوضاعهم المعيشية صعبة ينتفضون، ويسلبون الأغنياء مالكي العبيد بيوتهم، ويحرقونها. ويطالبون برفع العبودية عنهم.

ولا تفكر روسيا في التراجع في موضوع الأديغة رغم أن تحالف تركيا وإنجلترا وفرنسا أصعب عليها من حرب القفقاس التي استمرت سنوات طويلة . وتبدأ بالتفكير في طريقة للجُم الأديغة إن لم يرضخوا عن طريق الحرب. وقضية زانه سفري واحدة من هذه التعقيدات.

انتصبت قضية سفري في روسيا منذ العام الماضي، فحين ثارت فيه الخلافات التركية الروسية فكر الروس في إخراج الزعيم الأديغي الذي ألقوا به سابقاً في تركيا من الدولة المعادية لهم، واستغلاله لمصلحتهم رغم أنهم لا يرفعون عنه الرقابة، من أجل تهدئة الأبراز الذين يقودهم مُجد أمين، ومن أجل ألا يسمحوا له أن يتزعم الأديغة كلهم. قال الروس لماذا الإقامة في تركيا التي ستحاربنا غداً. وكان يفكر في زمان سابق في مصالحتنا، وكتب إلى الأديغة بهذا الشأن. سنحتفظ به من أجل تهدئة أبناء قومه دون أن نُطلعه على حقيقة نوايانا. زعيم الناختوي - الشابسغ قرباثر لا يخالف أوامر والده. فإن لم نحشد هؤلاء ضد مُجد أمين فستتدهور أمورنا في الإقليم.

توجهت المهمة التي يعلم بها القيصر في اتجاهين: - اتجاه تركيا - الأديغة، سيكلفون تيتوف سفيرهم في تركيا بالاتصال بسفري والعمل معه. وفي الجهة الأخرى سيجدون أقرب الناس إليه في إقليم الأديغة ويكلفونه بالكتابة إليه دون أن يظهروا هم في الصورة.

حين فهم السفير الروسي في تركيا على نحو غير مباشر رغبة زانه سفري في العودة إلى الإقليم، بدأت بسرعة سلسلة من المراسلات. وأفهم السفيرُ فاشينك القنصل الروسي في أدريانوبول واقع الحال. ثم كتب إلى فورونتسيف مسؤول القفقاس الذي كلف الجنرال رئيس أركانه بالموضوع. وكتب الأخير إلى الجنرال ديبو مسؤول الحماية الأول للبحر الأسود يطلب رأيه في طريقة إعادة سفري.

وكلف الأخير ضباطه الأصغر رتبةً، فجمعوا المعلومات المتعلقة بسفري في إقليم الأديفة. وكتبوا التالي: "... الأراضي التي يسيطر عليها سفري هي الواقعة قرب منعة أنابه. وجزء من هذه الأرض يعمل فيه الروس الذين تخطوا نهر بشزه، والجزء الآخر يعمل فيه الأديفة أصحابه كما يشاؤون... والأديفة يُعزّون سفري جداً. وأعداء روسيا يستفيدون منه في مشروعاتهم التي تحتاج إلى حل. فإن كان سفري يود العودة إلى مسقط رأسه بما يحقق المصالح العليا لروسيا ومصالحه هو فلن تجلب لنا عودته إلا المنفعة. ولكن إن تبين أن له نوايا شريرة ضدنا فعلينا الحذر منه كما نفعل مع أعدائنا... ومن الخطير إعادة سفري إلى بلاده إلا بتعهد مشدد منه أنه لا ينوي لنا إلا الخير... والأفضل لنا أن يعيش سفري في كيرش. وإن خصص له مبلغ كافٍ لحياته ارتبطت مصالحه بمصلحتنا، وحقّق لنا نوايانا. وإن بدأ أعداؤنا مشروعاتهم ضدنا في المناطق الجبلية فالأديفة القاطنون في المناطق الخاضعة لسيطرتنا لن يستطيعوا استغلال اسم سفري. ومتى وثقنا بنوايا سفري وأسرته التي تحت نفوذنا استطعنا أن نطلقه بين الأديفة في توقيت محدد ليتكلم باسمنا، وتمكّن من فرض آثاره على أبناء جلدته..."

لم يبحث الروس طويلاً عن سفري في إقليم الأديفة من أجل توظيفه في ما يريدون. تذكر الآن مسؤول القفقاس كلها فورونتسيف أن سيريرياكوف غزار صديق سفري، ودون ماطلة استدعى غزار وأخبره بنيتّه:

- تبعاً لتطورات مهامنا في القفقاس سنحتاج إلى الأمير زانه سفري هنا. ما رأيك أنت؟

- أيها الكونت، أنا منذ زمن بعيد أدعو إلى إعادة زانه سفري إلى الأديفة. وإن كنت تتذكر فقد كان هذ قبل بضع سنوات. كان قد كتب إلى الأديفة راجباً في دفعهم إلى مصالحتنا...

- أعرف نواياك ووافق منك.

- شكراً أيها الكونت.

- أي مقارنة إلى سفري سنجدها؟

- أعرف طريقاً أحسن من غيره. سنطلب من أحد ممثلينا في تركيا ممن يثق به مكالمته. وإذا كنتم واثقين مني فسأكتب له. أثق بنفسي من تلبية زانه لطلبي.

- القيصر واثق منك.
- ما الإذن الذي منحه القيصر لأعد به سفرني؟
- اطلب منه أن يعود لأن الأديغة محتاجون إليه... - نهض فورونتسيف.
- إن قلتُ له أيها الكونت إن الأديغة محتاجون إليك، - نهض غزار أيضاً فأشار إليه بالجلوس. - ألن يظن من لا خبرة له أي أويده وأويده المحاربين الأديغة؟
- وهل ارتعبت قبل أن نبدأ المهمة؟
- هكذا علمنا الذي نعيش فيه!
- وهذا صحيح ولكن للقيصر رأياً في ما ستقوم به. متى قرر العودة فتحنا له الطريق الذي يريد.
- وإن سأل عن مورد عيشه؟
- سيمنحه القيصر ما يعيش به من مال. ولكن لا تحدد له المبلغ ما لم يسأل هو. وإن سأل عن المبلغ فكن واثقاً من عودته. ابدأ بالمهمة دون تأخير. وحافظ على سرية كتابتك إليه كي لا يقرأها الكثيرون. - أكد على الأدميرال الذي وصل إلى الباب.
- ثق بي من هذه الناحية أيها الكونت، - ما أكثر نصائحه لي، قال غزار، وابتسم في سرّه. - لن تقع عينٌ غريب على كتابي إليه...
- مضى وقتٌ غيرٌ قصيرٍ وغزار يتابع تنفيذ مهمته. - وليس سبب التأخير كتابة الرسالة، فبعد فورونتسيف أرسل الجنرال ديبو مسؤول المنعة الأولى على ساحل البحر الأسود المقيم في "بزاه مز" إلى غزار وتحديثاً قرابة ساعتين. وما يُصعب المهمة هو إيجاد الشخص المناسب، والموثوق، لإيصال الرسالة إلى تركيا. ثم وجد بين الحجاج رجلاً هادئاً موثقاً من معارفه مع مبلغ غير قليل. ولكن عليه اللقاء بقرباثر قبل كتابة الرسالة.
- مضى غزار إلى قرباثر برفقة فارسين. وكلّمه دون أن يُفصح عن سبب الزيارة، وقابل والدته بابور. ولم يترك موضوعاً لم يتطرقا إليه خلال اللقاء الذي استمر إلى ما بعد الظهر. وحين وصلا إلى موضوع العلاقات الروسية - الأديغة

تكلما في مسألة الإمبراطورية النمساوية المجرية. وقيّما، كلٌّ من وجهته، الثورة التي نشبت فيها. وقال قرباتر:

- لا تؤاخذني يا غزار، سلوك القيصر الذي تحمل رتبته معيب. ينقضّ على كل من يرفع رأسه. يضرب في كل مكان. ليس هذا سلوك دولة. لماذا لا تدعوننا نعيش في اطمئنان؟ نحن الأديغة لم نضرّ دولة القيصر، نربط على حدودها كالكلب الحارس العضوض، لم نضرّها قطّ إن لم ننفعها. لماذا يلاحقنا من أجل سلّينا بلادنا؟

كان الضيف يودّ الإجابة، ولكنه ابتسم، مشعراً قرباتر بنظرته، راغباً في عدم التحدث أمام رفيقيه.

- أعرف، أعرف يا قرباتر، - ابتسم قرباتر أيضاً وأجاب من هو في عمر والده، - أنتم ضيوف، لا ألحّ عليكم في الإجابة. ولكن لا أكتمكم، متى خرجتم من نواحيننا وعدتم إلى قلعة أنابه، فأنتم أعداء نهابون. هذه نظرة أغلب الأديغة، لا أقول كلّهم، إليكم.

- بالله يا قرباتر لا تخاطب ضيوفك بهذه الصراحة، - ضحك غزار قالباً الموقف إلى المزاح، - تظلمهم!

- لا تقل يا غزار، يا كبير!.. - لم يقبل قرباتر أيضاً. - ما وزن هذه الصراحة مقابل الكارثة التي جلبتموها للأديغة؟! القيصر الروسي يطلب منا أن نصالحه ولكنّ مقصوده ليس الأديغة بل أرضنا وبحرنا. يريد أن يتمدد كما العملاق في الحكايات الأسطورية، ولكنه يتعثر بنا، لا يستطيع التمدّد بوجودنا. هذا هو السبب الحقيقي، إن كنت تريد أن تعرف، في إبعاد والدنا عن قومه، ورميه إلى تركيا.

- وصلتني رسالة والدك يا قرباتر قبل أيام، - لم يعلّق غزار على أقوال قرباتر. - وماذا يقول والدنا؟ - ارتعب قرباتر في البداية، ثم سأل مرتاحاً، - أليس في صحة جيدة؟

- يقول إنه بخير وبصحة جيدة بفضل الله، أريد أن أردّ عليه دون تأخير ولذا كنت أودّ أن تكتب ما تكلّمنا فيه. كنت أرفقته برسالتني.

- كتبتُ ما أريد أن أرسله لوالدنا يا غزار، - نخض قرباتر وقد هدأت فورته قليلاً، وأخرج الرسالة من المصحف الذي على الرف. - ها هي، كل أحوالي هنا في الرسالة. وإن كنت تودّ معرفة مضمونها فليس فيها ما أخفيه عنك. - حياك الله على ثقتك يا قرباتر. - لم يستعجل على قراءة الرسالة. - وأنا أيضاً أثق فيك. يعرف أحدنا الآخر ليس من سنة أو سنتين، عشنا نتقاسم أفراحنا وأحزاننا حتى صرنا في موقف يتعذر فيه لقاؤنا. ها أنت ترى علاقتنا ولو أن الطرفين اللذين ننتمي إليهما متجاهاً.

سمع غزار حيث حلّ ضيفاً أموراً كثيرة تستحق التفكير. لا يفارق ذهنه صوت قرباتر ونظرتة. وحين جلس غزار يكتب إلى سفرني حامت حوله كثيراً هذه الأفكار التي تشبه خلية نحل هائجة. ثم تجلّد وأزاح بعنف ما لا حاجة به إليه، وأمسك بالقلم، وبدأ يكتب بلطف دون أن يدع شيئاً يؤثر عليه: "صديقي القديم سفرني زانه الأمير! وصلتنى رسالتك، ويسرني جداً رجاؤك من قيصرنا أن يمنحك الحرية في العودة إلى الوطن.

جرت تحولات كثيرة منذ هجرت وطنك إلى الآن. الجيوش التي تقيم بين أنابه وزأه مز تتجول الآن في أراضي النأتخوي دون أن تصادف من يقف في وجهها من السكان المحليين. وهؤلاء السكان الذين عاثوا من ويلات الحرب كقوا عن إزعاجنا. وهم يعرفون الآن قيمة السلام إذ تحلّوا بالحكمة. وهم يمارسون التجارة التي تُدرّ عليهم المال... وأنا خرجت مع جيشي من زأه مز، بل وصلت إلى أداغوم، وفُداق، وبُيسف، وأبن، وبُغُنْدِر، وأُنْتِخ، وغيرها مما وراء الجبال. وجنودنا فتحوا الطرق عبر الغابات والجبال، وصارت طرقاتهم أينما توجهوا مفتوحة.

ويمكنني، ونحن نعود إلى موضوع طلبك من قيصرنا الغالي العفو عما ارتكبت، أن أخبرك أن بإمكانني تقديم النصح لك في الموضوع. وأنت تعرف أني كنت أقدم لك المنفعة وأتمنى لك الخير دائماً. ويجزني جداً أنك مشيت في الطريق الخطأ الذي يؤدي بك إلى المهلكة. فإن كنت قررت أن تتخلى عن سلوكك السابق نادماً عليه، وتنفع حكومتنا صادقاً فأنا أطلب منك تنفيذ ما يلي: تقدم اعتذاراً مكتوباً عن أخطائك السابقة، وتتوسل إلى القيصر أن يغفرها لك،

وَتُقَسَم على الطاعة له مستقبلاً، وتوافق على أن تعيش مع أسرتك بعد خروجك من تركيا في كيرش حيث أُقيم أنا. وتسمح لقرباثر أن يدير أملاكك. وتستطيع التجول في المنع التي أقمتها في أرض الأديغة إلا أنا به وزأه مز... فإن قبلت بهذه الشروط فأنا أستطيع أن أطالب لك بمبلغ لا يقل عن ألف روبل فضي كي تخرج من تركيا ولا تعيش في مكان آخر وفي شروط معيشة أسوأ... ابنك قرباثر بخير وبصحة جيدة. ويعبر لك عن إخلاصه واحترامه لك، وأرسل لك رسالته أيضاً. وأنتظر جواب رسالتي".

حين انتهى غزار من كتابة رسالته أزاحها من أمامه وفكر بعض الوقت في ما يمكن أن يكون نسيه من مطالب القيصر. وقرأ الرسالة ثانية، وكرر القراءة كلمة كلمة، مفكراً في معانيها، غير واثق من نفسه. كل ما فيها صحيح، نقد كل ما طلب منه. ومتى أذى غزار مهمته فالباقي هو انتظار الجواب.

قال غزار: إن حملنا الأب والابن على المصالحة، وعزلنا الشابسغ والناخوي عن الأبراز هانت المسالة علينا. ولن يستطيع الوبيخ المقاومة. ولن يخالف برزج ما يفعل آل زانه. والجمكوي والبجدوغ صالحوا القيصر ولو عن غير رضا تام. ومن تبين عما لم نتوقعه منه هو محمد أمين. أعاد الوعي إلى الأبراز، وأغراهم النائب بنظام الحكم الذي لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً. يُريح الزعماء المتنفذين عن مائدة الحكم. ويساعد عامة الفلاحين على النهوض بمساعدة نخبة الفلاحين المالكين ولكن دون سلطة لهم.

يا رب، راودت غزار فكرة أخرى: هل يمكن لمن كتبنا له أن يستجيب لنا؟ أيكون ينوي أن يماطلنا مخادعاً إيانا؟ لا يفعل الأمير سفري ما لا فائدة له فيه. وهو يعرف أننا أيضاً لسنا سُدجاً فنشرب الماء من أنوفنا. لماذا يا ترى سرب خبر رغبته في العودة؟ أظن أن موضوع النائب هو ما هيجه. وقرباثر كان قد تكلم على نحو سيء بحق النائب، ولم يستطع كتمان عدم رضاه عن برزج. إن كانت العلاقات بين زعماء الأديغة على هذا النحو فسيتنازعون فيما بينهم دون أن تكون لنا علاقة بالأمر. الأفضل لنا أن نجتمع الحطب الذي سيغلون به

الحليب لِيُجَبِّنُوهُ دون أن نبتعد عن الأديغة الذين سيقذف بعضهم بعضاً بمصله¹.

X

لم يحدث أن دبّ اليأس إلى قلب قرباتر كما هذا العام. صعبٌ أن تنصتَ إلى الأفكار التي تعصف كريح الشمال الشتائية ولا تجدَ منها مخرجاً. وحين يُضاف تنازع الأصدقاء فهو أعمق الأحران.

لم تجر أمور قرباتر كما يشاء بعدما ترك الخدمة في الجيش الروسي. بذل جهوداً كبيرة من أجل نشر الوحدة بين عاقمة النأتخوأي. ومهما حارب في الصف الأول في كل المعارك، وفي كل الأماكن، لم يندم على ما يقول وما يفعل. ولكنه متى عاد إلى القرية لحقته الأخبار المؤلفة المتناقضة. يلعنه أكثر الناس الذين سقط لهم ضحايا من أبناء وإخوة... وكلما زاد عدد الذين أُحرقت قراهم زاد التجاء الأرامل اللواتي يقين بلا بيوت إليه يطلبن المأوى. ويزيد الطين بلةً فقدان الطعام والعلف. يقولون له: اعترفنا بك أميراً، وانضوينا نقاتل تحت لوائك، ووضعنا حياتنا تحت تصرفك ولذا فأنت مسؤول عن متطلبات حياتنا. وكلُّ يقول له: إفهمنّا، أنت أملنا، ولا أحد يقول له: تنفهمك، فينعش روحه.

قال قرباتر: إذا كنت تطلق صباحاً نداء الاستغاثة "مارج" فتجمع جيشاً ويفترق الجيش مساءً، فلن تستطيع حماية أرضك. اصطدمتُ بما كان يردده والدنا: الرجل الأديغي إن أبعدته عن أسرته لأمر الوطن، لا لأمر شخصي، فقد قوّته، وحُيِّل إليه أنك سلبته حريته الأزلية. والفلاحون، ولو لم يقولوا "تعبنا، وما عدنا قادرين على أن نفعل شيئاً آخر" فإنك تكتشف هذا من أحوالهم ومن سلوكهم ومن وجوههم المتعبة. لا ألوم الفلاحين الذين يتحملون العذاب منذ سنين طويلة. يقاومون برجولتهم جيش دولة منظماً مدججاً بالسلاح، ويحمون شرفهم. ثم كيف ستلوم من يقول: أما كفانا حرباً، أطفالنا نار مواقفنا ونحن نحاول حمايتهم. وأعرف أن لا إلزام بتنفيذ كل مقررات المؤتمرات. ولكنّ ما أعرفه أن المسؤول عن هذا دولة هي المرجع لكل شيء، ونحن الأديغة ليس لنا مثل هذه الدولة. وكلما حاولنا العمل على تأسيسها اصطدمنا بالعراقيل.

¹ تعبير دارج عند الأديغة عن الافتراق على عدااء: سكب بعضهم على بعض مصل الجبن.

وانتصبت الذريعة في وجه الذريعة، وابتعد من لا ذريعة له متخفياً. وغدا ينتظر ما سيحدث لابن قومه الواقف في وجه العدو ممدحاً رجولته. وبهذه الطريقة في التفكير سمحنا للعدو أن يُخضع البجدوغ والجمكوي. وسمحنا له أن يقتطع جانباً من الناقحوي. وعلى هذا سنرى الأبراخ كيف سيحمون أنفسهم الآن. أفكار قرباتر لها أسسها. بدت هذه الأفكار واضحة في أمور حياتية أخرى خلال حرب خريف العام الماضي وشتائه. لاحظ في زيارته للأبراخ والويخ أنهم، باستثناء النائب، لا تتطابق أقوالهم وأفعالهم، ولم يحصل منهم على وعد كامل. فهم قرباتر أنه لا يمكن تطويع عامة الأبراخ عن طريق تسي حاترباي وحده، ولا انتزاعهم من تأثير النائب عليهم. وأضيف إلى ما سبق ما قاله له حاغور في الطريق من الأبراخ. وبعدها غيب حاغور نفسه عن الساحة، استقر في باستوك، وانقطعت عنه أقواله وأفعاله.

أأنا من لا يريد حياة آمنة؟ قال قرباتر لنفسه. إن وصلتم إلى هذا الحد فسأجد ما أقوله للروس وما سأفعله. هؤلاء لم يسيئوا إلينا، آل زانه، إن لم يُجْزونا. يحاولون استعادتنا إلى حلفهم رغم أننا تركنا جيشهم وحاربناهم. وقد كاشفنا بكل صراحة الجنرال غزار بنوايا القيصر الذي أوفده. يعدنا القيصر إن ألقينا السلاح أن يُعيد إلينا أرضنا ويمدنا بالمال. وأنا واثق من أنهم سيفون بالوعد. ولكن إن فعلنا هذا فكيف سننظر في وجوه أيتام الأديغة وأراملهم وأمهاتهم الشكالي؟ من السهل رفع اليد ولكن إن أسبلتها فبأي شرف تُكمل حياتك؟ لا أعرف ما سأعلق به على هذا الوضع... هل ألقى السلاح إذن؟.. لماذا أتوسل إلى عامة الفلاحين إذا كانوا لا يسمعون كلامي؟ لماذا لا يتوسلون هم إلي؟ ها هم عامة الأبراخ ينفذون للنائب أوامره ما إن تخرج من فمه. لا أعرف بالتحديد ماذا فعل النائب بالأبراخ؟ إن طلب منهم احترام المتنفذين منهم احترامهم، وإن طلب منهم تشتيتهم شتوهم!.. أنا يمكن أن أطلب من عامة الفلاحين هذا الكلام نفسه. هؤلاء إن وجدوا أي مجال من سيكون أول من يهاجمونه؟ نحن، الأمراء، والمتنفذون، ونخبة الفلاحين الذين رفعوا رؤوسهم. إن اشتبكنا نحن فيما بيننا أفلا ننفذ للأعداء غايتهم؟..

مرة أخرى طارت أفكار قرباتر نحو الأبراخ. انتصب أمام عينيه ما رأى وما سمع من أخبار. ووقف أمام مخيلته النائب الذي لم يتحدث إليه حتى الآن. ويرى تسي حاترباي بضخامته واقفاً بين الفلاحين. لماذا لا يتفق فلاحو الأبراخ والشابسغ على موقف واحد؟ ما الذي يتنازعون عليه في مثل هذا الزمن العصيب؟..

صدر صوت أقدام من جهة الباب.

- طلبت والدتك أيها الأمير أن تقابلها. - أوصل الخادم طلب الأم.
ألقي الفروة الذئبية اللون على كتفيه، ودخل غرفة والدته الخاصة من المسطبة البعيدة مقابل باب الدار:

- كيف حالك يا أمنا؟

- لا بأس، - أجابت بابور باختصار. ثم سألت وهي تتفحص وجه ابنها: - أراك يا ولدي حبست نفسك في البيت. هل تخشى البرد أم ترهقك أفكارك؟
- والله لا شيء من هذا يا والدتنا، - جلس قرباتر إلى أمه ووضع يده على كتفها، - نمث الليلة جيداً. لا داعي للقلق إن شاء الله. - مدّ يده إلى الكرسي الصغير فوضعه تحت قدمي أمه. وأصلح وضع غطاء رأسها الملون الكبير. - في الشتاء يهدأ الجيش الروسي. والفلاحون يرتاحون إلى نيران مواقدهم، وإلى خدمة مواشيهم. إن قررت التفكير فليس قليلاً ما تجد من أشياء تستحق التفكير. إن لم تفكر في ما يجلب لك الهم ارتاح ذهنك.

- هل أنت واثق من قدرتك على هذا يا ولدي؟

- يجب أن تعيش حسب الإمكان. وإن أردت معرفة الحقيقة يا أمنا فليس لي شاغل إلا موضوع والدنا.

- ماذا جرى لك يا ولدي؟

- كيف أستطيع أن أجبر الأديغة على أن يحمو أنفسهم؟.. - لم يكتف قرباتر ما يشغل باله، - لم يجدوني أهلاً لما وجدوا النائب له في الأبراخ.

- أنت حساس على الإهانة على ما أراك يا ولدي.

- أليس ما أقول صحيحاً يا أمنا؟

- صحيح، ولكن لا تنس وجهة النظر في الموضوع.

- أعرف يا أمانة قولهم: لن تصبح رجلاً ما لم تتحسس من الإهانة.
- وهناك قول مأثور آخر: من يتعرض للإهانة يجد فرصة للانتقام.
- ولكن من لا يُعزّز نفسه يفقد قيمته.
- ما الذي جعلهم يقولون: من يتحسس من الإهانة يهلك بسهولة؟ - سألت بابور، وتابعت كلامها دون انتظار الجواب: - أعرف مصدر شعورك بالإهانة يا ولدي. لا يجوز أن تشعر بالإهانة من كل هدف لا يتحقق لك. متى بدأت تفكر في هذه الأمور لجمتك دون أن تدري. أما موضوع النائب الذي تأتي على ذكره فأمر مختلف يا قرباتر. في موضوعه جوانب تستحق أن تغبطه عليها وجوانب على النقيض... ليس من أجل هذا طلبتك يا ولدي. يسرني أنك نمت جيداً. كلما ارتحت في نهارك وليلتك إطمئننت... الحق أن قلب الأم هشّ ناعم كما يقولون. ولكنه في الوقت نفسه ينظر إلى البعيد. يكتشف إن كان هناك ما تخفيه عنه.
- لن يستطيع أحدٌ اتّهامي بأني أخفي عنك شيئاً.
- إذن هات الكرسي واجلس مقابلي.
- ما الأمر يا أمانة؛ أهنالك ما يدعو للقلق؟
- أريد أن أقرأ عينيك.
- أهنالك خبر سيء عن والدنا؟
- كنت ستسمع قبلي لو جاء خبرٌ عن والدك لأن أمر الرجال يسمع بها الرجال قبل غيرهم. السلام يعمّ حيث يقيم والدك بفضل الله؛ قلبي لا يحدثني بسوء.
- ماذا إذن يا أمانة؟
- هل صحيح ما سمعته بشأن حاغور نور مُجد؟
- هل جرى شيء لحاغور؟! - قلق قرباتر لما سمع.
- ما أتكلّم عليه هو ما جرى لكما أنت وحاغور.
- هذا هو؟ هل ما جرى بيننا من حديث في العام الماضي على طريق الأبراخ هو ما تسألين عنه؟
- من المذنب منكما؟

- السبب في ما تحدثنا به موضوع الأديغة وليس شخصياً.
- سألتك يا قرباتر من منكما المذنب؟
- والله لا أعرف يا أمانا كيف أقول لك...
- إن كنت لا تعرف أخبرتك بما عليك أن تفعل. تركب اليوم إلى باستوك،
وُتُصالح حاغور!
- من نقل إليك يا أمانا ما جرى بيني وبين حاغور لم ينقله على نحوٍ صحيح...
- أهو ترام الفلاح أم صاحبة غطاء الرأس في بيتنا؟
- لا أحد منهما! وكائنًا من كان الناقل عليك أن تُصالح حاغور.
- أن أُصالح حاغور وأن أُصالح الروس سيّان يا أمانا!.. لا تعرفين أساس
خلافنا، لا تُخرجيني لمصالحتة!
- أعرف يا قرباتر، - استاءت من قرّنه حاغور بالروس، - هكذا! الرجل عبّر
عن رأيه، وباح لك بما يشغله. لا أظنه الوحيد في الشابسغ من هذا الاتجاه.
حاغور نور مُجّد أحد رجالات الشابسغ. تحثّ حصانك وتترك صديق والدك
على الطريق لأن رأيه لا يعجبك وتُهرع إلى البيت! ماذا قال من سمع بالخبر في
رأيك؟ ووالدك لن يقبل منك إن سمع، ولا أنا. ما كنت أرغب في أن أحرز في
نفسك ولكن سأفعل: تتخلّق بأخلاق حميك نيكراس تيم!
- ما كان عليك يا أمانا أن تعيّريني بآل نيكراس!.. - لام قرباتر أمه دون أن
تغلبه الحمية.
- لا أعيرك. أقول لك الحقيقة. - ثم قالت وقد داخلتها الرقة: كفى، قائمة
البقرة لا تقتل عجلاً. ليست هذه مشكلة. نيكراس تيم حاقّد جداً على
الروس... ولسْتُ وحدي، بل ابنته نفسها لا تقبل منه هذا الموقف. لا تتظاهر
بأنك لا تعرف!
- يا أمانا، - ظهرت نبرة المزاح من صوت قرباتر، - أظن غزار سحرك لصالح
الروس حين زارنا!
- ليس بعيداً يا ولدي! - لا ضير في أن يرقق أصدقاء والدك قلبك، ويرفعوا
من آمالك.
- ولو كانوا أعداءك؟

- من يقترب من باب الأديغي مسلماً لم يعد عدواً يا قرباتر. ربما كان في ما قاله لنا غزار شيء واقعي. لماذا تُبعده؟ يقولون: في الشرّ خيرٌ أيضاً. لا تنس هذا يا ولدي.

- أراك يا أمانا تؤيدني حاغور.

- لا عجب في هذا. ما الذي يجعلهم يقولون: عقلان خيرٌ من عقل واحد؟ أنا أعرف ما يؤلم قلبك ويسبب لك الحزن. الفرح والحزن متلاصقان في الحياة. ما يفوتك وأنت تحاول الوصول بيدك إلى ما يصل إليه قلبك أكثر مما تصل إليه. الحياة مركبة من ألوان متعددة. اذهب يا ولدي، اذهب وصالح حاغور دون تأخر. لا تجعل الأمر سرّاً بل قل له أمام الناس سبب زيارتك له.

- هيا أخبروا ترام أن يفيق مع الفجر، - قال قرباتر لأول فلاح صادفه بعدما خرج من غرفة والدته.

أنصتت بابور إلى وقع حوافر حصان ابنها مع صياح ديكة الفجر، وهمست: "هذا حصان الولد يا إلهي، يعرف أنه مذنب ولذا يذهب للقاء حاغور. إرع يا إلهي من كان ممّاً على طريق، ومن هو غائب عنا. وقو قلوبهم، وسرّع قوائم خيلهم!

خرج الفارسان من قُماتر يتبع أحدهما الآخر. والجو لطيف بالقياس إلى صباح البارحة. ولا يُسمع في الجوار إلا وقع حوافر الخيل ونحيبها. أمضى الفارسان أكثر من ساعة في مضيق الجبل دون أن يتبادلا الحديث. يتردد الصدى ثم يتبدد.

- الفجرُ يزع، - قال قرباتر.

- لم يبق سرٌّ لليل. - أجاب ترام.

انقضى من رحلة المسافرين بعض المسافة والبحر الشتائي القلق على يمينهم. وقال قرباتر:

- هل تعرف يا ترام أين نذهب اليوم؟

- ليجعل الله طريقنا خيراً يا أمير، أعرف إن قلت لي.

- إلى باستوك لزيارة حاغور، ولكن أرغب أن أسألك قبل أن أقول لك هديني من الرحلة. - لم يستطع قرباتر إخفاء سبب قلقه، - أقول لك إنه لا ضرورة

- لأن تنحاز إلى أحد الطرفين في ما سأسألك عنه. أنت الوحيد الذي كان شاهداً على ما جرى بيني وبين حاغور. وأنت أملنا في الفصل بيننا.
- إن كان السؤال عما جرى بينك وبين حاغور في الحريف يا أمير قلت لك رأيي. - أنت مخطئ في شأن حاغور.
- أوقف قرباتر حصانه.
- ما تبادلتما من حديث، أكمل ترام كلامه، - لا أدينكما على اختلاف رأيكما.
- ماذا إذن؟
- كلانا مذنب في تزكنا حاغور على الطريق.
- يا ترام! - استغرب قرباتر ما سمعه. - ألا تتكلم أنت أيضاً من قلب أمنا إذن!
- لا أعرف ما قلته والدتك يا أمير.
- وأنت ما علاقتك بما بيني وبين حاغور حتى تكون مذنباً؟
- ذنبي أني تبعتك يا أمير.
- لم أطلب منك أن تفعل هذا.
- تصرفت حسب موقعي يا أمير. ويُجَيِّلُ إليّ أن حاغور تفهم تصرفي.
- وما رأيك في سبب خلافنا؟
- اسمع رأيي أولاً يا أمير قبل أن أتكلم في شأن ما جرى في ذلك اليوم.
- أستمع.
- أنا لا أوافق حاغور في فكرة الصلح مع روسيا يا أمير. وعبرت عن رأيي منذ اليوم الأول في حضرة الأمير سفريي. وأكرر الآن. نحن لم نغز بلاد أحد أو نسلبها منه لكي نتصالح معه. أعرف أن العدو الذي هزمنا قوياً جداً، وأعرف أن تعداد سكان دولته كبير جداً. الروح يُضْحَى بها، والشرف يُشْتَرَى كما يقال. لن نستطيع رفع أيدينا إذا شهروا السلاح علينا. ولن نستطيع أن نتنازل عن أرضنا لبلاد أخرى. كان المرحوم جدي يقول: حفنة من تراب الوطن حيث رُبِّيت خيرٌ من جبل من ذهب. هذا ما أوافقك فيه على رأيك. ولا ضرورة

للتمسُّك بما قاله حاغور. هذا رأيه الشخصي وليس رأياً عاماً في جمهور الفلاحين.

لم يُجب قرباتر على ما قاله ترام. ليس لأنه لم يعجبه. والشكوك التي كانت تراوده في الأشهر الأخيرة طفت على السطح رغماً عنه عدة مرات ونقضها. وفيما هو يحث الحصان استرقت أفكاره النظر إليه من وراء المنعطفات. قال: هذا صحيح، العدو قوي جداً، وتعداده كثير جداً. يُصرّ على ما يقوله هو ولا يسمع ما نقوله. حين تفتقر إلى الوحدة ستغزو ذهنك أفكار كثيرة تُضعف روحك المعنوية. وحاغور ليس من أصحاب القلوب الهشة ومع ذلك تراوده أحياناً فكرة التصالح مع العدو. صحيح أنه لا بأس في أن تعبّر عما في قلبك ولكن إذا عمّ رأي الشخص الواحد فتحول إلى رأي عامّ عند الفلاحين؟.. وأنا تأتيني هواجس كثيرة ولكن لا أبوح بها في حضرة أحد... من عندي يفهمني؟ ووالدنا زُمي به في تركيا وهو يقول: خيرٌ لي أن أموت في بلدي على أن أسعد في بلاد الغربة. لن تستطيع أن تجلس إليه فتكاشفه بما في نفسك. والأمراء الآخرون الذين أخالطهم يلوون أزمة أحصنتهم حيث يريدون. وقد يكون رأي حاغور صحيحاً. والحق أنني لا أحيا ساقطاً من قمة شجرة. أستطيع أنا أيضاً أن أفكر في شيء آخر.

لام قرباتر نفسه على الأفكار الهشة وسأل ترام عما يقلقه:

- ماذا يتسرب من الفلاحين يا ترام في خصوص رأي حاغور؟

- ليس هذا اتجاهًا شائعاً بين الفلاحين.

لم يعلّق قرباتر بشيء على ما سمعه.

بدت باستوك من بعيد وقت توشط الشمس كبد السماء. حين انحدرا من المرتفع وتركوا المنعطف وراءهما دخلا القرية. وبعدما اجتازا ثلاثة أحياء بدا الباب الكبير لبית حاغور وعلى مرتبط خيله ثلاثة أحصنة. ولم تكن سروج الأحصنة الثلاثة سروجاً أديغية. قال قرباتر لا يعرف تفسيراً لما يرى:

- كأن لدى حاغور ضيوفاً قوزاقاً!

ما إن أُخبر حاغور بقدوم الضيفين حتى ترك المائدة وخرج من الغرفة. واستقبلهما بوجه طلق وكأن لم يكن بينه وبينهما أي نوع من الجفوة:

- تفضلوا يا قرباتر، كيف حال والدتك؟

- حياك الله يا نور مُجَّد، بشّ قرباتر الضيف بوجه المضيف شاعراً بالخرج لِمَا حدث في طريقهم من الأبراخ. - والدتنا بخير، لم تسمح لنا بالبقاء في البيت بحجة أن نور مُجَّد لم يظهر منذ مدة وأخباره انقطعت... لا تؤاخذنا يا نور مُجَّد على ما جرى بيننا وعلى التخلي عنك في الطريق.

- الرجال يحدث بهم الكثير يا قرباتر. ما هذا الذي تحدث فيه! - لم يهتمّ حاغور بالمسألة، وغير الموضوع مع الضيف. - هيا تفضلاً، يسرّني مجيئكما. ما أحوالكم يا ترام؟ ومن فارقتهم أليسوا بصحة جيدة؟ والله يا قرباتر كنا في سيرتك قبل لحظات...

- من في بيتك من أصحاب هذه الخيول القوزاقية يا حاغور يدُكرني؟ - حاول قرباتر أن يخفي امتعاضه مما يرى ولكن صوته فضحه.

- متى دخلت الغرفة عرفت أن في الدنيا مثل هذا الإنسان يا قرباتر، هيا تفضلاً!

نفض كلُّ من كان على المائدة حالماً دخل الضيوف الغرفة. والضابط الروسي الواقف إلى جانب المائدة استقبله بيدين ممدودتين. وصرخ:

- قرباتر! يا صديقي منذ كم عاماً وكم شتاءً لم نلتق!..

هجم كل من قرباتر وراكيتوف بأفيل أحدهما على الآخر معانقاً. وربت كل على كتف الآخر، وتبادلا كلمات المودة والترحيب. وبوتينك فاسيل ونيكراس تيم يراقبهما.

جلسوا إلى المائدة، ولم يتأخر قرباتر بالقول كأنه يقصد رفعت بالكلام:

- والله لم أعرف أننا سنلتقي في مثل هذا المكان... ما أحوالكم وأخباركم يا بافيل؟

- لم تتحسن حياتنا يا قرباتر إن لم تسؤ. لا تزال كما كنت تعرفها في زمان ما. نحارب من لا يُصالحنا، ونعرفه قوة رمح القيصر. مرة نغزو لأجله أوربا، ومرة نتجه جنوباً. صار القتل والسلب مهنة لنا. وبما أنك تسأل عن أخبارنا فهي التالي: نجونا من داغستان فرمونا أمام رصاص الأديغة. من أين لنا أن نعرف يوم مأتنا؟!

لا يمكن أن تتعرف بافيل الذي كان يخدم يوماً مع قرباتر: الشعر أبيض تماماً، ومن الجانب الأيمن من العنق عند الأذن ندبة سيف. والكتفان اللتان تحملان رتبة الضابط متهدلتان كما لم تكونا. وتغلب الشيخوخة على صوته وضحكته وابتسامته بما لا يتناسب مع عمره. والوحيد الذي بقي في بافيل علامةً فارقة هو أفكاره الحرة. ولم يعد يُخفي الإرهاق الذي تسببه له الخدمة العسكرية وانعدام الحرية الشخصية. وكلما انغمس في الحديث أبرزهما. ولا بوقر أي هجوم على قيصر روسيا وسُلطان تركيا، ويتحدث عن حق كل قوم في حماية نفسه والتمتع بالحرية. وإذا كنت تظن أن الباخسمة هي من أطلقت لسانه فقرباتر لا يلاحظ خلال أكثر من ساعة أنه ذاق منها.

أظنه واثقاً من رفاقه، قال قرباتر. ولولا ثقته بهما لما أطلق تلك الكلمات الثائرة ضد القيصر. تذكر قرباتر إعادة السيف إلى بوتينك وملاطفة الأديغة له بالكلام. وبالمقياس إلى السنوات القليلة الماضية فقد اكتسب قوام الرجال. ويبدو على وجهه لطفه وطيبته وإنسانيته.

يلقي قرباتر نظراته على رفعت فيرى فيه شيئاً مختلفاً. لا أثر لمرح أو راحة فيه. يزرق لونه مما يسمع كمن ودّع ميتاً من أقاربه. وتذكر قرباتر وشاية رفعت ببافيل ودخوله السجن. ما الذي يجمعهما يا ترى؟ لو لم يكونا مكلفين بمهمة واحدة لما ركبنا طريق بلاد الأديغة. وربما لم يكن في قرية دخاباه شاب مثل رفعت يتمتع بالصدق ويغلب عليه الاحترام قبل أن يتجه نحو الروس. ولم يكن قليل الاحترام لوالديه وأخواته. والآن لا يسأل عن حالنا بل لا يسأل عن والدته وأخته، وبديهي ألا يسأل عن والده. ما أغرب ما أرى!.. — لما فكّ رفعت زر قميصه سقطت منه القلادة الصليبية البيضاء فأعادها بكل حرص. ورأى أحد الفلاحين الجالسين قرب حاغور ما حدث فلم يعجبه:

— لا يجوز ما تفعله يا رفعت!

— ما الذي لا يُعجبك يا كبير؟ — سأل رفعت بنبرة شبه هازلة وكأنه سمع ما يريد، ولم يكتف بهذا بل ابتسم ابتسامة ساخرة.

— ألم تلدك أمٌ أديغية فتعلق صليب الكفار؟! — ردّ الآخر بسرعة.

— لا تنس يا كبير أنني روسي الأصل من ناحية جدي!

- كفى أيها الفلاحان، كفى... - فصل ترام بين الطرفين.
- وهل أنا الفلاح؟! - علق رفعت بترام.
- ومن أنت إذن؟ - تدخّل الفلاح الجار الثاني لهما.
- انظرْ إلى رتبتي وافرأ اسمي!
- ليعضّ الكلب والدك! نيكراس تيم فلاح ولم يلدك صاحب رتبة كقار!.. -
- نفض الفلاح الأول عن المائدة ويده على الخنجر: - لم يكن في بلاد الأبخاخ رجلٌ أصلح من جدك نيكراس ميشكا. لن أدعك تهين ذلك الرجل الطيب!
- نفض الجالسون إلى المائدة إلا قرباتر. وفكّا الاشتباك بين الرجلين.
- لا يجوز إحداث فوضى على المائدة أيها الفلاحون، - قال قرباتر وكأن لومه موجّه أكثر إلى رفعت.
- لستُ من الفلاحين الذين يجلسون إلى مائدة واحدة مع مثل هذا الأديغي الكافر! - تبع الفلاح الثاني سابقه.
- ألم يكن من تجالسوهم إلى هذه المائدة كفاراً؟! - لاحق رفعت بسخريته من وصلا إلى الباب.
- صحيح كفار، ولكني أفضّلهم على ثرثار مثلك.
- يا ملازم نيكراسوف!.. - نهر راكيتوف رفيقه...

XI

لم يكن يمضي يوم على الصحف التركية دون أخبار عن الأديغة. وليس نادراً أن يُنقل الخبر الواحد بروايتين أو ثلاث. وأيُّ تعليق على موضوع العلاقات الروسية - الأديغية ولو لم يُروَ مئة رواية مختلفة فمصدر الخبر هو تلك الجهة. وما لا تملّ الصحف من روايته هو موضوع مُجد أمين وزانه قرباتر. النائب القادم من بلاد أجنبية والأمير المحلي يتنازعان الزعامة. وتختلف الصحف على تقييمهما: أيهما الأقوى والأحكم. هذا باختصار ما في الصحف. ولا تشعر بالملل إذ تقرأ أخبار روسيا الأخرى التي مصدرها الحرب.

ولا يسمح القنصل الروسي في أدرنه لسفيري بالملل. يزوره مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع بحجج مختلفة. يقابله في الشارع أو في مدينة أخرى، ولا يقول له شيئاً مهماً. وهل قليل ما يمكن الحديث فيه؟ يدسّ فجأة في غمرة كلامه على

السوق، والصلاة، الدكان، الصحو، والمطر... موضوعات الأديغة. ويغتاب الروس مع هذه الأخبار، ويوتخ الإنجليز، ولا يوقر شيئاً بحق المجريين والبولونيين. ويصل حديثهما إلى مصر، ويعرجان على الحجاز. ومتى انتهيا من مسألة الحج أعادا أخبار تركيا. ثم يعبران البحر إلى روسيا والأديغة. وهذا المساء زار القنصل الروسي سفري. ورغم أنه لا شيء لا يصلان إليه يقول فاشينك في لحظة توقّف:

- كفانا يا سفري كلاماً على المجر - بولونيا، وروسيا - تركيا. ما جئت لأجله موضوع آخر. أرسلوا إليك معي من نواحيكم هذه الأشياء، - مدّ إليه رسالتين مختمتين واضعاً النبرة فوق "نواحيكم".

- ما هاتان؟ - تلّهف سفري. - لماذا كتتمتموها عني إلى الآن؟! - مدّ يده كمن يخاف أن تُسحباً منه.

- هذه تحلية ما بعد الغداء يا أمير.

- والله هاتان تتجاوزان الحلوا!.. - يتفحصهما واحدة واحدة. والله سررتي! هذا خطّ غزار تماماً، وهذه حروف قرباتر المحيّة. - لم يجد من اللائق أن يمتدح خطّ ابنه، - غزار صديقي القديم خطّه منذ عرفته جميل. ثم يرفع رأسه فجأة ويسأل: - الحق أريد أن أسألك لماذا قلت لي مرة يا ضيف إن غزار كان صديقك؛ لماذا "كان"؟

- من يعرف يا أمير؟ - أصاب فاشينك أصل الكلام الذي يبحث عنه، - جرت بينكما أحداث كثيرة، ولأني قلت إن خنجريكما متقابلان.

- أنت مخطئ أيها الضيف. لن يولد سلطان يمكن أن يدخل بيننا، ويسيء إلى صداقتنا. علاقتنا أنا وغزار كما يقول الأديغة: شجرة بلا جذور، وإنسان بلا أصدقاء.

- لم أعرف يا أمير أنكما أنت وسيريريakov على هذه الدرجة من الصداقة. - قال فاشينك وما على لسانه غير ما في قلبه.

- هذه حالنا وإن كنت لا تعرف. ماذا يقول الأديغة: اعثر على صديق لك واحرس ما وجدت.

- لن ينطق إنسان أصدق من هذا في شأن الصداقة. - نَحْض فاشينك منصرفاً. - أنا عائد إلى بيتي أتركك مع ما كتب لك أحبابك. هجم سفري على الرسلتين حالما غادر الضيف. قرأ رسالة قرباتر أولاً، ولم يكفِه ما فهمه فأعاد قراءتها. - لا شيء يدعو للقلق فيها. كل من خرجت الرسالة من بينهم بخير، ويهدونه تحياتهم. ويسألونه عن صحته. ويطلعه ابنه على السبب وراء كتابته له. لا شيء مهم في الرسالة، اللهم قوله في موضوع العلاقات الروسية - الأديفية: "لا يدخر النائب مُجد أمين جهداً" وخاتمة الرسالة هي: "نتنظر بشغف يوم عودتك"

تنهد سفري عميقاً: "مهلاً يا ولدي، لا تتعجل الأمور، وهذا سيأتي كما اليوم...". ثم تناول رسالة غزار.

قرأ سفري رسالة غزار أكثر من مرة. وكلما قرأها وضعها من يده، وذرع أرض الغرفة ويداه خلف ظهره. والآن مرة أخرى يقرأها ويحفظ في قلبه المواضع التي يريدتها. ولا يكفي هذا بل يجلس ويخط بالقلم تحتها. وأحياناً يبتسم.

لا ألومك يا غزار، قال سفري، يظهر من الرسالة التي كلّفوك بكتابتها الخير الكامن في قلبك ودفع عواطفك نحوي. حياك الله. القيصر الروسي يمد المفتاح الخفي لقيدي بعدما عمل على تقييدي في بلاد الغربية، قائلاً لي: انزع عنك القيد وحدك. جئت إلى تركيا وليس في قلبي إلا خير المهمة التي كلّفني بها الأديفة، وسأعود إلى حيث خرجت وليس لي إلا لقب موفدٍ قومي. لا يحتاج الموضوع إلى مراسلات ومحادثات. هذا موضوعٌ منتَه بالنسبة لي! أفهم أن أموركم تتعقد، وستتعقد أكثر فأكثر...

مضى أسبوع على الرسالة وسفري غيرٌ مستعجل على الردّ، ومضى أكثر من شهر كامل. وطوال هذه المدة لم تفارق رسالة غزار ذهنه. ولم يمد يده إلى القلم حتى نضجت أفكاره. وفي صباح السابع والعشرين من شهر آذار عام 1853 جلس سفري بكل ثبات، وأجاب على رسالة سيربيرياكوف موفد القيصر:

"أيها المحترم الذي أكرّم له كل التقدير! وصلّني رسالتك التي أرسلتها إليّ في التاسع من ديسمبر / كانون الأول عام 1852. وقد فهمت محتواها جيداً... وتخبرني أنه إن أذن لي رأس النظام الروسي، وغفر لي "أخطائي" فسأعود إلى

إقليم الأديغة وأقيم في كيرش التي تقيم فيها أنت. وتُطْلَعني في رسالتك على تبدلات كبيرة جرت في البلاد بعد أن فارقْتُ بزأه مز وأنا به، وعلى أن الجيش الروسي يتنقل بحرية في أرض الناخوي دون أي مقاومة، وأن لا أحد من أبناء قومي يعترض روسيا. وأني إن لم أتصرف بما يخالف قيصر روسيا فسيمنحني ألف روبل فضي في السنة لإعالة أسرتي.

من الواضح أنني لم أسئ إلى قيصركم قطّ منذ أن عقدت الدولتان العُظميان روسيا وتركيا اتفاق سلام. وبعدها عقدت الدولتان اتفاق السلام نتيجة العداء الذي كان بين سكانهما فما كنت أراه مناسباً لأبناء بلادي هو إنهاء العداء بينهم وبين روسيا بالسلام بدلاً من الحرب التي لا نهاية لها. غير أنهم كانوا أقسموا ألا يوقفوا الحرب حتى يعرفوا مضمون اتفاق السلام السابق ذكره. ولهذا أوفدوني إلى القسطنطينية لمعرفة النص التركي للاتفاق والجيء بنسخة منه إليهم. وحين وصلتُ إلى القسطنطينية أخبرت ممثلي تركيا برغبة الناس الذين ذكرتهم، وحصلتُ على الإذن بالخروج من البلاد مع النسخة المطلوبة. فأصبحثُ جاهزاً للعودة إلى بلادي، ولكن بطلب من القيصر الروسي - وكنتُ كُتبتُ لكم في الموضوع - تلقيتُ أمراً بعدم خروجي من تركيا، ولم تسمح لي تركيا منذ ذلك التاريخ وإلى الآن بالمغادرة. ومع ذلك كان هدفي الوحيد هو إراحة الناس بشأن اتفاق السلام السابق ذكره، وإقناعهم ببناء على ذلك بالتصرف بما لا يؤدي الطرفين. ولكن ربما كان الله قدّر أن تجري الأمور كما هي الآن. فوجب عليّ أن أبقى هنا دون أن أستطيع إفهام أحدٍ هدفي...

ولما كانت كلماتك تُقنعني بأنك تتمنى لي الخير في شيخوختي فأريدك ألا تشك مطلقاً في أن لي نية إيذاء القيصر، وأريد أن تثق بأني أؤيد علاقات حسن الجوار بين الطرفين. ويسرني إن كنتَ تتمنى لي الخير أن تدعو لي، مع مراعاة إرسالني موفداً إلى تركيا من أبناء قومي، بمنحي الحرية في أن أعود إلى بلادي.

وإن بقيت في كيرش بناء على طلبك براتب ألف روبل فضي سنوياً فسيقتد الناخوي والشابسغ والجميع أنني تحالفت مع روسيا، وسيثيرهم هذا الاعتقاد فيشرعون في إيذائي. ولن يستطيع قرباتر الوقوف في وجه هؤلاء، وكما قلتُ

سابقاً فإن استطعتُ العودة إلى بلادي مباشرة، وأخبرت أعراق الأديغة الاثني عشر بضرورة مخالفة دولتكم فلن يعترضني أحد من هؤلاء.

وإذا حُلَّ الموضوع بطريقة سلمية هكذا فأنا لا أشك لحظة في أننا سنعود ونجتمع، وسنمارس تحت جناح القيصر بعون الله التجارة، ونعيش معه بسلام. والله شاهدي على أي لم أسافر إلى تركيا إلا لهذا الهدف.

واسمح لي من أجل أن أجيبك مباشرة أن أُبلغك هاتين الرغبتين: 1 - لن أتصرف في أي وقت تصرفاً معارضاً لقيصركم. 2 - حين تقرر أن أعود مباشرة إلى بلادي آخذين بعين الاعتبار أي كنت جئت إلى هنا موفداً لبلادي فلن أوافق على الإقامة في كيرش بأي حال من الأحوال، ليس بمبلغ الألف روبل الذي وعدتموني به (هي في الحقيقة من ثمانية آلاف إلى عشرة آلاف قرش)، بل حتى لو مُنِحَتْ مئة ألف...

إن كنت تريد مساعدتي في حل الموضوع كما ترجيتكم فما أتأمله منك جداً هو أن تعطوني الكتاب المتعلق بالموضوع موقعاً من القيصر. والسبب هو عدم انتقاض سلام الطرفين ومن أجل أن يسود الاتفاق بينهما في حال كلفوا غيرك بهذه المهمة.

متى وصلتكم هذه الرسالة وفهمت ما فيها فلا تنس، بعون الله، صديقك، مانحاً إياه ما يستحق من تقدير. وأجبن برسالة تطمئني على صحتك."

شعر سفري بالراحة حين انتهى من الكتابة إذ نَقَسَ عن كرثته. وجلس رغم ارتياح جسده بعض الوقت مفكراً واجماً لا يفارق الرسالة. ورغم أنه عبّر عن كل ما في قلبه فإنه لا يستطيع الهروب مما كشفتته الكتابة من أفكار كانت تحت الرماد. الجسم في تركيا ولكن القلب في إقليم الأديغة. ولم تكن فكرة إحسانه التصرف أو عدم إحسانه ما يشغل باله فقد أجاب على هذا السؤال منذ زمن بعيد. يجب أن يعود إلى من فارقهم بصفة موفد الأديغة. وإن لم يحدث هذا أفليس قضى سنوات المصيبة في تركيا بلا جدوى؟ ولكن قلبه لا يستطيع إلا أن يتألم إذ ينتهي حلمه بالعودة إلى أرض الوطن. لم يجد مخرجاً إلى الأمل الوحيد الذي ظهر له في الأفق.

انظر ماذا يريد هؤلاء أن يفعلوا بي! قال سفري، سيأخذونني إلى كيرش لأقيم فيها وأنا أنظر عبر المضيق فأرى الأديغة وأسمع أصواتهم. لا يكفيهم ما قضيت من سنوات أسر في تركيا فيريدون أن أعيش في روسيا أيضاً أسيراً. هل عجب يا غزار إن كانت أسرتك تقيم في كيرش؟ بالنسبة إلي لا فرق كبيراً بين أدرنه وكيرش. لم يصلح لي المكان الذي لا أسمع فيه صوت الأديغة مكان إقامة، ولن يصلح!.. إن كانت طريقة عودتي لا تروق لكم فأنا أعرف كيف أعود. واليوم الذي يتحقق فيه يقترب دون أن يكون سراً...

حين وصلت رسالة الأمير الأديغي إلى فاشينك، وبعده، وفي الأيام الماضية، قابله فاشينك أكثر من مرة. واختبر صدق نوايا سفري كثيراً دون أن يُفصح عن مراده. ولم يقصر الناس الذين كلّفهم بهذه المهمة أيضاً. ولمّا اكتشف سفري نواياهم ضلّلهم طويلاً بأن يقول اليوم ما لم يقله أمس.

وفي خلال نصف سنة وصلت إلى القيصر تقارير كثيرة من سفيره في تركيا تيتوف. وكان ثلثها في موضوع سفري. وهذه مقتطفات من الرسالة الأخيرة:

"لم تنفع كل محاولاتي ومداوراتي من أجل أن أكسب ثقته وأتقرب إليه. وخلاصة ما توصلت إليه هو الموقف العدائي لسفري من روسيا. وأساس هذا الموقف عنده هو ما تنشره الصحف الإنجليزية والفرنسية من تضخيم لمشاريع الجيش الروسي في القفقاس، وتمجيد لبطولات الأديغة الزائفة. وكتابات السيد طاهر باشا الفرنسي المقيم في القسطنطينية، والذي لم أستطع معرفة نسبه. وما يعطي سفري أمله هو تحقيق معارضي بلاده إنجازاً ما، وبذلك يعود حراً إلى بلاده يوماً ما. ولكن الأساس الحقيقي لآماله في رأيي هو لقاءاته بالسفير الإنجليزي. وكان الأخير قبل أيام عند سفري. واتضح أن مقرّ السفارة الإنجليزية في القسطنطينية كان يسلم قبل سنتين، في موعد محدد، مبلغاً من المال..."

لم يعد القيصر راعياً في قراءة المزيد من التقرير، فأمسك القلم وكتب عليه: "منذ اليوم سيتوقف كل تواصل مع أمير الشركس زانه سفري"

وكتب سيرير ياكوف إلى سفري ما يلي في الثامن من أيار عام 1853 دون أن يُظهر دور القيصر:

"وصلتني رسالتك، وما أقنعني به، ولو أنه يحزنني، هو أنك لم تتقبل في قلبك المضمون الحقيقي لرسالتي. وكان الهدف الحقيقي لرسالتي هو رغبتني في مساعدتك، انطلاقاً من صداقتنا القديمة، ومن حبي لك وحرصني عليك، على أن تعود إلى أهلك وتعيش شيخوخة مريحة. ولكن لم أفكر قط في أن أستفيد منك خلال وجودك في كيرش في مهماتي مع الأديغة. وكنت أخبرتك بضرورة وجودك في الأماكن الأخرى باستثناء بزأه مز وأنا به للقاء زعماء الأديغة. وكان هدفي من هذا هو أن أزرع فيك بعض الأمل في مساعدة النظام، ويكون هذا سبباً في أن يجري الكلام في مغفرة كل أخطائك. وليس لرغبتك في أن تعود إلى بلادك كموفد في النظام. وأظن أن عندك نسخة من اتفاق سلام أدريانوبول الذي ينص على أن أراضي الأديغة التي كانت تحت سيطرة تركيا صارت كلها تحت سيادة روسيا، وبسبب خضوع الأديغة إلى دولة معينة فليس لهم الحق في إرسال موفدين عنهم إلى الدول الأخرى. وقبولك بالخضوع للنظام الذي على رأسه القيصر الروسي هو الطريقة الوحيدة لعودتك إلى بلدك الأم.

ويحزنني جداً إخفاقي في تحقيق نيتي في توفير الراحة لك في شيخوختك وإعادتك إلى أهلك. وصدّق أي أتمنى لك شيخوخة مريحة"

ضحك سفري بصوت مُدوّ حين قرأ رسالة سيريرياكوف كمالم يضحك في السنة الأخيرة حتى لفت انتباه فاشينك القنصل الروسي فنظر الأخير باستغراب شديد. وتصفحها من جديد وهو يمسح دموع الحزن. أوقفته كلمات الرسالة التي تقول "... أراضي الأديغة التي كانت تحت سيطرة تركيا صارت كلها تحت سيادة روسيا" ولم يملك سفري إلا أن يضحك من جديد بكل صوته.

- ماذا يُضحكك يا أمير إن لم يكن سراً؟ - سأل فاشينك متظاهراً بأنه لا يعرف ما في الرسالة.

- الأفكار المجنونة التي لا يقبلها الأديغة هي ما يكررها من كلفك بنقل هذه الرسالة. - ألقى سفري الرسالة على الطاولة وقد أمتقع لونه. - نحن الأديغة لم نكن يوماً مُلكاً للأتراك، ولن نكون لأحد!.. - هذا ما يُضحكني أيها الضيف إن كنت تريد أن تعرف... - وأضاف والعتاب بادٍ في غضبه المكظوم: - ليس عدم تفهّم دولة عظمى كروسيا للموضوع مدعاة للضحك بل للبكاء!.. ثم ما

هذا؟ - قرأ سفري ساخراً باللغة الروسية: "رغبتم بالعودة كسفير لا تلي حقوق الناس" - ألقى نظرة حارقة على فاشينك وقال: لا أعرف من أين أتيت بفكرة أنني سفير لتركيا؟! الأديعة أرسلوني إلى هنا موفداً، وبالاسم نفسه سأعود إلى من فارقتهم. هذا طلي، بلّعه إلى من أرسلوك!..

الكتاب الخامس

I

دمرت الحرب القفقاسية التي لا نهاية لها وسائل العيش المختلفة. تكشف الحرب مظاهر كثيرة لم تكن في حياة السلام الأديغية. وحين تصطدم هذه المظاهر فجأة، أو بمعرفتها، تهب من بينها نار الصاعقة. وليست قليلة المواقف التي يتصارع فيها المذنب والبريء والصادق دون أن تستطيع التمييز بينهم. تغيّرت معالم دنيا الأديغة على الأمراء والمتنفذين ونخبة الفلاحين والفلاحين ومن يحملون لقب العبيد من خدم البيوت، ومن بينهم من رجال الدين. يعيشون في بلاد الأديغة التي ليس فيها دولة، هذا براءة كما خلقه الله، وذاك بخبث، وهذا سرّاً، والآخر علناً. يتشاركون كلهم ظاهراً، باستثناء العبيد، في ملكية الأرض والسماء والشمس وأراضي الزراعة والمراعي والغابات. وحين يجلسون في المضافات، أو في ظلال أسوار الدور، أو في الجوامع، أو في الاجتماعات، يتكلمون والله شاهدٌ عليهم على روح الأديغة والشرف والرجولة، تغلبهم براءتهم.

انضمت الحرب إلى الحياة الأديغية غير الاعتيادية فوضعت كل إنسان في غير موضعه. وعلى نحو مجهول يغتني الغني، ويفقد الفقير ما عنده، وبين الغني والفقير يقف آخرون يسمون أنفسهم بنخبة الفلاحين. وهؤلاء لا مكان لهم في مجتمع الأديغة إن اتخذت رجولتهم وما يملكون مقياساً. يحسدون من هم أعلى منهم، ويسخرون، وقد نسوا أنفسهم، ممن دونهم.

وإذا درسنا الظاهرة على مستوى الإقليم فقد بان هذا واضحاً لدى أبزاخ الجبال الذين كان الانقسام بين أمراء وفلاحين محدوداً. وبدأ زمنياً أوضح في منتصف القرن التاسع عشر زمن نيابة مُحمَّد أمين.

لم يحتج مُحمَّد أمين موفدُ الشيخ شامل الذي كان يريد تعميق الدين الإسلامي بين الأديغة واستنهاضهم ضد الروس إلى أكثر من سنتين أو ثلاث لتطويع الأبزاخ العنيدين. في البداية استطاع مُحمَّد أمين فرض نفسه على الزعماء من أمثال بولتقوه وتسي حاترباي. وتحقق له خلال تقبُّل هؤلاء له أن يفرض نفسه على جماهير فلاحي الأبزاخ وأن يُنسيهم سلفه سليمان أفندي. وكان أقوى

سلاح بيده الدين الإسلامي. ولا يعني هذا أن النائبين اللذين سبقا مُجَّد أمين أخفقا في نشر الإسلام وتعميقه في قلوب الفلاحين. بذل الرجلان ما بوسعهما ولكن تفوق مُجَّد أمين عليهما كان له أساسه: ثقافته الدينية، وتلاوته للقرآن، وشبابه، ورجولته، وطيبته، ولغته الأدبية.

وكان أبلغ الأسباب هو العصر الذي جاء فيه مُجَّد أمين، ومصاهرته للأديغة. ولا يجوز استبعاد تحالف سليمان أفندي مع الروس من بين الأسباب. ولكن فوق هذا كله ارتقاء عقله إلى ما لم يخطر لأحد قبله وهو التفكير في إقامة دعائم دولة. وقد استطاع في السنوات الأولى إبعاد الزعماء المعارضين له، ولو نسبياً، بالتحالف مع رجال الدين وعامة الفلاحين. وفي السنة التالية تبوأ كرسى زعامة الأبراخ مع معارضة نخبة الفلاحين له.

ماذا استطاع مُجَّد أمين أن يحقق بهذه الوسائل في الأبراخ؟ عرف النائب كيف يستولي على المشروع الذي بدأه زانه سفري قبل أن يوفد إلى تركيا وبعض زعماء الشباب وهو إقامة دولة، والذي لم يوافق زعماء الأعراق الأخرى، فاستغله مع إدخال تغييرات عليه ومع تطويره. ثم تضافر معه مرور الأديغة بأوقات عصيبة، وربما بعض الأشياء غير المنظورة في حياتهم. قسّم مُجَّد أمين المجتمع من أجل إقامة نظام بين الأبراخ إلى مجموعات كل منها من مئة أسرة دون تمييز بين أغنياء وفقراء ومتوسطي حال. وكل مجموعة تنتخب من بينها رجالاً ضابطة بمثابة قيادات تدير شؤونها. وهذه المجموعات قسمت الأبراخ إلى أربع مناطق. ومرجع هؤلاء كلهم هو المحكمة العليا. وبعض هذه المحاكم يقع في نواحي شخغواشه، وبشك، وبجاشه، وبسَه قُبَس. وفي كل محكمة ثلاثة قضاة يمارسون قضاء الدولة. ويرتبط بهذه المحاكم عدد من الفرسان يضمنون المحافظة عليها. وللمحكمة جامع ومدرسة وغرفة تجري فيها المحاكمات. وفيها سجن هو حفرة تحت الأرض يُسجن فيها المجرمون وأعداء النظام، وغرفة للحراس وإسطبل للخيل. وتُحاط كل قرية فيها محكمة بخندق وجدار من طبقتين، ويحمي المحكمة العليا مدفعان، وترتفع فيها أربعة مراصد. وتُجى نفقات المحكمة والعاملين فيها والحراس من الناس. وعلى كل أسرة أن تقدّم فارساً بسلاحه

للحرب. وفي حال الضرورة رجلين أو أكثر. وحين يهاجمهم العدو تستنفر القرية كلها.

ثبتّ النائب في الأبراخ نظام المحكمة بأعلى من سابقه في ظروف اشتداد قسوة الحرب التي يخوضونها. وإذا كانت المحاكم السابقة لا تقوم بأكثر من مصالحه الطرفين المتنازعين، وتوجيه اللوم إلى المذنب فقد شملت العقوبات الحديثة نظام السجن، والإعدام، والإلقاء في الماء، وقطع يد السارق. وانتشرت قوانين تدين قتل الأبوين، وخيانة الزوج، والجبن، والخيانة، وعدم القيام بواجب الضيافة، واختلاط الأنساب... والفصل في هذه القضايا وغيرها من اختصاص المحكمة الشرعية.

والمساواة التي يجب أن تكون بين كل شخصين بغض النظر عن ثلثهما، وعن وضعهما الاجتماعي، وعن نسبهما، طبّقها النائب كما يأمر نظام المريدين. وهذا أحد أسباب تأييد الفلاحين التواقين للمساواة له.

ولم يتخلف النائب عن الآخرين في طريقة عيشه وفي صلاته، وطريقة كلامه، ورجولته إن لم يسبقهم فيها. والفلاحون الذين جعلهم النائب يرفعون رؤوسهم أخلوا الزعماء دون كلام ودون صوت. وبدؤوا في التدخل في جيران الأبراخ الأقارب. ويندر ألا يرتعبو متى سمعوا اسم النائب. وزيادة في الإرهاب الذي نشره في الأبراخ ترى النائب مع أحد مدفعيه في أي مكان في الجبال.

اجتمع سكان قرية دخاباه باستثناء النساء حين سُمع أن النائب قادم. اختبأت النساء لأنهن يعرفن عدم جواز النظر في وجه النائب. والبنات والعرائس الجديديات حبسن أنفسهن في البيوت. العجائز ينظرن من خلل الأسوار وقد أجبرن الفتيات الصغيرات اللواتي التصقن بالأسوار على الابتعاد عنها. يدعون للشيخ، ويتهلن إلى الله من أجله، ومن أجل السلام في عالم الأديعة، ومن أجل أن يكون الصغار محظوظين، ولا يحيجهم إلى الخير، ويفتح أبواب اللجنة لأمواتهم، ويُعمي رصاص الروس عن أحيائهم. ثم يدعون لأنفسهن.

تقاطر إلى ساحة جامع دخاباه كل من يمشي على قدميه أو يستعين بعكازة، محاطين بالأولاد. ومن لم يتسع لهم المكان وقفوا في أطراف الشوارع والأحياء في أماكن يرون فيها المئذنة. والأولاد على الأشجار وأعلى الجدران تعلق رؤوسهم

قبعاتهم المتطاولة. وأُخرج المرضى الذين يأملون بالشفاء إن نظروا في وجه القديس من الفراش، يأتون بهم ممسكين بهم من آباطهم، أو على ظهور الخيل. وأجلسوهم على أبواب الدور التي سيمر منها النائب.

ظهر فرسان النائب المسلحون. ومن يتوسط الفرسان الثلاثة وراءهم هو مُجَّد أمين. وأمامه ثلاثة فرسان، ووراءه كذلك. ويقطرون المدفع على عربة بثلاثة أحصنة. وبعده ستة فرسان، في مجموعتين.

تباعد الرجال الواقفون عند باب الجامع يُفسحون الطريق للضيف دون ضجيج. والفرسان الثلاثة أمام النائب تنحّوا. وابتعد الفارسان الحارسان. وتوقف المدفع وطاقمه غير بعيد عن الجميع. وخرج من بين مجموعة الرجال القريبين من المئذنة الثلاثة الذين يتزعمهم عجوز نحيف أبيض الشعر: في المقدمة جمه جبريل رئيس المحكمة، وعلى يمينه نيكراس تيم، وهو "شرطي" القرية، ومن على اليسار أرسلوه من المحكمة العليا عاملاً إلى دخاباه منذ وقت قريب جداً. حين شرع النائب يسحب قدمه من الركاب ترحل رفيقاه. ووصل أحد الفارسين اللذين وقفا جانباً وهو الحارس تومن فأمسك زمام حصان النائب وشرط ركابه. وأومأت مجموعة الرجال القريبين والبعيدين إيماءة احترام خفيفة دون أن يصدر عنهم أي صوت.

— أهلاً يا موفد الله، زعيم الأبراخ مُجَّد أمين. جئتنا بالخير إن شاء الله. يدعوك أهل دخاباه إليهم. — حيّا جمه جبريل الضيف.

— نهاركم سعيد يا عاثة الأبراخ! — وضع النائب يده اليمنى على قلبه. فرحكم فرحي، وحزنكم حزني. — سلّم باليد اليمنى المرفوعة بما يعني أنه يقاسمهم جميعهم. أدعو إلى الله الذي يبتهلون إليه ولا يبتهل هو إلى أحد أن نلتقي بكم على الخير. وأن يحقق لكم ما هو أحسن من الحسن. وأن يزود الله من يقف على رجله بقوة جديدة، ويشفي المرضى في أسرّتهم. وأن يخطو الأزواج الجدد خطوة خير، وأن يحقق آماني من يريدون أن يخطوها. وأن ينشأ أولادكم في رعايتكم فيكونوا خير أسرة. وأن ينصرونا على أعدائنا والرجولة في قبضتنا. آمين!

— آمين! — ارتفع صوت ذكوريّ فوضوي.

— الله أكبر! — سُمع صوت النائب الحادّ.

- الله أكبر! ارتفع ثانية جواب الفلاحين.

- ليسد الإسلام العالم كله!

- آمين!

- ليذهب الغزاة إلى الدرك الأسفل من جهنم! - صاح النائب مثيراً أحقاد الفلاحين. وبعد سكتة أضاف: ما أحوالكم، وما عيشتكم أيها الفلاحون؟ هل يُرضيكم رئيسكم وتُرضونه؟

هاج الفلاحون الذين لا يصلهم صوت النائب. واندفع الواقفون في آخر الحلقة إلى الأمام. وحين بدؤوا يدفعون القرييين من الضيوف أحاط الحراس النائب.

صاح أحد الفلاحين القرييين من النائب حين لجمهم الحراس فأبعدوهم قليلاً:

- اصعدْ إلى المئذنة أيها النائب حتى نراك ونسمعك على نحو أفضل!

- لا يجوز مخاطبة الناس من المئذنة. الله لا يقبل!

- أركبوا النائب على الحصان!

- ليس من اللائق الوقوف أمام الناس على ظهر حيوان. سأصعد إلى درج الجامع. - ارتقى محمد أمين الدرج المرتفع فحُيِّل إليه أن قوة جديدة تسري في

جسده. وصاح فيهم بصوت حاد: - أيتها الجماعة! أيها الفلاحون المهتدون

إلى الإيمان بالله، ما دفعني إلى المجيء إليكم مسألة تتعلق بوحدة الأديغة. لا

حاجة إلى الكلام على غزو الكفار لإقليم الأديغة فهذا قدرٌ من الله من أجل

ابتلاء إيماننا. الله يخبرني بهذا، وقلبي يردده. سننتصر على قيصر روسيا. وأنتم

تعرفون أن لا شك في هذا، وأنا أقوله لنفسي. وما نحتاجه لنتصر على العدو

هو وحدة الأديغة. ليحم الله فلاحي الأبراخ، فهمهم عميق، ونظرمهم بعيد.

وثقوا بي ووضعوا مصيرهم بيدي بعد الله. وأخبروني أن قولي قولهم وسلاحهم

سلاحهم. لا يمر يوم إلا تخطو فيه وحدتهم إلى الأمام فيتلاحمون كالصمغ.

وأعرف أن كثيرين من بيننا يقضون في الحرب غير أنني أبلغكم باسم الله أن كل

شهيد مصيره إلى الجنة. كنا قبل أيام في بلاد الوبيخ. وأخبركم أن الوبيخ

بكاملهم وقفوا إلى جانب حربنا الدينية. ورفع معنا زعيمهم بزرج جراندوقوه

علمنا. وليس الوبيخ وحدهم معنا فدول العالم الكبيرة تساندنا في حربنا لأجل

الحرية. وإن سألتهم من هذه الدول أجبتكم: إنجلترا وتركيا وفرنسا. وأنا أعرف أن

هذه الدول متحالفةً ستحارب روسيا من أجل قضية الأديغة. لا أقول اليوم أو غداً، ولكنه سيحين قريباً. ثقوا بما أقول، ومُدّوا أيديكم مرة أخرى إلى شوارب رجولتكم! وإن لم يكن كلامي صادقاً تخلّيت عن زعامة الأبخاز مُشهداً الله الذي يتوسلون إليه ولا يتوسل هو إلى أحد على كذبي. وسأقيم في القرية قائماً بوظيفة معاون المولى ومراسله التي تسألون عنها. وإن لم تقبلوا وعيّرتموني بأني غريب تركت الأبخاز دون عتاب. ولكن عليّ أن أقول أمامكم إن هناك من لا يقبل وحدثكم!

- من هؤلاء أيها النائب زعيم الأبخاز؟ سأل أحد الفلاحين.
- يا زعيم الأديغة كلهم، لا الأبخاز وحدهم! - دفع أحد الذين صاحوا من الجمع نيكراس تيم. وخيّل إليه أنه أحد حراس النائب.
- النائب زعيم الأديغة! - صدرت صيحات من هنا وهناك. ووافقهم آخرون.
- أيتها الجماعة! - رفع النائب يده ورضاه عما قيل في حقه بادٍ عليه، - سأقول لكم من هؤلاء: لا تنظروا إلى البعيد، وتناولوا القريب، جيراننا الناتخوي، والشابسغ. وإن تجاوزت هؤلاء فالجدوغ الذين صالحوا الكفار. والجمكوي، دغك من دُكر الأدميه والحاتيقيواي.
- صاروا كفاراً!

- بل أكثر من كفار!.. - تابع مُجد أمين كلامه وهو يشير بسوطة الفضى المزين بكتابات مخطوطة جهة الشابسغ: - قرباتر بن زانه سفري يتودد إلى الكفار. نسي أنه أديغي وسليل أمراء. يُصمّ أذنيه حين نطلب منه أن يحالفنا، - خيل لنيكراس تيم أن النائب الذي يأتي على سيرة صهره نظر نحوه فأغضى برأسه. ولم يكف هذا بل تصوّر أنهم يعيرونه بانه رفعت الذي يخدم في الجيش الروسي، بل بشخصه هو ذي الأصل الروسي، فنظر خفية من طرف عينه، - لا يستجيب لأي شيء نطلبه منه. يُهين شرف أبيه الأديغي. ويُبطل القضية التي حارب من أجلها...

- سنهاجم الشابسغ، ونعزل أميرها!.. - صاح الفلاحون من هنا وهناك.
- وهذا سيأتي كما اليوم أيها الفلاحون، - يُكمل النائب كلامه، - لا تستعجلوا. الوحدة!.. الوحدة أهم هدف لنا نحن الأديغة!.. الله راضٍ عنكم في

هذا، وتعيشون برضاه، لينتصر حظكم على الكفار الذين لا ينوون لكم الخير؛
الله أكبر!..

- الله أكبر! - ردد الجميع معاً وراحات أكتفهم أمام وجوههم. ودعوا إلى
الله. ومن مدة إلى أخرى ينظر تيم نيكراس خفيةً إلى النائب.

قال النائب للواقفين حين انتهى الأبراز من تلاوة الأدعية، ومن "الله أكبر،
ومن الفاتحة" وتجمعوا في جماعات يعرف أفرادها بعضهم بعضاً، أو يرحّب
بعضهم ببعض، وهو يعرف أنه ليس عندهم تمييز بين أمراء ونبلاء وفلاحين،
وأهم لا يحبون الإشارة إلى هذا الموضوع:

- من أراد الحديث منكم فليصعد إلى هنا!
لم يجد أحد من اللائق أن يخرج من مجموعته، وأن يعبر عما في نفسه، ولكنهم
تصايحوا:

- قولك قولنا، وفعلك فعلنا أيها النائب!
حُيِّل لنيكراس تيم أن أوائل الصائحين كانوا حراس النائب. ولم يجد من اللائق
النظر إلى مصدر الأصوات. وكنتم عواطفه معتبراً أن الأفضل عدم إبراز شخصه
من بين الفلاحين.

- هل بينكم من يريد الكلام؟ - فتح مُجد أمين ساعة الجيب الفضية ونظر إلى
الوقت، - صلاة الظهر قريبة، سنمثل أمام الله، ونصارحه بما في قلوبنا. تجتمعوا
بعد قرابة الساعتين في الجامع! ونحن سنبحث قضايا محكماتكم إلى حينها.

بقي المتوضئون في الجامع أو على أطرافه، أو على الشارع. وتدافع المتهيجون
من كلام النائب إلى البئرين في صحن الجامع يتوضؤون. وقطع الحراس طريق
الجمهور الذي يمشي وراء النائب.

- تعال يا مُجد أمين، أنت آتٍ من سفر، لنذق شيئاً من الطعام، - قال جمه
جبريل بحرص شديد.

- لاحقاً، بعد صلاة الظهر، - وتابع طريقه غير مهتم بما قيل له، - هيا
الأفضل من هذا أن نسمعوني مداخلاتكم... - ثم وجه إليه كلمات صادقة
في قالب هازل: - تريدون أن نُطعمونا فتُغلقوا عيوننا؟ تعال يا جبريل أخبرنا
هل يدفع الفلاحون ما عليهم حقاً؟

- نعم يدفعون، يدفعون يا مُجَّد أمين.
- وهل يكفي المبلغ لتكاليف المحكمة؟
- يكفي بفضل الله يا مُجَّد أمين.
- وهل تقدم كل أسرة فارساً، أيها الشرطي؟ يسأل النائب نيكراس تيم.
- لم يُقَصِّروا في شيء، قدّموا الفرسان. - لم ينطق تيم اسم النائب كما يفعل جبريل.
- أليس بينهم من يتهرّب؟
- نعم، ولكن ليسوا كثيرين.
- وماذا تفعلون بهم؟
- نعاقبهم، نرمي بهم في السجن الخندق.
- ألا تحكمون عليهم بالإعدام؟
- نعم.
- عاقبنا أحدهم يا مُجَّد أمين قبل أيام بإلقائه في الماء، - يلفظ جبريل اسم النائب على نحو جميل، ويخني له ظهره.
- من ألقينا به في الماء خائئاً نمام، - أصلح تيم معلومات رئيس المحكمة.
- لا ترحموا الخونة، اقتلوهم، اقطعوا ألسنتهم!
- وهذا سنفعله بمن يستحق في رأينا. - لم ينطق تيم اسم النائب هذه المرة أيضاً.
- من في سجنكم الآن؟
- حين رفعوا الغطاء عن الحفرة فاحت رائحة بشرية كريهة. رجلان طال شعر رأسيهما ووجهيهما، وكلٌّ في زاوية. أحدهما مقيّد من عنقه، والقيد الخشبي على يدي الآخر ورجليه.
- ما جريمة هذين؟
- المربوط إلى الزاوية خائن عليه عقوبة الإعدام، - أجاب تيم.
- والآخر؟
- هذا سارق.
- ماذا سرق؟

- عَجَلَة عربية، ومعها نيز.

دفع الحارس توَمَن تيم بمرفقه قائلاً:

- أليس لهذا الذي تخاطبه اسمٌ يا شرطي؟.. أليكون كُفْرُك السابق غالباً عليك؟
ألقي تيم نظرة عدائية على الرجل الجهم، ولكنه صبر.

- إقطعوا لسان المحكوم بالإعدام وأطلقوه، - ترك النائب جانب الحفرة، -
والآخرُ السارقُ اقطعوا إحدى يديه اللتين سرق بهما!..

II

ليس لأول مرة يرى نيكراس تيم النائب.

قابله في العام الماضي وما قبله. وهذه المقابلة الثانية له في هذا العام. وكلما قابله وجد فيه شيئاً جديداً مختلفاً عما رآه في المرات السابقة. وهو كمن يسحر المستمعين: يسمح لهم أن يقولوا ما يريدون، في حين لا يهتم هو بكلامهم.
قال النائب للفلاحين ما يريد، وفتح لهم الباب يقولون ما يريدون، وخرج من القرية بعد الظهر يتبعه مدفعه البرونزي.

كان نيكراس تيم من بين الذين رافقوا مُجْد أمين في خروجه من عاصمة البلاد. وطوال الرحلة لم يرفع توَمَن عينيه عن تيم. وفيما هو يفكر في سبب تصرف الرجل معه تعرّف على أحد الفارسين الحارسين، وهو جباغ. طبيعة الرجلين الآخرين وسلوكهم لا تختلف عن توَمَن.

أي نوع من البشر حُرّاس النائب؟ تساءل تيم؟ ضخام الأجسام، عيونهم كالجمر المتقد. جاهزون لتمزيقك، لا يعرفون أين يُصَرِّفون قواهم. وفي السلاح كالكلاب المسعورة. وتحتلج عضلات أفخاذ أحصنتهم فتذكرك بمن يركبها. وتقضم أزمتها الحديدية، ويخرج من أفواهها الزبد الأزرق - الأبيض. وحصان النائب نفسه كالكلب العضوض لا يقرّ في مكان. يقضم زمامه، ويرقص قائمته. والأحصنة ليست مشكلة فكل حيوان عليه سرجٌ يجب أن يكون هكذا. وأصحابه... أعرف فلاحٍ دخاباًه وجغر وقُماتر وجعُف وباستوك فلا أرى أحداً بين أصحابه يشبههم. لا أعرف من أين أتى النائب بهم إن لم يركّز جهده في اختيارهم. ربما كان صحيحاً قوهم: لا يترافق مختلفان...

رغم أن تيم لا يزال في أفكاره المتعلقة بالنائب فإن ما يعود إليه في نهاية المطاف كلمتان جارحتان: ما قاله له تومن، وما قاله النائب وهو يحويه. يقارن بين الكلمتين. ولا يجد سبباً لأي منهما. لم يفعل شيئاً يكدّر مزاجهما، بل لم يشكك أحداً في ما يُهين الأبراخ. ولم يعد تيم مهتماً بما قاله له تومن من كلام حاقد فمن يشحذ أسنانه ضدك يوجه إليك ما يُهينك، بل كلام النائب: "ابنك وصهرك خرجا عن طوعك". وسمع جبريل ما يشتهي فتحقق له مراده وابتسم. ما الخطأ الذي ارتكبته في الأبراخ حتى تعيرني بصهري وابني؟ وُلدت في أرض الأبراخ، ونشأت فيها. وامتزج تراهما بعريقي ودمي ودمعي. وعلى جسدي ثلاث ندبات سيوف روسية. وصهري لا يوفّر جهداً، يجابه الروس. ولن يخبرك أحد أنه تخاذل في أقسى المعارك. يحمي شرفه وشرف والده وأسرته وقومه. ولا يستحق أن تُكّال له هذه الاتهامات أمام هذا الحشد من الفلاحين، ولا أن يُتخذ مادة للسخرية. أما ما قلته لي بشأن ابني فلا أدينك به، أستحقه. ماذا بيدي؛ كتبه على جبيني الله الذي يتوسل إليه الناس ولا يحتاج هو إلى أحد، أتحمله. ولو عرفت أنك لن تنكأ جرحي الوحيد الذي لا يلتئم لطلبْتُ منك أن تعلّقني أيها النائب على رأس رمح أول كافر!.. لماذا عيّرتني بولدي ولم ترأف بي؟

صحا تيم من أفكاره حين دخلت سماي إلى الغرفة.

- أناديك وأناديك يا تيم، كأنك لا تسمعي!

- هل ناديتني؟ والله لم أسمعك!

- الفطور على المائدة. يبرد...

- هكذا؟ - يسأل ثانية مخفياً عنها عدم تخلّصه من أفكاره. وينهض دون

حماسة، - تعالي إن كان الفطور جاهزاً.

أبعد تيم كأس شاي القالمق بعد بضع رشقات. وأعاد قطعة الشلامه لم يُكملها.

- يا تيم، هناك ما يُقلقك بعد عودة النائب. - سألت سماي الرجل بحذر

شديد، - هل أسمعوك ما أزعجك؟

- ماذا أقول يا سماي، - نظر تيم إليها بلطف. وقال في نفسه: أجب لهذا المسكين الضيق دائماً وأشغل بالها دون ضرورة، - أفعل ما عليّ فعله، والسلام يعمّ القرية، لا أعرف لماذا هذا السؤال.

- منذ أسبوع لا تذوق من طعامي بما يُرضيني، - انفعلت سماي وأجهشت بالبكاء، ومسحت عينيهما. - أنت تخفي عني شيئاً.

- كفى يا سماي، كفى. لا خبر يُقلق بفضل الله. - قام تيم عن المائدة، - اطمئني، كل شيء على ما يُرام. أنا ماضٍ إلى محكمة القرية. ستزين متى طبخت لي اللحم والباستا إن لم أكل جيداً... - مازح تيم زوجته وخرج.

لم يبق في قرية دخابه غير خبر زيارة النائب وعودته، وموكبه. روى كل ما جرى في القرية الأسبوع الماضي كما يشاء مع أنهم رأوا بأعينهم ما حدث. وما لم يكونوا يشبعون من روايته صوت النائب ونظراته وطريقة امتطائه الحصان وركوبه. بل إنهم لاحظوا الندبة التي على طرف أذنه، وضخامة قدميه، ودقة أصابعه، ورشاقة خصره. يكتمون ما لم يعجبهم، ويضيفون إليه ما يتمنون لو يتحلى به.

انضم تيم إلى مجموعة الرجال المجتمعين على طرف سور ضاح. تجاوزوا خبر النائب، وتكلموا على الربيع القادم متكاسلاً. وقلقوا لتوسع الجيش الروسي على الضفة اليمنى لنهر شخغواشه. وانتقدوا حتى البجدوغ رؤوسهم للقيصر. ولم يوقروا شيئاً ضد الشابسغ في معرض امتداحهم للوبيخ. ثم عادوا إلى زعيم الأبراخ الذي زار قريتهم بعدما تكلموا على البسلني.

- والله لا أعرف رأيك يا تيم، - قال الفلاح الضخم بغس، - ولكن النائب رجلٌ خشنٌ.

- ولي أنا الرأي نفسه يا بغس، - لم يقل تيم ما في قلبه معارضاً الفلاح.

- ربما ترغب يا بغس في الانضمام إلى حراسه. - مازحه فلاح آخر.

- لا مزاح في هذا، لن أرفض إن عرضوا عليّ، - لم يتأخر بغس في الجواب، - لست أصغر من حرسه جسماً، ولا شواربهم ولحاهم أغزر مما عندي؛ فلماذا لا أصلح حارساً للنائب؟ إن طلبني فأنا جاهز من هذه اللحظة!.. سأفني من لا يطيعه من الشابسغ الصغار الأجسام، والبجدوغ معهم!.. ما رأيك يا تيم؟

- أصدّق كل ما تقول يا بغس.
- هذا بديهي!.. - حين شدّ بغس كتفيه رجع صغيراً في عيون الفلاحين الذين يقف أمامهم. وتيم المستاء عرّض به:
- أتبرع لك بوظيفة الشرطي يا بغس...
- نعم يا تيم؟ - عاد الفلاح إلى وعيه. - لا أجرؤ على المساس بوظيفتك. أهل القرية رأوك أهلاً لها مع أنهم يعرفون أنني أقيم هنا. ولكن إن حدث انتخاب ثان فلا أعرف من ستختار القرية: سليل الروس نيكراس أم دنج، سليل الأبخاز؟!
- ماذا تقول يا دنج! - نوره كبير الفلاحين سنأ.
- اترك دنج يعبر عما في أعماق قلبه! - لم يتراجع نيكراس تيم. وتصلبت أعضاؤه كقطعة حجر.
- ولماذا يا مبارك النسل، - جحظ دنج بعينه، - ألا يعرف إلى الآن أن الكافر لا يقبل إسلامه؟
- صعد الدم الحار إلى رأس نيكراس تيم.
- أنا الكافر يا عديم الإيمان؟! - ضمّ تيم قبضته ولكّم ذقن بغس. فسقط أمامه الفلاح كأنه ليس ذاك الذي كان يحفظ بعينه قبل لحظات. ثم أتبع من يحاول الوقوف لكمّته بركلة تحت السرّة فأغمي عليه.
- تابع تيم طريقه غير عابئ بالمرمي أرضاً. ولكنه بعدما سار مسافة عاد حتى لا يظن غريمه أنه خائف. ووقف أمام بغس الذي أجلسه ثلاثة رجال. مدّ تيم ذراعيه القويتين فأهض بغس. وسأله وهو يهزه من طرفي كسائه:
- من الكافر يا عديم الإيمان؛ أنت أم أنا؟
- كفى يا تيم، - صحا بغس مدرّكاً أن تيم لن يغفر له. - ألا تعرف المزاح؟
- تقاتلني من أجل كلمة بريئة خرجت من فمي.
- ليس في ما قلت مزاح!.. - انصرف تيم.
- نعم، ولكن ما فعلت بي...
- لم أفعل بك ما لم تفعله بنفسك. - ردّ تيم، وتوجه إلى المحكمة غير عابئ بما يقال في إثره.

صادفه جمه جبريل أمام باب المحكمة:

- تأخرت يا شرطي على عملك.

- صباح الخير أيها الزعيم المبارك، - حياه تيم ولم يردّ على كلامه.

- تعال أدخل إليّ!

- هل هناك ما يُقلق؟

- ما نعيشه كل يوم يدعو إلى القلق أيها الشرطي. ويومنا الحالي لن يختلف عن سابقه. ليست هذه مشكلة، المشكلة في طريق آخر. ولذا سنتكلم في المخرج

منها. النائب ليس راضياً عنك يا شرطي!

تظاهر تيم بأنه يسمع هذا الكلام لأول مرة مع أنه كان يتوقع ما يقال له منذ غادر النائب قرية دخابأه. وسأله:

- أنا أم نحن من ليس النائب راضياً عنه أيها الزعيم المبارك؟

- ما علاقتنا "نحن" بالموضوع يا شرطي؟ - يستغرب جمه ما يسمع.

- ما أقصده بـ "نحن" هو المحكمة، أما نحن كأشخاص فليس الموضوع مهماً.

- المحكمة موضوع دولة، وصاحب المشكلة هو نيكراس تيم.

- بيم لم أرضِ النائب أيها الزعيم المبارك؟ استقبلته بالاحترام حين زارنا، وأضفته، وحميته، وودعته.

- لا تنسِ الضيافة إلى نفسك يا شرطي! النائب أضافته القرية.

- أليس نيكراس تيم من قدّم عجلته ذبيحة؟

- إن فعلت خيراً فلا تمنن به يا شرطي!

- لا يضيع معروف في المحدود!.. - ابتسم تيم وأضاف: - ولكن يا زعيمنا المبارك لا أريد أن تنظر إليّ على أنني متمرد لا أفعل الخير.

- كفى يا نيكراس، تتكلم كثيراً على عجلتك... - احتدّ جمه، - علينا أن نفكر في الضيافة التي سنقدمها للنائب في زيارته التالية... ليست هذه مشكلة،

النائب غير مرتاح لابنك الذي يخدم في الجيش الروسي.

- هذا هو؟ الآن فهمت لماذا كان النائب ينظر إليّ شراً.

- بالضبط يا شرطي، بالضبط. لماذا سألني النائب عن سبب اجتماع زانه قرباتر ونيكراس رفعت في بيت حاغور نور مُجدّ؟

- لأول مرة أسمع بالخبر!.. - انتفض رأس تيم فرحاً وغير فرح بما يسمع. وتأمل وجه رئيس المحكمة ثانية لا يعرف تفسيراً.

- بالضبط يا شرطي، بالضبط. - عبّر جمه ثانية عن سروره، وأضاف بنبرة تنم عن سعادته بإيلامه: - والنائب عبّر لي صراحة عن عدم رضاه عنك.

- على ما تقول يا زعيم الخير، - انتفض رأس تيم من جديد لفرحه مما سمع، - الولد حيّ وبصحة جيدة، لينطق فمك بالخير دائماً. متى جرى هذا يا زعيم الخير، متى كانا عند حاغور؟

- لا أعرف!.. - جزم جمه لا يفهم ما يرى وما يسمع، - إن كذبوا عليّ فأنا أكذب عليك...

- لم يكذبوا عليك، النائب لا يتكلم على ما ليس متأكداً منه. - المهم أن يكون الولد بخير، ولا يهمّ أين هو!.. سمعت في العام الماضي أنه توفي فأخفيت إلى الآن الخبر عن صاحبة غطاء الرأس التي في بيتي... غريب ألا يُخبرنا الصهر عن لقائه به عند حاغور... هل ما قلته صحيح أيها الزعيم المبارك؟

- لا أتكلم يا شرطي على ما لا أعرف!

- نعم، نعم، لا تتكلم... حياك الله، سأخبر من فقدت قلبها في البيت. غادر تيم المحكمة يطير من الفرح. وفيما هو عائد لا يرى ما أمامه من الفرح التقى ببغس الجالس على جذع شجرة في المنعطف. وسأله كأن لم يحدث شيء بينهما:

- لماذا أنت جالس هنا يا بغس؟ تعال، هناك خبر.

- أي خبر؟ نهض ضخماً، - أهو سارٌّ أم محزن؟

- مفرح يا بغس، مفرح!.. الولد حيّ، وصل خير، تعال نفرّح والدته!

- ما تقوله عجيب يا تيم!.. - تبعه يذبّ كأنه ليس من تلقى الضربة تحت سُرّته، ويقول في إثره في غمرة الفرح: - هل وصل خبر رفعت الذي انحاز نحو الكفار حقاً؟.. - والله عجيب ما تقول، أفرح لأجلك!..

- نعم يا بغس، شكراً لك جاء خبر رفعت الذي يحارب مع الكفار. قيل إنه شوهد عند حاغور نور مُجد. وقيل إن صهري قرباثر كان هناك. الخبر يا مبارك النسل جاء من النائب نفسه!

- إذن ترك رفعت الكفار!.. - يبدو الفرح على بغس وينسى نفسه. - لن تستطيع البقاء مع الكفار حتى لو انضمت إليهم وأنت سليل أبوين أديغيين. نعم يا تيم، أليس صحيحاً ما أقول؟
- تماماً يا بغس، تماماً!.. هل تعرف كم ليلة أرقنا فيها بسبب الولد المنحوس يا بُغْس؟
- من حقكما يا تيم ألا تناما.
- ما أكثر ما جرحنا مشاعر الناس وجرحوا مشاعرنا!
- نعم، صحيح يا تيم...
- من يعرف هذا فهو الله الكبير الذي يبتهل إليه الناس ولا يبتهل هو إلى أحد. وبعده أنا ووالدته.
- لا شيء لا تغفره للولد يا تيم.
- لن يقول أحدٌ أصدق من هذا! لا نتأمل منه شيئاً يا بغس إلا سلامته. نتأمل فيه إن عاد إلينا بقلبه. هو الوحيد الذي نطمع في أن يعيلنا ويحمينا.
- يا حسرتي يا تيم، أهذا كلامٌ يقال؟! - أمِن السهل أن يكون لك أمل في مثل زماننا؟.. - رأيا سماي بعد المنعطف تطعم قطيع الديك الرومي، فترجّى بغس تيم: - بالله عليك أن تدعني أحصل على البشارة دون أن تقاطعني... نهارك سعيد يا سماي. تُحسِنين إلى ديكك... ما شاء الله، ليبارك الله لك فيها، وليحكما من العين الشريرة!
- حياك الله يا بغس، - وضعت قدح العلف على مسطبة الفرن واستقبلت رفيق زوجها. - تفضّل، ما أخبار والدتك وأنت والأسرة كلها؟ أَلستم بخير وبصحة جيدة؟ جعل الله أيامكم كلها خيراً!
- حياك الله يا سماي، - نظر بغس إلى تيم راجياً ألا يقول شيئاً، - والدتنا ونحن بخير، مأساة الأديغة تشغلنا. ليست هذه مشكلة. ثم استعجل كأنهم يسلبونه ما جاء لأجله: - ليدبحوا لنا أسمن ديك مما عندك يا سماي!..
- كما تريد يا بغس، سأمسك ما تشير إليه، - مازحته سماي.
- حصلتُ إذن على البشارة!.. رُفعت بخير يا سماي، رأوه في باستوك عند حاغور نور مُحمَّد. وصهركم قربا تر كان معه.

- نعم، حقاً؟ - صرخت سماي وقد شحب لونها تماماً مما سمعت. وسألت تيم:
- هل صحيح أن رفعت ولدي ذا العيون العسلية حي؟!
- نعم، نعم، بخير!... حصل بغس على البشارة. ولكن لا أعرف إن كان ديك
واحد كافياً...

- لم ينته موضوع رفعت بديك واحد. أتبع المهنتون الديك بحروفين. في الأيام
القليلة الأولى لم يجد تيم راحة في البيت. قضى أياماً وهو يتخيل كلما سُمع وقع
حوافر حصان من أمام باب دارهم أن ابنه عاد. وتوقف ناظراً نحو قُماتر قلقاً
لعدم ورود أخبار عن ابنته ماريا أكثر من قلقه على الصهر.

حين بقي الزوج والزوجة وحدهما لم يتركاً في معرض حديثهما عن ابنهما
موضوعاً لم يتطرقا إليه. وأهم موضوع هو الفتاة المرشحة لتزويجه منها. لا يجداها
في قرية دخاباه. وتجاوزا جَعف، ودخلا قرية جغر، واستدارا إلى الجمكوي،
وألقياً نظرة نحو الوبيخ حيث تعيش ابنتهما الكبرى.

كان ما يفكر فيه تيم، مسائراً قلق الزوجة، شيئاً آخر. لماذا لا يزورهم الولد
الذي شوهده في باستوك عند الشابسغ؟ قد يكون ما أبلغه رئيس المحكمة كذباً
ولكن الخبر أتى من مصدر آخر أيضاً. وأبلغه أحد الفلاحين بعد ديك البشارة
ذاك أنه رأى رفعت في قرية دخاباه. ولكن الخبر الذي نقله الأخير مختلف: لم
يكن رفعت وحيداً في باستوك، كان معه ضابطان روسيان آخران، وليس
صحيحاً أن قرباتر كان معهم. ويروي أنهم حلّوا ضيوفاً على ضيوف قُبْلهم
فتشاجروا وافترقوا.

لم يُخبر تيم الزوجة بالخبر الأخير. قال: لماذا أخبرها؟ دُعها تعيش فرحها دون
تكدير. ما أكثر ما تَسبّب في معاناتها وهي الفرحَة به! انطفأت عيناها وهي
تتألم كلما سمعت أغاني عرس فتخفي دموعها. ما أشد ما عانينا منك أنت يا
رفعت! لم تدع باباً للحزن إلا فتحتة علينا. حسناً، سننسى كل هذا إن عدت
أخيراً. يقولون إن الله يقبل توبة التائبين يا ولدي. ستعوّضنا تعبنا يوماً ما...
ومع ذلك يدخل الشك قلب تيم: لماذا مع الولد ضابطان روسيان إذا كان
عاداً؟ وأي شجار افترقوا بعده؟

- لا يجوز أن أقعد هكذا، - غضب تيم على نفسه في اليوم الثالث. - نفرح بأخبار الولد دون أن نعرف حقيقة وضعه.

- ما الأمر يا تيم؟ ألا تتق بخبر رفعت؟ ارتعت سماي مما سمعت.

- لا، - تراجع تيم، - ولكن أقول لنفسى أنقعد هكذا مكتوفي الأيدي...

عندنا صهر كسول يذوب جليد الجبل قبل أن يتحرك!..

- الصهر صهّر ولكن ما سبب سكوت ابنتنا؟

- سأسافر إذن إلى الشابسغ... - نهض تيم.

- لا تسافر وحدك في هذا العالم المضطرب، اصطحب أحد الفلاحين!

- أتظننني أسافر إلى الشابسغ لأول مرة؟ الله معي، وبعده عقلي، أمري لله. لا تقلقي إن لم أعد مساء غدٍ. مساء اليوم الثالث موعدي. لماذا لا تقولين شيئاً؟

- وماذا أقول؟.. مع السلامة. الله حريص على عباده فاحرص على نفسك.

- ليس هذا ما أقصده... ماذا أبلغ ابنتنا باسمك؟

- أسألها عن سبب سكوتها كآل زانه الساكتين. وسلّم على بابور... لا أريد يا تيم إلا أن تأتيني بالولد. دعني ألقى عليه ولو نظرة واحدة... - أجهشت سماي بالبكاء فأسرعت بيديها إلى عينيها.

- كفى يا سماي، - بدا على صوت تيم إشفافه على المرأة، - ليس إليّ تتوسلين بل إلى الله العلي الذي يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل إلى أحد. سأجد لك الولد بعلمه تعالى أينما كان. الله واحد، فثقي بي في هذه المسألة. ولكن لي عندك رجاء: كائنًا من كان السائل عني فلا تخبريه أنني سافرت إلى الشابسغ! سيثون بنا إلى النائب. يمكن أن تقولي مثلاً سافر إلى جعّف، وسيمر على جغر... أ قليلاً ما يمكن أن تجيبي به؟ لا مانع أن يعرفوا حقيقة الموضوع إن رجعت والولد معي. وإلا أمكنك أن تقولي، وهذا سيُرعّب رئيس المحكمة جمه، إني مسافر إلى النائب نفسه مُجد أمين...

...

تبيّن أن قرباتر سافر إلى الوبيخ.

استقبل آل زانه تيم بكل ترحيب كالعادة ولو أن رجلهم غائب. وتبادلت الأسرتان المعلومات، ودعت كل أسرة الله لخير الثانية. ورتبوا أمور الشابسغ والويخ والأبزاخ، ووصلوا إلى البجدوغ.

مهما كان بين تيم وبابور من مسائل تتعلق بالأديغة فهي لا تبدأ إلا بموضوع الروس والترك ولا تنتهي إلا به. ويأتیان، أكثر من ذي قبل، على ذكر الإنجليز والفرنسيين والبولونيين ونغوي القرم والمجريين، ولو أنهما لا يعرفان الكثير. يتكلم كل كما سمع الخبر وأمسك بطرفه. ومهما قالوا عادا بعد المناورة إلى مُجد أمين. وتيم لا يخفي على بابور أنه لا يؤدّ النائب. وكلما تكلم على زعيم الأبزاخ الغريب أتى على ذكر سفرې. ولا يتناسى تسي وبرج وجمقوه.

- ما العمل إذن يا تيم، - تنهدت بابور عميقاً، - هذا حظ الأديغة البؤساء. حظهم أن يتنازعا ويتناحروا فيما بينهم، ويرحبوا بالغريب حتى يلتهمهم. لم يقبلوا من سفرې أياً من أهدافه مهما حاول. كان يلوم خانجري في وقت ما، ولكنهم لم يوافقوه على نيته في توحيد الأديغة.

- لن يؤيدك الأديغة إن لم تكن أديغياً - قال تيم، ثم صحا بسرعة متذكراً نفسه ليس أديغياً، فندم على ما قال.

- لا تقل هذا يا قربينا. خانجري أديغي بالقياس إلى النائب الداغستاني. كان أديغياً حقيقياً بتفكيره وحياته وإنسانيته. ليوجّههُ الله إلى الخير حيث رحل. وإن ظلمناه بالكلام فليغفر لنا الله!

- لن تقولي أصدق من هذا في حق النائب يا بابور. - وافقها تيم بسرعة، - يمسك القرآن بيد، والسوط بالأخرى، ظالم لا أظلم منه. والأبزاخ الذين لم يكن أحدٌ يقدر عليهم، لا أدري ماذا فعل بهم، طوّعهم كعود مرنٍ دون أن أعرف بالتحديد ما وسيلته. ومتى قال: سنقتحم أرض الشابسغ والبجدوغ، ونهاجم القرشاي، التمعت خانجرهم المسلولة، ودوّت جباهم بالهتافات.

سكتت بابور بعض الوقت بعد أقوال تيم. وتورّد خداهما فجأة علامة احتياجها من أمر ما، ثم فقدوا لوهما فتحولا إلى الأبيض الشاحب. ومدت يدها إلى غطاءها الذي لا ذنب له. وأصلحت شعرها، وسألته:

- هل أهانوك يا تيم؟

- مَنْ غيرُ الله يمكن أن يسبب لي الحزن في هذا العالم. - قال تيم ثم سأها: -
ما الذي يجعلك تقولين هذا يا بابور؟

- لأنك قلت يا تيم "لن يؤيدك الأديغة إن لم تكن أديغياً".

- هذا هو؟.. - استغرب نيكراس تيم ما سمعه. - إن كان هذا قصدك يا بابور فكيف نترك الأديغة ونذهب، نحن آل نيكراس. يا الله يا من يدعو إليه كل هؤلاء الناس ولا يدعو هو إلى أحد، الله الكبير القيوم على هذا العالم، إن كنت أقول ما ليس في قلبي فلا تغفر لي. وعاقبني بما أستحق. أنا أديغي ومسلم وليس في قلبي إلا إلهي الواحد!... كنتم تيم الإهانة التي تعرّض لها في دخاباه قبل أيام.

- قلت ربما، ولم أقصد ما فهمت... - برأت بابور نفسها وغيّرت موضوع الحديث: - أراك يا تيم لا تسأل عن كُنْتنا ابنتكم؛ هل نسيت أنها في بيتنا؟ تظاهرت بالمزاح، ونادت الخادمة: - هيا نادوا الكنة لتقابل أباهما!

- البنات يا بابور تصبح جزءاً من الأسرة التي تزوجت فيها، ولا تعود عضواً في الأسرة التي خرجت منها. - أجاب تيم بكلام يرضي الطرف الآخر. - استقرت إلى جانب موقد زانه سفري فأنتم، رضي الله عنكم، تربوها. - قال تيم: لا أظنهم يعرفون شيئاً عن رفعت الذي سافرت لأجله، فإذا كان الأمر هكذا فلماذا أذكّرهم به دون فائدة.

أصطحبت ماريا إلى الغرفة بثوب خمري طويل لائق لها يضّم جسداً رقيقاً. وعلى الرأس قبة متطاولة بلون أحمر فاتح يتناسب لونها مع لون الثوب، ومطرزة بخيوط الذهب والفضة. وعلى الظهر صغيرتان كستناويتان. ويكاد يظهر من تحت الثوب خفٌّ مناسب للون القبة.

نظرت ماريا نحو حماتها متسائلة إن كان من حقها أن تقف أمام والدها وتحببه. وحين رأت الإذن غير المنظور في وجهها دنت من والدها فعانقته بجرارة. ثم رجعت ووقفت وراء حماتها، لا عند الباب.

نطق تيم أول ما خطر له متجاهلاً عواطفه الحارة نحو ابنته، ودون اهتمام ظاهر بها:

- هذه حال الدنيا يا بابور... - الأديغة حظهم أن يعيشوا في عالمٍ شرير. لينظر إلينا الله بعين العطف، وليرحمنا!

- نعم يا تيم، لم يبق لنا أملٌ إلا بالله... - إذن خذا راحتكما، الأب والابنة، في الحديث، وأنا سأتابع ما تفعل الخادמות، وأعود...

- والله يا بابور اقتربت الظهيرة، - استعجل تيم ونهض. - وأنا لن أستطيع البقاء أكثر من هذا عندكم. عليّ أن أقابل أحد الفلاحين. تحدثنا ما يكفي، وذقت من طعامكم، ورأيتكم والشكر لله. ورأيت ابنتنا. أطال الله عمركم وأسعدكم! إن شاء الله نأتيكم مهنيين بعودة الأمير سفربي. والله لا أخفي أن الأديغة اليوم بأشد الحاجة إلى سفربي!..

كان الفلاح ترام هو من يريد مقابلته ولم يُفصح عن اسمه. وحالما التقى به سأله:

- هل سمعت يا ترام أن الولد كان عند حاغور؟

- أعرف الموضوع بشخصي.

- وماذا يقول؟

- يطلب منا أن نصالحهم.

- وكيف؟

- يقول إن روسيا دولة عظمت وشعب كبير، ولا أحد يستطيع الانتصار عليها.

- هكذا! - صرخ نيكراس تيم غير سامع صوته، ثم قال لنفسه بعد قليل: -

ثثار!.. ابني صار كافراً تماماً، سواءً قبلتُ ما يقولون أم لم أقبل. ثم سأل بعدما

جلس مدة يحمّر لونه ويزرق: - من كان جالساً حين نطق بهذه السخافات؟

- الأمير قرباتر، والشرطي حاغور.

- امض معي يا ترام! - نهض تيم فجأةً.

- إلى أين يا تيم؟

- أليست أديغياً يا ترام فتسألني إلى أين؟! - خرج تيم من أرض الدار، وركب.

لحق ترام بتيم في منتصف الحَيِّ، وحين تجاوزا سور البيت الرابع توقف تيم عند

أول باب ونادى:

- يا حباط - قال لمن خرج من وراء مخزن الحبوب: - تعال يا حباط، اركب!

- حالاً!.. - قال حباط، وأنزل السرج المعلق بالجدار، وحين لحق بالفارسيين أمامه سألهما: - هل هناك ما يستدعي القلق؟
- أليست حياتنا كلها أسباب قلق يا حباط؟.. - أجاب تيم دون أي إضافة.
- خرج الفرسان من قرية توبا التي رحل إليها آل زانه قبل أعوام. وحين دخلا عمق الغابة بعد بعض الوقت سأل حباط لا يُطيق صبراً:
- أسألكما ماذا جرى لكما، كليكما، فلا تتكلمان؟
- نسير لأن تيم طلب منا فحسب.
- ألا اسم للمكان الذي نقصده؟
- نعم، له اسم يا حباط، - قال تيم الصامت إلى الآن، - نذهب إلى منعة شَبَّح.
- هكذا! - أوقف حباط حصانه. - عند القوزاق؟
- أليست رجلاً يا حباط فتلجم حصانك؟! - التفت تيم.
- لا تختبر رجولتي بمهمة سرية يا تيم - لحق حباط بالفارسيين، - أود أن أعرف سبب ذهابنا، ما رأيك أنت يا ترام؟
- وهذا رأيي أيضاً... - لم يلتفت ترام.
- أليست يا ترام من قال إن الثرثار يقيم في منعة شبَّح؟
- نعم يا تيم.
- يجب أن أتكلّم إلى الولد... - ظهر من صوت تيم الناعم انفعاله حتى لَتَظَنَّهُ ييكي.
- هل تظن أن القوزاق سيسمحون لنا بالاقتراب من منعتهم؟ يقول حباط ما يحشاه.
- أليس القوزاق بشراً؟.. - لا ترضي طريقته سؤال الصديق ترام، في حين يشجّع تيم نفسه، - وهؤلاء بشر، وأتوقع أن يفهمونا يا تيم. ولكن لا تدع الحمية تأخذك في غير وقتها.
- يا حسرتي يا ترام... لو عرفت ما يغتلي في قلبي!

- أعرف يا تيم، أعرف، - لم يدعْه يكمل. انصَحْ قلبك. لا تهتم بالمكان الذي يعيش فيه ابنك. واشكر الله على سلامته. وادعُ الله من أجله. لا شيء يُستبعد حدوثه في العالم.

- نعم، هذا صحيح يا ترام، ويا تيم، لا شيء مستحيل في العالم.
- أفهم هذه الأمور... ما لا أفهمه ويعذبني هو أن الولد أدار ظهره للأديغة. ربيناه وتعبنا عليه عبثاً... أعجيب، ولا أحب هذا السؤال، إن كان آل نيكراس روساً في زمن ما؟! ها هما زانه سفرني وخانجري عاشا فترة معهم ولكنهما فارقاهم. وصهرنا قرباتر لم يستقر بينهم!.. حتى بعضٌ من في جيشهم من الروس يفرون منه ويلجؤون إلينا، ويحاربون معنا... ولو فرضتُ أن الثرثار رفعت أخطأ؛ ألا يجب أن يلتفت إلينا ولو مرة؟ أصار مسعوراً تماماً؟!

- لا ترهق نفسك يا تيم، ستحلّ الأمور كلها على خير. - ينقض حباط بعد ما ساروا مسافة صمّت الفرسان، - ها أنت ستري، وسأذكرك، قلبي يحدّثني. وليس الروس على ما نظنهم تماماً... - وبعد أن انتظر بعض الوقت تعليقاً من أحد رفيقيه، أضاف لاثماً: - والله تركتmani أقول ما لا يُقال وأنا في حالة اللهفة هذه... اللعنة، نسيت مسدسي القديم.

- على أي مسدس تتكلم يا حباط ! - نظر ترام إلى صديقه بطرف عينه.
- أقول ربما من باب الاحتياط.

لم يجب أيُّ من زميله.

ربيع الظهيرة هادئ كأن العالم خلا من البشر. وأغصان الأشجار التي نجت من برد الشتاء فرحة حتى لَترى ما وراءها. ومن على جوانب الجبال البعيدة، وسفوح التباب القرية، وأراضي الزراعة، ترى بقايا ثلج لم يذوب. والعشب الأخضر الناعم منشور على الأماكن المكشوفة للشمس. وطيور بداية الربيع تنادي من أعالي الأشجار. وتقفز من الأشجار الملتفة على جوانب الطريق.

- عجبٌ ألا يظهر أحدٌ من القوزاق! - يعرب حباط عما يشغل باله.

- لا تُفزعوهم إن ظهوروا. - يقول تيم بصوت واثق لرفيقه. - سأفهم أي شخص يعترضنا أن لنا مهمة في قلعة شبيح.

- إن فهمونا!.. - غمغم حباط.

- كفاك، اسكت قليلاً!- نهره ترام أيضاً.
- حقاً، أتريد أن تمنعنا من الكلام؟ قلت ما قلت هكذا ولم أقصد ما في ذهنك يا ترام. لا أريد البتة أن يروني في حضرة تيم محباً كأس الشجعان، كارههاً ضرب السيف.
- لا بأس إذن... - يتراجع ترام.
- حين التفوا من وراء المرتفع انتصبت أمامهم منعة شبح على المرتفع المقابل. وقال حباط دون أن يعرف سبب ما يقول:
- يا ترام ما رأيك أن أسبقكما وأعلم هؤلاء القوزاق بمرادنا؟
- كفى يا حباط، لا نريد أن نجعل القوزاق يفتخرون بأنفسهم، - لم يقبل تيم،
- ها هو صوت طرّهم الحديد مسموع، أظنهم يتدافعون نحو الباب.
- الفرسان يتقاطرون إلى البوابة الكبيرة التي تراها إن وقفت على ظهر الحصان. صاح فيهم القوزاقي الواقف في المرصد على ظهر المنعة المبنية من الخشب:
- من أنتم؟
- شراكسة من قُماتر، - أجاب نيكراس تيم، وظهر من داخل المنعة عدد من الفرسان، وحُيِّل إليه أن رفعت يتقدمهم.
- أعرف أنكم شراكسة، ما حاجتكم؟
- أنا والد نيكراسوف رفعت، أريد أن أراه.
- سيتشرف إذن هو بنفسه. - نادى المرصد العالي للفرسان القادمين إلى الباب، - أيها السيد الملازم جاءك ضيوف من قُماتر، وأحدهم يقول إنه والدك.
- مع أنهم لم يبلغوا رفعت بحوية الضيوف فقد عرف من بين الفارسين. وقفز قلبه من بين أضلعه خلافاً لما كان عليه في السنوات السابقة. وتصارع في جسده اللين والقسوة. وتأملت الندبة في عنقه.
- وجرى لقلب نيكراس تيم الأمر نفسه. وعصر الألم قلبه حين رأى شعر ابنه الأبيض الذي لا يتناسب مع عمره.

- أنا أسمعكم - انتفض تيم برأسه مما قاله ابنه رفعت الواقف إلى جانب الباب. ونظر حواليه يريد أن يعرف السبب في ما قيل له. ويسمع مرة أخرى: - أسمعكم أيها السادة الشراكسة.

- والدك، أنسيت يا ولدي كيف تستقبل من هم أكبر منك عمراً؟ سألت تيم ابنه وهو في حالة غير اعتيادية.

- تكلم بالروسية

- ألسنت أديغياً يا سليل الكلبيين؟! - صرخ تيم بلا وعي من فوق الباب. - لماذا تكلمني هكذا، لماذا تُهينني أمام رفيقي؟

- لا تقل كلاماً سخيفاً، - مرة أخرى لم يتراجع رفعت.

- أقول لك يا رومان إنك لا تقدّر علاقات القرابة - قال تيم بالروسية وهو يكظم غيظه، - أنا المخطئ، ما كان عليّ أن آتي لزيارتك. أنت منذ اليوم لست ابني لا تقف عثرةً في طريقي يا كافر! - أرجع تيم حصانه. - تعالا، يا ترام ويا حباط! اغفرا لي أني سمحت لمن قلبه قلب كافر أن يهينكما!..

لم يدّر نيكراس تيم بالحصان فيعود. تابع بعينيه الفُرسان حتى اختفت قبعاتهم وراء التل. ولم ينبس هو ورفاقه بأي كلمة.

III

يعرف قرباتر ما يقوله لبرج جراندوقوه وجيمس بيل. إن فهماه فحسناً، وشكراً لهما. وإن لم يفهماه أفرغ فيهما غضبه وعاد إلى الشابخ. احتفظ بهذا القلب الهائج حين خرج من البيت ولا أحد إلا والدته وزوجته يعرف إلى أين ذاهب، حين ركب، وحين وصل إلى باب برج. ولم يصطحب أحداً من الفلاحين لأنه لا يريد أن يعرف أحد الحزن الذي هو سبب سفره. خطر له بضع مرات أن يصطحب حاغور ولكنه أبعد الفكرة.

قال قرباتر: ما الفائدة من أن أصطحب الشرطي حاغور إلى الوبيخ؟ لا أعرف ماذا جرى له في آخر سنتين أو ثلاث. لا أفهم ما يدرّه. يبدو أنه يوافقنا في آرائنا حول الأديغة - الروس، ويعرفها. وإن توجهنا إلى المعركة مشى معنا، ولا يفارق المعركة إلا بعد أن يسفك الدم بسيفه. ولكنه مع ذلك ينصحنا بعدم التسرع مع الروس، ويزرع في نفوسنا بعض الشكوك. ولم أفهم سبب زيارة

الضابط راكيتوف له. أثار رفعت مشكلة بيننا، ولم يُنخ لنا الفرصة للحديث. وحين سألت حاغور عن سبب قدوم الضباط الروس أجابني بأنه لا يعرف شيئاً. حاغور يُخفي أمراً ما. ولكن لا أستطيع تحديده.

أيكون يمارس خيانه ما معنا؟ لماذا لم يأت راكيتوف إليّ إذن؟ هل حاغور أقرب إليه مني؟ ورفعت... كيف تصرف معنا نيكراس رفعت؟.. لا أظنهم جاؤوا إلى باستوك دون هدف... أظن أن حاغور يدير مسألة ما من وراء ظهورنا. يجب معرفة حقيقة ما في قلبه. ندينّ النائب ولكنه يتصرف على نحو صحيح مع الحائنين. إن لم تُرهب هؤلاء فلن يحسبوا حسابك، مستعدون لأن يبيعوا إقليم الأديفة كاملاً، ويبيعوك معه...

ليست أرض الشابسغ بعيدة عن أرض الوبيخ. تتصل أرضاهما. وبين شج قرية برزج، وقرية توبا أقل من مسير نصف يوم. وإن اخترقت الجبال وليس الطريق الساحلي فالمسافة أقرب. والطريق الجبلي متعب قليلاً ولكنه آمن كثيراً من الطريق الساحلي. لا خوف من جهة القوزاق إن لم يكمن لك أحد المجرمين. اختار قرباتر الطريق الجبلي. وقرر ألا يعرّج على حاغور ولو أن قرية باستوك في طريقه.

حين تكون وحيداً على طريق تهاجمك أفكار غير منتظرة. ومهما هاجمت الأفكار قرباتر فهو لا ينسى الحزن الذي يحمله إلى أرض الوبيخ. لم يتوقع قرباتر البتة أن يتصرف معه برزج وحيمس بهذا الأسلوب. عاشا إلى الآن يتشاركان الآراء والأفعال وفق الأسس التي وضعها والده سفري. لم يكن يمر شهرٌ إلا التقيا فيه مرة أو اثنتين، يتشاوران في قضايا الأديفة، ويتبادلان الأفكار. والرسالة التي كتبها إليه والده والتي يحملها في جيبه تشهد على هذا. يود قرباتر أن يعيد قراءة الرسالة التي جاؤوه بها سراً من تركيا قبل أيام. والخبر الذي لا يُفصح عنه تماماً يعطيه بارقة أمل.

يقرأ قرباتر الرسالة وقد علق اللجام بطرف السرج: "لا تُعادي فلاحى الأبراخ، واحذر من النائب إذ أن ما على لسانه غير ما في قلبه. وقد لاحظتُ عليه هذا حين قابلته في تركيا. لا تتجنّب على مرأى من فلاحى الأبراخ صراحة لأنهم يؤيدونه. حاول أن تسايه أحياناً في بعض ما يناسبنا نحن الأديفة، ولكن لا

ضرورة للتقرب إليه جداً. ليس مُجد أمين مثل النائبين اللذين سبقاه. هو أحكم منهما كثيراً، وهو مخادع وقاسٍ وذكي وبعيد النظر. ولا تصدِّق ادّعاءه السعي وراء وحدة الأديفة إذ لا يؤمن بها ولكن يرى فيها فائدته. واقتنع أن إقليم الأديفة الذي لم يخضع للترك والروس وخان القرم لن يخضع للنائب الداغستاني. وأنا اقتنعت بهذا، واقتنع به من أعيش بينهم. وأنا واثق أن روسيا تعرف هذا. لن يجلب جهاد الشيخ شامل أي فائدة للأديفة، ولذلك فالأفضل التصالح مع الدولة التي نتشارك الحدود معها. هذا أمرٌ، والأمر الثاني هو ألا تبتعد عن حجمقوه وتسي وبرزج وغيرهم من زعماء الأديفة ممن يعملون لوحدة الأديفة، وتقرب إليهم دون أن ترفع الكلفة بينك وبينهم تماماً. وليس جيمس بيل ممن يوثق بهم جداً، فهو يعمل لصالح دولته إنجلترا. وكذلك الفرنسيون. ومأساة الأديفة مصدر فائدة لكثير من الدول. والأمر الثالث ستحدث تطورات مفاجئة بين عشية وضحاها، وهذه لن تضربنا إن لم تنفعنا. وقد يحدث ما أذكره لك قبل استلامك رسالتي. ولذلك آمل أن تعجل هذه التطورات عودتي. لا تفتحوا في مناطقنا جبهات على روسيا لا ضرورة لها. وحين نلتقي أُطِبعك بمزيد من التفصيل على نيتي. وأهمُّ ما في قضيتنا الصبر. تحلّوا بالصبر في قضيتنا. مَرَّق هذه الرسالة حالما تنتهي من قراءتها. ولا يعرف أحدٌ نيتي!..."

عصرت الكلمات الأخيرة لسفري قلب قرباتر ألماً. وأخفى الرسالة كأن أحداً سيسلبها منه، ولكنه لم يمزقها كما ترجاه والده.

تساءل قرباتر: ما التطورات المتوقعة في القرم التي يتحدث عنها والدنا؟ يقول إنها لمصلحة الأديفة. لا أعرف شيئاً حدث في المنطقة لم يضرنا نحن الأديفة. لا بد أن عندك معلومات إذ تقول هذا. ولكن ما توقّعتَه لم يحدث أمس ولا اليوم. روسيا حاصرتنا من كل الجهات. أيّ هدف لوالدي يؤمِّلني فيه؟ لا سرٌّ في الأفكار المتعلقة بالنائب. كلها جارحة ومكشوفة...

مرة أخرى تناول قرباتر الورقة. وبعدما مرَّ عليها بسرعة مرَّها وأرسلها مع ريح الجبل الصباحي البارد.

قال قرباتر بعدما مشى مسافة ينصت إلى وقع حوافر حصانه: أما الزعماء الأديفة الذين تسميهم يا والدنا، بمن فيهم حاغور باستثناء تسي وحده فلا

تذكرهم لي. والنائب ليس لي ما أحذفه من كلامك عليه إن لم أزد. وثقّ أُنِي سأنفذه لك. ولكن لا تترجني من أجل برزج، لا أستطيع أن أحقق هذا. الرجل باع شرفه. وإذا كان فيه شيء من الرجولة فقد تنازل عنها في حضرة النائب. وما إن دخل الأخير أرض الوبيخ حتى اختبأ برزج تحت عباءته خوفاً من السفن الروسية أن تُغير من الشاطئ. وحين يركبان معاً يسير على يساره، خلافاً لعمره، داعياً من يراه إلى السخرية منه. وجيمس بيل كما تصفه. وعلى ما أعتقد فمسلك برزج ليس بعيداً عن تدبير الإنجليزي. وأنا ذاهب يا والدنا إلى الوبيخ لأعرف حقيقة نواياهما، ولأتشفى منهما. اغفر لي إن فعلتُ مرغماً ما لا يجوز... وحجمقوه أسلانبح لسئ راضياً عنه. كان يدعي الرجولة إن كنت تتذكر في عصر خانجري. والآن وقد مات خانجري الذي كان يعترضه، ولم يبق من يُحمّله أخطاءه فقد صالح البجدوغ بالروس، فكفوا عن حضور مؤتمراتنا نهائياً. ويقال إنه يجلس طوال النهار ينظر عبّر نهر بشزه إلى إيكاترينودار. خانجري كان رجلاً بالقياس إلى حجمقوه. وتفكيره كان يصل إلى البعيد. وحين تعود إلينا يا والدي سيتعمق اطلاعك على أوضاعنا. وستفهم صديقك حاغور بمزيد من العمق.

امتثل فلاحو الأبراخ أمام عيني قرباتر فيما يناجي والده، وتذكّر ما قيل في بضعة مؤتمرات للشابسغ. ومرت أمام ناظره مصارع الناس من الطرفين، بل رائحة الدم. وأنينُ الجرحى، ولهفةٌ من أحرقت قراهم، لا يفارقان الذهن. ولكن ما يُنسيه أحياناً هذه المواقف هو رؤيته النائب للمرة الأولى والأخيرة من قريب ومن بعيد. وليس الأمر أن النائب رجل قميء المنظر والمخبر فهو رجل متين البنية، رشيق القوام لا يوصف بمثل هذه الصفات.

مهما كان النائب يتمتع بقوة متميزة، قال قرباتر، فما وصفه به والدنا صحيح. وإذا كان خدع الأبراخ، وألحق بهم الوبيخ، فلا يجوز أن نسمح له بخداع الشابسغ. ولذا يجب اكتشاف إحدى نقاط ضعفه، ولا أحد على الأرض ليس لديه نقطة ضعف، ونشره بين الفلاحين. يقطر معه المدفع أينما ذهب. وفي خلال بضعة السنوات السابقة لم يسمح لأحد أن يراه وحده. وحين يقرر زيارة إحدى القرى يرسل أمامه مجموعة من الفرسان، أو يغيّر الطريق الذي اختاره

دون أن يُعلم أحداً. ويقال إنه يصحب رجلاً يشبهه في الشكل تمويهاً، ولكن لا أعرف مدى صحة الخبر. والحق أنه لن يجد فيّ شيئاً حتى لو حمل طاقة إخفاء أو كان ساحراً. ثم إنه يرسل لي عتابه لأني لم أهرع إليه للتعبير عن احترامي له. ولا يكفي هذا بل يرسل إليّ تهديداته عبر أنصاره بحجة أنني أتودد إلى الروس. ينوي إرهاب الفلاحين بالهجوم على الشابسغ. إن كان الأمر هكذا فتجرباً ومدّ أنفك إلى الشابسغ! وسترى إن لم يجعلوك لا تجد أنفك إن طلبته!.. وأنا راضٍ عنهم من هذه الناحية، حيّاهم الله. - الفلاحون يؤيدونني. وأصبح يتردد في أكثر مضافات الشابسغ أنهم لا يريدون زعيماً غريباً. وهذا الكلام يصل إلى النائب ويجرح الأبراخ العنيدين.

- أهو زانه الذي لم نعد نعرفه؟..

وقف الفارسان اللذان خرجا من عمق الغابة أمام قرباتر. ومن سألّه هو الواقف إلى اليمين ذو القبعة المشعثّة الشقراء. والآخر يقول مبتسماً له ورأسه كحيّة متأهبة للانقضاض:

- رافقتك السلامة يا قرباتر، كيف تسافر وحدك؟

- ألسنا أحراراً في التجول في أرضنا؟ - تعرف قرباتر على الفارسين اللذين اعترضاه. وأجاب بسرعة مدركاً أن نيتهما ليست خيراً، راعباً في تجنب مشكلة معهما: - وأنتما يا جباغ رافقتكما السلامة!

- حياك الله يا أمير! - لان جباغ على نحو ملحوظ لأنه نودي باسمه، وبرأ نفسه من سلوك رفيقه: - يريد تومن أن يقول إن من الخطورة السفر وحيداً في هذا العالم المتوتر؛ أليس كذلك يا تومن؟

- نعم يا جباغ، أكيد. كلامك حاسم.

- لا نتكلم في ما لا نعرف. وإذا كان الأمر هكذا فلنقل لك: مع السلامة، ما رأيك يا تومن؟

- قولك يا جباغ قولي.

- نعم يا تومن، ولكن إن سمعت كلامي يا أمير فلن أدعك تتابع طريقك وحدك.

- ما أشدّ خوفكما عليّ!

- لن نكتم عنك إذ سألت ولكن لا تخبر عنا: النائب ليس راضياً عن الأمير زانه قرباتر.
- هذا هو السبب؟ تظاهر قرباتر بعدم الاهتمام بما سمع، وابتسم. - ما العمل؟ كثيرون على البسيطة نعيش وبيننا جفاء.
- تمام يا أمير، ما رأيك يا تومن؟
- صحيح يا جباغ.
- أنتما يا كبير ألم تعودا من حراس النائب؟
- أكيد، منهم، - لمعت عينا جباغ معتبراً ما قيل له امتداحاً. ثم أضاف كأنه يذيع سراً: - نقول لك لا تسافر وحدك لأننا من حراسه... النائب شرير، لا تنخدع بحمله للقرآن وتمسّحه به. لا شيء يغيب عن باله. ولكن لا أقول إنه يسيء معاملتنا أنا وتومن، ما رأيك يا تومن؟
- نعم، هكذا يا جباغ!
- أحياناً يُطلق سراحنا كما اليوم قائلاً لنا: خذوا حريتكم!..
- طبعاً يا جباغ، كي لا ننسى مهنتنا.
- إن طلبت منا يا أمير رافقناك إلى حيث تسافر، عندنا ما يكفي من الوقت. - بدت على صوت جباغ رغبته في تقديم خدمة للأمير، ونظر إليه نظرة ودّ.
- ماذا سيكون موقف النائب منكما يا جباغ إن عرف أنكما رافقتماي؟ - مازحه قرباتر بسؤال جدّي.
- من يهتمّ بالنائب الآن يا قرباتر... الرجل جاء من بلاد غريبة وأنت أمير أدغي!.. - اطلب منا ونرافقك ولو كُرمي لوالدك سفري.
- حياكم الله يا كبير. تحدثنا، وعبرنا عما في قلوبنا. وأنتما لستما بعيدين عن هموم الأديغة.
- ألسنا أديغة فلا نهتمّ بقضايا الأديغة!.. ما رأيك يا تومن؟
- أديغة، والشكر لله!
- أيها الأمير قرباتر، يا مبارك النسل، - لم يملك جباغ إلا أن يصرخ، - أراك لا تعرف شيئاً!

- أي خبر؟
- خبر الحرب!
- أي حرب؟
- يا مبارك النسل يا تومن، لماذا لم نخبر الأمير إلى الآن؟ هناك حرب يا أمير!..
إنجلترا وفرنسا وتركيا مجتمعةً تحارب روسيا!
- ماذا تقول يا جباغ؟! - حَيْلٌ لقرباتر أن الخبر يرفعه من على السرج. - من
أين جاء الخبر؟
- أخبرنا برزج. والسفن الروسية غادرت الساحل. الحرب نشبت في نواحي
القرم...

- يُعتقد أن الجيش الروسي سيجلو عن أرضنا... - قال قرباتر غير واثق.
- هذا أمرٌ مفروغ منه يا أمير. - حين رأى جباغ وجه الأمير يشحب سأله: -
ما الأمر يا قرباتر؟ ألا يعجبك الخبر؟
- لا يا جباغ، ليس إلى هذا الحد... - خرج قرباتر من أفكاره وانكسر صوته.
- لا بأس، قيل حرب لأنها حرب¹. يُسفك فيها الدم البشري.
- بالتأكيد، الحرب هي مكان سفك دم البشر... في نواحيها يسفك الكفار
دم الأديغة بما يكفي. ليروا الآن إن كانت الحرب خيراً... نحن لن نستطيع
مساعدة هؤلاء!.. تعال يا تومن، مع السلامة يا أمير! الله حريص على عباده
فاحرص على نفسك!

كان أولُ ما خطر لقرباتر حين بقي وحيداً على الطريق الجبلي لا يعرف إن
كان سيفرح أم لا يفرح، هو رسالة والده. وصل ما سماه والده "تطورات
مفاجئة" عن طريق خبر الحرب. وارتسمت أمام عينيه طريق عودة والده. أيّ
طريق للعودة سيكون؟ إن كان سيبقى في الجيش فستجبه جهة القرم ولن يأتي
إلى إقليم الأديغة. وإن جاءت به عواطفه إلينا دون ارتباط بجيش فالطريق سهل
إذ يقال إن السفن الروسية تغادر ساحل بحرنا... مهما كان الطريق فلا بد أن
يعود والدنا إلى الأديغة، من يجب أن يقودهم رجلٌ حازم مثل والدنا. والأفضل
تجهيز فلاحِي الشابسغ والناخوي سلفاً لهذه العودة. يجب أن يعرفوا بعودة

¹ تعني الحرب حرفياً في لغة الأديغة تبادل الضرب.

الموفد الذي أرسلوه إلى تركيا. وعلى رجال ضابطتنا العُتاة أن يفارقوا زوجاتهم، لا أن يجلسوا معهن يجبنون معهن الخبز المشروح غير المخمر¹! على حاغور أن يتكفل بفلاحي الشابسغ إذ يعدّه والدنا صديقاً. والناخوي هنا سنطوّعهم بطريقة ما. وسنرسل بضعة أشخاص إلى البجدوغ الذين يُشاع أنهم صالحوا الروس. ولا فائدة من السفر إلى الوبيخ. وأترك لوالدنا أمر برزج الذي خان الشابسغ، وليحلاً مشكلتهما كما يريدان! وجه قرباتر حصانه باتجاه قرية توبا على الساحل ليعود وهو يتقصّى أخبار الحرب.

IV

حلّ زانه سفري في عام 1853 أصعب مشكلة تعترض طريق عودته إلى إقليم الأديفة. لُي طلبه الثالث للتسريح من الجيش التركي. وكان لإسماعيل خروزر بيه فضلٌ في هذا، ولكن الفضل الأكبر كان لحرورية خانم. قابلتُ السلطان التركي وأخبرته بأن الوقت حان لتسريح سفري الذي تجاوز السن القانونية. وتوسّلتُ إليه.

ما إن خلع سفري الرتبة التركية حتى بدأت الصحف تنشر أخباراً عجيبة. لم يكتموا في البلاد طلب أ. س. مينشيكوف سفير القيصر نيقولاي الأول إلى تركيا. ومحتوى الطلب هو منح حق رعاية خاصة من القيصر الروسي للمسيحيين المقيمين في تركيا، ومنحه حق التدخل في الأمور الدينية والدنيوية لهؤلاء.

توقّع سفري حالما قرأ الطلب الروسي المنشور في الجريدة حدوث مشكلات. ولهذا عليه التوجه حالاً إلى إقليم الأديفة. لا داعي لبقائي في تركيا. وإن كانت المشكلة في بيتي فألى الجحيم؛ لم أسعد فيه، أقدمه لهم بنفسي مجاناً مع الأثاث الذي فيه. ولكن سفري لم يستطع تحقيق ما قرره بشأن بيته، ليس لأنه لا يسخو به، - ظهر له شارٌ غير متوقّع.

- لماذا تحسر بيتك في أدرنه؟ - لم يوافق إسماعيل خروزر بيه سفري حين سمع خبر البيت. - أشتريه منك إن لم تبالغ في سعره. أيُّ مبلغ ولو كان قرشاً مفيد

¹ هو خبزٌ في مناسبات مستعجلة.

للمسافر. أصحاب السراويل العريضة الذين نعيش بينهم لن يسقوك كأس ماء بلا مقابل. هيا قل لي كم تريد وأدفع لك حالاً إن أردت!

- سيتأخر مشروع عودتي إذا دخلنا في موضوع الشراء والبيع. وستجد الدولة نقطة ضعف غير مرغوبة في المشروع. والله لا أعرف كيف أقول لك...

- اختتم الورقة فحسب، - تظاهرت حورية خانم بأنها تقول عشوائياً، - والبقية على إسماعيل بيه.

اليوم الذي كتب فيه سفري إلى ابنه قرباتر هو اليوم الذي باع فيه بيته رخيصاً جداً، وكذلك أخبر فيه عن "التطورات المفاجئة" التي لم يكشف له عنها. ولكن أمور سفري لم تتيسر كما توقع سفري. تسبب البحث عن السفينة المبحرة إلى إقليم الأديغة والاتفاق معها في عقبات غير منتظرة. لم تكن أجرة الركوب المشكلة بل تغير الموعد الذي يحددونه له، وتوالي الذرائع المقبولة وغير المقبولة. ولم يكن سفري جاهلاً بمخاطر الملاحة في الشتاء غير أنه كان متلهفاً للعودة.

المشكلة التي نشأت بين روسيا وتركيا قبل موعد عودة سفري بأيام قضت على أمل سفري بالعودة، إذ لم تقبل تركيا طلب روسيا. وتدرّعت الأخيرة بهذا الرفض فألغت اتفاقية السلام المعقودة بين الطرفين. وبعد هذه الحادثة بيومين أو ثلاثة طُلب سفري إلى إستانبول، وأعيد إلى الخدمة في الجيش التركي.

ومع أن سفري لم يكن يعرف نتائج مثل هذه الإجراءات العاصفة فقد مال بقلبه إلى الإقليم متفهماً العواقب. ولكن حدث أن وقع في مواقف كثيرة تثقل عليه فيها رتبته التي أعادوها إليه.

لم يعد سفري إلى أدرنه بعدما أُستدعي إلى إستانبول. بل أرسل إلى جبهة أرمينيا وجورجيا معاوناً لقائد الجيش عمر باشا. وبعد مرور شهر على آخر أيام الصيف الحارة أعلنت تركيا الحرب على روسيا.

تدخلت إنجلترا وفرنسا، وبعدها سردينيا¹، في الحرب التي مضت عليها أربعة أشهر. ووجب على روسيا أن تحارب الدول الأربع. والجبهة الخامسة كانت القفقاس، إقليم الأديغة، وكانت الشيشان - الداغستان الجبهة السادسة. لم يطل بقاء جيش سفري في جبهة أرمينيا وجورجيا. وأُرسل إلى الجبهة التي كان يتمناها: جبهة باطوم في جورجيا. إن نظرت من باطوم رأيت الأبخاز. وإن نظرت من فوق الأبخاز رأيت إقليم الأديغة على طول ساحل البحر الأسود شرقاً. ولكن طرق الحرب ليست سهلة وإن بدت الأبخاز - الأديغة قريبة. إنهما مثلُ أضواء الليل البعيدة.

في أحد الأيام قال عمر باشا لسفري:

- إن كان الروس سيحاربون بهذه الطريقة فسنصل قريباً إلى الأديغة يا أمير.
- نعم يا باشا. وسيظهر هذا حين نتجاوز مدينة أخشاقاله. - لم يؤقِل سفري القائد التركي.

- هل تظن أن الروس سيعودون إلى حالهم؟

- هذا وقتهم، ولكن لا يجوز أن نسمح لهم بهذا.

- وأنا أرى هذا يا أمير، - نخض عمر باشا بقامته الثقيلة حاجباً ضوء المصباح كاملاً، وأشعل غليونه ووقف إلى النافذة. وبعد قليل تابع كلامه: - من سيجعل دخولنا الأبخاز سهلاً هم الأديغة أبناء قومك. إن تصرف النائب مُجَد أمين كما وعدنا فوحدهم ضد الكفار تحقق هدفنا في إقليم الأديغة. ولن يهدأ الشيشان والداغستان، سيدعموهم من الخلف.

أيّ هدفٍ، قال سفري، يبحث عنه هذا الثخين الرقبة الذي لا يستطيع لُقَت رأسه؟ أليس هذا هدفاً للأتراك منذ زمن بعيد، وليس هدفاً جديداً؟ ولكنه لا يتحقق لهم. إن كنتم تتأملون أن يمنحكم الأديغة ما لا يمنحونه لروسيا المتاخمة لهم فأنتم تخدعون أنفسكم. هذا سهلٌ على إنسان غريب كالنائب، ولكنهم لن يمهلوهم إلى أن يحقق هدفه. يا ربي هل وصلت الرسالة التي أرسلتها إلى قرباتر أرجوه فيها ألا يشنوا حرباً لا معنى لها على روسيا؟ ما قيمة إقليم الأديغة عند

¹ تأسست مملكة سردينيا عام 1815 واسمها الرسمي مملكة سردينيا وقبرص والقدس، لأن الأسرة الحاكمة كانت تطالب بعرش قبرص والقدس. وكانت نواة لمملكة إيطاليا.

النائب؟ هو ساحة حرب تلتقي فيها أهداف تركيا وروسيا. وهو لنا أرضنا الأزلية المختارة. أرض زراعاتنا، ومقابرنا، وحياتنا. نحن لم نسلبها من أحد، يعيشون فيها منذ بدأ العالم يتناقل اسم الأديغة.

- أراك لا تعلق بشيء يا أمير؟ - قطع عمر باشا أفكار سفرني. - ألا تنق في النائب؟

- سنتكلم في هذا بعد أن نتجاوز أخشاقاله. - غير سفرني الموضوع، وحسم موضوع النائب: - النائب لن يستطيع توحيد الأديغة.

- وما الذي يدعوك إلى هذا الكلام يا أمير؟ - وضع عمر باشا الغليون جانباً. - عليك من أجل تطويع الأديغة أن تلدك أم أديغة، وترضعك، وتسمع أغنياها في مهدك، وتحضر أعراسهم ومآتمهم.

- حقاً؟ - يستغرب عمر باشا ما يسمع، ويرفع يده بالغليون عاجزاً عن أن يتجاوز بها رقبته، ويقول: - انظر إذن إلى ما فعل نابليون لفرنسا وهو ليس فرنسياً!

- ولا تنس أنت ما فعلوا به!

- وهذه مسألة فيها وجهة نظر. - وبعد قليل أضاف ناسياً أن من يجلس أمامه أديغي: - ليفعلوا به ما يشاؤون، نحن نتأمل من النائب أن يبرّ بوعده.

لم يجد سفرني الوقت ليخوض الحرب في جبهة أخشاقاله. تحولت حياته فجأة وتحقق له ما يريد.

حين استعاد الترك أنابه جاؤوا بسفرني إلى المدينة التي عاش سنوات مواجهها معاوناً لقائد الجيش أيضاً.

كانت الفرحة التي تحققت له فوق الجميع مع أنه يعرف نية الأتراك نحوه بهذا النقل. لم يفارق سفرني جانب السفينة طوال نصف النهار آملاً أن يظهر الساحل الأديغي رغم خطورة البحر زمن الحرب. وبعد الظهر بدت قمم الجبال البيضاء مع موجات القيظ، تكاد تختفي بين السحب. وتنحدر غابات الخريف الملونة من الجبال، وتلامس الشواطئ. دار سفرني أكثر من مرة حول جانب السفينة راغباً في رؤية المزيد، وتوقف. وأفلتت يده منه، وأجهش بالبكاء، ثم شرع يدعو إلى الله متمتماً:

- يا إلهي!.. يا أرضي الأديغة! لتتلاق على خير بفضل الله! لتعيشي دائماً حرة سعيدة تُظلك سماءك وشمسك. ها هي الشابسغ، إلى يمينها الوبيخ. ومن الجبل الغابة تبدو أرض الأبخاخ. وإلى يسارها على السفح البجدوغ. وإذا نظرت إلى شرقها فأرض الجمكوي، وتبتعد أرض القبرتاي والبسلني... يا إلهي أيمكن أن أرى يوماً أرض الأديغة حرة، تعيش في دولة واحدة؟! وإن لم نشهدها نحن فدع أطفالنا يشاهدون!

يقف سفري على حافة السفينة يتمتم ولكن قلبه وروحه في أرض الأديغة التي تقترب شيئاً فشيئاً. وأينما نظر رأى طرقاتها الضيقة وأنهارها السريعة وقمم جبالها وشلالاتها. والمئات من قراها متناثرة على ضفاف الأنهار. وعلى سفوح الجبال. ومواقدها على المرتفعات تمرق السحب البيضاء. بدت أنابه.

البيوت الحجرية المتهدمة المتباعدة في منعة المدينة ترتفع فوقها مئذنة الجامع. وهذا الجامع كان بناه محمجري والدُ سفري ولا يزال قائماً. ومن الطرف الآخر تقوم قرية قُماتر ما إن تنحدر من المرتفع، عند مرعى مُقف. وهناك قرى أخرى للناتخوي متناثرة في الوادي.

تذكر سفري أنهم ودعوه بثلاثمئة فارس وأرسلوه إلى تركيا من أنابه. وقد مضت على الحادثة سنوات كثيرة. ومنذ أكثر من ثلاثين سنة لا يزال الأديغة يحمونها في وجه الرماح والرصاص الروسي...

نتهم روسيا، قال سفري، ولكن من الذي تسبب في كل هذه المشكلة؟ هؤلاء الذين أحمل ربتهم، الأتراك!.. لم يكف ما فعلوا بنا حتى أقود جيشهم وأعود إلى هنا. شعر سفري بألم في قلبه، وغدا يكره نفسه لا يطبق ما يقول وما يفعل. بِمَ يُفْضَلُ الأتراك الروس؟ يريدون أن يضيفوا بلاد الأديغة إلى الشرق القريب. الروس الآن في موقف حرج. ليس من السهل الوقوف في وجه عدة دول متحالفة، بالإضافة إلينا نحن أيضاً. هل أعيدُ طرح موضوع الصلح الأديغي - الروسي عليهم ثانية؟ من يدري ربما يرضخون الآن! وإلى وقتها تُعنى نحن بأمورنا. ونتوحد تحت وطأة المشاق التي واجهناها، ونتضامن. علينا التفكير في عملية تثبت للروس أن الأديغة لا ينوون شرّاً لهم.

لم يكن على ميناء أنابه كثير من البشر. وحين رست السفينة كانت شمس الخريف في طريقها للمغيب. وأينما نظر سفري لم ير شخصاً يرتدي زياً أديعياً بل كل من يراهم جنودٌ يلبسون لباساً تركياً. كلٌّ يحاول تنفيذ ما كُلف به. يتناقلون الصناديق، ويقطرون المدافع، وتدنو عربات المسافرين، وتبتعد. ينزل الجنود الأتراك من السفن بانضباط، ويدخلون المنعة.

وفيما يراقب سفري الجنود الأتراك يتمثل له الجيش التركي الذي كان يخدم فيه قرباتر، والذي استقدموه من تفليس. وكان سفري وقتها على ظهر ذاك المرتفع برفقة عدد من الفلاحين... ما أبأس ألا تكون حراً بأرضك! ارحمنا يا ربّ إذ أيُّ عالم تيسر وقع فيه الأديعه الذين بقوا بلا مأوى؟! أنت الأمل الوحيد الذي بقي للأديغي البائس... ها هم ثلاثة فرسان أديعه في المرتفع الذي كان عليه سفري. وتبعهم فرسان آخرا؛ من هؤلاء يا ترى؟ أليكون بينهم من أعرفه؟.. لا أرى أحداً.

ما إن وضع سفري قدمه على أرض الأديعه حتى سجد على ركبتيه غير مهتم بالضباط الأتراك الذين استقبلوه. يقبل الأرض، ويستهل إلى الله. - من هذا الذي يحمل رتبة تركية ويحمي الأرض الأديعية؟ - قال أحد الفرسان الأديعه، ودلّ رفاقه عليه.

- والله لا أعرف... - قال كبيرهم، ثم صرخ، - إن لم أخطئ فهو الأمير سفري!..

- صحيح، حقاً! - تعرّفه فلاح آخر.

- هيا ليُسرع أحدنا ويُخبر قرباتر! - قال الأكبر بين الفلاحين، ولجم حصانه. - تعالوا نسلم على الأمير زانه سفري!

تصير سفري الأيام الأولى حتى لا يقول الترك إنه هُرع إلى قريته حاملاً حطّ الرحال على أرضه دون أن يعني هذا أنه لم يقابل أحداً من الأديعه. في اليوم الأول أسرع إليه، بعد الفرسان الفلاحين، ابنه قرباتر. وهل قليل ما يتبادل الأب والابن من أحاديث وقد مضت سنوات لم يلتقيا فيها؟! سهرتا حتى أواخر الليل. وتطرقا إلى كثير من الموضوعات، وروى كل للآخر أفراحه وأحزانه. واثارت أمامهما قضية الأبراخ أكثر من قضية الوبيخ والناخوي. وطوال السهرة

لم يغيب النائب عن الحديث. كان الأب والابن يشعران بالإهانة من توطيد مُجَّد أمين أساساً متيناً بين الأَبْزَاح. وفكَّرَا دون مبالغة في الصراحة في طريقة التصدي له.

وبعد قرباتر لم يكن الفلاحون الذين أتوه بداعي التحية والفضول قليلين. وحدث أكثر من مرة أن لم تتسع الغرفة لزواره فقابلهم خارجها. وكان يخبرهم بأنه سيشارك في أي مؤتمر للأديغة.

كان مستقبلو سفري فور خروجه من أنابه لا يُحْصَوْنَ مع أنه لم يُخْبِر أحداً أنه سيزور قريته قماتر، حتى المضيق لم يتسع لهم. ومن على المرتفعات أكثر. يستلّون خناجرهم، ويطلقون من مسدساتهم، فيشبعون الهواء برائحة البارود.

قال سفري: أمرٌ سارٌّ أن يحترمك كل هؤلاء الفلاحين، ولكني شخصياً والأديغة كلهم لسنا من أصحاب الحظ السعيد. كانت عودتي مقبولة لو لم أصحب الأتراك. ولكن مهما كانت طريقة عودتي فأنتم مشكورون على أنكم لم تنسوني. لن أتسبب لكم في الإهانة، ولن أسمح لأحد أن يهينكم.

الفلاحون يشيرون إليه باليد ويصيحون:

— أهلاً بك يا سفري!

— تفضّل يا أمير، أطلّت الغياب عنا!

— سلاحك سلاحنا يا أمير!

أيّ سلاح تتكلم عليه أيها المنحوس! لا يُعْجِب الكلامُ سفري. ساحي أنا هو سلاح من أحمل رتبته، فما حاجتك أنت إليهم؟ الآن فحسبُ فهم سفري أنه أخطأ إذ سافر لابساً رتبة الضابط التركي. وكانت هذه الفكرة خطرت له قبل أن يرتدي ملابسه، ولكنه عاد وغلب فكرة اللباس العسكري لأنه لم يجد من اللائق أن يقول الأتراك إنه خلع ملابسا قبل أن يصل إلى بلاده.

ليس كلُّ رفاق سفري يحبونه. كثيرون يقولون من وراء ظهره: انظروا هذا الشخص ما أكبر رتبته رغم أنه غريب عن أصحاب الرتبة. وقد عيروه شخصياً في تركيا أكثر من مرة صراحة. ولم يعجب الكثيرين إرساله إلى أنابه بدلاً من أن يكون في قلب المعركة.

- لماذا يا زانه جئتنا الآن بالأتراك أصحاب السراويل العريضة، ألا يكفي الروس؟.. - صاح به أحد الفلاحين الفرسان من على المنعطف.
- انتفض رأس سفري لما سمع. ولكن ما قاله الفارس التالي جرح قلبه:
- ألا يكفي يا زانه ما جلبت لنا من دمار على يد الترك.
- تظاهر سفري بأنه لم يسمع تلك الكلمات المهينة ولكنه لم ينسها حتى وصل إلى قُماطر إلا في الوقت الذي احتشد فيه أهله لاستقباله. حتى وهو في المضافة لم ينس تلك الكلمات الجارحة.
- في وقت استراحة الأمراء المعتادة بعد الظهر انقطع الزوار وبقي الأب والابن وحدهما، صرّح سفري بما يقلقه:
- اصطدمتُ يا ولدي بما قلته قبل أيام!
- ماذا يا والدنا؟ - لم يفهم قرباتر.
- هناك فلاحون لا يعجبهم ما يفعل آل زانه.
- هل لاحظت على الفلاحين ما يدعوك إلى هذا الاستنتاج؟
- ليس لاحظتُ فحسب يا أمير، - وضع سفري النبرة على كون ابنه أميراً، وفكّ بعض أزرار معطفه يستزيد من الهواء، - سمعت بنفسي... عرض لي أحدهم قائلاً: "ألا يكفي يا زانه ما جلبت لنا من دمار على يد الترك؟"
- من هذا الثرثار؟! - احتدّ قرباتر.
- والله لا أعرف من هو... كانوا عدداً غير قليل من الفرسان. ثم إن القائل لم يكن فرداً، تجاوب معه رفاقه.
- أهانوك يا والدنا، لن أقبل هذا الكلام من أحد كائناً من يكون!
- كفى!.. - تنهد سفري عميقاً، ثم أضاف: - وهذا الكلام نتيجة لبعض آلام الفلاحين...

V

توطّدت جذور مُجد أمين أكثر من ذي قبل بعدما بدأت الحرب الروسية - التركية. تحقّق ما قاله في شتاء العام الماضي، في المؤتمر الأعلى: بدأت الحرب! لا حديث في إقليم الأبراخ إلا ذكاء النائب ودقة ملاحظته. وكل من يُطلب إليه الحديث في المؤتمرات يبدأ حديثه ويُنتهي قائلاً: "ملاحظة مُجد أمين عالية،

وينتقد ما يقول. سنبقى تحت علمه ونخلص له". ويعرف مُحَمَّد أمين في نفسه أن قوته تزيد يوماً عن يوم. وهو يلاحق موضوع تأليف جيش من الأبراخ وتقويته دون أن يُطربه الشئاء فيرتاح على كرسيه. ولم يترك منذ بدأت الحرب قرية أبراخية لم يدخلها ويعقد فيها اجتماعاً. وكذلك طاف أرجاء الوبيخ. استقبل برزج وجماعته النائب استقبالاً حسناً في الوبيخ ولكنهم لم يعجبوه. وبدا له أنهم يكتمون عنه شيئاً. وتودد إليه جيمس وابتسم في وجهه على غير عادته. وتناوب الفرسان على تشييعه إلى حدود الشابسغ. لا يثق بهم، هم في وضع غير مفهوم.

سأل جمه النائب وكأنه يعرف ما يكدر مزاجه:

- ما الأخبار في الوبيخ حيث كنت؟

- الفلاحون الذين أدعو لهم ألا يضيع أجرهم، في عزهم. - بدأ النائب حديثه بامتداح الفلاحين على غير عادته. - هم فرحون لأن الحصار فُكَّ عن البحر. وبفضل الله انتعشت الأسواق البحرية. افتقر الفلاحون جداً بسبب احتكار الكفار للسوق.

- هذا حسنٌ يا محترم. ليسوا وحدهم بل نحن أيضاً. فلاحو دخاباه أيضاً يتطلعون نحو أسواق البحر. حملت الإنجليز والترك والفرنسيين على افتتاح الحرب الثانية أيها النائب، يا من جعل الله يومه مئة، وأنطقه الله دائماً بالخير. ومنحتنا فرصة للراحة.

- وهذه الدول يا أفندي معها سردينيا. - أضاف النائب طرياً للثناء عليه. - لا تنسوا فضل أيٍّ من فاعلي الخير!

- نعم، قيل لنا إن سردينيا وقفت معنا.

- وقفت معنا لأن الله أمرها أن تفعل. لا تنس فضل الله يا أفندي.

- نعم يا نائب، نعم. فضل الله العلي الذي يتوسلون إليه ولا يتوسل هو إلى أحدٍ كبيرٍ. - أصلح جمه كلامه، ثم سأله: من هي سردينيا؟

- كيف أشرح لك يا أفندي؟ - اضطرب للسؤال غير المنتظر، ولكنه كتم جهله وماطل في الإجابة. - لن تفهم عليّ ولو شرحتُ لك، وإن حدثتُ لك

موقعها لم تعرف أين. ولكنها دولة قوية لا يُعلى عليها. واضحٌ أنها ليست أصغر من تركيا وإنجلترا وفرنسا. أنا متأكد من هذا... هل فهمت يا أفندي؟

- نعم يا نائب، دولة كبيرة. فهمتُ، رضي الله عنك!

- هذه هي إن فهمت... - أضاف النائب بعد وقفة قصيرة إلى ما كان يقلقه: - نعم، كنت في الويخ... ولكن لا ثقة لي يا أفندي بزعيم الويخ حيث كنتُ.

- الله، الله، ماذا أسمع في هذا العالم المتوتر؟!

- لم يكن الأمير برزج من هذا النوع. تحول إلى هذا الموقف بعد أن عاد الضابط التركي سفري!

- الحق، هذا لا يجوز، ما كنتُ لأتوقع هذا من برزج.

- إذا كان برزج استدار نحو آل زانه معتقداً أنهم أقوىاء فهو مخطئ! - توهجت عينا النائب وقدحتا شرراً. ثم تعكرتا وقد زال عنهما كل الغضب فعادتاً صفراوين - سوداوين، وأضاف متكلماً إلى نفسه، مُسمِعاً مَنْ أمامه: - هؤلاء الأديغة أناس عجبيون يظنون يتنازعون القيادة!

- نعم يا نائب، أصبت الحق! - استعجل جمه لا يكتفي بالخد الذي لطمه النائب فأتبعه بالخد الثاني. - نعم، هذه حالنا نحن الأديغة... وأما زانه الذي ذكرته فيقال إنه لا يقبل أن ينتزعوا منه الرتبة التركية... ويقال إنه يتكبر على قومه... ويقال إنه يساوي نفسه بك...

- إن تكبر على جماعته ضرّ نفسه. وإن قارن نفسه بي فهو على خطأ.

- قلت: يقال، - خاف الأفندي، - ولست القائل.

- أياً كان القائل يا أفندي إن كان يساوي نفسه بي فهو يضّر نفسه. إذا كان الترك أعطوني لقب الباشا فهو الذي في جيشهم، لا أنا. ولكني أقول: ليس الآن وقت الكلام في هذا الموضوع.

- هذا بديهي يا محترم، - ضغط على كلمة "محترم" مرة أخرى، - ستجد الفرصة. لا تضع عقلك في عقول آل زانه. هؤلاء لهم سلوك خاص بهم طوال عمرهم، ولن يُطلعوك على سرهم.

تذكر النائب لقاءه قبل أعوام بزانه سفري في تركيا. كان سفري استقبله بترحيب كأنه يعرفه طوال عمره. وجلسا معاً على موائد الأغنياء غداءً وعشاءً. وعرفه على بعض الناس المتنفيين. وتكلما على قضايا أدوية وإن دون تعمق كبير. واصطحبه إلى بيت خروزر. وقدمه إلى توفيق بيه ومحمد بيه وآخرين. ودبر له لقاء مع عمر باشا. وطوال هذه المدة كان محمد أمين يستغرب عدم سؤال سفري عما يجري في بلاد الأدوية. بل ما كان يجد تفسيراً لعدم سؤاله عن أخبار أسرته. ولما لمح له مرة بأخبار قرباتر ابتسم وغير الموضوع ولم يلحظ عليه أي انفعال. وغادر محمد أمين تركيا وقد فهم أن سفري لا يثق به مهما حمى أرض الأدوية وحارب الروس.

- آل زانه لا يسمحون لك بالنفاذ إلى أعماقهم، - صحا محمد أمين من أفكاره، - هذه معلومة عرفت في تركيا منذ زمن بعيد، ولكني أخفيتها... والآن، - ابتسم النائب، - سيكون على سفري أن يتكلم في قضايا الأدوية شاء أم أبى. أين سيذهب وماذا سيفعل؟ سترى يا أفندي إن لم يبادر فيأت إليّ. سيهرع إلى الأبرار طالباً النجدة ضد الكفار. نعم يا أفندي، نعم، سيأتي مع ابنه قرباتر وإن كان الابن مغروراً. يا حسرتي ما إمارة سفري؟ اعتبروه غير حي، لا يمكنه الاحتفاظ بأنابه بجيشه التركي المحدود. ماذا تظن يا أفندي السبب في دفع الأتراك له أمامهم؟

- ربما لا يستحق الموقف رجولة... - قال جمه بحذر شديد وهو لا يعرف إن كان جوابه صحيحاً أم لا.

- نعم، صحيح، لم تخطئ. لا يستحق رجولة. أي رجولة سترفعها في وجه من تجاوز السبعين؟ يقال إنه ينام جالساً. هذا وضع زانه إن كنت سمعت به. بلغوا هذا للفلاحين!

- سألح للمصلين ما إن أصل إلى دخاباه، - ارتعب إذ وجد " سألح " قليلاً، - بل سأصارحهم به.

- لا حاجة إلى التصريح، بل لمخ لهم. هذا يا أفندي ليس عجباً، متى كبرت فستنام. وستجري لك أمور أخرى. ليست هذه المشكلة. الأتراك أعادوه إلى

- أنا به قائلين: الأديغة يحاربون معنا، احموا ارضكم. الأتراك خبثاء، وأذكيا. فعلوا به ما يستحق تماماً. سنرى أين تصل رجولة زانه.
- نعم، نعم، سنرى يا نائب... - لا يتوقف جمه، ويهز رأسه.
- اسمع يا أفندي، هذه ليست مشكلة. ما وضع الشرطي نيكراس تيم، وما أحواله؟
- والله لا أعرف كيف سأسرد عليك وضع الشرطي...
- لماذا؟ ألسما على وفاق؟
- لا، لسنا مختلفين.
- ماذا إذن؟
- والله لا أعرف كيف أعبر عن هذا.
- لا تداور يا أفندي. - شدّ النائب قامته وقد جحظت عيناه.
- نيكراس اسمه ونسبه سيّان...
- هذا كلام مختصر. ماذا وراءه؟
- لا أثق به يا نائب.
- أفصح عن مرادك!
- أظنه يتجه إلى الكفار قومه.
- أتظن أم هناك ما يشهد على هذا؟
- أسمع بعض الأشياء.
- وأنا سمعت أشياء عن جمه، ولكن لا آتي على ذكرها!..
- الله، الله! - ارتعب جمه. - الله شاهدي على إخلاصي للنائب.
- الكلام على نيكراس، نيكراس...
- نيكراس كان عند ابنه في قلعة شبح.
- أعرف.
- لا أعرف غيره. لن أتأخر في إخبارك يا نائب متى عرفت شيئاً عنه.
- هل صحيح أن نيكراس يتخذ من تسي صديقاً؟
- أكثر من صحيح... يغتابانك يا نائب!

جلس مُحمد أمين بعض الوقت وقلبه يغلي. ثم نهض، ونهض معه جمه، ونظر بعض الوقت مديراً رأسه في وجه النائب الذي يذرع أرض الغرفة. وانتظره متوقفاً أن يقول له شيئاً. ولكن النائب ذرع أرض الغرفة مجدداً بضع مرات دون اهتمام بالأفندي، وجلس. ثم قال له:

- اجلس، ما فائدة وقوفك؟ هذه هي الحال، هل ترى ما يحدث؟ كلم النائب نفسه، ثم سأل باختصار: - هل تشهد يا أفندي على ما قلت لي؟
- أشهد يا نائب.

- هذا هو يا أفندي... - بدا على صوت مُحمد أمين بعض الرقة. - عيب أن يغتابك تائبك الفلاح. - أنا أقف في وجه رصاص الكفار بكل إخلاص. أتلقى سيوف القوزاق بجسدي. وأزرع فيهم رحمة الله... - تورّد خدّا النائب، وقال والشرر يتطاير من عينيه: - من الذي جعل من نيكراس الكافر شرطياً؟!
- الفلاحون يا نائب، الفلاحون.
- والكافر لكم ذقن بغس حقاً؟

رفع جمه رأسه إذ يسمع الخبر لأول مرة. بغس الفلاح واحد من أشد المواظبين على الصلاة. ويقف دائماً على باب المحكمة. ومع ذلك لم يشك له. وفي الوقت نفسه هو ونيكراس صديقان حميمان! يدور معه متعلقاً بذيل حصانه. ولا يفارق مضافته.

لم يكن هذا ما يريده رئيس محكمة دخاباه. كل إنسان غرضة لحادث ما. حتى الصديقان يجري بينهما ما يتسبب في عدائهما، ثم يتصالحان. قال جمه: من أين يعرف النائب ما يحدث في كل قرية؟ من الواشي في دخاباه؟ هذه أعقد مشكلة. لا أقول إن الشرطي لا يستحق ما يقال في شأنه ولكن من وصل إليه سيصل إليّ غداً. والله هذا النائب عجيب. يعرف كل ما يحدث في الأبراخ، السرّ منها والعلن. والله العملُ معه صعبٌ وأنت لا تملك أي حرية في الحركة... وما كان يفكر فيه النائب شيء آخر. لم ينس الخطوات الأولى من وقوف أصحاب النفوذ بين الأبراخ إلى جانبه لنشر الدين، وترسيخ جذورهم فيه. ولكنه كان وقف إلى جانب المتنفذين ونخبة الفلاحين وعامتهم من أجل أن يصبح زعيم البلاد. ولم يُخطئ في هذا، تحقق له ما أراد بمعونة العامة من

الفلاحين. ولولا الفلاحون الذين يشتهدون حريتهم لكان مصيره مصير النائبين اللذين سبق أن أرسلهما شامل، وأجبرهما الزعماء المحليون أن يتحولوا إلى "أفندية" فحسب، أو ما وجدوا عظامه في الأبراخ كلها. قال النائب: شكراً للفلاحين الذين تفهموني. وأنا ألي لهم مطالبهم، ويطورون مشاريعي، ويحمونها. - ما قلته أيها النائب في شأن الفلاح بغس أسمعته للمرة الأولى. - وكرر جمه ثانية: - والله لا أعرف.

- نحن نعرف كثيراً مما لا تعرف... البلاد الخالية من قولك وفعلك صعبة القيادة. متى سهوت عن المشكلة الصغيرة خلقت لك مشكلة كبيرة. كم قرية تشترك في المحكمة التي أؤكلوا أمرها إليك؟ - ثلاث وخمسون قرية.

- عليك أن تَبقي القرى الثلاث والخمسين تحت رقابتك. لا حاجة أن تخالطهم كل يوم من أجل قضايا تافهة فيكرهوك. ومتى خالطتهم اترك بينهم هيبتك، ولا تُرهم ضعفاً منك. أُرهم ولو لمرة واحدة رجولتك وهم ينتقمون من الظالم لظلمه. وحينها متى دخلت القرية مرة أخرى ستترجف رُكْب أولئك الذين كانوا يحفظون بعيونهم. ولا يعني هذا أن تشن الحرب على الفلاحين. المتنفذون أمثال تسي حاترباي هم من لا يجوز غيابهم عن رقابتك. واحذر من نخبة الفلاحين فهم مهتاجون دائماً لأنه ليس لهم مكانة في الحياة تتناسب مع ما يملكون. والبحث عن طريقة مرائية للتقرب من عامة الفلاحين. دعهم يشتهدون حياة النخبة بسياسة العصا والجزرة: تمد لهم ثم تنتزع منهم... على ما يبدو من كلامك فالفلاحون هم من انتخبوا نيكراس تيموفيه شرطياً. عاد مُجد أمين إلى موضوعه الأول.

- نعم يا محترم. هذا هو الاسم الروسي الحقيقي: تيموفيه. الفلاحون يدعمونه، لا أعرف ماذا فعل بهم.

- ليس نيكراس تيموفيه حسب كلامك محروماً من الرجولة والحكمة. - ليس إلى هذا الحد. ولكن لماذا نظلمه، عنده رجولة، ويعرف مكانته، ويحابه الروس الذي هو منهم، بل يبالغ أحياناً.

- احذر يا أفندي من الشرطي نيكراس، احذر. تسي صديقه، وآل زانه أقرباؤه.

VI

بعدما زار تيم ابنه رفعت وغضب عليه قضى عدة أشهر وقد نَفَس عن ضيقه. ونادراً ما كان يخطر له. ولم يكن هو السبب في تذكُّره، بل سماي التي لا يفارق اسم ابنها فمها. وقد نهرها أكثر من مرة.

من الصعب بترُّ إحدى الأصابع الخمس. أيَّ حرية يملك تيم؟ تودد إلى ابنه بكل وسيلة ولم يجد علاجاً لحالته. ومهما أرسل إليه من وسطاء، ومهما حدّثه هؤلاء، ومهما توسلوا إليه، لم يحصلوا منه على كلمة نافعة. والأم قامت بكل ما تقدّر عليه. زارت قلعة شبج خفية عن الرجل، وكلمت ابنها، وترجّته، وتوسلت إليه، وبكت، وربّبت على كنفه، وأرهبت بعواقب خطيرة، وفي النهاية لم يقبل أن يعود إلى القرية التي خرج منها ويصالح الأديغة. ولم يكف كل هذا فأوصت له بالحبّ، واستشارت العزافين، وأقامت حفلة دعاء عجائية لأجله، وسقته شراباً ضد السحر. وفي النهاية لم يردعه شيء.

عاش تيم رافعاً رأسه منفتح العينين خلافاً للسابق إذ لم يعد هناك ما يخفيه عن الناس. ولما أطلع الفلاحين على ما قاله لابنه في قلعة شبج كفّوا عن السؤال عنه.

هذا تيم حين يكون بين الناس. ولكنه حين يبقى وحده لا يعرف أين يذهب برأسه من هجمة الأفكار عليه. الإهانة لا تدعه يستقرّ. والحبُّ الوحيد وغير المسيطر عليه أبعد عنه ابنه الوحيد.

تيم اليوم وحده. يعود من أنابه، من لقاء سفرني الذي لم يره منذ سنوات طويلة.

أقليل ما تتكلم عليه حين تجلس طوال النهار، وتُتبعه بالليل؟ ستطرح أخبار مختلفة على بساط البحث، وتغيب. وكما كان الأمر في وقت ما، حين تعود عشر سنين أو عشرين إلى وراء، لا تزال تنتصب أمامهم قضية الأديغة الشاقة تتغير تبعاً للزمن، ولكنها من جهة أخرى على حالها بلا مخرج ولا نهاية. يمكنك أن تعبر السحب الجبلية التي لا نهاية لها بحذر شديد ولكنك تصطدم بحوافّ

الصخور، فتجرحك، وتسقط في الوادي. وقضية الأديغة شبيهة بتلك السحب الجبلية اللامتناهية.

سفري رجل عاقل، يقول تيم، يا للحسرة لم يكن من حظنا أن يعيش بيننا ويقودنا في السنوات الصعبة على قضيتنا. تأمرت الدولتان الشريرتان فانتزعتاه من بيننا ورمته في تركيا. ونحن الأبخاز جاءنا نائب يرمي العداوة بين أعراق الأديغة قائلاً: سنحارب الشابسغ، سنحرق الناختواي، ونهاجم البجلوغ. يلمس المصحف، ويرفع يديه إلى السماء، ويُقي الفلاحين في جوّ التوجسات، ويضع نخبة الفلاحين في مجاهدة مع المتنفيين. ويسيطر التوجس وعدم الثقة والخوف على البلاد كلها. وعلى ما أرى لا يُكَنّ سفري الودّ للنائب. أسمع جراندوقه ذكره أكثر من مرة غير أن سفري تجاهله. وحين استمرّ زعيم الوبيخ في ذكره احتج حجمقهو أسلانج. برزج يدير وجهه حيث فائدته. تردد بين الأبخاز والشابسغ إلى أن عاد سفري. ولو أنه توقّع عودة سفري لما سمح للنائب أن يدخل أرض الوبيخ، بل أن يقترب منها، ولما عرفه على الضيفين الإنجليزيين. من حسن حظنا أن سفري عاد إلينا. لا أقول هذا بسبب رتبته التركية لأنه إن حملها اليوم فسيخلعها غداً. ومن يهتم بهذا الموضوع! سيعود إقليم الأديغة إلى وعيه، وسيعيد إليه شيئاً من اللّحمة. وستعيد حرب القرم روسيا إلى وعيها كما يقول سفري. وتحمل روسيا على النظر إلى العالم بعين أخرى. أئن يتورعوا في الوقت الذي تدور فيه الحرب وراءهم؟ ولا أظن القوزاق عندنا سيتصرفون كالسابق. لا يخطئ سفري في هذا. الحق ما كنت أريد أن أقول هذا ولكن ما يفعله أبناء قومي الروس ليس صحيحاً. ماذا يضيرهم إن تركوا الأديغة، الشعب الصغير، يعيش في سلام؟ والمرحوم والدنا فارق الحياة وهو يردد هذا الكلام. ونحن لا يفارقنا الهم، وأولادنا مشتتون.

انتصب رفعت أمام ناظري تيم. زفر بصوت مسموع. تألم قلبه من جديد بسبب الكلمات التي قالها لابنه، ليس لأنه ندم عليها بل يشعر بالإهانة من أن يحدث له مثل هذا من ناحية ابنه. ما كان انتسابه للجيش الروسي مشكلة لولا أنهم يحاربوننا. أن تترك من يحمون أرضك وتنضمّ إلى من يسلبونها منك يتجاوز حدّ الخيانة. وربما كان هذا هو السبب في أن اليتيمة الروسية التي تزوج منها لم

تعش طويلاً. أنا راض عن الله من هذه الجهة، حقق لي مرادي لولا أنه لم يُعد إلينا الصبي الوحيد. وحين أرسلتُ إليه أمه رفض أن يعطيها الولد متعهداً بتربيته. وكنت طلبتُ من قرباتر وماريا أن يترجّياه ، ولم يرسله إلينا. هو ليس مهماً لي فمن يسأل عن رفعت، تحول إلى روسي، وضاع منا، ولكن لا أريد أن يضيع الصبي الصغير بين الموجيك. لو حصلنا عليه لبدلنا كل حبنا له، وصار مصيره مصير آل نيكراس. يا إلهي، ارحم صغيرنا ولو أن أمه روسية، ولين قلب ابننا الذي تحول إلى روسي فيعطينا الصغير. سنريه مؤمناً بك، متفهماً مأساة الأديغة. ولكن لا تؤاخذني إن لم يتحقق هذا فسأعيد الصبي الصغير إلى منزلي مهما كانت العقبات، ولو استعملت السيف. ولو وقف والده في طريقي - اغفر لي ظلمي - لما تأملت لما أفعل به.

وصل تيم وقت إشعال الأضواء إلى ظاهر القرية. وما إن ألقي نظرة على القرية المتناثرة في المضيق حتى تعرّف بيته، وفرح قلبه لرؤية ضوء مصباحه. ليس هناك ما يعدل بيتك. وعلى كل حال لا يغترب من لن يعود يوماً إلى باب داره، ويترجل عنده، ويتوقف على مسطّبه! ولم يكن تيم وحده بهذا الشعور فقد بدا الانفعال على الحصان فحثّ الخطأ.

حالما سمعت سماي وقّع الحوافر هُرعت خارجة من الغرفة واستقبلت زوجها:

- يا تيم، عندنا فرح، عاد رفعت، وجاء معه بالصبي!

- حقاً!.. - قفز تيم من السرج، ورأى الحصان الواقف أسفل الجدار.

- أتوسل إليك يا تيم، - وقفت الزوجة ضارعة أمام زوجها، وهمست في أذنه،

- وأستحلفك بالله وباسمي، وكُرمي للصبي، أن تتعامل أنت وولدك بالحسنى.

جاء إلينا من نفسه إذ اشتاق إلينا.

عاد إلى تيم مزيد من الوعي ريثما عبّرت سماي عن رجائها. وفكّ متمهلاً حزام السرج مخفياً عن المرأة الفرحة التي نبتت في الصدر. وبعد أن رفع السرج وعلقه على السور سأل وهو يقترب من الحصان الآخر:

- لماذا لا يزال هذا الحصان مسرجاً؟.. - فكّ الحزام عن بطن الحصان وخلع السرج، وعلقه كالسرج الآخر. وقال للزوجة: اذهبي وادخلي البيت. سأسقي

- الحصانين... - ثم صاح وراء سماي: - هذا الذي عاد إلينا لماذا لا يخرج؟ ألا يعرف أبي عدت؟
- يعرف، حالاً!..
- خرج رفعت وأمامه الصبي البالغ تسع سنوات تقريباً. وتبعهما سماي قلقاً على الأب والابن.
- ركض الصبي إلى جده كأنه يعرفه طوال عمره. وخطف تيم الصبي وضمه إلى صدره. وبعدما شَمَّ كلَّ منهما رائحة الآخر سأله:
- هل عدت إلى بيت جدك يا ولدي؟
- تأمل الصبي وجه جده. وابتسم كمن يقول: لا أفهم ما تقول.
- الصبي لا يعرف الأديغة... - استعجلت سماي.
- سنعلمه إن لم يكن يعلم. أليس كذلك يا ولدي؟ - سأله بالروسية. -
- حسناً إذن ما اسمك يا ولدي؟
- اسمي أنا، نظر الصبي نحو والده، - أنا اسمي ألكسي نيكراسوف، وأنت؟
- أنا ستناديني: تات. تات تيم، هل فهمت؟
- نعم فهمت، غير أن بابا قال لي إن اسمك تيموفي نيكراسوف.
- حدث أن نادوني به أيضاً. ولكن ينادونني هنا: نيكراس تيم. وأنت ستناديني: تات تيم. ومنذ اليوم ليس اسمك ألكسي، سنناديك: عليمبيج، وبالروسية: أليمبك نيكراسوف.
- ولكنهم ينادونني: ألكسي!..
- نحن، جدتك وأنا، سنناديك عليمبيج. هذا كان اسم أحد اصدقائي. نظر تيم نحو ولده، - مات هذا الصديق في الحرب.
- هل سمعت يا بابا؟ اسمي سيكون عليمبيج...
- هيا يا رفعت إسق الحصانين وأطعمهما شيئاً من الشوفان. - أمر تيم ابنه دون التوقف عند العواطف. ثم أمسك بالصبي وقال له: - تعال يا عليمبيج سأريك الخرفان ريثما تُعَدُّ نانا المائدة. هل أطعمتك نانا يا ولدي؟ - وأعاد السؤال بالروسية.
- نعم، أطعمتني من "الشالم".

- ما أطعمتك إياه نانا نسميه بالأديعية "سلامه"
- ماذا يسمون الحليب بلغتكم يا تات؟
- نناديه "حليب" لأن لغتك لغتنا.
- فهمت: حليب.
- أحسنت يا ولدي!
- ما أعجب ما أرى، - هرع عليمبج أمام جده إلى حظيرة الخراف. - ماذا تسمون هذه الحيوانات الصغيرة؟
- هذه نسميها "خراف"

...

قدم رفعت للحصانين الشوفان وهو يستمع إلى أقرب شخصين إليه. يسره أي شيء يسمعه في الدار مما يذكره بطفولته. تبين أن علاقته هو ووالده غير ما توقع. وهذا ملاءه سروراً واعتداداً. وكان فرحاً بسرعة تألف الصبي مع جده وجدته رغم أنه كان يعرف مسبقاً الترحيب الذي سيلقه الصبي منهما. وكان يعرف أن ألكسي لن ينفر منهما. رُبي في منعة شُبح والجنود يتحدثون إليه. وكان هؤلاء الجنود مصدر فرحه بعدما فقد والدته في العام الماضي. وهؤلاء علّموه الكلام وأنشؤوه على الحرية.

تابع رفعت الشخصين اللذين يدخلان الغرفة. وسيطرت عليه عاطفة الأسرة والقرابة التي لم يعهدها في نفسه كل هذه السنين. وآلمته الذكريات الباردة التي هجمت على رأسه. ولكن الدنيا ليست مرّكة بكاملها من الأحزان. الأمل والتطلع للأحسن هما ما يمنحان الإنسان القدرة على الحياة. حسناً فعل إذ سمع نصيحة راكيتوف أن يعيد الصبي اليتيم إلى دخاباه. ووافقه حاغور نور مُجد. ولامه على تفكيره بوضع الطفل في الميتم وجده وجدته على قيد الحياة، وقال له: لن أسمح لك أن تفعل هذا ولم يبق غيري في العالم!

شكراً لأصدقائي، قال رفعت، هل ننجو من حرب القرم التي نتأهب للسفر إليها؟ حسناً فعلتُ إذ أعدتُ أليشكا إلى بيت أهلي. المهم أن يسلم أليشكا وليُسَمِّه والدنا أيّ اسم يشاء. سيربانه ويُنشئانه، ولكن لا أعرف كيف أخبرهما

بوضعي أنا. كان عليّ أن أعهد بأليشكا إلى أمي وأعود إلى شبح دون انتظار والدي. وانظر الآن ماذا يحدث! أظن والدي يظنني عدت نهائياً. كيف أُطلعه؟ حين عاد رفعت إلى الغرفة كان والده وعليمبج جالسَيْن معاً إلى المائدة. ووالده انتهى من الطعام وابتظر الصبي حتى يُفرِّع صحنه من "الشيبس". اختتم عليمبج طعامه بعبارة الشكر التي يرددها الروس فقال له جده: - لا يقال هكذا يا ولدي!

- كيف إذن؟

- قل: الشكر والحمد لله! هل فهمت يا حفيدي؟

ردد الصبي وراء جده ما قاله، فأثنى عليه الأخير:

- صحيح يا ولدي، صحيح!

فرحت سماي لما سمعت. وألقت نظرة دافئة على رفعت.

- والآن يا عليمبج دُع والدك يأكل، - نهض تيم عن المائدة، غالباً أبوك جائع على الأرجح، ما رأيك عليمبج؟

- أنا أكلتُ قبل قليل، قبل أن تدخل البيت، قال رفعت، وأضاف بالروسية كي يُفهم ابنه: - أكلتُ حتى التخمة.

- نعم يا جدي هذا صحيح، بابا أكل وشبع.

عليمبج جالس على ركبة جده، ورفعت على طرف الأريكة. وسماي واقفة إلى جدار الفرن.. ولا صوت في البيت إلا صوت الصبي الذي يتكلم إلى جده. وسماي مهمومة بالنقاش الذي سينشب بين الأب وابنه. ولا تعجبه النظرات الخفية التي يتبادلنها. يا إلهي لا تسمح لمشكلة أن تحدث بين هذين الاثنين!

- يا عليمبج، - يقول تيم، - ادخل أنت وانا إلى الغرفة المجاورة. - جدتك تريد أن تُريك شيئاً جميلاً، وأنا والدك سنتكلم في موضوع ما.

- حسناً لا يزال أمامنا ليل طويل. ستحدثان. لا تريد سماي الخروج من الغرفة.

- ألم أطلب منكما الذهاب إلى الغرفة الأخرى!

- فلنذهب يا جدتي لنرى الأشياء الجميلة.

بقي الأب وابنه وحدهما فسأل الأب بعد سكتة:

- كيف حالك أخيراً يا نيكراس رفعت؟
- لا بأس يا والدنا، لا يكرهني من أعيش بينهم.
- أعرف إذ لم يطردوك إلى الآن.
- جئتمكم باليشكا،- توقف رفعت قليلاً، وغير الموضوع.
- منذ اليوم صار اسم الصبي عليمبج، فهمت؟
- فهمتُ يا والدنا.
- إن كنت فهمت فهذا هو، - ثم أضاف: - لم تُخبرنا بوفاة والدته الصبي.
- لم أشأ إشغالكم.
- ما كان هذا القلق ليقضي علينا إذ ليس شيئاً إلى قلقنا الأصلي.
- لم أعرف أنه سيسهل عليكم. - خجل رفعت من تنهّده الثقيل أمام والده، وأطرق برأسه.
- لأجل هذا يقولون: الإنسان كالزجاج. أليست أمّ الصبي، أليست إنسانةً ولو لم نر وجهها! حزناً لأجلها. ليفتح لها الله باب الخير حيث رحلت كائنة من كانت. يُقال إني رأيتها في خدمة بيت الجنرال غزار قبل سنوات. ولكن لا أتذكر شيئاً من وجهها فأحدّدّها. الله قدّر لها هذه النهاية. ارحمنا يا الله واحمنا من الروس. ارحم كل من في قلبه الخير على هذه الأرض. وانظر بعين العطف إلى الأديغة الذين يُقاسون من العذاب. - بعدما انتهى تيم من الدعاء وسكت بعض الوقت، سأل رفعت:
- الآن أخبرني عن عودتك!
- أنا على طريق.
- وهل بقي أحدٌ الآن ليس على طريق؟
- عليّ أن أعود إلى جماعتي صباح غدٍ بالتأكيد.
- أتقصد أنك لن تسمح لنا برؤية الصبي إلا إلى ذاك الوقت؟ - لم يفهم تيم في البداية.
- جئتمكم بعليمبج نهائياً يا والدنا.
- وأنت؟
- أنا إلى حرب القرم.

- وهل أخبرت والدتك؟

- لا، لا تعرف.

- حسناً فعلتَ إذ لم تخبرها... والله لا أعرف ماذا أقول لك... لا تشغل بالك بعليمبج، مصيرنا مصيره. الحق أنني ظننتك عدت إلى بيت والدك القديم؟ كيف ستذهب إلى حرب القرم الآن؟ ومن الذي فتح باب هذه المصيبة؟ لا أعرف يمّ أعلق على هذا يا رفعت... - يكلم تيم نفسه ولو أن الكلام موجّه إلى ابنه: - حسناً شكراً لك على مجيئك بالصبي إلينا... ولكني لا أفهم منذ عدة سنوات حياتك الروسية. وإلى الآن لا القرية ستفهم، ولا من يسمعون سيفهمون. وقفت في جانب الروس الذين يشنون علينا حرباً. تلوّح معهم بالسيف الذي يقطر من دم الأديغة. لا أوتّحك، ولن أفعل. فات الأوان، ما لم تكسبه بشاريك لن تكسبه بلحيتك؛ صحيح يا ولدي؟ - لان قلب تيم الآن، - لماذا فعلتَ هذا؟

- إن حاولت أن تروي أساس ما حصل...

- إن كنت ستقول إننا آل نيكراس من أصل روسي فكفى، - رفع تيم يده وقد فهم ما في قلب ولده، وقاطعه، - نحن أديغة منذ زمن بعيد، كان جدّك لجأ إلى الأبراخ مضطراً في القرن الماضي.

- ولكن يا والدنا...

- لا تقل! - استعجل تيم، لا تقل! ليس عجيباً أن نكون أنت وأنا من أصل روسي. ولا يعني هذا أن يحارب الريب من رياه. هذا حرام على أي إنسان. نحن ربائب الأديغة.

- أفهم يا والدنا، ولكن ما العمل، من أعيش بينهم أقرب إليّ.

- وأي صلة لك أيها البائس بالقتلة؟! - احتاج تيم، وكظم نفسه بصعوبة، ثم أضاف: - والله لا أعرف طريقة تفكيرك!

- وأنا لا أفهم تطرّفك في أديغيتك يا والدنا... لا تؤاخذني!

- ولماذا أؤاخذك إن قلت لي ما في داخلك؟ أظنني مثلك؟ أين أذهب إن هجرت الأديغة الذين أنا منهم؟.. - دارت عينا تيم الزرقاوان في محجريهما. وابتسم مدركاً أن لا حلّ للخلاف بين الأب والابن. - كفى، نحن واقفان على

طريقي لوح خشبي ساقط. حسناً، هل رأوك آتياً إلى القرية، أو رأوك على الطريق؟

- لم أدخل دخاباه من طريق معروف. والفرسان القلائل الذين صادفتهم مررت بهم بسلام بفضل زبي الأديغي.

- هكذا إذن... - تنهد تيم وهو يفكر عميقاً، وبعد سكتة قال: - لا فائدة من جدالنا أنا وأنت يا ولدي. تعال أقطع بك ظهر التبة!

- لماذا يا والدنا؟ سأدلف وحدي إلى غابة المرتفع.

- لن أدعك تخرج وحدك،- جزم تيم. - حرب القرم التي تذهب إليها يا رفعت ليست كحرب الداغستان حيث كنت، فاحرص على نفسك. لا تقلق من أجل عليمبج. المكان الذي عدت إليه بالصبي هو بيته. ونحن مصيرنا مصير الأديغة. ولكني أتوسل إليك إن رجعت سالماً ألا تُشهر سيفك على الأديغة. فإن فعلت فكما قلت لك مرة: لن أرحمك ولو لم يبق غيري... حسناً، - نادى تيم زوجته في الغرفة الأخرى دون أن ينطق اسمها، - يا هذه! الولد سيغادر، أعطيه زاداً للطريق.

- نعم يا ولدي يا رفعت، كيف تغادر وقد وصلت للتو؟ أين ستذهب هاجراً بيت والدك؟ - وجدت سماي نفسها على أرض الغرفة لا تدري بم تتعلق وماذا تمسك. وخطفت صحن الشلامه. وأخرجت الجبن المجفف من داخل الوجداق، ووضعت بضع قطع من اللحم المقدد في الكيس. - يا تيم، لماذا تجلس صامتاً؟ ألا تقول شيئاً للولد كي يبقى معنا ولا يرحل!.. وأنت يا رفعت يا ولدي، ما تفعله لا يجوز، ظننتك عائداً إلينا...

- اسكتي لحظة! - لم يقبل تيم طريقة هذيان المرأة وجريها.

- يا مصيبي يا تيم، أأتكون جرحت مشاعر الولد؟ ألا ترى الندبة التي على خده؟

- أنا ورفعت قلنا ما قلنا وانتهينا. ثم إنه لم يعد طفلاً حتى تربيته! يبدو أننا في عالم كل إنسان فيه وما يحمي به شرفه. تعال يا عليمبج ودّع والدك. والدك عائد إلى وحدته العسكرية يا عليمبج.

- وأنا؟ - أسرع عليمبج بالقول.

- أنت تبقى مع جدك وجدتك، ستكون بخير هنا.
 - لا بأس، أنا سأبقى مع جدي تيموثي ومع جدتي. سلامي يا بابا للعم بافلو،
 ولفاسيلي، وأندريه، وإيفان. جميعهم، جميعهم. أنا سأبقى هنا، ثم أعود إليك.
 - طبعاً يا ولدي، أنت بقيت هنا. أين تذهب يا حسرتي؟! - جاشت مشاعر
 سماي، وأسرعت تمسح دموعها.
 - كفاك! - نهض تيم، - لا تدعي الصبي يرى دموعك! أنا يا حفيدي -
 مسح على رأس الصبي، - سأتحدث إلى والدك وأعود.
 - وأنت أيضاً يا جدي لا تتأخر!
 - سأعود حتماً يا ولدي.

كانت العادة ألا يُفشوا سرّاً في الغابة ليلاً فتجاوزَ تيم وولده ظاهر القرية لا
 يتكلمان في سرٍّ أو علن. وظلا إلى أن خرجا من عمق الغابة ودخلا مضيق نهر
 شبح لا يتبدلان أي كلمة. كلّ وما تأخذه إليه أفكاره، ولا ينوي أن يحرك
 لسانه.

إن قررت أن تتعامل على عادات الأديغة فالأكبر هو من عليه أن يكسر
 الصمت. وبهذه الحجة لا يزال رفعت غارقاً في أفكاره الثقيلة. وليس قليلاً ما
 اجتاز في حياته مما يستحق التفكير. وما ينتظره أفكار لا يعرفها. ولو لم يكن
 إلا مهمته أمام والده ووالدته لكان كافياً لتحطيم أي قلب، إن كان عنده ذرة
 من المشاعر. نظر رفعت نحو والده بطرف عينه. رأى بصعوبة في ظلمة الفجر
 حزناً على وجهه، وقال: لست كما يصوّرنني والدي تماماً. لا يمكنك أن تعيش
 الآن دون مشاعر. صارت الحياة مزيجاً من كثير من الحزن وقليل من الفرح.
 تحسد من يضحك وتتألم لمن يبكي. حسناً فعلتُ إذ لم أخبر أهلي بطريقة موت
 بوليننا، أمّ الصبي. وما فائدة إخبارهم؟ لن يُحيوها، ولن يُنهضوها من سقطتها!
 ولبعش أليشكا لا يعرف إذ كتمنا عنه. ماذا سيفهم الصبي إن أخبرته أن
 الأديغة قتلوا أمّه أمامي؟ سأسبب له الألم، والاحتقار لهم متى كبر. وحين عدتُ
 ببوليننا لم أخبر رفاقي في شبح أن القتلة هم من الأديغة. وبعدما دفنوها أوصيتُ
 رفاقي ألا يُخبروا أليشكا بطريقة موتها. والشكر لهم إذ لم يجعلوه يشكّ في شيء.
 انتصب أمام عيني رفعت ذلك اليوم الربيعي.

أرسلوا رفعت لجلب الماء فرافقته بولينا. لم يكن المنهل بعيداً عن منعة شبح. الأرض مستوية من إحدى الضفتين، وعلى بعد خطوات تبدأ الغابة. وبولينا واقفة إلى الخزان الخشبي تأخذ الدلو من رفعت وتصبه في الخزان. وأحياناً يتبادل الزوجان المزاح. ويرتفع صوتهما المرح إلى أعلى سرير النهر... وبعدما ملأ الخزان جلسا جنباً إلى جنب واتخذا طريق العودة. وحين وصلا إلى الصخرة الكبيرة في الغابة خرج من ورائها شخصان أسودا اللحية والشاربين، ورميا رفعت من العربة، وكتفاه. ثم جزّاه وأوقفاه إلى جانب الصخرة، وسألاه:

- هل أنت نيكراس رفعت؟

- نعم.

- هل هذه الكافرة زوجتك؟

- نعم، زوجتي. أتحداكم أن تفكّوا قيدي الآن.

- إن كانت زوجتك يا شبيه الكلب فلتدقّ حبيبتك الرصاص!

مدت بولين يدها إلى صدرها جزعة، وسقطت. وقفز رفعت ولكن أغمي عليه بسبب ركلة تحت سُرّته...

خرج رفعت من ذكراه الثقيلة فلجم الحصان الذي لا ذنب له. ونصّ تيم برأسه، وسأل - أهنالك ما يقلقلك؟

- لا يا والدنا، تعثّر الحصان.

- وهل هو أعمى حتى يتعثّر؟ - لم يقتنع تيم. وغمغم: - صحيح ما يقال: متى عميتُ بصيرة الراكب توقف الحصان...

مشيا بعض الوقت أيضاً صامتين. ويبدأ الفجر يقتحم منتصف الليل. وتبيلور قمم الجبال البيضاء في وسط السماء. وصمت جانبا الطريق.

- أنا عاتب عليك يا رفعت!

- أسمعك يا والدنا.

- اكتفيت بإخبارنا ب وفاة الكَنّة وكتمت عنا السبب. فعلت الصحيح نحو والدتك والصبي، وأما نحوي فلم تتصرف على نحو صحيح. إن صحّ الخبر الذي شاع عن موت الكنة فمن يعاديك يعادي. هل صحيح ما سمعناه؟

- لا أكنتم عنك سراً يا والدنا، صحيح.

أَنَّ تيم:

- ماذا فعلا بنا؟ عديما الإيمان هذان!.. من هما، لا تُخَفِ عني!
- لا أعرفهما.
- هل تتعرفهما إن رأيتهما؟
- نعم، أتعرفهما. أظن أحدهما ذا اسمٍ روسيٍّ... إن لم أخطئ: تومان...
- هكذا... أوقف تيم الحصان. - أياكون تومن؟
- لا أعرف، يُحِيلُ إليَّ أن رفيقه ناداه: تومان.
- تتخيل أم تتذكر؟
- لهجة أحدهما البسلني متأكد منها، ليس مجرد تصوُّر. سمعته.
- لم يكن تحوُّل تيم إلى الشحوب التام خافياً رغم أن الصبح لم ينبلج بعدُ.
- وارتحفت أوصال رفعت، ثم تصلبت، وسأل:
- ما الأمر يا والدنا؟ أتشكُّ في أحد؟
- لا يا ولدي... - أخفى تيم. - في العالم كثيرون من المجرمين...

VII

لم يصدِّق ما توقعه الأديغة من أن الجيش القيصري سيتراجع متى بدأت حرب القرم. تأملوا السلام فإذا بالمجابهة تشتد، وتتدخل عوامل ثانوية. وإذا كان الأديغة لا يرغبون في مجابهة روسيا فإن وراءهم عوامل تحرضهم: أحدها الجانب التركي - الإنجليزي - الفرنسي، والثاني الإمام الداغستاني، والثالث الخلافات الأديغية - الأديغية.

لا يجوز استغراب رغبة الدول التي تحابه روسيا في إرسال الأديغة إلى الجبهة الروسية. لا تدخر جهداً لتحقيق أهدافها... ولكن عدم الاتفاق بين الأعراق الأديغية في الداخل منعهم من تحقيق أهدافهم. ومن لعبوا أسوأ دور في الضرر الذي لحق بالأديغة هم زعماء الأعراق. ومنذ أن اتخذ الأبراخ مُحمَّد أمين زعيماً لهم صار حضوره في إقليم الأديغة أوضح وأكثر. وحين عاد سفرني إلى الشابسغ تصلَّب الموضوع الذي لا يتفقون عليه. والبجدوغ الذين كانوا يخافون من النائب عادوا فرفعوا رؤوسهم من وراء الشابسغ. ويبدأ الويخ يتجهون من

جديد نحو سفري. والجمكوي الواقفون على رؤوس أصابع أقدامهم مهمومين بما سيحدث في الإقليم متعبون.

نجحت جهود النائب في الأبراخ والمخوش والوبيخ والبسلني. وبقي عليه إخضاع الشابسغ والناخووي والبجدوغ. وقد هاجمهم بالجيش عدة مرات. ما أكثر ما دفع البجدوغ إلى أن يقولوا: "صلاة النائب قسّم المضطر. علّم النائب سوط الشرطي. اصطحبّه ودعّه يُقسّم، ثم ادفعه فأسقطه في الحفرة. من غضب الله عليه يأتّه النائب. أين نجو بجلودنا؟! " وأحرق قرى من الشابسغ على حدود الأبراخ بقصد الإرهاب. وفيما ينوي النائب إخضاع الشابسغ قبل الخريف عاد إليهم سفري. والآن لا يستطيع مُحمّد أمين أن يغزو بالجيش الشابسغ فالأفضل أن يصلح سفري الذي بيده الجيش التركي في أنابه، وليس الأديغة وحدهم بيد سفري بل الجيش التركي في أنابه. وماذا سيكون موقف الأتراك مما سيجري؟ هذا هو السبب في استدعاء القائد التركي في سوخوم عمر باشا للموقّدين الأديغيين.

ما إن أعلم مُحمّد أمين حتى ركب الطريق. وأرسل زانه سفري ابنه قرباتر باسمه. لم يكن سفري راغباً في لقاء النائب، ولا في التحدث إليه. بقي في أنابه بحجة التوعّك الصحي يتّرب ما سيجري. ما كان يُهمّ عمر باشا ليس المصالحة بين الأديغة، بل إقحامهم في الحرب وهم الذين يشد كل طرف العربة باتجاهه.

مضت سنتان، قال عمر باشا، والأديغة لم يتحركوا من أي مكان ليحاربوا روسيا. كانوا جادّين في الحرب حين لم تكن معهم. وها هم الآن وقد وقفنا إلى جانبهم يتشوّفون ما سيجري من فوق رؤوسنا. العالم كله يحارب روسيا، وهم يتناحرون فيما بينهم. نفذ صبرُ زانه سفري حتى استدرنا إلى هذه الجبهة. ولما وضع قدمه في بلاده شرع يتنقل بين قريته وأنابه مرتاحاً لا يؤيد من يؤيدونه. أين الوعود التي قطعها لنا؟ ما إن يصل إليّ حتى أبلغه رغم صداقتنا عدم رضا عنه. إن كان لا يريد تحويل بلاده إلى جزء من روسيا فليحثّ الأديغة على القتال. سواء عاديت مُحمّد أمين أم لم تعاده فهو رجل نشيط، يوافقنا على ما نقول، مهموم بالطريقة التي يصفّ فيها الأديغة إلى جانبنا، ولا يألو جهداً في هذا الاتجاه. إن أردت في عالم اليوم أن تحمي بلادك فلا فرق بين أن يكون

قائدك أديعياً أو لا، المهم أن يقودك بعقل وحكمة. وأنت أديعي ولكننا نسمح لك أن تخدم في جيشنا. ولست وحدك بل كان في الجيش مُجَّد بيه وتوفيق بيه وقراجب. يسرنا من يحارب معنا ضد الروس كائناً من كان. والنائب ليس إلا واحداً من هؤلاء!

في منطقة سوخوم أمور كثيرة يجب أن يفكر فيها عمر باشا. حرينا هذه السنة الثانية أسوأ بكثير منها في السنة الأولى. الروس عادوا فاستجمعوا قواهم ويقاوموننا بقوة. وقد اضطررنا إلى التراجع في أكثر من جبهة. ونحن محتاجون إلى العون مهما كان مصدره. والمصدر الوحيد لهذا العون المتأمل هو جبهة الأديعية.

- أين من استدعيتهما؟ - سأل عمر باشا.

- مُجَّد أمين وصل العشية وهو بالانتظار يا محترم!

- وزانه سفربي؟

- أرسل بدلاً منه ابنه قرباتر.

- وماذا يعني هذا؟

- لا أعرف، يقول إن والده متوعك.

- متى ستُقلع السفينة المبحرة إلى أنابه؟

- بعد ساعة.

- تأكدوا من حقيقة توعُّك زانه سفربي!.. هل يشتغل أم لا؟ يلازم الفراش أم لا؟ تابعوا كل خطوة يخطوها!.. يومنا هذا يستحق أن تقوم من الفراش إلا إذا كنت على شفا الموت!.. هيا استدعوا الضيفين!.. مهلاً، اطلبوا زانه قرباتر وحده أولاً. وشاغلوا النائب. نزهوه في المدينة وعلى البحر. واتركوه يصلي، لئلا له كل ما يطلب!

عمر باشا واحد من قادة السلطان العثماني المقربين القلائل. وهو يعرف مكانته هذه. ومن معه يهابونه لهذا السبب. ورغم تقدمه في السن لا يبدو عليه أنه تخطى السبعين. رجل متين ممتلئ. والشاربان الأسودان الكثيفان يلائمان وجهه. ولا يستعجل حين يتكلم. ويغلب عليه التفكير الهادئ. وحين ينهض، على قلة هذه العادة، يذرع أرض الغرفة هادئاً مثمناً ما يقول.

جلس عمر باشا بعض الوقت حين بقي وحده في الغرفة يمص غليونيه ويفكر في الطريقة التي سيحدث بها قرباتر. ثم نهض وبدأ يتجول على أرض الغرفة. وتصور وجه قرباتر وهو يستمع إلى وقع الحذاء الناعم. ولم يستطع تجاوز صورة صديقه سفرلي. ورغم عجزه عن تخيل وجه زعيم الشابسغ الشاب فهو على علم برجولته: الجرائد التركية تكتب، وتصله أخبار شفعية.

انفتح الباب فلم يلتفت عمر باشا الذي كان يقف على الطرف الآخر من أرض الغرفة. وحين وصل إلى نهاية الغرفة استدار فرأى قرباتر ومعه الضابط التركي. وكأما يعرف أحدهما الآخر منذ زمن بعيد استقبل عمر باشا قرباتر ماداً يديه:

- أهلاً بك يا قرباتر! كيف حال والدك بإذن الله؟ حزنْتُ كثيراً إذ سمعت أن صديقي سفرلي متوَعك. ما مرضُ الأمير سفرلي؟

- والدنا أرسل معي تحياته الحارة إليك. وأشهد أنه كان مشتاقاً جداً في رؤيتك. وقد داهمته وهو يهَمّ بالتوجه إليك الحمى فحبسته في البيت. والدنا يُكرِّم لك احتراماً عظيماً. وقد أرسلني بدلاً منه واثقاً مني. وأرسل إليك معي هذه الورقة.

- من البديهي أن تفاجئك الأمراض متى تقدمت في السن. - قال عمر باشا بعد قراءته الورقة، - الله يحرسه ويشفيه. ليس هذا الاجتماع الوحيد، أمامنا الكثير مما يجب أن نقول ونفعل. اجلس ولُحْد راحتك. سنتكلم، ونفكر في قضايا الأديعة وما سيجري لها.

- عندي سؤال قبل هذا إن سمحت لي.

- أسمعك. - لم يُبدِ عمر باشا انفعالاً وإن لم يعرف تفسيراً لما سمع. وقال في نفسه: ما أشبه الولد بابنه في وقفته ونظرته، وطريقة كلامه، وصوته لو لا أنه أَسمر البشرة! ثم تفحص من تحت جبينه الشاب الواقف أمامه. - أسمعك يا قرباتر. ماذا يقول الأديعة: الأولاد على قياس الآباء. من كنت ستشبهه متجاوزاً صديقي القديم والدك؟ اجلس، لا تقف!

- لا يا محترم. - بدت صلابة صوت قرباتر أكثر من ذي قبل. - أفضّل أن أقول ما أريد واقعاً. سمعنا أنك استضفت مُحمَّد أمين النائب كما استضفتنا.

واليوم رأيته على الشاطئ. لا نرى من اللائق أن تُكَلِّم باسم الأديغة الرجل الغريب الآتي من الداغستان. وقد كلفني الأديغة أن أنقل إليك هذا الكلام.

- هل تتكلم باسم إقليم الأديغة كله يا أمير؟ - وجب على عمر باشا أن ينهض من الكرسي قبل أن يستريح.

- أتكلم يا محترم باسم الناختواي والشابسغ والوييخ.

- والأبزاخ والجمكوي والبسلني. هؤلاء ليسوا أقل ممن عدت إن لم يكونوا أكثر.

- هؤلاء الذي تذكركم ليسوا داغستاناً. لا علاقة للنائب بالأديغة حتى يتحكم في أمورهم. هذه زبدة كلامي.

- عندي لك سؤالان إذن - تحلى عمر باشا بالصبر رغم هياج قلبه.

- أستمع يا محترم، - لا يتراجع قرباتر.

- هل استقرت الوحدة والسلام بين أعراق الأديغة؟

- الآن لا، ولكننا ماضون إليها.

- ومتى سيحدث هذا؟

- هذه مسألة بلاد الأديغة، لا البلدان الأجنبية.

- والسؤال الثاني: هل والدك الأمير سفرلي على علم بما تقول الآن؟

- لا أتكلم يا محترم في ما لا يعرفه والدي والأديغة. لو لم يكن زانه سفرلي الزعيم الأديغي متوعكاً لقال لك بنفسه هذا الكلام. وأكرر أن النائب الذي أثار الفتنة بين أعراق الأديغة لا حق له في الكلام على مسائل الأديغة.

- أيها الأمير قرباتر، - تظاهر عمر باشا بالضحك، - ومزح معه محاولاً بطريقة مبطنة تلطيف الموقف الذي نجم عن الحوار بينهما، - ها، كأنا قلبك نحو الروس الذين يبهونكم؟ الحق أننا قلقون على الأديغة، لا على الداغستان. ومن أجلكم نشئ هذه الحرب على روسيا، ونضحي بأناسنا.

- أنا لا يميل قلبي نحو أحد؛ إلى الأديغة فحسب أنا منحاز. ألا يجب على أحدٍ وضع حدٍ لمأساة الأديغة؟

- أصدقك، أصدقك... ما أشد ما تُذكّرني بشباب والدك. هناك أمور كثيرة نتذكرها أنا ووالدك. وكنا في حضرة السلطان. وشهدنا حروباً دامية. وأنقذنا الله

سبحانه من مهالك كثيرة. اجلس هنا يا قرباتر. ليس النائب موضوع حديثنا فلا تهتم! وسنجد ما نقول بحقه.

قال عمر باشا في نفسه: لماذا أشيع بيننا الفرقة والاختلاف بدلاً من المسايرة والتودد؟ لم يتعد هذا في موقفه من النائب عن موقف أبيه. لم يكن للأب شاغل طوال إقامته في تركيا غيره. وحين عاد استمر في طريقه. كانت نيته المصالحة بين زانه والنائب. ومن الخطوة الأولى التي لم نخطها بدأ الخلاف. ما يقوله هؤلاء في شأن محمد أمين فيه شيء من الصواب. ومنذ زمن بعيد أخبرث السلطان بهذا. الأفضل لنا ولروسيا ألا يؤسس الأديغة دولة واحدة. سيصبحون أسهل ترفيقاً ومنالاً لنا. وهذا هو السبب في رفض روسيا أفكار خانجيري وسفيري في شأن التضامن بين الأديغة. وانضم النائب إليهم فلا الأديغة يرغبون فيه، ولا روسيا. محمد أمين أقرب إلينا وإن لم يعجبكم. يفعل ما نريده ضد روسيا.

- أنتم الأديغة إتفقوا، - تابع عمر باشا كلامه، - وجأجها روسيا، ولا حاجة لنا إلى غير هذا. محمد أمين لم يأت من تركيا بل من الداغستان. إن كان هذا رأيكم في النائب، وتظنون أن الأبراز يؤيدونكم، فما حاجتنا إليه؟ احصروه في موضع الأفندي لا يتجاوزوه، وليدع إلى الله، وليصل! هذا الذي بيننا يا قرباتر أرجو ألا يخرج إلى ثالث.

- ثق بي من هذه الناحية، - وافقه قرباتر.

- وماذا نفعل مع الآخر، النائب الذي استصفناه؟ قطع طريقاً طويلاً من أجلنا. سنرضيه بقدر الإمكان وإن لم نصارحه تماماً بما ننوي. وهو من أصل مسلم، واحد من أمة الله. والآن أريد أن أقول لك إنه لا حاجة للكلام على صدق موقف تركيا من الأديغة. بلغ هذا للأديغة، وكونوا واثقين منا!

- واتفاق سلام أدرنة؟ - لم يستطع قرباتر إلا أن يقطع كلام قائد الجيش ويسأل. - الأديغة لا يقبلونه حتى الآن.

- لا نتكلم في ما مضى يا أمير. هذه الاتفاقية مدعاة للحزن، ليس لكم وحدكم، بل لنا أيضاً.

- منحنتنا تركيا التي لا تملكنا إلى روسيا. - قال قرباتر على سبيل التنفيس عن ضيقه.

- أوافقك، وكنت أؤيد والدك سفري في هذا الموقف، ولا أزال. ثم في أي موضوع نتكلم؟ اتفاقية أدرنة بطلَ مفعولها الآن. الحرب التي أعلنّاها على روسيا مزّقت الاتفاقية!

- ولكن رغم ذلك لم تنفج قضية الأديغة لهذا السبب.

- حتى لو كان الأمر هكذا ها أنتم تروننا بأعينكم نحارب روسيا من أجلكم. ولسنا وحدنا، بل معنا إنجلترا وفرنسا. وأنتم قاعدون محايدون. إن كنتم تريدون الحرية فعلى إقليم الأديغة كاملاً أن يهب في وجه روسيا. اليوم إن لم نتحلّ، نحن العالم الإسلامي، بالوحدة فلن تسمح لنا روسيا غداً أن نتجه إلى القبلية. نحن نستطيع مجابهتها. أما أنتم فأمثالكم هم من سيكونون الضحية، ولن يعرفوا طعم العيش. لا تتخذعوا بالكفار، ولا يلعبوا بعقولكم يا قرباتر. ما نهمله اليوم لن نلحق به غداً. واستفيدوا من أمثال النائب ولا تقاطعوهم بحجة أنهم غرباء. وشامل الذي أرسل النائب إلى الأديغة يساهم بقدر طاقته في الجهاد. والله يتقبل معرفه. ولكن لا أعني بهذا أن يكون للأديغة زعيم غريب، - مرة أخرى يتظاهر عمر باشا بإصلاح كلامه، - تركيا للأتراك، والأديغة لهم إقليم الأديغة. يا إلهي الواحد ارحمنا نحن المسلمين، وانصرنا على الكافرين. وامنح المسلمين الجنة، وحلّد الكفار في جهنّم!

بقي عمر باشا وزانه قرباتر في الغرفة حتى الظهر. وصدف أن لم يتفقا، ولم يكن اتفاقهما قليلاً. وكان عمر باشا قد تفهّم الوضع بالنسبة إلى النائب فلا يصّر على معارضته. وكانا جالسين لتزجية الوقت فحسبُ مدرّكين أنه لا يمكن إضافة المزيد في موضوع الأديغة.

ويبدو على قرباتر رضاه عن نفسه بالمقارنة مع القائد التركي في ما قاله وفي تصرفه وفي ما تلقى من إجابات. وهو جاهز للمغادرة حالما يخبرونه بانتهاء المهمة. وعمر باشا في الموقف نفسه وإن كان لا يُبدي على نفسه ضيقه. يفكر في مقابلته لمحمد أمين وما سيقوله له وفي تصرف النائب معه. ويتسم في وجه الضيف.

- جلسنا ما يكفي يا أمير، وتكلّمنا، - نهض عمر باشا، - ولم نكنتم ما في قلوبنا. ومتى عدت إلى ديارك أسمع الأمير سفري ما تكلّمنا فيه دون أن تنسى شيئاً.

- كن مطمئناً من هذه الناحية، - حسم قرباتر مرة أخرى.
- وبلغ الأمير سفري ألا يمرض أكثر من هذا، - انفتح الباب ودخل ضابطان بصندوق ثقيل يحملانه بصعوبة، ووضعاه أمام الضيف. - هذه هدية من السلطان التركي إلى آل زانه. ويدعو من أجلكم أن ينمي معروفكم، ويسرّ سيوفكم ضد الروس. ودون أن ينسى عمر باشا أنه قائد تركي: وهذه الرتبة الذهبية أعطاها للأمير سفري مع تحياتي.

...

في ذلك اليوم، وبُعِد الظهيرة، بدأ عمر باشا ومُحَمَّد أمين لقاءهما بأسئلة تمهيدية:

- هل عندك معرفة بالأديغة يا نائب؟
- أظن ذلك. أقاسمهم مصيبتهم منذ ثماني سنوات.
- وأنا أعرفهم قبلك، منذ أكثر من ثلاثين سنة.
- يقول الأديغة: ثلاثة أعوام للكلب تعادل ثلاثين عاماً للرجل. ليس وقتاً قليلاً... ساعني، أسمعك.

- سؤال آخر يا نائب: الأديغة أعراق كثيرة؛ هل يمكن أن يتفقوا؟
- لم يتفقوا يوماً، ولا أظنهم سيتفقون.
- ما الذي يدفعك إلى هذا الكلام؟
- كلُّ يُخرج بيضة من عشّه.
- على رأيك كل زعيم يقيم في قريته جاعلاً من نفسه ديكاً.
- لم تخطئ.

- هل لآل زانه سيطرة على إقليم الأديغة؟ - سأل عمر باشا النائب رغم معرفته بالموضوع.

- لا أستطيع أن أقول هذا. الناخوي والشابغ يقدّروهم باسم زعماء لهم. والويخ والبجدوغ لا يتنكرون لهم. أتصور أنهم يتجهون إلى جهة زانه أكثر مما

إلينا. والآن زعماء الأديغة برزج وحجمقوه، بمن فيهم تسي، ليسوا بعيدين عن التجاوب معنا. ولكن هذا في حضورنا. وحالما ندير ظهورنا يختلف كلامهم.

- لا أظن هذا العيب يقتصر على الأديغة.

- هذا صحيح. ولكن التنافر بين الأعراق والتنافس جليٌّ عند الأديغة أكثر من غيرهم. وإن كنت غريباً عنهم لم يتجاوبوا معك في أي شيء.

- هل يدفعونك إلى الشكوى يا نائب؟

- من ناحية الأبراخ لا أدعي هذا. يُحَيَّل إليّ أُنِي صرْتُ واحداً منهم. ولا يصفوني كالشابسغ بصفة "الغريب" المُرّة. وأكذب عليك إن قلت إنه ليس بينهم متنفذون أمثال تسي. ويحدث أن ينظر إليّ شراً بعضٌ من نخبة الفلاحين. ولكني على وفاق مع عامة الفلاحين.

- احذر منهم يا نائب، هؤلاء أكثرية. إياك أن ييطروا. - لم يستطع عمر باشا إلا أن يتعاطف مع أسرته الغنية. - الزعامة مغرية، متى حليت في عيونهم طالبوا بالمزيد وبأن تتنحى عنها.

- لا تقلق من هذه الناحية، لن ندعهم يفعلون هذا.

نظر عمر باشا إلى حاجي النائب المتداخلين. واللحية والشاربان التي بدأ الشيب يغزوها بما لا يتناسب مع العمر ليست طويلة. والأنف الرفيع الأفنى غير الكبير متناسب مع الوجه. والكساء الأديغي الأغبر على قياس الجسد. وجُعِب الرصاص الفضية والخنجر الفضى والحزام الفضى الرفيع متناسقة. شيء واحد لا يتناسب مع الزي الأديغي: العمامة البيضاء. ولا يعني هذا أنها لا تليق بالنائب. ولكنها تصدم العين بعدم تناسقها مع الزي الأديغي.

لا يرى القائد التركي مُجَد أمين لأول مرة. تعرف عليه قبل عامين في تركيا. ولم يتغير فيه شيء مهم رغم انقضاء سنتين على اللقاء السابق. لا يزال كما رآه سابقاً. والعينان اللتان لم ينسهما تلمعان أكثر من ذي قبل. وكلما تأملت فيهما أخبرتاك برجولة النائب المصحوبة بالذكاء. أقول هذا ولكن - قال القائد التركي - قرباتر الذي اتخذته محادثاً في هذا الصباح لا يتأخر عنه في مزاياء. قارنْ دون أن يعرف السبب بين عيونهما وجسديهما وما كانا يرتديان. وفهم الآن الفروق بينهما: قرباتر بقبعة أديغية مدورة، وطرفاً أذنيه مثبتان في حافة

القبعة ما يدل على أنها على قياس الرأس. فهم عمر باشا أنه غير قادر على الجمع بين شخصين متشابهين متنافرين. ولم يملك إلا أن يسأل:

– ألستما، أنت وقرباتر، على وفاق؟

– ليس بيننا ما نتنازع عليه فلا نكونَ على وفاق، – برأ النائب نفسه أمام قائد الجيش مخفياً ما في نفسه، ثم أكمل: – نتقاسم المأساة الروسية.

– ما يقول زانه قرباتر مختلف يا نائب.

– مهما قال فالله شاهدي. لم أقل في أرض الأديغة أي شيء خاطئ، ولم أفعل. صار ما يُقلق الأديغة يقلقني وأنا أزرع فيهم فكرة الله. قبلت معهم ما يقبلون. أنا على حق أم على باطل إن قلت: دعونا نتوحد ونحمي أرضنا من روسيا؟

– وهذا ما يقوله زانه سفربي، ولكن الأبراخ والجمكوي لم يسمعوا له. – ردّ عليه عمر باشا.

– الأديغة ليسوا ممن يسمعون الكلمة. كل الأقوام التي تعيش وفق حريتها الفردية صعبت قيادتها. من الصعب أن يتقبلوا حتى أحلى الكلام.

– ماذا ترى علاجهم إذن؟

– الحيلة والرغبة، – أضاف مُجد أمين دون أن يقطع جوابه السريع. – الأديغة، وأنت تعلم، منقسمون إلى خمس طبقات: الأمراء، والأسر المتنفذة، ونخبة الفلاحين، وعامة الفلاحين. والعبيد. ولا حاجة لذكر البوابين. الفلاحون هم الأكثرية. والأمراء والمتنفذون اختاروا من بين الفلاحين النخبة من أجل أن يتخذوا منهم سنداً. وفيما هم يظنون أنفسهم يُحسنون إليهم بدأ الآخرون يتجاوزونهم. وفي الأبراخ هؤلاء من ساندوني في البداية بعد المتنفذين. ثم طوّعت المتنفذين أكثر من خلال استغلال تلك النخبة. وبمساندة نخبة الفلاحين وعامتهم أقمت دولة في الأبراخ. ولا يعني هذا أن الجميع راضون عني كما قلت سابقاً. بل أقرُّهم إلى المتنفذون ونخبة الفلاحين... ولا بد أن يظهر فيهم أمثال تسي حاترباي.

– إياك يا نائب من الفلاحين، هؤلاء هم الأكثر عدداً. لا تثق بهم، ولا تُطمعهم في السلطة فييطروا. – مرة أخرى قلق عمر باشا مما سمع.

- مَنْ يمكن أن تتق بهم شخصان: جواب النائب على هذا حاصر: أولهما الله سبحانه وتعالى، والثاني شخصك أنت.

- وهذا صحيح.

- وما سميت الرهبة، - يتابع كلامه دون الاهتمام بموافقتهم له، - هو ضرورة إخضاع من ليس له دولة إلى النظام. ومن هذه الناحية ما تفعله روسيا بالأديغة صحيح. تُعيد إليهم الوعي كل يوم. وتُلجئهم إلى التضامن القومي.

- في السنوات التي حاربتم فيها روسيا لم تكن هذه حال الأديغة. لا يتحركون على الجبهة الروسية. يحاججوننا. وأنت يا نائب تهمل، في غمرة إصرارك على توحيد الأديغة، الجهاد الذي أرسلوك من أجله من الداغستان. وتعمل هكذا على إخماد حماسة الوبيخ والأبخاز حتى ليصدأ سلاحهم.

- لا يمكن أن تضرّ بروسيا قبل تأسيس وحدة بين الأديغة... - قال النائب، وعنف محدثه بينه وبين نفسه قائلاً: ماذا تريدني أن أفعل يا عديم الإيمان؟ وعدتمونا بالسلاح ثم نكثتم بالوعد. بل بأن تحاربوا معنا عبر المحاربين البولونيين والمجريين، وتنصّلتهم. أين هم جماعة الضباط لاينسك ورفاقه؟ خرج مُجد أمين سريعاً من أفكاره القصيرة. - الروس شعب كبير جداً، وعندهم سلاح جيد، ويُتقنون القتال...

- وهل تخلى الله عنا؟ - احتدّ عمر باشا.

- وكيف يتخلى الله عنا؟! وبعلمه نواجه نحن وأنتم الكفار. لا نوفر جهداً ولكن... - تراجع عما بداه.

- صارحني يا نائب بما لا تستطيع الإفصاح عنه.

- ليس الأمر أنني لا أستطيع الإفصاح عنه، ومع ذلك لا أعرف كيف أقول. من لن أذكره بالخير هو صديقك الحميم زانه سفري... ينكّد علينا حياتنا منذ عاد إلى إقليم الأديغة. يُرهب الوبيخ والجدوغ مستغلاً الجيش التركي الذي تحت تصرّفه. ولا همّ له إلا تقويض النظام الذي أسسته في الأبخاز فإذا أُضيف إلى هذا قرباتر فسدت حياتنا. وأظن أن هؤلاء تخلّوا عن نية محاربة روسيا. وفي باستوك شرطيّ هو واحد من نخبة الفلاحين اسمه حاغور نور مُجد أراه كأنه سفير روسي. ولا يفارق هذا الجاسوسُ الروسي الطريق بين باستوك وقماتر.

- ويقال إن أحد شرطتك ينتمي إليهم. - قال عمر باشا دون اهتمام زائد.
- من هذا الشرطي الذي عندي في الأبراخ؟ ومن يستطيع أن يعيش فيها؟ -
تظاهر النائب بأنه يسأل نفسه والهياج بادٍ على صوته، وأضاف وهو يقول
لنفسه هذا الجالس أمامي يعرف أمورنا، ولكن لا أعرف من يوصل الأخبار
إليه. - ها، تقصد نيكراس تيم الشرطي.

- أنا لا أشكّ في أحد، - قطع عمر باشا الحديث الذي بدأه ضيفه، - لست
كاذباً إن رويث ما سمعتُ يا نائب. يذكرون أيضاً أسماء غير نيكراس.
- إطمئن من جهة نيكراس تيم! هذا الرجل اختبرته، أفصله على كثيرين من
الأديغة لولا أن ابنه في الجيش الروسي. لا يسمح لك، والله شاهدي، أن تفوقه
في إسلامه وأديغيته. وإن استنفرت أحدهما، الإسلام أو الأديغية، ضحى بنفسه
أمام الكفار. ولا أعرف إن كان هناك غيره. ربما كانوا من أمثال تسي
حاترباي... وهؤلاء لهم اتجاههم الخاص. ولكن الفلاحين بعيدون عنهم. ولن
ينالوا مني ما دامت نخبة الفلاحين معي. ولن ينقضوا دولتي، وسأحافظ على
شرفي.

- لا يتعلق الأمر بشخصك يا نائب. - أعاد عمر باشا النائب الذي بدأ
يغلب عليه فخره بنفسه إلى وعيه. وتابع كلامه بصوت حاسم، - ما
استدعيْتُك لأجله موضوع يشغل العالم. ومسألة الروس كانت موضوع حديثنا
أنا وقرباير موفد الشابسغ. يحزّ في نفسي أنني لم أستطع الجمع بينكما. آل زانه
لا يريدون التعامل معك. وإن استطاعوا ما سمحوا لك أن تقيم في أرض
الأديغة، ليس يوماً بل ساعة واحدة. ولن يسمحوا لك أن تتنفس فيها دقيقة
واحدة.

- أعرف هذا.

- حسنٌ أنك تعرف. ولكن أقوالك وأفعالك يا نائب لا تتطابق. - نهض
عمر باشا يذرع أرض الغرفة بقامة ثخينة متينة، ولما نهض مُجد أمين كي لا
يجلس وحيداً رفض المضيف تصرُّفه: - إجلس أنت، إجلس. أنا سأروض
ساقبي العجوزتين قليلاً. نعم يا نائب لا تتطابق. يدمر الروس حياتكم وأنتم
مشغولون بالتنازع على الرجولة والزعامة. يقضي آلاف الجنود الأتراك في حروب

الجهاد. والأبزاخ يعيشون محصورين في قراهم بين الجبال، يروون الأخبار في المضافات... - عاد عمر باشا فجلس في مكانه، ونظر إلى النائب بعينين محمرتين - مصفرتين كسولين إلى النائب. وحسد من أمامه على شبابه. وقال له بجفاء كأن هذا الحسد يزيد من غضبه: ليس زماننا زماناً تنازع على الزعامة يا نائب، عبيّ الأبزاخ والجمكوي والبسلني والقرشاي والنغوي للحرب بدلاً من الانشغال بالشابسغ والناخووي والبجدوغ. كلما هاجمتم روسيا من جبهات مختلفة أوهنتموها، ومزقتموها.

- نحتاج إلى السلاح!

- متى عديم تَبَعْتِكُمْ حمولة سفينة من السلاح. لا نخذلونا أمام الإنجليز والفرنسيين، وهؤلاء يفقدون الكثير من جنودهم في الحرب، ألسنا مسلمين، ألن نقف أمام الله. العالم كله يراقبنا. اتركوا مؤقتاً موضوع تأسيس دولة أديغية واحدة. متى انتصرنا على روسيا سنفكر في تزعيم من وقف إلى جانبنا.

VIII

روى قرباتر لوالده ما رأى وما سمع في سوخوم دون أن يُسْقِط كلمة واحدة. وأضاف رأيه في الموضوع كي لا يتحول إلى مجرد موفد. ولم يترك عمر باشا صديق والده دون حصّة من تقريره ولو أنه لم يكن مطلوباً منه. وقّيمه على نحو تغلب سلبياته إيجابيته. وبرأ نفسه في الختام:

- ساحخي يا والدنا، لم أستطع إلا أن أقول ما قلت بشأن صديقك.

- لم أسمع ما لا يجوز يا ولدي، - خرج سفري الذي جلس إلى الآن كأنه لا يسمع شيئاً. وأضاف بعد قليل: - لا يجوز أن تعتب على عمر باشا. إنه مثلي أحد الناس الذين انسدت آفاقهم في الدنيا.

- يا والدنا!

- نعم يا ولدي، نعم، ما العمل؟ لا شيء تمتنع من قوله متى داهمتك الشيخوخة. ومع ذلك فعمر باشا محظوظ بالقياس إليّ. وانتصاراته الحربية أكثر من هزائمه ولو أنها غير قليلة. وإن تقاعد فله إنجازات يعتد بها أمام بلاده. وأنا فاجأتني الشيخوخة قبل أن أحقق نيتي... من البؤس أن تغيب عن بلادك

وأبناء قومك سنوات عديدة... وهؤلاء الذين سلبوني شبابي يرسلون إليّ هذه الرتبة! ما معنى هذه الهدية يا ولدي؟ ورتبة النائب أيضاً...

- ربما تعني عدم نسيان ارتباطك بتركيا.

- نعم يا ولدي لا يثقون بي... لا أعتب عليهم، وهؤلاء عندهم ما يشغلهم...

يا حسرتي يا ولدي من أين أستعيد شبابي؟! من سيرده إليّ؟

- يا والدنا ما أشد ما يؤسّر!

- لا يا ولدي ليس إلى هذا الحد. - صحا سفري، - كنت أتمنع على الكبر قليلاً. يحدث مثل هذا يا ولدي... كلّمك عمر باشا بلسان معسول حسب ما تقول. حسناً فعلت إذ لم تنطلق في الحديث معه مصداقاً أنه يثق بك، وخجلاً مني. ومن جهة النائب أشعرته بخطئه. ولكن هذا لا يعني أن تصدّق ما قاله لك بشأن النائب. سيقول له عنك مثل ما قال عنه لك مع إضافات. أنا فهمت أهداف الأتراك: ليست مختلفة عن أهداف الروس. لا يريد الطرفان وحدة الأديغة. من مصلحتهم تفتيت الشعوب. اعتادوا على أن يقربوا طرفاً ويبعدوا آخر ويهيّجوا الثالث. ليس صحيحاً أن الأتراك شنوا على روسيا حرب القرم من أجل الأديغة. وإنجلترا وفرنسا، حتى سردينيا على ضآلتها، تحدّعننا. لا يمكن أن تعود هذه الحرب بالفائدة على الأديغة. أفضل شيء يا ولدي هو المصالحة بين الأديغة والروس. وهم الآن في وضع حرج مثلنا. وأود أن أثير من جديد مشروعاً لم أنجح فيه.

- وهل يثق الروس بك يا والدنا وأنت في الجيش التركي؟

- هل قلت لي: الجيش التركي؟! هذا لا يخلو من الصحة. ولكن هل يجهل القيصر سبب خدمتي في الجيش التركي؟ أليس هو من رماني في تركيا؟ إن كنت اليوم فيه فلن أكون غداً. وهل من الصعب خلّع الرتبة التركية!..

- والأديغة سيسرّهم هذا. - وافق قرباتر والده، - وليست قليلةً المواقف التي يدينونك فيها بحجة أنك جئت بالجيش التركي إلى أرض الأديغة.

- وأعرف هذا... لا يفترون عليّ بما ليس من ذني. ولكن عليهم أن يعرفوا أي لا أستحق ما يقولون في غيابي. أفضل مئة مرة أن يحتل الروس أرضنا على أن يحتلها الترك. لا يكفي أن الجيش التركي يحمي أنا به لأكون تركيا!.. - لم

يستطع سفري الجلوس. فاقترب من النافذة. وقال بعد أن وقف مدة مفكراً:
- ليس وصفهم لي بالروسي أو التركي مشكلة يا قرباتر. المشكلة حماية أرض
الأديغة وشرفهم. إن قلنا: ليحدث ما يحدث وقعدنا، وسمحننا للشعوب الأقوى
منا أن تنهب أرضنا فماذا سيكون حكم الأجيال القادمة علينا؟ يا حسرتي أيها
الأديغة، أيُّ مأساة تحل بكم!! اسمع يا قرباتر، أرسلُ خبراً إلى حاغور حتى
يأتيني، هذا واحد. والأمر الثاني أرسل إلى الأبراخ عدداً ممن تثق بهم. لا أظن ما
أعطى الأتراك للنائب قليلاً! يجب أن يعرف الأبراخ من متفذيهم إلى نخبة
فلاحيهم، إلى عامتهم، وحتى خدمهم، كم اغتنى النائب من مأساة الأديغة. وإن
قابلت تسي حاترباي ونيكراس تيم كان مفيداً.

بقي سفري مدة على أرض الغرفة لا تسمح له أفكاره بالراحة. كان يفكر في
طريقة للاتصال بروسيا عن طريق الالتقاء بالجنرال فيليبسون قائد الجيش المواجه
للبحر ولكنه لم يكن يستطيع نسيان النائب.

حين سألتُ قرباتر عن الرتبة التي منحها الترك للنائب، قال سفري، تظاهر
باللامبالاة ولكن في الأمر ما يريب. يبدو أن الأتراك تبَنُوا النائب بصفة زعيم
أديغي وأودعوه ثقته وأملهم. وهذا هو السبب في أن عمر باشا كان يسألني
عنه. والآن ربما رآه بعينيه وارتاح. أُعجِب به وإلا ما كانوا منحوه الرتبة وما
يكفيه طوال عمره من المال. متى عرف الأتراك أنهم محتاجون إليك قدّموا لك
كل شيء؛ ما العمل إذن: من الصعب أن تربط الحصان إلى المهر ولكنهم
يريدون تغيير السرج مبكراً جداً. أنا أركبوني سرجهم التركي مرغماً ولم أضع رجلي
في ركابهم طوعاً... ولكن لن أقبل إن حاول الترك إركاب الرجل الغريب!.. وما
الفائدة من كلامي؟ هؤلاء الأبراخ الذين اختلط بهم يروونه مناسباً للحصان.
ومن يفكرون في اعتراضه قليلون جداً.

يجب سفري حين تجاهه الأفكار القلقة أن يقف إلى النافذة بلا حراك فينظر
من خلالها. ولكن ليس في أرض الدار صباحاً ما يُريح القلب. وبعدها وقف
بعض الوقت ينصت إلى المطر الذي يقرع زجاج النافذة لام نفسه بنفسه: وأنا
لا أتصرف نحو الأديغة على نحو صحيح. ما حاجتي إلى الرتبة التركية وقد
عدتُ إلى بلادي؟ ما يقوله الأديغة صحيح. لا يعرفون أين قلبي متجه. افهمني

يا رب. قلبي لا يتجه إلى غيركم. تصاغرت، وتكبرت من أجلكم للروس والترك والإنجليز ولكن دون فائدة، لم أتعف مع أحد. وأنتم لم يفهموكم. كلُّ يحتاج إلينا ثوراً قوياً للفلاحة. والأمراء والمتنفذون الذين أنا منهم يُجيدون التصنع والظهور، ولكن متى صرنا في قبضة أحد الطرفين فلن يهتموا بشيء مما نقول. بل سيهيجون علينا الفلاحين وخدم بيوتنا. وسيفرضون علينا نزاعاً عرقياً بلا نهاية. علينا أن نوحّد أنفسنا في دولة نعرف فيها أنفسنا صالحين كنّا أم طالحين. وإن لم نتصرف هكذا فنحن اليوم في مأزق يعني فناءنا. ما يحمي به الأديغة أنفسهم هو الوحدة، والتفاهم والتفكير المشترك بين أعراقنا! ولا مخرج آخر لنا. ولكن ماذا ستكون الخطوة الأولى؟ في هذه المسألة تبيّن من اليوم الأول أن حاغور أعقلُ مني في هذا الموضوع ولكن لم أضحِ إليه. لم أقبل منه حين قال لي: أوفدنا مؤتمراً الأديغة فصرنا على طريق تركيا. سلكت طريق الهم وأنا أتأمل الأفضل، وجررت الأديغة ورائي. الحق هل سيأكلنا الروس إن صالحناهم ونفدنا طلباتهم؟! سنرى ما يحدث إن تمهّلنا، نحن الطرفين، حتى تبرد عواطفنا المهتاجة... مهما شهرنا عدالة قضيتنا وتغينا بحريتنا فلن نستطيع الانتصار على روسيا. لا يجري لنا ما لا نستحق. كان علينا أن نربي أنفسنا في بيوتنا ثم نحضر الاجتماع كما يقول الأديغة. نريد أن نجبر الأديغة الذين عاشوا حياتهم كالمهار البرية على تأليف دولة واحدة. كان علينا أن نفعل هذا قبل أن يمزقونا وليس الآن وقد تكالبت علينا دول العالم القريبة والبعيدة. تبتسم لنا، ومُتمّينا الأماني، وتتودد إلينا، وتنتظر غفلة منا لتلقي بالحبل على رقابنا فتأسرنا. ولم تكف تركيا وروسيا والداغستان حتى وقفت إنجلترا أيضاً في الصفّ. وفرنسا ترقب من بعيد...

غادر سفري النافذة وقد تصبب عرقاً من الضيق العكبر الذي داهمه. ورحل بعواطفه نحو عامة الشابسغ وقد عاف أنابه لا يريد أن يقيم فيها يوماً إضافياً واحداً، والجيش التركي. وعاد إلى الذاكرة خلافه مع روزيفيتش الذي تحامل عليه، وتسبّب في استقالته من الجيش الروسي أثناء خدمته في أنابه. ليس اليوم فحسب يتذكر أحداث أيام الشباب تلك، بل كلما استغرقه التفكير في قضية

الأديغة ووجد نفسه في مأزق لاحظَ على نفسه هذه الظاهرة. ويبدو من أفكاره ندّمه على ما فعل في الماضي وإن لم يجرؤ على التصريح.

وماذا الآن؟ تنهد سفرّي ثانية، ما الذي جعلهم يقولون: يعصّه الكلب وهو على ظهر الجمل؟ لو استمررت في الخدمة في الجيش الروسي لنجحت في مهنتي، ولترقّيت رتبتي أعلى مما عليها الآن. كنت راضية بحالي لو أن الأتراك لم يورّطوني في ما فرضوه عليّ، ولو بقيت في الجيش الروسي أليست حدودنا متصابقة؟ وما كنت أضّر الأديغة إن لم أنفعهم. وماذا الآن؟ بقيت في الساحة لا من هنا ولا من هناك. وإن حاولت أن أفعل بتركيا ما فعلت بروسيا فهل أستطيع أن أفعل في شيخوختي ما دفعني إليه حماسة الشباب؟ وليس الأتراك من سيعيبون عليّ بل الروس أيضاً... الأفضل التفكير في هذه القضية من كافة جوانبها. إن لمحت لأحد الأصدقاء واستمعت إلى كيفية فهمه للموضوع فلن يضيرني. ولكن بأي حجة أتخذة مستشاراً؟ وهل تحتاج العودة إلى ساحة العمل الأديغي إلى استشارة؟ هذا مستحيل، أيّ أفكار سخيفة تراودني في شيخوختي؟ لم يُعمض سفرّي جفنيه طوال الليل مترقباً الفجر بفارغ الصبر. ونهض مع أول ضوء يتصارع مع أفكاره المتضاربة. وحين تسلل منها نظر عبر النافذة إلى الطبيعة التي غسلتها الأمطار. ولما تأمل في وجه الشمس التي تطل من وراء جبل بيباو انفعّل قلبه، وصحا وهو يفكر في رفع يده وتحية إله الشابسغ. ثم فعل لا إرادياً، ودون أن يدري كيف، ما فكر فيه. وبعدما دعا أن يلفظ بالأديغة ويخفف عنهم عذابهم، لاحظ أن السترة التي عليها الرتبة التركية على كتفيه. غادر النافذة والرتبة تحرق قلبه، ثم خلع السترة كأنه يتهبب أن يمد يده إليها، ورمّاها على السرير دون أن يمد يده إلى الرتبة. ومع الرعب، وفيما هو يلبس اللباس الأديغي صاح إلى خارج الغرفة:

- هيا، أرسلوا وراء ترام!

حين ركب سفرّي وترام لحق بهما ثلاثة حراس أتراك ولكنه أشار إليهم أن يعودوا. ولما خرجا من أنابه قال سفرّي:

- والله نحن في مشكلة مع هؤلاء الأتراك، سواء وافقنا الأديغة والروس أم لم نوافق...

لم يتسرع ترام في الإجابة على عادته حين يرافق الأمير. وانتظر النهاية. وبدلاً من أن يحتتم سفرني كلامه سأله:

- لماذا لا تقول شيئاً يا ترام؟

- لم ألتقط أساس كلامك يا أمير، - كان ترام فهم مغزى كلام الأمير ولكنه لم يصرح. وأفهم رفيقه أنه إن تكلم المزيد في ما يشغل باله فهذا في مصلحتنا.

- ليس عجباً ألا تلتقط، - غمغم سفرني لنفسه، - ونحن أيضاً يحتلط علينا الكلام... ومع ذلك لن نتراجع يا ترام! - غمز الحصان فأسرع.

وصل الفارسان إلى باستوك فُيبل الظهر. وتبين أن من يودون مقابلته في البيت. واستقبل الضيفين بوجه طلق:

- تفضلوا يا أمير، تفضلوا يا سفرني. صحيح ما يُقال من أن من تأتي على ذكره على الباب. كان قرباتر أرسل إليّ فكنت أجهز للسفر إليك. هل هناك ما يُقلق يا أمير؟ جئت بنفسك إلينا مهتماً كل الاهتمام. ما يشغلك يشغلني. وفرحك فرحي يا سفرني.

- منذ زمن بعيد نسيت يا نور مُجد ما تسميه فرحاً. اليوم لا رعب ولا قلق إلى الآن. ولا يعني هذا أن الراحة طاغية علينا. الروس والأتراك يتحاربون، ولا يجوز أن نتظر معرفة الأقوى منهما. والأديغة الذين وضعوا أملهم فينا نتركهم في طريق خاطئ.

- ماذا علينا أن نفعل يا أمير؟ أسمعك. - سأل حاغور من أعماق قلبه رغم أنه لا يعرف الأساس الذي سيكون أساس جوابه. ونظر إلى ترام من طرف عينه.

- حان الوقت للمصالحة التي تدعو إليها مع روسيا يا حاغور، - قال وقد أغمض جفنه الثقيل، ثم رأى تصرفه غير مقبول فتظاهر وهو يرفع رأسه أنه يسأل صديقه الفلاح: - حقاً يا ترام ما رأيك أنت؟

- فات وقت المصالحة يا أمير، - جواب ترام مختصر.

- إن كان الوقت يفوت فدعونا نفكر. لا بد أن أقابل الجنرال فيليبسون.

- ستصرف كما تريد يا أمير. - شَعَّ وجه حاغور بالفرح دليل سروره، - لا بأس بالعلاقات بين راكتيوف وفيليبسون. ولكن يمكن أن يدخل في الموضوع شيء آخر أيضاً.

- ما الذي يمكن أن يدخل؟ - قاطع سفرني كلام حاغور، وأجاب بسرعة. - إن كنت تتكلم على رتبتي التركية فقد فكرت فيها منذ زمن طويل، لا يجوز أن تدخل هذه في قضيتنا الأديفية، أعيدها إلى أصحابها!.. إن وصل تفكيرهم إليها يا نور مُجَّد فلا يظنَّ الروس أنهم غير مسؤولين عنها، ولا ينسوا أنهم تسببوا فيها. أديعيتي لا تتعلق برتبتي بل بقلبي. لا تقلق لهذا يا نور مُجَّد، وثق بي في ما ستفعل... ألم أحزر يا حاغور؟

- أصبت يا أمير!

- لست وحدك المهموم بها يا نور مُجَّد، بل ابني قرباتر أيضاً... الحصول على أي رتبة صعب، ولكن التخلي عنها، صِدِّفني، لا أسهل منه!..

IX

يبدأ مُجَّد أمين بعد عودته من من ضيافة عمر باشا في سوخوم في ملاحظة ازدياد أعدائه في الأبراخ. وليس السبب رتبة الجنرال الذهبية التي منحه إياها عمر باشا، ولا الهدايا القيمة التي تلقاها منه، بل تدخل في المسألة عوامل كثيرة غير منتظرة. وتتصدر الساحة العلاقات الأديفية الروسية التركية. والحرب التي يُقتل فيها الأديفة تشير كل يوم مشاعر عدم الرضا. وتؤدي إلى مزيد من تمزيق العلاقات بين الأعراق الأديفية. وتهدم بقايا الأمل في صدورهم.

وتشير الخلافات الأديفية مسائل أخرى جديدة بالتفكير. ومن بينها استسلام البجدوغ والجمكوي والشرجس والقيرتاي للروس. وليست قليلة المواقف التي يتنازع فيها الأديفة المنقسمون قسمين ويتجاهون. لا يقبل الأبراخ عدم اهتمام البجدوغ والجمكوي الذين صالحوا الروس بقضية الأديفة. والناخوي والشابسغ لا يرون من اللائق أن يُرغم الأبراخ النائب الغريب عليهم.

يقول مُجَّد أمين: لولا سفرني كنا ضمنا تحت علمنا، علم الشريعة، القرشاي الذين اجتحننا أرضهم في هجومنا على جيش الجنرال كولزوفسك ريثما يفيق جيشه من الصدمة... ووجب علينا مع هجوم الشابسغ العودة قبل بلوغنا

القبرتاي. ولكن مشروعا لن ينجح دون أن يتحلى الأديغة بالوحدة. ألم تر كيف تصرف معنا البسلي والشرجس حين عاد جيش الجنرال كولزوفسك إلى حاله كأننا لا نتابع قضية أديغة... لو صالحني آل زانه، الأب والابن، لأقمت وحدة في إقليم الأديغة، وواجهت روسيا بوفرة قومية واحدة، وأرحت الإمام شامل...

وقف النائب إلى السجادة المزينة التي جلبها قبل أعوام من تركيا وتأمل طويلاً الأسلحة المعلقة فيها. وكان من يفكر فيهم عبر الذكريات شخصان: الإمام شامل وزانه سفري. مضى أكثر من نصف سنة على آخر خبر من جهة شامل. ولا يزيد على ما يصله من الأخبار عبر الأسرى الروس على الحرب الدائرة في الداغستان والضحايا الكثيرين من الطرفين. ينوي استدراج الجيش الروسي من البلاد التي جاء منها إلى محاربة الأديغة ولكن لا يتحقق له كما يريد. والذئب في هذا على عاتق آل زانه.

عجبيون هؤلاء آل زانه! قال النائب، يمزقون إقليم الأديغة تحت ستار حمايتها. من الصعب معرفة أين تتجه قلوبهم وأفكارهم وأسرارهم. أحياناً بقلوب تركية، وأحياناً روسية، وأحياناً إنجليزية إن تأملوا منهم مساعدة. لماذا استدعوا الآن جيمس بيل ويدورون به؟ ربما لأنهم سمعوا أن إسماعيل خروزر الخبيث يرسل جيشه الذي اشتراه إلى إقليم الأديغة. لست وحدك يا زانه، ونحن أيضاً ننتظره. سنرى من منا يتحقق له هدفه قبل الآخر!.. انتظري ريثما أخلص من بضعة المتنفذين الأبراخ الذين لا يهدؤون. سأجبركم على أن تعترفوا بكل ما تفعلون في هذا العالم.

كان النائب انتهى منذ زمن طويل من مشكلة المتنفذين الأبراخ، فمذ خريف - شتاء العام الماضي تقبّل فلاحو الأبراخ محمد أمين بصفة إله. وصارحهم دون حرب أو عنف، بعدما ثبتت الإسلام في قلوبهم، بالهدف الذي حمله في قلبه عدة سنين: الدين الإسلامي لا يميز بين زعماء وعامة، كل الناس متساوون فيه. كلمة النائب الوحيدة، وهي فكرة المساواة، جعلت الأبراخ الذين يغلب على مجتمعهم الفلاحون والعبيد يفكرون بقلب آخر. وجعل وجوههم تتجه إليه. ولكن لم يعن هذا أن النائب ليس له أعداء في إقليم الأديغة. ولم يكن

المتنفذون الأبراخ وحدهم أعداءه بل كل الأسر المتنفذة من كل الأعراق. وكالعادة في كل زمان ومكان فمن يُسَلَّب مُلكه يغضب، ومن يُمدّ إليه يفرح. وهذا هو السبب في أن الزعماء استقبلوا بالأمل سفري العائد إلى الأديغة رغم كونه في عداد الجيش التركي. ولكنه يقف مستفيداً من الدهاء والخبث بين النارين اللتين تحرقانه، مخفياً ميل قلبه إلى الزعامات والأسر المتنفذة مثل أسرته لأنه لم يفهم من الخطوة الأولى التغيرات التي جرت في غيابه الطويل. يفكر في الطريقة التي يُربح فيها النائب عن موقعه بين الأديغة دون أن يكسب عداء أيٍّ من الطرفين.

سُمع صوت باب.

- هل يمكن أن أدخل يا نائب؟ - سأل الرجل ذو اللحية والشوارب السوداء، الواقف إلى الباب، ويدل على قربهِ ممن يزوره وقفته وسلوكه.

- هذا أنت يا تومن؟

- نهارك سعيد يا مُحمد أمين.

- غُبت طويلاً.

- نقذت ما ذهبْتُ لأجله.

- اسرُدْ لي!

- ما يقال بشأن زانه سفري صحيح. أعاد أنابه إلى الروس.

- سلّمهم أم طردوه؟

- طرده الجنرال فيليبسون.

- هذا أمر مختلف... - رجع النائب إلى السجادة متمهلاً. وبعدما تأمل الأسلحة مدة مدّ يده وسحب السيف. واستله من غمده. ثم أعاده بقرف. - قيل: كان هذا السيف لسفري، وأعطوني إياه قبل أعوام... لن أدع سيف الجبان العاجز عن حماية أرضه معلّقاً على بساطي. خذ يا تومن، ورماء إليه. افعلْ به ما تريد... - بقي النائب مدة إلى جانب البساط، لم يكن تفكيره الآن نحو آل زانه بل نحو زعماء أسر الأبراخ. ماذا يمكن أن يفعل هؤلاء؟ كان أفضل حلٍّ أن يفكر في طريقةٍ لا يظهر فيها أن له علاقة بالأمر. الآن لم يعد زانه معقّد أمل. حبسه الروس على نحو لا يعرف معه أين يتجه. لو تدخل الترك مع

الزعماء دون أن يورطوني معهم! جعلت الأفكار المفاجئة النائب يرفع رأسه. وامتل الرجل الواقف إلى جانب الباب منسياً من جديد أمام عينيه. وظهر من سؤاله عدم ارتياحه: - ألا تزال واقفاً؟

- أنتظر ما ستقول يا نائب.

- أذيعوا جُن زانه سفري بين الفلاحين. ولْيعرفِ الناس طريقة حمايته لأرضه الأديغة!

- هذا سهل يا نائب... - سننشره في الطرق وفي القرى.

- لم تفكر... - كظم مُحمَّد أمين غضبه. - الخبر لم يأت من ناحيتنا، هل فهمت؟

- فهمتُ كما رأس خنجري مدبَّب يا نائب!.. ما إن أغادر قائمة الباب حتى أفضي فيهم سري المهموس.

- ليس هكذا يا تومن، - بدا على جسد مُحمَّد أمين ارتعابه الخفي الخفيف الذي ما كان يظهر منه، ونادى الرجل المنصرف: - ألم يبق أيُّ حارس وراء الباب الذي تجاوزته؟

- الفلاحون لا يُتْهمون بهذا، إنهم يرصدون. - لم يعرف تومن سبباً لما سمع، فسأل النائب: - هل جعلوك تتوجس من شيء؟

- لم يعجبني تسلُّك إلى الغرفة.

- أهذا ما تقصده؟.. - ارتاح تومن لما سمع ولو أنه تعريض به. وأضاف بعد قليل: - أنا من انتقى حراسك يا نائب، ثِقْ بهم!

جلس مُحمَّد أمين يكتب رسالة إلى عمر باشا. ومزق عدة أوراق لا يجد كلمات الافتتاح. وبعدما جلس واجماً بعض الوقت نادى من في الخارج، وأكد على كبير الحرس الداخل مُفرغاً عليه غضبه: - لا تسمحوا بعد الآن لأي شخص، كائناً من كان، ولو كان أقرب الناس إليّ، أن يدخل من تلقاء نفسه إلى غرفتي! بعدما نفّس النائب عن غضبه بالكلام تحركت الكتابة التي سيرسلها إلى عمر باشا من مكانها. وفي خلال تسويغه لعدم تمكنه من إرسال عشرة الآلاف من الفرسان الأديغة كما وعد، تطرق إلى موضوعات كثيرة، وعدّد له العقبات التي اعترضته، وعلّق ببعض الكلمات الجارحة على زانه سفري وعلى الشابسغ،

دون الإفصاح تماماً عنهم. ومن هَتَكَ سِتْرَهُمْ تماماً هم المتنفدون. وسرد أسماء هذه الأسر صراحة في الرسالة.

أعاد النائب قراءة ما كتب بعدما شعر بخفة جسده ونشاطه إثر هذه الهجمات. ثم أعاد كتابتها بعناية على نحوٍ أجمل. وحين قرر إرسالها إلى سوخوم مع تسي حاترباي، رغم أن اسمه مدرجٌ بين من سيُغتالون، أضاف الكلمات التالية: "أعرف أن أي إنسان يعارض السلطان التركي هو عدوُّ الله، ويُسفك دمه دون إشفاق، وإذا كان الأمر هكذا فحاملُ هذه الرسالة من أشد مثيري الفتنة بين الأديغة. ولو استطاع لما أبقى تركياً على ظهر البسيطة. وأنت أدري بما ستسلكه معه. وما أريد أن أقوله: مهما قررت بشأنه فإنه يجب ألا يعود!"

وفي اليوم التالي استُدعي تسي حاترباي فقال له النائب:

- أنا واثق منك يا حاترباي ولو أنك لا تثق بي. لست وحدي بل كلُّ المؤتمرين في الأبراخ يرجونك إيصال هذه الرسالة إلى عمر باشا في سوخوم. والكبار رشّحوك، واختر بنفسك بضعة الأشخاص الذين سيرافقونك. وها هي نفقات الطريق، جاهزة.

- إذا كان المؤتمر والكبار قرروا هذا فأنا جاهز. - نهض حاترباي من أمام النائب بكل ضخامته مع كلام مختصر، وأضاف: - لا حاجة يا نائب لأن نحلّ هنا موضوع عدم الثقة بيننا. كلّ الأمور ستتضح مع الوقت.

- نعم يا محترم، نعم، - وافق النائب الرجل الذي يساوي ضعفه في الحجم دون أن يُبدي ما يقوله في نفسه: "سيُروّك إن وصلتُ إلى حيث يرسلونك سالماً" - الوقتُ علاج الجميع. رافقتك السلامة يا محترم. وبلغ سلامنا الأبراهيمي شفاهاً إلى عمر باشا فضلاً عما كتبت له.

بعد هذا اللقاء ببضعة أيام سُمعت ضجّة رجالٍ في وقت مبكر أمام باب دار مُحمَّد أمين. أنصت النائب مدة لا يعرف تفسيراً لما يجري. ونظر عبر النافذة. ولم تتوقف الضجة رغم انعدام خطرٍ محتمل. فتح مُحمَّد أمين الباب دون أن ينادي أحداً في الخارج مستعداً لأي طارئ. ولما نظر إذا بثلاثة من حراسه في مجابهة تومن، يمنعونه من التقدم.

- ماذا يجري هنا؟

- يريد تومن أن يدخل وحده إليك رغماً عنا يا نائب. - قال الحارس الأسن.
- لا أعرف ماذا ينوي هؤلاء، يتظاهرون أنهم لا يعرفوني.
- لا تلمهم، يؤدون واجبهم.
- ولكن هل انتفت الإنسانية؟
- هؤلاء لا يتحلّون بالإنسانية إلا معي. - حسم النائب، - أَدْخِلُوا تومن إليّ إن كان له مهمة معي!
- ما إن أغلق الباب بقفا يده حتى همس تومن:
- نعم لي شغل معك يتعلق بحياتك يا نائب! - المتنفذون يخونونك!
- من في الأبراخ يستطيع أن يفعل مثل هذا؟!
- في الأبراخ مثل هؤلاء، وتسي حاترباي قائدهم.
- وماذا ينوون؟
- يطوفون على القرى، يقولون إن النائب غريب وهائم على وجهه يتدخل في أمورنا، يفسد حياتنا. يدورون برسالة كتبتهَا أنت، قائلين: ها هي خيانتة أمامكم! يلوّحون بالورقة دون أن يقرؤوها. ينوون عقد مؤتمر للأسر المتنفذة قبل ظهر الغد.
- امتّقع لون مُجد أمين حين سمع بموضوع الرسالة. وصبَّ الرعب الذي أصابه نتيجة ما كتبه بشأن تسي حاترباي العرق على جبينه. ولكنه على عادته حين يمثّل أمامه خطر داهم من أي نوع كان، عاد إلى وعيه، وسأل عن مصدر الخبر وهو يتراجع بخطوات هادئة:
- أيُّ خبر سخيف هذا الذي سمعته يا تومن؟
- لو لم أكن بعقلي لما جئت إلى هنا... ليس ما جئتُ به خيراً للتسلية.
- حياتك وحياتي ترتبطان به. نشبت فتنة في أرض الأبراخ تخرج بالناس إلى الشوارع. صدق قولهم يا نائب: وَلَدَ الضيقُ فأنجب الانفجار. ليس الخبر الذي جاء بي إليك مما يمكن تجاوزه. لا أعرف لماذا لم يُطْلَعوك على هذا الخبر وقد مضى عليه يومان.

- لا تقف أمامي يا تومن؛ اجلس!.. - قال مُجَّد أمين، بين الغاضب والشفيق، وقد عرف أنه هو مصدر الخبر، وأسرع بالسؤال: - يبدو أن الزعيم تسي لم يصل إلى سوخوم؟!
- لم يخطُ تسي خطوة خارج الأبراخ!
- أليس مارس الخيانة معنا إذن؟
- يقولون إنك مارستها معه ومع المتنفذين.
- من يقول هذا؟ الفلاحون؟
- عامة الفلاحين لا يقولون شيئاً إلى الآن يا نائب... المتنفذون ونخبة الفلاحين هم من مدوا أيديهم إلى سلاحهم. ولا يقتصر الأمر على الأبراخ بل وصل إلى متنفذي الشابسغ ونخبة فلاحهم. ويتناقلون خبراً مفاده أنهم أرسلوا إلى متنفذي البجدوغ ونخبة فلاحهم.
- وما الذي يوصلهم إلى البجدوغ؟.. ما الذي لا يعجبهم؟ نخض النائب وشرع يتجول على أرض الغرفة. وكرر: - ما الذي أوصل هؤلاء إلى البجدوغ؟.. لا حاجة أن أتحدث عن زعامات الشابسغ... هؤلاء لهم من يُخضعونهم. ماذا يحضرون للبجدوغ الذين تحولت قلوبهم إلى روسيا؟!
- قيل إن الأمراء والنبلاء يتجابهون في البجدوغ. وقيل إن الفلاح خناقوه المتعطش للنبالة جعل من نفسه نبياً.
- هكذا إذن!.. - لم يهتم مُجَّد أمين كثيراً بالحديث لأنه لا يسمع ما يحدث في البجدوغ لأول مرة. ولكن لم يتمالك أن قال: - البجدوغ أفلتوا متاً... ولكن ينتظرهم مني أن أجبرهم على قَسَم الولاء لي. - وأضاف بعد قليل: - هكذا إذن، تبين أن تسي غير ما توقَّعتُ. ربما كتب الله الذي يبتهلون إليه ولا يبتهل إلى أحد هذا المصير له. ظننت أني أقصر سيطرة المتنفذين من أمثال تسي ولكن رأس العصا المدببة انثنت نحوي. ماذا أخبرني يا تومن عن موقف عامة الفلاحين؟
- إلى الآن لا موقف لهم... لا يجدون من اللائق أن تطلب من تركيا اغتيال مئة وخمسين من المتنفذين... يقولون: من يفكر بهذه الطريقة تخطر له أفكار أخرى... وليسوا قليلين من يقولون: الظالم يجب أن يُقابَل بالظلم!

- إلى هذا الحد؟! - استدار النائب بسرعة، وأضاف وعينه تستديران في محجريهما وتلمعان: - عامة الفلاحين الأبراخ ينسون معروفني بسرعة... ألسْتُ من حرهم من ظلم المتنفيين الجهمين؟! ألسْتُ من نشر المساواة في الأبراخ كما يأمر الإسلام دينُ الله؟!

- أنت يا نائب، أنت... - أجبرت عينا النائب المتوهجتان كجمرتين تومن على القيام.

- إذا كنتُ أنا فما الذي جرى لعامة الأبراخ؟

- حرية الأبراخ تعني الكثير يا نائب، وأنت تعرف هذا من دون حاجة إليّ. - نعم تعني الكثير... - قال مُجد أمين وكأنه خجلٌ من حميته، وبدأت الأفكار التي يحضّرها لحماية رأسه تصطرع في رأسه. وسأل بعدما خطا بضع خطوات على أرض الغرفة: - ماذا نعمل إذن؟

- عليك أن تفكر يا نائب بالابتعاد بشخصك... - قال تومن وكأنه يعرف الحاطرة التي فاجأت محادثته.

- هل تقصد أن أغادر الأبراخ؟.. - سأل مُجد أمين مرتعباً مما سمع ومما قال، وأجاب نفسه بسرعة: - لن أليّ هذا الطلب إلا الله سبحانه وتعالى، وللإمام شامل.

- لم أقصد إلى هذا الحد يا نائب، - برأ تومن نفسه بهذا الكلام، - كان من الأفضل أن تلتجئ إلى رجل قوي يمكنه أن يحميك إلى أن تنجلي سحابة الفوضى التي أحدثها المتنفيون والنخبة.

- هذا شيء آخر.

- وكن واثقاً منا يا نائب من جهة أسرتك وأملاكك. وسنوصلك حالاً دون أن يعرف أحدٌ إلى بولتقوه. وسنجد مكاناً لأملاكك لا يصل إليه حتى الذباب. لا تتهاون، والآن حالاً ضع رجلك في الركاب يا نائب!

تبين أن الواقع أكثر مما نقله تومن. الوضع متوتر جداً في أرض الأبراخ كسرب نحل متمرّد يطير فجأة من أعلى الشجرة إن هيّجته.

تعددت روايات ما فعل النائب من شخص إلى آخر، هذا يُضيف وذاك يحوّر حتى صار من الصعب على من بدأ القصة التعرف عليها. يجتمع عامة

الفلاحين على زوايا أسوار بيوتهم وقد نسوا موضوع الورقة التي حملها تسي حاترباي من قرية إلى أخرى. لا موضوع يتحدثون فيه إلا النائب الذي وثقوا به أمس. وكل الأحاديث تؤول إلى أن النائب باع أرض الأبراخ سرّاً إلى تركيا، ولعب على قبور الآلاف من الذين سقطوا يحمون بلادهم من روسيا، ولم يردعه قانون الشرف الأديغي، ولا تتطابق أقواله وأفعاله. وما لم يتقبله أي إنسان هو اختفاء النائب في مكان لا يعرفونه. واعتبر الجميع، ليس لابسو القبعات فحسب، بل لابسات غطاء الرأس أيضاً، سلوكه جبناً.

كان لمحمد أمين كثيرون في الأبراخ يمكنه أن يلجأ إليهم غير أنه لم يكن يعرف كيف يختار أحدهم بالتحديد. وبعد عدة أيام من المسير الخفي، وقد عرف أن الإنسان الغاضب مهما غلب عليه الظلم فسيهدأ في وقت ما، ودون أن يفقد الأمل، ناصحاً رفيقيه أنّ يوم النحاس سيعقبه يوم سعد، فوجئ في منعطف الطريق غير بعيد عن قرية دخاباه بمن يتبعونه من المتنفيين ونخبة الفلاحين وجهاً لوجه. ولما كان المخرج الوحيد هو الاعتماد على القيم الأديغية وجد محمد أمين نفسه مضطراً للجوء إلى بيت نيكراس تيم...

X

- يا والدنا، خيرٌ سعيد! - دخل قرباتر إلى المضافة. - هناك حركة نشيطة في الأبراخ.

- ليست في الأبراخ وحدها، في كل إقليم الأديغة!

- الأبراخ يجاهون النائب.

- أنا توقعت هذا!.. - رفع جيمس بيل رأسه عن طاولة الزهر سريعاً، وأبعد الطاولة، ورمى "الزهرتين" اللتين بيده عليها.

- الأبراخ يدّعون أنه ليس عندهم أمراء ولكنهم مقسمون كسائر الأديغة إلى ثلاث طبقات، - قال سفرلي متمهلاً، متفحصاً الأرقام على الزهرتين، - زعماء الأسر المتنفة، ونخبة الفلاحين، وعامة الفلاحين. نعم يا جيمس كأن الخبر لم يعجبك؟

- أنت مخطئ يا أمير. أنا كنت أنتظر منذ زمن بعيد ما يجري الآن...

- من الآن يا قرباتر، - يسأل سفربي ابنه دون اهتمام بجواب الضيف، - من بين من عددت أسماءهم استطاع مجابهة النائب؟
 - ربما زعماء الأسر المنتفذة... - لا يزال جيمس بيل غير راغب في إنهاء حديثه. - حذرته كثيراً من معاداتهم، ولم يسمعي.
 - في ما خمنته شيء من الصحة يا جيمس، - وافق قرباتر أيضاً الضيف، - أطلق "مسدسه القديم"¹ النار من تلقاء نفسه فيما يناكف المنتفذين فأذى نفسه. كان ينوي دفع الأتراك إلى قتلهم دون أن يظهر هو في الصورة. وهذا ما لم تقبله نخبة الفلاحين، وأثار عاصمتهم!..
 - والنائب نفسه أين؟
 - الخبر المنتشر في هذا الشأن عجيب يا والدنا... يقال إنه احتفى بأديغة نيكراس تيم!

- عجيب، ما الذي يجمع هذين؟! - اتسعت عينا سفربي الصافيتان، - كل خبر أغرب من سابقه... - ما العمل إن كنت مضطراً؟ تخفي رأسك في فم الذئب... تبين، على ما يبدو، أن تسي حاترباي الذي كان يحمل حتفه بنفسه، كان أذكى من النائب، لم يطمئن إلى أن قرأ ما في الرسالة. هذا ما يمكن أن يفعله بك النائب. أكان النائب الذي جاءنا يوماً من الغربة يريد أن يشق حرباً على الأمراء - النبلاء، وعلى المنتفذين، الذين حافظوا منذ الأزل على قوانين الشرف الأديغي؟ - سأل سفربي وهو يقاطع أفكاره المتعلقة بالأبزاخ ولا يقاطعها، وأضاف بسرعة. - والله لا أستطيع أن أشمت بالنائب لما جرى له، ولكنه أخطأ فيما أقول إن النائب ذكي لا تنقصه الرجولة. وقصّ الغصن الذي يجلس عليه. قلت له مراراً إن توليك زعامة عرق لا تعرف طبيعته تحت شعار "الله أكبر" لن يوصلك إلى البعيد. ستضلّ في أول مفرق من المفارق السبعة للطريق. - نهض سفربي ثقيلًا تغلبه الشيخوخة والباخسمة التي احتسأها. وبعدما وقف مدة إلى النافذة ويداه خلف ظهره قال لمن وراءه: - ونحن بصعوبة نقودهم يا مبارك النسل رغم أننا أديغة!.. ثم استدار بسرعة وقال لضيفه: - أنا أعرف ما جرى له يا جيمس... بالغ النائب في الثقة بالرتبة التي

¹ الأهلة من المؤلف.

مدها إليه الأتراك والتي رميتها بشخصي. وأنا دفعتني هذه الرتبة كثيراً إلى الخطأ. نعم يا جيمس، نعم، أعرف ما ستقول. بالغنا دون حاجة في الثقة بالأتراك. وأنت تبتهني إلى هذا كثيراً ولكنني رفضت الاقتناع. هذا أمر مضى، ولكن إذا لم نعرف ما أماننا فسنهلك نحن والأديغة. وفي هذه الحال يا قرباتر، - توقف سفري بصعوبة على أرض الغرفة، - أظننا وقد انتهى أمر أسلاي مُجد أمين في الأبراخ هكذا، وضعنا قدماً على طريق وحدة الأديغة. وعلينا السعي منذ اللحظة إلى ما يستلزمه هذا الوضع. أنشروا موفدين إلى الوبيخ والبجدوغ والبسلني. وبلغوا الرعماء ونخبة الفلاحين في الأبراخ وقوفنا إلى جانبهم. ولا تُحملوا عامة الفلاحين. أنشروا آراءكم بينهم، وازرعوا فيهم الأمل. كان يريد أن يضيف إلى أقواله أن وحدة الأديغة الآن فوق الجميع خلافاً للسنوات السابقة، وإن وافقنا الروس صالحناهم، وحمينا أنفسنا، ولكن لم يجد هذه الأفكار لائقة أمام ضيفه. امتدح بلاد ضيفه: لم يتركونا في الميدان وحيدين ولكنهم يماطلون في قضية الأسلحة التي وعدونا بها... الحق أن ضيفنا عمل ما يؤسعه في هذا الشأن. ولم يتأخر خروزر إسماعيل بيه في تأليف الجيش الموعود، ولا فائدة من الاتكال على الجيش التركي المهزوم من الروس.

- لا أعرف الأتراك يا سفري، - ساهم جيمس في النقاش. - ولكن ثقوا في إنجلترا. لن يخذعكم القلب الأديغي لإسماعيل بيه. وأما النائب فلم تقل بحقه ما لا يستحقه. كان مبالغاً في الثقة بنفسه. ولكنه مع ذلك ليس الإنسان الذي لن يستعيد توازنه. أتوقع أن يأتيه كثيرون من عامة الفلاحين من الأبراخ العليا يسندونه. وأتمنى ألا تحملوهم أيضاً. ولكن ما لا أفهمه مع ذلك شيء واحد: لا أفهم لماذا يتوجه النائب إلى الأبراخ الدنيا، لا إلى العليا. وكذلك لا أفهم لجوئه إلى نيكراس تيم. نعم يا أمير من يُضطرّ يفعل أي شيء. أكان يفكر في الالتجاء إلى برزج جراندوقوه؟ إن كان ما يقال صحيحاً فلا يخطر غيره على البال.

- أنت مخطئ في شأن جراندوقوه يا جيمس، - لم يقبل سفري، وأضاف حين عاد إلى المائدة، وأتى على كأس الباخسمه: - لنقل إذن إن النائب كان ينوي الالتجاء إلى... ما إن تحتاز مرتفع قُماتر حتى تظهر أمامك دخاباه. ليست هذه

مشكلة. أهمُّ ما أماننا هو إنهاء قضية النائب. أسرع يا قرباتر وتابع ما أوصيتك به. أرسل إلى نيكراس تيم موفداً يسأله عما ينوي بحق من التجأ إليه. ونحن، جيمس وأنا، سنسافر إلى الوبيخ، ونزور برزج. ولينتظرنا فلاحو الشابسغ جاهزين ريثما نعود. أعلموهم بما حدث في الأبراخ على حقيقته.

الخبر نفسه كان في الوبيخ وإن غلب عليه تعدد الروايات. ورثما وصل فرسان الشابسغ إلى الوبيخ كان ما يجهله هؤلاء هو ما حدث في الأبراخ. وهذه رواها جراندوقوه لضيفيه، سعيداً دون أن يُسقط منها كلمة واحدة. وأنهى بهذه الكلمات:

- وأملاك النائب تناهبوها. وبيته أحرقوه لم يبق فيه عمود. وقد رواه لي من يعرف جيداً وإن لم أر بعيني. والله لا أعرف ماذا سيكون رأيكم. ومُحمد أمين دخل بيتي أكثر من مرة. وذاق من طعامي، جعله الله حلالاً عليه! ولكن لا أجد ما كان ينويه بحق المتنفذين جائزاً. ولكن من خطرت له هذه الفكرة، فكرة اغتيال المتنفذين، لابد أن يتذكرنا نحن أيضاً. ما رأيك أيها الأمير سفربي؟

- ونحن تكلمنا في هذا الموضوع. - قال سفربي دون أن يرفع جفنيه الأشقرين الثقيلين. - لا شك في ذلك، - وأضاف بعد قليل: - لا يُطعن الخنزير القليل. ومع ذلك يا جراندوقوه علينا أن نساfer إلى الأبراخ. فلاحو الشابسغ جاهزون. - وسأقول لك ما ينوي فلاحو الوبيخ: أقدامهم على ركائب خيلهم.

- أنا واثق منك يا جراندوقوه في هذا.

- أفضل الموت على أن ينزع الناس الثقة عني يا أمير! - تأمل برزج ضيوفه منتشياً بما قال. وسرّت على وجهه ابتسامة مراعاة خفيفة. - سأجعلكم تنظرون إلى أبعد من هذا إذن... لماذا لا تقول شيئاً يا جيمس؟ أظننا أملكناك من موضوعات الأدبغة.

- عيبٌ عليّ أن تراودني مثل هذه الفكرة يا أمير!

- طبعاً، لن تفكر هكذا، - وسأقول لكم ما سميت به بالنظرة الأبعد: كنت أرسلت أحد فلاحيّ إلى عند نيكراس قبل أن أعرف ما يحدث في دخاباه، وما رآه عجيب، بيت نيكراس تيم محاصر من قبل المتنفذين، وتيم في مواجهة

المتنفذين بزعامة تسي حاترباي قائلاً: هل نسيتم أديغيتكم، ليكن من يكون، حتى لو كان عدواً، لن أدع من يؤذي شعرة من اللاجئ إليّ يدخل بيتي. - أحسنت يا قريبي، - سفربي مرتاح لِمَا يسمع وإن استغرب. تمارس الرجولة الأديغية على حقيقتها يا صديقي. كلنا، أنا وغيري، عليه أن يفعل ما يفعله تيم. أنتنازل عن الأديغية التي ولدنا فيها وربينا لأن الحمية تأخذنا ورائحة الدم؟! من الآن قلبه قلبٌ روسي؟ أهو نيكراس تيموفيه أم النائب؟ كان النائب حبس تيم البريء لا يعرف أين يضع رأسه، وانظر الآن كيف قابل النائب؟! - لا تستغربوا هذا، سأروي لكم الأغرب: لا يترك المتنفذين المحاصرين بيته جوعى، ذبح لهم خروفاً.

- كان الأفضل ألا أسمع هذا، - ابتسم سفربي وقد تخيل حال تيم، - لا أوافق صديقي على هذا!

- وأنا أيضاً، وافق جيمس، - عليك أن تعرف على من تنفق مالك . - ولكن هل يقتلع الرجل عينه؟ أديغيته فوق الجميع. وما سأختم به هذا الخبر الآن أعجب من كل ما رويت. كنه نيكراس تيم الروسية كانت قُتلت إذا كنتم تتذكرون. والآن قاتلها المجرم تومن يقيم في بيت تيم مع النائب لاجئاً!.. - ماذا تقول؟! - لم يصدّق سفربي ما سمع.

- نعم يا أمير، نعم!.. هو المجرم تومن الذي بحث عنه تيم طوال العام!.. هو نفسه المجرم الذي كان مُجَّد أمين يدّعي جهله به!..

...

لم يطأ غرفة مُجَّد أمين طوال ثلاثة أيام إلا من يُدخل إليه الطعام. ولم يتكلم نيكراس تيم مع ضيفه اللاجئ إلا بضع كلمات في اليوم الأول، بل لم يكن مستعداً لأن يجلس مع الضيف في المضافة يروي له الأخبار ويؤنسه. كان همه الأول هو تهدئة المحاصرين بيته ومنعهم من أي خطوة خاطئة. وكان عامة القرية الذين يُثمنون الشرف يدعمونه.

وَمُجَّد أمين من جهته لا يريد أن يكلم أحداً. يقضي ليله ونهاره جالساً على سجادة الصلاة أمام الله. وطوال هذه المدة لم يستطع تومن الذي يتعلق بالحياة أن يمثل أمام النائب. ما إن يطل من شق الباب حتى يشير إليه بعدم حاجته

إليه ويطلب منه إغلاقه. وكلما تعب من الجلوس على سجادة الصلاة استراح قرب النافذة المطلة على الغابة من بين نوافذ الغرفة الثالث. ولكن المتنفذين كانوا كثيرين في هذه الجهة كما على زاوية البيت.

أفكار النائب الذي وقع في حفرة الأسر، والذي أمله في الله، تتركز إلى الآن في الوقت الذي سيجلب له الراحة، وفي مضيفه. كلما مضى الوقت على أسره، رغم صعوبة انقضائه، كان في صالحه. ألا يمكن أن يتذكره بعض الناس ويفزع بعضهم لمساعدته؟

يقول النائب، هذا الوقت، بعد الله، مهدئ النفوس، تلك التي فيها الخير والأخرى التي ليس فيها، ودواؤهم. قد أكون أسأت إلى بعض الناس ولكن لم أعش حياتي دون أن أفعل المعروف. وهؤلاء سيدكرونني والله معينهم، وسيرققون قلوب الظالمين القليلي الشفقة. ونيكراس تيم ذو القلب الروسي الذي كانوا يشون به إليّ، تحلّى، حياه الله، بالروح الأديغة التي ليست في الزعماء. يؤدي لي مجابهاً أعدائي بصدرة، ما لن يؤديه لي أقرب الناس إليّ. أفهم سبب تحالف المتنفذين ونخبة الفلاحين. في بداية مجيئي إلى الأبراخ أليس عامة الفلاحين الذين أصبحوا الآن من النخبة هم من أزاحوا متحالفين معي المتنفذين الثقيلي الظل؟ والآن يدفعهم المال إلى فعل شيء آخر. يخافون أن يفعل بهم المتنفذون ما فعلوا هم بهم... ممن يخافون؟ الفلاحون الفقراء الذين يبدون احتقارهم لهم!.. هؤلاء إن لم يفعلوا شيئاً لمساعدتي فلن يظهر في الأبراخ من يساعدني. يا إلهي الذي يتوسلون إليه ولا يتوسل هو إلى أحد، يا إلهي أشفق عليّ. ودكّر لي الفلاحين الذين معروف حلال عليهم. وأفهمهم أنهم إن انتصر المتنفذون سلبوهم حريتهم. لا مخرج لي ولا معين غيرهم الآن!..

حين نظر تومن من شق الباب ناداه النائب.

المجرم العاتي الذي كانت قوته تخرج عن سيطرته وأهنه حصار الأيام الثلاثة. تهدلت جفونه، وانحنى كتفاه على نحو ملحوظ، وانطفأت نظرة الصقر في عينيه، ولا يبدو من ظلمة ما وراء الباب. نظر النائب الذي بدأت أفكار التفاؤل تعيد إليه وعيه إلى حارسه الذي مرآه يُحبط الآمال نظرة احتقار، وسأله:

- ما الأخبار؟
- لا أمل يا نائب!
- كلنا نأتمر بأمر الله. لا يجعلنا الله ممن يفقدون الأمل. وهذا ما كان قاله الله لي حين وقفتُ في حضرته... ولكن إن كنت تريد أن تنجو بجلدك فأنت حر يا تومن، لن أجنّي عليك.
- الروح غالية، لا شيء يردعها عن أمرك بما تريد. إن كان هذا رأيك فأنا أبحث عن نقطة ضعف أهرب منها!
- أيّ نقطة ضعف تقصد؟
- هل يمكن يا نائب إذن أن نجلس هنا نستمع إلى المتنفذين يسنون خناجرهم؟ ومن سيفعل هذا إما أنت وأما أنا. وإن لم توافق فسنجري بصراحة قرعة حتى لا أظلمك. فإن فزت كان أفضل، وأفكر بعدها بحلّ لنفسي.
- قل لي دون مبالغة!
- ألا تتذكر صبيّاً يأتي إليك أحياناً يتكلم الروسية والأديغية معاً؟
- نيكراس عليمبج!.. - لم يسأله بل صاح به...
- لا تصرخْ مخافة أن يسمعوننا... هذا الصبي المنحوس الذي لعبت معه صباح اليوم لعبة الكعوب... هو ابن روسية. ليس هناك أفضل من أن تضمه إلى صدرك وتُشهر المسدس على رأسه، وتخرج تاركاً المحاصرين في حيرة، إلى الغابة الصبي...
- أسكت يا عديم الإيمان!
- حين تصل المسألة إلى الحياة والموت يا نائب...
- طلبتُ منك أن تُطبّق فمك!- لم يدع النائب المجرم يكمل كلامه. وخشي أن تحظر فكرة مرعبة للواقف أمامه بحقه فانسكب العرق البارد على قلبه. وأنهى بنبرة ألطف: - لا تدع مثل هذه الخاطرة الإجرامية تراودك. اذهب، لاحقاً سنرى ما يحدث... لا تتركني وحدي وتخطّ خطوة واحدة خارج البيت الروسي. ولا تتصرف خارج علمي!

قضى مُجَّد أمين فترة الصباح لا يعرف فيم يفكر بسبب ما سمع. وحانت صلاة العصر وانقضت. ورغم أن الظلم يغلب على طبعه فلم يكن يريد أن يتسبب في الظلم. بل إن أهم فكرة من أفكاره اليوم كانت حماية رحمة من التجأ إليه فجأة. قطع الصوت الصادر من الفناء أفكار النائب الذي انتهى للتو من الابتهاال إلى الله مع صلاة الفجر وتعليق أمله به، وتعرّف صاحب الصوت، فأنصت مغلوباً بالرعب.

- يا تيم، لا تؤاخذني، - صاح تسي حاترباي من فوق باب الدار، - انتهت مهلة الأيام الثلاثة لضيّفك. وحن الوقت لنقول ونفعل ما نريد. وقد تحررنا مما تفرض علينا أديغيتنا؛ فهل تسلّمنا الحائنين اللذين في بيتك أم نفتحم ونأخذهما؟

- يا حاترباي، لماذا تهينني بكلامك؟ من في بيتي لاجئ خائف على روحه، وليس ضيفاً.

- من في بيتك يا تيم عدوك. - صاح واحد من النخبة من وراء تسي، - ها أنت أيضاً اسمك في رسالته إلى عمر باشا، - يهزّ له الورقة.

- أعرف أنا واحداً ممن يوصي النائب بقتلهم. ولكن طلبكم إخراج عدوي من بيتي لا يتفق مع الأديغية. وإن كنتم لا ترعوون من أديغيتي فاحسبوا حساب الأديغة الذين سيسمعون بالخبر، لا تجلبوا لي العار. أقول على مسمع من الجميع: لا تتحملوا وزر ما سيجلبه لي خنجر الإهانة!

- هذا الذي لجأ إليك ليس عنده شعور بالإهانة!

- هذا شأنه يا حاترباي.

بعد صلاة العشاء طلب مُجَّد أمين من تيم الخروج من الغرفة، وقال له بعدما اختلها:

- لم أفعل بنفسي ما لم يكتبه الله عليّ يا تيم. لا أهتم أحداً في موضوع الورقة التي ذكروها لك اليوم. أذيت نفسي بنفسي وأنا أظنني أعمل لحماية الأبراخ. لا أندم على أني كنت أنوي توحيد الأعراق الأديغية المتناحرة من أجل حماية بلاد الأبراخ، ووضع الزعماء والفلاحين الذين أفسدهم المال في موضع رهبة، ونشر فكرة المساواة بين البشر. الأسرة التي ليس فيها خوف وخجل ليس فيها عادات

وتقاليد. الظلم فيه جانب من الخير، والخير يجلب معه الظلم. لا أحد إلا الله سبحانه يعرف ما ينتظر غداً. حياك الله، تعاملت معي بإنسانية وروح أديغة. أوقعْتُك منذ أيام في ضيق وقلق. صدَّقني لو عرفت أن البيت الذي صار ملجئي هو بيت نيكراس تيم لما ارتويت تحت جناحه. ليس لأنك في عداد الأشخاص الذين كنت سأظلمهم، لا، ليس هذا السبب! مهما تحليت بالشفقة عليّ، ومهما عاملتني بالإنسانية، ومهما عملت بإسلامك، سأمُحني، دمك لن يتوافق مع دمي. الدم الإسلامي المعادي للكفار جاء بي إلى الأديغة، وأنا لا أندم مهما جلب لي هذا من مصائب. إن رحمتنا الله، وأحياناً إلى صباح الغد فسنفكر في ما علينا فعله. سأقابل المتنفذين غداً جالباً عليّ قضاء الله مهما كان، ومحافظاً أنت على شرفك... لا تؤاخذني...

- ولماذا أوأخذك وقد صارحتني بحقيقة ما في قلبك، - قال نيكراس تيم للنائب اللاجئ الذي يرى نفسه يقيم في بيت غريب، - ما ستفعله شأنك أنت، والله الذي نبتهل إليه جميعاً شاهدي. لا أحملُك على أن تفعل ما لا تريد. تصبح على خير.

- حياك الله، اسمعني - همس النائب لتيم الذي وصل إلى الباب، - أوّد أن أقول لك شيئاً آخر أيضاً: احذر من المجرم تومن!

- لا أنسى من هو مديّن لي بإنسانيّتي يا نائب، تصبح على خير!
حلّ النهار المرتقب فجأة على مُجدّ أمين. وجاءه المدد من الجهة التي لم يكن ينتظره منها. ومن كان السبب في بدايته هو سفري.

ما إن سمع سفري بما كان مُجدّ أمين ينوي فعله بزعماء الأديغة حتى باشر بإجراءات عزل النائب الغريب عن الأديغة وتقديم نفسه زعيماً لهم. وثار عدد كبير من المتنفذين، ومن نُخب الفلاحين، الساخطين على النائب في أماكن متعددة من إقليم الأديغة. وجاءته وفود كثيرة إلى قُماتر. وكان الجيش المسلح المِعَدّ لمساعدة الأبراخ جاهزاً، ولكن هدف سفري مع عامة فلاحِي الأبراخ لم يتحقق. فقد تنادى هؤلاء حين أحسوا بخطورة تراجع من نصّبوه بديلاً عن المتنفذين، وأن المساواة ستزول من مجتمعهم، وعرفوا نوايا متنفذي الشابسغ، ورأوا أن النائب الذي اعتادوا عليه خيرٌ ممن لم يعتادوا. وتوافدوا إلى دخابأه.

أول من سمع توافد الفلاحين وتدافعهم هو حاترباي. وقد فهم من لحظتها أن نوايا المتنفذين لن تتحقق، فلجأ هو ومن لن تتحقق أهدافهم إلى عمق الغابة. كان مُجد أمين يدعو إلى الله في كلماته الأخيرة أن يهَوِّن عليه ما سيفعله به المتنفذون، وأن يغفر له ذنوبه، غير أنه فهم أن هناك خبراً ساراً لما هُرع تومن إلى غرفته في حين كان يُنصت إلى الضجة التي في الشارع. ولكنه كتم انفعاله. ولما انتهى من صلاته سأل وهو ما يزال مديراً ظهره:

- أيّ ضجيج يثيره الفلاحون؟

- لم يضع معروفك يا نائب!.. الله تفهّمنا!.. الفلاحون وقفوا إلى جانبنا!..

- ماذا يقولون؟ - جلس متمهلاً يقلب حبات السُّبحة.

- مأساة النائب مأساتنا.

- والمتنفذون؟

- المتنفذون هربوا من أمام الفلاحين الغاضبين يا نائب. - تومنٌ كبيرٌ يسد

الباب غيرُ تومنِ البارحة، والعينان تلمعان. - يطلبون مقابلتك!

- نادِ مضيفي تيم قبل أن أفعل هذا!

دخل تيم إلى الغرفة فنهض له مُجد أمين وقال له:

- كنتُ يمسُتُ يا تيم فشكراً لك. - وضع مُجد أمين يده اليمنى على صدره

وأشار إشارة احترام. - لن أنسى معروفك طوال عمري. إن كان عندك طلبٌ

فأخبرني. لا شيء أحجبه عنك.

- شكراً لك يا نائب. عملت واجبي، وأنا واثق من أنك كنت ستفعل مثلي لو

كنت في موقعي كأديغي.

- لماذا لا تترجاه أيها المسكين، لا شيء يمنعه النائب عنك، - قاطع تومن

المتكلم لا يستطيع صبراً.

- ولكن لا أعني بهذا، - نظر تيم نحو الجرم مستاءً من مقاطعته، وتابع كلامه

مُشعراً أن مغزى كلامه موجه إليه، - أن أحقق كل ما يطلبه عدوي مني. لا

أكتمك، عندي رجاء لك يا نائب، ولكني لن أقوله في بيتي أو في فناءه أو في

قريتي. وإن شئت الحق فليس هذا رجاء بل ما يريده القلب!..

...

خرجوا من دخابأه على رأس بضعة المئات من الفرسان الذين أعادوا له الحرية، وارتقوا المرتفع فأوقف مُجَّد أمين رفاقه، ووقف هو في الساحة:

- يا نيكراس تيم، تجاوزنا حدود دخابأه. هات ما في قلبك على مسمع من كل هؤلاء الفلاحين!

- أيها الفلاحون! - دخل تيم إلى وسط الحلبة. - لم اكن أودّ أن أطرح أمامكم مثل هذا الموضوع اليوم، ولم أدّخر جهداً كي لا أطرحه. ولكن ما العمل؟ لم أستطيع أن أكَيِّفه كما أشاء. حزني وطلبي يتعلقان بالمجرم تومن. إنه قَاتِلُ كَنَّتِي!..

أسرع تومن إلى الساحة وكأنه يحمل الحصان الذي يركبه بين فخذه، وقد أفقده ما سمعه لونه، يقول للفلاحين وهو يدور حولهم:

- هل تسمعون ما يتّهمني به ابن الروس، ابن الكفار؟ أنا بريء يا أفندي. أنا مظلوم يا نائب. هل تسمع ما يتّهمني به؟

- أسمع يا تومن، اسمع... - قال مُجَّد أمين، وسأل الفلاحين: - من يشهد على صحة ادّعاء نيكراس تيم؟

- أنا رأيْتُ بعيني، - خرج أحد الفلاحين.

- وأنا أيضاً، - وقف إلى جانب الفلاح الأول فلاحٌ ثانٍ.

- هو تومن نفسه روى لي!.. - صرخ فارسٌ ثالث.

- جباغ! - نادى النائب الحارس الذي على يمينه، - قَيِّدُوا المجرم وارموه في الوادي!..

سُمع على الطريق الذي سلكه نخبة الفلاحين بعد قليل من مسيرهم صوت استغاثة تومن تَرُجُّ أرجاء الوادي. ولكن أحداً لم يلتفت إليه.

الكتاب السادس

I

في عام 1856، بعد نهاية حرب القرم. وبعدها تعثرت أمور المتنفذين في الأبراخ، اتضح لدى الجانبين أن الهدنة بين زانه سفري ومُجد أمين قد انتهت. وظهر على مُجد أمين تصلُّب زائد عما كان عليه في العام الماضي. ولم يبق على لسانه إلا معروف الفلاحين.

وليس سفري أقل تصلُّباً من النائب وإن كان حديثه لطيفاً. ولكن لماذا الافتراء عليه؟ لا يذكر فلاحى الأبراخ والناخوي - الشابسغ بسوء. وأحياناً يغتاب المتنفذين وكأنه يمدحهم. ولا يتكلم على مآثرة نيكراس تيم أمام أحد بسوء رغم أنه مستاء في قلبه مما فعل مع النائب. قال مرة واحدة لقرباتر: "لولا حموك لكان النائب طعماً للكلاب منذ زمن بعيد".

لم يتقبل سفري يوماً واحداً النائب رغم أن إقليم الأديغة كان يتناسى يوماً بعد يوم أحداث الأبراخ. وكلما جرى حادثٌ غير محمود في أي منطقة من الإقليم ربطه حالاً بمكائد النائب. وإن لم يكن للنائب أيّ ضلع فيه بحث له عن دور مفترض. وقد تطرّف سفري في موقفه من النائب على نحو خاصٍ بعدما رجع الأخير من تركيا.

- لا تَهْتَمْ يا والدنا بزيارة النائب إلى تركيا، - لم يُطق قرباتر صبراً حين رأى والده قد توهّج لونه من الخبر. - إلى تركيا يسافر كثيرٌ من الناس ويعودون.

- ألا تفهم يا ولد أن طريقة سفر النائب وعودته مختلفتان عن سائر الزوار؟
- أفهم، ولكن، رغم أنهم يعرفون أنك تخلّيت عن رتبهم فما إن تعود وتلبسها حتى يستقبلوك بالترحيب على مبدأ: العائد محبوب.

- ما أشد حاجتي إليهم!.. الدخان الواحد لا يخرج من المدخنة مرتين.
- هل ندع أنفسنا يا والدنا وحيدين أمام القيصر الروسي بهذه الحجة؟

إن لم يصلحنا الأتراك فالإنجليز حاضرون لمساندتنا. سُئِنَ جيمس بيل ولونغفورت، حيأهما الله، في ميناء إستانبول محملة بالسلاح من أجلنا. هؤلاء أناس يفون بوعودهم. خروزر يتلّكأ. ولكن كان الأفضل من كل ما عداه يا

قرباثر لو صاڤنا الروس. سبحان الله! الجنرال فيليبسون القوزاقي اللعين لم يفهمنا!

- ارتكبت يا والدنا خطأ واحداً في شأن فيليبسون... - قال قرباثر بحذر شديد، وكان يود أن يضيف شيئاً ولكن الأب لم يدعه يكمل.
- أعرف يا أمير، ليس خطأ واحداً بل خطأين. ادّعت من أجل أن أخيفه وأطوّعه أنني موفد تركيا، وأنهم سيسمّوني باسمها زعيماً على الأديغة، ولم يكفِ هذا بل أضفت أنني أخذت عهد الأديغة وأنهم بارّون بقسمهم. لا ألوم فيليبسون على الجواب الذي كتبه لي¹.

والآن، حسب ما يجري، وقعنا في موقف يوجب علينا أن نشير إشارات احترام إلى أعدائنا. وفيما نزن أننا تخلصنا من النائب رفع رأسه من جديد. وهو يدور بالورقة التي جاء بها من تركيا معلناً أنهم لن يتربكونا وحدنا في مواجهة روسيا،

¹ هذا نصُّ جواب الجنرال فيليبسون:

"... جاءني ثلاثة من الجلبين اليوم برسالتك... أنت تسألني: إذا كانوا طلبوا من الأديغة القسم على الصلح فلماذا تأتي الجيوش الروسية أيضاً؟ ولماذا يحتلون أرضنا؟ إن كان هذا رأيك فعليك أن تعرف الاتفاقية التي عقدتها روسيا بين 18 - 30 آذار مع الدول الأجنبية ومنها تركيا. وهذا ما ورد فيها: بقي إقليم الأديغة بيد القيصر الروسي كما كان سابقاً. والجيوش الأجنبية لا حق لها في الاقتراب من الساحل الشمالي الشرقي للبحر الأسود. والمنع الروسية التي طلب من روسيا إزالتها يمكن لروسيا الآن أن تعيد بناءها. أنت تعدّ نفسك زعيماً لكل الأعراق الأديغية... وأنت تهيجها لمجاهتنا مستغلاً بشكل مبالغ فيه الثقة التي منحك إياها الأديغة من أجل مصالحك الشخصية. وستدفع الثمن أمام الله من أجل دمائهم التي تسبب في سفكها. ولكني أؤكد لك وأحذرك: كما تعاقب الدول التي تتمتع بأنظمة حكم قوية فستعاقب على ما تفعل... وأنت تعرف أنك تقدر على تهيج الأديغة أحياناً، ولكن من الواضح أنك غير قادر على أن تُفيدهم بشيء من خلال هذه التحركات. وأظنك ستمضي شيخوختك بائساً، منسياً من الناس. وإذا كان الوضع هكذا فقد كان من الممكن أن يحترموك مقدرين عمرك والأسرة التي تنتمي إليها. ولو بدأت تتصرف بما يفيد أهل إقليمك لقابلك الحكام الممثلون لدولتنا باحترام وتقدير. وأنا أرى من أعماق قلبي، مريداً لك الخير، أن هذا أفضل ما تفعله الآن. ولكن إن كنت تنوي الاستمرار في تهيج الناس ضدنا على سبيل المعاندة فأنا أرجوك من الآن أن تقطع أي نوع من العلاقات معي... " المؤلف.

يعرضها على الفلاحين، ويثقب بها عيون المتنفذين. ويقال إنه زار الناختواي والشابسغ. ونحن هنا، الأب والابن نجلس مكتوفي الأيدي. والتحرك الوحيد المقبول الذي فعلته هو كتابتي إلى السلطان التركي أسأله عن الورقة التي أرسلوها إلى النائب. ولا أعرف إن كانت رسالتي هذه سيوصلونها إليه أم لا يوصلونها. علينا أن نفعل شيئاً بحق النائب الذي صال وجال في إقليم الأديغة... إن لم يخالفنا الوبيخ فلا فائدة تُرجى من البجدوغ والجمكوي، دَعَكْ من حجمقوه أسلانج الذي يهز رأسه معنا موافقاً ولكن عينيه وقلبه وراء نحر بشزه. ومع ذلك لن نهمّل آل حجمقوه يا ولدي. سنبحث عن إجراء يلطّف لنا قلب الجنرال فيليسون قبل أن نقابله. وإن أعطيناه أملاً فأنا أظن أنه يمكن أن يكون وسيطاً.

- إن كان هذا رأيك يا والدنا فأمامنا مخرج واحد، وهو أن يعرف أننا لا نودّ مُحمّد أمين.

- ألا يعرف؟

- يعرف، ولكنه لا يصدّق. النائب يأتي إلى أرض الشابسغ ويقول ما يريد. وأرى أن الوقت حان لتصفية ما بيننا بالسلاح. ودون هذا لن يفهمنا الروس. - لا تستعجل يا ولدي!.. - رفع سفري جفنيه الأشقرين الثقيلين بصعوبة. وأضاف بعدما جلس مدة ذاهلاً عن ابنه: - النائب شخص غريب ولكن من يترعّمهم أديغة. وإن تحاربنا في ما بيننا خدّمنا العدو بما يريد... ومع ذلك ففي ما قلّته يا أمير نصيب من الصحة. لو تسبب النائب في هذا الاصطدام، كي لا يقال فينا: الغريق يتعلّق بقشة، لكان حسناً.

- سنفكر في هذا يا والدنا إن أذنت لنا.

- اعرف أولاً مضمون الورقة التي جلبها من تركيا. يلوّح بالورقة ولكن لا أحد يعرف مضمونها الحقيقي. وجيمس لا أعرف ما في قلبه. لم يكن راضياً قبل أيام حين لمّحت له بشيء مما قلّته. أ يكون هو والنائب يدبران شيئاً من وراء ظهورنا؟

الحق يقال، الورقة التي كان يدور بها مُحمّد أمين، لم يكن فيها ما لا يعرفه سفري. بل كانت مهمة روّج لها هو إن عدت سنتين أو ثلاثاً. الجيش المؤسس في

الخارج بمال إسماعيل بيه، الذي سيضم القادمين من الدول الغربية، كان من المقرر أن يدخل إلى إقليم الأديغة في الشهر الأول من السنة الجديدة. وكان قوام الجيش المجهز أربعة آلاف تقريباً. وكان يضم بولونيين وأتراكاً ومجريين وإنجليزاً وأديغة يعيشون في تركيا وفرنسيين ونمساويين. ومن هؤلاء فرحات باشا والعقيد محمود بيه والرائد أمين آغا ورشيد بيه وعبد الرحمن آغا وإسكندر آغا ولا بينسك تيوفيل، وضباط سابقون في الجيش الإنجليزي كالكونت تور، والرائد بينكلير، وعثمان آغا وآخرون. وكان المشرف على الجيش وزير القوات البحرية التركية علي باشا بطريقة لا يبدو فيها أن له علاقة بهم.

لم يكن مستغرباً عدم تدخل تركيا في شؤون هذا الجيش. كان فم الدولة التي عقدت اتفاق سلام قبل قليل مكموماً، ويدها مكبلتين. تركيا على عادتها بين الأديغة والروس واضحة يدها على صدرها إشارة احترام بما يعني: إهمني ولا تؤاخذوني! وتدعو من قلبها أن يتفانى الطرفان. وهذا هو السبب في أنها لا ترى ما يجب أن تراه. وحين يُرونها تصرفاتها الخاطئة تسلك سلوكاً ظالماً صريحاً ضد الناس الذين تثق بهم دون رافة، قائلة: ها أنتم ترون ما أنزل بهم من عقوبات.

ما كان في الورقة التي يحملها مُجد أمين هو هذا الخبر. ولكن ليس باسم تركيا، بل كأنه مسرّب من إنجلترا وفرنسا. وهذا هو السبب في أن مُجد أمين لم يكن يصرح بها تماماً. ثم لماذا يجب أن يعرف سفرني مقدماً صحة ما فيها؟

بعد الحديث الذي جرى بين الأب وابنه بعدة أيام جرت أحداث عجيبة في الأبراخ والتاخواي والشابسغ والوييخ. وكان من وراءها دائماً هو مُجد أمين. ولا حديث في الإقليم إلا ما قيل في المؤتمرات التي يعقدها. ويبدأ الأديغة يتحركون على الساحل الذي كان هادئاً في الأشهر القليلة الماضية. والأطراف التي تتصادم في المؤتمرات يعلو عليها صوت الحرب أكثر. والفلاحون الغاضبون يلوحون للروس والترك والإنجليز والفرنسيين. هذا يمتدحهم، والآخر يغتاهم، والثالث يشهر مسدسه ويطلق غير عابئ بندرة الذخيرة. وهكذا ينقّس عن ضيقه. والرابع ينصت مستغرباً ما يمثل أمام ناظره، ويتتسم، والخامس يعود إلى بيته مهموماً بأعماله الخريفية.

فيما سفري عائذ من أحد مؤتمرات الويخ خرج من أحد المنعطفات على حدود الأبراخ الشابسغ عدد من الفرسان. تقدم ترام ونور مُجد متوجسين من كثرة الفرسان وراغبين في حماية الأمير. وتبعهما حباط سريعاً ولكن سفري لم يقبل:

- ارجع يا حباط!

- ولكن أليسوا كثيرين يا أمير؟

- لن تنجوا ولو كنتم ثلاثة فرسان ممن يُضمر الشر... وإن لم أخطئ فيكراس تيم بينهم.

- صحيح يا أمير، - ارتاح حباط أيضاً على سرجه، يركب حصانه المحجل.

- طريقكم خيرٌ أيها الفرسان الأبراخ، - حيا سفري الفرسان التسعة أو العشرة الذين وصلوا. - أخبرونا إن كان هناك ما يُقلق، سنقاسمه وإياكم.

- كنا آتين إليك يا سفري، - قال تيم وهو يتقدم رفاهه مقدار رأس حصان. - حملنا ما يجري في الأبراخ على السفر.

- إن كانت المصيبة تتسع للصبر فتفضلوا إلى قُماتر! منذ زمن بعيد لم نلتق كالانا بل ثلاثتنا.

- ما لا يتسع للصبر يا سفري هما النار والموت. ولكن ليس بين أصحابي من لا يهتم لما يجري في الأبراخ. كنا في المؤتمرات القليلة التي عقدها النائب فلم نفهم ما يجري. هل تخلي عنا الأتراك وبقينا وحدنا أمام القيصر الروسي؟

- وهل ساندتنا تركيا في أي وقت بإخلاص؟

- حقاً يا أمير، حقاً، - وافقه بَعْس الفلاح.

- وجماعة النائب، فلاحو الأبراخ ما رأيهم؟

- لا نسمع من آرائهم إلا مجادلاتهم.

- وماذا يقولون؟

- منهم من يقول: لا نريد تركيا ولا إنجلترا ولا فرنسا. ومن ينوي مصالحة روسيا ليسوا قلائل.

- أسمع ما قلته لأول مرة يا تيم. - وأضاف سفري بعد قليل: - في القضية

جوانب كثيرة تستحق التفكير. إذا كنتم تودون معرفة رأي الشابسغ - الناقحوي

فلَيْتَفَضَّلَ من فلاحِي الأَبْزَاحِ من يُضْمِرُ لَنَا المودَةَ إلى مُؤْتَمَرِ زَعَمَاءِ القَرَى بعد غَدٍ.

في الفجر المحدد توافد إلى قُماطر عند المرعى، رغم العاصفة الثلجية الخريفية، ثلاثمئة وستة وعشرون من زعماء القرى، ومع كلٍّ منهم اثنان أو ثلاثة من المسنين. ضاع الثلج العاصف بين دخان التبغ وبخار الأحصنة. والأكسية السوداء على أكتاف الرجال، وقد غطت المرعى، تزيد رائحة خريف الغابة المحيطة بهم سواداً.

الضيوف القادمون من الوبيخ والأبزاخ يقفون، وقد عرفوا مكائهم بصفتهم ضيوفاً، على يمين من سيفتحتون المؤتمر ويساره. وبين تسي حاترباي ونيكراس تيم اللذين صالحوهما بمشقة في العام الماضي يقف برزج جراندوقوه قريباً من زانه سفربي.

رفع سفربي يده وخرج من بين الفرسان، ولم يماطل في ما يريد أن يقوله: - أيتها الجماعة، أنتم تعرفون سبب عقد مؤتمر زعماء القرى. وهو الخبر الذي جاء به نائب الأبزاخ من تركيا. دعونا نُجِدْ أمين إلى مؤتمر الشابسغ، وها أنتم ترون، لم يتنازل بالحضور. كنتم قررتم عقد مؤتمر والبحث في قضايانا فاجتمع المعنيون. سنتصرف أيتها الجماعة بما تقرر اليوم.

- يا أمير، إن كنت انتهيت من كلامك، فلا تؤاخذني، عندي لك سؤال، - اقترب رجل مسنٍّ من حاغور نور مُجِدِّ بعدما رفع طرف عصاه، - ما أخبار من انتصروا في حرب القرم، يا ربي، أعلمنا! هل صحيح ما يشاع من أن تركيا وإنجلترا وفرنسا انتصرت على روسيا؟ وإن كانوا هزموا روسيا فأَيَّ جيش روسي نواجهه؟ ما أسأل عنه يا أمير هو حقيقة الخبر، الحقيقة يا أمير!

- ألم أخبرك يا حَمْدَخ ونحن على الطريق عن نهاية حرب القرم؟ - عَرَّضَ نور مُجِدِّ بأحد المسنِّين اللذين أصرا على مرافقته.

- طلبت منك أن تسكت لحظة يا ولد! - غضب العجوز حَمْدَخ ورمى بعصاه إلى الأعلى. - أريد أن أسمع صوت أميرنا.

- يا من أطال الله عمره، أجبرت كثرة الضحايا المتحاربين على الصلح دون أن يحقق الانتصارَ أيُّ طرف، - قال سفربي للعجوز بعدما اقترب منه بحصانه،

والتقط المنادون كلام الأمير وأذاعوه. ولما رفع سفري اليد هدا المؤتمر من جديد. وتابع كلامه: - لا تدعونا نطيل عمل المؤتمر يا جماعة. لنتكلم في ما فعل النائب!

تصايح المؤتمرين:

- ما رأيك يا أمير، نريد سماع رأيك!

- إن تركتنا تركيا في الساحة وسلمتتنا إلى إنجلترا وفرنسا فهي مخطئة!

- كفانا، اتركوا تركيا وصالحوا روسيا!

- اسمعوا ماذا يقول!..

- دعونا نخاجم الأبراخ ونقتل النائب الذي أنقذه نيكراس تيم من الموت!

حامت طلقات مسدسات فوق المؤتمرين. وارتفع ضجيج الجمع. واستمرت الفوضى ريثما سيطروا على بعض الهائجين. وطوال هذه المدة لم تصدر من فم سفري كلمة نابية. وقربا تر على حصانه يهدئ بنظراته بعض رفاقه. وأحيانا يلتفت إلى برزج وتسي ولسان حاله يقول: انظر إلى هؤلاء الذين نقودهم. وحين استمرت الفوضى في المؤتمر أخرج سفري مسدسه وأطلق في الهواء.

عاد المؤتمر إلى حاله ما إن سمع المشاركون الطلقة الصادرة من مكان وقوف الزعماء كأنهم ينتظرون هذه الإشارة. ولا يكفي هذا بل يلجم سفري الحصان فيوقفه على قائمتيه الخلفيتين، ويطلق النار في الهواء. ويرفع جسده عن الحصان ويصرخ بأعلى صوته كأنه لا يثق بالمنادين:

- يا زعماء القرى، أستم في مؤتمر للأديغة؟ إن كان بينكم من جاء دون هدف محدد فليغد من حيث أتى! ما نعالجه اليوم قضية أديغة. لا يعني عدم رضاكم عن نائب الأبراخ، - وضع سفري، وقد عرف ما في نفوس أكثر المشاركين، قدمه على طريق الحديث الذي انتظره إلى الآن، - أن تسود قلة الأدب المؤتمر. وأنا غير راض عنه، ولا أوافق. حين ذهب إلى تركيا لم يستشر أحدا في ما سيقول وما سيفعل باسم من يسافر لأجلهم. ولما عاد لم يُطلع أحدا على نتائج زيارته. والورقة التي عاد يلوح بها لم يعرف أحد ما فيها. ولا أعرف أنا، ولا برزج، ولا تسي، ولا حجمقوه ما فيها. متى يا جماعة سافرت إلى دولة أخرى دون علمكم؟ أرسلتموني إلى تركيا باسم الأديغة فلما بقيت في

الدولتين أسيراً سنين عدة كنت أُطْلِعُكُمْ كتابة على ما يجري. وحين عدتْ
أُطْلَعْتُكُمْ على قضايي الأديغة. وفي هذا لن يتَّهمني أحد بما لم أجْه. -

صحيح يا أمير، أنت محق مع الأديغة! - وافقه الأقربون إليه.

- لماذا ليس النائب محققاً نحو الأديغة إذن؟ - أضاف سفرني إلى كلامه: -
جواب هذا السؤال قصير: ليس في صدره ما يسمونه قلباً أديغياً أيتها الجماعة!
ولهذا كان يريد من الترك أن يقتلوا قرابة مئة وخمسين من المتنفذين الأديغة.
وأظن أن في الورقة التي يحملها طلباً بقتل عدد من نخبة الفلاحين الذين لا
يودّهم... ولما كنتم تريدون رأيي فسأقول: إن قررت مصالحة الروس فسأسمعكم.
وإن طلبتم مني أن أمدّ يدي للنائب الذي لا يضمّر الخير لنا فلا تؤاخذوني، لن
أطيعكم. وسأعدّ عملي نوعاً من الخيانة.

مهما تنوع حديث سفرني وامتد إلى الترك والإنجليز والفرنسيين رجع إلى مُجَدِّ
أمين. يلهب الفلاحين الذين لا يعجبهم ما يجري في الأبراخ، ويزيد عدد الذين
يصيحون من بين الحشد مؤيدين. ثم يُنهي كلمته راضياً بهذا التأييد:

- قلتُ لكم يا جماعة ما في قلبي. وإن كنتم واثقين بي فكما تريدون، أنا جاهز
من هذه الساعة.

لم يكن مؤتمر زعماء قرى الشابسغ مكرساً لمحمد أمين ولكن الحقيقة أن كل
المتكلمين لم يخرجوا عن موضوعه. ومع أنهم لم يقترحوا التوجه بالحرب إلى الأبراخ
فقد كانت هذه الفكرة تحوم في سماء المؤتمر بذريعة النائب. وكلما مضى الوقت
ازداد عدد الملوّحين بخناجرهم.

حين بدأ المؤتمر يتجه نحو نهايته استلم حاغور نور مُجَدِّ الكلام:

- ما علّقتم به اليوم على موضوع النائب يستحقّه، وأوافقكم عليه. ولكن ما
اجتمعنا لأجله اليوم ليس موضوع النائب الغريب بل مأساة الأديغة التي لا
نستطيع طيلة هذه السنين الخروج منها. هل نستطيع حماية أنفسنا أم لا
نستطيع؟ هل استطعنا جذب الأديغة المتفرقين إلى إنشاء دولة واحدة؟ هل
نعرف ما سيأتينا به الغد أم لا نعرف؟ وأطفالنا؟ ونسائنا؟ ومسنونا؟ الأسئلة
كثيرة، والأجوبة قليلة. لا أسأل عن رجولة الأديغة الذين يحمون أرضهم. ولكن
الرجولة وحدها غير كافية، علينا أن نحمل معها العقل...

- هل أنت أعقلُ من الأميرِ سفري؟! - يتدخل أحد الفلاحين.
- لا، أقول ما يشغل بالي فحسبُ. أظن الوقت حان لمصالحة الروس. الأفضل
يا جماعة أن نصلح من لا نستطيع مواجهتهم بدلاً من أن نتركهم يnehبوننا. لا
تزال أمامنا فرصة. لا تدعونا نزيح الأمل الوحيد الباقي أمامنا...
- يا حاغور أتتكلم من قلب صهرك الروسي؟ - أثار الجمهورُ الفلاحُ الذي
صاح من بين المجتمعين. وبينهم من استلّ خنجره ومن أطلق في الهواء.
ولكن حاغور لم يكن ينوي التراجع. وظل واقفاً بكل ثبات حتى هدأ الضجيج.
ثم أجاب غير مهتم بما سمع:

- هل تظن يا بُن قومي أنني أسمع ما رميتني به لأول مرة؟ - - توقف قليلاً
والآن يكمل كلامه متوجهاً إلى الجمهور: - ما يشغلکم يشغلني. أبحث عن
المخارج. لا تدعونا أيها الأديغة نفرّق بين الرجولة والحكمة. - رجع نور مُحمّد
واتخذ مكانه بين الزعامات التي كان بينها.

ثارت جلبةٌ بين من لم يعجبهم كلام حاغور. وشهروا خناجرهم في الهواء،
وارتفعت من فوقهم طلقات المسدسات. وبعد حاغور تكلم عدد من زعماء
الفلاحين. وبينهم من أيّده ومن عارضه. وتكلم تسي وبرزج.

وحين تقدم نيكراس تيم إلى الساحة صاح بعض الجمهور ساخطين على إيوائه
مُحمّد أمين ولكنه أراح معارضيهِ بكلمة واحدة:

- أكنتم تتخلون عن أديغيتكم لو وقعتُم في الموقف الذي وقعتُ فيه؟ طبيعتنا
نحن الأديغة أن ننتقد عمل ما غيرنا ونحن لم نجزيه بأنفسنا... ولهذا فما سأتكلم
عليه هو موضوع الأديغة الذي يهمننا جميعنا. أنا من جهتي لا أريد أناساً غرباء
ولا دولاً غريبة. لم يأتنا الترك والروس بالخير. والإنجليز والفرنسيون، وحتى سردينيا
معها لن تأتينا بالأمل. نحن الأديغة لن ننتصر على روسيا دون وحدة. ولا
أوافق من يطالبون بالصلح مع الجيوش الروسية التي عبرت نهر بشزه قبل أن
نتوصل إلى الوحدة. إن تضامناً حافظنا على وجودنا، وإن لم نفعل مّّقونا قرية
قرية. وقبل الصلح دعونا نُري الروس ولو مرة واحدة موقفاً أديغياً موحداً.

- أيّ صلح مع الروس يكرر هذا الرجل؟

- ماذا يفعل مَنْ قلبه روسي؟

هاج المؤتمر من جديد. ولم تكن الطلقات في الهواء قليلة. والأكثر منها صليل الخناجر في الهواء. أفهم سفري ابنه قرباتر أن الوقت حان لاختتام المؤتمر، ورفع يده:

-اهدؤوا لحظة أيها المؤتمر!!.. أنتم تبدرون الرصاص والبارود القليلين عندنا بلا جدوى كما يقول حاغور ونيكراس. وهذا الإطلاق لا يزيد من رجولتكم ولا من طبيبتكم ولا من عقلكم. أفضنا في المؤتمر بكثير مما في قلوبنا. وسمعنا فيه الكثير مما يحملنا على التفكير. وأنتم تعبتم، والضيوف أرهاقناهم. ولكني فهمت اليوم أمراً فإن وثقتم بي فلن أخطئ. إن سمحتم لي فسنفكر في الطريقة التي نعيد بها نائب الأبراخ إلى وعيه. وسنجد طريقة للتعامل مع الجيش الروسي المقترح لأرض الأديغة.

- وكيف ستكون الإجراءات يا أمير؟ أفصح لنا عنها، وأطلعنا عليها، - صاح أحد الفلاحين.

- من السائل؟ - استنفر سفري حواسه مما سمع، ولكنه عاد بسرعة إلى طبيعته، - لم يخطئ كائناً من كان... نعم يا جماعة، ثقوا أننا متى انتهينا من التفكير لم نخرمكم من المعرفة. نعم أيها الفلاح، يا من جعل الله يومه مئةً. وبهذا أنهى أعمال المؤتمر، بارك لله فينا. أقول للجميع رافقتكم السلامة! الله أحد، وسيشملنا بعطفه!..

استل الفلاحون خناجرهم، وعبرت النصال البيضاء الصامتة جو الشتاء الأخضر.

...

في اليوم التالي، ساعة اتخاذ حاغور نور مُجد طريقه إلى باستوك قال سفري للضيف:

- لا تنس يا نور مُجد رغبتني في لقاء الجنرال فيليبسون. بلغ عني الضابط راكيتوف. ولكن لا تخبرهم بالموعد، سيكون بعد النائب.

- ألا تثق ببافيل راكيتوف؟

- وهل عجيب إن كان الضابط راكيتوف صهر الأديغة؟ هذا صديق قرباتر...

II

كان مُجَّد أمين يعيش في الأبراخ بعدما حرره الفلاحون كمن لم يجر له شيء ولا سيما حين يجتمع في حضرته عدد كبير من الناس. وحين يبقى وحده كان ما في رأسه ولا يعطيه راحةً شيءٌ آخر. حين يفكر في محاولته التخلص من الزعماء لا يلوم نفسه فحسب بل لا يُطبق رؤية نفسه. وليس السبب شعوره بالذنب نحوهم، فلو استطاع لمحامهم من الوجود. يعض مرفقه على أن تفكيره لم يوصله إلى الأبعد، ولكنه لا يصل إليه. ولا يفهم لماذا انتظر الفلاحون عدة أيام حين هاج الزعماء.

ونخبة الفلاحين، يقول النائب، لا يجوز أن تعتب عليهم. يعيشون وهم يتابعون الزعماء خطوة خطوة متسائلين متى سيعترف الزعماء بهم. وحرب الأمراء - النبلاء التي نشبت في بَنَجَقُوايه أظهرت هذا بوضوح. ألم تر من كان أكثر المحرضين بينهم؟ هو حَنَاقُوَه قِمَجَرِي الذي فاق بأملكاه الأمراء، وابن أخت آل لِكَاسِه. تحارب الطرفان وسفكوا الدم لإصرار النبلاء على سلب الأمراء زعامتهم. ولم يردعهم كون الحرب الأديعية - الروسية تدور في إقليم الأديعية. كلُّ حارب من أجل زعامته وآماله. قاتل الزعماء المتنفذون من الأبراخ وبعض من نخبة الفلاحين لمصالحهم الشخصية ولكن لماذا لم يتحرك عامة الفلاحين الذين وضعتُ السلطة في أيديهم قائلين للطرف الآخر: ما تفعلونه غير جائز. لماذا انتظروا؟ كان كل يوم، كل ساعة تنتقص من صبري يا مباركي النسل! حيا الله نيكراس تيم! ظلوا يكررون القول إنه روسي كافر وأنا أوافقهم ولكن لولاه كان الزعماء المهتاجون آذوني. وفي هذا الموقف لم تظهر أي بادرة من آل زانه. كيف يتخلى هؤلاء الأمراء إذن عن الزعماء المتنفذين!.. حين هبوا للهجوم على الأبراخ لم يكن همُّهم نُصرة تسي حاترباي وجماعته بل الحيلولة دون هبة فلاحيههم هم، ودون تفكيرهم في الشر نحو زعمائهم. ولكن سيصعب عليكم يا آل زانه إرضاء فلاحِي الشابسغ الذين رأوا استلام فلاحِي الأبراخ للسلطة - ولا أحسدكم - مهما حكمتموهم بالإرهاب.

ابتسم مُجَّد أمين للخاتمة التي أنهى بها أفكاره وهو ينصت إلى وقع حوافر الخيل. ووصله توافق وقع حوافر خيل الحراس الذي يصلهم صوته إن سعل سعلة خفيفة. الشتاء ثائر في الأيام الأولى من السنة الجديدة ولكن شهر كانون الثاني

جاءهم على غير ما توقعوا هادئاً. وإذا كانت قمم جبال الأديغة تبدو هادئة اليوم فإنها تتلون بالشمس المتألقة المشرقة على الثلج. تحدث النائب مع كثير من الفلاحين لأنه زار كثيراً من القرى في نصف الشهر الماضي، وسمع كثيراً من الأخبار. وأعجب ما سمع زعيم الأبراخ هو أن الناس يتناقلون الأخبار متعددة رواياتها ولكن مع المحافظة على الجوهر. ومهما تعددت الروايات فالخبر الذي يدور في أرجاء الأبراخ يقلق النائب. وكلما تفكر في الخبر فهم أنه خبر يستحق الاهتمام، وليس مثل أن تحمل سلاحك وتحارب الروس. لا يجوز أن تحشد عرقي الأديغة أحدهما ضد الآخر وتريق الدم. الله لن يقبل، والناس سيحكمون على الحرب بالظلم والحرام. وسيرتكب الطرفان خطيئة الدهر. لا يستخف بي بعضهم، بمن فيهم عمر باشا، لأنهم لا يضمرون لي الود بسبب ما كنت أنوي بحق الزعماء فسأحتمي مرة أخرى بالفلاحين. متى وصل الأمر إلى حرب بين الأعراق فلا يُخطئوا، الأبراخ ليسوا ضعافاً ولن تربح معهم. وسيتضامن معهم الجمكوي والبسلي. إنهم رجال بمعنى الكلمة ويفون بالوعد. ومن غير الجائر مقارنتهم بفلاححي الويخ الذين التجأ إليهم تسي حاتراي!..

- يا جبريل! - نادى مُجد أمين إلى من خلفه ويده اليمنى مرفوعة.

حين خرج جبريل من بين الفرسان الذين وراء النائب تبعه جباغ، ولحق بهما بَعُس. والتفت الحراس المتقدمون على النائب إلى صوت الخيل ولكنهم هدؤوا بعدما تأكدوا من الأمان. اصطف الفارسان الأولان وجبريل على اليسار وجباغ على اليمين إلى جانب النائب، ووقف وراءهما بَعُس على أهبة الاستعداد.

- ليس جمه جبريل من أحتاجه. - قال مُجد أمين بعد قليل فانفض عنه الفرسان الحرس. وبعدما سار الزعيم الأبراهيمي بعض الوقت قال كأنه يكلم جبريل: - هذا ما أقول يا جبريل... هذا الخبر الذي سمعناه في جَعْف لا أظنه صحيحاً. لا أتوقع أن يهاجم زانه سفري الأبراخ عسكرياً... ما رأيك أنت؟ لا يمكن لسفري أن يوقع نفسه في مثل هذا الخطأ.

- ليس آل زانه أهلاً للثقة يا نائب. - قال جبريل بحذر شديد.

- هل تراهم غير جذرين بالثقة؟

- والله لا أعرف كيف أعبر لك.

- فهمتُ، لست واثقاً منهم.
- حقاً، والله لا أثق بهم.
- هكذا إذن... - قال مُجد أمين لنفسه وهو ما يزال يفكر في الأمر. ثم توقف برهة، وسأله دون أن ينظر إليه خلافاً لموقفه السابق: - ماذا يقول نيكراس تيم إذن في هذا الشأن؟
- الشرطي تيم يقول الكثير يا نائب.
- لم أسألك عما إذا كان نيكراس تيم يقول الكثير.
- ساحني يا نائب، - ارتعب جبريل كأن قلبه سيسقط منه، - لم تكن عندي نوايا خبيثة... ما فعله نيكراس تيم لأجلنا، لأجلك...
- اسكت لحظة! - أوقف النائب بصوت قوي واثق جبريل، - أجب عن سؤالِي باختصار!
- ساحني يا نائب، خشيت ألا تكون راضياً عما يعرف تيم...
- أجبني بصراحة؛ سواء كان الجواب يرضيني أم لا.
- مؤتمر الشابسغ قرر مهاجمتنا، وساهم فيه كثيرون من السكان المحليين ومن الضيوف.
- مَنْ مِنَ الضيوف؟
- ذُكرت أسماء برزج وتسي وحجمقوه.
- ألم تُثر آراء متناقضة حول حرب الأعراق؟
- وهل يمكن يا نائب ألا تثور مثل هذه الصراعات، - عاد جبريل إلى حاله، - كان بين المؤتمرين من رفض بحجة أنه حرام... ولكن الجميع كانت عيونهم جاحظة متقدة. ولم يكن تسي وبرزج يكفان عن الكلام. وكان حجمقوه يعزف على اللحن نفسه. أما نيكراس تيم فلن أظلمه، لم ينحز إلى أي من الطرفين. ولم ينطق بكلمة سيئة... ولا أعرف لماذا ساهم فيه... - قال جبريل دون وعي منه، ثم تراجع. - ربما تورط دون إرادته... أليس قريب آل زانه، ابنته كُنْهُمْ؟.. وقيل غيرُ هذا في مؤتمر الشابسغ يا نائب.
- وما هذا "الغير"؟ - تظاهر النائب ثانية بأن لا علم له بما جرى في المؤتمر.

- ظننت أن نيكراس تيم أبلغك تلك الأخبار!.. نعم، أكيد خاف منك فلم يتجرأ... لا يجوز لوم أحد على إخفاء الخبر إن لم يكن ساراً. ولم يكن من طالبوا بالصلح مع الروس قليلين. وتفرقوا بين متفقين وغير متفقين. والداعي بين هؤلاء هو الشرطي حاغور. يقال إنه يزور الجنرال فيليبسون أحياناً... وإحدى بنات آل حاغور زوجة الضابط راكيتوف.

كان النائب يعرف كل ما قاله جبريل وكثيراً مما لم يقله. روى له موفده إلى مؤتمر الشابسغ كل ما قيل فيه دون أن تسقط منه كلمة. كان قلبه مهموماً ببعض الأخبار الصحيحة رغم تعدد رواياتها، والتي وصلته في بداية العام الجديد، والمنتشرة في الأبراخ، فاتخذ جبريل محادثاً له لتقصير طريقه الجبلي، لا أكثر من هذا. ولكنه لم يندم على اتخاذه محدثاً إذ وجد فجأة جواباً لبعض تساؤلاته، وخطرت أسئلة جديدة على ذهنه. ولكن أعجب ما سمعه النائب وجعله ينصّ برأسه هو الخبر غير المنتظر الذي سمعه الآن.

- الشابسغ يستعدون للحرب دون هوادة يا نائب!

- إن لم تكن مستعداً للحرب مَرَّك الكفار، هذا لا يدعو للعجب.

- الشابسغ في هذه الأيام لا يفكرون بمحاربة الكفار يا نائب، بل نحن، الأبراخ، المستهدفون.

- أتقصد أنهم سيشنون حرباً علينا؟

- لا أروي ما لست متأكداً منه بنفسه يا نائب!- تصلّب جبريل على سرجه كما لم يكن. وأنهى بصوت أقوى: - لا أقول بين عشية وضحاها، ولكنهم يستعدون للإغارة علينا.

- ماذا تقصد بالاستعداد؟

- الشابسغ يقوون نظام المحاكم عندهم.

- ونحن نفعل هذا.

- منعهم زانه بحزم ألا يغيروا على الروس أو ينهاهوا منهم شيئاً.

- سأل مُجَّد أمين دون تعليق:

- وماذا بعد؟

- أمرهم بأن تقدم كل أسرة فارساً وفرساً.

- ونحن ألسنا أمرنا بمثل هذا؟

- نعم يا نائب، ولكنه يأمر الأسر بتجهيز طعام للجيش، يطحنون القمح والذرة، ويهرسون، ويجففون الجبن واللحم.

- ونحن لا ننسى هذه الإجراءات عندنا.

قال جبريل لنفسه: كيف يتصرف هذا الرجل؟ كلما أبلغته معلومة أجاب بأنه يفعل مثلاً. أنا أجيبك على أسئلتك ولا يُسعدني أن أنقل هذه المعلومات المؤلمة. كثير مما يحدث في الأبراخ يحدث مثله في الشابسغ غير أننا لا نهتم بها فلا نتكلم فيها. وفيما نحن ندعي عدم الاهتمام بها لا نتخلص في الوقت نفسه من الاحتقار المتبادل بين أعراقنا ومن الصراع بينها. أحاول ألا أطرح هذا السؤال ولكن من هذا النائب؟ من يوم ما جاءنا يدفعنا إلى محاربة الروس. ولا ننهي من الصراع بين الفلاحين والأسر المتنفة. لا يحدغك وقوفي إلى جانبك، يجب أن تعرف هذا! وأنا من هذه الأسر القوية أيضاً. ستحمل، وأنت تدعو إلى هذه المساواة، الفلاحين جامعي روث الخيل إلى هُين. الفقراء النهابون الذين لا عقل لهم لن يستطيعوا المحافظة على السلطة. ونيكراس نفسه واحد من هؤلاء. لن يستطيع تجاوزهم.

ما في قلب النائب شيء آخر. الخبر الذي وصله يُقلقه وإن كان يتظاهر باللامبالاة. قفز بقلبه من الأبراخ ودار في أرجاء الشابسغ والناخوي والويخ والجدوغ. ووصلت إلى أذنيه أصوات المطارق على السندان، وأصوات أرحاء المطاحن، وصهيل الخيل. امتثلت أمام عيني النائب المجاهدة الدموية التي جرت طوال النهار في العام الماضي، عند نهر سوبس، بين الشابسغ والأبراخ، دون غالبٍ ومغلوب، وسقط فيها الكثيرون من الطرفين. وليس هذا وحده بل ذهابه إلى الجدوغ أكثر من مرة ليأخذ منهم عهداً إسلامياً. ومرت أمام عينيه مناظر دفن القتلى، وعلى أذنيه أصوات النواح عليهم. ولا يعني هذا أن الحرب الروسية - الأديفية لم يسقط فيها ضحايا ولكن لا يقارن الموت على يد العدو الخارجي بالموت في حرب قبلية أهلية.

أيُعقل - قال النائب - أن يهاجمونا دون أن يرفعوا مما جرى لنا في تلك الموقعة؟ يجب معالجة هذه المسألة. إن لم نُقدمها على غيرها من المسائل

استضعفونا ونكّدوا علينا حياتنا. ثم إني لست جاهلاً بأني أنا من يعاديه الشابسُعُ لا الأبراخ، الزعيم الذي صار لهم بفضل الإمام شامل وبعلم الله. وزانه سفري لم يؤدّه الأديغة بشيء. لم يأتِ الزعماء ونخبة الفلاحين وعامّتهم على ذكره بالسوء إن لم يأتوا عليه بالخير. قلقوا عليه طوال احتجازه في تركيا. أنا من لا يُطيقه الأب وابنه. وأنا لم آت إلى إقليم الأديغة دون هدف، ففي نواحيها تجري مأساة كذلك التي تجري عندكم أيها الأديغة. روسيا مصرة على احتلال الشيشان والداغستان، وتسفك فيهما الدم، وترتكب الآثام. نحن سنفيدكم ولكنكم لا تفهمون أيها الأديغة المتناحرون. وأنتم تنفعوننا بإبعاد جيش الكفار عنا. وإن نهبوكم ونهبونا اندثرنا كلنا. يا الله ارحمنا ولا تبعد عنا رعايتك. لا تبتّ فينا اليأس لا هنا، ولا في نواحيها.

— يا جبريل سادعو إلى الله أن يرحمنا ويشملنا بعطفه فارفع يديك معي. — أفلت مُحمّد أمين اللجام ودعا بعض الوقت دون أن يتوقف عن المسير. — آمين يا إلهي! — وأنهى الدعاء ماسحاً براحتيه لحيته. ووافقه جمه جبريل. وبعدما مشياً زمنًا أضاف النائب: — حسب كلامك يا جبريل يمارس زانه سفري نحو الفلاحين ما مارسناه نحن هنا مع فلاحى الأبراخ. ويمشي على دربنا.

— ليس مسير آل زانه على دربنا مشكلة لي يا نائب، المهم ألا يحاربونا! — لن يفعلوا بنا مثل هذا. وإن فعلوا فسُريهم أن الأبراخ ليسوا بلا أسنان. — ولكن أيها النائب، يا من ينطق بالخير دائماً، إن حدث مثلُ هذا دبّ فينا أمام الكفار فناء القوم... هذا احتمال لا يجوز أن يرى النور أبداً. — وهذا رأيي أنا. ولكن لا يعني هذا أن أترك الأبراخ مستضعفين ينقذون كلّ ما يُطلب منهم. لن أسمح لأحد أن يفعل بهم هذا وقد اختاروني زعيماً. وعليهم أن يثقوا بي من هذه الناحية. لن أسمح لأحد بالاستخفاف بهم ولو مقابل حياتي!

— آمين يا الله! — أسرع جبريل بالدعاء. — سلاحك سلاحى، ونبيك نبيّى يا نائب!

— حياك الله، — لم يهمل النائب الجواب. — من أحتاج إليهم اللحظة أناسٌ مخلصون أقوياء. ما العمل؟ يجبروننا على حماية حدّي الأبراخ معاً. ومن أجل

هذا رجونا آل زانه والشابسغ أكثر من مرة، ولكن لم يفهمونا... لا تكتم عني شيئاً يا جبريل؛ سأسألك عن أمر: أنت من أقوى الأسر هنا، ولن أساويك أبداً بأعدائنا، وأنت لم تدعني أتوجس من شيء. ووالدك تتاو، ليفتح له الله باب جنته، كان واحداً من رجالات الأبراخ، ولا يزالون يذكرونه بالخير: هل كان هذا الخلاف بين الأبراخ والشابسغ أيضاً زمن سليمان أفندي أم حدث على زماني؟

خطا جبريل بضع خطوات بالحصان قائلاً لنفسه: أي مصيبة أوقعتني فيها النائب اليوم؟ وقع بين نارين وأينما توجه أحرقت. ومن الواضح أن الطرفين نار. وسيكون المخرج هو الطرف الذي سيجد فيه نقطة ضعف. أي جواب سيقابل به سؤال النائب الصريح؟

- إن صعب سؤالي عليك، - قال محمد أمين بنبرة أرق وقد فهم الحرج الذي سببه لرفيقه، - فلست مجبراً على الإجابة يا جبريل. بل إن جواباً مبهماً سيسوؤني أكثر من جواب صادق.

تنفّس جبريل الصعداء بعدما سمع ما يروقه وأطفا إحدى النارين. وقال من أعماقه دون أن يبرئ نفسه:

- نعم يا نائب، أنت على حق. لم يقل أحد أصدق من قولهم: الصدق دعامة والكذب مزلة. الحق أني لا أتذكر خلافاً بين الشابسغ والأبراخ في عهد سليمان أفندي وقبله محمد أفندي، وقد خبّرتهما بشخصي. وإن سألت مُسنّينا لم يختلف جوابهم. ولكن لا أكذب عليك، كان بين الأبراخ والبجدوغ خلاف دائماً. وليست قليلة المناسبات التي خرج فيها الأبراخ من الجبال وأوقعوا خسائر كبيرة في صفوف البجدوغ. ولا حاجة أن أعيد الكلام في الحرب التي أقسم الأبراخ عليها في عهدك. ولكني أعرف يا نائب سبب العداء بين الأبراخ والشابسغ. - الحرب التي يشنها علينا الروس.

- وأنا هذا رأيي. وافقه النائب بسرعة. - ولكن لأسلاي محمد أمين علاقة بالموضوع.

- ما ذنبك يا نائب في هذا العداء؟ - سأل جمه وإن كان ما في قلبه غيره.

- لا تُضَيِّع فضيلة صدقك يا جبريل. - التفت النائب إلى رفيقه وابتسم. ثم لمعت عيناه، - لماذا إذن يناديني الأديغة بالغريب؟ نعم، لا تتخيل أنك تسمع لأول مرة...

- قد يكون بين الناس من يقول مثل هذا يا نائب. ولكن الله شاهدي على أن أحداً لم يقل مثل هذا في حضرتي. وهل كنت أقبل منه إن قاله؟! - أصدق أن أحداً لن يقول مثل هذا في حضرتك. ولكن في الأبراخ من يقول هذا. لا أتكلم على أمثال تسي حاترباي فهؤلاء أعدائي. بل يصدر من نخبة الفلاحين ومن عامتهم. ويُشيعونه بين أعراق الأديغة الأخرى. أفهم: السبب كله في إقامتي في تركيا، ولقائي في سوخوم بعمر باشا، والهدايا القليلة التي تلقيتها منه، والرتبة التي أنعموا بها عليّ... ألا تعرف طبيعتنا نحن الأديغة؟ نهتم بما ليس لنا، ومن يحسن إلينا يشقّ صفوفنا.

- والله نحن هذه حقيقتنا نحن الأديغة... - وابتسم في قلبه: ولكن لا أعرف متى صرت أديغياً. وفي اللحظة نفسها خرجت من منعطف الطريق الجبلي مجموعة فرسان ليست أقلّ من حراس النائب إن لم تكن أكثر. كما يفعل حراس النائب عادة عند الخطر الداهم في أن يحيطوا بالنائب حاول جباغ وبُعُس الوقوف في وجه القادمين، ولكن مُجد أمين أوقفهما: - كفى، كأننا لا نثق بأنفسنا!..

- أظن أن من يتقدم الفرسان الوبيخ هو تسي فُوزأجقوه!.. - لجم جباغ الحصان فوقف على قائمته، - نعم، صحيح هذا متنفذ من آل تسي. - لماذا يدخل الوبيخ إلى أرضنا؟ ما شأنهم بنا؟ - احمرّ خدا بُعُس أمام النائب. - سنقول هذا يا أبراخ متى عيّنا حدود الأبراخ. - قال مُجد أمين، - لا تُحملوا، ولكن لا تتشاجروا معهم. لا تهتموا بأمر تسي، هؤلاء فرسان من الوبيخ، ضيوف.

حين تقاربت مجموعتا الفرسان بدأت كلّ منهما تفتح الطريق للأخرى. ورفع النائب يده وصاح فيهم متظاهراً بأنه لا يرى الفارس المتنفذ في وسطهم: - بارك الله في خطوتكم إلى أرض الأبراخ يا فرسان الوبيخ!

- وأنتم إن كان الخير في قلوبكم دَعَونا لكم بالسلامة. - تجاهل تسي حاترباي النائب أيضاً، فأجاب بتحية أديغية شاملة ضاغطاً على صيغة الجمع في كلماته "وأنتم... في قلوبكم...".

التقى مُحمَّد أمين وتسي حاترباي في العام الماضي لأول مرة. ومع أن قلب كلٍّ منهما مشحون غيظاً على الآخر فإن أديغيتهما حمتهما من الوقوع في الخطأ.

- ماذا يريد هؤلاء؟ - قال جبريل كأنه يسأل نفسه.

- لا أحد يسير في طريق بلا هدف يا جبريل. ربما يتابع هؤلاء أيضاً مهمة ما. إن افترضت أنهم ذاهبون إلى ضيافة فالفرسان الخمسة عشر عدد كبير، ولكن أشد ما أستغربه شيء آخر... - تطايرت النار الباردة من عيني مُحمَّد أمين، - تسي مفهوم أنه عدوي ولكن ما بال الواقف إلى يساره؟ هل انتبهت إلى أنه جيمس بيل؟

- نعم يا نائب لاحظت. ربما يتضامن مع تسي، لم يلتفت إلينا!

- هذا ما يحدث... - لم يعجبه قولي له إنكم أيها الإنجليز تمارسون معنا الخداع. ولم ينس طلي منه ألا يضع قدمه في أرض الأبراخ... ما النية الحقيقية هؤلاء يا ترى؟

- هؤلاء من الصعب معرفة ما يُضمرّون، ولكني سأخبرك باتجاههم يا نائب. لن يتجاوزوا دخاباه. وما يجعلني أقول هذا هو كثرة من يفد من الضيوف على أسرة نيكراس... اغفر لي يا نائب، نيكراس صار رجلاً في الأبراخ ونحن عنه غافلون...

حين وصلوا إلى المنعطف في ظهر الجبل ومُحمَّد أمين لم يُحبِّب بعد، أوقف حصانه:

- شكراً يا جبريل على جهدك معنا، جعلتنا نفكر في أمور كثيرة. ما وجدنا له أجوبة ليس قليلاً، وما لم نجد أكثر. مع السلامة، غُد! ولكن أؤكد ثانية: لا أريد أن تخرج مشاعر الشرطي نيكراس، بل أن تقول له ما لا يُرضيه، إن سمعتُ مثل هذا حاسبتُك. هذا واحد، والله واحد. والأمر الثاني لا تتهاونوا مع الشابسغ. ليكن الفرسان جاهزين للتحرك متى استنفرتناهم. والأمر الثالث: حالما تعود إلى دخاباه بلِّغ نيكراس تيم أن يوافيني إلى جَعَر.

...

- الشابسغ استجابوا لرجائك يا نائب. - ما إن وصل نيكراس تيم حتى أخبر مُحمد أمين.

- أنا لم أكلفك بأن ترسل رجاء إلى أحد... - لم يعجب النائب بكلمة "رجاء" فنهض من كرسيه. - كنت أرسلتك موفداً إلى آل زانه.

- نعم يا نائب، من أرسلتني إليهم قبلوا، - كرر تيم ما طلبه النائب دون أن يبرئ نفسه.

- ماذا يقول الشابسغ؟

- قال زانه سفري: إذا كان لأسلاي مُحمد أمين ما يفعله معنا فليتنفصل إلى نهر سويس على حدود الأيزاخ - الشابسغ.

- ما الموعد الذي حددوه؟

- الجمعة القادمة، عند صلاة الظهر.

- وكم فارساً سيرافق كل طرف؟

- عشرة من كل طرف غير مسلحين إلا بالخناجر. ولا يجوز أن يزيد العدد حتى واحداً.

سافرت جماعة النائب إلى المكان المحدد وفي الوقت المحدد. ولما كان موعد الصلاة قريباً جداً، اتفق الطرفان على أداء فرائض الله.

توضأ الطرفان وبينهما نهر سويس المنحدر من جبل سويس. ومن أجل ألا يقفوا أمام الله مسلحين اتخذوا أكسيتهم القصيرة سجادات صلاة ووضعوا خناجرهم مجموعة في طرف. والطرفان المسلمان يدعوان إلى الله وكلٌّ يحتفظ في قلبه بأحزانه ورحمته. يقفون وراحت أيديهم تغطي وجوههم. يروون لله ما في قلوبهم عبر أدعيتهم. ويضيفون إلى الآيات العربية لغتهم الأديغية. يجثون له على ركبهم، ويومنون له إجلالاً، ثم ينهضون.

وهناك يودّع إقليم الأديغة الشتاء، وينتظر أمل الربيع. وسيتلوه خريفهم. ماذا ستحمل هذه الفصول إلى الأديغة: الأمل أم اليأس، المأساة أم السلام؟ والشمس التي تطل على العالم كله في كبد السماء. والسحب الباهتة التائهة التي لا تستطيع الإحاطة بالسماء تفترق ثم تجتمع كأعراق الأديغة. وتحاول

الالتحام دون أن تستطيع التواصل بأطرافها الممزقة. وأحصنة المصلين التي لا تعرف نوايا من استعادوا خناجرهم تقف في مجموعات وهي تنخر. والذين انتهوا من صلاتهم وضعوها على أجنابهم، واتخذوا أماكنهم على ظهور خيلهم على جانبي النهر.

خرج زانه سفري من بين الفرسان وقال:

- أرسلت إلينا موفداً بذريعة أن لك كلاماً معنا. وها نحن نسمعك.

- نعم عندي معك مهمة يا أمير، - خرج مُجد أمين من بين أصحابه بمقدار طول حصان. - وأنا من أرسل الموفد. ولكن قبل أن أبدأ كلامي أحب أن أسمع رفاقك ورفاقي أن تسي حاترباي الذي معك ليس من الشابسغ.

- حاترباي صديق زانه سفري، وليس صديق شخص غريب مثلك اغتصب السلطة. من يُهن تسي حاترباي يهينني أنا. وإن تجاوزت هذا الحد انتهى ما بيننا من عمل.

- ما العمل يا أمير، أنا قلتُ ما عليّ وأنت فعلتَ ما عليك. سنتجاوز هذا الموضوع الآن. ما أريد أن أقوله هو أن القرار الذي حملتم مؤتمركم على اتخاذه وهو أن تهاجمونا حربياً قرار معيب. ولكن إن أصررتم على موقفكم فأنتم مخطئون. أنا أقول لك على مسمع من الجميع والله شاهدني على أنني لست ممن يدفعون الأخوين إلى التحارب.

- وما تفسيرك لنيتك سقك دماء الزعماء المنتفذين من الأبراخ إذن؟

- لا تأخذ عليّ هذا المأخذ يا أمير، هذه قضية أبراخية داخلية.

- ليس هناك بلاد أبراخ وبلاد شابسغ وجمكوي ووييخ... نحن أديغة ولذلك نمتلك معاً، بمن فينا القبرتاي والبسلني، أرض الأديغة. أنت تحبج الأبراخ، أقول لك من تشبه: أنت مثل من جلب كلباً غريباً وطرد كلب الدار! الأفضل لك أن تعود سالماً إلى بلاد الداغستان التي أرسلوك منها - أهنتني يا أمير!.. - مدّ مُجد أمين يده إلى خنجره.

- إن كنت شعرت بالإهانة يا نائب فتعال إلى مضيق طوابسه!.. - رجع سفري، ورجع بأصحابه.

لا يتذكر مُحمَّد أمين أنه أهين بهذا الشكل منذ وطئت قدماه أرض الأديغة. وقف بعض الوقت يتابع بعينه فرسان الشابسغ، ثم رمى لسفري:
- من يُهن يجد الوقت للانتقام. لن أغفر لك ما فعلت بي!

...

انخرط الفلاحون من الطرفين في العداء بين زانه سفري وأسلاي مُحمَّد أمين: الشابسغ - الأبراخ، فوقفوا في موقف المجابهة. واصطدم الطرفان في قتال مشاة وفُرسانٍ في مضيق طوابسه. ولم يتدخل أحد من الويخ والجمكوي والبجدوغ معلناً أن ما يفعلانه عيب، معيداً الطرفين إلى الصواب. والجيش الروسي انتظر نهاية الصراع دون أن يتدخل، مرتاحاً لما يحدث بين الإخوة. والوحيد الذي لم يقبل الحياد الروسي من الطرف الروسي هو سيريرياكوف غزار. اهتم بالموضوع فأرسل يُخبر سفري بنواياه ولكن قبل أن تجد المبادرة الوقت للتحقق كانت الحرب بين الأبراخ والشابسغ بدأت. على أنه لا يجوز اتهام زانه سفري بما ليس ذنبه فقد تحلى بالرجولة في هذا الأمر: أرسل إلى الجنرال فيليسون عن طريق الضابط راكيتوف يخبره أن ما يجري بين الإخوة شأن داخلي فلا تتدخلوا! والأمر الوحيد الذي يمكن أن تدين به القائد الروسي هو عدم تصديقه للخبر الذي أرسل إليه.

لم يعد مضيق طوابسه يتسع للجيشين المتجابهين. حلَّ الفجر على الطرفين لا يعرفان مَنْ منهما سيبدأ. لم يكن الناس وحدهم القلقين، حتى الخيل كانت قلقة. رُصاد الشابسغ على رؤوس الأشجار لا يرفعون عيونهم عن الأبراخ ويعلمن أحدهم:

- النائب يصلي!

- النائب يصلي على الطريقة التركية تماماً: استعدّ يا قرباتر، سينطلق سريعاً.

- أليس الأفضل أن نبادر بالهجوم استباقاً يا أمير؟ قرباتر حاضر من هذه اللحظة.

- نعم، أفضل يا ولدي. ولكن من يسحب سلاحه أولاً هو المذنب... اصبر؛ ما مضى كثيره سيمضي قليله!

- النائب انتهى من صلاته! - صاح الراصد من أعلى الشجرة.

- لا تستعجل يا ولدي، لا تستعجل!
- الوقت تجاوز الفجر. ولم يتحرك جيش الأبراخ.
- النائب يشرب الشاي. وينفث دخان تبغه. - أصوات الرُصاد الخفية توصل الخبر.
- النائب يضيق الوقت... لا تستعجل يا ولدي، مزيداً من الصبر!
- مضى نصف ساعة.
- هذا الخبيث يستحق كل ما تفعله به يا أمير!.. - اعتلى قريتر صهوة حصانه.
- النائب يلعب بالكعوب، - نقل الراصد خبراً آخر.
- يا والدنا الوقت يفوتنا!
- لا تستعجل يا ولدي، لا تستعجل يا أمير! أظن أنه لن يأتينا يومٌ غيره؟ اصبر أيضاً! اسمحوا لي الآن أن أشرب شيئاً من الشاي، ونرى ما يحدث إلى حينه. - جلس سفري متمهلاً إلى المائدة المستديرة التي وُضعت أمامه. - سنختبر لذة شلامة الشابسغ، ونضيف بعض الفلفل إلى شاي القالمق، ينظف باطن الفم والبطن والأمعاء... ما الأخبار في جبهة الأبراخ بإذن الله؟ الا يزال النائب يلعب لعبة الكعوب؟ ألم يخسرهما؟
- النائب رمى الكعوب على المائدة... وهو يركب الآن...
- هل فهمت الآن يا قريتر لماذا خسر النائب كعوبه؟ لأن رصاده أبلغوه أنني أشرب الشاي. إذا ركب النائب فأنت حرٌّ يا أمير في ما ستفعل لأنه يكون أعطى أمر القتال. الله حريص فاحرص على نفسك يا ولدي!..
- ارتفع صوت القتال الأديغي - الأديغي المرعب في أرجاء المضيق. يتسابق قرابة ألف من المشاة على الجانبين بخناجر مُشَهرة. هذا يتعثر، والآخر ينهض، والثالث يلتقط القبعة التي سقطت عن رأسه، وغيره يتركه. والحمية - الضيق تُجر بعضهم على أن يخلع سترته القصيرة. وغيره يوقفه الخنجر المرعب الذي يستقبله. والعائدون ليسوا قليلين. ولكن الرجال الغاضبين الذين هيجتهم رائحة الدم من الطرفين لا يعرفون التراجع. وكلما ضاقت المسافة بين الطرفين غطى الدم العيون. وكلُّ أملُه بالله. وأملُه قوّته وحيلته.

ارتفع أول صليل للفولاذ. وجاوبته أصوات أخرى. وصليل الحديد يتسع. وتتبعه الصرخات والأثأت. وترتفع أصوات طلقات المسدسات. ومن تصرعه يسرع بيده إلى جرحه، ويُعول، ويسلم الروح. ومن ينتج بجلده سواءً كان جريحاً أم مرعوباً يزحف بقوائم كلبٍ أربع إلى ملجأ بالأجمة. ومن سبق خنجره خنجر غريمه بحث عن غريم آخر. - يتفأثون. ويخنق بعضهم بعضاً. والناس الذين تفأثوا قبل دقيقة يرقدون جنباً إلى جنب. والجرحى الذين بلا حول يتبادلون الآهات والنظرات العدائية واللوم والجدال:

- ماذا فعلنا بكم أيها الشابسغ؟
ويجيبه آخر:

- ما ذنبنا يا أبزاح حتى يفني بعضنا بعضاً؟
- بقر الله بطن النائب!.. - فلاح آخر يستمطر اللعنات.
- ليصب الطاعون فمك يا سليل زانه آل الكلاب! - ينهره شخص آخر.
والفرسان الذين تبعوا المشاة التحموا. ويرتفع صليل سيوفهم وصهيل خيلهم في الوادي. ومن يُرم عن سرجه يصصره صدر حصان خصمه، ويعبث به السيف. والناس الذين أسكرتهم رائحة الدم، الحيوانات، فقدوا عقولهم. - يلتحمون ويتفأثون ويتبادلون العض.
قرباثر وبغس يتصارع حصاناهما. عيونهما محمرة. والزبد يسيل من فمويهما. ومن على صهوتيتهما يطير شرار السيوف المرعب القاتل. ويصرخ جباغ الذي يفتح بسيفه الطريق بين الشابسغ:
- يا بغس، بالله عليك لا تدع الشابسغ يهينونا. اقطع رأس ابن زانه!.. وماذا تريد أنت يا صاحب العينين الجاحظتين؟!.. - يُسقط جباغ الفارس الذي واجهه. وفي اللحظة نفسها يقع سيف حاغور على رقبة الأبزاحي، فيلتفت الآخر إلى وراء... - يا أسفي يا حاغور أكلني كلبك!..
- أيها الفلاح بغس! - ينادي قرباثر من يجانبه، - لم تكن بحاجة إلى أن تركب الحصان!.. - يهرب بغس حين يخسر سيفه ولكن ترام الذي يستقبله يُسقطه بصدر الحصان. ثم يهوي على مجمع كتفيه ويتجاوزه.

يتزايد عدد الأحصنة التي تجري دون فُرسان. يتخلخل جانب الأبراخ أكثر، ويتراجع. والطرف الذي تتضعض قواه يترك جرحاه، وينادي قربانُ الشابسغ: - الأبراخ يتراجعون!.. - أيها الفلاح ترام هيا اهجموا على النائب! لا تتركوه ينجو بجلده من أرض المعركة!

لم يبق في مضيق طوابسه ما يسمى رحمة. الهواء ينشر رائحة الدم. ويتردد في الوادي صراخ الناس وصهيل الخيل.

وفي القرى المجاورة يصرخ المسنون:

- الأديغة يتحاربون، النجدة!

- إن كان بقي لدى الأديغة شيء من الرحمة فما يجري في مضيق طوابسه عار! وتتراكض العجائز من القرى المجاورة للوادي الذي تجري فيه حرب الأديغة - الأديغة. عودوا إلى وعيكم، الله ليس عديم الرحمة، نحن من ولدنكم. ويرمين أغطية رؤوسهن بين المتحاربين بما يعني: افهمونا!

يلاقي سفري فلاحى الشابسغ بصدر حصانه، ويناديهم واليد مرفوعة شاعراً بالفرح وبالذنب:

- النائب تراجع، حياكم الله أيها الشابسغ. عرّفتموه قيمته!.. كلنا أديغة، من أصل واحد. وفلاحو الأبراخ ليسوا أعداءنا نحن. سلاح الشابسغ وقلوبهم غير مفلولة، وليغفر الله الذنب الذي ارتكبناه، كلا الطرفين. أبدينا رجولتنا حيث تُختبر الرجولة. الحرب الأهلية ليس فيها رجولة، ولكن ما العمل، النائب الغريب أجبرنا دون إرادتنا على ما فعلنا. اغفرْ لنا يا أمهاتنا ويا أخواتنا ربات الأغطية. - استدار نحو الجانب الذي احتشدت فيه النساء وخاطبهن واضعاً يده على صدره احتراماً لهن. وقال لجانب الرجال المسنين: - وأنتم أيضاً يا كبارنا. إن استطاع من فجعناهم أن يغفروا لنا فليفعلوا! والآن دعونا نترحم ونرأف بمن سقط من الجانبين دون تمييز بين من هو منا ومن ليس منا!..

الطرفان اللذان كانا يتطاحنان قبل نصف ساعة من الآن تدافع رجالهما على الوادي يبحثون عن الضحايا والجرحى...

في هذا اليوم قامت مناحات كثيرة في الشابسغ والناخواي والأبراخ. والعداء بين سفري ومُجد أمين مَرَق أكثر فأكثر وحدة الأديغة.

III

استنكرت أعراق الأديفة الأخرى الحرب التي نشبت بين الأبراخ والشابسغ رغم أن كلا من الطرفين كان يبرئ نفسه. ومن البديهي أن البجدوغ الذين عمل محمد أمين جاهداً ضدهم طوال سنوات كانوا من هذا الموقف. والجمكوي والويخ والبسلني والقبرتاي. ولم يكتفوا بإدانة النائب بل ضموا إليه سفري.

وفي الأبراخ والشابسغ استنكر كثير من الفلاحين ما جرى. وإذا لم يكونوا يعبرون عن رأيهم أمام زعمائهم فقد كانوا يجدون مناسبات سرية للتعبير. ومع أن هذه الآراء كانت تصل إلى محمد أمين وسفري فماذا بأيديهما ليغيرا في ما جرى إذ أوقعا نفسيهما في موضع الانتقام إلا أن يتصبرا. وفي هذا الخصوص كان للنائب حجة يبرئ فيها نفسه أكثر من سفري؛ يقول النائب: الأبراخ ليسوا من تسببوا في الحرب المأساوية بل الشابسغ. من يُشهر السلاح في وجهك يجبرك على الردّ عليه. وليس زانه سفري محروماً من أي ذريعة: كل المشكلات تأتي من النائب. هو من كان يريد إفناء زعماء الأسر المتنفذة.

وإن أردت الحقيقة، فكثيرون من الناس سيقولون ما يشاؤون، ولا تستطيع منعهم من الكلام، وما يُقلق سفري هو المهارات التي نشبت في الإقليم. وهو مهموم بعدم ورود أي خبر، خيراً أو شراً، من جانب الروس متمثلين في الجنرال فيليبسون. وتعبير أدق فالكتاب الذي أرسله إلى الجنرال الروسي قبل أن يشنّ الحرب على الأبراخ بقي إلى الآن بلا جواب. ولم يستعجل الجنرال في الرد كما تأمل منه.

وليس هذا وحده، قال سفري، أظن أن حاغور استقر في باستوك يدعو إلى إقامة حفلات الجابشة له بمناسبة يده المجروحة. ونيكراس تيم اعتكف في بيته على غير عادته، لا أعرف إن كان السبب هزيمة الأبراخ. ويرسل إليّ خبراً مفادُه أن الأفضل كان أن نحارب من يغزونا بدلاً من أن نتحارب فيما بيننا. ابتسم سفري قائلاً في نفسه: كأنه ليس سليل الروس الذي هو منهم. ثم دان نفسه على ما خطر له نحو والدكته.

يا إلهي، دعا سفري ربه، اغفر لنا ذنوبنا. أفهم أننا سفكنا، كلا الطرفين، دماء عامة الفلاحين الأبرياء. هؤلاء لا ذنب لهم، وأتحمّل ذنب مقتلهم. ولكن يا

رب لا تغفر للنائب الذي هيج الأبراخ. وأنت شاهدي، لا ترم العداوة بين الأبراخ والأديغة الآخرين. كم طلبت منه أن نمضي إلى الوحدة معاً وينضوي تحت علمنا! ينظر إلينا شزراً بذريعة الإسلام، ويحارب البجدوغ، ويهيب الجمكوي، ويغزو البسلني، ويحارب القرشاي. نحن من عرق الأديغة، أولاد هذا العرق، وروحه فينا، ومع ذلك نحكم أنفسنا بصعوبة، وهو رغم معرفته أنه غريب يصبر على أن يصبح قائدنا! كيف يفهم من ليس منا مأساة الأديغة؟ ألم تر ما فعل بزعماء الأبراخ؟ كانت له النية نفسها في الشابسغ والوييخ والجمكوي!.. أنا واحد ممن يقولون: اضربوا الروس، الكفار، لا تسمحوا لهم أن يحتلوا أرضكم، ولكن اغفر لي يا إلهي، يا من يدعو إليه أكثر الناس ولا يدعو إلى أحد، هل تستطيع الانتصار على شعب بهذا التعداد؟ ربنا رقيق لنا قلب هذا العدو دون أن يسقط المزيد من الضحايا. لا أقول هذا عن جبن أو ضعف تحمّل بل أريد أن تعيني على حماية الأديغة. إن لم ترقق لنا قلب القيصر الروسي توجب عليّ أن أقبل بالجيش البولوني - الإنجليزي - الفرنسي - المجري الذي يجهّزه خروزر إسماعيل بيه. وإن فعلتُ فهل سي جلب هؤلاء الخير للأديغة أم لا؟ وأنت تحبّنا أن السلاح لا يأتي بالخير، واختبرناه بأنفسنا... ماذا نفعل؟ ائذن لي يا ربي أن أصلح الروس... بلّغنا أملنا قبل أن يصبح هذا الأمل رهينة بيد الروس. فإن لم يحدث هذا فلا مخرج لنا سواه. سننتظر مرة أخرى ما يمكن أن يحققه إسماعيل بيه...

- هيا يا حاغور إلى الجنرال فيليبسون، إلى الروس! لا فائدة من أن تقعد بحجة اليد المجروحة، - قال سفري دون أن يترجل من الحصان لنور مُجّد الذي استقبله.

- هل ردّ الجنرال على ما كتبت إليه يا أمير؟ - فرح حاغور ونظر إلى ترام، ولم ينس الفارسين الآخرين. ثم قال خجلاً من نقضه لأديغيته: - والله ما أفعله عيب، تفضل يا أمير، أنتم ضيوف، كنتم على سفر.

- اركب يا نور مُجّد، اركب! - قال سفري، - كنا على مائدة زعيم إحدى القرى على الطريق قبل قليل. وما سألت عنه نتحدث فيه بمزيد من التفصيل في

الطريق. لا تتهاون، سنتظرك على ظهر جبل باستوك. كيف حال يدك يا حاغور بإذن الله؟

- من يا أمير يهتم الآن لليد؟.. التحم الجرح بفضل الله!..

لحق حاغور بالفرسان قبل أن يصلوا إلى ظهر المرتفع. واتخذ مكانه إلى يسار الأمير الذي يتقدم الفرسان الثلاثة. وبعدما مشوا مدة سأل سفري:

- ما أحوالكم يا حاغور؟

- قرئتنا في سلام، ولكن... - لم يستطع إكمال ما بدأه.

- ماذا إذن أيها الشرطي؟ - انتظر سفري حاغور إكمال كلامه، ثم سأل، - ما الذي لا تستطيع قوله؟

- قرئتنا في سلام، - كرر حاغور، - ولكننا نُطحن في مطحنة الأديغة الحجرية القديمة. الفلاحون لا يتقبلون حربنا الأديغة.

- هذا ما تريد أن تقول؟.. الفلاحون غير مقتنعين؟.. - كرر سفري بصوت مختلف. ثم أضاف: - وأنا عندي مآخذ كثيرة على الفلاحين ولكني ساكت. انتظر حاغور متوقفاً أن يكمل الأمير كلامه. وقلق للمهمة التي استدعوه لأجلها أكثر وهو يعرف أن سفري لا يحب الحديث معه حين يكون في مزاج سيء، باحثاً عن أجوبة لأسئلته المتضاربة.

ليس لمرة أو مرتين قابل حاغور الجنرال فيليبسون، كلمه سواء بعلم سفري أو دون علمه. ولكن لم يستخلص منه في سرٍّ أو علنٍ جملة مفيدة. ما لا يفارق لسان الجنرال فكرة واحدة: "لا صلح باسم بلاد الأديغة! على الأديغة الذين صاروا جزءاً من روسيا أن يعيشوا معنا بسلام. ولس لهم معنا أي حديث آخر، ولا لنا معهم. ومن لا يقبل يرضخ تحت حدّ السيف". ومع أن حاغور فهم منذ زمن بعيد أن القضية الأديغية لم يبق لها أفقٌ غيرُ هذا فلم يعلن للروس باسمه أو باسم الأديغة أنه يوافقهم. بل لم يجعل راكيتوف، صهر أسرة حاغور، يحسّ بشيء من هذا. ليس لأنه غير واثق به فراكيتوف ليس من هؤلاء الناس، ولكنه لم يكن يريد إهانته إذ لا يملك في هذه القضية إلا الشفقة على الأديغة. ألا يكفي ما تعرض له من اضطهاد قبلنا من أجل الأديغة؟! وإلى الآن لم يغفروا له زواجه من أديغية. وليس الجنود من يناكدونه في هذا الشأن بل بعض الضباط

الصغار، ومن هم أكبر منهم رتبةً من الجنرالات. يدفعونه إلى المعارك ضدّ الأديغة رغبة في التخلص منه على يد من صاهَرهم. ولكن إلهيه الروسي والأديغي يحميانه مكتفين بالجروح التي على جسده. وما يجري من مآسٍ على أرض الأديغة يؤلم قلبه أكثر من الندبات التي على الجسد. من الظلم أن ترشّ الملح على الجرح الذي لما يلتئم...

- وهذه الأخبار، - أكمل سفرني كلامه، - لا تتجاوزني... ما العمل؛ ما كتبه الله عليا مصيرنا. ما حدث للأخوين اللذين تحاربا مرعَمين حدث لنا نحن الشابسغ والأبزاخ. نعم، غفر الله لنا ما جنينا بحق الضحايا، وانتقم من النائب الذي تسبّب في الحرب. هذه بالنسبة إلينا يا نور مُجدّ واقعة من الماضي. لا أعرف بمَ نفكر إن لم يتحقق لنا ما نساfer لأجله. الترك والإنجليز يخدعوننا منذ سنوات، وانضم إليهم البولونيون والفرنسيون والمجريون... ماذا أقول؟ أيّ عذاب نعيش فيه؟ كيف سيتصرف معنا هذا الجنرال الذي نقصده يا حاغور؟ والجنرال غزار اختفى، لا يصلح أن يكون صديقاً، لم أُلِّبْ له ما طلب فغاب عن وجهي!.. يا مبارك النسل أحنُّ أحراراً في أنفسنا؟ ألا تسمع ما يقال في المؤتمرات الأديغية؟ كلُّ يقول ما يريد دون تفكير. ما يقوله أحدهم ينقضه الآخر. ومن يفتقر إلى الحكمة يزيح الحكيم ويحتل الساحة. يا حسرتي، أيها الأديغة الطلقاء! اغفر لي يا إلهي ما فعلته إذ قُدْتُ الشابسغ إلى الحرب مع الأبزاخ... النائب هو المسؤول عن كل شيء... ولكن مهما قلْتُ فقد جرى ما جرى وانتهى الأمر يا حاغور. ومن فعلتُ هذا لأجلهم، أقول لك الحق، فيليبسون الذي نقصده واحد منهم... يقال إن النائب زاره في العام الماضي، ويكتمون ما تبادلوا من حديث...

- ليس صحيحاً يا أمير، - قطع حاغور كلام الأمير.
- وأنا هذا رأيي، غير أن الناس يتداولون الخبر. - تراجع سفرني عن كلامه.
- وأنت يا أمير تُشيعون عنك الخبر نفسه.
- أنا أشهد، والله شاهدي، على أنه خبر كاذب. هذا ما سيحدث، - تنهد سفرني عميقاً، - إن لم تكن لك دولة... ولا أظن الجنرال فيليبسون ذا نفوذ حتى نحصل منه على جواب.

- الجنرال فيليبسون يا أمير ينفذ ما يؤمر به.
- وهذا صحيح، وبينه وبين القيصر سلسلة من المسؤولين. الحق أننا لا نريد منه غير أن يوصل كلامنا إلى القيصر. هذا ما سيجري لك إن لم تكن حراً في نفسك... - يبدو قلقٌ سفري من حديثه المفاجئ.. - يا ربي ما أخبار راكيتوف؟ هل الأفضل أن نعرّج عليه أولاً؟
- لا تدعنا ندخل بافيل في هذا الموضوع يا أمير. هم متحاملون عليه جداً.
- والله أنا أيضاً سمعتُ بالموضوع. الله لا يحب الافتراء على أحد. الجنرال فيليبسون مخطئ في حق راكيتوف. ونحن بين الروس كثيرون ممن نودّهم. حرام أن تظلم الرجل لأنه صهرنا ويكرّم لنا الودّ. وهذا لن يقبله إله الروس ولا إله الأديغة. وأنا أنوي التكلم إلى الجنرال فيليبسون في الموضوع.
- ظهر من منعطف الطريق الجبلي فلاحان. وبعدما سلّما عليه على طريقة الأديغة في الطريق، سأل سفري الرجلين اللذين تنحيتا جانباً:
- من أين تاتيان بإذن الله؟
- نعود من أنابه يا أمير.
- وماذا في أنابه؟
- أجبرنا فقدان الملح إلى زيارتها.
- وماذا جرى؟
- السوق لم يعد يتسع للملح.
- ألم يبيعوكم؟
- بلى باعونا.
- وأين ما باعوكم إياه؟
- أخذنا فروق خروف معنا فصبوا في كل منهما قبضةً، تفضّل، خذ منه شيئاً يا أمير.
- ليبارك الله في رزقكما! وكيف يتصرف القوزاق معكم؟
- والله مسالمون إن لم نفرّ عليهم... وبينهم من تكلم عليك سلباً، ولكنهم مسالمون عموماً... - ومع ذلك ملّحهم غالٍ.
- ونحن هذا رأينا يا أمير. ولكن من عنده لا ييالي.

- وما الأخبار الأخرى في سوق الموجيك؟
- لا شيء يحتاج إليه الإنسان لا يجده فيها. يتساومون ويخدع بعضهم بعضاً.
- ولكن ما قالوه لنا فيه عجيب يا أمير. - قال الفلاح الأصغر سناً، - خيرٌ للأديغة أن يبيعونا أو يبادلونا جلود مواشيهم وشعهم وعسلهم وصوفهم من أن يتحاربوا فيما بينهم.
- ماذا تقول يا شعبان؟ في سوق الموجيك تسمع الكثير، - قاطعه الفلاح الأكبر مستاء من الحديث. ثم برأ نفسه: - من لا يودوننا سيقولون الكثير.
- والله هذا صحيح أيضاً يا قَمبولات. - سحب الفلاح الأول كلامه.
- لا أظنك تتكلم في ما لم تسمعه يا شعبان، - أخرج سفري الفلاح من موقفه الحرج.
- ثم إني لم أسمعه مرة أو مرتين فحسبُ يا أمير.
- ربما.
- سلاحك سلاحنا، وهدفك هدفنا يا أمير، نرافقك، - قلق قَمبولات ثانية خائفاً من أن يكون رفيقه قال ما لا يقال.
- حياكما الله أيها الفلاحان، رافقتكما السلامة.
- ظهر لسفري فجأة ما يمكن أن يتفكر فيه. ليست المشكلة في الملح ولا جلود الخراف، بل تداول الناس في السوق الروسية أخبار الحرب الأهلية بين الأديغة. قال سفري: أتعجب لأن الفلاحين يتكلمون في الموضوع، ومن هنا أعداؤنا لا يجدون من اللائق ما نفعل! حين تصبح مُضغّة في أفواه الناس يتحوّر الخير مئة مرة. وأصدقُ الأخبار يعرضونه عليك على أنه أكذبها. إن لم يفهمنا الجنرال فيليبسون في ما فعلنا فمن يفهمنا؟ وهذا لم تلده أم أديغة ولكن أليس من الأسر الروسية المتنفذة؟ من حقنا عليه أن يفهمنا. كان يؤدّه أن يُفضي إلى حاغور بما يشغل باله من أفكار ولكنه قال لنفسه: لن يفهمك ما لم يكن من زعماء الأديغة، لا يكفي أن يكون من نخبة الفلاحين، فغيّر الحديث:
- هل سمعت يا حاغور غلاء الملح؟ القيصر الروسي ينوي خنقنا بعدما حاصرنا من جميع الجهات... هل تتوقع أن يكون الجنرال فيليبسون في مقرّه؟
- إن كنت أخبرته برغبتك في مقابلته فسيكون.

- لا أسافر قبل أن أفعل هذا يا حاغور!.. أخبرته أننا سنصل اليوم أو غداً قبل الفجر.

- ما الذي يشغل بالك إذن يا أمير؟

- مَنْ يعرف ماذا في قلبه؟ يقال إن قلب الروسي يتغير كل يوم سبع مرات.

- ليس الجنرال فيليبسون ممن يكررون القول يا أمير. الوقت يتجاوز الفجر، لئسرع قليلاً!

- ما خطر ببالي يا شرطي، - قال بعد مدة سفري الذي لا نية عنده للإسراع، - لينتظرنا الجنرال اليوم... سنعرج على أقرباء زوجتي آل طارق، ونقضي الليلة عندهم. ولن ندعهم يعتبون علينا. ونترك الجنرال ينتظرنا. ونجعله يعاني بعض الوقت من التفكير والقلق. وهل عجيب إن أعلمته بقدمي؟ هم كسروا باب بلادنا دون أن يسألونا...

بعدما قضيا الليل لدى آل طارق وصل موكب سفري في اليوم التالي، وفي الموعد المحدد، إلى أُنابه. والمدينة التي فارقتها سفري منذ سبعة أشهر تقريباً لا تزال خراباً. ليس فيها بيت يُستفاد منه إلا ما يسكنه الجنرال فيليبسون. والبيوت الأخرى مدمرة أو قيد الإصلاح. والجامع بقي على حاله لولا أن مئذنته اقتُلعت. ولا بأس بحال المرفأ. وفيه بضع سفن يرفرف عليها العلم الروسي. حين دنوا من باب الجنرال وكل ما يراه سفري، ولو أنه ليس جديداً عليه، مدعاة للعجب والحزن، استقبلهم ثلاثة ضباط دليلاً على أنه كان بانتظارهم. تعرّف سفري الضابط الثالث، وفيما يحكي الآخَرين قال للثالث بالأديغة:

- من حُسْن حظي أُنِي لم أصطحب والدك يا عديم الشرف!..

لم تحتلج عضلة من عضلات وجه رفعت.

سَمَح للضيوف بالمرور، ورافقهم حتى باب الغرفة الأبيض الكبير. تحمّل رفعت مهما قال له الأديغة. ولكن لم ير من اللائق أن ينطق زانه بمثل هذه الكلمات، بغضّ النظر عن أن أخته كَتَّتْهم. وفيما يتابع الأديغة بعينه تذكّر أليشكا - عليمبج الصغير، فعصر الأُلم قلبه...

في الغرفة الواسعة التي أُدْخِل إليها عاش سفري في زمان ما. وكلّم فيها كثيراً من الضيوف، وكان بين هؤلاء أديغة وروس وأترك وإنجليز. وسريه المزيّن لا يزال في

مكانه، والمقاعد. والمشجب أصغر مما كان لديه إلى جانب الحائط. وعلى النافذتين جرار من الورد لم تكن عند سفري. ابتسم سفري قائلاً: كأن الجنرال عاشق ورود.

وحالما جلس الضيوف، وقبل أن يجدوا فرصة للتأمل، خرج الجنرال من الغرفة الأخرى.

هو طويل القامة إلى حد ما. وتليق بوجهه اللحية والشوارب الشقراء. وأصغر سناً بكثير من سفري. ليس من عمر قرباتر ولكن ليس أكبر منه إلا بست أو سبع سنوات. وبعد أن أوماً إليهم إيماءة احترام أعفى الجنرال نفسه من مصافحة الضيوف الخمسة وأشار إليهم بالجلوس وهو يريهم مقاعدهم. وحين جلس سفري على مقعده قريباً من الجنرال أشار إلى رفاقه فتراجعوا ووقفوا إلى جانب الباب. وإلى جانب النافذتين وقف الضابطان الروسيان كما يفعل الأديغة. ولما كان الثالث رفعت فقد وقف قريباً من الجنرال ليسمع الكلمات التي سيترجمها.

- هذا، هذا الضابط الروسي، - ضغط على الكلمة الأخيرة، - لا أحتاج إلى مترجم يا جنرال. ليست روسيتي - أديغيتي أسوأ من روسيته. يسرني أن تُبعده عني.

- ظننت أنك نسيت لغتك الروسية لأن كتاباتك إليّ بالعربية وبالتركية يا أمير. - قال الجنرال بلطف للضابط المترجم: لا حاجة بنا إليك أيها النقيب الركن، بإمكانك الانصراف... - أسمعك يا أمير. ما الذي يشغل بالكم؟

- شكراً يا جنرال على استجابتك لطلي. - قال سفري بروسية صافية، - نحن لم نكتب لك طلباً. ولكن لي قبل أن أعرض ما جئنا لأجله بضع كلمات حول تعليقك على كتاباتي إليك بالعربية والروسية. نحن الأديغة ليس عندنا الألفبائية التي كتب بها القرآن والتوراة ولذلك أستعمل العربية والتركية والروسية. لم تدع لنا موجات الغزاة المتعاقبة من تتر وترك وروس وغيرهم فرصة في العصر الذي كنا نعمل فيه لتطوير لغتنا واستعمالها. لم يدعوا لنا فرصة لإحلال القلم محلّ السيف. وها نحن واقعون حين فكرنا في أن نؤسس دولة واحدة بين حجري

تركيا وروسيا تطحنانا بينهما. وحين ظننا أننا نخلصنا من تركيا إذا يا إنجلترا وفرنسا تهيجان حربنا مع الروس.

- نحن لا نحارب أحداً يا أمير، - تدخل الجنرال بكل بساطة.

- من إذن جيشه في أرضنا يا جنرال؟ - تظاهر سفري أنه يسأل في سياق الكلام من صار محادثه.

- أرض الأديغة جاءت من اتفاقية أدركه يا أمير - بدا على صوت الجنرال انزعاجه مما سمع رغم حرصه على إخفائه.

- اعتدنا على الأغنية الروسية التركية التي تكررهما يا جنرال، - ابتسم سفري. - منذ اليوم الأول لم يعجب اللحى أذان الأديغة، وكيف يعجبهم وهو خالٍ من الصدق؟ الأديغة لهم هذا القول المأثور: "الصدق يرجع فينتصب أمامك ولو ظننت نفسك صرعته، والكذب يسقط أمامك ولو ظننت نفسك نصبت". ولكن ليس القصد من زيارتنا لك أن ندخل أنت وأنا في جدال. ولست جاهلاً بhamش الحرية لديك. وأنا كنت في الموضوع الذي أنت فيه. وكنت ضابطاً في الجيشين الروسي والتركي. وليس لجيش الأديغة رتب، ولكن ما شرفوني به أكبر من ربتك بكثير. اغفر لي يا جنرال، لا أريد إهانتك، بل أقول الواقع.

- أسمعك يا أمير.

- نحن، هذا الوفد، مرسلون من مؤتمر الأديغة.

- سامحني يا أمير، - تصرف الجنرال بلباقة، - أي مؤتمر من مؤتمراتهم؟

- أتكلم على مؤتمر الشابسغ - الناتخوي - الوبيخ يا جنرال. وبيننا موفد مؤتمر البجدوغ. وإن سألت عن أخبار الأبراخ فلا شك عندي أنك مطلع عليها. كل الإقليم يعرفها، حتى الإنجليز يعرفونها. لن نخفي عنك.

- أعرف خبر حرب الشابسغ - الأبراخ يا أمير.

- إذا كنت تعرف النائب الطامح في زعامة الأديغة فشكراً لك يا جنرال إذ اختصرت مهمتي. ولكن أسلاي محمد أمين رجل غريب عن الأديغة. يخذلهم مدعياً أنه موفد الله. وأعلمك أن عامة الفلاحين الأبراخ لا يوافقونه تماماً. وحلفاؤه اقرب موعد انفضاضهم عنه. ولكن مهمتنا غير هذه يا جنرال. جئنا

إليك لتوصل إلى القيصر قرار مؤتمر الأديغة المصالحة مع روسيا. ونريد مقابله شخصياً، وجاهزون في الموعد الذي يحدده.

- سأبلغ رغبتكم إلى القيصر يا أمير. ولكني لن أخفي عنكم أن كلام القيصر على الأديغة وأرض الأديغة كلام جازم. ولا أظنكم تجهلون أنتم أيضاً.

- نعرف يا جنرال، - ارتفع صوت سفري عن ذي قبل، ولم يستطع كبحه. - وكلام الأديغة ليس أضعف من كلام قيصر روسيا! - ثم أضاف بصوت اللطف: - سامحني يا جنرال... ماذا يضير القيصر إن اعتبرنا يوماً ما بشراً وقابلنا؟ نتأمل منك أن تحقق لنا هذا المطلب الوحيد يا جنرال.

- زار القيصر هذه البلاد عام سبعة وثلاثين... ولكن الأديغة لم يهتموا بزيارته... كنْ واثقاً يا أمير أي لن أتأخر ساعة في تلبية رغبتك.

- إن لم يفهمنا قيصركم الآن أيضاً يا جنرال فستوجب علينا أن نستدير إلى إنجلترا أو إلى أي جهة تمد لنا يدها... - تجاهل سفري الكلام الذي وُجّه إليه بشأن قيصر الروس.

- إن استطعتُ فلن أدعكم يا أمير تفعلون هذا! - هل كنا نؤدي واجب الاحترام لدولة أجنبية لو كنا نملك القدرة يا جنرال! - قال سفري دون أن يتصاغر لمن يجلس في حضرته، ثم أضاف: ولكني شاهد يا جنرال على أنه إن بقي في العالم أديغي واحد لما وافقكم...

...

بعد شهر من اللقاء ورد من قيصر روسيا هذا الجواب: " لا يجوز عقد أي اتفاق سلام مع الأديغة. اطحنوا بالسلاح دون رحمة من لا يطيعنا، من يهاجمنا... كلام القيصر الروسي في شأن من يعيشون في دولته أمرٌ قاطعٌ... "

IV

حالما تسلّم بوتنييف أمر القيصر امتثلت أمام عينيه السفينتان اللتان رآهما في ميناء إستانبول. إحداها إنجليزية اسمها "كونغورو" والثانية تركية اسمها "أسلان". وما نُقل إليه صحيح: سي شحنون السفينتين بالبارود، وبالمدافع. وستُملأان مؤونة وكسوة صيفية وشتوية. ورغم أن السفينتين تبدوان خاليتين من البشر فالحراسة المشددة عليهما من البر والبحر تستدعي الشك فيهما. كان الرجلُ

الذي رشاه قد همس في أذنه أن السفينتين ستبحران إلى إقليم الأديغة. وقد أوصل بوتينيف الخبر قبل أن يمر عليه نصف ساعة إلى القيصر. وحالما وصلته تعليمات القيصر توجه بوتينيف إلى القائد العسكري التركي الأعلى رشيد باشا. استقبل رشيد باشا السفير الروسي بسرعة لا تتناسب مع عمره وبدانته. ورحب أحدهما بالآخر كأن البلدين لم يتعاديا ولم يتحاربا البتة. وتبادلا التحية مع الاحترام. وجلسا على مسافة، متقابلين إلى جانبي الطاولة المبلطة بالخرفات. تبادلا النظرات أكثر من مرة، ومرة أخرى تبادلا الابتسامات ولو أن أحدهما لا يعرف ما في قلب الآخر. سأل رشيد باشا وهو يمدّ التبغ المعطر إلى ضيفه:

- ما الأخبار في بلادكم، أليس قيصركم بخير؟
- شكراً، قيصرنا بخير. ورعيته راضية عنه. وفي البلاد راحة وأمان. وأدعو لسلطانكم أن يمد الله في عمره وينعم عليه بالصحة والقوة.
- شكراً، ونحن ندعو لقيصركم أيضاً بالصحة والقوة والعمر الطويل. السلم والأمان في البلاد شرف للسلطان. وفي هذا الصدد لا يوقّر السلطانان جهداً. ندعو الله أن يعيشا حتى يحققا أهدافهما. ما الأمر أيها الضيف؟ ليس من عادتكم أن تعرّج علينا كثيراً. ما الذي تحمله إلينا؟ الفرح أم الحزن؟
- الموضوع الذي جئت من أجله يعلم به القيصر. وليس في مصلحة الدولتين اللتين عقدتا اتفاق سلام.
- أسمعك أيها السفير المحترم.
- السفينتان الراسيتان في ميناء إستانبول لنقل الأسلحة إلى إقليم الأديغة تنقضان اتفاق السلام بين الدولتين.
- ما تذكره أيها السفير أسمعته للمرة الأولى. - امتثع لون رشيد باشا، وتساءل: من أين له هذه المعلومات؟ ثم رقق صوته: - إن صحّ كلامك فأنا شاهدٌ على أن لا علاقة للجيش بالموضوع. - صحيح، ولكننا نجهل من رتب الأمور. وهذا سيتضح قريباً.
- سأتابع بإسفير بسرعة ما يشغل بالك. غير أنني أؤكد لك ثانية أن لا علاقة للجيش التركي بالموضوع. لم تعد لنا علاقة بالأديغة، والحق أنه لم تكن لنا هذه

العلاقة بهم. الرابط الوحيد بيننا هو الإسلام. ومن الناحية الأخرى نحن وأنتم أعداء لهم. ليسوا جديرين بأن تتأمل منهم شيئاً. تنازلنا لهم عن كل شيء وتودّدنا فلم يتجاوبوا معنا. يعيشون كالطيور البرية متغنيين بأرضهم ووطنهم وسمائهم. وهذا هو السبب في أن سلطاننا تخلى عنهم قائلاً إن كنتم قادرين على إخضاعهم فخذوهم! ألم تر ما فعلوا بنا في هذه الحرب والحرب السابقة؛ رفضوا مساندتنا رغم إحساننا إليهم! هاج في إقليمهم أمير يدعى سفري يخدع من يتصل به، يصر على أن يصبح سلطاناً. وليس وحده فبرزج وتسي وجمقوه ليسوا جديرين بالثقة. وليس أحسنّ منهم ذلك الذي ظهر بين الأبراخ، مُجد أمين.

- هذا أشهر في نواحينا من الآخرين. - ساهم بوتينيف في الحديث، - لولا أنه غريب.

- ولا أستطيع أيها السفير أن أقول إن زانه سفري أقلّ ذكاء من مُجد أمين، وأقلّ ثقافة لأنه مارس الخيانة معنا. وبالقياس إلى عُمر سفري فالنائب في عَرّ عطائه ولياقته العقلية، وتلقّى عنده رجولة أكثر. أعرف زانه في شبابه وفي كهولته، وأتذكره جيداً. تظن أن بلادكم في سلام ولكن، - شَع من عيني رشيد باشا شيء من الرياء، - الأديغة لن يصبحوا كما تريدون تماماً. ولن يُذيقكم زانه سفري ما ترغبون من الهناء، ولن يمنحكم الراحة. ساجني، هذا كله من حديث الذكريات... - تظاهر بتبرئة نفسه، - أما النائب فأوافقك على وصفك إياه بالغريب، ومن البديهي أن الأديغة لا يحبون زعيماً غريباً. وهذا هو السبب في أن الطيور البرية لا تتقبلكم ولا تتقبلنا. - لن نطيل الكلام في الموضوع، - نخض رشيد باشا، وفهم بوتينيف أن الحديث وصل إلى نهايته، - أعدك بمتابعة الموضوع. ثم إن كثيرين من الأغراب دخلوا تركيا أيها السفير، ليست جماعة توفيق لا بينسك الذي سرحناه من الجيش وحدها - بل البولونيون والمجريين والنمساويون والإنجليز والألبان - هم كثيرون.

- وماذا يريد لا بينسك الآن أيضاً؟

- لا يغفر للروس دماء البولونيين.

في اليوم نفسه حين عاد بوتينييف من لدن رشيد باشا كان مساءً في مقر قيادة القوات البحرية التركية، وتكلم مع المسؤول، وقابل مسؤولين آخرين. وكل من قابلهم تظاهروا، كما رشيد باشا، بجهلهم بالموضوع. ورغم عدم ثقته فيهم فقد أعطوه طرف الخيط لمعرفة أساس الموضوع، فطلب إذناً بمقابلة السلطان حالاً. وبعد ثلاثة أيام أو أربعة طلب للمقابلة.

توجه بوتينييف إلى السلطان عبد المجيد لمعرفة حقيقة حمولة السفينتين اللتين تغلب عليهما حمولة الشمع، دون التوقف عند الأقاويل. كان السلطان التركي يعرف سبب مجيء السفير التركي. ولكنه أخفى أي انفعال ريثما قرأ الواقف أمامه كتابته المختصرة. وبوتينييف من جهته أغلق الطرف المحتوي على الرسالة بحرص ودون استعجال، ومراعياً حال من هو واقف أمامه، ومدّه إليه.

- الكتاب الذي قرأته، - قال السلطان متمهلاً، - أعرف محتواه. كان وزير الخارجية أبلغني إياه. لن أقبل أن يحدث في بلادي مثل هذا. والسفينتان المعنيتان لن أسمح لهما بمغادرة الميناء كائناً من كان صاحبهما. وسأعاقب المذنب.

- السفينتان يجهّزهما خروزر إسماعيل بيه يا سلطان تركيا.

- وهذا الخبرُ سمعته. وأي شخص يسيء إلى العلاقات بين بلدينا سيُعاقب. وبلغ سلطانك صلابة موقف السلطان التركي. - وحين أوماً إليه السلطان التركي برأسه إيماءة خفيفة علامة على انتهاء الاجتماع، ردّ السفير على الإيماءة بما يتناسب مع مقامه هو، وانصرف.

وريثما تعامل الأتراك مع بوتينييف كانت السفينتان أبحرتا بفاصل ساعة أو اثنتين بينهما إلى إقليم الأديجة. وحين التقى مسؤول البريد التركي إسماعيل بيه قال له: لا تسألني عما لا علاقة لي به، ولا تضيع وقتي.

وحين كتب للسفير الإنجليزي أجابه بأنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع. والسفينتان اللتان أبحرتا إلى أرض الأديجة، سواء وافقنا الترك أم لم نوافق، كان المسؤول عنهما أربعة أشخاص. وركفارت، ولاينسك، وإسماعيل بيه، وحورية خام. وإن شئت مناداتها بالاسم الذي أطلقته عليها أمها: مريم.

ثمن السلاح، وأجرة السفينتين، وأجرة المجندين، و ثمن الطعام واللباس، أغلب مصدرها أموال آل خروزر. ولن يتأخر جيمس عنهم. ومن لا يقبل أن يجادله أحد هو لايبينسك تيوفيل الثرثار. ومن هيتاً المدافع واللباس وإحدى السفينتين هو جيمس. وإذا عدت شهرين أو ثلاثة فقد كان في إنجلترا وهو الآن عائد إلى إقليم الأديغة.

السفينتان في رتل بحيث تراهما بالعين. وحورية خانم تستند إلى جدار إحدى السفينتين تراقب الغروب.

- هذه الشمس الغاربة، - يقول جيمس للسيدة، - قطعت طريق بلاد الأديغة التي نحن مسافرون إليها. ما الأخبار فيها يا ترى؟ - في الشهر الماضي لم يكن في الصحف الإنجليزية والتركية إلا خبر الحرب بين الأبراخ والشابسغ. توقعت أن يحدث مثل هذا.

- هل يتنازع زانه سفري ومُجد أمين أرض الأديغة؟ - سألت حورية خانم من وراءها دون أن تلتفت إليه. وأضافت متحدثة إلى نفسها: - أنا أسافر إلى أرض الأديغة في أسوأ الظروف... - انتصب وجه ترام أمام عينيها من بعيد، وعلى نحو مبهم، ولكن محدّثها سرعان ما طرد الصورة.

- لا تندمي يا حورية، ما العمل، يحدث أن يشتبك الناس في ساعات الغضب. ما جاء به الترك والروس إلى إقليم الأديغة عذاب. ومع ذلك فما نقصده أرض الجنة. وأنت تعرفين دون حاجة إليّ. وُلدت فيها ونشأت...

- وكيف أعرف وأنا لم أعش فيها إلا عشر سنين... - ضمت حورية خصلة الشعر التي انسلت من تحت الغطاء الجميل. ثم تنهدت. - ما مضى يا جيمس مضى وانتهى، الأهم هو ما ينتظرنا. أين سينتظرنا زعماء الأديغة؟ - في مضيق طوابسه.

أ يكون ترام بين من سينتظروننا؟ قالت حورية. مَنْ ذا يهتم بترام الفلاح الذي بلا أهل ولا أقرباء؟! من يتنازل أن يحترم ترام؟ اتخذت حورية من ذكرياتها مضحكة. ولكنها دانت نفسها على هذه الأفكار الساخرة. ألم يعد ترام في عداد الرجال إن كان سليل فلاحين؟! ها هو خروزر باشا كان فلاحاً في الأرض فقيراً! رفعته رجولته على أرض تركيا، غفر الله له ذنوبه، وفتح له باب

جنته، وفهمنا نحن أيضاً إن أخطأنا! يا إلهي أي عالم جميل وثقيل ذلك الذي نعيش فيه؟ في السنوات القليلة التي أعيها لم ير ترام إلا العذاب. كان يساندني رغم أنه عاش حياة اليثم والوحدة. ولولاه كنت رحلت إلى الآخرة قبل أمني منذ زمن بعيد. وإلى الآن لا يزال في مخيلتي جرئي ترام، وصرُغ التاجر التركي له بصدر الحصان. وكيف كان يسجن لي الفرن حين أعود إلى بيتي؟.. ويؤمن لي ما أقتات به عشاء مهما كان؟.. وكيف كان يشوي لي الذرة؟.. يا حسرتي يا ترام من أين نسترجع ذلك الزمان ولو كان زماناً صعباً!.. لا يمكن أن تعرف ماذا ينتظر الإنسان. من كان يعرف أني سأقدر يوماً على تسيير السفن في البحر هكذا؟ لو لم يكن لترام مكانة ما لما أرسله الأديعة إلى تركيا البعيدة موفداً... كيف لم أعرف بمجيئه إلى تركيا؟ لو ألقيت عليه ولو نظرة واحدة لرويث غليلي، ولكنك وضعت في يدك ما تعيش به إلى آخر عمرك... لماذا لم تتزوج إلى الآن؟ وكان سفرني أخبرني جاهلاً بالسبب. كان سيشب رجلاً جميلاً قوياً عذب اللسان لولا أنه فقير ولكن لا أعرف ما جرى له. وحين تذكرت مريم بعذوبة لا توصف كيف ضمها ترام بذراعي صبي قوي وهي صبية صغيرة تحرك شيء في جسد المرأة التي لا ترى جسد رجل للمرة الأولى.

- أراك لا تقولين شيئاً يا حورية؟! - سأل جيمس حذراً المرأة الشاردة، ولكن حورية سرعان ما عادت إلى وعيها، وأجابت جاهزة لما ستقول:

- كنت أود ألا أترك هاتين السفينتين الكبيرتين فارغتين، كثيرون طلبوا جلود مواش.

- ستجدين طلبك، هذا كثير عندهم.

- وهل هي غالية يا ترى؟

- لا، ستجدينها رخيصة. سيملؤون لك السفينة جلوداً مقابل برمبل بارود!

- نقنع إن عوّضنا ما خسرنا من مال.

- إقليم الأديعة مورد رزق ممتاز. كل شيء فيه رخيص إلا الإنسان. ستربحين ثلاثة أضعاف ما أنفقت أو أربعة.

- حسن إن كان للإنسان قيمة! نحن باعونا إلى الأتراك بثمان زهيد... يقال إن الصوف رخيص، والشمع والعسل.

- لم يكذبوا عليك.
- وهل هناك شيء يجعله إسماعيل بيه؟ ودّعته وهو راغب في الرحلة...
- اصمتُ يا جيمس لأن تيوفيل قادم.
- لَمْح لاينسك قبل أن يصل:
- انظر أين اختبأ هذان!.. كان إسماعيل بيه يحاول منعك من السفر من أجل هذا يا حورية خانم... ومن أجل هذا يا جيمس أعيش وحيداً بدون امرأة...
- لا تدمر حياتك بهذه الحجة يا تيوفيل. الرجولة تحلو مع النساء.
- بعد فاصل المزاح سأل لاينسك:
- متى سيظهر إقليم الأديجة يا جيمس؟
- إن لم نعرفلنا شيء فمع موعد شروق هذه الشمس النائمة سنطل على إقليم الأديجة.
- إن شاء الله يا جيمس! - ابتسمت حورية لمن نطق هذه الأقوال العذبة.
- نحن لا نفعل شيئاً دون علم الله. - قال تيوفيل بدلاً من جيمس، ثم استعجل خائفاً أن يسلبوه زمام الحديث: - أريد أن أسألك في أمر يا حورية خانم: هل تعرفين قريتك متى دخلنا إقليم الأديجة؟
- من سيتذكر بعد كل هذه السنين؟! - لم يعجب السؤال حورية، وردّت بلامبالاة: - ولدتُ في بيت صغير بئس. كانت أُمِّي دائمة الصراخ والتعنيف، وفي دارنا بقرة تظل تحور. ولا أريد أن أتذكر!
- أنا هجرت قريتي في بولونيا منذ زمن بعيد، ولكني أتذكر مسقط رأسي ولو عصبوا عيني، وأينما ذهبت بقي الوطن في مخيلتي... - تنهد لاينسك، ولما ناداه أحد رفاقه انصرف دون أن يكتفي من الكلام.
- لا أعرف علامَ يتكلم توفيق بيه الذي ليس من هنا ولا من هناك، لا موطن له!.. - تابعت حوريةً بعين غاضبة الرجل المنصرف، وقالت وراءه: - إن كان يجب بلده إلى هذه الدرجة فليعدْ وليُقيم فيها! يدعي مرة أنه مجري، وأخرى أنه تركي، وأديغي... يستقلّ الأجرة التي ندفعها له.
- لو استطاع البولونيون لما أبقوا الروس على وجه الأرض! - أصلح جيمس ما قيل في شأن تيوفيل. - يثأرون للدم البولوني الذي سفكه القيصر الروسي. ها

هم أغلب الرجال الثلاثة الذين جمعهم من البولونيين. وهو ينوي متى دخل إقليم الأديغة أن يسحب من الجيش القيصري أبناء قومه ويستعين بهم في حربه. - لا قيمة لِمَا لا فائدة منه ولو كنت تحب وطنك. - اختتمت حورية رأيها في الموضوع. - أوقعنا في مشكلة منذ سنة. يظل يجادلنا: لماذا لا نرسل هذا، ولماذا لا نفعل هذا؟ ألستم أديغة؟

ظنت حورية أنها ستستريح متى لجأت إلى الفراش ولكنها وقعت فريسة الأفكار المقلقة. تعود كلمات لاينسك إلى رأسها رغماً عنها. تنظر عبر السنوات الأربعين التي عاشتها فلا ترى طفولتها البائسة إذ تغلب عليها سنوات رخائها. ورغم أن تعنيف الأم ما يزال في أذنيها فإنها لا تتذكر تقاطيع وجهها. ولا تهتم بالرجل الذي تركته في إستانبول ولا البيت ولا المال. كلُّها في موضع أمين، ولن يسلبها أحد منها. وأهم شيء الآن هو مصير مشروعها في إقليم الأديغة. حسناً فعلتُ إذ أفنعت إسماعيل بيه بعدم السفر، يكفي ما خدعته جماعة لاينسك. ليأخذوا النقود مني إن استطاعوا قبل أن يشحوا السفينة!.. أفكر فأجد طباع الناس الذين أسافر معهم عجيبة. يذهبون إلى الحرب التي لا يعرفون مصيرهم فيها من أجل الثأر للدم البولوني. ماذا يتأمل هؤلاء؟ وجيمس أعجب منهم. يقيم في أرض الأديغة منذ سنوات دون أسرة ولا أهل. ويعرف كل الأسعار في تلك البلاد. ولا تظنُّ أنه لم يرسل عدة سفن من أرض الأديغة إلى إنجلترا وتركيا وفرنسا. وها هو الآن عاد مستقلاً ما عنده. هذه هي الحياة، هذا اغتنى منها، والآخر دفع الثمن غالباً. وترام؟ لم يشبع سفرني من سرد رجولته وإنسانيته، ترام البائس، لا أظنه أقل حيلة ولا نشاطاً من جيمس بيل، بل من إسماعيل بيه. ولكنه يعيش عمره فلاحاً وحيداً وما يحتاج إليه أكثر مما عنده. هل يتذكرني إن رأي؟ وكيف سيتصرف معي؟ وماذا ستكون أول كلمة؟.. تذكرت حورية مرة أخرى عناق ترام الصبي وهي تسبح في بحر الضيق. مدت يدها إلى أول منديل وقع بيدها فبردت الخدين اللذين هجم عليهما الدم.

ارتاحت حورية لا تعرف متى غرقت في النوم. ولكنها لم تتم طويلاً فأفاقت كأن أحداً دفعها بمرفقه. كان الظلام ما يزال يخيم على الأرض ولكنها نهضت لا تستطيع الاستقرار في مهجعها، فلبست بسرعة، وخرجت. عادت إلى جانب

السفينة الذي وقفت إليه مساء أمس تستشف طريق السفينة. القلب يخفق، والسماء تبيض، تبدل لونها من الباهت إلى الأحمر الخفيف الناعم. أحسن وجهها بنسيم الفجر اللطيف. وعبث بالشعرات التي سقطت من تحت غطاء رأسها.

ظهرت سحب سوداء - حمراء في سماء الجهة البعيدة التي تتقدم إليها السفينة. تساءلت حورية: أليست هذه الجهة التي تشرق منها الشمس؟ أليس هذا هو ساحل الأديغة؟ ها هي بعد قليل أرض الأديغة ستلوح. يا إلهي، هذه أرض الأديغة! ها هي قممها البيضاء، وثلوجها، وغاباتها، وسحبها الباهتة. وشاطئها ينهض من البحر. ها هي أرض الأديغة التي وُلدت فيها! تركض في أرجاء السفينة إذ لا تكتفي بالنظر من جدار السفينة! وحين لم تجد من يقاسمها الفرح - القلق، والأمل المجهول القادم صاحت حورية إلى جهة القمرة التي يقيم فيها جيمس:

- يا جيمس يفوتك المنظر!.. ها هو ساحل الأديغة!.. يا رب أرنيه بالخير!.. يا أمي النزقة من أين آتي بك الآن؟! - أجهشت بالبكاء، ثم انفجرت. كانت بقلبها وروحها في أرض الأديغة غير عابئة بالرجال المسلحين الغرباء الذين يتدافعون إلى السفينة.

V

كان سفرني قد فهم حين استقبل متردداً جيش الغرباء الآتي إلى إقليم الأديغة ألا مخرج سواه الآن. لا نيةً للقيصر الروسي بمصالحة الأديغة. وما في كل أجوبته باختصار هو: أنتم من عليهم مصالحة القيصر، لا أنا. وخلافاً للسنوات السابقة ففي هذه السنة لا يدعون للأديغة فرصة لالتقاط الأنفاس. وحرب الرسائل تغلب حرب السلاح. ولا يخفون أن حرباً دموية ستتلو الحرب الكلامية. ويجهزون أنفسهم علناً لأيام الربيع الصاحية. والسلاح الذي يعبرون به نهر بشره كثير، وكذلك الناس، ولا يكفي هذا بل يأتون به وبهم بالسفن إلى أنابه وبزأه مز وجُبْغُه.

والأديغة ليسوا قاعدين بانتظار ما سيحدث: بأمر من مؤتمر الشابسغ تحدد عدد الفرسان والمشاة حسب الأسر. ويجهزون مؤونة الجيش. ومطاحن المخوش

ومجارشهم لا تهدأ. يطحنون القمح والذرة، ويجرشون الدُّخن. والعجائز يصنعن الأكسية القصيرة وأغطية رؤوس الرجال، والسروج. وينسجن الجرابات الصوفية والقفازات. ويخطن الأحذية والجزمات. والمسنون يسقون الخناجر والسيوف في ورشات الحدادة.

الإنسان يعيش على الأمل، ولكنْ إلى من سيحمل سفري أمله؟ فعل الرجل كل ما يستطيع فعله، ولم يترك شيئاً لم يصل إليه. يفكر في إلقاء السلاح أمام الروس، ولكن المؤتمرات تتعاقب واحداً بعد الآخر، ويتفكر في ما قيل فيها، وفي حماية أرضه وشرفه... ومن سقطوا في الحرب طوال هذه السنوات؟ وماذا سيقول له هؤلاء يوم القيامة؟ الخيانة عار على كل إنسان، إن لم تدنّسك فلن تزينك. وقبل أن أقوم بها، قال سفري، أفضِّل أن أموت على حدّ خنجري!.. وإن تصرفت هكذا فبأي عين أنظر إلى أبناء قومي؟.. ما الفائدة من أن تقول إن الجنرال غزار صديقي؟ كيف أستطيع أن أكسب طاعة من قدّموني أمامهم ووضعوا فيّ أملهم؟ هؤلاء يفهمون المأزق الذي وقعت فيه. ويعرفون أن من المستحيل الانتصار على مثل هذه الدولة الكبيرة. ولكنهم لا يستطيعون تقبُّل الإهانة التي لحقت بهم. ما الضير في أن تسمع روسيا مرة كلامنا؟ طلبوا منها ألا تقتحم أرضنا فإذا بها تزيد عدد جيوشها. وأنت يا غزار تحتبئ عني ولكن أين تهرب مني ومن الأديغة؟ أتفهم حراجة موقوفك، لا تريد أن تسبب لنا الألم ولكن لا حول لك. وعلى ما يبدو أنا أيضاً مثلك يائس. ولو استطعت لحملت الجنرال فيليبسون على أن يطيعك، وكان القيصر ومثله بارياتينسك يصغيان إلى شيء من كلامك. ماذا نفعل؟ انطبق علينا أمام الأديغة المثل القائل: المنحوس يعضه الكلب ولو كان على ظهر جمل. والحل الوحيد أماننا، لا تؤاخذني، أن نمد أيدينا إلى من يمدون لنا أيديهم. هاتان السفيتتان لن تفيدانا كثيراً. ولكن وضّعنا الحالي لا يسمح لنا بالاستغناء عن بندقية زائدة أو رجل إضافي. ستعرف روسيا أنهم يساعدوننا، وسيسمع العالم. ومن ليس أصمّ يكرر ما سمعه، ومن ليس أعمى يروي ما رآه. يا إلهي، ما أفعله اليوم أفعله مرغماً؛ فاغفره لي، وليفهمني الأديغة! ما من شيء لا يلجأ إليه المضطر، هذا أجزّ أمل لي!..

تقاطر سكان القرى القريبة الذين سمعوا بوصول السفينتين إلى الساحل، فضاقت المرفأ بالناس، بعضهم فرسان والآخرون على الأقدام. وربات أغطية الرؤوس لسن قليلات. والسفينتان لم تجدا بعدُ مكاناً ترسوان فيه.

لم يمض وقت طويل على استقبال السفينتين اللتين انتظرهما سفري ثلاثة أيام. ولم يعد مهتماً بعدم حضور مُجد أمين ولو لم يكونا صاحبين؛ أليس له نية مساعدته، ولهما عدو واحد، ويخوضان حرباً واحدة. ولكنه يخشى أن يأتي مع عدد كبير من الفرسان، فينظر من طرف عينه من وقت إلى آخر.

تصل السفينة كينغور أولاً، وبعدها بقليل السفينة أسلان إلى الساحل غير بعيدة ولا قريبة.

صدر من السفينة الأولى فجأة صوت طلقة مدفع. فحنى الناس رؤوسهم كما عودتهم السفن المعادية. وارتقوا على الأرض. ومن تفرقوا أكثر. وارتعبت الخيل وأطلقت أصواتاً مبهمه. وباعدت بين قوائمها تريد الانبطاح. ولم تصل الطلقة إلى الساحل بل انفجرت إلى الجانب على الماء فارتفعت نوافير الماء.

- لماذا يبدد هؤلاء طلقات المدافع النادرة عندنا؟.. - اعترض برزج، - كان الأفضل مما فعلتم أن تقصفوا الجنرال فيليبسون!

- وهذا المصير ينتظره، سنرى ما يحدث... - قال سفري، والتفت إلى لونغفورت.

- ماذا يا أمير؛ ألا تثق بما يجلبه جيمس بيل؟

- سنقع في مواقف كثيرة لاختبارها. - لم يهتم سفري بالسؤال، لماذا نشمر عن سيقاننا قبل أن نصل إلى الماء... من يا ترى ذات الغطاء هذه التي يُركبونها زورقاً؟ أ تكون حورية خاتم؟!

- أياً كانت، - يتعجب جراندوقوه مما يرى، - نحتاج إلى رجال، لا إلى نساء.

- لا تقل هذا يا أمير، ربما هناك من يحتاجها، - ابتسم تسي حاتراي.

حين اقترب الزورق من الساحل بدأ جيمس في إنزال المرأة فلم تقبل. قفزت حورية إلى الماء، وما إن وضعت قدمها على اليابسة حتى ارتقت بركبتها على الأرض. حيّتها، وقبّلتها. وأطلق عدد من الإنجليز والبولونيين والأتراك والمجريين المسدسات تحية لأرض الأديغة.

- أهلاً بكم أيها الضيوف. - استقبل سفري الخارجين من السفينة، وتبعه رفاقه. - ما أعجب ما أراه! تفضلي يا حورية، تفضلي!
ارتمت حورية وقد مدت يدها في صدر سفري. ولففت أنظار الواقفين، وبكت بأعلى صوتها.
لاطف سفري حورية:

- كفى يا حورية، توقف عن البكاء. أفهم آلامك. مرت بك أحداث كثيرة. وعانيت. وتذكرين أموراً ومواقف كثيرة... ليس هناك أغلى وألم من الأرض التي ولدت فيها. وأنا صدف أن وقفتُ في مثل موقفك. ارفعي رأسك واشبعي من تأمل أرض أجدادك.

نظرت حورية بعض الوقت لا تفهم تماماً ما يمر أمام عينيها من بشر وغابات وجبال، والدوار يصيب الرأس. ثم أمسكت بيد أول صبي وجدته، وصعدت إلى الساحل. وصاحت على مسمع من الناس الذين تركتهم في الوهدة والآخرين الواقفين جانبا:

- أيها المقاتلون الذين يقفون اليوم في أرض الأديغة، ويا أبناء قومي الذين يتعذبون. أنا ولدتُ هنا في أرض الأديغة التي ترونها، ولكني رُبِيتُ في أرض الغرية. كل ما ترونه هو وجه أمي، ووطن والدي. الأرض التي سلبوها من الأديغة عادت فصارَت أرضي أنا. أقسم ما دمْتُ حيةً أن أظل مخلصة لأرض الأديغة باسم هذه الشمس، والسماء، والبحر الكبير، وهؤلاء الجدات، والأجداد، وأخوتي، وإخوتي الكبار، وإخوتي الصغار، وباسم كل من له قلب أديغي ورحمة أديغية. اسمعني يا إلهي، وارفع عن الأديغة بؤسهم!

- ما أعجب ما أسمعُه!.. - قال جيمس للونغفارت دون أن يخفي انفعاله، مسمِعاً سفري، - ما جاءت من أجله حورية خانم، وما تقوله مختلفان.

- لا عجب في هذا يا جيمس، - أجاب سفري على سؤال غير موجّه له، - لا أصدق أن ما حدث لها ما كان ليحدث لك لو كنت مكان حورية خانم، ولو كان قلبك يغتلي بما يغتلي به قلبها- ولكن يا أمير، - لم يملك جيمس إلا أن يصرخ، - حورية خانم قطعة من الذهب. أملاكها تعادل أملاك سلطان تركيا.

- ليس المُلْك وحده ما يشهد على إنسانية الإنسان وشرفه. كم من الأشخاص ظهروا في أرض الأديغة من هذا النوع! وهل ما يملكه تسي حاترباي قليل؟!

- أملاك تسي يسلبونها منه هنا، وأملاك حورية خانم تبقى في البلاد التي جاءت منها.

- أنت مخطئ يا جيمس. تسي يسلبونه بلادهم ولا يطمعون في ملكه. لا تدعنا نفترى على الروس! لا يخرج مثل هذا من أفواههم، بل لا يُشعروننا به. الحق، ما كنت أريد أن أقول هذا ولكن، الروس يقولون لنا: ارتاحوا، وعيشوا، واعملوا، وكلوا، ولا يقولون لنا: نطردكم من أرضكم!

- ألا يتساوى اقتحامهم أرضك وقتلهم إياك؟

- لا يا جيمس. - احتد سفري، - عليك أن تملك قلباً أديغياً لتفهم الموضوع، ولا يكفي أن تتكلم الأديغة، وتحارب مع الأديغة... أسمع يا لونغفورت؟ إن كنت تسمع فكتب ثانية في جريدتك. وإن كان هناك ما لا تفهمه فستتكم في الموضوع متى وجدنا أنفسنا في مكان أهدأ من هنا. اسمع، ها هو توفيق يبه ينادي، يطلب منا أن نفرغ السفينتين.

من كانت تبحث عنه حورية خانم وهي مفتونة بكلماتها المعبرة عن حبها لوطنها هو ترام. ولكن عينيها مهما دارتا لا تتوقفان عند أحدٍ تُقرِّر أنه هو ترام. وكلما عادت عيناها خائبتين تغلغل اليأس في القلب الأنثوي. ولم يعد الناس المتدفقون، الواقفون على الشاطئ، وفي المضيق، والأطفال على دُرا الأشجار، يمثلون أمام عينيها. وساء الأديغة وشمسها، والبحر، والناس في حالة لا تعرف كيف تصفها... أليس هؤلاء من كانت تشتهي رؤيتهم وهي في تركيا، وفي وقفها إلى جدار السفينة، أمس واليوم؟.. أين ترام؟ لماذا يختبئ عني؟ أنا عجزت جداً فتخجلت مني؟.. ها هو!.. وقع ترام تحت ناظري حورية. يقف وراء سفري. نعم، هو ترام!.. لو كان بين مئة ألفٍ لتعرفته!.. لحيته وشارباه التي مشى الشيب فيها، وجبهته وحاجباه المتداخلان. لا يزال كما عرفته في يوم ما لولا أنه الآن أضخم من ذي قبل... وعيناه؟ ماذا يا ترام، ماذا؟ لماذا تُطرق

برأسك يا حي؟ لماذا لا تنظر إلي؟ أنت، أنت من تركت لأجله كل ما عندي من أملاك، واجتزت كل هذه المسافات!.. هل نسيتني؟ هذا مستحيل!.. نادى حورية ترام دون أن تشعر بالخرج من كونها أنثى، ودون أن تنسى قرباتها الخفية بسفري، ومُبعدة من طريقها المسنين الذين لا يعرفون ما جرى، وركضت إليه:

- ترام! ها أنا أمامك!.. ألم تعرفني؟! - ركضت حورية وهي تصيح إلى ترام لا تتمالك نفسك، وكأن لم يبق في العالم غيرهما، ولكن وقفة ترام الهادئة لجمتها. وأمسكت به من طرفي جبينه، وراحت تهزهما: هذا أنا؛ ألا تعرفني؟ أنا ابنة خراش أيّ نور...

- وكيف لا أعرفك يا مريم؟! - قال ترام بصوت ناعم، متصبراً بآخر ما بقي له من قوة، والقلب يترنح... ومنادتها باسمها الأصلي يفتت قلب حورية، فانفجرت باكية وارتمت على صدر ترام. وجعلت عيون الواقفين تتجه إليهما. وابتعد بعض من لا يهتمهم الاطلاع على سر متحابين. وتلاقت عيون النساء الواقفات جانباً عليهما لا يعرفن ما يحدث. وهرع إليهما عدد من الصبيان.

- كفى يا مريم، كُفّي عن البكاء!.. - عاد ترام إلى وعيه ونصح حورية: - وكيف لا أعرفك؛ عرفتك من قبل أن تنزلي من السفينة. ولم أنس والدتك المرحومة أيّ نور أيضاً... ولا أزال في قُماطر، وفي حيننا... كفى يا مريم توقفي عن البكاء، القرية كلها عيونها علينا!..

- هذان البائسان، - قال سفري، - كانا جازين، وتشاركنا البؤس، لم يلتقيا منذ طفولتهما... عندهما ما يرويان أحدهما للآخر. وما يسألان عنه كثير. تعالوا نبتعد عنهما!

- يا ترام، - ناداهما جران دوقوه، - هل ستبقيان هكذا خارجاً، ادخلا البيت، وفيما هما يبتعدان يقول لنفسه مُسمِعاً رفاقه: - من أين تأتي بأغلى وأحلى من أيام الشباب!.. والفلاح ترام لم يعد شاباً. وحورية خاتم زوجة خروزر باشا لم تعد صبية... إيه أيتها الدنيا الظالمة، تُسعدك ثم تسلبك السعادة!..

دعا برزج الضيوف إلى الغرفة كما طلب المضيف، وكان ترام، مغلوباً بالخجل، يودّ التخلص من حورية، ولكنها متشبثة بيده، لا تقبل:

- لا يا ترام، ليغفر لي لابسو القبعات الذين خرجت منهم، لن أسمح لك بالعودة إليهم بهذه السرعة. هؤلاء تراهم كل يوم، ونحن بعد سنواتنا الثلاثين نلتقي هذه المرة الوحيدة... كيف تعيش حياتك يا ترام؟ ماذا تفعل في هذه الدنيا؟ أنا أعرف أخبارك، رواها لي الأمير سفري... أظنك لم تعرف أي ما زلت حية...

- لا يا مريم، لم أنسك. وكنت بحثت عنك حين جئنا إلى تركيا.
- ما أشد أسفي على أننا لم نلتق. أوصل الأمير سفري أخبارك في اليوم التالي لمغادرتكما تركيا... تقول حورية للمرأة التي من عمرها تقريباً، والتي بقيت معهما في الغرفة: هذا ترام وأنا يا أختي الصغيرة، كي لا تذهب بك الظنون، من قرية واحدة. وكان بيتانا متلاصقين، وعشنا معاً جارين... متى هذا؟ يا حسرتي ما أسرع ما يتبدد الشباب كالندى المتساقط حديثاً!

- لا تقولي هذا يا أختي، - لا تستطيع المرأة المضيفة إلا أن تتدخل في الحديث. الشباب الخادع يبقى في القلب ولو انقضى.

- نعم يا أختي هذا هو الصواب! ما الذي كان يجمعنا أنا والفلاح ترام لولا هذا؟ هيا يا ترام أخبرني عن حالك في الدنيا، لم أتوقع البتة أن نلتقي ثانية كما اليوم. هل تتذكر يا ترام أيام كنت تشوي لي الذرة البيضاء؟

- نعم يا مريم... - يخلج ترام أن يرفع رأسه وينظر إليها، والقلب يخفق غير قادر على التحمل.

- وكيف جريت ورائي حين اشترايني الأتراك؟ وكيف صرعوك بصدر الحصان؟
- نسيت حورية أن امرأة تجلس معهما، وبدا على خديها المتوردين سرورها للذكريات وإن كانت مآسي: وكيف كنت أناديك؟

- أنا لم أنس شيئاً يا مريم... - نظر ترام بوجه طلق في وجه مريم، والتفت إلى المرأة التي معهما كأنه يعتذر إن كان ارتكب خطأ ما.

- أنا اسمي الحقيقي مريم. ولهذا يناديني ترام به. - ونظرت حورية إلى المرأة وكأنها تقول لها: لماذا أنت جالسة معنا كالمقيدة. وابتسمت لها تريد أن تقول: ألم تفهمي ما قلث لك؟ ثم عادت واستدارت نحو ترام: وأنا يا ترام مهما كنت في أصعب المواقف، أو في أدعاها للفرح، لم أسمح لنفسي أن أنساك. حملتك في

قلبي، وعشتُ أردد اسمك... - تغيرت حال عيني حورية، والتمعتا ونار الأمل الخفي الذي حملته طوال سنوات تقدح شرراً منهما. وثبتت رائحة ترام الذي لم يُعطها راحة طوال عمرها، وأحسّت بها.

- اجلسا أنتما إذن، - نهضت المرأة.

- مهلاً يا أختي، لحظة... - استعجل ترام قلقاً، - وها أنا حالاً.

- لا يا ترام. - قالت المرأة وهي تخرج، ثم ابتسمت لحورية: - أنا امرأة يا مريم. أفهم الموقف. أنتما، وليس هذا سرّاً، عندكما كلام كثير تقولانه.

حين بقيا وحدهما في الغرفة جلسا مدة صامتتين، يتبادلان النظرات، ويحاول كلٌ منهما أن يهدئ أفكاره الهائجة. ونفد صبر حورية أولاً فنقضت الهدوء الكاذب:

- لا تقول شيئاً يا ترام؟

- وماذا أقول يا مريم؟

- وهل قليل ما يمكن أن تقوله يا روحي الوحيدة؟

تداعى قلب ترام. لا يتذكر أن امرأة نادته بهذا الوصف. وأجاب جواباً لطيفاً والقلب يفلت منه والحنجل يغلبه:

- ما في القلب كثير يا مريم، وما يستطيع اللسان التعبير عنه قليل.

- قل لي أشدّ ما في القلب دفناً حتى لو كان قليلاً، وأكون راضية يا نوري!

- أما قلتُ لك يا مريم؟

- تعال يا روحي الوحيدة يا ترام، - قرعت له على الجانب الأيسر للمقعد

الذي تجلس عليه، تعال واجلس أقرب إليّ!

- لا يجوز هذا يا مريم، عيبٌ إن رأنا أحد!

- وما أهمية ما يقولون يا ترام، تعال اجلس إلى جانبي ولو دقيقة واحدة!

- لا يا مريم، لا أستطيع هذا!

قفزت حورية من مجلسها، وتوقفت قبل قليل من مجلس ترام. ثم جلست حيث

اليدان الرجليتان الضخمتان ممدودتان على الطاولة. وحين لمست اليدان

الناعمتان يد الرجل نهض ترام بكل ضخامته:

- لا تدعينا نجلب العيب لأنفسنا يا مريم...

سَمِعَ صَوْتُ خَطَوَاتٍ مِنْ جِهَةِ الْبَابِ فَفَرَحَ تَرَامٌ لَا يَعْرِفُ السَّبَبَ...
اسْتَعْرِقَ تَفْرِيعَ السَّفِينَتَيْنِ يَوْمًا فَارِغًا. وَكَلِمَا أُخْرِجُوا مَتَاعًا عَدَّهُ لَايِنْسِكُ وَسَجَلَهُ
فِي دَفْتَرٍ وَحَمَلَهُ عَلَى عَرَبَاتِ الثِّيرَانِ وَالِدَوَابِّ إِلَى الْمَكَانِ الْمَحْدَدِ. وَأَحْيَانًا عَلَى
أَكْتِفِ النَّاسِ.

لَمْ يَجِدْ سَفْرِي وَتِيوفِيلَ الْفُرْصَةَ لِلْمَحَادَثَةِ إِلَّا فِي مَنْتَصَفِ اللَّيْلِ.
- نَقَذْتُ التَّزَامِي يَا سَفْرِي. - قَالَ تِيوفِيلُ مُشْهِدًا نَفْسَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَالتَّعَبِ
بَادٍ تَحْتَ أَجْفَانِهِ وَعَلَى كُلِّ جَسَدِهِ. سَنَحَارِبُ مَعَكَ ضِدَّ الرُّوسِ.
- حَقَّقْتُ وَعَدَكَ يَا تِيوفِيلَ، وَلَكِنْ كَمْ تَأَخَّرْتُ. لَوْ تَحَقَّقَ هَذَا فِي غَمْرَةِ حَرْبِ الْقَرَمِ
لَكَانَ حَسَنًا.

- أَفْهَمَ مَا تَرِيدُ أَنْ تَقُولَ يَا سَفْرِي. - لَمَعَتْ عَيْنَا تِيوفِيلَ تَوَاقًا لِلْكَلامِ رَغْمَ
تَعَبِهِ. وَنَتَأْ طَرَفًا كَتَفِيهِ. - وَهَذَا مَا كُنْتُ أُرِيدُهُ أَنَا لَوْلَا أَنْ إِسْمَاعِيلَ بِيهِ مَاطِلٌ إِلَى
الْآنِ مُسْتَكْتِرًا مَا يَنْفَقُ، حَاسِبًا النِّفَقَاتِ بِدَقَّةٍ، وَاعِدًا ثُمَّ نَاقِضًا وَعَدَهُ، وَلَمْ يَكْفِ
هَذَا بَلْ أَرْسَلَ مَعَنَا زَوْجَتَهُ، لَمْ يَرُدَّ رَادِعًا، لَا أَعْرِفُ مَاذَا سَتَفْعَلُ هُنَا...

- أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَتْ حُورِيَّةٌ؟ أَلَا تَصْدُقُهَا؟
- أَسَاطِيرُهَا لِأَنِّي أَقْسَمْتُ عَلَى مُحَارَبَةِ الرُّوسِ وَإِلَّا مَا صَدَّقْتُ أَنْ فِي بَيْتِ هَذَا
الزَّوْجِ شَيْئًا مِنَ الصِّدْقِ وَالثِّقَةِ. وَالْحَقُّ يَا سَفْرِي، وَأَنْتَ عَارِفٌ بِالْأَمْرِ، لَا ثِقَةَ لِي
بِحُورِيَّةِ خَانَمِ وَجِيمِسْ بِيلِ. يَسْتَحِقُّ هَذَا الْخَبِيثُ إِسْمَاعِيلَ بِيهِ مَهْمَا فَعَلُوا بِهِ.
كَذَبَ عَلَيَّ طَوَالَ سَنَتَيْنِ. وَهَلْ يَبْقَى النَّاسُ يَنْتَظِرُونَكَ وَأَنْتَ لَا تَدْفَعُ لَهُمْ
أَجُورَهُمْ؟! تَسَبَّبَ فِي انْفِضَاضِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ عَنِّي. وَهَلْ تَظُنُّ وَرَكَفَارَتِ
وَجِيمِسْ بِيلِ وَلَوْ نَغْفُورَتِ أَفْضَلَ مِنْ إِسْمَاعِيلَ بِيهِ؟ لَا أَعْرِفُ إِلَى الْآنِ مَاذَا تَنْوِي
إِنْجَلْتَرَا بِحَقِّكُمْ. وَلَسْتُ وَحْدِي بَلْ حُورِيَّةُ خَانَمِ نَفْسُهَا الَّتِي تَرْفَعُ ذَيْلَ ثَوْبِهَا
لِلْإِنْجِلِيزِ لَا تَعْرِفُ. أَرَأَيْكَ لَا تَقُولُ شَيْئًا يَا أَمِيرَ. هَلْ أَقُولُ مَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ؟

- لَا يَا تِيوفِيلَ. - لَمْ يُفْصَحْ سَفْرِي عَنْ رَأْيِهِ فِي مَا سَمِعَ. - لَا أَظُنُّكَ تَقُولُ
شَيْئًا مِنْ خَارِجِ قَلْبِكَ. وَأَنْتَ بَارٌّ بِقِسْمِكَ... وَلَكِنْكَ سَأَلْتَنِي إِنْ كُنْتُ لَا
أُصَدِّقُ مَا قُلْتَهُ بِشَأْنِ حُورِيَّةِ خَانَمِ فَلَنْ أُسْتَطِيعَ كَتْمَانِ مَا فِي نَفْسِي. وَمَوْضُوعُ
الشَّخْصَيْنِ اللَّذَيْنِ أَتَيْتَ عَلَى ذِكْرِهِمَا لَمْ يَبْدَأْ بِنَا وَلَنْ يَنْتَهِيَ. لَا تَدْعُنَا نَتَكَلَّمُ فِي
هَذَا الْمَوْضُوعِ. وَلَكِنْ لَنْ أَقْبَلَ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ أَيِّ إِنْسَانٍ إِنْ صَادَقْتَهُ. وَفِي هَذِهِ

الحال ماذا يُدريني ما الذي آلم قلب حورية اليوم، وماذا ستقول غداً؟ أفهم، وأصدق.

- إن كنت ترى هذا يا أمير فسئري ماذا تقول حورية إن عادت السفينتان فارغتين غداً إلى تركيا. جلبت معها أشياء أخرى للمقايضة إلى جانب البارود الذي جئنا به.

جاوز سفري موضوع الحديث قائلاً في نفسه: كم لساناً لهذا الرجل قبل أن يطاء أرض الأديغة! وسأله:

- ماذا سيحمل لنا الغد يا تيوفيل بإذن الله؟

- أعمالنا ناجحة يا أمير، تسير على نحو اعتيادي. غداً سننتظر محمد أمين بإذن الله. أرسلنا إليه خبراً. - كنا أخبرناه أول من أمس وأمس واليوم عن موعد وصولنا المحتمل وهو يومان أو ثلاثة.

- ومتى حدث هذا؟.. جرى بعد هذا كثير من الماء في مضيق طوابسه. لا تنتظره، لن يأتي. - ابتسم سفري وأضاف: - سأقول لك إذ لا سِرَّ: النائب يرفض أن يقابلني كعروس أبراخية¹. يخاف أن أُطيح بعمامة حجّه!

- هكذا إذن!.. - قال تيوفيل وقد تذكر شيئاً، متسائلاً عن العلاقات بين من جاء إليهم. ثم استعجل كأنه يخاف أن يسحبوا منه فرصة الكلام. ولكن قيل لي إنكما تصالحتما بعدما تحاربتما... هذا لا يجوز، لا يتعادى رجلان مثلكما في مثل هذه الظروف. ولا الناس يقبلون بسلوككما... الروس ينهبونكم في الوقت الذي تتعاديان أنتما فيه. لو لم يبق غيري لصالحكما يا أمير!

- لن تستطيع يا تيوفيل، - ابتسم سفري ثانية غير مُعيرٍ للأمر أهمية. - متى قابلته فأخبر هذا الجنون أن يفرح لسلامته، كما يقول القبرتاي. من أي نوع من البشر هذا الذي نتكلم عليه، سيحتل الإقليم كله وهو يحمي الداغستان الذي أخرجوه منه. - بدا من لون لاينسك عدم ارتياحه لما سمع. تنظر إليّ على ما يبدو التّظّرة نفسها لأني آتٍ من بلاد غريبة. أخرج كلاماً سفري تيوفيل من أفكاره الثقيلة. - ليست هذه مشكلة يا تيوفيل. دعنا نتكلم على موضوعاتنا،

¹ يتكلم سفري هنا على عادة احتجاب العروس الأبراخية، بل الأديغة، عن أهل العريس مدة طويلة.

وافعل ما تشاء بخصوص النائب... أودّ أن أعرف الجهة التي ستتوجه إليها من بلاد الأديغة. والثلاثمة الذين جئت بهم أقلّ من أن يؤلفوا جيشاً.

- سيصل ضعفاً أو ثلاثة أضعاف هؤلاء بين عشية وضحاها. لم يرفّ جفنٌ للابينسك..، ثم أضاف: - ولكن من يعرف إذا كان إسماعيل بيه الجشع لن يخدعنا... وكيف يخدعنا وزوجته معنا!.. - عجيب أن سيرة هذه المرأة لا تفارق لسانه، قال سفرّي. ثم أضاف لابينسك وقد أحس أن محدّثه غير راض عن الحديث: - إن كان هذا رأيك في مُجدّ أمين فسأبقى أنا هنا، وسأؤكد من حقيقة نواياه. وأنت اصطحبَ مُجدّ بيه ومئة وخمسين من الرجال، والبقية سنبقى هنا في هذه الناحية، بانتظار من سيلحقون بنا. وفي الجيش الروسي كثيرون من البولونيين، ويقال إن من وقعوا في أسر الأديغة ومن لجؤوا إلى الجبال من الجيش الروسي، وبينهم ضباط، ليسوا قليلين. ولنا أمل في انضمامهم إلينا إن بذلنا جهدنا في إقناعهم. والكتاب الذي سنخاطب به هؤلاء ليلتحقوا بنا جاهز، وها هو، - يفتح تيوفيل صندوقاً صغيراً فتظهر كومة من الأوراق، يأخذ واحدة منها، ويقرأ لسفرّي ما فيها: "إلى مواطني العزيز! تبعاً لما سمعتُ من أشخاص موثوقين فأنت مخلص لبلاد بولونيا. وبناء عليه أودّ إخبارك أن جيشنا في القفقاس، وأن شعب القفقاس رحّب بنا. والمهمة التي التزمنا بها هي تجميع الكثير من الجنود الفارين من الجيش الروسي منذ زمن بعيد ويعيشون بين الأديغة، وتأليف جيش غير صغير منهم، والطلب إلى روسيا منحنًا حريتنا. وأنا واثق من أن جيشنا سيتسع بما يسمح لنا بالتفاوض مع روسيا. وستصلنا نفقات هذه الفرقة من لباس ومعدات وأجور مقاتلين من أوروبا. أما بشأن المؤونة فإننا نجد كفايتنا ويزيد هنا"، - رفع لابينسك رأسه وسأل سفرّي: - أليس ما كتبه صحيحاً؟ أسأل: أَلن يُطعمنا الأديغة الذين نحمي أرضهم؟ - ثم استأنف قراءته: "ولا بد أنك تعرف اشتباكنا مع العدو عدة مرات: رفع تيوفيل رأسه ثانية: - والسبب في أيّ أكتب عن اشتباكنا مع العدو سلفاً هو نيتي في إرسال هذه الرسالة بعد اشتباكنا به.

- أفهم يا تيوفيل، أفهم.

- هذه هي الحال، - يتابع رسالته: "يا مواطني العزيز، أنت تعرف ما يمكن كتابته باختصار: تصرّف حسب هذه المعطيات تبعاً لما يملكه عليك قلبك! وبناء على هذا اخذمّ وطنك بكل قوتك كما يفعل كل بولونيّ يخدم قضية الوطن بإخلاص. وفكّر بنفسك في أحسن طريقة تنفع بها قضيتك: إما حيث سيستقبلونك كأخ لهم فتوجّه إلى نواحيننا، وإما استمرّ في خدمة العدو لمدة محددة، واعمل كما يفعل غيرك من الضباط على إيذاء الجيش الروسي بقدر الإمكان. ورُدّ عليّ الجواب بأسرع وقت ممكن. وأعدّك لا تحتاج إلى تذكيرك أن تكون حذراً. إن كنت مخلصاً لبولونيا فلينظر إليك الله بعين الرعاية! العقيد لاينسك."

- ما رأيك يا سفري في ما كتبت؟

- ألفت الرسالة جيداً. يسهل فهمها. ولكن لا أعرف إن كانت ستفيد.

- لا تشكّ في هذا يا أمير! إن كان بينهم بولوني واحد، والأيام بيننا، فسيواجه إلينا. وعندى كتابات أخرى كثيرة غيرها! سأعطيك إياها غداً حين تسافرون. حقاً يا سفري، ألا يكفي إن أعطيتك مدفعين من المدافع الستة؟ وثلاثمئة طلقة مدفع، واثنى عشر خزاناً من البارود. وسأرفق بها قرابة ستين بندقية فضلاً عما معهم. هل تستقلّ العدد يا أمير؟ أراك لا تقول شيئاً؟

- وماذا تنوي بالمدافع الأربعة الأخرى؟

- ألا بُقي في طوابسة مدفعين؟ ولا أعرف أصلاً نوايا النائب. ألا يحمي هو حدود الأبراخ؟

- ستصل السفن الموعودة بعدكم ريثما يتحرك النائب...

...

رقد سفري طويلاً يفكر في ما سمع البارحة وما رآه. وأيقظه ضجيج في الدار والشارع قبل أن يكمل ساعة نوم. وحين لبس بسرعة وخرج من الغرفة رأى الناس الذين سيسافرون إلى الشابسغ يستعدون: في عربات الثيران خزانات البارود، ويربطون الثيران إلى المدافع الثلاثة. والأحصنة تعض حَكَماتها. والأمران هما حاغور نور مُجَدّ والفلاح ترام. ولاينسك يدور نشيطاً حول العربات، ويسجل أشياء في السّجّل. وحين يرى سفري يسرع إليه:

- صباحك سعيد يا أمير، لم نشأ إيقاظك. أضفنا إلى المدفعين مدفعاً ثالثاً...
- همس في أذنه. - ألم أقل لك العشية... توجه جيمس إلى ناحيتكم فلحقت به حورية خانم.

وريشما شرب سفربي الشاي اتخذ المسلحون بالإضافة إلى مئة فارس من الشابسغ طريقهم.

حين خرج سفربي من الغرفة لم يكن بقي أمام الباب إلا بضعة فرسان. ومن غرفة النساء خرجت حورية خانم برفقة بضع نساء. ومن لباسها يُفهم أنها مسافرة: على الثوب الأسود صدار أصفر قصير. والسرwal المزموم الفردتين يبرز من تحت الثوب. وتلبس جزمة غير عالية طويلة الساقين. والرأس معصوب بغطاء أزرق.

سأل سفربي موهماً تفحصه حورية خانم خلافاً لسائر النساء:

- هل ارتحت يا حورية على أرض الأديغة؟

- لا أتذكر نفسي نمت هذا العام ليلة أهدأ من هذه الليلة.

- هنيئاً لك، كانت أرضك دواءك. - قالت المرأة المرافقة لها.

- سنلحق نحن بمن سبقونا يا حورية.

- ألا تعترفون بي رفيق طريق يا سفربي!

- والله لا أعرف يا حورية... وهل هذا سؤال؟.. سمع سفربي ما توجّس منه،

- أسمع نيتك لأول مرة... ثم إننا لم نفكر في طريقة مرافقتك لنا في الطريق. ولم نجهّز عربة الركاب.

- أنا لا أحتاج إلى عربة!.. ألن نجد في إقليم الأديغة حصاناً مسرجاً؟!

- سنجد يا حورية، سنجد!.. هيّا - نادى سفربي، وجاؤوه بالحصان المطلوب.

لم تدع حورية لهم الفرصة ليمسكوا لها الركاب بل قفزت كالعصفور إلى صهوة الحصان.

بعدها مشى سفربي وجيمس بيل مسافة وبينهما حورية خانم برّاً أمير الشابسغ نفسه:

- والله لم أتوقّع يا حورية أن تتركبي السفينتين وتأتي إلينا...

- هؤلاء سيعودون من حيث أتوا يا سفري ولو لم أكن معهم.
كان بُودّ جيمس بيل أن يقول: "وهل يعودون دون شيء؟!" ولكنه نظر إلى
حورية بطرف عينه، واستحيا، فترجع دون أن يعرف السبب.

...

حين أُخبر مُحمَّد أمين باستقبال سفري لجيش تيوفيل لاينسك الذي حطَّ على
أرض الأديغة من السفينتين ابتسم وغمغم من تحت شاربيه:
- لا يسمى من هم أقل من ثلاثئة جيشاً... - ثم أفصح عما يشغل باله:-
ما أشدَّ تحبّطات آل زانه!.. يركض حيناً إلى الروس معلناً عن رغبته في
مصالحتهم، ويستقبل البولونيين والمجريين حيناً، ويهاجمنا نحن الأبخاز حيناً... -
وضحك من خارج قلبه. - صحيح ما يقولون من أن الدجاجة تنكش الأرض
التي ستذبح عليها بساقها... والمرأة التي تأتون على ذكرها إن كانت حورية
فما أظهرها من امرأة! أنا أعرف هذه العاهرة...! لم يكن يكفيها الزوج
والضباط الأتراك والإنجليز فجاءت للتنفيس عن ضيقها مع الرجال رفاقها...

VI

انتظر لاينسك مُحمَّد أمين أسبوعاً وليس ثلاثة أيام. لم يكن يرفع عينيه طوال
تلك المدة عن الشاطئ أيضاً. وما يشغل بال تيوفيل، بل إقليم الأديغة كله، هو
عدم وصول السفن المقرّر لها أن تتبع السفينتين. مضى على موعد وصولها
خمس أيام. كان المفروض أن تكون هنا إلا إن حدث لها مكروه في تركيا أو في
مكان آخر.

والسفير الروسي الذي كان يلاحقنا، قال تيوفيل، أيمكن قد آذانا؟ والوقت
الذي يستطيع أن يفعل فيه هذا هو عندما يجمع ما يكفي من المعلومات. ماذا
يمكن أن يكون حدث؟ الوقت يمضي، وما لم ننجزه اليوم يصعب إنجازه غداً.
وزاد الطين بلة غياب مُحمَّد أمين. لا يكفي أن نقصد الويخ والشابسغ الذين
توجهنا إليهم. الأبخاز من أكبر أعراق الأديغة. وإن خسرتهم خسرنا الجمكوي
والمخوش والبسلني والأباطة. والبجدوغ سيسكتون تماماً. ليس الوقت مناسباً
لنتنازع قيادة العربة بسبب عدااء سفري ومُحمَّد أمين. سنحاول بقدر المستطاع
التوفيق بينهما. وكنت أخبرت حورية خانم بالأمر، ورجوتها أن تكلمه. ولكن

السيء في الأمر هو أن مُجَّد بيه انحاز إلى سفري. وكذلك أنه سبقنا قبل أن نصل وأقام في مَرْيَه. ألا ترى أنه لم يستقبلنا بحجة أنه متوَعَك؟ لا أستطيع أن أفهم ماذا يريد هذا الرجل. يقول الكثير ولا يفعل إلا القليل. لم أكن أريد أن أُشْرِكه في مهمتي غير أنه أقحم نفسه فيها رغم إرادتي. طلبت منه أن نسافر معاً فتحجج بأن سفري دعاه، وأنه سيحدد مكان نزول الجيش. وأسرع رغماً عني إلى بلاد الأديغة. وكان هذا سلوكه زمن الحرب النمساوية - الهنغارية. يبقى المجري مجرياً مهما قلت! ولا أعرف ماذا وجد فيه سفري أيضاً. يلتف حوله كعود طري طويل. وينفذ أي شيء ينطق به.

فهم لا يبينسك أن حادثاً غير متوقع حدث للسفن حين لم تظهر خلال عدة أيام. ولكنه بعيد عن تركيا فليس في موقف يمكن أن يفعل فيه ما يُفيد. وفيما ينتظر الأخبار التي ستحملها الأيام القليلة القادمة قرر ألا يضع وقتاً في مراقبة البحر لأن الإمكان الوحيد أمامه هو متابعة المهمة التي جاءت به إلى إقليم الأديغة. لا قلق لديه من جهة الشابسغ الذين يتكفل بهم سفري. وهو موثوق من مُجَّد بيه ولو أنه لا يعجب تيوفيل، ويقف إلى جانبه جيمس وحورية خاتم. وقد أعطاهم أكثر ما جلبه. ومن أوفدهم إلى مُجَّد أمين الذي لا يطمئن لغيابه إلى الآن كان يُفترض أن يعودوا أمس. واليوم لا أحد منهم. وكلما سمع وقع حوافر خيل رفع رأسه وقلق.

- يا تيوفيل! - قال جراندوقوه كأنه يعرفه طوال عمره، - النائب رجل خبيث خلافاً لما تعتقد أنت. أظنه يغرد خارج السرب منفرداً في مشروع ما. ليس في إقليم الأديغة من عرف حقيقته باستثناء زانه سفري وتسي حاتراي، وأنا. هل هناك احتمال أن يعتب عليكم هذا الخبيث المرائي.

- لا نعرف شيئاً يعتب علينا لأجله يا أمير!

- لم ير فيكم فائدة له إذن!.. - نظر تيوفيل بعينه الزرقاوين الباردتين إلى برزج، ثم اعتذر خجلاً من صوته المبالغ في رفعه: - سامحي يا أمير!

- وهذا كلام حق. ولكني مختار في تفسير طريقة تعبئة هاتين السفينتين يا تيوفيل. - لا علاقة للنائب بالأمر. سيعوّض بما خروزر إسماعيل بيه ثمن

البارود. وفي كل يوم يرتفع ثمن السلاح ولا ينقص. ثم إنه يندر في عالمنا اليوم أن تجد من يشكرك يا أمير.

- هذه مبالغة يا تيوفيل!... - لم يقبل جراندوقوه، ثم نهض ووقف إلى جانب النافذة. - وأنت نقول لك ولمقاتليك شكراً باسم الأديغة.. أن تجاهه رصاص الموت من أجل حرية ناس لا تعرفهم يتجاوز حدود الإنسانية والرجولة.

- نعم يا أمير، حقاً... - قال لايننسك وأخفى أنه يعطي للمقاتلين الذين جاء بهم كثيراً من المال. وأضاف: - الروس مدينون لنا نحن!

قال جراندوقوه حين رأى الفرسان والمشاة يتراكمون نحو الساحل:

- الناس يتدافعون إلى الشاطئ، لا بد أن هناك خبراً.

هَبْ لايننسك من مجلسه، وهرع إلى النافذة، وجاء الفلاح الذي دخل الغرفة مستعجلاً بالخبر:

- وصلت السفينة يا أمير!

كان ما حمله الخبر سبباً إلى تيوفيل والأديغة ولو أن الخبر نفسه خبر سار. لم يسمح للسفينتين المشحونتين بالسلاح أن تغادرا ميناء طرايزون، وصودرتا بأمر السلطان التركي. ونُشر في اليوم التالي في الصحيفة أن القيصر الذي صارت بلاد الأديغة مُلكاً له بموجب اتفاق أدرنة للسلام بين روسيا وتركيا ليس له علمٌ بالسلاح الذي ينقل، وأن المسؤول عن نقض اتفاق السلام سيعاقب.

كان تيوفيل راضياً، رغم شعوره بالمهانة، عن الحملة التي "نجت من مصادرة الأتراك"، وبالمقاتلين الستة والثمانين. وما إن انتهوا من تفريغ الحملة حتى عاد الفرسان الثلاثة المرسلون إلى الأبراخ. ولم يأتوا بخبر سيء خلافاً لما توقع تيوفيل: تبين أن محمد أمين غائب في القرشاي.

- اتهمنا الرجلَ ظلماً يا أمير، - فرح لايننسك حين سمع الخبر.

- ألم يكن النائب يعرف موعد وصولكم إلى أرض الأديغة؟ ألم يكن يستطيع إذن تغيير توقيت رحلته إلى القرشاي؟

- كان الأفضل ألا يفعل هذا... ولكن ألم تسمع يا أمير ماذا قال الموفدون؟ ألحّ عليهم أن يستقبلوا الضيوف بالترحيب إن وصلوا...

- ألن يستقبلوكم قبل أن تصلوا؟

- ربما لا أحد يخلو من عيب ما يا أمير. لا أظن النائب سافر إلى القرشاي ليتهرب منا. دعونا نسامحه!

- لا تخطئ يا ضيف، - ابتسم برزج، - ليس الأمر كما تعتقد أنت. تساءل لايننسك: ما طبيعة العلاقات بين من جئت إليهم؟ ثم غيّر الموضوع دون أن يجيب. والحق أن لايننسك ليس الآن في وضع يرتّب فيه الأمور الداخلية لبلاد الأديغة. في كل يوم، بل في كل ساعة، تظهر له مهمة جديدة. ولا يعرف صعوبة التفاهم بين الأديغة، ولا ما ينتظره في البلاد الغربية، ولا كيف سيعود الناس المتنوعين الذين جاء بهم على هذا الواقع.

لم يسافر تيوفيل إلى الأبراخ مع أن الموفدين جاؤوا إليه بخبر دعوته إليها. ولم يكن لديه الوقت حتى لو فكر بالسفر؛ فالمهمات التي ظهرت له في الشابسغ والويخ لا تترك له فرصة للتفكير ولا للراحة. وأضيف إلى شؤون جيشه مسألة السفن الثلاث التي ستعود إلى تركيا. والشابسغ سلموه الأسرى البولونيين السبعة والخمسين الذين كانوا عندهم. ووقف إلى جانبه الجنود الروس الستون الفارون إلى الجبال. ورغم ذلك لن يسافر لايننسك إلى الأبراخ بغياب محمد أمين. ومهما رحب به الأبراخ فإن ما لا يعرضه في حضرة النائب، وما لا يتدخل فيه أولاً، لا يصبح مسألة علاقات دولية.

ليست قليلة المهمات التي نفّذها في الشابسغ والويخ خلال نصف الشهر الماضي. وصحيح أنه لم يسافر إلى قُماتر، مقر سفري، ولكنه زار مزيه حيث الجيش الذي يقوده محمد بيه. وأقام فيها يوماً وليلة. وتعرّف طبيعة حياتهم. واختبر طريقة تعاملهم مع المدافع التي هو خبير بها. وكلم العساكر، وزار عدداً من القرى. وكان لايننسك مسروراً جداً لورود عدد من الجنود الروس الفارين من الجبال إلى جيش محمد بيه. وأخبر مُضيفيه بثقته بقدم المزيد من هؤلاء الجنود. ولكنه لم يصارح إلا سفري بما حدث مع السفن. وترجاه أن يكتف الخبر مؤقتاً عن محمد بيه. ولم يسأله الأمير الأديغي عن السبب. وفي اليوم التالي سأله في أثناء توديعه متظاهراً بأنه يتجاوز الموضوع:

- لم أفهم يا تيوفيل لماذا لا أخبر محمد بيه بما جرى لكم بشأن السفن.

- لا حاجة يا أمير أن يعرف بانديا مُجَّد بيه أخبارنا خيراً أو شراً... - تفحص لايننسك المكان كأنه يريد أن يحجب الحديث عن أحد، وهمس له: - ما كنت أريد أن آتي بالمجري النمام إلى بلاد الأديغة لولا إسماعيل بيه... صحيح أنك تتخذة صديقاً، ولكن المجري بانديا ليس أفضل بإنسانيته من مُجَّد أمين الذي لم نطأ بلاده إلى الآن. كن حذراً يا أمير!

- أنت مخطئ يا ضيف، - احتدَّ سفرِّي وتوهَّج وجهه غير عابئ بقوله "كن حذراً". - إن كنت لا تعرف أن النائب لا بلاد له عند الأديغة فسأُثبت لك. لا تؤاخذوني، ولكنه جاءنا عازباً مثلكم، والداغستان من ورائه. يحاول أن يضعنا في يديه، ولكن لا يتحقق له.

- يا أمير، - ابتسم لايننسك، - أسأحك ولو أنك تهينني. لم نأت إلى بلاد الأديغة بمثل هذه النية. وليس لنا مكان أفضل للثأر من الروس مثل بلادكم!.. نحن محاربون طالبو ثأر لا شأن لنا بما يجري داخل بلادكم. وكما يقول الأديغة: سلاحكم سلاحنا ومُلككم حملنا!..

لا ينسى تيوفيل هذه الكلمات أينما ذهب، ومهما كان يمارس من عمل. وطوال هذه المدة يمثّل أمام عينيه وجه سفرِّي البارد الصارم. ويُداخِلُه عدم ثقة لا يعرف سببه. وما لا يفارق مخيلته هو الوجه الصامت لقرباثر الذي عزّفوه إليه. ومع أن فارق العمر بينهما ليس كبيراً فلم يتوجه أحدهما إلى الآخر طوال ليلة ونهار بأي كلمة تعبر عما في قلبه. يقضي وقته لا يجلس حيث يجلس والده، ووإذا وقف وقف وراءه تبعاً لتقاليد الأسن والأصغر.

قال تيوفيل: لا يخفى من مظهره ومن وقفته ومن مشيته ومن طريقة امتطائه الحصان تحليه برجولة صامته مع أنه لم ينطق بكلمة زائدة. وما طريقة تفكيره يا ترى؟ والده سفرِّي ليس محروماً من الرجولة، يعيش تغلب عليه أفكاره ورجولته. ومهما وقع في أصعب المواقف حمى حرية بلاده وشرفها. الابن على الطريق الذي اختاره والده. ولا يخفى احترام الناس له.

- يا جيمس! - قال لايننسك لجيمس في أحد الأيام وهما على مائدة الإفطار، - حكمت على قرباثر بأنه ثقیل الظل غير أنه يبدو لي رجلاً حكيماً.

- لست مخطئاً يا تيوفيل، - قال جيمس وأضاف: - الابن تفصيل والده كما يقال. هذه حياة قرباتر. رجولته وذكاءه متلاصقان. وأظنه يفكر أحياناً أبعد من والده. لا عجب في هذا، هو نتيجة الزمان الذي يعيشه.

- أخطأنا يا جيمس!.. - أسرع لابينسك فجأة بالقول، - كان علينا أن نرجو من قرباتر مرافقتنا إلى نائب الأبراخ.

- ولو رجوته لزاد خطؤك يا تيوفيل. اطمئن! ما يقوله زانه سفرني وزانه قرباتر وما يفعلانه واحد. وهذا هو السبب في رفض برزج مرافقتنا إلى الأبراخ.

- هل تقصد أنه يخاف من سفرني؟

- لا، لا أعرف أحداً في إقليم الأديغة يخاف منه برزج. لا تنخدع بوقوفه أحياناً وراء سفرني أو تحت جناحه. أنا تعرفت على الأديغة جيداً. وما أخطئ فيه بشأنهم قليل. الأديغة عندهم قادة كثيرون، وهذا سبب إخفاقهم ومآسهم الكثيرة. سفرني أكبر الزعماء الأديغة سناً، بمن فيهم النائب الذي أرسله شامل. وليست المسألة وقفاً على العمر وحده بل يجب أن يقتن بالعقل والذكاء. ومن يفهمون هذه المسألة برزج. وعמיד أسرة زانه لا يتناسى المسألة. ولكن متى وقف كلُّ أمام رجولته فلن يقف أحدهم وراءك لأنك أكبر منه سناً. ومع أن الفخر يغلب عليهم في حماية الشرف الأديغي فالكل في الصف الأول. رأيت في الأديغة طباعاً عجيبية كثيرة. وعلى سبيل المثال قُبعتهم. يضعون القبعة والرأس في مستوى واحد من القيمة. ومهما كانت بقية اللباس رثة فالقبعة يجب أن تكون فاخرة.

- هذه من أوائل ملاحظاتي منذ خالطتهم.

- نعم، وأنت لاحظت. لم أر الأديغة، كبارهم وصغارهم، يعثون بقبعاتهم. وسأروي لك حكاية عن القبعة. كان العمالقة يحاولون منذ زمن بعيد قتل الناريّ شبانوقوه. لم يكونوا يستطيعون الانتصار عليه في أي مكان كمنوا له فيه: في الجبل وفي الريف والغابة. ولذلك اجتمعوا وفكروا في أحسن ما عند الأديغة. الأديغي متى خلعت عنه قبعته وخطفتها لن يعود إلى القرية ولا إلى زوجته بدونها، ولذا فعلوا به هذا. العمالقة أينما ذهبوا بالقبعة تبعهم شبانوقوه. ومهما استدرجوه إلى أخطر المهالك حاربهم. ولم يعد إلى المنزل إلا بعد أن

استرجعها منهم. وهذا سلوكهم نحو نساءهم، وكبارهم في السن، وفي حماية أرضهم وبلادهم، وفي استقبالهم للضيوف.

- وبيع أطفالهم المسروقين؟ - لم يملك تيوفيل إلا أن يسأل رغم تعجبه مما يروى له.

- أفحمتني في هذا يا تيوفيل. هذه النقيصة ومثلها في الأديغة كما في الأقوام الأخرى. ولكن لا أظن أنه لا أساس واضحاً لأسباب هذه النقائص. إحرص يا تيوفيل ولو قليلاً على من ستحارب لأجلهم!

- لا يا جيمس، لا أقصد بهذا شيئاً. بل لأن الممالك الأديغة خطروا لي فجأة. وأنا لو كنت على دراية بتنازع الزعماء لترددت في المجيء إلى هنا. ولكني لن أراجع أمام الموسكال¹ لأن زعماء الأديغة لا يتفقون. ونحن نحمي شرفنا ليس بأقل مما يحمي الأديغة قبعاتهم. لن نلغي مشروع زيارتنا للأبزاخ ولو لم يرافقنا برزج. متى ما حاربنا الموسكال فستدوخ رؤوس الأصدقاء والأعداء من رائحة الدم... تعال يا جيمس، سنسافر برفقة الفلاحين ولو لم يرافقنا الزعماء.

- هيا! ولكني لن أعطيك حاغور نور مُجدّ بخمسة زعماء. رجلاً حكيم. سنصطحبه لأنه وعدنا أن يسافر معنا. ولكن الأبزاخ الذين نسافر إليهم منقسمون قسمين، وهناك نوع من الفتنة.

- يا رب أي نوع من البشر هؤلاء الذين جئنا إليهم!.. - ينهض لا يبينسك سريعاً عن المائدة. ويشرب واقفاً كأساً من مصل اللبن المخمر. ثم يضيف: - يتحاربون وسط بلادهم في غمرة الحرب مع العدو!.. هذا غير معقول.

...

استقبل مُجدّ أمين الضيوف حين أُخبر بقدمهم خارج قرية جَعْف على غير عادته. لم يبق الضيوف في القرية دون ضيافة واحترام. تبعهم الناس فرساناً ومشاةً. ومن خرجوا من دورهم ليسوا قلائل.

بالقياس إلى الشابسغ، قال تيوفيل، استقبلهم هنا من الناس أكثر ممن استقبلوهم في مَزيه. ومع أن اللون الأسود للشوارب واللحي يطغى عليهم فوجوهم طليقة، ويلوحون لهم بأيديهم، ويحيونهم. والعجيب هنا هو أن النساء

¹ لقب يطلقه الأوكرانيون على الروس.

اللواتي يروهن في مزيه لا يُرين هنا. وحين عبّر بالإنجليزية عن أول فكرة خطرت له لجيمس ردّ عليه همساً:

- لا عجيب في هذا. الأبراخ جليون حقيقيون، وبعيدون عن الطريق الساحلي. ومن يخالطونهم قليلون فيشتهون الضيوف.
- والنساء؟

- نساء الشابسغ بالمقارنة مع نساء الأبراخ المؤمنات بالإسلام إيماناً عميقاً يتمتعن بحرية أكثر.

- ألم تتجه حورية خانم إلى الشابسغ عارفة أين تذهب؟ - ابتسم تيوفيل، غير أن جيمس لم يُجب. ثم قال له كمن يطرد عنه ذباب الصيف اللجوج:
- لاحقاً، لاحقاً...

يقارن تيوفيل الأبراخ الذين التقى بهم الآن بالشابسغ والناخوي والويخ ولكن طبيعتهم، واستقبالهم للضيوف، وأفنية بيوتهم ودواخلها، بل طريقة ضحكهم، متشابهة، حتى الطعام الموضوع على مائدتهم هو نفسه. الفرق الوحيد هو الدجاج المقلّى والعصيدة والفلفل الحادّ. ومع ذلك يرى بينهم اختلافاً واحداً: من يخدمون المائدة هنا هم الرجال، ولا يرى نساءً كما لدى الشابسغ. وأحياناً قليلة تُسمع أصواتهن من باب الغرفة المجاورة.

وبعد تبادل بعض الكلمات غير المقصودة حول الطريق والجبل وما على المائدة من طعام، قال مُجد أمين لتيوفيل:

- لا تؤاخذني أيها الضيف على عدم اجتماعي بك على الساحل عند الويخ والشابسغ. لم أكن في وضع يسمح لي بالهجيء. - نظر النائب إلى حاغور بطرف عينه، - وجب عليّ أن أسافر إلى الأبراخ العليا على نحوٍ مَلِج.

- انتظرناك يا نائب، - لم يدعهم لابينسك ينتظرونه إذ سمع الكلام الذي يريده، - لم نعرف سبب عدم قدومك، ولكن انتظرناك عدة أيام أُخَر حين علمنا بغيابك على أمل عودتك. لم تفِ بما اتفقنا عليه حين التقينا في تركيا. شكراً لزانه سفري، هذا الرجل قوله وفعله متلازمان. لم يتخلّ عنا، يبدأ مُجد أمين يركز على الطعام متظاهراً بأنه لم يسمع عتاب لابينسك. يجرد جناح

الدجاجة من اللحم القليل الذي عليه، ويضعه في فمه ببطء. ومرة أخرى يلقي نظرة جانبية على حاغور. وبعد قليل يقول:

- والله يا ضيف ليس الأمر كما تقول تماماً... يقولون: حتى راكب الجمل يعضه الكلب في ساعة النحس. كان فلاحو الأبراخ العليا قد هاجوا فسافرت إليهم. حقاً يا جيمس وأنت تعرف هذا، لا يتركنا آل تسي المتنفذون نرتاح... - حاول أن يحمل الضيف على أن يقول شيئاً بحقيّ تسي حاترباي ولكن الضيف تجاهل كلامه، فأكمل النائب: - وفكرتُ في زيارة البسلني والقرشاي إذ وصلتُ إلى الأبراخ العليا. والله يا جيمس أمورنا ليست على ما يُرام. الروس منذ انتهوا من حرب القرم يحشدون جيوشهم في الداغستان، ويسفكون الدم. ونحن هنا، في إقليم الأديجة، مكتوفو الأيدي. وزانه الذي أتيتم على ذكره يعزف على وتره الخاص، ليس على لسانه إلا مصالحة الروس. حسناً، ليس هذا مهماً، مدّوا أيديكم إلى المائدة! الله لن يقبل منكم، وربة البيت ستعتب عليكم. الأبراخ يعتبرون طعامهم طعاماً إلهياً. كُلوا من الدجاج المقلّي ساخناً. وحين قدّر النائب بحذر أن الضيوف انتهوا من طعامهم رفع ذراعيه إلى السماء وقال: - الحمد لله، اللهم اجعلنا من المسلمين الذين رزقهم مقبول عنده. والآن أريد أن أكلّم الضيوف في موضوع ما فأرجو ممن انتهوا من الطعام أن يُخلوا لنا الغرفة. - الخمسة الذين كانوا مع الضيوف، بمن فيهم جمه جبريل، خرجوا من الغرفة. ولما بقي لاينسك وجيمس وحاغور على المائدة قال النائب: - والله يا حاغور كنت أفضل أن تتركنا وحدنا ولو أنك رافقت الضيوف...

- يا مُجد أمين،- رأى جيمس تصرّف النائب غير لائق، - حاغور نور مُجد مرافقنا نحن، لا سرّ بيننا وبينه.

- حاغور مجرد مرافق لكم، ولم يأت من تركيا أو من روسيا. لا ضير في ما قلّ.

- يا نائب، - نهض حاغور ضابطاً غيظه، - أهنتني. ولكني سأبتلع الإهانة في حضرة الضيوف. ساحيني يا جيمس وأنت يا ضيف، ليس لي مُقام اليوم في جَعْف. سأنتظركم على حدود الشابسغ عند عودتكم. ولكني أقول لكما إن ما يكتبه النائب عن الضيوف لن يبقى سرّاً.

قال جيمس مرة أخرى حين صار حاغور وراء الباب:

- بحقك يا مُجد أمين، هذا عيب!...

وكان لا ينسك جالساً متردداً في تقييم ما حدث...

VII

ارتوت حورية بكاء في الأيام الأولى من إقامتها في قُماتر. وكان من سكان القرية من تعرفوا عليها. ومن سمعوا سيرة المرأة شفاهاً ولا يتذكرونها ليسوا قليلين. يمكن أن يحدث لك مثل هذا متى كنت بلا أهل ولا أحد يسأل عنك. ولكن كان يتابعها من يعرفها ومن لا يعرفها مستغربين أن تعود إلى وطنها وعندها كل هذه الأملاك خارجه. وظهر في إقليم الأديجة، على سبيل الامتداح من يكلمها كأنه يعرفها منذ طفولتها، ويشكرها على معرفتها، ويترحم على المرحومة أمها التي قدّمت له كثيراً من المعروف.

والحق أن من كانت حورية تذكره في قُماتر شخصان: جاراها ترام، والأمير سفربي التي تحمل دمه سراً. وأما الآخرون الدائرون في فلكها أو يتمسحون بها فكانت تذكرهم بصعوبة كحلُم مبهم. ولم تكن حورية مهتمة بمؤلاء. وما لا تشبع من رؤيته هو قريتها، وجبالها القريبة، وغاباتها. ولكن من كان الآن فوق الجميع، ويُسيها كل من سواه هو ترام. لا تبالغ إن قلت إنه لا يغيب عن بالها ولو دقيقة. يخطر لها فجأة فتتفحص ملامح وجهه، والضيق الحار يتخطها. ثم تهمس له بلا وعي، ملاطفة إياه. ولا يمثل بيت سفربي المرتب أمام عينيها. ولا ينزل طعامه الطاهر في حلقها. ليس في العالم كله ما تشتهيهِ سوى أن تجلس إلى ترام يوماً وليلة، يتناجيان، ويتكاشفان ما في قلوبهما.

ولا يعني هذا أنها لم تلتق في الشهر الماضي بترام ولم تتحدث إليه. كانوا عند نيكراس تيم في دخاباه ضيوفاً لأن ترام يرافق سفربي ومعهما حورية وماريا. وفي طريق العودة مروا ببعض القرى وإن لم يتوقفوا فيها. وطوال هذه المدة لم تجلس إلى ترام ويتبادلا الحديث عما في قلوبهما، إلا أن تنظر إليه من طرف عيناها، ويتبادلا بعض كلمات المجاملة.

وليس السبب أن ترام لم يكن راغباً في لقاء بين مثل هذين الشخصين. ولكن ماذا يقول الحاضرون إن أسر لها؟! الله لن يقبل، والناس سيسخرون منك.

ويضاف إلى هذا أن حورية متزوجة وزوجها قائم عليها. والرجل الذي كظم نفسه إلى الآن لن يستطيع أن يفعل هذا ولو انفجر. وسيمضي هذا كحلم لذيد حزين، ومريم التي أطلت عليه فجأة ستعود من حيث أتت. ولن أدّيس حيي الغريز. يحمي ترام نفسه كمن يقول لها: سأحتفظ بحيي لنفسي كما هو مهما كلّفني من عناء!

وحورية، رغم أنها أوشكت أن تفارق الشباب في نظر الرجال، لن تسمح للناس أن يتكلموا في مثالبها متنازلةً عن احترامها لنفسها، ملطّخةً شرفها. كانت قادرة على الاحتفاظ بسرّها، وحماية أسرار غيرها.

سألها سفرّي يوماً وإن كان يخمّن ما يغتلي في قلب المرأة:

- هناك ما يشغل بالك يا حورية. ما دواؤك، وكيف أستطيع مساعدتك؟

- دواء واحد يا سفرّي. لن أعود إلى تركيا!

- ماذا أسمع؟! - أجبر الكلام المفاجئ سفرّي على أن يرفع رأسه.

- هذا موقف محسوم!

- ولكن، خروزر إسماعيل بيه...

- ولْيعيش هو حيث قلبه! وأنا سيبقى قلبي وروحي هنا حيث وُلِدْتُ. سأستأنف هنا حياتي المبتورة. مأساة بلادي مأساتي، وفرحها فرحي. ساحبي، أريد منك خدمة واحدة... ولا أعرف كيف أقولها... ولا أحد غيرك أفضي له بسري: اطلب من ترام ألا يتجنّبني...

- ولماذا ليس لك موضع ثقة غيري؟.. زانه قرباتر؟ ألا تعدينه أخاً لك؟ - أضاف سفرّي وقد ارتعب من الاعتراف الذي صدر عنه فجأة: - لا يعني هذا يا حورية أن تفاجئي الولد البريء بسرّ والدك الذي ارتكبه في أيام طيش الشباب!.. وهذا سيتحقّق شيئاً فشيئاً... وأنا أفكر في الأمر... ولكنني أعدّك أن أكلّم الفلاح ترام. ولكنني أتوجسّ مما بينكما، إفهميني، فلا معين لي... البلاد التي ولدت فيها يا مريم، - نطق لأول مرة اسمها الحقيقي دون أن يدري ماذا جرى له، - قرّرت أن تبقي فيها فابقي! ستجدين فيها الحظ والحياة كما الآخرون. ونحن سنعينك والناس... ولكن المال الذي تتركينه في تركيا...

- لن يضيع!- لم تدعْه حورية يكمل كلامه إذ فهمتْ ما سيقول. - ها هي المعونة الأولى للأديغة قد ظهرت. ثم إن حبّ الوطن ليس مقصوداً على رجال الأديغة، فللنساء حصّة فيه. يجب إيقاظهن! سأكون مسؤولة عن هذا الجانب النسائي.

زار حباط حورية مساء ولم يمض وقت طويل على حديثها مع سفري. وقال لها:

- سنأتي إليك يا حورية مساء أنا وترام.

- كان الأفضل أن أقوم أنا بهذه الزيارة، لا أنتم.

- وكيف؟ - لم يفهم حباط ما هو خارج عن العادات الأديغية.

- سأتي بنفسي في الموعد المحدد إلى بيت ترام بصفتي ضيفاً. ولا حاجة إلى الضجيج.

حالما حلّ الظلام بقماتر توجهت حورية إلى بيت ترام.

لا أحد في البيت غير ترام وحباط. والبيت مرتب ونظيف ولو أن أثاثه متواضع. والرذاذ على أرض الغرفة الطينية علامة على أنها نُظِّفَت حديثاً. والمصباح الزيتي يعمل مُصدراً صوته الرتيب، وينير الغرفة غير الواسعة على نحو ترى فيه من تنظر في وجهه.

- ما إن وضعتُ قدمي على التبة التي يقوم عليها بيتانا يا ترام، لا عندما جئتُ إليك، حتى خفق قلبي. وما إن أَلقيت نظرة على بيتنا القديم حتى عصر الألم قلبي... من أين أستعيدك يا أيام طفولتي مهما كان زماناً عسيراً عليك يا ترام؟! هل تتذكر يا ترام أي كنت آتي إليك للنوم كي لا أنام وحيدة في البيت الفارغ حين أهرب من عند أمي وزوجها. وكيف كنت تشوي لي الذرة؟ - كانت تريد أن تضيف: وكيف كنت تضمّني إلى صدرك الدافئ، ولكنها لم تجده مناسباً أمام الرجل الغريب. - ماكان أسعد تلك الأيام!

- نعم يا مريم، لا يمكن إلا أن تتذكرها ولو طال الزمن... كنت صبية شقية... لم تنجُ أبنور ولا زوجها تَبَج من شقوتك.

- والمسكين تبج، وأمي لم أعد أعتبُ عليهما، - تنهدت حورية من الذكرى الثقيلة، - من أين نأتي بهما الآن؟! جرى ما جرى وانتهى... وأنتم يا حباط ما أحوالكم؟

- ونحن ما نزال أحياء. نردد ما يقول الفلاحون، ونفعل ما يفعلون. وها نحن نتصدى للقيصر الروسي الذي هاجمنا. وأنت يا مريم، كيف حالكم في تركيا؟ لا يستطيع الفلاح ترام أن يروي ما شاهده هناك من انبهاره. صحيح، لا يدّعي أنهم لم يذرفوا دموعاً هناك... - وجد حباط الذي فهم أنهما غيرُ مصرّين على بقاءه حجة للانصراف: - اجلسا أنتما إذن وأنا سأعلف المواشي...

- ألا تجلس يا حباط، لا يزال الوقتُ مبكراً. - استعجل ترام، الطبيعة لم تكد تغمض عينيها!

- سأعود!

- عُذ يا حباط بعد نحو ساعتين، - لم تحجل حورية مما قالت. - أودّ أن نتبادل أنا وترام بعض الحديث.

قال ترام بعدما بقي الاثنان وحدهما:

- نجلب العيب لأنفسنا بهذا يا مريم...

- لا عيب في هذا يا ترام، - لا يجهل حباط وضعنا. أنت من اختاره، وأنت من أرسله ورائي. - لم تماطل حورية بل استبقت بنيتّها، وسألتها: - ألم يخبرك الأمير سفري يا ترام بأني سأبقى في أرض الأديغة؟

- نعم يا مريم!

- اعرف يا ترام، إن كان أخبرك، أنك من أهم الأسباب التي تدفعني إلى هذا القرار. لم تفارق قلبي طوال هذه الأعوام يوماً واحداً يا نوري. أنت تتجنبني من يوم التقينا... ولا تعرف أني رجعت إليك أعيش في دنياك... - توردت وجنتا حورية، وسرى ضيقٌ دافئ في أوصالها: - وأنت لم تهتم بي حتى وسّطتْ زانه سفري يا حبيبي.

- أنت مخطئة يا مريم، ليس الأمر هكذا.

- ما يمنعك من الكلام إذن يا نور عيني؟

- هناك أمور كثيرة محرّجة يا مريم.
- أهو زانه أم فلاحو قُماتر؟
- هم وغيرُهم يا مريم... لا تعيشين حياتك وحيدة في العالم؛ أليس كذلك؟
- أهو خروزر الذي تتكلم عليه؟
- هذا أول من يهمنّا يا مريم. الله جمعكما بالكتاب...
- هذا الكتاب الذي تتحدث عنه هو ما لا أعترف به البتة... - امْتَنِع وجه حورية من واحدة من ذكرياتها الثقيلة، وهي ذكرى العار الأول الذي أجبرت عليه في حياتها. وندم ترام، ولو أنه لا ذنب له في الموضوع، على تذكيرها بما لا يُغفر للرجال. وأشاح بوجهه عن المرأة التي أمامه لا يستطيع النظر في وجهها. ثم عادت حورية إلى حالها وأصلحت: - ولكن هذا يا ترام، الله يعرفه ويفهمني، لم يكن بيدي... وربما كان مثل هذا الموقف ما جعل الناس يقولون: الله يفعله بك، والناس يعيرونك به...
- لستِ المذنبّة في ما جرى لك يا مريم. احمدي الله إن كان فهمك، وسيجعل الناس يفهمونك... أنا منذ زمن بعيد تقبّلت هذ الذي جرى.
- شكراً يا ترام، - توهّج خدا حورية.
- لا شكر على هذا يا حي، - حين نطق ترام بهذا تصدّع قلب حورية من الكلمة التي طالما اشتتهت حورية سماعها. ورفعها دفءٌ - ضيقٌ قوي، فتخيلت أنها وعت على صدر ترام.
- شكراً يا ترام... - كررت حورية مرة أخرى لا تستطيع لجُم ركام الحب المتكدس طوال سنوات: - فهمتني، هذه الكلمات هي التي تمنحني الحياة إلى الآن. - دفعها إلى كلماتها الحب الذي سرى في أوصالها. - تعال واجلس بقربي يا حبيبي!
- قفزت حورية، وأطفأت المصباح، ولما لمست اليد الأنثوية الناعمة ترام قال لها وهو لا يستسلم لها ولا يتعد:
- لا تدعينا نفعل هذا يا مريم! لا أراه تصرفاً صحيحاً إذ ليس بيننا كتاب. بُحنا بما في قلوبنا، وما مضى كثيره سيمضي قليله. لنُعِد إشعال المصباح، حان وقتُ عودة حباط.

- حسناً يا نوري، يا حيي... - همست حورية بصوت لطيف عذب لترام، -
دعْ خَدَّينا يتلامسان... نعم يا نور عيني، يا حيي... أفهم، لن يكون الكتاب
عقبة في طريقنا. دعونا أولاً نتصر على الروس، أو نصالحهم... هذه الدقيقة
انتظرُها، هل تتذكر، ثلاثين سنة. أشعل المصباح الآن يا حبيبي! يا ربي اجعلني
سعيدة الحظ، واغفر لي إن اقترفتُ إثماً... وأبعد الظلم عني وعن ترام! خطوتنا
الأولى، وها أنت شاهد، لم نفعل ما لا يجوز، اجعلها خطوة سعيدة!..

...

لم يكد لابينسك يلقي السلام حتى سأل سفري:
- ما السر الذي للنائب معكم ولا نعرفه نحن؟
- لا سرَّ من ناحيتنا يا محترم، - ونظر إلى جيمس يقول له: - ما أسرع ما
أوصلوا له الأخبار! والتفت إلى حاغور.
- لا تنظر إلى حاغور نظرة اتهام، هذا رجولته طاهرة. ليس هو من أوصل
الأخبار. أسمعك.

يتصبر تيوفيل مع أن طريقة سؤال سفري ونظرته لم تُعجبه. والآن كان يريد أن
ينظر إلى جيمس ثانية ولكنه لم يُكمل خوف أن يزرع بينه وبينه ارتياباً لا حاجة
إليه. ابتسم للأمير الأديغي من دون رغبة، وأكمل كلامه كأن شيئاً لم يحدث.
- نور مُجد على حق يا أمير. والإهانة التي لحقت به، ألم يكن رفيقنا، إهانة لنا.
وكان الأفضل أن نقوم من المكان الذي أهيئ فيه رفيقنا، ولكننا لم نستطع أن
نفعل هذا مع خطوتنا الأولى. ظننا أن النائب يحتفظ بسرٍّ خطير.
- وماذا إذن؟ - ضحك سفري مرتاحاً، وانتظر أن يؤكدوا صحة ما يعرفه أو
ينفوه، وظل جالساً كمن لا يعرف شيئاً عما دار في بيت النائب.
- طلب منا أن نُبرز له موافقة منه على دخولنا أرض الأديغة.
- توقَّعتُ هذا!.. - ضحك سفري الذي توهج خداه ثانية. ثم سأل ووجهه
يشحب: - وهو إلى مَنْ قدم طلباً ليدخل أرض الأديغة؟
- لا يعدُّ نفسه دخل وحده بل جلب الإسلام إلى أرض الأديغة. - شارك
حاغور الذي لم يقل شيئاً إلى الآن.

- إن كان فهُمُ الأديغة لإسلام النائب... - ابتسم سفري قبل أن يُنهي كلامه، ثم أضاف: - هو أن ليس من اللائق أن يقفوا أمام الله، ويصلّوا وسلاحهم إلى جنبهم. في حين يزور البجدوغ مهدداً إياهم بحد السيف إن لم يعتنقوا الإسلام، والشابسغ لا يوافقونه على هذا...

- لا أعرف من جهة البجدوغ، ولكن كلامك يا أمير بشأن الشابسغ صحيح. - قال لاينسك وسأل بيل: - أتذكر يا جيمس ماذا قال لنا عجوز من الشابسغ قبل أيام؟ وأنت يا سفري تعرف هذا العجوز، وهو كوبل أسلانج، العجوز الذي أفادنا حين كنا نفرغ السفن. قال لنا أنتم لستم على حق في تنازعكم على إله المسيحيين وإله المسلمين. ليس ما تراه العين من العالم، وما تحس به الروح، وما يتقبّله القلب من نوع واحد. العالم مركب من المختلفات، وكلُّ مرتبط بالآخر. نحن الشابسغ عندنا آلهة كثيرة. واحد للماء، وثانٍ للنار، وآخرون للجبال والغابات والناس والوحوش. كيف يستطيع إله واحد أن يوحد كل ما نراه في العالم من أصناف؟ وباسم ذلك الإله الواحد جاءنا الترك والغوي ليضمونا إليهم. وباسم الإله الواحد أيضاً تحاربنا روسيا تريد استعبادنا. وباسم الإله الواحد يحشدنا المسلمون لمحاربة روسيا. وأنتم باسم الإله الواحد تطلبون منا محاربة روسيا. أين الآن حقيقة ذلك الإله الواحد؟ سنرى، وقد جئتم إلينا، حقيقة نواياكم... - توقف تيوفيل عن الكلام، وأنصت يريد أن يشارك أحد الحاضرين فيه. ثم اختتم: - كل ما قاله العجوز كوبل يستحق التفكير...

ليس اليوم يسمع سفري مثل هذه الآراء، بل منذ بلغ سن الرشد. لم يكن ليدخل شيء من نمطي الحياة في روسيا وتركيا في حياة الأديغة لولا أنهم يعيشون بين الدولتين. كان الروس والترك يتدخلون في حياة الحرية المطلقة التي يعيشها الأديغة ولم يكن لهم معهم شأن آخر. عاش الأديغة يبتهلون إلى آلهتهم المتعددين. عاشوا كحصان بلا لجام يعتدون بحريتهم دون أن يفعلوا شيئاً ذا بال لتأسيس دولة. قال سفري هذا أيضاً والكلام يخرج قلبه، كان جزءاً من حرية الأديغة المطلقة. العالم لا يتوقف في مكان واحد، ما لم تفعله اليوم لا تلحق به غداً. أفلتنا رأس الحصان ولحقنا ذنبه. تذكر قطعة الأرض التي باعها والده تركيا. وخطر على البال أيضاً حربُ بزيقوه، وتوجُّهُ الأمراء والنبلاء في تلك

الحرب إلى قيصر روسيا، وعاد بالذاكرة إلى أقدم من هذا بكثير حين أغار خان القرم عليهم وسدّ منافذ الحياة فزوّجوا ابنتهم إلى القيصر. مَنْ لنا عتبٌ عليه الآن أكثر من غيره؟ تساءل في نفسه، ومن سنحّمه الذنب؟

- وكيف لا أعرف كوبل إسلانج، - خرج سفري من أفكاره المزعجة. ليست كلماته فارغة من المعنى... هل مضى زمن بعيد على حديثك مع المرحوم أسلانجري أيها الضيف؟

- قبل سفرنا إلى النائب بوقت غير قريب... لماذا تسأل يا أمير؟ - صحا تيوفيل، - لماذا تقول "المرحوم أسلانجري"؟

- لم يغفروا لأسلانجري أفكاره...

- ومن لم يغفر له؟

- النائب الذي استضافكم قبل أيام! قتل موفدوه العجوز كوبل في بيته عند الظهيرة.

- أيّ عار هذا! - امتّقع وجه جيمس. - هل يُقتل أحدٌ من أجل أفكاره الشخصية؟!

- كم هو معيب ما سمعتُ!.. وما أعمق حكمة ذلك العجوز الذي قتلوه!.. - صرخ لاينسك من أعماق قلبه، وتفحّص الجالسين في صمت.

وفي هذه اللحظة سُمع ضجيج رجال قادمين من فناء دار الإمارة جعل الجالسين فيها ينصّون برؤوسهم، وتقدّمت أصوات أقدام إلى مسطبة المضافة.

- ما هذا الخطر الداهم يا ترام؟ سأل سفري مخفياً قلقه، وقلبه نحو الفناء. ودخل الغرفة خمسة رجال على رأسهم حُستان حُجّج، وبينهم شخبه إسحاق.

- يا سفري، - لم يتوقف حُجّج عند التحية وما يتلوها، - لا أخبار سارة. الروس عبروا نهر بشره، ويمدون جسراً عليه بعدما تجمعوا في أدغ!..

VIII

لم يهدأ تيوفيل في الأيام التي تلت سماعه الخبر. في البداية شعر بالارتياح إذ لم يُنشئ مستودع السلاح في مَزيه بل في جبل أَدْرَبِي الذي لا طريق إليه حتى لا يستطيع الجيش الروسي الوصول إليه. وفي المقام الثاني لأن من تسبّب في الحرب

ليس جيشه بل الجيش الروسي. وسيسهل عليه هكذا تحضير الجانب الأديغي. والأديغة الذين يستعد لسفك دمه من أجلهم سيقدمون له من أنفسهم طعام المقاتلين دون حاجة إلى رجائهم.

الآن حان يوم لاينسك تيوفيل. مدافعه جاهزة، وأضيف إليها عدد من المدافع الروسية المستغنى عنها والتي أعيد إصلاحها.

ليس تيوفيل وحده المهوم بمستقبل جيشه بل الأديغة كلهم. ومن لا يتفهم سبب حماسة المحاربين الأجانب للتصدي للرصاصة ليسوا قليلين. ومن يقولون إنهم يأتمرون بأمر زانه سفربي، لا يعصون له أمراً، أكثر من الأولين. ومن يسموهم بالباحثين عن الموت لا يعدّون على الأصابع. ووراء كل هؤلاء من يتساءل "ومن أين أتى هؤلاء؟" ثم يبتسمون.

لم يتأخروا في عقد مؤتمر الشابسغ، ففي اليوم التالي احتشدوا وأكثرهم من الناختواي. قصرُوا مدة المؤتمر لأن الخطر قريب منهم. وحين عرض عليهم سفربي الموضوع، لم يفسحوا المجال لتيوفيل ليتحدث: ترجى المستون، وشهر الشباب خناجرهم على عادة الأديغة، وقرروا أن يتوجهوا إلى ساحة الحرب معاً.

وفي اليوم نفسه اصطحب تيوفيل عدداً من الفرسان وتوجه إلى حيث يبني الروس الجسر. تفحص المكان من كل الجهات، وحدد، حسب تقديره، مكان جيش المشاة، ومكان جيش الفرسان. وحدد بدقة أكثر مكان نصب مدافعه.

الجانب الأديغي من الأرض أنسب للقتال من الجانب الروسي. والغابة أكثر ارتفاعاً، وإذا قصفت منه وصلت القذائف إلى الجسر. بل ستصل إلى المحتشدين على الضفة الأخرى. وسرير النهر المهجور يتسع لحوالي ألف فارس لا يراهم أحد. وإذا خرق المشاة الغابة بعد القصف المدفعي لم يدع للجيش الروسي المواجه للجسر الفرصة لتفهم ما يجري. وإن تحقق له مراده أسر بضعة المدافع التي عبروا بها النهر.

- هل فهمت يا ليخ؟ - قال تيوفيل لستانكيفيتش. نحن محظوظون، لا يزال الله يحينا.

- - أبصق إلى يسارك، - قال ستانكيفيتش، ورسم إشارة الصليب.

يرسم لايننسك هامساً إشارة الصليب وكأنه لم يبق في الدنيا غيرهما. ولا يتأخر شتوخي عنهما.

- ماذا يفعل هؤلاء؟! - سأل حباط، وأدار رأسه وقد فهم أن هناك طقوساً غير دينه، وقلده رفاقه الفرسان الثلاثة لا يحبّذون ما يرون.

- يرسمون الصليب ويدعون إلى الله، - ابتسم قرباتر في سرّه.

- أليس صحيحاً إذن ما قيل إن من أتوا لنصرتنا هم على دين الكفار؟ - سأل حباط مُشيحاً بوجهه. ثم صرخ كأنهم يسلبونه شيئاً، رافعاً يديه حتى لفت انتباه الواقفين: - ونحن ألا إله عندنا!.. قولوا آمين، وادعوا إلى الله!

- لا تصرخ أيها المنحوس، سيسمعوننا، - نبّهه أحد رفاقه وهو يرفع يديه أيضاً.

- ليس في الدنيا من يسمّعنا إلا الله وحده. - أجاب حباط بعدما انتهى من دعائه، وأشار إشارة مهينة إلى لايننسك.

اليوم التالي كان التاسع عشر من إبريل / نيسان عام 1857. جمال الطبيعة على الأبواب. الخضرة تسود كل مكان إلا السماء. وبعض الأشجار المبكرة لا تُنسك أنما تنوي البرعمة. وبعض الأزهار، ولاسيما البرقوق، تضيء مكافها. والغابة تصحو من فجر الربيع. والسماء التي لا سحابة تائهة فيها ستنتصب فيها بعد قرابة ساعة شمس كبيرة ستحرس أرض الأديغة مهما حدث، لا تتنازل عنها.

أفواه المدافع الثلاثة تبدو من عمق الغابة التي يعث فيها نسيم الصباح الباكر. وجيش المشاة الذي سيتقدم بعد القصف المدفعي جاهز. والجيش الذي يقوده زانه قرباتر كمنّ الليلة على يسار النهر. وشارة انطلاقهم صوت المدافع. وجيش المشاة بقيادة شتوخ، والخليط من البولونيين والمجريين والترك والإنجليز، زحفوا على بطونهم فاقتربوا من الجيش الروسي المرابط على الجسر. وكان لايننسك ينوي إرداف هؤلاء بنخبة الفرسان الشابسغ المؤلفة من مئة فارس ولكنهم رفضوا أن يتحركوا. كتم تيوفيل استيائه قائلاً في نفسه: سنرى حين تتبادل المدافع القصف، وابتسم. نظر إلى الساعة وحين رآه الأديغة يرسم الصليب أداروا رؤوسهم أيضاً.

نادى ستانكيفيتش الذي كان بين مُطلقِي المدافع لاينسك:

- يا تيوفيل، الله معك. أهديك أول طلقة للمدافع!..

اقترب تيوفيل من المدفع مخفياً قلقه وخوفه، ورسم الصليب، وأطلق الطلقة الأولى. وارتفعت الطلقتان الأخريان في وسط الغابة. ولم يتأخر الجانب الروسي بالرد. وانفجرت طلقات الروس قريباً منهم دون أن تصيبهم. وتعالَت في الجو أصوات البَشَر والخيَل. وحين ينظر لاينسك لا يرى غير جيشه الذي جلبه معه يتحرك. والفرسان الأديغة الذين يعدون صوت المدافع إشارة لهم لا يُسمع صوْتهم، وجيش المشاة الذي في الغابة لا يتحرك من مكانه. يراقبون مساقط طلقات المدافع وَجْهَ الجنود الروس. وكلما انفجرت طلقة تصاحوا. ورفعوا خناجرهم المسلوكة إلى الأعلى.

يركض تيوفيل نحو الأديغة، ويطلب منهم اللحاق بالبولونيين. ينظرون إليه، يفرحون بطلقات المدافع، ولا يسمعون أمره. ينصت إلى الوادي الذي يحتشد فيه الفرسان. هدوء مريع يسود هذا الاتجاه أيضاً. من حسن حظه أن رماة مدافعه ماهرون. يحترق الجسر غيرُ المكتمل. ويلحق الدمار والقتل بالجيش الروسي. ويبدأ جنوده بالتراجع. وما إن يتحرك الفرسان حتى يُلقوا بالعدو في الماء. يصرخ تيوفيل ويوبّخ بصوت عالٍ، والأديغة لا يعبّؤون بكلامه. وبعضهم يشير إلى المدافع ويوجهون إليه، كما علّمهم حباط، أصابعهم المهيّنة. وتيوفيل يسبّ. وحين يرى بعض جنوده المهاجمين باتجاه الجسر يسقطون يركب الحصان ويسرع باتجاه الوادي.

ما يراه في الوادي هو ما رآه في عمق الغابة. الفرسان، وفي مقدمتهم قرباتر، واقفون في ركائبهم على رؤوس الأصابع ينظرون نحو الجسر. ويتصايحون فرحين بما يرون.

الفراس الوحيد الشاهر خنجره يدور حول قرباتر، ويتوسل إليه، ويصيح، ويشير برأس الخنجر نحو الجيش الروسي. ثم يجري بالحصان كأنه يطلب منهم اللحاق به، ثم يعود.

- يا قرباتر! لا أفهم سبب وقوفكم بلا حركة!.. - تدور حورية مرة أخرى حول قرباتر.

- ألم يطلب منك الأمير ألا تستعجلي يا مريم!.. ابتسم ترام في وجه مريم ولو أنه لامها. وأكد عليها: - اطمئي، ولا تبتعدي عني! ها الآن حالاً ... - ولكن كان الأفضل مما عدها يا حورية لو أطعنا وانتظرتنا ريثما نعود...
- لا تكمل يا ترام، لن أطيعك في هذا. ولكني لن أحيّد عن أوامرك شبراً واحداً متى ألقينا بهؤلاء الروس، - تشير إليهم برأس الخنجر، - على الضفة الأخرى.

- اسكتي يا حورية لحظة!- ينهر قرباتر المرأة. - لِنرَ حقيقة إمكانات ضيوفنا!
- ألا تحجلون؟ ماذا تنتظرون!.. ألا تسمع يا ترام؟
- لا تستعجلي يا حورية، لا تستعجلي يا أختنا... - لا ينظر قرباتر إلى المرأة. - مكانك ليس هنا، بل إلى جانب الموقد. قلنا لك ولم تسمعينا. هيا يا ترام، ضيوفنا ليسوا جبناء... انظر ماذا يفعلون. التحموا بالعدو.
- لماذا لا تتحرك يا قرباتر؟.. - يسرع لايبينسك إليهم، ولا يسمع صوت صراخه.

- أنظر فأجد من جاء بهم إلينا تيوفيل ليسوا جبناء!.. أناس يمكن أن تعتمد عليهم. - يتفكّر قرباتر في راحتيه دون أي استعجال، لا يهتم بما يقول له لايبينسك. يستل سيفه ويقول للفلاح الذي إلى جانبه: - بالله عليك أن تمسك بزمام حصان تلك المرأة وتمنعها من اللحاق بنا؛ لا تدعها تجلب العار لنا!

تضرب حورية بمقبض السيف فتحرر اللجام من يد الفلاح. وتجري وراء الفرسان الذين يمزق صراخهم الوادي. تصرخ حورية كما يفعل من تجري وراءهم، ولا تسمع صوتها. تلحق بمن تأخرت عنهم، وتتخذ مكانها وسطهم. تنفجر طلقات المدافع أمامها ووراءها وعلى الجانبين. الخيل تنبطح على صدورها، تسهل، وتتساقط. ويسقط من يركبونها، وتجترّ القتلى المتعلقين بالركائب. والجنود الروس الذين ارتقوا في الزوارق يرمون فرسان الأديغة بالبنادق. وطلقات المدافع التي جيء بها إلى الضفة الأخرى تنفجر بين الفرسان.

- يا مريم!.. - يصرخ ترام، ويركض وراءها. - لا تذهبي باتجاه ضفة النهر، التقي حوله! طلقات مدافع الروس...

لم تفهم حورية في البداية ما جرى لها. التهب ضلع من جانبها الأيمن، وسقط السيف من يدها. وأسقطها الدوار المظلم من السرج.

- يا مريم، ماذا جرى لك؟.. - قفز ترام أيضاً من السرج، ارتقى على ركبتيه أمام المرأة التي صبغ الدم صدرها. - ما أشد ما كنت أتوجس من هذه المصيبة!

حين فتحت حورية جفניה وجدّت فوق رأسها عدداً من القبعات الأديغية. لم يبق في المحيط لا أصوات مدافع ولا أصوات بشرٍ. الهدوء في كل مكان، والرأس يدور. ووجوه لابسي القبعات ليست واضحة. تختلط عليها الوجوه كلها. هوى جفناها رغماً عنها دون أن تعرف أين تمضي وهي تختفي في الظلام الزائف. بعد قليل أيقظها البلبل الذي وقع على شفثتها، وسألت وقد منحنتها قطرة الماء العزم:

- يا إلهي أين أنا؟.. وماذا جرى لي؟..

- ارتاحي يا مريم، سَتَشْفَيْن... - لاطف ترام حورية. - نحن من عندك، وها هو سفري الأمير، وقرباتر، ونور مُجْد، وحباط، وتيوفيل، كلهم واقفون عندك...

- والجيش الروسي؟ - حاولت حورية غير متناسية أنها امرأة أن تزيج الشعر من أمام جبينها، ولكنها لم تستطع أن ترفع يدها اليسرى السليمة.

- الجيش الروسي انتصرنا عليه يا حورية. - أصلح قرباتر بحرص شديد شعر المرأة، - طرَدْنَاهُمْ إلى ما وراء النهر...

- يا حسرتي يا أخي الصغير، لم أكن محظوظة... - إن جئت إلى العالم منحوساً... - لم تستطع حورية إنهاء ما بدأت به، تبللت أهدابها السوداء،

وسالت الدموع على الخد الأسيل الجميل. - لا تؤاخذوني يا أخي الصغير... - حاولت حورية مرة أخرى أن تمسح دموعها، ولم تستطع فمسح عنها قرباتر.

- شكراً يا أخي الصغير... أين والدك يا قرباتر... يا أخي الصغير؟..

- ها أنا يا مريم، يا بُنتي، - جثا سفري على ركبتيه أمامها، ووضع يده على جبينها البارد.

- وأنت سأمحي يا والدي... أنهي حياتي هنا... اغفر لي يا إلهي! ساندني. اغفر لي إن ارتكبت إثماً... يا ترام ويا قرباتر، هذه وصيتي... أتبرع بكل ما

أملك في تركيا من أجل الأديغة في مأساتهم... يا إلهي ارحم الأديغة واحمل إليهم السلام... ترام... - تنهدت حورية عميقاً وكان اسم ترام آخر ما نطقت به.

أطرق كل المجتمعين في عمق الغابة من أديغة وغيرهم رؤوسهم حزناً. وبعدما سجد ترام حورية خلع كساءه وغطاها به...

أشاح سفرني برأسه ومسح دموعه. وقال لابنه على نحو مفهوم، ولكن دون أن يفصح عن سره تماماً:

- إبلُ يا قرباتر على هذه المسكينة كما كنت ستبكي لو كانت عندك أخت.
- ثم أضاف مموهاً ما قاله: - كانت مريم امرأة طيبة نحونا ونحو كل الأديغة...

...

دارت أخبار بطولة جيش لايننسك إقليم الأديغة بيتاً بيتاً ولو أن خسائر الجانب الأديغي كبيرة كما الجانب الروسي. وتكلموا عليها في المآتم وحفلات الجابشة مضيفين إليها ما فيهم وما ليس فيهم. وبدؤوا يعلقون آمالهم القادمة بجيش لايننسك.

وما يفكر فيه لايننسك ليس البطولة التي ينسبونها إليه. بل هو مهموم باختبار عدم الثقة الذي أجروه له مع أنه مضى وقتٌ غيرٌ قصير على معركة الجسر.

لا فائدة من إشارة الإصبع المهينة، قال لايننسك، ولا من الاعتزاز بالمدافع. لن تستطيع الانتصار على الجيش الروسي ببضعة مدافع وببضع مئات من المقاتلين. ليس السبب في قدومنا إليكم أن تراقبوا قدرتنا على القتال بل تصديكم كبلاد أديغة كاملة للروس. إن لم يحدث هذا فأني أمل لنا؟ لن يتحقق شيء إن حاربنا أمامكم وأنتم تنظرون من وراء ظهورنا. كنت أتوقع ألا يُشيروا إليّ مرة ثانية إشارة الإصبع المهينة التي وجهوها إليّ ولكنهم كرروها قبل أيام. لا أقصد بهذا أن الأديغة محرومون من الرجولة. متى انطلقوا غاضبين صرعوا من يعترض طريقهم. يجابهون الموت بعيون مفتوحة. ولكن هل أستطيع أن أثير غضب هؤلاء كل يوم؟.. لا تسير أمورنا كما نريد. أخبرني المرحومة حورية أن إسماعيل بيه سيتفهمني ولكنه لا يفني بوعده إلى الآن. لا يرسل إلينا نواقصنا. والنقود التي سادفع منها رواتب الجنود تتناقص. لا تتحقق الأمور هنا كما

توقّعنا. نشترى من الأديغة طعامنا. ونبادلهم اللباس ولا أحد يعطينا. لا فائدة من السكوت، جئنا لنحارب من أجلهم لا لنتسوّل!.. سأبلغ سفري كلّ ما في ذهني، وسنفكر في تأليف جيش الأديغة وفي نفقات جيشنا. وليتخلّوا عن توجسهم، وليحاربوا أماننا!..

لم يستطع لا يينسك البقاء في البيت، فمضى إلى سفري. صادف مجموعة الفرسان الذين يتبادلون التحية على جانب الطريق في مرتفع مزّيه. استقبله سفري وبرج جراندوقوه وتسي حاترباي ونيكراس تيم وجيمس بيل بوجوه طلاقة. وسلّم مُحمّد بيه على تيوفيل ولكن لم يُعِرّه اهتماماً. كان الاثنان كمن لم يعرف أحدهما الآخر قطّ.

- أهنتك يا تيوفيل، أهنتك، - صافح جراندوقوه تيوفيل مرحّباً. - أظهرت رجولةً، وسمعنا.

- حقاً أظهر رجولة ولكنه لم يستطع حماية المرأة الوحيدة... - عرض مُحمّد بيه بلا يينسك. - لا أعرف كيف نبُلِّغ إسماعيل بيه...

- أين كنت أنت حين كان زملاؤك يتصرفون برجولة؟ - ردّ تيوفيل على التعريض بتعريض آخر. وأضاف إليه: - وأين كنت حين دفنّا المرأة الصغيرة التي تحزن عليها؟

- مهلاً، مهلاً! - تدخل سفري بين الرجلين المتحافيين، - لا تتشاجرا... ولا يُهن أحدكما الآخر... لم يقل مُحمّد بيه كلاماً غير مقبول. تفضّل يا تيوفيل، تفضّل! أنت ضيف. ما الأخبار بإذن الله في أدّري؟.. - سأل سفري دون هدف، ولم ينتظر الجواب. وتوجّه إلى تسي حاترباي وبرج جراندوقوه، بدأ في مصافحتهم توديعاً: مع السلامة يا جراندوقه، روّحتم عنا، زورونا من وقت إلى آخر. لا تخافوا من النائب. وأنت يا تيم لا تتكبر علينا بحجة أنك حميت النائب وصرت من أهله. مع السلامة جميعاً!

مشى الفرسان صامتين مسافة بعدما ودع سفري وصحبه الضيوف لا يعرفون من سيبدأ الموضوع. سفري بين لا يينسك ومُحمّد بيه بانديار. والفرسان الفلاحون يسبقونهم ويتأخرون عنهم من أجل ألا يُسمع كلام الأمراء. ولا شيء في ذهن سفري هذه اللحظة إلا الضيفان المتشاكسان. إذا لم تكونا متصافيين قلباً

وروحاً، قال سفري، فكيف تترافقان إلى بلاد أخرى؟ كم طلبت من الاثنين ألا يتعاملا بهذه الطريقة! ولكنهما لا يسمعان كلامي. يتعاركان كمجرمين عضوئين. والعجيب بالإضافة إلى هذا أنهما لا يهتمان بحضور الناس. هذه المرة مُجَّد بيه هو المذنب، ولكن لا يينسك أيضاً ليس رجلاً صالحاً. يتصرف على نحوٍ ينفرك منه. مُصَّر على أن يضعنا في قبضته من قبل أن يدخل بلادنا. وهل عجيَّب أن تحليت بالرجولة؟! مَنْ في هذه البلاد يخلو منها؟ إن كان توفيق بيه سيتصرف هكذا، كما يقول مُجَّد بيه، فسيضع بلاد الأديغة كلها تحت حكمه ويجعلنا نترحم على النائب! توجه فور وصوله إلى الأبراخ، ودار قرى الوبيخ، ووصل إلى البجدوغ، ولا يفارق البسلني لسانه. وأعجب ما أعجب منه هو إلحاحه على ضرورة الاتصال بالكُرج المتأنقين كالجمع، دُعك من الأبخاز. ثم أليس مُجَّد بيه بوضعه وعمره أكبر منه؟! أليس خروزر أوصاه بالإشراف على من أوصل إليهم أملاكه؟..

- وهل سنبقى كمن دفن عزيزاً، - قال سفري مهتاجاً نوعاً ما من أفكاره، -
ألا تقولون شيئاً!

- وماذا نقول يا سفري، - قال لا يينسك لائماً، ألم تطلب منا عدم الاشتباك؟
- نعم يا تيوفيل، قلت. ليكن بينكما الخير في هذا العالم الثقيل، وفي العصر الذي فقد الإنسان فيه قيمته!.. لماذا تتشاجران أمام الغرباء؟.. قولاً الآن كل ما في قلبكما إذ بقينا وحدنا، إن كنتما واثقين مني.

- أصبت ما في قلبي يا أمير. وهذا ما جاء بي إليك.

- أسمعك يا تيوفيل، أسمعك.

- أليس الأفضل من الطريق أن نتكلم في البيت؟

- أفْضَل أن نتناقش في الطريق فنصل إلى البيت متصافيين. ما رأيك يا مُجَّد بيه؟

- ما قاله الكبير كلام مستقيم. أجب مُجَّد بيه على لا يينسك.

حُيِّل لسفري أن ما سيقوله لا يينسك يتعلق بالخصام بين الرجلين، ولكن ما سمعه شيء آخر. كان لومُ تيوفيل وشكواه من وضع الأديغة الذين جاء من أجلهم، وضرورة وضع حدٍ لعدم ثقته بهم. لم يكتف أن عليهم مساعدته في

موضوعات الإطعام والأحصنة والأسرى الروس عندهم. وتكلم على انقضاء فصل الصيف، واقتراب الخريف، والشتاء الذي يليه في ظل انعدام موارد العيش عندهم.

- أهذه شكواك؟ - سأل سفري، ولم ينتظر الجواب. - أنا توجست من أن تذكر شيئاً يُقلِّبنا، وأنت تكلمت على ما يجب علينا فعله. ولكني سأقول رأيي. لم يكن من الضروري الكلام على التوجُّس الأديغي. هذا أمر انقضى، ولم يعد الأديغة يتابعونكم، لا ينظرون من وراء ظهوركم، بل يتقدّمونكم. الحق يقال يا توفيق بيه ويا مُحمَّد بيه في الأيام الأولى، لا أكنتمكما، لم أكن واثقاً منكما. إذا نظرت إلى طريقة من يقطع الخطب في رفع فأسه استطعت تقييمه. حياكما الله، لا تشكّا الآن في ثقة الأديغة. واطمئنّا من جهة الطعام والأحصنة، والأسرى الذين يودون الانضمام إليكم، وسنخدمكم بما يتوجب علينا. وها أنتما تريان أننا نقيم المحاكم تنفيذاً لقرار المؤتمر، نؤلفها والضابطة العدلية لا تألو جهداً. وكل أسرة لديها حصان وراكب تقدم محارباً. ويجمعون طعام الجيش والمواشي.

- لن أتهم الأديغة من هذه الناحية بما لا يستحقون. - وافق مُحمَّد بيه الأمير كأنه يتكلم من قلبه.

- نعم، هذا هو، - سفري مرتاح لما يسمع، ويكمل: - وموضوع تموين الجيش الذي يُقلِّبك يُقلِّقنا نحن أيضاً أنا وُمُحمَّد بيه. هذا موضوع أصعب من غيره. لن يكون لكم في الشتاء وما سيتلوه مكان مناسب للإقامة. فكرنا في توزيعكم على الأسر ولكنكم مسيحيون، لا تناسب إقامتكم معهم الإسلام. واستفتيتُ الأسر في شأن الضابطة العدلية فأجابوني جواباً سليماً.

- وهل من المناسب إذن أن نحارب من أجل الأديغة المسلمين؟.. - فاجأ لايبينسك الحاضرين.

- لن أخفي عليك يا تيوفيل، سأجيبك. سمعوك تقول هذا فانسَ هذا الكلام، ما من شيء إلا فيه فائدة، سيردون عليك: لم نذهب إليهم ونستدعهم.

- يا إلهي، ماذا يقولون؟ - رفع لايبينسك عينيه إلى فوق، والتفت إلى مُحمَّد بيه.

- يا تيوفيل ألم أطلب منك أن تنسى هذه الكلمة؟! - غضب سفري حتى اتقدت عيناه شرراً. ثم أكمل بصوت اللطف: - قلل من نظراتك نحو النائب، لن تخطئ. تعال الآن وقد تبادلنا ما في نفوسنا، دعونا ندخل القرية بقلوب متصافية...

...

بعدما رجع لايننسك إلى أدربي بعدة أيام سأل مُجدّ بيه سفري:
- هل تعرف يا أمير ما لمح لي إليه لايننسك قبل أيام؟
- وماذا يعرف لايننسك ليلمح لك به؟
- طلب مني ألا أسمح لسفري أن يكون ودوداً نحو الروس.
- ومن أوصل إليه ما قلنا بشأن الروس؟
- لم يكن غيرنا حاضراً حين تكلمنا في هذا الموضوع.
- ليس عداؤنا للروس أقلّ من عداء لايننسك لهم، - فيما يقول سفري هذا الكلام، ويفكر في من نقل الخبر من بينهما، ويشك نوعاً ما في مُجدّ بيه، تذكّر أنه كان أخبر قريباتي، وخطر له نيكراس تيم على احتمال أن يكون ابنه لمح لزوجته. ولكن الأفضل أن تتصالح بدلاً من أن تتقاتل حين لا تجد مخرجاً. وعلى هذا يجب أن يتحلى لايننسك بالرجولة، وأن يحارب، وأن يهيج العالم ضد روسيا لعلها تعيد النظر في سلوكها، سنعرض عليها مرادنا ثانية... لا أظن أنه بقي لنا حماية أخرى لنا. ولكن مع ذلك يا مُجدّ بيه من ييوح بالسر الذي بيننا؟..

IX

في هذا العام شعر مُجدّ أمين بصعوبة مهماته في الأبراخ أكثر من السنوات الماضية دون أن يعني هذا أنه لم يكن يلاقي صعوبات في الماضي. الصعوبات التي تمر بالإنسان يلطفها الزمان إلا التي تبقى كالشعر الأبيض في الرأس. وكلما خطرت على البال تغيّرت نظرتك إليها تبعاً لبقاياها في نفسك.
جرت للنائب أفرح كثيرة وأحزان كثيرة. ومهما وجد نفسه في ضيق احتفظ برأيه المتفائل. وحين هرب مضطراً، ووجد نفسه في بيت نيكراس تيم الروسي، وحين حاصره الأعداء، وحين هاجمه الشابسغ حرباً، وفي المهالك الأخرى التي

وقع فيها، استمرت حياته بفضل تفاؤله الذي لا حدود له. يبدأ يفكر في حياته لا يعرف أبسبب تقدمه في العمر أم بسبب نقاط ضعف خفية فيه لم يكتشفها في نفسه. ويشتاق إلى الداغستان أكثر من السنوات الماضية. يسمع أصوات مياهها الجبلية، ويحُنُّ إلى عواصفها، ويشتهي رؤية السحب البيضاء في ناحيته.

ورغم قلة ما يصله من شامل الذي يخلص له قلباً وروحاً، فما يزال يصله شيء منه في السنة مرة أو مرتين، ولكن لم يبق في كتاباته كثيرٌ من الآمال كما في السابق. والأترك هم الذين ينكثون بوعودهم دائماً، دَعَكُ من الإنجليز المفروغ من أمرهم. يختبئ الأتراك بعد حرب القرم وراء قرارات مؤتمر باريس وإن لم تعجبهم تماماً فينفذونها. لن تستطيع إنهاء قضية الأديغة، قال النائب، بالتهامس مع أمثال خروزر إسماعيل ولاينسك ومُجَدِّبيه. لا فائدة من أن تمدَّ الأديغة سراً ببعض الذخيرة والبارود وتهيَّجهم طالباً منهم مجاهدة الروس وحماية أرضهم. يزداد الوضع سوءاً يوماً بعد يوم في الداغستان. وبالقياس إلى الناختوي، فالأبزاخ الذين كان موقعهم أدعى للطمئنان صار شرقهم كله ثغرات مفتوحة للخطر عليهم. الجيش الروسي عبر نهر لابا، واحتشد على ضفة نهر شخغواشه. وعمر باشا يظل يلح علينا. يرسل إلينا رسالة تلو الرسالة، يؤكِّد ضرورة أن أسافر إلى تركيا. وماذا أفعل إن زرت الدولة التي أصمَّت أذنيها عن موضوع الأديغة؟ والأبزاخ الذين كانوا يسمعون كلمتي يوماً تحملهم القوة الروسية القادمة نحوهم على أن يغيروا رأيهم. ويُضاف إلى هذا تسي حاتراي. والفلاحون والمتنفذون يعرضون لي قائلين: لماذا ليس جزءٌ من جيش لاينسك ومُجَدِّبيه في جانبنا، بل كله عند الشابسغ؟ أنا أخطأت بحق ذلك الجيش وأعترف بخطئي... ولكن لا أظن أن هؤلاء أساساً متيناً عند الناختوي. يتصارع توفيق بيه ومُجَدِّبيه على الزعامة. ويتدقَّ زانه على نارهما... سيتجه أحدهما إلى ناحيتنا إن عاجلاً أم آجلاً... ماذا أفعل وماذا بإمكانني؟ ليس عندي أحدٌ أثق به وأفضي إليه بمومي. كلهم يشنون لك ويشيرون إليك باحترام ولكن ما يقولونه وراء ظهرك شيء آخر. أصطدم الآن بما كان يقوله معلّمي الشيخ: حب الذات وحمايتها يدمران حياة الإنسان. عاش الأبزاخ مسلمين مسلمين

مادامت حدودهم آمنة. كانوا يعبرون متى أرادوا نهر لا با وبشزه ويهاجمون القلاع والمستوطنات الروسية. وأحياناً يحاربون المتنفذين بعلمي أو دونه. وانظر الآن ما يجري. مرضهم عدم الثقة المتبادل. وحين يشون لي ينظرون إليّ من أطراف عيونهم قائلين في أنفسهم: لماذا فُعدوك، ألا تقدر على ما يفعله زانه؟.. ماذا أفعل؟ هل أزور تركيا؟ الأبراخ إن لم أمدّهم بشيء من البارود سيتغيرون عليّ. نفعتني بعض براميل البارود التي بادلتها مع لاينسك. ولكنه لا ينجل إذ وجد في العملية تجارة. ولا يخاف، يغالي في السعر.

- ما رأيك يا جيمس أن أسافر إلى تركيا؟ - سأل مُجد أمين ولو أنه قرر الأمر.
- ليس من السهل زيارة بلد آخر ولكن... - مُجد أمين لا يتكلم في موضوع إلا بعد أن يقرره، فلن أستطيع إلا أن أوافق، - قال جيمس.

- ما أشدّ مماطلتك في الجواب يا جيمس!

- ليست تركيا قريبة يا نائب.

- ومع ذلك يسافرون إليها ومنها.

- مُجد أمين ليس كالمسافرين العابرين.

- شكراً يا جيمس، فهمتُ. لن أخفي عنك مشاريعي، لا بد أن أزور تركيا نظراً لتطورات الأوضاع في الأبراخ. لست متحمساً جداً للزيارة. مللنا من الكلام والخداع، ومع ذلك يجب أن أسافر.

- من غيري يعرف نيتك في السفر؟

- لا أحد غيرك.

- لن نستطيع كتمان خبر زيارة النائب إلى تركيا. ولكن سنقول لمن يسأل عنك إنك في البسلي من أجل ألا يعترض الروس طريقك. التقى بوركفارت، هو يعرف أن أمورنا في هذه المنطقة تتدهور يوماً بعد يوم فلا داعي لأن أكتب. وليثيروا في البرلمان الإنجليزي أنه لم تبق قوة قادرة على إيقاف روسيا في الجنوب القريب. وليعرف العالم كله!

سهلت رحلة تركيا على مُجد أمين خلافاً لما توقع. وصل إلى إستانبول مع الحجاج مختفياً بينهم، وقبل أن يلتقي بعمر باشا سجل اسمه في الفندق باسم

آخر كما في الوثيقة التي معه. إستانبول مدينة كبيرة ما إن يخرج إلى الشارع حتى يضع بين الناس.

جفل عمر بيه باشا من شيخوخة النائب رغم استقباله له بحفاوة، ولكنه أخفى انفعاله. وجدا ما يتكلمان فيه طوال الليل حين بقيا وحدهما. ومهما تكلما في قضايا أدوية فقد كانا يعودان أخيراً إلى حرب القرم وإلى إسماعيل بيه. لم تعد حرب القرم في رأيهما بأي فائدة على تركيا وإنجلترا وفرنسا. وهي لم تزد هيبتها إن لم تُضعفها. ومع أن روسيا تعرضت لخسارة قوية فقد أنهت الحرب بذلك. وما هي، وقد عادت إلى حالها، تحارب دون أن تكثر باعتراضات الدول الأخرى على جبهة الأدية والداغستان والشيشان. وإسماعيل بيه انتكس في قضية الأدية. بدد أملاكه عليها، ودفع امرأته من أجلها. وعزله السلطان من منصبه وقدمه للمحكمة.

- وماذا سيكون مصير لاينسك ومُجد بيه إذن؟
- ليس أمامهما إلا أن ينفذا بجلديهما. - ابتسم عمر باشا. - ما لم نستطع تحقيقه لن يستطيعاهما.
- هذان لا يدخران جهداً في الناقوي. الأبراخ يلوموني لأنني لم آت بهما إلى الأبراخ.

- على الأدية أن يجاهوا بأنفسهم روسيا، لا أن يحاربوا من وراء ظهر أحد. لا يستطيعون حماية أنفسهم رغم إقامتهم في أحسن منطقة في العالم. أفهم ما يغتلي في قلبك أنت أيضاً هناك يا مُجد أمين بيه. لماذا تُفني نفسك من أجل غير قومك؟ من الصعب الارتياح في بلاد دون دولة. يكفي ما مارسه زانه سفري معنا من خديعة كبيرة، ومن الصعب تحمله. مُصرٌّ على أن يجعل من نفسه سلطاناً على الأدية متودداً إلينا، ومتهامساً مع روسيا، ولكنه صار عجوزاً شبه مُقعّد قبل أن يتحقق له مراده. - كلما امتص عمر باشا الغليون الذي ملأه تبغاً حاداً واستمتع به زادت ثرثرته، - الله وحده يعلم كم من الأكاذيب يخدع بها زانه الأدية! ألا يزالون يصدقون كلامه؟

- لا بأس بعلاقة الناقوي والشايسغ، والوبيخ معهم، بسفري. لا أفترى عليه إذ لا أودّه. - قال مُجد أمين دون أي رغبة وأضاف، - ولا أستطيع أن أقول

إن علاقته مع متنفذي الأبراخ غير ودية. - كان الأفضل أن نتكلم في موضوعي بدلاً من سفربي، قال مُجَّد أمين في نفسه، - وتعلق بالكلمة التي عرّض له بها ناوياً تكرارها، - ولا أوافقك على قولك الآخر إني أفني نفسي من أجل مَنْ ليسوا قومي. تبينَ يا عمر باشا أن الناس الذين وقعتُ بينهم مخلصون لي قلباً وروحاً. لا عتب لي عليهم بل أرى نفسي مذنباً إذ لا أستطيع مساعدتهم. الأديغة نشؤوا على نمط الحياة الحرة. كبارهم وصغارهم يتحلّون ببراءة الأطفال. ونحن، أيّا كنّا، هجمنا عليهم فكدرنا حياتهم وجعلناهم يغيرون نظرهم إلى الحياة.

- كفى يا ضيف، كفى. لست من يعلّمونه من هم الأديغة!..
- لا تؤاخذني. لا يمكنك إلا أن تحب من هم أمام عينيك دائماً... - تراجع مُجَّد أمين عما قاله متألماً مما لُحِح به إليه دون أن يعرف السبب. - عانيت معهم مشاقّ كثيرة، وشهدت أفراحاً... أنا إن لم أحمل دهمهم ففي أطفالي.
- نعم، نسيْتُ أنك صهرهم...

نظر النائب إلى عمر باشا الآن فقط منذ أن عرفه بعين أخرى. وابتسم في سره وقد انتصبت أمام الوجه سنوات الصداقة، وأضيف إليها أنه كاد يأمر بقتله مرة. لم أستفد خيراً من هذا الرجل منذ عرفته. وقد جئت إليه الآن وكأني لا أعرفه! يرى زانه سفربي عجوزاً مقعداً ولا يرى نفسه. لم يعد قادراً على الضحك، ولا على الجلوس، ولا على الكلام. لو عرفت أنه وصل إلى هذه الحالة لما خطوت إلى تركيا البعيدة لا خطوة بل فتراً واحداً. نهر مُجَّد أمين نفسه قائلاً إنه يعيش مغمض العينين، معتداً بقوته وأفكاره.

- ما أشد ما تتفحصني أيها الضيف! - سأل عمر باشا النائب وكأنه أدرك ما في قلبه، وابتسم: - وأنا أحياناً أتعجب من نفسي حين أنظر في المرأة فأتساءل: أهذا أنا؟! دون أن يعني هذا أنني أعيش في تركيا خاملاً لا يؤثّر لي. أساهم بقولي وفعلي معهم. وأستطيع أن أفرض عليهم رأيي وأمري. لا تعتقد أنني ميئوس مني، ولا تندم على زيارتك لتركيا. لم تنبذ الحياة عمر باشا ولو أنه فارق صهوة حصانه. أنا رغم عتبي على الأديغة أستطيع أن أنفك، وأؤمن لك مقابلات مع أصحاب القرار، ولكن مسؤولية خداعهم عليك... هذا ترتيب

أمور العالم يا نائب!.. - هيه، صاح عمر باشا من الغرفة، وصفق بضغ مرآت يشهد بما على ما منح نفسه من قيمة، وقال للخادم الذي وقف على الباب: - أوصلوا ضيفنا بأفخم عربة إلى حيث يريد. مع السلامة يا نائب ، ستأتي إلّى يوم الجمعة، سأؤمن لك مقابلات مع بضعة الأشخاص الذين تحتاج إليهم...

...

عرف السفير الروسي في اليوم نفسه بقدم أسلاي مُحمَّد أمين النائب إلى تركيا، وفي اليوم التالي وضع ورقة مكتوبة أمام السلطان التركي. وكان الكلام القاسي للسلطان محمود مختصراً:

- لن أنقض من أجل الأدعية الذين لا يعرفون المحافظة على أسرارهم تعهّدي أمام روسيا التي أكرهها. اعتقلوا أسلاي زعيم الأبراخ الذي ينقض اتفاق باريس للسلام، وأبعده عن وجهي!.. خذوه إلى الشام، ليُصل هناك! الآن حالاً وليس بعد ساعة. وأخبروا الصحف... أسلاي أيضاً ليس أحسن من زانه!.. أخرجونا وكتّفونا ونحن نقول لهم: حاربوا الكفار دون أن تظهر نحن في الصورة، وشهروا خروزر إسماعيل بيه...

- ولكن أسلاي مُحمَّد أمين يا شمسنا...؟

- أسلاي، - قطع السلطان كلام القائد الأعلى للجيش، الواقف أمامه، - إن لم يتزعم الأدعية فسيظهر من بينهم من يتزعمهم!.. في اليوم نفسه أُعتقل مُحمَّد أمين، ووُضع على طريق الشام. وظهر الخبر صباحاً في الصحف التركية.

X

استطاع الجيش الذي يقوده لاينسك ومُحمَّد بيه أن يمسخ من شُعبته عدم الثقة إذ أوقف تقدم الجيش الروسي ولو أنه لم يحرز انتصاراً حاسماً. وقضى وجُرح أفراد من جيشهما في معارك مختلفة. وخصص الجنرال فيليبسون مكافأة مقابل رأسي لاينسك ومُحمَّد بيه. ويجري الكلام عليهما في إيكاترينودار وشنته قاله وتفليس. وسمع بهما القيصر.

ولكن إذا نحّينا الانتصارات المعدودة جانباً، وتكلّمنا في صلب الموضوع فالأمور في داخل الجيش نفسه ليست حسنة؛ العداء بين لاينسك ومُحمَّد بيه يمزق

الجيش المرهق من ندرة وسائل العيش المختلفة. ولم يبق في الأمر سرٌّ على الأديغة ولا على الروس، على مبدأ: إن في السر علناً.

في أحد الأيام جاء مُجَّد بيه على غير عادته إلى سفري متهيجاً من الغضب. وماكاد يترجل عن الحصان حتى قال للأمير الواقف في أرض الدار:

- والله ما يجري عجيب يا سفري.

- هل بقي في هذا الزمان ما ليس عجيباً يا مُجَّد أفندي؟! - لم يسمح سفري الذي ما يزال في نفسه شيء من الغضب لضيفه أن يكمل كلامه، - لا تستغرب إن رأيت قطعاً حاجاً في هذا الزمان... ماذا جرى؟

- الحق أني لا أفهم ما حدث لي هذه اللحظة!.. - نيكراس تيم هو من أتعجب منه...

ابتسم سفري حين سمع اسم قريبه. عاد إلى مخيلته الموقف منذ بدأ اللوم بالمزاح حين جاءه كما قال تيم، وانتهى بالعتب المتبادل. وما إن خرج إلى أرض الدار لا يطيق البقاء في الغرفة حتى سمع ثانية ذكره، فسأله غير قادر على الصبر:

- وأنت هل وصلك هذا!

- نعم. لم يودعني نيكراس تيم!.. أهانني أمام رفاقه ورفاقي، قال "اتركوا الروس!" ولم يتوقف، وهزّ لي طرف السوط.

- ولم يكتف عني، يا مُجَّد بيه، الحادثة نفسها.

- هذا غير مقبول، قال لي: "إن كنتم تريدون الحرب فحاربوا، لا نحتاج إلى وساطات" - يحرك مُجَّد بيه لسانه من مدة إلى أخرى، ويحتدّ. - ثم إنه قال هذا الكلام دون أن يلتفت إليّ!

- أتحمّل جزءاً من الذنب في ما حدث لنا بشأن نيكراس تيم، - برأ سفري نفسه بعدما عاد إلى وعيه. - ورطت الكنة البريئة في الموضوع، وسببتُ الحزن لقرباثر. ولكن يا مُجَّد بيه لم يبق شك في أن علاقتنا بالروس صارت نقطة ضعفنا.

- وهل يمكن أن يكون الروس وشوا بنا؟ لا مصلحة لهم في الأمر.

- وهل قلت إنه لا مصلحة لهم؟! - أعاد سفري السؤال، وأضاف بعد قليل:

- ليس إلى هذا الحد.

- وعدني الجنرال فيليبسون على ألا يخرج سرّاً من بيننا.
- قابل فيليبسون، يحدث شيء في هذا الأمر لا نعرفه.
- سأقابله يا سفري!.. ثق بي من هذه الناحية.
- كفى يا مُجّد بيه!.. - لم يدعُه سفري يُكمل. - لا يخطر لك شيءٌ ليس في نفسي...
- ولكن ألا يصبح سرُّنا علناً؟
- سنعرف الحقيقة ثم نتكلم. لا تعتب على نيكراس. ليس قليلاً ما يعانیه من جهة ابنه. يحاربنا جديّاً بسيف مسلول!
- أفهم يا سفري، أفهم. - هزّ مُجّد بيه رأسه، وصمت مدة، ثم أضاف: - ولكن مع ذلك، ليس لأن نيكراس أهانني، ساحمني، أظن تيم يتكلم من خارج قلبه. الروسي يظل روسياً، هل تعرف ماذا يقول الترك عنهم؟
- ليس الترك وحدهم بل الأديعة أيضاً يقولون: قلب الروسي يتغير في اليوم سبع مرات.
- لن يقولوا أصدق من هذا.
- ولكن إن كنت تظن يا مُجّد بيه أن قربي من هذا النوع فأنت مخطئ.
- إن شاء الله، إن شاء الله، لا أقول شيئاً عنه، ولكن لا أثق به.
- بقي مُجّد بيه عدة أيام ورأسه مصدوع مما يجري وراء ظهره. ليس اهتماماً بما يقال في حق زانه سفري، بل لاقتران اسمه به. وأصعب ما في الأمر هو أن يسمع لايننسك بالخبر. وحين يصل الخبر إلى مَنْ يبحث عن ممسك فالله أعلم كيف سيتفنن في استغلاله. ليفعل ما يشاء، يواسي مُجّد بيه نفسه، لسْتُ من ينفذ رغبة زانه سفري. ترجاني فتوسطت له. وأضفت إليه رأيي. فما الذنب الذي اقترفته؟.. ماذا يمكن أن يضربي لايننسك الجشع إذا كان سفري يسندني وأنا أعيش بين الأديعة؟ لن ينسى الجنرال فيليبسون أسرته القوية وقد أعطاني كلمته. كتابي الذي أرفقته بكتاب سفري يصبّ في مصلحته، وسيبقيه في سره.
- بعدما تحدث سفري ومُجّد بيه بأسبوع أرسل لايننسك خمسة فرسان من أذربي إلى مَرَبه يطلبون مُجّد بيه من أجل بحث قضايا الجيش.

حالمًا دخل مُجَّد بيه الغرفة استقبله لاينيسك بنظرة باردة. وقال لمن مد له يده:

- لا أصفح الخائن!

- أنت تلعب بالنار يا لاينيسك!

- ما هذا؟! - مدَّ إليه الورقة، وقعت عينُ مُجَّد بيه على الورقة التي لم ينتظرها

ولكن لم يُظهر على نفسه أنها لم تخطر له محولاً كسب الوقت ليعود إلى وعيه،

وسمع حالاً أوامر لاينيسك: - انزعوا سلاحه، واحبسوه!..

هُرِعَ إليه ثلاثة أشخاص بقيادة ستانكيفيتش، وجردوه من السلاح، وخلعوا عنه

الرتبة.

- ما فعلتم بي غير مسموح به.

- ومن سمح لك أن تكتب للروس¹؟ - هز لاينيسك الورقة مرة أخرى أمام

وجه مُجَّد بيه. - ما هذه؟.. - نحن نسفح دمنا وهو يخوننا. يا بيتير، ينادي

ستانكيفيتش، - ارموا الخائن في القبو!

¹ نصُّ رسالة مُجَّد بيه إلى الجنرال فيليبسون: "قررتُ اختيار طريق السلام المفيد لإقليم الأدبغة ولروسيا دون أن يحملني الخوفُ من أن يؤذيني أعدائي وإمكانُ أن يستفيدوا منها على أن أترك شيئاً من كتاباتنا المتبادلة مذكِّلةً بتوقعي مع وجود وقت بعدُ، لِمَا فيه مصلحة للطرفين الأدبغة والروس. في الحريف والشتاء الماضيين كلَّم الكابتن فرانكين العامل في مقر السفارة الروسية في القسطنطينية، كما عرفتُ، الجنرال التركي شتي (أوريغن باشا) (القوسان من المؤلف) عدة مرات بشأن إقليم الأدبغة. وكما يروي فرانكين فقد كانت السفارة الروسية في القسطنطينية أرسلت كتاباً برؤيتها للموضوع إلى العاصمة سان بطرسبورغ. ولا أعرف الجواب على هذه الرسالة. أنا جئتُ إلى إقليم الأدبغة ولا أزال فيه منذ مجيئي. والحقيقة التي لا مفر منها هي أن روسيا تعرفُ أسس السلام المحتمل مع الأدبغة. ولكن ينتصب هذا السؤال: إذا كانت روسيا لا تتنازل أن تعقد اتفاق سلام من أجل الاستيلاء على أرض الأدبغة فأنا لا أعرف بِمَ أعلّق. وفي هذه الحال لِيُريقوا الدم في المستقبل أيضاً، ولْيُنشروا في جريدة "إينفاليد" أخبار الانتصارات على نحو بارز. ولكن أؤكد لكم ما سيجري في هذه الحال: أخبار الإنجازات التي جمعوها بشق النفس ستبتد كالمثل مع أول هبة ريح. أنا أعرف طبيعة إقليم الأدبغة والناس الذين يعيشون فيه. تستطيع روسيا احتلال أراضيها المنخفضة، ولكن ستمضي سنوات كثيرة حتى تحتل الجبال التي منحهم إياها الله كمنع طبيعية. ثم إن تحقق لها هذا يوماً فمأذا نكون قد كسبت؟ أهي الجبال - القبور، والبلاد التي لم يبق فيها بشر، والأرجح أن

- لا تعاملني يا لايننسك معاملة لا إنسانية، ستندم! - صاح مُجَّد بيه الذي يجرونه من إبطيه إلى الورا.
- سيظهر في المحكمة العسكرية من منا، نحن الاثنين، يتصرف بإنسانية.
- هُرِعَ سفري حالما وصله خبر مُجَّد بيه مصحوباً بخمسين حارساً إلى أدربي.
- وسأل دون أن يترجِّل تيوفيل الذي طلب خروجه من الغرفة:
- هل صحيح ما سمعته بشأن مُجَّد بيه؟
- عمّ تسأل يا أمير، - احتدّ لايننسك من عدم ترجل الأمير، - عن الرسالة السرية التي بعثها مُجَّد بيه إلى الروس أم عن اعتقالي له؟
- يا توفيق بيه، لا تنس شأن مَنْ أنت واقف أمامه!.. - شعر الحصان بغضب راكبه فقفر هو الآخر .

مَنْ يبقى منهم هم مَنْ فقدوا شرفهم مِنْ بين قومهم، والناس الذين صارت الخيانة مهنتهم حين كانت القلاع الروسية إلى جوارهم، وعاشوا على السرقة. وماذا ستستفيد روسيا من يقتل أول جندي روسي حين يصبح وراء المنعة الروسية قبل أن يجد وقتاً لإخفاء السومة أو السومتين اللتين كسبهما من الخيانة؟ من الصعب تصديق أن روسيا تهتم بإضافة بضعة أشبار من أراضي جيرانها إليها! مَنْ تحتاج إليهم روسيا هم البشر. وفي حالتنا هذه تحتاج إلى من يتكاثرون مثل الجراد كالأديغة، مَنْ يُخلقون وهم مقاتلون. ولكن قد يَفنى أمثال الأديغة الذين تحتاج إليهم روسيا من الجنود باستعمال القوة المفرطة. من الممكن الاستيلاء على إقليم الأديغة ولكن بالوسائل السلمية فقط. في البداية يجب ترتيب الأمور في داخل الإقليم، وتنصيب حاكم له. وتبقى مهمة روسيا الموافقة على ذلك الحاكم وإبقائه مديناً لها. وما تبقي من المسائل ينحلّ من تلقاء نفسه. ويمكن أن أنقل لكم هذه الفكرة دون أن تكون معي ورقة مكتوبة، والسبب أنني لا أتحدث في أمور شخصية. أنا لن أصبح مثل هذا الحاكم أبداً، ولا أريد هذا المنصب. ومن يجب أن يحتل هذا المنصب أديغي لا محالة. ولكن ما أستطيع أن أقوله واثقاً من نفسي هو أنني أستطيع تحقيق أفكارى بسبب ثقة الأديغة فيّ، ومن سيتخبونه حاكماً هو من أرشحه. والحق أن لروسيا موفدين كثيرين عند الأديغة. وإن اعتبرتم أفكارى مبالغاً فيها وتدعو للقلق أمكنكم دفعهم إلى اختبارها. وإذا رأوا أنه حان الوقت لمطالبهم مني بالطريق مفتوح، وأنا جاهز لأن أكرر هذه الأفكار على نحو أوضح. التوقيع مُجَّد باشا، أداغوم. السابع من آب عام 1857. المؤلف.

- لا أعرف سبب عدم ترجُّلك من الحصان يا أمير، تعال، تفضَّل! - تراجع لابينسك رغم احتداده، - سنتكلم في التفاصيل في الغرفة.
- تبع نور مُحمَّد وترام سفري لما ترجل. ونادى الأخير: - أنت يا ترام إبق مع الفرسان.
- ولما دخلوا الغرفة مدَّ لابينسك الورقة إلى سفري دون كثير من الكلام: - خذ يا أمير، أنت أدرى بالخبر مني.
- قرأ سفري ما في الورقة دون استعجال وإن كان يعرف منذ زمن بعيد محتواها. وأعادها إليه وهو يكسب الوقت للتفكير في ما سيجيب به: - والله لا أعرف ما هذه الورقة...
- ونحن لا نفهمها يا أمير.
- وكيف حدث ووصلت إليكم؟
- أرسلها إلينا الجنرال فيليبسون.
- ماذا تقول؟! - ألقى سفري نظرة صامتة على حاغور.
- سألنا عما نفعل في حين أن هذا ما يفعله زعيمكم؟! - والله ما يجري عجيب... ما رأيك أنت يا حاغور؟
- هل بصمة مُحمَّد بيه تحتها يا أمير؟ - بدأ نور مُحمَّد الذي عنده معرفة بالرسالة يبحث عن ذريعة.
- نعم، بصمته تحتها، - أجاب لابينسك بدلاً من الأمير. واختتم: - ومن كتبها لا ينفي أهما له.
- وماذا يقول؟ - سأل سفري أيضاً يريد أن يعرف إن كان ورد ذكره هو في الرسالة.
- أجنبي مُحمَّد بيه أنه لم نأت لنحارب لأجل الأديعة فحسب، بل تتجاوز مهمتنا الحرب إلى محاولة الصلح بين الطرفين. ويقول إنك على دراية بالأمر. ويود مقابلتك.
- أخبره أني لا أتخذ من الخونة محدّثين!.. - نهض سفري متوتراً. هيا يا حاغور. إذا كنا نريد الصلح مع الروس فلا حاجة بنا إلى وساطة مُحمَّد بيه!

سحب سفري فرسانه من أدربي ووصلوا إلى منعطف على ظهر المرتفع. لم يكن سفري عاتباً على مُجَدِّ بيه فإن ما حدث لهم نتيجةً للخبث الروسي؛ إذ فيما ينتظرون الجواب أهاهم الجنرال فيليبسون بفعلته.

- هذا ما جرى يا نور مُجَدِّ، - قال سفري حين بقيا وحدهما شاعراً بالإهانة.
- لا يجوز الوثوق بالجنرالات الروس... يا لقباحة ما فعلوا بنا!! لا يكفي أنهم يمزقوننا، نحن أعراق الأديغة، بل دخلوا بين من ساندونا. نستحق يا حاغور، نستحق ما يفعلون بنا!!..

- لا تلم بافيل يا أمير، بذل كل ما بوسعه.
- ولماذا أعتب على بافيل في وجود الأقوى فوق رأسه!!.. - لم أعد مهتماً بعدم مصالحتهم لنا بل الخبث الذي تصرفوا به معنا. رمى الفرقة في صفوف الجيش الذي وضعنا أملنا فيه... لا شأن لنا يا حاغور بجماعة لاينسك مهما جرى بينهم.

- نعم يا أمير، نعم.
- أكَدِّ على بافيل ألا تتسرب منه كلمة زائدة. وسأصالح تيم الذي لا ذنب له البتة. ولكن هذا لا يعني يا حاغور أن ننسى موضوع الصلح مع روسيا. سنتابع مرة أخرى جيش لاينسك. وكانوا لمحووا لي أن النائب كانت له مثل هذه النية قبل أن يسافر إلى تركيا وقبل أن يرحلوه إلى الشام. أخشى أن تتصالح الأعراق الأديغية الأخرى مع الروس ونحن ندعو إلى وحدتها، فنبقى وحيدين في الساحة. برزج فقدت ثقتي فيه.

نطق سفري الكلمة الأخيرة كمن يكلم نفسه. ثم بدأت الأفكار المتضاربة تغزو ذهنه دون أن يعرف ما يجري. لم تكن هذه الأفكار جديدة عليه إذ لا تفارق ذهنه في الأشهر الأخيرة. بل إنه يحتفظ في ذهنه منذ الوقت الذي لمحوها فيه لفيليبسون بالمصالحة السرية مع روسيا برغبته في زيارة إنجلترا، وقد عبّر عنها لجيمس على نحو خفي، حتى إنه لم يصارح ابنه بها. وقد عاش إلى الآن يفكر في ما سيطره على مسؤولي إنجلترا، إن استطاع الوصول إليها، منتظراً جواب الروس، متمنياً أن يكون جواباً إيجابياً.

وانظر الآن ما جرى لنا! قال سفري. مارس معنا الجنرال فيليبسون خيانة مكشوفة لم نتوقعها البتة منه. وقد جعلهم يشكون فيّ وإن لم يصحّ تماماً. وإذا صحّ كلام لاينسك فقد تبين أن مُجدّ بيه بلا رجولة. يبدو أن هذه المساعي فقدت جدواها. وتركيا، تخشى من روسيا، ليس أن تساعدنا، بل أن تتكلم بصراحة في قضيتنا. ألا ترى ما فعلتُ بالنائب! استضافته، ثم فعلت به ما فعلت بي مرة فأرسلته إلى الشام. من بقي الآن في العالم يمكن أن يساند الأديغة؟ الأمور في الداغستان أسوأ مما عندنا. الجيش الروسي يحارب في جبالها. وأرض الشيشان صارت في قبضته. من أي جهة، باستثناءك أنت يا إلهي، يمكن أن يأتينا الدعم؟ بأي وسيلة سنسمع العالم صراخنا؟ لا بدّ، وإن لم أكن راعباً، من التوجه إلى الإنجليز!.. ليكون هذا التوجّه آخر صلوات لنا من أجل أن يسمعنا من في قلوبهم رحمة! يا إلهي، امنحني القوة لأستطيع تنفيذ هذه المهمة!..

- من الصعب معرفة من تثق به في هذه الأيام... - قال حاغور، ونظر بطرف عينه إلى سفري على يمينه، - وقال له قاطعاً أفكاره: - هل تعرف يا أمير ماذا قال لي ستانكيفيتش ونحن خارجان من الغرفة؟ من جلب له الورقة هو نيكراس رفعت!..

- أهذا ما لم يصل إليه رفعت بعد؟! - يا حسرتي يا تيم، أيها البائس، ما أسوأ الصبي الذي خرج من صلبك في الوقت الذي أفنيت نفسك فيه من أجل الأديغة!.. هذا لا يجوز، لا أحسد تيم، منذ سنوات يعيش تيم في قلق ولهفة من وراء هذا الولد، لا يخجل من أحد بل لا يردعه أن أخته كنتنا... .

في الثالث من كانون الثاني عام 1858 عُقدت جلسة محاكمة برئاسة العقيد تيوفيل لاينسك للبحث في قضية إيفان بانديا - دو - أييلوسفاليفا مُجدّ بيه، ضمّ الكابتن ستانكيفيتش بيتز، والملازم ماريكي يوسف ومارينوفسك يوسف وشتوخ فرنس، والضابط الأصغر إيلومديسك إيفان، والقيب إينوفسك أوتون، والعريف موتارسك سيمين، ورامي المدفع زافادس ليسار. ودانوه بتهمة الخيانة، وحكموا عليه بالإعدام كما العادة في ظروف الحرب.

لم يكن زانه سفرني يرغب في الظهور في قضية مُجَّد بيه ولكنه لم يستطع إلا أن يتدخل في الدقائق الأخيرة. حمل لاينسك الذي متحمساً لتنفيذ العقاب على إطلاقه بحجة أنه حرام أن يُقتل على أرض الأديغة. والله لن يقبل. وقبل انتهاء مهلة الأربع والعشرين ساعة التي حددوها له كان قد صار خارج إقليم الأديغة.

...

لم يبق مُجَّد أمين الذي أرسله إلى الشام السلطان التركي بعلم القيصر الروسي ألكسندر الثاني شهراً واحداً. عاد إلى إقليم الأديغة حاملاً وجد مهرباً، مضحياً بعدة جياد على الطريق.

- يا عجي يا مُجَّد أمين، أهلاً بك! - رَحَّب به أول فلاح لقيه على الطريق. - والله هذه رجولة منك. عبرت كل هذه الأرض وعدت إلينا!

- لماذا؟ هل تقارني بزانه سفرني فأبقى أعواماً حيث نُفيت؟ - عرَّض النائب بسفرني، ثم سأل: - ما الأخبار في نواحينا إن شاء الله.

- يا حسرتي، لا خير فيها. الأديغي البائس يُطحن بين حجري الرحي الروسية يا نائب. وصلنا خبر قبل وقت غير بعيد أن زانه سفرني توجه إلى إنجلترا. - وماذا سيفعل فيها؟

- من يعرف يا نائب ما في قلبه؟.. ما أعرفه أنا أمرٌ واحد: ذكور قطعان الغزلان تتناطح في الغابة، وقرع قرونها ييث الرعب في قلوبنا. لا خير يا نائب، لا خير! الرحي الروسية تطحن... نسيت أن أخبرك أن تسي حاترباي يرافقه. - ومن أيضاً؟

- هم ثلاثة يا نائب. لأريد أن أكذب عليك، لا أعرف الثالث. يذكرون اسم نيكراس تيم ولكن ما الذي يجمع المولود الروسي نصف الأديغي بهم؟.. جيمس بيل رابعهم، هو من يوجه رأس الثور.

- قلت لي جيمس؟ - سأل النائب عن الإنجليزي قائلاً في نفسه: ما الذي يجمع نيكراس إليهم ولكن دون أن يعير الموضوع اهتماماً زائداً. - نعم يا نائب، إن لم يرافقهم فمن يرافقهم غيره؟..

XI

كان الطريق على موفدي الأديغة صعباً حتى قطعوا البحر الأسود ووصلوا إلى إستانبول. ولم يقتصر الأمر على هياج البحر المعتاد في الخريف إذ لولا استفادتهم من ظلام الليل وسرعة السفينة التركية لكان صعباً عليهم الإفلات من سفن الرصد الروسية.

قال جيمس حالما خرجوا من السفينة:

- الآن انتهى الخطر بحمد الله. متى خرجنا من تركيا ووصلنا إلى فرنسا، وعبرنا بحر المانش فاعتبروا أننا وصلنا إلى إنجلترا. وأنا أعدّ نفسي دخلت إلى بيتي.

- هذا بيتك، - ابتسم نيكراس تيم، - ونحن؟

- كأنك ارتعبت يا تيم! - سأل تسي بطريقة لا تعرف أيمزح أم هو جاد.

- لا شيء من هذا يا حاترباي بفضل الله، - ردّ تيم جاهز تماماً، - أين سيهرب منا هؤلاء الأتراك أصحاب الطرايش الحمراء، والإنجليز الذين نسافر إليهم متجاوزين جيمس؟ أظنهم مثلنا نحن الأديغة؛ أليس كذلك يا سفري، ما رأيك يا أمير؟

سفري مع رفاقه هذه اللحظة جسداً فحسب. روحه وأفكاره عند السفير الإنجليزي وركفارت. بل تتجاوزه وتطير إلى اتجاه طريقه ولكن لا يعلم أين هو. لا يفارق البرلمان الإنجليزي مخيلته فيجعلك تتصور أنه يعرفه منذ أول عهده. فإن سمحوا له أن يتكلم فيه فبداية الخطبة وخاتمتها جاهزتان تماماً، وما بينهما، وهو المأساة التي اختلطت بها حياته سيجده بطريقة ما. سيقول له ما في قلبه حقيقةً تبعاً لإصغائهم إليه. سيُطلعهم على الظلم الذي يُمارس بحق الأديغة. وسيسمع صدى حزنه بقیة سكان العالم...

- هل قلت شيئاً يا تيم؟ - صحا سفري من أفكاره.

- والله لم أقل شيئاً يا سفري... أتعجب من العالم الذي جئنا إليه. ولم أكن أصدّق حين أسمع. سبحان الله، ما أكثر الجوامع، وما أعلى المآذن حتى لتُطاول السماء!.. بالله عليكم، اغفر لي يا جيمس أنت لا علاقة لك، أن نصلي في أحد أكبر الجوامع.

- لا تستعجل يا تيم، - يقول سفري دون قصد في حين أفكاره نحو جهة أخرى. - سنلحق بهذا أيضاً.

- سنتوقف عند الفندق القريب من مقر السفارة الإنجليزية، - يقول جيمس، - وقريباً منه أكبرُ مساجدِ تركيا الواقع في إستانبول. يتسع لبضعة آلاف من المصلين.

- سبحان الله، ما أكبره!.. - يتعجب تيم.

- كفى يا تيم، لم يقبل تسي، لم نأت إلى تركيا للصلاة... نحن على طريق إنجلترا. ففكر في ما أماننا!

- حقاً يا حاترباي، - لم يعاند تيم كلام صديقه إذ يعرف طبيعته، - ولكنني أنا وأنت، ليس سفري معنا، نضع قدمنا لأول مرة في بلاد إسلامية.

- حسب الظروف يا تيم... - يتراجع تسي مرتعباً مما جرى على لسانه. - سنتصرف تبعاً للظروف، ونقف أمام الله.

- طبعاً، يا حاترباي، لن يرضى عنا إن لم نقف في حضرته. - لا يغير تيم رأيه، يحب الكلام، ولكن العربة التي توقفت عندهم لم تدع له فرصة للكلام.

أفكار سفري هاربةً منه، تجري إلى الأمام غير عابئة بحال الدنيا بعد صلاة العصر. يضاف صمْتُ سفري إلى ما يشغل بال حاترباي. طريق البحر مرهق.

يخمن أن سفري متعب. ثم إن ما هو عجيب إلينا ليس لأول مرة يراه هو. قضى هنا سنوات من عمره مرغماً. وما التزمنا به فجأة ليس سهلاً. يا ربي،

هل يُشيرون إلينا مرة أخرى على عادتهم بتلك الإصبع المهينة؟ هل نعود خالي الوفاض حزاني ومن يسمع بنا يسخر؟ لا أدري إن فكر في الطريق وندم...

ليس سفري من أولئك الرجال!.. سأخرجه من أفكاره. يقول لتيم:

- والله يا تيم في إستانبول جوامع كثيرة واعتزشتُ على كلامك... لن نخرج منها دون أن نصلي فيها أحد الأوقات. سنريهم أننا مسلمون، وأنا في طريقنا إلى إنجلترا.

- ما تسميه أحد أوقات الصلاة يا حاترباي، - قال سفري كمن كان ينتظر هذه الكلمة، - لا تعليق لي عليه، ولكن إنسَ أننا ماضون إلى إنجلترا

موفدين. متى شُهرت مهمتنا عرقلتنا تركيا وروسيا.

- نعم يا أمير، نعم، - وافقه جيمس، - الوشاة هنا أكثر من المستمعين. أنا لن أدخل معكم إلى الفندق. انتبهوا إلى كلامكم هناك. غداً، بعد موعد الفطور، سنلتقي في المكان المحدد، وستتخذ طريقنا. وأنا سأجهز كل ما يلزمنا من أوراق.

- نعم يا جيمس، اطمئن!.. نحن في طريقنا إلى الحج. بلغ تحياتي إلى اللورد رادكليف. يحزننا أننا لم نوفق في اللقاء به. ماذا بيدنا؟ نعيش في عالم لا نملك فيه حريتنا.

- من هذا الذي ذكرت اسمه يا أمير؟ - سأل تيم بعد ما انصرف الإنجليزي.

- السفير الإنجليزي في تركيا.

- وهل يعرفك هو أيضاً؟

- ما تقوله يا تيم عجيب، - قال تسي بامتداح دافئ، - هل تظن أن سفري سقط من قمة شجرة فلا يعرفوه!

- دون معرفة اللورد رادكليف، ودون ورقة منه، - استعجل سفري مما يقال في حقه من مديح، واستلم الكلام من تسي الأبراهيمي، - لن يُسمح لك بدخول أراضي إنجلترا.

في اليوم التالي، حين ركب الموفدون الإنجليزي وظنوا أنهم اطمأنوا، سأل سفري جيمس دون اهتمام ظاهر:

- ما الأخبار حيث نساfer، ماذا ينتظرنا؟

- يمكننا أن نلتقي بالجميع إلا بملكة البلاد. - ابتسم جيمس راضياً.

- أخبرتنا خبراً جيداً يا جيمس إن لم يفعلوا بنا ما فعلوا بأجبه جيمبرس. - قال تسي، والتفت إلى سفري موافقاً.

ما قاله حاترباي بشأن جيمبرس صحيح. كان قد سافر إلى إنجلترا موفداً باسم الوبيخ والأبراخ. ودون أن يعقد لقاءات مهمة عاد بكيس مليء بالوعود. ومنذ ذلك الوقت فقد الأديغة الثقة بالإنجليز ولكنهم لم يستطيعوا إدارة ظهورهم لها بسبب الاضطرار. ولكن سفري أجاب بغير الحديث الذي شاع بينهم:

- كان مثلاً هذا أيضاً... ولكن الزمان الذي سافر فيه جبرس غيرُ زمان سفرنا. بل إن كل يوم يختلف عن سابقه. لا تيأسوا! ما حملناه الله حملنا. ماذا تساوي هذه الحادثة في بحر المآسي التي يعيشها الأديغة!

- هذا كلامٌ حقٌّ يا أمير،- يوافقه تيم ويعلق برأيه: - نساfer والخير في قلوبنا، سنفعل ما بوسعنا. ولن يؤاخذونا في ما لم نستطع.

- صحيح، ولكن كان الأفضل ألا نعود بحُفِّي حُنين. يُنهى حاترباي ما يريده، ثم يضيف: - والله كنت أَرْضى لو باعونا سفينة بارود مع بعض المدافع.

- اعتبرْ نفسك وقتها حققت مرادك! - يبتسم سفرْبي ثم يقول ووجهه المتورد يفقد لونه: - أتصور أن إسماع العالم صوت الأديغة أهمُّ من شحنة الأسلحة. لو كنت قادراً لنصبتُ سلماً إلى السماء وجعلت العالم يضج بمأساة الأديغة. وأفهمُّ يا حاترباي أن الإنجليز لن يعطونا شحنة البارود والمدافع التي أرفقتها بها بلا مقابل. ما رأيك جيمس؟.. ولكن اغفر لنا يا إلهي، لا يتورع المضطر عن شيء. نحن الأديغة ما من شيء لا نحتاج إليه. سنأخذ من كل من يعطينا، حتى من عدونا، لا نشعر بالعيب.

كان لجيمس وجهتها نظر في النقاش الذي نشأ بين الموفدين الأديغة. في البداية ابتسم في سِرِّه لِقول زانه إن أحداً لن يعطينا بلا مقابل. لم يبق في العالم مثلاً مضافات الأديغة المفتوحة لكل عابر سبيل، لا تسبِّغوا الظن بي، إلا لدى بعض الأقوام الصغيرة التي تعيش على طرقات السفر. وها أنا أعرف هذا من نفسي. هل هذا حسنٌ؟ حسنٌ إلى من يُخالطونكم ولكنكم تنفقون ما عندكم عليهم، وتبعثرون أموالكم. أهو رياء؟ لا، لا أستطيع أن أحكم بهذا! ما هو إذن؟ جوابي أنا على هذا السؤال حاسم ولكنكم لستم جاهزين بعدُ للجواب. أنت يا إلهي من يزرع هذه العادات في الإنسان ومن ينزعها عنه. يا رب مُدِّ في عمر الأديغة دون أن تؤذيهم صفاتهم الحميدة التي عرفتها فيهم من إنسانية وكرم وصدِّق طويّة!.. وأما وجهة النظر الثانية فماذا أقول لكم يا رفاق سفرْبي، يا أيها الأديغة الذين يقاسمونني لقمة عيشهم؟ لست ممن يسمعون أخباركم قبلاً عن قيل، بل أرى رأي العين. وجروحي في معارككم شهودي. في أي شيء أنا حرٌّ يا إلهي إذ أنفذ ما كلفوني به وأنا غير راغب فيه، خجلاً من السيِّر الذي

أَتَقاسمه معكم، فاغفر لي يا إلهي؟ هل أبوح بسرِّ إنجلترا - ما شأني بسرِّ تركيا - للأديغة الذين سافروا ارتجالاً، وأعود معهم؟ يا ربي اغفر لي ما خطر في البال. ما أشدَّ ما رغبت في أن أكون مستقيماً، ولكن، ولا شيء في الدنيا خارج علمك يا رب، لا يمكن أن تكون مستقيماً في هذا العالم. أتوسل إليك يا رب أن ترقق قلوب من سيقابلونهم وإن كنت أعرف أنهم لن يقدموا لهم شيئاً. ولْيُعطوهم سفينة البارود والمدافع التي يشتهونها! ولتجعل بلادي سنداً قوياً لهم لا يهاب الروس. هؤلاء أناس مستقيمون مخلصون سليمو النوايا مهذبون يستحقون أيَّ شيء تقدمه لهم، لو كنت مكان ملكتنا لساعدتهم دون أن أطلب المقابل، وما كنت خسرت الكثير، ولطلبت من العالم كله أن يساندتهم!..

قال تيم دون أن يعرفوا متى صحا، وقد بدا كأنهم نسوا الكلمات الأخيرة لسفري:

- لا تياس يا أمير، لا داعي لليأس بإذن الله.
- أهذا ما كنت تفكر فيه إلى الآن يا تيم؟ سألت تسي وقد نسي هو الآخر ما كان يفكر فيه.

- متى سافرت سفيراً طويلاً خطرت لك أفكار كثيرة يا حاترباي، وستذكر أموراً كثيرة. ها هو الأمير سفري يشعر بالنعاس لأنه لا يسافر لأول مرة. سنصل إلى مرادنا لأنه يقولون: من يسافر يصل. وسنعود إلى الأبراخ وما رأيناه لا تتسع أفواهنا لروايته.

- الأبراخ وحدهم؟

- لا، إقليم الأديغة كله.

- هذا مقبول أكثر يا نيكراس.

- هل رجعت إلى وحدة الأديغة يا حاترباي؟

- هذه في قلبي منذ زمن بعيد لولا أن النائب يعرفنا.

- أسلاي في إستانبول. - استعجل تيم وقد تذكر النائب، - لماذا لم نقابله؟

- وما الفائدة من الاجتماع به وقد امتلأت عمامته بدهن الخروف؟!

- لا تصرخ يا رجل، ستوقظ سفري.

- وهل يستطيع سفري أن ينام وقد سمع اسم النائب؟ ما رأيك يا أمير؟
- لست مخطئاً يا تسي، - ابتسم سفري وجفناه مغمضتان، وأسند جانب رأسه إلى جدار العربة.

قضى الموفدون الأديغة على الطريق سبعة وعشرين يوماً من إستانبول بالعربات التبادلية، ثم عبر مضيق المانش، وصولاً إلى لندن. ورشما عبروا شرق أوربا رأوا الكثير. وما حدث لهم ليس قليلاً. ولكن حين اجتازوا المانش ووصلوا إلى الفندق في لندن نسوا متاعب الطريق وبعض الحوادث المزعجة عليه. وما لا يعرف الموفدون الثلاثة تفسيراً له هو الضباب المخيم على المدينة. أضواء البيوت مشعلة حتى وقت الظهيرة. والعربات كذلك. والمراكب التي على النهر العابر للمدينة مضاءة.

- كنت عاندتك في تركيا يا نيكراس ولكن ما نراه في شيخوختنا عالم عجيب.
أليس عند هؤلاء شمس؟
- وكيف لا يكون عنهم؟
- أين هي إذن؟
- ربما لا توافق بين ليلهم ونهارهم.

- اسمع يا سفري ما يقول هذا الرجل! أظن عقل نيكراس داخله الفساد!
- لا أرى في تيم شيئاً من هذا، بل في كلامه شيء من الصواب. توقيتنا وتوقيت هؤلاء مختلفان ببضع ساعات. - الآن في نواحيننا، - يفتح سفري ساعته الفضية، - غربت الشمس. وأما هذا الضباب فلا تهتموا به، كنت سمعت أحدهم نسيت من هو، آه هو جيمس، يقول إنه سيزول في وقته، وستظهر الشمس.

- بإذن الله يا سفري، - أصلح تيم كلام سفري.
- طبعاً، لا شيء يحدث دون علمه.
- سبحان الله، - ينظر تسي واقفاً إلى النافذة بقامته المديدة، هاراً قبعته مع رأسه، - هذا العالم الذي جئنا إليه، لن يصدقه الأبراخ ولو رويانا لهم!..
نام رفاق سفري وما يزال الضباب فوقهم. فغفا حالاً من أرهقهم السفر الثقيل.

أول من أيقظته شمس الإنجليز في الصباح هو سفري. نظر فإذا بشمس الخريف الضخمة تطل مقابل النافذة. نادى رفاقه كي يوقظهم:

- أيها المزارعون، تحرمون أنفسكم من شمس إنجلترا!

قفز تسي من مضجعه، وأسرع إلى النافذة. ثم عاد منها ونبه تيم:

- هيا يا تيم، شمس إنجلترا الضخمة أشرقت... - ها هم الإنجليز لهم شمس أيضاً!

- أنا من زعم أن لا شمس عندهم؟!

- لا، لست أنت، لاحقاً... يا ربي هل شمسهم مثل شمسنا؟

تبادل سفري وتيم النظرات ومن وراء حاتراي وابتهما. وغمز تيم الأُمير، وقال لتسي:

- كفى يا رجل، أنت أيها الرجل العاري أترك النافذة، النساء يرونك!

- والله صحيح!.. - انصرف تسي خجلاً من النافذة، مُصالباً بين يديه،

وشرع يرتدي ملابسه. ثم غمغم وقد أعاده إلى حاله الكساء الذي سُرق منه في

باريس:- والله لا أعرف ماذا أفعل دون كسائي الأديغي؟.. هذا الذي لم يألّفه

الجسد كيف يحلّ محله!.. - تناوله ثم ألقاه على الكرسي، - أظني، ولا

تؤاخذوني يا سفري، أخيت مهمتي كموفد!

- لم تعتد على السترة يا حاتراي وإلا فهي... - بدأ الحديث يريد مواسة

الرجل الجسيم الذي لا تناسبه السترة ولكن حاتراي لم يدعه يتابع:

- وأنتما يا سفري اشتريا مثله حتى أتفق معكما... كفانا حديثاً في

الموضوع... وهل من الضروري أن نترافق ثلاثتنا! ليبق أحداً في الغرفة،

سنحافظ على ملابسنا على الأقل.

- الحق، - قال تيم، - ألا يمكن أن نخطط له كساء على مواصفات كساءينا؟

- كفى، - ابتسم حاتراي مدركاً ألا نتيجة لهذا النقاش، - حياك الله، لم نأت

إلى هنا من أجل كساء. هيا اشرعاً بأعمالكما! قولكما قولي. حان موعد

وصول جيمس. من يحتاج إليّ أنا؟ متى ودعتكما طفث في الشوارع القريبة ولو

أني أخرس. سأمتثل لأمر الله، وأسلّي نفسي.

لم يهدأ سفري وصحبه طوال ثلاثة أيام تقريباً. ووفى جيمس بوعده فأمن لهم مقابلات مع بعض المتنفذين في الحكومة. وصدف أن اثنين ممن قابلوهم يعرفان اسم سفري ونسبه. ولم يكن بينهم من ليس مطلعاً على قضية الأديغة. وحوّل إليه أنهما فهما ما قال لهما وأطلعهما عليه. وأملاه خيراً في مسألة السلاح والذخيرة والمدافع التي يرغب فيها. ووعداه ليس بسفينة ذخيرة وسلاح فحسب بل ببضع سفن. ومع ترحيب سفري بهذه الوعود فقد كان استنكارهم لما تفعل روسيا الدولة العظمى بالأديغة، ولحُبث السياسة التركية، كأهم يتكلمون من قلبه يساوي ألف مدفع. كان فرحاً إذ أن بعضهم يتفهّم قضيتهم.

ولكن ما يقلق سفري أكثر هو مقابلتهم المرتقبة للسكرتير الأول للملكة، كيف سيستقبلهم، وماذا سيقول لهم. كما أن خطابه في البرلمان يتوقف على موافقته. ارتاح سفري وحارباي وتيم للرجل النحيف الطويل الذي يصغر سفري بعشر سنوات تقريباً، والذي استقبلهم بوجه طلق. أجلسهم مقابله بصفتهم ضيوفاً، وتحدثوا بعض الوقت عبر المترجم جيمس. ومهما قال فما فهمه سفري على نحو خاص أمرٌ واحد: هذا الرجل، قال سفري، عنده معلومات عن قضيتنا أكثر من كلّ من قابلتهم. كلما بدأت بموضوع فهمه قبل أن أخيه. رجل ذكيّ فطِن. لا يتورع عن اتهام روسيا بكل شيء. يتحدث عن طموح روسيا، ليس لاحتلال أرضنا فحسب، بل لاحتلال أوروبا كلها.

- في هذه الأيام، - قال دوغلاس، - أنا مطلع على مقابلاتكم، وما قلتم وما قيل لكم. نحن نراقبكم منذ عدة سنوات. ونشيد بالبطولة التي تجتريونها أمام روسيا وأمام العالم كله، ونثمنها. ونساعدكم على قدر استطاعتنا علناً أو سراً. ولن ننقص مساعدتنا مستقبلاً كما وعدكم من قابلتموهم من مسؤولينا. ولكننا لا نود أن يعرف العالم بما نقدم إليكم لأن الموضوع يدخل في اتفاقية القرم.

الكلمات الأخيرة " لا نود أن يعرف العالم بما نقدم إليكم لأن الموضوع يدخل في اتفاقية القرم " أقلقث سفري. قال: لن يسمحوا لنا على ما يبدو أن نتكلم في برلمانهم، هذا ما يريد أن يقوله لنا بكلماته... كنا بادلناكم، لا سفينة واحدة، بل اثنتين وثلاثاً وأربعاً، بجلود الحيوانات لو عرفنا أننا سنذيع صوت الأديغة من برلمانكم. ولا يسمحون لنا أن نتكلم في مجلس تركيا كلاماً واضحاً

حرجاً من روسيا. متى ذهبنا صرفونا بإشارات أيديهم وهم يتلفتون حولهم خوفاً من أن يروههم. أتكون هذه نية هؤلاء أيضاً؟.. سأصارحه قبل أن يفاجئني:
- كان عندي رجاء لك يا سير دوغلاس. كان يؤدنا إسماعُ العالم صوتنا من برلمانكم.

- لا مشكلة إن كنت ترغب في التحدث في البرلمان أيها الأمير. قل ما تريد شريطة ألا تأتي على سيرة مساعدتنا لكم بالسلاح. لا قيود على الكلام عندنا، تكلم على روسيا وعلى إنجلترا، ولكن لا تقل ما يُهين الملكة!
- لسنا ممن يذمون مُضيفهم، غير أنني لن أقصر في حق قيصر روسيا. أنا جاهز متى طلبتم.

- نحن جاهزون من هذه اللحظة ولكن الأفضل أن نتفق على الساعة الحادية عشرة غداً. وأنا لي رجاء عندك. لا يجوز أن تتجاوز كلمتك الدقائق الست. أعضاء البرلمان نعطيهم خمس دقائق، وأنت نمحك دقيقة إضافية بصفتك ضيفاً.

- ما في القلب كثير، غير أننا لن نخالف النظام.
استقبل الموفدون الأديغة في الوقت المحدد في البرلمان الإنجليزي. وأجلسوا في المكان المخصص للضيوف. ليست القاعة كبيرة كما تصوّر سفري. لا يستوعب أكثر من مئة وخمسين. والمقاعد مفصّلة على استدارة القاعة. والأماكن الشاغرة ليست قليلة. ولما افتتح الرئيس الجلسة وتكلم على الأديغة وحرّهم لحماية أنفسهم، اتجهت العيون نحو الضيوف، وصقّوا لهم. ولما نودي على سفري للكلام نهض معه جيمس بيل للترجمة.

اتجه زانه سفري بثبات نحو المنبر. وتأمل الضيوف، ثم بدأ الكلام متمهلاً:
- أيها الرئيس المبارك الذي أعرب له عن احترامي وتقديري، أيها النواب الممثلون وجه إنجلترا. أرسلنا إليكم، نحن الثلاثة: تسي حاترباي ونيكراس تيم وأنا، عبر البحار والجبال والبراري والغابات والمراعي، الأديغة البعيدون عنكم، مع تحياتهم الحارة. الأديغة يتناقلون هذه الكلمة الصائبة: قبل أن تختار الأرض والبيت اسأل عن الجار! نحن لم نختَر روسيا جارة لنا، ولا هي اختارتنا. فرضت علينا الحياة هذه الجيرة. عشنا هكذا قروناً متجاورين حريصين أحداً على

الآخر. وطوال هذه القرون لم ينظر أحدنا إلى الآخر شزراً ولم يشهر سلاحه على الآخر. وعشنا في سلام رغم اختلاف لغاتنا وأدياننا وملابسنا وأطعمتنا وأغانينا ورقصاتنا. والآن لا نفهم نحن الأديغة الذين نعيش كالطيور الحرة ما حدث لجيراننا. وتركيا التي لم تكن مُلكها يوماً منحتنا إلى روسيا التي كان عليها ألا تقبل ما ليس لمانحها فافتحمت أرضنا. تحاربتنا، وتنتشر نظامها على أرضنا. وحين نواجههم بأن ما تفعلونه بنا غير مُنصف تمطرنا بوابل نارها. تحرق قرانا ومراعي مواشينا. ويفنى في الحرب أطفالنا ونساؤنا ومُسُوننا. ويسفكون الدم البريء في الجانبين. مضت علينا في هذه المصيبة، لا سنة ولا اثنتان، بل خمسون سنة. ومنذ زمن بعيد توقّفنا عن تشبيه الجار بالبطل في حال روسيا. الماتم في نواحيننا أكثر من الأعراس دون أن يعني هذا أن الأديغة كفّوا عن إقامة الأعراس وإنجاب الأولاد. عندنا كل ما عند الأعراق الأخرى من البشر، ولكن ما نفتقده اليوم هو الأمان والسلام. يدمر القيصر الروسي مقاييس العدالة. لا تشرق على العالم شمس كبيرة من أجل أن تبتلع الشعوب الكبيرة من هو أصغر منها. لا أقول لكم هذه الكلمات، يا من جعل الله يومكم مئة، لأننا خائفون. لم نأت إليكم مرتعبين، نفصل الموت على هذا. الأديغة، كبارنا وصغارنا، لا يرضخون للظلم حتى لو فُتوا. جئنا إليكم لنُطلع العالم على هذا الظلم. لا تؤاخذوني إذ يبوح المضطر بشكواه علناً، إن لم يعد القيصر الروسي إلى وعيه فسيفنى على يده الكثير من أعراق البشر. نحن الأديغة مصيرنا واحد: إما أن نموت وإما أن نكون رجالاً. وليس عندنا الآن غيره. ساجحوني إن بالغت في صراحتي واسترسلت في الكلام. عشتُم وشمسكم تُظلكم، ولا هموم لديكم، وأيديكم تصل إلى ما تتمناه نفوسكم، وبلاذكم في سلام، تعيشون مع أطفالكم سعداء وتشبخون معهم سعداء! وأنت أيها الرئيس المبارك - توجّه سفري إلى رئيس المجلس وحياء ويده اليمنى على جانب صدره الأيمن بإيماءة احترام، - مدّ الله في عمرك رئيساً مباركاً!

ضح المجلس بالتصفيق حين أنهى الوفد الأديغي كلمته. وأوصلوا سفري إلى مكانه في المجلس مع شارات الاحترام.

وفي اليوم التالي حضر جيمس إلى الفندق حاملاً كثيراً من الصحف:

- لم تبق صحيفة في لندن لم تنشر كلمتك في البرلمان يا سفري. و"اللجنة الشريكية" التي تألفت في البلاد تساندكم، وعدد أعضائها يزداد. تفقد الثلاثة الجرائد وإن لم يكونوا قادرين على قراءة ما فيها. ولا يزال تيم يتفقد الجريدة التي صفحاتها أكثر كأنه يتفهم ما لم يفهمه. ويقول:

- يبدو يا جيمس أننا لم نأت إلى هنا عبثاً. ما رأيك أنت يا أمير؟ رأيي أنك على صواب يا تيم.

- والله وهذا رأيي أنا أيضاً. وأنت يا حاترбай لماذا لا تقول شيئاً؟

- ولماذا لا أقول يا تيم؟ أقول هذا جيد. - التفت تسي إلى جيمس وابتسم، - ولكن لا أظن موضوع الأديعة في المكان الذي تبحث فيه يا تيم!

- ها، هذا رأيك؟ - وضع تيم الجريدة من يده سريعاً: - نعم يا حاترбай، كلامك صحيح، إن كنت جاهلاً بالإنجليزية حدث معك مثل هذا... هذه فيها كلام كثير. ولا يمكن للعقل أن يحيط بكل ما فيها. - ضحك وضحك رفاقه، ولكنه سأل يريد تغيير موضوع الحديث: - أسألك يا جيمس من زعماء هذه البلاد نجد عنده قولاً قاطعاً إن التقينا به؟

- في بلادنا كثيرٌ ممن تسأل عنهم، - لم يدعه جيمس ينتظر. ولكن في بلادنا ملكة واحدة يمكن أن تجد عندها طلبك.

- وهل تحكمكم امرأة؟ - قطع تيم كلام جيمس، ولم يجد من اللائق أن تحكم امرأة. - هذا يا جيمس غيرُ جائز. لا يمكن للابس قبة أن يقف على خدمة لابس غطاء رأس!.. والله لن يقبل بهذا.

- لا يمكن يا تيم أن نحاكم البلاد التي جئنا إليها بمقاييسنا الأديعية. - قال تسي، - لا تهتم بكون سلطانهم ذكراً أو أنثى. المهم أن يساندوا قضيتنا. وخطواتنا الأولى فيها ممتازة.

- لا تقصّر ملكتنا في هذا المجال البتة. - كان جيمس راضياً عما سمع. - وليس ما يجري بمعزل عن جهود "اللجنة الشريكية" التي أُلِّفت في هذه السنوات. وإحدى هذه اللجان في لندن تود اللقاء بكم هذا المساء يا سفري.

- حسناً، سنجتمع بهم. ونطلعهم على حال قضيتنا، ونشكرهم.

بعد تناول الفطور اصطحب جيمس الضيوف لتفقد معالم المدينة. دخل بهم إلى المتاجر، وصحبهم إلى السوق، ومروا بضفة نهر التايمز وهم يتعجبون من السفن التي رأوها عليه. ودخلوا الهايد بارك. ولما رأى تيم رجلاً يخطب من منبر على محضر من عدد من الأشخاص سأل:

- ما هذا؟ وماذا يقول هذا الذي يتكلم؟

- هذا هو؟ تعال نستمع إليه، - اقتربوا من الواقف على المنبر. وبدأ الناس يحتشدون. وقال جيمس: - هذا المكان مخصص ليقول أي شخص ما في قلبه. وبعد هذا سيتعاقب آخرون. وستتكلم بعضهم للتمرّن على الخطابة وللتنفيس عما في قلبه ولو لم يستمع إليه أحد. وهذا الذي يتكلم الآن ينتقد عمل البرلمان. يتهم أعضائه بإهمال قضايا عامة الناس، وإهمال مصالح من انتخبوهم، وعدم الاهتمام إلا بمصالحهم الشخصية.

صعد إلى المنبر غيرّه. يبدأ كلامه متمهلاً، شاداً قامته، ناظراً من فوق رؤوس الجمهور. ومع الوقت يرفع من نبرة صوته، ويتمسك بطرفي المنبر بقوة كأنه يخشى أن ينسلّ من بين يديه.

- هذا يتكلم في القضايا العالمية. - يترجم جيمس، - يناقش ما تمارسه إنجلترا في أنحاء العالم. وها قد خرج الآن من أوروبا، ودخل إلى أمريكا، ويستدير الآن إلى الشرق الأدنى. أظن هذا الرجل، تبعاً لطريقة كلامه، سيصل إليكم. نعم، يتكلم عليكم. يشبه سلوك الروس معكم بسلوك الأمريكيان مع الهنود الحمر. تسلبهم بلادهم، تحاربهم، تبيدهم. ونحن هنا نؤلف "لجنة شركسية" ولا نستطيع مصارحة من يهدم العدالة على الأرض. نجلس مكتوفي الأيدي. الشراكسة على حق، يحمون حريتهم وشرفهم. والصدق والنصر عند كل الشعوب التي تدافع عن حريتها وشرفها!..

- وأنت يا حاترباي قلّ شيئاً، - قال سفري، - لن نفارق هؤلاء دون أن نعرفهم من نحن. وها أنت ترى الجمهور يؤيد بالتصفيق من امتدحنا.

- ولماذا لا أقول إن كان مسموحاً لي يا سفري... تعال يا جيمس ترجم لهم إن كنت ترى الموقف مناسباً.

اقترب حاترباي من المنبر. ووقف جيمس إلى جانبه: - أيها الحاضرون، يا من أدعو لهم أن يجعل الله يومهم مئة، - بدأ حاترباي كلمته، - نهاركم سعيد. أدعو الله أن يتحقق لكم كل خير. نحن أديغة، وموفدو بلاد الأديغة. ومعنا رئيسنا الأمير سفربي. وقد ألقى كلمة في برلمانكم. ونشرت صحفكم اليوم كلامه. - حين سمع الحاضرون سيرة الأديغة صفقوا بحرارة. وصاح أحدهم: "عاشت حرية الشراكسة!" وصاح آخر: "ارفعوا أيديكم عن الشراكسة!" ووافقه غيره. وقال لهم حاترباي واضحاً يده على صدره مومناً بإماعة احترام خفيفة: - نقول لكم شكراً على ثقتكم فينا وتفهمكم إيانا. الأديغة يتناقلون القول المأثور: القليل ضعيف، ولكننا لا نعد أنفسنا ضعفاء. ونقول: من يُهَنُّ يلُق الوقت للانتقام، ولكن العجز عن الانتصار على الإهانة حملنا على الجيء إليكم فلا تؤاخذونا إذ سببنا لكم بعض الضيق. متى وقع الإنسان في موقف خطير لم يميز بين قريب وبعيد. روسيا، الدولة العظمى التي تمتد أطماعها إلى البلدان الصغيرة المجاورة لها، أغلقت في وجهنا سبل الحياة. تسلبنا بلادنا وحریتنا. تحاربنا منذ سنوات طويلة، وتنهبنا. قيصر روسيا لا حدود لأطماعه، ويهلك شعبه وشعبنا على يديه. نحن الأديغة نحمي حریتنا بقدر استطاعتنا. ولكننا عاجزون أمام الدولة ذات الجيوش والأسلحة الهائلة. تعدنا تركيا وإنجلترا وفرنسا، ولكن حين يصل الأمر إلى المساعدات الواضحة يسحبون أيديهم. يناورون معنا بالكلام والأوراق والوفود. ولكن ما يجب أن تصدّقه أمرٌ واحد: مهما جرى لنا فلن نتنازل عن حریتنا لأحد. ولن نجثو على رُكبتنا أمام أحد! إما أن نكون رجالاً وإما أن نموت! - حين أنهى تسي حاترباي كلمته وهمّ بالانصراف انتظر المصفقين ريثما هدؤوا. ثم قال لهم: - من عادة الأديغة أن يحملوا هدايا إلى حيث يسافرون، ولكن لا تؤاخذونا إن جئنا يدفعنا القلق الذي نعيشه، وهذا ما أفعله راضياً، - أخرج من جيبه حفنة من النقود الفضية ونثرها بينهم...

الكتاب السابع

I

لم يحمل العام الجديد 1859 فرحاً للأديغة.

لم يحصل الموفدون الأديغة إلى إنجلترا على جملة مفيدة سوى أنهم سافروا إليها، وتكلموا في برلمانها، وصفق أعضاؤه لهم. وتبعت التوفعات أيام أخرى. والأديغة أنفسهم، إن أردت الحقيقة، لم يكونوا ينتظرون أملاً مفاجئاً يلوح في أفق حياتهم. وكلما مر الوقت عليهم تمرقت أعراقهم، واندثرت من بينهم فكرة الوحدة. ومتى جرى الحديث عن الوحدة كان همُّ كلٍّ منهم حماية عرقه وأسرته، وتخلّوا عن فكرة الوحدة التي كانت بارزة في الماضي. ومضى عام على عقد آخر مؤتمر موسّع. والعداءات بين زعماء الأعراق أكثر من السلام بينهم. واجتماعات الزعماء أنفسهم قليلة بالقياس إلى السنوات الماضية. وحجمقوه أسلانج حبس نفسه في أرض البجدوغ تماماً. وتسي في قريته صائماً عن الكلام. ومن لا يهدأ هو برزج جراندوقوه. وحيثما توجه يتوسط بين النائب وسفري مصطحباً جيمس بيل. ولكن مهما بذل الإنجليزي من جهود لم ينجح بسبب تنازع الزعامات.

وعامة الناس الذين انقادوا وراء الزعماء وملّوا تتسرب آمالهم من بين أيديهم. ويضاف إلى الكثير من ضحايا القتال نفقات الجيش الباهظة. وزاد الوضع سوءاً بعض سنوات المحل. والناس الذين أُحرقت قراهم عاجزون عن تهيئة حياة جديدة لأنفسهم. ومن نجوا من الحرائق والتجّؤوا إلى غيرهم ثقلت الحياة عليهم وعلى مُضيفيهم. والفقر يجلب معه الملاريا والجذري وأمراض الحلق. وكوليرا العام الماضي أفنت قرى كاملة ولاسيما في الأبراخ والشابسغ. وأوبئة الحيوانات أهلكت الكثير منها.

كلما تقدم الجيش الروسي العابر لنهري بشره ولابا تراجع سكان الريف الأديغة وهم يقاومونه. يلجؤون إلى الجبال والغابات. وليس وضع الأديغة الساحليين من شابسغ وناخووي وويخ أفضل. تتزايد أعداد السفن القادمة إلى الساحل يوماً بعد يوم. وإذا كان جنودها لا يترجلون فإن القرى القريبة من الساحل لم تنج من قصف مدافعها. والإقليم الأديغي المحاصر من كل الجهات بلا مدخل

ولا مخرج يعجّ بالناس. واليوم القادم لا يحمل جديداً، يغتال حياة كثير من الناس في كل ساعة بل كل دقيقة، ويتبدد معه البارود، ويخسرون طلقات المدافع، ولا يبقى لهم إلا السيوف والخنجر. ونادراً ما تغلت السفن القليلة جداً التي تنقل السلاح إلى الأديغة من رقابة سفن الحراسة الروسية. والطريق الوحيد إلى الأبخاز مقطوع. وانقطع كل رجاء من جهة الداغستان. ومنذ سنة لم يرد منها خبرٌ واضح. وإن وصلهم خبر شارد ارتدّ إلى مصدره محوَّراً مئة مرة.

ومع أن الأبخاز رحبوا بمحمد أمين الذي غاب عنهم أكثر من شهر فقد كان في بلادهم كثير من المهمات والأخبار. وكان من أعجب ما يُتداول بلا ملل طريقة قتال لايننسك. ولا تتأخر عنها في الغربة العلاقة بين زانه سفري وقائد الفرقة الأوربية؛ فرغم أنهما يقاتلان معاً فالريبة التي نشأت بينهما بعد قصة مُجّد بيه لم تنقص إن لم تزد. يقول سفري: ما شأنه إن كنت سأحارب الروس أم لن أحرّهم، وإن كنت سأصلحهم أم لا. والآخر يعترض عليه بأنهم "جاؤوا لحماية الأديغة وللحرب من أجلهم" ومهما اختلفا غفر أحدهما للآخر في ساحة المعركة.

والرأي في الناختوي والشابسغ والأبخاز في الموضوع مختلف. في السابق حين لم تكن الجيوش الروسية تؤذي الأبخاز كثيراً لم يكونوا مهتمين بمحاربة جيش لايننسك في أرض الناختوي. يكفي الأبخاز بأن يقولوا: جنود لايننسك يحاربون في الناختوي، يمدّونهم ويستنزفون خيراتهم. والآن حين احتشد الجيش القيصري قريباً منهم اختلف موقفهم من جيش لايننسك. يتهمون مُجّد أمين بأنه السبب في احتفاظ زانه سفري بقوات لايننسك وحجبها عن الأبخاز؟ وتخطّوا مرحلة الهمس من وراء النائب إلى مصارحته باستيائهم. ولا يكفي العاقبة بإدانة النائب بل يضمون إليه زعماء الأسر المتنفذة. ومتى زارهم جيمس قطعوا عليه الطريق بعثاتهم.

وليس عامة الأبخاز وحدهم، فالوبيخ والشابسغ على الساحل ليسوا راضين. المكتوون بالنار القادمة من جهة البحر يتكلمون بصراحة كما يقال: إن من احترق بالحليب ينفخ في الماء. والودّ الخفي الذي كانوا يُكْتَوْنه لسفري تنقطع روابطه. وينضم إليهم بعض رجال الضابطة وبعض المتنفذين.

- هذا الوضع يمكن أن تستغله لصالحك أيها النائب، - قال جيمس.
- نظر مُجد أمين إلى جيمس، وبطرف عينه إلى جمه جبريل.
- في كلام الضيف نصيب من الصحة أيها النائب، - وافق جمه جيمس.
- يمكنك أن تستفيد من الشابسغ والويخ الذين يعيشون في طوابسه لتحاول أن تُنسي سفرني موضوع الصلح مع روسيا. - كرر جيمس ثانية على نحوٍ أصرح. ثم أضاف بعد قليل: - ويمكنك أن تفصل برزج عن زانه. وستؤيدك جماعة نيكراس تيم.
- لا أعرف برزج ولكن سيكون من الصعب شق نيكراس تيم عن قريبه... - ابتسم مُجد أمين وهو يماطل في الكلام دون أن يحدد ما سيقوله. ثم تفحص بعينه السوداوين الصافيتين الحادثين جليسيه مرة أخرى. وبشّ لهما كمن يقول: استمرا في الحديث إن لم تتعبا.
- وما أهمية نيكراس تيم يا نائب!.. أوصلوا جمه إلى الموضوع الذي يريد. - لولا احترامي لك يا نائب لعرفتُ ماذا أفعل بنيكراس تيم سليل الكفار. لا أثق فيه!.. آواك في بيته مجبراً؛ أكان يقلع عينه أمام الأديغة. فكّر في أن الأبراخ لن يُيقوه حياً لو حدث لك مكروه، لا سمح الله... أظن أن ابن الكلب والخنزير هذا خائن وعبد للروس ولآل زانه...
- أظنّ إذن يا ضيفنا أن عصر زانه ولى؟ - سأل مُجد أمين غير عابئ بثرثرة جمه.
- لن أبلغ إلى هذا الحد يا نائب!
- ماذا إذن؟
- لا أقول إن زانه فقد جذوره في إقليم الأديغة، - تابع بيل حديثه الذي قاطعوه، - الناختواي والشابسغ والويخ يدعمونه. ويذكرونه بالخير في البسلني والقبرتاي.
- ولا تنس بضع القرى من آل تسي في الأبراخ العليا، - أضاف مُجد أمين إلى ما يسرد جيمس.
- الزعيم تسي لا يُطبقنا... - لم يستطع جمه إلا أن يشارك.

- ويمكن أن تجد بين الأبراخ من يودّ زانه. - تابع جيمس كلامه، موافقاً
النائب، غير مهتم بكلام جمه، - ولكن هذا لا يعني أن الأمل الذي كانوا
عقدوه عليه ما زال يتسع في إقليم الأديغة. لم يحقق الأمل الذي توسّلوه في
شخص سفري أمام الأديغة بادئ الأمر. بدؤوا يأخذون عليه إقامته الطويلة في
تركيا خلال سنوات الحرب الطاحنة ضد روسيا.

- وهل الذنب ذنبه إن احتجزوه رغماً عنه؟ - لمح النائب دون أن يُفصح تماماً
عما في القلب.

- وأنت كانوا نفوك رغم إرادتك إلى الشام، غير أنك أفلت منهم... - حمل
النائب جمه على أن يقول ما يريد به بعينه.

- وهذا مما يرفعونه في وجه سفري، - جيمس مرتاح لتأييدهما له. - ومن ناحية
أخرى هُرم سفري، ولم يعد عقله وصحته يتحملان مسؤولية القضية الأديجة.
ويلاحظ الناس عليه اهتمامه الزائد بمصالحه الشخصية. والأمر الثالث، وهو في
رأبي أهمها، رغبته في مصالحة روسيا دون استشارة بلاد الأديغة.

انتفض قلب مُجد أمين لما سمعه، ولكنه أخفى انفعاله. قال: بآراء من يا ترى
يتكلم جيمس؟ إن كان هو صاحب هذه الآراء فالأمر مختلف. رأيه هو مختلف
جداً. ولا ضرورة للسؤال عن سوء الأحوال في الداغستان وإن كانت الأخبار
الواردة عنها قليلة. تشهد على هذا، لا الصحف الروسية فحسب، بل
الإنجليزية والفرنسية والتركية. والصحف الصادرة في روسيا تتضمن الأخبار
نفسها. وفي كل شهر تزيد الجيوش والأسلحة التي يحشدونها على حدود إقليم
الأديغة. وقد رأيت بعيني حين عبرتُ قبل أيام مضيق قُجُس، جهة ما يقواب.
وليس سفري على ما تصفونه تماماً من قصر النظر؛ تفكيره أبعد مما تظنان.
وأخمن أنه لم يعد يريد لا ينسك ولا جيشه. وماذا يمكن أن يفعل هؤلاء؟
يتصدّون للروس مرة واثنين وثلاثاً، وبعدها؟ ومن عندنا بعدهم يمكن أن
ينفعنا؟ كلنا، ونحن منهم، نحبج الأديغة على قتال الروس ولا نفكر في حلّ
لقضيتهم. ما ذنب الفلاحين الفقراء؟ المذنبون هم الزعماء من أمثال زانه وتسي
وحجمقوه. وأنا أين أفارقهم، وإلى أين، وإن كان هؤلاء لا يحسبون حسابي.
يبدو أن زانه، إن كان يفكر في مصالحة الروس، قد فهم تماماً الوضع الحقيقي

للأديغة. ونحن أيضاً مصيرنا مصيره ولكن لا نعرف كيف ستكون نهايتنا. لو عرفنا حقيقة الوضع في الداغستان ونوايا الإمام شامل لأصبحنا أكثر حرية في ما سنفعل... وجهه جبريل هذا رفعتُ الكلفة بيني وبينه فلا يعرف الانصراف من حيث يحلّ. يمنعنا من الحديث بحرية. وجيمس لم يذعُ فينا خبر زانه إلا لغاية في نفسه. إذا كان وضعُ زانه بين شابغ طوابسه والوبيخ هكذا فلا جدال أنهم أيقظوه. وليس قليلاً ما أبعدني هو عن برزج وحجمقه في الأوقات المواتية لمشروعِي. ورمى بيني وبين تسي عداوة لا مخرج منها. وجعل البسلني ينظرون إليّ شزراً.

- متى قلت لي يا جبريل إنك ذاهب إلى محكمة جَعُف؟ - فتح مُحمَّد أمين ساعة الجيب الفضية ونظر إلى الوقت.

- والله تجاوز الوقت الظهر، - نهض جبريل للانصراف.

- بلّغ الضابطة باسمي ألا يظلموا عامة الفلاحين، - صاح النائب في أثر جمه، - يجب تجهيز طعام الجيش. سيتلو الربيعُ الرطب الشتاء. نرجوكم ألا تضطرونا إلى مدّ أيدينا طالبين تقديم ما عليكم. - تابع النائب أفكاره منذ صار جمه خارج الغرفة. والله يا جيمس، جمه هذا مجرد هيكل شخص في قالب، وما كنت أريد أن أقول هذا صراحة... ثقل الظل، يحثم أمامك فيظل يتأملك كالكلب، ويجلس يدفع الذباب بذقنه. لا يترك لك مجالاً للكلام يا مبارك النسل!.. نعم يا جيمس وأنا مهموم بما سردت. أعرف أن الشابغ العليا ووبيخ منطقة شَجِبْشِه يعارضون سفري. وكنت خالطتهم قبل أيام، يودّون عقد مؤتمر للوبيخ.

- يريدون إشراك الزعماء فيه، - وافقه جيمس.

- نعم، وأنا لم أعرقلهم، وافقتهم. ما إن يطل الشتاء حتى يلموا شمل المؤتمر. ولكن أود أن أسألك يا جيمس: ما رأيك في مسيرة قضية الأديغة إلى نهايتها؟

- لم يصل الأمر إلى هنا يا نائب. لا تياس!

- لا يأس بوجود الله، ولكن أمورنا ليست بخير مع ذلك. وأظن الأمل انقطع في بلاد الداغستان. أنت وأنا لن نلعب لعبة الغميضة، وستبادل ما في قلوبنا. ليس سعْيُ زانه إلى مصالحة الروس دون أساس. وأنا أفكر في الأمر كثيراً في

الأشهر الأخيرة. روسيا ستحتل إقليم الأديفة إن عاجلاً أم آجلاً. ليس هذا قابلاً للشك.

- يا نائب إن كان هذا موقفك فماذا ستكون مواقف غيرك. - سأل جيمس بصوت واثق ولكنه غير قاسٍ.

- ألم نتفق يا جيمس على الصراحة؟

- لماذا تتجاوز الداغستان وتهتم بأمور الأديفة؟ عبّر جيمس عما في قلبه حقيقة عن طريق السؤال، وأضاف مشيراً بيده بما يعني أنني لم أُنهِ كلامي بعد: - لا تقل لي إنك تحب الأديفة أكثر مما أحبهم، وأنك قلق عليهم أكثر من قلقي.

- لا يعني تعبيرك عما في قلبك يا ضيف أن تخاطبني بهذه اللهجة، - لم يُظهر مُحمد أمين عدم رضاه عما قيل له، - من يمكنه أن يتكلم معي بهذه الطريقة على حدّ علمي هو شخص واحد بعد الله، ليمدّ الله تعالى في عمر الإمام شامل!

- ساحني يا نائب، ما كنت أريد أن أسيء إليك... وعلى كل حال سننفذ، نحن الاثنين، ما فرضه الله علينا. لن نتخلى عن الأديفة في أخرج أوقاتهم.

...

استمع سفري إلى كل من تكلم في مؤتمر طوابسه الذي يساهم فيه الأبخاز دون حمية أو توتر رغم علمه منذ الساعة الأولى أن كلامه غير مقبول.. لا خطأ في أقوال العامة، كل من قدّموا مداخلاتهم كان همّهم حماية شرف الأديفة ووجههم.

ولكن سفري همس لجيمس وعينه على النائب خفية:

- لا أعرف سبب استياء عامّة طوابسه مني، ومعهم عامة الويخ، وإن لم يأتوا على اسمي.

- وأنا أستغرب هذا يا أمير، لم توفّر جهداً في سبيل الأديفة... أظن أن شيئاً ما يجري في هذه القضية. ألا ترى النائب ما أشد سروره؟

- أرى، ولكن إن كان هو السبب فهو مخطئ.

- ربما، ولكن ما أفكر فيه شيء آخر... - همس جيمس في أذنه ثانية دون أن ينهي كلامه، وأضاف بعد قليل: - هل تسمع أيها الأمير؟ لا يقبلون فكرة المصالحة مع الروس.

وبعد قليل لم يُطِقْ حاغور صبراً:

- كان علينا ألا نأتي إلى الشابسغ الحكوف يا أمير... هؤلاء، وهم المعتدون بمنعة جباهم، لم يَحْبَرُوا الحرب بعد...

- أنا لا يهمني الحاكوف، ما أستغربه هو طريقة كلام الوبيخ. قال سفري مُسمِعاً برزج أمير الوبيخ، ثم توجه إليه مباشرة وسأله: - أيُّ عتبٍ للوبيخ علينا يا أمير؟

- لا تعتب علينا يا أمير بوجودي إن كانوا أنطقوا بعض وبيخ منطقة شَجِبْشِه بعض الكلمات. هؤلاء صدى لآذان النائب!

- والله لا أعرف إن كان السبب هو حماية الناخوي للوبيخ الذين من ورائهم مجاهدين الروس... إذا كان هذا ما وصل إليه الوبيخ والحكوف والأبزاخ فسأتنازل لهم عن جيش لا يينسك. لم أسلبه من أحد بالقوة.

- بحقك يا أمير لا تعتب علينا إن كانوا فرضوا على أحد أن يقول ما ليس في قلبه... - قال برزج، ثم حثَّ حصانه وانطلق إلى وسط الساحة: - أيها المؤتمر، اسمعوني!

لم تتوقف جماعة سفري عند الحكوف رغم قدوم المساء، وانطلقوا في طريقهم ومعهم برزج الذي لم يسمع المؤتمر كلامه مثله مثل سفري. وفيما هم يلتفتون إلى الساحل وفي أذهانهم وخواياهم ضجيج المؤتمر أشاعت أفكار برزج الجديدة الغضب في الجماعة، وتكلم مشيراً برأس السوط إلى السفن الروسية: - انظروا يا جماعة إلى هذه السفن كأنها لن تتعرض للحكوف!.. نحن ننادي بالوحدة من أجل أن يحمي بعضنا بعضاً، وهم يميلون إلى جهة النائب - الأبزاخ... أتساءل ما الذي جرى هؤلاء؟ ووبيخ منطقة شَجِبْشِه؟ كلبٌ من عضّ هؤلاء؟ لماذا هم متوترون؟ أنا سأخالط هؤلاء ابتداء من الغد!.. بالله عليك يا سفري ألا تعتب علينا من أجل ما سمعت في المؤتمر!

لم يردّ سفري. وبعدما مشوا مسافة لا يصدر منهم إلا وقع حوافر الخيل أجاب قرباتر بدلاً من والده:

- لن يعتب عليكم والدنا يا جراندوقه إذا كان الحكوف - الوبيخ - الأبخاخ برهنوا مرة أخرى في المؤتمر على الفرقة الأديعية. ليس أول مرة يسمع فيها والدنا وأنت وأنا مثل هذه الآراء.

- نعم يا قرباتر. - يؤيده برزج - نصطدم كل يوم بوتد أديعي لم نألفه.
- أفكر فأقول: ما أعجب تركيبة الأديعية من أشخاص متنافرين!... - يشارك حاغور في الحديث مأخوذاً بالإهانة التي لحقت بهم. - هذا يقول: سنحارب حتى يسقط آخر سيف من أيدينا، والآخر يدعو إلى المصالحة، وغيرهما يحذق في فمك غير عابئ بشيء. والآخرون صعبٌ أن تعرف ما في قلوبهم!...
- كلُّ هذا يا حاغور، - الآن فقط ساهم سفري، - نحن المسؤولون عنه. وأضيف إليه تغلُّل الأغراب كالنائب بينهم فقسّمنا الأديعية إلى أعراق بدلاً من أن نلحمها في شعب واحد. ما علاقة النائب ولايينسك والترك والإنجليز والفرنسيين بنا؟ كلهم يقودوننا وهم يخذعوننا!.. كان علينا أن نصالح روسيا قبل زمن بعيد، وما كانت ستأكلنا!.. ها هم البجدوغ والجمكوي والقبرتاي صالحوهم، يعيشون دون أن يسقط أحد منهم...

II

- سمعنا يا أمير أنك لم تعد محتاجاً إلينا، - هُرع لابينسك يوماً إلى سفري، - أودّ معرفة حقيقة الأمر.

ابتسم سفري.

- ما أسرع ما أوصوا إليك ما قلت في ذاك اليوم!...

- لا سرّ في إقليم الأديعية يا أمير.

- لا سرّ في ما قلت.

- ما وصلني صحيح إذن.

- صحيحٌ صحّةً يومنا هذا، - لم تختلج عضلةٌ في وجه سفري.

- عجيب ما يجري بيننا.

- عجيبٌ ما يحدث بين الأديعية كل يوم.

- إن كان هذا رأيك يا أمير فأخبرنا بماخذك على جيشنا.
- لا عتب لي عليك ولا على جماعتك، لم تألوا جهداً. حياكم الله. لم تكن الحرب علاجاً لأحد. علينا أن نفكر في المخارج.
- إن كنت تعدّ الصلح مع الروس مخرجاً أيها الأمير فأنت تقود الأديغة إلى طريق خاطئ.
- لم أذهب إلى أحدٍ ينصحي في ما سأفعل. - نظر سفرلي إلى محدّثه خفية بعينين زرقاوين صافيتين متوهجتين.
- سأمحي يا أمير، لم آت إليك وفي ذهني مثل هذه النية. ومع ذلك فما يجري لجيشنا في الناختواي معيب. إن كنتم لا تريدوننا فموفدو الأبراخ والشاسبغ في طوابسة لا ينقطعون، سنتجه إليهم.
- وهؤلاء أليسوا أديغة؟
- نعم أديغة، ولكن رأي زعيم هؤلاء مُجد أمين مختلف.
- هذا ما يدفع الأديغة إلى أن يقولوا: دخل الكلب الغريب فطرد كلب الدار.
- نظر قرباتر في وجه والده يريد أن يحذّره من عواقب ما يقول.
- أهنتني يا أمير، - احتدّ لايننسك.
- لا أقول ما لا يجوز إن كررث القول الأديغي المأثور أيها الضيف. - لا يبدو إلى الآن أي مظهر للانفعال على وجه سفرلي. - أنت تعدّ القول موجهاً إليك ولكن النائب لا يعدّه إهانة. يدّعي أنه أديغي في الوقت الذي يجعل الأديغة فيه يعيشون كل يوم في الهمّ. هل يلاحق ذيل الحصان بعدما أفلت رأسه؟! كم قلت له أن ينصرف إلى "أفنديته" ولا يهدم وحدة الأديغة!..
- لا أذكر أن الأديغة كانوا يوماً متحدين.
- لست على خطأ. انتزع منا الأبراخ حين بدأنا في توحيدهم. والآن يخدع الحكوف، وجانباً من الوبيخ. ينصحهم أن يحاربوا ويمنعوا تقدّم الروس. صلى بضع مرات في الشام وأسرع عائداً ليقول لكل من يقابله "لست زانه سفرلي فلا أعود إليكم"، معتبراً عودته بطولة. ولو كان للحكوف شعور بالاعتزاز لما قبلوا أن ينصبّ عليهم العبد التركي الوحيد الذي جاء به من الشام رئيساً لمحكمتهم. ما اسم من عيّنه رئيساً للمحكمة يا قرباتر؟

- الحاج حسن.
- ها هو الأمر! - ابتسم سفري، - أضاف النائب إلى اسم العبد لقب الحاج ولو لم يصل إلى الكعبة لأنه أمسك زمام حصانه... هذا هو السبب، - تنهد سفري بثقل حتى لم يعد يرى شيئاً أمامه. - في أنهم قالوا: إن طال عمرك رأيت قطعاً حاجاً!.. - جلس ذاهلاً مدة ثم عاد إلى وعيه: - قليلون من يفهموننا ويشفقون علينا. كلهم يريدون أن نحارب روسيا من أجل مصلحتهم.
- لا مصلحة لنا في أن نحارب الروس... - غمغم لاينسك موجهاً الحديث إلى قرباتر على نحو خاص.
- لا تعتبر كل ما يقال موجهاً ضدك أيها الضيف. - أنت تقول هذا ولذا سأصارك بما في قلبي. لا أعرف أحداً دخل إلى إقليم الأديغة دون مصلحة له. لا تتعجل الأمور أيها الضيف، لا تتعجل، - هم لاينسك أن يقول شيئاً ولكن سفري أشار له بيده، فقاطعه، - ألسن بولوني الأصل؟
- نعم، وأفتخر.
- أليس أكثر زملائك بولونيين؟
- نعم بولونيون...
- لماذا إذن لا تحرضون البولونيين في بلادكم فتحاربوا روسيا؟ لو فعلتم لقل عدد الجنود الروس الذين يحشدونهم على حدودنا... أنت تقول: لا مصلحة لنا، وبذلك يخدع النائب الأبراح. وليست نوايا الترك والإنجليز والفرنسيين، دغك من إمام الداغستان، نحو روسيا مختلفة.
- نحن يا أمير لم نأت إلى إقليم الأديغة رغماً عنكم، بل بناء على رجائكم. - لا يتراجع لاينسك حامياً نفسه.
- من أين جئتم أيها الضيف؟
- من تركيا.
- هل يمكنك أن تضع أمامي ورقة تثبت زعمك؟
- ليس بيننا مثل هذه الورقة.
- ماذا إذن يا ضيف؟
- ألم نتفق شفهيًا؟

- متى جرى هذا؟ جرى قبل أن تبدأ حرب القرم. ماذا انتظرتُم إلى الآن؟ أظن أن ما سيجري للأديغة المتنافرين قد جرى وانتهي أيها الضيف...
- لم يصل الأمر إلى هذا الحد يا أمير.
- لماذا ننتظر فناء الأديغة بعيون مفتوحة؟
- فهمتُ يا أمير، فهمت. كان الزمنُ المناسب لأن أفكر في الأمر عصرَ مُجدٍ بيه.

- وأنا فوّتَ مناسبات كثيرة للتفكير، ولا أستطيع استرجاعها. هذه حال الدنيا: الأخطاء تظل تفتّح عينيك، وتندم على ما فعلت، فتجعلك تعيش حياة الإنسان المحدودة كليله صيفية قصيرة. إن لم يكن في قلبك نحوي غيرُ هذا فلنختتم حديثنا الخاص على هذا النحو.

- أفهمتني يا أمير على المائدة كثيراً مما لم أفهمه في سنتين. حياك الله!
- هيا يا قرباتر شِيعوا الضيف إلى ظاهر القرية. - نخض سفري متحاملاً على مفاصله المتعبة، ومد إليه يده. - مع السلامة يا تيوفيل، لم نتحاور اليوم إلا في العتاب المتبادل. وإن تصورت أننا تكلمنا في غيره ففي مأساة الأديغة. فكّر: الأفضل لكم أن تنجوا بأنفسكم دون أن تعلقوا في فوضى الفرقة الأديغية! لم يُجرِ لا بينسك جواباً، ألصق كعبي جزمته أحدهما بالآخر على الطريقة العسكرية، وأوماً إيماءة احترام لسفري وانصرف.

يذرع سفري الآن أرض الغرفة ويداه خلف ظهره إذ شعر براحة جسده عقب إفضائه بما في قلبه. الفكرة تغلبها فكرة أخرى. لا يترك شيئاً لا يصل إليه منذ شبابه إلى الآن. تذكر العقيد روزيفيتش. والآن يعترف بجاحته في بضع السنوات الثقيلة الماضية إلى الجنرال غزار الذي استقال من الجيش واستقرّ في كيرش، ولو أنه كان يخدعه أحياناً. وحين يدخل في ذكريات الإقامة في تركيا يهز برأسه. ويشعر بالارتياح إذ خرج من هذه الأفكار وتحدث إلى لا بينسك بصراحة. وقد فهم ما قلت بشأن النائب. وهذا هو واقع الحال. ألم يحنِ الوقت ليصحو هؤلاء الذين توافدوا إلى إقليمنا كالجراد؟.. يرمون في مركب الأديغة الواقف على البركة فيُغرقونه. ومن هم؟ هم سيقفزون منها ونحن من سيقرق!.. لم أقدم أي معروف للأديغة، والقليل الذي فعلته من الخير واضحٌ أنه بلا فائدة. ولكن، والله

شاهدي، لم يكن في قلبي إلا الخير للناس الذين أنتمي إليهم. وإن ارتكبتُ أخطاء في كلامي أو في أفعالي فأظنها في غمرة فعلي الخير للأديغة. كان بودي أن أُشيع التفاهم والوحدة بين الأديغة فلم أُفلح. افهمني يا إلهي واصرف عني عتاب الأديغة. هربت وأنا غارق في أفكاري بشأن الأديغة، واستنزفتُ فيها قواي. لا تدعني أخطئ في ما تبقى لي من سنوات أنت أدري بتعدادها. يكفي ما سال من دماء الأديغة. وكفى ما تعاقب على أرضنا من سنين وليس فيها إلا مأساتنا. إن كانت الرجولة هي الهدف فقد أخلصنا لها كل هذه السنوات، وحمينا بها الشرف الأديغي. وإن لم يبق على الأرض إلا أديغي واحد فأنا لا أشك في أنه سيظل مخلصاً لها. ولكن من الصعب مجابهة هذه الدولة الكبيرة ذات التعداد الكثير بالرجولة وحدها. لم ندخر جهداً، ونحن أمامك وأمام العالم على حق. اشحن قلوبنا بالخير وبالقوة على مصالحة الروس. يا إلهي لا تدعني أندم على ما أقول وما أفعل. ورق قلب روسيا التي انتهكت براءتنا!

قطع الباب أفكار سفري.

- هذا أنت يا ولدي؟ - سأل سفري ابنه، وبشّ له كأنه لم يره منذ زمن بعيد.

- ما أحسن ما فعلت يا قرباتر إذ رجعت! صرنا الآن في موقف علينا أن نتصارع فيه بما في قلبينا. فاسمعي يا ولدي.

- يا والدنا، إن كنت ستتابع ما قلت للابينسك، - قال قرباتر مدركاً ما في قلب والده، - فأنا لا أؤيدك.

توقف سفري على أرض الغرفة بجسد ضخّم ثقيل. واستدار دون أي اهتمام.

ونظر يريد معرفة صحة ما سمعه، وسأل:

- هل صارحت من ودّعته بما في نفسك نحوه يا ولدي؟

- لو كنت أريد يا والدنا إطلاع لابينسك على ما في نفسي لشاركتكم في الحديث...

- حسناً فعلت يا أمير. الآن أسمعك، عزّفتني ما الذي لم يعجبك.

- سأقول لك يا أمير، - أبرز قرباتر لقب والده، مثمناً كلامه هو أيضاً، - لا أوافقك على مصالحة روسيا. وإن سمعت كلامي ما سمحت لك به.

- اشرح لي يا ولدي لأنه مجرد كلام.

- أود ألا تتحمل وحدك مسؤولية الصلح مع روسيا. لا يجوز أن يتحملها زانه سفرني وحده، الأديغة لن يوافقوه عليه.
- أسمعك يا أمير، أسمعك.
- هذا الموضوع يا والدنا يحتاج إلى مؤتمر موسّع للأديغة.
- كم من المؤتمرات عقدت راجباً في إجماع الأديغة! ماذا قالوا لي فيها؟
- لا أوافقك يا أمير.
- أيّ مؤتمر موسع تريدني أن أعقد أيضاً؟
- إذا بدأت مصالحة الروس بالناخوي يا والدنا فسيتهمونك بالخيانة. وستفتح طريق محاربة الروس للشابسغ العليا الحكوف، وللويخ وللأبزاخ السفلى.
- وفكرت في هذا أيضاً يا أمير. ألا يكفيكم جابهنّا الجيش الروسي وهم يقولون لنا: عفارم، لا تسمحوا لهم بالعبور، أستم رجالاً! وفي الوقت نفسه يشيرون إلينا بالإصبع المهينة.
- أنظر إليك يا والدنا فلا أتعرفك!
- لا مخرج لنا سواه إن كنت تريد يا ولدي أن نحافظ، نحن الأديغة، على وجودنا. - كرر سفرني تغلبه الرقة وتوسّل الفهم، - إن لم نحلّ أمورنا بأنفسنا فليس في العالم غيرُ الله يساعداً. صحيح أن روسيا لم تكسب حرب القرم ولكنها استمدت منها قوة. ونشعر بتصلبها يوماً بعد يوم. الأفضل يا ولدي أن نبادر نحن بالصلح قبل أن يحشرونا في زاوية ضيقة. العنف لا يُقابَل بالعنف، الأديغة استنفدوا إمكاناتهم.
- ولكن يا والدنا...
- يا ولدا! - غضب سفرني غير قادر على الصبر فقاطع كلام ولده، ثم أكمل بصوت أهدأ: - أيّ قلب تملك فلا تفهم كلامي!.. أظنني اليوم فحسبُ أفكر في هذا الموضوع؟ بل منذ اليوم الذي اختارني فيه مؤتمر الناختوي - الشابسغ زعيماً. عشت إلى الآن أعْلَل النفس بالآمال في أن يفهمنا أحد ويشفق علينا فتنجح قضيتنا غداً إن لم يكن اليوم. شاب شعري وتحرراً قلبي. وفي هذه القضية أدين كل الزعماء الأديغة، الأحياء منهم والراجلين، الذين لم يوافقوني. مأساة الأديغة ليست ملكاً لتركيا وروسيا وحدهما، هي شرفنا نحن

أيضاً. نحن أعراق الأديغة في موضع المجابهة. ارفع عني يا إلهي وُزْرَ من تركناهم بلا أمل. وافتح باب جنتك لمن سقطوا لحماية وجه الأديغة. ونؤل الأحياء السلام. قل آمين يا أمير! - رفع سفرني يديه إلى السماء ودعا إلى الله. - انظر يا إلهي بعين العطف إلى الأديغة أمتك، وخفّف عنهم عناء دنياهم الباهظ. هيا يا ولد تحفّق من صحة الأنباء التي تقول إن غزار جاء إلى أنابه، لابدّ أن أقابله. إياك أن تختلط بهم واثقاً منهم، متوكلاً على أن ضباطهم يعرفونك، ومعك رفيق. ولا تصطحب كثيراً من الفرسان.

- سأذهب، - قال قرباتر وهو يفارق والده، - سأجد غزار أينما كان، وسأجعله يقابلك، غير أنني لا أؤيد نيتك...

- توقف لحظة يا أمير!

- أسمعك يا والدنا.

- هذا الموضوع لا يتحمل الضجيج.

III

فيما مُجّد أمين مزهوٌ بالانتصار الذي أحرزه في مؤتمر الحكوف أحزنته الرسالة السرية التي جاؤوه بها من الإمام شامل. وكان فيها بالعربية: "أيها النائب مُجّد أمين الذي أبوح له بما في نفسي، اقرأ هذه الرسالة المختصرة حالما تصلك واحفظها في قلبك. أتلّفها ولا تدع عين أحد تقع عليها. لا أخبار حسنة في ناحيتنا. قست الحرب التي لا نهاية لها قلوب الناس بعضهم على بعض. وجعلتهم يغيّرون نظرهم إلينا. الرأي الثابت الذي تعرفه سابقاً فينا يتناقض يوماً بعد يوم. القوة الروسية انتعشت خلافاً لما كانت عليه في الأعوام السابقة. ولا حصرٌ للجيش التي تُحشد على حدودنا. والأماكن التي لا تنفّذ فيها أوامري ليست قليلة. وكلّ مهتم بالابتعاد عن الجهاد. والخونة يحاصرونني. ولكن أعواني مخلصون لي بفضل الله وإن كان من أثق بهم في ساعة الشدة قليلين. وكلما تراجعنا ضاقت بنا جبالنا التي كانت منعاً لنا. وإذا بقيت أمورنا هكذا، ودون أعوان فلن نستطيع الاستمرار حتى سنة واحدة. وأعرف أن أوضاعكم في إقليم الأديغة صعبة، ولكن جابه الروس بالأديغة ولو لم يبق إلا واحد منهم. لا

تدعهم يصلحونهم، وأتخ لنا فرصة هنا لنلتقط أنفاسنا. الله أملنا فلا تفقد الأمل. شامل."

لم ينقذ محمد أمين الأمر الصارم بإتلاف الرسالة التي حملت له الحزن العميق. نهض فأعاد قراءتها واقفاً على أرض الغرفة. ثم طواها مفكراً فيها، حريصاً جداً عليها، ووضعها في جيب صدره، وتنهد. اقترب من النافذة التي تهيح عبرها طبيعة الربيع النشيطة. وحُيِّل إليه أن زهور الربيع الزاهية المتعددة الألوان تغري عينيه، فابتعد عن النافذة لا يطيق المنظر. وأخرج الرسالة من جيبه متابعاً سيره على أرض الغرفة، وتصفحها بسرعة وهي تحز قلبه. وانتصبت أمام مخيلته، وقلبه يعصره الألم، جبلاً داغستان الجرداء، وقراها الشبيهة بأعشاش الطيور في تلك الجبال، وأنهارها الضيقة السريعة، وأحجارها المسننة، وغيومها الباهتة النائية، وماذنها العالية، والقبعاث الشعث التي تحمي كل هذا من العدو، وسيوفهم المسلوطة، وصريف الفولاذ على الفولاذ، وصفير طلقات المدافع، والجرحى والقتلى.

لا يتذكر محمد أمين منذ جاء إلى إقليم الأديغة يوماً مثل هذا اليوم دب اليأس فيه إلى قلبه. وقع في هذا الإقليم في مهالك كثيرة، وصدف أن اضطرَّ إلى النجاة بجلده، ولكن أخبار شامل اليوم تبدو له وكأنها نهاية حياته. وربما ما كان النائب ليصل إلى هذه الحالة لو كانت أموره تجري في الأبراز على نحو حسن. كيف يمكنه أن يساعد شامل؟ وهنا، يقول النائب، تكثر الريبة والخيانة. المؤتمرات كثيرة عند الأديغة، ولكن القرار الذي يتخذونه اليوم يتجاوزونه غداً. لا أزعهم أنهم محرومون من الرجولة، ولكن، من أجل إشعارهم بها، عليك أن تطأ أقدامهم كما يطؤون ذنب الكلب، وتجرح قلوبهم وتثير فيهم الاعتزاز بالكرامة. أنت يا إمام بين قومك على كل حال. جبالك تساندك، وحولك من يثقون بك. وأنا هنا يناديني من لا يُضمّر لي الخير بالغير. لا أبيت ليلتين متتاليتين في مكان واحد. أنصار زانه سفري وتسي حاترباي وبرج جراندوقوه، وليس حجمقوه أسلاننج أفضل منهم، يبحثون عن نقاط ضعفي. يُحسون كل خطوة أخطوها. إذا كانت الأوضاع سيئة في الداغستان فلا تسأل يا إمام عن حالنا هنا. البسلي فتحو حدود بلادهم للعدو فحشد قواته حيث لم تتوقع في أعالي

نهر شخغواشه. والجيش الذي كان مرابطاً في شتونه عبرَ نهر لاباتا. ومنعهُ مايقواب يجهزونها بالسلاح. وزعيم الناتخواي - الشابسغ زانه سفري ينوي مصالحة الروس. وهو رجل لا يمكن الوثوق بما سيفعل، والحقُّ أنه إن فعل فستسوء أحوالنا جداً. حدود الأبخاز مفتوحة للعدو من ثلاث جهات. ولم يعد الأديغة كما في السابق يُهرعون إلى خناجرهم متى سمعوا كلمة "كافر". أرهقتهم الحرب التي لا نهاية لها. لا يبالون ما دام العدو بعيداً عن ديارهم متأملين أن يصده عنهم الآخرون. الفرقة التي بين الأديغة تجعل كل زعيم عرق يتخيل أنه هو الزعيم. لم أستطع إقناعهم بالوحدة، لا بالرجاء ولا بالحرب ولا بالصلح. لنقلُ إني أنا غريب ولكن ما بال سفري؟ لماذا أفترى على الرجل؛ ترجاهم بل توسل إليهم، وأنا لست بريئاً، فلم يسمعه. كان قد طرح الموضوع من جديد في مؤتمر الحكوف ولم يوافقوه. وإن أردت الحقيقة يا إمام فأنا أظن أننا قادرون على الصمود، ليس سنة، بل نصف سنة. أعدك، أن أوقف الروس في نواحيننا إن بقي لنا أدنى قدرٍ من الإمكانيات. لن أكذب على الله، ولن أكتفم عنك يا إمام، تراودني أحياناً فكرة مصالحة الروس... ولكن ما العمل؟ ما حملناه الله حملنا. سأستنفر الأديغة ولو مرة أخيرة!

ارتاح قلب مُحمَّد أمين بعدما أفصح عن أحزانه وأفكاره. ولكنه جلس بعض الوقت شاعراً أن عليه أن يفعل شيئاً لم يفعله بعد. وتذكر وهو يشعل الغليون الرسالة التي في جيبه فأحرقها متمهلاً، مغلوباً بالحزن عليها.

- هيه أنت، - نادى إلى خارج الغرفة. فدخل جباغ يطغى عليه السواد وعيناه ترقصان في محجريهما، - لا تسمحوا لأحد أن يدخل إليّ، سأخلد إلى الراحة قليلاً.

- البولوني يا نائب يكاد يصل إلى باب دارنا.

- من البولوني؟

- لا بينسك الثرثار.

- اسكت! من أين تعرف إن كان ثرثاراً!.. استقبلوه استقبالاً حسناً، وأدخلوه حالاً. ومن معه؟ - مجموعة من الفرسان.

- تفضّل يا تيوفيل، تفضّل!- استقبل مُحمّد أمين الضيف. وما إن نظر في وجهه حتى خَمِنَ أنه لا يحمل خيراً. - يا للعجب، خطرت على بالي في هذه اللحظات. ما الأخبار في المنطقة التي جئت منها؟ والله فعلت خيراً، زرتنا قبل أن نتحرك نحن. سررتنا بقدموك.

- لا فرح في المكان الذي جئنا منه يا مُحمّد أمين، - قال لاينسك بوجهه شاحب مرهق.

- هذه حال الدنيا يا تيوفيل، من أين سيأتي الفرحة؟ الحرب مستمرة والدم يسيل، أظن أن الطريق الجبلي لم يواتك، وجهك شاحب.

- ما طريق الجبل يالقياس إلى أحزاني يا مُحمّد أمين! سرت على شفتي تيوفيل ضحكة لم تظهر.

- مَنْ في إقليم الأديفة يمكن أن يسيء إليك؟

- يطردوننا من الناتخوي، يخبروننا أنهم يستغنون عنا.

- من يقول؟ عامة الفلاحين؟

- زانه سفري هو القائل. والعامة ينظرون إلينا من أطراف عيونهم.

- ما الذي جرى لآل زانه وللناتخوي؟

- عندهم نية المصالحة مع الروس. لا يُخفي سفري، والشابغ السفلى والناخوي يؤيدونه.

- لا يجوز أن نسمح لسفري بمصالحة الروس! - غضب النائب كأنهم يسلبونه شيئاً في حمايته. - لا يمكن أن نسمح لزانه أن يفعل هذا ولو لم يبق في إقليم

الأديفة غيرك وغيري. - تذكر مُحمّد أمين الرسالة التي أحرقتها بيديه قبل قليل. إذن آل زانه يفعلون ما كنت أتوجس منه. إن فعل الناتخوي هذا فستنهار

الحدود الشمالية لإقليم الأديفة. على ما يبدو لن يبقى إلا الأبخاخ والويخ. ولا تشكّ في أن الشابغ العليا ستتابع الشابغ السفلى. خرج النائب من أفكاره،

وسأل ضيفه: - ما اعتراض زانه عليكم غير موضوع الصلح؟

- يقول إنهم لم يعودوا بحاجة إلى المحاربين الأغراب. لسنا وحدنا بل يقول إنه يستغني عن الترك والإنجليز والفرنسيين.

- وما رأيي قرباتر؟ - يسأل مُجَّد أمين، ثم يجيب نفسه بنفسه بقول أديغي مأثور: - وماذا سيقول؟ الولد ابن أبيه.

- قد يكون في ما ترويه شيء من الصحة يا نائب ولكني لن أتهم قرباتر بما لم يجنّه. حين تناقشنا أنا ووالده لم يتدخل في النقاش خيراً أو شراً. وفي خلال تشييعه لنا لم أستطع مهما قلتُ أن أحمله على التصريح بصحة آراء والده. لا أعرف بالضبط ما في قلب قرباتر، ولكن حُيِّلَ إليّ أنه غير راضٍ عن والده.

- هذا حسن، سنستغله لصالحنا، - فرح النائب إذ وجد أملاً مُمسكاً. وسأل: - حَيِّلَ إليك أم تخمّن؟

- أخمّن، - بدت على شفتي تيوفيل الآن الضحكة التي سرت عليهما. - ما يجعلني أقول هذا هو أنه لا يتجنّبنا كوالده ولا يعاديننا... لا أعرف إن كنتُ مخطئاً.

- لا، لستَ مخطئاً يا تيوفيل. لستُ اليوم فحسبُ أعرف آل زانه. إذن يحدث شيء بين الوالد وولده. سننتزع من الناحوي فكرة المصالحة بهذه الحجة. لا تخرج من أرضهم يا تيوفيل وإن حاولوا طردك!

- الربيع صعبُ طرقاته ولو طلبوا، لن أستطيع إخراج الجيش حتى الصيف. سهر لاينسك وُمُجَّد أمين إلى أواخر الليل. وفكّر في طريقة للفتنة بين الأب وابنه، وفي طريقة نقل الجيش المؤلف من نحو أربعمئة مقاتل مع خمسة أو ستة مدافع إلى أرض الأبراخ، والمكان الذي سيقم فيه هذا الجيش. وتطرّقا إلى قضايا أديغية أخرى.

أثار الفارسُ الآتي من طوابسه الجالسين إلى مائدة الفطور من أمكنتهم. ووضع حراس مُجَّد أمين المئة ومرافقو لاينسك الخمسة عشر أقدامهم في الركائب. ولحق العامة بالفرسان الذين يقودهم النائب.

ما بين جَعْف وطوابسه مسير ساعتين على الخيل. والخبر المزعج الذي يعدو لأجله النائب لا يهتم معه براحة الخيل. ولم يعد مُجَّد أمين مهتماً بطرد الحاج حسن من المحكمة. ما لا يفهمه هو تحرُّك الشابسغ العليا. لم تمض إلا بضعة أشهر على تنحيتهما سفري ومبايعتهما للنائب. وقد أقاموا محكمةً في طوابسه بحماسة. وقدمت كل أسرة فارساً. ويؤيدهم الوبيخ في شجْبْشه. ما سبب حركة

- الشابسغ يا ترى؟ أيكون الحاج حسن؟ كنت لاحظتُ عدم ارتياحهم حين عيّنته قاضياً لمحكمتهم. وسمعت بعض الأخبار المؤيدة لشكوكي.
- اسمعوا، - صاح النائب إلى مَنْ وراءه في غمرة جريه، - أين الرسول الذي أسرع إلينا؟ - الآن فقط خطر له أن يسأل عن سبب إرسالهم له.
- أسمعك يا نائب، أنا الرسول.
- ما سبب التمرد في الشابسغ؟
- لا أعرف الحقيقة تماماً، طلبوا مني الإسراع...
- لا يشوى لحْمٌ دون نار!.. من المتسبب؟
- لا أعرف، ولكن يقال إنه القاضي حاج حسن.
- ماذا فعل؟
- العامة يشكون من ظلمه.
- نظروا فرأوا قرابة مئة فارس خرجوا من وراء الجبل. وهم يركضون وراء الفرسان الثلاثة المتقدمين.
- أشار النائب بيده فتوقف الفرسان وراءه. وتعرّفوا أحد الفرسان الثلاثة وهو الحاج حسن. وحالما وصل ارتقى من على صهوة الحصان على عادة الأتراك، وجثا على ركبتيه أمام النائب ويده ممدودتان.
- أعوذ بطرف كسائك يا نائب. الناس الذين يلاحقونني في منتهى الغضب.
- وقف مُجَّد أمين في الركاب وأشار إلى الفرسان المندفعين أن يتوقفوا. فسَمَرَ الخيلُ في أماكنها والترابُ يتطاير من حوافرها. وسألهم وهو يشير إلى الجاثي أمامه بطرف السوط:
- ما ذنب هذا أيها الشابسغ الأخيار؟
- من لا ذنب له، - تقدم أكبرهم سنّاً إلى الأمام، - لا نلاحقه أيها النائب.
- لا نلومك على تعيينك العبد التركي قاضياً علينا، الله سيفهمنا. لا نعرف إنساناً جشعاً من هذا النوع وطئ أرض الشابسغ...
- هاج الفرسان الأبراخ الواقفون وراء النائب مستائين من كلام الرجل الشابسغ.
- رفع مُجَّد أمين يده مشيراً إليهم بالهدوء، ونادى مَنْ أمامه:
- أيّهما تأخذون عليه: أهو كونه سليل عبيد أم جشعه؟

- إذا طلبت منهم مستحقات المحكمة أأكون جشدا... - لم يسمحوا للحاج حسن أن يكمل ما بدأه.

- اخرس! - نهر النائب القاضي.

- هذان العيبان كافيان لنا نحن الشابسغ، غير أنه فعل بنا ما هو أسوأ. هاجم فتاة من عندنا، هاجم الأسرة، قائلاً إنه بحاجة إلى فتاة منعمة من عندنا.

- ما الذي سمعت!.. - صرخ محمد أمين على من أمامه وقد توهج لونه. - ألم أطلب منك الوقوف!.. - ضرب النائب بالسوط وجه الحاج حسن. - اتبعنا حالاً!.. - ثم وضع محمد أمين يده اليمنى على جانب صدره الأيسر وخاطب العامة: - لا تؤاخذونا أيها الشابسغ!..

رجع فرسان الشابسغ دون إبطاء وانصرفوا.

وتبع الأبراخ النائب.

IV

لا يترجل سفربي طوال الشهر عن الحصان مع أن الجسد الذي تجاوز السبعين يثقل عليه. كان في زيارة لأسلانج في البجدوغ. واستدعى من إيكاترينودار واحداً من الضابطین اللذين ذكر غزار اسميهما وقابله. وأصلح بعض العبارات في الرسالة التي وجهها ذات مرة إلى القيصر بما يلطفها، وسلمها للضابط ليأخذها إلى سان بطرسبورغ غير واثق من الجنرال فيليبسون. ورشاه بخنجر فضي ليعبر اهتماماً كاملاً بالمهمة التي أناطها به. وأرفق الخنجر بصدار أديغي أثري.

ولما نجحت مهمته في البجدوغ لم يعد إلى الناختواي بل توجه إلى تسي حاترباي في الأبراخ العليا، وأرض الجمكوي على يساره. ومعه قرباتر الذي لا يوافق والده في مسألة الصلح مع الروس، ولكن ليس إلى حدّ الخصام، محافظاً على طاعة الأصغر سنّاً للأكبر.

اجتياز الطريق الجبلي في الأبراخ أخطر بكثير مما في السنوات السابقة. غير أن الأخطر منه هو عبور نهر إيل على طريق إيكاترينودار. هنا تصطدم بمنع القوزاق من مسافة إلى أخرى. يخرج القوزاق من تحت الغابات لأن الجيش يعسكر في المكان. ويخرجون من الأجحات التي ليست موضع شك. يحرسون بعناية الطريق الحربي الآتي من أنابه وبزاه مز الخارج من إيكاترينودار إلى شنته

قاله. ومن تجاوز هذا المكان واتجه يميناً وشمالاً فمخطئ إن اعتقد أنه سيصل مرتاحاً إلى هدفه إذ أن طريقة الرصد تلك أشدُّ سرّية هنا. ينجم أمامك، لا تعرف من أين على عادة الأديغة، فرسان قوزاق. وأعجب شيء أن بين الفرسان القوزاق فرساناً أديغة. شاهد سفري عدة مرات هذه الظاهرة على طريق إيكاترينودار. ثم إن هؤلاء الأديغة أشرس من القوزاق. إن لاحتقك فلا رحمة عندهم: إما أن تنتصر عليهم أو ينقذك حصانك.. والأديغة الآخرون، بمن فيهم قرباتر، ليسوا رحماء بالخونة. يقسون عليهم قبل أن يجدوا فرصة للدفاع عن أنفسهم. ولا يكتفون بقتل الحائن بل ينهبون أسرته ومن يشاركونه النسب. وإن كان واحداً من الجمكوي أو البجدوغ أو المخوش الذين استسلموا للروس أحرقوا قريته بكاملها. وظلم الأبراخ نحو هؤلاء بالقياس إلى الناختواي بلا حدود. وقد تضافر إسلام النائب مع العداء الأزلي بين الأبراخ والبجدوغ فالعرقان الأديغيان يتبادلان التهديدات. ولا يستطيعان المسير على طريق مشترك في الحياة.

قال سفري لحظة دخولهم غابة جتّك، بعدما اجتازا سلّتك، ونهّز بشره على يسارهم:

- كان الأفضل أن ندخل الأبراخ العليا متجنّبين قرى البجدوغ قدر الإمكان. لا تنشغلوا يا قرباتر. ليسبقنا ثلاثة فرسان، وليتأخّر عنا ثلاثة. الله حريص فلنحرص على نفسنا!

- حسناً يا والدنا، سنفعل ما أمرت به. - لم يعلّق قرباتر بشيء وإن راوده مشروع ضحكة. وأمر رفاقه: - يا ترام اسبقونا أنتم، وأنت يا حباط تأخروا عنا. ولما بقي هو ووالده وحاغور أنهى قرباتر السبب في مشروع ضحكته: - لا تخش شيئاً يا أمير ما دمنا، حاغور وأنا، معك.

أجاب سفري في الوقت الذي يُظنّ فيه أنه نسي كلام ابنه:

- لا داعي لليأس بإذن الله يا أمير. - ثم أضاف بعد قليل: - في عمق غابة البجدوغ تلك هلك من هم أشجع منا. لا عجب في هذا. ولكن ما أستغربه هو سرعة استسلامنا للروس. البجدوغ يتعلمون مصطلحات السوق قبل أن يستقر الروس بيننا. وبدل "جابه"، كما ينطق سائر الأديغة، ينطقون

"كوبيك". ويتوسلون إلى القوزاق قائلين: "نحن من رعايا روسيا منذ الآن"...
ما العمل؟ يجب أن يعيشوا. يا نور نُحَدِّد ما رأيك أيها الشرطي؟

- نعم يا أمير، الأديغة شرُّ نحو ما ليس له.

- لن يصبحوا روساً، - لم يقبل قرباتر، - باستعمال هذه الكلمات. - يخذع
القوزاق الأديغة السُدُج قائلين لهم: نفتح الأسواق لكم، تعالوا اشترؤا...

- الإنسان إن ابتسمت له يا أمير، - استلم سفري الحديث من ابنه، - لن
يُعتبر غباء منك... أوافقك إن قلت ظلوا يتشاجرون ويتشاحنون في مؤتمر
الأديغة، ويتنازعون البطولة فدفعونا إلى أن نرتكب أخطاء كثيرة. بقينا نستسلم
لليأس فيتعثر الحصان، ويغرنا الأمل الكاذب والأديغة في غير وقتها فنرى
أنفسنا في شيخوختنا نندم على أخطائنا الكثيرة. وحين نحاول رفع القيد لا
نستطيع الانحناء بأجسادنا، ولا نجد هواء نتنفسه. لماذا سمحت للأتراك أن
يحتجزوني كل هذه السنين سواء وافقنا النائب أم لم نوافق. لماذا سمحت للجنرال
باسكيفيتش أن يخذعني حين حاولت مقابلة القيصر لمصالحته وأنا على رجلي
ومحتفظ بقواي؟ والجنرال فيليامينوف؟.. لماذا وثقت به هو الآخر وسمحت له
أن يستغيني؟.. والجنرال فيليبسون يمارس معي لعبة الخداع عبر الوجه الطلق.

- يا والدنا، سأل قرباتر حذراً، غير مرتاح لما يسمع، - لماذا تبكّث نفسك؟ ما
تأتي على ذكره لم يتحقق لخانجري قبلك أيضاً. وكان حجمقوه أسلانج الذي
كنا في زيارته يسعى إلى هذا ولكنه لم يصارحك. بل سأقول لك الحقيقة: كان
سيريريياكوف غزار يود أن يحمل القيصر على تسميته ممثلاً له فيصبح زعيماً
علينا. - إن لم يكن ما أخبرتك به كافياً يا أمير، - قسا صوت قرباتر، -
فسأزيد. ماذا جرى حتى تندم على ما فعلت؟!

نظر سفري نحو الفارس المتين البنية الذي على يساره نظرة شك. ومرة أخرى
انتفض برأسه كأنه اكتشف فيه شيئاً جديداً. وابتسم قائلاً: ما أشبهه بي أيام
شبابي! وقال له فرحاً به ولو أن الخوف الخفي الذي لاحظته فيه أُرعبه قليلاً:

- أعرف يا أمير أن من يستحق لقب الزعيم ومن لا يستحقه كانوا طامعين،
ولا يزالون، في منصب زعيم الأديغة. ولكن قولك: "هل أنت نادم على
ما فعلت" فلا تستعجل يا ولدي، ما سأجيبك به شيء مختلف. لم أقابل بحمد

الله إنساناً نادماً على أن الله خلقه وأبقاه على قيد الحياة. وإن قابلت فسيكون مدعاة للضحك. النائب الداغستاني يُسمع الأبراح أخبار جنته وإن كان هو نفسه لا يعرف حقيقتها. ولكن ليست هذه هي المشكلة اليوم... كنت أصغر منك عمراً، ليس بقليل، حين أصبحت مهموماً بقضية الأديغة. والحق أقول: إنني لم أفكر في أن تأتيني أنت إلى العالم، بل لم يخطر لي البتة. وقضية الأديغة هي التي كانت وراء شعاري مع روزيفيتش، وسبب استقالتي من الجيش الروسي. ولم يكن توجُّهي نحو الترك عن حبٍ لهم، ولا عن طمع في أن يُسدوا لي خدمة. وبعدها، إن كنت تتذكر، هذه القضية نفسها كانت سبب زيارتي إلى باسكيفيتش في تفليس، وسلَّمتك دون أي رغبة إلى الجيش الروسي أملاً في أن ألين قلوبهم... وبعد هذه الأحداث أنت تعرف ما جرى لي وما حدث في البلاد دون حاجة إلى أن أروي لك.

- يا والدنا، - قاطع قرباتر والده وقد ظهر من صوته عدم رضاه بما يسمع من كلامه، - ما الفائدة من إعادة هذه الذكريات كمن يبعث الحياة في نار خامدة؟

- ماذا تريد إذن يا أمير؟ - قال سفربي دون جدية وإن ظهر عدم رضاه أيضاً من كلامه.

- ما يُقلقنا اليوم يا والدنا هو موضوع الساعة.

- من الصعب أن تفهم قضية اليوم دون أن تعرف الماضي يا قرباتر، - وافق حاغور سفربي بسرعة. ولكنه طوّر فكرته إلى الأبعد.

- ولذلك، - تابع سفربي كلامه متمهلاً كأنه لم يسمع شيئاً، - هل السنوات السبعون قليلة؟ ما شهدناه كثير وما خبرناه. حدث أن أهانونا وأن أهنأهم. ولكنني أشعر بالهانة إذ لم يتحقق لي شيء من قضية الأديغة التي حملتها. وأنت حرٌّ في أن تندم أو لاتندم.

- هذا المسعى الذي بدأتماه يا نور مُجد، - قال قرباتر للشرطي مُسمعاً والده، غير متوجّه إليه مباشرة، - لا جدوى منه، لن تنجحاً فيه.

- أيُّ "زلقطة" لسعتك اليوم يا أمير فتُصرّ على موقفك؟! - لجم سفربي حصانه فسّمه. ورمى ابنه بنظرة حانقة، وأضاف غير مهتم بالإجابة: - أيّ

قوة تتأملها؟ الترك أم الإنجليز أم الفرنسيون أم البولونيون؟ طالما تأملت منهم أنا أيضاً خيراً على مبدأ: الغريق يتعلق بقشة. وحملت الأديغة على انتظار مدّدهم. ولكن لم يقدموا لنا شيئاً! بقينا نعتمد على صيحة الاستنفار "مارج!"، مجاهدين بالرجولة من لن نستطيع الصمود في وجههم، متأملين العون من جهة ما، حتى سمحنا للدول الأجنبية أن تخدعنا، فتطحنا بين أحجار رهاها... ماذا تنوي أنت؟ ألسنا أديغة وإن اختلفت آراؤنا، ألسنا نقيم على أرض واحدة، أليس الشرف الأديغي ما يمدنا بالحياة، ويفتح عيوننا عليها. هل الأفضل أن نسعى إلى دمارنا التام مغامرين برجولتنا إلى آخر المدى؟!

- يا والدنا...

- طلبت منك أن تسكت!

قطع حديثُ الفرسان المتقدمين عليهم صوتَ سفري، وحملهم على التفكير في اللجوء إلى السلاح. ولكنهم لحقوا الفارسين اللذين ارتميا إلى عمق الغابة.

- من هذان؟

- هذان أسرعاً إلى الاختباء في الغابة حين رأينا، فأمسكنا بهما.

يستغرب سفري ملابس الفتيين. الأكبر في حدود الخامسة عشرة، يلبس بنطالاً واسعاً عليه، مطرزاً بشريطة حمراء، والآخر الأصغر يرتدي قبعة قوزاقية حمراء واسعة عليه أيضاً فلا تلمّ أذنيه. حين يخفي عينيه تحتها يرمي القبعة بيديه المجمعدين إلى الأعلى. وما يجمعان فيه أطراف بنطاليهما جزمات جنود روس حقيقية. تفحص سفري الفتيين:

- من أي أسرة أنتما، ومن أي قرية؟

- نحن من أسرة كوف، عائدان إلى وَجَبْشِيَه.

- ومن أين تأتيان؟

- رَوْضنا الحصانين.

- ما رأي الناس في وَجَبْشِيَه في قسَم النائب؟ - ابتسم سفري وقد تذكر أن النائب أرسل من الأبراخ أكثر من مرة جيشاً مجهزاً لإرغام أهل القرية على مبايعته.

- أهل وَجَبْشِيَه لم يبايعوا النائب يا أمير، - بدا من صوت الفتى اعتداده بكلامه. وتابع: - لم يستطع إقناعهم لا بالحرب، ولا بالرجاء.

- حسناً فعلوا. مع السلامة إن كنتم عائدین إلى وَجَبْشِيَه لأنكما ابتعدتما كثيراً عن ظاهر القرية، نحن في جوٍّ متوتر.

- توقفنا لحظة! - صاح قرباتر في إثر الفتيين. - تعالاً مرة أخرى إلى حضرة الأمير، - سأل بصوت واضح الفتيين اللذين لم يعرفا ما حدث: - ماذا تلبسان؟

- لم يفهم الفتيان بادئ الأمر كلام قرباتر. وتفحصا هما أيضاً ملبسهما. وتفحصا الفرسان الذين يقفان أمامهم.

- أسأل عن ملبسكما!.. - ضرب قرباتر الفتى الأصغر فطيرَ قبعته الحمراء.

- من أين جئت بهذه القبعة القوزاقية؟

- هذه جاءني بها والدنا من الحرب!.. قفز الصبي من الحصان والتقطها. ودسها في صدر القميص.

- يا أمير ماذا تفعل؟ - صرخ سفربي على ابنه.

- وهذا البنطال القوزاقي من أين جئت به؟! - علّق قرباتر البنطال بطرف خنجره ومزقه من الأسفل إلى الأعلى دون اكتراث بكلام والده. - في صدريكما قلبان روسيان من قبل أن تولدا يا عديمي الإيمان!

- هل جرى لعقلك شيء يا قرباتر؟ ماذا تفعل؟ - اعترض سفربي بالحصان ابنه. - أيّ عيب فعلته أمامي بالصبي دون أن تردّ عليّ؟.. - لسع السوط القصير ظهر قرباتر كسنان رمح.

- يا والدنا...

- طلبت منك السكوت!.. - نادى سفربي متمهلاً كأن لم يحدث شيء الصبي الذي مُرِّقت فرده بنطاله. - خُذ يا ولد هذه السومة الروسية!.. اطلبا من والدكما أن يشتري لكما بنطالاً قوزاقياً وقبعة قوزاقية وصداراً... لا تؤاخذنا وَجَبْشِيَه على تصرفنا الغبي. وهذا الأمير ندم على سلوكه فلا تؤاخذاه!

لم ينبس أيّ من رفاق سفربي بكلمة. ولكن الفرسان لحقوا بقرباتر وعدم رضاهم عما فعل بالصبيين الفلاحين بادٍ على وجوههم. وتخلّى قرباتر عن مكانه على

يعين سفري لكونه الأصغر سناً. وأخذ ترام مكانه. ولا يزال نور مُجَّد على الجانب الأيسر من الأمير¹.

لم يملك سفري رغم إخفائه موقفه من الترتيب إلا أن يلتفت إلى ابنه، دون أن يعير الأمر اهتماماً كبيراً. وما هيَّج قرباتر من جديد بعد إهانة والده على مرأى من الصبيين الفلاحين هو التفاتة والده. فأوقف الحصان ونادى:

- يا والدنا، ليس لأني عاتب عليك، فكرة الصلح مع روسيا الذي تسعى إليه لا جدوى منها!.. أظعتك إلى الآن، ولكن موقفينا من هذه المسألة متباينان. نرفع قبعاتنا إجلالاً للأديغة الكثيرين الذين يثوون في الجنة. لا تؤاخذني يا أمير، أنا عائد إلى الناخوي. - أدار قرباتر رأس حصانه.

استمع سفري دون اهتمام كبير بما يقول ابنه ورأس حصانه مائل نحوه، ثم تابع طريقه. واستغرقت أفكاره المرهقة ناسياً رفاهه الفرسان. قال: ارحمنا يا إلهي! إن لم يتحقق مسعاي الآن أيضاً فالموقع الذي نحن الأديغة فيه سيصبح قبراً جاهزاً. واليوم انتصب حلال أمام زعماء الأديغة المتنافسين: الأول هو المخرج، والثاني هو المهلكة. ليس المهم الآن من سيصبح زعيماً. أقبل أياً كان حتى لو كان النائب الغريب. نحتاج إلى قائد يُحافظ على وجود الأديغة. لا يمكن تحقيق شيء بالحرب في إقليم الأديغة. الأديغة اليوم يحتاجون إلى قائد يستطيع التصالح مع روسيا سواء كان عاقلاً أم مجنوناً. الملجأ الوحيد للأديغة هو رد القيصر الذي أرسلتُ إليه رسالتي. الحماسة للحرب ولحماية الأرض والشرف الأديغيين كلام نظري فحسب. ما أكثر ما انجرفت أنا أيضاً وراء هذه الشعارات! وكم دفعتني إلى اختيار الطريق الخاطئ! من يهتم بمأساة الأديغة غيرُ الله؟! تركيا، إنجلترا، فرنسا؟ أم روسيا التي تغزوننا تَهْتَم بنا؟ هذا ما جعل الناس يقولون: الحمار الغائب صاحبه تأكله الكلاب. لماذا يتركون مثل هذه الأرض الطيبة بيد الأديغة؟! الحصى تتناثر لأنها غير متماسكة... وهذا ما جرى لبلاد الأديغة الغنية بالزعماء غير المعتادة على الرأي الحازم... ولماذا تبتعد في المثال؟ ألا ترى ما يجري بيننا، الأب وابنه، لا نستطيع الاتفاق على رأي واحد. كلٌّ يساهم في

¹ العادة في حال كون الفرسان أكثر من اثنين أن يكون الأصغر على اليمين، والأكبر في الوسط، والثالث على اليسار.

نقاش المسألة الأديفية بعقله المتسرع، وما يخرّب فيها أكثر مما يقدم من نفع لها. لماذا لاتوافقني على مساعي يا ولد؟ سنقول له: سنصالحكم، لنوقف الحرب، لا تنهبونا! ولا نلزمهم أن يقاسمونا ملكية بلادهم. وإن كانت حجّتك أن الأديغة لن يقبلوا ولن يوافقوك فسأترك لهم الخيار أن يعيشوا كما يريدون دون أن أصدع رؤوسهم، وسأفعل ما فعله حجمقوه الذي صالح روسيا، فأصالح الناختواي معها. ولكني أعتقد أن تسي وبرزج والأمراء الآخرين والضابطة العدلية سيوافقوني. فإن حدث هذا فليحارب النائب وحده روسيا في الأبخاز السفلى، وليطلب المساعدة من الداغستان التي تكاد تنهزم ومن الإمام شامل. ما حدث لنا ونحن نصرخ في العالم قائلين: ما تفعله روسيا بنا من إحباط وآمال كاذبة لا حدود له عيب وإهانة. ماذا أفادنا إن شئت الصراحة جيمس بيل وعمر باشا ولاينسك وبانديا محمد بيه وخورزر إسماعيل بيه ومحمد أمين موفد الإمام شامل وغيرهم؟ ماذا كان سيجري لنا لو صالحنا روسيا؟ أكنّا فنيّا فيها؟ ألم نعش قروناً جيراناً وحدودنا متلاصقة؟ كنا بإذن الله عايشناهم بقدر الإمكان. لن تكون روسيا أسوأ من تركيا ولا من خانات القرم؛ الروس بشرٌ مثلنا. يا إلهي اجعل قيصر روسيا ينظر إلينا بعين العطف ويحب على رسالتي جواباً مناسباً! واجعل حظي ينتصر على النائب وعلى لاينسك، وعلى الأديغة والروس، وكلّ من لا يضمّر لي الود. كنّ أسعدت الأديغة، وهم غير مصدّقين، حتى ينسوا عذاباتهم!.. يكفي ما خاطروا بحياتهم تحت شعار الرجولة!..

التفت سفري مع أفكاره دون أن يدري سبباً لحركته، ورأى الفارس الذي يتعد من خلفهم، وسأل:

- أتساءل من هذا الفارس؟.. ولما تعرّف ابنه سأله: - هذا الأمير قرباتر؟ - ودون أن ينتظر جواب أحد أسرع بالقول: - يبدو أنه عاد إلى الناختواي... - أعاد سفري حصانه إلى الطريق مع ابتسامة من خارج القلب، كاتماً ما يعتمل في قلبه. وبعدما خطا بالحصان بضع خطوات أوقفه، وقال غير عابئ بما يجري من خلفه: - لن نقابل يا ترام سلوك هذا الأمير بمثله في هذا العالم القلق، لا تدعّه يعود بمفرده.

...

تبين أن تسي حاترباي غائب عن القرية. تألم قلب سفري حين قيل له بعد مشاق الطريق إن تسي في الويخ، وبعد ما استرجع ما جرى بينه وبين ابنه. وشعر بثقل أعضاء جسمه خائر القوى من التعب ومن الهرم. ولم تكن حالته الصحية تسمح له بوضع رجله في الركاب إن فكر في العودة. وحتى لو كان ينوي العودة فقد لجمته عادات الأديغة فاستقبله أهل البيت إلى المضافة.

لم يطل انتظار المسافرين للمائدة كأن أهل البيت كانوا مستعدين لاستقبالهم. وخلال تناول الطعام، وبعده، ومع الكلمات القليلة التي تبادلوها لم يرغب عن بال سفري أنه لن ينتظر حاترباي الذي خرج من القرية أمس، وأن عليه العودة إلى قريته. وما كان يمنع عنه أي راحة بال هو سلوك قرباتر، وطريقة عودته إلى القرية. ومن وقت لآخر يتذكر الصبيين الفلاحين. ويرسم لباسهما في خياله. وفيما يفكر في هذه الأمور لا ينسى الرسالة التي كتبها إلى القيصر، والضابط الذي حملها إلى القيصر في سان بطرس بورغ. يضع أمله في القيصر الذي أفضى إليه بأفكاره الفلقة المتناحرة. الكتابة تبقى دائماً كتابة. كان الأفضل من الكلمات الباردة أن يلتقيا ويتبدلا النظرات. ولو حدث هذا لفتح قلبه للقيصر. ومهما تعامل معه تحمله ما دام من أجل منفعة الأديغة. يكفيه ما بدد من عمره وهو يسمح لهم أن يخدعوه!.. ثم من هؤلاء؟ هذه دول بعيدة غريبة لا تحيط العين بحدودها. لن تعرف طيبة الجار ما لم تختبر إنسانيته. والروس الذين هاجمونا لا أزعجهم أنهم طيبون، ولكن من هم هؤلاء، وفي أي شيء هم أحرار؟ ليسوا أكثر من منفذين لأوامر القيصر. غير أن أسوأ الجيران يلبي نداءك عند الضرورة. ماذا ستقدم لنا تركيا أو إنجلترا أو فرنسا إن توجهنا إليها واستنجدنا بها؟.. الأديغة وقعوا في الموقف الذي يقال فيه: إن كانت يدك مدهنة فامسح بها رأسك؛ انفع نفسك!.. وأنا يا إلهي واحد ممن تسببوا لهم في الأذى فاغفر لي وافهمني ومُدني بالقوة ثانية لأجل هذه المهمة. أبعد عن الأديغة مأساتهم، ودعنا نشهد فرحهم مرة أخرى!.. يمكن أن أراهم سعداء مرة أخرى؟ وإن لم أر فأنا راضٍ إن تحقق هدي في شأنهم!..

نخص سفري:

- هيّا، لا فائدة من جلوسنا. من سوء حظنا أننا لم نلتق بحاترباي. إن كان سافر إلى الوبيخ فلن يعود إلى الأبراخ العليا دون أن يعرّج علينا.
- لست مخطئاً يا أمير، - قال الابن الأكبر لحاترباي، - كان والدنا ينوي أن يزورك. ما إن سمع النية السرية المرائية للنائب حتى سافر نحوكم، لم يستطع الصبر ساعة واحدة. أخرج سفري رجله من الركاب بعدما أجفله ما سمعه عن النائب. وتفحص الفرسان المرافقين له يقصد استغرابه لما نسمع، وسأل المضيف:

— أيّ سرٍّ يبحث عنه النائب؟

- يريد أن يُصالح الروس.

- وهل هذا مما يُكتم؟.. - ارتاح سفري لما سمع وإن ارتعب قليلاً في البداية، وكنتم انفعاله. وأضاف وهو مستعدٌّ للتحدث إلى النائب في الموضوع: - ما لا أعرفه هو سبب كتمان النائب للموضوع... حان الوقت ليتعقّل في العلاقة بالروس... نستودعكم بالخير...

مشى سفري وصحبه مسافة لا يستطيع تفسيراً للخبر الذي يتعلق بالنائب. يخطفون منه الهدف الذي يسعى إليه قبل أن تنضج الفكرة. تخطر على البال أفكار كثيرة لا يعرف سببها فتتناحر الأفكار. ويخطر له قرباتر وتيم وجيمس وفونفيل ولاينسك. يا ربّ أيكون ما يُشاع عن النائب صحيحاً؟ هل أصلُ الفكرة له أم لغيره؟ ما الذي يجعل هذه الفكرة تخطر للنائب الذي يريد مواجهة الروس بالأديغة في جهاد مقدس؟ لأنه فهم أن حرب الأديغة مئوس منها أم لأمر شخصي؟ في هذا الموضوع جانب لا نعرفه. لاشكّ في أن المشروع لا يهدف إلى الإحسان إلى الأديغة. وإذا تحدثت في الموضوع دون أن تعرف الحقيقة ناك منه مكروه. ولكني لن أندم مهما نابني من مكروه بسبب النائب. أتوقع أنه يتصيد هدفاً مرائياً ما. أيكون سوء الأوضاع في الداغستان أُرعبه؟

- ما رأيك في الخبر السري للنائب يا نور مُجّد؟ - سأل سفري مفارقاً أفكاره القلقة. وأضاف بسرعة: - أيكون سرق منا هدفنا؟.. أنا وأنت وقرباتر من يعرف بمشروعنا نحن.

- لا أظن يا أمير. أعتقد أن للنائب فكرة خاصة به. أياكون لايننسك؟.. ربما داخله الشك من تصريحك للايننسك أنك لا تريده.

- وفكرت في هذا أيضاً. لم يستقبل لايننسك في الأبراخ. وعده، ولم يسمح له بالانتقال من الشابسغ ممناً إياه بين اليوم والغد. وجيمس أخذ موقفاً منا بسبب لايننسك. لم يعد يخالطنا.

- يمكن لجيمس أن "يجرد" على الإنجليز، ولكن ماذا يستفيد من عتبه علينا؟ - غمغم حاغور، ثم فكر وغضب: - نحن من يحق له أن يستاء من الإنجليز الذين يقولون شيئاً ويفعلون آخر!.. الغريب أننا مدينون للجميع!..

- صحيح يا شرطي، صحيح... - زفر سفربي بعمق. - ولكن مع ذلك لا أفهم حُبث النائب... هيا يا حباط اقتربوا من دخاباه باكرًا، بلِّغوا نيكراس تيم إن لم يكن مرافقاً لتسي أن يصحبنا إلى الوبيخ. هذا من يعرف نوايا النائب الخفية.

V

أول من أوحى للنائب مُجد أمين فكرة الصلح مع روسيا - لم يخطئ حاغور - هو لايننسك تيوفيل، بعد أن سافر إلى النائب يشكو من سفربي. وليس صحيحاً أن هذه الفكرة خطرت للنائب في ذلك اليوم تحديداً. بل جعلته الزيارة ينظر بعين أخرى إلى القضايا التي كان متردداً فيها. قال النائب: إذا كان زانه استغنى عن جيش لايننسك فهو يمارس نوعاً من الخديعة. قارب مُجد أمين أفكار سفربي وإن لم تصله من التناخوي من خلال سلوكه ومن ترتيب أموره مع روسيا. وقارب بين هواجسه وبين نوايا زانه، وتوطدت فكرة الصلح مع روسيا على نحو لا يحتمل المناقشة.

هذا جانب من الموضوع.

وهذا الجانب الأول جزء من الجانب الثاني. حرب القفقاس تغيرت في هذا العام عما كانت عليه في العام الماضي والذي قبله، وقبل خمس سنوات، وعشر، وعشرين، وثلاثين. ويمكن، ليس للأعشى، بل للأعمى أن يرى انعدام الأمل في العام القادم. الجيش الروسي ركّز جهوده في الداغستان ويستولي على المنع واحدة تلو الأخرى. ومهما تحلى الجبليون بالبطولة فهم مرهقون من سنين

الحرب المستمرة. ولا يقتصر الأمر على الداغستان بل في إقليم الأديغة أيضاً. كيف تعيش حياتك وما زرعته في بستانك اليوم لا تأمل منه شيئاً غداً، ولا تعمل مع أسرتك، بل لا تعيش مع نفسك؟ هذا السؤال ينتصب في كل ناحية من إقليم الأديغة دون أن يعني هذا اتفاق الجميع على مصلحة الروس. لا تنطفئ نار الحرب في الأبراخ ولا في الشابسغ ولا في الوبيخ. ما إن تهدأ في مكان حتى تشتد في مكان آخر. لا تتوقف مجاهبات الرماح ومآتم القتلى. والحق يقال إن الأديغة هم المسؤولون عن كل شيء الآن. الأغلب أن تأتي مبادرات المعارك منهم فحتى لو توقف الروس في مكان ما عن القتال فالأديغة يبادرون رافضين أن يستقر الروس في أرضهم، ويسكنوا في قراهم المهجورة، ويزرعوا أرضهم، ويشربوا من مائهم، ويحطبوا من غاباتهم.

في الخريف الماضي وصلت رسالة من الإمام شامل إلى محمد أمين. الأخبار المتناقضة كثيرة. ولكن الصحيح منها قليل. وأكثرها مصدره الجانب الروسي. ثم يتكرر السرد في إقليم الأديغة بضع مرات. ولم تعد أخبار الصحف التركية والإنجليزية والفرنسية والروسية موثوقة.

ما إن سمع محمد أمين خبر زيارة زانه سفري لأرض الأبراخ حتى اختلجت عضلات وجهه، وسأل جمه جبريل بسرعة:

- هل سأل عني؟

- كان في الأبراخ العليا، لا هنا. - تجاوز جمه السؤال، - كان يبحث عن تسي ولم يجده.

- وكيف يجد تسي الذي يرتب أمور الوبيخ!.. - أبدى محمد أمين احتقاراً لمن سمع نسبه، وأضاف: - لا يكفيه الأبراخ فيجرّ غصنه إلى من لا شأن له بهم.

- لم يطق النائب الجلوس فذرع أرض الغرفة، ونظر عبر النافذة وقال: - والله لو عرفت يا جبريل أن زانه سيأتي إلى الأبراخ لقابلته... لماذا لم تخبروني؟

- وأنا عرفت الخبر للتو.

- في أي ناحية شاهدوه؟

- قيل إن رأس حصانه كان متجهاً إلى ناحية دخاباه.

- ربما كان في زيارة لنيكراس. والله كنت بحاجة إلى زانه.

- هل أطلب ملاحظته يا نائب لاستدعائه؟
- بأي حجة؟
- بحجة أن مُجّد أمين يريدك.
- ابتسم النائب وهو ينظر من خلال النافذة. وبعد قليل أضاف إلى من وراءه بصوت بارد كأنه يخاطب نفسه:
- لن يهتم زانه سفري باسم مُجّد أمين. ولكن لو عرف ما كنت أنوي له لما تجاوزني... ومع ذلك الحقوا به حالاً. وإن انتظرنا في بيت نيكراس تيم التقينا به هناك. وجهّزوا حصاني!.. كم فارساً تتوقعون أن يكون مع زانه؟
- قيل: ليسوا أكثر من عشرة.
- عدد قليل. يبدو أنه يتجول في الأبخاخ باطمئنان... - استدار مُجّد أمين بسرعة، وتطايير الشرر من عينيه، ثم قال كمن استحيا من صوته العالي:
- هذا شاهد على أنه لم تبق عادات وتقاليد في الأبخاخ... ونحن سنكتفي بعشرة فرسان. ولن نزيد شخصاً واحداً.
- لم يكن السفر المفاجئ لمحمد أمين مشكلة لجمه جبريل؛ كان مهموماً بما سيقولون لزانه وما سيتصرفون معه. أيُّ سر سيكون للنائب مع أمير الناختوي؟ لا يتذكر منذ عرفهما أنهما اجتماعاً وتبادلا كلمة دافئة، لم يكن بينهما إلا المشاحنات والحروب. ولا يكتفيان بالعداء حين يتقابلان بل يستمر حين يدير أحدهما ظهره للآخر. ومن الصعب تحديد المذنب فيهما. والآن ركبوا باقتراح من النائب. أيُّ سرّ هذا الذي لا ييوج به؟ أسأله؟ النائب كمن يسيل شعرة من البيضة. وفي هذا العام صار نزقاً جداً خلافاً للأعوام الماضية. وفقد ثقته بأصحابه.
- ساجني يا نائب، - لم يُطق جمه صبراً، - هذا الذي نتبعه، زانه، له وجوه كثيرة. ماذا إن أهاننا؟
- من يُهن يجد الفرصة للانتقام. لم نصل بعدُ إلى هذا الحدّ. كان الأفضل لو التقينا به في الأبخاخ.
- أهو خبر سارّ أم مهمة سارة ما نتابعه الآن يا نائب؟

لم يكن مُجد أمين مهتماً بالسؤال ولا بالسائل. ما في ذهنه هو أهم شيء أمامه الآن. قال النائب: لا داعي للاستفسار عن مُضيّ الحرب الروسية - القفقاسية إلى نهايتها. أمن الأفضل أن تُنتهيا بالحرب والقتال أم أن تجد وسيلة للتفاهم؟ تأملنا أن نحمي بيوتنا وقرانا وأرضنا غير أننا لم ننجح. ومن ضرّونا أكثر ممن نفعلونا. وأنا وزانه وتسي وحجمقوه من هؤلاء. لم نستطع أن نوحّد عقولنا وأفكارنا وقوانا. وما أكثر ما صدرت الهمسات من الجانب الروسي والتركي والإنجليزي والفرنسي بمجرد تفكيرنا في هذا الموضوع! والأديغة أنفسهم ما أكثر ما تجبّطوا بين التناحرات وعداء الأعراق!.. المخرج الوحيد لنا الآن، إن سمع زانه كلامي، هو مصالحة روسيا. ما جدوى أن تتحمس للحرب، وتهجم على سلاحك تريد أن تشهره إن لم تبق في الزنود قوة؟ أظن هديني هو هدف زانه أيضاً وإلا ما كان وتّر علاقته بلاينسك. يا إلهي دعنا نتفق أنا وسفري، واشملنا بعطفك، وانشر بيننا الرحمة! أنا منصف مع الأديغة، وإذا كان الإسلام والجهاد هديني من مجيئي إلى هنا فقد كنت سليم النوايا نحوهم وصادقاً معهم. وبإمكانني أن أفارقهم كما جئت إليهم دون أن يعرف بي أحد ولكني لا أستطيع أن أفعل هذا مع الناس الذين أكلت من خبزهم وملحهم، ولا تزال رجولتهم وبراءتهم أمام عيني، ومع الذين سقطوا والذين يحيون من أجل استقامتهم. ياربّ نولني أمام زانه القوة والصبر من أجل الهدف الذي أسعى إليه. هذا الصلح لسنا وحدنا، نحن الاثنين، من يحتاجه، كل إقليم الأديغة محتاج إليه. يا ربّ ليّن قلب زانه نحو الأديغة كما قلبي!

مشى جمه مسافة ينتظر الجواب. التفت إلى النائب مرتين وثلاثاً ولكنه خاف أن يذكره بالسؤال. ولم يجد من اللائق أن يغيّر موضوع الحديث. قفزت أفكار مُجد أمين من إقليم الأديغة إلى الداغستان رغم أن جمه التفت إليه أكثر من مرة، وتنحنح بضع مرات. وعادت إلى مخيلته المعارك الشديدة التي خاضها وقتها قبل عشر سنوات. ومن لا يفارق مرآه هو شامل. يا إلهي، انقل لي أخبار الإمام ولو بكلمة واحدة. ما وضع الإمام يا ترى؟ أتوسل إلى الله العلي القوي الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل هو إلى أحد أن يمنحه القوة والثبات. لا تغفل عنا ساعة تكون الحياة سعيدة أو شقية. لا نلومك إذ يصبح

الكفار أعلى منا وأقوى إذ نتحمل جزءاً من المسؤولية. ولا أظنك لم تقدر الأمور هكذا. ما تحمّلنا، نحن الأديغة المسلمين، حملنا. إن قلتُ إننا سنصالح روسيا فلا أعني أننا سنتعتق دينهم، ونخرج عن طاعتك. يصدف من أجل المحافظة على الوجود أن تقبل بأشياء لا تروق لك. ما العمل، وما أملنا؟ موقفنا اليوم هو الموقف الذي تتجلى فيه إنسانية الإنسان...

- هل قلت شيئاً يا نائب؟... لم يملك جمه وقد كاد قلبه ينفجر إلا أن يسأل، وبعدما ما سأل عاوده الخوف.

- والله لم أقل شيئاً يا جبريل، ولكني فكرت في سؤالك عما إذا كنا نسير في طريق ييشر بالخير. هل بقي في العالم خيرٌ بعد؟ ألا ترى ما يحدث بيننا؟ هرّمنا مع القضية الأديغية التي لا نهاية لها، - بدأ مُحمَّد أمين يماطل محاولاً الاحتفاظ بسره، - كنت أظن نفسي شاباً بالقياس إلى زانه سفري وها أنا وضعت قدماً في الخمسين... يحقُّ لسفري أن يشيخ من بعد ما مرّ به من أحداث. ومرّ بمراحل كثيرة من الحياة...

- يكاد يركب الحصان، - تدخّل جمه، - قيل إنه ضعف كثيراً. - ورغم ذلك خرج من الناتخواي إلى البجدوغ، وعرج في طريق عودته على الأبراخ العليا، واستطاع أن يعود من هناك إلى الويخ. المسنّ الصلب قاسٍ دائماً. لا تدعه يخدعك... توقف سفري بقلبه لا بجسده. والله لو التقينا اليوم لكان حسناً. - غيّر النائب موضوع الحديث لأنه لاحظ في نظرة جمه انتظاره للجواب: - الحق أن موقف زانه من لايننسك غير مقبول!.. كنت أودّ إعلامه بهذا... ليس الإعراض عمّن ساندوك في وقت المأساة الأديغية منسجماً مع الروح الأديغية. أنوي أن أعاتبه وقد أتى إلى ديارنا، ولو لم نكن على وفاق، في مسألة لايننسك. كنت أنوي أن أستقدم لايننسك إذا استغنى عنه إلى الأبراخ بالتراضي بيننا. كل يوم تحشد روسيا جيشها على حدود بلادنا.

- صحيح يا نائب، صحيح. ونحن نحتاج إلى قائد عسكري من دولة غربية. قيل إن المدفعيين في جيش لايننسك رماة ماهرون. كفاهم إقامة في الناتخواي، ونحن نحتاج إلى من يحمينها.

- صحيح، طبعاً، - وافق مُحمَّد أمين جمه قائلاً في نفسه: ما أشدَّ سذاجته، وما أضيّق تفكيره! - كفى ما جابه الأبراخ وحدهم الجيش الروسي، وكنت أود أن أكلم زانه في هذا الموضوع. وأرضى بأن يتنازل لي عن نصف جيش لايننسك. - ألم يصرّح زانه بأنه استغنى عن لايننسك؟ - هذا ما قاله لي لايننسك. - لماذا نأخذ منه نصف الجيش، لا كلّهُ؟ سنجد في الأبراخ ما نطعمهم به ونكسوهم بإذن الله.

- وهذا ما في ذهني، دعونا نسرع قبل أن ينقضي النهار. يزداد قلق مُحمَّد أمين كلما قطعوا مسافة من الطريق ومضى الوقت. يفكر في طريقة محادثة زانه إن التقى به كاجأً عداءه له. في مثل هذا الزمن القاسي عليك أن تتجنب الاحتقار والإهمال وتفكر في ما يجلب الرحمة للأديغة. ولن يكون زانه في عداد الناس الذين لا يقدرّون هذا الموقف. حين ارتقوا ظهر الجبل ظهر في المضيق إلى الجبل الآخر مجموعة من الفرسان. ورأوا فارسين يجريان إلى الجهة التي يقدم منها النائب. وقال جمه: - أظن هذه المجموعة من الفرسان تتبع زانه. ومن يسرعان إلينا من جماعتنا... نعم يا نائب تعرفوا عليك، لستُ مخطئاً.

توقفت جماعة مُحمَّد أمين، وتقدم حاغور نور مُحمَّد بضع خطوات من صف الناختوي، وتبادل الطرفان إشارات تحية خفيفة كي يتجنبوا المصافحة. - أبلغنا أنك يا نائب تود مقابلة زعيم الأديغة زانه سفري؛ ها هو! - أشار حاغور بيده إلى سفري الجالس على حجر بعيداً عن المجموعة بمئة خطوة تقريباً. هم النائب بالوصول إلى مجلس سفري راكباً فلم يقبل نور مُحمَّد: - ترجّل وانزع سلاحك!

هاج الأبراخ، فأشار إليهم النائب بالهدوء وقرر تنفيذ ما طُلب منه دون اعتراض. توجه إلى جهة سفري بكل ثبات ودون آثار قلق على وجهه. نهض سفري وقد بقي بينه وبين النائب ثلاث أو أربع خطوات. وضع يده اليمنى على جانب صدره الأيسر، وأوماً بإمالة الأمرء المعتادة. وأشار إليه أن يجلس

على الحجر المقابل له، غير البعيد عنه. وانتظر ريثما جلس مُجَّد أمين على الحجر، وقال له دون اهتمام زائد:

- أسمعك يا نائب!

- كنت أود مقابلتك يا أمير لما سمعتُ أنك في الأبراخ. - بدا على صوت مُجَّد أمين قلقه رغم محاولته إخفاءه ورغم تظاهره باللامبالاة.

- ولو لم أدخل الأبراخ؟

- لماذا يا أمير تتبادل كلمات لا حاجة إليها؟ ربما كان ما يهمني أتى بي إلى الناختواي.

- أسمعك يا نائب، ساحني!

- الموقف الذي نحن فيه صعبٌ يا أمير.

- وهل حدث هذا اليوم؟ حسنٌ أن عدتَ إلى وعيك يا نائب.

- لم أترجم الأبراخ كل هذه السنين دون أن أفكر في هذا.

- أسمعك يا نائب.

- الحرب الروسية - القفقاسية تمضي إلى نهايتها، وإقليم الأديغة فقد قوّته.

- من المسؤول عن أضرارها؟

- أنا وأنت وكل زعماء الأديغة مدانون.

- وأوافقك يا نائب إن اعترفت بأنك من أكبر المسؤولين. أستمع إلى ما يشغل بالك.

- ما يشغل بالي يا أمير يشغل بالك. الأديغة لن يقوّوا على مزيد من التصدي للروس.

- هل تنوي أن تتخلى عن رجولة الأديغة طوال خمسين عاماً؟

- وقعتُ في مواقف كثيرة عرفت فيها هذه المعلومة. ولكن لم أستطع التصرّف.

- أسمعك يا نائب.

- وأوافقك يا أمير على طلبك من لاينسك الخروج من الناختواي.

- يسرني تفهّمك يا نائب، - أمسك سفري بأساس حديث النائب. واستراح

مدة يريد ألا يطلعه على سرّه، ثم أضاف: - ولكنني أظنك تضع نهاية مبالغة في

التبكير للرجولة الأديغة. - ثم سأله فجأة: - هل تظن أن الأبراخ سيوافقونك على مصالحة الروس؟

- لا حلّ لنا، نحن الأديغة، غير هذا. لا تدعنا نتسبب في مأساتهم. فكّر: أنا واثق أن الأديغة سيطيعوننا أنت وأنا. أنت وأنا من حرّضهم ومن دفعهم إلى الخطأ. ومن يستطيع إحياء وجودهم، وإفناءهم نحن الاثنين. فكّر يا سفري، ولا تتجاوز ذكاءك. في السنوات الماضية مررتُ بكثير من الأخطاء وكثير من الآمال. ولكن من أشد أخطائي أنني ألحقتُ بك الضرر حين جئت قبل أعوام إلى الأبراخ تدعو إلى وحدة الأديغة. سامحني... لو توحد الأديغة لربما ما كتب الله عليهم هذا المصير.

- أنت على خطأ يا نائب، - هرّ سفري الرأس بعدما جلس مدة، ونطق اسمه لأول مرة: - أنت على خطأ يا مُحمّد أمين. كان من الصعب علينا حتى لو توحدنا أن نتصر على الدولة العظمى روسيا. خدعنا أنفسنا طوال خمسين عاماً ونحن نشبه أنفسنا بالطيور البرية، ونقصّ الغصن الذي نجلس عليه. ما الفائدة الآن من وحدة الأديغة؟ لن نُحيي الشهداء، ولن يفهمنا الأحياء مهما نصحناهم. يا حسرتي أيها الأديغي البائس، مَنْ في العالم لم يخدعك وأنا منهم؟!

- فهمت نيتك يا نائب، سأفكر في الأمر. - لا أحد غيرك وغيري يعرف الموضوع الذي كشفت لك عنه. - أفهم يا نائب، اطمئنْ، سأفكر، ولن أدعك دون جواب. أنا على طريق، - نهض سفري فنهض مُحمّد أمين. وعاد كلُّ منهما دون مصافحة إلى حيث ينتظره رفاقه.

VI

لم تقع عينا سفري على ابنه خلال الأيام التالية لعودته من الأبراخ. ولكنه مطلع على كل ما يقوله ويفعله ويسافر إليه. لا لأنه كان يتقصّى أخباره بل كان يستنتج من عرض الكلام ما يهّمه. ومع ذلك يستغرب احتجاج قريباته عنه، ورغم أن غضبه على ابنه هدا فقد استدعاه:

- ما الأخبار يا ولد؟

- لا داعي للقلق يا والدنا بفضل الله.
- هكذا إذن؟! - ابتسم سفري في سرّه، وكرر كلام ابنه: - لا داعي للقلق!
- أقصد يا والدنا أن الطرفين لا يشتبكان حتى الآن. - برأ قرباتر نفسه وقد فهم نبرة والده.
- أتوقع أن يبقى الجانب الروسي هادئاً ريثما ينتهي المشروع الذي أسعى فيه. وأرسلت خبراً إلى الجنرال فيليبسون قبل أيام. - تعال اجلس ولا تقف إلى جانب قائمة الباب. - ألقى سفري نظرة دافئة على ابنه. وأضاف إلى كلامه غير عابئ بأن الولد يمضي إلى كرسي بعيد إذ لا يرى من اللائق الجلوس قبالة والده: - وأظن أن الجانب الأديغي سينفهم هذا.
- ولكن الطرف الآخر يا والدنا لا علم له بمسعاك. - قال قرباتر على نحو لا تعرف معه إن كان يوافقه أم لا يوافقه. وارتعب إذ تذكر طريق الأبراخ.
- إن كان لا يعرف فسئطّله دون أن يعرف حقيقة الأمر تماماً، سنعوده. وأول ما نفعله في هذا الصدد هو إخراج لاينسك من إقليم الأديغة. ما الأخبار في أدربي؟
- تيوفيل في ورطة. - لم يدع قرباتر والده ينتظر الجواب كأنه كان ينتظر السؤال، - عاتبّ علينا، يقول إن الأديغة لم يعودوا بحاجة إليه، يقول: ألم أبق معكم سنة كاملة، أما حاربتُ معكم؟
- حياهم الله على هذا... - ولكن نحن أيضاً ساندنا الكثيرين. وأنكروا فضلنا. هل يتجهز لاينسك للمغادرة؟
- يتأمل من النائب.
- لا فائدة، لا ينتظره! النائب يوافقي.
- حقاً!.. - صرخ قرباتر، وسأل خجلاً: - هل تصدّق يا والدنا كلام النائب؟
- نعم يا ولدي، نعم... - تنهد سفري بعمق، وأضاف كمن يحدث نفسه: - لا مخرج لنا سواه. نعم يا ولدي، لا مخرج لنا!.. لا تكرر ما فعلت في ذاك اليوم على طريق الأبراخ! الأديغة توقفوا، لا يريدون شيئاً بعدُ. فعلنا ما بؤسنا، ولم

يُثمر عملنا عن شيء. لا أحد يعرف نية النائب الخفية غيري. واعتبر نفسك لم تسمع!

- أنا لن أفشي سراً غير أنهم يشكون في النائب.
- قد لا تجد زعيماً أديغياً يتمتع بشيء من العقل، وأنت منهم يا أمير، لا يُشكّ فيه!.. - قال سفري هكذا اعتباطاً، وسأل فجأة: - من أبلغك؟
- نيكراس تيم، وأنا أشكّ فيه.
- يا حسرتي يا نيكراس، أما حان الوقت لتوقف نشاطك؟.. - توسلت إليه، ووعدني... الحق أريد أن أسألك: هل سحبوا الجيش الذي ينتمي إليه نيكراس رفعت من الداغستان؟

- نعم يا والدنا، وحشدوه على تل شَبَج. وقد قُود وسام الصليب الحديدي للمرة الثانية جزاء على بطولاته في الداغستان.
- ولدتُ منحوس! ما أقوى روحك إذ يرمونك إلى هنا وهناك!.. - قال سفري لنفسه دون حقدٍ ظاهر، وسأل: - وماذا يقول رفعت؟
- والله لا أعرف. يقال إنه يقول الكثير. ولكن مُضَيَّ الحرب إلى نهايتها في الداغستان صحيح.

- هذا سيئ يا أمير. كلما صمد شامل في الداغستان كان هذا في مصلحة الأديغة. كان هناك ما يجعل القيصر الروسي يفكر. يا ربي، هل وصلت رسالتي إلى القيصر؟

تظاهر قرباتر بعدم سماع ما قال والده.

سُمِعَت جلبة من جهة الفناء.

ودخل ترام إلى الغرفة.

- هاجمتنا يا أمير جماعة حائطخ، - التفت إلى قرباتر، مُخْفِياً القلق الذي سبَّبه ما جاء لأجله ترام، وكأنه يقول له: انظر جزاء ما فعلت.

- وبم نحن مدينون لهم؟ - نهض سفري.

- يطالبون بأن تخرج إليهم من البيت.

- وماذا يريدون الآن أيضاً؟! - أسرع قرباتر محتدماً إلى النافذة، وقال لمن وراءه:

- ألم تستطيعوا طردهم من أمام الباب، هؤلاء الروس الخونة؟

- ماذا تقول يا أمير!.. - نهر سفري ابنه وقد فهم ما يجري أمام الباب. - هيا أَدْعُوا خَنْطَخَ إلى الغرفة، لا تنسوا عادات الأديعة!..

- بَلَّغْتَهُمْ يا أمير، وهم مصرون على مقابلتك.

- مهلاً يا والدنا، دعني أقابلهم أولاً.

- كفى يا أمير!.. لو كنتَ مطلوبهم لذكروا اسمك... - خرج سفري من الغرفة قلقاً متمهلاً.

- تَفَضَّلْ يا ألبيه، لماذا لا تترجلون؟ - سأل سفري وهو عارف ألا خير. وأضاف بسرعة: - أم أن هناك أمراً مُقْلِقاً استدعاكم؟

- نعم يا أمير! - الحادثة الشائنة التي أَقْتَرَفْتُ في قريتنا الليلة جاءت بنا. هاجمنا قرباتر، ونهب بضع أُسْرٍ. واعتقل العشرة الذين تركوا جيشه، وساقهم مقيدين. لم نعد نسأل عن حبوبنا من قمح وذرة ودُخْنٍ إن وجدنا أبناءنا العشرة سالمين. وإن لم يسلمهم إلينا، لا نؤاخذنا، فسنحرق قُمامتر كاملة!..

- أين قرباتر؟! - استدار سفري بسرعة، يا ترام، يا حباط، ولكن لم ير وراءه إلا بضعة فلاحين. - هاتوه إليّ حالاً!.. مهلاً. - صاح سفري وراء الفلاح الذي ذهب يستدعي قرباتر، ثم استدار وأشار إلى الفرسان محيياً ويده اليمنى على صدره الأيسر: - بَلَّغُوا العائمة الذين أرسلوكم أني أتحمل ذنب قرباتر. والآن أقاسمكم مأساتكم. اليوم، بل حالاً سيعيد إليكم قرباتر بيديه أناسكم وحبوبكم. أستحلفكم بالله ألا تؤاخذوني!.. - استدار سفري متورّد الوجه والإهانة تحرقه، وانصرف عن الباب.

وتبع الفرسان خَنْطَخَ.

لا يزال قرباتر على النافذة مدرّكاً أن لا خير. والكتفان العريضتان المتبintان تحجبان الضوء عن الغرفة. انتزع سفري صامتاً سوط الثيران المعلق وراء الباب. واقترب منه متمهلاً، وضربه بكل ما بقي له من قوة:

- جلبت لي العار يا سليل الكلبين! - لم يُظهر قرباتر الألم مهما تألم. ولم يلتفت، وأتبع الضربة الأولى بثانية وثالثة. - لم أكن أودّ أن أفعل بك هذا يا أمير، غير أنك اختطفْتَ مني يدي، والله شاهدني... - ألقى السوط وراء

الباب. - هيا أعد إلى العامة الذين دفعتهم إلى الهجوم علي أناسهم وطعامهم إلى ابنه! أعدهم بيدك وأمامهم... الآن حالا، ولا تتأخر ساعة!..

- لن أستطيع أن أفعل هذا يا والدنا، - بدا الألم على وجنتي قرباتر، - أفضل أن تقطع رأسي على أن أفعل هذا!..

- وأنت قطعت رأسي أمام فلاحى ابنه!.. - نهض سفرى غير مدرك أن جسده لا يساعده. - إن لم تفعل أنت هذا فعلته أنا. أين سقت الأسرى؟

- فى القبو بقماتر.

- والحبوب؟

- لم نجلب من ابنه إلا حملاً من القمح وحملاً من الذرة سلّمناها للجيش... - توقف قرباتر عند قائمة الباب وقال: - ستندم على سلوكك بشأن فلاحى ابنه!.. هؤلاء، وعلى رأسهم خنطخ، توجههم نحو الروس... يبدو أن علاقتى بقماتر انتهت!..

حُيِّل لسفرى أنه تُرك فى أحد الأقباء وحده حين أوصد قرباتر الباب وخرج من الغرفة. لم يُطق القعود فوق متعرق القلب إلى النافذة التى كان ابنه إلى جانبها. التفت بسرعة كأن أحداً يتصيده من الخلف، وتراءى له سوط الثيران وراء الباب. التقط السوط والانحناء عليه يصعب على جسده وأعادته إلى الجدار. ذرع أرض الغرفة بأفكاره المتصارعة وعاد إلى النافذة. قال: ما كان علي أن أمدّ يدي فى شيخوختي على قرباتر وقد حان وقت رحيلي الأبدي. لماذا أهنئ ورثي الوحيد من أجل هؤلاء العامة السيّفة؟ من حسن الحظ أنى لم أفعل هذا أمام الفلاحين فى غمرة حميتي!.. والشكر له هو أيضاً إذ لم يردّ عليّ. شباب هذه الأيام نزقون. ماذا أقول؟ هل تقتل قائمة البقرة عجلاً!.. ماذا ستجني من الأديغة ذوي الأسمال الذين أفقرتهم الحرب إن طلبت منهم؟ من بقي بين الأديغة الآن لا يرغب فى الصلح مع روسيا؟ الرقة تنحني دائماً أمام الجهة التى تأتى منها المأساة. ونحن نلاحظ هذا فى أوساطنا. وها هو النائب أجبروه على التسليم ويصرّح برغبته فى الصلح. كم من الأديغة فى قلوبهم هذه الرغبة ولا نعرفهم؟ لا تصدق كل من يقول إنه سيحارب الروس وسيتصدى لهم. وليس من يدعون الرجولة الكاذبة قليلين. خربنا بيوتنا بأيدينا ونحن نصدّق وعود تركيا

وإنجلترا... لا أريد أكثر من ردّ من جانب القيصر. هذه هي الوسيلة الوحيدة للحفاظ على وجود الأديغة!.. زمان الأديغة اليوم هو زمان افتقارهم إلى السلاح وإلى القوة... في الوقت الذي رقّ فيه قلبي، غضب سفري، يثير هذا العديم الإيمان الأديغة!..

- يا ترام، ينادي سفري من وسط الغرفة، وينتزع السوط من الجدار ناوياً الركوب، ويقول للفلاح الداخل: - هيا أطلقوا سراح المعتقلين من القبو. وهَيِّتُوا حملاً من القمح وآخر من الذرة. سنسافر إلى أبنة، وأرسل وراء حاغور. ليستظرنا على تبة باستوك، لا حاجة إلى فلاحين مسلّحين، مهمتنا مهمة سلمية... أين قرباتر؟

- ركب يا أمير قائلاً إنه مسافر إلى أذربي.

- وماذا سيفيده لابينسك؟

لم يجب ترام راعباً ألا يتدخل بين الأب والابن مع ميل عواطفه نحو الأب. حين سمعوا أن سفري أعاد المعتقلين والحبوب إلى أبنة لم يكتف فلاحوها بتحيته بل تقاطروا من القرى المجاورة. لم يتكلم سفري طويلاً ليبرئ نفسه أمام فلاحى أبنة، فبعدما قِيم أحداث ليلة أمس دون أن يذكر اسم قرباتر كثيراً استدرج الفلاحين إلى موضوع الحرب التي لا تنتهي، يبدأ يبلغهم نيته دون أن يأتي صراحة على ذكر الصلح مع روسيا، متكلماً على طريقة المحافظة على وجود الأديغة، وما يجب فعله اليوم أجل هذه القضية، متحدثاً عن البجدوغ والجمكوي:

-... تناقشنا أنا وحنطخ ألبيه ونحن واقفان هنا في قضية الأديغة فوجدت نفسي أواقفه. لم نأل جهداً لحماية أرضنا. وقد تصرف الشابسغ والناختواي والأبزاخ والبجدوغ والجمكوي والبسلني حسب ما يملئ عليهم ضميرهم الأديغي. ولم يحتبئوا وراء أحد. حمى آلاف الشهداء الأديغة شرف قومهم. وأنا كنت أمامهم على قدر استطاعتي. وافقتهم في آرائهم، وشاركتهم أعمالهم، وأتحت لهم فرصة التنفيس عن مشاعرهم المكبوتة. ودفعتهم أحياناً إلى الخطأ. كنت أودّ توحيد الأيغة ولكني لم أستطع كما ترون بأعينكم. لا أتحدث عنم كانوا السبب في الإخفاق. وها أنا لن أذهب بعيداً: جئتُ بجيش

لايينسك ظناً مني أن قضيتنا ستنجح، وأنا سنلقت انتباه العالم كله، وها أنتم ترون ما يحدث: بدأت أضراره تفوق منافعه...

- صحيح، منعونا من ارتياد سوق الروس!

- لم يبق عندنا ما نلبس!

- الروس لن يأكلونا، ها هم البجدوغ والجمكوي يعيشون معهم!

أشار حنطخ إلى الفلاحين الهائجين فهدؤوا.

- وأنتم هذا رأيكم؟ - يتابع سفري شاعراً بالرضا عما يسمع. - نعم يا جماعة، أقول للآيينسك: لم نعد بحاجة إليك، ارحلوا عن أرضنا فيتصام.

- قرباتر يؤيد آيينسك!

- ينتزع اللقمة من أفواه أطفالنا ويمدها إلى جيشه!

وفي هذه اللحظة يشير حنطخ بيده فيهدئ الجماعة.

- نعم، لن أخفي عنكم، - يتابع سفري: - في الأمير قرباتر هذا العيب. ولكن أين يذهب خارج قومه! اطمئنوا، عاقبته جزاءً لما فعل بكم.

- كان يجب أن تُحضّره إلينا يا أمير!.. - أحد المسنين يهز رأس عصاه في الهواء. - راجلاً، حاسر الرأس!..

- أعلمتكم أن ما يحزنكم يحزنني أيها الفلاحون... - الكلمات الأخيرة للعجوز جعلت سفري يحتد ولكنه كتم استياءه. - الأمير قرباتر أخطأ ولكنه تراجع. والنادم يغفر الله له. ونحن دعونا نسامحه!

- ولكن يا زانه... - بدأ أحد الفلاحين، ولكنهم لم يدعوه يُكمل.

- مهلاً، دعوا الرجل يتكلم!.. قل يا أمير ما في نفسك.

- أنا في نفسي الكثير، ويقلقني كثير من الأمور. استعرضنا حلّ القضية الأديفية. ما بقي هو أمرٌ واحد. إن قرّرت الحرب أو الصلح فأنتم أحرار، أنتم مؤتمر الأديفة... من منكم قال إن البجدوغ والجمكوي لا يأكلهم الروس؟...

ومن جهتي لن أخالف قراركم...

VII

في قلب مُجد أمين الصلح مع روسيا ولكن جهله بأخبار الداغستان يُلهيه عن الموضوع. وفيما يفكر في أمور شامل غير المحلولة يخطر سفري على البال.

وينظر نحو تركيا وإنجلترا، ومعهما جيمس الذي رحل إلى الويخ القريبة إلى البحر، ويدين الجميع. بقي في ساحة الأديغة سفينةً بلا شراع ولا مجاذيف. ليت ما سيحدث في الداغستان حدث وانتهينا، يقول النائب، كنا تكلمنا وعملنا على راحتنا! ولا يعني هذا يا إلهي ويا إمامي أنني أدركت لكم ظهري وقطعت علاقتي بكم. فعلتُ في إقليم الأديغة ما هو في طائفتي وما ليس فيها، وما أثمْتُ فيه وما لم أثم، وما فيه احترام لغيري وما فيه القطيعة. عشتُ مع الأديغة الذين أرسلتموني إليهم وبراءتي أكثر من ذنوبي. أمرُّ واحد لم أوافقهم عليه: استطعتُ أن أحمل الأبراخ على أن يديروا ظهورهم لأبناء قومهم الأديغة حين دعا زانه سفرني إلى وحدة الأديغة. ليس لأني أعاديهم، لا تؤاخذني يا إلهي، بل خُيِّلَ إليَّ أن زانه يسلبني زعامتي للأبراخ. انجرفت وراء الحسد والغيرة. لو اتحد الأديغة واتخذوا زعيماً واحداً لربما نظرت إليهم روسيا بعين أخرى. إن لم أكن من سيصبح زعيماً للأديغة فلماذا سفرني؟! لم يكن بينهم زعيم أفضل منه، وإلى الآن ليس بينهم سوى أنه هرم. هو الوحيد الذي يفهم الموضوع من بين من أعرفهم من زعماء الأديغة المعاصرين، ويعرف بعقله وبقلبه وبشرفه ما يجب فعله. اليوم لم يعد للسلاح الأديغي وللرجولة والشرف قيمة. فهنا هذا أنا وزانه. وفي شأن الصلح مع روسيا، اغفر لي واعطف عليّ، تفاهمنا وانتهى الموضوع. ولكن بالنسبة لي يتعلق الأمر بالداغستان. سأخلص للإمام شامل إلى آخر نفسٍ في حياتي. ولن أتركه في ساحة روسيا وحيداً!..

تقرأ على ملامح النائب أنه أرق ليالي كثيرة بعد اجتماعه بسفرني، وأفكاراً متناقضة. ويعرف هو في نفسه هذا الأمر. وطوال الشهر لم يعرف النائب راحة. دار الأبراخ كلها، واجتمع بأصدقائه وأعدائه. واستمع إلى العامة، ونخبة العامة، والمتنفذين، ورجال الضابطة، دون أن يُفصح عن هدفه تماماً. وجمع الأخبار التي جاءه بها النمامون. وزار قلعة مايقواب التي حرمتها من الطمأنينة. وجهاز الجيش الذي سيقابل به الروس إن تحركوا منها. ونزل إلى مضيق حمشك، وكان في أعالي نهر لابا. والمكان الوحيد الذي غاب عنه هو الأبراخ السفلى القريبة من الشابسغ والويخ.

لا يقلق مُجد أمين كثيراً إذا تطلعت روسيا إلى ما وراء الشابسغ والوييخ لأنه لا داعي للقلق ما دام جيش لايننسك في مواجهة أدزبي. يقول النائب لنفسه: حسناً فعلتُ إذ لم أنصح لايننسك بالاستعجال في مغادرة إقليم الأديغة. لن يضرنا وجوده على مبدأ أنه حتى السوط يمسك الهواء. يا رب ما النية الحقيقية لزانة؟ أيكون يخدعني في تصريحه لي بنية مصالحة الروس؟ إن قلت إنه وافق بسرعة زائدة فملاحظتي ليست للبعيد. هذه النية - الأمل هي الخشبة الوحيدة الجديدة في عجلة عربة الأديغة، فإما أن تلجمها وإما ألا تتحمل فتتكسر... مهلاً، لا تستعجل يا زانه، الموعد الذي حددته بشهر مهلة قصيرة جداً. لماذا طلب مني التريث قرابة الشهر؟ ماذا يُفهم من هذا؟ أيكون يجزّ الغصن الذي سيخدعني به؟ والله لا أعرف إن كانت قضية الأديغة تتحمل أن تجر غصناً بمفرده! كل الأمور تعود أخيراً إلى شامل والداغستان... يا إلهي ما أشد ما صعبت علي معرفة ما يجري هناك! ما أحتاجه كلمة واحدة، وهذه هي التي تتعلق بها مهمتي في الأديغة... ما أصعب أن تُعلق نفسك برأس الإبرة التي سننتها للأديغة!..

مرة أخرى رجع سفري إلى مخيلة النائب. وعاد كما لو بغير إرادته إلى أفكاره المتناقضة. والآن يكرر: لماذا يا ترى وافق زانه بسرعة على ما قلتُ له؟ لم أسمع أن عنده نية مصالحة الروس. وأبناء رعيتي يقولون إنه لا خبر من هذا النوع في الناختوي والشابسغ والوييخ. لا يجوز الاعتماد على ما يتسرب من البجدوغ والجمكوي والبسلي. هؤلاء صالحوا الروس منذ زمن بعيد ويسربون ما في قلوبهم وما ليس فيها. كنت أرسلت أستطلع إلى نيكراس تيم قريب زانه ضيوفاً كأن لا علاقة لي بهم، وهو يصرح بأنه سيحارب الروس ولن يسمح لهم بالتقدم ولا علم له بنوايا حمي ابنته. وطلبتُ من جمه مقابلة حاغور ولم يشك في شيء. وتسي الذي لا يعرف شيئاً مقيماً في قريته معادياً لي. والله عجيب أن يوافق زانه!.. أفكر أن أكلّف أحداً بالاتصال بقرباير، ولكنه صعب القياد، متقد كالنار. وإن شك في أنك تحاول استخلاص شيء منه يتعلق بوالده قلب عليك الدنيا. كان تناهى إلى سمعي حدوث مشكلة ما بين الأب وابنه على طريق الأبراخ ولكن مرافقيهما من الفلاحين تظاهروا بأن لا شيء من هذا

القبيل. غير أن ما رواه الصبيّان اللذان أهاهما قرباتر مختلف... الصبيّان صبياناً دائماً لا يعوّل على أقوالهم. يخيّل إليهم أن الثعلب ذئب. ولكن يوم الرعد لن يمرّ بلا مطر... في هذا الموضوع لغز لا أعرف تحديده. إن كان الأمر طلبه من لا بينسك مغادرة أرض الناختواي فالطلب يثير أسئلة ولكن يصعب اتخاذ نقطة انطلاق. ثم لماذا على زانه أن يطلب هذا؟ في موافقة زانه على الصلح لغزٌ خبيث؛ ما هو؟..

ذرع النائب أرض الغرفة بضع مرات، وتوقف عند الباب وأنصت مدة دون أن يدري السبب. وحين عاد إلى وعيه وقف ثانية عند النافذة لائماً نفسه. سافر بقلبه نحو الوبيخ وهو ينظر من فوق غابة المرتفع. قال لنفسه: عجيب ألا يأتي إلينا الضابط تَرُغَت موفد رضا باشا. مضى على إعلامنا بمجيئه من أرض الوبيخ أسبوع، بل عشرة أيام. حقاً حين تأتي من بلاد أخرى فلن تكون حراً في قراراتك. ولكن كان الأفضل أن يقابلني قبل أن يقابل زانه. مضى على الجفاء بين زانه والضابط تُرُغَت وقتٌ طويل، منذ انتهاء حرب القرم ، منذ خيائته للجيش التركي. ولا أظنه سيتوجه بكلمة واحدة إلى زانه. وإن قابله فلن يغفر له رضا باشا، وسيطخ نفسه بالعار. ولكن تحدث في الدنيا أمور كثيرة غير منتظرة. كثير من الأعداء يتصالحون، والمتصالحون ينظر بعضهم إلى بعض شزراً، ما يُدريك ماذا سيفعل هؤلاء؟ لن يفعل الضابط هذا، ومنذ تعارفنا لم يحدث بيننا سوء تفاهم... ولكن ما سبب عدم قدومه مع ذلك إلى الأبراخ؟ ربما، والعلم عند الله، يدور جراندوقوه وجيمس بالضيف في أنحاء الوبيخ. برزج متى وجد ضيفاً ومائدة استغنى عما عداها. ولكن ما المهمة التي يتابعها جيمس؟ لماذا لا يوحى إلى الضيف بضرورة زيارة الأبراخ؟ أليكونان عرجاً على لا بينسك؟ إذا دخلا أرض الشايسغ فلا بد أن يقابلا قرباتر، ولن يترجلا من حصانيهما ليلاً أو نهاراً. وإن قابلا قرباتر فلن يجدا من اللائق ألا يقابلا سفري. لا يمكن أن تعرف ماذا سيفعل هؤلاء...

لم يُطق مُحمَّد أمين البقاء في البيت. خطر له فجأة أن يروّض الحصان. وقبل أن تقع عينه على السوط نهضت أرض الداغستان من خلال أرض الأبراخ وارتسمت أمام عينيه. يتوغل في ريف القوموق من فوق بلاد الشيشان. ومن

فوقه يرى الجبال الجرداء على يمين دربند¹. وكلما تقدم توغل في الجبال التي كانت معاقل للمدافعين فصارت الآن في يد الجيش الروسي. ويُسمَع في كل مكان، كما في بلاد الأديغة، دويُّ طلقات المدافع، وصليل السيوف والرماح، والمحاربون من الجانبين يتطاحنون. وتهب رائحة دخان الحرب من بين الجبال. وتغلب لغة الروس على الأسماع. والجبليون يحمون كل إصبع من الأرض. ويتراجعون برجولة. ويتناقص الأمل والعون مع كل خطوة. الجورجيون والأرمن الذين يسكنون من ورائهم صالحوا الروس منذ عهد بعيد. والأمل مقطوع من القبرتاي التي يأتي الروس منها. ومن بقي هم الأديغة الذي يجابهون الروس غرب القفقاس. يا إلهي - قال النائب - ارحم كل من يجابهون الكفار. واجعل أتباع شامل ينقون بصلابته. ولا تحرمني من أخبار ما يجري في الداغستان. وأوصل إليّ خبرهم، خيراً كان أم شراً، ولو بكلمة واحدة. وسهّل الطريق على من أرسلته يتلقط الأخبار. لو كنت قادراً على الوقوف إلى جانب الإمام بأي طريقة لما فضّلتُ شيئاً عليه!.. ومع ذلك ما أحتاجه هو خبرٌ من جهتك، أمل!..

- هناك خبر حسنٌ يا نائب!.. - ملأ جباغ الغرفة يلهث. - ضيف كبير يأتي إلينا!

- نعم، هل يأتي من الداغستان؟ - أسرع مُحمَّد أمين بما في قلبه.

- لا يا نائب، الضيف التركي. ومعه جيمس.

- هذا هو؟ - سقطت الفرحة من قلب النائب على نحو ملحوظ. ولكنه قال

متماسكاً: - حسنٌ والله، المهم أن يصل الضابط ترغُت أخيراً!.. دعهما يتفضلان إلى الغرفة.

- كادا يصلان إلى ظاهر قرية جعُف.

¹ من أقدم مدن العالم، تقع حالياً في جمهورية الداغستان. تعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد،

على الساحل الغربي لبحر قزوين، مشهورة بقلعتها. يسميها الجغرافيون والمؤرخون العرب القدماء باب الأبواب.

- أيُّ فرحٍ يعبث بك إذن!.. أشار النائب إلى جباغ بالخروج. ونادى وراءه: -
أليس برزج معهما؟
- لم نره معهما يا نائب.
- حال الخبر دون بقاء النائب على أرض الغرفة فقعده. وقال لنفسه وهو يعود إلى
النافذة والضيفان أمام عينيه:
- والله لا أعرف سبب عدم مرافقة برزج لهما... وقوفي هنا غير لائق،
سأستقبلهما... - ومع مسيره، وفيما هو يسحب سوط الفارس من الجدار،
نادى إلى خارج الغرفة: - هيا جهّزوا لي الحصان!
- خرج النائب من الدار فلقق به عشرة من الحرس الفرسان. خمسة أمامه،
 وخمسة وراءه. ولما ظهر الضيفان على تخوم القرية تراجع حارسان من حراس
المقدمة فاصطفا إلى جانب النائب. والتحق الثلاثة الآخرون بالخمسة
المتأخرين.
- أهلاً بالضيف!- أوماً مُجّد أمين برأسه وهو يضع يده اليمنى على جانب
صدره الأيسر. - تفضّل إلى الأبراخ أيها الضابط تُرُعْتُ الذي نسمع اسمه ولا
نعرف شخصه. وأضاف شيئاً من عتابه: - انتظرنّاك طويلاً.
- لا تؤاخذني يا نائب على تأخرنا، - قال الموفد التركي - لم نستطع الحضور
في الوقت المحدد.
- والله انتظرنّاك أيها الضيف طويلاً، ولكن وجدنا لك أعذاراً كثيرة بحجة أن
الأمر لا تسير كما يُحطّط لها... لم نملك أنت بل مضيفك برزج. وأنت يا
جيمس ممن نعتب عليهم.
- لم يأل جرانودوقوه جهداً يا مُجّد أمين، - أجاب الضابط التركي بسرعة، -
كان اصطحبنا في الموعد المقرر، ولكن عجوزاً من القرية رحل عن الدنيا فلم
نستطع الخروج من القرية.
- ليفتح الله له باب الجنة إذ أنه، كائناً من يكون، من أمة الإسلام، - دعا
النائب للمتوفّى، وسأل دون وقفة: - وجراندوقوه أين هو؟
- فيما تنتظره، - أسرع جيمس، - أرسل وراءه لايينسك على عجل إلى
أدربي.

انتفض رأس مُجَّد أمين مما سمع:

- ماذا حدث؟

- الرسول ادّعى أنه لا يعرف السبب.

- يا ربي، ماذا جرى للابينسك يا ترى؟ - هل جاؤوا على دُكر سفري؟

- لا، قال جيمس، - لا علاقة لسفري بالموضوع، ما الأمر؟

- سمعت أن علاقة سفري بتيوفيل ليست على ما يرام. - لم يُفصح النائب عن الأمر الذي يعرفه.

- وأنا سمعت بهذا، - ساهم الضابط ترُعْتُ، - وتأثرت لما يجري. يبدو أن زانه سفري يركب حصاناً مُقْعِداً.

- وأنا سألت عن زانه لأني سمعت بالموضوع، - مرة أخرى لم يُبح النائب بما يشغله، - زانه الذي كنت تعرفه قديماً انتهى أيها الضابط ترغت، سفري يغيّر نمط حياته.

- من أي ناحية؟ - تلهّف جيمس.

- من جهة الشيوخوخة... - تراجع النائب. - خارت قوى سفري جداً.

- هكذا؟ - أضاف جيمس وكأنه لا يعرف بما سمعه: - قلقْتُ خوفاً من أن يتغير نحو مصالحة الروس.

- ليس بعيداً أن يخطر لسفري مثل هذا... - قال مُجَّد أمين اعتباطاً.

- لا يجوز أن تدعوا زانه يفعل مثل هذا، - لمعت عينا الضابط ترُعْتُ، والتفت إلى الفارسين وإن لم يحدّق في عيونهما. وأُنهى بصوت أعلى. - هذه خيانة!.. إياكم أن تفكروا في هذا!..

- لن يصل زانه سفري إلى هذا الحد... - تظاهر النائب بالدفاع عن سفري، وبهذه الحجة ألقى على الاثنين سؤال العتاب الذي يقلقه: - ولكن ماذا يفعل الأديغة إن لم يأت مددٌ من جهتكم، ومن إنجلترا ومن فرنسا؟ الوضع في الداغستان سيء جداً وإن كنا ما نزال نجابه هنا. القيصِر ركّز جهده على شامل ويسفك الدم في الداغستان. وإن أخوا الحرب هناك فسيُحشد السلاح الروسي على جبهتنا. كيف ننتصر على مثل هذه الدولة العظمى؟ زانه سفري وأسلاني مُجَّد أمين فعلاً ما يؤسّعهما... لا يجوز في زماننا العتب على زانه إن

خطر له شيء أو تغيرت نظرتة إلى الأمور... والأديغة منقطعون عن العالم، ويفنون في الحرب؛ من ييأس يتوقف حصانه عن الجري.

- لا تستعجل يا نائب، - قاطع الضابط التركي النائب، - ما مضى كثيره سيمضي قليله.

- موفدو الضابط التركي يحملون لك الأمل يا نائب، - أيد جيمس الضيف بسرعة.

- إن كان هذا رأيك، - لم يُبدِ النائب ما في نفسه، - يسرنا أنكم تذكركمونا أخيراً، سنرى ما يجري.

تكلم المجتمعون في كل شيء، وسأل مُجد أمين عن معارفه في تركيا. وردّ على سلاماتهم رافعاً مؤخرته عن المقعد قليلاً، مومئاً برأسه.

لم يطرق النوم عيون الضيفين والمضيف رغم تأخر الوقت. سأل عن أناس كثيرين في إقليم الأديغة، ولاسيما في الأبخاخ، ليسوا أقل ممن هم في تركيا. ومن سأل عنهم تسي ونيكراس وجهه جبريل. وسأل عن عامة الفلاحين، وعن بعض من تُحبهم. وعزّجوا على البسلني والجمكوي والبجدوغ. ولما كان النائب يعرف شيئاً من كلّ شخص من الجميع ساعد جيمس المضيف على قدر معلوماته. وليس المضيف وحده من يستغرب علّم جيمس بل الضيف أيضاً.

أكثر ما ألم النائب هو الأخبار التي رواها الموفد التركي بخصوص الداغستان. فإذا كان النائب لا يعرفها حقاً فما كان يحدهه رغم وجوده في طرف إقليم الأديغة قد تبين صدقه. لم يُخطئ: الأمور في الداغستان سيئة.

- ما العمل إذن، - تنهد مُجد أمين، - العالم الإسلامي وقع في مأزق. لا شيء يجري دون علم الله، سيختبرنا به، وسيُسيّره علينا. وإن طلب منا ثانية لم نسأل عن حياتنا.

- نعم يا نائب، نعم، - أيد الضابط التركي، - لا يجوز اليأس في الحرب المقدسة التي هي من تدبير الله. وفي هذا يقف إلى جانبكم من أنا موفده رضا باشا السيراكسیر¹. وما يفعل به علم الله وأمره. وأنا شاهد على أنه لن يترككم

¹ رتبة تقابل وزير الدفاع في تركيا آنذاك.

وحدكم في الساحة. وليست تركيا وحدها بل إنجلترا أيضاً، وجيمس على علم بالموضوع.

- لا شيء غير صحيح في ما تقول. وافق جيمس الضابط التركي.
- يا حسرتي، حين وصلنا إلى سوخوم خلال حرب القرم، - تنهد الضابط التركي ثانية، - لو أطاعنا زانه ولم يحنأ لما وقع الأديغة اليوم في مثل هذا الموقف. حسناً هذا من الماضي!.. والآن علينا أن نفكر في ترتيبات حالنا...
لم يتوقف الموفد التركي عن الكلام طوال ساعة كاملة. وأتى على ذكر أمور كثيرة لم ترد في الرسالة التي بعث بها رضا باشا. وأخبرهم أنه في خلال أقل من شهر ستأتي سفن مشحونة بالسلاح من تركيا وإنجلترا. وأطلعهم على الطريقة التي سيساعدهم بها لاينسك.

- هل صحيح إذن أيها الضيف اعتقال إسماعيل بيه خروزر؟ - ما إن سمع النائب اسم خروزر حتى سأل وإن كان يعرف الخبر.

- يستمتع بالحياة ويغتني في مدينة أخرى تحت اسم الاعتقال... - بدا على صوت الموفد التركي عدم ارتياحه للموضوع. - بل نسي إن كانت حورية خانم حية يوماً ما!.. سمحنا له أن يخذلنا بزعم أنه أديغي في الوقت الذي لم يهتم فيه إلا بما سيكسبه من وراء الأديغة. غير أن القيصر الروسي تصرف معه بما يستحق. وافق السلطان على ألا يتصرف طيلة خمس سنوات بأملأكه التي سرقها، وألا يرجع إلى الأبد إلى إقليم الأديغة. ولكن لو علمتم ماذا فعل بنا هذا الخبيث حيث اقتادوه؟.. ترك لاينسك المحارب الممتاز وحيداً في الساحة!..

- ولم يكف هذا حتى يزيد سفري الطين بلة... - قال جيمس وأضاف:-
ليس مثل جيش لاينسك من يُستغنى عنه في هذا العالم الصعب!..
لم يتكلم أيُّ من الآخرين مريداً أن يقول بصمته: ما الفائدة من الكلام على ما تعرف. ولكن حين كفّ ذكر اسم سفري عن الخروج من الغرفة في غرض الحديث، قال مُجد أمين لا يستطيع صبراً:

- والله أيها الموفد لو رأيت سفري الذي كنتم تعرفونه لأنكرته اليوم. غلبه الكبر كما أخبركم اليوم. وتوقف عن مسيرة الحياة. قابلته مرة فحُيِّل إليّ هكذا.

- وهل تلتقيان أنت وسفربي يا نائب؟ - استغرب الضابط ما سمعه، - والله يسرني لقاءكما وإن لم يكن قلبي صافياً نحو سفربي.
- لم نلتق طوال سنة كاملة. ولكننا التقينا هذا العام فجأة. - التفت النائب إلى جيمس ثم عاد بنظره إلى الضيف. - وماذا تتبادل من حديث على الطريق! تبادلنا تحية اضطرارية من قبيل ما تفرضه الأديغة، وافترقنا لم يلتفت أحدهما إلى الآخر.

ابتسم جيمس في سرّه. أخفى اطلاعه على لقاء الرجلين وعلى الحديث القليل الذي تبادلاه. ولم يندم على مجيئه من الويخ إلى الأبراخ من أجل أن يتفهم أكثر رياء النائب مرة أخرى. قال في نفسه: بين هذين الرجلين سرٌّ لا نعرفه. في أقوال سفربي العلنية التي أذاعها في قرى أبنة ولي وجبار وبابليج وتباد ما يستحق الاهتمام. حتى لو لم يأت سفربي على ذكر النائب في تلك القرى فبعد لقائهما صارت الأحاديث علنية. وما قاله النائب لنا بشأن سفربي يشهد على هذا.

- يدعي سفربي أن الهرم أثر فيه يا نائب، - لم يطق جيمس صبراً، - ولكني التقيت به في الناختوي فلم ألاحظ عليه شيئاً من هذا. كل ما فيه: جسمه وتنفسه وتفكيره، ما يزال خفيفاً. يدور من قرية إلى أخرى زاعماً أن عليهم مصالحة روسيا.

- أستغفر الله، - صرخ مُحمَّد أمين من مجلسه، - ما أسمع عجب!.. - متى تحول زانه سفربي إلى حمامة سلام؟! ماذا يريد الآن بعدما دفع الأديغة إلى الحرب مدعياً أنه لن يسمح للروس أن يتقدموا خطوة واحدة في إقليمهم فكان سبب نكبتهم!.. هاه، أقول هذا يا جيمس ولكن سفربي قد يكون على حق؟ لا أعرف، لا أعرف، لن أستطيع أن أفعل هذا.
لم يتفوه الضابط التركي بكلمة.

تثائب جيمس إشعاراً بأن ما يسمعه مدعاة للسأم، وأن الأفضل الخلود إلى الفراش:

- نعم، نعم، وقد فات موعد النوم. - نادى مُحمَّد أمين بعدما عبر جيمس عن رغبته تماماً إلى خارج الغرفة: اسمعوا! دعوا الضيوف يأوون إلى غرفهم. مهلاً أيها

الضابط ترغت انتظر قليلاً. عندي كلمة معك. وأنت يا جيمس تصبح على خير. وحين بقيا في الغرفة وحدهما أتبع من صار وراء الباب: - كرهنا هذا الجاسوس الإنجليزي... أستحلفك بالله يا ضيف ألا تفشي له سرّك... هل يعرف جيمس مضمون هذه الرسالة التي جئتني بها؟

- ليس الإنجليزي، بل أنا لا أعرف ما فيها!.. أنا نفذت مهمة رضا باشا. أطلعْتُك على ما طلب مني إبلاغه إياك شفهيّاً فحسب. غداً متى اختلينا تكلمنا في موضوعات أخرى.

- حسناً أيها الضيف، تصبح على خير. ولكن، سامحني أيها الضابط ترغت، ما كان عليك أن تُشهد الإنجليزي على ما حملته إليّ. دعهم يجهلون أخبارنا مثلما نجهل أخبارهم!

- عند جيمس فكرة عن الرسالة وإن كان لا يعرف ما فيها يا نائب. لم يُجهلي حتى أخرج من السفينة فسألني عنها.

- لا أظن أن هناك ما لا يدسّ الإنجليزي أنوفهم فيه... ولكن لا علاقة له بجواب ما كتبت إليّ. ولا يجوز أن يعرف ما فيه.

- ثقّ بي من هذه الناحية.

- بمن أثق إن لم أثق بك!.. الله واحد، وبعده أنت. حسناً إذن، لن نسمح للإنجليزي أن يستنتج الكثير. - همس النائب للموفد التركي وهو ينظر نحو الباب، - لا يزال عندي سؤال لك أيها الضابط: هل أرسل رضا باشا مثل هذه الرسالة إلى زانه سفري؟ لا تكتم عني، أريد الحقيقة.

- لم يرسل شيئاً إلى زانه. أنت تعرف دون أن أخبرك أن الأتراك مستأوون منه. - نعم يا ضيف أعرف. ولكن ظننت أنك جئت بمثل هذه الرسالة. إن لم تحمل إليه فلا بأس أن يجهل زانه شيئاً مما نعرفه نحن. حسناً سألتُ على سبيل الاحتياط.

- لن أخفي عنك يا نائب أي أود مقابلة زانه.

- لن تحصل منه على جملة مفيدة. في كلام جيمس شيء من الصحة. هو اه في شيخوخته نحو روسيا. لا أريد أن أصبح مُضغّة في فم عدوي. افهمني!

- ونحن نعرف هذا يا نائب. سنخبره بحقيقة ما في نفوسنا نحوه.

انفعل مُجَّد أمين كما لو اكتشفوا سره ولكنه أخفى انفعاله:

- لا ضير في إخباره. تصبح على خير.

قرأ مُجَّد أمين حين بقي وحيداً رسالة رضا باشا بضع مرات. جعلته الرسالة فيما يعيد قراءتها يفكر في كثير من القضايا. وضحك في سرّه من المواضع التي تُظهر عدم فهمهم لحال الأديغة، وحزن. وتفحص إقليم الأديغة من جديد أمام عينيه المتعبتين، وعاد فارتمى بعقله وخياله نحو شامل. ولم ينس زانه كما عادته حين يقع في مثل هذه المواقف. وأجاب في الليلة نفسها على رسالة رضا باشا قائلاً: لعله ينفعننا!! ورغم أنه أوصل رسالته سرّاً إلى الضابط التركي فقد قال للضيف على مائدة الفطور مُسمِعاً جيمس:

- والله يا ضيف لم أستطع الليلة قراءة الرسالة التي جئت بها بعدما سهرنا إلى وقت متأخر. سأقرأ على راحتى ريثما تتجولان في الأبراخ. وسأجيب رضا باشا على قدر فهمي. أليس الأفضل هكذا يا جيمس؟
- إن كان رأيك ألا شيء مُلِح في الرسالة فهذا أفضل... - أجاب جيمس جواباً مرائياً.

- أليست حالنا كلها مما يستدي الاستعجال!.. ابتسم النائب دون حماسة، وأسنانه البيض تبدو من تحت شاربيه. - لن تنقلب الأرض إن انتظرنا رضا باشا بضعة أيام...

لم يتدخل الموفد التركي بخير أو بشرٍ في الحديث.

VIII

بعدما رجع ترعّت الضابط إلى تركيا ببضعة أشهر، وقد انقضى الصيف لتوّه، قابل جيمس بيل نيكراس تيم. ولم يماطل في طرح المسألة التي يتابعها:
- جئت إليك يا تيم واضحاً ثقّي فيك. وما سأقوله لك لم أكتشف عنه لأحد. وأتأمل منك أن يبقى سرّنا بيننا.

نظر تيم نظرة خالية من الجواب غير عارف ما سيخبره به ضيفه، وحاول أن يقول شيئاً ما غير محدّد ولكنه قوطع:

- نعم يا تيم، أتأمل أن يبقى سرّنا بيننا، - كرر جيمس بنبرة أصلب، - لن أبوح به لغيرك.

- حياك الله يا جيمس، لن أخذلك.

- سفرني، - دخل جيمس في صلب الموضوع، - يسمح للنائب أن يخذعه بلا جدوى. - يدعي الأخير أنه سيصالح روسيا في حين أن ما يكتبه للأترك شيء آخر. - مدّ جيمس يده إلى جيبه وأخرج ورقة مطوية. - هذه أرسلوها إليّ من تركيا سرّاً، وأستحلفك بالله أن تُبقي الموضوع سرّاً. واسمع ماذا يكتب للأترك: "... أخبرنا موفدك أنك سمعت برغبتنا في عقد اتفاق صلح مع عدونا روسيا. ولكن أيها المحترم - وأنت لا تجهل هذا، والعالم كله يعرف - كانت الأمنية الوحيدة للأديغة منذ الأزل أن يعيشوا أحراراً. ونحن نستطيع التصرف بحرية نحو هذا الموضوع لا يمكن لأحد أن ينكرها. وريثما نتحقق لنا هذه الأمنية بمعونة دول أوروبا الكبرى، وفي الوقت الذي تراه تلك الدول مناسباً، ويتماشى مع أهدافنا الحقيقية، لن يخطر لنا أن نعقد اتفاق سلام مع روسيا. ولن تخرج من أفواهنا كلمة "السلام" إلى أن نتحقق أهدافنا تلك..." هل تأكدت أن النائب ذو وجهين؟..

- يا مبارك النسل يا جيمس، - صرخ تيم غير مستغربٍ الخبر الذي سمعه، - لم أعرف أنك تتقن اللغة الروسية!..

- عندنا شيء من هذا... - التاجر مثلي لن يكون تاجراً ما لم يعرف بضعة لغات. - ثم سأله بالروسية محاولاً صرف انتباهه عما قاله: - يمكننا إن أردت يا نيكراس أن نتحدث بالروسية - ولماذا لا؟ لم يتأخر تيم في الجواب. - سنتحدث بها يا بيل، سنتحدث.

- قل لي يا أخي في أيّ موضوع نتحدث؟

- وهل قليلٌ ما يمكن الحديث فيه؟ وسنصل إلى كيفية تعلّمك الروسية.

- كيف كنت أمارس التجارة لو لم أكن أعرف الروسية! هذه هي يا أخي فائدة لغة أجدادك. صدق أن وجدت وأنا على البحر في طريقي إلى روسيا أشياء لي ولأجل رُئي. ومن الصعب التفاهم مع دولة غنية... ما أشد البرد فيها، برد يُقشعر الأبدان.

- دغك من هذا، أيّ لغة نتحدث بها تفوح منها رائحة لحم الخنزير!.. - كان تيم سعيداً بلغته بضع دقائق ولكنه صحا. وغيّر الموضوع بسرعة: - ولكن لا

- أرى في هذا أيّ عجيب... - وصاح فيما يحدث نفسه: - أليس صحيحاً
إذن موقفُ النائب: لن نصالح روسيا؟!
- ولكنه ألا يخدع سفري يا تيم؟
- وهل يقبل ابن سفري أن يصالح والده روسيا، وأنا وغيرنا؟
- هذا صحيح، ومع ذلك تعجّبتُ حين وصلتني هذه الورقة...
- بربك يا جيمس أن تعطيني الورقة!
- وماذا تفعل بها؟ - كتم الإنجليزي عدم ارتياحه لما سمع. - سأحتاجها...
- سأشغل بها بال سفري!.. سنرى إن كان النائب يصلح أن يكون صديقاً
له.
- ألم نتفق على أن يبقى السر بيننا؟!
- لا تشكّ في هذا!
- وإن سألك عن مصدر الورقة؟
- سأدعي أنها من رفعت.
- لن يصدّق!..
- هل تعرف ماذا يقول الروس في هذا يا جيمس؟ يقولون: ثِقْ بي... لا
تُكمل! لا تكمل بالروسية، لا أريد أن أسمع لغة أعدائنا!..
- لا أقول شيئاً، - قطع جيمس لغته الروسية. - إذن يا تيم، ننهي حديثنا
بالروسية مع سِرِّنا... إن كان كتب هذا فلماذا يثير ضجة في الأبراز بحجة
مصالحة روسيا؟..
- _ أظن أن النائب يكذب على الأديعة...
- وقع تيم في مأزق بعد حديث جيمس. ومضت عدة أسابيع لا يدري ماذا
يفعل بالخبر الذي وضعه الإنجليزي بعُهدته، والرسالة التي تركها معه. وانتصبت
أمامه فجأة مهام كثيرة غير منتظرة. وافق تيم على ما كتبه النائب إلى الأتراك
ولكن كلام الأخير لا يتطابق مع أفعاله. لا يحب تيم أي شخص له وجهان.
ومن البداية لم يكن تيم يتفق مع النائب. ولهذا تخلّى عن وظيفة الضابطة مخفياً
السبب. والآن يعرف أنه حرٌّ في ما يقول وما يفعل. ولكن هذا لا يعني أن
يعارض زعيم الأبراز صراحة. على ما يبدو، قال تيم، يُمسك النائب بالجانبين.

وأَيُّ جانبين، بل ثلاثة: روسيا وتركيا وآل زانه... وحين أقول زانه فأنا أعني سفري، لا قرباتر، يتخذ موقفاً خاصاً به، ولا يودّ أباه لهذا السبب. وقف إلى جانب لا بينسك فلا يوافقان رأيي سفري. ويعرف أيّ أنا أيضاً لا أتفق معه فيتجَبَّنِي. ولم ألتق به منذ زمن طويل، منذ هذا الربيع، منذ أن جرح مشاعري حين سألته عن سعيه، هو والنائب، لمصالحة روسيا. لا، أنا مخطئ، بل رأيته بعدها عند حاغور ولكن لم نتكلم وقتها عما يَحْزُ في نفسينا. ومُحَمَّد نور أيضاً أنا عاتبٌ عليه. يُغري سفري بمصالحة روسيا. اتخذ من "راكيتوف"¹ مشووم صهراً فلا يحيد قيد أُملة عما يقول له. وليس حاغور وحده من يسبب له النكبة، فقد اختار طريقاً خاطئاً لولدي. واكتسب بصحبته قلب كافر.

تنهّد تيم حين تذكر ولده. قال: يا ربّ أين الولد يا تُرى؟ لم أسمع أخباره بعد الربيع. والولد ابنه كبير. وصار في عمر التفكير، ويسأل عن والده. لا يسألني أنا بل جدته التي لا تنتهي من أسئلته. والعجيب أنه يسأل إن كان والده ما يزال عند الروس... يا حسرتي يا ولدي ليس والدك عند الروس فحسب بل يحاربنا معهم!..

يُسْرِج تيم الحصان متمهلاً كأنه لن يسافر. وعليمبج يشد حزام الحصان تحت البطن. ويُمسك الزمام يساعد جده على الركوب.

- يا عليمبج، - قال تيم بعدما ركب، - هيا نادِ جدتك!
يمضي عليمبج مدّعياً الرجولة، دون أن يصرخ مائلاً الدار بضجيجه، فيطلب جدته إلى الخارج:

- أنا مسافر إلى جهة الناقحوي، سأعرج على أقربائنا، - يقول تيم للمرأة دون اهتمام ظاهر، لا تقلقا، سأغيب يوماً أو يومين.

- وهل تزور أقرباءنا خالي الوفاض؟ قلقت سَماي لما سمعت، - لو عرفتُ لجهّزتُ شيئاً تأخذه معك...

- وهل تظنّيني ذاهباً في زيارة قرابة؟ عندي مهمة في الناقحوي. - لم يهتم تيم بالأمر، - يا عليمبج ساعدْ جدتك، واسمَعْ كلامها!

¹ نُونْت الاسم الممنوع من التنوين أصلاً على مبدأ النحاة العرب: مرثُ بَسِيْبِيْهِ وسَبِيْبِيْهِ آخر.

- احذر من الروس يا جدي - اهتم عليمبج بما يشغل باله أكثر من اهتمامه بتوصيات جده، - ولا تمرّ من أمام قلعة شَبَج.

دخل تيم قُبيل الظهر أرض الناختواي من أقصر طريق جبلي يعرفه. وكانت أفكاره تنصبّ على طريقة إطلاع سفري، إن التقى به، على الرسالة التي تشهد على ما يقوله له، وعلى حجّته في عدم إبراز دور الإنجليزي في الموضوع. ومن لا يقارن ذهنه أسلاي مُحمّد أمين: حُبُّه ونفاقه وسلوكه. وإذا كان يصدف ألا يوافق تسي حاترباي على موقفه من النائب فقد اصطدم هو نفسه الآن بحقيقة النائب، وعرف أن الحق كان إلى جانب صديقه. كان أول من يجب أن يعرف هذا الخبر - قال تيم - ليس سفري، بل حاترباي، ولكن لن يبقى على كل حال جاهلاً به. انظر ماذا يفعل النائب: على طريق الروس غادياً ورائحاً. يصرّح لهم برغبته في مصالحتهم، وما يكتبه للأتراك شيء آخر. متى كتب لهم هذه الرسالة يا تُرى؟ يعود إلى الورقة فينظر إلى الشهر المؤرخة به: كتبها بعد لقائه بسفري. أظن الأفضل أن ألتقي بالصهر قبل سفري. أعرف أنه مختلف مع والده في مسألة الصلح. وقد شكّا لي مراراً هذا الوضع، وكان لاينسك رجائي أن أتكلّم مع سفري. نعم، الأفضل أن ألتقي بقرباير قبل والده... وإن حرّ سلوكي في نفس سفري؟.. لا بأس، ما أفعله أنا ليس شيئاً بالقياس إلى ما يفعل هو... يوفد رُسلًا إلى الجنرال فيليبسون فيغتّر الأخير، فلماذا لا يقابله مباشرة؟ يتوسل إليه، لا أعرف ماذا يمكن أن يفيدته!..

لم يستطع تيم إلا أن ينظر جهة منعة شَبَج حين أصبح على ظهر المرتفع. يا حسرتي أيها الولد المنحوس، أنت تخطئ وتدفعني أنا أيضاً إلى الخطأ، ولا الولد الذي خرج من صلبك يردعك. انفصلت عن قومك وارتيمت في أحضان الغرباء تحارب قومك معهم. لن يقبل الله منك يا ولدي ما تفعل. وسيحاسبك يوم القيامة، ولن يغفر لك ما تجني بحق الأديغة. وسيعبر بك على سراط جهنم الأشبه بشجرة، ويوقع بك في النار!.. يا إلهي، رفعت ضالّاً فأعِد إليه وعيه لأن من عادتك أن تعيد المخطئ إلى طريق الصواب. وفُكّ عنه سحر الروس وأعدّه إلى هُدْي الإسلام!.. هل تسمعي يا ولدي؟..

لم يكن تيم قد اقترب من تخوم قُماتر حين رأى مجموعة فرسان تتدافع. أخبروه بما لم ينتظروه:

- الأبراخ صالحوا روسيا. والإمام شامل أسره الروس في الداغستان. والجيش الروسي يزحف إلى ناحيتنا: الناخوي والشابسغ والويخ!..

- وهل هذا ممكن؟! - سألهم تيم بأول ما خطر له، ولكنهم لم يهتموا بالرد على السؤال الذي لم تعد له فائدة. وانضم إلى المتوجهين إلى قُماتر لعقد المؤتمر يشعر بالإهانة لما سمع، ولا يعرف ماذا سيفعل بالرسالة التي معه.

لم يطل الحديث في المؤتمر العاجل الذي عُقد على مشارف قرية مَقَف. وكان خطاب زانه سفربي مختصراً:

- أيها المؤتمر المبارك، يا من رعاه الله، لا يحتاج موقفنا إلى كلمة زائدة. ما ألم قلوب كل الحاضرين هنا وجمعنا هو خبر مشؤوم واحد. مرة أخرى خدعنا الروس. خذلوني في مسألة مصالحتهم التي كانت في ذهني. الله شاهدنا على أننا بريئون في هذه المسألة. كنا اتفقنا أنا والنائب على مصالحة الروس، تعرفون ما حدث، صالحوا الأبراخ، وهاجمونا نحن. في هذه المسألة يجري شيء لا نعرفه ولكننا لسنا هذه اللحظة في وضع يسمح لنا باكتشافه. لم أدخر جهداً في حماية أرض الأديغة. وحدث أن أصبْتُ وأن أخطأت. لا تؤاخذوني، نحن في حالة يأس كما في الأيام الماضية! ما العمل، وما أملنا؟ ليس مرة أو مرتين كتبتُ إلى قيصر روسيا، وتكلمت بعلمكم وبغير علمكم إلى الجنرالات الذين يحشدكم مواجهنا. ولم تردع رسالتي الأخيرة القيصر. وبدلاً من أن يجيبني ها أنتم ترون بعيونكم ما يفعل بنا. اليوم صالح الأبراخ، ولكن سترون أن نية السلام عنده ليست صادقة؛ يريد أن يسهل مهمته باستغلال تشبُّت أعراق الأديغة المتوزعة هنا وهناك. ماذا بيدنا، وما أملنا؟ سألك أيها المؤتمر مرة أخرى. المخرج الوحيد لحماية أنفسنا مخرج وحيد. فهبّا إذن إلى القتال؛ فإما أن نكون رجالاً وإما أن نموت. شرف الأديغة أغلى من حياتنا!..

تفرق مؤتمر الشابسغ على عجل.

الفرسان الذين توجهوا إلى ساحات الحرب أكثر من رجعوا إلى قراهم. والذين عادوا لم يتوجهوا إلى بيوتهم بل عملوا على استنفار الناس، وتأمين السلاح

والطعام للمحاربين. وقرباثر ولاينسك اللذان كانا يعارضان سفري في مسألة الصلح توخّدا وقادا مجموعة من المقاتلين إلى جهة أدربي. وكان سفري ونور مُجّد وترام وتيم بين من توجهوا إلى قلعة شَبَج.

قطع تيم نصف الطريق والرسالة التي في جيبه تحرقه، ولا يدري كيف يبدأ بطرح موضوعها، غير أنه فقد صبره:

- النائب حُدّعنا يا سفري.

- الأول مرة يخدّعنا النائب؟

- لا يتطابق قوله وفِعْله يا أمير.

- وأوافقك على هذا.

- انظر لحظة إلى رسالة النائب!

تصفح سفري الرسالة بسرعة، ثم أوقف حصانه:

- ما هذه؟

- وأنا لا أعرف... هذا ما يدفعني إلى أن أقول إن قوله لا يطابق فعله.

- متى كتب هذه إلى التركي رضا باشا؟ ربما وقت كان الضابط ترعّت ضيفاً عنده. كان عندي شكّ في خبث النائب. هل تسمع يا حاغور ما يقول النائب للأتراك؟ يقول لهم: الأديغة لن يصلحوا روسيا دون علمكم.

- من الواضح أننا لن نصالح روسيا ولو لم نستشر تركيا. - يقول تيم رأيهُ هو، - للنائب وجهان وإن كنت أوافقه على رأيهِ.

- والله عجيب... - ليس سفري عابثاً بما يقول تيم، بل يفكر، ويضيف: - ومع ذلك فالنائب لم يخدعني، صالح الروس... والله عجيب... ماذا كان

النائب ينوي بهذه الرسالة يا تُرى

IX

لم يكن مُجّد أمين ليعقد صلحاً سهلاً مع روسيا لولا الخبر المزعج الذي جاؤوه به عن شامل. والخبر الذي وضع حداً لمشروع مُجّد أمين لم يأت من الداغستان. جاء خبر أسره في رسالة مكتوبة بخط يده عبر موفد القيصر إلى القفقاس الفيلد مارشال بارتانيسك، ومنه عبر الجنرال فيليبسون إلى مُجّد أمين.

أخفى النائب حالة القنوط التي سببتها رسالة شامل. وفي اليوم نفسه أرسل، دون أن يستشير أحداً، إلى الجنرال فيليبسون رسالة الأبراخ إلى روسيا التي تطلب الصلح. وجهز أوثق رجال الضابطة عنده للموضوع. وفي اليوم التالي دفع المؤتمر الأعلى الذي يتزعمه بنفسه إلى تبّي الرسالة.

حين أيد معظم عامة الفلاحين المنهكين من الحرب مُجد أمين في مسعاه لم يعد يهتم بأي اعتراض. كان ما يسعى إليه سراً هو طريقة التوجه إلى المكان الذي يُحتجَز فيه شامل من روسيا، والإجراءات الواجبة لتنفيذ هذه الرغبة.

لم يماطل فيليبسون الجاهز منذ زمن بعيد لمصالحة الأبراخ. افتتح السوق الروسية للأديغة. والناس الذين تحاربوا كل هذه السنين شرعوا يتبادلون البيع والشراء، ولو بشيء من الحذر، كأن لم يكن بينهم إلا الخير. يخافون أن ينقضوا قرار الصلح الذي اتخذه معاً، ويتبادلون النظرات بوجوه طلقة كاتمين الريبة التي في نفوسهم. يربت بعضهم على أكتاف بعض، ويتصافحون.

ابتسم مُجد أمين حين دخل سفري إلى أفكاره فجأة: " أنا نفّذت وعدي، وصالح الأبراخ بالروس. والآن يمكنك أن تحمل الشابسغ على مصالحتهم، على قدر ما تسمح به رجولتك... " وتذكّر الرسالة التي تعرّض فيها للموضوع، والتي أرسل بها إلى زانه قبل أيام. كان النائب يعرف أن الشابسغ التي لم تكن تدور فيها حرب معلنة وقت كتابة الرسالة إلى سفري، ستشرب فيها هذه الحرب على نحو عاجل. ولم يطل الانتظار.

سنرى الآن - قال النائب - كيف ستصبح زعيماً على الأديغة!.. طُفّت العالم وعُدّت إلى مكانك بخفي حنين. قطعت عليّ الطريق مرات كثيرة خائفاً أن أصبح أنا زعيماً للأديغة. دعونا نرى ما بيدكم أنت وتسي وبرج ونيكراس ومعكم ولدك. لا أشفق عليكم البتة، حسرتي على العامة المساكين الذين راحوا ضحية الحرب. جازاكم القيصر بما تستحقون. أشفق على عامة الفلاحين ولكن هؤلاء أيضاً كانوا خرجوا عن طورهم. أي رجولة ستجاهون بها هذه القوة العظمى؟! الداغستان والشيشان لم يستطعوا مجابهتهم. ما لم يقدر عليه شامل لن تقدروا عليه أبداً!.. ليتني فارقت الأديغة على خير!..

لا يتورع مُجد أمين عن الكلمات الجارحة. وكلما فكر في ما جرى لشامل غلبته حميُّته دون وعيٍ منه. وحين تدفعه أحقادُه إلى ضرب الحصان بالسوط فجأة يفرد الحصان قوائمه وينبطح. وحين يشد اللجام يقفز، وجباغ يراقب النائب لا يعرف ماذا يقول أو يفعل. مضى زمن طويل لم يلحظ فيه على هذا الرجل مثل هذه التصرفات... انتهت الحرب في الأبراخ فما الذي يثير مُجد أمين إلى هذا الحد فيعذِّب الحيوان؟..

- يا جباغ، - يناديه النائب، - دعنا نتسابق!.. هيا اسبقني!.. - يحاذي النائب حارسه ويضرب بالسوط القصير حصانه. يتسابق الفارسان حتى يقطعاً غلوةً حصان طويلةً في المضيق. ورغم أن النائب لم يمارس أي خدعة فقد سبق الحارس ببضعة قامات للحصان. وصاح مُجد أمين إلى الخلف:

- ما لك يا جباغ، لا يليق بك ما يجري، أيّ حصان كسول تركب!
- حصاني ليس سيئاً يا نائب، أنقذني من مهالك كثيرة.
- لماذا إذن لا يقدر على حصاني؟
- ليس في إقليم الأديغة حصان ينافس حصانك يا نائب. هل بحثنا عنه سنة كاملة عبثاً؟ لو كان عليه أي راكب غيرك لاستوليث عليه منذ زمن بعيد...
- اسمع ماذا يقول!.. حتى لو كان لزانه أو تسي أو برزج!
- ليس هؤلاء فحسب، بل حتى لو كان لقيصر روسيا!
- حقاً، لا يجوز أن تقارني بقيصر روسيا. قاريّ بمن هو أدنى. - نظر مُجد أمين إلى رفيقه راضياً، سعيداً بما قيل له ولا يزال يجري بحصانه.
- مُجد أمين في نظري وفي نظر الأبراخ، أعلى شأنًا من القيصر. أطال الله عمره يا نائب، وحقق لك كل ما تتمنى، وأسعد الأديغة معك!..
- إذا كان مرادنا لم يتحقق لنا في إقليم الأديغة فلن يتحقق لك شيء في أسر الروس... ما العمل، هذا بانتظارنا أيضاً... - تظاهر مُجد أمين بأنه يفك الرباط عن قلقه الخفي لجباغ، مختبراً إياه، وإن كان الأخير ليس من هذا المستوى.

ابتسم النائب سرّاً حين لم يعلّق جباغ بشيء على ما لمح به إليه، قائلاً إنه لم يفهم التلميح. وكيف أتأمل من المجرم المحترف أن يقلق لمشكلاتي! ليس قليلاً ما عانيت من مشقات وأنا أخالط الأديغة، وإلى الآن لم أرتح بينهم. واجتزت مخاطر كثيرة كان الموت بانتظاري فيها. ولكني لا أندم على ما قدّمت لهم من خدمات. وحياهم الله على ما قدّموا لي. ساندني أغلبهم، ولم يسمحوا لأحد أن ينال من شرّي. والآن كيف أفارقهم؟ والإمام شامل يسأل هذا السؤال في ما أرسله إليّ. لا يجوز أن أفارقهم خفية كما جنّث إليهم من الداغستان عبّر طريق سري فماذا عليّ أن أفعل؟ إذا كان الروس أسروا شامل فبأي شيء أنا أفضله؟ ليجرّ لي ما جرى له وإن لم أكن أقارن نفسي به!.. ولكن الروس لم يأسروني في غمرة حرب! صالحت الروس قبل أن يجتازوا حدود الأبراخ. كان الأفضل مما عداه أن يأسروني دون ضجيج ولا مشكلات. لا ضيرَ في أن يُرقّقوني بمن كنت إلى جانبه طوال عمري قلباً وروحاً. حمّله حملي، ومصيره مصيري. شرف الأديغة هو الرجولة، فإن تصرفت هكذا اعتبروه رجولة مني وما عتّبوا عليّ. لا يجوز أن تماطل في أي أمر عليك فعله، عليّ أن أضع خاتمة لمصيري قبل أن يعود الأديغة إلى وعيهم. سيطحن الروس، كما يقولون، الشابسغ والأبراخ. ليس الموضوع أن الجنرال فيليبسون أشفق على الأبراخ. موعد نهاية صلحنا هو ساعة وصول الجيش القادم من الداغستان... يا حسرتي أيها الأديغي البائس الذي يعيش في أجمل بقاع العالم، ووجهه هو حريته وشفقته، وحياته هي عزة النفس والشرف، ما أشد ما طحنوك بين حجري الرحي التركي والروسي!.. ماذا بيدكم؟ مأزقكم أثقل مآسي العالم، وستتحملون هذا المصير. لا أذكر منذ أن عرفتكم أنكم فقدتم الأمل.

تأمل مُجد أمين الغابة المتعددة الألوان. ومرّت أمام عينيه القرى المتناثرة على جوانب الأنهار والأودية. ولم يغفل عن السماء الباهتة وعن السحب المتفرقة فيها. وخيل إليه أنهم يسلبونه إياها فتلوى قلبه ألماً. قال: ما العمل إذن؟ سنتركها وأماكن كثيرة أخرى. وستعيش معنا في حياتنا، في الصحو وفي الحلم، وفي ذكرياتنا التي لا نهاية لها. يا إلهي ما أشدّ ما تحبّب إلى الإنسان هذه الدنيا الفانية بالقياس إلى الآخرة الجميلة!.. دنياك التي صنعتها بيدك جميلة ولكنّ آخرة أجمل

بانتظارنا. أبعدنا عن الخطأ يا إلهي! الآن أفهم لماذا الأديغة في ضيق. أعطيتهم هذه الطبيعة الجميلة وأنت عارف أنها معارة فحسب. الأديغة فعلوا ما يؤسّعهم، ولا يزالون. لا تلمهم... لم أصادف في حياتي قوماً يحبون أرضهم وبيوتهم كما يحبها الأديغة!..

- فكّرت في مسألة طلبك الأسر من الروس يا نائب فلم أفهم. - قال جباغ، فصحا مُجدّ أمين من أفكاره.

- هذا ما تفكر فيه يا جباغ إلى الآن؟

- والله لا أعرف، قلبت المسألة إلى كل الجهات فلم أعرف لماذا تتركنا، نحن الأديغة، وتسلم نفسك للروس أسيراً؟!

- هذا صحيح، الأبراخ لم يسيئوا إلي البتة. ولكن مع ذلك يا جباغ هل تظننا أحراراً في ما نطلب حين نعرض الصلح على الروس؟ هذا جانب، ولا تحبّر أحداً، ومن جهة أخرى لا أريد أن أترك شامل، موفد الله، أسيراً وحده بين الروس. يجب أن يكون الإمام استسلم للروس بعلم الله، لا تتكلم في الموضوع، سيحزن الأبراخ.

- ثق بي يا نائب إلى الآن، ولكن الأبراخ وصلهم خبر ما جرى لموفد الله شامل. الخبر جاء به اللعين نيكراس تيم، وقد سمعت به في قرية دخاباه... لم تسمح لي يا نائب أن أنتزع روح ناقل الخبر في حين أزهرت روح المسكين تومان من أجل سلبية الكفار.

- اسكت يا جباغ! - غضب مُجدّ أمين من الخبر الذي لم ينتظره. ولكنه تراجع بسرعة، وقال لنفسه مُسمِعاً رفيقه: - كيف يمكن أن تجعل من علن روسيا سرّاً... لم يترك نيكراس تيم موضوعاً لم يدسّ أنفه فيه، ربما ابنه الضابط الروسي هو من جلب الأخبار.

- لا، ليس رفعت، الضابط راكيتوف هو من جاء بالخبر إلى الأبراخ. - أسرع جباغ بالقول، وعاد إلى فكرته التي تشغله: - والله ما قلّته عجيب... صلح الأبراخ مع روسيا يتسبّب في أسر مُجدّ أمين... والله لو لم يبق غيري لما سمحت أن يحدث لك هذا. الأبراخ كلها لن ترضى!

- حياك الله جباغ، ورضي عنك، ولكن هذا أمرٌ منتَهٍ. ما بقي هو أن نكون جاهزين، أنا وأنت، متى جاء الفرسان الروس وطلبوا منا مرافقتهم.

- ما علاقتي أنا يا مُحمَّد أمين بهذا الموضوع؟

- أتساءل فقط ألا يمكن أن تشيِّعني إلى ضفة نهر شحغواشه؟

- هذا أمر مختلف يا نائب. أنت تفعل هذا مضطراً، أما أنا فلماذا أترك قومي

الأبزاخ وأعيش في روسيا؟! حتى لو أسكنوني على جبل من الذهب!..

- إياك يا جباغ أن تقول هذا للضابطین الروسيين اللذين ينتظراننا في مضيق قُجْبِس!

- لا سمح الله يا نائب، لا سمح الله! أنا أصمُّ وأعمى!

كان مُحمَّد أمين راضياً عن نفسه معتبراً أن ما ربَّي عليه مرافقه خلال سنوات قد ربَّي عليه الأبزاخ كلهم.

ابتداء من اليوم الذي صالح فيه الأبزاخ روسيا لم يبق في بلادهم إلا كلمة "السلام". يتأملون أن يتعايشوا هم والروس إلى الأبد بأن يتوقف الروس على الضفة اليمنى لنهر شحغواشه، عند قلعة مايقواب، وتبقى بين الطرفين علاقات السوق، ولا يعود الروس فيقلقوهم. ولكن العامة لا يفهمون إلى الآن كيف تحقق لمحمد أمين الصلح بهذه السهولة الفائقة. لماذا يعيش الأديغة ونصفهم يحترق بالنار والنصف الآخر يتدفأ عليها؟ ألسنا من عرق واحد؟ أليس من ينهب الأديغة عدواً واحداً؟ ينهض هذا السؤال في الأبزاخ كل يوم. والشابسغ الذين شُنَّت عليهم حرب طاحنة لا يعرفون السبب.

منذ اليوم الأول للمصالحة يزداد في الأبزاخ تباين الأقوال والآراء الذي كان يخاف منه مُحمَّد أمين. ومن حسن حظه أنه قَرَّب الموعد الذي ضربه مع الروس. بعد غدٍ سيأتيه خمسون فارساً روسياً وسيُخرجون مُحمَّد أمين من الأبزاخ إن تيسرت الأمور. ولم ينسوا الحديث في العقوبات المحتملة. سيُخرجونه كما فعلوا بشامل عبر إقليم نهر بشزه إلى نواحي بطرسبورغ. وكفَّ عن القلق على أسرته فقد أرسل قبل الصلح امرأته إلى عمها في الجمكوي. وجَهَّز ما يتسع له صندوقه الصغير من ذهب ومجوهرات وألباس وزمرد ليحمله معه.

في اليوم المقرر لقدم الفرسان الروس جمع النائب المجلس الأعلى لزعماء الأبخاز دون استضافة كثير من الناس. وفكر في مروره بعدما يتخذ طريقه ببعض القرى القريبة التي لن يثير أهلها صخباً حوله.

لم يغض محمد أمين جفن طوال الليل. متى عرف الإنسان أن حياته ستوقف في مكان لا يعرفه انتصبت أمام عينيه مواقف كثيرة وجد فيها مشقة، وأخرى وجد فيها فرحاً، وتأملها بعين أخرى. وليس قليلاً بينها ما هو قيّم وما لا قيمة له. لا، قال مُجد أمين، لا، لم أكن سيء الحظ في الأبخاز. كان عندي من الأصدقاء والأعداء كما لكل إنسان يحترم نفسه. وعانيت فيها الراحة والقلق. واكتشفت كثيراً من نواقص حياتي. ووجدت فيها كثيراً مما كانت تحتاج إليه. والتقيت فيها بامرأة تفهمني. ومتى قال الله: كفك، عد إليّ، فسأترك ورائي من يكمل عني حياتي في هذه الدنيا العارية. وأنا راضٍ عن الأبخاز وإن جرحني فيها السيوف والخناجر والبنادق والمدافع، وإن جرحوا مشاعري أحياناً بكلمات مهينة في غير محلها، وإن كان بينهم من يوافقني ومن يعارضني. ما لست راضياً عنه يا إلهي أمرٌ واحد، ولا أظنه يجري دون علمك: غرقنا في عداواتنا ومصالحاتنا ومماحكاتنا فلم نستطع حماية أرض الأديغة. لا تحمّلني يا إلهي وزر من سقطوا من أجل بلادهم، ووزر من تركوا وراءهم من ذرية!..

توضاً مُجد أمين ووقف أمام الله يصلي صلاة الصبح. ودعا إلى الله الذي يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل هو إلى أحد ألا تثقل عليه دنياه المنيرة، وألا يضلّ في أرض روسيا التي لا يعرفها، وألا يغيب عنه عطفه ورحمته.

كانت شمس الخريف تجاوزت الفجر وبدأت تتسلق السماء حين وقف مُجد أمين أمام الأعضاء المعدودين لمؤتمر الأبخاز العليا المنعقد في غرفة استقباله الكبيرة. وقبل أن يلقي كلمته فتح متمهلاً ساعة جيبه الفضية ونظر إلى الوقت: الساعة تجاوزت العاشرة بقليل فحسب. ونظر نحو النافذة معتبراً أنه يكسب الوقت الذي يستغرقه إطباق الساعة وإعادتها إلى مكانها لمصلحته، ولم يظهر الفرسان الروس الذين ينتظرونهم. كان جاهزاً للخبر الذي سيرسلونه متى دخلوا حدود قرية جَعْف.

لم يكن مُجد أمين اليوم قادراً على الاطمئنان رغم اعتياده على القلق الدائم وعلى المهام الثقيلة. يضغط على مشاعره غير قادرٍ على رؤية من هم أمامه، ويواسي نفسه. ويفتح المؤتمر على عادته بالدعاء، كاسباً الوقت بالإطالة:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أفتح مؤتمر الأبراز باسم الله الواسع الرحمة. وأحييكم باسمه. الله أملنا ولا أمل لنا غيره. أحييكم باسم الله الذي أشاع السلام في أرض الأبراز. وندعو إلى الله أن ينشر في قلوبنا السلام والمحبة نحن والروس الذين عقدنا الصلح معهم. وأن يبارك الله لنا فيه. ويرزق الشهداء الجنة، وأن يمنح الراحة والاطمئنان إلى من يعيشون دنياهم الفانية. وندعو إليه أن يمنح أولادنا الحظ السعيد. الموضوع الذي سنتكلم فيه اليوم تعرفونه: علينا أن نفكر معاً في حياة العامة من الفلاحين في ظل السلام المعقود بين الأبراز وروسيا. وسيدلي كلُّ برأيه. وهناك بعض الفلاحين الذين ينقضون الصلح بين الطرفين...

- والمتنفذون أيضاً يا نائب، - تدخل جمه، - تسي حاترباي يهيج الأبراز العليا!..

- وصلنا أكثر من خبر من هذا النوع. - مُجد أمين مرتاح لما يسمع الآن رغم أنه لا يحب مقاطعة حديثه، - سنعاقب من يستحق في هذه المسألة. أنا لم أصالح الأبراز مع الروس حباً في الكفار! كنا في موقف صعب فرض علينا أن نفعل هذا فصار المخرج الوحيد لنا، - أفلت من النائب صوته رغماً عنه. ثم أضاف وصوته يلين شيئاً فشيئاً: - من الضعف أن تغمد خنجرك أمام من يُشهره عليك، ولكننا بهذا نحمي أطفالنا ومُسْتَبْنَا، ولا نندم عليه. وكما يقول تسي: لم نركع على رُكْبِنَا أمام العدو. وقد فعل هذا من هو أقوى منا...

نص بعض المؤتمرين برؤوسهم من الجليلة التي ثارت في فناء الدار. وخرج جباغ من بين قائمتي الباب حذراً بكل ضخامته:

- وصل حوالي مئة فارس روسي مسلح يا نائب.

- هل نسيتم عادات الأديغة في استقبال الضيوف! أَدْعُوهم إلى الدخول.

- دعوناهم ولكنهم يطلبون خروج النائب.

هاج الجالسون مما سمعوا.

- اطمئنوا!.. - رفع مُحمَّد أمين يده، وقال دون قلق ولا إزعاج: - لا يمكن أن نغير شيئاً، كل شيء له نهاية، وما كنت أتوَّجس منه حدث، والروس أتوا في طلبي. - سُمع صوت استلال خنجر غير أن النائب اعترض: - اهدؤوا، تحلَّوا بالرجولة الواعية، ولا ننسَ تقاليدنا وروحنا الأدبعية، ولنخرج من البيت بهذه الأخلاق. من يُطلق كلاماً زائداً أو رصاصة في غير محلها مذنبٌ يحاسبه الله. مصير أمورنا في المستقبل يتعلق بطريقة استقبالنا لهؤلاء. هيا، الله معنا وهو يحمينا.

اعتلت مجموعة الرجال بقيادة مُحمَّد أمين المسطبة. ووقفت وراء النائب الذي تقدَّمها بأقل من خطوة:

وفي الدار مشاة مسلحون من الفلاحين يظهرون من وراء الفرسان الروس. والفرسان والمشاة القادمون جرياً من القرية ليسوا قليلين.

حين رأى الفلاحون النائب ابتعدوا إلى الجانبين. وترجل الفلاحون الفرسان تحية له، إلا الروس. وهدأ الوقوف جميعهم قبل أن يجد الفرصة لرفع يده وضع مُحمَّد أمين يده اليمنى على صدره، وقال متوجهاً لأكبرهم على نحو خاص:

-أنتم ضيوف. أدعوكم باسمي وباسم المؤتمر الأبخازي الأعلى إلى الدخول. - أكبر الضباط الروس الثلاثة سنّاً هو من لا معرفة لمحمد أمين به، الواقف على اليمين هونيكراس رفعت، وإلى اليسار راكيتوف بافيل.

- حياكم الله، - يترجم رفعت كلام الضابط الأسنّ، - باسم قيصر روسيا، وباسم الجيش الذي يقوده الجنرال فيليبسون، وكُرمي لاتفاق السلام بيننا، نخيكم نحن أيضاً. ونعلن لكم ما كلّفونا به، - يُخرج ورقة مطوية من جيبه ويقرأ: - تبعاً لنص اتفاق السلام بين الأبخاز وروسيا لم يعد أسلاي مُحمَّد أمين النائب منذ اليوم زعيماً على الأبخاز. ومن أجل حماية شخصه يأخذه الاتفاق إلى روسيا ليعيش فيها، وهذا أمرٌ غير قابل للنقاش. وموعده هو وقتُ إعلانه. التوقيع قائد الجيش الروسي شمال غرب القفقاس الجنرال فيليبسون. هيا أيها النائب أسلاي مُحمَّد أمين.

اضطرب مَنْ في الدار مِنْ فلاحين، وَمَنْ هم خارج الدار، ورفأفه من الضابطة العدلية، وأعضاء المؤتمر. وخرج مُجَّد أمين من بين من يقف معهم بكل ثبات، ورفع يده وقال:

- إهدؤوا أيتها الجماعة. كان هذا الإجراء أول شرط اشتراطه حين وجب عليّ أن أوقع باسم الأبخاخ على الاتفاق. ولذا لن أخون التزامي. ليست حياة مُجَّد أمين بالأمر المهم بالقياس إلى الأبخاخ الذين احتفظتُ برجولتهم وهيبتهم سنين طويلة، وأمدوني بالثقة. لا تؤاخذوني، إذا كان من أجلكم، ومن أجل الأبخاخ، - يتوجه مُجَّد أمين إلى الجهات الأربع ويده على صدره، ويحييهم تحية أعزاز، - لا اعتراض لي على ما ينتظرني من مصير. عشتُم في سعادة، ومدَّ الله في عمر سلامكم. وليكبرُ أطفالكُم، ولتروا أفراحهم. أنا قدمت لكم ما يوسعني وما يسمح به عقلي. وإن كان لكم ما تؤاخذوني عليه فاغفروا لي. واحتفظوا بالله تعالى العلي في قلوبكم. ولا تفقدوا الأمل في ظله. هيا إلى الحصان!..

كان العشرون من نوفمبر / تشرين الثاني عام 1859 آخر يوم لأسلاي مُجَّد أمين النائب في بلاد الأبخاخ. وودَّعه إلى أن عبروا نهر شحغواشه قرابة ألفي فارس من الأبخاخ، كلُّ بما في نفسه نحوه.

الكتاب الثامن

I

تأثر إقليم الأديفة سلباً جداً بانتهاء حرب روسيا في الداغستان عام 1859. ولما أضيف إليه صلح الأبراخ مع روسيا ساءت الأحوال جداً في ساحل الشابسغ. وقد فهم الحكوف والويخ والناخوي هذه المسألة. وتعرض الأديفة لمضايقة شديدة على امتداد خط الجبهة. وسيطر الجيش الروسي على البحر والبر. ومهما تحلى الأديفة بالرجولة والتحتمل وحاربوا دولة أكبر منهم كثيراً بالتعداد، فقد تراجعوا في أشهر الصيف الثلاثة متحملين خسائر كبيرة، يتنازعون مع العدو التل والطريق والقرية ومجرى النهر وفسحة الغابة وشبر الأرض.

منذ زمن بعيد خسر الناختوي إقليم أبنة وإيل وبقان. وليس الأديفة قادرين على مجابهة الجيوش القادمة من الداغستان التي التفت على شنته قاله، واجتازت مرتفع البجدوغ، فتمرست بحرب الجبال. ووجب على الأديفة أن يتراجعوا هاجرين قراهم، حاملين بعض متاعهم، سائقين أمامهم مواشيهم، ملتجئين إلى منع الجبال.

وجيش لايننسك، وإن ساهم في تأخير اندفاع الجيش الروسي، يتراجع هو الآخر أمام الجيش الأكثر عدداً والأقوى تسليحاً. وفي آخر سنة أو سنتين تحقق الصيف الصاحي للجيش الروسي على طول جبهة القتال، وهو ما لم يتحقق له سابقاً. ولم يحمل الشهر الأول من الخريف الجاف إلا كل الشر للناخوي.

لجم المطر الشديد في منتصف الخريف المتحاربين، كلاً في موقعه. وحين بدأ الثلج يسقط مع المطر البارد بدا على الجيش الروسي أنه يفكر كما في السنوات السابقة في الانتظار خلال الشتاء. وسمح للأديفة البائسين الذين ينتظرون هذا الموسم بالتقاط الأنفاس.

لم يكن سفري يألو جهداً من أجل المصالحة ولو أن الجنرال فيليبسون كان رافضاً. أرسل إليه من جديد موفدين في غمرة الحرب الصيفية الدامية. ولكن لم يجبه إلا جواباً قاطعاً واحداً: ندخل قراكم بحريّة، وتفتحون لنا معابر جبالكم والطريق الساحلي. وتستسلمون دون قيد أو شرط لروسيا. وكان سفري أثار

موضوع الصلح مرة أخرى بعد الخريف ولكن ما أرسله إليه كان الجواب السابق، غير أنه أضاف شيئاً يتعلق بشخص سفري يستدعي التفكر: "إذا استسلمتم لنا شخصياً كما فعل النائب مُجَّد أمين فنحن نعد النأتخوي بالسلام"

ورغم صعوبة الأمر على سفري فقد أجاب الجنرال فيليسون مستعداً بشخصه على النحو التالي: "موافق على شروطكم إذا كانت شركيسيا ستتححر من روسيا" وتبعه الجواب القصير من فيليسون: "أنتم تبالغون في تقدير أنفسكم، توقّف الحرب يتعلق بالسكان الأصليين فحسب، أما شركيسيا فانتقلت إلى ملكية روسيا وفق معاهدة أديانوبول، وهي لها بدون شروط، هذه مشيئة الرب ومنفذها الروسي العظيم"

صعد الدم إلى رأس سفري من ذكرياته الثقيلة، وجعلته القوة التي تولدت في الجسد الشيخ يقفز دون إرادته. وبدأ يذرع أرض الغرفة مع أفكاره المتعارضة. ثم تعب من مشوار واحد فعاد وجلس. "كما فعل القائد الأبراهيم النائب مُجَّد أمين... أنتم تبالغون في تقدير أنفسكم، شركيسيا بدون شروط انتقلت إلى روسيا، هذه مشيئة الرب ومنفذها الروسي العظيم" كرر سفري بالروسية الكلمات التي هيّجته. قال: انتظر يا سليل الكلبين حتى أنفذ لك ما فعله النائب الذي لم يكن عنده يوماً قلب أديغي! ألا أكون عشت هكذا بلا جدوى البتة؟ ألم يبق إذن في العالم كله أيّ سندٍ؟ يا إلهي ما أشد افتقار الأديغة إلى من يساعدهم!.. ما ذنئنا، وما الذي لم نفعله مما علينا؟ لا يفهمنا من نتجه إليهم. يخدعوننا كالأطفال، ويقودوننا كالعميان. وحين نقول لهم: ما تفعلون بنا غيرٍ جائز يعادوننا. لماذا لا تنجح قضية الأديغة الذين يشفق عليهم العالم كله؟ متى وأين أخطأنا؟ نعيش أبرياء كما خلقنا الله. من تسبّبنا له بالضرر؟ العرق الأديغي طوال عمره لم يبادر إلى إشهار السلاح على أحد. قضى عمره يستقبل الضيوف ويُعزّهم. لماذا تخلّيت عنا إذن يا إلهنا العلي الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل إلى أحد؟

بقي سفري جالساً بوجوم وإن لاحظ دخول زوجته بابور إلى الغرفة، ولم يُبدِ على نفسه انفعالاً. والمرأة بعدما جلست مدة سألت غير مرتاحة إلى جلسة زوجها:

- يا سفري، ألا تراني؟ هل أنت مريض حتى فقدت لونك وهزلت؟
لم يقل سفري شيئاً.

- كفاك إفناءً لنفسك من أجل قضية الأديغة! - لم تُطق بابور صبراً. - دعنا نعيش القليل مما بقي من عمرنا في راحة.

أفكار سفري في مكان آخر وإن كان يسمع كلام المرأة. لماذا لا يسمع الروس ما نقول لهم؟.. والأترك؟.. والإنجليز؟.. لماذا ينظر هؤلاء من وراء ظهورنا دون أن يقدموا لنا شيئاً يُذكر؟ نحن العقبة أمام الجميع!.. اتركونا، كفاكم، ودّعونا نعيش على راحتنا!.. صحيح ما يقال إن الفأر يبعث في البيت الذي بلا قط. كم قلت للأديغة دعونا نُؤلف دولة واحدة! أفسلوا القضية متنازعين على الزعامة. استسلم آل حجمقوه للروس، وآل بولتقوه صالحوهم، والأبزاخ خدعهم النائب. ومن بقي في الساحة الناتخووي والشابسغ والوبيخ والحكوف... من منهم سيلقي السلاح قبل غيره؟ أهو برزج؟ لو أطاعني زعماء الأديغة وتوحدنا منذ بداية الحرب لما جرى لنا ما جرى. الأديغة لم يُفْتهم الوقت، حتى لو حُشروا على جانب الوادي، يجب أن نُحبي مجلس حرية الأديغة مرة أخرى. إن أعلنا في العالم باسم المجلس - البرلمان أننا دولة فسينظر إلينا بعين أخرى أعداؤنا وأصدقاؤنا، ومن يعرفنا ومن لا يعرفنا. ليكنْ هذا آخر هدف لي وللأديغة! ماذا علينا أن نفعل في هذا الخصوص؟ مؤتمر للأديغة! وليعمل فيه من صالحوا الروس ومن لم يصلحوا، ومن لا يزالون على الحياد. لا يجوز التأخر في الموضوع، وموعدنا هو الشتاء.

- هل تعرفين يا بابور ما أفكر فيه؟ - سأل سفري وقد عاد الدم الذي كان غائباً إلى وجنتيه، وأجاب باختصار: - مجلس حرية الأديغة - البرلمان.
- أي مجلس يا سفري في شيخوختك!.. - أفلت من بابور صوتها أمام الزوج كما لم تفعل طوال عمرها. - استرخ، كفاك، ودعنا ننتقل إلى جوار الله!..

- نحن سنرحل يوماً إلى جواره غير أن الأديغة سيقون دون وطن، - كان لوم
سفرني موجهاً إلى شخصه وإلى زوجته.
- الوقت الذي كان عليك أن تفعل هذا ليس زمان شيخوختك، قبل أن تقيم
في تركيا عدة سنين. - قالت بابور فجأة ونهضت.
- هل تعزّينني أنت أيضاً يا ابنة آل طارق؟ - كان بودّ سفرني أن ينهض دون
أن يبدو على صوته غضباً أو حميّة، غير أنه لم يستطع مغلوباً بثقل
الشيخوخة. وأجاب على سؤاله وهو يهز رأسه: - لا ألومك، لم تقولي لي ما لا
أستحق... ولكن لو كنتُ حراً يا بابور لربما تحقق لي ما أسعى إليه الآن...
حسناً ليست هذه مشكلة، نادي الولد!
- توقفت بابور عند الباب.
- قرباتر رجع مع الفجر، دعه ينام قليلاً.
- قلتُ: الولد!..
- اترك هذا الولد، كففاك!
- ظهر قرباتر على الباب فيما تهم بابور أن تمدّ يدها إليه، فتراجع وأفسح الطريق
لأمه. وحين بقيا وحدهما سأل:
- ما الذي جرى بينكما يا والدنا؟
- والدتك ملّت مني... - تأمّل سفرني ابنه، وقد عاد إليه وعيّه، بعين الرضا.
- لا تعتب على أمنا يا والدنا!
- لم يخطر لي هذا قطّ. هذه تفكر في أمر ما، وتقلق له. ما الأخبار في أدّري؟
- يحشدون الجيش الروسي حولنا.
- أظن لا يينسك عاتباً عليّ؟
- نعم، ولكنه يكتّم. الإهانة التي ألحقها بنا النائب أنست الجميع أحزانهم.
جيمس هو من لا يجد مكاناً له.
- وما يهّم جيمس من هذا؟.. أفضل لا يينسك عليه رغم أنني جرحت مشاعره.
يجارب معنا. حقاً لو كنا نعرف ما أمامنا... - هزّ سفرني رأسه - كان مسعانا
نحج، وما كانت أملك تعتب عليّ... ما أفكر فيه يا قرباتر: علينا إعادة مجلس
الحرية - البرلمان. أظن الأبراخ يوافقون بغياب النائب.

- هل التقى بك جيمس؟

- لا، ما الأمر؟

- كان ذكر لي هذه النية نفسها قبل أيام.

حمل الخبرُ المفاجئُ سفري على التفكير. لم تكتمل نكبة الأديغة تماماً إن شاء الله. سواء كنت أعرف أم لا فليس الإنجليزي وحده من أثار الموضوع، أظن برزج أيضاً في هذا الاتجاه. ولا أظن تسي بعيداً عن الاقتراح. إن لم نناد العالم باسم المجلس - البرلمان فلن تكفي بعد اليوم صيحة الاستنفار "مارج! " لوقف الزحف الروسي. سنقول لروسيا باسم المجلس: ادخلوا بلادنا وافعلوا ما شئتم، نحن نصالحكم. لنفنَّ إن لم يكن بدُّ وقد صرنا دولة واحدة. وفي أسوأ الأحوال سيصفنا من يلينا بأن الأديغة عاقلون.

- ما رأيك أنت يا قرباتر في الموضوع؟

- أنا جاهز يا والدنا منذ اليوم.

- إن كان هذا رأيك يا أمير فسنعمل منذ الساعة دون إضاعة الوقت. أظن أن الصواب هو تقسيم الإقليم إلى بضعة مناطق، وإرسال كل عرق عدة مندوبين مناسبين إلى المجلس - البرلمان. ولن يضُرَّ إذا اختار المجلس خمسة أشخاص متفاهمين، ولو لم يكونوا من مستوى واحد تماماً، يفكرون في قضايا الأديغة، ويمثلون الهيئة العليا له. وعلى رأس هؤلاء الخمسة رئيس سيمه إن شئت ملكاً أو سلطاناً، وسيكون هذا الرئيس موفداً للدولة كلها، ومنفذاً لقرارات للمجلس - البرلمان. وإن لم يحدث هذا فسينتخب الأديغة من وراء تناحر الأعراق...

- هذا إن لم يكونوا انتكبوا وانتهى أمرهم يا والدنا.

- ماذا يقال في مثل هذا الموقف، - قال سفري وجلس يفكر على رسله، - يقولون: الغريق يتعلق بقشة... لن نسمح للبحر أن يُغرِقنا مفتّحي العيون. سنجري وراء هذه الإجراءات إن كان فيها فائدة. إن كنت تعرف حلاً آخر فأنا أسمعك يا قرباتر. ولكن لن أسلم نفسي أسيراً لأحد كما فعل النائب، ليدخل العدو مسلماً إلى أرض الأديغة التي حمّوها. لا أريد من أصدقائي ومن أعدائي أن تخطر لهم هذه الفكرة. وليس من أجل هذا المصير عشتُ حياتي مثمناً اسم الأديغة، متحملاً من أجلهم الإهانات!..

لم يستطع سفري أن يكظم الدموع التي استدرّتها الكلمات المهينة، فانحالت دون علمه. وحافظ على الجسد الثقيل منتصباً دون الرضوخ لما جرى له. ولم يستطع إخفاء تنفّسه الشاقّ.

- يا والدنا! هجم قرباتر على والده.

- لا داعي للعجلة يا ولدي، - أوقف سفري ابنه بيدٍ ممدودة. ثم أضاف بما يوحي أنه خجلٌ مما جرى له: - وهذا جانب من جوانب هشاشة الإنسان... ثم تعيّرني والدتك: قضيت وقتاً أطول مما ينبغي في تركيا... وليست وحدها بل آخرون... بأي أملٍ عشتُ في تركيا يا ولدي؟.. كنت موفداً للأديغة فعاقبتني الدولتان المتحالفتان ضدّ الأديغة. وهذا ما لا يغفره لي المحدودو التفكير من الأديغة إلى الآن. ولهذا يعاديني الأتراك العديمو الإيمان والروس... صدّق يا قرباتر، ولا تسمع إلى أحد: عشتُ من أجل الأديغة، وقضيت حياتي، مهما كنت في أصعب الظروف، أجد سعادتي في مشاقهم وفي شرفهم. ولا أندم على ما فعلت لأجلهم. ولو عاد إليّ شبابي في هذه اللحظة لمشيت الطريق نفسه مع مزيد من العقل والحكمة... ليغفر لي الشهداء إن لم أستطع إرشادهم إلى الطريق الصحيح، ولتلين لي قلوبهم. لم أحمل نحو الأديغة رياءً وخبثاً. - عشتُ وشرفهم شرقي، وهيتهم هيتي. أترك لك يا ولدي كلمتي الصادقة. وسأمثلُ أمام الله تعالى وهي في قلبي. وهذه وصيتي يا قرباتر. لا تنسها يا ولدي!

- يا والدنا!.. - مرة أخرى جزع قرباتر.

- نعم يا قرباتر... قرباتر يا ولدي... - لم يُعدّ سفري الأملَ إلى ابنه بتغيّر في حاله. ونحّض: - هيا أسرّجوا لي حصاني، لنسافر إلى الوبيخ عبرَ أدري. ومن هناك إلى الأبراخ. سنتابع هدفنا مستفيدين من هدنة الشتاء المفروضة على الروس.

فرح قرباتر حين أخبره والده بأنهما سيسافران رغم أن الحديث الذي جرى بينهما كان يثقل عليه غير مدرك ما وراءه. ولكنه رافقه مغلوباً بالقلق، والأفكار المبهمة.

الشتاء في عنفوانه في شهره الأول، غير أن الشمس مشرقة كيوم خريفي هادئ. وسفري بين ترام على اليمين وقرباتر إلى اليسار. يراقب قرباتر طريقة ركوب

والده. لا أعرف من أين جئت اليوم بالهشاشة التي لم تكن فيك، ولكنك لست على هذه الحالة من الضعف. ثم يغيّر مسار أفكاره داعياً لوالده بطول العمر.

- للأسف صدف أن لم يكن الفلاح حباط في القرية، - يقول سفري، - يلتفت إلى ترام، وإلى ابنه بطرف عينه.

- ما الأمر هل حدث لنا مكروهٌ ما يا أمير؟ - لا يعرف ترام سبب سؤال الأمير.

- أسأل إذن ما الفائدة فيكما كليكما؟ - ينظر سفري الآن إلى رفيقه بوجه أكثر انفتاحاً. - لستما من الحكواتيين، ولا من المغنّين. تنامان منصتين إلى وقع حوافر الخيل دون أن تنصبا سلماً إلى الطريق¹.

- يا والدنا ثق بنا أنا وترام، لسنا ميؤوسين منا.

- الأخبار لا نعرفها، - يوافق ترام بسرعة، - ولكن إن طلبت منا أغنية غيّنا. وإن أردت أن نرافلك ردّدنا معك.

- أفهم يا ترام، وأنا واثق منكما في هذا... - قال سفري، ثم صاح فجأة: - هيا أيها الشباب انظرا، أليست طبيعة بلادنا جميلة!.. قمم الجبال تلك، والغابات والأخمار، هذه القرى المتناثرة على المضائق بين المرتفعات الملتفة. والسماء، والشمس! ارحمنا يا إلهي وأطلّ عمر عالم الأديغة. لا تجعله يفتقر إلى السلام وإلى روح الأديغة وقلوبهم. وهون علينا مأساتنا!.. المجلس - البرلمان يا قرباتر، المجلس الذي سيكون أساس وحدة الأديغة هو ما تبقى لنا من أمل يا ترام. الإنجليز يكذبون علينا مرة أخرى. خيّبوا أملنا فيهم. افهما يا ولدي أننا مهما تحلّينا بالرجولة لم نعدّ لنا مخرج إلا المصالحة مع روسيا... لا تُعاذ يا قرباتر، اسمعني في هذا...

يسمع قرباتر من فم أقرب الناس إليه أشد الكلمات مدعاة للتفكير وإن لم تكن تعجبه. قال: كان علينا قبل زمن طويل أن نسعى لتأليف البرلمان الأديغي... ولكن ما الذي جرى لوالدنا اليوم؟ من بقي في العالم لا يخدع الأديغة!.. ولكن كيف ننسى كل هؤلاء الذين قضوا في المعارك ونصالح روسيا؟ لا نيةً لديها

¹ يُقصد بالسلم على الطريق تبادل نوع من الأغاز، وغيرها من التسليلات لتخفيف الشعور بطوله. انظر ص 310 وما بعدها في رواية الغراء للكاتب والمترجم أنفسهما.

للصلح بل تطلب منا أن نصبح ممسحة لرجليها... لا أعرف يا والدنا لماذا
تراجع في شيخوختك...

انتفض قرباتر برأسه غير مدرك ما جرى له، ونظر نحو والده نظرة قلق وجزع،
حَيَّل إليه أن الجذع المتين اثنتي، فانقضَّ عليه:

- يا والدنا!.. يا ترام أمسِكْ به، والدنا ليس على حاله!.. - قفز قرباتر عن
ظهر الحصان وأنزل بصعوبة جسد والده المسترخي. وضع رأس والده في حضنه
وحلَّ أزرار قميصه. وحين مست قطرة ماء شفثيه فتح جفنيه المرهقين، وقال
بصوت يكاد يُسمَع:

- لا داعي لليأس يا ولدي... البرلمان الأديغي ومصالحة روسيا... - بدأ
سفرني يتنفس بصعوبة، وتساقطت دموع من جفونه المختلجة. وفهم قرباتر من
همس شفثي والده: - لا يعتبْ عليَّ الأديغة!..
وسلَّم سفرني الروح دون أن يَحْتَمِ كلامه.

- يا والدنا!.. - انفجر قرباتر بكاءً فأنحى على والده. - ماذا فعلت بنا، ومن
أين نستعيدك!..

أسبل ترام والدموع تنهمر من عينيه جفني زانه سفرني الذي فارق الحياة في 27
ديسمبر / كانون الأول عام 1859. وكان مضى على استسلام أسلاي مُجَّد
أمين لروسيا شهرٌ وسبعة أيام...

II

لم يمر يوم على قرباتر دون أن يتذكر أباه حتى بعد مرور سنة على وفاته. ولم
يكن قرباتر الذي تزعم الشابسغ وحده في هذا بل إقليم الأديغة كله. يطبق
قرباتر أفكار والده في الحياة والمواقف التي يَرُدُّ فيها دِكْرُه كثيرة، وأكثر منها
تتميمٌ منجزاته.

لم ينفق قرباتر كثيراً من الوقت ومن الجهد، ربما بسبب اقتراب نهاية الأديغة،
على تأليف البرلمان الأديغي. وحين لم تلق أفكار سفرني عرقلة في الأبراخ
استجاب الويخ والشابسغ للموضوع بسرعة. وفي هذا المسعى لم يألُ برزج
جراندوقوه وتسي حاتراي، ومعهما حاغور نور مُجَّد ونيكراس تيم، جهداً. ولم
يبق جيمس بيل ولاينسك على الحياد. وكان زعيم البجدوغ حجمعوه أسلانج

الذي يعيش الآن مواطناً روسياً على علم بما يجري. ولم يهتموا بإخبار آل بولتقو
الذين كان النائب صهرهم. بل إنهم أخبروا البسلي والقبرتاي.
اختيرت طوابسه مقراً لمجلس حرية الأديغة - البرلمان. واختار أعضاء البرلمان
الخمس عشرة قيادتهم المؤلف من ثلاثة، وهم: زانه قرباتر، وبرزج جراندوقو،
وتسي حاترباي. الأول رئيساً للبرلمان، والثاني معاوناً له، والثالث قائداً للجيش.
كان من تقبلوا البرلمان في إقليم الأديغة أكثرية ولكن معارضيهم لم يكونوا قلة
أيضاً، وكان هناك مترددون. جانب ينطلق من الفكرة التي تجمع الأديغة. وفي
الطرف الآخر يقف من يقولون: ما الفائدة من أن تُفلى رأس الحصان وتلحق
ذنبه؛ دعونا نعيش في سلام الضعفاء!

ولم تكن روسيا تجهل موضوع البرلمان الأديغي. وكانت على علمٍ بخبر المجلس
وما اتخذ فيه من قرارات قبل مضيّ يوم واحد. وُضع قبل أقل من عشرة أيام
كتابٌ أمام برياتينسك الذي أوكلوا إليه أمور القفقاس، وبعدها بأسبوعين كان
قيصر روسيا ألكسندر الثاني على علمٍ بالأمر.

وكان لروسيا فضلٌ في قبول عامة الفلاحين لفكرة البرلمان بسهولة. وأول من
كان السبب هو قائد جيش شمال غرب القفقاس إيدوكيموف. فجيش العدو لم
يكن عاطلاً عن العمل رغم الصلح الذي كان بين روسيا والأبزاخ: بدأ ببناء
القرى العمالية في غوبسك وبروميجوتونج. ويشق الطريق الذي سيربط قرى
إيجنيه - فارسك ومضيق حَمَكْت على يمين نهر فارزه في الغابة. وفي كل يوم
يتوغلون في إقليم الأديغة، ويتحصنون. ومجاهدات فرسان الأبزاخ للروس رافضين
ما يجري ليست قليلة. وهذا ما كان إيدوكيموف يريد فلم يتوانَ عن نقض
الصلح. وحين يرسل الأبزاخ إليه الوفود محتجين يتظاهر أنه يوتخ ضابطه.
ويعدّهم أن يكفّ الجيش الروسي عن إقلاقهم. ثم يودّعهم مع شارات الاحترام.
وقد فهم الأديغة أن إيدوكيموف لا ينوي خيراً فأرسل البرلمان الأديغي حِفاظاً
على الصلح وفدأً من تسي حاترباي وزانه قرباتر إليه.

التقى الموفدان الأديغيان في العاشر من تموز عام 1861 بالعقيد لاختوتين.
وطلبا التوقف عن شق الطرق في الغابات، وسحب الجيش إلى ما وراء نهر

فَدَز، وإعادة القرى المحروقة والمراعي وأراضي الحراثة إليهم، وإشاعة الطمأنينة والسلام، ولما لم يجدوا تجاوباً منه التقيا بإفدوكيموف نفسه.

لم يستقبل أحدُ الفرسان الأديغة الخمسين على باب إفدوكيموف.

- هذا الذي قصدناه يا قرباتر محروم من الإنسانية، - قال تسي بعدما انتظرا من أرسلا له خبراً بعض الوقت.

- لا داعي للسؤال عن إنسانيته وهو يفعل بنا ما يفعل. اطمئن! وليصبر رفاقنا. سيجعلوننا ننتظرهم بعض الوقت أيضاً متظاهرين بالانشغال.

بعد عدة دقائق ظهر على الباب عدة أشخاص، وقال أحدهم وهو ضابط:

- ليخرج ثلاثة من الوفد، وليقابلوا الكونت!

دخل زانه وتسي ونيكراس تيم من الباب الذي انفتح.

استقبلهم إفدوكيموف على عتبة الباب. وحياهم بإيماءة رأس خفيفة دون مصافحة. وأجلسوا أعضاء الوفد قريباً من قائمة الباب.

- أسمعكم أيها السادة الأبراز الموفدون - قال إفدوكيموف دون استعجال بكلمات ممطوطة. واسترخى بظهره على مسند الكرسي موحياً بأنه على استعداد لأي سؤال.

- نحن لسنا موفدي الأبراز فحسب، - قال قرباتر بروسية متقنة. ولم يحلّ رجلاً عن رجل كأنه يقول له: نجلس كما استقبلتنا. - نحن وفد برلمان حرية الأديغة. وبأمره جئنا نقابلك. والعقيد لاختوتين لم يفهمنا.

- البرلمان الذي تأتي على ذكره أسمع به لأول مرة، - بدا من صوته استخفافه بما يسمع. - وما هو هذا؟

- طريقة كلامك وسؤالك أيها الكونت ليسا جديدين علينا. كل الجنرالات الذين قابلناهم أجابوا الجواب نفسه. ولكن هذا لا ينتقص من قيمة الأديغة. استقر تفكير الأديغة على تأليف برلمان الحرية. وما نفذه نحن هو ما كلّفنا به. قبولكم بكلام الدولة جارتكم أو عدم قبوله شأنكم أنتم. نُعلمكم باسم برلمان الأديغة أن جيشكم ينقض اتفاق الصلح بين الأبراز وروسيا. لا تزال تفتح الطرق في الغابات، وتؤسس القرى العمالية والمنع. وتنقل جيشك عبر نهر

فدز. نحن نقدر قيمة العلاقات الأديغية - الروسية، ونحترم الاتفاق. فإن لم تقبلوا أجبرتمونا على أن نرفع السلاح. ننتظر الجواب أيها الكونت.

- لا صلاحية لي أن أجيبكم باسم قيصر روسيا. ولكن لن أخفي عنكم مهمتي. قرار السلام الذي اتخذناه ليس مع من تسمونه دولة الأديغة، بل إقليم الأبخاز. ولكن هؤلاء الأبخاز أنفسهم هم أول من نقض الصلح.

- أليس الروس، - سأل تسي حاترباي، - هم من لم يتوقفوا بعد اتفاق السلام عن اختراق أرض الأبخاز؟

- لو لم تكن تريد أن يحدث هذا ما كان عليك أن تسالم بعدما أصبحت زعيماً للأبخاز بعد النائب الشابسغ والناخوي والوبيخ، أعداءنا. هذا في رأينا هو ما نقض به الأبخاز قرار الصلح.

- كل هذه الأعراق، - لم يستطع نيكراس تيم إلا أن يتكلم بروسية تظهر منها لغته الأديغية، - لها موقدون في دولة الأديغة، ويتصرفون بموجب قرارات مجلس حرية الأديغة - البرلمان. وأنت، أيها الجنرال المثقف الكبير كان عليك أن تدرك هذا.

- أيها المحترم نيكراسوف الذي تحول أديغياً منذ زمن بعيد، نحن لا علاقة لنا بما تسمية دولة الأديغة. هذه في حكم المعدومة لنا. أعراق الأديغة المشتتة ارتبطت بنا بموجب معاهدة أدريانوبول للسلام. ولذا فهي في قبضة روسيا. ويجب احترام القيصر العظيم حاكم دولة روسيا.

- وهذا الكلام ليس جديداً علينا، - لم يدع قرباتر مفاوضه إفدوكيموف ينتظر الجواب، - لسنا أشياء أو حيوانات فيعطونا لكم. الأديغة كالروس، يعيشون عرقاً بشرياً آخر. عبروا بإنسانيتهم وهيبتهم عشرات القرون، وحموا أنفسهم كما في هذا العصر. ولا شك أنهم سيحمون ما دام فيهم روح. يبدو يا كونت أن موفدي مجلس حرية الأديغة - البرلمان لم يجدوا وسيلة تفاهم معك.

- أنت على حق، هذا أمرٌ منتهٍ.

- ربما منتهٍ بالنسبة إليك. ولكن في روسيا قادة غيرك. سنشكو إلى من ييده القفقاس.

- هذا شأنكم.

حين نهض إيدوكيموف فهموا أنه لا يجوز الاستمرار أكثر من هذا. وحين وصل الموفدون إلى قائمة الباب صاح إيدوكيموف وراءهم:

- يا نيكراسوف المحترم أعرف أن ابنك نيكراسوف رومان تيموفيفيتش نقيب ركن في الجيش. وهو يخدم جيشه بإخلاص وبطولة.

- أقول لك إنني لا أريد أن يكون لي ولد اسمه كما يسميه الكفار نيكراسوف رومان تيموفيفيتش، ولا أريد أن أعرف.

- لسنا من سميناه بل هو من سمى نفسه.

- حتى لو لم تكونوا أنتم من سمّوه، - استدار تيم قليلاً - بارك الله لكم فيه.

شاع خبر استقبال إيدوكيموف للموفدين الأديعة في كل الأبخاخ. ووصل مع زيادات الرواة إلى الشابسغ والناخوي والويخ. ولم يتجاوز البجدوغ والجمكوي. بل وجب على أعضاء البرلمان أن يجتمعوا على جناح السرعة قبل أن يصل الموفدون إلى طوابسه. وقرى الأبخاخ التي في مواجهة جيش إيدوكيموف بدأت بتجهيز جيش من الفرسان والمشاة.

...

لا يذكر تيوفيل لايننسك عاماً أصعب عليه من العام الذي استسلم فيه مُجد أمين إلى روسيا وتوفي فيه زانه سفري. لا لأنه يجد مشقات في الحرب، ولا لأن أصدقاءه يموتون فيها، ولا لأنه يُهزم. خاض تجارب كثيرة، وشهد خيانات كثيرة بعينيه، وشهد على بطولات كثيرة، وكان حزنه وفرحه متلاصقين.

...

لايننسك صاحب الخبرة الكبيرة في الحروب لا يعرف تفسيراً لاستسلام النائب لروسيا. وحالما يخطر له الموضوع يغضب:

- لا أستطيع أن أتصور يا قرباتر إلى أي مدى وصلت خيانة النائب. لم أخلص لأي أديغي مثلما أخلصت له. وبالإضافة إلى هذا، سامحني يا قرباتر، خطر لي أكثر من مرة أن أضحي بأحد رجالي لاغتيال سفري من أجل النائب.

- أظن أن فكرة الاغتيال هذه راودتك حين طلب منكم سفري الجلاء عن أرض الأديغة. - قال قرباتر دون أن يتوقف عند الخبر المشؤوم. وأضاف: - ما العمل؟ لا شيء يغيب عن عقلك تجاه عدوك!

- لا يا قرباتر، لا، - صرخ تيوفيل بين الخجل والخائف مما قال، - لم يكن سفري عدواً لي في أي وقت!.. قلبه الأديغي ورجولته بدأت الآن فقط أتفهمهما... لاشك أن سفري كان قريباً من تحقيق وحدة الأديغة لولا النائب. وها هو البرلمان الأديغي الذي ألفتُموه شاهدٌ على هذا. وقد ذكرتُ أنت وتسي وبرج أن هذه كانت فكرة والدك. ووافقكم عامة الأبراخ. ما دفعني إلى الحديث عن النية الشريرة التي كانت لديّ نحو سفري، ومن حُسن حظي أيّ لم أنقذها، هو شدة إخلاصي للنائب الغريب. يبدو أنه خدع الأديغة، ولعب بنا نحن وبالأتراك وبالإنجليز. ارتقى في أحضان الروس الذين أسروا شامل. والعجيب أنه بعدما كتب إلى رضا باشا، معبراً عن إخلاصه له، توجه في أقلّ من شهر إلى روسيا بحجة مصالحتها. ليته وقع بين يدي ولو لدقائق صاحب الوجهين هذا!.. كنت مرّفته بطلقة مدفع!..

- وهذه مشكلة للأديغة - قال قرباتر، - ما مضى مشكلة. ومشكلة المشكلات، ومهمتنا الأولى أيضاً هي أن نجني السلام من الحرب التي شنتها علينا روسيا، ونقيم كياناً لدولة الأديغة، ونُبلغ العالم بقيامها. ونفهم أن روسيا التي احتلت ثلث إقليم الأديغة لن ترحب بهذا. وأفهمنا إفدوكيموف قبل أيام هذا الموقف. ولكننا سنقابل المسؤول عن القفقاس كله في تفليس. وسنخبر الإنجليز والأتراك والفرنسيين... ألن يسمعون! حياك الله يا تيوفيل، لا عتب لنا عليك. ساعدتنا على قدر استطاعتك. غامرتم بأنفسكم. وضحيتم بأرواح كثيرة على أرض الأديغة. وليجذ كل من رحل إلى الآخرة وفي قلبه الخير لنا طريقه إلى الجنة.

- وكان بإمكاننا أن نحارب أيضاً قرابة نصف سنة مع الأديغة يا قرباتر، وكان من الممكن أن نفيدهم... ولكن جيشنا يرى أن الأفضل مفارقتكم من أجل ألا يصبح وجودنا ممسكاً لروسيا ولغيرها من الدول. سنبتعد قبل أن يهيج البحر في

الخريف. ماذا بيدنا؟ لم نحقق هدفنا ولا هدفكم... ولكنني شهدت بعيني رجولتكم. وكنت بين من اختبروها...

انفعل تيوفيل مغلوباً بالعزة البولونية والعزة الأديغية فتساقطت دموعه، ومسحها. عانق قرباتر تيوفيل، وودّع كل الآخر وهو يعرف ما يغتلي في قلب الآخر...

...

في أواخر الشهر الأخير من الصيف خرج آخر مقاتل من فرقة تيوفيل الأوربية من أرض الأديغة. ولم تفارق عينا أحد منهم الشاطئ الأديغي إلى أن غاب عن الأنظار نادماً على ما فعل...

بعد أن التقى الموفدون الأديغة بالجنرال إيدوكيموف وتكلموا معه بقسوة شديدة، ولا سيما بعد مغادرة الفرقة الأوربية أرض الأديغة، ساور القلق أعضاء البرلمان الأديغي وعامة الناس في شأن تأليف الجيش الأديغي المزمع إنشاؤه.

في إحدى الأمسيات قال حباط للفلاحين المجتمعين في مضافة ترام، والغارقين في النقاش: - الحق أني أستمع إليكم فأتعجب: هل يتوقف الأمر على الخيل؟! تحلّوا أنتم بالشجاعة، ولن تنقصكم الخيول. - مرة أخرى أكّد حباط كلماته مصلياً كتففيه: - لو لم يبق غيري لأمنت لكم في ليلة واحدة هذه الأحصنة المئة!

نظر ترام نحو حاغور لا يفهم كلام صديقه، ويسأل في الوقت نفسه إن كانوا يعرفون شيئاً عن الموضوع. ومرّ بالنظرة نفسها على تيم. قال ترام: اجتمعنا نحن الأصدقاء وبحثنا جدياً الموضوع فأمنّا بصعوبة حصاناً فأني أمل يغرينا به الآن؟ ثم إنه لا يعد بحصان أو اثنين بل يتكلم في المئة كمن عنده مئات من الخيل. يجرم معارضاً المجموع. بمئة من يتكرم اليوم هذا الرجل؟ أسأله؟ وما فائدة سؤال من جيبه مثقوب فلا يجد ما أودعه فيه!

حين لم يسأل أحد من الحاضرين عن الأمر لم يستطع حباط صبراً:

- ماذا يا ترام؟ ألا تصدّق؟

- ولماذا لا أصدّق؟ - ابتسم ترام قليلاً لا يريد الإساءة إلى صديقه الأسن، وبعد سكتة قصيرة أضاف: - ولكن لا أعرف من أين ستأتي بها.

- لا تَهْتُمُوا أَنْتُمْ بِمَصْدَرِهَا، - قال حباط متوجهاً إلى الجميع: - اعتبروا الأحصنة المثة صارت في قوام جيش الأديغة!
- ما كنا لنهتّم لو كان عندك مصدر تأخذ منه. - قال حاغور أيضاً بلامبالاة.

- لماذا تتهجمون على هذا الرجل؟ - انحاز تيم إلى الرجل المستجوب. - ألسنا نصطدم أينما سافرنا بجيوش الفرسان القوزاق؟ ألم نعد نثق بالرجولة الأديغة؟
- حياك الله يا تيم. هذان يريان رجولتي بلا معنى إن لم أكن مع صديقي الأصغرين: أنت على صواب في مسألة جيوش الفرسان القوزاق. ولكني أعرف هدفاً أسهل، وأعرف كيف أصل إلى الموقع. وأعرف المدخل والمخرج والوسيلة. هذان لن يرافقتاني، وقد يرفضان طلبي إن اقترحتُ عليهما. ولكن إن رافقتني واحد مثلك فأنا أعِدك الآن حالاً أن آتي بهذه المثة إلى حدود قُماتر ريثما يتكلم هذان في تجهيز الحصان الواحد.

- إن كنت تعرف مثل هذه الفرصة وقررت أن تهاجم القوزاق فأنا جاهز من هذه اللحظة! - شدّ نيكراس تيم قامته، وأصلح وضع الزنار الذي يحمل الخنجر والمسدس على خصره.

- بديهي أننا سنهاجم قوزاقياً غنياً بالخييل، لا أديغياً منّا! - أفصح حباط عن نيته السرية تماماً.

- مهلاً يا حباط، مهلاً! - استعجل ترام مستعيناً بحاغور وقد خَمّن المكان الذي سيعزوه الرجالان: - اسمعوا بم يفكر حباط يا حاغور!.. حباط لا يكشف سره ولكن هل تعرف يا حاغور أين سيقصد؟ إن تفعل هذا يا حباط، وإن تَهَرَّ شعرة من رأس بوتينك إيفان فالقطيعة بيننا وبينك! وهنا ننهي علاقات الاحترام بين الأكبر والأصغر فينا!

- هذا هو في النهاية!.. - رفع حباط راحته التي تشبه المغرفة ثم عاد فهُوى بها، - هؤلاء لن يسمحوا لك أن تفعل ما تريد... على مبدأ: لا تخرج ولا تبقى في البيت ولا تدعني أدخل وأنت فيه!

- لماذا يا ترام؟ هل أمك من ولدت إيفان بوتينك فلا تسمح أن تهتر شعرة من رأسه؟! - احتدّ تيم، - أليس من أملاك الأديغة اغتنى هذا الأشعث القبيح؟

- اهدأ يا تيم قليلاً، - لم يقبل حاغور، - ليس من عادة الأديغة أن يغزوا من أكلوا على مائدته، من لهم معه قرابة أو صداقة.
 - لماذا يا حاغور تظن نفسك أديغياً أكثر مني؟
 - لا يا تيم، لا أقصد شيئاً من هذا، ولم يخطر لي. أتكلم كلاماً مجرداً على الأديغة - الإنسانية، بعيداً عن شخصك.
 - لا بأس إذن... - لان قلب تيم عائداً إلى حاله.
 - أقول هذا لأنه يخيّل إليه أنه إن لم نغز خيله، وترجيناه دون سفك الدم، فسيطينا!..

- والله لن يعطيك حتى حصاناً أجرب!- لم يوافق تيم على ما سمع.
 - لا يا تيم، - لم يوافق حباط الضيف الأبراهيمي، قال وقد تذكر كرم إيفان بوتينك، خجلاً مما خطر له بحقه، - لن أوافقك على هذه المسألة، لن أدعي أنه لا يضمرك لك الخير. ولكن...
 - لا تُضِفْ " ولكن " يا حباط، - انتزع ترام الكلام من حباط. - لا أريد أن أسمع! لن أدعكم تتهمون الرجل بما ليس ذنبه لأنه من القوم الذين يعادوننا، لأنه قوزاقي. تذكروا فاسيل كيف استقبلنا بدموع الفرح حين تزوج ابنه فذهبنا إلى عرسه.

- ليست بطولة أن تزور أعداءك الذين ينهبونك مهيناً... - غمغم تيم محدثاً نفسه، مسمعاً الآخرين.

- وزيارته هو لبراوت في عرسه ومعه حصان مسرج وبقرة حديثة الولادة. - قال حاغور كأنه لم يسمع كلام تيم، متجاهلاً غمغمته.
 - صحيح، فعل مثل هذا، - شهد حباط على كلام حاغور مطرقاً خجلاً مما قاله، - بوتينك إيفان رجل صالح لولا أنه قوزاقي... حسناً، فيما بعد... - كان ينوي إضافة شيء ولكنه سكت حين نظر في وجه ترام...

III

قرر الموفدون الأديغة الالتقاء ببارتينسك للتأكد من صحة ما قال لهم إفدوكيموف.

- لا أعرف ما فائدة ما تسعون إليه، - قال تسي، - هل سنعيد مرة أخرى طريق المرحوم والدك سفري؟ متى ما التأم شمل مجلس الحرية - البرلمان فلن نتوسل، سنتصرف باسمه.

- أوافق حاترباي، - ساهم جيمس في نقاش الثلاثة الذين يجلس في حضرته شاعراً بأنه استعجل في التدخل. وكعاداته في الاحتفاظ لنفسه بزاوية رؤية، ولكن لا أنفي بهذا وجهات النظر الأخرى.

- أنا لا أوافق، - جزم برزج غير مهتم بالمواقف الأخيرة. - علينا أن نتأكد من صحة أقوال إيدوكيموف وسلوكه معنا. نحن لم نعتد على أرض روسيا. هي من تنهينا. نحن لم نؤلف دولة من أجل أن ننفذ أوامر الجنرال: اخرجوا من الجبال، ابتعدوا عن الساحل، أعيديوا إلينا الأسرى الروس، عيشوا على نظامنا!.. أفضّل أن نعود إلى الطريق الذي مشيناه، مهما قاسينا من عذاب إن كان هذا ضرورياً، إن كان لمصلحة القضية الأديغية.

- لا يعني هذا يا جراندوقوه ألا نحدد عن طريق والدنا، - توجه قرباتر نحو زعيم الويخ، ولم يستبعد آخر كلمات جيمس، واحتاط من تسي، - مهما قلنا أو فعلنا فباسم البرلمان الأديغي. وستكلم إلى برياتينسك، وفي حال الضرورة، وهذا ما يحدثني به قلبي، سنرسل موفداً إلى قيصرهم. ولن نكتفي بهذا بل سنرسل إلى إنجلترا وتركيا وفرنسا. وسنُفهم الدول الأخرى في الجنوب، ودول أوروبا. لا يعني رحيل الأمير سفري تغيير نوايا زعماء الأديغة الآخرين. يعيشون وفق متطلبات عصرهم الجديد. لا تعتب عليّ يا حاترباي.

- لا أرى في هذا ما يدعو للعتب. أنت تتكلم من قلبي يا قرباتر. - حياك الله يا كبير. إن كان هذا رأيكم فلنراجع رسائلنا مرة أخرى. هذه التي كتبناها إلى روسيا لا تختلف كثيراً عما كتبنا إلى إنجلترا وتركيا وفرنسا. شكراً لك يا جيمس قمت بعمل مهم. علينا أن نوصِل رسائلنا دون تأخير إلى الدول المعنية.

بدأ قرباتر يقرأ الرسالة إلى روسيا دون استعجال، متوقفاً عند نهايات الجمل، متأملاً وجوههم، ومترجماً إلى الأديغية. وجلسوا بضع ساعات وكلّ يدي برأيه، ثم تصاغ الآراء كلها صياغة أخيرة، وتُراجع وتُصحّح. وقد اجتهدوا في صياغة

هذه الرسالة من جديد أكثر مما فعلوا مع رسائل البلدان الأخرى. وأودعوا رسالتهم إلى روسيا الصدق، والرجاء، والتوسل، دون أن ينسوا احترام الذات. وكانوا يصطلحون فيعودون إلى تلك الفكرة القلقة مهما تناقشوا.

استعد الوفد الثلاثي الذي يتزعمه زانه قرباتر للسفر إلى تفليس. وأضيف نيكراس تيم إلى الوفد، لا للغته الروسية فحسب بل لرجولته أيضاً. ولكن برزج قال لنيكراس، وهو يصفاح المسافرين بنبرة لا تميّز جدّها من هزلها:

- في هذه المرة احرص يا تيم على لغتك الروسية من حميتك الأدبغية.
- اسمعوا ماذا يقول هذا!!.. لو كنت تُحسّ بلغتهم الروسية كما أُحسّ أنا بها يا جراندوقوه لما قلت ما قلته... سأطيعك ولكن لن نسمح لأولاد الكلب هؤلاء أن يهينونا، أيّاً كانوا، ولو كانوا ملوكاً.

حين يسوء حظ الإنسان يعضّه الكلب ولو كان على ظهر جمل. وهكذا لم تنجح مهمة الوفد في تفليس. تبين أن برياتينسك سافر للعلاج إلى بلاد أخرى. وكانت معرفة إفدوكيموف بغياب برياتينسك السبب في عدم عرقلته سفر الوفد. والسبب في إرسال العقيد لُو ممدجري معهم باعتباره يعرف اللغتين الروسية والأدبغية.

التقى الوفد بالجنرال المعاون أوريليان زميل برياتينسك، وبعد أن أطلعوه على وضع الأدبغة سلّموه رسالتهم. وبدأ الجنرال يقرؤها: "نحن، الأبراخ والويخ والشابسغ، ومعنا القرى التي تأتمر بأمرنا - اتحدنا مواجهين الناس الذين ينقضون حياة السلم التي كانت لنا سابقاً، من أجل حلّ القضايا في نواحيننا، مريدين إعادة حياتنا إلى حالتها الاعتيادية. ونحن بهذا الإجراء لم نكن ننوي أن نقيم نظاماً مختلفاً في شيء. وما كنا نبحت عنه هو الاتفاق وحياة السلم فحسب. وما أنطنا بأنفسنا الآن من مهمة هي بإذن الله ألا يكون في سلوكنا أي مظهر من الخيانة الواضحة أو الغامضة للسلام. وإن حدث أن تصرف أحدهم بهذه الطريقة فسنعاقبه بالإعدام. ورجاؤنا أيها المحترم أن تغفر لنا ما فات، وتتقبّلنا نحن ومن يتبعنا من الناس.

وقد كتبنا ضمن هذه المبادئ إلى الكونت إفدوكيموف. وأعلمناه من أجل حلّ موضوع أرضنا، وديننا، وما سنحتاج من غذاء. وجواباً على هذا الرجاء أرسل

إلينا إيدوكيموف جيوشاً مدججة بالسلاح. وكنا رجونا أن يوقف جيوشه ويكفّ عن نهب قرانا. ولكن جوابه كان أنه غير قادرٍ على منع الجيش من قطع الأشجار، وشقّ الطرق في غاباتنا، وبناء القلاع والقرى العمالية.

نحن، ومعنا القرى المؤتمرة بأمرنا، هذا ما جئنا لأجله بعدما تشاورنا: انتقاض حياتنا السلمية نتيجةً لأكاذيب الأعداء في جهتنا وجهتكم. ولذا اتفقنا في المجلس على ألا تنشأ بيننا في المستقبل خيانات وأكاذيب واتهامات باطلة بيننا وبين الروس.

وعلى هذا الأساس نترجاكم بحرارة أن تأمروا بآلا تدخل الجيوش إلى مناطقنا، وأن تكفّوا عن إنشاء التحصينات والقرى العمالية. والسبب، كما تعرفون، هو قلة أراضينا حتى إننا لا تكفي لنا نحن سكان البلاد. فإذا أضيفت إلى هذا الواقع القرى الكبيرة التي تُنشأ صرنا نحن ومواشينا في وضع صعب جداً. وبالموازاة مع هذه المطالب نرجو أن توكل إلينا إدارة شؤوننا، ونمارس الدين الذي نختار.

وقد أوكلنا إلى مندوبينا إليكم رجاء زوجاتنا وأولادنا أن نبلغكم حالة الفقر التي نعيشها. ونرجو أن تهتم بما سيرويه لكم هؤلاء الموفدون الذين سيشرحون لكم شفهيّاً بالإضافة إلى الرسالة المكتوبة. وأن تعينهم، وترجو القيصر باسمنا، على استعادة حياة السلم في مناطقنا. و سنحافظ من ناحيتنا بعون الله على اتفاق السلام المعقود معنا. ولن نسمح في المستقبل بأي نقض للصالح كما حدث أحياناً. ونحن بانتظار السلام والرحمة اللذين سيصلان إلينا من خلال توسطكم لنا."

حين قرأ أوريلياي الرسالة جلس بعض الوقت وكأنه يراجع النص. ثم قال بصوت حازم وثقيل:

- لم يتصرف الجنرال إيدوكيموف معكم أيّ تصرفٍ خاطئ.
- السلام المعقود بين الروس والأديغة، - أجاب قريتر بسرعة، - ينقضه الجنرال إيدوكيموف.

- السبب الأول للنقض أتى من طرفكم. تهاجمون جيوشنا وتحصيناتنا وقرانا. وتقتلون رجالنا وتأسرونهم، وتسرقون مواشينا.

- لا تؤاخذني أيها المحترم، - لم يقبل قرباتر مرة أخرى، وهو يومئذ إليه بالاحترام، - لا يُدعى من يكسر بابك إلى الدخول. الجنرال إفدوكيموف يتوغل ليلاً ونهاراً إلى بلاد الأبخاز بحجة تأمين حطب للوقود. ويفتح الطرقات، ويمد الجسور على المخاضات، ويستولي على المراعي. وهذا ما لا يقبله أناسنا. وإن قلنا إن الأديغة لا يرتكبون مخالفات فنحن نكذب على أنفسنا. ولا يجوز اتهام الأبخاز وحدهم بمثل هذه الجرائم من قتل وسرقة، فعن طريق هؤلاء يهاجمكم الشابسغ والوييخ. والآن سيتوقف كل هذا إذ أَلَفنا دولة أديغية واحدة. وأَلَفنا برلمان الحرية، والأمر الواحد سيشمل الجميع، وسيلتزمون به. وإن أبلغتمونا بمن ينقض جيزتنا فالبرلمان يعدكم ألا تبقوا دون جواب.

- نحن على علم بتأليفكم البرلمان الأديغي، - لم يكتم أوربيلياني ما يعرف كما لم يكتم إفدوكيموف، - ولكن إن كنتم تكلمونني باسمه فالقيصر، مدّ الله في عمره، لم يأذن لي أن أجيبكم. أما إذا كنتم جئتم بشكاكم إلى المسؤول عن منطقة القفقاس بارياتينسك فهذا أمرٌ آخر.

تبادل الموفدون الأديغة التظلمات مدة، ثم أجاب قرباتر وقد فهم ما يريدونه:

- نحن موفدو البرلمان الأديغي أيها المحترم، ولسنا مجموعة مختارة من الناس جاءت تحمل إليكم شكوى. ولا تنسوا أن البجدوغ الذين عبرتم حدودهم، والجمكوي والبسلني هم تحت حماية البرلمان.

- هذا، على ما يبدو، أمرٌ مختلف... - فكّر أوربيلياني ريثما تفحص وجوه أعضاء الوفد. ثم أضاف دون استعجال كمن يحدث نفسه: - لم تعد نهاية الموضوع تتطابق مع بدايته. وبناء عليه دَعُونَا نعلّق عملنا اليوم ونستأنفه غداً. رغم أن أوربيلياني لم يكن مخلّواً أن يجيب على المسألة التي طرحها الوفد فقد أدى لهم خدمة واحدة غير متناسٍ أصله الجورجي، دون أن يهين جيرانه الأزيلين الأديغة:

- لا أستطيع أن أخالف أوامر القيصر. ولكن لما كنا ننتظر قدمه إلى منطقة كوبان فهناك أمر للجنرال إفدوكيموف بالهدوء. فإن استطعتم بطريقة ما مقابلة القيصر فلا شأن لي في ما ستقولون له ولا يعني الخبر الذي كشفتم لكم عنه ألا أعطيكم هذا الكتاب.

أعضاء الوفد الذين عادوا وهم يفكرون في طريقة استقبالهم القيصر حين يزور القفقاس جاؤوا بجواب ليس جديداً عليهم، مؤرخ بتاريخ العشرين من آب / أغسطس عام 1861: "جلالة القيصر لا يريد سفك دمكم، ولا ينوي أن يجرمكم من دينكم ولا من أملاككم الخاصة. ولا يريد منكم، كسائر رعاياه، إلا أن تعيشوا حياة سلم ورخاء.

أنتم تنقضون هذا السلام... السلطان التركي الذي كنتم من رعاياه سابقاً أعطى أرضكم بموجب الاتفاق إلى دولة روسيا العظمى، وقد استمر عداؤكم لنا رافضين تنفيذ ذلك الاتفاق. وكنتم تهاجمون تحصيناتنا المقامة على شاطئ البحر الأسود. وقد تأمل القيصر الروسي طويلاً تغيير سلوككم متمنياً ألا يؤذيكُم. وتبني إخلاص قومكم له. وغفر كل ما فعلتم بحقه سابقاً ناوياً الخير. ولكن قومكم لم يفهموا هذا السلوك السليم النوايا. ولم يسلّمونا جنودنا الأسرى عندهم... والأقوام التي تقبل بالطاعة لا تتصرف هكذا. ولا ينوي القيصر أن يتحمّل بعد الآن مثل هذه التصرفات. وبناء عليه قرر القيصر ما يلي: 1 - شق الطرقات في أراضيكم. ومن أجل سلامة مرور المقاتلين ومن يعيشون في تلك الأنحاء في هذه الطرق وحمايتهم من المجرمين، تقرر إسكان القوزاق. 2 - ومنعاً لهجماتكم إنشاء تحصينات عسكرية حيث يتوجب.

وسيجري تنفيذ الرغبة السامية للقيصر كما جرى في الداغستان والشيشان. وأكرر القول إن قيصرنا لا يريد أن يسبب لكم الأذى. وقد أمر كل من يريد منكم إطاعة النظام بما يلي: 1 - إعطائه مكاناً يعيش فيه. 2 - ممارسته الدين الإسلامي دون عوائق، وبناء جوامع في قراكم وفي مدننا. 3 - عدم استدعاءكم إلى الخدمة في الجيش الروسي. 4 - انتخاب رجال الضابطة العدلية (المرتزة) من بينكم من أجل حلّ قضاياكم، ومنح الحرية في هذا لكل قرية ومنطقة محددة. وسيعيّن لكم رؤساء من أجل تنفيذ أحكام رجال الضابطة القضاة، وتجنّب سوء التفاهم بينهم. هذه رغبة القيصر، وسيخصص أحسن الأراضي لمن يطيعونها، ومن لا يطيعونها لن تُظلّهم رحمة القيصر. وستصادر بيوت هؤلاء ومواشيهم."

بعد عودة الموفدين من تفليس ببضعة أيام أرسل البرلمان الأديغي نسخاً متطابقة من كتاب واحد إلى إنجلترا وتركيا وفرنسا وإيران. وهذا ما كان في الكتاب الذي سُلم إلى قنصل إنجلترا في سوخوم: "بعد التحية، ومن أجل إبلاغ دولتكم العظمى، علينا إطلاعكم كتابياً على أحوالنا. وما نرجوه منكم هو إيصال هذه الرسالة إلى حكومتكم وإبلاغنا جوابها بأقصى سرعة.

نعلمكم أنه جرى اجتماع لحكماء إقليمنا في السابع عشر من يونيو / حزيران عام 1861 وألفوا برلماناً من أجل الإعلان عن إقامة دولة مستقلة. وسمّوه باسم المجلس الأعلى للحرية. وبقرار منه تم تقسيم الدولة الوليدة إلى اثنتي عشرة منطقة. وُعِيّن لكل منطقة مُفتون وقضاة، ومختار من يسمون بالمرتزة. ومهمة هؤلاء تنفيذ قرارات البرلمان. واتفقوا على العمل وفق قرارات المجلس الأعلى. وتقدم كل مئة أسرة في كل منطقة من الإقليم خمسة فرسان لجباية الضرائب. وقرروا تعيين مرتزق آخر كي تنفّذ هذه التعليمات. وقد حدد البرلمان الآن مستعماً سلطته الطريقة التي يزيد فيها ما يجبيه هؤلاء من الضرائب على النفقات. وفي الوقت الذي تمت فيه هذه الإجراءات أرسل إلينا القيصرُ الجنرال إيدوكيمو الذي حاصر بلادنا من الجهات الأربع على نية إفنائنا. ونتيجة لتغيّر أوضاعنا على هذا النحو جمع البرلمان ألفاً وخمسمئة فارس من الصفوة لمحاربة هذا الجنرال. وأفهمنا الجنرال إيدوكيموف أن الأديغة الباحثين عن سُبل عيشهم لا يتسببون في الأذى لأحد، وأن سلوك الأديغة يتماشى مع حرية الإنسان. وها هم منذ ستين عاماً يحمون حريتهم بدمائهم. ومن الواضح أن الدول العظمى تسهر على مصالح الدول الصغرى كدولتنا. ونظراً إلى أن قيصر روسيا يحكم دولة عظمى فإنه ترعى مصالح من يعيشون مثلنا، في دولة محددة، ويسيّرون أمورهم الذاتية، ولا يؤذون غيرهم، ويحمون حريتهم. وهذا مفخرة واضحة للقيصر. وبعبير آخر: ليس له نية نخبنا بل إنه ساعد كثيراً من الناس. وإلى الآن، وإن حدث بيننا نوع من العداء، فإننا توسلنا إلى روسيا باعتبارها أقرب الدول العظمى إلينا أن تُبقي حريتنا على حالها: "طلبنا منها أن تعطينا طريقاً وأن تسحب جيوشها. ولا تسفك الدم" وبصراحة فالدول تعيش الآن في

سلام. واهتمامها بعد أن أسست فيما بينها علاقات على قدم العدالة هو أن تساعد على تطوير الدول الصغيرة كدولتنا. وقررنا بعد محادثة الجنرال إرسال موفدين إلى تفليس وقد أذن لنا، ونحن اخترنا ثلاثة من أحكم أعضاء البرلمان وأرسلناهم إلى تفليس لنقل رجائنا. وقررنا وقف الحرب ريثما يعود موفدونا من هناك. وفي نيتنا أن نتوسل إلى الدولة العظمى التي تحسن معاملتنا بعد عودة هؤلاء. ولا شك عندنا البتة في أنها ستعيننا.

وبالنتيجة أيها المحترم فإن ما نرجوه منكم هو أن تعد موفدنا بإيصال محتوى هذه الرسالة إلى من نرسلها إليه. وسيكون هذا مدعاة لرضانا العميق عنكم..."

IV

نقذ قرباتر كثيراً من المهام في إقليم الأديجة خلال الأشهر الثلاثة التي أُلّف فيها مجلس حرية الأديجة - البرلمان. واجتمع البرلمان ثلاث مرات بما فيها اجتماع أول من أمس. ورغم أن الموفدين لم يأتوا بأخبار حسنة، ولم يقابلوا برياتينسك، ولم يكن الكتاب الذي سلّمه إليهم أوريلياني جيداً تماماً فقد جاؤوا بخبر الزيارة المرتقبة للقيصر إلى القفقاس. وأرسل المجلس مذكرات إلى دول العالم بهذا الشأن. وعقد مجلس المخاتير، وطلب منهم ألا يهملوا أمور البلاد ويخلصوا لها ويعيشوا من أجلها ولو على حساب أعمالهم الشخصية. وأكّد عليهم ألا يتسببوا في أي إزعاج للروس ريثما يقابل القيصر دون أن يعني هذا عدم الاستعداد للحرب التي يشنونها علينا، وإهمال أسرّ الأديجة واجباتها. وحضر المؤتمر الذي عقده المؤتمر الوبيخ والشابسغ والأبزاخ. ولم تبق قرية لم يزرها. وينتصب في وجهه كل مجموعات الفلاحين التي التقى بها. ويتلو السؤال سؤال. ومايتقى بلا جواب ليس قليلاً.

واجتماع البرلمان أول من أمس يعود من مدة إلى أخرى إلى ذاكرته. انفضت تلك الجلسة كسابقتها بالتفاهم. والأعضاء الخمسة عشر تكلموا كلهم. بل بينهم من رجا أن يُمنح فرصة ثانية للكلام. وتكلم برزج جراندوقوه أربع مرات. ومع أنه كان لكل موضوع مقاربات مختلفة فقد اتفقوا في النهاية. وأكثر الموضوعات اقتضاءً للنقاش كان موضوع زيارة القيصر: أيستقبلونه بحفاوة كالضيوف، أم يلاقونه بمحنة احترام متبادلة؟

من عادة الأديغي إن طرق بابه أعدى أعدائه دون سلاح أن يدعو للدخول، ولذلك تكلم بضعة أشخاص لا يريدون نقض هذه العادة. وتطرقوا إلى العادات التي ورثهم إياها الأجداد. وعبروا عن قلقهم لضياح تقاليدهم الإنسانية في غمرة الحرب، وعلى مستقبل أولادهم. وكلما تحدث شخصان أو ثلاثة كان جراندوقوه ينهض للرد عليهم. ينصح من يتكلم منهم بحمّية، ويوافق من رأيته صائب. ومن تكلم مرة وسكت كان تسي حاترباي. وكان يجلس إلى جانبه نيكراس تيم الذي أيده بسرعة.

ما يقوله تسي ونيكراس صحيح. كرر قرباتر أفكار البارحة. ونسي الفرسان الثلاثة الذين أوصلوه إلى دخابأه، ونسي حمّاه نيكراس. صحيح، صحيح، لسنا نحن الأديغة من يقصده قيصر روسيا بزيارته. بل يريد أن يطّلع على وضع جيشه. لو كان يريد التعامل معنا بإنسانية لأرسل إلينا خيراً بقدمه. لهذا نصحنّا أوييلياني بلقاء القيصر... اسمع ماذا يقول: "لو التقيتم به"... وإلى وقتها ألن تعود إجابات المذكرات التي أرسلناها إلى إنجلترا وتركيا وفرنسا وإيران وغيرها؟ لا شك أن قيصر روسيا عدوّنا. كم مرة خدعوا والدنا المرحوم وهم يتلاعبون به! والآن أنا من وصل الدور إليه؟.. ولكن لا يجوز أن نستقبلهم بغير عادات الأديغة!.. مهما كان عدوّاً فهو قيصر روسيا العظمى جارتنا... - قرباتر، مهلاً أريد أن أقول لك شيئاً، - أوقف تيم حصانه، - وأنت أيضاً يا جيمس، لا تؤاخذاني يا نور مُجّد وترام، أنتما مع السلامة. عندي موضوع صغير مع هذين قبل أن أعود.

- قفا يا نور مُجّد وترام! - ناداهما قرباتر غير مرتاح لكلام حميه. - لا أخفي سراً عن هذين، كانا صديقي والدي وشريكيه في التفكير. وهما صديقاى أيضاً وتبادل الأفكار. قل يا تيم إن كنت واثقاً منا!

- والله يا صهري لم أقصد بكلامي كل ما ذكرت... إن كان رأيك هكذا فهما قريبان جداً مني. نعيش كلنا من أجل فكرة أديغية واحدة. سأقول لك إذن ما يقلقني: من منكم أنتم الثلاثة رئيس برلمان مجلس الحرية؟

- من نحن الثلاثة؟ - لم يفهم قرباتر في البداية مقصود السائل، ثم فهم.

- برزج وتسي وأنت.

- الثلاثة نشترك في الرأي وفي الرئاسة.
- هذا مستحيل، - قال جيمس فجأة وقد فهم المغزى من السؤال.
- ولماذا؟
- قائد الجيش رجل واحد، - ارتاح تيم لمساندة جيمس له.
- لماذا يقولون: عقلان خيرٌ من عقل واحد؟ - لا يغيّر قرباتر رأيه.
- لا تنسَ أن الثالث زائد دائماً! - ابتسم جيمس في وجه قرباتر مجيباً بلا مبالغة.
- وهو واحد من الأقوال المأثورة. - وافقه تيم.
- من أين أتى تيم بهذه الكلمة التي لا مناسبة لها؟ قال قرباتر. لم أر في الاجتماع من يمكن أن تشكّ فيه. تبادلوا أفكارهم، وتناقشوا دون خصومة زائدة، ووافقوا بالإجماع. أيكون السبب نخوض برزج كثيراً ومساهمة الزائدة في النقاش؟ لم يقل ما ليس صحيحاً. وكان في كلماته ما يدعو إلى التفكير. وإن كان اكتفاء تسي بكلمة واحدة يغلبها الذكاء فقد هدأ المجموع. وإن كنت أنا المقصود فقد تكلمت مرة واحدة باستثناء الافتتاح والاختتام... ما الذي أوحى بهذه الفكرة إلى تيم يا ثرى؟ أيكون مطّلعاً على ما لا نعرفه نحن؟ وجيمس وافق تيم على أفكاره... أيدخل بيننا اللغظ والأقويل قبل أن نبداً مهمات الدولة... هذا لا يجوز، هذه ستكون نهايتنا!..
- ما رأيك يا نور مُحمَّد؟ وأنت يا ترام؟ - بدا قلق قرباتر الآن أكثر من صوته. - لماذا لا تقولان شيئاً؟
- في هذا الموضوع شيء لا يفهمه تيم، - قال نور مُحمَّد بهدوء. - البرلمان ألفه الأعراق الأديغية الثلاثة.
- ولكن أليس البرلمان مُلكاً لكل الأديغة؟ سأل ترام دون أن يدعهم ينتظرونه.
- ثم أجاب بتصميم زائد: - رئيس البرلمان، لا تؤاخذني، شخص واحد كائناً من كان. وإلا فالخوف من التنازع.
- هكذا إذن!.. - قال قرباتر، وأضاف دون أن يترك لهم مجالاً للتفكير: - إن كان المقصود جراندوقوه فهو معتدٌ بتقدمه في السنّ.

- لا كبير ولا صغير في أمور الدولة، - كان تيم بدأ الموضوع الذي يشغل باله،
- - تسي من عمر برزج، وليس مغفلاً لا يعرف الكلام ولكنه تحلى
بالتهديب. يفهم أن ركاب الحصان الثلاثة لا يمسون زماءً واحداً.

- يا للعجب يا تيم، - صرخ قرباتر متظاهراً بالمزاح، راغباً في اختتام كلامهم
المتردد بين العارف وغير العارف، - أظن أنكم الأبراخ تضافتم وتسبحون في
تياركم الخاص بكم!.. هذا مستحيل! لاحقاً، لاحقاً نتكلم في الموضوع... عُذ
يا تيم. ونحن أماننا طريق طويل.

مشى الفرسان الأربعة وغبار الصيف يتصاعد من حوافر خيلهم. كانوا كمن
ينتظرون من سيبدأ بالكلام ولكنهم غارقون في ما أثاره تيم بينهم، وكل منهم له
رأيه المتطابق أو المتنافر مع آراء الآخرين. قال قرباتر في نفسه: لم يُثر حمي
الموضوع إلا وهو يعرف شيئاً. وأنا أخرجته بطلي منه أن يفصح عنه أمام
رفاقي. أما كان بإمكانك أن تنوّري ليلة البارحة بالموضوع الذي يشغلك؟ ليس
لأنني أخفي عن رفاقي، ولكن مع ذلك ألم تر ما حدث؟ افترقنا ونحن متصارحون
وغير متصارحين. حياة المرء مركبة بطريقة صعبة الفهم. عاش والدنا حياته
يقول: احذر ممن يلسعك وهو يبتسم في وجهك، وكان كثيراً ما يتعرض
للخداع. ورحل عن الدنيا ومن يثق به يخدعه دون أن يحقق مراده.. صُغْتُ
جمل أفكاره فبدأ الخلاف يدب بيننا. وأنا لا أعتب عليك يا تيم إذ أنّ قائمة
البقرة لا تقتل عجلاً كما يقال. لا أظن أن قلقك بلا جذور. ومع ذلك كان
الأفضل ألا تقوله لي إذ شغلت بالي بلا داع. لو لم يساندني برزج وتسي وغيرهما
من حكماء الأديغة لما استطعنا توحيد موقف الأديغة وتأليف المجلس. ما منع
النائب والدنا من تحقيقه طوال سنين استطعنا نحن إنجازها في بضعة أشهر، وقبل
به الناس. أنت لا تخطئ يا ترام فالبرلمان ملك لكل أديغة العالم. وهو مُلْك
للجدوغ التي تحتلها روسيا وللجمكوي والبسلني. ولن يكون البرلمان غريباً عن
القبرتاي البعيدين عنا بحكم المسافة؛ أليسوا أديغة؟! متى أصبحنا كياناً واحداً
فسيحقق مهمة أديغة واحدة. يا إلهي أيمكن أن نشهد هذا يوماً من الأيام؟!
صحا قرباتر من أفكاره كأن سؤاله أربعه. وسأل خجلاً من شروده عن حديث
رفاقه، شاعراً بأن عليه أن يقول أي شيء:

- هل تجاوزنا تبة الذئاب؟

- لا يا أمير، - قال ترام.

- نعم، صحيح؟ هو وراء منعطف ظهر التل. - أفلت قرباتر عنان الحصان متغافلاً عن أفكاره، فأحسّ الحصان وأسرع. وحين تجاوزوا المنعطف وظهرت التبة المذكورة عصر الألم قلب قرباتر فجأة. ولما وقعت عيناه على الصخرتين البيضاوين المدحرجتين إلى أسفل التبة تذكر أن النائب ووالده التقيا في هذا المكان، فلوى عنان الحصان.

ترجل قرباتر، وجلس على طرف الصخرة البيضاء التي جلس عليها والده. وعلى طرف الصخرة الأخرى كان النائب يجلس. وعلى جانب الطريق هذا كان الفرسان حراستهم. لم يكن قرباتر على علم بالحديث الذي تبادله قائدا الجيشين. والأمر الوحيد الذي يعرفه هو أنه بعد ذلك اللقاء بقليل صالح النائب الأبراخ بروسيا دون أن يتحقق مراد سفره، وبعد الصلح بقليل استسلم لروسيا أسيراً. وبعد هذه الأحداث لم يُعَمَّر والده طويلاً. رحل عن الدنيا دون أن يجد جواباً لحديقة النائب له.

أحرق الذكرى التي انتصبت أمام العينين قرباتر. وحين رأى حاغور يجلس على حافة الصخرة صاح به:

- لا تجلس عليها يا نور مُحمَّد!.. - أتتذكر أن النائب خان والدنا على هذه الصخرة؟

- نعم، نعم، هذه صخرة لعينة!.. - ألقى ترام نظرة احتقار إلى الصخرة.

- هيا!.. - نهض قرباتر بعدما نفّس عن ضيقه. - لتكن هذه الصخرة نحساً على النائب أينما كان، ولتبق اللعنة في رقبته إلى الأبد!.. ضرب الصخرة في طريقه بالسوط تشفياً.

فعل نور مُحمَّد وترام ما فعل قرباتر. وابتسم جيمس في قلبه، وساط الصخرة أيضاً ملاحقاً أصحابه. ولما صاروا على الطريق سأل قرباتر متوجهاً إلى الجميع:

- هل تعرف يا قرباتر أين النائب في هذه اللحظة؟

- وأين يكون؟ ربما انضوى تحت جناح إمامه شامل.

- تكتب الصحف الإنجليزية أنهم يشعلونه في مقر قيادة الجيش. ها هو، انظروا! - يُريهم جيمس الصحيفة التي فيها صورته. ويترجم النص إلى الأدبغة. تنهد قرباتر ولم يُجِب.

قال نور مُجَّد حين وصل الفرسان إلى مفرق الناختواي - الشابسغ:

- تفضل يا قرباتر، تفضل يا ترام، أنا وجيمس اقتربنا من قريتنا باستوك.

- شكراً يا نور مُجَّد. ونحن سنعود إلى من فارقناهم. متى سننتظرك يا جيمس في نواحيننا؟

- كما اتفقنا، بعد أن أعود من أدربي بنحو أسبوع. وسأزور الوبيخ أيضاً. رافقتكم السلامة. ولكن، - صاح من ورائهم، - لا تنس موضوع الرئاسة الذي كلّمك فيه تيم اليوم!

التفت قرباتر إلى الصوت الذي سمعه، ولم يُجِب. وبعدما مشوا مدة سأل ترام:

- يبدو من كلام تيم وجيمس أنكم تُخفون عني شيئاً.

- لا، يا أمير، لا نخفي شيئاً. ألا تعرف طبيعة الأدبغة... كلُّ يريد أن يقدِّم رئيس عرقه.

- هذا هو؟.. ليس هذا جديداً على أسماعنا نحن الأدبغة... - بدت قُماتر من بعيد فحثّ قرباتر الحصان بجانب قدمه، وأضاف: - لا أعرف كيف دخل جيمس بيل في الموضوع...

...

ما إن أفاق قرباتر في اليوم التالي حتى خطر له أن يزور قبر والده؛ أرسل وراء ترام وخاطبه:

- هيا يا ترام اركب. سنزور القبر. أنت تقف في حضرة المرحومة حورية، وأنا مضى زمن على وقوفي في حضرة والدي.

توقف الرجلان في المقبرة عند قبر زانه سفري. وبعدما حيا ترام أميره السابق عرج على الطرف الآخر حيث ترقد حورية.

بقي قرباتر أمام الشاهدة الحجرية الكبيرة فبدأت أفكاره الليلية الثقيلة تعاوده: هكذا يا والدي تجري الأمور... أَلْقَنا البرلمان الأدبغي الذي كان هدفك، وقبل أيام عقدنا جلسته الثالثة. وجرى ذِكْرُك بالخير فيه. وكان الموضوع المطروح هو

لقاء القيصر الروسي الذي لم يتحقق لك. ومع تبائن وجهات نظرنا فقد قررنا أن نكلّمه باسم الأديغة. لا تقلق، لن نلحق بك العار، سنكلّمه على قدر الإمكان باسم الدولة الأديغية المؤسسة حديثاً. وكما كنت تكرر: لا داعي لليأس. ومع أي رئيس البرلمان فلا أبرز نفسي من بين أصدقائك المسنين، ولكن هناك من لا يقبل هذا الموقف مني. واليوم كاشفوني صراحة. أفهم أني إن لم أتصرف هكذا فسيصبح من الصعب إيقاف الدولة الجديدة ذات الأعراق المتنوعة على قدميها. أتتذكر كيف كنت تتجول في إقليم الأديغة معترفاً بأخطائك؟ كيف كنت تقول لهم: ألا يكفي ما عشتُم وكلُّ من ينظر من فرجة حائطه يعدُّ نفسه أميراً! لا يزال هذا الكلام في أذني إلى الآن يا والدنا... يا ربي ماذا سيقول لنا القيصر الروسي إن قابلناه؟ وبم يمكن أن نجيبه؟ نعم، نعم، لن نخطو خطوة واحدة إلا باسم دولة الأديغة، والبرلمان. وما نزال نعمل في المذكرة التي سنقدمها إليه بالإضافة إلى الحديث الشفهي. ومن بين الدول التي راسلناها أيدت إنجلترا وإيران خطوتنا. وتأخرت تركيا وفرنسا في الجواب. هل تعرف يا والدنا الخبر الذي سمعته اليوم؟ كن راضياً عن نفسك في ما قلت أو فعلت بشأن النائب، لم تُخطئ. كتبت الصحف الإنجليزية أنه يعمل في مقر قيادة الجيش الروسي. تبين أن الإمام شامل بالقياس إلى النائب رجل شجاع. يقيم في المدينة التي اقتيد إليها على سجادة الصلاة دون أن يدعهم يستفيدون منه. والآخر؟ الآخر ضاعت رجولته وذكاؤه عبثاً. نعم يا والدنا، لن يعترف أحد بأن ما يفعله رجولة!.. ومن عندنا، لا تقلق على آل زانه. لا ينسونك. وها هو ترام معي على قبر حورية. وهو الآخر يذكرك دائماً، مخلص لك. وأخبرك أنه ما يزال عازباً!..

V

الشهر الأخير من صيف عام 1861. لم يمر مثلاً سلام هذا الصيف منذ بدأت الحرب القفقاسية قبل خمسين عاماً، ليس لانتهاء الحرب، بل لأن الزيارة المرتقبة للقيصر ألكسندر الثاني إلى القفقاس تلجم الطرفين. ولكن بقيت جذوات كبيرة ما تزال مشتعلة تحت النار الهائلة السابقة؛ ولذلك لا تعرف متى وكيف يمكن أن تذكو نارها فجأة. من الصعب

إدخال أي تغيير على نمط حياة العاقبة من الأديغة والروس وتفكيرهم. الفلاحون الذي أوغرت سنوات الحرب الطويلة صدور بعضهم على بعض أرهقتهم المجاهدة الدائمة ورائحة الدم والظلم، لا يعرفون ماذا يفعلون؟ والطرفان اللذان تحملا خسائر بشرية كبيرة راغبان في السلام، وإن لم يجر الحديث صراحة. والجميع يعرفون أن الأمر بيد زعمائهم. ولكن الطرفين الأديغي والروسي إجمالاً قلوبهم لينة، لا أقول إنهما مستعدان حالاً للسلام، ولم تحفّ دماء القتلى بعد، ويتبادلان نظرات الريبة. ويضاف إلى هذا أن إقليم الأديغة صار مقسوماً إلى قسمين.

ومع أن الطرفين اللذين اكتسبا قلب السلاح لا يزال كل منهما يعدّ الآخر عدواً، فكثيرون منهم، في غمرة إعادتهم التفكير، تتغير طريقة حياتهم شأؤوا أم أبوا بسبب الحاجة والفقر. الأسواق تقرب بين الأعداء. ويجد كل طرف عند الآخر ما يريد، والناس من الطرفين يتبادلون الابتسامات والنظرات الحذرة. واللقاءات في الأسواق، لقاءات السلام المفاجئ، تُنشئ نتيجة الأحزان والأفراح الصداقة والسلام بين الأعداء السابقين، دون أن يعرفوا كيف نبع هذا السلام من قلب الحرب. يتصالحون، يتبادلون التهديدات، ثم يتبادلون الزيارات ويحتلّطون.

لا يألو البرلمان الأديغي جهداً في انتظار زيارة القيصر من أجل أن يبوحو له بما في نفوسهم ومن أجل سلام الأديغة. أعضاء البرلمان يسعون لتنفيذ قراره الذي وافق عليه اثنا عشر وعارضه اثنان وامتنع واحد عن التصويت. لا يتكون قرية أو جامعاً أو مضافة. والمنادون يبلّغون الناس أن من ينقض السلام كائناً من كان سيعرض نفسه للعقاب حتى الإعدام.

لم يترجل قرباتر من الحصان طوال شهر كامل من الصيف. ولم تبق قرية في الناتخوي لم يزرها. وفي طريق عودته من الشابسغ الجبليين لم يغفل عن قرى الوبيخ المكدودة على الطريق، فزانه قرباتر رئيس البرلمان الأديغي، وهو حرّ في أن يقول ويفعل ما يريد. وربما لو لم يكن برزج غائباً في قرى الأبخاخ لصحبه قرباتر وقضى فيها أكثر مما فعل. وكان الأفضل أن يحسب زعيم الوبيخ هذا الحساب، فقرباتر لا يلاحق قضية شخصية أو أسرية، بل يتحمل ما يشغل بال الدولة

كلها لأن الله فرض عليه. وسيحمي بكل قوته آلام الأمة الواقعة في عذاب لا نهاية له وشرفها، ويحمي إيجابياتها وسلبياتها، مهما كان ماضيها وحاضرها. ألم يفعل أحد مثل هذا قبل قرباتر؟ هل عبر الأديغة التاريخ إلى الآن دون رجولة أو قيادة أو عقل؟ في أي قرن أخطأ عرْفهم وفقدوا الحكمة؟ ماذا نرى إن التفننا إلى الوراء؟ وماذا ينتظرنا إذا تطلّعنا إلى الأمام؟ يتبع السؤال سؤال آخر. لو استطاع قرباتر الإجابة على هذه الأسئلة لما قضى شهراً كاملاً على صهوة حصانه والغبار يتناثر من ثيابه، وعذاب الناس يؤلم قلبه، ولا يستطيع تفسير العدالة واللوم والشكوى. هذه الأسئلة وغيرها، يقول قرباتر، ليسوا قليلين من انتصبت أمامهم من الأديغة. ولكن ليسوا قليلين أيضاً من فارقوا الحياة دون أن يستطيعوا تحقيق ما يريدون، والقليل الذي يتحقق له يدفع مقابله صحته. ولماذا نخضي بعيداً؟ بالتجري، العُم الأصغر لحجمقوه أسلاننج، وسلطان خانجري، ووالدنا سفرني، ونابليون الذي هاجم روسيا... وشامل؟ ومُجد أمين؟ والأقرب إلّي من بين هؤلاء، ولي معرفة بأعماله والدنا. أعرف أفكاره من أول فكرة منها إلى آخرها. وافقته في كثيرٍ منها، وما لم أوافق عليه ليس قليلاً. لا يجوز التحامل على أحد. عمل المرحوم والدنا من أجل الأديغة ما يقدر عليه وما لا يقدر. وما أخطأ فيه أكثر غير أنه كان حراً في حياته. ساحِني يا والدنا على ما لم أؤيدك فيه... هل تتذكر أنني سببت لك الضيق حين طلبت من لايننسك مغادرة أرض الأديغة فعارضتكَ؟ وأكثر من مرة لم أوافقك على موقفك من أسلاي مُجد أمين. وكذلك من جيمس، ولونغفورت، وخوروز، ووركفارت، وفونفيل¹... ما العمل؟ لا يمكن أن تفهم وضع الإنسان ما لم تقف موقفه. كان رأيك في ضرورة مصالحة روسيا صحيحاً. الآن فقط وقد أصبحت رئيس البرلمان فهمت أننا في موقع الهلاك بل الفناء. ولن تفيدنا إنجلترا ولا تركيا ولا فرنسا. كيف يفهم من يأتي من أقاصي الأرض حاجاتك ويؤسك؟! أول من يفهمك إن شكوت إليه حالك لا يكون بعيداً، هو الجار. لماذا نحارب روسيا الجارة؟ أريد أن أفهم تسي ويرزج وغيرهما هذه الفكرة، كما كنت تفعل. يوافقونني ما دمتُ

¹ مقاتل فرنسي سيورد المؤلف جانباً من مذكراته في آخر الرواية.

في حضرته، ومتى أداروا ظهورهم يتصرفون بطريقة أخرى. ونيكراس تيم كما تعرفه يجزّ غصنه الخاص به، ولكن لا يجوز أن تعتب عليه، نغفر له ما في قلبه وما ليس فيه بسبب أصله الروسي. لا، لا يخطر لك هذا، لا أقصد أننا لا نتق بأديغيته ونعتبر سلوكه نوعاً من الرياء. يحدث أن يعيروه بأصله الروسي حين يعدّ نفسه فوق الجميع في أديغيته ويبالغ في حسمه للأمور. والآخرون حجمقوه وبولتقوه وحاغور أنا راضٍ عنهم. هؤلاء انحازوا إلينا في موضوع مصالحه الروس. وتكاشفنا قبل أيام بما في قلوبنا. وكلاهما، حجمقوه وبولتقوه، كان قد قرر أن يتزعم استقبال القيصر. الأمنية الوحيدة لي هذه اللحظة يا والدنا هو أن لا يحدث اشتباك بيننا وبين الروس، فنؤكّد صدق موقفنا ريثما نقابل القيصر ونتباحث، ونعتمد، كلا الطرفين، قراراً مكتوباً فيه فائدة للجميع. وأنا، بفضل الله، عارفٌ بالوضع الهادئ في الناختواي والشابسغ والوييخ، ولكن لا أعرف ما يجري في الأبراخ العليا حيث سيتوجه القيصر. وعَدّني تسي أن يهدّي مجموعة المجرمين قطاع الطرق على نحر لآبا. إن لم نحّم أنفسنا منفيدين ما يُرضي القيصر فسينتكب الأديغة، ونكون وضعنا أنفسنا بأنفسنا على حافة الهاوية. هذا ما كنت تحشاه أنت، ونخشاه نحن، من عواقب رجولة الأديغة. وأعدك أني لن أسمح للأديغة، بأي وسيلة كانت، أن يفعلوا هذا...

حين بدا مرعى مُقَف من بعيد وهما على مرتفع أَدْرِي ارتاح قلب قرباتر على نحو شعر به هو نفسه، والفكرة الأخيرة تدعّمه، ومقتنعاً بالسلام الذي شهده في الأيام الماضية. ولم يكن مشهد قرينته في ظهيرة النهار الصيفي إلا عاملاً في هذا الشعور. ألقى قرباتر نظرة دافئة سريعة على رفيقه وقال:

- بدا مرعى مُقَف يا ترام، نكاد نصل.
 - نعم يا أمير، لم تعد قُماتر بعيدة. انظر، - التفت ترام كأنه تذكر ما كان نسيه، وقال لأحد الفرسان الثلاثة وراءهما: - أخبر بيت الإمارة بعودة الأمير.
 - لا داعي، - قال قرباتر.

- لا يا أمير، - لم يقبل ترام، - أنا لا أخترع عادة ليست فينا.
 - إن كان هذا رأيك يا ترام فكما تريد إذ أني عائدٌ راضياً عما وجدتُ في سفري، - لم يكن قرباتر يريد أن ينقض أحداً راحة قلبه المفاجئة. وأعجب ما

يتعجب منه هو حضور إيفان بوتينك إلى ذهنه. ظن أن ظهور قلعة شَبَج ساهم في الموضوع فتذكر أنه كان قبل أيام في ضيافته برفقة حباط وصحبهِ. ومع أنه كان في القرية من لا يودّ جماعة بوتينك فقد كان قرباتر مرتاحاً لأن حباط يأتي بهم ويستضيفهم، وقال: - هل تعرف فيم أفكر في هذه اللحظة يا ترام؟ أنا مرتاح لمصادقة حباط للعجوز بوتينك. ووالدنا المرحوم لم ينسَ هذا العجوز. كان يذكره بالخير. وانظر الآن ما يجري: ابنه يحاربنا في عداد الجيش القيصري. ووالده استوطن أرضنا ويصادق الأديعة. قل لي الآن إن كنت تعرف: أين الصواب؟

- نعم يا محترم، هذه المهمة الأخيرة التي تحاولها تستدعي كثيراً من الأفكار... ولكنك تعرف ما يجري لنا بشأن ابن تيم... - تذكر ترام بسرعة أن تيم الذي يأتيان على دِكره هو حمو قرباتر فأفلتت منه كلمة لا يريداه: - ولكني لا أثق بحباط.

- ماذا؟ - انتفض قرباتر كأن خطراً قريباً يدهمهم.
- والله لا أعرف كيف أقول لك...
- قل كما تستطيع وأنا أفهم عليك.
- والله لا أعرف يا أمير؛ حباط يتحدث كثيراً عن أملاك بوتينك... أخاف أن يفعل المحظور...

- هذا لا يجوز يا ترام، لا تدعُه يجلب لنا العار، أؤكد عليه!
مرّ العصر على قرباتر دون أن يشعر بالتعب رغم أنه عاد من سفر. وحلّ المساء فجالسَ في المضافة الرجال الذين زاروه. ولم يشكّ في شيء إذ لا يرى حباط بينهم. ولما أوى إلى الفراش جافاه النوم فتحدث هو وزوجته، وأطلعها على أفكاره بشأن السلم. وسهرا طويلاً وما يتفقان فيه كثير، وما لا يتفقان عليه يتجاوزانه.

لا يتذكر قرباتر أنام كثيراً أم قليلاً. صحا من ضيق ثقيل شاعراً بما يجري له. ولما رأى النور يتسرب إلى الغرفة وهو لا يدري أين يضع رأسه لبس بهدوء دون أن يوقظ المرأة، وخرج من الغرفة. وحين استنشق الهواء الطلق ارتاح قلبه ولكنه ركب دون أن يجد في أرض الدار مستراحاً.

- وفيما هو عائد من رياضة الحصان لاقاه ترام:
- ماذا جرى يا ترام؟ أدرك قرباتر أن هناك ما لا يسرّ.
 - جرى لنا ما توجّست منه يا أمير... قوزاق منعة شَبَّحَ اعتقلوا حباط.
 - وماذا فعل؟
 - سرق من إيفان بوتينك!
 - وهل يفعل أحدٌ مثل هذا؟
 - وأسوأ ما في الأمر أن العجوز بوتينك قضى على يده...
- في الصباح نفسه اصطحب قرباتر ترام وعجوزاً آخر، ومضوا إلى قلعة شَبَّحَ. اضطرب من كانوا في أرض الدار حين ظهر الفرسان الأديغة على باب بوتينك. فهذّأهم أحد مُسَيِّ القوزاق بإشارة من يده. توقف الأديغة الثلاثة على بعد بضع خطوات من الرجال القوزاق ومن نسائهم. وقال قرباتر للفلاح العجوز المرافق له:
- اتلّ الدعاء يا جَتَّج، ودعنا نقوم بواجب العزاء.
- تقدم جَتَّج خطوتين أمام رفيقيه، ورفع يديه، كما رفيقه، ودعا للفقيد، ثم قال لمن يقف أمامهم:
- ليفتح الله باب الجنة لبوتينك إيفان الذي قضى في غير وقته. ومدّ الله في أعمار من تركهم.
- عاد جَتَّج فوقف إلى جانب رفيقه، فتقدم قرباتر خطوتين وترجم لهم إلى الروسية ما قاله العجوز. وأخبرهم بما يتوجب عليه وما يتوجب على الأديغة:
- المأساة التي جرت لكم مأساتنا نحن أيضاً. ولما كان سبب المأساة من جانبنا فالشعور بالعار يجللنا. وليس ما جرى كسائر الحوادث الكثيرة بين المتحاربين. ما من قوم يقبل شرفهم وأعرافهم، ولا يمكن أن يقبل، أن تطمع في أملاك من دُفَّت من طعامه، وتقتله لأجل المال. اغفروا لنا جريمة ابن قومنا. ونتوسل إليكم أيها القوزاق ألا تأخذوا عنا فكرة سيئة بسبب مثل هذه الحادثة. و القاتل في قبضتكم فلا نطالب به. ويستحق العقاب المناسب له. جعل الله مأساتكم آخر المآسي. ونكرر رجاءنا أن تسامحونا.

كان حباط المحبوس في مخزن حبوب ينصت إلى كل ما يقال. وحين رأى الأديغة يخرجون من الدار صرخ:

- يا أمير! يا ترام! يا جَتَج! كيف تتركوني للكفار؟ أأست إنساناً، أأست أديغياً؟ أيُّ ذنبٍ ترتكبونه أمام الله؟! لم يلتفت أحد من الثلاثة.

عاد ترام إلى حصانه لا يرى طريقه والعار يحرقه. وقف مدة وقدمه في الركاب ويدها تمسكان بطرفي السرج، ثم ركب ولحق برفيقه ونداء حباط يمزق قلبه. تشاور القوزاق وبتوا في موضوع القاتل حباط بسرعة:

- دعونا نُكرم الأمير الذي عبّر لنا عن حزنه وأسفه ولو أنه لم يطلب منا شيئاً. ولا تدعونا نجعل القتل قتلين. هذا القاتل دانه أبناء قومه فليفعلوا به ما يشاؤون. هيا يا بافلو ويا بروكوبي احملاه على الحصان إلى خارج القرية واصفعاها. ثم أطلقاه!

لم يكن قرباتر ورفيقاه ابتعدا عن شبح كثيراً حين أطلق سراح حباط. صقّر بروكوبي للمغادرين فالتفتوا. ولحقهم حباط الذي جُلبد بالسوط. ووقف بعض القوزاق على سطح أحد البيوت يراقبون ما يجري.

- أطلقوا سراحه!.. - قال ترام.

- يا عديم الإيمان... - تتمم جَتَج.

- ليذهب حيث يريد، - لم يتوقف قرباتر.

وقف حباط ممزق الثياب كمن هرب من خصومه والدم غطى عينيه أمامهم:

- ما الذي فعلته يا زانه ولم يفعله بنا الكفار؟ لو استطعت لتركتهُم يمزقوني.

- اغرب عن وجهي أيها المجرم!- لست أديغياً ولست كافراً!

- أنت المجرم الكبير!- اقترب حباط من قرباتر ملوحاً بيديه. - تبين أن هؤلاء أرحم منك رغم أنهم كفار!

- يا حباط!.. - لم يتحمل ترام ما يسمع. ولكن من ناداه كان فاقداً رشده.

- ابتعد عني يا حيوان! - صرخ قرباتر ثانية على من يقف أمامه وقد صعد الدم إلى وجهه، وغاب عنه صوته.

- أنت لست أديعياً يا زانه!.. لا تزال تحرص على كونك صهر الكفار. ولو استطعت لضحيّت من أجل هؤلاء القوزاق بالأديغة!
استلّ قرباتر السيف بلا وعي. وبتر رأس حباط مع حركة الحصان القافز. وقال لرفيقه كاتباً ألمه:
- لا تؤاخذاني! لم يبق عندي رادعٌ من قتله... وأدعو الله أن يغفر لي إن كنت أذنبت. لست من قتل هذا الرجل، بل هو من قتل نفسه... - وفيما هو منصرف أوصى ترام: - أعيّدوا الجنة إلى القرية...

...

- والله ما فعلوه بالمسكين حباط في شيخوخته عيبٌ، - قال حاتراي لتيّم، وعدمُ رضاه عما يحدث في إقليم الأديغة بادٍ عليه، - حزنٌ جداً عليه. ما كان يجوز قتل هذا الرجل الممتاز على سرقة بقرة أو حصان من المرعى... كم من أمثال هذه الحوادث فعل بنا القوزاق في هذه السنوات!.. وإلى الآن لم يتوقفوا!.. - كلام تسي يزداد قسوة. - وها هم هاجموا قرية في الأبراخ قبل مدة وقتلوا أسرة بكاملها. وجماعتنا، قبل أن تمضي ليلة على الجريمة، قتلوا أسرة كاملة في عزّ الظهيرة.

- وهذه سمعتُ بها يا حاتراي، - شهد تيّم على ما يعرفه دون شفقة، ثم أضاف والقسوة تغلبه: - هؤلاء، أصحاب الغرر على جباههم، لا يستحقون الشفقة. من يمدّ يده إلى عينك مدّ يدك إلى روحه. لا أعرف نوايا صهرنا الحقيقية، يلين كثيراً في معاملة الكفار.

- والله صحيح يا تيّم، عبّرت عما في قلبي. انحاز قرباتر إلى الكفار فلن يسمح أن تحطّ ذبابة على أحدهم. وما العجيب إن جاء قيصرهم إلى نواحيننا؟ لا شيء له عندنا. عليك أن تسعى لحماية ما عندك، لا أن تتأمل منهم أن يُعيدوا إليك ما نخبوه منك. الأفضل، حتى في ساعة احتضارك، أن لا تسمح لهم بالتطاول عليك.

- ثم إن ما لا يفهمه قرباتر يا حاتراي هو أن القيصّر يأتي لأجلهم، لا لأجلنا. هذا يفهمه حفيدنا عليمبج فكيف بقرباتر يا مبارك النسل!

- وهذا رأيي أيضاً. كيف تعلن لمن لا نية عنده للصلح، ويحاصرك من الجهات الأربع، أنك ستصلحه فتتصاغر أمامه؟! وهذا رأيي جيمس أيضاً. وبرزج، ولو أنه يتخرج من الإعلان، وها أنت ستري، عنده هذا الرأي. وأنا لا أشك في أنه سيوافقني. ومن بين أعضاء البرلمان الآخرين بضعة أشخاص من هذا الرأي. أفكر فلا أفهم لماذا هذا اللئيم من جانب زانه نحو الروس؟ والمرحوم سفري قادنا أعواماً بهذا الاتجاه، اتجاه المصالحة. وقرباثر يسمح لهم، دون أن يلاحظ على نفسه لينه الزائد، بأن يخدعوه.

- ومع ذلك لم يحظ المسكين حباط بشيء من لين قرباثر. توسلتُ إليه أنا أيضاً متوسلاً بالمرحوم أبيه. والقرية ترجته، فلم يردعه شيء. دُئس وجه المسلم كرمي لوجه الكافر، - يغضب تيم من جديد: - هل يجوز قتل المسكين حباط أمام عيون القرية لمجرد أنه توجه إلى شبح ناقضاً للسلام!.. وما أستغربه هو عدم اختلاج عضلة في وجه ترام!

- والله يا تيم ما كنت أستطيع أن أضحي بحباط كرمي للكفار... هذا غير جائز! كلّم صهرك يا تيم! إن كان يريد أن يحمي المجلس - البرلمان ودولة الأديغة فلا ينحن أمام الروس. لن نقبل منه، سيندم يوماً ما ولن يستطيع تدارك الخطأ.

- والله يا حاترباي لا يسمع الصهر شيئاً مما أقول.

- هذا سيء... - قال تسي ولا تعرف إن كان هذا يسوؤه، ثم أضاف: - الأديغة اعتمدوا عليه فاخثاروه واحداً من زعمائهم الثلاثة... وليس واحداً منهم فحسب بل هو أصغرهم يا تيم. اعتبرناه متعلماً و متمكناً من اللغة الروسية فرفعناه أنا وبرزج إكراماً لوالده سفري دون مراعاة لأعراف الأكبر والأصغر. وإن لم يفهم هذا الموقف منا فهو مخطئ. وإن أردت الحق يا تيم فأنا ما كنت أريد أن يحدث هذا...

كلمات تسي الأخيرة أدخلت الشكوك في قلب تيم. وتساءل دون أن يُيدي على نفسه: كيف كنت تريده أن يكون؟ ما الذي لا يستطيع هذا الرجل الإفصاح عنه؟ عادوته الفكرة المرعبة التي كان يتوجس منها. إن كان تسي يرى هذا فماذا سيكون رأيي برزج؟ لا أعرف إن كان تنازع الآراء دخل بيننا في

الوقت الذي كنا فرحين فيه بتأليف مجلس ودولة. إن كان الموضوع طلب زانه الهدوء وعدم استفزاز الروس ريشما يأتي القيصر فما فعله لا يلام عليه؛ هذا قرار أُخذ في البرلمان. ما الذي لا يعجب تسي وبرج إذن؟ وكان جيمس قال لي قبل أيام هذه الكلمات نفسها. وما وجهتُ لقرباثر من كلام كان سببه ما قاله جيمس. ما الخطأ الذي يرتكبه الصهر؟ لا يألو جهداً من أجل التفاهم وتوحيد الأديغة. ولم أسمع أحداً ينتقد مُجد أمين الذي خدع الأديغة واستسلم للروس مثل هذا الانتقاد. أنتم يا تسي من رفَعه وأنتم من يغغم الآن، يهاجمه غدرًا... لا أظن هذين وحدهما من يتهامسان من وراء قرباثر. وهل هذه أسرار؟ كنت سمعتُ أنه جرى الكلام عليه في بعض مضافات العامة... وبرج يا ربي؟ وهل يكون تفكيره كتفكير هذين؟ عليّ أن أقابله وإلا سيلحق العار بصهري بينهما، ويصيبه الخزي أمام البلاد. ولماذا شخصان؟ أيكون هناك شخص ثالث وراءهما؟ ومن يكون هذا الثالث؟

- إن أطعني يا حاترباي، - خرج تيم من أفكاره وقد أمسك لبّ الموضوع، يخاطبه راغباً في معرفة حقيقة الموضوع، - كنت رجوتك أن تكلم قرباثر، أنت أسنُّ منه، من جيل والده، ليست قليلة المشاق التي تحملتموها معاً.

- عليّ أن أتصرف هكذا، أصبْتُ نيتي. لستُ من عمر سفري فحسب بل كنا صديقين حميمين. ليفتح الله له باب الجنة!.. قرباثر بالقياس إلينا أنا وبرج ما يزال شاباً، إن اخطأ أخطأنا معه ففكر تيم في موضوعات كثيرة في الأيام التي تلت حديثه مع تسي. وارتاد بعض مضافات العامة. وزار الناختوي والأبزاخ والجدوغ. ولم يسمع في جولاته ذماً لقرباثر إن لم يسمع مديحاً. سمح شهراً السلم الذي عاشه الأديغة أن يلتقطوا أنفاسهم. وسمح لهم ارتياد الأسواق أن يتدبروا بعض نواقصهم. ومناحاتُ من يسقطون في المعارك خفّت عن ذي قبل. ولكن هذا لا يعني انتفاء الحذر بين الطرفين.

يقول تيم لنفسه: لو لم أكن مغفلاً لما توقعت أن يُسمعي الناس كلاماً مسيئاً لقرباثر. ما يقولون من وراء الصهر هو ما يقولون من ورائي. لم يبدأ الكلام بحق قرباثر إلا بعد ممسكٍ ما. ولكن من الذي يقول هذا؟ والحديث الذي ذُكر أنه جرى في المضافات لم يتبين تفاصيله رغم أنه تكلف فسأل عن طريق غير

مباشر. قيل إن تسي وبرج يتحدثان بالسوء عن زانه، ويظلمانه بالكلام ولم يدين أحدُ قرباتر. يبدو أن في الموضوع جانباً لا نعرفه. انا لا أؤيد الصهر في كل ما يفعل. وكان لي الموقف نفسه والنظرة نفسها إلى سفرني. وحدث أن خالفته في موضوع الصلح الذي ليس في محله مع روسيا. ولكن لا يمكن معارضة قرباتر في دعوته إلى السلم ريثما يأتي قيصر روسيا. ولماذا ليس تسي راضياً عن هذه الهدنة المؤقتة؟ وكان حاغور أخبرني أن هذا الموقف لا يتفرد به تسي فهناك بعض زعماء الأسر المتنفة وبعض نُحْبُ الفلاحين يشاركونه الرأي. والله هذا عجيب إذ ما الذي ينقص الأمراء والمتنفذين ونُحْبُ الفلاحين؟! ما الذي يخاف عليه هؤلاء الجشعون إلى المال؟ ألا يفهم هؤلاء أنه متى وقعت بلادك في العبودية فسُتسلبُ أموالك حقيقة؟!

تهيج أفكار تيم مع مرور الوقت. ويرى في الموضوع نوعاً من التآمر. وتنتصب أسئلة غير منتظرة. عليه أن يقابل برج قبل أن يتناسى كونه حمماً ويتحدث إلى قرباتر. وربما قابل جيمس إذ يقال إنه في أرض الوبيخ. ولكن كان الأفضل ألا يشهد الإنجليزي حديثهما، ويؤيد هذا الموقف أو ذاك.

تحقق لنيكراس تيم ما يريد تماماً. صدف أن برج جراندوقوه كان وحده في المضافة حين زاره. وتبين أن جيمس في زيارة لتسي.

- كنت يا جراندوقوه في طوابسه، - كتم تيم عن المضيف أنه جاءه في مهمة، - فقلت لنفسي: لا يمكن أن أعود إلى دخاباه دون أن أزور زعيم الوبيخ، فقصدتك.

- والله يا تيم فعلتَ خيراً. رضي الله عنك، سررتني بزيارتك. - كان واضحاً على جراندوقوه سروره بالزيارة حتى لتتسابق الكلمات إلى لسانه. - والله يا نيكراس أثبتتُ أنك رجل صالح. أفرحتني يا مبارك النسل!.. ولكنك يا صديقي العزيز أنت، ولو أنك ضيفي، تخطئ في حقي في واحدة، - يضحك بصوت خشن، ويشّ في وجهه.

- أتوب أمام الله، ما الذي أخطئ فيه يا جراندوقوه يا أحد زعماء الأدبغة، لا الوبيخ وحدهم؟

- الآن يا تيم استدركت كلامك، صديقك القديم برزج، - يضحك من قلبه، وارتياحه للمزاح ظاهرٌ، - كنتَ ستحرُّ في نفسه لو لم تُضف: أحد زعماء الأديغة!.. لا تقارنُ زعامتُك لعرق صغير بزعامتك العرق الكبير يا تيم، - يغيّر جراندوقوه نبرة المزاح، - والشكر للشابسغ والأبزاخ على تفهّمهم الموضوع، وأقول لهم: بارك الله فيكم على ثقتهم بي. ولكن هذا لا يعني، - يعود إلى المزاح، ويكرر ما كان قاله له تسي قبل أيام، - أن صهرك زانه قرباتر أشدّ رجولة مني ومن تسي، أبرزناه لحداثة سنه ولحفّته في الركوب. نعم يا تيم، لن أغضب إن أبلغته هذا الكلام فقرباتر ليس مغفلاً، إنه يتفهم هذا الأمر. اسمع يا تيم، ليست هذه مشكلة، الله نفسه يحب المزاح كما يقال؛ ما الأخبار في نواحيكم؟ كيف حالكم، وكيف تعيشون؟ أليس من فارقتهم بصحة جيدة؟ وعليمبج إلى أين بلغت رجولته؟

- في نواحيننا يسود السلام، تبعاً للأمر الذي أصدرتموه يا جراندوقوه. - الآن يجيب تيم على كومة الأسئلة التي طُرحت عليه، وقد فهم ما لمح به إليه جراندوقوه عن طريق المزاح، وفهم في الوقت نفسه مصدر كلمات تسي، ولكن دون أن يُيدي أيّ انفعال، - من فارقتهم بخير، وبصحة جيدة. وعليمبج الذي تسأل عنه اتخذ قلب الرجال.

- ألا يطلب الزواج؟

- يقول: أين سيفي، أريد أن أحارب الروس.

- عفارم! أسمعُ كلامَ رجال. ينضمّ إلينا الشابُّ واحداً من سيحمون الأديغة،

- تغيّرت سحنة برزج وقد غلب حزنه على فرحه. وسأل دون انتظار، وبحسن

نية: - الحقّ يا تيم، ألا يزال والده حياً؟

ارتعب تيم من السؤال المفاجئ. وحين صحا غلبه التفكير الحزين ولم يجب.

فقال له برزج وقد اكتشف خطأه:

- ساجني... - أضاف بعد قليل: - ما العمل إذن، هذه واحدة من مآسي

الأديغة!..

...

في الوقت الذي كان نيكراس تيم وبرزج جراندوقوه يتحادثان كان يجري هذا الحديث بين تسي وجيمس بيل:

- هل تعرف يا حاترباي الخبر الذائع في روسيا؟ - بدأ جيمس يدور من بعيد حول الموضوع، وأجاب كأنه يخاف من أن يُقْطَع عليه حديثه: - ينوون رفع العبودية عن الفلاحين.

- ماذا تقول؟! - تظاهر حاترباي بأنه لم يفهم أساس الموضوع، ثم تساءل بينه وبين نفسه: - أتقصد أن العامة من الفلاحين سيصبحون أحراراً؟

- المقصود هم الفلاحون، الفلاحون العبيد، - حدّد جيمس الجواب ثانية.

- والله لا أعرف يا ضيف ما تتكلم عليه؛ كيف يمكن هذا؟..

- هذا ما ينويه القيصر الذي ينتظره زانه قرباتر وجماعته.

- هذا ما لا يجوز أن يسمعه فلاحونا!.. - ألقى حاترباي نظرة قلقة على الضيف. - لم تذكره لي ولا أعرف ولا أحب أن يعرف أحد!.. الفلاح الذي يسمع مثل هذا الخبر لن يطيعك، بل لن تستطيع الاحتفاظ به. لن يكتفي بمصالحة من سيجلب له الحرية، بل سيلاقيه بالأحضان.

- من الصعب يا حاترباي التكتّم على الخبر الذي تهيّأ له العقل الإنساني. ثم إنه متى كتبت الصحف الخبر فستراه وإن كنت أعمى، وستسمعه وإن كنت أصمّ، - اختتم جيمس كلامه وقد نفّذ المهمة التي جاء من أجلها إلى الأبراخ العليا.

- لهذا أقول دائماً: لا حاجة بكم إلى علاقات وثيقة مع روسيا. ولكن قرباتر لا يستجيب لشيء مما أقول.

- والله هذا رأيي أنا أيضاً. من واجبكما أنت وبرزج أن تتفقا على رأي وتُفهّما قرباتر؛ وإلا فإن تحققت نيته تخطى الرجل الحدود بعيداً عنكما...

VI

قرباتر حاضر لأي سؤال ينتصب أمامه قبل أن يذهب إلى طوابسه ويمثّل أمام مجلس الحرية - البرلمان. وقد أفاد تيم في مسألة الصلح مع روسيا وإن لم يوافق صهره.

لم يكن قرباتر جاهلاً بالخبر الذي جاءه به حموه. والوقت الذي بدأ فيه القلق - الارتباب ينبت وسط الموضوع الذي لم يكن مقتنعاً به أعقب عودته من الوبيخ والأبزاخ بأسبوعين أو ثلاثة. والآن جلس اللحم إليه وصارحه بكل ما في قلبه نحوه. وحين وصل نقاش الصهر واللحم إلى النهاية سأل قرباتر تيم وهو يكظم نفسه بصعوبة:

- ما هذا الخبر الذي جئتني به وأنت تؤيد من لا يضمرون لي الود؟! ألم تفهم وجهة النظر التي سأكونها نحو هذه المسألة؟
- أفهم! - لم يتراجع تيم، واختتم بنبرة واثقة، - لا يمكن أن تعتبرني غاماً في هذا!

- بغضّ النظر عن كل شيء، لم أكن أريد، كرمى لوالدنا، أن أسيء إليك. لا تؤاخذني. ومع ذلك فما لا تفهمونه أ أنت وتسي وبرج، أمر واحد: ليس لأني أحب روسيا التي تسلبنا حريتنا، افهموا أنني لا أريد أن يُنْهَب الأديغة!.. أريد أن أجد طرف خيط أمسكه في المسألة الأديغية - الروسية المعقدة وإلا كانت نهايتنا في رجولتنا. لا يأتي النصر على أسنة الحراب وحدها. يفكرون عن طريق الكلام المسالم، وتحيات الرجاء، ويُعَدّ النظر، في وسائل المحافظة على وجود الأمة.

- ومع ذلك لا تدع أحداً يسمعنا - استعجل تيم بالرد قلقاً على الصهر. - سيحكمون أن زعيمهم بلا رجولة. وسيسخرون من جبنك.

- ما أشدّ بؤسنا نحن الأديغة! - حدّث قرباتر نفسه وإن كان الكلام موجهاً إلى الصهر. - نسمح للرجولة الزائفة أن تغلبنا في حين أن رجولتنا لا حدّ لها. نضيع بين التصنع والصدق... ارحمنا يا إلهي واهدنا إلى الصواب!..

كان يُفترض أن يتخفف الرجلان من حيلهما بعدما تحادّتا بصراحة ولكن قرباتر لم يُحسّ بشيء من هذا بل وقع في بلبلة مقلقة. وكلما اقترب موعد ذهابه إلى طوابسه زادت الأفكار المتضاربة من هجومها عليه. لم يندم على حديثه إلى حميه فلن تكون له وجهة نظر أخرى لو أعاد الحديث الآن، وهو جاهز لأن يكرر حرفياً ما قاله. وليس الأمر وليد اليوم فرأيه هو وذنب والده وآمال الأديغة

متضافرة. ولكن يمكن للفكرة التي صدرت عنك صادقةً أن تجلب فكرة أخرى. ولا يجوز أن يدين نفسه لهذا السبب.

مرّ قرباتر في سنواته الست والأربعين بكثير من التجارب. فمع أنه ولد في أسرة أمراء ثرية من الناتخواي، يعيش حياته منذ طفولته، أو بتعبير آخر، منذ أن تقلّد والده الإمارة، والأفراح فيها أقل من الأحزان، والقلق يغلب عليها، وما يبعث اليأس في النفس أكثر مما ينعشها. وطوال هذه المدة، منذ وجد نفسه في موقف يفرض عليه امتشاق سيفه، لم يعرف سيفه ومسدسه راحة إلى جانبه. يعيش كسائر جمهور العامة من الفلاحين وقد فقد الإحساس برائحة الدم، وجسده لم يعد يتّسع للجراح. ولا يختلف في أملاكه، وفي الخدم في داره، وفي أراضيه، عن سائر الأمراء والمتنفذين وتُحِبُّ الفلاحين. ويمكن أن تجد من هو أغنى منه في الناتخواي والشابسغ والأبزاخ والوييخ والبجدوغ والجمكوي، انتهاءً بالبلسني. وآل زانه يعيشون حياتهم متفانين من أجل الأديغة، همّهم حماية أرضهم وسمائمهم وشمسهم، ووحدة الأديغة وتأليف دولة واحدة منهم. وظل زانه سفربي طوال حياته يُخطئ ويتدارك خطأه. ثم ترك إمارة الأديغة لابنه ورحل.

ما هذا؟ أهو في الدم، أم عناد خاصٌّ بآل زانه؟ يسأل قرباتر نفسه، ولا يستعجل الجواب. يتأمل في ما يعرفه بنفسه، وما خلفه والده، وما يرويه الآخرون. وليس من السهل أن ينسى ما شاهده خلال خدمته في الجيش الروسي، خيراً أم شراً، وصار جزءاً من حياته. ويمرّ أمام عينيه المقاتلون في جيش لايننسك. ويهيج القلب من جديد مجيء حورية خانم إلى أرض الأجداد، وطريقة امتطائها للحصان، وسيفها المسلول، وإصابتها، وموتها، ولهفة ترام عليها. كم من الأديغة عادوا إلى أرضهم وارتعوا بأجسادهم على أسنة رماح الروس وأمام طلقاتهم حتى قضوا؟.. أن تحمي شرفك وأرضك وسمائك وشرفك عنصر في الدم الأديغي، وليس عناداً من آل زانه. إنهم يولدون على أرض الأديغة، ويرحلون عنها. ويحدث أن يذكرهم الناس بالخير، وبالشر، ولكنهم لا يذكرون وطنهم الذي حماه الأجداد عبر القرون إلا بالخير. ومن لا يحب وطنه فمن ولدته تصبح عدوّه!..

كيف يا تيم لا تفهمون أي جزء من الأرض، وحي الذي أُكِنَّه لتراجمها. أنا من سيعود جزءاً حقيقياً منها إن استطعتُ أو لم أستطع. أعرف، يحدّثني قلبي أن قيصر روسيا الذي يرُدُّ على ألسنتكم سيخدعني، وكان قد خدع والدي أيضاً، ولم يحترم الكثيرين من الأديغة الذي سقطوا فداء لشرفهم. ورقص فوق آمال الأحياء منهم. وأرض الأديغة البريئة يحاصرها بالجيوش ويمنع عنها الهواء. قولوا عني ما تشاؤون، واحكموا علي بما تريدون، أنا لا أرتعب أو أخاف، ولكن لا يجوز إلا أن نخطو خطوة سلام نحو قيصر الروس؛ وإلا حملتُ وُزْر الأديغة كلهم.

عصر الألم قلب قرباتر فخرج من الغرفة. وكما يفعل حين يجب أن يخلو إلى نفسه توجّه إلى سور الدار وتوغل بين أشجار الفاكهة، وجلس على المقعد تحت التفاحة التي كان يجبها سفري. وحين رأى التفاحات الناضجة تتساقط التقط التفاحة التي وقعت أمامه، وخرج من البستان يحملها. وعاد إلى الغرفة قبل أن يداعب صباح الخريف اللطيف وجهه. ودخلت معه المرأة، وسألته بلطف:

- لم تعد تستقرّ في مكان منذ عاد والدنا. هل قال لك ما أساء إليك يا قرباتر؟

- لا، لماذا تقولين هذا يا ماريا؟ لا عتب لي على والدك. جلسنا وتحدّثنا؛ أقليلاً ما يحدث في عالم الأديغة!

- ومع ذلك تُخفي عني شيئاً يا قرباتر.

- قلتُ لك: لا. الأفضل من هذا أن تجهزي لي زاداً للطريق لأني مسافرٌ غداً إلى طوابسه.

حين عادت المرأة إلى أعمالها، وبقي قرباتر وحده مع أفكاره، كان من لا يفارق الذهن ولا يغيب عن العينين هو والده. الآن فحسبُ بدأ قرباتر يفهم الضيق الذي عاش فيه والده وإن قضى عمره إلى يساره، ويقاسمه همومه. وأول ما قدّر قيمة الإمارة كان حين بدأ عرق الأديغة ينتظر ما سيقوله وما سيفعله، وينتظر سلوكه الصائب. وإن عاد ثلاثين عاماً إلى الوراء امتثل لعينيه سفره هو ووالده إلى تفليس، وانتسابه إلى الجيش الروسي، وخدمته فيه، ثم طريقة خروجه منه.

وكيف تغيب سيريرياكوف غزار من هذه الصور؟ يدخل في إطار الصورة ويخرج، ويراه يطل من وراء والده خبيثاً محباً لنفسه ذكياً. وأصدقائه خلال خدمته في الجيش الروسي... وبوتينك... وفاسيلينك... وكورباتوف... وسافونين... وأكثرهم قضى بسيف الأديغة ورصاصهم. كانوا شباباً ممتازين، غفر الله ذنوبهم إن أساءوا... ما أبأس ألا يكون سلامٌ بين شعبين، وما أدعاه إلى العار! من المسؤول عن هذا الوضع؟ كائناً من كان السبب فليسوا الأديغة! عاشوا حياتهم أبرياء يحبون أرضهم ويحمونها ويربون أطفالهم. وانظر ما جرى لهم الآن! يطحنونهم بين حجري الرحي. يُهينونهم زاعمين أنكم مشاكسون لهم. تمنعون عنا أرضكم، طالبين منا الانضواء تحت رحمة سيوفكم. الأديغة يرددون طوال عمرهم: القليل ضعيف. ومع قلّتنا عملنا إلى الآن ما نقدر عليه. وإن كانت الرجولة ستحمينا فإننا لم نأل جهداً طوال هذه السنين. والآن، رجولتنا لا أمل من ورائها كما يبدو. ووصل الأمر إلى أن يبید العرق بكامله بسببها. نحن اليوم في موقف يفرض علينا أن نتشاور. وما نحتاجه لأجل هذا هو خطوة واحدة نحو السلام!.. هذا الأمل الوحيد للأديغة. اغفر لي يا إلهي إن كنت أقول ما لا يجوز. وإن كنت تؤيدني فامنحني القوة، وسهّل لي أمري، وحقّق لي مرادي. أتوسل إليك باسم الشهداء وبكرامة الأحياء، أنت يا من يتوسل الجميع إليه ولا يتوسل إلى أحد.

كان الخريف المبكر لطيفاً فلم يصعب السفر على قريباتر وصحبه. وهو جاهز لجلسة البرلمان التي ستفتتح غداً في طوابسه.

اجتمع قريباتر بعدد من الناس قبل صلاة العصر. وأولهم من حمل إليه تحيته بنفسه برزج جراندوقوه. وبعده تسي حاترباي. هذان أكبر منه عمراً ومن جيل والده وصديقه، ولكن لا بأس؛ الأديغة لم تبدأ به ولن تنتهي عنده. ومع أن قريباتر استغرب أن أياً منهما لم يفتح سيرة اجتماع الغد فقد تجاهل الأمر معتمداً على أن الغد قريبٌ لناظره.

لم يستطع قريباتر إلا أن يفكر حين نام وجلسة الغد في ذهنه، في اجتماعه بالكبيرين. سواءً وافقتُ حيي أم لم أوافق ففي ذهن هذين شيء ما. تكلمنا معي بلسان معسول ولم أر عليهما قلقاً لاجتماع الغد. هل انتهت الحرب في إقليم

الأديغة فترتاح من التفكير فيها؟ ألم تبقى فيه أحزان ومأس؟ لم يسألا عن الكتاب الذي سترفعه إلى القيصر، ولا عن الموضوعات التي سترد فيه. كيف استطاعا الصبر عليه؟ وما السبب؟ أكونان مطلعين على ما فيه؟ ولكن شخصين فقط اطلعا على الكتاب الذي لم يتبلور بعد. أحدهما أنا والآخر جيمس. وقد اتفقنا على نحو حاسم ألا نتكلم في مضمونه قبل طرحه على الجلسة، بل إن جيمس كان يرغب ألا يظهر في هذه المهمة فلبّيت له رجاءه. وهذا هو سبب عدم قدومه إلى طوابسه. أأكون إذن أهم جيمس بما ليس ذنبه؟ أكون نقض اتفاقنا؟ ليست نادرة المواضع التي اختلفنا فيها ونحن ننشئ الكتاب بحجة أنني أفرط في التركيز على موضوع الصلح. كان يفضل التركيز على الرجولة الأديغية والامتناع عن الصلح. وماذا يهمّ العملاق إن هددته بقبضتك؟! ومع ذلك لمر ما سيحدث غداً.

افتُتحت جلسة البرلمان في الساعة العاشرة من الثاني من أيلول عام 1861 بالصلاة. ولما نهض زانه قرباتر لافتتاح الجلسة ظهر أول خلاف بين المجتمعين.

- مهلاً يا قرباتر، - نهض برزج، - أود أن أطرح أمراً على الجماعة. أَلفنا البرلمان باسم الأديغة، وأنتم انتخبتم له ثلاثة زعماء. وصلاحيّة الثلاثة واحدة. في الاجتماع الأول للبرلمان تشاورنا أنا وحاترباي، فقررنا إيكال مهمة الافتتاح إلى زانه قرباتر باعتباره الأصغر، نرّيه، ونتابع طريقة عمله. وإن كنتم تتذكرون فقد أدار الجلسة جيداً ورضينا عنه. وإن وافقتموني فلنشرّف بمهمة الافتتاح اليوم الزعيم الكبير تسي حاترباي أحد زعماء الأبراخ.

- عندي سؤال إلى برزج جراندوقوه، - نهض نور مُجّد حاغور.

- أسمعك يا حاغور، - رفع برزج يده وأسكت الضجة الكبيرة التي ثارت نتيجة الموقف.

- لا تؤاخذني يا كبير! - ألم نطلب من الثلاثة الذين يقودون المجلس أن ينتخبوا من بينهم واحداً رئيساً؟

- لا عيب في سؤالك يا نور مُجّد. - وسأجيبك: كنا أبرزنا قرباتر باعتباره الأصغر سنّاً ولكننا لم نمنح أحداً صفة الرئيس.

- أسأل هذا السؤال لأن من الصعب على ثلاثة أن يمسكوا عناناً واحداً... -
يجيب حاغور على سؤاله كمن يبرئ نفسه، ويضيف: - وهناك مسألة أخرى يا
جماعة: أنا من أكبر مناطق إقليم الأديغة. غير أنني لا أحاجج باسم منطقة كبيرة
أو صغيرة، مجلس حرية الأديغة - البرلمان أعلى الهيئات الأمرة. وهو مُلك
للجميع. وهو مُلك للبعدوغ الذين صاروا خارجنا تحت سلطة روسيا،
وللجمكوي والبسلني والقبرتاي. فإن عدنا إلى التمييز بين الأعراق والصراع
بينها كانت نهايتنا.

رأى برزج بعينه أن المجموع وافق حاغور فقال كاطماً غضبه، منمقاً كلامه:
- حسناً يا نور مُحمد، صحيح. كبيرنا وصغيرنا يربون في مهد وطن واحد.
صحيح. والآن ماذا نفعل أيتها الجماعة بعدما نطق اسم الرجل المرشح
لافتتاح الجلسة؟

استلم قرباتر زمام الحديث:

- أيتها الجماعة، يا أعضاء المجلس - البرلمان. لم يخطئ كبيرنا جراندوقوه في
كلامه. أليس حسناً إن أدار كبيرنا تسي حاترباي جلسة اليوم! أنا من سيطرح
عليكم الكتاب الذي سنسلمه إلى قيصر روسيا، ومن سيتحدث عنه. وإذا كان
هذا سهّلت إدارة الجلسة على حاترباي. ولكن في كلام حاغور جوهرًا ينبغي
الالتفات إليه. من يجب أن يمسك بالزمام شخص واحد. ومن تحتاج إليه
الدولة زعيم واحد إليه تؤول الأمور كلها. ولا يتعلق اختيار الرئيس بعرق كبير أو
صغير.

- نوكل إليكم تنفيذ هذا بعد انتهاء الجلسة!.. - تصايح المندوبون. ورشح
شخصان أو ثلاثة قرباتر.

يدير تسي حاترباي جلسة البرلمان. وبعد الكتاب الذي عرضه عليهم قرباتر
تكلم أربعة أشخاص. والشخصان اللذان تلواهم لم يجيدا عن رأي السابقين.
وبعدما انتهى المتكلمون فهم قرباتر أن مشروعه ساقط، وأن أمر سقوطه مدبر
سلفاً. واستلم برزج الحديث فأثنى على عمل قرباتر، ولكنه أنهى كلامه بضرورة
إعادة الكتابة وفقاً لآراء المتحدثين. ومدّ يده إلى جيبه فأخرج كتاباً آخر:

- اسمع يا حاترباي، اقرأ لهم هذه. كنت كتبتها قبل أيام على مبدأ: عقلان خيرٌ من عقل واحد. ترجمها لهم من التركية إلى الأديغة. ليست طويلة جداً، أقل من صفحة واحدة. وإن أقرها البرلمان فليصُغها قرباتر بالروسية.

يبدأ تسي حاترباي قراءة ورقة برزج: " إلى قيصر روسيا الذي نحترمه ونقدّره ولو أنك تعاديننا! مضى أكثر من خمسين عاماً على إعلان الحرب الدموية على الأديغة. نكرر لك ما قلناه: نحن الأديغة لسنا مُلكاً لأحد. نعيش في أرضنا ونحن نحميها طوال هذه السنين. أهتمونا بحجة أننا بلا دولة ولا يملكنا أحد، فأسسنا دولة أديغة. وانتخبنا لها مجلس حرية وبرلماناً. وعندنا وثائق تُثبت أن إنجلترا وفرنسا وتركيا وفرنسا تعترف بنا دولةً مستقلة. فإن كنا سنعيش دولتين متجاورتين يسود بينهما السلام فإننا نعتقد أنه يجب أن يسود بيننا اتفاق مصالحة، وما يجب فعله لتنفيذه:

1 - أن تسحب جيشك من أرضنا. 2 - تزيل من أرضنا التحصينات التي أقمتها. 3 - تسحب من أرضنا الأسر القوزاقية التي لا تُكفّ لها الشرّ. 4 - تسحب سفنك من ساحل البحر الأسود. 5 - إقرار معاهدة صداقة وحُسن جوار بيننا. 6 - تبادل الأسرى بين الطرفين.

فإن لم ترضخ للمطالب التي حددناها فلن نصالحك ولو امتدت السنوات الخمسون إلى المئة إلى آخر أديغي". حين انتهى تسي من القراءة نقض قرباتر الهدوء المخيف القلق الذي ساد القاعة:

- يا جماعة، لا تخاطب دولةً تحترم نفسها دولةً أخرى بهذه اللهجة. - وأنت كيف تخاطبها إذن؟ - ألقى حاترباي نظرة عدائية على قرباتر. - ما الذي لا يناسبنا نحن الأديغة في هذه الورقة، ولا يليق بنا؟ - سأل برزج أيضاً وهو ينظر بوذٍ نحو الجماعة.

- سأقول لكم رأيي أنا في هذا الموضوع أيتها الجماعة، - نهض قرباتر وتوسّط الرجلين الواقفين أمام الأعضاء. - لا أكتب، إن كنتِ قررت ألا تعايش العدو وتقطع صلتك به نهائياً فما في الكتاب صحيح. ولا أرى فيه شيئاً في غير محله. ولكن مثل هذا الكتاب يجب أن يترك فسحة أمل. لا تدعونا نخطئ أيتها

الجماعة، الأديفة الذين تزعمناهم أودينا بهم إلى حافة الهاوية. دعونا نتحلى بالعقل والرحمة ولو أهانوا كرامتنا...

...

ناقش البرلمان الأديغي ثلاثة أيام الرسالة التي سيوجهونها إلى قيصر روسيا. نخاصم الأعضاء وتصلحوا. وقارنوا بين كتاب جراندوقوه وكتاب قرباتر، وظلوا ينفحون ويعدلون حتى لطفوا لهجة الرسالة. وتركوا فُرجة أمل ولو لم تكن واسعة. ثم استعرضوا الرسالة ثانية. وتعبوا، وضاعت صدورهم، وزهدوا في كل شيء. حين نودي على الأسماء واحداً واحداً للتصويت على الرسالة رفع زانه قرباتر يده موافقاً دون أي حماسة.

VII

- ما الأخبار يا جراندوقوه؟ - سأل جيمس قبل أن يترجل برزج من الحصان.
- والله أفلقنا زانه غير أننا منعناه من تحقيق هدفه، - أمسك برزج بساعد جيمس الذي انتظره عدة أيام، ورضاه عمّا جرى واضح من صوته ومن مشيته. وضحك. - أمير الناختوي، نعم، نعم يا جيمس، لا تتعجب، ما الذي يجعله زعيماً للأديغة وحليب أمه ما يزال يسيل من شذقيه! ما لا يفهمه هذا الشخص أمرٌ واحد: هو كمن يذهب إلى الحجّ والناس راجعون منه، نحن رجعنا منذ زمن بعيد من حيث هو الآن. وأنت كنت معنا. يريد أن يُنسيّني مأساة الأديغة التي عمرها عشرات السنين فأستقبل قيصر الروس وأدعوه لأن يتفضّل. ثم أعانقه جالباً لنفسه العار... ليست هذه مشكلة، أنت يا جيمس كيف جرت أمورك في الوبيخ؟ هل أغضبك آل جراندوقوه؟ وهل أتعبوك؟ وهل بدر منهم نوع من البخل؟

- يا جراندوقوه يا أمير، لا تُهَيّ، أهذه أول مرة أزور فيها الوبيخ؟
- لا بأس إذن، - يربت على كتفه مسروراً به من أعماقه، ويضحك - إن أزعجوك أيّ إزعاج فلن ينجو لابس قبعة في الوبيخ، وعلى رأسهم شباب آل برزج، من الجلد.

من طريقة كلام جراندوقوه، يقول جيمس، يبدو أنه عاد من البرلمان راضياً تماماً. ولم يبق إلا أن نظّور المشروع، ولا نعطي فرصة لدعاة السلام أن يعودوا

إلى وعيهم، وأن نخرمهم من أي أمل. ولا يجوز إلا أن نتصرف هكذا مع الروس والأديغة. إذ أنه حالما يسود السلام بين الطرفين ستمدّد أقدام روسيا على ساحل البحر الأسود. وستثبت وجودها في أوروبا وفي البلقان. وقد سبق أن فتحت أبواب إيران عبر الداغستان. زانه قرباتر يدعي الذكاء محتمياً بوالده، ولكنّ نظره قصير. وقد لمحت له دون تصريح حين كنا نعمل معاً في الكتاب الذي سيناقشه البرلمان ولكن لم يستجب لشيء من نصائحي، أو لم يفهمها، أو لم يكن يريدّها. حسناً فعلتُ إذ لم أظهر نفسي. تصرّفت معه على هواه، والآن عليه أن يفكر في طريقة للنجاة بنفسه. والآخرين كيف تصرفوا في البرلمان؟ لم أكن أريد أن ينفرط عقد البرلمان قبل أن يلتئم. الصراعات بين الأعضاء ستجمع حولها الأديغة. أن تكلمهم حسب ما صمّمنا الآن أفضل من أن تتوسل إليهم عبر مؤتمرات القبائل. ويمكنك أن تستقطب الأشخاص الذين تريدهم. وعلينا التفكير في المهمات التي ستحافظ على وجود البرلمان. ما أفعله هو مجاهدة روسيا بالأديغة المهووسين بالحرية.

- والله يا جراندوقوه آراؤك هذه لا تناسب الوبيخ. - أفضى جيمس بكلّ ما عنده بعدما استعرض أفكاره. يجيبه راغباً في معرفة ما جرى تداوله في الجلسة: - يسرني أن جلستكم كانت ناجحة. كنت قلقاً بعد مُضيّ ثلاثة أيام على اجتماعكم.

- مرزنا بمواقف تدعو للقلق. جاءنا حاغور بآراء شاذة... ولكني تصرفتُ مع المختار الشابسغ بدهاء. أنسيته ما يريد من خلال مسائرتي له. وزانه نفسه جعلته يساهم في العمل لمصلحتنا وإلا... هيا اذبحوا عنزة جيدة، - يقول لخدم الدار، - عليّ أن أحتفل بشيء من الطعام والشراب. لا تجمعوا القرية، نريد أن نجلس أنا وجيمس وحدنا. اسمع يا جيمس: أفضل أن تذهب إلى تسي للتهنئة خيراً من أن تأكل من لحم معزة عجفاء.

- أيّ فرح عند تسي؟

- أصبح رئيس مجلس حرية الأديغة - البرلمان.

- وزانه قرباتر؟

- جرى له ما يستحقه. كل من لا يسمع الكلمة ينتظره هذا المصير... نعم، أنا من يجب أن يقيم له تسي البخيل ثلاثة أيام من الطعام والشراب. من سيكون زعيمنا، أليس يجب أن يكون علينا زعيمٌ ما أياً كان، حين أبعدنا زانه قليلاً من أمام البرلمان، وبقينا ثلاثتنا لنتكلم في موضوع الزعامة، بقيت أمتدح قرباتر، وأنتبهه إلى أن عليه الصبر من أجل عمره، ذكرت اسم تسي. ثم ما جرى عجيبت، حاترباي رشحني أنا دون علمٍ مني. ألا ترى ما يحدث: بالغ في الاستعجال. ثم لن أقول إلا الواقع: لم أجد من اللائق أن أنصّب زعيم الوبيخ العرق الصغير زعيماً على الشعب الكبير الأديغة، فأصررتُ بهذه الحجة، فلم أتوقف إلا بعد اعتماد تسي رئيساً.

- وكيف كان ردُّ فعل زانه؟

- لم نستطع أن نحمله على الموافقة.

- ألم يقل لكم إنه لا يجوز الانتخاب بصوت واحد؟

- ولماذا؟ رفع تسي يده لمصلحته، هل ارتكبنا خطأ؟

- لم يسبق لي أن رأيت فيكم مثل هذا السلوك. في مثل هذا الموقف قد يفعلون هذا. ولكن العامة الذين لا يؤدّونكم سيسخرون منكم قائلين إنه صوّت لنفسه. ويفتح الباب لاغتيالكم.

- أهذا ما تقصد؟.. - لم يعبأ برزج بما سمع. - حملنا البرلمان على الموافقة على هذا الإجراء. وحين أخبرنا المجلس بما اختتمنا به عملنا كان زانه جالساً كأن لم يجر له شيء، بل كأنه رفع هو أيضاً يده بالموافقة. ولم يُبدِ أي انفعال سلمي أو إيجاني. هذه طبيعة آل زانه. والمرحوم سفري كان من هذا النوع. لم يكن يُجيد العمل لمصلحته. ماذا تظن سبب إقدامنا على ما فعلنا؟ لأننا نعرف هذه الطبيعة في آل زانه.

- ما رويته عجيب.. - شرد جيمس كأنه نسي من يجلس مقابله، ثم عاد فسأل محدّثه: - كيف كان افتراقكم بعد انتهاء أعمال البرلمان؟

- من تقصد بسؤالك: زانه أم أعضاء المجلس؟

- زانه، والآخر.

- سأقول لك: افترقوا بمصافحات حارة. بل إن قرباتر ودّعنا إلى مفرق طريق الأبراخ. حياه الله، أرضانا نحن الأكبرين منه سنًا، واحترمنا.

- ألم تر يا جراندوقوه شيئاً لافتاً في تصرّف زانه الهادئ؟

- لن أتهم الرجل بما ليس فيه، لم يجعلنا نشكّ في شيء. ولكن رأيت في رفاقه الثلاثة: نيكراس تيم ونور مُجدّ حاغور والفلاح ترام عدم ارتياحهم. نيكراس تيم من البديهي أن يتخذ هذا الموقف فهو حموه مهما كان. ولكني أنسى شيئاً: نيكراس تيم وافقنا أيضاً في موقفنا من روسيا. أشفقْتُ عليه، يجهد لإخفاء أصله الروسي. كان من أوائل من رفع يده بالموافقة.

- ما يجري عجيب... - كرر جيمس استغرابه.

بدأت رائحة الشواء تفوح من جهة المطبخ. ولم يتأخر وصول العنزة المشوية إلى المضافة. قال جراندوقوه جالساً إلى المائدة بكل راحته بعدما ذاق من كل صنف لقمة:

- طلبت منكم ألا تدعوا أحداً من القرية، ولكن الجلوس وحيداً إلى مثل هذه المائدة معيب؛ أليس كذلك يا جيمس؟

- لا تستعجل يا أمير، حان موعد وصول من سيجدون هذه المائدة بانتظارهم، - ابتسم جيمس، وباح بما أخفاه إلى الآن.

- أيّ ضيوف هؤلاء؟ - انتفض برزج برأسه.

- هل ظننت إذن يا برزج أن يصلوا حالما تذبح عنزتك؟

- والله صحيح. وفكرتُ في هذا. لماذا لم يخبرني خدام الدار الخبثاء!.. أين هم هؤلاء؟

- لا ذنب لأحد. البشارة لي. جاء خروزر إسماعيل بيه وفونفيل من تركيا.

- يا عجيبي، أيّ خيرٍ هذا!.. - يرفع جراندوقوه السوط الفضي من البساط الجداري، - خذ، هذه بشارتك. والله يا جيمس أنتم الإنجليز خبثاء إن قُبِلنا أم لم نقبل، وألستكم كتومة، كيف صبرت إلى الآن؟!

- لم أجد الوقت لإخبارك... - يتسم جيمس للمضيف، ثم إني كنت اشتبهت هذا السوط الفضي. كنت أريدك أن تصبح أشدّ استعداداً للتخلي عنه.

- مبروك عليك، أين ضيوفي؟
- عرّجوا على الشاطئ يريدون أن يروا ما فيه.
- والله مرّ على لقائي بخروزر وقتٍ طويل. متى كنا في تركيا؟ في نهايات حرب القرم، زمن احتجازه. جرى لفونفيل ما تنبأت له به حين عاد إلى فرنسا فقلت له: ستسافر الآن، ولكنك ستعود من شوقك إلينا.
- لم يصل إلى فرنسا.
- إذن؟
- كانت عنده مهمة في طرابزون.
- هكذا! تعال يا جيمس نستقبل الضيفين.
- صعبٌ أن تترك مائدة جاهزة... حان موعد عودتهما. أدعو أن ينتصر حظنا على الأعداء، وأن نجح في ما نسعى إليه، ولا يعرفلنا شيء. - شرب برزج من الباخسمه فمسح لحيته وشاربيه بكفيه مسروراً. وفيما يتذوق اللحم الطري اختتم بما كان يشغل باله إلى الآن، كأنه يحدث نفسه: - يسعى زانه إلى أن يصالحني بالروس، وأن أعيش في ظل نظام الدولة الروسية حيث الفلاحون تحرروا فيجعل فلاحيّ أنفسهم ينهبونني. خذ إذن! - أخرج إصبعه الوسطى التي يسيل منها الدهن من بين جارتيهما، وأشار تلك الإشارة المهينة. - أنا لا أشرب الماء من أنفي!..
- آل زانه أيضاً عندهم عبيد وفلاحون.
- لا يهمني ما عندهم. لن أصالح روسيا! ولن أسمح للفلاحين أن يصالحوها! علينا أن نفكر في مخرج ما قبل أن قبل أن يصلنا أمرٌ تحرير عبيدهم، ويشترَ فينا البلبلة. الحقّ ماذا بإمكان روسيا أن تفعل بي إن جمعت فلاحيّ وبعثهم لتركيا؟! وإن لم أخطئ فهذا ما يسعون إليه هم أيضاً. كان لمج لي أحد ضباطهم الكبار. والله ضيفانا شوقانا إليهما. دعنا نرفع يا جيمس هذه الكأس أيضاً مع أمنية! حين يضيق صدر الإنسان يتمنى طريقة للفرج. هذا ما كان المرحوم زانه سفري، ليفتح له الله باب جنته، يقوله متى جلسنا إلى مثل هذه المائدة. لم يدعنا نحنأ وهو يصارع النائب، ونحن نتظاهر بتأييده!..

...

توضّح في مجلس برلمان الأديغة الفرقة الأديغة المألوفة.

من كان المسؤول: أهم زعماء الأعراق أم الأعراق التي تحمل اسم الأديغة؟
يتهم قرباتر زعماء الأعراق، وهو في مقدمتهم، بالمسؤولية. وليست هذه الفكرة عنده وليدة اللحظة، بل منذ كان يخدم في الجيش الروسي. ثم في زمن والده والنائب. والآن يساهم هو بشخصه في المسألة.

يقول قرباتر لنفسه: ماذا يجري لنا مع زعماء الأديغة؟ ما أسرع ما ننسى من وراءنا متى ركبنا! حين كان الأديغة يعيشون دون دولة خاصة بهم وبرلمان كنا نجد لهم عذراً في أنهم بعيدون عن نظام محدد يربطهم، فنستهي ما لا يتحقق لنا، ونختبئ وراء الذرائع. والآن ماذا يجري لنا في المجلس - البرلمان؟ دخلنا في النزاعات قبل أن نستكمل فرحنا. أفهم أن الطريقة التي أقترحها لاستقبال للقيصر تحتل الاختلاف، وأنا نفسي لا يتقبل قلبي ما أقترحه، ولكن كيف تفهم اتفاقنا بالأمس على الرئاسة ونقضنا له اليوم؟ أهو اقتراحي مصلحة روسيا ما لم يعجب كبيرينا؟ أم مشيتي، طريقة امتطائي الحصان، أم طريقي في الحياة؟ لماذا هاجموني في البرلمان متجشّمين كل هذه المشقة فأهانوني؟ نحن الثلاثة ليست علاقتنا مشكلة فإن لم نكون على صفاء اليوم تصالحنا غداً بسهولة، بل أعضاء البرلمان الذين نظر بعضهم إلى بعض شزراً. اختبؤوا وراء الأفكار بسبب اختلافنا نحن الثلاثة، ورمينا بينهم الارتياب. حسناً فعلتُ إذ وافقتهما على كل شيء دون أن يظهر عليّ انفعال. وجلسا معي على المائدة مقترفين حسنة معي. ورفع كل منهما نخباً على شرفي، كلٌّ نخبٍ أجمل من الآخر، وأتيا على سيرة والدي بالخير. ما كنتُ أصدِّق المرحوم حين يقول: هذه هي الحياة، مركبة بطريقة عجيبة، لا تعرف من أين تأتيك الضربة. لن تفهم الحياة ما لم تصطدم بها وتشجّ رأسك. أليس لهذا السبب تحدث هذه الصدمات لآل زانه؟ أما كان علينا أن نتعظ يوماً؟ ولكن ما فعلته صحيح مع ذلك. تلقيت حجرهم الذي رجموني به بقطعة من الجبن. جعلتهم يتبادلون النظر مراراً وتكراراً لا يعرفون ماذا يقولون وماذا يفعلون...

لا ينفك قرباتر ينصح نفسه طوال ثلاثة أيام. لا يجوز أن يسمح للقسوة أن تغلبه. يحاول بكل جهده إبعاد الأفكار السيئة، باحثاً عن الكلمات اللطيفة.

لم يكن قرباتر بعيداً عن فهم سبب بحثه عن ألطف الكلمات، وعن الأفكار التي يهدئ بها نفسه. وما كان عاجزاً عن تسميته هو تنازع الأعراق الذي كان السبب دائماً في نكبات الأديغة. ومرة أخرى شهد هذا بعينه في ذلك اليوم، وجرى لشخصه تحديداً. وقبل أن تخطو الدولة الأديغية المؤسسة حديثاً الخطوة الأولى تبدأ الجفوة تمزقها. ماذا علينا أن نفعل لمعالجة المشكلة؟ هل نعود إلى بداية الطريق بعدما ظننا أننا قطعناه؟ كان والدي والنائب متهمين بالفرقة بين الأديغة، وانظر الآن ماذا يفعل من كانوا وراءهما!.. من يا تُرى يتصيد من وراء هؤلاء؟..

قطعت أصوات حوافر الخيل أفكار قرباتر. ودخل مُجد نور وترام. وقبل أن يلتقيا التحية سألها:

- ما الأخبار في البجدوغ؟

- هم في انتظار القيصر الروسي، - ابتسم حاغور بوجه مرهق، - قلقون لأنهم لا يعرفون الجهة التي سيأتي منها.

- ولماذا يهتم البجدوغ باتجاه قدوم القيصر؟ - يسأل قرباتر متعجباً وغير متعجب مما يسمع.

- إن قلنا البجدوغ فلا نعني الفلاحين العامة يا أمير، - ساهم ترام في الحديث، - من يقلق لأمر القيصر هو الأمير حجمقوه أسلانج. يود أن يستقبله حسب العادات الأديغية.

- من يعرف، - أصلح حاغور الحديث، - يقول الأمير سيعاملنا بمثل ما نعامله به، وتبعاً للفكرة التي يأخذها عنا.

- صحيح، لاعيب في كلامه. ما لم يفهمه جماعة تسي انتبه إليه حجمقوه، حيّاه الله!

- أسلانج يعرف ما حدث في المجلس. وكلّفنا أن نُبلغك تأييده لك. ولكنه هو أيضاً غير راضٍ عن قيصر روسيا في مسألة واحدة.

- ما العيب الذي يراه فيه سوى أنه يحاربنا؟

- هو قلق من مسألة تحرير العبيد.

- إذن لا يتخلف تفكيره عن تسي وبرج، - نظر قرباتر وهو يجيب نحو ترام،
وحُيِّل إليه دون إرادته أنهم يسلبونه شيئاً وإن لم يكن يحبه من قلبه. ثم أضاف
محدِّثاً نفسه، مسمِعاً الجالسين. - أليس تحرير العبيد خيراً بالقياس إلى مأساة
الأديغة...

الكتاب التاسع

I

لا خبر في إقليم الأديفة إلا خبرُ زيارة قيصر روسيا. وكلما اقترب الموعد المحدد زاد القلق من النتائج المحتملة لها. يسترعي الخبر اهتمام الطرفين المتجابهين، ويضيف كلٌّ منهما ويُنقص ما يواتيه هو. ولما كان الصدق يلتبس بالكذب لم يعد الناس يعرفون أين الحقيقة. ينتظرون المجهول. والطرفان منضبطان ما يعني أنهما يثمنان حياة الإنسان. وإن جرى اشتباك مسلح في مكان ما دانوا الطرفين.

على أن السلام يسود في الشايغ - الناختوي بالمقارنة مع الأبراخ. وحجمقوه أسلانج متشائم من الأخبار التي يمكن أن ترد من أعالي نهر شخغواشه. ومع أن موفدين لقرباثر كانا عنده مؤخراً فهو مسافر إلى الناختوي بشخصه. وسيجتمع بالأبراخ ويتحدث إليهم تبعاً لما يسمع في الناختوي، وسيجتمع بتسي. وسيلومه على تحرُّش شبابهم بالروس، وسينصحه. وإن اجتمع ببرج كان خيراً إذ أنه هو الآخر يحرُّ خشبته من وراء الشايغ في اتجاه معاكس. والضيوف السريون الذين يقدمون من تركيا يثيرون بين الناس فتناً هم في غنى عنها.

أيُّ أتراك، قال أسلانج، وإنجليز وفرنسيين ما يزالون يتوسلون إليهم؟! ألم يكف ما دفعونا من ورائنا ضد روسيا، وهي جونا عليها، وشجعونا أن نلوح للروس بقبضاتنا؟ وفي أحسن الأحوال لم يأتنا من وراء البحر أشجع من لا يينسك رغم أنه اتَّهم اتِّهامات كثيرة. رجاله، من فرسان ومشاة ومدفعية، حاربوا معنا، حتى اضطروا الروس إلى العودة إلى وعيهم. وليست خسائره البشرية على أرض الأديفة قليلة. لم نطع سفرني ولكن لو توخَّدنا نحن الأديفة، وصالحنا الدولة التي لن نستطيع مجابتهها، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه الآن. وأنا لستُ محموداً، أنا واحدٌ ممن أضروا بالقضية. عاملنا زانه بما ليس في قلوبنا، بالكلام المرائي على ألسنتنا، ثم بدأنا نحمله كل ما يصيب الأديفة من مأس. وأين كنتما يا برج ويا تسي؟ لا أريد أن آتي على ذكر النائب الخائن. وأنت أيضاً يا حجمقوه أين كنت؟ أيُّ حجر أديفي لعين بدأ حصاننا يتعثر به! والآن لم يكفهم ما جنوا

بحق سفرني فبدووا يصارعون ابنه. وأيّ ذنب اقترفه؟ أهو طلبه ضبط النفس
ريثما يأتي قيصر روسيا؟ أيجتاج هذا إلى البحث عن مثلبة فيه؟ اليوم بقي لنا
اهتمام وحيد يجب أن نعمل به لمنح قضية الأديغة بارقة أمل. وإن لم نتصرف
هكذا مَرَّقونا.

قفز أسلانج من الحصان وهم على ضفة نهر بزيقوه. وترجل المرافقون الثلاثة
من ورائه. الخريف الهادئ يتطلع من وجهة بَرِّيَّة تُحَدُّ. ومن بعيد تظهر من جهة
البحر قمم ثلجية متراصفةً غيرُ عالية. ويبرز من بينها جبل بيباو. والسحب
الباهتة تتبارز في السماء. وشمس الصباح ترتفع متمهلة. ولا يُسمع في دنيا
الأديغة البائسة إلا اصطفاق أمواج نهر بزيقوه. وفيما هو يتفحص بركة بُحْد رفع
حجمقوه يديه إلى الله: لا يحدث ما يحدث هنا دون علمك يا إلهي. كانت
حرب بزيقوه أحد مظاهر الفرقة والتنازع الأديغيين. وهنا ظهر العداء بين أبناء
الأصل الواحد. اغفر للجميع أيّاً كانوا ذنوبهم. ولا تودّع قلوب من سيخلفوننا
غداً وبعده إلا الخير والوفاق. ولا تغفل عما ينتظر الأديغة في مستقبلهم. وليّن
قلبك لنا إذا كان ما حدث لنا في هذا المكان سيحدث غداً. يكفي ما تجابه
الطرفان بالسلاح حتى تعدّر تمييز المذنب من البريء.

خفّت حركات حجمقوه ولانت مفاصله، ربما لأنه تضرع إلى الله في بُحْد منقّساً
عن كربه. وبعدها مشوا مسافة والخيالات تتزايد أمام عينيه عاد إلى أفكاره،
قال: ما الذي يبحث عنه خروزر وفونفيل ومعهما جيمس؟ أيّ مساعدة تركية
— إنجليزية — فرنسية يعدّون بها العامة من الفلاحين!.. كم مرة نصحت برزج
أن يتخلوا عن أمثال جيمس! وكم مرة نصحتهم ألا ينخدعوا بهم!.. ولا يزالون
إلى الآن يدورون بهم مجثمّين أنفسهم العناء. يعقدون لأجلهم المؤتمرات،
والآخرون يحضونهم على تهديد الروس في غير مصلحة الأديغة. والله عجيب!
ما إن يبدأ الأديغة مشروعاً ما حتى يُهرع هؤلاء إليهم...

— من هناك؟ — ظهر بضعة فرسان أمامهم. وتعرّفه السائل. — أنت حجمقوه
أمير البجدوغ!..

— كلّ في مكانه!..! — قال الضابط الذي أصدر الأمر باللغة الأديغية من
بينهم معتدّاً بنفسه: — مع السلامة يا أسلانج!

- هذا أنت يا رفعت من لا أتعرفه؟ - بدا على أسلانج ارتياحه لما يرى، ولكن صوته انكسر من سحنة الضابط الباردة. - لم أرك منذ عدة سنين، كيف حالك؟

- كل شيء بخير. نحمي حدود روسيا.
- هكذا إذن!

- وأنتم البجلوغ مشمولون بالحماية يا أمير.

- حقاً!.. - مرة أخرى كرر أسلانج التعجب، وارتسم أمامه تيم والد الضابط. وسأل غير قادر على الصبر: - هل أستطيع تجاوز القوزاق والممرور إلى الوبيخ؟

- نعم يا أمير. أفهم من تزورهم أن الحرب تمضي إلى نهايتها. - ثم أمر القوزاق: - اسمح للأمير حجمقوه بالوصول إلى حيث يريد، - وحين رأى ظهر أسلانج ناداه مستعجلاً: - إن صدف أن دخلت إلى بيتنا - لم يأت على ذكر أبيه ولا أمه، - أخبر ابني أليكسي أنك التقيت بي!.. - والآن يأمر القوزاق متخلياً عن القليل من اللين الذي أظهره: - اسمحوا للأمير بالممرور.

كان حجمقوه يريد أن يضيف شيئاً إلى ما رجاه منه رفعت، غير أن الكلمات الروسية التي تلت حوارهما هيّجت ما في رأسه. وعبر الجنود القوزاق تغلبه اللامبالاة. ولم يُخ الزمام للحصان الذي أحسّ بهياج الأمير. ولم يكن اهتمام الأمير بالقوزاق الذين يحرقون ظهره بنظراتهم، بل ما لا ينساه هو سحنة رفعت وصوته. أي قلب في صدر هذا الرجل؟ لم يردعه شيء وإن مضت عليه سنوات في خضمّ المأساة الأديغية - الروسية، ولم يظهر منه أي رقة نحو من ولّده. عجب أن يتذكر إن كان له ابن في الدنيا. كان أفضل لك أن تذهب بنفسك متخلياً بالرجولة من أن تكلفني. لا أفهم حياة تيم ورفعت، يتجابهان كحديّ خنجرين، ولا يُفلّ أحد الحدين. وأضيف إليهما الآن عليمبيج الذي سماه والده أليكسي، فلا تعرف يمّ تحكم. وبين الأب والابن تعاني المسكينة سّماي. وتيم اختير عضواً في المجلس - البرلمان، فلا تحاول محادثته في شؤون روسيا. أفكر فأجد كلامهم: من ربّك لا من ولدك، صحيحاً. تيم ولد في مجتمع الأديغة وربّي فيه وكبر. أين ربي إذن رفعت الذي ولدته أم أديغية ويحمل

نسباً روسياً؟ أتذكر أنه كان في زمن ما مستعداً للتضحية بنفسه من أجل الأديغة. ألا تسمع ماذا يقول بالروسية؟: "اسمح له بالمرور" لا رقة في صوته ولا حلاوة من أثر من ريباه. أليست هذه مأساة؟ نقول إن تيم يوافقنا غير أن فيه هذه الصفات نفسها نحو الروس الذين ينتمي إليهم. وأحياناً تحكم عليه بأنه يبالغ كابنه. ما السبب في هذا؟ إن أردت الحق لم يتوجب علينا، نحن آل حجمقوه، أن نتكلم بالحسنى على آل نيكراس، وأن نضمر لهم الخير في نفوسنا. كان نيكراس ميشك والد تيم من الذين سفكوا دم البجدوغ في حرب بزيقوه. يروى أن حاغور موسى أو وايثقوه تامبر كان ضراب سيف، وكان بين من قتلوا عمُّنا بالتجري... مهلاً، مهلاً، إن حاكمت الأمور هكذا لم يجز أن تسلم على حاغور نور مُجدد. ووجب أن ينقرض الشابسغ الذين حاربونا، والأبناخ الذين وقفوا إلى جانبهم والمخوش والجمكوي... لماذا؟ هذا ما يحدث لك حين يشيخ العقل ويغلب الترهّل الجسم. وهذا ما يحول دون نجاح الأديغة، وهو مصدرُ بؤسهم، وسببُ نكبتهم!..

أشعر أسلانج الحصان بدفعة خفيفة من طرف حذائه أن مزاجه معكّر. فاندفع الحصان يخبّ خبباً سريعاً. وتجاوزا مرتفع شَبَج إلى مرتفع أَدْرِي. ولاح البحر من بعيد. وظهرت سفن الحراسة الروسية. وفي خلال ساعة صعد إلى تلّ قُماتر. وحول دارة الأمير الكبيرة في وسط القرية تتناثر بيوت الفلاحين كأفراخ الدجاج. ونبتت فكرة مقلقة في ذهن أسلانج: هل يكون قرباتر في البيت في هذا الوقت؟ توجه إلى القرية تاركاً المقبرة إلى يساره، ناسياً تعبهُ وأفكاره. وبعدما سار مدة رأى أربعة أشخاص في المقبرة: أحدهم قرباتر يقف وحده أمام شاهدة القبر، والآخران في مواجهة الشاهدة، أحدهما ترام، والآخر لا يعرفه. والرابع يقف أمام مدخل المقبرة مع الخيل. وما إن نظر إليه حتى تعرّفه: فونفيل! حيّاً أسلانج الضيف الفرنسي متفادياً المصافحة في المقبرة، واتجه إلى حيث قرباتر:

- نهارك سعيد يا قرباتر.

- شكراً أسلانج.

- رأيتمكم في المقبرة فدخلت. استغربت لأنه ليس عيد فطر ولا عيد أضحى.

- طلب خروزر زيارة قبر حورية فجئنا معه.

- هذا هو إذن من صدعنا ذكره ولم نره، - تفحص أسلانبج الرجل بنظرة أسرع من سابقتها. وأضاف وقد تذكر أمراً ما: - إذن أوقع المسكين ترام في مشكلة...

- كنت طلبت من ترام ألا يأتي إلى المقبرة، ولكنه أصر بحجة أنه لن يسمح لزوجها أن يقف وحده في حضرتها. الله وحده يعلم ماذا يعتمل في قلبيهما الآن!

- هل يعلم خروزر العلاقة بين حورية وخروزر؟

- نعم، ولكنه يُخفي معرفته.

- ما العمل؟ لا أحد منهما يستحق اللوم. ولكني أدين خروزر بالدناءة التي فعلها بوالده.

- وما فعلته حورية؟

- المسكينة حورية كانت مضطرة.

- هذا حين صارت من نصيب العجوز خروزر... وبعدها؟..

- بعدها ماذا بيدها؟ الشباب ينجذب نحو الشباب... - يقول أسلانبج لنفسه: - أيّ حديث نجريه في حضرة المرحوم سفري؟.. ساجننا يا سفري؛ الحياة التي تركتها وراءك تُنطقك الكثير. ليجعل الله آخرتك خيراً. وادعُ لنا الله الذي يدعو إليه الجميع ولا يتضرع هو إلى أحد أن يحقق لنا هدفنا في قضية الأديغة التي نتابعها. لا نُضللنا، ولا تُرسلنا في طريق الخطأ يا إلهي.

قال قرباتر حين غادر الفرسان المقبرة ووصلوا إلى مفرق طريق الأبراخ على تخوم القرية:

- مع السلامة يا إسماعيل بيه. بلغ تحياتنا إلى عامة الأبراخ الفلاحين.

- وتسي حاترباي؟ - قال خروزر دون الاكتفاء بحديثه طوال البارحة عن قضايا الأديغة.

- وأين يذهب تسي متجاوزاً الفلاحين!.. - التفت على السؤال، وأضاف: - لن تنجح قضايا الأديغة دون صبر.

- على ما يبدو يا قرباتر، - ضحك خروزر من تحت شاربيه الأشقرين، - صالحت قيصر روسيا من قبل أن تلتقي به!

- الأفضل أن تكون المسألة الأديفية على هذا النحو وإن لم نصل إليه.
اكتفى فونفيل بالابتسام دون تعليق.

قال أسلانج وقد مشوا مسافة وصاروا على مدخل قُماتر:

- لا أعرف ما جرى بينكم يا قرباتر، أراك على غير وفاق مع ضيوفك.
- لم ينالوا ما لا يستحقون!

- أسأل لأني شككتُ في هذا.

- هؤلاء يا أسلانج سيوفهم الغريبة مسلولة على نحو مبالغ فيه. لاموني، ونصحوني. أسمعوني كلاماً يُطمع في مساعدات تركيا وإنجلترا وفرنسا. وعدوا بوصول المساعدات حالما نجيب القيصر بالرفض. - كما أمثلونا قبل الآن؟
- يعدوننا بأفضل من السابق.

- يا قرباتر، - استعجل أسلانج، - كفى ما خدعنا هؤلاء!..

رأى حجمعوه نيكراس عليمبج في الدار بين الفلاحين الذين استقبلوهم. شابٌ في حدود العشرين، متناسق القوام، يلبس جيداً فيتميز من بين من يقف معهم. وإلى جانبه سلاح ممتاز. كان بوْدَّ أسلانج أن ينفذ ما طلبه منه والد هذا الشاب الوسيم ولكن توجَّب مع الحديث أن يدخل إلى المضافة دون أن يدري كيف جرى هذا. وحين بقي هو وقرباتر وحدهما استغرب أسلانج:

- والله يا قرباتر لن تصدَّقني إن قلتُ لك ما جرى معي اليوم. التقيت في نصف نهار برفعت وعليمبج، بالأب وابنه. أظن الله قدَّر هذا، ليجعل الله فيه الخير!

- ألم يطلب منك أن تبلغ أليكسي التقاءك به؟

- تماماً يا أمير؛ كيف تعرف؟

- ليس لأول مرة نسمع هذا... لا ضرورة أن تخبر عليمبج، لن يكون سعيداً.

- توجَّستُ من هذا...

...

- والله لا أعرف سبب غياب زانه، - يتفحص تسي الضيوف، لا يعرف سبب غياب قرباتر، ويبدو عدم اهتمامه الزائد بالموضوع، ومبرئاً نفسه: -

أرسلنا وراءه، وأخبرناه. في قرباتر طُباع كثيرة لم تكن في المرحوم والده. هذا غير جائز، ماذا نفعل؟

- لا يزال أماننا يوم كامل، - قال خروزر، - دعونا ننتظره ساعة أخرى!..
- نحن من عمر والده، نحن العجائز لن ننتظره دقيقة إضافية، - لم يقبل برزج،
- سمعنا بعض ما قاله عاتباً علينا في شأن القرار الذي اتخذناه في المجلس - البرلمان. نحن لا نعيش من أجل أشخاصنا، بل من أجل مستقبل الأديغة. لا ينتظر ستة أشخاص شخصاً واحداً، - عدّ جراندوقوه بعينيه الحضور بمن هو فيهم، واختتم بخاتمة مناسبة: - لن ندع الذين جاؤوا من تركيا وإنجلترا وفرنسا والجدوغ ينتظرون من لم يستطيع المجيء من الناخووي على قريبا.
- لم أعرف أن عندكم مثل هذا الاجتماع... - قال حجمقوه ملامساً أصل الكلام وإن لم يكن يعرف تماماً. - جئتم في زيارة ودية فحسب، ولم يأذن لي مؤتمر الجدوغ أن أتكلم في موضوع الأديغة الخاص المتقدم. كما أنكم تعرفون علاقتنا بروسيا.

- هل تظن يا حجمقوه أنك مدعوٌّ إلى مجلس حرية الأديغة - البرلمان؟.. -
لمح تسي، وأكمل: - كان وجود زانه بيننا حسناً، ولكن ما العمل؟ لم نقصّر في شيء... قلتُ إننا لسنا في المجلس - البرلمان لنكون أحراراً في نفوسنا، لا نخاف من انتقاد أحد، فتباحث في ما أماننا من مهمات. وفي هذا الصدد نحن نعرف رأي زانه قرباتر. ونعرف ما قاله في عدد من المؤتمرات... ما يجب أن يقال لقيصر روسيا شيء واحد: لا تدع جيشك يتجاوز ضفة نهر بشزه، بل اسحبه. ولا تؤسس قلاعاً في أرضنا، ولا تشقّ طرقاً، وتوقف عن اقتطاع أشجار الغابات من أجل المعابر...

- إن لم أخطئ يا محترم، - يقطع أسلانج كلام تسي غير قادر على الصبر، - ما قلته جزء من نوايا قرباتر. يريد أن يحافظ على وحدة بلاد الأديغة عبر السلام.

- أنا أعرف ما يريده، - شارك برزج في الكلام، - يريد أن يصبح زعيماً أديغياً - روسياً من خلال تسليم بلاد الأديغة لروسيا. ما رأيك يا جيمس؟
- لا أستطيع الجزم بما تقول. ولكنه ممكن.

- حرامٌ اتِّهامُ أحدٍ بما ليس ذنبه... - أفهَمَ حجمقوه الحضور عدم موافقته على ما سمع.
- لم تصل قضية الأديغة بعدُ إلى هذا الموقف بإذن الله، - قال خروزر، - لا تنسوا الدول التي تدعمكم.
- وأين كنتم إلى الآن؟ - ابتسم أسلانج.
- أظنك لا تعرف أن تركيا وإنجلترا وفرنسا قبلت ما كتبه إليها المجلس - البرلمان أيها الأمير، - وضع فونفيل الورقتين أمام أسلانج، - وهذا جواب فرنسا.
- هذه مجرد ورقة، لا فائدة تذكر من قرار على ورقة، - أعاد أسلانج ما وُضِع أمامه. - يمثل هذه الورقة الزائفة باعت تركيا إلى روسيا ما ليس لها...
- مهلاً، مهلاً أسلانج!! - استعجل تسي.
- هل تعرف يا حاترابي ما سيجري لهؤلاء؟ - أسرع خروزر أيضاً - يريدون أن يشتتوا الأديغة القليلين من أرضهم.
- ماذا؟ - احتدَّ أسلانج.
- وعند قيصر روسيا مثل هذه النية، - أيدَ جيمسُ الضيفَ التركي - الأديغي، - يقول: أنتم مسلمون من دين واحد.
- هذا مستحيل!!
- لم نتداع إلى الاجتماع ونحن لا نعرف شيئاً يا أسلانج. - لم يكتفِ تسي ما في قلبه، - صدَّق ما يقول هؤلاء. وكنا نريد أن نسمع زانه هذا الكلام. لا يجوز أن نصالح روسيا. لن نسمح للعدو، ولو لم يبق إلا أديغي واحد، أن ينهب الأرض التي منحنا إياها الله، سنحميها منه!! لن يغتصب أرضي مني أحدٌ حتى تقوم الساعة فُتطبق السماوات على الأرض. ولن يستطيع أحدٌ أن يدفعني إلى خطوة خارجها. ولن تجاهني مثل هذه القوة!! - نهض تسي بكل ضخامته وشهر خنجره، وقبَّله، ورفعته: - أقسم باسمه وباسم الأديغة وباسم الشهداء!!
- عاد تسي فجلس، ولفَّ المكان هدوء حديرٌ. ثم أكمل بصوت منكسر هادئ:
- لو ضمنتُ أن الأديغة سيقون متماسكين لدفعْتُ كل ما عندي!!
- أراك إذن تتسول على أبواب الفلاحين، - ابتسم جراندوقوه.

- بريكم لا أعرف لماذا تخافون من الروس! - لم يُطَق أسلانج مزيداً من الصبر، - ليسوا على هذه الدرجة من السوء التي تصورونهم بها!..

- أتسأل يا حجمقوه، - سحب تسي من فمه غليونه الأسود الضخم، - ألسنت أديغياً!.. أم جئتنا وكيلاً للروس ولآل زانه؟!

- أيها المحترم تسي، - نهض أسلانج، - لا تنس أني في بيتك وفي حضرة ضيوفك. أنا لست وكيل أحد. ولم آت إليك لأتلقى إهانة. التقاليد الأديغية لا تردعك ولكنها تردعني. لا تؤاخذوني أيها الضيوف... هيا أيها الأمير تسي مُرهم أن يجهزوا لي حصاني.

- بالله عليك يا أسلانج، هذا لا يجوز... - نهض برزج مدركاً أنه في موقف حرج. - وأنت يا حاتراي لم تتحلّ بالصبر... إذا تجأبنا نحن الزعماء في مثل هذا اليوم فماذا سيكون مصير الفلاحين الذين كلّفنا الله بقيادتهم؟

- أنتعارف هنا لأول مرة يا حجمقوه، - عاد حاتراي إلى وعيه، - لم أقصد إهانتك. لا تدعني أفعل العيب في الأبراخ. ساجني... ليذهب هؤلاء الروس إلى الجحيم كما يقول نيكراس تيم. يستطيعون الإيقاع بيننا وإن كانوا بعيدين عنا. متى هاج القلب أفسد الدم وصدع الرأس. ولكن هذا لا يعني أي أهدى... لن أدعك يا أسلانج، يا صديقي العزيز، تخطو خطوة خارج الأبراخ وأنت غاضب، دغك من أن أمر بتجهيز حصانك أو تخرج من بيتي. أترجاك باسم ضيوفنا، وباسم البجدوغ الذين فارقتهم...

- كفى يا تسي، لا داعي لكل هذا التبكيت... - عاد أسلانج فقعده. وأنا أظني لم أضبط لساني. لا مشكلة في عدم تطابق رأينا.

- الأفضل أن تتطابق آراؤنا، - قال برزج ونظر نحو جيمس.

- نعم، نعم، - وافقه جيمس، ونظر إلى فونفيل. - الأفضل أن تتطابق آراؤكم. أحبُّ قرباتر كُرمي لسفربي. رجولته وذكاءه متميزان. واحدٌ من رجالات إقليم الأديغة. ولكن لا شك أنكم ستصبحون ممسحة لأقدام روسيا إن مشى الأديغة على رأيه فألقوا السلاح ورفعوا أيديهم في حضرة القيصر. نحن، ما أهميتنا نحن، قد تقولون: إن كنتم معنا اليوم فستفارقونا غداً. ولم يكن ضرورياً أن تتدخل في

الحديث. ولكن القلب الذي صار منكم سنين طويلة لم يسمح لي أن أقول هذا...

...

لم يلزم قرباتر الذي أرسل وراءه ثلاثة من زعماء الأديغة وضيغان غريبان قريته قُمار مهموماً بعدم تلبية طلبهم. كان هو ونور مُجدُ أمام مؤتمر الشابسغ الذي عقدوه في أدزبي، غارقين في العمل لأجل القضية.

كان هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الرابع من أيلول عام 1861. وكان بقي على موعد رسو السفينة التي تُقلُّ قيصر روسيا ألكسندر الثاني في مرفأ تامان على الساحل الأديغي ستة أيام.

II

يجري تداول الأخبار بروايات متعددة في القرى كما تدور عينا المرتعب في محجريهما. لم يبق فرق بين لابس قبعة وذات غطاء رأس. ليس المهم ناقل الخبر، المهم أن يكون له مصدر. سيُطرد الأديغة كلهم دون استثناء، من يسار نهر بشزه حتى ساحل البحر الأسود، إلى تركيا. وسيوطن القوزاق في قراهم وفي مراعيهم وأراضي زراعتهم. ولن يتعرضوا لمن يعتنق المسيحية ويحمل الصليب في عنقه. وسيُعاد الفلاحون الأحرار إلى العبودية. ولا يمر صباح يوم أو ظهره أو مساؤه دون هذه الأخبار، بل تضاف إليها أخبار أخرى مؤلمة. وكلُّ يضيف رأيه إلى ما يسمع دون أن يحترم قيمة ما يروي. ثم أضيف منذ البارحة إلى أخبار البجدوغ خبر وفد فرسان الجمكوي لاستقبال القيصر. وما يقوله أمير الجمكوي بولتقوه شيء، وما يتهمس به رفاقه النبلاء شيء آخر. والأمل الخفي لحراسهم الفلاحين شيء آخر أيضاً. ولكن مبدأ ومآل الأفكار القلقة لمن يُعزّ نفسه، ومن يقدرها، ومن لا يقدرها، واحد: وضع الأديغة، وطريقة قدوم القيصر، وطريقة انتهاء الحرب التي مرت عليها سنوات، وما سيعقبها.

— والله يا أسلانج، أيها الأمير الذي منحه الله الحظ السعيد، وطول العمر، أنا قلق من زيارة القيصر المرتجلة ... — قال بولتقوه شقُلتر حين بقي الأميران وحدهما في المساء. — نحن لا بأس علينا، اعتدنا، شئنا أم أبينا، على الروس الذين صرنا تحت سيادتهم، المشكلة في الأبراز الجبليين والشابسغ والناخوي

والوييخ... ولا أظننا مشمولين بإشاعة الطرد إلى تركيا. لن تفعل بنا روسيا هذا. لم نحاربها ولم نقف في وجهها. وما لم نقبله هو دينؤها، والخدمة في جيشها. وفي النواحي الأخرى لا ذريعة لها لتشاكسنا.

- إن كنت تتذكر يا أمير فقد زارنا القيصر مرة في أوج المعركة.
- وكيف لا أتذكر!.. لم يدع بولتقوه جلسه ينهي كلامه، - لم تُثمر زيارته إلا النحس للأديغة، هذا كان رأي سفري وخانجري. مرّت السفينة آنذاك على الأماكن المأهولة من الأديغة على الشاطئ، ثم دارت وعادت.
- أهذا بعد أن هددها نيكراس تيم بقبضته؟ - ضحك بولتقوه متذكراً الوفد الأديغي الذي استقبله. وسأل: - أليس الاسم الكافر الحقيقي لنيكراس هو تيموفيه؟ هو يدّعي أنه أديغي، وابنه يسفك دم الأديغة... لا أفهم طبيعة الرجلين.

- بعد أن تصرّف قيصر روسيا مع الأديغة بهذه الطريقة، - تابع حجمقوه كلامه دون التوقف على كلام ضيفه، - فكرت في الكثير من الأمور. ولا أزال أفكر إلى الآن. ليس السبب أن وفد الاستقبال الأديغي لم يتصرف وفق التقاليد الأديغة، لا يجوز نسيان الزمن الذي جرى فيه الحدث. والحقيقة أننا لم نكن نعرف حقيقة وضعنا في ذلك الزمان الثقيل. كنا نعتمد على رجولتنا وصدقنا فنحمي أرضنا... ثم لا تدعنا يا أمير ننسى الضرر الذي ألحقته بنا تركيا وإنجلترا.

- لا تُسمع تسي وبرزج هذا الكلام، لن يقبلناه منك.
- كان الوضع هكذا ولو لم يقبلنا مني، ولا يزال. وسأضيف يا أمير شيئاً لا يعجبهما أيضاً. لا أستطيع أن أقول إن صهركم النائب محروم من الرجولة والذكاء، ولكنه لم ينفعنا إن لم يضرنا.
- لا أريد أن أسمع سيرة النائب أيها الأمير! - بدا على بولتقوه الاحتداد، لا على صوته فحسب، بل على لونه أيضاً - اصطحب ابنتنا وأولادها وهرب إلى روسيا!.. سواء وافقنا الأديغة أم لا فقد مارس معنا الخيانة.

- نعم يا أمير، صحيح. - لم نوافق سفري صراحةً حين كان في صراع مع النائب. فوصلنا إلى ما كان يحذّرنا منه. كنت عند قرباتر قبل أيام. والله يا أمير أؤيد زانه في موضوع الصلح مع روسيا.
- وهذا أيضاً لا تُسمِعه لتسي وجماعته!... - صاح بولتقوه من جديد.
- والله لا أهتم بما سيقولون وما سيفعلون!... ما أهتم به هو الطريقة التي سيحمي بها الأديغة أنفسهم.
- وأنا، ظلت جماعة تسي تنصحنني بعدم الذهاب إلى استقبال القيصر. وها أنا كما ترى جئت لاستقباله رغماً عنهم. أهاني تسي يا أمير قائلاً: لن تستطيع الصبر على أن تكرر ما فعله صهرك النائب... وأنا لم أغفر له، ولكن كيف تشهر قامتك أمام الناس من أجل النائب الذي يستحق كل ما يقال فيه؟..
- لماذا استولى بالقوة على رئاسة المجلس - البرلمان الأديغي إن كان يرفض التحدث إلى قيصر روسيا؟
- لا يرفض مقابلة القيصر، ولكننا لن نذهب لاستقباله في بحر آزوف، فندعه يغتَرّ بنفسه. قال إنه إذا استطاع أن يقطع كل هذه المسافة من بطرسبورغ فلا شك أنه يستطيع المتابعة للوصول إلى الأبراخ.
- تسي حرٌّ في ما يفعل لنفسه ولكن لا يجوز حين تنصّب نفسك زعيماً للأديغة أن تنسى أنك لم تعد حراً بنفسك. هذا شأن الأبراخ والويخ والشابسغ يا أمير. ومهمتنا نحن مختلفة تماماً. حقاً نحن من رعايا القيصر ولكن لن نتناسى أديغيتنا لهذا السبب. الله كتب علينا، سنستقبله. وسنطّلع على بعض ما يشغل بالنا سواء كان راعباً في الإنصات إلينا أم لا.
- نعم يا أمير، وهذا رأيي أيضاً. - سأل بولتقوه وهو راضٍ عما يسمع في موضوع كان يشغله إلى الآن: - الحقّ يا أسلانبيج ما رأيك في ما فعله القيصر في موضوع الأمراء - الفلاحين؟ وهل نحن الأديغة مشمولون بهذا القانون؟
- متى كنت من رعايا القيصر يا أمير فلا اعتبار لروسي أو أديغي.
- والله هذا غير ممكن!... - إذن يقتلعوننا من أساسنا. سيتركونا في الساحة عاجزين تماماً. وهذا رأي تسي ويرزج.

- وهذا رأينا أيضاً أنت وأنا، ماذا بيدنا؟ وكذلك غيرنا من الأمراء. لا تقلق يا أمير. والأمراء ليسوا قليلين في روسيا نفسها. مصيرهم مصيرنا.
- والله لا أعرف يا أسلانج... أخبرنا خروزر أنه ليس في تركيا مثل هذا النظام، ولن يكون. وعلى هذا... - بدأ بولتقوه ثم سكت.
كان حجمقوه يعرف طبيعة ضيفه فلم يستعجل على معرفة ما أمسك بطرفه.
وقال له بعد قليل:

- أكمل يا أمير ما بدأت به!
- إذا لم يكن في تركيا مثل هذا النظام فلماذا نتوسل إلى القيصر الكافر أن يُيقِننا في أرضنا، ولماذا تنصاهر له؟.. سنهاجر محتفظين بأملنا، وسنصطحب معنا فلاحينا...

- يا أمير!.. - انفجر حجمقوه غضباً مما سمع. ولكنه سرعان ما عاد إلى طبيعته: - سامحني يا أمير، خرج صوتي عن طوعي. سامحني!..
- أفهم يا أسلانج، أفهم. جعلتنا مأسائنا قليلي الصبر.
لا يسمع أسلانج هذه الفكرة الأميرية لأول مرة. ليست هذه إبراً فستطيع إخفاءها ولو أنهم كانوا يتكتمون عليها في ساحة الإمارة. كان الخبر وصل إلى خدم البيت، وخدم الدار، والفلاحين المرتبطين بالأمير. ولكنهم لم يكونوا مهتمين بمقدار اهتمام أسيادهم الذين يُسدون إليهم معروفهم. وليس السبب الخوف من الأمراء المسيطرين على الساحة بل كانت العادات الأديغية تردعهم عن إظهار اهتمامهم. وكان بينهم من لا يعبأ بهذه العادات، ومن يُطرقون برؤوسهم ويرمون أمراءهم بنظرات الريية منتظرين ما سيحدث لم يكونوا قليلين. ولكن تفكير كل فلاح في تلك الظروف كان في أسرته، وفي أرضه، وفي شرفه، وفي حماية حريته.

قال أسلانج لنفسه: حين يصل الأمر إلى شخص أحدهم يحاول أن يحمي نفسه، ولذا في كلام بولتقوه وتسي وبرج نصيب من الصحة. ولا يجوز أن تعاتب العبيد والفلاحين المرتبطين بالأمير على ما يقولون بشأن وضعهم، فهؤلاء أناس مثلنا لهم أرواحهم وآمالهم. ولكن لم يكن من الضروري أن يُطّبق علينا قرار قيصر روسيا. ربما يتجاوزنا القرار إذ لم يصل إلينا وقد مضى قرابة

العام على صدوره، والروس والقوزاق غير مهتمين به كثيراً. أنا أيضاً لست مرتاحاً لقرار القيصر، ولكن ما العمل؟ ترضخ له في غياب الأحسن منه. ليس من الرجولة أن تشهر سلاحك وتجاهبه من لن تستطيع الانتصار عليه. حماية أناسنا عن طريق التحلي بعيد النظر، حتى لو خفطنا رأسنا الأديغي أمام أحدهم، واستصغرنه كابتين مشاعرنا رجولة. رأي قرباتر صحيح: يكفي ما سمحنا للغرباء أن يستغلوا رجولتنا. هذه حال الدنيا: إن لم تتضافر العقول صعبت حماية الجماعة. عدنا إلى تنازع توجيه عربة القيادة ونحن فرحون بأننا حققنا الوحدة من خلال المجلس - البرلمان. وحين يحدث مثل هذا يُهرع إلينا الترك والإنجليز والفرنسيون، ولا تعود روسيا تتقبل كلامنا. لن يحميك السلاح والرجولة في الوقت الذي تسير فيه الحرب إلى نهايتها. روسيا التي أعرفها لن تقبل الصلح مجرد أن تعرضه عليها ما لم تنفذ شروطها. ولو كانت تنوي هذا لما حاربتنا عشرات السنين. وإذا رضخ الشيشان والداغستان فلا أمل في نواحيننا. وليسوا وحدهم فوراءنا سيطروا على الكرج وأذربيجان والأرمن. نحن الوحيدون الذين ما زالوا يجابهونهم خلافاً لغيرنا. وهذه رجولة ولكنها رجولة خالية من العقل!!

- إن تعلقنا بالأمور التافهة... - خرج حجمقه من أفكاره التي تجري إلى البعيد، - فلن تفيدنا في شيء يا أمير!! وموضوع حرية العبيد والفلاحين انسه مؤقتاً... أتخلى عن كل ما أملك ولكن لن أستطيع أن أترك أرضي التي ورثناها من آبائنا، وولدت عليها ونشأت، والتي دفع من أجلها كل هؤلاء الشهداء حياتهم. حرام يا أمير، حرام!! اليوم الموعود الذي نتظره أهم من كل شيء. فكر في ما ستقوله للقيصر وكيف تمهد لكلامك.

- أنا؟.. - ارتعب بولتقوه.

- نعم، يا أمير. وجب عليك لأنك أكبر عمراً. رشحوك قبل أيام بعدما تداولت مع مجموعة من الأمراء. وأنت واحد من أوائل من رشحهم زانه قرباتر. - إن كان هذا رأيك، ورأيتموني أهلاً له فالشكر لكم، ورضي الله عنكم، وسيكون مدعاة لفخر الجمكوي الذين أنا منهم. والله لن يقبل تسي ولا برزج بما شرفتموني به!! ولكن علينا التفكير في ما سنقول للقيصر.

- ما ستقوله له يا أمير واضح. قيصر روسيا حاكم الدولة العظمى جارتنا ولو كان عدواً لنا نحن الأديغة. وهو ضيف وإن كان لا يُضمر لنا الخير. ويزورنا لأول مرة. ونحن من رعاياه لأنه ضمّننا إليه بالقوة. علينا أن نستقبله على طريقة الأديغة دون أن نبالغ في التصاغُر أمامه.
- وما يُشاع من أنه سيطرّدنا إلى تركيا؟ - سأل بولتقوه وقلقه بادٍ من صوته ظناً منه أنهم نسوا الموضوع.
- ستفاتحه بهذا الموضوع يا أمير وتترجاه... - ثم أضاف حجمقوه مسرعاً: - سنفكر في هذا، طلبت من حاغور نور مُجد أن ينتظرنا عند نهر أفسس إذ سنصل إليه بعد الظهر إن ركبنا صباحاً، ولذا سنستمع إلى رأيه أيضاً.
- فكر بولتقوه صامتاً في الشخص الذي سمع باسمه، غير أنه لم يُطِق صبراً:
- والله لا أعرف يا أسلانج، لن أستطيع التصرف وفق رأي الفلاح المتنفذ حاغور.
- لا تقل هذا يا أمير. انتهى الآن زمان الأمير والنبيل والفلاح ونخبة الفلاحين!.. دعونا ننتهي من التمييز ما دمنا التجأنا إلى العقل الأديغي. حاغور واحد من رجالات الشابسغ. لن يرضى مع إنسانيته وذكائه وأملاكه أن يقف في الصف الخلفي.
- ولكن يا أسلانج، يا طويل العمر بإذن الله، يا أمير، لم يمنحه الله لقب الأمير.
- لا تُقجّم هذا الموضوع في قضيتنا!.. من حمانا إلى الآن هم عامة الفلاحين. ولولا هؤلاء لنهب القوزاقُ البجدوغَ الذين صاروا من رعايا روسيا، والجمكوي، والمخوش، والبسلني...
- الحق يا أسلانج، أقاطع كلامك، - يسأل بولتقوه متجاهلاً ما يقال له، - هل بحر آزوف الذي سنسافر إليه بعيد؟
- ليس قريباً، يحتاج إلى يوم.
- ولا يزال سؤال آخر يشغلني يا أمير: هل سيوافق الروس - القوزاق على استقبالنا للقيصر؟ والقيصر نفسه كيف سيتصرف معنا؟

- سأبدأ من السؤال الثاني يا أمير: لم ألتق بإنسان، لا تؤاخذني يا كبير، لا يجب مظاهر التكريم والاحترام. وأما سؤالك عن القوزاق فقد كنت حملتُ إلى إيكاترينودار رأينا فأبدوا ارتياحهم لما فعلتُ؛ اطمئن من هذه الناحية!
- وهذا حُسنُ تصرفٍ وحكمةٌ يا أسلانج. ولكن لا يزال أمرٌ آخر يقلقني: تعرف أنت طبيعة الأديغة، متى عرفوا أنك مسافر رافقك الكثيرون منهم. وما نحن لحقت بنا مجموعة فتخلَّصنا منهم، فإن تصرفنا حسب عاداتنا فسيصبح الخمسون خمسمئة وسيظن الروس أننا جيش.
- وهذا ممكن يا أمير.
- إذن ماذا سيظن الجيش الروسي والقوزاق في القرى على جانبي الطريق؟ وماذا سيتصرفون؟
- وهذا أمرٌ فكروا فيه في مدينة إيكاترينودار. ثم إن حرس القيصر أكثر جدًّا من الخمسمئة الذين تتحدث عنهم. سيحرسون جانبي الطريق الذي سيسير فيه القيصر حتى يصل إلى غايته.
- أستغفر الله!.. هل سيحشدون حولنا كل هذا الجيش؟ ماذا تنوي إذن جماعة تسي؟

...

الحادي عشر من أيلول / سبتمبر عام 1861.

الموقع: تامان التي ينتهي عندها طرفٌ من إقليم الأديغة إلى الشرق.

على ساحل بحر آزوف جمهور كبير لا تحيط به العين. بعضهم على الأقدام، وآخرون على الخيول، وغيرهم أتى بعربات الركاب. وعربات أتت من القرى العمالية الروسية يجرها حصان أو اثنان، وعربات فلاحين تجرها الثيران.

يظن المرء في البداية أنه لن يجد طريقاً من الازدحام، غير أن الجيش يحافظ على الانضباط، يحرس الجنود في بضعة صفوف الطريق المختار للقيصر. وبعيداً عن هؤلاء صفوف أخرى من الجنود تقف في مواجهة تدفُّق الناس.

كل الناس الآن: الحرس والناس القادمون للاستقبال يراقبون البحر. كلهم يراقبون مهومين ما سيظهر على سطح البحر في هذا الصباح الخريفي اللطيف.

بدت سفينة القيصر من بعيد. وارتفع صوت الناس مع منظرها. النساء يرسمن معاً إشارة الصليب. والناس الذين لا يحملون رتباً عسكرية أو سلاحاً لا يتخلفون عنهم.

ومن ليسوا من هؤلاء ولا من أولئك فيتميزون من بين الجميع هم فرسان الأديغة الذين وصلوا باكراً مع الفجر فاحتلوا مكاناً أقرب إلى المرفأ. وهؤلاء مقسومون إلى مجموعتين بسبب ضيق المكان. في الأعلى مجموعة من مئة فارس بينهم بولتقوه وحجمقوه، وحاغور معهم، وعدد من الأحداث سنأ. والآخرون المئتان أو ثلاث المئة على التبة العالية بعيداً قليلاً عن الطريق. وقائد جيش القفقاس أورلياني، يتمشى معتداً بنفسه، عاقداً يديه وراء ظهره، بعيداً عن سائر الجنرالات. يقف من وقت لآخر ويراقب البحر. والرتبة الذهبية التي تلاعبها الشمس لا تسمح لك بالنظر: تبهر العينين، وتلقي في القلوب الفرع.

حالما اقتربت السفينة من اليابسة بدأ البواقون يعزفون لحن التمجيد للقيصر. والجنود المنشدون يرددون مع الموسيقى. وتتردد صيحة النصر "أورا" فتمزق حناجر مئات الجنود. ثم يضع الصدى تحت قبة السماء.

حالما وطئ القيصر ألكسندر الثاني اليابسة ارتقى الناس على ركبهم، باستثناء أفراد الجيش والأديغة، يرسمون إشارة الصليب ويدعون إلى الله. ومع القيصر الجنرال المرافق الكونت أدليربيرغ والكونت لامبيرغ، والدكتور إينوخين ليب، وآخرون. يتقدم الجنرال الكونت أورلياني لاستقبال القيصر. ويحييه تحية ترحيب قصيرة. والآخر يرد عليه بكلام قيصري ممسكاً بيده. ويرب على كتفه تعبيراً عن رضاه عنه. ثم يصافح الجنرالات واحداً واحداً. والأوكورديون لا يتوقف، وصيحات النصر لا تنقطع، ولا حدود لإيماءات الاحترام ولإشارات الصليب. رأى القيصر فرسان الأديغة بعدما مشى مسافة فسأل أورلياني:

- من هؤلاء؟ - ثم توجه نحو فرسان الأديغة دون انتظار الجواب. ولما رأى الفرسان القيصر قادماً إليهم استلوا خناجرهم بحركة موحدة، ووضعوها على الأرض. وأومؤوا إليه بالاحترام. وفي هذه اللحظة خرج الأمير بولتقوه، حسب الاتفاق، من الجمع:

- أيها القيصر العظيم! نرى رعايتك لنا حظاً من السماء. ونرى من حسن حظنا أيضاً تحليّك بجُلُوقٍ عظيم فشرّفتنا بقدموك واثقاً منا دون اعتبار للحرب التي خضناها ضد جيشك. ونحن نقيّم هذا الموقف عالياً. يا قيصرنا العظيم نُقسِم لك أننا صرنا منذ اليوم من رعاياك. ونحن نعرف أنك قيصر دولة عظمى مترامية الأطراف. ونعرف أن لا أقوى منك على ظهر الأرض. ونعرف أيضاً أن رعاياك كثيرون جداً، ونحن بالقياس إليهم قطرة مطر من وابل. ومع ذلك نرجو أن ترعانا وتعدّنا مثل رعاياك الآخرين. وإن أردت الحقيقة فقد حاربنا جيوشك إلى الآن. ولكننا نُقسم لك أن نخلص لك مستقبلاً كعبيد صادقين. ونحن جاهزون ما إن تأمرنا لتنفيذ كل ما تطلبه منا. سنفتح لك الطرق ونشيّد لك التحصينات وثكنات الجنود. ونُقسم لك أن ننفذ هذا مع سلام وتفاهم. ولنا رجاء وحيد وهو ألا تُخرجنا من الأرض التي ولدنا فيها، أرض آبائنا وأجدادنا. ومنذ اليوم سنحامي مع جيوشك تلك الأرض حتى آخر قطرة من دمائنا... ننوّل إليك بطلبٍ واحد وهو ألا تخرجنا من أرضنا. وانظر إلينا كسائر رعاياك المخلصين. لم يصدر أي صوت في غير محله من الطرفين ريثما ألقى بولتقوه كلمته وترجموها للقيصر. كلهم ينتظرون ما سيقول القيصر. والآخر جوابه مختصر:

- اطمئنوا! أعدكم، إن عشتُم معنا بسلام، أن نُحسِن معاملتكم بقدر استطاعتنا، - ما إن أنهى ألكسندر الثاني كلمته حتى انصرفوا مسرعين. والأديغة لحقوا بمراسم استقبال القيصر وتوديعه.

III

دار خير استقبال البجدوغ والجمكوي المسالمين للقيصر وترحيبهم به، وطريقة تحيتهم له وتوسُّلهم إليه، كعصفور نشيط هائج في أرجاء الشايسغ والناخووي والويخ على ساحل البحر الأسود، واختفى بين جبال الأبراخ ومرتفعاتهم. وبقي الخبر بينهم لا يعرفون ماذا يفعلون بأصل كلمة استقبال القيصر وأين يضعونها مع أن كلاً كان يتصرف بما كما يشاء. ومع أن الفلاحين والأمراء والأسر المتنفة كان لهم مواقف متباينة فهناك أملٌ خفي في انتهاء الحرب لا يفارقهم. وينتظرون ما سيحدث، ومهمومون به.

أول من لم يعجبهم الخبر هم جيمس وفونفيل وإسماعيل بيه. ووافقهم برزج، ولكنه قال على سبيل الواجب دون أن يتعمق في الموضوع، ودون أن يكشف عما في قلبه:

- ما العمل إذا استقبلوه بالملح والباستا؟ البجدوغ والجمكوي رعايا القيصر، يعيشون تحت جناحه.

- ليس بالملح والباستا يُستقبل - لم يُطَق إسماعيل بيه كلام المضيف الغامض. - قالوا له: سنكون عبيدك، وسنفتح لك الطرق، ونقيم لجيشك التحصينات والمساكن. - لم ينتظر فونفيل انتهاء اسماعيل بيه من كلامه.

- هذا ما قلته، - مرة أخرى أجاب برزج متظاهراً باللامبالاة. - ستنفذ الكثير لمن أنت من رعاياه وتخلص له.

- أستمع إليك يا جراندوقوه، - يكظم إسماعيل بيه نفسه، ولكن غضبه بادٍ، - لا تؤاخذني، فأجداك لا يقلقك هذا الموضوع...

- إذن يا ضيف، - يتسم برزج، - هل تظن نفسك مهموماً بهذه المسألة أكثر مني؟

- إسماعيل بيه يا أمير، - يجيب فونفيل بدلاً من إسماعيل، - عنده ما يشغل باله في مسألة الأديغة. ينفق عليها مالا كثيراً، وفي خلال سنتين مَوَّل جيشاً كاملاً. وسُجن في تركيا من أجل القضية. و ليس قليلاً ما أنفقه في ناحيتنا، في فرنسا.

- ونعرف هذا... - ما في قلب برزج وما يقوله مختلفان. - لم يألُ إسماعيل بيه جهداً؛ جعل الله يومه مئة!.. غير أن لا بينسك وجماعته مقصرون كثيراً. وهذا عنده أخطاؤه الخاصة به، إذ بدأ يتصارع هو والمجرّي بانديار. وفي النهاية أغضبوا المرحوم زانه سفري فلم يرض إلا بطرده من أرض الأديغة.

- قريباتر هو من أنهى الموضوع... - حدّق جيمس بعينيه الزرقاوين الباردتين في عيني برزج، وأضاف: - لو بقي جيش لا بينسك هنا لما ضرّ إن لم ينفع.

- انظروا ما يحدث الآن، - يؤيد فونفيل رفيقه، - القيصر الروسي استهان بكم إلى النهاية؛ جاء يرتب أموركم.

- ما العمل إذن؟ - ابتسم برزج، - تتكلمون من ورائنا ولا تقفون إلى جانبنا: تركيا وإنجلترا وفرنسا.

- وحرب القرم؟ يسأل جيمس.

- ما الذي تأتي على ذكره؟ ماذا نفعلنا نحن وأنتم هذه الحرب؟ تصلب موقف روسيا منا، وقسا عما كان. إن كنا محظوظين ههنا المجلس - البرلمان الأديغي!.. غير أنكم ترون ما يجري لنا فيه؟ نعم، نعم، كل يعزف على وتره. ها هو زانه قرباتر كان معنا في المجلس أصغر منا عمراً وعقله ممتاز، فحرد واعتكف...

- لو اكتفى بالاعتكاف لهانت المشكلة، - يقول فونفيل، - يثير الناس داعياً إلى مصالحة روسيا ولو لم يكن في استقبال القيصر. ويطيعه بولتقوه شقُلت وجمقوه أسلانج.

- لا يجوز الاعتكاف في مثل هذا الزمن الحرج!.. - يحتد إسماعيل بيه ولو أنه لا يسمع هذا الحديث للمرة الأولى. - إن فكرت في الاعتزال فكل قضية الأديغة مما يدعو إليه. حتى لو كففت عن الكلام على الملك فقد دفعت زوجتي المرحومة حورية حياتها ثمناً من أجلها.

- نعم، نعم، في بلادنا كثير من الرجال لم يتحللوا بمثل بطولة حورية. - يوافقه برزج هازاً رأسه، - ليكن مثواها الجنة. ولكني أريد أن أقول لكم شيئاً، ولتسي علم به: لا تترجوا زانه قرباتر فيغتّر بنفسه! نعرف ما نقول لقيصر روسيا ولو لم يكن معنا. وورقة مطالبنا كافية.

- ولكن يا جراندوقوه، وكنا تكلمنا في الموضوع منذ أيام، - تأمل جيمس عيني برزج بعين دافئة أملة، - كان الأفضل ألا ينشق عنكم زانه قرباتر.

- نعم، ولكني لن أقف وراء أحد. ولا تسي يقبل هذا، ولا حجمقوه وبولتقوه وفلاحوهما معهما، ما من أمير يقبل هذا. نعم، يا إسماعيل بيه، وأنت أديغي؛ كيف ترى نفسك، أليس صحيحاً؟ هيه أيها الأديغي، ما أعجب جيلتلك!.. حسناً أيها الضيوف، لا أظن عيينا نحن الأديغة مشكلة لكم. حين تُحقق أعمالنا تبادل مثل هذه المثالب. مع السلامة يا ضيوف، طريقكم طويل. الله حريص فاحرصوا على أنفسكم!

الفرسان الوبيخ العشرة مقسومون خمسة خمسة، وبينهم الفرسان الضيوف الثلاثة.

من العادة أن تثور الأفكار غيرُ المنتظرة على الطريق مع وقع حوافر الخيل. ومبدأ أفكار إسماعيل بيه الخاصة بالأديغة ليس امتطاء الحصان، بل أبعد كثيراً من اليوم الذي رأى فيه الشاطئ الأديغي قبل أن يطاء الأرض. وليس الوقت الذي أحسّ فيه بأديغيته، بل حين وقعت بين يديه أملاك خروزر السيراسكير على طبق من ذهب، فعرف أن وراء البحر بلاداً أديغية يمكنه أن يستغل فيها ملكه فيضيف إليه أضعافه. وشجعه على هذا كونه يحمل اسماً أديغياً. ولما أضيف إليهما منصبه في جهاز الدولة التركية وقُربه من السلطان تشجّع حتى لم يعد يفكر في التراجع. ولكنه فهم سريعاً أن الوقوف بين الدولتين كالوقوف بين فرنين. وقد دخل السجن وخسر كثيراً من الأملاك غير قادر على الانسحاب من بين الدولتين. ورغم أنه كان قد زهد في المرأة التي سلبها من والده الذي رباه؛ أما كان سيزورها حيث قضت إذ استشهدت في إقليم الأديغة! كانت نيته الأولى هي أن يقف ثانية على قبر حورية خانم، ويقابل زانه قرباتر من جديد، ويتعرف نتيته من النظر في وجهه، ويكلمه دون شهود.... من هو مضيفه السابق جراندوقوه برزج؟ وتسي حاترباي الزعيم الأبراهيمي؟ كان سمع ذكرهما في تركيا ولا يعرفهما شخصياً. الرجلان اللذان صادقهما خلال الشهر رجلان حقيقيان يحبان وطنهما وإمارتهما، ويتحليان برجولة حقيقية وإن كانا مختلفين في التفكير، يحظيان بالتقدير، وجدريان بالثقة والاحترام.

برزج جراندوقوه، يقول إسماعيل بيه، رجل لا يمكن أن يُطْلَعَك على ما في قلبه. يسارك في كلامك ثم يجعلك تفعل ما يريد هو. لا يجوز في كلامه، بل يترك إمكاناً للتراجع. يتفقد المكان دون أن يتحرك كما يقول الكبار. ويجلس في مكانه ويفكر. ولكن كون الوبيخ الذين يتسيدهم عرقاً صغيراً يلجمه غالباً. وإن لم يتمكن من الاحتماء بعرقه لم يعاند بل وقف مع العرق الأقوى. ويساهم فيهم برأيه. وتسي بالقياس إليه متصلب جداً. يظهر عليه على نحو فاقع احتقاره للروس. وصدقه مبالغ فيه. يذكرني بوالدنا الذي كان فقد أصدقاءه بسبب طبيعته فحسب، وكان شعور السلطان التركي نحوه بارداً.

وزانه قرباتر؟.. انتصب خيال قرباتر أمام عيني إسماعيل بيه. اكتسب من والده سفرني طباعه، وتجاوزَه. فهم قبل السابقيين برزج وتسي أن عليه مصالحة روسيا وإن لم يكن هذا الموقف يعجب بيل وفونفيل. أنا لستُ مهتماً بما يهتم به رفاقي. إن وُقِّت في تجارتي وأعمالي فما شأني بما بين الدولتين؟ متى صالح زانه روسيا وحكم الأديغة فقد يكون لمصلحتي!..

- يا إسماعيل بيه، - حين نادى جيمس صحا إسماعيل بيه من أفكاره، - أريد أن أسألك فأنسى. مضى عليك شهر في بلاد الأديغة ولم أسمعك مهتماً بالمكان الذي عشت فيه طفولتك، ولم تسأل عنه. ألا تتذكر اسم المكان الذي ولدت فيه؟

- سألتني عن مكان ولادتي!.. - سأل إسماعيل بيه مستغرباً ما سمع. ثم برأ نفسه بعد وقفة: - من يتذكر هذا!.. كنت صغيراً آنذاك... ثم ما فائدة هذا الآن يا جيمس؟

التفت جيمس إلى فونفيل غير عارف تفسيراً لما سمع. وأعاد الآخر النظر إليه بما يعني أنه لا يفهم.

توزَّع شمس الخريف أشعتها الذهبية على الفرسان دون تمييز. وتبتعد الجبال بغابات متعددة الألوان. وتبرز على ضفتي الوادي قرى غير كبيرة متناثرة هنا وهناك. ويجري النهر الضيق يلعب بأمواجه متعرجاً. وتُرحك السماء بسحنتها الصابرة وقد عاد إليها وعيها بعدما حمَّها الصيف الحار.

لم يكن جيمس راغباً في إتمام الحديث الذي بدأه ولكنه لم يستطع إلا أن يقول: - وهذا صحيح، يكون الجسدُ حيث القلب. ولكن لا يمكن وصفُ المرحومة حورية بهذا. كان قلبها وروحها هنا في وطنها. ودفعت حياتها من أجله.

- الحق أني أنا وحورية لم نكن نتفق في هذا. لو وافقْتُها لنقلتُ ما تملك إلى بلادها دون فائدة. كنت نصحتها حين قررت الهجاء إلى هنا أن تترث بانتظار الانفراج إذ أن الحرب في ذروتها الآن. ماذا كان بيدنا؟ صحيح ما يقال إن الإنسان تقوده منيته... وهي تدخلت في ما ليس من شأنها، ونحن، كما ترون، لم تترك لنا شيئاً... بقينا في العالم لا من هنا ولا من هناك، لا نستطيع أن ننفع أحداً.

- لا تقل هذا يا إسماعيل بيه، قسا كلام جيمس، - لن يرضى ترام بهذا الكلام. لا ينسى حورية، يزور قبرها، ويتصدق عن روحها، ويتلو الأدعية لأجلها.

- وسمعتُ بهذا، ورأيت بعيني. ولكن ما يشاع عنه لا يُعجبني... ارتاح جيمس وإسماعيل بيه لأن الفارس الذي برز من المنعطف قطع حديثهما. لم يكن من اللائق الكلام على حورية خانم أمام زوجها. وصاح جيمس وقد وجد ذريعة مناسبة:

- أهذا هو عليمبج!- سأله على طريقة الأديغة بعدما تبادلوا التحية، - رافقتك السلامة يا أخي الصغير، ما أخباركم، وكيف حالكم؟ هذا يا إسماعيل بيه حفيد نيكراس تيم، هو ابن نيكراس رفعت إن كنت تعرفه.

- أعرف أن نيكراس تيم واحد من رجالات الأبخاز، غير أنني لم أسمع بسيرة والد الفتى - إذن يا جيمس، - استعجل عليمبج فلم يسمح لهما بمتابعة الموضوع، - كيف تمرون من عندنا ولا تعرّجون علينا؟ إن سمع جدي عتب عليكما. الآن، قبل ساعة على الأكثر شيعته إلى قُماتر. تعالوا، تفضلوا، ستفرح جدتنا، وسيسلّم عليكم مُسيّتو دخابأه.

- شكراً يا عليمبج. بلّغ تحياتنا إلى جدتك سماي وإلى شيوخ دخابأه. وبلّغهم أن يقابلوا قيصر روسيا بهمة عالية. نحن وجهتُنا قماتر. وأظننا سنقابل جدك تيم هناك.

يشكّ قرباتر في سبب قدوم ضيوفه وإن لم يكشفوا عن نواياهم. بل إنهم ظلوا من بعد الظهيرة إلى آخر الليل يلقّون حول الموضوع ويعيدون، فيكشف لهم هو عن الموضوع:

- أصارحكم بما في نفسي وبقارري في شأن قضية الأديغة اليوم. عندنا مخرجٌ وحيد. الأديغة وصلوا إلى موضع الانقراض إن لم يصالحوا روسيا. نعم، نعم يا جيمس أفهم ما تريد أن تقول. ليس اليوم فحسب وقعنا في هذا الموقف. حين شقّ القيصر الروسي علينا حرباً ظالمة كنا كما اليوم تماماً نفتقر إلى الوحدة، ولكننا كنا نجد في أنفسنا القوة. وفي ذلك الزمان لم نكن وحدنا، كان الشيشان والداغستان يجابهون روسيا. ولم يكن صوت تركيا مبوحاً. ومن جهة الغرب

كانت روسيا تتعرض لمضايقات من البولونيين والليتوانيين وغيرهم. والآن بقينا وحدنا منذ ثلاث سنوات أمام القيصر الروسي. والدول التي أتيت منها، إنجلترا وفرنسا وتركيا لا تفعل إلا الكلام. الآن لا يمكنك أن تُرهب روسيا بالتهديدات. أنا لا أحب روسيا ولست قريباً منها بمشاعري، ولم أكن واثقاً من إنجلترا ولا من تركيا، وإلى الآن لا أثق بهما. وفارق المرحوم والدنا الحياة وقد فهم كل هذا. بقاء الأديغة وفناؤهم بيد روسيا. وهذا هو سبب إرسالي رجاء السلام إلى قيصر روسيا.

بعدما جلسوا لأياً وقد ساد الصمتُ الثقيلُ الغرفة، وكلُّ غارقٌ في أفكاره المتوافقة والمتنافرة، سأل فونفيل:

- متى أرسلت يا أمير رسالتك إلى القيصر؟
- ربما قبل شهرين أو ثلاثة... - لم يكشف تماماً.
- ألم يكن الأفضل يا قرباتر أن ترسلها بعد تسليم كتاب البرلمان إلى القيصر؟
- سأل جيمس راغباً في منح كلامه نوعاً من الدفء.
- لم تعد لي علاقة بكتاب المجلس - البرلمان. ولستُ موافقاً على محتواه. يخزني أن المجلس الذي كان يتمناه والدي صار مكاناً للنزاع على المهمات واستعراض الرجولات بدلاً من أن يصبح سنداً لقضية الأديغة. لا أساهم في عمل المجلس الذي يحفر قبر الأديغة ويشتهي الحرب، ولا أريد أن أساهم فيه! هذا أيها الضيوف ما آلت إليه مهامي ولو أنها لا تستدعي إلا الحزن. وأنت يا إسماعيل بيه، - يسأل قرباتر راغباً في إزاحة الهمِّ الثقيل عن نفسه، وفي تغيير مجرى الحديث مع الضيوف، - لا تساهم في حديث هذه الليلة!
- ماذا أقول يا قرباتر؟ قلنا وانتهينا... كان حسناً لو زرْتُ غداً قبر حورية خانم مرة أخرى.

- وهذه مهمة عظيمة، حققها الله لك يا إسماعيل بيه! ليفتح الله باب جنته لها!.. - قال بيل على سبيل الواجب، وسأل قرباتر من جديد: - وإن لم يوافق قيصر روسيا على كتابك يا أمير؟

- ماذا بيدنا أيها الضيف إن لم يقبل؟ سيكون مصيري مصير الأديغة...

فهم جيمس بعد حديث قرباتر أن قضية الأديغة خاسرة. وكان الانطباع نفسه لدى فونفيل. غير أن إسماعيل بيه، وإن فهم أيضاً هذه النهاية، لا تفارقه آماله الخفية بحكم كونه أديغياً، واثقاً أنه سيجد طريقة للتعامل مع من يقع الأديغة في يده كائناتاً من كان. والأمر الوحيد الذي كان يحزنه هو تأخره في القدوم إلى إقليم الأديغة، متسائلاً عن سبب تأخره إلى الآن!

...

بُعِيد الفجر كان في مقبرة قُماثر شخصان: أحدهما إسماعيل بيه، والآخر ترام. وشاهدة القبر بينهما. والرجلان يرفعان الدعاء إلى الله وأيديهما بعيدة عن وجهيهما. ولا أحد غيرُ الله يعرف ما في قلبيهما نحو الراقدة في القبر. وأول من يختتم الدعاء هو إسماعيل بيه. وبعد قليل مسح ترام يديه على لحيته الشائبة وشاربيه، وأسبلهما. ثم انحنى واستأصل ببعض الحشائش اليابسة من تحت جدار القبر. وتظاهر إسماعيل بيه حين رأى ما فعل ترام بأنه يمد يده إلى القبر، وقال بعدما فارقه:

- لا أحد يتجاوز الموت!..
- لم يولد أحد لا يعود إلى الله، - أضاف ترام.
- حياك الله يا ترام على أنك لم تنس حورية.
- لا شكر على هذا. أفعل واجبي نحو مريم.
- من أخبرك بهذا الاسم؟! - انتفض رأس إسماعيل بيه مما سمع.
- هذا الاسم في قلبي طوال عمري...

IV

لم يعد يُسمع في الشمال الغربي ابتداءً من الناخوي السفلى إلى الأبراخ العليا إلا أصوات المبلّغين. يملأ المنادون بأصواتهم القرى طالبين أن يتحلّى الأديغة بالصبر إلى حين زيارة القيصر إلى الأبراخ العليا ومضيق مامرّفوه، ويخاطب الأئمة باسم الله المصلين ألا يخطر ببال الأديغة ارتكاب أمر مشين ضد الروس في الأيام التي سيقابل فيها موفدو الأديغة القيصر، وأن يتناسوا أمر الحرب. والشباب الذين يدعوهم داعي الثأر فتغلبهم الحميّة ينصحهم المسنون في أسرهم بالهدوء.

لا يشعر برزج بالنعاس في آخر الليل رغم أنه قضى يومين على الطريق الجبلي. لا تفارقه المهام الهائجة التي اجتمعت في ذهنه حول اللقاء المرتقب بالقيصر غداً. تعقب القلق فكرةً، ويعقب الفكرة قلقاً. وجهد أيام البرلمان الثلاثة يصدغ الرأس. وكلما أعاد التفكير وجد وجهة نظر أخرى في ما يشخص للعنين. يجد في موقف قرباتر صدقاً وإن كان يتحرج من مفارقة مَنْ وقف في صفهم. يتأمل السقف المظلم بعينين مفتوحتين، ويدعو إلى الله لنفسه: اغفر لنا إن ظلمنا زانه، ولكنه نفسه يعرف أنه لا يتصرف على نحو صحيح. ربما ما كنا تصرفنا معه على هذا النحو لو أئدنا نحن المسنين، كان ردعنا احترامنا لوالده سفري... ما هذا الهراء!.. وهل تحتل مأساة الأديغة كبيراً وصغيراً، ومراعاة لصديق؟.. هل الهدف الذي كان يسعى إليه قرباتر صحيح أم غير صحيح؟ ولكن إن وقعنا تحت جناح القيصر بأسلوب الرياء والكلام المنمق فانتكبتنا؟ فبأي عين سننظر وقتها إلى الأديغة؟ وماذا سيقول عنا من يأتون بعدنا؟ والآلاف الذين سقطوا دفاعاً عن أرضهم وعن حريتهم؟ أفهم يا قرباتر أن إبقاء خنجرك في غمده مرتاحاً أفضل من استلاله من وقت إلى آخر. ولكن من غزانا لم يسمح لنا أن نعيش عيشة السلم هذه. ورغم محاولتك أن تصبر على كل طعنة فإنك تتألم. وفي هذا المقام لا تملك إلا أن توافق تسي. والمهمة التي كلّفت نفسك بها قد لا تخلو من الحقيقة. ولكن ما كان عليك أن تتناسى الأكبر منك سناً في المجلس وتنشق عن المجلس غاضباً. هل تعرف ما يعني هذا؟ يعني أنك اقتطعت عن دولة الأديغة الناتخواي والشابسغ. هل تظن أن ما جرى بيننا لم يصل خبره إلى القيصر؟ تحقّق لأعدائنا ما يريدون تماماً. ماذا يخبئ لنا يومنا بشأن الأديغة يا الله؟ ارعنا ولا ترفع عنا رحمتك. وحقق لمن على حقّ نيّته. وأرشد من ضل طريقه من أمثال زانه قرباتر. أعدهم إلى صفنا إذ ترى براءتنا. وحقق للموفدين الذين سافروا من أجل قضية الأديغة مرادهم. لا يتعلق الأمر برزج ولا بتسي ولا بزانه ولا ببولتقوه ولا بحجمقوه، بل يؤول الأمر إلى رجولة الأديغة الأبرياء الذين منحتهم هذه الأرض الجنة ولا أمل لهم غيرك، وإلى شرفهم وحريتهم!..

غفل برزج فجأة ونام بعدما نفّس عن ضيقه بأفكاره الفردية المحيطة أو غير المحقة، دون أن يحتتمها تماماً. ولكن صوتاً صحّاه دون أن يعرف متى غلبه

النوم. وكما عوّدته حياته على مواقف الرعب والمفاجأة خرج من الفراش مستعداً لامتشاق السلاح.

رأى من النافذة الوقت لا يزال فجرًا مبكرًا، وعلى البوابة مجموعة من الفرسان. ورأى مقابل جدار الغرفة الطويل في الدار مجموعة من الموائد، والخدم ما يزالون يأتون بها. ومن طرف الشارع الذي ارتسم أمام العينين يأتي فرسان ومشاة. وصدر صوت من بعيد، من وسط القرية. وارتفع نباح الكلاب.

استقبل تسي المضيف أمير الوبيخ على المسطبة، وأضاف بعد التحية:
- والله أغبُطك يا جراندوقوه.

- علامَ تغبطني يا حاترباي، يا من بارك الله في صباحه؟ أعلى أني غرقت في النوم تاركًا القرية تنتظرنني؟

- هذا هو والله يا جراندوقوه!.. لا يهمني ما سمّيته انتظار القرية، بل استغراقك في النوم غير مهموم بما ينتظرنا من أعمال. هنيئًا لك يا أمير. أغبُطك، أنا لم يُغمَض لي جفن طوال الليل.

أجاب برزج بعدما أكل بعض الوقت على ما لم يجد الوقت للإجابة عنه:

- هل تعرف ماذا أقول لك بشأن ما تغبطني عليه؟ ما زلتُ بفضل الله قادرًا على النوم إلى الآن لو دوى الرعد وقصفت المدافع. وأستطيع أن أفتح عيني في أي وقت من النهار، - كان تسي يريد أن يقول شيئًا، ولكن جراندوقوه أكمل دون أن يفسح له المجال: - هكذا يا أمير، صحيح، إذا اعتاد المرء أن يتحكم في نفسه بنفسه فلن تصعب عليه الحياة. هل تعرف من صاحب هذه الحكمة؟ زانه سفري.

- نعم يا أمير، كان زانه سفري رجلاً ذكيًا. ولكن لم يتحقق له مراده، وافقه تسي.

- العالم ثقيل والحياة محدودة يا حاترباي. - بدأ حجمقوه أسلانج يعرض أفكاره مناورًا، - لو كانت الأمور تسير كما تريد، ولو كان الإنسان يتصرف... ولكني لا أؤيدك في شأن زانه سفري، ولا في شأن ابنه. هذان لو لم يكن إلا المعروف الذي فعلاه للأديغة، لو لم يكن إلا رجولتهما...

- نعم، نعم يا أسلانج، فضل آل زانه كبير. أنا لا أتكلم عليه... ولكن الأفضل أن يعرف قرباتر ذنبه في موضوع الأديغة اليوم. وأنت أيضاً يا أسلانج، وبولتقوه ذو العين الحمراء. لا تنسيا أن استقبالكما القيصر في توم - ترقان بهذه الطريقة أهان الأديغة رجالاً ونساءً وأمراء وعبيداً...

- يا أمير، يا أمير!.. - استعجل برزج متسائلاً عما ينبش تسي من مشكلات، ونحض عن المائدة موهماً أنه انتهى من الطعام.

- هذا يتعلق بمن يخرج الكلام من فمه يا أمير، - أصّر حجمقوه أيضاً على موقفه.

- لا سِرَّ في هذا يا أمير، أنا من يقول هذا، - لم يتراجع تسي كذلك.

- الأجل أن تقول لي هذا الكلام أرسلتم ورائي فقطعت كل هذا الطريق؟!

- اسمعوا أيها الأمراء، لنقف في حضرة الله والخير في قلوبنا، ولدعُ إليه أن تنتهي مأساة الأديغة على خير.

مدّ الذين في أرض الدار، ومن هم وراء السور، ومن هم بعيدون، أكسيتهم القصيرة نحو القبلية. ووقفوا بانضباط يتقدمهم الأمراء الثلاثة، وبدؤوا يدعون بصوت خافت إلى الله.

تسي يدعو إلى الله أن ينصر رجولة الأديغة على روسيا. واهتمام حجمقوه موجّه إلى أن تنجح مساعي الصلح. ويدعو إلى الله أن يرقق قلب العدو.

وبرزج واقف بين صديقيه بكل ثبات أمام الله. واهتمام كلٍّ من عضوي وفد الأديغة تسي وحجمقوه يحتل وحده مكانه الخاص في قلبه. ولا يُخفي هذه المواقف عن الله. ويوثّق موقفه بأنه سيتوجه إلى من يختار الله أن يتوجه إليه منهما، ويتهل إليه. ولا يملك برزج إلا أن يطلب شيئاً آخر أمام الله، وهذا الرجاء متعلق بعبيده وفلاحيه وخدمه. يدعو إلى الله ألا يصل إلى الأديغة موضوع تحرير العبيد في روسيا، ولا يصل إلى عبيده هو فتقوم الفتنة بينهم. ويوح له بأنه متى وقعوا بيد الروس، بعلم الله، لن يستطيع أن يتنصر، ولا أن يبدّل إلهه. وألا يبقى دون فلاحين ودون عبيد.

ما إن سافر الموفدان حتى تابع المبلّغ نداءه:

- ليرسل الله موفدي الأديغة على طريق السلامة، وليحقق مرادهم! لا تتراجعوا يا حاترباي! ليعرف القيصر رجولة الأديغة. كل الأبخاخ معكم، نرجوكم، الأمل معقود عليكم! نحن الأبخاخ لسنا مثل زانه قرباتر والبجدوغ والجمكوي الذين يرسلون إشارات الاحترام للعدو! إن كانت أمهاتكم ولدنكم رجالاً فلا تتراجعوا كالشابسغ وإن داخلكم شيء من الرعب. خنجر الأبخاخ لم يُفلّ بعد! نحن لسنا وحدنا، الله الذي يتضرع إليه الجميع ولا يتضرع إلى أحد معنا!

- أتساءل ماذا يقول المبلّغ يا حاترباي؟.. - سأل برزج متظاهراً بالامبالاة. - لا نسمع في أرض الأبخاخ غير هذه الكلمات. أياكون المبلّغون يتواطؤون؟! - المبلّغون الأبخاخ يا أمير لا يخطئون في ما يقولون. يتكلمون من قلب الأبخاخ. يزرعون الأمل إن كان بعضهم فقده. - أجاب تسي مضيفاً إلى صوت المبلّغ مثله.

- والله لا أعرف... كان الأفضل ألا يُذكر اسم زانه وأبناء قومنا من الأعراق الأخرى.

- يجب أن يعرف كل من يهتم بالقضية إن كان أميراً أم عبداً أم نبيلاً أم فلاحاً تصرّف زانه، وليقيّمه!.. أنت في أرض الأبخاخ يا أمير ولو لم يُعجبك ما تسمع! فهم برزج أنه لا يجوز الاستمرار في هذا الحوار فلم يعلّق بشيء. ولكنه سأل بعدما مشوا مسافة مستكثراً عدد الفرسان الذين يتبعونهم:

- أليس هؤلاء الفرسان وراءنا كثيرين يا حاترباي؟ ألم يطلب منا إفدوكيموف ألا نتجاوز الخمسين فارساً؟

- لا، ليسوا كثيرين! - جزم تسي مرة أخرى. وأضاف بعد قليل: - لسنا بأمر الجنرال إفدوكيموف فلا يصدغ رؤوسنا! نحن في أرضنا، وسماؤنا فوقنا. ليعرف القيصر أننا لسنا وحيدون، لن يكونوا أكثر من الجيش الذي وراءه.

- يا أمير، بالله عليك، يا حاترباي، - لم يستطع حجمقه أسلانج أن يكظم انفعاله، - تحلّ بالصبر واللين! ليس من أجلنا جاء القيصر الروسي. نحن من رجونا أن يلتقي بنا. أليس صحيحاً يا جراندوقوه؟

تظاهر برزج الذي تأمل حجمقه أن يؤيده بأنه لم يسمع شيئاً. كان نيكراس تيم السائر مع الفرسان وراء الأمراء مستعداً لمناصرة تسي ولكن لم يجد من

اللائق. على أنّ تسي نطق بما في قلب تيم: - نعم، نعم، حيّوا القيصر قبل أن تقفوا أمامه! - ونادى إلى من خلفه سريعاً: - وأنت يا تيم لا تقول شيئاً!.. - أستمع إليك، كل ما تقوله صحيح يا أمير، - القيصر وإن لم يأت حباً فينا، فالأرض التي دخلها أرضنا. أفصّل باسم الأديغة محادثته دون الالتفات إليه. - هل سمعت يا حجمقوه كيف ينتج اللبن الجبن. - ضحك تسي مُسمِعاً الجميع نبرةً سخريته.

- يا تسي! - صرخ أكبر النبلاء الذين يقف حجمقوه بينهم بعدما شدّ اللجام بعنق فأوقف الحصان وخرج من الجماعة. - أسمعك منذ صرنا على الطريق فأجذك تهين أميرنا، وتُهين البجدوغ معهم. ونحن نأتي من بلاد البجدوغ التي لها اعتبارها، ولن نقف وراء الأبراخ. قل يا أسلانج، نريد أن نعرف شعورك نحو من أهانوك. نريد أن نعرف يا أمير! - انفصل الفرسان البجدوغ الخمسون ووقفوا جانباً.

- أنا لستُ تسي! - أنا من زعماء الأبراخ. حرف حاترباي حصانه فانفرد عن أصحابه. ووقف وراءه قرابة مئتي فارس أبراخي. ويضع المئات من الفرسان المتأخرين وقفوا لا يعرفون ما يحدث. ومن هُرعوا إلى الساحة ليسوا قليلين.

- مهلاً مهلاً، - ناداهم برزج وهو يلجم حصانه بصعوبة: - أيّ عيب تدفعوننا إلى فعله؟! تحلّوا بالصبر جميعاً، واهدؤوا! ليس هذا موقفاً لاختبار الرجولة الأديغية. عودوا إلى وعيكم وإن كان ما تفعلونه إنما بعلم الله. سيحاسبكم الله عليه متى استدعاكم!.. - وفي اللحظة نفسها صدر من مضيق مامرقوه أصوات طبول وأبواق وصيحات نصر "أورا" يرددنها الجنود معاً. وأضيف إليها عزف حاد على آلات نحاسية. نصّ الفرسان الأديغة برؤوسهم ناسين ما جرى بينهم قبل قليل. أشار برزج بيده إلى المكان الذي ينظرون نحوه. - هل تسمعون؟ نحن هنا نتبادل نظرات الغضب والاحتقار متنازعين على الرجولة، ومن الجانب الآخر يقيم الكفار استعراضاً عسكرياً أمام قيصرهم على أرضنا. صبراً ثم صبراً! أستحلفكم بالله وباسم مجلس الأديغة أن تتحلوا بالصبر. هيا يا موفدي الأديغة الذين تحملون مهمة ثقيلة، نقابل القيصر متجنبين الحدة والغلظة، ونصارحه بحقيقة ما في نفوسنا!

عاد برزج إلى طريقه، وتبع أعضاء الوفد صيحة النصر "أورا!" صحيح أن حجمقه كان ما يزال تحت تأثير الإهانة ولكن في الصدر قلباً يغتلي ويضطرب. لم يجد من اللائق أن يفارق رفاقه الذين يتصرفون بصبيانية. قال: إذا كان هؤلاء سيتصرفون بهذا الشكل فمن الواضح أن قضية الأديغة خاسرة. نية تسي واضحة لا تراجع فيها ولا تحلُّم. ومن الصعب أن تعرف ماذا ينتظر برزج. إذا كان يتأمل أن يُبقي الوبيخ في حماية الأبراز والشابسغ كما في الماضي فهو مخطئ. اقتربنا من وادي مامرقوه. متى وصلنا فسأنضم إلى فرسان البجدوغ والجمكوي. هؤلاء لم يُجبرني أحد على الانضمام إليهم، أنا فحسب المسؤول. تبعُهم حين طلبوا مني إذ أنها قضية الأديغة، ومأساتنا واحدة. تبين أن قرباتر أدكى منهم فلم يركب معنا. يا ربي، هل يعيد التفكير فيأتي؟..

ظهر الجنود الذين يستعرضهم ألكسندر الثاني حين ارتقى الموفدون مرتفع مامرقوه. ومن الطرف الآخر، على المرتفع وراء الساقية، فرسان الأديغة في مجموعات. والذين يخرجون من عمق الغابة ليسوا قلائل. والجانب الأديغي من الوادي حيث يقف القيصر محروس بثلاثة صفوف من الجنود.

...

اليوم هو السابع عشر من أيلول عام 1861: صباح خريفي لطيف. كل ما يشخص للعين في إقليم الأديغة جنة أرضية لولا الحرب الدامية. كلما ارتفعت صيحة النصر "أورا" تساقطت الأوراق الصفراء المحمرة من الأشجار. والصدى المتكسر يصمت تحت الغابات.

- أتساءل ما الذي جرى هؤلاء!- يقول أحد الفلاحين غير متحمّل ما يرى وما يسمع.
- ألا تراهم يكرّمون قيصرهم!.. - يجيبه رفيقه.
- وموفدونا أين هم إذن؟
- ها هم ينتظرون إشارة من القيصر ليهرعوا إليه.
- لا أرى بينهم زعيم الناقحوي - الشابسغ زانه قرباتر.
- قيل إنه رفض الحجيء. هو الآخر يسبح في تياره الخاص.

شمس الخريف التي تساوي بين الجميع تشرق من وراء الغابة الجبلية. وتقف فوقها.

لم يُطق تسي صبراً:

- حقاً هل نقف نستمع إلى طبول هؤلاء! دعونا نستعرض لهم لاعبيننا على الخيل ومبارزيننا. نذكّرهم بأنفسنا، ونمتع من يروننا لأول مرة.

وقف على الجانب الأديغي مئة فارس مقابل مئة. وبإشارة واحدة شهبوا سيوفهم معاً. واشتبكوا مع صرخاتهم. الخيول تصهل وتقفز وتنبطح أرضاً، والفولاذ يصلّ، والروس ينظرون. ثم يتفرق مقدّمو العرض قبل أن يكتفي المشاهدون من المنظر. ثم يستعرض فارس وحيد طريقة الجيغيت¹ في اللعب.

في لحظة بدء استعراض قتال المشاة الأديغة بالخناجر ظهر من الجانب الآخر القيصر ووراءه كوكبة من الفرسان. وخرج من بين الأديغة الوفد المؤلف من ستين فارساً. وتجاوزوا أرتال الحرس الروس الثلاثة.

على يمين الحصان الإنجليزي الرشيق للقيصر يقف الجنرال لوريس - موليكوف. وعلى يساره الأمير العقيد لُو ممتجري. ووراءهم غير قريب ولا بعيد يقف الجنرالات، ويليهم الضباط. اقترب القيصر منهم وترجل. وفعل الأديغة ما فعل القيصر. فتكونت ساحة مستديرة كبيرة. تقدم القيصر بضعة خطوات إلى وسط الساحة وقال لهم:

- أهلاً بكم أيها الأبراخ!

- حلّت علينا البركة!.. أجاب الموفدون الأديغة.

- أنا لم آت إليكم عدواً، - بدأ القيصر كلمته، - جئتكم صديقاً بنوايا حسنة. أريد أن يحافظ الأديغة على كيانهم ونعيش معاً في سلام وأخوة. روسيا دولة عظمى، وأمامها مهمات تاريخية كبرى عليها أن تحلّها. علينا أن نضع البحر تحت تصرفنا من أجل أن نحمي حدود بلادنا ونصل إلى الدول الأخرى. لا يمكننا تحقيق هذا إلا بالسيطرة على البحر الأسود. اسمحوا لي أن أفتح طرقاً من جهة أنابه وبزاه مز، وطوابسه. وسُعوّض القرى التي ستهدم من أجل مرور الطرق بها. وأنتم يجب أن تصبحوا رعايا لقيصر روسيا. ولا يعني هذا إبادة

¹ فرع من الأديغة الوبيخ كما يرد في رواية خان جري.

عرقكم: ستعيشون على عاداتكم وأنظمتكم، وستحافظون على ديانتكم. ولن يتدخل أحدٌ في قضاياكم القومية. وستنتخبون من بينكم القائمين على أموركم. أنتم تحاربون منذ عقود ببسالة، ولكن خيرة رجالكم يقضون في الحرب. ولن تستطيعوا حماية حريتكم لأن جيشي كبير وقوي.

تبادل الموفدون الأديغة النظرات تبعاً لكلام القيصر الذي يترجمه إلى الأديغة لَو ممتجري. وسأل تسي نيكراس تيم الواقف وراءه:

- هل يترجم هذا الأمير الأباطرة كلام القيصر بدقة؟

- إلى الآن يترجم بأمانة.

- انتبه، أخبرنا فور خيانتته للنص!

- اتضح أن الحرب وصلت إلى نهايتها. - من مدة إلى أخرى يبدو الجزم في كلام القيصر، - لا شك أن القفقاس ستصبح روسية. إن أوقفتم الحرب التي تتسبب في نكبتكم حافظتم على وجود أمتكم. ستحميكم دولة روسيا وسترعى أهدافكم، وتُشفى جراحكم، وتتوقف العداوة، وتنسون الإهانة. وستعيشون بعد قرابة خمسين عاماً كدولة. وستعيشون في ظل نظام عادل. وسيتوجه أطفالكم ومن يخلفهم إلى العلم والتربية، وسيعيشون أفضل مما عشتُم. افهموا ما أقول لكم في هذه الساعة التي تصبح فيها القفقاس روسية، وعيشوا واحموا أنفسكم. وإن لم تقبلوا كلامي ولم توافقوا عليه فسأوصي جنرالاتي بإنهاء الحرب بأسرع وقت مهما كلفت من خسائر، وسينفذون الأمر، ولكنه سيحمل فناءً شديداً لأمتكم. فكروا بطريقة صحيحة في المستقبل الذي ينتظركم. كلام القيصر كلام جازم. أقول لكم من أعماقي إن كلام القيصر صادق لا تراجع عنه، وسأؤكد به بأمر قيصري مني.

خيم الصمت على الناس حين انتهى القيصر من خطابه. ونقض حجمقوه أسلانيج الصمت المريع والنظرات المتبادلة المتسائلة:

- اسمحوا لي بوضع كلمات. حيّ لوطني الأديغي كبير، وأودّ أن أحميه لأولادي مهما كان الثمن، كبارنا الذين سبقونا حاربوا من أجل الوطن فحافظوا عليه إلى يومنا هذا. ولكني أرى أننا لم نعد قادرين على حمايته بالسلاح. وحين الوقت لنصبح جزءاً من إحدى الدول المجاورة لنا. تركيا أقرب إلينا ديناً ولكنها لا

تساعدنا عسكرياً. الروس كثيرون ونحن قلة. وليس بيننا تكافؤ في القوة. ولن نستطيع مجابعتها أكثر مما فعلنا. إن كنتم تريدون رأيي قلت لكم: دعونا نقبل عرض القيصر. ولن يحاسبنا الله على هذا. لا تدعونا نخطئ، لنفكر نحن الأديغة!..

سمع ضجيج من وراء صفوف الأديغة. وما زال يرتفع حتى وصل إلى أسماع القيصر. وتغيرت سحنته على نحو ملحوظ. ولما سأل مترجمه ممت جري قال له:

– ما قاله حجمقوه صحيح، غير أنه لم يُرض الأديغة.

تقدم تسي حاترباي من بين المجموع، وتوجه بشقّ جسمه نحو القيصر وهو يتفحص الأديغة:

– اسمع يا تيم، ترجم للقيصر دون أن تنسى كلمة، دعه يعرف أن هناك روساً يقفون إلى جانبنا. القيصر قال لنا ما عليه أن يقوله. ولا ألومه على هذا. ولكن كلمتي لن توافي إرادته. الإنسان لا يولد إلا مرة واحدة. يعيش إنساناً واحداً، ينمو، ويشيخ، ويموت. ولا يتجاوز عمره مئة سنة. أما الجنس البشري فيعيش آلاف السنين. ولا خلود تحت الشمس. القفقاس أعجب قيصر روسيا، ويحاول الاستيلاء عليه منذ ستين عاماً. ولكننا نحن أيضاً نحب بلادنا. ولا نبخل بشيء من أجلها. ونحميها بقدر طاقتنا. ولا أحد يستطيع اتهامنا بأننا نحمي أنفسنا فحسب. نحن نسفح دماءنا، ونضحى بأرواحنا. ولكن فناءنا أفضل من وقوعنا في العبودية! يعدنا القيصر بالمحافظة على وجودنا وديننا وعلى علاقاتنا الإنسانية ولكن هذا مستحيل! – تفحص تسي الأديغة من حوله، ونظر في عيون القريين منه والبعيد، ثم عاد فتوجه إلى القيصر وقد استمد عزيمة من النظرات الحارة لمؤيديه: – ارموا حفنة ملح في خزان ماء، وانظروا كيف تذوب. لا شك أن الشعب الصغير الذي يضعه شعب كبير تحت سيادته سيدوب فيه! متى انتهت حريتنا انتهت معها علاقاتنا القومية. علينا أن نستمر في حربنا متحليين بالرجولة والاستماتة. الله قويّ بصدقه، سنحارب إلى النهاية ونحمي أنفسنا. إن سقطنا شهداء من أجل بلادنا وقومنا واعتقادنا وديننا وشرفنا فلن يعيب علينا أحد. قد تصبح القفقاس روسية ولكن الأديغة لن يصبحوا عبيداً للقيصر ما

دام في عروقهم دمٌ. يقول لنا القيصر إنه يُضمر لنا الخير، ما أعجب هذا الكلام! من يضمر لنا الخير يسفك دمنا منذ ستين سنة بلا رحمة. ستحيا القفقاس، وستكون مهدنا أو قبرنا. ولن نسلمها لأحد ما حيينا! نفصل الموت على حياة العبودية، فإما أن نعيش رجالاً وإما أن نموت. ليس من السهل أن تعبّر عن مرارة الصدق في حضرة ضيفك، ولكني لا أستطيع أن أصدّق أن القيصر يُكرّم لنا الود وأنه يزورنا زيارة ودية. هو عدوّ أبديّ. عليه تأزنا. يطلب منا أن نصالحه بلا ثمن، وأن ننضوي تحت جناحه. القوي يموت حراً ولا يستسلم لأحد. ولكن إن استسلم أمثال حجمقوه المحرمومون من الرجولة فلن يستطيعوا إهانة بواسل العرق الأديغي! الشجاعة، الموت لأعدائنا الغزاة! عاش الجهاد وتوسّع! والمجد للأبطال!

- صحيح، صحيح!.. - وافق بعض الحضور تسي. وكرر المئات هتافاته. وارتفع فوقهم الرعب. وارتقى الصدى في غابات الجبال.

- القيصر ضيفنا اليوم، والضيف عند الأديغة فوق الجميع. أنا واثق أن الأبراخ لن ينقضوا تقاليد الضيافة. - نظر تسي إلى الجهة التي يقف فيها حجمقوه، ثم همس في أذن برزج، وأكمل: - إن كان القيصر لن يضيف شيئاً إلى كلامه فنحن أيضاً انتهينا.

- قيصر روسيا لا يكرر كلامه، كلام القيصر جازم، - ترجم ممتجري، ثم التفت القيصر وهو يهّم بالركوب وسأل برزج: - أراك لا تقول شيئاً؟ - ما كنت سأقوله لك سبقني إليه المحترم تسي. ونوثق كل ما في قلوبنا بهذه الورقة التي أصدرها مجلس الحرية الأديغي - البرلمان.

مدّ الجنرال لوريس - ميلكوف يده بدلاً من القيصر واستلم المذكرة من برزج. - إذا كان ما في مذكرتكم هو قاله هذا، - أنهى القيصر اللقاء مشيراً بطرف سوطه إلى تسي - فكلامي مختصر -: ستندمون. استسلموا لنا، واخرجوا من الجبال. وأقيموا حيث يحدّدون لكم، فإن لم تقبلوا فإلى تركيا.

...

عاد القيصر منذ زمن بعيد ولكن الأديغة والضباط الروس افتتحوا سوقاً كبيرة للسلاح في مامرقوه. الأديغة يبيعون أسلحتهم القديمة، والروس يشترون.

يتبادلون الابتسامات، ويتساومون، ويتخاصمون ثم يتصالحون. يقرعون أكفَّ بعضهم بعضاً. ومن اشترى السلاح يتفقده. ومن أُعطي النقود الذهبية أو الفضية يتفحص أصالتها بقواطعه. يرميها إلى الأعلى ويمسك بها. ثم يلقها في خرقة ويودعها جيبه. ويُسمع من بين الأدیغة أصواتٌ تنهر وتوبّخ احتجاجاً على ما يفعلون. ولكن من أين تأتي بمثل هذه السوق لتصريف السلاح؟ ولو كان أمراء الأدیغة يتصرفون هكذا فمن يدري ما سيحدث في إقليم الأدیغة غداً؟ وهل يعيشون إلى الأبد في حرب لا تنتهي؟ ثم إن العملة الروسية هنا أغلى من العملة التركية.

ومن يبدو في السوق متميزاً من الطرفين هو نيكراس تيم. حين بدأ زعماء الأدیغة ينصرفون تخلف عنهم معتقداً أنه يستطيع أن يلحق بهم. ويتفقد من يدير له وجهه أو ظهره من الروس. وحين يعرض عليه أحدهم أن يشتري منه خنجره أو مسدسه يغمغم في وجهه ويجيبه:

- أنا لا أهتم بالسلاح، أبحث عن ابني نيكراس الذي قد يكون بين الضباط.
- أنا أعرف شبيهاً به: رومان تيموفيتش نيكراسوف، - يجيبه أحد الضباط الروس.

- أين هو؟ أهو حيّ، بصحة جيدة؟
- نعم، بخير وبصحة جيدة. وأظنك رأيته أنت أيضاً. هو من حراس القيصر هنا. كان وراء الجنرال إفدوكيموف.

- أكان هنا وراء القيصر؟

- نعم، نعم. وهو أيضاً رآك، وسمع ترجمتك إلى الروسية.

- أين يكون هذا المنحوس يا ترى؟

- هو هناك، في المكان الذي انصرف نحوه القيصر.

- إن بعثني يا نيكراس خنجرك دفعْتُ لك سعراً جيداً.

- أنا لستُ ممن يبيعون السلاح. ولكن، بما أنّك طمأنتني عليه، سأقدمه لك بشارة على عادة الأدیغة حين يیشرون بخير طيب. - ها هو، وبلغ سليل الكلبيين هذا أن عيني أمه جفّت من كثرة ما ذرفنا من دموع. وإن كان قد نسي أن ابنه عليمبيج صار في قالب الرجال فذكره!

لحق نيكراس تيم بزعماء الأديغة في مضيق قُجْبَس.

- أتساءل يا نيكراس أين كنت إلى الآن؟ - ابتدره تسي، - أأتكون تريد أن تلتحق بقومك كما يفعل حجمقوه؟

- أهتني يا تسي! لن يردعني كونك من زعماء الأبراخ. إن كنت رجلاً سليل أب وأم أديغيين فاسحب خنجرك!.. - مدّ تيم يده يريد أن يستل خنجره ناسياً أنه وهبه حلواناً.

- اعرف أولاً إن كان خنجرك إلى جانبك أم بعته أيها المهرج!.. - اعترض تسي نيكراس على مسافة قفزة حصان.

- لا تخطني بمن يبيعون أسلحتهم يا تسي!.. إن كنت رجلاً فارم لي الخنجر الذي أحمي به شرفي.

- مهلاً، أستحلفكم بالله، لا تهينونا نحن الأديغة!.. - وقف برزج بين الفارسين. ضعوا سلاحكم وكلامكم!

- لا تؤاخذوني أيها الكبار، تلجمني إنسانيتكم... قال تيم كاذماً انفعاله، ثم أضاف مشيراً بيده إلى حاترباي: - لا أستطيع أن أرافق مثل هذا. أعود إلى قريتي الأصلية.

V

خرج حجمقوه وبولتقوه معاً من مضيق مامرقوه يسلكان طريق مرتفع شخغواشه الأيمن، ومشيا حتى وصلا إلى مفترق طرق الجمكوي - البجدوغ - الأبراخ فألى ما فوق قلعة مايقواب. كانت أفكار الأميرين تحوم حول نقطة واحدة: خاتمة لقاء الأديغة بالقيصر. ويعتقدان أن الملموم في هذه النهاية هم الأديغة. تكلم حجمقوه في الاجتماع، ولم يتكتم على أفكاره. وصارح الطرفين المتجابهين. وإذا كان بولتقوه لم يتكلم فكم من الأشخاص يمكن أن يتكلموا في اللقاء، ثم إن أفكاره الخاصة لا تخرج عن إطار ما طرحه حجمقوه.

ألا يكفي يا مبارك النسل، قال حجمقوه، ألا يجب أن يكون للحرب الدامية نهاية؟ إن كنت كرهت حياتك يا تسي فما أكثر الناس الأبرياء في إقليم الأديغة الذين لا يريدون الحرب! كلما أخرجت الأديغي برجولته تخرج من إنسانيته فاندفع وراء الرجولة. لا يليق يا تسي أن تستنفر الأديغي بهذا الأسلوب.

- ما رأيك يا حجمقوه بكلام القيصر؟ - كشف بولتقوه أيضاً عن أفكاره.
- لم يقل أي شيء يؤخذ عليه إذا راعينا الموقف الذي وقعنا فيه، نحن الأديغة. المضطر يتخذ مكاناً يحتمي فيه.
- والله هذا هو رأيي أيضاً. ولكن تسي لم يوفّر لي شيئاً من عرضي.
- بعض آراء تسي لا يستحق عليها العتب.
- نعم يا أمير، - وافق بولتقوه رفيقه، واستلم منه دفعة الحديث. - وأكثر الأديغة الحاضرين وافقوه.
- ولكن ما كنت أوافقه عليه في البداية، - استأنف حجمقوه كلامه، - لا أوافقه عليه اليوم. مضى زمان سفري وأسلاي مُجد أمين. ما شهدته الأديغة من أحداث ومعاناة كثير. خدعتنا تركيا وإنجلترا وفرنسا. كل دولة تبحث عن مصلحتها ولا يهئها أمرنا. لا يمكن أن تستمر الحرب إلى الأبد. ونحن تعبنا، وأتعبنا الناس. وفي هذا كان زانه قرباتر أذكى من تسي وأنصاره، لم يساهم في اللقاء. وفي المسألة الأخرى، تقصد موافقتهم لتسي، فلسنا نعرف هذا الأمر اليوم فحسب. كان تسي يتفحص عيون الواقفين، ولا يمدّ نظره إلى البعيد ليرى ما سيحدث لهم. ليغفر له الله كل ما قاله، ليس لأنه رماني بكلام جارح، بل لأنه أذنب بحق الأديغة، تصرّف على نحو خاطئ.
- صحيح يا أمير، صحيح!.. إن لم تُعد جماعة تسي النظر في موقفها حانت نهاية الأديغة. وكتاب صلح زانه قرباتر لا يعجبني أيضاً... يقول للقيصر: لا تدخلوا أرضنا، سأصالحكم.
- إذا كان زانه يعرض الصلح فقد استنفر تسي الأديغة إلى الجهاد. لغة السلام أفضل من لغة الحرب.
- صحيح يا أمير، صحيح، أوافقك على هذا.
- في عمق الغابة اعترض الفرسان الروس فرسان الأديغة، وناداهم الضابط:
- من أنتم؟
- نحن النبلاء المرافقون لأمير الجمكوي بولتقوه، ولأمير البجدوغ حجمقوه، المنصرفون من لقاء القيصر، - أجابه حجمقوه بالروسية.
- هل تأتون بأخبار طيبة من حيث تعودون؟

- لا أخبار طيبة. لم يتفق زعماء الأبراخ وزعماء الوبيخ مع القيصر.

- هؤلاء مجرد زعماء للأبراخ - الوبيخ... - قال أحد القوزاق غير مرتاح لِمَا يسمع، - وعامة الناس ما رأيهم؟

- كذلك أخبار سيئة أيها المحترم، أخبار سيئة... - هز الضابط القوزاقي رأسه، وقال لرفاقه: - اسمحوا لزعماء الأديغة المسلمين بالمرور. مع السلامة!..

ليلين الله قلوبكم وقلوبنا!

قال حجمقوه حين وصلوا إلى مفرق طرق مايقواب:

- مع السلامة يا أمير. سأزور أنا الشابسغ والناخوي كما اتفقنا، وأقابل قرباتر، ونُطلعه على ما في نفوسنا.

- لا يرضيني يا أمير ألا تمرّ علينا وقد كاد الليل يحلّ. كنا وصلنا إلى الآن. تعال يا حجمقوه، تعال يا أمير، تفضّل! أنت ترتاح والحصان يهدأ.

- ليأتِ بي الله إليكم بالخير يا أمير. ولكن، وأنت تعرف، لا فرق في هذا الزمن العصيب على الأديغة بين ليل ونهار. سأكسب الوقت ليلاً لأعبر نهر شحغواشه قرب مايقواب، قبل قليل من شتّحاله، وأصل إلى الناخوي من طريق مختصر. مع السلامة يا أمير، نلتقي على خير إن شاء الله!

قبل أن يصل الفرسان البجدوغ إلى شتّحاله جنوب مايقواب دخلوا إلى غابات الشابسغ الناخوي الجبلية على يمينهم.

فُما تر بعيدة حتى إنك لن تصل إليها ولو مشيت طوال الليل. ترجل الفرسان في فسحة من أول غابة ليستريحوا ساعة أو ساعتين. وأكلوا من زاد الطريق متخذين من أكسيتهم القصيرة موائد. وتوضّؤوا ولو أن وقت صلاة العشاء فات، ووقفوا جميعاً أمام الله.

دعاء حجمقوه يختلف عن دعاء أصحابه في أمر واحد، يقول: ماذا قلت أمام القيصر ليُهيّني تسي؟ ولا أظنه عبّر عما في قلوب الأديغة، بل عن رأيه هو. ولهذا لم يقل برزج شيئاً حين سأله القيصر عن رأيه، واكتفى بإعطائه الورقة. تبين أن برزج أذكى كثيراً من تسي وأخبث، فمع أنهما جاءا معاً وفي نيتهما شيء واحد فقد لعبا أمام القيصر لعبة الطميمة. ماذا يفعلان الآن يا ترى، وما سلوكهما؟ أظنهما سارا في طريق خاطئ وهما يصارعان زانه قرباتر ويغتابانه. هما

لا يهماني، بل أشفق على الناس الذين سيجروهم وراءهما. الحق أن القيصر سمّانا نحن باسم رعايا القيصر المسلمين. ويشمل معنا الجمكوي والمخوش والحاتيقيواي والأدميه واليجرقواي. ويسيطر الجيش الروسي على نصف الناختواي. ومن جانب آخر سيطروا على البسلني والقرشاي. والشيشان؟ والداغستان؟ دُعك من القبرتاي الأديغة، كلهم يؤيدون قيصر روسيا، ولا يقصّر الأخير في شيء، فيحميهم. ما فائدة أن نتأمل من تركيا باعتبارها دولة مسلمة؟ والإنجليز والفرنسيون ليسوا أحسن...

بدت قمة جبل بيباو البيضاء من تحت السماء وقت الفطور. وبدت الجبال والوديان التي يعرفونها دليلاً على أن قماثر لم تعد بعيدة. ومن المنعطف القريب للطريق خرجت فجأة مجموعة من الفرسان. ولا ضرورة لتسأل عن هويتهم: جيمس بيل وخورزر إسماعيل بيه، وفونفيل، ومجموعة فرسان بقيادة قرباتر يودّعون الضيوف.

لم يكن أسلانبيج راغباً في لقاء المجموعة، ولكنه بادر بإلقاء التحية حريصاً على ألا يُشعرهم بصوته بعدم رضاه:

- رافقتكم السلامة أيتها الجماعة!

- وأنتم يسّر الله لكم طريقكم يا أمير، - قال قرباتر ورضاه عما يرى بادٍ عليه. وسأل بسرعة: - أي خبر سعيد يا زعيم الخير تحملونه من مامرقوه؟
- لا أخبار سعيدة يا أمير!.. دعوّة إلى السلاح...
شحب وجه قرباتر.

وبادر بيل بالقول:

- ألم أقل لك يا قرباتر أن لا جدوى من اللقاء!..

وسأل قرباتر دون أن يتوقف عند تعريض محادثته:

- من الطرفين دعا إلى السلاح؟

- طرف الأديغة، هو تسي.

- تسي ليس طرفاً أديغياً يا أمير!.. - أفلت من قرباتر صوته، ثم صحا:-
ساحني يا أسلانبيج!..

- تكلم تسي باسم برلمان الأديغة، - استدرك فونفيل على كلام قرباتر.

- أليس من هو أمامك رئيس المجلس أيها الضيف!.. - لم يتراجع قرباتر. - لا تقاد الدولة على قاعدة المسنّ والشابّ. وأنتم تعرفون أنني لم أوقع على مذكركم!.. ثم إن ما نتكلم فيه أيها الضيف موضوعٌ أديعي، لا موضوع غرباء!.. ألا يكفيكم تركتمونا نعيش في همّ المعدم - الغائب!.. مع السلامة، أول من تصادفون، إن كان تسي أم برزج، سيطلعكم على الموضوع الذي تهتمون به... تعال يا أسلانج، يا أمير، تفضّل! تُطلّعني على مزيد مما جرى في اللقاء. وتنفكر في مهايننا...

VI

برزت في الأبراخ آراء معارضة لما قيل للقيصر في اللقاء. وانتقلت المعارضة إلى الوبيخ. وحين وصلت إلى تسي أخبار تأفف الفلاحين من الحرب التي لا نهاية لها حرد واعتكف بحجة أنه إنما كان يحمي أرضهم وبيوتهم. وفكر مرة أو اثنتين في الاتصال ببرزج وزانه ونيكراس وحجمقوه الذي لا يضمّر له الودّ وبولتقوه. ولكن أخذته العزة بالإثم فلم يلتق بأي منهم.

ظهر في الأبراخ العليا خبر مزعج يمكنه أن يُعيد الشرف إلى حاترباي. فبدلاً من أن يجيب القيصر على مذكرة الأديغة اجتاز إفدوكيموف بجيشه الجرار نهر شخغواشه مستغلاً النهار الخريفي الصافي. وأحرق الجيش الروسي القرى التي على طريقه. والناس الذين هربوا من الموت التجؤوا إلى الجبال. ونُهب مواشيهم. وحرّبت محاصيلهم التي لم تُحَنّ بعد.

ينادي المبلّعون في قرى الأبراخ، ويستدعون الرجال الذين يمكن أن يتصدّوا للعدوّ. ويندفعون فرساناً ومشاة إلى ضفة بُشك، في مضيق قُجس. ويحتشد الأبراخ في المواقع الحرجة متأمّلين أن تحميهم المدافع القليلة التي لديهم. ويخلي الطرفان أوائل الجرحى والقتلى من ساحات الاشتباكات. وتضجّ القرى بمناحات من عاد إليها من أنبائها قتيلاً.

وصل جيمس إلى ساحة الاشتباك في الأبراخ العليا. ولم يخف أن حصانه جرى من الوبيخ البعيدة: بخار العرق يتصاعد منه، والزبد يسيل من شذقيه.

- هذا دليل على أن الروس لا أمان لهم يا جيمس، - يشير تسي إلى الجهة التي تصدر منها أصوات المدافع، - القيصر خدعنا. اقتحم أرضنا مدعياً أنه سيُجيبنا.

- كنت تَبْهَتكم إلى ضرورة الحذر مما يجري الآن... - يبرئ جيمس نفسه.
- والله لا يصلح من لا يلتزم بكلمته سلطاناً... نعم يا جيمس تحقق ما حدّرتنا منه. من حسن حظنا أننا كنا جاهزين لمجابهة جرائم الخبيث إيدوكيموف. قابلناه بخمسمئة فارس وألف راجل. ابن الكلب مدافعه لا تُبقي على شيء لنا بما لا يُقاس إلى مشاته، وأحد المدافع الخمسة التي جابهناه بها انفجر، ومدفع آخر استعصت الطلقة في سبطاته. ولكننا استولينا بالمقابل على أحد مدافعه.

- يا محترم، جاء من الأبراخ الوسطى سبعمئة فارس، - جرى إلى حاترباي أحد مراسليه وحراسه. وأتى من جهة نهر خُرْجَن قرابة مئتي راجل.
- مئتان أم مئة وثمانون؟ - لم يرتح تسي لكلام من لا يعرف تعداد المشاة.
- هم مئة وتسعة وثمانون يا محترم.

- اعتدّ على الدقة هكذا يا حَباق. غَدَّهم على نحو صحيح، حتى الخراف يبعدها! هيا مُرهم أن يرسلوا الفرسان الأربعمئة إلى وادي بَشْكَ. والآخرون يدعمون المقاتلين في جبهة قُجْس. ما الأخبار يا ضيف في المكان الذي أتيت منه؟ أين برزج وفونفيل وخروزر؟ لا أريد أن يأتي اسم زانه على لساني.
- لا أخبار طيبة حيث كنتُ يا محترم.

- ما الذي جرى؟

- الجيش الروسي يقتحم الوبيخ والناخوي والشابسغ.
- أليس القيصر حشد رجولته ضدنا إذن؟! على ما يبدو أن هذا تحدّ لرجولة الأديغة... هذا ما جرى إذن... القيصر حاصرنا من جميع الجهات...
- نعم، هذا ما جرى يا حاترباي. ولكن لا تئسوا بوجود تركيا وإنجلترا. لن يتركوا الأديغة وحدهم، علناً أو سراً.

- والله هاتان الدولتان لم تنفعانا في شيء... ولكننا اليوم في أوج مأساتنا فلن نتجاهلهما على مبدأ أنه حتى السوط يحجز الهواء.

- نعم يا حاترباي، ثقوا بنا في يوم ضيقكم. تأكد خبر عبور سفينة من الأسلحة مضيق البوسفور.

- والمدافع؟.. المدافع هي ما نحتاجها اليوم بإلحاح!..مدافع القيصر تُحرق القرى!

- وهذه على الطريق يا محترم. بقي خروزر على ساحل الوبيخ. وأسرع فونفيل إلى الحكوف.

- هذا ما يجب... هل فهم زانه أن قيصر روسيا مخادع؟ كان المسخرة جالسا في حضرته يصلي له ويبتهل إليه، وينتظر منه الرحمة!

- هذا الذي تذكره يا حاترباي لا أظنه فهم حُبث الروس. حين حدثناه قبل أيام بما تقول أنت أهاننا بدلاً من أن يشكرنا. واتهمنا بأننا نتدخل في ما ليس من شأننا. وسمّنا بالغرباء ناسياً معروفاً.

- وآل زانه!.. - أفلتت من تسي عيناه السوداوان الملتهبتان.. - هل نسي آل زانه خيانتهم؟! أليس جدُّ قرباتر من باع أرض أنابه لتركيا؟.. وسفربي وقرباتر أنفسهما ألم يكونا ضباطاً في الجيش الروسي؟! الآن هل ينظفون سيرتهم في أنابه أمام الأديغة؟ كم توسّلت إلى سفربي أن نتعاون لطرد أسلاي مُجد أمين من الأبراخ! سمح للغريب الآتي من الداغستان أن يخوننا ممارساً معه لعبة الغميضة، ولم يتحقق طموح النائب، والآخر رحل عن الدنيا. وابنه، ترى ما دفع الكفار إلى فعله، وهو يحاول مصالحة الكفار!..

لم يكن جيمس يعرف من اليوم فحسب طبيعة الزعيم الأبراهيمي فتركه يسترسل في الكلام حتى انتهى دون تدخّل منه. ولم يكن في الوقت نفسه مرتاحاً. أمامه كثيرٌ مما يستدعي أن يفكر فيه خلافاً للأعوام السابقة. وقد حلّ بعض القضايا الشخصية القريبة. والبقية لا بد أن تجد حلاً ما. الحياة مجموعة مشكلات لا نهاية لها، ولا يمكن أن تسيطر عليها كلها. كان جيمس قد فهم، وإن كان يريد مجاهدة الروس بالأديغة، أن الحرب تدنو من نهايتها بعد حرب القرم، ولا سيما إثر سقوط الداغستان. ولم يكن غافلاً عن الخيانة التي تمارسها تركيا وإنجلترا وفرنسا، وعن دوره الشخصي الخفي فيها. ولكنه كان يتناسى هذا كله ويوهم نفسه كثيراً من الأحيان أنه يُسدي معروفاً إلى من ذاق طعامهم وشرابهم. ولم

يكن قليلاً ما يخدع نفسه مثل ما يخدع مضيفيه الأديغة. وما بقي أمامه الآن هو النجاة بجلده. وفي هذه المسألة عنده ثلاثة مخارج من إقليم الأديغة. وسيتصرف تبعاً للظروف التي يجد نفسه فيها. ولن يسمح لفونفيل أن يخدعه. كلٌّ وما يستطيع أن يخدم به نفسه. وإسماعيل بيه مخادع ولذلك أقام في مكان من الساحل أقرب إلى تركيا.

- أراك لا تقول شيئاً يا جيمس؟

- وماذا أقول يا حاترباي؟ أتفكر في أقوالك.

حين كانا في الجبل رأيا أناساً كثيرين عليه، وفي الوادي. المشاة وعربات الثيران والفرسان والخراف والأبقار... وعلى تل بُشك المنظر نفسه.

- انظر يا جيمس ماذا يفعل بنا القيصر!.. انحرف حاترباي عن الطريق مُفسِحاً للقادمين من الاتجاه الآخر.

تعرف الناس تسي، وأحاط به عدد من زعامات القرى القريبة. ومن يمضون مع أحزانهم دون أن ينظروا إليه أكثر. وبين النساء العجائز في عربات الثيران من يؤمنن إليه مع إشارات التهديد والتوبيخ. ومن ينظرون إليه دون أن تعرف ما في نفوسهم كثيرون. وفي عربات الثيران جرحى خطيرون، وموتى لم يجد الناس فرصة لدفنهم. وأكثر الموجة البشرية على الطريق من النساء والمسنين والرُضع، ومن الصبيان غير القادرين على حمل السلاح.

- ماذا فعلت بنا يا حاترباي الذي أملنا فيه بعد الله الأحد؟ - سألته عجوز مدفوعاً بألمه، وهزّ رأس العصا إلى الجهة التي يأتي منها، - جيش القيصر الذي أبتهل إلى الله أن يبيده ينهبنا. قل لنا بالله عليك كلمة تنفّس عن ضيقنا، نحن ننتكب، نفنى.

- وماذا أقول لك يا كبير... - وقع تسي في مزيد من الحرج. ولو عرف أن هناك وسيلة تجنّبه ما قيل له لما فضّل عليه شيئاً في الدنيا. جابهنا العدو على قدر استطاعتنا. أتعهد أمامكم، والله شاهدي، ألا نسمح للعدو أن يخرج من مضيق قُجيس.

- ليس اليوم نسمع للمرة الأولى هذا الخبر يا محترم!.. - صاح فلاح آخر من وراء الواقفين.

- نعم يا كبير، ليست الحرب في إقليم الأديغة وليدة اليوم. كظم حاترباي غضبه مدركاً ذنبه. - ليس اليوم فحسب ينهبنا الجيش الروسي... أنا خسرت ولديّ وأخي الأصغر في الحرب... ومن يعرف ما كُتب على جيني أنا أيضاً!.. أفهم مأساتكم، توزّعوا في قرى الجبل!.. أوصيناكم أن يقاسمكم بيوتهم وزادهم. لا تئسّوا؛ يخبرنا الله أن لا داعي لليأس... خدعنا قيصر روسيا بالهدنة ثم هجم علينا. من يُرهق روح كافرٍ يصبح على بُعد خطوة من باب الجنة. لا مفرّ لنا مما كتبه الله علينا، هو حَمَلُنَا...

- يا تسي، انا أتذكر يوم وُلدتَ كأنه اليوم. تعِدُنَا، غير أننا نبقي دائماً بلا أمل. وهذه المصيبة ليست جديدة علينا، سنتحملها، - يقول عجوز آخر، ويُبدي رجله وهو ينقرها بطرف العصا، - هل ترى هذه الرجل؟ فقدّمها منذ الهجمات الأولى للروس. المشكلة ليست فيّ؛ كثير من أقاربي دفعوا حياتهم... ما تقوله لنا الآن هو ما كان يقوله أسلاي مُحمَّد أمين وزانه سفري وغيرهما. ثم متى سيصدّق معنا الإنجليز أصدقاءك والترك؟ هل تتذكرني يا جيمس؟ أنا من حملك من مكان الأسر حين حاصرنا الروس وأنت جريح...

- نعم أتذكرك يا جامبوت. لن أنسى معروفك ما حييت.

- أين إنجلترا المعينة إذن؟

- كفى يا جامبوت، أيّ أسئلة تطرحها، - لام تسي العجوز. - الضيف لا يقابل بمثل هذا الكلام، لا تُحن أديغيتك!

- مهلاً، مهلاً يا تسي! - ابتعدت العجوز التي تُمسك قرن الثور عن العربة المتوقفة. - ماذا ستقول لي؟.. خسرتُ عجوزي وأخي في الحرب ونحن متمسكون بالأمل. والولد البكر لأكبر أولادي قُتل أيضاً. وهم معي في العربة لأنهم لم يعطونا الفرصة لدفعهم... والأطفال الذين في العربة ممن تركوهم لي. أيّ أمل بقي لنا في الدنيا؟ لماذا لم تصالحوا القيصر؟ ألم تروا مأساتنا؟ أنا من تناقشك، أنا عجوز آل تابج!

غامت عيننا حاترباي من الكلام المهين الذي وُجّه إليه. نظر إلى جيمس وانتفض برأسه. وارتحف حصانه الذي شعر بالحرارة التي سرّت في جسم راحبه ففرد قوائمه وانبطح. شدّ اللجام فعاد إلى وضعه. وأجاب وهو يواسي نفسه:

- يا عجوز آل تابج، أفهم ما يمزق نياط قلبك. ليفهم الله حزننا وألمنا! وهل يسمح لنا القيصر الذي تأتين على ذكره أن نصالحه؟ حتى لو قررنا مصالحته ماذا كان سيكون موقف أسرتك التي سقط أفرادها؟ وأُسْرُ الآلاف من الشهداء الأديغة الآخرين؟

- هؤلاء كانت إمكاناتهم الوحيدة أرواحهم فقدموها لنا. ولكن الأديغة اليوم ليسوا في الموضع الذي يُضَحَّى فيه بالروح كما فعلوا. والبجدوغ والجمكوي لم يفترسهم القيصر. ولو صالحتموه لما أكلنا نحن أيضاً...

- الأديغة ليسوا في موقف يركعون فيه على رُكبهم للقيصر يا عجوز آل تابج!.. لم يستطع تسي الآن كبح صوته.

- أفضل الركوع على فناء الأديغة يا زعيم الأبخاخ! لا تخربوا بيوتنا بهذه الحجة!
- تعالي يا عجوز آل تابج!.. - خرج جامبوت من بين المسنين ونصح العجوز. - اصبري، كلامك صحيح، المخرج الوحيد للأديغة هو الصلح... ولكن تسي لن يسمع مهما قلت له. الرجولة الأديغية الزائفة التي لم يبق فيها فائدة سدّت أذنيه...

...

كان الأبخاخ شرفوا تسي حاترباي بالزعامة لرجولته التي لا تتزعزع. حتى القوزاق كانوا يدركون قوته. وليس قليلاً ما سفك سيفه من الدم. وليس قليلاً من سقط برصاصه من الأعداء!

في الأشهر الأخيرة الماضية يرى حاترباي أحلاماً مزعجة - يسقط في مضائق الجبال ويُفنيق والعرق البارد يتصبب على جبينه عاجزاً عن الصعود. والمأساة تحرمه من حلاوة العيش. يتقاذفه موج الأفكار التي لا نهاية لها. وتنتصر الرجولة على الحكمة رغم إرادته. ويمد يده إلى السلاح أكثر مما يفكر بتعقّل. لا يشخص أمام عينيه إلا الرجولة الأديغية وحرية الطيور البرية. ورغم خديعة الدول الأجنبية فإنه يتأمل ما سيقدمه إليه الغد.

كان حاترباي يظل يردد: "صاحب القلب الشجاع والعقيدة هو المنتصر في الحرب" ولم يكن هذا مجرد كلام في حياته، لم يكن ليؤثّر جهداً من أجل حرية الأديغة شعبه، ومن أجل حمايتهم.

ما الذي جرى لتسي حاترباي اليوم؟ ما جرحه ليس ما عيّرت به عجوز آل تابج من كلمات، مع أنها كانت قاسية عليه طبعاً. بل ما قاله العجوز جامبوت "تسي لن يسمع مهما قلت له. الرجولة الأديغية الزائفة التي لم يبق فيها فائدة سدّت أذنيه..." هو ما جرحه. ثم إنه لا يسمع هذا للمرة الأولى. يرميه به الناس الهاربون من الجحيم كأنهم تهامسوا به في ما بينهم. يتهمونه بأنه السبب في نكبة الأديغة وفناء القوم. هذا هو إذن ما جعلهم يقولون: معروفي انقلب عليّ نحساً... وليس صحيحاً أن تدّعي حمايتك الرجولة برأس الخنجر وحده. عليك أن تملك لساناً يحميك بعد أن تعجز رؤوس الرماح... هذه حكمة لم تترك لي الرجولة الأديغية الفرصة لأفكر فيها...أىكون في كلمات العجوز نصيب من الصحة؟ لماذا أتابع حياتي إذن؟ عرق الأديغة يبيد والبلاد تُستباح...

العزة المجروحة لتسي حاترباي دفعته لأن يهزم بطن الحصان بقدميه همزاً عنيفاً مما جعل الحصان يقفز. رفاق الزعيم الأبراهيم تبعوه ولكنه أشار إليهم بيده فأوقفهم. حين اختفى حاترباي في المنعطف قيم بنفسه حياته وصبره... سُمع بعد طلقة المسدس صوت الحصان، والجنّة رآها من لاحقه كالوادي الذي تفور مياهه من قعره...

مهما بحثوا عن زعيم الأبراهيم لم يجدوا جثمانه.

VII

كان واضحاً لقرباتر أن قضية الأديغة خاسرة أيضاً في الناختواي. ولكنه لا يكشف لأحد عن سبب القلق الذي حرمه النوم كثيراً من الليالي. ومع أنه يعرف الآن أن رسالته إلى القيصر لا خير فيها فلن يتسبب في المبادرة إلى السلاح دون أن يعني هذا عدم الاستعداد للحرب. ولكن الناختواي الأقرب إلى إيكاترينودار، المعرّضين أكثر من الشابسغ سكان الجبال، إلى الحرب، عاشوا دائماً مستعدين للحرب، ولذا أرسل الكثير من المبلغين إلى القرى يوصيهم بالهدوء والصبر.

لم يوافق قرباتر الداعين إلى عقد مؤتمر لأن المغزى من عقده سيصبح واضحاً للقيصر الذي لم يُجب. بل إن القيصر اتخذ بغضٍ النظر عن المؤتمر ذريعة من

كلام تسي لينقذ تهديده. وقربا تر لم يكتم كتابته للقيصر. وقد باح بنيتّه في جلسة البرلمان الصاخبة. ولم يكتف بهذا بل أرسل إلى زعامات الأبراخ والوييخ والبدجودغ والجمكوي والبسلني. وتجاوز هؤلاء فنشر الخير في الصحف الروسية والتركية والإنجليزية. والجريدة التي تصدر في شنته قاله، والتي فيها الخبر، أمامه. لن يستطيع قيصر روسيا إخفاء إبرة الأديغة المسنونة في جيبه. لا بد أن يجيبه راضياً أو كارهاً.

- ولكن يا قربا تر، - قال تيم، - هل تقعد في اليوم الذي يبيد فيه الأبراخ؟
- ماذا تريدني أن أفعل يا تيم؟ وفونفيل أيضاً كان أرسل إليّ على عجل وأنا في الوييخ لهذا السبب. - كان قربا تر جاهزاً للسؤال منذ زمن بعيد فأجاب جواباً فظاً.

- يا صهر أنا لست حمأ فقط، - احتدّ تيم، - أنا من عمر والدك، لا تقارني بفونفيل الغريب!.. مضى عهد طويل على الوقت الذي يجب عليّ فيه أن أتقاعد بسبب العمر. ولكني لم أكن قادراً على هذا والأديغة يمرون بهذا الظرف العصيب، فحملني إليك قلقي، لا قرأتي.

- ساحني يا زعيم الخير، - ارتفع قربا تر عن المقعد احتراماً، وأوماً إيماء تقدير.
- تجاوزنا هذا الآن... ما أريد أن أقوله شيء آخر: الناس لا يفهمون قعودك يا قربا تر.

- من هم؟ قل لي أسماءهم، دُلّني عليهم!

- سأقول أسماءهم: الأديغة!

- هؤلاء موزعون على أعراق كثيرة.

- ما الذي أسمعه يا قربا تر؟

- لماذا تستغرب أيها الزعيم المبارك؟

- هناك يسيل دم الأبراخ، وأنت هنا تتكلم على أعراق الأديغة!..

ارتسمت الجلسة الأخيرة للمجلس من جديد في عيني قربا تر. في غمرة فرحه بتأليف أول دولة أديغية تُوجد أعراقهم انفجر الخلاف غير المعلن تماماً بين هذه الأعراق فجأة. تصارعوا في المجلس تحت ستار الأسن والأحدث سنأ. والمهمة

التي رشحه الناس لأجلها أنزلوه منها درجة. واستطاعوا تجاوز مشروع الصلح الذي بدأ به قرباتر.

هذه الأمور يعرفها تيم. وقد ساهم فيها بنفسه. ولم ينحز إلى أيٍّ من الطرفين. وظلّ متردداً في المشروع الذي تبناه قرباتر بسبب تحجّجه من عزة نفسه ومن شعوره القومي. ولكن المأساة التي تدفقت على أرض الأبخاخ غيّرت نظره إلى الأمور. لا يجد من اللائق أن ينحاز إلى آل زانه أو يوافق الروس الذين هو منهم. كيف يستطيع أن يقترح مصالحة الذين ظلّ يلوح لهم بقبضته مهدداً منذ شبابه وإلى شيخوخته؟ كان القيصر الروسي لطيفاً في الكلام، ولكنه لن يتورع عن شيء كما قال هو بنفسه. القيصر قوي جداً بالقياس إلى السنوات السابقة، ولا أحد يستطيع الوقوف في وجهه.

نظر تيم إلى صهره. يرى في وجهه وضحكته وطريقة كلامه كثيراً من والده سفرلي. صحيح ما يقال إن من أشبه أباه ما ظلم. ولكنه لن يستطيع أن يقول هذا عن رفعت. تبين عن شخص آخر لم يتوقعه البتة. لم يكن بين الأب وابنه إلا بضعة خطوات حين التقوا بالقيصر. ولكنه لم يقترب منه. والحق أنه كان يكفي، ولو لم يدن منه، أن يتنحج، أن يعرّفه نفسه بأي طريقة. ها هو قرباتر لا يغيب ذكراً والده عن أيٍّ من أحاديثه.

- من المسؤول أيها الزعيم المبارك عن سفك الدم في الأبخاخ الذي تتكلم عليه؟ نعم، نعم يا تيم، إن كنت تتذكر فقد اتخذ القيصر ذريعة في آخر جلسة. الأكثرية وافقوا تسي.

- لماذا حدث هذا يا قرباتر؟

- أنفوا أن يحنوا رؤوسهم أمام الأعني منهم.

- هذا صعبٌ علينا، نحن الأديغة، يا قرباتر.

- الأديغة في مثل هذا الموقف وإن كان صعباً.

- وأي موقف كنا فيه البارحة يا أمير؟

- اليوم وضع آخر تماماً بالقياس إلى الأمس يا زعيم الخير... بالأمس كانت روسيا خرجت للتو من حرب نابليون فرنسا، وكانت تخوض حرباً مع تركيا. وكان أمامها الداغستان والشيشان، والحرب مع الإمبراطورية النمساوية المجرية.

وكانت فتنةً في بولونيا. والحرب التي شنتها عليها تركيا وإنجلترا والقرم؟ لا يفتقر الأدبغة إلى الرجولة ولكنهم كانوا يحتمون هؤلاء. والآن بمن نحتمي؟ بجيمس بيل أم بخروزر أم بفونفيل؟ هل تعرف قصة خروزر؟ ما إن سقطت قذيفة من جيش القيصر حتى حنى أدار ظهره وعاد إلى تركيا.

- ويقال إن بيل اختفى من الأبراخ، - أضاف تيم.

- ربما عند صديقه برزج؟

- ويقال إنهم لم يروه في الوبيخ أيضاً.

- إذن لا أشجع من فونفيل بين هؤلاء الثلاثة!

- هذا الرجل قلبه مفتوح للأدبغة أكثر من غيره لولا أننا لا نقدّره. مرّ عليّ العشية في طريقه إلى الأبراخ العليا، وقصّ عليّ خبرك... نعم يا قرباتر، نستطرد من موضوع إلى آخر. ومع ذلك لا أوافقك على ما تقول إن أطعني. الأبراخ ينتكبون هناك، وهنا الناختواي في راحة. عُذْ إلى وعيك، النار الروسية ستصلك أنت أيضاً!..

- إن كان القيصر صادقاً يا زعيم الخير فسأنتظر ريثما يردّ عليّ وإن كانت ناره ستصلني.

- أنت تخدع نفسك يا قرباتر.

- تحلّ بالصبر يا زعيم الخير، الصبر!

- والله يا قرباتر تذكّرني بالمرحوم سفري... العالم يحترق والأدبغة يختفون عنه!..

- سأقول لك ما قلتُ لموفد تسي قبل أيام ثم لموفد الوبيخ بعد يوم واحد.

- وهل كان أمثال هؤلاء الموفدين؟

- نعم. لا أخلو من الألم إن تأوّه أدبغي!.. ولم يحف الدم عن سيف زانه قرباتر الذي يجمي به أرضه. متى طلبتم مني رافقتكم إلى المعركة دون أن أسأل عن حياتي، ولكن هذا لم يعد مخرجاً للأدبغة!..

...

لم يبق لقرباتر من يحمل إليه همومه وقلقه حين تضيق به الدنيا إلا شخص واحد. قاسم زوجته ماريا هموم أكثر سنواته التي عاشها. وقع في مواقف شاقة كثيرة. ولكن لم يمر بمثل موقف اليوم؛ إن احتفظ به لنفسه لم يتألف معه، وإن

أبعده عن نفسه لم ينجح. وما المواقف التي كانت اختباراً لرجولته!.. متى جرّدت خنجرك فإمّا غالب أو مغلوب. وأيّ عاقبة اختتمت بها المعركة عدّرك الناس إذ أنك فعلت ما بوسعك. ثم إن من يموت تحت السيف لا يشيعونه بأيّ تعليق جافٍ، يكفي أنه لم يتخاذل.

عرف قرباتر اليوم الرعب لأول مرة بغضّ النظر عمّا يشبهه، فركب غير قادر على البقاء في البيت. ولما ركب الأمير تبعه ترام فقال له:

- لا حاجة يا ترام، غداً!.. سأروض الحصان فحسب...

ليس ما يقصده قرباتر وارتقاه تلةً قُماتر، بل الطريق القادم من إيكاترينودار. هذا الطريق، وإن لم يكن فارغاً تماماً اليوم، فلن يعجّ بالجيش الروسي قريباً. والمدافع التي يحتاج إليها الأديغة عبروا بها أعلى ذلك التل أمس وأول من أمس. ومرّت عليه وحدات الخيالة والمشاة.

مرّ أكثر من شهر ولم يأته الردّ على رسالته. سواء وافقنا الحّم أم لم نوافق فالقيصر خرج عن طوره. يصبح ثرثاراً معنا إن شاء، ويتصامّ عنا إن أراد. ينقُض مهلة الشهر التي أعطّاها قبل ثلاثة أيام كما فعل بالأبزاخ إن كان فيه فائدة له. يتهمون الجنرال إفدوكيموف ولكن الرجل لم يتصرف في الأبزاخ دون علم القيصر. وطرفنا؟ لماذا هذا الصمت منهم؟ عليّ قسطنطين المسؤوليّة في الصمت الروسي في ناحيتنا. ألسنّ أوّل من متّاهم بالصلح؟ أم يرتعبون في الجبل من الشتاء الذي سيعقب آخر شهور الخريف؟ أليست بلاد الأبزاخ جبلاً؟ في هذا الموضوع سرٌّ لا نعرفه. ما العمل، وما أملنا بشأن الأديغة؟ نجابههم، ونستغل الشتاء كما في الأعوام السابقة، ونقف أمامهم بالرجولة الأديغية المعهودة فنقاوم زحف الجيش المعادي نصف عام أو عاماً؟ ثم ماذا؟..

لم يستطع قرباتر تجاوّز المقبرة التي فيها والده. وقف أمام الشاهدين وكاشفهما بهذه الأفكار الأسئلة. ولكن ماذا يفيدك من لم يعودوا يعرفون آخر تطورات الحرب؟ خرج منها دون أجوبة سوى أنه نقّس عن ضيقه.

في المساء حين بقي هو والمرأة وحدهما حمل السؤال نفسه إلى ماريا. والعجيب أن المرأة سألته السؤال نفسه وكأنّها عرفت ما في ذهن الرجل:

- يمكنكم يا قرباتر أن تجاهوا الروس وتلجموهم بعض الوقت، ثم ماذا بعد؟

- أيّ "بعد" هذا؟ - كتم قرباتر ارتعابه مما سمع، وكرر كأنه لم يُكرّر هذا السؤال نفسه: - ما هو "بعد" هذا؟

- وبعدُ ماذا ينتظرنا نحن الأديغة؟ أهي الهجرة إلى تركيا التي تسري بينهم؟ يتقاطرون إلى الشاطئ ليلاً ونهاراً.

- لو عرفْتُ ماذا ينتظر أسرتنا الصغيرة وليس مجموع الأديغة... - قابل قرباتر ماريا بنظرة بلا جواب.

- إن قررتُم، النأتخوي والشابسغ، مصالحة الروس يا قرباتر فسنحافظ على أسرتنا الخاصة. هذا الصلح يحتاج إليه الآن الأبراخ والوبيخ. وسيشكركم الروس والأديغة.

- إن كنت تتأملين أن يشكرنا الروس فأنت مخطئة يا ماريا. لا تنسي أن ما فعله الروس بالإمام شامل ونائبه مُحمد أمين بانتظار آل زانه. لو قمْتُ بواجبي فصالحْتُ الروس، ولو منحوني حياة الجنة، فلن أدع الناس يسخرون مني تاركاً إياهم ينقلونني إلى بتريف. أفضِّل عليه الموت أو الهجرة إلى تركيا. تأملت ماريا زوجها بوجه مذعور، ولم تُجِب.

...

لا يفترق الشر والخير في الحياة. ومن ينسهما يخرجان له أحياناً من الزوايا الخفية للحياة، كلٌّ حسب سلوكه، مذكِّرين إياه بهما. وربما هذا هو السبب في أن الناس يقولون: من يفعل الشر لا يجن الخير. كل الناس يرون بأعينهم أن الجيش القيصري يحمل مأساة الأديغة مستخلصاً إياها من الشر. ولكن الناس الذي هم من قوم الجنرال الذي حملوا المأساة ولم يخطر لهم أنهم يدمرون حياة شعب واثقين أنهم يخدمون قومهم، ومن يتجاهلون سلوكهم المحزن، ومن يعيدون التفكير في ظلمهم، ومن يُفنيهم حيائهم وتبكيتهم لأنفسهم، كل هؤلاء ليسوا قلابين. ولكن كلاً، مُخرجاً من عهده أمام سلطانه، وما يفكر فيه في سره مختلفٌ عما يفعله جهاراً، كان يريد الاحتماء وراءه... ومن أين كان للجنرال كوخارين المنتمي إلى قوزاق ما وراء نهر بشزه أن يخرج من هؤلاء؟!

الجنرال العجوز كوخارين يعقوب بن غيراسيم واحد ممن أثبتوا برجولتهم في حرب القفقاس، ولاسيما في إقليم الأديغة، صدّق تعهدهم أمام القيصر. ابتداءً

حرب الأديغة قوزاقياً من عاصمتهم، فوظّف سيفه الفولاذي للحرب حتى اكتسب رتبته. وأمضى سنين عديدة على صهوة حصانه لا يعرف الرحمة ولا التراجع. وما أكثر القرى التي داهمها فجأة في الأبراخ والناخوي والجمكوي فأحرقها... لا ينسى كوخارين إلى الآن قرية تحقوه حابله وإن كان أحرقها كسائر القرى... ما الذي لا يفارق الخيال والذهن؟ أهو الرعب من النار المتطايرة من القرية الكبيرة في ظلمة الليلة الخريفية، أم هو بكاء الأطفال وعويل النساء المتزامن؟ أم رفق العمر الذي وقف على أبواب الشيخوخة القلب؟ أم غيّرت حياة الأديغة الأبرياء الذين حشد القيصر جيوشهم حوله طريقة تفكيره؟ ما الذي جرى الليلة للجنرال كوخارين يعقوب غراسيموفيتش؟ أهو غياب شمس الخريف الصفراء - الحمراء وراء الجبل أم قفزات العربة السريعة التي يمتطيها ما يهيج ذكرياته المتناثرة؟ ومرتفع "سلطان" عند غابة التنوب الواسعة... وقلاع أورغينسك وأفيس... ومضيق فُجيس... وأعالي شتّحاله... ووادي مامرقوه... وبسباي... أقليل ما أحال من قرى الأديغة رماداً، حاملاً سيف القيصر؟ أي عرق عجيب من البشر هؤلاء؟ تراهم قوماً مشتتين في السلم، ومقاتلاً واحداً في الحرب. يضحي بحياته من أجل أرضه ووطنه... استسلم الشيشان والداغستان في حين ما يزال سيف الأديغة مُشَهراً.

العربة القوزاقية السريعة تمخر عباب المساء الصاحي. ولا يتخلف عنها الفارس حارسها الوحيد. يلتفت العجوز كوخارين إلى صهره ويسأله:

- لماذا لا تقول شيئاً يا جيرمان فيلغيلموفيتش؟

- لا شيء عندي يا يعقوب غراسيموفيتش، - يتأمل الكابتن الركن جوهانسون وجه حميه. ويسكت لحظة ثم يضيف: - أنا مهموم بنوايا من يستدعونك إلى ستافروبول.

- نواياهم، - سرت ابتسامة خفيفة على وجه الجنرال العبوس فارتعش الشاربان الأبيضان، - سيقولون لنا: تسمحون للأديغة أن يقتلوكم.

- إن كانوا رجالاً حقاً فليأتوا وليتصدوا لهم!

لم يجب كوخارين. وتنهّد هو يراقب الشمس التي لا يزال طرفها بادياً. وشعرا بأن ظلام الخريف يلاحق عجلات العربة. وبعدما مشيا مسافة في المضيق قال الجنرال:

- حلّ الظلام سريعاً... - وبعد قليل أثبت كلامه، - هذه علامة النهار الخفيفي القصير.

- لا شيء يُخيف متى خرجنا من المضيق وارتقينا المرتفع.

- يا جيرمان فيلغيلموفيتش، - ضحك الجنرال، - ماذا أسمع؟ هل أصابك الهلع؟ لا أقصد بما قلت شيئاً من هذا.

- أفهم يا يعقوب غيراسيموفيتش، ولكن لن نكتم أن أرض الأديغة خطيرة... الفارس الحارس الوحيد قليل على جنرال مثلك. كان عليك اصطحاب بضعة رجال من القوزاق.

- يا جيرمان فيلغيلموفيتش، - يتعجب كوخارين، - أليس عيباً أن يروني محاطاً بالرجال القوزاق؟ ماذا أقول لك؟ ليس القوزاق فحسب بل الأديغة الذين في بالك سيسخرون مني... ما أفكّر فيه شيء آخر يا جيرمان فيلغيلموفيتش. هذه الحرب التي لا نهاية لها... يهلك فيها من الطرفين كثير من الناس خلافاً لما تصوّر القيصر... والأديغة هم من يدفعون الثمن الأعلى... ماذا يضيرنا إن عدنا إلى وعينا يوماً ما؟

- الحرب تمضي إلى نهايتها...

- واضح أن الحرب تمضي إلى غايتها... ولكن قرار القيصر طرّدكم من أرضهم مبالغة في الظلم... أنوي أن أصارح من نساfer إليهم في ستافروبول بمرادي إن فهموني.

- ولكن...

صدمت الوقفة المفاجئة للعربة الجنرال والنقيب أحدهما بالآخر، وسُمع صراخ السائس. وتبعته طلقاً مسدس. قفز كوخارين من العربة ولكن طلقته استعصت في المسدس. ورثما لثمه بطلقة أخرى جرحت طلقة الأديغة يده. ومزقت الثانية عضلة فخذه. قُتل السائس والحارس، وحملت مجموعة الأبراخ التي يقودها قراؤد

برزج الجنرال والنقيب بعد منتصف الليل أسيرين على حاركي حصانين، وأودعا بيت هارون ناشخوه في قرية قاي حابله الواقعة في مضيق مامرقوه.

- هذا هو الجنرال كوخارين الذي أسرناه، - قال قراؤد لرفاقه الثلاثة، - جنرال كبير... ارتكب في أرض الأديغة مجازر كثيرة، يستحق أن يُقَطَّع إرباً إرباً. ولكننا لن نفعل هذا. إن كانت قيادته تقدّره فليفتدوه، ليبادلونا إياه بأسرانا!

بعد ثلاثة أيام من أسر كوخارين عرف العقيد ألكين قائد جيش إقليم لاينسك مكان الجنرال فأرسل إلى قاي حابله اثنين من معارفه: حجمقوه شوماف ووُجُشَقُوهُ مُجَد.

- هل جئتم بفدية الجنرال؟ - سأل قراؤد الضيوف الأديغة وسطاء القوزاق بعد ما أدى لهم واجبات الضيافة.

- لا تستطيع أسرة كوخارين أن تجمع ستة آلاف سومة فضية، - أجاب حجمقوه شوماف.

- لماذا جئتما إذن؟ - سألهما حَكْرُنُه ناشخه.

- جاءت بنا أديغيتنا.

- الأديغة لها معانٍ كثيرة يا ضيف، - ضحك قرواد، ثم أضاف بصوت حازم وقد تغيرت سحته: - لا تشمل الأديغة الناس المحرومين من الإنسانية والذين جاؤونا غازين! هذا أمرٌ، والأمر الثاني: نحن لا نطالب أسرة الجنرال بدفع الفدية. ليدفع القيصر الذي حارب من أجله سنوات طويلة!..

- وجرى الكلام في هذا... - أبان وُجُشَقُوهُ مُجَد ما عنده بعض العلم به.. - قيل إنهم أجابوهم بالرفض...

- والله ما يجري عجيب! - صرخ قراؤد. - إن كنتَ لن تقدّر من يحارب من أجلك، ويجلب لك الفخر في ساعة شدّته، لا أعرف إذن ما يجري... نحن سنحترم الجنرال ونكرّمه وإن حاربنا... ولكن الأمر لا يتعلق بهذا، يجب معاملة الإنسان بالإنسانية. بلّغوا من أوفدكم هذا الكلام.

بعد هذا اللقاء بأربعة أيام، في السابع والعشرين من أيلول عام 1862 مات الجنرال القوزافي، أسيرُ الأديغة كوخارين يعقوب غيراسيموفيتش. وسلموه مع

رفيقه النقيب جوهانس إلى ابنه الأكبر ستيفان كوخارين. ودُفِن حسب شهادة
من رأوه في السادس من تشرين الأول في مقبرة إيكاترينودار...

VIII

عاد حصان تيم نيكراس إلى الدار والزبد يسيل من شذقيه. واستقبلت سماي الرجل:

- قللنا عليك يا تيم في هذه الأوقات الخطيرة، من أين تعود؟
- أسأليني أين لم تكن!.. يا عليمبج غطّ الحصان المتعرق بالكساء. لا تسأليني يا سماي، حانت نهاية الأديغة. تجري مأساة كبيرة على ضفة نهر بُشْكَه!.. والوضْع في الأبراخ العليا سيء. الأديغة مندفعون إلى الهجرة إلى تركيا. هذا ما استطاع الروس أن يفعلوه بنا.

- يا لمصبيتي!.. ماذا سيكون مصير أسرة ابنتي؟.. ورفعت؟.. - سكنت سماي عما كانت تريد أن تقول عن ابنها حين نظر الرجل في وجهها.
- وماذا سيكون مصيره ومصير أسرة ابنتك؟ كمصيرنا ومصير الأديغة... وصلت اللحظة من قُماتر.

- ما أخبار ماريا وأسرتها؟
- في مؤتمر الناختواي، - لم يكن تيم عابثاً بسؤال زوجته، - تخلى صهرنا عن الزعامة.

- يا للمصيبة، وماذا سيكون مصير الناختواي؟ - عادت سماي فجمعت سؤالها الأول إلى الثاني.

- إذا كان صهرنا يقول إنه كان ينوي مصالحة روسيا أفلم يبق في الناختواي رجل جدير بالزعامة؟

- ربما أساء الناختواي إلى صهرنا...

- لا، تفهّموا الموضوع الذي طرحه أمام المؤتمر. وتكفّلت المجموعة التي ترام أسرُ رجل فيها بمسؤولية الزعامة. وفي جميع الأحوال تحلّى صهرنا بالرجولة، فتوجه إلى المعركة مع فرسان العامة حتى لا يوصّف بالجن.

- يا للمصيبة!..

- كفى!.. أيّ كلمة علقث على لسانك! ليكن في قلبك الخير له، ادعي إلى الله من أجله. لا يُسأل أمام الرجولة عن أمير وصهر وفلاح. نسيت، يا عليمبج، لماذا لا تقول شيئاً يا ولدي؟ هل أرعبك الروس؟

ابتسم عليمبج مرتاحاً إلى أن سؤال جده خالٍ من الصحة، ولم يعلّق بشيء. دخل عليمبج إلى غرفة جده بعدما تناول الأخير الغداء.

- تعال يا ولدي، تعال، - نظر إليه تيم بوجه طلق، - أطعمتني جدتك غداء طيباً، ربما كنتُ جائعاً. من أين تأتي بمثل جدتك يا ولدي؟ تجد فيها الراحة والراحة، - تفحص عليمبج كأنه يراه اليوم أول مرة. شابٌ رشيق طويل عالي الكتفين. يرى فيه تيم شيئاً منه غير أن قلبه هو والده رفعت. هكذا جرت الأمور، قال تيم، كبر والد هذا الشاب ونحن غارقون في قضايا الأديغة، وانحاز إلى الروس، فرمى في أسرتنا جفاء دائماً وعتاباً لا ينتهي. وهذا الحفيد صار في قلب الرجال، والآن وقت مجيء حظه ولم ير يوم سعد في حياته. وما هو الآن بدلاً من أن يفكر في الزواج والأولاد صار شاهداً على مأساة الأديغة. تنهد تيم عميقاً فصحا بسرعة، فلم يملك إلا أن يتكلم على ما يهمه من أجل ألا يدعه يلاحظ أفكاره الثقيلة: - والله لا أعرف كيف سيهاجر هؤلاء الأديغة إلى تركيا. كيف ستعيش في بلاد لا تعرفها ولا يجمعك بها إلا الإسلام؟ لا أعرف، ليرحمنا الله، جواب هذا السؤال... وإن نصحتهم ألا يفعلوا قالوا: البيلسان يُزهر وكلُّ يعود إلى أصله، ولن يفهموني!.. أظن بعدما وصلت الأمور إلى هنا أن المشروع الذي طرحه قرباتر بمصالحة روسيا كان أفضل من سواه. ولكن لا أصدق أن لا علاقة للقيصر بالهجرة إلى تركيا. أظن أن هناك اتفاقاً سرياً بينه وبين سلطان تركيا.

- وفي دخاباه قريتنا من له هذا الرأي يا جدي. - لستُ مخطئاً إذن يا ولدي... - لم يُخفِ العجوز تيم هذه المرة عن عليمبج تنهؤه. - متى تحالفت دولتان لم تحتما بك في شيء. - ربما تخلى قرباتر عن زعامته لأنه فهم هذا الموضوع، - باح عليمبج بما كان يشغل باله.

- لا يا ولدي، لا أظن هذا السبب. - حين ترك قرباتر المجلس كان صادقاً في القرار الذي حمل مؤتمر الناقحواي على اتخاذه والقاضي بمصالحة روسيا. لا ينكت بوعده كقيصر روسيا. وهذا أعدّه رجولة منه وأوافقه عليه. ثم إنه لم يُعتمد

سيفه. حسناً وكيف لي أن أعرف ما في نفوس آل زانه؟! وأخبرتني عمتك أنها لا تعرف شيئاً.

- لا تؤاخذني يا جدي، قرباتر لا يخون قومه كما فعل والدي. انتفض تيم برأسه، ثم خفضه خجلاً:

- حياك الله يا ولدي... لا ألومك...

لا يتذكر تيم زماناً ثقلت عليه شيخوخته كما في هذه الأيام. ليس نيكراس من الذين عاشوا حياة عزٍّ ودلال. وقع في مواقف كثيرة عرف فيها قيمة التعب والفرح. وليس قليلاً ما سببه له نسبته الروسي من مشكلات. وهذا هو السبب في مبالغته في أدغيته خوفاً من أن يُعزى شيء من سلوكه أو كلامه إلى أصله الحقيقي. ومهما تصرف معه خصومه فقد أخلص للأرض التي اختارها له والده ميشكا. ولو لم يكن يعرف ما كُتب على جبينه فالقليل الذي بقي له من عمره سيعيشه كما عاش ما مضى منه.

لا تقلق يا والدنا من هذه الناحية، قال تيم واقفاً أمام الله يصلي الظهر، ثق بي، لن أسبب لك الحرج ولن أخذلك. وثق بالصبي عليمبج؛ ربيته مخلصاً لأهله. والوحيد الذي لم يسمع كلامي هو رفعت... وما سمى به نفسه هو رومان تيموفيتش... يسفح دمه ودم الأديغة بعدما انضم إلى أحباب جدته المرحومة. ولا ألومه، ولا تلمه. ربما كان مكتوباً له هذا المصير. اليوم حالنا سيئة، نحن الأديغة، دون استثناء أحد يا إلهي. لا تغفل عنا، واشملنا برعايتك. إن كانت الهجرة إلى تركيا بعلمك فلن أتكلم عليها، وأتقبلها. ولكن إن كنت لا تعرف فاغفر لي، لا يعجبني سلوك من تهجرهم أرضهم. أفهم أن هناك خطراً من الكفار ولكن من جهة أخرى لا يأكل الإنسان إنساناً. وأنت من يقول إن الناس عندك سواسية. رقق لنا قلوب الأديغة الذين طغت على قلوبهم فكرة ترك وطنهم، ولا تسمح لهم بالخطأ. وارحم من اخطؤوا إن كانت عندهم نية العودة. أفهم أن الشباب من أمثال رفعت لا عودة لهم. ولكنه من صلي، فاغفر له إن كانت لا تزال فيه بقية من خير، كرمي لي أو لصغيره أو لأمه أو للمرأة الروسية التي قضت على أيدي المجرمين؛ فمن يعرف ماذا بانتظارنا نحن أيضاً. النار الروسية تحرق عالم الأديغة السوي... ليس لأن الجبن غلب الرجولة والشرف

الأديغيين، ولكن الكثرة غلبت الشجاعة، فالدولة العظمى تلتهم البلاد الصغيرة...

لم يستطع تيم البقاء في البيت بعد الصلاة. دار في القرية وقابل بعض المسنين الجالسين إلى زاوية أحد الأسوار. وأثاروا من الأسئلة أكثر مما سألهم هو. وعصرت قلبه أصوات مناحات من قضوا في الحرب من أهل القرية. وفي زاوية الحظيرة الأخرى تأتي عربة ثيران يتبعها ثلاثة فرسان. نهض الجالسون، وقال أحدهم:

– جثماناً آخرُ أيضاً؛ دعونا نستقبلهم.

كان في دخابه ستة وثلاثون مأتماً فدار عليها تيم حتى المساء. وما إن دخل البيت حتى ارتفع صوت مناحة في حيّهم. زار آل نيكراس الثلاثة: تيم وسماي وعليمبج أهل الضحية.

وفيما تيم خارج من بيت الجيران وقد تأخر الوقت ليلاً سمع المناحة التي ارتفعت في أعلى الحي. وبعد عدة دقائق سُمع غيرها من وسط القرية، قال: ارحمنا يا إلهي، أياكون جرى مكروه لرفعت... لم يملك إلا أن يقول رغم كبجه عواطفه: أين يأخذون جثمانه؟ ومن يخبرنا؟..

وفي الصباح قال تيم بعدما صلى، وعلّق على الجدار سجادة الصلاة المصنوعة من جلد الماعز:

– تعال يا ولدي، تعال يا عليمبج. لا فائدة من قعودنا!..

– يا مصيبيتي إلى أين تريد أن تصطحب هذا الشاب؟! – تابعت سماي بعينيها الخارجين من الدار وهي تصلح وضع غطاء رأسها. – أين تذهبان؟

– أستحلفك بالله يا عجوز ألا تثيري ضجة حولنا!.. – أصلح تيم وضع سيفه على جانبه الأيسر، وركب. – سنذهب إلى حيث رجال القرية، إلى حيث يحمون الشرف الأديغي!.. اركب يا عليمبج!

– ابني الوحيد لا يزال يسيل الحليب من فمه!.. – أسرعت سماي إلى شفتيها. – نانا!.. – نظر عليمبج إلى جدته نظرة أمل. – أرجوك لا تدعينا نخرج وأنت تتابعينا بنظرارك.

نفذت سماي لعليمبج رغبة الاثنين وهي تدعو إلى الله ويدها على فمها.

لم يتبادل الفارسان أي حديث ريثما وصلا إلى مفرق القرية البعيد. وحين وصلا إلى مفرق الأبراخ - الناقحوي، ومنظر عربات الثيران التي تُقَلّ الجثامين والجرحى، والمهاجرين إلى تركيا يحزّ في قلوبهما، سأل عليمبج:

- إلى أي جهة سنتجه يا جدي؟

- أنا يا ولدي، إن وافقتني، لا أميز بين الأبراخ والناقحوي. هذه وتلك أرض منحنا إياها الله. سنتجه إلى حيث وُضِعَ الأديغة أصعب.

- المكان الذي يجلبون منه أكثر الجرحى هو مضيق بُشْكه.

- إن كنت ترى هذا فلنتجه إليه. وفرسان قريتنا دخابأه في تلك الناحية. إن التقينا بهم كان خيراً.

بدا مضيق بُشْكه عند الظهيرة تفوح منه رائحة الدم والبارود. واختلطت فيه أصوات الخيل وصراخ المتحاربين.

- أضبط أعصابك وثبّت قلبك يا ولد... - قال تيم وعيناه نحو ساحة المعركة خائفاً أن يرى في عيني الولد فرعاً، وأضاف:- إياك أن تهينني بارتعاشة خوف!

- كن واثقاً مني يا جدي!

اقترب المساء ريثما وجد تيم وحفيده فرسان دخابأه. وكان تيم مرتاحاً لمضي الوقت هكذا. وتوقف الطرفان المتجاہمان فجأة عن القتال، كأنه بأمر الله، فيما هو خائف على الشاب. ولم يكن يصدر من المضيق إلا أصوات العربات التي تجمع الجثامين وأنين الجرحى. وتبدأ تتلاشى رائحة الدم والبارود التي تبعث على الغثيان مع مساء الخريف. ورجال الأديغة الذين نجوا الساعة من القتال يجلسون في مجموعات حسب أعمارهم جاهزين لأي نجدة.

الحرب، حين تعتادها، كالحياة اليومية الاعتيادية ولو كانت مهلكة للبشر، وبداية للمآسي. الساعات المعدودة التي قضاها نيكراس عليمبج تساوي الثماني عشرة سنة التي عاشها. هو قانع بما قد يحدث له اليوم أو غداً أو بعد غد. لم يفارق أقرانه فيصفوه بالجن أو بالاحتماء وراء ظهر جدته. وهناك من هم أصغر منه سنّاً يتناوبون في ثلاث دفعات.

أعلن المؤذن موعد صلاة العشاء. صدر من الجانب الروسي صفيح استهزاء، وارتفع منه بضغ طلقات بنادق متفرقة. ولكن المصلين لم يقطعوا صلاتهم لهذا السبب.

وحين بدأ النوم يغلبهم نادى تيم حفيده وهو يبسط كساءه تحت الشجرة:
- تعال يا ولدي. ليجعلنا الله في عداد المسلمين الذين سيصبحون على خير. أماننا غداً يوم طويل. تعال نم أمام صدري، لا ورائي. هل تتذكر كيف كنت تدفني حين كنت صغيراً؟ دقّ صدري الحساس للبرد كما كنت تفعل آنذاك. لا تحجل يا ولدي. هل ترى هؤلاء كيف ينامون وكأنّ أمّاً واحدة ولدتهم؟ الحرب تقرب قلوب الناس بعضها من بعض، وتليّنهنّ. ادع إلى الله يا ولدي، سيسمّع فيرعاك ويحميك.

قفز الناس في الصباح من مراقدهم على إطلاق المدافع. وحملت معها أوائل القتلى والجرحى. كان آل نيكراس على قيد الحياة، وعلى حصانيهما ينظران إلى الجهة التي يجري منها الفرسان الروس.

- سيبدأ قراع السيوف، فابق على مرأى ومسمع مني يا عليمبج!.. اتبعني ولا تفارقني. الله حريص فاحرص على نفسك!..

يضج مضيق بشكّه بصهيل الخيل ووقع حوافرها، وصياح الرجال. الفولاذ يقرع الفولاذ، والخيول تنداعى، ورؤوس الرجال تتساقط. يقتل بعضهم بعضاً. يتبارز نيكراس تيم وفارس قوزاقي بالسيف. واختفى عليمبج عن ناظري جده. يحارب القوزاقي، ويقول له بالروسية:

- خذ يا قوزاقي، يا صاحب الغرّة؛ ارم نفسك على سيف الأديغي!

- كأنك تعرف لغتنا أيها الكلب الأديغي!..

- أعرف لغتكم أيها الكافر اللعين! - ترمي ضربة سيف تيم القوزاقي من سهوة الحصان. ينظر فيرى عليمبج دون حصان، يلاحقه فارس قوزاقي وهو يحمي نفسه بالسيف. - عليمبج يا ولدي!.. يطعن تيم وهو يجري بالحصان الفارس الذي يلاحق عليمبج في كتفه، وحين يلتفت من طعنه يصرخ: رفعت!.. يا ولدي!.. يا حسرتي يا ولدي المنحوس، من أين جئت في هذه الساعة.

وفي هذه اللحظة يقطع الفارس القوزاقي الجاري رأس تيم بضربة واحدة، فيسقط أمام عليمبج. يبقى عليمبج مختاراً بين والده وجده، لا يعرف من يساعد منهما. ثم يرحل قراغ السيوف عن ضفة بُشْكه كزوبعة تاركاً الفتى والجرحى. نيكراس عليمبج حاسر الرأس. وكساؤه على جسد جدّه. وفي حضنه رأس والده الذي لا يزال فيه رمقٌ. يفتح رفعت جفنيه، وينظر إليه بعض الوقت. ويتعرفه. ويسأله بالروسية:

- هل عرفتي يا أليكسي؟ أنا نيكراس رومان تيموفيتش... أنا والدك... نيكراس رفعت...

- نعم يا والدنا، عرفتك.

- هل ترى يا ولدي كيف قضيتُ تحت سيف والدي. في موقف غير مشرف... كان بودي أن تبْلُغ عني أُمي أن تغفر لي كل شيء. يا إلهي يا ربي ارحمني!.. - كانت هذه آخر كلمات نيكراس رفعت.

IX

بقي الأديغة على سطح البسيطة ليس لهم معين كشجرة برية وحيدة كسّرت الريح أغصانها ولم تجردها منها تماماً. وفتحت لهم تركيا بابها الإسلامي فتقاطروا إلى ساحل البحر الأسود. وبعدما مضت سنة ونصف من العذاب على صبرهم جاءهم ربيع عام 1863 بعذاب أكبر.

لم يحمل ربيع العام الجديد أي أمل للأديغة. ولا يهتم الجيش الروسي الذي تمرّس خلال عقود من الزمن بحرب الجبال إلا بالتقدم. ثم إن اقتراب حرب القفقاس التي مضى عليها عقود ودفع فيها مئات الألوف من الروس حياتهم من نهايتها يعطي أملاً واعتداداً بالنفس للروس.

لم يبق للأديغة إلا الله ورجولتهم. وكل يوم يمر عليهم تقترب منهم نار الحرب من الجهات الأربع. ولا يترك العدو قرية سالمة في الجبل إذ يحرقونها كي لا يعود إليها أهلها الملتجئون إلى الجبال. والأديغة الذين ليس لهم جيش منظم أو مدرب لا يزالون، مهما مارسوا من بطولات وجابهوا العدو، كما في السابق. يجتمعون صباحاً ويفترقون مساءً. وأكثر قياديتهم قضاوا في الحرب. ومن هزمتهم الشيخوخة ليسوا قليلين. واليأس يُحبط القلب ويفتّ في عضد الرجولة.

من جهة الأبراخ قضى تسي حاترباي ونيكراس تيم، وغيرهما ممن هم أصغر منهما عمراً. وحلّ زعماء جدد محل السابقين. ولكن لم يبق في إقليم الأديغة من تمارس عليه قيادة. والناس الذين يهربون وهم يحاولون التخلص من العدو وراءهم كانت تهدّثهم والسيطرة على بلادهم تحتاجان إلى وقت. ولم يكن أحد يعرف متى سيأتي هذا اليوم. وكان لا يزال يحتاج إلى ضحايا كثيرين ومآس عديدة.

والوقت الذي بدأ قرباتر يفكر فيه في هذه المسألة كان عندما تلقى آخر ضربة سيف في أواسط هذا الصيف. وكان فارق مسقط رأسه فُما تر يعالج ساعده الجريح في قرية أذربي مطارداً من الجيش الروسي الذي احتل معظم أرض الناختواي.

ليس هناك ما لا يخطر في القلب ويأتي إلى الذهن حين تخلو إلى أفكارك. الفرح والحزن والعتاب ومتداخلات. أيّ فرح يجده قرباتر في حياته؟ أيّ فرح إن استثنينا عهد الطفولة. الأديغة تنازّع على الرجولة. وحربٌ لا تنتهي، وجنازاتٌ وخسارة أصدقاء.

ماذا تحقق لي من أمنيات منذ وعيت؟ أهو مناداة عامة الفلاحين لي بالأمير؟ هذا لقب لم أحصل عليه برجولتي. أتى مع آل زانه. نادّوا بهذا اللقب والدي وجدي. لم يتحقق لي فرحٌ في ما أتذكر من حياتي. خدمتُ في الجيش الروسي وحاربْتُ لأجله، وليس قليلاً ما سفكتُ دم قومي. وحين عاد إليّ وعيي عملت مع والدي وانتقمت متحالفاً مع تركيا، ثم ترأّست مجلس الدولة في الجلسة الأولى. وفي الجلسة الثانية للمؤتمر أهانوني بأن انتزعوا مني رئاسته. وبعدها انتهت إلى آخر أفكار والدي فكتبْتُ إلى قيصر روسيا راغباً في الصلح. فأهانني الآخرُ بأن تجاهلني. وبعدها تخلّيت عن زعامة الناختواي شاركتُ العامة حياتهم فحاربت معهم في أعنف المعارك...

لم يجز لنا نحن الأديغة ما لا نستحقّ. بل أسغرب كيف لم ننقرض!.. لم نُعد التفكير في ذكاء والدنا ومُجد أمين وأخطائهما، ولم نستفد منها. ثم انتكبت الأديغة من وراء الرجولة المفرطة للمرحوم تسي. وما الفائدة من ذِكر برزج؟ منذ عهد والدنا والنائب، وإلى الآن، لم يهتمّ إلا بقضاياه الشخصية. لم يرث شيئاً من

رجولة والده الحاج برزج وإنسانيته. هُرع إليّ قبل أيام راجياً ألا نسمح للجيش الروسي أن تأتي من ناحيتنا فتقتحم أرض الوبيخ في الوقت الذي يهجر فلاحيه شيئاً فشيئاً إلى تركيا مصطحبين أملاكه. يقابل الجنرالات الروس سرّاً فيرشوهم ويتوسل إليهم أن يُمهّلوا قرى الوبيخ. نعم، نعم، الحق أن الحرب انتهت في إقليم الأديجة!.. كلٌّ ومصلحته الشخصية، وليس له ما يحمي به نفسه سوى سلاحه المشهّر.

وقرباتر لا يجوز أن يبقى في إقليم الأديجة. وإن بقي فلن يسمح له الروس المنتشون بالنصر بالإقامة فيه. ولهذا فالأفضل أن يستعد بنفسه كي لا يقع في الأسر. وليس له خارج أسرته ما يحمله أو يصطحبه. وهو لم يربح من قضية الأديجة إن لم يخسر فيها. بل إن الفلاح ترام أغنى من الأمير زانه!..

- يا ربي، هل تعرفون إن كان ترام رجوع؟ - نادى قرباتر فلاحى الدار.

- رأيث ترام هذه اللحظة يا أمير!

- نادوه!

دخل ترام الغرفة وحيّاً، ثم سأل:

- كيف حالّ جرحك يا أمير؟

- لا يزعجني، - قال قرباتر باختصار، وتفحص الفلاح الذي أجلسه أمامه بعين حادة قلقلة. والرجل الذي يكبره ببضع سنوات أثّرت فيه السنون، مشى وخطّ المشيب في لحيته وشاربيه. وانحنت الرقبة المتينة المنتصبّة. وسأله: - كأنك تخلد إلى الصمت يا ترام!

- لا يا أمير، قبل قليل ترجلث من الحصان.

- ما أخبارُ من فارقتهم؟

- يلجمون هجوم العدو يا أمير... يتعهدون أن يوقفوه إلى الخريف ولكنهم يحرقون الأماكن التي لم نتوقعها. ويسقط ضحايا من البشر. والله يا أمير لا يستحق ما يجري اسم الحرب... ما فائدة مجاهدة من لن تتغلب عليه؟!

- إن كان هذا رأيك يا ترام فلماذا يحارب الفلاحون؟

- يغطّون هجرة الناس إلى تركيا.

- ولكن الهجرة إلى تركيا تجري بمعرفة القيصر!

- نعم يا أمير!.. ولكن الأعداء يلحقون بمن هم في طريق الهجرة من مسنين ونساء وأطفال...

- إذن يا ترام هل نقعد نحن هكذا؟ متى سنركب طريقنا؟

امثقع وجه ترام. وأطرق برأسه. ثم رفعه عائداً إلى وعيه:

- إن كنت تقصدي بالسؤال يا أمير فلا تؤاخذني، طريقي ينتهي هنا. وإن أنت قررت وتأمل مني مساعدة فأنا جاهز على ما أقدر عليه. أوصلك إلى الساحل وأنتظر ركوبك السفينة...

- حياك الله، أنا في حالٍ تسمح لي أن أفعل هذا وحدي. أقول هذا لأني أعرف أن المرحومة حورية - مريم تركت لك أملاكاً تعينك إذا هاجرت إلى تركيا. وهذا أحد أسباب إسراع خروزر إلى هنا. سألني كثيراً ورجاني. وحين شهدت له بأن لا وثيقة من هذا النوع ارتاح خاطره.

- ذا أفعل بملكٍ ليس من عرق جبيني يا أمير؟ ما رفضت أن ألبّيه لمريم المسكينة حين سافرت إلى تركيا وأنا شاب، وفي صحتي مع المرحوم سفري لن أفعله أمام قبرها ولو أعطوني مال العالم!.. ولو عرفت، لو أخبرني الخبيث خروزر، لأعدت إليه الورقة تحت اسم شرفها والصدقة عن روحها!.. ما أسوأ ما حدث يا أمير! - أضاء الخاطر الوارد إلى ذهن ترام وجهه. - خذِ الورقة معك إلى تركيا وسلمها لخروزر. لماذا أحمل مريم ذنباً من أجل المال؟..

- يمكنني أن ألبّي لك هذا الطلب يا ترام. احتفظ به، الحال معقدة وصعبة. لا تعرف متى وكيف تحتاجه... وبشأن الهجرة إلى تركيا التي حدثتُك عنها فالعواقب أمامي كثيرة. ولكني إن لم أفعلها اليوم فسأندم غداً. ليست رجولة، ما العمل... ربما كل ما يحدث لنا نحن آل زانه مكتوب على جبيننا... إن لم تُنه روسيا الحرب في هذا الخريف في إقليمنا فلن تتجاوز ربيع العام القادم أو صيفه.

- لا تزال أماننا سنة كاملة على رأيك يا أمير؛ أَلن يفهمنا أحدٌ إلى حينها فنحتمي برحمته؟

- وهل أنت أيضاً تتأمل هذا يا ترام؟! - استغرب قرباتر ما سمع. - هل تستطيع أن تملأ قبضتك من الهواء؟ ما تبقى لنا من أمل نحن الأديغة مثل هذه

القبضة... بمن سنحتمي؟ من الصعب إيقاف رحي المطحنة الروسية - التركية... ما كنت أصدّق والدنا حين يقول هذا.

- والدك الأمير سفربي كان رجلاً ذكياً يتحلّى بالفهم والرحمة، - هزّ ترام رأسه مع حديثه ما يعني أنه مسرور لما يروي، - لم يوقّر جهداً من أجل الأديغة غير أنه فارق الحياة يائساً. وأنا سمعته يتكلم على تلك المطحنة الروسية التركية. ولكني لم أتخيل أن يطحنونا بين حجرها كما يحدث الآن دون أي شفقة. عشنا حياتنا نتشبه بالطيور البرية دون فائدة... سامحي يا أمير إن شططت في الكلام.

- مهما وصفنا أنفسنا فنحن نستحق. عشنا وأفعلنا لا تتطابق مع أقوالنا. ولكن عرق الأديغة انتكب على أيدي كل الرعماء الأديغة وأنا منهم.

- لا تقسّ على نفسك يا أمير إلى هذا الحدّ!..

- ما حدث للأديغة أفسى مما أقول!..

...

بلاد الأديغة مثلُ خلية نخل مكسورة. لم يبق طريق رئيس أو فرعي لا يؤدي إلى البحر الأسود. والإنسان المذعور يجد في نفسه قوة لا حدود لها، صحيحٌ ما يقال إنه يصرع كل ما يعترضه في طريقه. لا يعرف الأديغة الذين فاضوا فتجاوزوا الضفتين، وقوفاً أو التفاتاً. كل من لديه القدرة ومن ليس لديه ركب طريق تركيا. ومن لا يعرف من بينهم إن كانت تركيا قريبة أم بعيدة، وإن كان سيصل إليها أم لن يصل، أكثر ممن يعرفون. الله سيرحمهم إذ يعرف ما جرى لهم. وليس مهماً إن كانوا لا يعرفون لغة البلاد التي يقودهم إليها أو عادات أهلها وطبائعهم. يدينون بدين واحد، وأملهم أن يجدوا الراحة فيها.

والبلاد التي حموها آلاف السنين ويعجزون الآن عن حمايتها؟ وهذه الجبال، والغابات، وأراضي الفلاحة، والمراعي، والقرى المتناثرة على سفوح الجبال... والمقابر؟

ينهض إثرَ السؤال سؤال. وكلها بلا أجوبة. الفلاحون الذين يتخرجون من العار ومن العجز عن الثأر لا يطيعونك إن طلبت منهم وضع السلاح. وقرباير يعرف بشخصه هذا الأمر. لمحو له أكثر من مرة وإن لم يصارحوه. ولماذا

تذهب بعيداً؟ المشاركون في جنازتي نيكراس تيم ونيكراس رفعت لم يكن بينهم إلا هذا الحديث. وحين لمح حاغور نور مُجَّد إلى موضوع التخلي عن السلاح انتقدوه بعنف دون مراعاة سنِّه ورجولته.

وليتك تفحصت من لا يزالون ينادون بالحرب!.. محرومون من القوة والأمل. يتوجهون إلى طريق البحر، وهم يحمون أرضهم شبراً شبراً في طريق تراجعهم، فيدفعون أرواحهم حتى لم يعودوا قادرين على غير مراسم دفن موتاهم. ماذا ينتظر الأديغة في بلاد الغربة؟ الهجرة ليست سهلة على الفرد وعلى الأسرة، وفي حال الضرورة إن كنت وحدك وجدت زاوية ما تختبئ فيها من الخطر مهما قاسيت من مشاق. ولكن بأي رحمة ستستقبل البلاد الغريبة مئات الآلاف؟ والمشكلة أن الأمر متى وصل إلى حماية الحياة الشخصية ومقاومة الجوع تحول أحسن الناس نوايا إلى أسوأهم!

تحقق لروسيا، قال قرباتر، ما تريد تماماً. إن لم تسمعوا كلامي فإلى تركيا!.. هذا ما كان قاله لهم القيصر. كيف يمكنك أن تقول هذا أمام العالم إذا لم تكن الدولة الأخرى مطلّعة على الموضوع؟ هذا يشهد على أن بين الدولتين اتفاقاً سرياً. ويضاف إلى هذا أن الروس لا يعترضون طريق المهاجرين، بل يساعدونهم في تأمين السفن لهم. وسيجبرونك على الرحيل وإن لم ترغب فيه. يقولون إن الصقر متى أكثر من الانقضاض انكسر جناحه. حملنا سنوات طوالاً عبء ما لا نطيعه مأخوذون بالاعتزاز بالنفس، تمنعنا الرجولة من الإقرار بالحقيقة. مازلنا نتمارى ونتصارع في ما بيننا حتى نكبنا أنفسنا بأنفسنا. لا يظهر بيننا من يقول للراجلين: لا تخدعوا أنفسكم، ما تفعلونه عيب!.. وأنا معقود اللسان إذ لا مخرج لشخصي ولا لأسرتي إلا الرحيل. لا يجوز أن أماطل، سأذهب إلى حاغور؛ هل يدها مرطّتان وفمه مغلق مثلي؟

ما رآه قرباتر على طريق باستوك يتجاوز المأساة، حتى لو كان في الصدر حجر بدلاً من القلب لما تحمّل. الراحلون لا يدعون لك مجالاً لتمشي على الطريق. وترتفع على جوانب الطرق قبور من هلكوا عليها. وروائح الحيوانات النافقة من خيل وغيرها تفسد الهواء. والكلاب الشاردة تلاحق المواشي، ومن تصرعه منها تمزقه. الناس الذين انتزع الخوف من الروس ومشاق الطرق الجبلية الرحمة من

قلوبهم لا همّ لهم إلا النجاة بأنفسهم. يتنازعون على الطريق الجبلي الضيق. ولا يتوقفون عند من تعطلت عربته، يدفعونها إلى الهاوية. يتشاحنون ويتضاربون حتى إنك لا تصدّق أن هؤلاء كانوا بالأمس يحاربون العدو معاً...

أي مأساة جرت للأديغة؟ عصر الألم قلب قريباته. لم يبق فيه من القوة ما يعينه على النظر في وجوه المتلهفين على الوصول إلى البحر، ولا القلب قادراً على مزيد من التحمّل. قال لنفسه: كيف تسافر في مثل هذا اليوم العصيب؛ فعاد أدراجه. ولكن لم يجد من اللاتق العودة دون الوصول إلى ما سافر لأجله.

ترك قريباته طريق العربات واتجه إلى طريق أبعد وأصعب. وبعدما قطع عدة مرتفعات وعدة سهول، فاقترب من مفرق طرق بشدّه، وجد نفسه دون توقّع في زحمة أناس لا يعرفهم. وحالما ألقى نظرة على مجموعة الفرسان المعترضين طريق الناس رأى بينهم حاغور نور مُجّد. واستغرب أكثر من هذا رؤية راكيتوف بافيل بين الفرسان القوزاق الذين برفقته.

- إلى أين متجهون؟ من ينتظركم في تركيا؟ - يسأل حاغور الناس الذين يقف في مواجهتهم بصدر الحصان، ويحييهم: - نحن لا أحد يهتم بنا. الوحيد المحتاج إلينا هو الوطن الذي نتركه وراء ظهورنا!.. أنا كنت في البلاد التي يعدونكم بها على أكمل الجنة، ولم أر فيها شيئاً من هذا. لا تدفعوا بأنفسكم إلى الخطأ!.. إن كانت الجنة في قلوبكم فهي الأرض التي تتركونها وليست تركيا!.. انظروا إلى أطفالكم، وإلى أنفسكم، وأعيدوا التفكير!.. الأديغة وصلوا إلى جسر الهلاك. ثلّقون أنفسهم بأنفسكم في نار جهنم!..

- إن كان ينتظرنا مثل هذا، - يصرخ أحد المسنين، - فالله كتبه علينا!..

- أفضل جهنم المسلمين على جهنم روسيا! - وافقه آخر.

- إن كنت تتلهّف علينا إلى هذا الحدّ فلماذا تقف إلى جانب الكفار الذين تعترض طريقنا بهم؟ كفاكم خداعاً لنا وأنتم ترددون آل زانه والنائب وتسي وبرج!.. - ينهال عليه عجوز في المقدمة يهرّ طرف عصاه. ويوافقه أكثر الواقفين. - جابئنا رصاص العدو سنين طويلة متأمّلين أن يتفق زعماء الأديغة ويثوبوا معاً إلى عقولهم، وسمحنا لرماح الروس أن تتناوشنا. وفي النهاية، وها أنتم

ترون، بقينا في الميدان لا أحد يحميننا ولا أحد نأمل مساعدته!.. شكراً لتركيا، فتحت لنا بابها الإسلامي، وأرسلت لنا سُفُنُها.

- إن كان كلامي لا يردعكم، - ينكسر صوتُ حاغور، - فاسمعوا إذن كلام الضابط الروسي الموقد!..

- تقدّم راكيتوف رفاهه مسافة نصف قامة حصان:

- كلامي مختصر، - قال بأديغة ثقيلة، - هذه الحربُ حربُ سلب وإجرام. أقول هذا منذ اليوم الأول. لا ترحلوا إلى تركيا، لا تهجروا أرضكم، ولا تحوّلوها إلى وطن الأجداد والذكريات. الحرب تتجه إلى نهايتها. والقيصر ندم على طلبه منكم الرحيل إلى تركيا. وباسمه أقف أمامكم. وها هي ورقة تفويضه لي، - يُخرجها من جيب قميصه ويعرضها عليهم. - اصبروا، ولا تخطئوا!..

- هداً الواقفون. ودخل قلبُ قرباتر خوفٌ خفي على غير عادته. ثم سرت همهمة كان يتوجس منها بينهم. وبدأ بعضهم يصرخ من هنا وهناك:

- من هذا الضابط الروسي الذي يحمل لنا كل هذه الشفقة!..

- يطيب خاطرنا بعدما أحرق قرانا!..

- لا تردّوا على هؤلاء!..

- فهم قرباتر أن مسعى حاغور وراكيتوف بلا جدوى. ولم يكن يرغب في البقاء مزيداً من الوقت على جانب الطريق، ولا في مزيد من سماع المجادلات. أعاد قرباتر حصانه بسرعة متأماً من الكلام الموجه إلى زعماء الأديغة.

- لم يعد يرى الطريق الذي يسير عليه، والأفكار الثقيلة المتصارعة تصدع الرأس. وإذا كان الكلام الذي وجهوه إليه فلم يكن شخصه همّه بل والدّه من لا يفارق ذهنه. ما العمل إذن؟ كل ما تخدم به الأديغي يضيع متى خذلته مرة واحدة... من يحتملُ والدي ذنباً يكسب ذنباً!..

- وصل قرباتر عائداً إلى منزله مساءً. وحالما دخل البيت قال لماريا:

- لا يجوز أن نسوّف رحيلنا أكثر من هذا. سنرحل إلى تركيا!..

...

ركب قرباتر مع أسرته في السابع والعشرين من أيلول عام 1863 السفينة "تيغر" عند قلعة كونستانطينوفسك، وهجر أرض الأديغة إلى غير رجعة.

...

أفكار بافيل راكيتوف التي تُثقلها أكثر فأكثر أيام الخريف الرطبة تسحقه على ظهر حصانه. تحدث للإنسان في الحرب أمور كثيرة غير منتظرة. ولكن إذا حاولت تمييز الوقت الفاصل بين الرجولة والموت، إن كان طويلاً أم قصيراً، فإن فكرة تتصدى لفكرة، والآراء في الحياة التي لم تخطر قطُّ للمرء، دون أن تعرف مصدرها وسبب انبعائها، تُضعفك. ويحدث أن تعتدّ بها وأن تسبب لك الحرج. وإذا كان راكيتوف لا يعرف موقفاً يتحرّج منه فإنه يجد من العار أن يقضي أكثر عمره في حرب بلا نهاية. ولا يعرف إلى أي طرف من الطرفين المتحاربين ينحاز. والطرفان يُحرقانه.

من يجب عليه تقييم تردّد الإنسان، خيراً أم شراً، قال بافيل، هو نفسه، ولا أحد سواه. وقد مررتُ بمواقف كثيرة خلال سنوات خدمتي تحثني على أن أنقض عهد الضابط أمام القيصر، ولكنني تابعتُ خدمتي دون أن أسوّغ لنفسني هذا السلوك. وفضّلتُ الموت برصاص الأديغة في أكثر من موقف في حياتي، خجلاً من سلوكي. وقد قضى في حرب القفقاس مئات الألوف من أناس روسيا الطيبين - بيستوجيف مارلينسك، وليرمنتوف، والديسمبريون، ومئات الآلاف من العامة. وما يحدث زمن انكشاف نهاية الحرب مأساة عظيمة. تحرك الأديغة وهم يعرفون أن وجهتهم هي تركيا، ولا يعرفون مصيرهم فيها. المهزومون يهجرون بلادهم والمنتصرون يستوطنون أراضي هؤلاء. عالم الأديغة الأزلي يتداعى على نحو لا يستطيع أحد إيقاف انهياره... وماذا يمكن أن أقدم الآن لمن وقفت أمامهم محارباً سنين طويلة؟ عجالات عربات الأديغة المتجهة إلى البحر تُعول. ولكن أحداً في العالم لا يسمعها...

- أيّ ذنب نفتقه، وأي جريمة تكفّلنا بها؟ وأي انتصار نتكلم عليه؟ كيف سنواجه ضميرنا يوماً ما متى بقينا وحدنا؟ ما أملنا يا نور مُجد، - قال بافيل وتنهده يفضح الضيق المتجمع في الصدر، - العاصفة تودي بالأديغي أمام أنظارنا.

- تحمله العاصفة لأنهم رمّوه من على صهوة حصانه، رموه من أعلى شجرة، - قال حاغور وقد تذكر أن القيصر عيّر برزج بأن شبّه حرية الأديغي بحرية الطيور

البرية. ومرت أمامه بسرعة خاطفة وقائع الحرب في السنة الأخيرة أو السنتين. ثم بدا من صوته أنه يحمل نفسه أمام الراحلين المسؤولية عما جرى: - لا تلم الأديغة يا بافيل!

- لم يخطر لي مثل هذا يا نور محمد. العتب علينا نحن، نحن سبب مأساة الأديغة...

- لا تحمل نفسك ذنب القيصر يا بافيل.

- أليس أصل القيصر من شعبي؟ لا أرى الذين هموا أرضهم سنين طويلة، الذين جاهدتهم بسلحي مذنبين. أخجل يا نور محمد من جرمانا العرق البشري البريء الذي لا يعرف غير ربه، الذي يربي صغاره، ويكرم شيخوخته، ولا يسمح لأحد أن يهين رجولته وحرته، من بلاده. لن يستحسن أحد هذا السلوك منا. المأساة التي جلبها السلاح المذنب لن يمحوه الصدق ولو مضى عليها ألف سنة!..

- ما العمل إذن يا بافيل؟ خبث الزعماء وتنافرهم ينعكسان سلباً على الشعوب.

- لا تُفحِّم زعماء الأديغة في هذا الموضوع.

- أفكر في ما جرى لنا فلا أستطيع ادّعاء أن زعماءنا جلبوا لنا الخير. لا يمكن أن تنتصر بالتهديد على من لا تكافئه قوة. هذا ما لم يفهمه زعمائنا، من زانه سفري وابنه قرباتر وبرج جراندوقوه وتسي حاترباي، دغك من الذين جاؤوا من بلاد أخرى. كان بدء الشتات الأديغي لحظة تكلم تسي حاترباي في حضرة القيصر.

- كيف تدين من يعلن أنه سيحمي بلاده؟

- أفهم يا بافيل ما تريد قوله... لا أزعم أن زانه وتسي وبرج قصروا في الرجولة أمام الأديغة. لم يدّخوا جهداً. الإنسان، مهما كان الطريق الذي يسير عليه، يجب أن يفكر حين يعود إلى وعيه فيعرف ما بإمكانه وما يعجز عنه. وكان والدنا قد فهم هذا، ولكنه رحل عن الدنيا لأن اكتشافه تأخر فلم يُمهله الزمن. وتسي حاترباي ونيكراس تيم هلكا دون أن يريا غير الرجولة الأديغية.

وعاش برزج عمره وراء الأبراز والشابسغ يرائيهم. ولم يتخيل أن الجيش القيصري يمكن أن يقتحم أرض الوبسخ يوماً ما...

- على كلامك، لم يسمحوا لقرباتر أن يفعل ما يستطيع، - قال بافيل بنبرة شبه مبطنة.

- وقرباتر كان عاجزاً عن تحقيق ما لم يحققه والده. وهو الآخر عاش مهووساً بالرجولة الأديغية الزائفة، وحين وعى كان القيصر في غنى عن مشروع الصلح الذي حمله بعدما شارفت الحرب على نهايتها. فلم يلحق بمهدفه. بقي وحده في الميدان والطرفان ما عادا بحاجة إليه... ما أكثر ما أثّر يا بافيل!.. لا تؤاخذني! حين يضيق القلب يحمك على التفكير في كثير من القضايا، ويحدث أن يدفئك إلى الخطأ... لا تظن أنني أبرئ نفسي وأحمل غيري المسؤولية...

- أيّ عيب أسمع يا نور محمد! أ منذ هذا اليوم فحسب يعرف أحدنا الآخر؟ إن توجهت إلى عامة الفلاحين، - أضاف حاغور بلهجة ناعمة واثقة، - فقد مارسنا أنا وترام، ومعنا حباط أيضاً، نصيبنا من الذنب تجاه الأديغة... والخطأ الذي ارتكبناه أدعو إلى الله أن يغفره لنا كما للزعماء. تعال يا بافيل، - حرف حاغور حصانه بسرعة عن الطريق، - لن أستطيع الاستمرار أكثر من هذا على الطريق المؤدي إلى الساحل. لم يعد قلبي قادراً على تحمل منظر الناس الذين تطاردهم المأساة. يا إلهي، أنت الوحيد الباقي سنداً لنا، ارحمنا وافهم حالنا، أنقذ الأديغة الذين فنوا جراء بساطتهم وبراءتهم من مهلكتهم. لم يبق لهم موئل غيرك.

وكان دعاء راكيتوف السائر على طريق الخيل الوحيد مثل دعاء حاغور. حب الإنسان ورحمته، يقول بافيل، مصدرهما أنت يا إلهي، فاشملنا برعايتك. الطريق الذي نحن فيه أجبرنا عليه فلا تتخلّ عنا في متاهتنا. قابل برحمتك الأديغة الذين يهيمنون على الشاطئ بجزيرتنا لأنهم مثل كل أعراق البشر الأخرى التي تأتمر بأمرك، وأفهمهم أن الطريق الذي يسرون عليه طريق مسدود. اجعل أرضهم الجنة التي يهجرونها تردعهم عن الرحيل فانصحهم أن ينسوا، ولو مرة، عزة النفس والكبرياء والحمية...

- هل تعرف يا نور مُحَمَّد بِمَ أفكر؟ لن تغفر لنا الأجيال القادمة من الطرفين
مأساة الأديغة. لا يمكنك أن تغَيِّر جَرِي النهر الجبلي ولو اعترضته بجبل كامل.
فإما أن ينحرف وإما أن يتعداه.

- صعبٌ أن تتنبأ بالمستقبل... غير أن ما سيحدث للأديغة حدث وانتهى.
وأكرر: لا أعتبُ على قيصركم. ومن لا عتب لي عليه البتة هم الناس الذين
حشدتهم حولنا وأمرهم بمحاربتنا. كل الأعراق سهلة الانقياد فما أسهل التحكم
فيهم...

- ألا تعتب على قيصرنا حقاً؟!

- لا أعتب على من يخدم وطنه بإخلاص! - جزم حاغور، ولكنه أضاف
بسرعة: - وزعماؤنا؟ ظلوا يتصارعون على القيادة فلم يستطيعوا إبراز قائد
واحد. انتكب الأديغة من وراء تنافس الزعماء بسبب الحرية المفرطة كالطيور
البرية، والرجولة الزائفة، والحسد، والكبرياء، واستعمال الأتراك الإسلام
سلاحاً... يلقون بالأديغة بين حجري الرحي الروسي والتركي، والمطحنة
تدور!..

حين دخلوا مرعى الغابة رأوا فيه قرابة ثلاثين شخصاً من نساء وأطفال ومسنين
جالسين مجتمعين، وعلى رؤوسهم يقف خمسة من القوزاق. وعدد من المسنين
فيهم يحتضنون الأطفال المقرورين، والعجائز والنساء الأحدث سناً يعترضن
بوتينك فاسيل وينهرنه.

- يا بوتينك لماذا تقفون على رؤوس هؤلاء المساكين؟ - ترجل راكيتوف
مسرعاً من الحصان.

- هؤلاء يا بافيل راكيتوف، وجدناهم في الغابة. لا بيت لهم، ولا طعام. يأبون
الخروج منها ناوين الانتحار. نوّقد لهم النار ونغلي الشاي ليدوقوا شيئاً ساخناً.
والجنود يمدون إليهم الخبز الذي يحملونه فيرفضونه. والأطفال في آخر رفق...

- ما تفعلونه غير جائز أيها الكبار، - قال حاغور للمسنين.
- والعيب الأكبر مما نفعل هو أنك أتيتنا بضابط كافر. - أجابه العجوز
الأكبر، - ولا تظنّ أننا لا نعرف أنك واحدٌ من تسببوا في نكبتنا...

حين نطق العجوز بنسب حاغور اتجهت عيون الرجال والنساء إليه. - ومع أن نظرات بعضهم كانت ودية، والآخرين عدائية فقد تظاهر مُجد نور أنه لم ير ولم يسمع شيئاً فكنتم أي انفعال. وتفقد بعينه الأطفال الجائعين، والنساء المرتديات أسماً، والمسنين الذين يلفظون أنفاسهم الأخيرة.

- ليس الآن الوقت المناسب للحديث عمن تسببوا في نكبتنا، لاحقاً يا كبير... لا تُذنبوا بحق أطفالكم أمام الله! ليس في الخبز حرامٌ أياً كان مصدره. لا تُهْلِكُوا أولادكم أمام عيونكم! الله لن يسامحكم.

مدت النساء أيديهنّ، وقَدَّمْنَ كسر الخبز المبلول بالماء إلى المسنين والأطفال... يوزع راكيتوف الخبز عليهم غير عابئ بالكلام الجارح الذي وجّهوه إليه. ويفكر في إنسانية فاسيل بوتينك الذي نسي طريقة موت والده. ويلتفت إلى مكان وقوفه قائلاً في نفسه: هذه طريقة تفكير الروس. وينصت إلى المعروف الذي يسديه إلى غير أبناء قومه... عَرَفْنَا نحن عجيب. قسوتنا ومعروفنا متلازمان... من جهةٍ يغلب علينا لئِنْ الله من كثرة ما نرسم الصليب، ومن جهة أخرى ننسى الخير حين يتعلق الأمر بأشخاصنا وبالبلاد. ولا نوَفِّرُ أحداً من ظلمنا. بل لا نرحم أنفسنا...

- وأنا في كيسي طعام، - قال بافيل لبوتينك، - قدّموه للأطفال. وأبقوهم بجانب النار ولا يتعرّضوا للبرد ريثما نرسل العربات التي تعيد الذين تضعضعت قواهم إلى بيوتهم.

لم يكن المطر البارد الناعم ينوي التوقف ولكن نور مُجد صافح بافيل بقوة وقد بدا له أن الجوّ قد اعتدل عن ذي قبل.

X

شتاء عام 1864.

ليس هذا الشتاء كسابقاته التي كان للأديغة فيها سلامٌ وأملٌ. كلما اقترب الجيش القيصري من المناطق الأكثر دفئاً على ساحل البحر اقتربت حربه من نهايتها على نحو ملحوظ لأنه لم تعد هناك طرق جبلية صعبة كما في الماضي. والأديغة لم تبق لهم قوة توقف اندفاعه، ولا زعامة توحدهم وراءها.

القوتان الوحيدتان اللتان ما زالتا متماسكتين ويمكن الاعتماد عليهما في لُجَم الجيش القيصري فحسبُ كانتا جانباً من الشابسغ الساحليين، والوييخ الذين ليس تعدادهم كبيراً بزعامة برزج جراندوقوه. وهؤلاء انقسموا إلى أُسَرٍ لا تفكر أيّ منها إلا في حماية نفسها والوصول إلى تركيا. وبرزج جراندوقوه متمادٍ تماماً في خبثه وفي حبه لنفسه. يعقد اتفاقات هدنة لبضعة أيام، ويقدم الرشاوى من أجل حماية قسم من قبيلته وإجلاء القسم الآخر من فلاحيه وتوطينهم في مكان واحد.

وبرزج، مع طبيعته التي من هذا النوع، لا يمرّ يوم دون أن يقصد ساحة الحرب. وفيما يعرض جالساً على فلاحيه بطولته كزعيم تتمائل للشفاء يده اليسرى التي أصيبت في أواخر الشهر الماضي بضربة سيف. ولا يقيم في البيت متحججاً بجرحه بل ينتقل بين قرى الفلاحين والساحل. يندره الربيع الذي تفوح رائحته فيجبره على الإسراع. وعليه في الأيام الدافئة، قبل أن يهجم الروس، أن يُنهي إجراءات جلائه باكراً كما فعل زانه قرباتر. وليس الآن كان عليه التصرف على هذا النحو، بل في العام الماضي، حين كان فلاحو قرباتر يواجهون الجيش الروسي. ولا يعرف ماذا كان ينتظر، ولماذا تأخر إلى الآن. وقد ضرّ نفسه بنفسه رغم معرفته أن الأمل مفقود كما لم يكن في السنوات الماضية. والآن يتابع أعماله بلهفة ولا يقدر عليها. يقول لضييفه جيمس بيل نادماً على أنه لم يسمع نصيحته حين أوقف زحف الجيش الروسي في شتاء السنة الجديدة:

- صحيح يا جيمس ما يقال: لا تفوّث رأس الحصان وتلحق بذنبه. لو سمعت كلامك لنزحنا منذ زمن بعيد إلى تركيا واسترحنا. غلّبي زانه قرباتر في هذا. أنا أصررتُ على لم شمل الأديغة المتناثرين فمزقني الجهد الذي أبذله. وما قيمة ما تعهدت به؟ ما كان ضرورياً أن أتدخل فيه بشخصي... لا تقل يا جيمس، لا تقل... كلانا مذنب!.. حين اقترح زانه مصالحة روسيا للمحافظة على كيان الأديغة لم نوافق، لا أنا ولا النائب مُحمد أمين. وأنت بذلت كل جهدك لتمنعنا من السير في اتجاه المصالحة...

- وضعتُ أُملي في الأديغي الحر، وفي رجولته، واغتررت به يا جراندوقوه... -
فكّر جيمس في أن ما يتوجس منه يحدث له. وما إن عاد بقلبه إلى إنجلترا حتى
رماه مضيفه بسؤال أشدّ مرارة:

- هل تذكر يا ضيف أنك نصحتنا أنا والمرحوم تسي حاترباي ألا نؤيد زانه
حاتري في مشروع المصالحة الذي طرحه في المجلس؟

- وماذا تريد أن تفضح أيضاً من أسراري يا جراندوقوه؟

- إذا كنت لا أعرف أسراري فكيف أعرف أسراك؟!

- أنا المسؤول على ما يبدو عما جرى للأديغة.

- لست وحدك، لنقل: كلنا! لم نُفلح، لم نتصرف على نحو صحيح!... بقينا
نتنافس على الزعيم الأقوى ومن العرق الأكبر، ونتشاحن فيما بيننا حتى انتكب
الأديغة بسببنا. ونحن مذنبون، ولكن لو ساندني الأديغة وأنتم منذ اليوم
الأول...

- لم نوَقّر جهداً. أنت تذبّ بحقي يا جراندوقوه.

- كلنا لم ندّخر جهداً. ولكن جهدنا لم يُفلح. لم نستطع مجابهة العدو. لا
تؤاخذني يا جيمس، التوتر يطغى على القلب فيمنع العين من الإبصار... -
حتّ برزج الحصان.

حين وصل الفرسان إلى قمة المرتفع بدا على امتداد الوادي قبل المرتفع المقابل
مهاجرون إلى تركيا وعربات ثيران ومشاة وفرسان وقطعان من المواشي. فأعاد
برزج الحصان: لن أستطيع تحمل منظر هؤلاء أكثر مما تحملت!.. ألا نهاية
لهذا المنظر؟.. تعال نخرج من تحت الغابة!..

لم يغمض جفن لجيمس طوال الليل. وكلُّ ما يحمله يوم الأديغة مما يدعو إلى
التفكير. ولكن ما قاله له برزج أمس لا يفارق ذهنه. ولم يكن يتوقع مصارحته
بهذه الفجاجة وإن كان مستعداً للموقف؛ فمنذ عايش الأديغة لم يتخذ موقفاً
محايداً من قضيتهم إن لم يبذل جهده لأجلهم. عاش معهم كأنه منهم حقيقةً،
ناسياً أحياناً أنه إنجليزي. والآن انظر ما يحدث!.. - يدينونه، وينظرون إليه
بارتياب.

في شتاء العام الماضي، قال جيمس بيل، كان عليّ ألا أعود من إنجلترا حين سافرتُ إليها. لا فائدة ترجى بعد الآن من متابعة قضية الأديغة. وقد عاندت من يقولون إنه لم يبق إلا وقت محدد لانتهاء المسألة فعدتُ إلى النار التي لا شأن لي بها. هل تصل سفينتي المشحونة بسلام إلى إستانبول؟ جلود المواشي والعسل والذرة الصفراء والصوف غالية في السوق التركية. وما الذي بقي رخيصاً هذه الأيام إلا الإنسان؟

امتلأ الأديغة المنتشرون على ساحل البحر الأسود أمام عيني جيمس بيل. ينتظرون السفن ويتنافسون عليها. ومن يجد مساحة إصبع في السفينة يُريح عليها مؤخرته يفرح كمن دخل الجنة وإن لم يكن يعرف ماذا بانتظاره حيث يهاجر.

- لم يُغمض لي جفنٌ طوال الليل يا جيمس، - دخل برزج الغرفة تسبقه شكواه. - وجرحي لا يشفى، ومن يهتم به الآن! ما طبيعة هذه الهجرة إلى تركيا؟ وإلى أين يذهب الناس؟ ومن يهتم بنا؟

- هل رضختم أخيراً لما كنت أقول لكم؟ - رفع جيمس جفنيه الثقيلين. وتتم مبرئاً نفسه: - لم نستطع تخليصكم من الاختلاف.

- لا فائدة وإن رضخنا. وهل أبقى مع الروس مختلفاً عنهم بكل شيء، غريباً؟! وفلاحٍ أرسلتهم فصاروا على الطريق. ونحن سنلحق بهم. لا تؤاخذني على ما قلت لك وأنا متوتر الأعصاب. وما الفائدة من البحث الآن عن المسؤول؟.. لم يبق لنا حالياً إلا أشخاصنا وأعمالنا الخاصة. الجيش الروسي سيفتح طريقه في الربيع. ومن سيجابهم الآن؟

لم يرد جيمس بكلمة وقد عرف ما في قلب المضيف. ولكن خطر له أن ينقّس عن ضيقه بما حدث لهم في إقليم الأديغة بالهجوم على برزج. ولكن ليس هنا، لو كان في مكان آخر غير مضافته لما تردد. قال: لو راجعتم أنفسكم بدلاً من أن تتهمونا بما لم تستطيعوه لكان أفضل. ما الذي لم نقدّمه لكم؟ عرفنا العالم كله بكم. وساعدناكم بالمدافع والبارود. وأوصلنا شكواكم إلى البرلمان الإنجليزي عبر موفديكم. وجيش أوروبا الذي حارب معكم ثلاث سنين؟ هل كان لايبينسك وحده قادراً على تنفيذ مهمة هذا الجيش؟ ولماذا بدأت الدول

المعادية لروسيا حرب القرم؟ أعرف ما كنتم تريدونه!.. هل كنتم تريدون أن نتقدّمكم فنحارب عنكم علناً؟ كان بإمكان إنجلترا أن تفعل هذا، ولكن لو فعلت وأدخلت جيوشها إلى بلادكم لنسيتم حريّتكم منذ زمن بعيد! تدنّوننا لأنكم خيبتُم توقّعاتهم منكم!.. ثم من أنت يا برزج؟ تطلب من الروس أن يُمهّلوك حتى تستطيع نقل أُملاكك إلى تركيا... أنا تحممت بالدم أمام الأديغة خلافاً لك. قضيتُ أحلى سنوات عمري هنا بلا أهل ولا جيران ولا أعرف فرحاً غير حنيني لأولادي. لماذا أبقى هنا وحدي؟ يبدو أن من أجلس أمامه لن يترجّك في شيء، الأفضل أن أنجو بجلدي!..

وبرزج من جهته، كان يحدّث ضيفه باحترام، ولكن ما في قلبه نحوه شيء آخر. وليس هذا الشعور وليد اليوم بل منذ وضع الجيش الروسي قدمه في أرض اللويخ. ما إن يعرقل الروس خروجي إلى تركيا، قال برزج، حتى أقدمك فدية لهم؛ وإلا وضعنا أقدامنا معاً في أرض تركيا. وسنطوّر صداقتنا، إن نفعت، تبعاً لما يجري لنا على الساحل الآخر. ولكن سأتبه رجال الضابطة ألا يغفلوا لحظة عن هذا المرائي.

— ما الذي نتحدث فيه أنت يا جيمس وأنا في اليوم الذي نحمد فيه نار موقدنا إلى الأبد؟! — قال برزج فقطع أفكاره وأفكار الإنجليزي. ثم نهض. — تأخرنا في السهرة. ما كتبته الله علينا مصيرنا. تصبح على خير يا جيمس.

— لم يصدّق برزج الخبر الذي جلبه الصباح:

— وهل يمكن أن يحدث مثل هذا؟!

— الإنجليزي ترك المضافة يا أمير!.. بل لا أظنه وضع رأسه على الوسادة!..

— أيّ عيب هذا؟ كيف يُفقّد شخص من بيتي؟! عليكم أن تجدوه أينما كان إلا إذا انشقت الأرض وابتلعتة!..

كان مستحيلاً العثور على جيمس بيل ولو بحثت عنه. توجّس مما سيحدث له في غمرة المأساة. كان جاهزاً للمغادرة، وكان مضى وقت طويل على مغادرته الساحل الأديغي ممتطياً السفينة الليلية التركية...

...

توضحت أكثر فأكثر نهاية الحرب الدائرة في إقليم الأديغة في شتاء - ربيع عام 1864. وها هو ما كتبه الكابتن س. دوخوفيسكوي في كتابه "جيش داخوفسك المرباط في جنوب جبال القفقاس":

"... كان جيش دوخوفسكي جاهزاً للدخول في الحرب في 19 شباط عام 1864. وفي هذا الموعد ساهمت السرية الثالثة من الكتيبة القفقاسية الثانية، وسرية المشاة الخامسة، والكتائب الأولى والثانية والثالثة من جيش سيفاستوبولسكا، وسرية المشاة الخامسة. والكتيبة الأولى من جيش كوبان، والكتيبتان الثالثة والحادية والعشرون من المشاة، والكتيبتان الأولى والثانية من جيش البحر الأسود، والكتيبتان الأولى والثانية من جيش باكينسك، وجيش المدفعية التاسع عشر. وصل الجنرال إيدوكيموف قائد جيوش إقليم بشزه. وبرفقته كتيبة رماة البنادق القبرتاي، والوحدة الأولى من جيش فرسان تفيرسكوي، وثلاثمئة جندي من جيش كوبان القوزاقي، ومئتان من ميليشيات القبرتاي، والكتيبة الخامسة من جيش مشاة الكوبان. وباختصار زاد جيش داخوفسك الذي يقوده الجنرال غايمان ثلاث عشرة كتيبة ونصف، وستة مدافع، وجيشي مشاة، وخمسمئة شخص. وحالما وصل إيدوكيموف عبر الجيش السابق ذكره الجبل وتوجه إلى البحر الأسود...

الشراكسة الذين يرون جيشنا يرتعبون. يقولون إنه لا حصْرَ لجيش قيصر الروس. وإذا نظرت من قمة الجبل رأيته من مسافة بضعة كيلومترات." كلما ارتقينا الجبل زاد عدد من يعترضوننا. وبدأ الفجر يحمل الثلج العاصف الرطب. الثلج يبهر العيون، والريح تحمله. والجميع ينظرون إلى شجرة كبيرة على جانب الطريق الضيق.: الأديغي الراصد فوقها تجمد من البرد، وتدلى رأسه الحليق على صدره، وقبعته التي سقطت من رأسه أسفل الشجرة. والكساء الممزق ملفوف على الجسد المتجمد، وهو حافي القدمين. لا بد أنه من المستطلعين الذين يتابعوننا.

التحق بنا الجيش الرديف بعدما وصل الجيش الأساسي إلى طوابسه. وقبل المساء وصل إلى مكان احتشاد الجيش الروسي وفدٌ من الشايفغ. كنت تحس أن هؤلاء مستعدون لأي طارئ. ولم يكن همُّهم مجابهة الجيش الكبير المتجه

إليهم الذي رأوه بل كانوا مستعجلين على الرحيل بأسرهم وأملاكهم القليلة، وما يترجونه هو أن يرحلوا إلى تركيا مع أملاكهم الخفيفة دون اعتراض منا. وقد أخطر هؤلاء بالموعد النهائي لإخلاء أرضهم. وفي اليوم التالي أُحرقت عشرات القرى الأديغية... وفي الثاني والعشرين من شباط / فبراير تقدم الجيش أكثر من ثلاثة عشر كيلومتراً.

جاء إلينا وفد من الشبابغ برئاسة شاوه قاسبوكت الذي هو من أشد الناس مدعاة للاحترام عندهم. كانوا يحاولون إنهاء الحرب بالسلام لأنهم فهموا جيداً أن الأديغة غير قادرين على مجابهتنا بالسلاح. وأوضح هذا اعتبارهم أراضيهم السابقة الممتدة حتى الشبابغ، من أملاك القيصر، وتعهدهم بعدم المطالبة بها. والأمر الوحيد الذي رجاه قاسبولات منا هو عدم الاعتراض على رحيلهم مع أملاكهم الخفيفة.

كان الأديغة يهجرون أرضهم التاريخية. والمهلة التي مُنحت لهؤلاء كي يغادروا إلى تركيا وصلت إلى نهايتها. وهم من جهتهم التزموا بتعهدهم. وعدد المتجمعين من الأديغة على ساحل البحر في ازدياد مستمر... كنا نشحنهم بالسفن الصغيرة المألَى بالركاب كل يوم. والمركب الذي يتسع لعشرين أو ثلاثين راكباً يشحنون فيه من مئتين إلى ثلاثمائة. وهؤلاء أليس معهم متاعٌ ما؟! ولم يكن أحد يطمع في أن يستلقي في المركب أو يمدّ رجله، دُعاً من أن يتنقّل فيه.

في الثالث من آذار / مارس عبرت كتيبة رماة البنادق المخاضة الضيقة، واحتلت المرتفعات على يسار طوابسه. وكان هؤلاء من عِدَاد الكتيبة الثالثة والحادية والعشرين من جيش القبرتاي مع المدافع. وفي الصباح انطلق الجيش الروسي في ثلاث مجموعات متراصّة. ووصل إلى هدفه وهو نحر شَبَس. وكان الأديغة المستسلمون لما جرى يستقبلوننا.

وكان الويخ آخر من لم يحنوا رؤوسهم في غرب القفقاس. وكنا نعرف أن هؤلاء مقاتلون عنيدون ليس من السهل دحرهم وإن كانوا أقلّ عدداً بكثير من الشبابغ والأبزاخ.

وفي الخامس من آذار أرسل جيش القيصر هذه الرسالة إلى الوبيخ: "يحيي الجنرال غايمان قائد الجيش الروسي الوبيخ. أنتم تعرفون جيداً أننا سمحنا للأبزاخ والشابسغ أن يرحلوا إلى تركيا ليعيشوا فيها... وأنتم الوبيخ بقيتم وحدكم. وإذا كنتم تريدون القرار المتعلق بكم فيها هو: "إطلاق سراح الأسرى الروس لديكم دون تأخير. وعلى من يود الرحيل أن يتجمعوا على الساحل حالاً دون مهلة معينة. والأماكن المحددة لتجمعكم هي: منابع نهر شُكه، وفاردان، وشُج...".

وفي اليوم التالي عند الظهر جاءنا خمسة عشر من مسني الوبيخ يتزعمهم برزج جراندقه. ومع أن الجنرال غايمان كان يعرف أن هؤلاء لم يأتوا متذللين فقد سألهم بعناد:

— لماذا جئتم إليّ أيها الوبيخ؟ أين هم من تعتمدون عليهم، أين القادمون من أوربا ليساعدوكم؟ وأين هي مدافعكم؟ لا أرى أحداً ممن يساندونكم؟

— نحن فهمنا — أجب الحاج برزج — أن لا أحد نعتد عليه، وأنا بقينا وحدنا. ولكننا نحن أيضاً عرق كامل، لنا الحرية في أن نقول ونناقش ما نقرر فيه وما فيه نفع لنا.

— أنتم الوبيخ من سيحادثوننا؟ إن كنتم أقوىاء جداً وشجعاناً فاعلبنوا!..

— مع أننا بعيدون عن التفكير في النصر فلا نزال قادرين على مجاہدتكم. ولكن عرقنا سيفنى نهائياً في هذه المجاهدة. كان بودنا أن نهي المسألة بسلام، ولا نتسبب في خسائر للطرفين.

— لا ترووا لي حكايات! أعرف جيداً جداً من أنتم!.. إذا كان الوبيخ نسوا الطريق إلى البحر فليسالوا الأبزاخ والشابسغ! لا شيء أقدمه لكم ولن يكون!

قال الجنرال غايمان لهم، وانصرف

أطرق المستون الوبيخ برؤوسهم واجمين...

بدأ الهجوم على أرض الوبيخ في السابع من آذار. وفي خلال الأيام الثلاثة الأولى أحرقنا القرى الواقعة بين المرتفع غير العالي والساحل عن بكرة أبيها. ولم نترك إلا القرى القريبة من البحر والأماكن التي يجب أن يتجمع فيها الراحلون.

كان عدد المتجمهرين عند قلعة فيليامينوفسك للرحيل إلى تركيا كبيراً جداً. وقد انطلقت منذ الثالث والعشرين من شباط إلى التاسع من آذار تسعة وخمسون

مركباً غير كبير من طوابسه. والحقيقة أننا لا نصدِّق نحن أيضاً كيف استطعنا في ربيع 1864 ترحيل شعب كبير بهذه السرعة...

بدأ جيشنا عند الفجر يتجه إلى طوابسه. كان تسلُّق الجبال من أشقِّ الأعمال على جيشنا. كان علينا، ونحن سبعة آلاف جندي وألف حصان يحملون العتاد، أن نسير في رتل على طريق ضيق. كان الجيش يتقدم على طول المضيق. وأحرقنا عدداً من القرى الواقعة على طريقنا. كانت عيون الجميع، بعدما أدركوا أن من المستحيل الاستمرار في الاختباء بين الجبال، متجهة إلى البحر... وفي الثاني عشر من آذار / مارس وصل جيشنا إلى نهر آشه. والتفنا بقيادة العقيد كليوكيفون - كلوغيناو على يسار نهر ثحه شِناغوه. وقاد الرائد شيلكاشيف جيشَ القبرتاي إلى يمين نهر آشه. وفي هذا اليوم وحده التهمت النار أكثر من مئة قرية أديغية."

وعلى هذا النحو رضخ الوبيخ لما جرى لهم. وأُطلِعكم على مقطع مما أرسله الجنرال غايما قائد جيش داخوفسك إلى قائد جيوش منطقة بشزه: "في الخامس والعشرين من آذار 1864 استولينا دون طلقة واحدة على قلعة نافاغينسك التي تسمى الآن: شَج... ودمرنا آخر عَشٍّ للأديغة... ولكن حين أتكلم على الأوضاع اليوم فلن أستطيع كتمان إمكان تغيُّرها. ونستشهد لوصف موقفنا الذي نحن فيه بالقول المأثور: "اطرق الحديد قبل أن يبرد!". كان الأديغة جاهزين للرحيل إلى تركيا. ومع ذلك فعدد السفن التي ستُقلُّهم إلى الشاطئ الآخر قليل. والمهاجرون لا يزالون متجمعين على الساحل. المراكب المتوسطة تعمل دون انقطاع. وترسو في طوابسه سفينة كبيرة ولكن عدد هذه المراكب بالقياس إلى عدد المهاجرين ليس شيئاً يُذكر. ويمكن أن يحدث التالي: ستبرعم الأشجار خلال شهر أو اثنين، وإن أمكن الحصول على بعض الغذاء بسهولة، فالأديغة الذين لم يعبروا إلى الآن سيلجؤون إلى الجبال والغابات... وهكذا سيتوجب علينا طرُدُّهم من مخابئهم من جديد، وتحملُ بعض الخسائر والصعوبات. ويجبُ في رأيي على قيادة الدولة أن تعمل بجِدِّ لحلِّ هذه المشكلة بسرعة. وعلينا زيادة عدد المراكب زيادة كبيرة. وأكرر: حلُّ هذه المشكلة له الأولوية، وإلا ضاعت انتصاراتنا... لن تجد أي قرية يعيش فيها الأديغة مهما

بحث! ولكنهم ما يزالون يختبئون في الغابات الجبلية الأزلية الشاسعة... ويجب تطهير أرض الأدیغة عن طريق إرسال دوريات تبحث في كل مكان.."

...

- يا ولدي، أسرع، عرف جراندوقه عليك،- نادى سمائي عليمبج الجالس على صخرة ورأسه بين يديه، - هل تسمعي يا ولدي ترجمه، ذاق يوماً من طعام جدك. وأنت أركبك على ظهره. لابد أن يساعدنا! اذهب يا صغيري واعترض طريقه قبل أن يركب السفينة. وأخبره أنني معك.

قفز عليمبج من الأمل الذي نبت فجأة، واعترض بعدما التف حول حراس الأمير الكثيرين، الحاج برزج الذي يفتح الناس له الطريق:

- أيها الأمير جراندوقه! هل عرفتني؟ أنا نيكراس عليمبج، ونيكراس تيمه جدي... أنا وجدتي سمائي هنا على الشاطئ منذ أكثر من شهرين. هل يمكنك أن تساعدنا؟

- من هذا الذي اعترض طريقي؟ - غضب برزج كما لو أن أحد أعدائه يمنع من الجلاء إلى تركيا. وسأل ساخراً مبتسماً الشاب الرث الثياب الذي خارت قواه، وعدم إشفافه على من يسأله بإد عليه: - أقلت لي نيكراس؟.. والله عجب أنك نسيت كونك جرو كافر! ألا ترى يا عديم الإيمان كيف يطردنا قوم جدك الكفار من أرضنا؟

اتقد عليمبج من الإهانة، ورد على زعيم الويخ دون وعي:

- ضحى جدي بحياته على أرض الأدیغة، ووالدي أيضاً.

- اغرب عن وجهي يا سليل الكفار!

- يا برزج ليس آل نيكراس ممن يتقبلون الإهانة!.. - أسرع عليمبج إلى خنجره. وشهر عدد من حراس الأمير خناجرهم:

- توقفوا!.. أي عيب تفعلونه أمامي؟

- يا مصيبي يا عليمبج، يا ولدي الوحيد! - ارتقت سمائي والريح تعصف بها أمام حفيدها لتحميه - امض يا ولدي، امض، الذنب ذني! يا حسرتي ما كان علي أن أدعك تتوسل إلى هذا... - اترك هؤلاء - رمث برزج بنظرة غاضبة - كل إنسان، في الوقت الذي نكبوا فيه الأدیغة، يقول اللهم نفسي.

لن يفهمونا! لن تجعلك جريرة هؤلاء، هؤلاء الأديغة البائسين المنكوبين على الساحل، تُفْلِح يا برزج. امضِ يا ولدي، امضِ! ليس قليلاً ما أهانوا جدك المرحوم. ولكنه صبر.

كانت سماي مهمومة بالعبور بعليمبج عبر المخاطر، ولم تلتفت إلى من وراءهم. ولو التفتت لما رأت غيرَ ما كانت ترى خلال الشهرين الماضيين: الناس المهاجمون على السفينة يتدافعون ويتصايحون. يفسحون الطريق لمن له نفوذ كبرزج. ومن لا حول لهم يتلقون السياط. ومن يسقطون لا ينهضون. ومن ينهضون يُصرعون ثانية. ويمشون على أجساد الموتى ومن يلفظون أنفاسهم الأخيرة، ومن فقدوا كل قوة وأمل. لم يبق على الساحل الأديغي غيرُ صراخ الناس الذين أفسد الظلم أخلاقهم، وغير عويل الأطفال. ومن يركب السفينة يودع بلاده التي لم يستطع حمايتها بسلاحه بتحية الضيق. ويحني الطفل الذي لا يفهم شيئاً مما يجري فيجعله يقبّل الأرض مع عويله، ويحمل حفنة من التراب.

وترتفع من هنا ومن هناك مناحات الناس الذين ينتظرون السفينة التي ستعود من رحلتها. وأضيفت التجارة إلى المأساة فازدهرت أعمال الملاحين الأتراك، والضباط والجنود الروس: الذهب الأديغي والفضة والسلاح والزنانير الفضية والأكسية كلها رخيصة. الناس الذين على حافة الموت من الجوع لا يمسكون شيئاً عنك مقابل حفنة من الدُّخن أو كسرة من الخبز.

...

الحادي والعشرون من أيار / مايس 1864.

الجيش الروسي يعلن انتصاره في مضيق قَبْدَه.

كأن الطبيعة تعاكس من عندهم عيدٌ فالسحب التي تحجب وجه السماء تنثر على الأرض رذاذاً ناعماً. والجو في كل مكان رطب غير أن جيش القيصر لا يعبأ بهذا. الجنود الذين نجوا من الحرب يطيطون من الفرح. ورغم المطر تلمع أحذيتهم ومعاطفهم وزئبهم. وعلى رؤوس رماحهم تحطل قطرات من المطر كأنها دموع الأديغة، وتسيل من تحت عيونهم...

جنرالات القوات الخاصة الذين أحرزوا النصر لآل رومانوف واقفون. وإلى

جانبهم يقف ممثلو جيوش المدفعية الثلاثة التي أحرزت الثناء عبر الدم الأديغي المسفوك بدءاً من أرابشاي وأراكس على الساحل الأديغي للبحر الأسود حتى جبال القفقاس. والجيوش التي احتلت الشيشان والداغستان متجمهرة في جهة أخرى. وفي هذه اللحظة يشعر جنود الجيوش التي يقودها إفدوكيموف، من قوزاق الدون وبشزه، بالسرور لأنهم سيمرون أمام ولي العهد الذي سيلقي عليهم نظرة الرضا، وسيكيل لهم المديح. ووراءهم تقف الجيوش التي تضم السيبيلدينس، والميغريل، واليميريتين، بلباسها الجورجي. حانت لحظة الصلاة إلى الله بمناسبة إحرازهم النصر.

ولي العهد يقف على منصة محاطاً بالجنرالات. ووراء الجنرالات المقاتلون الذين أحرزوا وسام صليب جورجيف، والضباط الذين أبدوا شجاعة في الحرب. وبعدها أنخوا الصلاة، ورشوا ألوية الحرب بمائها، طاف ولي العهد على الجيوش ممتطياً حصاناً، شاكراً إياهم. ثم وقف أمام جيش القفقاس وقال للجنود:

- نهنئ كل من في جيش القفقاس على احتلالهم غرب القفقاس - شركيسيا، وإنهائهم حرب القفقاس، وعلى البطولات التي أبدوها. جعلتم من أنفسكم نموذجاً للقيصر ولكل الأصدقاء بالبراعة التي خضتم بها المعارك. وتجشمت مشاق كثيرة في خدمتكم، واجتزتم امتحانات عسيرة. لم تقف أي عقبة في طريقكم من مواقف المآسي، ومن الجبال العسيرة التسلق، ومن الأديغة الأشداء في القتال، ومن البرد القارس والحر اللافت. تغلبتم على كل هذا سافحين الدم والعرق في كل خطوة، وحققتم آمالك. والحمد لله الذي منحكم كل هذه القوة! تستحقون المديح على إنجازكم بالسيطرة على القفقاس. وأعلن رضي عنكم. ولن ننسى رفاقكم الذين لم يُكتب لهم أن يشهدوا ساعة النصر هذه.

- يا ولدي ما الذي يقوله بصوت خشن ذلك الذي يؤشر بيديه هناك؟ - لا تتحمل سماي الكلمات التي تصل إليها ولو أنها لا تفهم معناها.

- يشكر الجنود على إنهائهم الحرب. ويحتفل بنصرهم.

- أيشكرهم على أنهم قتلوا الناس ووجهوهم إلى طريق جهنم، طريق العذاب!

- أيتفنون به؟

- نعم نان. ونحن أما كُنّا سنفرح لو انتصرنا عليهم؟ أما كنا احتفلنا؟.. يسأل

عليه.مبج.

- اسكتْ!، إخشَ الله! - نُهرت سَماي حفيدها جافلة - جميعنا، نحن وهُم، سنقف يوماً أمام الله. وسنبتهل إليه أن يغفر لنا قسوتنا. كان الأفضل من كل هذا لو تذكروا من قضى في الحرب من الطرفين.

- ارتفعت أصوات الطبول وصيحات النصر "أورا". ولكن عالم الأديغة لم يُحسَّ بدفع شمس الربيع التي بزغت من وراء السحب...

...

انتهت الحرب الروسية - القفقاسية. وآل كتابي إلى نهايته، ولكن مأساة الشعب الأديغي لن تنتهي هنا. الأديغة الناجون من الحرب يتوافدون مجبرين إلى البحر عبر الطرق الجبلية والدروب، لا يعرفون ما ينتظرهم، وعيونهم وراءهم. كلهم يتمنى أن يجد مكاناً في السفن التركية، يتصارعون ويتقاتلون، ويرمي بعضهم بعضاً في البحر. ويقتحمون السفن بصدورهم...

وأود أن أنهي الكتاب بفصل من فصول مأساة الهجرة إلى تركيا كتبه الفرنسي أ.فونفيل الذي حارب مع الأديغة عدة سنوات.

"زادت أوضاعنا، نحن المحاربين الأجانب مع الأديغة، سوءاً على سوء لأن أوساطاً من الأديغة كانت تلح على إجراء ترتيبات لعقد سلام مع الروس. ورغم ثقتنا بسلامة طوية رفاقنا فلم نكن نشك في أنهم سيبيعوننا إلى الروس إن كان في هذا السلوك مصلحة الجماعة. والآن صار أكثرهم يوافقون على تسليمنا. ونحن من جهتنا لم يبق أيّ داعٍ للبقاء مزيداً من الوقت في إقليم الأديغة.

منذ أن استولى الروس على "طوابسة" كانت مراكب تركية كثيرة ترسو على شواطئ الأديغة. وكانوا يوصلون المهاجرين بأسعار معقولة إلى طرابزون أو سامسون. فكانت هذه الرحلة مناسبة جداً لنا إذ أننا نستطيع أن نعبّر البحر الأسود في زحمة المراكب دون أن ينتبه أحد إلينا. لم يكن الروس ليعترضوا البتة على رحيل هذا الشعب القلق، غير أنهم كانوا يفتشون المراكب كي لا نعبّر نحن خفية.

قررنا أن نفترق فنتوزع على المراكب، كي لا يتمكن الروس من اعتقالنا جميعنا. وهكذا نأمل أن يصل أحدنا إلى تركيا وإن اعتقل رفاقه.

كان الأديغة مشغولين ما إن يظهر مركب على الشاطئ بمساومة صاحبه. وفي المساء حين تهب الرياح مواتية تبحر المراكب ممتلئة بأكثر من طاقتها؛ إما بسبب لفة الأديغة على الوصول إلى تركيا، وإما بسبب جشع أصحاب المراكب. والمركب الذي يتسع لخمسين أو ستين شخصاً يُحشر فيه من ثلاثئة إلى أربعئة. ولم يكن المهاجرون يحملون من الزاد إلا حفنة من الذرة وجرة من الماء. ويستغرق الوصول إلى تركيا من خمسة أيام إلى ستة. ولا يمكن تصوُّر الاضطهاد الذي يلحق بهم من أصحاب المراكب في أثناء قطع هذه المسافة.

وحين تهب العواصف الممطرة تغوص المراكب إلى جوف الماء. والمراكب التي تجهيزها أفضل، أو ركابها قليلون تتسبب الرياح في خضِّ ركابها البؤساء الذين لا يعرفون وجهتهم، وصدِّم بعضهم ببعض حتى ليكاد يعصر بعضهم بعضاً. ولم تكن أوقات الصحو بأفضل، فللمراكب لا تريم من أماكنها لتوقّف الرياح، فينفد زاد المسافر ويقف على شفا الموت جوعاً.

يروى لنا البحارة الأتراك ما يروونه من تعاسات هؤلاء الفارين بأرواحهم فقد غرقت بعض المراكب بركابها. وبعضها مات نصف ركابها فكانت جثثهم ترمى في البحر. ومع ذلك، وبسبب قلة اكتراث هؤلاء الجلبيلين بأنفسهم، وبسبب الذعر الشديد، لا يتوقفون فيغامرون بأرواحهم في هذا الطريق المحفوف بكل هذه المخاطر. والهم الأول لهم هو أن يجدوا أنفسهم في أي مركب بأسرع ما يمكن، مستسلمين لفكرة أن ما يصيبهم هو من الله. فهم في جميع الأحوال، سواء ماتوا في البحر أم على المركب، واثقون من عجزهم عن دفع القدر.

وضُعُ البلاد يبعث على اليأس، وما ينتظره الأديغة على الشاطئ هو وصول المراكب بسرعة. ولم يكن يخطر ببال هؤلاء البؤساء أن يشيّدوا ما يقيهم المطر أو الرياح من ظل أو عريشة، لأن يأساً مطبقاً استولى عليهم. أمرٌ واحد في أذهانهم وقلوبهم وهو الوصول بأسرع ما يمكن إلى تركيا؛ لم يبق أملٌ غيره. يقضون سحابة نهارهم على مرتفع من الشاطئ يرصدون ما يظهر في البحر من مركب ليلفتوا انتباه ربانه بأي طريقة، وليقنعوه بالاقتراب من الشاطئ. وكان بدء

موسم ذوبان الثلج يزيد قلقهم إذ يعلمون جيداً أن الروس سيصلون حالما يذوب الثلج. فيُفقدُهم هذا الخاطر كل أمل.

كنت غادرت "فاردان" بصحبة الربان يعقوب. كنت أقابله كثيراً على الشاطئ في ما مضى، وكثيراً ما نفعني في مناسبات أخرى. أجلسني في مكان أرى منه ما يجري وأسمع ما يقال. ولكن يمكنني أن أقول إني لم أر شيئاً تقريباً بسبب الضباب وما يرافقه من ظلام. كان الرجال ينقلون نساءهم وأطفالهم عبر الماء الذي يغمرهم إلى أوساطهم. ولم يكونوا يتخذون أماكنهم إلا بعد أن يُنزلوا النساء في قلب المركب ويتبوأن محلاتهن.، وكان همُّ يعقوب ألا يبقى مكان شاغر. ولم يكن عاجزاً رغم أن المركب امتلأ عن آخره عن إيجاد مكان لوافد جديد طارئ. والرجال يجلسون على السطح مقرفين حتى ليكادُ البحارة المكلفون بعمل ما على السطح يمشون على رؤوس الركاب.

جلس يعقوب إلى جانبي. رفع الأشرعة وانطلقنا. ليست الريح قوية جداً ولكن سرعة المركب مقبولة. ومع الصباح صرنا في غرض البحر. وفي هذا الوقت فحسبُ استطعتُ أن أعد الركاب واحداً واحداً: كانوا ثلاثمئة وسبعة وأربعين. وعند الظهيرة حدثت جلبة في السفينة. بدا سوادٌ من بعيد. وتبين أنه سفينة. وفيما أراقب السفينة لاحظتُ أن رجال السفينة يتناقشون بجديّة مع أحد المسنين.

- من هذا العجوز الذي يتكلم إلى الأديغة؟- سألت الرُّبَّان يعقوب.

- لا يقول شيئاً مهماً، - أجابني يعقوب بصوت منكسر.

- كيف لا يقول شيئاً مهماً، بل يَحِيلُ إليّ أيّ أنا موضوع الحديث. - لم أوافق يعقوب لأني كنت أرى عيون الناس مصوّبة إليّ. - ماذا يقول، لا تكتم عني!

- نعم، أنت موضوع الحديث، لا يتكلم عليك بأيّ خير. الآن ستفهم كل شيء.

كان أيّ إنسان يمكنه أن يفهم قلقي من الحديث. والآن ألححت على يعقوب أن يخبرني بالحقيقة.

- ما يريد هؤلاء هو أن يرموك في البحر. - قال لي أخيراً - ولكن إن كانت السفينة روسية فقط. - قال لي كي يطمئنني قليلاً. - هم مهمومون بأن الروس

سيحتجزونهم إن وجدوك في السفينة. ولكنهم سيعبرون دون عراقيل إن لم يجدوك.

بدأت أراقب السفينة القادمة وقد فقدت الأمل في النجاة بروحي. وكان يُحِيل إليّ أن النقطة السوداء لا تفارق مكانها. ومن شدة تحديقي بدا لي أنني لم أعد أبصر شيئاً. وأخيراً رأيت علماً تركياً على السفينة، ففرحت جداً لسلامتي. وكان يبدو على الأديغة خجلهم مما كانوا ينوون فعله بي. فتوددوا إليّ شاعرين بالضيق الشديد الذي كنت فيه.

قطعنا شوطاً من الطريق دون حوادث تذكر. لم يحدث لنا أي سوء في اليومين الأولين. واليوم الثالث هو اليوم الذي أُلقيت فيه جثث امرأتين وطفل في البحر قَضُوا عصراً بين الأجساد نتيجة الازدحام. وفي اليوم التالي مات رجلان وامرأة. وبعدهم خمسة عشر شخصاً. وفي اليوم الخامس ظهر الشاطئ التركي. كانت قوانا قد وهنت من التعب والجوع. نفد الزاد في يومين، ولو كتب علينا أن نبقي في المركب وقتاً إضافياً بقدر ما أبحرنا لما وصل نصفنا إلى طرابزون.

كان الثلج ما يزال يغطي قمم جبال ما يُعرف بـ "آسيا الصغرى" ولكن أشجار الزيتون التي على الشاطئ مكلفة بكاملها بالزهر الرمادي. ولاحظنا مع اقترابنا أن مياه الثلوج الذائبة تصب في المنخفضات. وكان هذا يشهد بمنظر جديد ستكتسيه البلاد. مشينا مدة محاذين الشاطئ لأن المرسى كان قرب بلدة "آجي" التي بجانبها فقط يمكننا إنزال النساء والأطفال بأمان. وكانت تظهر أحياناً من القرى غير الكبيرة سطوح البيوت البيضاء ومآذن المساجد. والشراسة يرددون دون انقطاع "الله أكبر" "الله أكبر" يعبرون عن امتنانهم لله الذي أوصلهم أحياء إلى هنا.

سبق لي أن زرت بلدة آجي، ولذا تعرفت بسهولة على القلعة التركية غير البعيدة عنها. هناك كان يجب أن يرسو المركب الذي حملنا. هُجرت القلعة بعد آخر مرة خرجت فيها من تلك البلدة، ولم يبق فيها إلا بضعة أسر من بائعي السمك. رأيت أناساً كثيرين يأتون من اتجاه تلك القلعة حاملين عُصياً علق بأطرافها حشيش مشتعل وهم يصيحون "جورا، جورا"¹، يريدون إرشاد

¹ هي في الأصل لعبة أطفال أديغية.

القادمين الجدد. ولم أستطع أن أفهم ما أرى. ثم، ونحن نقترّب من الشط، تبَيَّن أنهم أديغة وما هو إلا أن سمعنا أصواتهم. وفي الوقت نفسه كانت تنبعث أصوات المناحات من جهة الجبال.

كان على الشط أربعة عشر مركباً شبيهاً بمركبنا. بعضها فارغ يستعد للقفول إلى الشاطئ الآخر وإقلال الأديغة، وبعضها ينزل المهاجرين القادمين الذين سبقونا. كانت وجوههم الشاحبة تشي بالمهالك التي اجتازوها كما اجتازنا. ألقينا المرسى، وجاء الرجال بالنساء والأطفال والجنّامين.

وأخيراً حان دوري: وضعت رجلي على اليابسة وقلبي يفيض فرحاً. كنت قد تعبت جداً، والجوع هديني، وقدماي تَحْمَلَانِي بِمَشَقَّة؛ فمَنْذَ يَوْمَيْنِ لَمْ أَذُقْ شَيْئاً، ولم أشرب ماءً منذ أيام. اقتربت من الماء الذي ينبع من أسفل الجبل، وارتويت، فرجع إليّ العزم. كنت أحاول الوصول إلى طرابزون بأسرع ما يمكن لأني كنت أعرف صعوبة وضعي كغريب بين هذه الجموع.

وعلى ما علمت فقد قضى اثنا عشر ألفاً من الأديغة، ويمكن القول إنهم كل الذين هاجروا شتاءً دون أن يُصْغَوْا إلى نصائحننا. كانت صحتهم تدهورت كثيراً لأن الزاد الذي حملوه لم يكفيهم. انتشرت بينهم الأمراض السارية من جدري وطاعون، فمات كثيرون من سكان تلك البلدة التي لجؤوا إليها طرابزون.

بدأ الأتراك المذعورون من الأمراض التي حملها الأديغة يحجرون عليهم في الشاطئ، ونشروا الجنود لمنعهم من دخول البلاد.

وضعت قدمي على شاطئ آسيا الصغرى في ذروة الهجرة الشركسية. كان في بلدة آجي وحدها خمسة عشر ألفاً منهم. ورغم برودة الجو كانوا يسكنون عرائش من أغصان الزيتون فحسب. ويعيشون بعدما استنفدوا زادهم على القليل من الطعام الذي تجود به تركيا من حين إلى حين.

وقد شهدت كيف كان الطعام يوزع عليهم: جيء بثلاثة مستوعبات للخبز، وُثِرَ إليها معبر ضيق محروس بالجنود. وكان على الأديغة أن يمرّوا بينهم فرادى إلى حيث يحصلون على الخبز. ولكن كان مستحيلاً أن يحظى به كل هؤلاء فلا يكاد يكفي لنصفهم. وعلى النصف الآخر الانتظار إلى الوجبة التالية.

ولما كنت قد تحولت في كل تلك الأماكن التي لجأ إليها المهاجرون اقتنعت في هذه اللحظة بأنهم رغم كل هذا الازدحام كانوا يتبعون بكل صدق نمط معيشة خاصاً بهم: كانوا متوزعين حسب الأسر، وكل أسرة تستوطن ظل شجرة محددة قريبة منها. وكل ما يشهد على " ثروتهم " هو الصندوق الذي يضم بعض ملابسهم وأغطيّتهم، والكيس الذي فيه شيء من الحبوب. يذهب بعضهم للاحتطاب، وآخرون يصممون عرائش من أغصان الأشجار. والنساء الشابلات يجلبن الماء، ويحضرن العشاء، ويرضعن الأطفال، ويجهزن ما سينامون عليه بأن يجمعن أوراق الأشجار. عيون النساء تطفح بالدموع من الوضع الذي وجدن فيه أنفسهن، والعجائز منهن أمام النيران يحضرن شيئاً للطعام، يسلقن بقايا الذرة لأسرهن. والأولاد الذين يسألون عن كل هذه المآسي يلعبون ويمرحون. دعا المؤذن مع الغروب إلى الصلاة. توضع الرجال وتجمعوا عند إمام حملتهم. خلعوا أحذيتهم وتوجهوا إلى الكعبة، وبسطوا فرواتهم أمامهم. كانت الأشعة التي ترمي بها الشمس الغاربة تنير وجوههم فتكسوها بإمارات خوف واضحة.

كان المؤذن يتلو بصوت رفيع آيات من القرآن، ويردد الجميع وراءه. وفي الحال يرمون على ركبهم. وكلما تحرك المصلّون صدر صليل سيوفهم وخناجرهم على نحو واضح. وتشعر بأن هذا العرق القوي حمى حريته إلى أقصى حدود طاقته حتى لو انتصر عليه الروس أخيراً، وبأنهم لم يفتقروا حتى في أسوأ الأحوال إلى القوة والرجولة.

وبعد الأدعية دفنوا الجثامين. كان الجثمان يصل محمولاً على أكتاف أربعة رجال. ووراء النعش رجال حملته، والنساء وراءهم بقليل يندبن المتوفى. كنت رأيت في بلادهم تقاليدهم في دفن موتاهم، ولكن في آجي، وبسبب أنهم يموتون بالجملة، وكانت رائحتهم تفوح، يصبح من الصعب تحمّلهم. يتردد صوت البكاء وصداه بين الجبال فيعصر القلب.

وأخيراً، وبعدما بحثت كثيراً، وجدت العجوز المزوح ذا اللحية البيضاء أحمد الذي دلني عليه يعقوب، والذي سيوصلني إلى طرابزون. ورغم أنهم كانوا يفتشون كل سفن طرابزون فقد وعدني أن يوصلني.

- أنا أستطيع أن أعبر بك أي مكان. - قال لي ليخفف من توجُّسي. -
أليست مهمتي أن أتجاوز خِفيَّةَ مراكب حاكم طرابزون؟ وها أنا أفعل بهم هذا
منذ أربعين سنة. الليلة إذ لا قمر، لا بد أن مصيبة كبيرة حصلت إذا ألقوا
القبض عليّ في ليلة لا قمر فيها.

- ولكن كيف ستنفذ هذا؟

وبدلاً من أن يجيئني اصطحبني في بيته إلى جناح كبير مغطى. وأراني زورقاً طويلاً
كبيراً. وتبين أن هذا الزورق مما يجذّف فيه ثمانية رجال. فاطمأنت. وبدأت
أنتظر الليل بلهفة.

لما حان وقت السفر انضم إلينا بنداء من أحمد اثنا عشر مجذفاً دفعوا الزورق إلى
الماء وانطلقنا.

شرعت أصوات الأديغة تحفت شيئاً فشيئاً. ثم لم يبق أمام عيوننا إلا النار
المرتفعة من أماكن سكنهم. وكلما اقتربنا من طرابزون، لم أكن أستطيع أن أحو
من ذاكرتي، مع أن فرحي كان يزداد، وأمنع نفسي من الإشفاق على الأديغة،
العرق المنحوس الذي كنت في ضيافتهم سنين طويلة، ورفيق سلاح لهم، والذين
أهجرهم الآن إلى الأبد. وكان عجزني عن مساعدتهم في هذا الظرف الدقيق
يحزني جداً.

لم يكن أحمد الذي أركب زورقه عابثاً إلا بشؤونه. لا يُقلقه شيء من كل ما يراه
وما يسمعه. لا يهمله إلا أن تحترق عيناه الضباب.

- كم كان الأديغة المساكين تعساء. - قلت له أريد اختبار لا مبالاته.

- ليس لنا أن نغير شيئاً من أمرهم. هذا ما كتبه الله لهم. أجباني بصوت
هادئ.

- ولكن ألن يقتلهم جميعهم البرد والجوع؟!

- قال العجوز دون أن يقلقه شيء: "بنات الأديغة سيكون أرخص من أي
وقت مضى في سوق إستانبول."